موسوعة

اليهود واليهودية والصهيونية

نموذج تفسيري جديد

عبد الوهاب محمد المسيري

٥



الغلاف الداخلي :

المعبد القلعة في لتسك . كان أعضاء الجماعة اليهودية موضع كراهية الجماهير لأنهم كانوا يمثلون النبلاء الإقطاعيين البولنديين في أوكرانيا ، ويستغلون شعبها لحساب هؤلاء النبلاء . ولهذا السبب كان عليهم أن يعيشوا في حالة تأهب دائم ، خوفاً من هجمات الفلاحين وفرسان القوزاق . فاكتسبت حياتهم طابعاً عسكرياً نبدى بشكل مثير في المعبد القلعة

اليهود
واليهودية
والصهيونية

الطبعـــة الأولـــى
١٩٩٩

رقم الإيداع : ١٥٥٦٠/٩٨
الترقيم الدولى : ISBN: 977 - 09 - 0515 - I
© دارالشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

المجلد الخامس

اليهودية

المفاهيم والفرق

يهوديان يلبسان شال الصلاة (طاليت)، يحمل أحدهما لفائف التوراة ويرتدي على رأسه تميمة الصلاة (تيفلين).

يضم المجلد الثامن دليلاً لاستخدام الموسوعة («آليات الموسوعة») ومفتاحاً للمفاهيم والمصطلحات («تعريفات المفاهيم والمصطلحات الأساسية [مرتبة موضوعياً]») ، وثبتاً تاريخياً بأهم الأحداث الإنسانية وتلك التي تخص الجماعات اليهودية وفلسطين. كما يضم المجلد فهرساً موضوعياً شاملاً بكل المجلدات والأجزاء والأبواب والمداخل ، وآخر ألفبائي عربي ، وثالث ألفبائي إنجليزي .

المحتويات

الجزء الأول : اليهودية : بعض الإشكاليات

الجزء الثاني : المفاهيم والعقائد الأساسية في اليهودية

الجزء الثالث : الفرق اليهودية

الجزء الأول

التحديث

١
إشكالية التركيب الجيولوجي التراكمي والشريعة الشفوية

اليهودية : المصطلح - اليهودية : بعض الإشكاليات - الرؤية اليهودية للكون - اليهودية باعتبارها تركيباً جيولوجياً تراكمياً : التعريف - أسباب تحوُّل اليهودية إلى تركيب جيولوجي تراكمي - مظاهر ونتائج تحول اليهودية إلى تركيب جيولوجي تراكمي - عناصر في اليهودية من الديانات والحضارات الأخرى - العقائد (كمرادف لكلمة «أديان») - العقائد (بمعنى أصول الدين وأركانه) - اللاهوت - الشريعة اليهودية - الشريعة المكتوبة أو التوراة المكتوبة - الشريعة الشفوية أو التوراة الشفوية

اليهودية : المصطلح

Judaism : Term

يشير اليهود إلى عقيدتهم بكلمة «توراة» . أما مصطلح «اليهودية» فيبدو أنه قد ظهر أثناء العصر الهيليني للإشارة إلى ممارسات اليهود الدينية لتمييزها عن عبادات جيرانهم . وقد سك هذا المصطلح يوسيفوس فلافيوس ليشير إلى العقيدة التي يتبعها أولئك الذين يعيشون في مقاطعة يهودا (مقابل «الهيلينية» أي عقيدة أهل هيلاس Hellas . وهكذا بدأ المصطلحان كتسمية للمقيمين في منطقة جغرافية ثم أصبحا يشيران إلى عقيدتهم) . أما الأصل العبري «يهدوت» ، فيعود إلى العصور الوسطى .

وقد أصبحت كلمتا «يهودية» و«توراة» كلمتين مترادفتين ، ولكن ثمة اختلافات دقيقة بينهما . فمصطلح «اليهودية» يؤكد الجانب البشري ، بينما يؤكد مصطلح «التوراة» الجانب الإلهي . ولذا ، يمكن الحديث عن «اليهودية العلمانية» بينما يصعب الحديث عن «التوراة العلمانية» . ومن الجدير بالذكر أن المصطلح الشائع في الولايات المتحدة والعالم هو «اليهودية» ، أما مصطلح «توراة» فقد اختفى تقريباً إلا بين المتخصصين والأرثوذكس . كما تشير كلمة «التوراة» إلى الجوانب الثابتة اللادنيوية في اليهودية ، ويُستخدَم مصطلح «يهودية» للإشارة إلى الجوانب التاريخية المتغيِّرة وإلى تفاعُل اليهودية مع الحضارات الأخرى . ومن هنا ، يمكن الحديث عن «اليهودية الحاخامية» و«اليهودية الهيلينية» ، ولا يمكن الحديث عن «التوراة الحاخامية» مثلاً . ويرى دارسو الدين اليهودي أن إطلاق مصطلح «يهودية» على تلك المرحلة من تاريخ اليهودية التي تسبق تدوين العهد القديم يتضمن تناقضاً تاريخياً ، فهي مرحلة سديمية لم تكن قد تشكلت فيها بعد معالم اليهودية ، ولم يكن العبرانيون فيها قد صاروا يهوداً ، ولذا فنحن نطلق على تلك المرحلة «مرحلة عبادة يسرائيل» ، ثم «العبادة القربانية المركزية» بعد تأسيس الهيكل .

وتشير أدبيات جماعة الناطوري كارتا إلى «يهودية التوراة» (بالإنجليزية : توراه جودايزم Torah Judaism) بمعنى «اليهودية الأصلية» أو «اليهودية الأرثوذكسية» ، وهم يفضلون استخدام مصطلحهم لأنه قد ولِّد من داخل المنظومة اليهودية ، على عكس كلمة «أرثوذكسية» ذات النكهة المسيحية .

اليهودية : بعض الإشكاليات

Judaism : Some Problematics

للنسق الديني اليهودي سمات جوهرية مقصورة عليه تفصله عن العقائد التوحيدية الأخرى ، وتثير قضايا إشكالية عميقة . ويمكن إيجاز بعض هذه السمات فيما يلي :

١ ـ تتميَّز اليهودية ، كنسق ديني ، بعدم تجانسه نظراً لظهورها في مرحلة متقدمة نسبياً من التاريخ ونظراً لاستيعابها كثيراً من العناصر الدينية والحضارية من سائر الحضارات التي وُجدت فيها ، فقد استوعبت الكثير من العناصر من الحضارات المصرية والآشورية . ثم تأثرت تأثراً عميقاً بالإسلام والمسيحية ، وبخاصة بعد سقوط الهيكل واختفاء أي مركز ديني أو زمني لليهودية (أو اليهود) . وقد تأثر مؤلفو التلمود وكتب القبَّالاه بالعقائد الشعبية والخرافية ، وكل هذا جعل اليهودية تشبه التركيب الجيولوجي الذي تَشكَّل من خلال تراكم عدة طبقات ، الواحدة فوق الأخرى . ونظراً لعدم التجانس ، ولاحتواء اليهودية على عناصر شتى ، نجد أن من الصعب تعريف هوية اليهودي . فمن الممكن ، حسب الشريعة اليهودية ، أن يكون المرء ملحداً ويهودياً معاً في الوقت نفسه نظراً لأن الشريعة ترى أن اليهودي هو من وُلد لأم يهودية ، وهذا أمر لا يوجد في المسيحية ولا في الإسلام ، حيث تنتفي صفة الانتماء للدين إذا أنكر الإنسان وجود الإله ، حتى ولو وُلد لأبوين مسيحيين أو مسلمين .

٢ ـ رغم وجود تقاليد شفوية في كثير من العقائد والديانات ، إلا أن

اليهودية تتسم بأن تقاليدها الشفوية أصبحت أكثر من مجرد تقاليد ، فقد أصبحت «شريعة شفوية» تعادل «الشريعة المكتوبة» في المنزلة ، بل تتفوق عليها وتجُبّها .

٣ ـ رغم أن العقيدة اليهودية تتضمن نزعة توحيدية قوية ، إلا أن معدلات الحلولية أخذت تتصاعد داخلها حتى أصبحت الطبقة الحلولية (داخل التركيب الجيولوجي التراكمي اليهودي) أهم الطبقات طراً ، وانتهى الأمر بأن هيمنت الحلولية على العقيدة اليهودية فأصبحت عقيدة توحيدية اسماً ، حلولية فعلاً ، وأصبحت عقيدة ذات نزعة غنوصية قوية .

٤ ـ استولت الصهيونية على العقيدة اليهودية تماماً بحيث خلقت في ذهن الكثيرين ترادفاً شبه كامل بين الصهيونية واليهودية ، رغم أن آباء الصهيونية الأوائل كانوا من الملاحدة . وقد نجحت الصهيونية في تطوير خطاب حلولي مراوغ سمح بتجنيد اليهود الأرثوذكس .

وثمة إشكاليات أخرى وثيقة الصلة بالثلاث التي ذكرناها (مثل : العلمانية والتبشير ـ اليهودية الإلحادية) سنتناولها طي هذا المجلد ، وسنكتفي بتناول الإشكاليات الثلاث التي أشرنا إليها في هذا الجزء ، باعتبارها أهم الإشكاليات .

الرؤيـــــة اليهوديـــــة للـــكون

Jewish Cosmogony and Cosmology

تشير الكلمتان «كوزموجوني» و«كوزمولوجي» إلى التأملات الخاصة بأصل العالم وتطوره وبنيته . وكلمة «كوزموس» اليونانية تعني «الكون» أو «النظام» . أما شق «جوني» ، فمن الجذر اليوناني «جيجنستاي» ويعني «ينتج» ، ومن ثم فإن كلمة «كوزموجوني» تعني «ولادة أو أصل أو خلق العالم» . أما شق «لوجي» فمن كلمة «ليجاين Hegein» تعني «يتحدث» . والكوزموجوني نظرية أو وصف خلق العالم . أما الكوزمولوجي ، فهي النظرية أو الفلسفة الخاصة بطبيعة ومبادئ الكون . وكلتا النظريتين تشملان التأملات الخاصة بأصل العالم وتطوره وبنيته . وترى اليهودية أن الإله خلق العالم ، ولكن ما عدا ذلك هو أمر خلافي ، إذ توجد داخل النسق الديني اليهودي عدة صور متناقضة لأصل العالم وبنيته . فالعهد القديم يقدم رؤى عديدة للإله ليست متسقة بالضرورة . أما التلمود ، فقد استوعب صوراً عديدة من الحضارات المحيطة سواء الوثنية أو الإسلامية أو المسيحية ، ودوّن كثيراً من الأساطير الشعبية وحولها إلى معتقدات دينية . فهناك قصة الخلق ، وإلى جانبها أسطورة ليليت ، وكذا شجرة المعرفة والخير والشر . وإذا كان هناك يهوه إله العالمين ، فهناك أيضاً شريكه عزازيل . والعالم له معنى في كثير من المقطوعات ، ولكنه بلا معنى في مقطوعات أخرى . وهذا يعود إلى طبيعة التركيب الجيولوجي لليهودية . وقد ازدادت الرؤية اضطراباً مع ظهور القبَّالاه التي حولت كثيراً من الأساطير الفلكلورية إلى رؤية للكون ، كما هو الحال في فكرة «آدم قدمون» ، أو «تهشُّم الأوعية (شفيرات هكليم)» ، أو «تبعثُر الشرارات (نيتسوتسوت)» ، أو «إصلاح الخلل الكوني (تيقون)» ! وقد حولت القبَّالاه اليهود إلى قوة كونية وجودها أساسي لاسترجاع الشرارات وعملية إصلاح الخلل الكوني .

وفي العصر الحديث ، لا يمكن الحديث عن رؤية يهودية واحدة للكون ، إذ تنوعت المصادر الفلسفية للمفكرين الدينيين اليهود ، وانقسمت اليهودية إلى فرق تختلف في رؤيتها ، الواحدة عن الأخرى ، بشكل جوهري .

اليهـودية باعتبار ها تركيبـا جيولوجـيا تراكمـيا : التعريف

Judaism as a Cumulative Geological Construct: Definition

«التركيب الجيولوجي التراكمي» عبارة نستخدمها لنصف عمق عدم التجانس ، بل التناقض الداخلي الحاد الذي تتسم به اليهودية كنسق ديني (كما نشير إلى ما يُسمَّى «الهوية اليهودية» باعتبارها هي الأخرى تركيباً جيولوجياً تراكمياً) . ومن المعروف أن الأنساق الدينية التوحيدية ، مثل الإسلام والمسيحية ، تتسم بقدر من التنوع في الممارسات الدينية وفي الاختلافات على مستوى النظرية ، فينقسم أتباع كل نسق إلى شيع وفرق ومذاهب لكلٍّ تفسيرها ، وقد تندلع بينها الحروب أحياناً . وقد شهد الإسلام في بداية العصر الإسلامي اختلافات بين الصحابة أنفسهم على بعض القضايا الدينية ، ثم ظهرت بعد ذلك فرق مختلفة مثل الخوارج والشيعة ، مقابل الأغلبية السُّنِّية التي ظهرت بين أعضائها المذاهب الأربعة ، هذا بخلاف الاجتهادات المختلفة . والمسيحية تتسم بالخاصية نفسها – ربما بشكل أكثر عمقاً – فهناك عدد من الكنائس ، مثل : الكنيسة القبطية ، والكنيسة الأرثوذكسية الروسية ، والكنيسة الأرمنية ، ثم الكاثوليكية الرومانية . وقد شهدت المسيحية أيضاً الانقسام الأكبر مع ظهور البروتستانتية التي تتسم بالانشقاقات والانقسامات الدائمة .

ولكن ، رغم هذا ، يظل التنوع داخل إطار مبدئي من الوحدة إذ يوجد حد أدنى في الإسلام مثلاً بشكل معياراً يمكن عن طريقه تفرقة المسلم عن غير المسلم . فالنطق بالشهادتين ، عند المسلمين ، أمر أساسي لا اجتهاد فيه ولا اختلاف ، والإيمان بالبعث واليوم الآخر هو أيضاً جزء من هذا الحد الأدنى . فمهما بلغت

الاختلافات، ومهما تصاعدت التناقضات، فإن هذا يظل معياراً أساسياً، ولا يمكن لأحد أن يُسمِّي نفسه «مسلماً» إذا أنكر وحدانية الله، وأن محمداً رسول الله، أو إذا أنكر اليوم الآخر والبعث. ولا يمكن أن يُسمِّي أحد نفسه «مسيحياً» إن أنكر حادثة الصلب.

ولا شك في أن الأنساق الدينية التوحيدية قد تفاعلت فيما بينها كما تفاعلت مع الحضارات الأخرى. فقد مَثَّل علم الكلام عند المسلمين، والعقلانية الإسلامية، محاولة من جانب الفكر الإسلامي للاستجابة لتحدٍّ حضاري طرحه فكر الآخر (الفكر الفلسفي اليوناني). وفي عملية الاستجابة، تم تبنِّي مقولات مفاهيمية وفلسفية من النسق الآخر. ولكن مثل هذه العناصر الجديدة ظلت دائماً على مستوى الخطاب والمصطلح، وتم استيعابها وهضمها تماماً بحيث أصبحت جزءاً من الكل. أما ما يتنافى مع جوهر النسق الديني، فقد أصبح هامشياً وغير مؤثر، أو رُفض تماماً. ويمكن أن نضرب أمثلة من المسيحية، وخصوصاً الكاثوليكية، التي استوعبت الكثير من العناصر الفكرية والرمزية من الحضارات التي احتكت بها ورفضت كثيراً من العناصر الأخرى، ولكنها حاربت الهرطقات المختلفة مثل الهرطقة الغنوصية والألبنيزية التي تشكل انحرافاً عن جوهر الإيمان المسيحي في تصوُّرها.

واليهودية في تصورنا تختلف عن المسيحية والإسلام في هذا المضمار. فهي تشبه التركيب الجيولوجي المكون من طبقات مستقلة، تراكمت الواحدة فوق الأخرى، ولم تُلغ أية طبقة جديدة ما قبلها. وهي طبقات تتجاور وتتزامن وتوجد معاً لكنها لا تتمازج ولا تتفاعل ولا تُلغي الواحدة منها الأخرى ولا يتم استيعابها في إطار مرجعي واحد. وقد سُمِّيت كل هذه الطبقات بـ «الدين اليهودي».

ومع أن عبارة «التركيب الجيولوجي التراكمي» من صياغتنا نحن، إلا أن التشبيه نفسه مُتضمَّن فيما يُسمَّى «نقد العهد القديم» حيث يفترض دارسو العهد القديم أنه تكوَّن من تراكم مصادر مختلفة (طبقات جيولوجية مختلفة) لكلٍّ رؤيته ومصطلحه، ولكلٍّ أسلوبه ولغته، بل عقيدته، ولكلٍّ مؤلِّفه أو مدوِّنه، وأن هذه الطبقات أو المصادر تراكمت الواحدة فوق الأخرى وتعايشت جنباً إلى جنب. وقد حدد البعض المصادر الأساسية بأربعة مصادر، وحددها آخرون بثمانية، كما بيَّن بعض النقاد أن بعض المصادر قد فُقدت ولكن بالإمكان التعرف عليها من خلال النصوص الموجودة. كما أن ترجمات العهد القديم، ومخطوطات البحر الميت، تشكل شواهد على تركيب اليهودية الجيولوجي التراكمي وعلى التناقض بين المصدر اليهوي (الحلولي) والمصدر الإلوهيمي (التوحيدي أو شبه التوحيدي) الذي وضحه نقاد العهد القديم، الأمر الذي يبين إدراكهم للخاصية الجيولوجية بدون تسميتها. وفي تصورنا، فإن ما يراه نقاد العهد القديم منطبقاً عليه وحده ينطبق في الواقع، ويشكل أكثر حدة، على مختلف الكتب اليهودية المقدَّسة الأخرى وشبه المقدَّسة. فالتلمود يفوق في ضخامته العهد القديم، وهو بكل تأكيد تركيب جيولوجي تراكمي يتسم بدرجة هائلة من عدم التجانس ومن التنافر بين أجزائه. فهو كتاب دين واقتصاد وطب وسحر وتقوى دينية راقية وإيمان بالمساواة بين البشر نابعة من درجة عالية من التوحيد وعنصرية شرسة نابعة من رؤية حلولية موغلة في الحلول والكمون. أما كتب القبَّالاه ومدوناتها، فهي أكثر في تراكميتها الجيولوجية وفي عدم تجانسها. وبالتالي، يمكننا أن نقول بكثير من الاطمئنان إن توصيفنا لليهودية بأنها ليست كياناً عضوياً (وإنما تركيب جيولوجي تراكمي) هو توصيف صحيح.

وقد شبَّه أحد الحاخامات التوراة بشجرة الحياة التي تضم كل شيء، وبهذا تُكوِّن كلها وحدة عضوية. ولذا قد يُحرِّم أحد الحاخامات شيئاً فيحلله آخر، فيعلن أحدهما أن هذا الشيء نجس ويقول الآخر إنه طاهر. والواقع - حسب رؤية هذا الحاخام - أن كل هذه الفتاوى جزء من الكل العضوي. لكن هذا التشبيه، أي تشبيه اليهودية بالكائن العضوي، غير دقيق بالمرة، ولعل التشبيه بعبارة «التركيب الجيولوجي التراكمي» أكثر دقة، فهي تُفسِّر التناقض وعدم التجانس، الأمر الذي قد تقصر عنه الصورة المجازية العضوية التي لا تقبل التناقض، بل تفترض قدراً كبيراً من الوحدة الداخلية التي تتبدَّى في تشكيل موحَّد خارجي. وقد تسمح الصورة المجازية العضوية ببعض أشكال الاختلاف ولكن لابد أن تنتظمها كلها في نهاية الأمر وحدة شاملة.

ولعل أصدق مَثَل على ماتقول هو الفرق بين فكر موسى بن ميمون والقبَّالاة اللوريانية. ففكر ابن ميمون فكر توحيدي راق متأثر بالتوحيد الإسلامي، وقد صاغ أصول الديانة اليهودية على أساس هذا التوحيد، هذا على عكس القبَّالاه اللوريانية التي طرحت تصوراً للإله والكون ينطوي على كثير من الحلولية الوثنية والشرك ويحتوي على أصداء كثيرة (مشوهة) لعقائد الصلب والتثليث المسيحية. ورغم التناقض الشديد والعميق والجوهري بين الرؤيتين، فإن النسق الديني اليهودي قد استوعب هذه العقائد وجعل الإيمان بها شرطاً للإيمان، بينما يتحدث ابن ميمون عن إله واحد، وتتحدث القبَّالاه اللوريانية عن إله يتكون من أب وأم يتزاوجان، وعن تجلٍّ إلهي يأخذ شكل الشخيناه (التعبير الأنثوي عن الذات الإلهية) التي تجلس إلى

حواره على العرش ويتخاطب معها ، ولكننا نكتشف أيضاً أنها الشعب اليهودي . ولذا حينما يُنفى هذا الشعب تُنفي معه الشخيناه . وقد حل محل كل هذا الفكر الديني اليهودي الحديث الذي يعبِّر عن حلولية بدون إله (وحدة الوجود المادية) ، حيث يحل الإله في المادة ويتوحد معها ثم يموت داخلها ولا يبقى سوى المقدَّسات المادية (بدون إشارة إلى إله متجاوز أو كامن) .

وفكرة التركيب الجيولوجي تتبدَّى في الحقيقة التي يشير إليها إسبينوزا وهي أن الصدوقيين (الذين كانوا لا يؤمنون بالبعث أو اليوم الآخر ويصفهم علماء اليهود بالزندقة) كانوا يجلسون ، في القرن الأول قبل الميلاد ، جنباً إلى جنب مع الفريسيين في السنهدرين . ويمكن أن نشير نحن إلى رفض دار الحاخامية الرئيسية في إسرائيل الاعتراف بالحاخامات الإصلاحيين والمحافظين والتجديديين أو بصلاحيتهم في إجراء أية شعائر دينية ، ومع هذا لا يزال الإصلاحيون والمحافظون يشكلون الأغلبية الساحقة بين اليهود المتدينين . وقد صرح الحاخام ملتون بولين بأنه لا توجد يهودية واحدة وإنما هناك يهوديتان : اليهودية المحافظة والإصلاحية من جهة، واليهودية الأرثوذكسية من جهة أخرى .

ومع هذا ، يمكننا أن نقول إن أهم الطبقات داخل التركيب الجيولوجي التراكمي اليهودي هي الطبقة الحلولية التي ترى الإله حالاً في الكون (الإنسان والطبيعة) كامناً فيهما ، وهو ما يؤدي إلى الواحدية (المادية) الكونية التي تنكر التجاوز على الإله بحيث يصبح لا وجود له خارجها . وقد كانت هذه الطبقة كامنة في أسفار موسى الخمسة (وخصوصاً المصدر اليهوي) وحارب ضدها كُتّاب المصدر الإلوهيمي والأنبياء . ولكنها عادت لتزداد قوةً مع التلمود ثم أصبحت النموذج الأساسي والنقيمة الحاكمة مع هيمنة القبَّالاه . ومع تصاعد العلمانية ، ظهرت الحلولية بدون إله التي تزعم أنها الطبقة الجيولوجية الأساسية في تفكير المثقفين اليهود المحدثين . وتاريخ اليهودية الذي نطرحه هو في واقع الأمر تاريخ تزايد درجات الحلولية، إلى أن نصل إلى مرحلة الحلولية بدون إله وهي وحدة الوجود المادية (في عصر الحداثة وما بعد الحداثة) .

وأدّى إخفاق كثير من المفكرين الغربيين في فهم طابع اليهودية الجيولوجي (بسبب خلفيتهم المسيحية) إلى تركيزهم على التوراة بالدرجة الأولى ، وخصوصاً كتب الأنبياء ، وإدراكهم اليهودية من خلال هذا المنظور وحده . إذ أهملوا التلمود ولم يسمعوا عن القبَّالاه ولا اسمها ، وهو منظور جزئي مقدرته التفسيرية ضعيفة إلى أقصى حد .

وقد يذهب البعض إلى أن ما نسميه «التركيب الجيولوجي التراكمي» هو في واقع الأمر تعبير عن شكل من أشكال التعددية ، وهو أمر يَصعُب قبوله . فالتعددية تفترض وجود قدر من الوحدة المبدئية ، ويتم التنوع والتعدد داخل هذه الوحدة ، فلا تَنوُّع دون تَحدُّد ، ولا تعدُّد دون قدر من الوحدة . لكن اليهودية ـ كما أوضحنا ـ تفتقر إلى مثل هذه الوحدة بسبب غياب أية معايير مركزية يهودية .

أسباب تحول اليهودية إلى تركيب جيولوجي تراكمي

Judaism as a Cumulative Geological Construct : Causes

تتسم اليهودية كنسق ديني بأنها تركيب جيولوجي تراكمي وليست وحدة عضوية متجانسة ، وهذا يعود إلى عدة أسباب نجملها فيما يلي :

١ ـ لعل أهم الأسباب التي أدَّت إلى ظهور هذه الخاصية الجيولوجية التراكمية أن العهد القديم بكل أجزائه لم يُدوَّن إلا بعد نزوله (أو وضعه) بفترة طويلة . وإذا كان التاريخ الافتراضي للخروج هو عام ١٢٠٠ ق.م ، فإن هذا يعني أنه لم يُدوَّن إلا بعد ذلك التاريخ بمئات السنين ، كما يعني أنه دُوِّن على عدة مراحل ومن خلال مصادر مختلفة . ولم تُعتمد النسخة التي تُسمَّى «القانونية» ، أو «المعتمدة» ، إلا بعد المسيح . ومن أهم الأدلة على ذلك مخطوطات البحر الميت التي تتضمن أكثر من نسخة مختلفة للسفر الواحد بصياغات متعددة . وحينما تم تدوين الكتاب المقدَّس ، كانت قد دخلت اليهودية مفاهيم وشعائر مختلفة وأصبحت جزءاً لا يتجزأ منها .

٢ ـ انتقل العبرانيون القدامى (كبدو رحل) من مكان إلى آخر ، ومن حضارة إلى أخرى ، من مصر إلى كنعان عبر سيناء ، ومن كنعان إلى بابل ، وعبر هذه الرحلة تعرفوا على الفكر التوحيدي في الحضارة المصرية في عهد إخناتون ، وفي سيناء (بين المديَنيين) ، ثم استوعبوا الحضارة الكنعانية ومن بعدها العبادة البابلية . وبعد ذلك ، هيمنت فارس على الشرق الأدنى القديم وتبعتها اليونان . ودخلت اليهودية عناصر من كل هذه الحضارات بعباداتها المختلفة .

٣ ـ لم تتمتع العقيدة اليهودية بوجود سلطة تنفيذية مركزية تساندها وتتخذ منها عقيدةً وأساساً للشرعية . ونتج عن ذلك انعدام وجود سلطة دينية مركزية تحافظ على جوهر الدين وتبلور مفاهيمه ومعاييره. وفي الفترة القصيرة التي أُسِّست فيها المملكة العبرانية المتحدة وقامت فيها سلطة دينية مركزية حول الهيكل ، لم تكن العبادة اليسرائيلية قد تبلورت بعد ، كما يتضح في سلوك سليمان

الذي سمح لزوجاته باستخدام آلهتهن وكهنة عباداتهن . ولم تُعمِّر السلطة المركزية طويلاً إذ تأسَّس مركز آخر في بيت إيل بعد انقسام المملكة إلى مملكتين . وقد ازداد بعد ذلك تعدُّد المراكز والتبعثر مع انتشار الجماعات اليهودية في العالم ، حين ظهر مركز ديني قوي في بابل (يتحدث الآرامية) وآخر في مصر لا يعرف العبرية ويتحدث اليونانية . وقد تم كل هذا قبل تبلور اليهودية بل قبل الانتهاء من تدوين وتقنين العهد القديم . ومن هنا ، فحتى إذا كان في الإسلام أو المسيحية انقسامات وتنوعات ، فإنه يظل هناك موقف أصولي أو مركز أرثوذكسي يحدِّد المؤمن والمهرطق أو الكافر . أما في اليهودية ، فمع غياب هذا المركز ، كان المهرطقون يستمرون في تجديفهم ويسمونه «يهودية» ، حتى إذا ما وصلنا إلى العصر الحديث وجدنا أن عدد الأرثوذكس لا يزيد على ٤٪ من مجموع يهود العالم ، ويوجد ملايين من اليهود الملاحدة أو اللا أدريين أو غير المكترثين بالدين الذين يسمون أنفسهم مع هذا «يهوداً» .

٤ ـ مع سقوط المملكة الجنوبية والتهجير البابلي ، انتهت العبادة القربانية المتمركزة حول الهيكل . ولكنها مع هذا تركت طبقات جيولوجية مهمة في اليهودية التلمودية على شكل عدد هائل من الطقوس والمدونات ، مثل : القوانين الخاصة بالكهنة ، وبعض الشعائر كالسنة السبتية ، وكثير من الصلوات .

٥ ـ ولكن العنصر الأساسي والحاسم الذي أدَّى إلى ظهور الخاصية الجيولوجية التراكمية هو مفهوم الشريعة الشفوية الذي أضفى قداسة على فتاوى فقهاء اليهودية وتفسيراتهم ووضعها في مرتبة أعلى من كتاب اليهود المقدَّس نفسه . وقد ظهرت مدارس ونظريات في التفسير لا حصر لها ولا عدد ، بعضها ينكر أية علاقة بين الدال والمدلول ، أي بين كلمات العهد القديم ودلالاتها المباشرة ، بحيث أصبح في وسع المُفسِّر (من خلال التفسير الرمزي أو التفسير القبَّالي أو التفسير الرقمي) أن يفرض أي معنى يشاء .

٦ ـ وكانت اليهودية عبر تاريخها ، حتى ظهور اليهودية الحاخامية ، تكتسب هويتها من أنها ديانة تنزع إلى التوحيد في محيط وثني مشرك . ولكنها حينما وجدت نفسها في تربة توحيدية ، إسلامية أو مسيحية ، حاولت أن تشكِّل هوية جديدة تستند إلى تصوُّر أسطوري حلولي للواقع ، كما يتضح بشكل جنيني في التلمود ، وبشكل واضح جليّ في القبَّالاه . ورغم ظهور الفكر الأسطوري ، فإن هذا الفكر الأسطوري لم ينبذ الفكر التوحيدي وإنما حاول أن يتعايش معه .

٧ ـ ظلت اليهودية ، لفترة طويلة من تاريخها ، مجرد ممارسات طقوسية تحكمها إما سلطة مركزية أو فتاوى الحاخامات دون أن يتم تحديد العقائد الأساسية . وحينما قام موسى بن ميمون في القرن الثاني عشر بتحديد أصول الدين اليهودي ، فإن كثيراً من العقائد أو المعتقدات الفلكلورية الحلولية الوثنية كانت قد وجدت طريقها بالفعل إلى العهد القديم والتلمود . وعلى كلٍّ ، لم يُكتَب لمحاولة موسى بن ميمون أن تهيمن على اليهودية وتكتسب المركزية التي تستحقها ، حتى يتم استبعاد العقائد المنافية للتوحيد . ولكن ما حدث هو أن الاجتهاد الميموني كان مجرد طبقة جيولوجية جديدة تضاف إلى الطبقات الأخرى السابقة واللاحقة . ثم زادت هيمنة القبَّالاه بعد هذه المحاولة بفترة قصيرة .

٨ ـ لكن انتقال مركز اليهودية إلى تربة مسيحية تؤمن بالتثليث (واحد في ثلاثة أو ثلاثة في واحد) لم يساعدها كثيراً على التطور ، إذ أن الفكر الديني بدأ يتصور الإله وكأنه يتجلى تجليات مختلفة (التجليات النورانية العشرة أو السفيروت) . وقد وُلدت هذه التصورات في أحضان التفكير القبَّالي الشعبي الذي كان يتأثر بالأفكار الدينية المسيحية دون أن يستوعبها ثم ينقلها إلى تربة يهودية فيتم تشويهها .

٩ ـ كان اليهود في العالم الغربي الذي انتقل إليه مركز اليهودية ، مع نهاية العصور الوسطى ، جماعة وظيفية وسيطة منعزلة لا تتمتع بمستوى ثقافي رفيع ، في مجال التنظير الديني على الأقل . كما أن هذه الجماعة لم تكن تشعر بالطمأنينة ، وهذا ما جعلها تنغلق على نفسها ، وقد انعكس هذا على النسق الديني اليهودي إذ بدأت الطبقات تزداد تنوعاً وتبتعد عن التجانس .

١٠ ـ ظلت اليهودية ـ بكل طبقاتها الجيولوجية المتراكمة ـ متمركزة داخل الجيتو . وقد تصالح التراث التلمودي والتراث القبَّالي داخل مؤسسة اليهودية الحاخامية ، وإن كانت علامات التوتر قد ظهرت بينهما في الصراع بين الحسيديين والمتجديم . وجاء الإصلاح الديني البروتستانتي ، لكنه لم يؤثر كثيراً في اليهودية التي كانت مراكزها موجودة في شرق أوربا (أساساً) في تربة أرثوذكسية بمنأى عن التغيرات الفكرية والبنيوية التي كانت تحدث في القارة الأوربية . وحينما اندلعت الثورة الفرنسية وبدأت عملية تحديث اليهودية ، لم يكن النسق الديني اليهودي مهيأً لذلك ، وخصوصاً أن أوربا ذاتها كانت قد طرحت الإصلاح الديني وراءها وبدأت تتخلى عن الرؤية الدينية وتدخل عالم العلمانية الحديث الذي لا يكترث كثيراً بالدين بل يحوله إلى اقتناع شخصي يُمارَس في المنزل ولا ينظم السلوك الاجتماعي بأية حال . وفي مواجهة ذلك التحدي الأكبر ، تآكل التركيب الجيولوجي التراكمي اليهودي تماماً إذ أن الإصلاح الديني

اليهودي ، الذي أخذ شكل اليهودية الإصلاحية ، كان في واقع الأمر محاولة لعلمنة اليهودية لا لإصلاحها . ولذا ، فقد أسقط كثيراً من الشعائر والعقائد التي تتنافى مع العقل والمنطق ، وحاول أن يعيد صياغة اليهودية حسب مقاييس بروتستانتية شبه علمانية . كما انتشر الإلحاد بين كثير من اليهود واستمروا ، مع هذا ، في تسمية أنفسهم «يهوداً» ، ذلك أن الشريعة اليهودية تعترف بهم كيهود ، فاليهودي هو من وُلد لأم يهودية .

١١ ـ لاحَظ أحد الباحثين أن المجتمعات الصغيرة (والهامشية) هي عادةً مجتمعات تحتفظ بكل شيء ، فهي مجتمعات لا شخصية . ففي واحة سيوة لا تزال توجد بعض العادات والمفاهيم التي تعود إلى أيام الفراعنة واليونانيين . وإذا قبلنا هذا الرأي ، فيمكن القول بأن اليهودية كانت دائماً تتحرك في تربة المجتمعات الصغيرة (المجتمع العبراني قبل التهجير ـ الجيتوات اليهودية في أنحاء العالم) . ولهذا السبب تعمقت الخاصية الجيولوجية . كما يُلاحَظ أن أعضاء الجماعات الوظيفية حينما ينتقلون من مجتمع إلى آخر يحملون معهم بعض الأشكال الحضارية من المجتمع السابق ، والتي تتكلس تماماً بمرور الوقت وتتحول إلى طبقة جيولوجية جديدة .

مظاهر ونتائج تحول اليهودية إلى تركيب جيولوجي تراكمي

Judaism as a Cumulative Geological Construct: Manifestations and Consequences

تتسم اليهودية ، كتركيب جيولوجي تراكمي ، بأنها تنطوي على تناقضات حادة وعلى غموض شديد في بعض المفاهيم ، ولنأخذ مفهوماً محورياً كمفهوم الإله مثلاً . تُصنَّف اليهودية باعتبارها ديانة توحيدية ، غير أن العهد القديم يتضمن من النصوص ما يتناقض مع هذا إذ يُفهم منها أن ثمة آلهة غير يهوه ، وتُستخدَم صيغة الجمع «إلوهيم» ومفردها «إيلوَه» ، وتتبع الاسم صفة في صيغة الجمع («إلوهيم إحيريم» أي «آلهة أخرى») ، وهو ما تحاشاه مترجمو النسخة السبعينية للإشارة إلى الإله ، حيث يتحول «إلوهيم» إلى اسم من أسماء الإله . والإله ، في بعض المقاطع ، يسمو على العالمين والبشر ويتجاوز الطبيعة والتاريخ ، ولكنه في البعض الآخر يحل في الطبيعة والتاريخ ويتوحد معهما ويتسم بصفات البشر . وفي اللقاء بين الإله وموسى على جبل سيناء ، لا تحدد المصادر التلمودية ما إذا كان موسى شاهده وجهاً لوجه وهل اشترك الشعب في الرؤية ، أم أنه لم يشاهده أحد (أي هل ظل الإله متجاوزاً لا تدركه الأبصار أم أنه تجسد فرآه موسى ؟) . ويتبدَّى اختلاط رؤية العهد القديم بالإله في الإشارة إلى الترافيم (الأصنام) فترة إشارات إيجابية وإشارات سلبية ، فليس هناك موقف حاسم منها يحدد ما إذا كانت موضع قبول أو موضع رفض . والإشارة إلى عزازئيل تتضمن أيضاً وجود قوى مطلقة إلى جوار الإله .

وقد ظل هذا التناقض العميق يسم الرؤية اليهودية ، ففي التلمود تُنسب إلى الإله صفات بشرية عديدة ، وهو غير معصوم من الخطأ أو الندم ، بل إن إرادته لا تعلو على إرادة الحاخامات . أما في تراث القبَّالاه ، فينفرط عقده تماماً ليتحول إلى تجليات مختلفة ، وإلى عناصر ذكورة وأنوثة بما يشبه الآلهة الوثنية اليونانية أو الرومانية في بعض النواحي . وتظهر الخاصية الجيولوجية أيضاً في الأفكار الأخروية التي لم تستقر تماماً في اليهودية ولم تكتسب شكلاً محدداً . فالعهد القديم ، بكامله تقريباً ، ينكر فكرة البعث حيث لا تظهر هذه الفكرة بشكل محدد إلا في كتاب دانيال (في مرحلة متأخرة) ، كما أنها لم تستقر استقراراً كاملاً في الفكر الديني اليهودي . والشيء نفسه ينطبق على فكرة الثواب والعقاب . ولهذا فإننا ، عند ظهور المسيح ، نجد العديد من الفرق اليهودية المتنافرة ، ومن بينها الصدوقيون الذين كانوا ينكرون البعث واليوم الآخر ، رغم أنهم كانوا يشكلون فئة دينية مركزية في غاية الأهمية ، فكان منهم الكهنة كما كانوا يجلسون مع الفريسيين في السنهدرين . وقد أشار إسبينوزا ، فيلسوف العلمانية والحلولية ، إلى هذه الحقيقة ليدلل بها على أن الإيمان بالآخرة ليس أمراً جوهرياً في اليهودية .

وتتبدَّى الخاصية الجيولوجية في مفاهيم محورية أخرى مثل حائط المبكى . فالفقه اليهودي لم يهتم على الإطلاق بحائط المبكى أو الحائط الغربي . ولهذا ، لم يأت له ذكر في الكتابات الدينية أو كتب الرحالة . ولكن ، يبدو أنه بتأثير فكر يهود المارانو الحلولي الذي يتبدَّى في شكل تقديس للأشياء التي يفترض أن الإله يحل فيها ، وتحت تأثير الشعائر الإسلامية حيث تُعد فريضة الحج إلى الكعبة أحد أسس الإسلام الخمسة ، تحول الحائط إلى مزار ، ثم أصبح من أهم الأماكن قداسة في العقيدة اليهودية ، وأصبح الاستيلاء عليه في رأي بعض المتمسكين بأهداب العقيدة اليهودية فرضاً دينياً . ومع هذا ، فإن الحاخام الأرثوذكسي هيرش ، الذي يعيش على بعد عدة خطوات من الحائط ، يرفض زيارته ، وذلك لأن الشريعة اليهودية (كما يرى) تُحرِّم ذلك على اليهود ، وهكذا فإن أصحاب المواقف المتناقضة يجد كل منهم سنداً لموقفه داخل الشريعة اليهودية .

وهناك تناقض من هذا النوع بشأن قضية الأرض ، إذ يرى معظم الصهاينة المتدينين أنه لا يمكن التفريط في شبر واحد من



الأرض التي احتلها الإسرائيليون قبل بعد عام ١٩٦٧ . وهم يدعمون رأيهم هذا بالعودة إلى كتب اليهود المقدَّسة . أما الحاخام عوبديا يوسف ، حاخام السفارد السابق ، فيطالب بغير ذلك ، إذ يرى أن بالإمكان التنازل عن الأرض مقابل السلام لأن في هذا حقناً لدماء اليهود (وقد وجد هو أيضاً الاقتباسات المناسبة) . بل هناك تناقض ، ومن ثم اختلاف ، يتصل بإحدى الوصايا العشر (: لا تقتل) ، إذ أفتى الحاخام إسحق جنزبرج ، وهو رئيس مدرسة تلمودية عليا (يشيفا) في مدينة نابلس بأن دم العرب ودم اليهود لا يمكن اعتبارهما متساويين . ومن قبل ، صرح أحد الحاخامات التابعين للحاخامية العسكرية بأن الجنود الإسرائيليين يمكنهم قَتْل حتى أفضل الأغيار . وقد وجد كل منهما الاقتباسات اللازمة لتأييد رأيه . وقد احتج الحاخام أبراهام سابيرو ، حاخام الإشكناز الأكبر بقوله إن الإله (حسبما جاء في التوراة) قد خلق كل البشر على صورته ، وأن الوصية الخاصة بعدم القتل هي إحدى وصايا نوح ، وبالتالي فهي مُلزمة لجميع البشر ، يهوداً كانوا أم أغياراً . وهو محق في قوله وفي استشهاده ، تماماً مثل الحاخامات الداعين للقتل . وقد أدَّى كل هذا إلى أن اليهودية أصبحت مصدراً للشقاق بين يهود العالم داخل وخارج إسرائيل بدلاً من أن تصبح إطاراً واحداً يجمعهم ويُضفي عليهم شيئاً من الوحدة ، وأصبحت العقيدة اليهودية في الدولة الصهيونية مصدراً أساسياً للانقسام والصراع الاجتماعي والثقافي .

وتتبدَّى الخاصية الجيولوجية التراكمية في الأعياد ، فعيد الفصح بطقوسه المركبة نتاج تراكمات جيولوجية عديدة ابتداءً من عيد الخبز غير المخمر (الكنعاني) وانتهاءً بنظام المأدبة (الروماني) . كما تتضح الخاصية الجيولوجية التراكمية في تزايد الأعياد (الواحد تلو الآخر) عبر السنين ، وهو أمر لم يتوقف بعد ، إذ تحوَّل (على سبيل المثال) يوم إعلان استقلال إسرائيل إلى عيد ديني . وثمة محاولة في إسرائيل لتحويل هذا العيد إلى عيد الفصح الحقيقي باعتبار أن إعلان استقلال إسرائيل هو خروج اليهود الحقيقي !

كما أن الصلاة اليهودية قد نالتها هي الأخرى تغيرات لا حصر لها ولا عدد ، وهو أمر لا يزال يحدث حتى الآن ، فبعد أن أُضيفت إليها قصائد البيوط (من قبل) تم حذفها مؤخراً ، كما يتم تغيير النصوص والأدعية وكتب الصلوات من آونة إلى أخرى .

وتظهر الخاصية الجيولوجية التراكمية كذلك في المحاولة الحديثة لإعادة صياغة العقيدة اليهودية بالشكل الذي يتفق مع ملابسات ما بعد أوشفيتس (أي ما بعد النازية) إذ يقول بعض المفكرين الدينيين اليهود : إن الإله قد تخلى عن اليهود في محنتهم ، ولذلك لابد أن نُعاد صياغة كل شيء وضمن ذلك محاولة التوصل إلى يهودية بدون إله . بل ذهب بعضهم إلى المناداة بأن الإله قوة شريرة .

وتظهر الخاصية الجيولوجية التراكمية بكل حدة في تعريف الشريعة اليهودية لليهودي بأنه من يؤمن بالشريعة ومن وُلد لأم يهودية . وهو تعريف يجمع بين فكرة الإيمان بالإله الواحد الذي يستند إلى الاختيار ، الذي ينتج عنه سلوك أخلاقي محدد ، وبين الفكرة الوثنية القائلة بأن الانتماء هو انتماء عرْقي للشعب (كما هي عادة شعوب الشرق الأدنى القديم وغيرها من الشعوب القديمة) .

وبإمكاننا أن نقول إن الخاصية الجيولوجية التراكمية تتبدَّى في التناقض الحاد بين النزعة الحلولية الحادة التي تُوحِّد الإله والشعب والأرض ، كما هي عادة الديانات القديمة من جهة ، ومن جهة أخرى النزعة التوحيدية المتسامية التي ترى أن الخالق مفارق لمخلوقاته وأنه هو الذي يحكم عليهم ويوجههم ويميتهم ويحييهم ، وأنه هو الذي شاء وأعطاهم حرية الاختيار بين الخير والشر ، والنزعتان (على تناقضهما) موجودتان في اليهودية .

وتنطلق كلٌّ من اليهودية الإصلاحية واليهودية المحافظة من تَقَبُّل الخاصية الجيولوجية التراكمية دون أن تسميها كذلك . فاليهودية الإصلاحية تختار ما تشاء وترفض ما تشاء بما يتفق مع العقل وروح العصر . أما اليهودية المحافظة ، فتفعل الشيء نفسه ، على أن يتم الاختيار على أساس ما يتفق مع روح الشعب اليهودي . وقد اعتبر الإصلاحيون كتاب اليهود المقدَّس أي العهد القديم وثيقة ذات شأن عظيم وليس وحياً مقدَّساً . ووجدوا في النسق الجيولوجي ما يؤيد وجهة نظرهم . أما اليهودية المحافظة فقد حوَّلت العقيدة اليهودية إلى ما يشبه فولكلور الشعب اليهودي ، ووجدت أيضاً ما يساندها . ثم ظهرت الصهيونية التي أنكر مفكروها الأوائل وجود الإله ، ثم جعل مفكروها المحدثون فكرة الإله ثانوية . ومع هذا ، فقد بحثوا عن شرعية لآرائهم في التركيب الجيولوجي التراكمي اليهودي ووجدوا ضالتهم . ومع أن اليهودية الأرثوذكسية وقفت في البداية بضراوة ضدالصهيونية من منظور ديني (على اعتبار أن اليهودية تحرِّم العودة ، بينما التلمود يراها من قبيل الهرطقة والتجديف) فإنها غيَّرت موقفها وتصالحت مع الصهيونية ووجدت أن الدولة الصهيونية هي ما يُسمَّى «بداية الخلاص» ، وهو مفهوم تلمودي أيضاً اكتشفه منذ البداية بعض الحاخامات الأرثوذكس القبَّاليين ، مثل كاليشر والقلعي ، ثم تبعهما إسحق كوك . وفي الوقت الحالي ، فإن معظم اليهود الأرثوذكس يؤيدون الصهيونية

بتعصب شديد من منظور ديني أيضاً . وكلا الموقفين ، القابل للصهيونية والرافض لها ، يجد ما يستند إليه في كتب اليهود المقدَّسة .

ومن الملاحَظ أن نصف يهود العالم لا يلتزمون الحد الأدنى من الإيمان . ومن ذلك الإيمان بالإله . ومع هذا ، فإننا نجدهم مستمرين في إطلاق عبارة «يهود إثنيون» على أنفسهم ، ورغم ذلك فقد قبلتهم المؤسسات الدينية اليهودية التي عرَّفت اليهودي بأنه من وُلد لأم يهودية . وقد ظهرت اتجاهات أخرى مختلفة مثل اليهودية التجديدية وتسميات يكتنفها التناقض مثل «اليهودية العلمانية» ، وهناك تسمية إسحق دويتشر الكلاسيكية «اليهودي غير اليهودي» ، وهو التعبير العيني النهائي عن الخاصية الجيولوجية التراكمية . وتتجلى هذه المسألة نفسها في إسرائيل في إشكالية «الهوية اليهودية» (أي إشكالية من هو اليهودي ؟) ، والذي عرَّفه أحدهم بأنه « من يرى نفسه كذلك ، دون الاحتكام إلى أية معايير دينية خارجية ، بحيث يصبح الانتماء الديني أشبه بالحالة الشعورية أو المزاجية .

عناصر في اليهودية من الديانات والحضارات الأخرى

Elements in Judaism from other Religions and Cultures

لابد أن نبيِّن ابتداءً أن هناك رقعة عريضة مشتركة بين كل الأديان باعتبارها تعبيراً عن شيء أساسي في النفس البشرية : وهو رغبة الإنسان في تأكيد إنسانيته وتعريفها باعتبارها كياناً متميِّزاً يتجاوز عالم الطبيعة/ المادة وعالم الحيوانات والحشرات التي تحيا وتموت دون وعي ودون هدف أو غاية ودون أية منظومات معرفية أو أخلاقية أو جمالية . فهي تعيش مبرمجة حسب برنامج الطبيعة/ المادة . هذه الرغبة الإنسانية هي ما نسميه «النزعة الربانية» . وهي رغبة كامنة في الجنس البشري تولَّد من داخل عقل الإنسان ، المستقل عن عالم الطبيعة/ المادة ، أفكاراً وأحلاماً ورؤى . ولذا فمن المتوقع أن تكون هناك عناصر مشتركة بين هذه الأفكار والرؤى تتجلى على هيئة رقعة مشتركة بين كل الديانات في العقائد والرؤى والطقوس والشعائر . ومع هذا لا يمكن إنكار أن عقيدة ما يمكن أن تتأثر بأخرى ، وأن درجات التأثر هذه تختلف من عقيدة لأخرى . ونحن نذهب إلى أن درجة تأثر اليهودية بما حولها من عقائد أدَّى إلى ظهور خاصيتها الجيولوجية التراكمية التي تتبدَّى في الاقتباسات العديدة غير المتجانسة من الحضارات الأخرى ، وخصوصاً إبَّان المواجهات الأساسية الخمس للعقيدة اليهودية مع الحضارات : الكنعانية والبابلية والهيلينية والمسيحية والإسلامية ، وأخيراً مواجهتها مع الحضارة العلمانية الحديثة في الغرب .

ولنبدأ بالمصريين القدماء . يبدو أن قصة يوسف ذات أصل مصري ، ويُلاحَظ فيها وجود لمسات مصرية هنا وهناك . ففي سفر التكوين (٤١/ ١٤) يحلق يوسف رأسه قبل المثول أمام فرعون ، وقد كانت هذه عادة معروفة في مصر ، ولم تكن معروفة عند الساميين . وقد أثَّر نظام الكهنوت المصري في نظام الكهنوت اليهودي ، وكذلك في هندسة الهيكل التي تشبه هندسة المعابد المصرية ، كما أثَّر التراث المصري في بعض مظاهر العبادة اليسرائيلية والعبادة القربانية المركزية مثل تابوت العهد وقدس الأقداس وغيرها . ولكن الأهم من كل هذا هو الأثر الذي تركه المصريون في اليهود في مجال العقيدة . فقد ترك الفكر التوحيدي المصري القديم ، وعبادة إخناتون التوحيدية ، أثراً واضحاً وعميقاً في العبرانيين ، وفي رؤيتهم للإله بشكل عام . كما يتضح هذا الأثر بشكل محدَّد في المزامير التي وجد الباحثون أمثال هنري برستيد فيها أصداء لأناشيد إخناتون الدينية ، فالمزمور ٩٤ مستوحى بصورة جلية من «نشيد آتون» ، والمزمور ١٠٤ مأخوذ عن «نشيد الشمس» في عهد إخناتون . بل يمكن القول بأن بعض الأوجه الإيجابية للرؤية الأخلاقية العبرانية تعود إلى الحضارة المصرية التي أكدت فكرة الثواب والعقاب . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن كتاب الأمثال في العهد القديم يكاد يكون ترجمةً لأحد كُتب الحكمة المصرية . كما أخذ العبرانيون شعيرة الختان ، وفكرة تحريم الخنازير ، ومبدأ النجاسة ، من المصريين القدامى . ولا يعني هذا أن العبرانيين تبنوا هذه العقائد والمفاهيم بقضها وقضيضها ، فالتوحيد بين العبرانيين قد انتكس في مرحلة لاحقة ، وكذا القيم الأخلاقية ، وإنما يعني ذلك أن التراث المصري الديني والأخلاقي ترك أصداءً عميقةً في وجدان العبرانيين .

وقد تأثر العبرانيون بحضارة الكنعانيين في كثير من المجالات ، فبعض صفات يهوه هي من صفات بعل إله الكنعانيين . وبعض التحريمات (مثل طبخ الجدي في لبن أمه) هي عادات كنعانية قديمة . وكثير من الأعياد اليهودية ، مثل عيد الفصح وعيد الأسابيع وعيد المظال ، ذات أصل كنعاني . وقد كشفت الكتابات الأوجاريتية مدى عمق تأثير الفكر الديني الكنعاني في العبادة اليسرائيلية ، ويُقال إن المزمور ٢٩ مأخوذ من نشيد كنعاني وُضع أصلاً لبعل العاصفة ، وعُثر عليه في أوجاريت . ويبدو أن القصص الدينية للأقوام السامية الأخرى ، مثل الأدوميين ، قد وجدت طريقها إلى الفكر الديني اليسرائيلي كما يتضح من سفر أيوب . ويذكر العهد القديم بعض الشعائر والعقائد التي تم تبنيها ، ثم استُبعدت في مرحلة لاحقة ، مثل التضحية على المذابح ، والثعبان النحاسي ، ومركبات الشمس



في الهيكل ، والعجول الذهبية . ولكن هناك شعائر أخرى لم تُنبذ مثل التضحية بكبش للمعبود عزازئيل .

ويُلاحَظ على أسفار موسى الخمسة أن كثيراً من نصوصها يتشابه مع أساطير سومرية وبابلية ، وتشريعات بابلية قديمة ، ومثال ذلك :

- تشابه سفر التكوين (١ ـ ١١) وملحمة الخلق البابلية .
- التشابه بين الأعمار المديدة لآباء البشرية منذ آدم حتى نوح (عشرة منهم مجموع أعمارهم ٨٥٧٥ سنة) في سفر التكوين (٥) ، وفي قائمة سومرية جاء أن ثمانية ملوك قبل الطوفان حكموا ٢٤١,٢٠٠ سنة ، وهناك قائمة بابلية جاء فيها أن عشرة حكام حكموا ٤٣٢ ألف سنة .
- تشابه قصة الطوفان في سفر التكوين مع ملحمة جلجاميش التي ورثها البابليون عن الحضارة السومرية .
- تشابه قصة مولد موسى مع قصة مولد سرجون ملك أكاد .
- وضوح تأثير قانون حمورابي (١٩٠٠ ق . م تقريباً) في التشريع الوارد في سفر الخروج (٢١ ـ ٢٣) والوصايا العشر .

كما تأثر اليهود بكثير من الشعائر والعقائد البابلية ، مثل السبت ، وتغطية الرأس أثناء الصلاة ، وفكرة يوم الحساب ، والتقويم .

ولم يتوقف تأثر اليهودية بالديانات والحضارات الأخرى مع العودة من بابل ، فقد ظل هذا النمط سائداً إذ تأثر اليهود بفكرة الماشيّح من التراث الفارسي . كما دخل على اليهودية كثير من الأفكار الثنوية ، وهو ما أثر في أدب الرؤى والأفكار الأخروية . وأثّر الفكر الهيليني في الفكر الديني اليهودي ، فسفر الجامعة يتضمن رؤية عدمية تشبه من بعض الوجوه الفكرة الإغريقية الخاصة بأن التاريخ مثل الدورات الهندسية المحضة التي تبدأ وتنتهي بلا معنى . بل إن فكرة الشريعة الشفوية نفسها من أصل هيليني ، إذ كان اليونان يرون أن القانون الشفوي أهم وأكثر شرعية من القانون المكتوب . كما أن فكرة «الأدم قدمون» (الإنسان الأزلي) هي خليط من فكر بابلي وفارسي (وقد وردت في كتابات المندائيين) أما فكرة «تهشّم الأوعية» فهي فكرة أسطورية يونانية وردت في تراتيل أورفيوس وتشير إلى «تلوث الأشعة» أو الومضات الإلهية في روح الإنسان أثناء هبوطه بفعل «التيتان العشرة المعلقة بين السماوات والأرض» .

واستمرت اليهودية بعد ذلك في تبنِّيها عناصر من الإسلام ، فصاغ سعيد بن يوسف الفيومي ، ومن بعده موسى بن ميمون ، أصول الدين اليهودي متأثرين في ذلك بمحاولات الفقهاء المسلمين تحديد أصول الدين الإسلامي . كما تأثرت اليهودية بالفكر الديني المسيحي في تراث القبَّالاه ، خصوصاً بفكرة التجليات النورانية العشرة (سفيروت) . بل إن احتفالاً يهودياً مثل الاحتفال ببلوغ سن التكليف الديني (برمتسفاه) ، وهو من أهم الاحتفالات اليهودية في الولايات المتحدة ، لم يكن معروفاً في اليهودية الحاخامية وإنما أُخذ عن المسيحية الكاثوليكية فيما يُسمَّى «التناول الأول» .

لكن تأثر اليهودية بالعقائد والديانات الأخرى ، ليس ميزة أو عيباً في حد ذاته ، فثمة رقعة مشتركة واسعة بين كل الديانات والعقائد (كما أسلفنا) . والكتب المقدَّسة والعقائد الدينية ، رغم استنادها إلى مطلق غير مادي متجاوز للطبيعة والتاريخ ، إلا أنها تستمد مادتها من التاريخ فهي تتعامل مع أحداث تاريخية . وهي موجهة للبشر الذين يعيشون داخل الزمان . ولذا فرغم أن أساسها مطلق ومرجعيتها مطلقة إلا أنها تتعامل مع النسبي وتطوّعه تستوعبه داخل المرجعية الحاكمة النهائية . ولكن المؤثرات التي تراكمت داخل اليهودية ظلت متعايشة كطبقات جيولوجية غير مدمجة وغير مُستوعَبة في إطار مرجعي واحد ، الأمر الذي وسم اليهودية بميسمه وجعل منها تشكيلاً جيولوجياً تراكمياً .

ومع هذا ، تجب الإشارة إلى أن الخاصية الجيولوجية التراكمية للنسق الديني اليهودي قد جعلت مقدرته الاستيعابية لعناصر من العقائد والأيديولوجيات الأخرى عالية إلى أقصى حد ، وأدّى هذا إلى أزمة حادة في اليهودية مع تصاعُد معدلات العلمنة في المجتمع الغربي إذ بدأ المفكرون الدينيون اليهود يتبنون أفكاراً لا علاقة لها بأي دين مثل تَقبُّل الشذوذ الجنسي ، بل إنشاء معابد للشواذ من الجنسين ، بل ترسيم حاخامات منهم وإنشاء مدارس دينية خاصة بهم ، وأخيراً قبول فكرة لاهوت موت الإله . وهذه بدعة غربية جديدة تشكل جوهر العلمانية ، ولكنها مع هذا تُسمِّي نفسها فكراً دينياً !

العقائد (كمرادف لكلمة «أديان»)

Religions

نُستخدَم كلمة «عقيدة» بالمعنى العام مرادفة لكلمة «دين» أو «نسق ديني» ، فيقال «العقيدة اليهودية» و«العقيدة المسيحية» و«العقائد السماوية» . . . إلخ . وحيث إننا نرى أن اليهودية تركيب جيولوجي يحوي داخله أنساقاً وأفكاراً دينية مختلفة متناقضة تراكمت عبر العصور ، تتعايش جنباً إلى جنب ، أو تتراكب كالطبقات الجيولوجية الواحدة فوق الأخرى ، فإننا نستخدم الكلمة في صيغة «العقائد اليهودية» بمعنى أنها «أديان» لا بمعنى «أصول الدين اليهودي» . وحتى حينما نستخدم اصطلاح «عقيدة يهودية» في

صيغة المفرد ، فإن المقصود هو : تركيب جيولوجي تراكم داخله عدد من الطبقات المتناقضة .

العقائد (بمعنى أصول الدين وأركانه)

Creeds, Beliefs and Articles of Faith

العقيدة هي الحكم الذي لا يقبل الشك لدى معتقده ، وهو يقبلها حتى لو تناقضت بعض جوانبها مع العقل أو المنطق . والعقيدة في الدين هي ما يُقصَد به الاعتقاد دون العمل كعقيدة وجود الإله وبعثه الرسل . والعقائد عادةً تشكل ركناً أساسياً من أركان أي دين ، فإن هُدمت انتفى الإيمان . ويقابل كلمة «عقائد» بهذا المعنى أصول الدين وأركانه في الإسلام . ولما كان الفقه اليهودي قد تأثر بمصطلحات كل من اللاهوت المسيحي ، والفقه الإسلامي في الوقت نفسه فإننا سنضطر إلى استخدام هذه المصطلحات كما لو كانت مترادفة .

وعادةً ما تتم التفرقة بين العقائد التي يؤمن بها الإنسان والشعائر أو الطقوس التي يؤديها . فالأولى مسألة تختص بالقلب والضمير ، والثانية تنتمي إلى العالم الخارجي ، فهي أفعال محددة تتبع نظاماً محدداً . ويذهب كثير من المفكرين إلى أن اليهودية تُعنى بالشعائر والأعمال ولا تُعنى بالإيمان ، وهي في جوهرها أسلوب حياة ونظام للسلوك البشري لا عقيدة تُعتقد . ومجال تفكيرها منحصر بالدرجة الأولى في هذا العالم ، والجزاء يكون حسب الأعمال لا حسب الاعتقاد . وتميِّز **الموسوعة اليهودية** بين استخدام الجذر اللغوي «آمَن» ومشتقاته في العهد القديم ، واستخدام كلمة «إيمان» أو «عقيدة» في العهد الجديد . فهي تقول إن الكلمة في العهد القديم تحمل معنى الثقة في الإله والاخلاص له لا الإيمان به أو بعقائد محددة ، وأن استخدام الجذر «آمن» ومشتقاته بمعنى العقيدة والإيمان لم يظهر إلا في العصور الوسطى في الغرب تحت تأثير المسيحية .

ولا يوجد في العهد القديم أي تحديد واضح لأركان الإيمان أو أصوله ، وإن كان هذا لا يمنع وجود مفاهيم إيمانية عامة مثل : الشماع ، وضرورة الإيمان بوحدانية الإله والوصايا العشر . ولكن هذه الأفكار الدينية هي جزء من تركيب جيولوجي يضم العديد من الأفكار الأخرى المتناقضة وغير المتجانسة الوثنية والتوحيدية . فموقف العهد القديم من قضية مثل قضية الأصنام (ترافيم) ينطوي على التقبل الضمني في بعض الأجزاء ، والرفض الكامل في بعض الأجزاء الأخرى . ويتحدث العهد القديم عن الإله في صيغة الجمع (إلوهيم) ، وعنه باعتباره إلهاً ضمن آلهة أخرى . كما نجد أن ثمة إشارات مستمرة إلى ملك اليهود بوصفه ابن الإله (أخبار أول ١٧/ ١٣) . كما نجد أن فكرة البعث والآخرة تظل مبهمة وغير محددة . ويُلاحَظ تأرجُح رسالة الأنبياء بين العالمية والقَبَليّة . وينسب العهد القديم إلى الآباء (إبراهيم ويعقوب وموسى) أفعالاً غير أخلاقية . ونجد أن الشعب ، باعتباره جماعة دينية ، يرتكب أفعالاً أبعد ما تكون عن الالتزام الخلقي وتعبِّر عن العصبية العرْقية مثل ذبح سكان شكيم رغم اعتناقهم اليهودية وتختنهم وترحيبهم بالعبرانيين (تكوين ٣٤/ ٢٥ ـ ٢٧) . ونجد أن مفهوم الميثاق بين الإله والشعب مُلزِم للإله بغض النظر عما يقترفه اليهود من آثام وأفعال لا أخلاقية . كل هذه القيم والمفاهيم أصيلة في العهد القديم وتتناقض مع الشماع ووحدانية الإله وبعض الوصايا العشر !

وقد ظلت اليهودية ، رغم هذا التناقض ، نسقاً دينياً يتعايش داخله هذا التناقض وتترسب فيه أفكار دينية أخرى (بالطريقة الجيولوجية التكاملية) . وظلت مجموعة من الممارسات الدينية ، مثل الأوامر والنواهي ، تستند إلى فتاوى الحاخامات أو إلى قرارات السلطة الدينية المركزية دون أن تكون هناك أركان واضحة للإيمان تنبع منها الممارسات . وظلت اليهودية عبر تاريخها مجموعة من الشعائر والممارسات ، ودون تحديد للعقائد . وقد عرَّف المشرعُ اليهوديَ بأنه كل من وُلد لأم يهودية ، فكأنه لا يحتاج للإيمان بعقيدة . وجاء في كتاب السنهدرين ٤٤ أ "حتى حينما يرتكب الإثم فهو يظل يهودياً" .

ومع هذا ، كانت اليهودية تواجه تحديات دينية من الخارج حينما تجد نفسها في مواجهة حضارة أكثر تركيباً وحين تواجه نسقاً دينياً أكثر تحدداً وتجانساً . فكانت تضطر إلى أن تحدد أركانها . ولذا ، نجد أن تحديد العقائد في غالب الأمر هو جزء من الاعتذاريات اليهودية ومحاولتها الدفاع عن نفسها أمام الأنساق الحضارية والدينية الأخرى . وهذا ما حدث إلى حدٍّ ما في المواجهة مع الحضارة الهيلينية ، إذ حاول فيلون السكندري أن يحدد ما تصوره أركان الإيمان الأساسية بخمسة :

١ ـ الإله موجود ويحكم العالم .
٢ ـ الإله واحد .
٣ ـ العالم مخلوق .
٤ ـ العالم واحد .
٥ ـ الإيمان بالعناية الإلهية .

ويبدو أن الفكر الديني اليهودي قد أخذ يتحدَّد بعض الشيء في القرن الأول قبل الميلاد إذ يشير يوسيفوس إلى أن الصراع بين

الصدوقيين والفريسيين كان صراعاً عقائدياً بالدرجة الأولى ويدور حول قضايا مثل الإيمان بالعالم الآخر والشريعة الشفوية والقدرية ، وهل هي مطلقة أم جزئية .

ومع ظهور المسيحية ، تقهقر الفكر الديني اليهودي مرة أخرى، وبدأت اليهودية الحاخامية التلمودية في التشكل حتى أخذت شكلها النهائي في التلمود . وثمة محاولة واهية ، في هذا الكتاب الضخم ، لتحديد أصول الدين في كتاب السنهدرين إذ يستبعد من حظيرة الدين :

١ ـ كل من يُنكر البعث .

٢ ـ كل من يُنكر أن التوراة مُوحى بها من الإله .

٣ـ الأبيقوريين الذين يُقال إنهم الملاحدة أو الصدوقيون .

وغني عن القول أن هذا التحديد عام جداً ويترك قضايا جوهرية دون تعريف . ولكن الأدهى من هذا هو أن التلمود كتاب ضخم يحتوي على العديد من الأفكار المتناقضة ، كما أن نصوصه تنقسم إلى قسمين : النصوص التشريعية (هالاخاه) ، والنصوص الوعظية القصصية (أجاداه) ، وقد تتسم الأولى بشيء من الوضوح، أما الثانية ، فتضم عدداً هائلاً من القصص والمرويات فيها كثير من العناصر الوثنية وتتحدث عن الإله بلغة حلولية تجسيمية . ثم نأتي لقضية التفسير ، فحسب مفهوم الشريعة الشفوية تنسخ آراء الحاخامات آراء الإله نفسه ، وهو أمر وافق عليه الإله . وكما جاء في التلمود فإن الإله قد أعطى الإنسان التوراة ، ولذا فقد أصبح من حق الإنسان أن يخضعها لأي تفسير يشاء . وتكتسب تفسيرات الحاخامات شرعية من تصوُّر أن موسى في سيناء تلقَّى الشريعتين : المكتوبة والشفوية . وهكذا فُتح الباب على مصراعيه لكل العقائد . ونجد في التلمود أفكاراً دينية أكثر تناقضاً وتنوعاً وتنافساً من تلك التي وردت في التوراة .

وقد ظل الحال على ذلك حتى دخلت اليهودية فلسطين وبابل (دائرة الحضارة العربية الإسلامية) ، وواجهت أكبر تحدٍّ لها يتمثل في حضارة تستند (على عكس المسيحية) إلى فكر توحيدي لا شبهة فيه، وتُحدِّد عقائدها بشكل لا يحتمل أي إبهام أو غموض . وواجهت اليهودية أهم أزماتها التي تمثلت في الانقسام القرّائي الذي رفض الشريعة الشفوية ، وتمسَّك بالتوراة وحاول تحديد العقائد . ولذا ، لم يَعُد بإمكان اليهودية الحاخامية أن تظل مجرد ممارسات تستند إلى فتاوى . فقام أهم المتحدثين باسمها (سعيد بن يوسف الفيومي) ، في القرن العاشر ، بتحديد أصول اليهودية التسعة بأنها :

١ ـ العالم مخلوق من العدم .

٢ ـ وحدة الإله .

٣ ـ الأنبياء .

٤ ـ الانسان مخيَّر وليس مسيَّراً .

٥ ـ الثواب والعقاب في هذا العالم .

٦ ـ الروح ومصيرها .

٧ ـ البعث .

٨ ـ خلاص يسرائيل .

٩ ـ خلود الروح ، والثواب والعقاب في الآخرة .

وفي الفترة نفسها ، قام آخرون بمحاولات مماثلة . وفي القرن الحادي عشر ، قام يهودا اللاوي بمحاولة مماثلة . ورغم أن هؤلاء المفكرين الدينيين ناقشوا العقائد ، فإنهم لم يحددوا ما هو أساسي وما هو فرعي فيها ، أي أنهم لم يحددوا أصول الدين . ولكن أهم المحاولات ، وأكثرها محورية هي محاولة موسى بن ميمون ؛ الفيلسوف العربي اليهودي (أو الفيلسوف العربي الإسلامي المؤمن باليهودية) الذي تأثر بعلم الكلام فدرس أصول الدين ، وحدَّد جذور اليهودية التي تُسمَّى بالعبرية «عيقَّاريم» ، وهي ترجمته لكلمة «أصول» . ولقد لخصها في ثلاثة عشر أصلاً :

١ ـ أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأن الإله ، تبارك اسمه ، هو الموحِّد والمدبِّر لكل المخلوقات . وهو وحده الصانع لكل شيء فيما مضى وفي الوقت الحالي وفيما سيأتي .

٢ ـ أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأن الإله ، تبارك اسمه ، واحد لا يشبهه في وحدانيته شيء بأية حال ، وهو وحده إلهنا ، كان منذ الأزل ، وهو كائن وسيكون إلى الأبد .

٣ ـ أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأن الإله ، تبارك اسمه ، ليس جسماً ، ولا تحده حدود الجسم ، ولا شبيه له على الإطلاق .

٤ ـ أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأن الإله ، تبارك اسمه ، هو الأول والآخر .

٥ ـ أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأن الإله ، تبارك اسمه ، هو وحده الجدير بالعبادة ، ولا جدير بالعبادة غيره .

٦ ـ أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأن كل كلام الأنبياء حق .

٧ ـ أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأن نبوة سيدنا موسى عليه السلام كانت حقاً، وأنه كان أباً للأنبياء ، من جاء منهم قبله ومن جاء بعده .

٨ ـ أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأن التوراة ، الموجودة الآن بأيدينا ، هي التي أُعطيت لسيدنا موسى عليه السلام .

٩ ـ أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأن التوراة غير قابلة للتغيير ، وأنه لن تكون شريعة أخرى سواها من قبل الإله تبارك اسمه .

١٠ ـ أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأن الإله ، تبارك اسمه ، عالم بكل أعمال

بني آدم وأفكارهم ، لقوله : «هو الذي صوَّر قلوبهم جميعاً وهو المدرك لكل أعمالهم» .

١١ ـ أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأن الإله ، تبارك اسمه ، يجزي الحافظين لوصاياه ويعاقب مخالفيها .

١٢ ـ أنا أؤمن إيماناً كاملاً بمجيء الماشيَّح . ومهما تأخر ، فإنني انتظره كل يوم .

١٣ ـ أنا أؤمن إيماناً كاملاً بقيامة الموتى ، في الوقت الذي تنبعث فيه بذلك إرادة الإله تبارك اسمه وتعالى ذكره الآن وإلى أبد الآبدين .

وقد وردت الأصول الثلاثة عشر في مجال التعليق على كتاب السنهدرين في التلمود الذي سبقت الاشارة إليه . وقد بيَّن ابن ميمون أن أصوله هذه هي الحد الأدنى ، فمن آمن بها فهو يهودي وينتمي إلى الجماعة اليهودية ، ولذا فإنه حتى لو ارتكب الموبقات سيظل له نصيب في العالم الآتي ويظل محط عطف اليهود . أما من يرفضها ، فيجب أن يُنبذ ويُباد ، وسيُسمَّى «كوفير بَعيقَّار» ، أي «كافر بالأصول» منكر لها ، كما أنه يكون قد فصل نفسه عن الجماعة ، فهو «مين» ، أي «كافر أو مرتد» .

وبعد ذلك ، قامت محاولات أخرى لتحديد العقائد اليهودية من أهمها محاولة قريشقش الذي بيَّن أن موسى بن ميمون لم يميِّز بين الأساسي والفرعي في العقائد . ولهذا ، قام تلميذه يوسف ألبو (١٣٨٠ ـ ١٤٤٠) في كتابه **سيفر هاعيقاريم** (سفر الأصول) بهذه العملية ، فقسَّم الأصول إلى :

١ ـ «عيقَّاريم» ، أو العقائد الأساسية ، وهي ثلاث : وجود الإله ، والوحي ، والثواب والعقاب . وأضاف أن هذه العقائد عامة لكل البشر .

٢ ـ «شوراشيم» ، وهي تفريعات عن العيقاريم ، ويصنفها في ثمان .

٣ ـ «عنافيم» ، وهي الأغصان .

ويرى ألبو أن الأصول والجذور مُلزمة لكل يهودي ، ومن لا يؤمن بها يُعدُّ كافراً ، أما من لا يتبع الأغصان فهو مذنب وحسب .

وجاء بعد ألبو ، إسحق لوريا وإسحق إبرابانيل ، ولم يجدا مبرراً للتركيز على عقيدة دون أخرى . ويُلاحَظ أن ألبو ، مثل موسى ابن ميمون ، يقلل أهمية العقيدة المشيحانية ، ويؤكد في نهاية الأمر أن اتباع أحد الأوامر والنواهي أهم من الإيمان بكل العقائد .

ورغم هذه المحاولات لتحديد العقائد اليهودية ، ظلت محاولة ابن ميمون أكثرها أهمية ، وقد ظهرت الأصول باعتبارها العقائد الأساسية لأول مرة في طبعة الأجاداه في البندقية عام ١٥٦٦ ، وهي الآن ملحقة بكتاب الصلوات الإشكنازي . كما أن الصلوات اليهودية تضم الآن قصيدتين تلخصان هذه الأصول هما : «أني مأمين» (أي «إنني أؤمن») ، و«يجدال» (أي «تعظَّم الرب وتنَزَّه») .

ولكن اليهودية ، بسبب طبيعتها الجيولوجية ، حولَّت الأصول إلى مجرد طبقة واحدة بين العديد من الطبقات ؛ فقامت ثورة عاتية في العالم الغربي بخاصة ضد كتابات ابن ميمون ، وبدأ الفكر القبَّالي في الانتشار وبخاصة بعد الطرد من إسبانيا ، وأخذ الوجود اليهودي شكل تجمعات صغيرة بعضها بعيد عن مراكز الفكر الحاخامي والتلمودي ويخضع كل منها للقيادات الدنيوية والدينية المحلية . ومع القرن السابع عشر ، هيمن الفكر القبَّالي على الفكر الديني اليهودي ، وهو فكر حلولي تجسيمي وصفه الحاخامات بأنه ينطوي على الشرك . كما أن التفسيرات القبَّالية للكتب اليهودية المقدَّسة ، وخصوصاً العهد القديم والأجاداه ، تشكل تراجعاً جوهرياً عن الفكر التوحيدي .

وفي العصر الحديث ، بيَّن مندلسون أن اليهودية دين شرائع بلا عقائد ، وهو رأي يأخذ به معظم مؤرخي اليهودية . ثم ظهر علم اليهودية الذي درس مصادر اليهودية المختلفة وبيَّن طبيعتها الجيولوجية وعدم تجانسها الأمر الذي يجعل من المستحيل التوصل إلى عقيدة جوهرية . ثم بدأت حركة الانعتاق التي نادت بأن تتكيف اليهودية مع العصر . ولكن ، لكي تتكيف اليهودية ، لابد أن يتحدد جوهرها أساساً ، ولذا حاولت اليهودية الإصلاحية صياغة أصول العقيدة في مؤتمراتها الحاخامية المختلفة ، ولكنها تخلت عن هذه المحاولة بعد قليل إذ كانت أطروحاتها من العمومية بحيث افتقدت أية هوية تميِّز اليهودية عن غيرها من العقائد . أما اليهودية المحافظة والأرثوذكسية فكلتاهما تدور أساساً في إطار الممارسات .

وفي الفلسفة الدينية اليهودية الحديثة ، لم يعد الإيمان بالعقائد مسألة حيوية أو مهمة ، إذ حل محلها ما يُسمَّى «عملية المواجهة الشخصية بين الإله والإنسان اليهودي» . ويرى روزنزفايج أن الإيمان الديني ثمرة كشف ، أو وحي شخصي ، يجب على الانسان أن يسعى إليه . أما مارتن بوبر وأبراهام هيشيل ، فيريان أن الإيمان علاقة ثقة بين الإله والإنسان تنبع من ، وتعبِّر عن ، مواجهة شخصية بينهما ، فهي إذن علاقة الأنا والأنت وليست علاقة الأنا والهو . وقد بلغ هذا الاتجاه أبعاداً متطرفة في يهودية كابلان التجديدية فأصبح الإيمان حالة نفسية أو شعورية ذات فائدة للمجتمع إذ أن السلوك الأخلاقي يستند إليه . فالإيمان هو نوع من «التنبؤات التي تحقق ذاتها» وليس خضوعاً لأية مرجعية تقع

خارج ذات الإنسان . وقد أصبح الإيمان في الفكر الديني اليهودي ، بعد الحرب العالمية الثانية ، مجرد وسيلة لإضفاء معنى على العالم بعد الهولوكوست ، وبذا تختفي العقائد والأصول وتتحول إلى حالة شعورية .

اللاهـــوت

Theology

«اللاهوت» هو المصطلح العربي المقابل للمصطلح الإنجليزي «ثيولوجي» ، وهو مركب من «ثيوس» ومعناها «إله» و «لوجوس» ومعناها «علم» ، فهو «علم الإلهيات» . واللاهوت هو التأمل المنهجي في العقائد الدينية . والكلمة تشير عادةً إلى دراسة العقيدة المسيحية ، ولا تستخدم في الدراسات الإسلامية التي تستخدم كلمات من المعجم العربي مثل «علم التوحيد» . أما في اليهودية ، فقد بدأ استخدام الكلمة مؤخراً في الدراسات اليهودية . (انظر : «العقائد [بمعنى أصول الدين وأركانه]») .

الشريعة اليهودية

Jewish Law

تُستخدَم عبارة «الشريعة اليهودية» للإشارة إلى النسق الديني اليهودي ككل ، مع تأكيد جانب القوانين أو التشريع الخارجي (هالاخاه) ، أي الشرع ، وذلك بخلاف عبارة «العقائد اليهودية» التي تؤكد جانب الإيمان الداخلي . وكان اليهود يستخدمون كلمة «توراة» للإشارة إلى الشريعة اليهودية ، كما أن كلمة «هالاخاه» تُستخدم أحياناً للإشارة لا إلى التشريعات المختلفة وإنما إلى الشريعة ككل . وهناك شريعة مكتوبة وردت في أسفار موسى الخمسة والعهد القديم ، كما أن هناك شريعة شفوية هي في واقع الأمر تفسيرات الحاخامات التي جُمعت في التلمود وفي غيره من الكتب كما أصبحت كتب القبّالاه ، هي الأخرى ، جزءاً من هذه الشريعة الشفوية . ويُعَد مفهوم الشريعة الشفوية أهم تعبير عن الخاصية الجيولوجية التراكمية ، ويمكن القول بأنه سبب ونتيجة ـ في آن واحد ـ لهذه الخاصية .

الشريعة المكتوبة او التوراة المكتوبة

Written Law (Torah)

«توراة شبّختاف» مصطلح عبري معناه «التوراة المكتوبة» وهي «الشريعة المكتوبة» مقابل «توراة شبّعَلْ بِه» ، أو «التوراة الشفوية» . وهي إشارة إلى الشرائع التي تلقاها موسى مكتوبةً . وتشير الكلمة بالدرجة الأولى إلى أسفار موسى الخمسة ، ولكنها تشير كذلك إلى كتب الأنبياء وكتب الحكمة والأمثال باعتبار أنها هي الأخرى كتب مدوّنة . ولكن هذه الكتب الأخيرة ليست ملزمة ، ولذا يشار إليها بأنها «ديفري قبّالاه» ، أي «كلمات التراث» . وحسب الرؤية اليهودية الحاخامية ، تلقى موسى في سيناء الشريعة أو التوراة الشفوية ، تماماً كما تلقى الشريعة المكتوبة .

الشريعة الشفوية او التوراة الشفوية

Oral Law , Oral Torah

«توراة شبّعَلْ بِه» ، عبارة معناها «التوراة الشفوية» مقابل «توراة شبختاف» ، أي «التوراة المكتوبة» . وقد أطلق السعديتي على المفكر اليهودي سعيد بن يوسف الفيومي اسم «السعديتي» ، أي الذي يؤمن بالعقيدة الشفهية ، مقابل «القرّائي» أي الذي لا يؤمن إلا بالعقيدة المكتوبة . و«الشريعة الشفوية» في اليهودية مجموعة فتاوى وأحكام وأساطير وحكايات وخرافات وُضعت لشرح وتأويل أسفار العهد القديم وتناقلها حاخامات اليهود شفهياً على مدى قرون طويلة ثم جُمعت ودُوِّنت ، في القرن الثاني الميلادي ، في التلمود (أساساً) .

وقد عرفت جميع الشعوب القديمة شرائع شفوية ، أو سماعية ، في شكل عادات وتقاليد وعرف . وبقيت عناصر هذه الشريعة قائمة وسارية المفعول إلى جانب الشرائع والقوانين التي تم تدوينها وتبويبها وتصنيفها . وثمة رأي يذهب إلى أن فكرة الشريعة الشفوية دخلت اليهودية بعد أن احتكت بالفكر اليوناني وعرفت الفكرة الأفلاطونية القائلة بأن القانون غير المكتوب يفي المكتوب . ولعل هذا يفسر أن دعاة الشريعة الشفوية كانوا من الفريسيين الذين تأثروا بالفكر الهيليني ، على عكس الصدوقيين حملة الفكر التقليدي . ولكن مثل هذا التفسير تفسير شديد السطحية يجعل من التأثير والتأثر العنصر الأساسي في صياغة نسق ما ، ويهمل بنية النسق الكامنة التي تولّد فيه قابلية لتَقبُّل أفكار دون أخرى . ونحن نذهب إلى أن اليهودية تركيب جيولوجي تراكمت داخله عدة طبقات ، ومن أهم هذه الطبقات الطبقة الحلولية التي تعني تداخل الدنيوي والمطلق وتوحدهما ، وأن الإله لا يترك اليهود أحراراً في التاريخ مسئولين أخلاقياً عن أفعالهم بل يفيض عليهم في كل زمان ومكان . والشريعة الشفوية تعبير عن هذه الحلولية ، إذ أن الحلولية في إحدى مراحلها تعادل بين الإله والبشر ، ومن ثم تعادل بين الوحي والاجتهاد أو بين

النص المقدَّس والتفسير ، أي أنها تعادل ما بين الشريعة المكتوبة (المنزلة والموحى بها) والشريعة الشفوية (التي يضعها الحاخامات) . وتذهب اليهودية الحاخامية إلى أنه عندما ذهب موسى إلى جبل سيناء ليتلقى الوحي ، لم يُعطه الإله توراة أو شريعة واحدة وإنما أعطاه توراتين أو شريعتين : إحداهما مكتوبة والأخرى شفوية . وجاء في المشناه « تلقى موسى التوراة من سيناء وسلمها إلى يوشع ، ويوشع قام بتسليمها إلى الشيوخ ، والشيوخ إلى الأنبياء ، والأنبياء سلموها بدورهم إلى رجال المجمع الأكبر ، الذين قاموا بتسليمها إلى فقهاء اليهود (الحاخامات) » وهؤلاء يضمون معلمي المشناه (تنائيم) والشراح (أموراتيم) والمفسرين (صبوراتيم) والفقهاء (جاءونيم) . وهي عملية استمرت بعدهم فظهر الشراح واضعو الإضافات (بعلي توسافوت) وشخصيات أساسية مثل راشي والحاخام إلياهو (فقيه فلنا) ومعلمو القبَّالاه . ولا يزال فقهاء اليهود يقومون بالإضافة والتعديل في هذه الشريعة الشفوية . ومن الناحية النظرية ، ثمة ترتيب هرمي لطبقات الفقهاء هذه بحيث يشغل معلمو المشناه (تنائيم) قمة الهرم ، وتُعَدُّ أحكامهم ملزمة لمن أتى بعدهم . ولكن الممارسة كانت عكس ذلك تماماً ، إذ أن آخر التفسيرات والأحكام هي التي كان يُقدَّر لها دائماً السيادة (إلى أن هيمنت القبَّالاه تماماً بهذه الطريقة) . ومن بين آليات نمو الشريعة الشفوية إضافة الفتاوى التكميلية (تاقانوت) والأعراف والعادات (منهاجوت) والقرارات (جزيروت) . ولعل كلمات الحاخام شمعون لاقيش (القرن الثالث الميلادي) : « ماذا تعني المقطوعة : فأعطيك لوحي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتُها لتعليمهم » (خروج ٢٤/ ١٢) هي التعبير الكلاسيكي عن هذه الفكرة . فهو يقول مفسِّراً أما «لوحا الحجارة» فهما الوصايا العشر ، أما «الشريعة» فهي العهد القديم ، وأما «الوصية» فهي المشناه ، وأما «تلك التي كتبتها» فهي أسفار الأنبياء وأسفار الحكمة والأناشيد ، وأما «لتعليمهم» فهي الجماراه . وهكذا يعلمنا الرب أنها كلها قد أعطيت لموسى » . ومعنى هذا التفسير أن كل التفسيرات التي يأتي بها الحاخامات اليهود والمحاضرات التي كانت تُلقى في حلقات ومدارس التلمود ، بل الإجماع الشعبي ، كل هذه الأشياء ترقى إلى مستوى الوحي الإلهي ، أو على الأقل تصطبغ بصبغة القداسة . وبالفعل ، فقد تطوَّر النسق الديني اليهودي في مرحلة معيَّنة ، وساد الاعتقاد بأن التلمود الذي يُشار إليه باسم «التوراة الشفوية» هو أيضاً الكلمات الأزلية للإله ، وهو صياغة للقوانين التي أوصى الإله بها موسى (شفوياً) . ولهذا ، فإن ما فيها من الأوامر والنواهي واجبة الطاعة ، يستوي في هذا مع كل ما جاء في العهد القديم . وكان يهود الغرب يدرسون التلمود أكثر من دراسة العهد القديم . وبعد ذلك ، انتشرت القبَّالاه ، فادعت لنفسها من القداسة ما للعهد القديم والتلمود . ولقد كان القبَّاليون يؤمنون بأنهم أصحاب معرفة خفية باطنية (غنوصية) توصِّلهم إلى المعنى الحقيقي والباطني للعهد القديم والتلمود الذي يجبُّ المعنى الظاهر . وبلغ من شيوع القبَّالاه أن كثيراً من اليهود والحاخامات كانوا يدرسون كتاب الزوهار أكثر من دراسة الكتب اليهودية الدينية الأخرى .

ولكن ، كما لاحظنا في النسق الحلولي الواحدي بعد مرحلة التعادل بين الخالق والمخلوق ، يكتسب المخلوق مركزية ويفوق الإله قدرةً ومنزلةً . وبالفعل ، نجد أن بعض الحاخامات جعل المشناه (التفسير الحاخامي) مرجعاً أقوى من العهد القديم (الوحي الإلهي) لأنها صورة معادلة للشريعة جاءت متأخرة عنها . وكانت بعض قرارات الحاخامات تتعارض تعارضاً صريحاً مع شريعة موسى ، أو تفسرها تفسيراً يبيح مخالفتها . وقد بلغ هذا التيار قمته في التفسيرات القبَّالية وفي الحركة الحسيدية حيث تَجُبُّ آراء العارف بالقبَّالاه والتساديك الآراء التي دارت في التراث الحاخامي بأسره (التوراة والتلمود) . وقد كان ما ينطق به التساديك توراةً ، كما أن إرادته كانت تعادل إرادة الإله .

وقد ثارت مناقشات كثيرة عبر تاريخ اليهودية عن مدى قدسية الشريعة الشفوية ، وجواز تدوينها أو عدم جواز ذلك . والواقع أنه ، حتى ظهور المسيح ، كان تدوين الشريعة أمراً محرَّماً للحيلولة دون انتشارها بين العامة ، إذ أن فكرة الشريعة الشفوية تخدم ولا شك مصلحة الحاخامات لأنها ترفعهم إلى مصاف الإله أو الأنبياء ، وتجعلهم على اتصال دائم بالإله ، كما تعطيهم حق تغيير وتبديل كلمته . ولعل فكرة الشريعة الشفوية هي المسئولة عن السيطرة الدينية للحاخامات على الجماعات اليهودية في العالم خلال تواريخهم . وقد استمر الجدل قائماً بين الفرق اليهودية المختلفة حول مدى قدسية الشريعة الشفوية ، وكان الفريسيون من أشد المدافعين عنها . ويبدو أن دفاعهم عن الشريعة الشفوية ، ورفضهم تدوينها ، كان ذا محتوى طبقي . أما الصدوقيون ، فقد كانوا من أهم معارضيها ، لأنهم كانوا مرتبطين بالهيكل وبالعبادة القربانية ويشكلون بذلك طبقة كهنوتية . أما الفريسيون ، فكانوا يدافعون عن الشريعة الشفوية لأن ذلك كان يعني المشاركة في السلطة . وبظهور المسيحية حُسمت القضية تماماً، فسيطر التصور الفريسي على اليهودية . ولكن ، مع هذا ، بدأ تدوين الشريعة

الشفوية حتى تتمكن اليهودية من تمييز نفسها عن المسيحية التي ورثت العهد القديم وأكملته بالعهد الجديد .

ويرفض القرّاءون (المتأثرون بالفكر العربي الإسلامي والتوحيد الإسلامي) التراث الشفوي ، ويقصرون إيمانهم على شريعة موسى وأسفاره الخمسة . وفي العصر الحديث ، جدّد الأرثوذكس إيمانهم بالشريعة الشفوية المتجسدة في كلٍّ من التلمود والشولحان عاروخ . أما الإصلاحيون ، فقد نادوا بأن الشريعة الشفوية هي محاولة بعض الحاخامات تفسير الكلام المقدّس ، ولكنه على أية حال تفسير غير ملزم لأحد لأنه مرتبط بحقبة تاريخية معينة . ولذلك فإن صلاحيته لا تمتد إلى كل زمان وكل مكان .



٢
إشكالية الحلولية اليهودية

الحلولية الكمونية اليهودية : تاريخ ـ الثنائية الصلبة (حتى نهاية القرن التاسع عشر) ـ السيولة الشاملة (في القرن العشرين) ـ الثنوية (أو الاثنينية) اليهودية ـ القداسة في اليهودية

الحلولية الكمونية اليهودية : تاريخ

Jewish Pantheism and Immanence : History

«الحلولية الكمونية اليهودية» هي القول بأن العالم بأسره (الإنسان والطبيعة) يُردُّ إلى جوهر واحد أو مبدأ واحد كامن في المادة، هو مصدر بقائها وحركتها. هذا المبدأ أو الجوهر يسميه دعاة وحدة الوجود الروحية «الإله». فيحل الإله في الإنسان ثم يحل في بعض ظواهر الطبيعة، ثم يحل فيها جميعها بغير استثناء حتى يصبح حالاً في كل شيء (الإنسان والطبيعة) كامناً فيه ويصبح الإله والعالم وكل الوجود وحدة واحدة لا وجود مستقلاً للواحد عن الآخر. أي أن الإله يصبح متوحداً مترادفاً مع سائر مخلوقاته (الإنسان والطبيعة) لا وجود له خارجها. ومع هذا يظل محتفظاً باسمه، وهذا ما نشير إليه بأنه «حلولية شحوب الإله» حيث تَمَّحي الثنائيات في الكون إلى حد كبير ولا يبقى منها سوى الظلال والأنقاض، وتختفي إمكانية التجاوز ولا يبقى سوى وهم التجاوز، وهذه هي وحدة الوجود الروحية. ثم يفقد الإله اسمه ويُطلق على المبدأ الواحد عبارات مثل «قانون الحركة» أو «قوانين المادة» فتَمَّحي الثنائيات تماماً، بما في ذلك الثنائية المنطقية، وتسود الواحدية ويزول وهم التجاوز وننتقل من وحدة الوجود الروحية إلى وحدة الوجود المادية وما نسميه «حلولية موت الإله» أو «حلولية بدون إله».

والعقيدة اليهودية، في إحدى طبقاتها، توحيدية تؤمن بإله واحد يتجاوز المادة، منزه عن مخلوقاته يقف وراء الطبيعة والتاريخ يحركهما ولا يُردُّ إليهما. ولكن اليهودية تركيب جيولوجي تراكمت داخله عدة طبقات متناقضة. وفي بعض هذه الطبقات، نجد أن اليهودية تأثرت بالتشكيل الحضاري السامي الوثني، ودخلت عليها عناصر وثنية حلولية عديدة وجدت طريقها إلى العهد القديم عند تسجيله مثل : فكرة الشعب المختار المرتبط بأرض مقدسة والمتمركز حول ذاته، وفكرة الميثاق بين الإله وشعب بعينه. وتزايد الشعائر وخصوصاً شعائر الطهارة، وتداخُل العناصر الكونية مع العناصر التاريخية في الأعياد اليهودية، وتراجُع فكرة البعث واهتزاز الأفكار الأخروية. وعلى هذا، فإن العهد القديم يُعَدُّ وثيقة صراع بين اتجاهين : اتجاه توحيدي عالمي أخلاقي متسام يؤمن بإله يسمو على العالمين، ولا يفضل قوماً على قوم إلا بالتقوى، وهو الاتجاه الذي حمل لواءه الأنبياء والرسل. أما الاتجاه الآخر فهو اتجاه وثني حلولي قومي تخصيصي يرى إله اليهود إلهاً يحل فيهم وحدهم، فهو مقصور عليهم يحابيهم ويعطف عليهم ويعصف بأعدائهم، ويرى اليهود أنفسهم شعباً مقدَّساً يشغل مركز الكون.

وظل الاتجاه التوحيدي قائماً له فعالية ما دامت اليهودية في محيط وثني مشرك، إذ كان التوحيد (أو على الأقل مفرداته) وسيلة الحفاظ على الهوية الدينية اليهودية مقابل الحلولية الوثنية. ولكن، مع تحول المجتمعات التي يعيش فيها أعضاء الجماعات اليهودية إلى ديانات توحيدية (الإسلام في الشرق والمسيحية في الغرب)، لم يَعُد الاتجاه التوحيدي اتجاهاً مميَّزاً لليهودية، ولذا بحث الحاخامات (واضعو الشريعة الشفوية) عن إستراتيجيات مختلفة للحفاظ على الهوية، حتى تغلبت النزعة الأسطورية الشعبية وأخذت شكلها الحلولي الكموني الواحدي حيث تم التركيز على بعض مفاهيم العهد القديم ذات الطابع الحلولي وتم تعميقها. وقد قوي هذا الاتجاه في كتب الرؤى (أبوكاليبس)، وفي التعليقات المدراشية، وبلوره معلمو المشناه (تنائيم)، وأخذ شكلاً متكاملاً في التلمود حيث توجد آثار للنزعة التوحيدية، ولكن النزعة الغالبة هي النزعة الحلولية الكمونية. ويمكننا القول بأن اليهودية التلمودية تتأرجح بين شكل من أشكال التوحيد وشكل من أشكال وحدة الوجود، ولا تقترب إلا نادراً من مرحلة وحدة الوجود التي وصلتها الحلولية اليهودية في القبَّالاه (وهي المرحلة التي عاد فيها كثير من الأفكار الغنوصية القديمة إلى الظهور). وقد انعكست هذه النزعة في قول أحد القبَّاليين «إلوهيم تعادل طيفع»، أي أن «الإله يعادل الطبيعة»، باعتبار أن القيمة الرقمية لكل من إلوهيم والطبيعة واحدة (وقد استخدم إسبينوزا العبارة نفسها).

وقد سيطرت الرؤية الحلولية الواحدية، بدرجاتها المختلفة،

على اليهودية ، وأصبح من العسير قراءة العهد القديم بشكل مباشر ، وخصوصاً بعد أن تبنت الكنيسة (عدو اليهود) هذا الكتاب باعتباره كتاباً مقدساً ، كما أصبح التفسير أهم من النص المقدّس . وعلى كلٍّ ، تؤمن اليهودية ، منذ البداية ، بفكرة الشريعة الشفوية التي تجعل تفسيرات الحاخامات تعادل في أهميتها كلام الإله إن لم تكن أكثر أهمية منه .

ويُلاحَظ أن ثمة تفضيلاً للنص المدوَّن على الشفوي في المنظومات التوحيدية ، فالنص المقدَّس المدوَّن يحتوي الرسالة الإلهية ومن ثم يقتصر دور الإنسان إما على حمل الرسالة أو على تفسيرها ، ويقف هذا على النقيض من المنظومات الحلولية الكمونية التي تفضل الشفوي على المدوَّن لأنه مباشر ، يستطيع الإنسان سماعه مباشرةً ولا توجد مسافة بين القائل والقول ، فالواحد مرتبط بالآخر . وبالتدريج ، تحل الكلمة البشرية الشفوية محل الكلمة الإلهية المكتوبة . ورغم سقوط اليهودية الحاخامية في الحلولية الكمونية ، إلا أنها بذلت محاولة مهمة لمحاصرة النزعة المشيحانية الحلولية بأن جعلت العودة منوطة بالأمر الإلهي ، فكأنها استعادت شيئاً من الثنائية التكاملية التوحيدية بدلاً من الواحدية الحلولية .

ولعبت القبَّالاه دوراً حاسماً في تحويل اليهودية من نسق توحيدي إلى نسق حلولي كموني . وتراث القبَّالاه تراث حلولي كموني واحدي متطرف يساوي بين الإله والطبيعة ، بحيث يصبح الإله هو الطبيعة ، ويتم إلغاء التاريخ ويتركز الحلول الإلهي في الشعب اليهودي إذ يحل المطلق أو المركز في الشعب . والقبَّالاه ترى الإله باعتباره عشر درجات أو عشرة تجليات نورانية منفصلة موصولة على قمتها الإله الذكر ، وفي قاعدتها كنيست يسرائيل أي شعب إسرائيل ، بحيث لا يوجد فارق بين الخالق والمخلوق . ويتضح هذا المفهوم بشكل أوضح في رؤية القبَّالاه للتجليات العشرة النورانية على هيئة آدم ، فكأن الإله ، هو آدم ، وكأن الخالق والمخلوق هما شيء واحد . وتدور القبَّالاه حول صورة مجازية معرفية إدراكية جنسية واضحة ، وهي صورة مجازية تتواتر عادةً في الحلوليات الوثنية . والقبَّالاه ، بهذا ، تشكل عودة للواحدية الكونية والحلولية الوثنية . وقد اشتكى إبراهيم أبو العافية في رسالة إلى صديق له من أن دعاة القبَّالاه يظنون أنهم يوحدون الرب بتلك التجليات النورانية ولكنهم في واقع الأمر قد استعاضوا عن أقانيم المسيحية الثلاثة بعشرة تجليات ، وهذا شرك . وقد يظهر هذا في القبَّالاه العملية التي تجعل الخلاص منوطاً بالتوصل للصيغة السحرية الصحيحة (الغنوصية) . كما أن التصوف اليهودي أصبح تصوفاً حلولياً غنوصياً ليس الهدف منه فناء الذات والتقرب من الإله والتفاعل معه وإنما الالتصاق بالخالق والتوحد معه بحيث يصبح المؤمن تجسُّد الإله : إرادته هي إرادة خالقه . وأدَّى انتشار القبَّالاه إلى تزايد اشتغال اليهود بالسحر بهدف التحكم في الكون (ولعل هذا كان من أسباب تزايُد معاداة اليهود) .

وقد بدأ انتشار القبَّالاه (خصوصاً اللوريانية) في القرن الرابع عشر . ومع منتصف القرن السابع عشر ، كانت القبَّالاه مهيمنة هيمنة شبه كاملة على معظم أعضاء الجماعات اليهودية وتغلغلت بشكل عميق في العقائد اليهودية ، بحيث أصبحت المراكز التلمودية منعزلة بغير فعالية ، ثم أصبحت التفسيرات التلمودية نفسها ذات طابع قبَّالي . ويتضح مدى سيطرة الحلولية على العقيدة اليهودية فيما كتبه الحاخام السفاردي ديفيد نايتو (١٦٥٤ ـ ١٧٢٨) حاخام لندن الأكبر ، حيث نشر كتاباً بعنوان **في العناية الإلهية** قرن فيه بين الإله والطبيعة ووحَّد بينهما ، فاتهمه أحد اليهود وبعض المسيحيين بالإلحاد . وحينما عُرض الأمر على واحد من أكبر العلماء التلموديين في أمستردام (هولندا) وهو الحاخام تسفي إشكنازي ، أفتى هذا الحاخام بأن الحلولية ليست مقبولة وحسب في العقيدة اليهودية ، بل هي أمر اعتاده المفكرون الدينيون اليهود .

ورغم أن هرمان كوهين ذهب إلى أن الحلولية ضد الدين ، فإن الكثيرين من أعلام الفكر اليهودي من كبار دعاة الحلولية ، ويمكن أن نشير إلى ابن جبيرول وابن عزرا ، وإسبينوزا (أبي الحلولية الحديثة) . وقد أدَّت هيمنة القبَّالاه وتصاعُد معدلاتها في اليهودية إلى تراجع اليهودية الحاخامية ومؤسساتها ، وتراجع الفكر التوحيدي تماماً ، الأمر الذي سبَّب أزمة اليهودية الحاخامية إلى حد سقوط اليهودية ، في نهاية الأمر ، في قبضة الفكر الحلولي ، فاختفى أي أثر للتجاوز . ولم يَعُد بالإمكان التمييز بين اليهود واليهودية (من منظور اليهودية نفسها) إذ أصبح اليهود تجسيداً للمطلق ، وأصبحت العلاقة بين الشعب والخالق (إن ظل قائماً بالاسم) علاقة حوارية . وقد تصاعدت الحمى المشيحانية بين اليهود وتزايدت قابليتهم للعلمنة التي عادةً ما تأخذ شكل تأكيد قداسة الشعب وحقه المطلق في العودة لأرضه المقدَّسة ، أي أن النزعة المشيحانية في اليهودية ذات توجُّه صهيوني واضح .

ويمكن القول بأن النمط الحلولي الذي ساد العقيدة اليهودية هو النمط الثنائي الصلب (المرتبط بوجودهم كجماعات وظيفية) . ومع هذا ، كان النمط الشامل السائل (الروحي أو المادي) كامناً من البداية . ففلسفة إسبينوزا (الحلولية المادية) وحركة شبتاي تسعي ثم

الحركتين الفرانكية والحسيدية (الحلولية الروحية) تقوم بتفكيك الإنسان ورده إلى كل أكبر منه . ثم أخذت معدلات الحلولية المادية والحلولية الروحية في التصاعد بعد القرن الثامن عشر . ويبدأ الإله في الشحوب (اليهودية الإصلاحية)، إلى أن يختفي تماماً أو يكاد (اليهودية المحافظة بشكل مبهم ـ اليهودية التجديدية بشكل واضح) ويُعلَن موت الإله ونهاية المركز (لاهوت موت الإله ـ يهودية ما بعد الحداثة) . والصهيونية شكل من أشكال الحلولية الثنائية الصلبة المادية ، وهي من ثم تنتمي إلى النمط نفسه الذي تنتمي إليه النازية والقوميات العضوية .

وشيوع الحلولية في النسق الديني اليهودي لم يكن مجرد امتداد للحلولية الكامنة في التوراة والتلمود ، فثمة عنصر ساعد على تعميق هذه الحلولية وعلى تكثيفها ثم تفجُّرها وشيوعها بين أعضاء الجماعات اليهودية وهو وضع اليهود في الحضارة الغربية كجماعات وظيفية وسيطة . فأعضاء الجماعة الوظيفية الوسيطة يتزعون دائماً منزعاً حلولياً في رؤيتهم للكون ، فهم يرون أن الإله يحل فيهم ، ولذا فهم ـ حسب ظنهم ـ يتمتعون بقداسة خاصة تعزلهم عن المجتمع . ومن ثم ، فإن أعضاء الجماعات اليهودية ساهموا في ظهور العلمانية (وهي وحدة وجود مادية) بشكل غير مباشر وغير واعٍ من خلال نشر الرؤية الحلولية .

الثنائية الصلبة (حتى نهاية القرن التاسع عشر)

Solid Dualism (to the End of the Nineteenth Century)

تأخذ الحلولية الكمونية الواحدية شكلين أساسيين : الحلولية الثنائية الصلبة حين يصبح شعب ما أو أرض ما مركز الحلول والقداسة (مقابل بقية العالم) ، والحلولية الشاملة السائلة حين يصبح العالم بأسره (والجنس البشري بأسره) موضع القداسة وحين تتعدد مراكز الحلول . والحلولية الثنائية الصلبة اليهودية تعني حلول الإله في الشعب اليهودي بحيث يتم استبعاد بقية العالم (الأغيار) من عملية الخلاص . ويمكن أن يحل الإله في أرض هذا الشعب (صهيون) ويستبعد بقية العالم (بقية بلاد العالم وما فيها من شعوب) .

وتتبدى الحلولية الثنائية الصلبة في العقيدة اليهودية من خلال الثالوث الحلولي المقدَّس :

١ ـ الإله :

يختفي الإله الواحد العلي المنزَّه ويظهر بدلاً منه إله يسرائيل الذي يتحد بجماعة يسرائيل (الإنسان) وبأرض وتاريخ يسرائيل (الطبيعة) .

٢ ـ الشعب المقدَّس :

يصبح الشعب اليهودي ، أو جماعة يسرائيل شعباً مختاراً وأمة من الكهنة والمشحاء المخلصين ، بل هو شعب مقدَّس يدخل الإله معه في علاقة حب حميمة تتسم بالغيرة أحياناً . ويُشار إلى الشعب بأنه ابن الإله . وتتعمق هذه المفاهيم في التراث القبَّالي لتدخل دائرة الشرك الصريح ، فالشعب يصبح الشخيناه ، أي جزءاً من الإله وتعبيراً أنثوياً عنه ، نفيه نفي الإله نفسه ، فالإله والشعب يتكونان من جوهر واحد («من يضرب رجلاً من جماعة يسرائيل كما لو كان يهين وجه الإله المبارك اسمه» الحاخام حانينا) . وتميل المعادلة الحلولية إلى صالح الشعب بحيث يصبح عنصراً أساسياً في عملية إصلاح الخلل الكوني (تيقُّون) أو الخلاص وشريكاً فيها . ومن ثم ، فهو الأداة التي يستعيد بها الإله وحدته ، أي أن الإله يصبح معتمداً على اليهود في إصلاح الكون ، وفي إكمال ذاته . واليهود ، بأدائهم الأوامر والنواهي ، إنما يساعدون الإله على استخلاص الشرارات الإلهية المبعثرة (نيتسوتسوت) بعد حادث تهشُّم الأوعية (شفيرات هكليم) .

٣ ـ الزمان والمكان المقدَّسان :

أ) الأرض المقدَّسة (المكان أو الوطن المقدَّس) : تمتد القداسة لتشمل، بطبيعة الحال ، الأرض التي يعيش عليها هذا الشعب المقدَّس ، ويشار إليها باسم «صهيون» ، و«إرتس يسرائيل» . وإذا كان الشعب المقدَّس مختاراً ، فالأرض المقدَّسة هي أرض الميعاد التي سيتحقق فيها الوعد الإلهي لهذا الشعب المختار حين يأتي الماشَّيح ويقود شعبه إليها .

ب) الزمان المقدَّس (التاريخ المقدَّس) : وإذا كان الشعب مقدَّساً ومكانه مقدَّساً فزمانه لا يقل قداسةً . وهذا التاريخ يصبح ذا معنى وشكل محدَّدين من خلال حلول الإله ، فتاريخ جماعة يسرائيل يبدأ بالخروج من مصر بمساعدة الإله ثم دخولها إلى كنعان . وهذه الحركة لا تتم إلا من خلال التدخل الإلهي المباشر والمستمر ، تماماً كما ستنتهي بالعودة من المنفى إلى صهيون (فلسطين) تحت قيادة الماشَّيح الذي سيرسله الإله في آخر الأيام . وعلاقة الشعب بالأرض علاقة عضوية لأن الإله يحل في كليهما ، وما تاريخ الشعب إلا تعبير عن هذه العلاقة العضوية الحلولية .

ولنا أن نلاحظ أن الحلول الإلهي عادةً ما يتركز - في إطار الثنائية الصلبة - في شعب بعينه يصبح مركز الكون ، ولكن الحلول يمكن أن يتركز في الأرض بدلاً من الشعب (ثم في الدولة الصهيونية فيما بعد) . ويمكن أن يتركز الحلول الإلهي في المشناه (التي تصبح اللوجوس) . ولكن ، في هذه الحالة ، ستكون المشناه مجرد تعبير

عن الحلول الإلهي في الشعب . ويمكن أن ينحسر الحلول الإلهي ليتركز في الماشيَّح أو التساديك .

وفي إطار الحلولية الثنائية الصلبة ، أصبحت اليهودية ديانة مغلقة تستبعد الآخرين من نطاق القداسة وشرائع الخلاص ، ولا تشغل نفسها بهم . ومن ثم ، فهي ليست ديانة تبشيرية ولا تشجع أحداً على التهود إلا في لحظات نادرة من تاريخها (في القرن الأول قبل الميلاد وبعده) . وأصبحت رؤية اليهودية للكون استبعادية حادة ضد الأغيار ، وظهر التمركز الحلولي القومي حول الذات .

كما أدَّت الحلولية الثنائية الصلبة إلى تزايد الشعائر التي تهدف إلى عزل الشعب المقدَّس عن الآخرين وعن محيطه ، مثل : الاحتفال بالسبت ، والختان ، وقوانين الطعام ، وتحريم الزواج المُختلَط وشعائر الطهارة . وأصبحت المعايير ازدواجية بحيث أصبح الأغيار في بعض الصياغات مدنَّسين تماماً ، بل إن اتجاه الإله إلى خلق هؤلاء الأغيار على هيئة إنسانية يعود (حسب الرؤية القبَّالية) إلى رغبته في تيسير عملية قيامهم على خدمة اليهود . والأغيار يقعون ، بطبيعة الحال ، خارج دائرة القداسة ، ولذا يكون من المباح سرقتهم وقتلهم .

ويأخذ النسق الحلولي الثنائي الصلب ، من الناحية البنيوية ، شكلاً مخروطياً : دوائر متداخلة متراكمة كل منها أصغر مما يسبقها وتظل الدوائر تَصغُر حتى تصل إلى قمة المخروط التي هي مركز هذه الدوائر . فقاعدة المخروط ، من الناحية الجغرافية (المكان) ، هي العالم ، أما قاعدته التاريخية (الزمان) فهي الأغيار . وفي مركز العالم ، وعلى ارتفاع منه ، تقف إرتس يسرائيل ، الأرض التي اختارها الإله وحباها بنعمه الخاصة . وفي مركز التاريخ ، وعلى ارتفاع منه ، يقف الشعب اليهودي (جماعة يسرائيل) الذي اختاره الإله ليكون أمة من الكهنة والقديسين والأنبياء . وفي وسط إرتس يسرائيل ، وعلى ارتفاع منها ، تقف أورشليم (القدس) . وفي وسط الشعب ، وعلى ارتفاع منه ، يقف الأنبياء والملوك والكهنة . وفي وسط أورشليم يوجد الهيكل ، في داخله قدس الأقداس ، وهو سرة الدنيا (حسب كلمات المشناه) ، يوجد فيه تابوت العهد الذي تُوجَد فيه الوصايا العشر وتحل فيه روح الإله . وأمام التابوت يوجد حجر الأساس (بالعبرية : ايفين شتيَّاه) حيث خُلقت الدنيا . وفي وسط الأنبياء ، يقف الماشيَّح (نبي الأنبياء) وملك الملوك ، والذي يجسد روح الإله . وكان الكاهن الأعظم يدخل قدس الأقداس مرة كل عام (في يوم الغفران) لينطق باسم الإله الأعظم فيكتمل من خلاله الحلول الإلهي في الشعب ومنه إلى بقية الجنس البشري .

وهكذا ، فإن قمة المخروط هي النقطة التي يتحد فيها عاملا الجغرافيا والتاريخ ، ويذوب فيها الزمان في المكان والطبيعة في الإنسان/ الإله ، أي أنها نقطة تحقُّق وحدة الوجود الكامل . ونلاحظ أن بإمكاننا ، حسب هذا البيان ، أن نرى المكانة التي تشغلها جماعة يسرائيل وإرتس يسرائيل ، فهما مركز الكون وعنصران أساسيان لأي خلاص للعالم .

ويُلاحَظ أنه في إطار الثنائية الصلبة يتعادل الإله مصدر القداسة ، مع الشعب الذي تسري فيه القداسة ، ثم ترجح كفة الشعب والمتحدثين باسمه على كفة الإله ، أي أن الثنائية الصلبة تتحول إلى ما يشبه الثنوية : قوتان متعادلتان ، وإن كانا في اليهودية غير متصارعتين ، ولذا فنحن نؤثر تسميتها بـ «الثنوية بنيوية» لتمييزها عن الثنوية التقليدية التي تترجم نفسها إلى صراع بين إله الشر وإله الخير . واليهودية الحاخامية تعادل بين الشريعة المكتوبة (الوحي الإلهي) والشريعة الشفوية (الاجتهاد الحاخامي) . والواضح أن آراء الحاخامات أصبحت متعادلة مع النص الإلهي ، وقد جُمعت هذه الآراء في التوراة الشفوية ، أي في التلمود الذي يُعادل التوراة المكتوبة (أي المرسلة من الإله) بل يتفوق عليها . ويقول التلمود إن الحاخامات كثيراً ما يُظهرون من الحكمة ما لا يستطيعه الإله . وقد حلَّت المشناه محل التوراة فأصبحت هي اللوجوس ، فهي تشبه المسيح في التراث المسيحي ، توجد في عقل الإله منذ الأزل . وتدور القبَّالاه اللوريانية حول مفهوم إصلاح الخلل الكوني (تيقون) وهي عملية يشارك فيها الإنسان ، بل إن الشرارات الإلهية لا يمكن جمعها مرة أخرى ، ولا يستطيع الإله أن يستعيد وحدته إلا بمشاركة الإنسان ، فكأن مقدرة الإنسان معادلة لقدرة الإله .

وتصل الثنائية الصلبة إلى قمتها في المفهوم الحسيدي الخاص بالتساديك ، مركز الحلول الإلهي ، الذي يبلغ من القوة قدراً يجعله يصبح قناة موصلة بين أتباعه والإله ، فأدعيتهم لا يمكن أن تستجاب إلا بعد أن يوصلها هو للإله ، والإله نفسه لا يمكنه أن يفعل شيئاً إلا من خلاله . وإرادته من القوة بحيث يستطيع التأثير في الإله ويستطيع أن يرغمه على تغيير إرادته .

ويمكن القول بأن الحلولية هنا هي حلولية فردية في الحاخامات والتساديك الذين يحلون محل المسيح في المنظومات المسيحية . ولا شك في أن الحلولية اليهودية هنا تأثرت بالعقيدة المسيحية ، فقد وُجدت في تربة مسيحية سلافية حلولية صوفية . ولكن ثمة فارقاً مهماً ، رغم التشابه الظاهر ، وهو أن المسيح ليس قناة موصلة بين الإله وشعب بعينه ، فهو تجسُّد الإله لصالح كل البشر . والمسيح ،

فضلاً عن هذا ، يأتي ويُصلب ويقوم ، فالحلول فردي مؤقت ومتنه . أما الحلول في الحاخامات والتساديك فهو مستمر ومتوارث . ومن ثم ، فإن الحسيدية شكل من أشكال الحلول الثنائية الصلبة (الروحية) على النمط اليهودي القديم رغم تأثرها بالأفكار المسيحية في فكرة التساديك على وجه الخصوص .

وقد ترجمت الثنائية الصلبة نفسها في العصر الحديث إلى الحركة الصهيونية . فبعد موت الإله يبقى الشعب المقدَّس المتمركز في أرضه المقدَّسة (المستوطنون الصهاينة في فلسطين) حيث تنظمهم الدولة الصهيونية صاحبة الإرادة النيتشوية التي تَصدُر عن حقوق مطلقة منحها اليهود لأنفسهم وتساندها القوة العسكرية ، وتقف هذه الدولة أمام الأغيار (الذين يقعون خارج نطاق القداسة) تمارس حقوقها بالقوة وتهدر حقوق الآخرين . والصهيونية تأخذ شكلين ، ثنائية صلبة روحية (الإله يحل في الشعب) وثنائية صلبة مادية (القوة الدافعة للمادة الكامنة في الشعب) ، يترجمان نفسيهما إلى صهيونية دينية وعلمانية . وأخيراً ، ترجمت الثنائية الصلبة نفسها إلى لاهوت موت الإله الذي حوَّل كل ما يحدث للشعب اليهودي (الإبادة) وكل ما يَصدُر عنه من أفعال (الدولة الصهيونية) إلى مُطلق . والشعب اليهودي (مثل المسيح) يُجسد الإله الذي يُصلب . وبدلاً من القيام ، يؤسس هذا الشعب الدولة الصهيونية التي تصبح مطلقاً لا يحق للأغيار التساؤل بشأنها ، وبذا يتحول الشعب الشاهد إلى الشعب الشهيد . ومع هذا ، تجب الإشارة إلى أن الحلولية الثنائية الصلبة اليهودية آخذة في التراجع ، ولكن ما يحل محلها ليس الفكر التوحيدي وإنما الحلولية الشاملة السائلة .

ويمكن القول بأن الصهيونية الحلولية العضوية هي تعبير عن الحلولية الصلبة ، أما صهيونية عصر ما بعد الحداثة فهي تعبير عن الحلولية السائلة .

السيولة الشاملة (في القرن العشرين)
Total Flux (in the Twentieth Century)

أخذت الحلولية الكمونية اليهودية عبر تاريخها الطويل الشكل الثنائي الصلب (الإثنيني أو الثنوي) . ويستمر هذا الوضع قائماً حتى نهاية القرن الثامن عشر (وحركة التنوير اليهودي) . وبعد ذلك التاريخ ، بدأت الثنائية الصلبة في الانحلال إذ تتجه الحلولية نحو المرحلة السائلة التي تبدأ عادةً بظهور نزعة عالمية أممية بين بعض أعضاء الجماعات اليهودية ينادون بأيديولوجية عالمية يرون أنها الطاقة الدافعة للمادة المسيِّرة للكون الكامنة في كل البشر وليس في اليهود وحسب ، وكامنة في الطبيعة ككل وليس في أرض بعينها . وقد بدأت هذه النزعة العالمية في الظهور مع تفاقم أزمة اليهودية الحاخامية (وظهور شبتاي تسفي وإسبينوزا) ومع تزايد اندماج اليهود في الحضارة الرأسمالية والاشتراكية (العلمانية) الصاعدة وتحوُّلهم من جماعات وظيفية (حلولية ثنائية صلبة) إلى أعضاء في الطبقات المختلفة للمجتمع (حلولية شاملة سائلة) ، وتحوَّل المفكرون اليهود من مفكرين يهود إلى مفكرين علمانيين عالميين يدينون بالولاء إما للدولة القومية المطلقة أو للطبقة العاملة أو الجايست أو روح الشعب . . . إلخ ، أو أي مطلق علماني عالمي شامل ، وأصبح الهدف من وجود اليهود هو خدمة الإنسانية والاندماج ، بل الانصهار فيها .

ويُلاحَظ أن هذه النزعة نحو العالمية قد تشكِّل تفكيكاً للثنائية الحلولية الصلبة ، ولكنها لا تعني الوصول بعد إلى مرحلة السيولة إذ أن رؤية الكون تظل متمركزة حول اللوجوس ، فمفهوم الإنسانية يشكِّل الركيزة الأساسية التي يدور حولها النسق وموضع الحلول ومصدر التجاوز .

ويمكن ملاحَظة أن هذه النزعة العالمية كانت كامنة في المشيحانية اليهودية التي عبَّرت عن نفسها من خلال شكلين :

أ) حركات مشيحانية ثنائية صلبة تدور حول خلاص اليهود واليهود وحدهم ، وهو خلاص يأخذ شكل عودة إلى أرض الميعاد تحت قيادة الماشيَّح .

ب) حركات مشيحانية عالمية سائلة ترى أن خلاص اليهود يعني سقوط كل الحدود وانتهاء رسالتهم واختفاءهم باندماج جميع البشر . ولكن هذه النزعة نحو العالمية والمساواة ، تتعمق وتأخذ شكلاً ثورياً متطرفاً ، إذ تظهر نزعة إلى لحظة مشيحانية كونية ، حلولية عضوية كاملة يصبح الجزء فيها متوحداً تماماً مع الكل ، وتتوحد فيها الدوال مع المدلولات ، ويمكن التواصل بشكل مطلق إذ لا توجد مسافة تفصل بين البشر .

وتتسم هذه المرحلة بأنها تتضمن رفضاً كاملاً للحدود ، أي أنه تعبير عن الرغبة في الانسحاب من حالة التاريخ الإنسانية (المجتمع الشيوعي في حالة ماركس - لحظة الإفصاح الجنسي الكامل عن النفس عند فرويد) . وهذه الرؤية رغم ثوريتها وعالميتها إلا أنها تشكل نقداً لا لحالة إنسانية بعينها وإنما للحالة الإنسانية ككل ، وهي تعبير عن الرغبة في الوصول إلى حالة اليوتوبيا التكنولوجية أو البيروقراطية حتى نصل إلى القانون العام الذي يمكن التحكم من خلاله في العالم ويمكن التعبير عن الإنساني من خلال لغة جبرية كمية دقيقة .

ولكن حينما تزال الحدود تماماً بين الإنسان والإنسان تزال الحدود أيضاً بين الإنسان والطبيعة ، وتتم المساواة بين الإنسان والطبيعة وبين الخير والشر وبين الذكر والأنثى ، أي يتم إلغاء كل الثنائيات ، وهنا تبدأ الحلولية السائلة تطل برأسها إذ يصبح الهدف من وجود الإنسان في الكون هو التناغم معه بمعنى الذوبان الكامل فيه ، ومن ثم تختفي أية منظومة معرفية وأخلاقية ، وتظهر الترخيصية والإباحية والإباحة الكاملة (هاجم الشبتانيون والحركة الفرانكية كل العقائد والديانات بشكل باطني ، وهذا ما فعله إسبينوزا فقد هاجم العقيدة اليهودية والعهد القديم ، ولكن هجومه كان في واقع الأمر على العقائد الدينية ككل وعلى كل الثنائيات الكامنة فيها) .

ويمكن القول بأن تاريخ اليهودية منذ ذلك الحين هو تاريخ التأرجح بين الحلولية الثنائية الصلبة (المادية أو الروحية) والحلولية الشاملة السائلة (المادية أو الروحية) مع الاتساع التدريجي لنطاق الرؤية العالمية والحلولية السائلة . ويبدأ فكر حركة التنوير اليهودية بمحاولة التوفيق بين اليهودية وروح العصر . وروح العصر هنا هي مطلق كامن في الزمن لا يميِّز اليهود عن الأغيار وإنما يجمع بينهم . وقد انتشر الفكر الربوبي بين اليهود ، وهو فكر حلولي عالمي ، فالإله يحل في الطبيعة ويستطيع العقل البشري أن يحيط به دون حاجة إلى كتب سماوية أو إلى أية خصوصية دينية ، فكتاب الطبيعة مفتوح أمام الجميع . وقد ورثت حركة التنوير اليهودية هذه الفكرة ، وتأثرت بها اليهودية الإصلاحية التي بدأت ترى الإله كمبدأ واحد يسري في المخلوقات ولكنها احتفظت باسم الإله (حلولية شحوب الإله) .

وتشكل اليهودية المحافظة عودة إلى الحلولية الثنائية الصلبة إذ إن مركز الحلول يصبح الشعب اليهودي ومؤسساته القومية . وتحتفظ اليهودية المحافظة باسم الإله ، ولكنه إله غير متجاوز ، كتعبير عن الذات اليهودية ، ولذا فهي تظل في إطار وحدة الوجود الروحية وشحوب الإله . والصهيونية هي الأخرى عودة للثنائية الصلبة ، فبعد موت الإله يبقى الشعب المقدَّس المتمركز في أرضه المقدَّسة (المستوطنون الصهاينة في فلسطين) حيث تنتظمهم الدولة الصهيونية صاحبة الإرادة النيتشوية التي تَصدُر عن حقوق مطلقة منحها اليهود لأنفسهم وتساندها القوة العسكرية ، وتقف هذه الدولة أمام الأغيار (الذين يقعون خارج نطاق القداسة) تمارس حقوقها بالقوة وتهدر حقوق الآخرين . والصهيونية تأخذ شكلين ، ثنائية صلبة روحية (الإله يحل في الشعب) وثنائية صلبة مادية (القوة الدافعة للمادة الكامنة في الشعب) ، يترجمان نفسيهما إلى صهيونية دينية أو إلى علمانية . وأخيراً ترجمت الثنائية الصلبة نفسها إلى لاهوت موت الإله .

ويتسع نطاق الحلولية ليصل إلى اليهودية الإنسانية الإلحادية التي ترى أن الإيمان الحق باليهودية يعني الإيمان الحق بالإنسانية ، ومن ثم فإن جوهر اليهودية الحق يتحقق من خلال اختفائها ، بل اختفاء الإله بالتحامه الكامل بالمادة . ومع اختفاء الإله ، تتعدد المراكز وندخل يهودية عصر ما بعد الحداثة حيث يُعلَن موت الإله ويظهر عالم لا مركز له كل ما فيه متساو نظراً لتحقُّق الحلولية الشاملة السائلة التي تذيب حدود الأشياء فتختفي جميعاً .

عند هذه اللحظة ، يمكن أن يحدث أي شيء وكل شيء ، فتظهر اليهودية المتمركزة حول الأنثى ، وينضم أعضاء الجماعات اليهودية بأعداد متزايدة إلى الماسونية والبهائية والعبادات الجديدة ، وكلها عقائد حلولية شاملة سائلة ذات طابع واحدي ، تنكر أي ميتافيزيقا . ولعل هذه الحلولية الشاملة السائلة هي الإطار الذي تدور فيه النزعة التفكيكية (الهرمنيوطيقا المهوطقة) التي يتسم بها كثير من المفكرين ذوي الأصول اليهودية إذ نجدهم يتجهون نحو رفض المجتمع بقضه وقضيضه ، بل التاريخ الإنساني بأسره نتيجة رفضهم كل الحدود . ومن هنا ، ينخرط المثقفون من أعضاء الجماعات اليهودية بشكل ملحوظ في حركات ما بعد الحداثة بكل ما تتسم به من عدمية ناجمة عن الراديكالية المعرفية والأخلاقية التي تنكر أي يقين معرفي أو مطلقية أخلاقية وأية مرجعية متجاوزة ، إنسانية كانت أم إلهية ، حيث تسود حالة من اللامعنى واللا تواصل في عالم لا طعم له ولا لون ولا رائحة ، أي عالم لا مركز له ولا حدود ، عالم العودة إلى الحالة الجنينية وإلى سكون الرحم .

الثنوية (أو الاثنينية) اليهودية

Jewish Dualism

«الثنوية» أو «الاثنينية» هي الفكرة القائلة بأن الوجود يتكون من قوتين مطلقتين أو عنصرين أساسيين جوهريين متوازيين متعارضين (ثنائية صلبة) لا يلتقيان ، إله الخير وإله الشر ، وهما دائماً في حالة صراع . ومع هذا ، توجد نقطة نهائية في التاريخ يتم من خلالها القضاء على هذه الثنوية إذ يهزم إله الخير إله الشر أو يمتزجان ليكونا واحدية كونية . والثنوية أحد أشكال الحلولية ، وهي من ثم تعبير عن فشل في الوصول إلى النضج النفسي وعن الفشل في التجريد وفي تَقبُّل تركيبية العالم .

واليهودية تركيب جيولوجي تراكمي ذو طابع حلولي ، ولذا نجد أنها قد استوعبت عناصر ثنوية عديدة (من العبادات الفارسية على وجه الخصوص) أثرت في عقائدها وشعائرها وبنيتها . وتظهر هذه العناصر في مخطوطات البحر الميت ولدى الجماعات الغنوصية أو شبه الغنوصية اليهودية ثم أخيراً في الثنوية المباشرة التي تتبدّى في شعائر وشخصيات خرافية مثل عزازيل وميتاترون ، وكذلك في بعض الملائكة الآخرين الذين أصبحوا قوة مستقلة عن يهوه لها وجود مستقل عنه وتُقدَّم لها القرابين تماماً كما تُقدَّم له ، كما كان يحدث في يوم الغفران حينما كان كبير الكهنة يُقدِّم كبشين : أحدهما ليهوه والآخر لعزازيل . وهذه الشخصيات والشعائر تفترض وجود قوتين إلهيتين ، إحداهما للخير والأخرى للشر ، وهي شخصيات وشعائر تقبلتها اليهودية كتركيب جيولوجي تراكمي . وقد تحولت التوارة في اليهودية الحاخامية إلى قوة معادلة للإله تحوي سرّ الكون ، نظر إليها الإله وخلق العالم (فهي اللوجوس الذي يمنح العالم النظام والثبات والشكل النهائي المستقر) . وتُعبِّر التوراة عن الحياة الداخلية للإله ولكنها مستقلة عنه . ولذا فهي تجلس إلى جواره على العرش ، فهي إذن تجسِّد له ولكنها مستقلة عنه .

وقد تفجرت هذه الثنوية في التراث القبَّالي ، فنجد أنها ثنوية تشبه تماماً ثنوية الأنساق الغنوصية ، فهناك ثنوية الإين سوف (الديوس أبسكونديتوس أو الإله الخفي اللامتناهي) مقابل التجليات النورانية ، وهناك السترا أحرا (الجانب الآخر المظلم) الذي يمثل الشر والظلام مقابل الخير ، والشخيناه هي لوجوس تجلس إلى جوار الخالق على عرشه ويقابلها الإله نفسه ، كما أن الشخيناه نفسها يقابلها الشخيناه المدمرة التي تصدُر عن السترا أحرا . والثنوية قد تختلف من بعض الوجوه عن الحلولية الثنائية الصلبة ولكنهما ، في نهاية الأمر ، شيء واحد : فالأولى إن هي إلا حالة متطرفة متبلورة وتصور منطقي للثانية . ويُلاحَظ أن الثنوية اليهودية تؤدي إلى توازي قطبي الثنوية لا الصراع بينهما ، ومن ثم فنحن نشير إليها بأنها «ثنوية بنيوية» . وهي ، في هذا ، تختلف عن الثنوية الفارسية ذات الطابع الصراعي الحاد .

القداســــة فــــي اليهوديـــــة

Jewish Concept of Sacredness and Sanctity

الرؤية التوحيدية للقداسة موجودة في اليهودية كطبقة ضمن الطبقات الجيولوجية . ولكن هناك ، فوقها وتحتها ، طبقات أخرى من أهمها الطبقة الحلولية التي يستطيع اليهودي في إطارها ألا يشارك في القداسة وحسب ، وإنما يتوحد مع الإله تماماً ويصبح في قداسته . وانطلاقاً من هذه الرؤية الحلولية الثنائية الصلبة التي كانت موجودة بشكل كامن في العهد القديم ، ثم تبلورت في التلمود وأخذت شكلاً متطرفاً في القبَّالاه ، نجد أن القداسة لم تَعُد حالة يشارك الإنسان فيها من خلال التدريبات الروحية والأعمال الأخلاقية وإنما أصبحت سمة عضوية مُتوارثة ناتجة عن الحلول الإلهي الدائم .

وإذا كانت القداسة هي الصفة الإلهية التي تفصل الإله (المطلق) عما هو غير مقدَّس (دنيوي ونسبي) ، فإن الشعب اليهودي قد سرت فيه هذه القداسة وأصبح يتسم بهذا الانفصال حينما عقد الإله العهد معه . وبذلك ، انقسم العالم بأسره داخل إطار الحلولية الثنائية الصلبة إلى قسمين : اليهود المقدَّسين الذين يعيشون داخل دائرة القداسة ، والأغيار الذين يعيشون داخل التاريخ فقط وخارج دائرة القداسة . والأرض التي يقطنها الشعب اليهودي ، صهيون أو إرتس يسرائيل ، أصبحت هي الأخرى الأرض المقدَّسة التي لا تسري عليها القوانين التاريخية النسبية العادية . كما أن تاريخ هذا الشعب يصبح أيضاً تاريخاً مقدَّساً تختلف بنيته ومساره وقصده عن التواريخ الإنسانية إذ يتسم بالحلول الإلهي فيه .

ولكل هذا ، نجد أن المسافة بين الإله والإنسان وبين الواقع والمثل الأعلى تختفي تماماً ويحل محلها الحوار (الديالوج) الدائر بين الإله والشعب . والإله المقدَّس لا يختلف كثيراً عن الشعب المقدَّس ، فهو يوحي إلى الشعب بما يريد أن يسمع . وهو قد اختارهم لأنهم اختاروه كما جاء في التلمود ، وكما يقول بن جوريون . وحينما ذهب الشعب المقدَّس إلى سيناء ، فإنه كان يحمل روح الشريعة المقدَّسة التي تلقاها من الإله ، كما يقول مارتن بوبر ، أي أن روح الشعب والقداسة هما شيء واحد . والقداسة نفسها تسري على مؤسسات اليهود الدنيوية القومية كافة أو تحل فيها . إن نسل الملك داود مقدَّس إذ أن الماشيَّح سيكون من بينهم . واللاويون مقدَّسون منفصلون عن بقية الشعب لأنهم من سبط الكهنة . ويوم السبت مقدَّس لأنه اليوم الذي استراح فيه الإله بعد خلق العالم في ستة أيام ، وهو أيضاً اليوم الذي خرج فيه اليهود من مصر ، ولذلك فهو منفصل عن بقية أيام العمل العادية . واللغة العبرية هي اللسان المقدَّس (لاشون هقودش) .

ويصل حد خلع القداسة على كل شيء قومي إلى درجة أن التلمود (تفسير العلماء اليهود للعهد القديم) يصبح أكثر قداسة من العهد القديم (الكتاب المقدَّس) نفسه . بل إننا نكتشف ، من خلال قراءتنا في التراث الديني اليهودي ، أن الحوار بين الإله والشعب

يصل إلى درجة أن قداسة الإله تصبح من قداسة الشعب ، وليس العكس . فقد جاء في أحد كتب المدراش : "حينما تنفذ يسرائيل إرادة الإله ، فإنها تضيف إلى إرادة الإله في الأعالي ، وحينما تعصى يسرائيل إرادة الإله فكأنها تضعف القوة العظمى للإله في الأعالي" . ويفسِّر أحد كتب المدراش فقرة من إصحاح أشعياء (٤٣/ ١٢) : «وأنتم شهودي - يقول الرب ، وأنا الإله» ، وذلك على النحو التالي : "حينما تكونون شهودي أكون أنا الإله ، وحينما لا تكونون شهودي فأنا (كأنني) لست الإله" . فكأن ألوهية الإله ، بل وجوده ، لا يتجاوز الإرادة والوجود اليهوديين .

وفي تراث القبَّالاه ، وصل الإيمان بقداسة الشعب إلى أشكال في غاية التطرف إذ ذهب بعض القبَّاليين إلى أن اليهود قد خُلقوا من طينة مقدَّسة مختلفة عن الطينة التي خُلق منها الأغيار . وبالتالي ، تكون أفعال اليهود كلها مقدَّسة لأنها تساهم في عملية إصلاح الخلل الكوني (تيقون) التي يستعيد الإله من خلالها ذاته وكذلك الشرارات الإلهية المشتتة .

ومن خلال مفهوم الشرارات الإلهية المبعثرة ، توصَّل الشبتانيون إلى أن القداسة توجد في الخير وجودها في الشر إذ أن الشرارات الإلهية قد علقت بكل شيء ، ومن ثم فإن القداسة شملت كل شيء وأصبحت المبدأ الواحد الذي يسري في الكون ويتخلل ثناياه وبرزت فكرة الخطيئة المقدَّسة (أساساً في الحركة الفرانكية) التي تذهب إلى وجوب الانغماس في الرذيلة حتى يمكن الصعود إلى القداسة . وقد تبدَّى هذا في مفهوم الخلاص بالجسد .

وقد ورثت الصهيونية هذا المفهوم الحلولي للقداسة التي تتركز في الشعب المقدَّس والأرض المقدَّسة وفي زمانه أو تاريخه أو روحه المقدَّسة ، ولكن الصهاينة قاموا بعلمنة هذا المفهوم الحلولي بحيث يُترك مصدر القداسة غير محدَّد : فهو الخالق بالنسبة للمتدينين ، وهو روح الشعب أو أية مقولة دنيوية أخرى بالنسبة للمُلحدين . والقداسة تحل أيضاً في مختلف الممتلكات القومية التي يملكها الشعب . ولذا ، نجد أن أحد زعماء الجوش إيمونيم (الحاخام تسفي كوك) يقول : إن الجيش الإسرائيلي هو القداسة بعينها . ومن قبله قال بن جوريون : إن الجيش هو خير مفسر للتوراة . ومن هذا المنظور الحلولي ، يمكن أن نفهم مُصطلحات صهيونية مثل «الحدود التاريخية» و«إسرائيل الكبرى» . فالحدود التاريخية هي الحدود المقدَّسة وإسرائيل الكبرى هي الأرض المقدَّسة .

وقد دخلت اليهودية عصر ما بعد الحداثة حيث تتوزع القداسة على كل المخلوقات فتساوي بينهم وتسويهم وتدخل في حالة سيولة شاملة تصبح فيها التفرقة بين المقدَّس والمدنَّس وبين اليهودي وغير اليهودي أمراً مستحيلاً .



٣
إشكالية علاقة الغنوصية باليهودية

الغنوصية: تعريف ـ الغنوصية: تاريخ ـ الأصول اليهودية للغنوصية ـ الغنوصية والصهيونية ـ الغنوصية والقبّالاه ـ الهندوكية والقبّالاه

الغنوصية : تعريف

Gnosticism : Definition

«الغنوصية» من الكلمة اليونانية «غنوصيص»، ومعناها «علم» أو «معرفة» أو «حكمة» أو «عرفان». وفي التراث العربي الإسلامي، تُستخدَم كلمة «عرفان» عند المتصوفين لتدل على نوع أسمى من المعرفة يُلقَى في القلب في صورة «كشف» أو «إلهام». و«العرفان»، حسب تعريف المؤرخين له، هو العلم بأسرار الحقائق الدينية والخصائص الإلهية، وبكل ما هو سري وخفي (كالسحر والتنجيم والكيمياء)، وهو (من وجهة نظر صاحب العرفان) أرقى من العلم الذي يحصل لعامة المؤمنين البسطاء أو لأهل الظاهر من العلم الديني الذين يعتمدون النظر العقلي، و«العرفاني» هو الذي لا يقنع بظاهر الحقيقة الدينية بل يغوص في باطنها لمعرفة أسرارها. وهي معرفة تقوم على تعميق الحياة الروحية واعتماد الحكمة في السلوك وهو ما يمنح القدرة على استعمال القوى التي هي من ميدان الإرادة (ومن ثم تصبح الإرادة بديلاً للعقل). فالمعرفة هنا لا تعني العلم، أي اكتساب معارف، بل بذل مجهود متواصل بقصد التطهير والتخلص من الأدران والتوصل للصيغة الغنوصية اللازمة لرحلة العودة للاندماج من جديد في العالم الإلهي الذي جاء منه الإنسان. والغنوصية ترى أن ثمة جوهراً واحداً يجمع بين كل الديانات ولذا لا تقدم نفسها كديانة جديدة، بل كباطن للشريعة القائمة. ومهمة الغنوص الكشف عن المغزى العميق للعقيدة (ولكل العقائد) التي يسعى إليها الغنوصي بواسطة معرفة باطنية وكاملة لأمور الدين. ويتم التمييز بين الغنوصية كموقف من العالم (غنوص عملي) والغنوصية كنظرية لتفسير الكون (غنوص نظري) ولكنهما بطبيعة الحال مرتبطان تمام الارتباط، وخصوصاً أن الغنوص النظري نفسه ذو توجُّه عملي، فالعرفان يتم التوصل إليه من خلال طقوس وشعائر محددة.

والغنوصية حركة فلسفية وتعاليم دينية متنافرة تأخذ شكل أنساق أسطورية جميلة في غاية التنوع وعدم التجانس، انتشرت في الشرق الأدنى القديم في القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد. ورغم أن أساطيرها وتعاليمها وأفكارها غير متجانسة، بل تنافرها، يمكن القول بأن ثمة بنية كامنة واحدة أو نموذج معرفي واحد، ذلك أن المنظومات الغنوصية كافة منظومات كمونية حلولية واحدية تبحث عن مبدأ واحد مطلق يحكم الكون بأسره، كما تبحث عن قانون شامل من غير ثغرات يعبِّر عن الواحدية الكونية التي ترد الكون بأسره إلى مبدأ واحد ومن ثم يذوب الكل في الجزء وتصبح الركيزة النهائية كامنة في المادة، ولذا يتحقق النموذج في لحظة التوحد الكامل بين الخالق ومخلوقاته (وباختفاء الإنسان في مقولات أكبر منه)، أي أنها تنتهي بموت الإله ثم بموت الإنسان). وهي محاولة لتفسير كيفية خروج النسبي من المطلق، والشر من الخير، وتجيب عليها بإجابات بسيطة بل ساذجة من خلال الأنساق الأسطورية التي تختزل الواقع الإنساني والتاريخي المركب. وتستخدم الغنوصية مفردات الحلولية الكمونية الواحدية وصورها المجازية (الجسد ـ الجنس ـ الرحم ـ الأرض) لإدراك العالم.

تبدأ المنظومة الغنوصية من نقطة فردوسية لا تحتوي إلا على النور والقداسة، حالة تماسك واحدية عضوية لا يوجد فيها كل منفصل عن الأجزاء، ولا توجد فيها ثغرات (حالة البليروما). ويوجد الإله الخفي (باللاتينية: ديوس أبسكونديتوس deus absconditus) وراء البليروما، وهو إله متعال لا يقبل الوصف متجاوز تماماً للدنيا حتى حد التعطيل، غير مكترث بها أو معاد لها، والطبيعة لا تعبِّر عنه أو عن مقاصده. هذا الإله الواحد لم يخلق العالم دفعة واحدة من العدم وإنما من خلال عملية تدريجية من خلال الفيض والصدور ففاضت مخلوقات تُسمَّى الأيونات وهي القوى الروحية الأولية وهي بمثابة تشخُّصات للإله. وأهم الأيونات هي الإنسان نفسه الإنسان الأول وآدم قدمون أو أنثروبوس الذي هو نفسه الإله أو ديوس. ومن أهم الأيونات الأيون المسمى «صوفيا» أو «الحكمة».

وتذهب الغنوصية إلى أن الكون شرير ومعاد، وأن العالم

سجن والزمان ردئ ، وأن الإنسان لا ينتمي إلى هذا العالم وأنه وقع فيه وفي الزمان لا لذنب اقترفه أو لشر متأصل فيه وإنما بسبب خلل كوني أدى إلى تسرُّب بعض الشرارات الإلهية بحيث حُبست داخل المادة . والإنسان هو جزء من هذه الشرارات ، فهو ينتمي إلى العالم النوراني ، عالم الإله الخفي . ولن يتم الخلاص ولن يبلغ الإنسان الكمال (الذي هو اسم آخر للنجاة والخلاص) إلا من خلال معرفة خفية باطنية (غنوص) تتصل بالحقيقة الكلية الشاملة ، وهي معرفة أو عرفان يفضي بالإنسان إلى معرفة بالإله ، فالإله هو في نهاية الأمر الإنسان ، والإنسان هو الإله ، أو على الأقل ينتميان لعالم واحد ، وقد صيغ من مادة واحدة أو جوهر واحد ، ولذا فإن الخلاص والكمال هو اتحاد الذات الإنسانية مع الألوهية اتحاداً جوهرياً وانتهاء العالم . وقد لخص ثيودوتوس الغنوصية في عبارته الشهيرة ، فقال "معرفة من كنا ، وماذا أصبحنا ، وأين كنا ، وفي أي مكان أُلقي بنا ، وإلى أي مكان نحث الخطى ، وكيف نحصل على الخلاص ، وما الميلاد ، وما الميلاد الجديد ؟" .

وقد أصبحت كلمة «غنوصية» في اللغات الغربية عَلَماً على المذاهب الباطنية وعلى الهرطقات الجوهرية التي تقف على الطرف النقيض من العقائد السماوية التوحيدية . ويمكن القول بأن الغنوصية ليست شكلاً من أشكال التصوف الذي يدور في إطار توحيدي ويدعو إلى كبح جماح الجسد حتى يقترب الإنسان من الإله وهو يعرف أن الاتحاد به مستحيل (فهو إله مفارق متجاوز للطبيعة والتاريخ) . ومثل هذا التصوف يتبدَّى في التاريخ في شكل فعل أخلاقي وسلوك اجتماعي يدل على طاعة الإله . تقف الغنوصية على طرف النقيض من هذا النوع من التصوف (التوحيدي) ، فهي تهدف إلى الالتصاق بالإله والاتحاد معه بهدف الوصول إلى المعرفة الباطنية والصيغة النهائية (الغنوص) التي يمكن عن طريقها التحكم في الواقع وفي البشر بل في الإله ، فهي شكل من أشكال التصوف الحلولي الكموني ووحدة الوجود الروحية . وهي ، في هذا ، تشبه القبَّالاه التي تحاول الوصول إلى المعرفة الباطنية ولا تكترث كثيراً بالتمارين الصوفية ، وذلك باعتبارها محاولة للاقتراب من الخالق ، فكل همها هو تحقيق الالتصاق بالإله والوحدة معه بهدف المعرفة من أجل التحكم (في الكون بل في القوة الخفية السارية فيه ، أي الإله) .

ونحن نطرح نموذجاً توليدياً لدراسة الغنوصية وتفسير سر انتشارها ، فنذهب إلى أنها رؤية للكون تستجيب لشيء جوهري في الإنسان ، وهو ما نسميه النزعة الرحمية ، أي الرغبة في الانسحاب إلى الرحم وفقدان الهوية وتصفية الثنائيات الأخلاقية والمعرفية .

وقد أورد كاتب مدخل «الهرمسية» في **موسوعة تاريخ الأفكار** ما يسميه «مجموعة أفكار الفوضى» (بالإنجليزية : كيوس سندروم chaos syndrome) وهي محاولة من جانبه لأن يرصد بعض السمات الأساسية للرؤية الكونية الكامنة وراء المنظومات الغنوصية (ومنها الهرمسية) وقد أوردها على النحو التالي :

١ - يخلق الإله العالم من مادة قديمة .

٢- تتم عملية الخلق نتيجة تصادم ضخم أو لقاء جنسي بين عنصرين أساسيين .

٣ - الخلق يتضمن عناصر من الغريب واللامعقول .

٤ - التغير والظلام والطمي تنتج الحياة .

٥ - الثعبان والمخلوقات الهجين هي رمز الطاقة ويتم تأليهها .

٦ - العالم جسد يجدد نفسه دائماً ، ومن هنا العود الأبدي .

٧ - «كما هو في الأعالي ، كذلك في هذا العالم» أي عقيدة التقابل بين السماء والأرض والعرفان الكوني .

٨ - يمكن أن ينزل الإله إلى هذا العالم ليشارك في الأمور الإنسانية ويصبح عاملاً من عوامل إدخال الخضرة . والإله لا يتجاوز عملية التحول والعذاب التي تُعَد جزءاً من عملية الخلق والميلاد .

٩ - يستطيع الإنسان أن يرتفع لمنزلة الآلهة .

١٠ - «الهبوط الثمين» هو الهبوط في الظلمات ومواجهة وحوش الأعماق أمر ضروري ومصدر لتجربة حيوية يمر بها البشر والآلهة .

وهو يرى أن هناك بعض المنظومات الدينية الشعبية تتسم بكل أو بعض هذه الصفات . والمنظومات الغنوصية تنتمي إلى هذا النمط في تصوُّرنا .

والغنوصية هي النموذج المتكرر والكامن وراء معظم (إن لم يكن كل) الفلسفات والأنساق الحلولية الكمونية الواحدية (الروحية والمادية) عبر التاريخ ، وهي أهم تعبير عن الواحدية الكونية وعن النزعة الطبيعية المادية ، وأكثرها تبلوراً ، وهي القواعد أو النحو العالمي الكوني للهرطقة ، الذي وُلدت منه كل أنواع الهرطقات المادية المعادية للإله والإنسان ، علمانية كانت أم «دينية» ، وهي هرطقات ليست معادية للإله المتجاوز وحسب وإنما معادية للإنسان باعتباره كائناً فريداً مركباً حراً متعدد الأبعاد قادر على تجاوز ذاته الطبيعية وعلى تجاوز الطبيعة/ المادة وعلى اتخاذ مواقف أخلاقية تنبع من حريته وإحساسه بالمسئولية وبهويته وحدوده . أي أن الإلحاد الغنوصي إلحاد جوهري وجذري وتعبير عن عداء عميق لظاهرة الإنسان نفسها . وانطلاقاً من نموذجنا التوليدي ، فإننا نذهب إلى أن الغنوصية قائمة منذ بداية التاريخ . وقد ظهرت الحركة المسماة

بالغنوصية في لحظة تاريخية شعرت فيها قطاعات كبيرة من سكان المدن في الإمبراطورية الرومانية بضياعها وعدم انتمائها وغربتها عما حولها . وبعد القضاء على الغنوصية كحركة ، ظلت المنظومة الغنوصية منتشرة بين الجماهير (بعد القضاء على قيادتها) ، ذلك على هيئة الممارسات والعقائد الدينية الحلولية الواحدية المختلفة تحت أسماء مختلفة . وقد أحرزت الغنوصية نجاحاً فائق النظير في حالة النسق الديني اليهودي إذ تصاعدت معدلات الحلولية حتى أصبحت اليهودية عقيدة غنوصية من خلال القبَّالاه . وقد أحرزت الغنوصية انتصارها الأكبر مع ظهور العلمانية (الحلولية الواحدية المادية ووحدة الوجود المادية) . فالفلسفات والأنساق العلمانية ، هي بمعنى أو آخر ، شكل من أشكال الغنوص . ومن المعروف أن الظروف التي عاش فيها أتباع الحركة الغنوصية لا تختلف كثيراً عن الظروف التي يعيشها الإنسان الحديث في المدينة الحديثة أو في المجتمعات الحديثة التي تم ترشيدها وإخضاعها لمعايير الكفاءة المستمدة من نماذج طبيعية/ مادية يُقال لها «علمية» .

الغنوصية : تاريخ

Gnosticism : History

تُلقي الخلفية التاريخية والثقافية للغنوصية الكثير من الضوء على بنيتها . ويبدو أن جذورها تعود إلى القرنين الأخيرين قبل الميلاد، ولنتخيل أن مواطناً في الألف الأخير قبل الميلاد ، في الشرق الأدنى القديم ، كان يعيش في كنف الإمبراطورية الفارسية ، وهي إمبراطورية شرقية قد تكون غريبة عليه ، ولكنها مع هذا لها تقاليدها الحضارية الشرقية القريبة من تقاليده ، كما أنها كانت إمبراطورية مترامية الأطراف ، اعتمدت أسلوباً في الإدارة مبنياً على عدم المركزية وعلى السماح للجماعات المحلية بقدر من الإدارة الذاتية ، فكانت تُحصِّل الضرائب من خلال كبار الملاك المحليين ، الأمر الذي ترك الريف دون تَدخُّل عنيف من القوة الإمبراطورية الأجنبية ، ومن ثم لم يتغير أسلوب الحياة فيه .

وجاءت الإمبراطورية اليونانية بثقافتها الهيلينية ، وقد أسس هؤلاء الغزاة مدناً قوامها فرق من المرتزقة والمستوطنين الأجلاف الذين كانوا لا يعرفون من الثقافة الإغريقية غير القشور (مثل السيرك والألعاب) ، ولحقت بهم جماعات من المثقفين . ثم بدأت حركة هجرة داخل الإمبراطورية الهيلينية نحو هذه المدن ، وهو ما أدَّى إلى نموها وتضخُّم حجمها ، ولذا كانت هذه المدن تختلف عن المدن/ الدول اليونانية . فالعلاقات الإنسانية في المدينة/ الدولة كانت متعيِّنة متجانسة ، لأن المدينة/ الدولة كانت وحدة صغيرة تكاد تكون عضوية في تماسكها ، إذ كان يشارك الجميع في العملية السياسية والأحداث الثقافية ، وكان ينتظم كل هذا إطار العبادة الوثنية الهيلينية . ويُقال إن تجربة الإنسان اليوناني داخل المدينة/ الدولة يشكل أساس الأنطولوجيا الغربية الكلاسيكية : الكل يسبق الأجزاء، والكل أحسن من الأجزاء ، والكل هو الغاية والأجزاء هي الوسيلة . وكان الفرد هو الجزء في هذه المنظومة ، والمدينة/ الدولة هي الكل ، وكان الفرد يشعر بهذه المقولات بشكل متعيِّن ومباشر من خلال تجربته الحياتية اليومية ، هذا على النقيض من المدن اليونانية في الشرق فقد كانت أكبر حجماً وكانت تضم عناصر بشرية غير متجانسة لكلٍّ دينها وشعائرها وتجربتها التاريخية . ولذا ، كانت كل جماعة تنكفئ على ذاتها وتنعزل عن المدينة ، ولكنها كانت في الوقت نفسه تفقد هويتها لبعدها عن مراكز الحضارة الخاصة بها ، وكانت تكتسب الخطاب الحضاري اليوناني أو قشوراً أو شذرات منه عن وعي أو عن غير وعي فيمتزج بخطابها الحضاري ويحل محله في بعض الأحيان . وكانت هذه المدن مدناً دولية تصلها التجارة من كل أنحاء الأرض (الصين وأوربا) وتُقام فيها أسواق ضخمة لها إيقاعها السريع وحجمها الضخم . ومن ثم ، لم يكن بوسع الفرد أن يمارس علاقة عضوية مع الآخرين أو مع المدينة .

إلى جانب كل هذا ، كان يوجد انقسام حاد بين النخبة الإغريقية الحاكمة في المدينة والنخب الأخرى (المصرية واليهودية والفارسية) التابعة لها من جهة ، ومن جهة أخرى الجماهير التي كانت : إما تأغرقت بشكل سطحي أو ظلت شرقية في تراثها وهويتها . وإلى جانب هذا الصراع الثقافي ، كان يوجد صراع طبقي إذ أن استغلال الطبقات الحاكمة قد تزايد (وخصوصاً في مصر) بسبب تزايد قبضة البيروقراطية تحت حكم اليونان ، وكان المصريون يدفعون الضرائب للتاج وللمدن التي كانت تمارس حقوقها على الأراضي الزراعية التي تملكها ، ولأصحاب الأراضي التي يعيشون فيها ، ولذا أُفقر الريف وزادت الهجرة إلى المدينة .

ثم سقطت بعد ذلك الإمبراطورية اليونانية . ومع الحكم الروماني ، زادت الأمور سوءاً ، فمع تزايد الحروب زادت الضرائب واندلعت الثورات (مثل التمردين اليهوديين الأول والثاني في القرنين الأول والثاني الميلاديين) ، كما ازدادت الفجوة الثقافية بين الحاكم والمحكوم . وأدَّى اتساع نطاق الإمبراطورية إلى تزايد اختلاط الديانات المختلفة وإلى عمليات تهجينها ، فامتزجت الآلهة الشرقية بالآلهة اليونانية والرومانية . ووجد المواطنون أنفسهم في إمبراطورية

مترامية الأطراف ، لا تؤمن بأية آلهة ، أو تؤمن بآلهة كثيرة . وبذا ، أصبح الكل مبعثراً وأصبح الجزء لا معنى له . وقد تماسك الكل لا بسبب أية أيديولوجية وإنما من خلال العنف الذي كانت تمارسه السلطة وبفعل توازن القوى ، وهي سلطة كانت لا تكترث كثيراً بالتراث الحضاري للمواطنين فتدع كل فرد يمارس ما يشاء من شعائر طالما أنه يدفع الضرائب التي كانت تضمن تدفقها الطرق الرومانية والجنود الرومان الأجلاف ، سادة العالم الذين كانوا لا يؤمنون بدين أو كانوا يؤمنون بدين وثني متخلف يرتكز على عبادة الإمبراطور ومجمع الآلهة (بانثيون) الروماني .

وجد المواطن نفسه في إمبراطورية غريبة عليه ، معادية له ، حاكمها ظالم يفرض عليه القانون الروماني الغاشم ، وجنودها أجلاف . كما وجد أنه ليس بمواطن روماني ، ولذا فإنه لا حقوق له مع أن علاقته بوطنه الأصلي قد ضَعُفت ، وخصوصاً إذا كان من سكان المدن . وفي هذه التربة ، انتشرت الغنوصية بين أعضاء البورجوازية الصغيرة وبين كثير من أعضاء الطبقات غير المستغلة التي فقد أعضاؤها مناصبهم ومكانتهم ، أو على الأقل تراجع نفوذهم رغم شعورهم بحقهم في أن يكونوا أحراراً ، وكان عندهم الطموح للحراك والصعود إلى أعلى دون أن تكون عندهم الوسيلة لذلك : طبقات فقدت عالمها القديم ولم يستوعبها العالم الروماني الجديد . وأعضاء هذه الطبقات كانوا متعلمين يعرفون الفلسفة اليونانية بدرجات متفاوتة من العمق والسطحية ، ولكنهم كانوا مع هذا ملمين بأسرار الديانات الشرقية ، ولذا قاموا بالمزج بين العناصر اليونانية والشرقية حينما صاغوا أيديولوجيا جديدة (وهذا المزج هو الذي أعطى الغنوصية مقدرة تعبوية هائلة) .

وقد انتشرت الغنوصية في المدن الكوزموبوليتانية الكبيرة ، مثل الإسكندرية وأنطاكية وروما ومدن آسيا الصغرى ، وهي مدن تتسم ببعض أو كل الملامح التي أشرنا إليها من قبل؛ مدن تقع على الحدود بين الشرق المتأغرق وروما ، ومع هذا ، ظل الشرق مركز جاذبيتها الثقافية . وحتى الزعماء الغنوصيون الذين ظهروا في الريف (مثل شمعون الساحر من السامرة) كان نشاطهم في المدن أو تربطهم علاقة وثيقة بها .

هذا الوضع الحضاري والتاريخي يفسر كثيراً من جوانب الغنوصية ، فهو يفسر ازدواجية الغنوصية الشرقية/ الإغريقية ، كما يفسر طبيعة الحل الذي تطرحه وجذريته . فإذا كان الإنسان يشعر بالغربة والاغتراب والهجران إلى هذا الحد ، فإن الحل الذي سيطرحه لمشكلته لن يقل جذرية . والغنوصية أعلنت أن هذا العالم فاسد تماماً ، فسقطت المدن والإمبراطوريات والعالم الطبقي والقوانين الطبيعية والأخلاقية الغاشمة بضربة معرفية واحدة . أما عالم المدينة الوثني الذي يتطلب الانتماء إليه الانتماء للعبادة الوثنية ، فإنه يسقط هو الآخر بإعلان أن طريق الخلاص هو العرفان الداخلي دونما حاجة لكهنة أو معابد (وهذا مناسب جداً في اقتصاد مبني على حركة تجارية مستمرة ، فأماكن العبادة الثابتة غير صالحة) . أما اغتراب الإنسان فبوسع الإنسان أن يعقله قليلاً بأن يدّعي أنه يوجد في هذا المكان ولكنه ليس منه . أما وجود الإنسان في موقع متدن من السلم الطبقي ، فيستطيع مثل هذا الإنسان أن يُفسِّره لنفسه بأنه في واقع الأمر من الروحانيين في عالم جسماني . أما من هم في قمة السلم فهم في واقع الأمر الجسمانيون أو النفسانيون على أحسن تقدير ، وهو سلم سيُقلب رأساً على عقب حين يعود الإنسان العارف لأصله الروحاني ويشغل قمة الهرم ، وبذا يحل محل النخبة اليونانية/ الرومانية . أما الجسمانيون أو النفسانيون فهم كالقشرة أو المحارة سيُنبذون أو يحتلون مكانهم في أدنى درجات السلم .

وكانت الجماعات اليهودية من أكثر الجماعات تأثراً بهذه التحولات (تماماً كما حدث لها في العالم الغربي بسبب ظهور الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية والدولة القومية والرأسمالية الرشيدة والتشكيل الاستعماري الغربي) . وقد كان اليهود من أكثر الجماعات انتشاراً في المدن الإغريقية ، ومن المعروف أنه في المائة الأخيرة قبل الميلاد ، كان عدد اليهود في الإسكندرية أكثر منهم في القدس ، كما كان عدد اليهود خارج فلسطين أكثر منهم في داخلها . وقد اندمج اليهود في الحضارة الهيلينية بشكل سريع ، وفقدت أعداد كبيرة منهم هويتها ، وأصبحت النخبة الاقتصادية بينهم من كبار ملاك الأراضي ومحصلي الضرائب والكهنة مُستوعَبين في النسق الحضاري الهيليني . وقد تُرجم العهد القديم إلى اليونانية ، إذ أن أعضاء الجماعة اليهودية في الإسكندرية نسوا العبرية ، وقام مفكرون مثل فيلون بمحاولة المزاوجة بين الهيلينية والتفكير الديني اليهودي . وقد حقَّق اليهود حراكاً اجتماعياً هائلاً ، فكان منهم الجنود والشرطة وقادة الجيش وجامعو الضرائب وكبار التجار . ثم جاءت الدولة الرومانية لتحطم الهيكل ، مركز العبرانيين الثقافي والديني ، وهي تجربة جاءت بعد التهجير إلى بابل بعد هزائم متكررة لحقت بالشعب المختار . وقد حقَّقت قلة من اليهود ، وخصوصاً العناصر المتأغرقة ، مزيداً من الحراك (مثل تايبيريوس يوليوس ألكسندر ، ابن عم الفيلسوف فيلون وأحد القادة العسكريين في حملة تيتوس لتحطيم الهيكل) . وتحوَّل بعضهم من جماعة وظيفية قتالية إلى جماعة

وظيفية تجارية . أما غالبية أعضاء الجماعات اليهودية ، فوجدوا أنفسهم في عزلة بعد أن فقدوا هويتهم وعلاقتهم بفلسطين ، ووجدوا أنفسهم في حالة صراع مع الأرستقراطية اليونانية إذ آثر الرومان التعامل مع اليونانيين على التعامل مع أعضاء الجماعات اليهودية . وقد كان على كثير من يهود الإسكندرية وفلسطين وغيرهما من البلاد التي تدور في الفلك الروماني أن يتخلوا عن دينهم وأن يقطعوا علاقتهم بالجماعة اليهودية إن أرادوا الحصول على المواطنة لتحقيق الحراك (وهذا ما فعله تايبيريوس) . بل إن هذا البديل أصبح في حدّ ذاته غير ممكن لكثير من اليهود إذ أن الأرستقراطية اليونانية واليهودية المتأغرقة ما كانت لتقبلهم حتى لو تخلوا عن دينهم ، ولذا وجد هؤلاء أنفسهم وقد صُنِّفوا يهوداً مع أن هويتهم اليهودية ضعيفة جداً . ومع هذا ، كانت هذه الهوية المزعومة الضعيفة الواهية هي التي تجذبهم نحو القاع . وقد حدثت الأزمة في وقت كانت فيه اليهودية نفسها في حالة أزمة وانقسام ، وتصاعدت التوقعات المشيحانية كما هو واضح في كتب الرؤى (أبوكاليبس) ، الأمر الذي جعل هؤلاء اليهود يفقدون صبرهم ويودون أن تأتي لحظة الخلاص حيث تتحطم الحدود والسدود والقيود . وقد كان هناك عدد من الفرق اليهودية التي تختلف الواحدة عن الأخرى ، من أهمها الجماعات المشيحانية مثل الأسينيين والغيورين وحملة الخناجر . ولكل هذا ، فإننا نجد أن الغنوصية (التي تشكل اليهودية رافداً أساسياً فيها) قدمت الحلول الجذرية لأعضاء الجماعات اليهودية من المندمجين في الحضارة اليونانية الرومانية المغتربين عنها . لقد قدمت لهم نسقاً أسطورياً معادياً لليهودية ، رافضاً لها ، يعدهم بالتحرر منها ومن الرومان في الوقت نفسه . فالغنوصية رفض للمادة من حيث هي قيد ، والمادة بالنسبة إليهم هي أولاً عالم التفاوت الاجتماعي والقهر الروماني الذي يحول بينهم وبين الحراك الذي يطمحون إليه . أما الإله الصانع وحكام السماوات والأرض (أركون) ، فهم الحكام الرومان وجنودهم والنخبة اليونانية الحاكمة التي تضع العراقيل في طريقهم . ولكن الإله الصانع هو أيضاً إله يسرائيل الذي خلق المادة أو صاغها في صورتها الكريهة والذي أرسل شريعته ليثقل بها كاهل اليهود ويحول دون دخولهم إلى العالم الروماني . وحسب بعض المنظومات الغنوصية ، فإن شريعة موسى هي شريعة العامة (الجسمانيين والنفسانيين) . ومع هذا ، فإنها تحوي داخلها الغنوص اللازم والذي ظهر في العهد الجديد . ولذا ، كان هؤلاء يرفضون العهد القديم تماماً أو كانوا يفسرونه تفسيراً يجعل منه تمهيداً للعهد الجديد . وفي الواقع ، فإن سقوط النور في الدنيا وتبعثره وأسره ، هو تبعثر اليهود وسبيهم ووجودهم في هذه المدن اليونانية المعادية ، وما العالم الشرير والزمان الرديئ سوى عالم الرومان وزمانهم ، ولكنه هو أيضاً عالم يهوه وتاريخه المليء بالكوارث والتشتت والتهجير والاضطهاد .

والخلفية الثقافية للغنوصية مرتبطة تماماً بالخلفية التاريخية ، وهي الأخرى تلقي الضوء الكاشف على بنيتها الأسطورية الفكرية . وكما أسلفنا ، سيطرت الإمبراطورية الفارسية على المنطقة ردحاً من الزمان ، ونشرت دياناتها الثنوية فيها . ثم جاء غزو الإسكندر للمنطقة، وانتشرت الثقافة الهيلينية ، فمزجت الأفكار والعقائد الوثنية وديانات الأسرار المختلفة بالفلسفات والعقائد اليونانية . وبعد ذلك ، ظهرت المرحلة الرومانية التي أسقطت الحدود القومية وشجعت التبادل بين الشعوب في الشرق والغرب .

نبعت الغنوصية من هذه التشكيلة الفريدة ، فضمت بقايا العبادات والديانات الوثنية القديمة وأديان الأسرار ، ووضعتها في إطار واحد ، وفرضت عليها مقولات الفكر اليوناني الفلسفي ومصطلحه (ومن هنا نجد أن الفكر الغنوصي يتسم بأنه تفكير أسطوري بدائي مُختلط بفكر فلسفي مجرد) . ومن أهم جذور الغنوصية عبادة بابل التي طرحت فكرة السماوات المختلفة التي يتحكم في كل واحدة منها كوكب ، كما طرحت فكرة أن العالم مكوَّن من دوائر مركزها الأرض . ومن مصادر الغنوصية الأخرى ، العبادات الفارسية بثنويتها الكاملة المتمثلة في الصراع الدائر بين أورمازد إله الخير والنور ، وأهريمان إله الشر والظلام . كما دخلت بعض المفاهيم من العبادات المصرية القديمة ، مثل تأليه الإنسان والعنصر الجنسي في عملية الخلق . وامتزج بكل هذا عناصر من الفكر الإغريقي الذي كان ينطوي على الإيمان بأن ثمة حكمة خفية في الأساطير الشرقية . وقد تبنَّى بعض الفلاسفة اليونانيين (الرواقيون مثلاً) أفكاراً من العبادات الشرقية ، كما أن عبادات الأسرار (مثل عبادة إيزيس) وجدت طريقها إلى اليونان . وقد قامت الأفلاطونية المحدَثة بالتفرقة وبحدة بين الإله الواحد المتسامي وبين الإله الصانع المادي (ديمي إيرج Demiurge) ، وجعلت معرفة الإله الواحد معرفة باطنية غنوصية . ومن أهم مصادر الغنوصية التراث الديني اليهودي (انظر : «الغنوصية واليهودية») .

ويذهب بعض دارسي الغنوصية إلى أن تعددية المصادر وانعدام التجانس هو سمة أساسية فيها ، فهي قادرة على استيعاب أي عنصر في الديانات الأخرى إن كان يدعم وجهة نظرها العدمية الشاملة التي تهدم كل الحدود ولا تفرق بين الأنساق التاريخية والدينية والفلسفية



المختلفة . ورغم تنوع المنظومات الغنوصية ، إلا أن ثمة بنية واحدة كامنة تبرر الحديث عن منظومة غنوصية معرفية وأخلاقية واحدة .

وتتسم الغنوصية ، مثل كثير من الحركات الباطنية والحلولية ، بأنها سريعة الانقسام وذلك بسبب مركزية الزعيم أو القائد فيها ، إذ عادةً ما يتأله ويتحول إلى لوجوس أو مطلق أو تجسُّد للإله في الأرض تدور حوله الجماعة . ولأن المطلق لا يمكن أن يتعايش مع مطلق آخر ، لذا يحدث الانقسام .

ومن أهم الشخصيات الغنوصية شمعون ماجوس ، أي سيمون الساحر (عاش في القرن الأول الميلادي) ، الذي يُشار إليه دائماً بأنه أول الغنوصيين . كان من السامريين ، وعاش في زمن الحشمونيين . وقد عثر سيمون على عاهرة تسمَّى هَيْلانه في إحدى الحانات ، فأعلن أنها صوفيا التي جاءت لإنقاذ العالم وتزوجها وأعلن نفسه المخلِّص وآمن بمقدرة السحر على التحكم في العالم . ويبدو أن أتباعه كانوا يقومون بطقوس ذات طابع جنسي ، ترخيصي (تأليه الكون) . ثم جاء بعده ساتورنيوس من أنطاكية الذي أعاد تفسير قصة المسيح بحيث أعطاها مضموناً رهبانياً ينكر الجنس تماماً (إنكار الكون) .

أما أعظم الغنوصيين فكان فالنتينوس ، ورغم اسمه اللاتيني إلا أنه كان من أصل يوناني وُلد في دلتا مصر عام ١٠٠ ميلادية وتلقى تعليمه في الإسكندرية . ولم ينفصل هو وأتباعه عن الكنيسة في الإسكندرية ، بل أسسوا أكاديمية للبحث الحر . وقد تبع هذه الأكاديمية شبكة من الجماعات المحلية داخل إطار المؤسسة الدينية ، وكان فالنتينوس مشهوراً ببلاغته وعبقريته . وقد رأى فالنتينوس في المنام ـ حسب ما قال ـ رؤيا مأساوية ، إذ رأى الجزء الذي يصدر عن الكل ، هذا الجزء هو ما يشكل أساس الوجود ويُسمَّى «الأعماق» ، كما رأى زوجته التي تُسمَّى «الرحمة» أو «السكون» . ومن خلال زواجهما يولد المسيح أو اللوجوس الذي تعتمد عليه كل الأيونات . ومن خلال المسيح ، أدرك فالنتينوس الكل (بليروما) وذوبان الذات في الكل .

وكان هناك أيضاً مرقيون ، وهو من مُلاَّك السفن الأثرياء من مقاطعة بونتوس على البحر الأسود . لم يفهم مرقيون سوى فكرة واحدة هي أن الإله ، أو المسيح ، لم يكن يهوه إله العبرانيين ، فهذا هو الإله الصانع . وقد كان مرقيون يقتبس دائماً خطاب بطرس إلى أهل غلاطيا ويبيِّن الفرق بين قانون العهد القديم وقانون العهد الجديد . فمسألة حب الإله غير المشروط للإنسان ، التي وردت في إنجيل بطرس ، مسألة اكتسحت مرقيون تماماً ، فأسَّس كنيسة (مسيحية) منافسة للكنيسة القائمة حينذاك . ومن أهم المفكرين الغنوصيين باسيليديس الذي كان قائد مدرسة نشيطاً في الإسكندرية في زمن الإمبراطور هادريان (في بداية القرن الثاني الميلادي) ويبدو أنه كان يهودياً متأغرقاً رفض فكرة الإله الشخصي وتبنَّى فكرة الإله الخفي وذهب إلى أن المسيح أصبح روحانياً عند تعميده في نهر الأردن (لا عند ميلاده) . (وقد ظل باسيليديس عضواً في الكنيسة ولم يُطرد منها قط ، وهذا مما يبين غموض الموقف المسيحي من الغنوصية) .

وأهم دعاة الغنوصية ماني صاحب المذهب المانوي الذي وُلد في فارس (٢١٦ ـ ٢٧٧) ونشأ في مدينة مسيحية يهودية ، وتتسم منظومته بالثنائية الحادة ، ربما بسبب أصلها الفارسي . وقد كان القديس أوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠) ، في بداية حياته ، من أتباع ماني ، وكتب بعض مؤلفاته أثناء هذه المرحلة . وأهم الوثائق الغنوصية هي نصوص نجع حمادي حيث كانت مصر مركزاً للتفكير الغنوصي . وللغنوصيين كتب مقدَّسة ، من بينها : أبوكريفون جون (أي كتاب جون الخفي) ، وإنجيل توماس (الذي عُثر عليه في مصر) ، وإنجيل فيليب ، وإنجيل مريم المجدلية .

وبعد القضاء على الهرطقة الغنوصية على يد الكنيسة ، وبعد موت قيادتها ، استمرت الغنوصية على هيئة حركات دينية خارج الديانات التوحيدية وأحياناً داخلها . ويمكن القول بأن منظومة عبد الله بن سبأ هي منظومة غنوصية . ويرى المؤرخون أن التصوف الإسلامي الحلولي المتطرف ذو طابع غنوصي ، كما يُصنَّف بعض غلاة الشيعة ضمن الغنوصيين ، ويُصنَّف العلويون (النصيريون) باعتبارهم جماعة إسلامية ذات توجُّه غنوصي . ويمكن تصنيف عقيدة الدروز والبهائية ضمن أشكال الغنوص . ولا تزال هناك فرقة دينية في العراق وإيران تُسمَّى المندائيين وهي فرقة غنوصية يبلغ عدد أفرادها خمسة عشر ألفاً ، («مندائي» هي الكلمة الآرامية لـ «غنوص» فالمندائي هو العارف وهي من كلمة «منداء» أو «مندع» بمعنى «معرفة») وتتضمن عقيدتهم التطهر في المياه الجارية وشعائر جنائزية مركبة . فحينما يموت المندائي ، يقوم الكاهن بالشعائر اللازمة لإعادة الروح لمسكنها الإلهي حيث ستتلقى جسداً روحياً جديداً ، وبهذه الطريقة يتوحد الميت مرة أخرى مع آدم السري (الإنسان الأزلي) ، أو المجد ، جسد الإله المقدَّس .

وقد ظهرت جماعات غنوصية داخل المسيحية ، مثل جماعات الكاثاري التي ازدهرت بين القرنين الثالث والحادي عشر في أرمينيا وآسيا الصغرى وشبه جزيرة البلقان ومنها انتشرت إلى غرب أوربا

وخصوصاً جنوب فرنسا (الهرطقة الألبيجينية وغيرها) . ويُقال إن فرسان الهيكل كانوا أيضاً جماعة غنوصية ، وأن المنشدين الذين يُطلَق عليهم لفظ «تروبادور» ، الذين تغنوا (تأثراً بالعرب) بالحب العذري الذي تحوّل إلى عبادة العذراء ، قد تبنوا رؤية غنوصية للواقع . أما في شرق أوربا (في بلغاريا وشبه جزيرة البلقان ويوغسلافيا) ، فقد ظهرت جماعة البوجوميل (أصدقاء الإله) . ويُقال إن مسلمي البوسنة والهرسك كانوا من أصول غنوصية ، فكأن الغنوصية هنا كانت الأرضية الفلسفية التي رفضوا على أساسها المسيحية وأصبحوا هامشيين بالنسبة لها ، ولذا كان من السهل دخولهم في الإسلام مع وصول العثمانيين .

وقد تغلغلت الغنوصية في اليهودية وهيمنت عليها تماماً في القرن الرابع عشر بظهور القبَّالاه ، وخصوصاً اللوريانية ، وهي منظومة غنوصية متطرفة (انظر : «الغنوصية والقبَّالاه») .

ومن منظور هذه الموسوعة ، فإن من أهم الجماعات الغنوصية جماعات المنشقين (بالروسية : راسكول) الذين تركوا الكنيسة الروسية الأرثوذكسية وكان معظمهم من عناصر فلاحية روسية . وكان الريف الروسي وثنياً إلى حدٍّ كبير (حيث دخلته المسيحية في وقت متأخر نوعاً) . ولذا ، ظهرت جماعات منشقة عديدة ، كانت غنوصية متطرفة رغم استخدامها المصطلحات المسيحية . كان من بينهم جماعة الخليستي ، أي من يضربون أنفسهم بالسياط (كان منهم راسبوتين) ، والخريشنيكي الذين كانوا يؤمنون بالخلاص من خلال ارتكاب الرذائل والموبقات (تأليه الكون) ، والبيزجلوفنسكي الذين كانوا يلزمون الصمت لمدد طويلة . ومن أهم هذه الجماعات الموخوبور (ومنهم مدام بلافاتسكي التي كان يتردد عليها كثير من رواد حركة الحداثة في الفن والأدب) وهي مؤسسة الجماعة الثيوصوفية في لندن (ماتت ١٨٩١) . وكان هناك السكوبتسي ، المخصيون ، الذين كانوا يعبِّرون عن إيمانهم بالخالق بخصي أنفسهم (إنكار الكون) . وقد تأثرت الحسيدية بهذه الجماعات الغنوصية ، وخصوصاً الخليستي .

وقد تمتعت الغنوصية بحركة بعث جديدة حين بدأ الإنسان الغربي مشروعه التحديثي ، ونحن نذهب إلى أن ثمة علاقة قوية بين الغنوصية والمشروع التحديثي التنويري العلماني الغربي (انظر : «الغنوصية والتحديث») .

الأصول اليهودية للغنوصية

Jewish Origins of Gnosticism

تتسم الغنوصية بتعدد المصادر ، وتعدُّد المكونات الثقافية وانعدام التجانس . ومن أهم المكونات ، ولعله أهمها طراً ، التراث الديني اليهودي . ونحن نذهب إلى أن هناك بُعداً حلولياً كمونياً قوياً في اليهودية جعل لها قابلية عالية لإفراز الفكر الغنوصي . ويجب أن نتذكر أن اليهودية التي نتحدث عنها ، وهي يهودية ما قبل الهيكل ، لم تكن مفاهيمها أو عقائدها الدينية قد تبلورت بعد ، بل كانت هذه المفاهيم تحتوي على أفكار ثنوية وتعددية كثيرة . وقد ساهم انتشار اليهود على هيئة جماعات مشتتة داخل تشكيلات حضارية شتَّى ، في مدن البحر الأبيض المتوسط وبابل ، إلى زيادة عدم تجانس اليهودية بل إلى تنافرها وتحوُّلها إلى عقائد عدة أو ديانة مُهجَّنة . ويظهر هذا في كثير من العقائد اليهودية الثنوية (مثل : عزازيل ، وميتاترون ، وقوة الملائكة والشياطين ، وحدود الإله ، والنزعة العدمية في سفر الجامعة ، وإنكار البعث في كثير من كتب العهد القديم) . وقد عُثر على أحجار في صحراء النقب عليها نقوش تتحدث عن عشيراه زوجة إله يسرائيل ، وكان يهود إلفنتاين يعبدون يهوه وزوجته عنات .

وثمة نصوص عديدة في العهد القديم يمكن تفسيرها تفسيراً غنوصياً بكل بساطة . وقد كان الغنوصيون اليهود يشيرون إلى الإصحاح الأول في سفر التكوين (وخصوصاً الفقرة رقم ٢٧ "فخلق الإله الإنسان على صورته ، على صورة الإله خلقه ، ذكراً وأنثى خلقهم") ، وإلى حزقيال ١/ ٢٦ ("وعلى شبْه العرش شبْهٌ كمنظر إنسان عليه من فوق") ، كما أن كتب الرؤى (أبوكاليبس) اليهودية دعَّمت الاتجاهات الغنوصية بتقسيمها الزمان وبكل حدة إلى زمان الفساد الحاضر وزمان الخير المستقبل ، وبرؤيتها للتاريخ باعتباره ساحة صراع شرس بين قوى الخير وقوى الشر . كما أن النزعة الحلولية الكمونية القوية في هذه الكتب مهَّدت الجو لظهور الغنوصية . فعلى سبيل المثال ، جاء في كتاب **حكمة سليمان** أن روح الإله (النيوما) توجد في كل الأشياء . وقد انتشرت كتب الرؤى في نهايات الألف الأخير قبل الميلاد ، وكثير من عناصرها دخل الفكر الغنوصي .

ويذهب بعض الدارسين إلى وجود غنوصية يهودية قديمة قبل ظهور الغنوصية في العصر المسيحي (واستمر ذلك حتى العصر الحديث بعد أن دخلت التيار الغنوصي الأشمل) . وفي كتابات فيلون السكندري ردود على بعض المهرطقين في عصره يُفهَم منها



وجود اتجاهات غنوصية . وثمة نظرية تذهب إلى أن جماعات البحر الميت أو جماعات قمران (مثل الأسينيين) هي جماعات غنوصية مترهبنة .

وتُعدُّ كتابات فيلون نفسها من مصادر الفكر الغنوصي إذ حاول المزج بين الفكر الديني اليهودي والفكر الإغريقي . ويبدو أن فيلون لم يكن وحيداً في محاولته هذه ، فقد نشأ تراث كامل بين يهود الإسكندرية يهدف إلى التوفيق بين الحضارتين . وهذا يظهر في الترجمة السبعينية للعهد القديم التي كانت تترجم المفاهيم اليهودية القومية بمفاهيم يونانية عالمية (وكانت كلمة «نيفش» العبرية ، أي «نفس» ، تُترجَم إلى كلمة «نيوما» ، ومعناها «روح» ، التي استُخدمت في الكتابات الغنوصية فيما بعد) . ومن الأمثلة الأخرى، مسرحية حزقيال تراجيكوس ، وهو الكاتب المسرحي اليهودي السكندري الذي حاول هو الآخر المزاوجة بين التراثين اليهودي واليوناني وانتهى إلى تَصوُّر غنوصي . ففي مسرحيته المسماة «الخروج»، يرى موسى الإله في رؤياه جالساً على عرشه وعن يمينه رجل . وحينما يدخل موسى ، يدعوه الإله ليجلس عن يساره . وقد كان هذا الرجل هو الآدم قدمون أو الأنثروبوس أو الإنسان الأول .

وقد انتشرت الحركة الغنوصية في المراكز التجارية الكوزموبوليتانية ، مثل أنطاكية والإسكندرية ومدن آسيا الصغرى ، وهي مدن كانت توجد فيها عبادات هجينة مختلطة وجماعات يهودية تتفاوت في حجمها . وداخل هذه المدن ، اختلطت الجماهير اليهودية بالنخبة الإغريقية الخالصة أو النخبة المتأغرقة ذات الأصول الشرقية ، واختلط الشرق بالغرب .

الغنوصية والصهيونية

Gnosticism and Zionism

الصهيونية ، في تَصوُّرنا ، تعبير علماني شامل عن المنظومة الغنوصية (الحلولية الكمونية) ، أي أنها غنوصية جديدة . ولنحاول أن نرى نقط التشابه بين الغنوصية والصهيونية ، ولنبدأ بالخلفية الاجتماعية والثقافية لكليهما . لقد انتشرت الصهيونية بين جماعة من مثقفي شرق أوربا الذين أدَّى تعثُّر التحديث في بلادهم إلى إغلاق أبواب الحراك الاجتماعي أمامهم ، وقد توقَّف حراكهم لأنهم يهود (أو هكذا توهموا إذ أن تعثُّر التحديث في الواقع قد أثَّر في الجميع ، الأغلبية وكل الأقليات الأخرى) . وكان هؤلاء المثقفون قد اندمجوا إلى حدٍّ كبير في حضارات بلادهم واستوعبوا الحضارة الغربية الحديثة وآمنوا بمنطلقاتها . أي أن هويتهم اليهودية كانت قد ضعُفت ولكنها لم تختف تماماً ، ولذا نجدهم يتنقلون بين الثقافة الروسية واليديشية والعبرية دون أن ينتموا إلى أي منها مطلقاً . ولا يختلف وضعهم هذا كثيراً عن وضع اليهود في المدن اليونانية في حوض البحر الأبيض المتوسط في القرون الأولى بعد الميلاد . ولذا ، فإن الحل الصهيوني الحديث ، شأنه شأن الحل الغنوصي القديم ، يحوي قدراً من الديباجات اليهودية والأفكار العربية (ومع هذا تظل الرؤية الحلولية الكمونية الواحدية المادية هي العنصر الغالب) .

والصهيونية ، مثلها مثل الغنوصية ، ترى أن وجود اليهود في المنفى (بل يهودية المنفى نفسها) يشكلان عبئاً ثقيلاً يحمله اليهودي ويعاني بسببه . كما ترى أن هذه المشكلة لا يمكن حلها إلا من خلال الغنوص : وهو حل واحدي جذري بسيط للأمور ، لا إبهام فيه ولا جدل ، يفسر كل شيء وينطلق من رفض مبدئي للحدود والثنائيات التي تسم حياة الجماعات اليهودية في المنفى . وقد حل الغنوصيون المشكلة بأن صنفوا الإله الصانع على أنه إله العهد القديم ، وأنه هو الذي تسبَّب في نفي اليهود من أصلهم النوراني وقذف بهم في هذه الدنيا وأرسل لهم الشريعة ليثقل كاهلهم بها . وقد انطلق الغنوصيون الصهاينة أيضاً من رفض جذري لحالة النفي . وقد أدَّى ذلك إلى رفض تاريخ اليهود في المنفى ، أي التجارب التاريخية المتعينة للجماعات اليهودية في كل أنحاء الأرض . وهم يرون هذا التاريخ على أنه تاريخ معاناة ومآس ومذابح ، إلى أن وصل هرتزل مكتشف الصيغة الغنوصية التي تتلخص في إنهاء حالة المنفى ، وتطبيع الشخصية اليهودية (الجسدانية أو النفسانية) ، أي تغييرها تماماً وربما تصفيتها حتى يظهر العبراني الجديد أو اليهودي الخالص (النوراني) الذي لا يعاني من أي ازدواج في الولاء أو انشطار في الشخصية .

والحل الغنوصي (الحلولي الكموني) لمشكلة اليهود هو أن يعود اليهودي إلى أصله بعد أن يخدع حكام السماوات والأرض (الأركون) ليلتحم بالنور (البليروما) وبالإله ويصبح الخالق والمخلوق كياناً واحداً . وكذلك الحل الصهيوني ، فهو حل عضوي واحدي مبنيّ على العودة إلى الأصل . فاليهودي عضو في الشعب العضوي المنبوذ المنفي ، فهو كالإنسان النوراني في العالم المعادي له ، عليه أن يجد الحل الجذري والصيغة الملائمة والغنوص (وهي الأيديولوجيا الصهيونية والقومية اليهودية) . وهو سيحمل عصاه وينهي حالة المنفى تماماً . ولكن بدلاً من خداع حكام الأرض (من الأغيار) فهو سيتحالف مع بعضهم (الإمبريالية العالمية) وسيطرد البعض الآخر (العرب) ويعود إلى صهيون ليصبح اليهود كلاً عضوياً واحداً

(نورانيا) . فيعيش شعب يسرائيل في أرض يسرائيل مع إله يسرائيل في حالة البليروما الكاملة التي هي بداية التاريخ اليهودي أو استئنافه . إن حل المسألة اليهودية يتم إذن عن طريق إلغائها ، بل عن طريق إلغاء الجماعات اليهودية وتصفيتها فيما يُسمَّى «نفي الدياسبورا» .

وقد بيَّن أحد الباحثين أن ثمة توتراً أساسياً في اليهودية بين فكرة إله العالمين وفكرة إله الشعب المختار ، وأن الغنوصية التقليدية صفَّت هذه الثنائية لحساب الجانب العالمي إذ رفضت إله العهد القديم القومي (وهذا أيضاً ما أنجزته اليهودية الإصلاحية) . هذا على عكس القبَّالاه اللوريانية التي أكدت العنصر القومي حتى أصبحت ما سماه هذا الباحث «غنوصاً مقلوباً» بحيث أصبح إله يسرائيل هو المركز بدلاً من إله العالمين ، الأمر الذي أدَّى إلى تصاعُد الحمى المشيحانية القومية والرغبة العارمة في العودة . ولعل أول انفجار غنوصي مقلوب هو حركة شبتاي تسفي المشيحانية الذي أكد أن إله يسرائيل أهم من إله العالمين . والصهيونية بجعلها الدولة مركز الوجدان اليهودي . الديني واللاديني ، قد بلورت الغنوص المقلوب تماماً إذ جعلت الشعب المطلق وجعلت فلسطين الرقعة التي تتحقق فيها حالة البليروما . وبإمكان اليهودي الآن أن يقطع تذكرة طائرة ويلتحم بالبليروما الصهيونية مستفيداً من قانون العودة ، وهي الصيغة السحرية التي تُحوِّله إلى إسرائيلي نوراني عبراني فور وصوله . وهذا إطار يجعل المسألة في غاية البساطة . لكن إنقاذ المستوطنين (البقية الصالحة) فيه إنقاذ للشعب اليهودي ، وإنقاذ الشعب اليهودي فيه إنقاذ العالم بأسره ، فإسرائيل (الروحانية) هي نور للأمم (الجسمانية والنفسانية) ، ولذا فالصهاينة بإنقاذهم أنفسهم هم المخلِّص المخلَّص .

ولعل الجانب الغنوصي في الصهيونية لم يكن واضحاً بقدر كاف ربما بسبب علمانية الديباجات وحداثتها واستنارتها . ولكن هذا العنصر الغنوصي واضح تماماً في كتابات الحاخام إسحق كوك وفي فكر جماعة جوش إيمونيم التي أفرزت ما نسميه «الصهيونية العضوية الحلولية» .

ومع هذا يمكن القول بأن الصهيونية بحديثها عن أنها ستُصفِّي الدياسبورا وأنها ستجعل اليهود شعباً مثل كل الشعوب وبتأكيدها أن الدولة اليهودية ستصبح دولة مثل كل الدول ، هي غنوصية من النوع «الحلمي» لأنها تهدف إلى تصفية الحالة اليهودية تماماً .

الغنوصيـــــة والقـــبالاه

Gnosticism and Kabbalah

القبَّالاه منظومة غنوصية سيطرت على اليهودية الحاخامية ابتداءً من القرن الرابع عشر . ومع هذا لا يمكن الحديث عن تعارض كامل بين اليهودية الحاخامية والغنوصية ، وكما بيَّنا في موضع آخر (انظر : «الأصول اليهودية للغنوصية») ، ثمة بُعْد حلولي قوي في اليهودية ، وثمة غنوصية يهودية قديمة يُقال إن تاريخها يعود إلى ما قبل غنوصية القرون الميلادية الأولى . وتوجد عناصر غنوصية في العهد القديم وكتب الرؤى (أبوكاليبس) وكتابات فيلون السكندري .

وقد أخذت المؤسسة الحاخامية موقفاً معادياً من الغنوصية ، شأنها في هذا شأن كل الديانات التوحيدية . وجاء في التلمود : "إن وجَّه المرء عقله إلى هذه الأمور الأربعة كان خيراً له لو لم تلده أمه : ما هو أعلى ، وما هو أسفل ، وما كان قبل الخلق ، وما سيحدث في نهاية الدنيا" ، أي أن التلمود في هذا النص ينهى عن التفكير الغنوصي والقبَّالي والمشيحاني والأخروي . ولكن مثل هذه الفقرة تشكل في رأينا مجرد طبقة جيولوجية في التركيب الجيولوجي اليهودي ضمن طبقات أخرى أهمها الطبقة الحلولية .

وقد وردت إشارات في التلمود إلى أربع شخصيات مهمة في المؤسسة الحاخامية « دخلوا الجنة » (التعبير المستخدم للإشارة لمن يتبنَّى فكراً غنوصياً) . وتذكر هذه الكتابات الفقهية ابن عزاي وابن زوما واليشا بن أبوياه وبن عقيبا ، وقد هلكوا جميعهم إلا آخرهم الذي تمكَّن من العودة وسجل ما رأى ، أي أنه عاد بالعرفان ، وقد رأى فيما رأى عرشين إلهيين : أحدهما للإله والآخر للإنسان ، وتُعَدُّ هذه أول إشارة للآدم قدمون (الإنسان الأول) التي أصبحت صورة أساسية في النصوص القبَّالية . والحاخام ابن عقيبا ظل شخصية مركزية في التراث الحاخامي رغم غنوصيته ، الأمر الذي يعني تَقَبُّل هذا التراث للفكر الغنوصي . وفي فترة الفقهاء (جاؤنيم)، ظهر النازلون بالمركبة (بالعبرية : يوردي همركفاه) الذين حاولوا الاتحاد بالإله . وثمة إشارات في سفر هميخالوت الذي نشره أدولف جلنيك (أشهر واعظ يهودي في فيينا في أواخر القرن التاسع عشر) ذات طابع غنوصي واضح . وقد تبلورت كل هذه الإرهاصات في القبَّالاه ، وخصوصاً القبَّالاه اللوريانية التي هي من أهم الأنساق الغنوصية وأكثرها حدة وتفجراً . ومن القبَّالاه اللوريانية انتشرت الغنوصية بين المفكرين اليهود المحدثين .

وقد ظهرت الغنوصية في القرنين الأول والثاني الميلاديين ، بينما ظهرت القبَّالاه بعد ذلك بزمن طويل . ولا يملك الدارس إلا أن

يُلاحظ التماثل البنيوي بين المنظومة الغنوصية والقبَّالاه ، وأن البنية الغنوصية الأسطورية العامة تتحقق بشكل مذهل في القبَّالاه ، وخصوصاً اللوريانية . وكل من الغنوصية والقبَّالاه نسق حلولي واحدي عضوي مغلق ، يلغي المسافة بين الإله والإنسان والطبيعة وبين الكل والجزء . وكل هذا يطرح قضية التأثير والتأثر . ومما لا شك فيه أن ثمة علاقة تأثير وتأثر بين الكتابات الغنوصية والقبَّالاه . فاليهودية تُعَد أهم روافد الغنوصية ، كما أن كثيراً من أعضاء الحركات الغنوصية كانوا يهوداً . ولكننا ، مع هذا ، نفضل استخدام نموذج تفسيري توليدي لتفسير تشابه المنظومة الغنوصية والقبَّالاه ومن ثم يصبح عنصر التأثير والتأثر عنصراً واحداً ضمن عناصر عديدة ، وهو ليس أهم العناصر .

وفي مجال تفسير التشابه من منظور توليدي يمكننا أن نقول إنهما يعودان إلى رغبة الإنسان الجنينية نفسها في الانسحاب من العالم إلى سكون الرحم وإلى الالتصاق بثدي الأم ، وهي رغبة كونية كامنة في عقل الإنسان ، وإغراء دائم للإنسان بأن يرفض النضج والحدود والعالم والتدافع ليظل قابعاً في حالة البليروما الجنينية الرحمية المحيطية السائلة . ويمكننا الآن أن ندرج ما نتصوره نقط التماثل بين المنظومة الغنوصية والقبَّالاه :

١ ـ الغنوصية والقبَّالاه منظومتان واحديتان تتداخل فيهما الأسماء والشخصيات والمفاهيم . فالآدم قدمون هو العالم وهو التجليات العشرة النورانية (سفيروت) ومن ثم فهو الإله وهو أيضاً الإنسان . والشخيناه هي التعبير الأنثوي عن الإله ، ولكنها في واقع الأمر كنيست يسرائيل ، أي الشعب اليهودي .

٢ ـ توجد نقط تشابه كبيرة بين الإله الخفي في المنظومة الغنوصية والإين سوف (الجوهر الإلهي اللانهائي والذي لا نظير له) في القبَّالاه :

أ) الإين سوف إله غير شخصي ، علاقته بالعالم أنطولوجية ، تماماً مثل علاقة الإله الخفي بالعالم في المنظومة الغنوصية ، فهو إله لا يكترث بالعالم ، ولكنه في الوقت نفسه سبب الوجود .

ب) الإين سوف نشيط دائماً ومفكر دائماً ، ومن خلال عملية تفكيره في ذاته يفيض العالم عنه ، تماماً كما يحدث في المنظومة الغنوصية .

جـ) تأخذ عملية الفيض شكل درجات تُسمَّى الأيونات في المنظومة الغنوصية والسفيروت أو التجليات النورانية العشرة في القبَّالاه .

د) يبلغ عدد كل من الأيونات والتجليات عشرة (وإن كان عدد الأيونات في بعض المنظومات الغنوصية يبلغ أربعة عشر بل بضع مئات) .

هـ) تحمل كل من التجليات النورانية والأيونات أسماء مجردة للغاية ، عادة لعمليات عقلية مثل الفكر والحكمة والجلال .

و) جماع التجليات النورانية يأخذ شكل إنسان ، تماماً مثل الأيونات ، هذا الإنسان هو العالم الأكبر (الماكروكوزم) والذي يشاكل العالم الأصغر ، أي الإنسان الفرد (الميكروكوزم) . وهذا التماثل الكامل بل التطابق بين العالمين تعبير عن البنية والعلاقات الهندسية وعن التماسك العضوي حيث يصبح كل شيء هو الشيء الآخر .

ز) فاضت كل من التجليات والأيونات من الخالق حتى يتم سد الهوة بين الإله الخفي والعالم (من أجل تحقيق عملية الخلاص) . وعملية الفيض هذه لا تعني انفصال التجليات أو الأيونات عن الخالق (فهذا يخلق ثغرة وهو أمر مستحيل في المنظومات الحلولية الواحدية) وإنما هي عملية تمايز وحسب لجوانب مختلفة للمطلق . ولذا ، بعد عملية الفيض والتمايز ، تشكل الأيونات البليروما وتشكل التجليات هرم الملكوت الملكي .

٣ ـ يمكننا هنا أن نتناول قضية مفردات الحلولية (الجنس ـ الجنين ـ الجسد . . . إلخ) التي تُستخدَم في كلٍّ من الغنوصية والقبَّالاه :

أ) يوجد دائماً أيون أنثوي أساسي في المنظومات الغنوصية هي صوفيا أما في القبَّالاه فهي الشخيناه .

ب) تحمل كل من الأيونات والتجليات أحياناً أسماء جنسية وطبيعية مباشرة فتُسمَّى بأسماء أعضاء الجسم الإنساني (وخصوصاً الأعضاء التناسلية) .

جـ) الأيونات مثل التجليات ثمرة الجماع الجنسي بين الإله الأب والأم وهو تزاوج يعني التلاحق الجسدي الكامل وسد الثغرات .

د) تأخذ عملية الخلق شكل فيض وسلسلة لا تنقطع ، وهي صورة مجازية في جوهرها جنسية .

هـ) يأخذ الإله أحياناً في كل من القبَّالاه وفي المنظومة الغنوصية شكل إله خنثى (ذكر وأنثى) وتأخذ عملية الخلق شكل انفصال بين العنصرين .

و) تأخذ عملية الخلاص شكل اقتراب تدريجي من الخالق إلى أن يتحقق التوحد الكامل ، وهو توحُّد جنسي في بعض المنظومات . وتُستخدَم كلمة «يحود» لوصف هذا التوحد ، وهي كلمة تعني «التوحد مع الخالق» وتعني أيضاً «الجماع الجنسي» .

ز) يمكن أن نتخيل العالم الغنوصي على هيئة مخروط : مجموعة من الدوائر المتداخلة التي تَدق كلما تحركنا من القاعدة إلى القمة ، وهي دوائر متداخلة ذات مركز واحد تختلف في الحجم ولا تختلف

في البنية . وعضو التذكير هو قمة المخروط أما قاعدته فهي عضو التأنيث ، فهو إذن الإله الذكر والأنثى . وهذا أيضاً هو شكل العالم في المفاهيم اليهودية وفي القبّالاه ، فالإين سوف هو رأس المخروط المدبب وهو عضو التذكير ، والشخيناه قاعدته ، وهي امتداد الإله في الدنيا ، والشعب اليهودي بنت صهيون وهي أيضاً عضو التأنيث الذي ستفيض فيه الرحمة الإلهية لتوزع على العالمين .

٤ ـ تحاول كل من المنظومة الغنوصية والقبّالاه حل مشكلة الشر في العالم عن طريق قصص أسطورية جوهرها إسقاط البُعد الأخلاقي تنقضية .

أ) فالشر في المنظومة الغنوصية ناجم عن خلل حدث في المنظومة نتيجة حب صوفيا العارم والمفرط للإله (ويأخذ شكل عشق ذاتها وصورتها ، فهي من صلب الإله) الأمر الذي يؤدي إلى سقوطها أو سقوط بعض الشرارات النورانية الإلهية واختلاطها بقوى الظلام والمادة . وتُسمَّى هذه الحادثة في المنظومة القبَّالية حادثة تهشُّم الأوعية (شفيرات هكليم) وهي ناجمة عن حب الشخيناه العارم والمتطرف للإين سوف . وفي رواية أخرى ، ينجم الخلل وتبعثر الشرارات عن أن النور الإلهي يثقل الأوعية فيهشمها . ويُقال إن ما يسبب حادثة التهشم والتبعثر هذه هو تطرُّف تجلِّي الحكمة على حساب تجلِّي العاطفة .

ب) ينجم الشر في إحدى المنظومات الغنوصية عن خديعة الإله الصانع (الأرضي) إذ يسرق الشرارة الإلهية ويحبسها في المادة أو يخلق إنساناً على هيئة الأنثروبوس ويضع فيه الشرارة . وفي المنظومة القبَّالية يُقال إن الشخيناه تلد الشر دون أن تدري ، إذ يتقمص أحد الشياطين شكل الإين سوف ويعاشرها جنسياً فتلد الأغيار والشياطين الذين يحوِّلون العالم إلى مكان معاد لليهود .

جـ) وتطرح المنظومة الغنوصية فكرة صوفيا المزدوجة : واحدة سماوية والأخرى أرضية فتحارب صوفيا ضد الشر (وتلحق بعد ذلك بالسماوية) ، وكذا في المنظومة القبَّالية توجد شخيناه سماوية وأخرى أرضية رهيبة ستنتقم من أعداء جماعة يسرائيل ثم تلتحق بقرينتها السماوية (وهذا تعبير آخر عن الثنائية الصلبة الوهمية) .

٥ ـ ثمة تشابه عميق بين مفهوم الخلاص والخير والشر والبعث في كل من المنظومة الغنوصية والقبَّالاه .

أ) العالم فاسد والزمان رديء في المنظومة الغنوصية ولا جدوى من فعل الخير أو محاولة التسامي ، والخلاص لا علاقة له بالأخلاق أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . لهذا ، لا يوجد بعث فردي ولا حساب وإنما التحام للروح في الكل الإلهي وذوبان فيه . وعالم الأغيار في القبَّالاه عالم فاسد والتاريخ الإنساني رديء ، وتبهت فكرة البعث في القبَّالاه وتحل محلها فكرة تناسخ الأرواح التي تنكر المسئولية الخلقية والثواب والعقاب (وتشبه فكرة العود الأزلي عند نيتشه) . والعودة إلى أرض الميعاد فكرة قومية جماعية تلغي أيضاً المسئولية الخلقية والخلود الفردي للروح .

ب) لفهم عملية الخلاص وحدودها ، لابد أن ندرك الهرمية الصارمة التي يتسم بها كل من العالم الغنوصي وعالم القبَّالاه . فالبشر الروحانيون (في المنظومة الغنوصية) يوجدون في قمة الهرم والنفسانيون في وسطه والجسمانيون في قاعدته ، والاختلافات بينهم ليست اختلافات أخلاقية أو حتى معرفية وإنما اختلافات أنطولوجية . وفكرة الاختلاف الأنطولوجي بين اليهود والأغيار فكرة أساسية في القبَّالاه ، فالأغيار مثل الجسمانيين والنفسانيين ليسوا بشراً ، ومخطَّط الخلاص لا ينصرف إليهم . وأكدت القبَّالاه المفهوم النخبوي داخل اليهودية بالتركيز على مفهوم البقية الصالحة وهم نخبة الروحانيين أو نخبة النخبة ، خير من في الشعب اليهودي .

جـ) في المنظومة الغنوصية ، يعيش الإنسان (الروحاني) منفياً في العالم المادي ، فقد سقط فيه عن طريق الخطأ أو الخلل الذي حدث . ووجوده في هذا العالم هو مصدر تعاسته ، وهو يحلم دائماً بالعودة إلى أصله الرباني النوراني ليلتحم به مرة أخرى ولن تتحق سعادته إلا بهذه العودة حيث يُترَك البشر النفسانيون والجسمانيون في كوكبهم الأرضي المدنَّس ، فهم لا قداسة لهم مستبعدون من عملية الخلاص، وتنسحب الشرارات الإلهية تماماً من الكون بانسحاب أصحاب العرفان منه (يصبح العالم مادة محضة وقد يختفي ويذوب) . وكل هذه العناصر توجد في القبَّالاه ، فسقوط الإنسان (وصوفيا) يشبه سقوط الشعب اليهودي والشخيناه . وقد كان اليهود جزءاً من الآدم قدمون والإله قبل السقوط فتبعثروا وسقطت الشرارات أو الأرواح في أجساد مادية زائلة ، وحُبِست الشرارات في المادة وفي عالم الأغيار المعادي . ولذا ، فاليهود يعيشون حالة نفي يحلمون بالعودة إلى أصلهم الإلهي أو إلى أرض الميعاد . وحالة النفي حالة نهائية مادامت هناك دنيا ومادام هناك تاريخ ، ومن ثم فلا جدوى من البحث عن السعادة والمتعة (في عالم المادة بين الأغيار) إذ ليس بإمكان اليهود (النورانيين) أن يحصلوا على السعادة إلا بالعودة إلى الأصل الإلهي في أرض صهيون والالتحام بها في نهاية التاريخ حين ينتصرون على كل شعوب الأرض من الأغيار ، الذين يُستبعَدون تماماً من عملية الخلاص .

د) وخلاص الإنسان في المنظومة الغنوصية هو عودة الإنسان باعتباره

شرارة إلهية إلى الواحدية الإلهية (البليروما) ، وعودة كل الشرارات هو كمال للذات الإلهية وخلاص لها ، فكأن الإنسان بتخليصه نفسه يخلّص الإله أيضاً (وهذه هي أيضاً فكرة الخلاص أو التيقون في القبّالاه ، فهي عودة الإنسان إلى بداياته النورانية وعودة الشعب اليهودي إلى أرض الميعاد والتحامه بالخالق ، وهي عودة تعني أن الخالق ينهي حالة تبعثره ويعود لوحدته الأصلية) .

هـ) تتسم الغنوصية بميل إلى رفض الشرائع المرسَلة للبشر ، فالغنوصيون نورانيون لا يخضعون لمثل هذه الشرائع ، فهم جزء لا يتجزأ من الإله ولذا لا يسري عليهم ما يسري على الآخرين (الأغيار) ولهذا يقدس الغنوصيون الشخصيات الملعونة في العهد القديم والجديد مثل قابيل ، وهم يعبدون الشيطان تعبيراً عن رفضهم النواميس البشرية والشرائع الإلهية . ويظهر هذا أيضاً في الحركات الشبتانية اليهودية فأتباع الحركة الفرانكية كانوا يقدسون عيسو وقابيل وكانوا يسمون الأدوميين أي الحمر نسبة إلى أدوم وهو اسم آخر لعيسو . بل إن الثعبان الذي كشف لآدم وحواء سر شجرة المعرفة هو بطل قصة الخلق الحقيقي من وجهة نظر الغنوصية ، فهو رمز تحدّي الخالق ، ورفض الحدود والشريعة ، ورفض الجهل الذي ضربه الإله الصانع على الإنسان ، أي أنه رمز رفض الكون .

و) ولأن الشر في العالم ليست له علاقة بالأخلاق ، فإن الخلاص لا يتم من خلال التوبة والغفران وإنما من خلال البحث عن الصيغة السحرية المناسبة . والقبّالاه ليست تمارين أخلاقية تهدف إلى كبح جماح الجسد أو إلى تهذيب نفس المؤمن وإنما تهدف إلى حل طلاسم الروح والعالم وكلمات التوراة للوصول إلى الخالق والقوة الخبوية في الكون وإلى التوراة الخفية أي الغنوص التي عن طريقها يمكن التحكم في العالم . والإصلاح (تيقون) يتم من خلال اتباع اليهود الأوامر والنواهي التي تحولت إلى شعائر مجردة تشبه التعويذات والصيغ الدقيقة ، وما يهم فيها هو طريقة أدائها لا مضمونها الأخلاقي . بل إن المضمون الأخلاقي نفسه قد طُمس تماماً وحل محله مضمون ميتافيزيقي (بغير أخلاق) فهي تهدف إلى تقريب اليهود من الخالق للتعجيل بالخلاص ولتحقيق «يحود» ، وهي كلمة عبرية تعني التوحد مع الخالق (وتعني أيضاً الجماع الجنسي) . والغنوصية والقبّالاه ، في هذا ، يشبهان تماماً العلم الحديث بنزعته الفاوستية للتحكم في العالم من خلال الصيغ الدقيقة ، وهو يقدم ميتافيزيقا (ضرورة التحكم في العالم) دون أية أعباء أخلاقية

ز) المخلّص في المنظومة الغنوصية شخصية عجائبية ، تتجاوز قوانين الطبيعة ، وهو شخصية أزلية أبدية تتجسد من خلال شخصيات تاريخية (زائلة) يأتي هو لها بالعرفان الثابت . والماشيّح في اليهودية (والقبّالاه) شخصية عجائبية . وتتسم اليهودية بتعدد المشحاء الدجالين باعتبار أن كل واحد منهم هو تجسُّد زمني للإله ويحمل العرفان . ويمكن القول بأن تقاليد النبوة المفتوحة في اليهودية تعبير عن النمط نفسه ، نمط الحلول والوحي المستمر عبر التاريخ . وشخصية التساديك في المنظومة الحسيدية تعبير متطرف عن هذا النمط من التجسد المستمر للماشيّح في التاريخ .

ح) والمخلّص في المنظومة الغنوصية مُرسَل من الإله ، ولكن عملية الخلاص هي جمع الشرارات الإلهية الكامنة في الروحانيين ، ولذا فإن المخلّص ، حينما يُخلّص أصحاب الغنوص ، إنما يُخلّص نفسه . وصوفيا قد تكون هي هدف الخلاص ، فقد سقطت مع الشرارات الإلهية ، ولكنها هي أيضاً أداته . والماشيّح في القبّالاه اللوريانية يأتي لينقذ الشخيناه المشتتة (الشعب اليهودي المشتت) التي هي الشرارات الإلهية فيجمعهم أي بقايا الشخيناه (صوفيا) ، ويعود بها إلى الأصل الإلهي أي يجمع المنفيين من اليهود ويعود بهم إلى صهيون . والشخيناه هي هدف الخلاص وأداته ، فالشعب اليهودي (الشخيناه) هو الذي سيُجمع في أرض الميعاد ، ومن خلال خلاصه (وجمعه) يعم السلام في العالم ويأتي خلاص (مثل عودة النيوما إلى البليروما) . ولكن الشخيناه (الشعب اليهودي) جزء من الإله/ الآدم قدمون ، وبالتالي فخلاصه هو خلاص الإله . ومن خلال عودة الشخيناه من المنفى والتبعثر ، تعود للإله وحدته ، فالمخلّص إذن هو المخلّص الذي يُخلّص نفسه ويُخلّص الآخرين ، فهو المُخلِّص المُخلَّص

٦ ـ المنظومة الغنوصية تتسم بالواحدية ، ولذا فهي تتسم أيضاً بالثنائية الصلبة الزائفة ، إذ تنحل الثنائية في واحدية سائلة . والقبّالاه أيضاً نظام ثنائي صلب في ثنائيته ، فهناك النور والظلام ، والخير والشر ، واليمين واليسار ، وهي ثنائية واهية لأن الشر غير موجود أساساً ، فهو وهم . أو لأنه إن وُجد فهو جزء من الخير وصورة أخرى منه ، فإن ما يظهر باعتباره شراً هو في واقع الأمر خير (وقد بعثت القبّالاه العناصر الثنوية : الاهتمام المفرط بالملائكة والشياطين باعتبارها شريكة للإله عز وجل في الخلق ، وميتاترون وليليت ، وهي مفاهيم من بقايا الوثنيات الحلولية دخلت اليهودية) .

وتتضح الثنائية في المنظومة «الأخلاقية» الغنوصية والقبّالية ، فسلوك الإنسان قد يأخذ شكل زهد كامل وإنكار متطرف للعالم ورفض له ، وقد يأخذ شكل انغماس في الرذيلة هو في جوهره رفض للعالم (فهو مكان شرير وزمان رديء) .

والمخلِّص في القبَّالاه هو الماشيَّح الذي ينزل في عالم الظلمات أيضاً، وقد يكون هو المخلِّص الداعر الذي يرتكب الموبقات حتى ترهق الطبيعة (مثل جيكوب فرانك)، وهو ما يُسمَّى «الهبوط من أجل الصعود» (بالعبرية : يريداه بشفيل عالياه) . وقد يكون راهباً مسحياً، وقد ينتقل من حالة إلى أخرى مثل شبتاي تسفي الذي كان يتأرجح بين الرهبنة الكاملة والعهر الكامل (وضمنه الشذوذ الجنسي)، ومثل البعل شيم طوف مؤسس الحركة الحسيدية الذي يُقال إنه امتنع عن معاشرة زوجته جنسياً لمدة أربعة عشر عاماً، ويذهب أتباعه إلى أن زوجته حملت ابنها هرشل «من خلال الكلمة». ومع هذا كان معروفاً عنه إقباله الشديد على النساء وشغفه بهن، وخصوصاً الجميلات منهن. وكثير من المخلِّصين أسقط الشريعة تماماً. وتحولت نواه مثل «لا تزن» إلى وصايا مثل «فلتزن».

وتوجد تفاصيل أخرى عديدة تبين مدى التقابل المدهش بين الغنوصية والقبَّالاه، ولكن ما حاولنا حصره هو بعض السمات البنيوية المشتركة وتجلِّيها في بعض التفاصيل.

الهندوكيـــة والقبـــالاه

Hinduism and Kabbalah

لاحَظ عالم الأنثروبولوجيا الإسرائيلي روفائيل باتاي أن ثمة تشابهاً عميقاً بين النسق الديني القبَّالي والنسق الديني الهندوكي يتمثل فيما يلي :

١ ـ تبدأ القبَّالاه من اللاشيء الإلهي «الإين سوف» وهو «الخفي» وهو «العدم»، وكذا الهندوكية، فالإله «شيفا» هو «مُطلق المطلق»، أي «الحالة التي لا يحدث فيها شيء»، وهو حالة سكون كاملة، وهو القصور الذاتي النهائي والخواء الكامل. وحتى اللعب بالألفاظ في القبَّالاه، بين «الإين» و«الآيين» و«الآني» له ما يقابله في الهندوكية. ذلك أن «شيفا» (بغض النظر عن حروف العلة) هو «شافا»، أي «الجثة». وهو يصبح «شيفا» حينما يضاف إليه حرف العلة، وتكون صاحبته الإلهية شاكتي (ممثلة الحياة والحركة)، حينئذ يصبح «شافا/ العدم» هو «شيفا/ الطاقة».

٢ ـ كما أن مراحل التجلي، التي يُطلق عليها التجليات النورانية العشرة (سفيروت) في القبَّالاه، لها ما يقابلها في الهندوكية، وهي تُسمَّى «تاتفا»، أي «الأسس» أو «المقولات الأساسية» أو «الجواهر». والتاتفا، مثل التجليات النورانية العشرة، تخرج الواحدة من الأخرى. وفي القبَّالاه عشرة تجليات من الكيتير عليون (التاج العلوي) في الأعالي إلى الشخيناه وهي التجلي الأدنى الذي يلي العالم الأرضي، وفي الأعالي ثمة وحدة أبدية بين الحوخمة والبيناه، وهي أبو الأعالي وأم الأعالي. وكذلك في الهندوكية، فكان هناك في القمة الوحدة الأزلية بين شيفا وشاكتي، وتخرج عشرة تجليات هي الحالات المادية العشر.

٣ ـ يُلاحَظ أن الإله في القبَّالاه نصفه ذكر ونصفه أنثى. وكذا في الهندوكية، فشيفا وشاكتي يكوِّنان وحدة إلهية هي جوهر الوجود الإلهي.

٤ ـ وفي كل من القبَّالاه والهندوكية فكرة الدورات الكونية.

٥ ـ وفي كل من القبَّالاه والهندوكية مقولة إدراكية جنسية أساسية تصف علاقة الابن بالابنة، أو الشيفا بشاكتي. وكل من الابن وشيفا لا تكتمل سيادتهما، بل وجودهما، إلا إذا اجتمعا مع الابنة وشاكتي.

٦ ـ وهناك أسطورة نفي في الهندوكية تماماً كما في القبَّالاه، إذ يقوم شيطان بغزو الكون، ويخرج الآلهة العظيمة من الجنة إلى المنفى. وحينما تذهب شاكتي إلى المنفى، فهي مثل الشخيناه، تفصل عن شيفا وتصبح عرضة للاغتصاب من قبل عمالقة مخيفين.

٧ ـ تُصوَّر الشخيناه، في أحد تجلياتها وحشاً كاسراً منتقماً، وفي الهندوكية تتجلى شاكتي على هيئة كالي، إلهة الانتقام.

٨ ـ يُصوَّر الشر في كل من القبَّالاه والهندوكية باعتباره جزءاً من الإله، وهو مجرد الجانب الآخر والشر هو المحارة أو القشرة الخارجية.

٩ ـ تقوم كل من القبَّالاه والهندوكية بتجنيس الإله وتأليه الجنس (بمعنى الغريزة الجنسية).

١٠ ـ تؤمن القبَّالاه كما تؤمن الهندوكية بالتناسخ.

وهذا التشابه العميق يثير قضية التأثير والتأثر، ويطرح السؤال التالي : هل اطلع القبَّاليون على بعض المصادر الهندوكية أم أن بعض الأفكار الأساسية تسربت إليهم، فقاموا بتطويرها داخل الإطار اليهودي ؟ أم مجرد تشابه بنيوي بمعنى أن البنية الحلولية في كل من القبَّالاه والهندوكية قد تطورتا بشكل مستقل ووصلتا إلى نسقين متشابهين بشكل مستقل ؟ هذه قضية خلافية لا تزال مطروحة للنقاش.

٤
إشكالية علاقة اليهودية بالصهيونية

علمنة (صهينة) اليهودية (أو هيمنة الحلولية الكمونية) ـ الحلولية والحرفية والصهيونية : آليات التلاقي بين الصهاينة المتدينين والعلمانيين ـ الخلاص ـ الرؤية الصهيونية للخلاص ـ اليهودية (تاريخ)

علمنة (صهينة) اليهودية (أو هيمنة الحلولية الكمونية)

Secularization (Zionization) of Judaism (The Dominance of Immanence)

نجحت عدة أيديولوجيات علمانية شاملة في التغلغل في اليهودية والاستيلاء عليها من الداخل ، فاليهودية التجديدية هي مُركَّب من عدة مفاهيم علمانية (مثل التقدم في الإطار المادي) وقد تلبست لباساً يهودياً . ولكن أهم هذه الأيديولوجيات العلمانية هي الصهيونية التي نجحت في الاستيلاء على اليهودية تماماً وقامت بعلمنتها من الداخل إلى درجة أن الحركات الدينية الأرثوذكسية التي قامت في الأساس لمحاربة الصهيونية انتهى بها الأمر إلى أن تبنت الصهيونية إطاراً مرجعياً نهائياً . وقد أدَّى هذا إلى ظهور إشكالية حقيقية أمام اليهود الذين يرفضون التحالف مع ملحدين يسمون أنفسهم «يهوداً» . ونحن نذهب إلى أن الصهيونية قد نجحت في الاستيلاء على اليهودية وعلمنتها بسبب الخاصية الجيولوجية التراكمية ، إذ وجد الصهاينة سوابق في التراث الديني اليهودي تدعم مقولاتهم العلمانية الشاملة .

ولكن السبب الأساسي الذي أدَّى إلى نجاح الصهيونية في تحقيق أهدافها هو تصاعُد معدلات الحلولية داخل اليهودية . وتدور الرؤية الحلولية الكمونية حول ثلاثة عناصر : الإله والإنسان والطبيعة . وفي إطار الحلولية اليهودية ، يتحول الإنسان إلى الشعب اليهودي ، وتتحول الطبيعة إلى الأرض اليهودية (إرتس يسرائيل ـ أرض الميعاد) ، أما الإله فيتحوَّل إلى المبدأ الواحد الذي يحل فيهما معاً . ولا تختلف هذه الرؤية الحلولية الكمونية عن الصهيونية إلا في بعض التفاصيل وفي الطريقة التي تُسمَّى بها العناصر التي تكوِّن دائرة الحلول . ويمكن التعبير عن هذه الرؤية الحلولية الكمونية ، اليهودية والصهيونية ، على النحو التالي :

الشعب اليهودي	المبدأ الواحد	الأرض اليهودية
	الرباط العضوي بين الشعب والأرض ، أو القوة التي تسري فيهما ١ ـ يسميه الصهاينة المتدينون «الإله» . ٢ ـ يطلق عليه الصهاينة العلمانيون أسماء كثيرة : «روح الشعب» ـ «التراث اليهودي» ـ «العرق اليهودي» ـ «الثورة كتعبير عن روح الشعب»	

وأهم عناصر دائرة الحلول هو الإله الذي يصبح «المبدأ الواحد» والذي قد يُسمَّى «الإله» في الحلولية الكمونية اليهودية أو «روح الشعب» أو حتى «العرْق» في الحلولية الكمونية الصهيونية .

ويُلاحَظ أنه لا يوجد فارق بين الإله والعرْق اليهودي (على سبيل المثال) فكلاهما (حالّ) في الشعب والأرض لا يتجاوزهما ، فهو الشيء نفسه رغم اختلاف التسميات .

وقد نجم عن حلول الإله في كلٍّ من الشعب والأرض أن أصبح الشعب مقدَّساً وأصبحت الأرض هي الأخرى مقدَّسة . يختلف الفريقان العلماني والديني في تسمية مصدر القداسة ولكنهما لا يختلفان قط في أن القداسة هناك ، تسري في الشعب والأرض . وتسمية مصدر القداسة في المنظومات الحلولية الكمونية ليس أمراً مهماً إذ أن الحلول يجعل المادة المقدَّسة أكثر أهمية من مصدر القداسة . وإذا كان الصهاينة يؤمنون بحلولية بدون إله أو يؤمنون بقداسة دون مصدر غيبي للقداسة ، فإن الدينيين يؤمنون بحلولية متطرفة ، الإله داخلها جزء لا يتجزأ من الشعب وأرضه . ومن ثم فهو إله لا يختلف في أي وجه من الوجوه عن شعبه ولا ينفصل بأية حال من الأحوال عن أرضه وليس ذا إرادة مستقلة عنه . وسواء كانت الديباجات علمانية (شاملة) متطرفة في علمانيتها ، أم دينية متطرفة في تديُّنها ، فالجميع يتفق على أن المبدأ الواحد (الإله أو روح الشعب) حالّ في المادة كامن فيها ، غير مفارق لها . ومن ثم يستطيع أعضاء الفريقين الصهيونيين ، الديني والإلحادي ، أن يترجما الثالوث

الحلولي إلى شعار سياسي مثل : أرض يسرائيل لشعب يسرائيل حسب توراة يسرائيل ، وهي صيغة تفترض وجود علاقة عضوية صارمة بين العناصر الثلاثة تمنح أعضاء هذا الشعب حقوقاً مطلقة (فهم داخل دائرة الوحدة العضوية والقداسة والحلول) وتستبعد الآخرين . وتصبح توراة يسرائيل كتاباً مقدَّساً مرسلاً من الإله بالنسبة للصهاينة الدينيين ، أو كتب فلكلور يعبِّر عن روح الشعب بالنسبة للصهاينة الملحدين . وبينما يؤكد الحاخام كوك (الأب الروحي والفكري لجماعة جوش إيمونيم) ، على سبيل المثال ، أن روح الإله وروح يسرائيل شيء واحد ، أي أن الشعب في قداسة الرب ، فإن فلاديمير جابوتنسكي يشير إلى الشعب اليهودي بوصفه ربه . ويشير موشيه ديان إلى الأرض باعتبارها ربه . وصياغة كوك الدينية وصياغة جابوتنسكي وديان الإلحادية متشابهتان تماماً في بنيتهما . فكلتاهما تتنبهان إلى شعب مقدَّس له حقوق مطلقة في أرضه المقدَّسة . فهو شعب حل الإله فيه وفي أرضه ، حسب صياغة كوك . وهو شعب/ إله وأرض/ إله في صياغة الملحدين ، والفارق بين الصياغتين أمر شكلي .

وقد قال نوفاليس إنه لا يوجد فرق كبير بين أن أقول "أنا جزء من الإله" أو "الإله جزء مني" . ولا فرق بين أن أقول "إن الله هو العالم أو أن العالم هو الله" . ويمكننا القول بأنه لا يوجد فرق كبير بين أن يقول الصهيوني المتدين الإله هو الشعب وأن يقول الصهيوني الشعب هو الإله فالمسافة بين الكل والجزء تختفي فيصبح الكل هو الجزء ، ويصبح الشعب هو الإله .

وعلمنة الحلولية اليهودية على يد الصهيونية . لم يكن أمراً فريداً وإنما كان متسقاً تمام الاتساق مع واحد من أهم إنجازات الغرب الفلسفية في العصر الحديث . أي اكتشاف ترادُف وحدة الوجود الروحية ووحدة الوجود المادية . بحيث أصبح من الممكن الحديث عن الذات بلغة الموضوع وعن الموضوع بلغة الذات ، وعن المقدَّس بلغة الزمني وعن الزمني بلغة المقدَّس ، وعن الروحي بلغة المادي وعن المادي بلغة الروحي ، وهو الإنجاز الذي وضع أسسه إسبينوزا وعمَّقه هيجل ووصل به إلى ذروته وأشاعه إلى درجة أن الخطاب الفلسفي الغربي أصبح في معظمه خطاباً حلولياً ، سواء بين المتدينين أو بين العلمانيين .

وقد وجد الصهاينة أن الإستراتيجية الإسبينوزية الهيجلية التي تفترض ترادف وحدة الوجود الروحية ووحدة الوجود المادية هي أنسب الصيغ للتوجُّه للجماهير اليهودية في شرق أوربا ، وهي جماهير كانت لا تزال إما متدينة أو تربطها علاقة وثيقة بالرموز الدينية . وقد أصبحت هذه الحلولية الأرضية المشتركة بين المتدينين والعلمانيين في الحركة الصهيونية .

الحلولية والحرفية والصهيونية : آليات التلاقي بين الصهاينة المتدينين والعلمانيين

Immanence, Literalism, and Zionism : The Mechanics of the Convergence between Religious and Secular Zionists

من أهم آليات تضييق الرقعة بين الدينيين والعلمانيين (في إطار الحلولية الكمونية) تبنِّي الدينيين تفسيرات العهد القديم الحرفية والعقائد اليهودية . فالحلولية الكمونية تترجم نفسها في نهاية الأمر لا إلى أصولية تعود إلى الأصول وتحتكم إليها وإنما إلى حرفية في تفسير المفاهيم الدينية (التي عادةً ما تحتوي قدراً من الثنائية والتجاوز يجعل التفسير المجازي أمراً حتمياً) . فالحرفية الحلولية ثمرة تصفية الثنائية والتجاوز ، وثمرة اختزال المساحة التي تفصل بين الخالق والمخلوق وبين الدال والمدلول بحيث يُختزَل الواقع إلى مستوى واحد فلا يشير إلى أي عالم آخر أو أية منظومة أخرى وبحيث تصبح رؤية الواقع ، في نهاية الأمر ، واحدية لا تختلف كثيراً في بنيتها عن التفسيرات المادية التي تنكر الثنائية والتجاوز . وهذا ما حدث مع الأوساط الدينية اليهودية في عملية صهينة اليهودية ، فقد أسقطوا التفسيرات المجازية وأحلوا محلها تفسيرات حرفية .

فالأرض في المفهوم الحاخامي التقليدي (المجازي) كانت «صهيون الروحية» التي توجد في القلب ، وقد وصفها نيثان برنباوم (بعد أن ترك الصهيونية وأصبح أرثوذكسياً) بأنها ليست وطناً مادياً جديداً بل كياناً دينياً لم يتوقفوا قط عن حبه والحنين إليه وتذكُّره . والشعب ليس شعباً عرْقياً مادياً مثل كل الشعوب وإنما جماعة دينية تدين بالولاء للإله من خلال الميثاق ومن خلال الإيمان بمنظومة قيمية . ولذا ، فإن عودة هذا الشعب إلى أرضه لا يمكن أن تتم إلا بأمر الإله في نهاية التاريخ .

بدلاً من هذه العقائد التي تحتوي قدراً من التجاوز ، ومن ثم تتطلب تفسيرات مجازية ، طرح الصهاينة المتدينون تفسيرات حرفية لا تختلف كثيراً عن التفسيرات العلمانية (التي تنكر التجاوز) رغم احتفاظها بالمصطلح الديني . فصهيون أصبحت الأرض التي يمكنهم متى شاءوا العودة إليها والاستيلاء عليها بقوة السلاح ، والشعب أصبح مجموعة من البشر التي لها حقوق مطلقة منفصلة عن المنظومات القيمية الأخلاقية اليهودية ، فهم ذوو حقوق مطلقة لا يختلفون كثيراً عن شعوب أوربا في المرحلة الإمبريالية .

واكب هذه الحرفية في التفسير ظهور ديباجات علمانية حلولية . فالشعب في الخطاب الصهيوني أصبح الشعب العضوي (فولك) وهو مفهوم يَصدُر عن الإيمان بأن ثمة وحدة (وجود)

عضوية تربط الشعب (العضوي) وأرضه وتراثه ، وأن الجميع تسري فيهم روح واحدة هي مصدر الترابط العضوي هذا ، الذي لا تنفصم عراه . وهذه الفكرة فكرة حلولية تجعل الذات القومية موضع التقديس وتخلع عليها المطلقية ، والنسق الفلسفي الكامن وراءها نسق مغلق ، إذ أن هذه الذات تصبح مرجعية نفسها ، هي البداية والنهاية ، وحتى برامجها السياسية تصبح مقدَّسة . وعادةً ما تصل هذه النماذج إلى لحظة تحقُّقها في لحظة نهاية التاريخ والفردوس الأرضي ، حين تتجلى في كل مناحي الحياة ، وتتجسد من خلالها . ولذا نجد أن الصور المجازية التي تُستخدَم في إطار هذه الأنساق صور مجازية عضوية تعبِّر عن عالم عضوي مصمت ملتف حول نفسه .

ولأن العلاقة عضوية حتمية ، فإن هذا يعني أن الأرض اليهودية (إرتس يسرائيل) ستظل خراباً ومهجورة إن تم فصل الشعب المقدَّس عن أرضه المقدَّسة . وهذا الشعب نفسه سيظل في حالة اغتراب وحزن (بل فساد وانحطاط) إن ظل بعيداً عن الأرض . فالأرض تكتسب الحياة من الشعب ، والشعب يكتسب الحياة من خلال الأرض . وهذه الرؤية هي التي تفسر الشعار الصهيوني "أرض بلا شعب ، لشعب بلا أرض" . فالأرض (اليهودية) ترتبط بشكل عضوي حلولي كموني بالشعب اليهودي ، ولذا فإن وُجد شعب آخر على هذه الأرض (الشعب الفلسطيني على سبيل المثال) فليس له وجود في المنظور العضوي الحلولي (ولذا لابد من تهميشه وطرده وإبادته) . وإن وُجد ٩٩٪ من يهود العالم خارج فلسطين ، متشردين في بقاع الأرض ، فهم لا يزالون بلا أرض بسبب العلاقة العضوية الحتمية التي تربطهم بالأرض المقدَّسة . والتاريخ اليهودي بأسره تعبير عن رغبة اليهود العارمة في العودة لهذه الأرض لتحقيق تلك الرابطة العضوية .

وبعد أن أسقط المتدينون العنصر المجازي (والإيمان بالتجاوز) وتبنَّى العلمانيون الصيغ الرومانتيكية العضوية الحلولية ، أصبح اللقاء بين الفريقين سهلاً ، فعدَّل المتدينون متتالية العودة حتى يمكنهم تَقبُّل أطروحات الصهيونية العلمانية وممارساتها (اللاأخلاقية) وإعطاؤها شرعية دينية . فبدلاً من المتتالية التقليدية :

نفي بأمر الإله ـ انتظار الماشيَّح ـ مقدم الماشيَّح بإذن الإله ـ عودة تحت قيادته .

أصبحت المتتالية كما يلي :

نفي ـ عودة مجموعة من اليهود (عودة مادية فعلية) للإعداد لمقدم الماشيَّح (دون انتظار مشيئة الإله) ـ مقدم الماشيح ـ عودة تحت قيادته .

والعودة المقدَّسة ، المادية الفعلية الحرفية ، تتطلب بطبيعة الحال استخدام العنف والقتل ومساندة الإمبريالية العالمية وطرد الشعب الفلسطيني . وهذا ما فعله الصهاينة المتدينون وقاموا بتبريره بديباجات دينية تخلع على ذاتهم وأفعالهم قداسة ومطلقية (كما هو الحال دائماً مع المنظومات الحلولية الكمونية) . وفي نهاية الأمر ، تبنَّى المتدينون الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة بعد أن قاموا بتهويدها ، فبدلاً من : مادة بشرية تُنقَل إلى خارج أوربا لتوظيفها لصالح القوى الاستعمارية التي ستقوم بنقلها ودعمها ، أصبحت : عودة الشعب المقدَّس (المستوطنين الصهاينة) إلى أرضه المقدَّسة (فلسطين) تنفيذاً للوعد الإلهي (على أن تكون العودة دون انتظار لمشيئته ودون تفرقة بين الوعد الإلهي ووعد بلفور) . ورغم اختلاف الأسماء ، فإن المسمى واحد ويؤدي إلى النتيجة نفسها (ويصل هذا الاتجاه إلى قمته في الصهيونية الحلولية العضوية وجماعة جوش إيمونيم) . وقد توارت الصهيونية العلمانية الصريحة ، صهيونية اليهود غير اليهود أو اليهود الملحدين . وانقسمت الصهيونية (من منظور الوعي اليهودي) إلى صهيونية إثنية علمانية وصهيونية إثنية دينية ، وهما يتفقان تماماً في كل شيء باستثناء بعض الديباجات والزخارف اللفظية .

وتتجلى الحلولية العضوية في موقف كلٍّ من الدينيين والملحدين من الجيش الإسرائيلي . فقد ذهب الحاخام تسفي كوك ، حفيد الحاخام إسحق كوك ، إلى أن الجيش الإسرائيلي هو القداسة الكاملة ، وهو الذي يمثل حكم شعب الإله فوق أرضه . ولا يختلف الملحدون الحلوليون عنه في موقفهم من الجيش ، فهم ، عند احتفالهم بعيد الاستقلال على سبيل المثال ، يغيِّرون منطوق المزمور ١١٨/ ٢٤ الذي يقول : «هذا هو اليوم الذي صنعه الرب» بحيث يصبح : "هذا هو اليوم الذي صنعه تسهال" ، أي الجيش الإسرائيلي (مصدر التماسك والوحدة العضوية) . وقد أسس الصهاينة دولتهم الصهيونية ، بحيث تكون الإطار الشعائري (الحلولي الروحي أو المادي) الذي يعزل اليهودي عن العالم ، فهي الدولة الجيتو التي تحيط المواطن برموز وشعارات يهودية ، وهي الأداة التي يتحقق من خلالها الثالوث الحلولي المقدَّس .

هذا لا يعني أنه لا يوجد اختلاف بين الحلوليين الملحدين والحلوليين الدينيين . فحلولية الملحدين ، حلولية بدون إله ، على عكس حلولية الدينيين . ولذا ، نجد أن الدولة بالنسبة للدينيين هي أهم تجلٍّ للإله . أما بالنسبة للملحدين ، فهي ليست تجلياً ، وإنما هي نفسها موضع التقديس . وعادةً ما يُسوَّى هذا الخلاف بالطرق

العلمانية السلمية . فعلى سبيل المثال ، حين نوقش إعلان دولة إسرائيل ، أصر المتدينون على ذكر عبارة "عناية الإله" ، فرفضها اللادينيون ، وتم حل المشكلة باستخدام عبارة "تسور يسرائيل" ، أي "صخرة إسرائيل" ، وهي عبارة تعني "الإله الذي يحل في الشعب ويجعله مطلقاً" بالنسبة للدينيين ، وتعني "الذات القومية ومصدر المطلقية وموضع القداسة" بالنسبة لغير الدينيين . وقد استمر هذا الاتجاه بعد إنشاء الدولة ، بل أخذ أشكالاً متطرفة من بعض النواحي ، وأشكالاً صبيانية من بعض النواحي الأخرى . ففي احتفال عيد التدشين (حانوخاه) ، يقول الدينيون : "من يتكلم بجبروت الرب" (مزامير ١٠٦/ ٢) ، ويقول العلمانيون (الماديون) : "من يتكلم بجبروت إسرائيل" ، أي شعب وأرض يسرائيل . وفي الاحتفالات الدينية ، وخصوصاً بعد قراءة التوراة في يوم الغفران ، وفي عيد بهجة التوراة في آخر أيام عيد الفصح ، وفي عيد الأسابيع ، يقول الدينيون : "يزكور إلوهيم" ، أي "اذكروا الرب" . أما اللادينيون فيقولون : "يزكور عام يسرائيل" ، أي "اذكروا شعب إسرائيل" . وقد جاء في سفر زكريا (٤/ ٦) عبارة "لا بالقدرة ولا بالقوة بل بروحي قال رب الجنود" ، واللادينيون يُسقطون عبارة "رب الجنود" ، وبدلاً من كلمة "بروحي" يقولون "بالروح" . وتوجد رقصة للأطفال في إسرائيل تصاحبها أغنية تَرِد فيها عبارة من سفر القضاة (أنشودة دبوراه ٥/ ٣١) "وهكذا يبيد جميع أعدائك يارب" ، فتصبح : "وهكذا يُبيد جميع أعدائك يا إسرائيل" .

كما يظهر الصراع بشكل حقيقي ، وبحدة على مستوى الحياة اليومية في إسرائيل . فالأصوليون اليهود (أي الحرفيون أو الحلوليون المتدينون) يطالبون بأداء الشعائر التي لا يكترث بها كثيراً الحلوليون العلمانيون . فيطالب الأصوليون بمنع بيع لحم الخنزير ، وإغلاق بعض الطرق يوم السبت ، وفرض القيود على عمليات الإجهاض ، وإغلاق صالونات الجنس ، ومنع نشر إعلانات عن الخدمات الجنسية في الجرائد ، ومنع القيام بحفريات أثرية في أماكن الدفن . كما يطالبون بتطبيق قوانين الطعام وتعديل قانون العودة لمنع هجرة غير اليهود ، ويرفضون محاولة إصلاح قوانين الطلاق ، ويرفضون الاعتراف بالزواج المدني . ويطالب الأصوليون كذلك بإلغاء صلاحيات الحاخامات الإصلاحيين التي تعطيهم الحق في القيام بمراسم اليهود وبمنع اليهود الإصلاحيين من الحصول على عضوية المجالس الدينية المحلية .

ويجب أن نؤكد مرة أخرى أن الإله الذي يتحدث عنه الدينيون الحلوليون ، ليس إلهاً مفارقاً للشعب متعالياً عليه متجاوزاً له ، وإنما هو حالٌّ وكامن فيه . ومن ثم ، فهو يؤدي إلى قداسة هذا الشعب . ولذا ، فإن الاختلاف بين الدينيين والملحدين سيظل سطحياً أو على مستوى الإجراءات العملية ومناطق النفوذ والشعائر . فالإله في النسق الحلولي ليس سوى اسم ، أما المسمى فهو العالم المادي الذي يكمن فيه هذا الإله ولا يتجاوزه .

وقد اكتسحت الصهيونية يهود العالم حتى أصبح من الصعب على الدارسين أو على كل من يتعامل مع اليهودية والصهيونية (وضمن ذلك اليهود أنفسهم) أن يُفرِّقوا بين العقيدة الدينية والعقيدة السياسية . وعلى أية حال ، فإن وسائل الإعلام الغربية تساهم في تدعيم هذه الرؤية .

وبعد عام ١٩٦٧ ، وبعد احتلال الصهاينة ما تبقى من فلسطين، طرأ تحول على الأحزاب الدينية الصهيونية (مثل المفدال) وغير الصهيونية (أجودات إسرائيل) . ففي البداية اعتبروا أن هذه الحرب معجزة وإشارة ربانية ثم تحول موقفهم وأصبح الاستيلاء على الأراضي العربية هو بداية الخلاص . وأصبحت العناصر الأرثوذكسية التي كانت علاقتها بالصهيونية تتراوح بين الشك والعداء من أشرس العناصر الصهيونية ومن أكثرها تطرفاً وتمسكاً بكل الأراضي المحتلة وبضرورة الاستيطان بها ، أي أن الحلولية تزايدت معدلاتها وأصبحت الأرض مقدَّسة في قداسة الشعب .

ورغم وجود هذه العلاقة القوية بين الحلولية الكمونية اليهودية والصهيونية لا نستطيع القول بأن الحلولية اليهودية هي التي "أدَّت" إلى ظهور الصهيونية . فكل ما نريد تأكيده ، في هذا السياق هو أن ثمة ارتباطاً اختيارياً قوياً بين التيار الحلولي الكموني والأفكار العلمانية . وهذه مقولة تنطبق على كل البشر وعلى كل العقائد ومنها العقيدة اليهودية وأعضاء الجماعات اليهودية . فالحلولية الكمونية ولَّدت عند معظم اليهود في شرق أوربا (ابتداءً من القرن الثامن عشر) استعداداً كامناً (كامناً وحسب) للتأثر بالرؤى المعرفية الحلولية العلمانية التي يختلط فيها المطلق بالنسبي والمقدَّس بالزمني ، وهي رؤى تشجع على العزلة وعلى جعل الذات موضع القداسة وموضع الحلول والكمون . ولقد فجرت اللحظة التاريخية والجغرافية التي وُجدت فيها اليهودية في أوربا الإمبريالية (في نهاية القرن التاسع عشر) الإمكانات الحلولية وغلَّبتها على غيرها من الإمكانات وهيأت لها سُبُل التحقق ، فلولا أن الإمبريالية الغربية كانت في حاجة إلى دولة استيطانية في فلسطين ، لما قامت للصهيونية قائمة ولما استولت الحلولية الكمونية على اليهودية ولربما ظلت تياراً هامشياً ليس له أي ثقل أو وزن ، ولربما أخذ الدين اليهودي نفسه مساراً تاريخياً آخر .

ولكن ظهور الصهيونية بمساندة الإمبريالية وتأييدها ، أعاق هذا التطور وساعد التيار الحلولي الكموني على السيطرة . ولكننا ، على أية حال ، نتوقع أن ينحسر المد الصهيوني الحلولي تحت تأثير الضغط العربي وظهور الفلسطينيين مرة أخرى على مسرح الأحداث ، وتزايد أزمة الصهيونية . ولربما انتشرت الرؤية التوحيدية مرة أخرى، كما يتضح في لاهوت التحرير اليهودي . وإن كان هذا أمراً صعباً للغاية باعتبار أن الفكر الديني اليهودي يتحرك الآن في تربة غربية حلولية علمانية . وما يحدث عادةً أن الحلولية يتغيَّر نطاقها ، وبدلاً من أن تكون ثنائية صلبة فإنها تصبح شاملة سائلة .

وقد وضع كثير من أعداء الصهيونية من اليهود وغير اليهود أيديهم على هذه الخاصية في الصهيونية باعتبارها حلولية واحدية روحية (أي باعتبارها شكلاً من أشكال الوثنية) تم تحويلها إلى حلولية مادية . وقد أشار بعض الحاخامات إلى دولة إسرائيل باعتبارها العجل الذهبي الجديد الذي يعبده اليهود . كما احتج الحاخام جرسون كوهين بقوله : "إن كثيراً من يهود العالم يتصورون أن إسرائيل هي معبدهم الأساسي ، وأن رئيس وزرائها حاخامهم الأكبر" .

وقد ظهرت في ألمانيا ، في الثلاثينيات ، جماعة من المفكرين الدينيين اللوثريين الذين أدركوا الطبيعة العدمية للرؤية الحلولية الكمونية وأدركوا تَورُّط الصهاينة فيها . وقد حذر هاينريش فريك اليهود من فكرة الشعب العضوي (أي الشعب الذي تكمن فيه قداسة دون مرجعية إلهية متجاوزة له) التي يدافع عنها النازيون والصهاينة . وعرَّف كلاً من النازية والصهيونية بأنهما حركتان حولتا الأرضية (الارتباط بالأرض) والدنيوية (الارتباط بالدنيا) - وهي أمور مادية - إلى كيانات ميتافيزيقية ، أي إلى دين . كما أشار فيلي ستارك إلى أنهما ضرب من ضروب المشيحانية السياسية التي تُحوِّل الدنيوي (المدنَّس) إلى مقدَّس ، ولذا فهما يُحوِّلان الدم والتربة إلى قيمة مطلقة تحيطها القداسة الدينية ، قيمة تضرب بجذورها في المشاعر الأسطورية الكونية ، وفي ممالك الأرض بدلاً من مملكة السماء ، ومن ثم توصَّل إلى أنه لا يوجد مجال للتفاهم بين المسيحية وعبادة الشعب العضوي اليهودية أو النازية .

الخـــــــــلاص

Redemption; Geulah

«الخلاص» ترجمة للكلمة العبرية «جئُولاه» ، وهي اصطلاح ديني يشير إلى الاختلاف العميق والجوهري بين ما هو كائن وما سيكون وإلى انتهاء آلام الإنسان . وفي العهد القديم معنيان لكلمة «خلاص» :

١ - تخليص الأرض عن طريق شرائها (سفر اللاويين ٢٥/ ٢٥ ، حيث يتحدث السفر عن فك الأرض) : "إذا افتقر أخوك فباع من ملكه يأتي وليه الأقرب إليه ويفك مبيع أخيه" .

٢ - ثم أصبحت الكلمة تعني تخليص الأرض من عذابها بعد أن وقعت في يد غير اليهود ، وبالتالي تحوَّل معنى الكلمة وأصبحت تشير إلى الخلاص بالمعنى المجازي .

ومفهوم «الخلاص» غير متجانس وغير مستقر في اليهودية شأنه شأن كثير من الأفكار الدينية الأخروية الأخرى . فالخلاص في أسفار موسى الخمسة ، خلاص قومي جماعي للشعب لا للأفراد ، وهو خلاص قد يتم داخل الزمان لا خارجه ، والآن وهنا لا في آخر الأيام، كما هو الحال في واقعة الخروج حيث يضرب الإله أعداء اليهود ويخرج بهم من مصر ثم يساعدهم على غزو كنعان ، وهكذا دون أي ذكر لخلاص نهائي (في آخر الأيام خارج التاريخ أو حتى داخله) . وأخذ المفهوم يكتسب أبعاداً إنسانية وأخلاقية فردية واضحة في كتب الأنبياء ، إلا أنه مع هذا لم يفقد كثيراً من الأبعاد القومية ، فالإله لا تزال تربطه علاقة خاصة مع الشعب . والخلاص يتم الآن وهنا كواقعة مادية تاريخية . ولكن مع التهجير البابلي ، ومع الإحباطات المتكررة في هذا العالم ، أصبح الخلاص مسألة ستتم في العالم الآتي (المستقبل) في آخر الأيام ، ولكن داخل الزمان وبشكل فجائي . وهذه أساساً هي رؤية كتب الرؤى (أبوكاليبس) ، على خلاف كتب الأنبياء حيث تتم عملية الخلاص من خلال جهد بطيء داخل التاريخ في معظم الأحيان . ثم ظهرت في القرنين الأخيرين قبل الميلاد فكرة الخلاص بعد البعث خارج الزمان في كتاب دانيال وغيره من الكتب ، إلى أن أصبح الإيمان بذلك الشكل من الخلاص أحد الأصول الأساسية لليهودية عند موسى بن ميمون .

ورغم كل التطورات التي دخلت على مفهوم الخلاص واتساع أبعاده ، فإن البعد القومي الجماعي ظل واضحاً . فالعصر المشيحاني، أي عصر الخلاص بالدرجة الأولى ، هو عصر عودة جماعة يسرائيل واسترجاع سيادته على الأرض وربما على العالم . وقد يشارك البشر كافة في عملية الخلاص هذه وقد لا يشاركون فيها . ولكن جماعة يسرائيل تظل ، مع هذا ، حجر الزاوية . وهناك رأي يذهب إلى أن الخلاص يتم على مرحلتين : الأولى وهي العصر المشيحاني حيث تعود جماعة يسرائيل إلى صهيون ويُبعث أنقياء

اليهود للحياة الأزلية ، ثم المرحلة الثانية حيث يُبعث الموتى جميعهم أتقياؤهم وأشرارهم للحساب النهائي . وهذه هي الآخرة .

والرؤية التلمودية للخلاص قومية في جوهرها إذ تظل جماعة يسرائيل محط اهتمام الخالق ومحور التاريخ . فحياة المنفى هي العقاب الذي قدَّره الإله على أعضاء هذه الجماعة بسبب بُعدهم عن عبادته الحقيقية وبسبب ما يقترفون من آثام . ولذا ، فإن اليهود يُكفِّرون في المنفى عن ذنوبهم وسيخلصهم الإله في نهاية الأمر . لكن معصية جماعة يسرائيل هي السبب في تأخير عملية الخلاص النهائية ، أي أن عملية الخلاص مرتبطة بسلوكهم ، والمصير النهائي للعالم يتوقف على مصيرهم .

وأصبحت إعادة بناء الهيكل واستعادة العبادة القربانية صوراً أساسية مرتبطة بعملية الخلاص يهتم بها التلمود أيما اهتمام ، كما سجل الحاخامات تفاصيلها حتى يمكن القيام بها في آخر الأيام في لحظة الخلاص . وسابعة الثماني عشرة بركة التي تُتلَى في صلاة العميدا تُدعى «بركة الخلاص» لأنها دعوة للإله مخلص يسرائيل ، وهذه الرؤية مختلفة عن الرؤية المسيحية التي ترى أن الإنسان كائن ساقط يعاني من الخطيئة الأولى وأن أفعاله أياً ما بلغت من خير لا يمكنها أن تأتيه بالخلاص .

ويُلاحَظ في القبَّالاه أن مركزية يسرائيل تتزايد ، وأن مفاهيم مثل «السقوط» و«الخطيئة» الأولى تدخل النسق الديني اليهودي إذ يصبح السقوط مسألة ميتافيزيقية كونية كامنة في الحالة الإنسانية بل الإلهية أيضاً . فحادث تَهشُّم الأوعية أدَّى إلى تَبعثُر الشرارات الإلهية (نيتسوتسوت) واختلاط الخير بالشر وانفصال الأمير (التجلي السادس) عن الأميرة (التجلي العاشر) . ولكن سقوط الإله وتبعثره يقابله سقوط آدم وسقوط أرواح كل البشر معه . ولابد من جَمْع الشرارات الإلهية التي تبعثرت حتى يستعيد الإله وجوده المتكامل ووحدته وخلاصه ويعود اسمه (فالاسم في التراث القبَّالي هو الإله في حالة تكامل عضوي) ويلتحم الأمير بالأميرة في الزواج المقدَّس . ولكن هذه العملية لا يمكن أن تتم دون جماعة يسرائيل ، فهي أيضاً الشخيناه ، أي التعبير الأنثوي عن الإله ، تلك التي نُفيت مع تَبعثر الذات الإلهية . فكأن اليهود جزء من الإله ، يوجد بين البشر ويشهد عليهم . والشعب اليهودي هو وحده القادر على أن يأتي بالخلاص عن طريق تنفيذ الأوامر والنواهي (متسفوت) فمن خلال هذه العملية ستتم استعادة الشرارات الإلهية واستعادة الإله نفسه ، فيعود إلى الكون اتزانه ، أي أن عملية الخلاص الكونية تتوقف على شعب يسرائيل . ويأخذ الخلاص شكل عودة الشخيناه من المنفى إلى أرض يسرائيل ، فالعصر المشيحاني هنا أصبح جزءاً من دراما كونية تضم الإله وكل المخلوقات . وعودة اليهود إلى صهيون هي إلغاء حالة نفي البشر وتَبعثر الإله . وهنا يُلاحَظ أن نفي الشخيناه والشعب يشبه حادثة الصلب في المسيحية ، فكأن الإله يتعذب بسبب سقوط الإنسان وتبعثر الشرارات ، وسقوط آدم ، والعودة تقابل البعث في اليوم الثالث ، والتحام الأمير بالأميرة يشبه حادثة التجسد المسيحية ، وهذا تعبير عن تنصر اليهودية تدريجياً .

وفي بعض التفسيرات القبَّالية تشمل عملية الخلاص البشر جميعاً ، ولكنها في بعض التفسيرات الأخرى لا تشمل سوى اليهود إذ أن البشر خُلقوا من طينة أخرى غير الطينة التي خُلق منها اليهود (وهذا يتنافى مع الرؤية التوراتية للخلق) . ولذا ، فالأغيار ساقطون تماماً ، مذنبون تماماً ، ولا سبيل إلى إنقاذهم أو خلاصهم .

ومن أهم المفاهيم القبَّالية المرتبطة بالخلاص مفهوم الخلاص بالجسد (عفوداه بجاشميوت) . وجوهر هذه الفكرة أنه مع تبعثر الشرارات الإلهية ، يتداخل الخير الشر ولا يمكن الوصول إلى الخير إلا من خلال الشر . ولذا ، فلا يمكن أن يتم الخلاص إلا بالغوص في الرذيلة ، ولا يمكن الصعود إلا من خلال الهبوط . وقد استفاد المشحاء الدجالون من هذا المفهوم في انغماسهم في الملذات ، بل في ارتدادهم عن اليهودية ، إذ فُسِّرت رذائلهم بأنها الطريق إلى الفضيلة .

وفي القرن السابع عشر ، ظهرت في صفوف البروتستانت العقيدة الاسترجاعية التي جعلت اليهود مركزاً لرؤية الخلاص إذ لا يمكن أن يتم الخلاص إلا بعد عودة اليهود إلى صهيون (فلسطين) وتنصيرهم ، أي استيعابهم في الأمم .

الرؤية الصهيونية للخلاص

Zionist View of Redemption

استوعبت الصهيونية كثيراً من الأفكار اليهودية الخاصة بالخلاص ، ذات التركيب الجيولوجي ، بعد علمنتها :

١ - فكرة «خلاص الشعب» بالمعنى العرْقي (وليس بالمعنى الديني) فكرة محورية في التصور الصهيوني للتاريخ .

٢ - يتم الخلاص كحادثة في التاريخ (مثل الخروج أو الهجرة من مصر) وليس كحادثة مشيحانية في آخر الأيام أو بعد البعث . ولذا ، رفض الصهاينة فكرة انتظار مشيئة الإله وأخذوا زمام الأمور في أيديهم .

٣ - يرى الصهاينة أن الحياة في المنفى شكل مرضي من الحياة ، وهذه

علمنة للفكرة الحاخامية القائلة بأن المنفى عقاب للتكفير عن الذنوب.

٤ـ يتمثل الخلاص (على الطريقة الصهيونية) في تطبيع الشخصية اليهودية الهامشية عن طريق تخليص الأرض والاستيطان فيها، وبإنشاء دولة طبيعية مثل الدول كافة، وبذا ينتهي الصراع القائم بين اليهود والعالم! (والخلاص هنا يعني التكيف مع مكونات العصر الحديث وحقائقه الصلبة). وهذه علمنة لفكرة عودة الشعب آخر الأيام، وأن يعم السلام العالمين، كما أنها علمنة لفكرة تنصير الشعب اليهودي.

٥ـ يرى آرثر هرتزبرج أن الخلاص الذي كان يأخذ في الماضي شكل مواجهة بين الشعب والإله، يأخذ الآن شكل مواجهة بين الشعب وشعوب العالم الأخرى، وهذه علمنة أعمق لفكرة الخلاص.

٦ـ ولكن الصهاينة لم يُسقطوا عنصر الاختيار والتفوق، شأنهم شأن الفكر الديني الحلولي التقليدي، فالدولة الصهيونية لها حقوق يهودية مطلقة تجب الحقوق الأخرى كافة، وهي تشير إلى نفسها بأنها نور الأمم، وواحة الديموقراطية الغربية، ورائد العالم الثالث.

٧ـ وقد قامت الدولة الصهيونية أيضاً بعلمنة فكرة تخليص الأرض أو فكها عن طريق شرائها، فقامت بتأسيس الصندوق القومي اليهودي ليضطلع بهذه المهمة. كما أن الدولة الصهيونية تشارك في عملية الخلاص هذه بطرد العرب، واستصدار قوانين مختلفة تيسِّر عملية الاستيلاء على الأراضي وتجعلها أمراً شرعياً.

ويمزج مفهوم العمل العبري الصهيوني بين كل الاتجاهات السابقة، فيهودي المنفى يخلِّص نفسه، ويخلِّص الأرض في آن واحد، بأن يعود إليها ويفلحها بنفسه، فيُطهِّر نفسه من أدران المنفى (الخلاص بالجسد) التي علقت به، ويطهرها هي من سكانها الأصليين. وهكذا يتم خلاص اليهودي وأرضه عن طريق التخلص من أصحابها الأصليين.

عرَّف الصهاينة الخلاص بشكل عام دون تحديد الدوافع أو الوسائل التي يتم بها، فالخلاص، في نهاية الأمر، خلاص الأرض والشعب. ولكن ذلك يتم لدوافع اشتراكية وبوسائل اشتراكية عند الصهاينة العماليين، أو يتم بدوافع رأسمالية وبوسائل رأسمالية عند الصهاينة الرأسماليين، كما يمكن أن يتم لأسباب دينية أو إلحادية، وبوسائل دينية عند المتدينين وبوسائل إلحادية عند الملحدين. ويُلاحَظ أن ما يتغيَّر هنا ليس مضمون الخلاص أو حتى طريقته (فالجميع يلجأ إلى العنف والإرهاب) وإنما ديباجته وما يُعلَن للناس من أهداف.

اليهودية: تاريخ
Judaism : History

من الشائع أن يقرن الدارسون تاريخ العبرانيين وتواريخ الجماعات اليهودية من جهة بتاريخ العقيدة (أو العقائد) اليهودية من جهة أخرى، وكذلك أن يوحدوا بينهما وكأنهما شيء واحد. وهو اتجاه ساعد عليه ما يمكن تسميته «التاريخ المقدَّس» أو «التاريخ التوراتي»، أي القصص التي وردت في التوراة على هيئة تاريخ. ونحن نرى ضرورة فصل تواريخ الجماعات اليهودية في العالم عن تاريخ العقيدة أو العقائد اليهودية، وذلك لاعتبارات منهجية وموضوعية، إذ أن الخلط بينها هو خلط بين مجالين مختلفين يؤدي إلى كثير من التشوش وعدم الفهم. وقد اعتاد الكثيرون النظر إلى اليهودية كما لو أنها عقيدة متكاملة وبناء ديني متكامل اتضحت معالمه الأساسية منذ ظهوره، وكما لو أن هذا البناء ظل محتفظاً بهذه السمات حتى الوقت الحاضر (كما هو الحال إلى حدٍّ كبير مع الإسلام والمسيحية على سبيل المثال). وهذا مناف للواقع، فتاريخ اليهودية طويل إلى أقصى حد. وقد مرت اليهودية كعقيدة بعدة تطورات عميقة غيَّرت طبيعتها وتوجهاتها شكلاً ومضموناً. هذا على الرغم من وجود أطروحات أساسية متواترة، مثل العهد والشعب المختار، تخلع عليها نوعاً من الوحدة. بل إن ثمة ظاهرة تنفرد بها اليهودية وهي ما يمكن تسميتها «الخاصية الجيولوجية التراكمية»، أي أن اليهودية تشبه التركيب الجيولوجي المكوَّن من طبقات مختلفة غير متجانسة تراكمت الواحدة فوق الأخرى عبر الزمان دون أن تمتزج. فاليهودية استوعبت عناصر مختلفة عديدة، ولكنها لم تمزجها ولم تفرض عليها حداً أدنى من الاتساق الداخلي. ولذا فإننا نجد أن هناك أفكاراً توحيدية متطرفة عند الأنبياء، وأفكاراً حلولية متطرفة عند القبَّاليين وصفها الحاخامات بأنها شكل من أشكال الشرك. ونجد رؤى متناقضة تماماً للإله فيما يتصل بمفاهيم مثل البعث والثواب والعقاب. كما دخل اليهودية كثير من المعتقدات الشعبية التي هي أقرب إلى الفلكلور. وربما كانت هذه السمة الجيولوجية هي التي أدَّت، في نهاية الأمر، إلى تعريف اليهودي في الشريعة اليهودية بأنه من وُلد لأم يهودية، وهو تعريف يضم الملحدين الذين لا يؤمنون بالإله، كما يضم (من الناحية النظرية على الأقل) اليهود الذين تنصروا أو أسلموا.

ويمكن تقسيم تاريخ اليهودية، باعتبارها نسقاً دينياً وعقيدة، بعيداً عن تاريخ العبرانيين وتواريخ الجماعات اليهودية، إلى عدة مراحل أساسية، وتقسيم كل مرحلة إلى فترات. وفي محاولتنا

توصيف اليهودية ، سنبين تتابُع ظهور كتب اليهود المقدَّسة ، كما سنشير إلى المواجهات الخمس الكبرى بين اليهودية والحضارات الوثنية والتوحيدية المختلفة .

والمراحل الثلاث الأساسية في تاريخ اليهودية هي :

أولاً : يهودية ما قبل التهجير إلى بابل (حتى عام ٥٨٧ ق . م) ، أو العبادة اليسرائيلية والعبادة القربانية المركزية ، تمييزاً لها عن اليهودية نفسها : وهي تقريباً المرحلة نفسها التي أطلقنا على اليهود فيها مصطلح «العبرانيون» ، باعتبارهم جماعة عرقية إثنية ، و«اليسرائيليون» أو «جماعة يسرائيل» باعتبارهم جماعة دينية . وهذه المرحلة الكبرى تقسَّم بدورها إلى عدة فترات ، وهي مرحلة يختلط فيها التاريخ بالأسطورة ، وتُسقَط مفاهيم فترات لاحقة على فترات سابقة .

ويمكن تقسيم هذه المرحلة إلى الفترات التالية :

١ ـ فترة الآباء : (٢١٠٠ ق . م ـ ١٢٥٠ ق . م) :

وتمتد ابتداءً من إبراهيم حتى يوسف . وحسبما جاء في التوراة ، وقد قطع الإله على نفسه عهداً لإبراهيم بأن يكون الشعب الذي سينحدر من صلبه شعباً عظيماً ، وأن تكون أرض كنعان من نصيبه . وحسب ما ورد في التوراة يمكن القول بأن عبادة الآباء تأثرت بالتراث الديني السامي القديم بتقديسها القوى الطبيعية والإيمان بالروح والشياطين والتحريمات (التابو) ، وتمييزها بين الطاهر والنجس . ويُلاحَظ وجود عناصر وثنية كما هو الحال في قضية الترافيم (الأصنام) .

٢ ـ فترة موسى والخروج من مصر (فترة سيناء) (١٢٧٥ ق . م ـ ١٢٥٠ ق . م) :

تلقَّى موسى ، في سيناء ، الوحي الإلهي من يهوه ، والأمر بألا يُعبَد إلا باعتباره الإله الواحد ، وبعدم تجسيده أو تشبيهه بشيء واحد من خلقه ، أي أن الخالق يُصبح خالق التاريخ والطبيعة منزَّهاً عنهما . وقد صاحبت هذا الوحي مجموعة من الطقوس والقوانين الاجتماعية تحكم القبائل العبرانية في محيطها الصحراوي ، أي نزل قانون ديني دائم ينظم المجتمع وعلاقات أعضائه . وفي هذه الفترة تَجدَّد العهد الإلهي المُعطى للآباء . ويُعَدُّ الخروج نفسه تحقيقاً لهذا الوعد ، وتُعَدُّ حادثة الخروج اللحظة التي وُلدت فيها جماعة يسرائيل ، أي العبرانيون باعتبارهم جماعة دينية متميِّزة .

٣ ـ المواجهة الأولى مع حضارة كنعان ، والصراع بين يهوه وبعل (١٢٠٠ ق . م ـ ٥٨٧ ق . م) :

حينما تغلغل العبرانيون في كنعان وجدوا عبادة بعل ، وهي عبادة حلولية من عبادات الطبيعة كانت سائدة هناك (في ذلك المجتمع الزراعي) . وقد حملوا معهم من المجتمع الصحراوي عبادة يهوه ، وهي عبادة توحيدية أو شبه توحيدية . وحينما امتزجوا وتزاوجوا مع السكان الأصليين وتبنوا لسانهم حدث الامتزاج بين العقيدتين . وقد أصبح التناقض بين عبادة يهوه (رب التاريخ والشعب) وعبادة بعل (رب الطبيعة والحياة اليومية) التوتر الأساسي الذي تَحكَّم في حياة العبرانيين الدينية ، وذلك حتى سقوط الدولتين الشمالية والجنوبية . وشهدت هذه الفترة ظهور الأنبياء المدافعين عن عبادة يهوه . والإصلاح التثنوي (٦٢١ ق . م) تعبير عن التوتر بين الحلولية والتوحيد الذي كانت له أبعاده السياسية . وحسب التصور الديني اكتمل الوعد الإلهي بالأرض والخلاص في مرحلة الملوك ، كما تم تشييد الهيكل في تلك المرحلة (مرحلة الهيكل الأول) وتحوَّل إلى محور العبادة القربانية المركزية التي كان يشرف عليها الكهنة . ورغم تأكيد وحدانية الإله ، فقد ظهرت مفاهيم أخرى ذات طابع حلولي ، مثل الاختيار بتضميناته العرْقية والتركيز على الأرض ، وهي مفاهيم تحد من عالمية الإله وتجعله مقصوراً على شعبه وأرضه ، الأمر الذي ينتقص وحدانيته . وقد ظل هذا توتراً أساسياً في النسق الديني اليهودي . فإله العالمين لا يحتاج إلى أرض أو شعب ، أما الإله القومي فيحتاج إلى شعب وأرض . وهو توتر بين النزعة الدينية الأخلاقية التي تبحث عن الخلاص في الزمان ، والنزعة الوثنية القومية التي تبحث عنه في المكان ، وهي ما يمكن تسميته «نزعة صهيونية» بالمعنى العام والبنيوي . وقد أصبح داود الملك النموذجي الذي يحكم باعتباره حاكماً دينياً يساعده الكهنة ، وارتبط اسمه بالماشيَّح المخلص الذي يأتي من نسله (إلا أن عقيدة الماشيَّح نفسها لم تكن قد ظهرت بعد في هذه الفترة) . وقد ظهرت في هذه المرحلة بعض القوانين الأخلاقية والشعائر ، مثل : الختان ، وشعائر الطعام والزراعة والسبت ، وعيد الفصح ، وعيد الأسابيع ، وعيد المظال . وتتميَّز تلك المرحلة بأن الدين كان مرتبطاً بالجماعة الإثنية أو العرْقية ارتباطاً كاملاً ، كما هو الحال في الشرق الأدنى القديم ، وبأن اليهود تحوَّلوا تدريجياً ، من خلال الاندماج مع السكان الأصليين ، إلى جماعة زراعية بعد أن كانوا يشكلون جماعة صحراوية متنقلة . ويُلاحَظ وجود شعائر كثيرة مرتبطة بالزراعة . وتنتهي المرحلة بهدم الهيكل والتهجير إلى بابل (الذي يُطلَق عليه «السبي البابلي» في المصطلح الديني) .

ثانياً : مرحلة ما بعد التهجير (بعد ٥٨٧ ق . م) :

وهي المرحلة التي اكتسبت خلالها العبادة القربانية المركزية ،

وهي المرحلة الثانية من عبادة يسرائيل ، الملامح التي حولتها إلى العقيدة اليهودية في نهاية الأمر . وحينما نذكر اليهودية ، فنحن عادةً ما نشير إلى يهودية ما بعد التهجير . وقد شهدت هذه المرحلة التعديل التدريجي للشريعة بحيث تحولت من كونها شريعة تشمل كل جوانب الحياة إلى شريعة تغطي بعض جوانبها وحسب ، إذ تم تَقَبُّل قوانين الدولة الحاكمة في عدة مجالات باعتبار أن «شريعة الدولة هي الشريعة» وهو ما أدَّى إلى تقلُّص مجال الشريعة اليهودية واقتصاره على الجوانب الدينية فقط وعلى الجوانب الخاصة بالعلاقات الداخلية لأعضاء الجماعات اليهودية .

ويمكن تقسيم هذه المرحلة إلى الفترات التالية :

١ ـ الفترة البابلية (والمواجهة الثانية مع الحضارة البابلية) والفارسية والهيلينية (والمواجهة الثالثة مع الحضارة الهيلينية) والرومانية (٥٧٨ ق.م ـ ١٧٥ ق.م) :

شهدت هذه المرحلة تفتُّت وحدة اليهود الجغرافية وانفتاحهم على الأفكار الدينية البابلية التي تعرفوا إليها أثناء فترة التهجير (أو السبي) ، وهو ما ترك أثراً عميقاً في بنية العقيدة بحيث أخذت العبادة اليسرائيلية تتحول بالتدريج إلى اليهودية . وقد سمح قورش لليهود بالعودة إلى مقاطعة يهودا وأمر بإعادة تشييد الهيكل ، وهذه بداية مرحلة الهيكل الثاني في المصطلح الديني . ومع قيام الإسكندر بغزو الشرق الأدنى القديم ، دخلت اليهودية مرحلة جديدة إذ تأثر المفكرون اليهود تأثراً عميقاً بالأفكار الدينية والفلسفة الهيلينية . ويُلاحَظ أن عمق تأثر اليهود بالحضارة الهيلينية مرتبط باختفاء السلطة الدينية المركزية . وقد ساعد تسَامُح الحضارة الهيلينية ، ثم السلطة الرومانية ، تجاه اليهود على تزايُد اندماج أعضاء الجماعات اليهودية ومن ثم على تأثرهم بالمنظومات الدينية والمعرفية والفلسفية السائدة في المجتمعات التي يعيشون فيها . ولم تتعاون السلطة الحاكمة (البطلمية أو السلوقية أو الرومانية) مع القيادات الحاخامية للهيمنة على أعضاء الجماعات كما فعلت السلطة الفارسية وإنما أتاحت لهم مجال الاندماج ، فانتشرت أنماط التفكير الهيليني بسرعة ، ونسي اليهود الآرامية وتعلموا اليونانية التي تُرجم إليها العهد القديم . وقد حل الكاهن الأعظم محل الملك في الرئاسة الدينية ، وأُعيد تشييد الهيكل بحيث أصبح الهيكل مركز العبادة مرة أخرى . وشهدت هذه الفترة إصلاحات عزرا ونحميا ، وبداية تدوين العهد القديم . ويمكن القول بأن الفترة السابقة يمكن تقسيمها إلى ما قبل ما بعد الرؤى (أبوكاليبس) ، والكتب الخارجية أو الخفية (أبوكريفا) في نهاية العصر الهيليني ، وبدايات الشريعة الشفوية وترسُّخ عقيدة الماشيَّح ، وظهور عقائد مثل : خلود الروح والبعث . وشهدت هذه الفترة أيضاً الانقسام السامري ، وظل الدين في هذه الفترة مرتبطاً بالجماعة الإثنية رغم انتشار الجماعات اليهودية خارج فلسطين .

٢ ـ فترة ما قبل ظهور اليهودية الحاخامية (أو المعيارية أو الكلاسيكية) حتى القرن السادس ، ظهور الفريسيين وهدم الهيكل وظهور الأكاديميات (يشيفا) والمعبد اليهودي :

يُعَدُّ ظهور الفريسيين قمة التطور الذي بدأ مع التهجير البابلي والذي أخذ شكل انفتاح مستمر على العناصر العالمية ، وهي النقطة التي تحولت فيها العبادة اليسرائيلية والعبادة القربانية المركزية اليهودية بشكل نهائي . وجوهر الفريسية هو هجومها على طبقة الكهنة المرتبطة بالهيكل ، والعبادة القربانية المركزية مُمثَّلة أساساً في الصدوقيين وطرحها تصوراً لليهودية منفصلاً عن المكان ، وعن الدولة ، وعن الأرض ، وإن لم يكن منفصلاً عن الجماعة الإثنية . وقد طوَّر الفريسيون مفهوم الشريعة الشفوية لتوسيع مجال التفسير ، وحتى يمكن تحرير اليهود من قبضة العبادة القربانية . وشهدت هذه المرحلة ظهور المعبد اليهودي (سيناجوج) . وواكب كل هذا انتشار الحضارة الهيلينية وقيمها بين اليهود الذين لم يعودوا يعرفون العبرية ، كما كان عدد اليهود خارج فلسطين أكثر من عددهم داخلها . ولذا ، أدَّى هدم الهيكل ، على يد تيتوس ، إلى تكريس اتجاه موجود بالفعل .

وقد ظهرت المسيحية في هذه الفترة فمثلت تحقيقاً لعملية فصل الدين عن مؤسسات الدولة ثم عن الجماعة الإثنية ، بحيث صار باب الخلاص مفتوحاً لجماعة المؤمنين بأسرها ، وليس للمنتمين إلى جماعة إثنية محددة . وقد أدَّى انتشار المسيحية إلى ضمور اليهودية .

وفي القرن السادس ، تم تدوين التلمود الذي يتسم بزيادة الاتجاه نحو الحلولية والنزعة القومية ، والذي ينسب إلى الإله صفات بشرية عديدة . ولم تَعُد القدس مركزاً دينياً وحيداً ، بل أصبحت هناك مراكز عديدة منفصلة يقودها الحاخامات . ويُعدُّ هذا تاريخ ظهور اليهودية الحاخامية ، وهي اليهودية التي انتشرت بين أعضاء الجماعات اليهودية حتى نهاية القرن التاسع عشر . ومن المشاكل الأساسية التي واجهتها اليهودية بدءاً من هذه الفترة أنها كانت ديانة توحيدية أو شبه توحيدية في تربة وثنية تكتسب هويتها من وحدانيتها وتحارب ضد الأسطورة والحلولية ، ولكنها وجدت نفسها في تربة توحيدية ، إسلامية أو مسيحية ، ولذا عدلَّت إستراتيجيتها ،

وأخذت تتجه نحو الأسطورة والتعددية . ووصل هذا الاتجاه إلى قمته في القبَّالاه .

٣ـ اليهودية الحاخامية ، من القرن السابع الميلادي (بعد تدوين التلمود) حتى منتصف القرن السابع عشر (هيمنة القبَّالاه) (المواجهة الرابعة مع الديانات التوحيدية : المسيحية والإسلام) .

في هذه الفترة ، تحوَّل اليهود إلى جماعات متفرقة لا تعمل بالزراعة ، الأمر الذي ترك أثراً عميقاً في التركيب الطبقي والوظيفي لليهود إذ أصبحوا جماعات وظيفية وسيطة ، خصوصاً في العالم الغربي . وقد تدعَّم مركز الحاخامات ، الذين حلوا محل الكهنة ، واكتملت المعالم الأساسية للتفسيرات الحاخامية التي تُسمَّى «الشريعة الشفوية» . وأخذ الفكر الديني اليهودي في الضمور في الغرب خلال العصور الوسطى في الغرب ؛ بينما نجده ينفتح ويتطور نتيجة احتكاكه بالفكر الإسلامي التوحيدي ، العقلاني والصوفي ، وهذه هي المواجهة الرابعة مع الحضارة الإسلامية . وبلغ الانفتاح والتطور ذروته في كتابات موسى بن ميمون الذي قدَّم أول تحديد لأصول الدين اليهودي . وقد ظهر ، تحت تأثير الفكر الإسلامي ، الاحتجاج القرائي (العقلاني) ورفض الشريعة الشفوية .

ويُلاحَظ في هذه الفترة أن اليهودية لم تَعُد مرتبطة بالمكان ، وذلك رغم أنها ظلت ديانة جماعة إثنية محددة . وأصبحت العودة مفهوماً دينياً وعملاً من أعمال التقوى ، وأصبحت صهيون صورة مجازية دينية وكان على المؤمن ألا يحاول العودة إلى صهيون (فلسطين) ، وأن ينتظر حتى يشاء الإله عودة الشعب . ونظراً لوجود اليهودية الغربية في حالة العزلة داخل الجيتو باعتبارها عقيدة جماعة وظيفية وسيطة ، فقد أصابها الجمود وأصبحت عاجزة عن الوفاء بحاجات اليهود الدينية . وأخذت الأزمة تتفاقم مع القرن السادس عشر ، مع بدايات الثورة العلمانية الكبرى ، ومع هجمات شميلنكي عام ١٦٤٨ . وأخذ الاحتجاج على اليهودية الحاخامية (ويُقال لها أيضاً «التلمودية» أو «الربانية») شكل ثورات المشحاء الدجالين ، مثل شبتاي تسفي ، الذين يطالبون بإسقاط الشريعة والتلمود ، وبالعودة الفعلية والفورية إلى فلسطين .

وقد أخذت الثورة ضد اليهودية الحاخامية شكلاً آخر ، وهو ظهور تراث القبَّالاه الصوفي المفرط في الحلولية مثل كتاب الزوهار وكتابات إسحق لوريا المتأثر بشكل مشوَّه ببعض المفاهيم المسيحية مثل التثليث والصلب . ويرى جرشوم شوليم أن القبَّالاه اللوريانية حققت هيمنتها الكاملة في منتصف القرن السابع عشر . كما ظهرت الحركات الشبتانية والحركة الحسيدية . ولم ترفض المؤسسة الحاخامية القبَّالاه تماماً ، بل استوعبتها بعد حين ، وجعلت الإيمان بها واحداً من أركان العقيدة اليهودية . لكن التوتر ظل قائماً بين المؤسسة الحاخامية التلمودية والمؤسسة القبَّالية الحسيدية ، وتَمثَّل هذا في الصراع بين المتنجديم والحسيديين ، وإن كانوا قد وحدوا صفوفهم في مواجهة الحركات التجديدية والإصلاحية الحديثة .

ثالثاً : العصر الحديث (مع منتصف القرن السابع عشر تقريباً) : وهي مرحلة المواجهة الخامسة مع الحضارة العلمانية في الغرب :

بينما كانت اليهودية متخندقة في الجيتو ، كان المجتمع الأوربي آخذاً في التطور السريع ، وهو تطوُّر لم يشارك فيه أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب (رغم أنه ترك فيهم أعمق الأثر) . ومع ظهور الدولة القومية التي طالبت بفصل الولاء القومي عن الانتماء الديني، ومع تَصاعُد معدلات العلمنة ، وجد أعضاء الجماعات اليهودية أنفسهم في العصر الحديث ، غير مهيئين على الإطلاق لإنجاز هذه العملية . ولقد بدأت المرحلة الحديثة في هولندا في القرن السابع عشر ، في أمستردام ، ثم فرنسا وألمانيا في القرن الثامن عشر ، ومعظم بلاد أوربا في منتصف القرن التاسع عشر ، والعالم العربي والعالم الإسلامي في القرن العشرين . وتسبَّب هذا الوضع في ظهور أزمة هوية عميقة ، وأخذت ردود الفعل أشكالاً كثيرة مثل :

١ ـ حركة التنوير اليهودية وظهور اليهودية الإصلاحية ، أواخر القرن الثامن عشر : تُعَدُّ حركة التنوير واليهودية الإصلاحية إحدى الاستجابات اليهودية للعصر الحديث ، وهي استجابة تتقبل معطيات هذا العصر وعقلانيته المادية وتنطلق منه ، وتحاول فصل الدين لا عن الدولة الحاكمة وحسب ، وإنما عن الجماعة الإثنية تماماً بحيث يصبح «اليهودي يهودياً في منزله مواطناً في مدينته» (على حد قول يهودا جوردون) .

٢ ـ الحركات الأرثوذكسية والمحافظة ، أوائل القرن التاسع عشر : لم تكن كل قطاعات اليهود راغبة في ـ أو قادرة على ـ دخول العصر الحديث ، وتَقبُّل قيمه . ولذا ، انخرطت أعداد كبيرة منها في حركات دينية هي في جوهرها رد فعل للعصر الحديث يأخذ شكل الإمساك بتلابيب الصيغة الدينية القومية التقليدية ، مثل : الحسيدية (التي بعثت التراث الصوفي) واليهودية الأرثوذكسية والمحافظة والتجديدية . ولا تزال الفرق اليهودية كلها مختلفة حول أمور شعائرية وعقائدية عديدة ، وتبلورت الخلافات في موقفها من الشريعة ، أهي ملزمة لليهودي في العصر الحديث أم يمكنه إعادة تفسيرها على طريقته ، أو حتى التخلي عنها ؟

٣ ـ الحركة الصهيونية بين اليهود في أواخر القرن التاسع عشر : رغم أن الصهيونية في جوهرها حركة علمانية لا دينية ، فإن ظهورها أثر تأثيراً عميقاً في اليهودية والفكر الديني اليهودي إلى درجة أن اليهودية الأرثوذكسية التي بدأت بمعاداة الصهيونية ، أصبحت العمود الفقري للاستيطان الصهيوني . واستفادت الصهيونية من الاتجاه القومي داخل اليهودية وحوَّلت كثيراً من المفاهيم الدينية الروحية إلى مفاهيم فيزيقية بحيث تحولت العودة في نهاية الأيام إلى الاستيطان الصهيوني هذه الأيام . كما تمت علمنة المفاهيم الدينية بحيث أصبح هناك ما يشبه التماثل البنيوي بين اليهودية الحاخامية والصهيونية . فهناك كثير من علماء الدين اليهودي يتحدثون عن دولة إسرائيل كما لو كان لها معنى أخروي ميتافيزيقي ، وأنها علامة على تَدخُّل الإله في التاريخ لينقذ شعبه ويأتي له بالخلاص تماماً كما فعل في واقعة الخروج . وقد قرن أحد المفكرين الدينيين اليهود بين الإله والدولة إلى درجة أنه صرح عام ١٩٦٧ بأن الإله نفسه مُهدَّد في هذه الحرب ! وقد ظهر إلى جانب الصهيونية ما يُسمَّى «اليهودية الإثنية» التي أعادت تعريف اليهودية بحيث أفرغتها من محتواها الديني والأخلاقي أو جعلته في المرتبة الثانية وأكدت محتواها الإثني ، فأصبح بإمكان اليهودي الذي لا يؤمن بالإله ولا يمارس التحريمات الخاصة بالطعام أن يصر على تسمية نفسه يهودياً . ورغم انتصار الصهيونية الكاسح ، فلا تزال توجد جيوب مقاومة بين اليهود الأرثوذكس والإصلاحيين .

٤ ـ اليهودية في الولايات المتحدة : انتقل مركز اليهودية إلى الولايات المتحدة ، وهو ما كان يعني انتقال اليهودية إلى تربة علمانية كاملة . فعمَّت الاتجاهات الإصلاحية والمحافظة ، وضَعُفت اليهودية الكلاسيكية أو المعيارية (الأرثوذكسية) . كما ضَعُف دور الحاخام تماماً بحيث أصبح اليهود العاديون يسيطرون على الجماعة ، وأصبح المعبد اليهودي جزءاً من النشاط الاجتماعي لأعضائها ، كما هيمنت الصهيونية ، في مستوى من المستويات ، على الجماعة اليهودية وعلى فكرها الديني .

٥ ـ لاهوت موت الإله : ظهر بعد الحرب العالمية الثانية تيار كاسح بين المفسرين الدينيين اليهود يَصدُر عن تقديس الشعب اليهودي وتاريخ هذا الشعب باعتباره سجلاً لما يقع له من أحداث وما يقوم به من أفعال . فكأن اليهودية سقطت مرة أخرى وبحدة في الحلولية الوثنية القديمة حيث يترادف الديني والقومي وحيث يستحيل تجاوز سطح المادة ، فهي وثنية دون إله تحل فيها الذات القومية محل الذات الإلهية . وأهم أحداث التاريخ اليهودي (المقدَّس) من منظور هؤلاء المفكرين هو الإبادة النازية ، فهي دليل على فشل اليهودية الحاخامية تماماً ، إذ جعلت اليهود شعباً مختاراً يقف شاهداً على الشعوب الأخرى لا يشارك في السلطة السياسية ولا سيادة له . والإبادة دليل أيضاً على اختفاء أو موت الإله ، فحضور معسكرات الاعتقال دليل على غياب الإله . ويُلاحظ أن الخطاب المستخدم هو خطاب ما بعد الحداثة ، الذي يركز دائماً على عدم وجود مطلقات تتجاوز الواقع وغياب المركز ، ومن ثم غياب علاقة الدال بالمدلول . ولكن اختفاء الإله كمطلق لا يعني اختفاء كل المطلقات إذ يظهر الشعب اليهودي باعتباره المطلق ، ويصبح بقاؤه بأي ثمن القيمة الأخلاقية الكبرى ، كما تصبح دولة إسرائيل التعبير الأمثل عن إرادة هذا الشعب وعن تَخلُّصه من عجزه وتأكيد سيادته . وشعائر هذا اللاهوت هي تذكُّر الإبادة ، وكتبه المقدَّسة هي الكتب اليهودية التي تُذكِّر اليهود والعالم بهذه الحادثة والمؤسسات الصهيونية (الكنيست الإسرائيلي ـ مؤسسات الجباية) هي مؤسسات العقيدة الجديدة . والأوامر والنواهي لم تَعُد لها أهمية . فأهم واجب ديني يهودي هو الدفاع عن بقاء الشعب اليهودي والدولة الصهيونية (منع ارتكبت من آثام) والدفاع عن إسرائيل (ومن هنا يُسمَّى لاهوت موت الإله «لاهوت البقاء» ، و«لاهوت ما بعد أوشفيتس») . وبطبيعة الحال ، نجد أن الأخلاقيات الناجمة عن الإيمان بهذه الرؤية أخلاقيات براجماتية لا علاقة لها بالقيم المطلقة . وإذا كان هدف اليهود البقاء والإبقاء على دولتهم بأي ثمن ، فإن البقاء يُعَدُّ قيمة طبيعية أو داروينية وليس قيمة أخلاقية أو إنسانية . ولاهوت موت الإله تعبير عن الهيمنة الصهيونية الكاملة أو إنسانية . وعلمنة النسق الديني اليهودي ، إذ صفَّي النسق الحلولي تماماً من كل شائبة (وحتى من كلمة الإله) ، وأصبح نسقاً خالياً من أي شيء سوى الذات القومية ، وهو يشكل بالتالي عودة شبه كاملة للعبادة القربانية المركزية ، ولكنها كما قلنا عبادة دون إله ، الأمر الذي يعني تأليهاً متطرفاً للذات القومية .

٦ ـ إعادة تأكيد الانتماء الديني مقابل الانتماء الإثني : في السبعينيات ، بدأت تظهر مؤخراً حركات بين اليهود لا ترفض الصهيونية علناً ، ولكنها تحاول التملص منها ، وتؤكد ضرورة الاحتفاظ بالانتماء الديني مستقلاً عن الانتماء الإثني أو القومي أو السياسي . وأعضاء هذه الحركات يخشون اقتران اليهودية بالصهيونية اقتراناً كاملاً قد يقضي عليها . ولذلك ، فهم يصرون على مركزية الدياسبورا (الجماعات) مقابل المفهوم الصهيوني الخاص بمركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا ، ومن أهم دعاة هذا الاتجاه الحاخام جيكوب نيوزنر أكبر علماء التلمود المعاصرين . كما ظهر ما يُسمَّى «لاهوت التحرير» الذي يُطوِّر كثيراً من هذه المفاهيم ،

فدعاة لاهوت التحرير يرفضون تقديس التاريخ اليهودي والمزاوجة بين القومي والمقدَّس ، وهم من ثم يرفضون اعتبار العقائد أو الدولة الصهيونية مطلقات . بل إنهم يطالبون اليهود بألا يتذكروا ضحايا الإبادة من اليهود وحسب وإنما أن يتذكروا أيضاً الضحايا من غير اليهود . أما الدولة الصهيونية ، بالنسبة لهم ، فهي قد حلت بالفعل مشكلة العجز بسبب غياب السيادة ولكنها استخدمت سلطاتها في حرق البشر وفي كسر عظام الأطفال ، وأصبح بقاؤها مرهوناً بموت الأطفال الفلسطينيين . ولذا يتعيَّن على اليهود أن يتذكروا ضحايا الصهيونية ، وإذا كانوا يساندون هذه الدولة فيتعيَّن عليهم أيضاً التمسك بالقيم الأخلاقية المطلقة ومحاكمة هذه الدولة من خلال هذه القيم .

ويُلاحَظ أن التناقض بين لاهوت موت الإله ولاهوت التحرر هو نفسه التوتر القديم بين الكهنة والأنبياء وبين دعاة الانغلاق الوثني والانفتاح الأخلاقي العالمي ، فكأن اليهودية لا تزال في حالة التوتر الأولى ، وهذا يعود ولا شك إلى تركيبتها الجيولوجية التراكمية .



الجزء الثاني

المفاهيم والعقائد الأساسية في اليهودية

١
الإلـــــــه

التصور اليهودي للإله ـ التوحيد ـ أسماء الإله ـ تقديس الاسم (قيدوش هاشيم) ـ إيل ـ يهوه (يهوفاه) ـ إلوهيم ـ تتراجراماتون ـ أدوناي ـ شدّاي

التصــور اليهــودي للإلــه
Jewish Concept of God

توجـد داخل اليـهودية ، من حيث هي تركيب جيـولوجي تراكمي ، طبقة توحيدية تدور حول الإيمان بالإله الواحد الذي لا جسد له ولا شبيه ، الذي لا تدركه الأبصار وتعتمد عليه المخلوقات كافة ولا يعتمد هو على أيٍّ منها إذ هو يتجاوزها جميعاً ويسمو عليها . وكل مظاهر الطبيعة والتاريخ ليست إلا تعبيراً عن قدرته ، فهو روح الكون غير المنظورة ، السارية فيه ، والتي تُمد الكون بالحياة ؛ وتسمو عليه وتلازمه في آن واحد . وقد وصل التوحيد في اليهودية إلى ذروته على يد بعض الأنبياء الذين خلّصوا التصور اليهودي للإله من الشوائب الوثنية الحلولية التي علقت به ، فصار أكثر إنسانية وشمولاً وسمواً ، وأقل عزلة وقومية وتعالياً .

وقد استمر التيار التوحيدي في مختلف فترات تاريخ اليهودية . وتتضمن الصلوات اليهودية دعاء الشماع ، أي شهادة التوحيد اليهودية وقصائد مثل «آني مأمين» (إني مؤمن) و«يجدال» (تنزّه الرب) التي تؤكد فكرة التوحيد . وقد سار الكثير من اليهود إلى حتفهم في العصور الوسطى في الغرب دفاعاً عن وحدانية الإله وتأكيداً لها .

ولكن اليهودية ، كتركيب جيولوجي ، تراكمت داخلها طبقات أخرى ، وما التوحيد سوى طبقة واحدة ضمن طبقات مختلفة . فالعهد القديم ، كما يتضح في مصادره المتعددة ، يطرح رؤى متناقضة للإله تتضمن درجات مختلفة من الحلول بعضها أبعد ما يكون عن التوحيد .

وتتبدّى الحلولية في الإشارات العديدة إلى الإله ، التي تصفه ككائن يتصف بصفات البشر ، فهو يأكل ويشرب ويتعب ويستريح ويضحك ويبكي ، غضوب متعطش للدماء ، يحب ويبغض ، متقلب الأطوار ، يُلحق العذاب بكل من ارتكب ذنباً سواء ارتكبه عن قصد أو ارتكبه عن غير قصد ، ويأخذ الأبناء والأحفاد بذنوب الآباء ، بل يحس بالندم ووخز الضمير (خروج ٣٢/ ١٠ ـ ١٤) ، وينسى ويتذكر (خروج ٢/ ٢٣ ـ ٢٤) ، وهو ليس عالماً بكل شيء . ولذا فهو يطلب من أعضاء جماعة يسرائيل أن يرشدوه بأن يصبغوا أبواب بيوتهم بالدم حتى لا يهلكهم مع أعدائهم من المصريين عن طريق الخطأ (خروج ١٢/ ١٣ ـ ١٤) . وهو إله متجرِّد ، ولكنه في الوقت نفسه يأخذ أشكالاً حسية محددة ، فهو يطلب إلى اليهود (جماعة يسرائيل) أن يصنعوا له مكاناً مقدَّساً ليسكن في وسطهم (خروج ٢٥/ ٨) ، كما يسير أمام جماعة يسرائيل على شكل عمود دخان في النهار كي يهديهم الطريق ، أما في الليل فكان يتحول إلى عمود نار كي يضيء لهم (خروج ١٣/ ٢١/ ٢٢) . وهو إله الحروب (خروج ١٥/ ٣ ـ ٤) يعلّم يدي داود القتال (صموئيل ثاني ٢٢/ ٣٠ ـ ٣٥) . يأمر اليهود بقتل الذكور ، بل الأطفال والنساء (عدد ٣١/ ١ ـ ١٢) ، وهو إله قوي الذراع يأمر شعبه بألا يرحم أحداً (تثنية ٧/ ١٦ ـ ١٨) ، وهو يعرف أن الأرض لا تُنال إلا بحد السيف . ولذا ، فهو يأمر شعبه المختار بقتل جميع الذكور في المدن البعيدة عن أرض الميعاد « أما سكان الأرض نفسها فمصيرهم الإبادة ذكوراً كانوا أم إناثاً أم أطفالاً » (تثنية ٢٠/ ١٠ ـ ١٨) وذلك لأسباب سكانية عملية مفهومة . والمقاييس الأخلاقية لهذا الإله تختلف باختلاف الزمان والمكان ، ولذا فهي تتغيَّر بتغير الاعتبارات العملية ، فهو يأمر اليهود (جماعة يسرائيل) بالسرقة ويطلب من كل امرأة يهودية في مصر أن تطلب من جارتها ومن نزيلة بيتها « أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين » (خروج ٣/ ٢٢) . وهكذا ، فإننا نجد منذ البداية ، أن فكرة الإله الواحد المتسامي تتعايش مع أفكار أخرى متناقضة معها ، مثل تشبيه الإله بالبشر ، ومثل فكرة الشعب المختار . فهي أفكار تتناقض مع فكرة الوحدانية التي تطرح فكرة الإله باعتباره إله كل البشر الذي يسمو على العالمين . وفي إطار هذه الرؤية للإله ليس من الغريب أن يسقط أعضاء جماعة يسرائيل في عبادة العجل الذهبي (ويتزعمها هارون أخو موسى) ، وأن يقبل العهد القديم عناصر وثنية مثل الترافيم والإيفود (الأصنام) ، وكلها تعبير عن رؤية حلولية مشركة لا تختلف كثيراً

عما جاء في العهد القديم . وليس من الغريب أن نجد شعائر تدل على الثنوية في العبادة اليسرائيلية .

ورغم أن الإله ، حسب بعض نصوص العهد القديم ، يفصح عن نفسه في الطبيعة والتاريخ ويتجاوزهما ، فهو مصدر النظام في الطبيعة ، وهو أيضاً الذي يجعل التاريخ في نظام الطبيعة وتناسقها ، إلا أننا نجده داخل الإطار الحلولي الكموني يتحول من كونه حقيقة مطلقة تعلو على المادة (الكونية الطبيعية أو التاريخية) ويصبح امتداداً لما هو نسبي ، وامتداداً للشعب اليهودي على وجه الخصوص . فيصبح الخالق امتداداً لوعي الأمة بنفسها ، فيظل إلهاً قومياً خاصاً مقصوراً على الشعب اليهودي وحده ، بينما نجد أن للشعوب الأخرى آلهتها (خروج ٦/ ٧) حتى تصبح وحدانية الإله من وحدانية الشعب . ولذا ، نجد أن الشعب ككل ، وليس الإنسان ذو الضمير الفردي ، يشهد على وحدانية الإله في صلاة الشماع . ويظهر الاتجاه نفسه في أفكار دينية مثل الاختيار والوعد الإلهي وأرض الميعاد التي تصبح مقدَّسة ومختارة تماماً مثل الشعب (وتلاحُم الإله بالأرض والشعب هو الثالوث الحلولي) . ولهذا ، ظلت اليهودية دين الشعب اليهودي (جماعة يسرائيل) وحده ، ونجد أن الغرض الإلهي يتركز في هذا الشعب دون سواه ، فقد اختير من بين جميع الشعوب ليكون المستودع الخاص لعطف يهوه . كما أن مجرى الطبيعة أو تاريخ البشر يطوِّر بإرادة الإله حول حياة ومصير اليهود . ويتضح هذا في مفهوم التاريخ اليهودي المقدَّس الذي لا يمكن فهم تاريخ الكون بدونه ، كما يتبدَّى في رؤية آخر الأيام حيث ترتبط صورة الآخرة والنشور في كتب الرؤى (أبوكاليبس) ، وفي بعض أجزاء العهد القديم ، بسيادة اليهود على العالمين . ثم يتعمق الاتجاه الحلولي مع ظهور اليهودية التلمودية الحاخامية ويزداد الحلول الإلهي ، فنجد أن القداسة تتعمق في الحاخامات من خلال مفهوم الشريعة الشفوية حيث يتساوى الوحي الإلهي بالاجتهاد البشري ويصبح الحاخامات ذوي إرادة مستقلة يقارعون الإله الحجة بالحجة ، وتُجمع آراؤهم في التلمود الذي يصبح أكثر قداسة من التوراة (التي يفترض أنها معادلة للإله وتحوي سر الكون) . وقد بلغ الحلول الإلهي درجة أن المشناه (التي تضم تفسير الحاخامات) شُبِّهت باللوجوس في اللاهوت المسيحي ، أي أنها كلمة الإله المقدَّسة ، كانت موجودة في عقله منذ الأزل . وتُستخدَم كلمة «ابن الله» للإشارة إلى الشعب اليهودي ، أي أنه هو أيضاً اللوجوس . وتزداد أهمية اليهود كشعب مقدَّس ، داخل الطبيعة والتاريخ ، ويزداد التصاق الإله بهم وتحيُّزه لهم ضد أعدائهم . ويخلع التلمود على الإله صفات بشرية بشكل عام ، ويهودية بشكل خاص ، وبشكل أكثر تطرفاً من التوراة . وقد جاء في التلمود أنه بعد وصول الماشيَّح ، سيجلس الإله على عرشه يقهقه فرحاً لعلو شأن شعبه ، وهزيمة الشعوب الأخرى التي تحاول دون جدوى أن يكون لها نصيب في عملية الخلاص ، أي أن الشعب اليهودي والتاريخ اليهودي يزدادان قداسة ومركزية في الدراما الكونية . ويقضي الإله وقته وهو يلعب مع حوت ، ويبكي من أجل هدم الهيكل ، ويندم على فعلته ، وهو يلبس العمائم ، ويجلس على عرشه ، ويدرس التوراة ثلاث مرات يومياً . وتنسب إلى الإله صفات الحقد والتنافس ، وهو يستشير الحاخامات في كثير من الأمور (ولكن يجب الانتباه إلى أن هذه الطبقة الجيولوجية الحلولية توجد إلى جانبها في التلمود نصوص كثيرة تؤكد وحدانية الإله وتسامية وتشجب النزعات التشبيهية) .

ويصل الحلول إلى منتهاه وإلى درجة وحدة الوجود في تراث القبَّالاه ، فهو تراث يكاد يكون خالياً تماماً من أي توحيد أو تجاوز أو علو للإله ، وبحيث لا يصبح هناك فارق بين الجوهر الإلهي والجوهر اليهودي ، ويصبح الفارق الأساسي هو بين الجوهر اليهودي المقدَّس وجوهر بقية البشر . ويصبح الفرق بين اليهود والأغيار فرقاً ميتافيزيقياً ، فاليهود قد خُلقوا من مادة مقدَّسة (حل فيها الإله بروحه) مختلفة عن تلك المادة (الوضيعة العادية) التي خُلقت منها بقية البشر . ويكتسب الإله صفات بشرية ، ولذا فهو يغازل الشعب اليهودي (بنت صهيون) ويدخل معه (أو معها) في علاقة عاطفية قوية ذات إيحاءات جنسية ، وهي فكرة أصبحت أساسية في التراث القبَّالي .

وتتضح النزعة نفسها في قصة الخلق في التراث القبَّالي ، فالإله لا يخلق العالم من العدم وإنما صدرت عنه التجليات النورانية العشرة (سفيروت) التي تأخذ صورة آدم الأول أو القديم (آدم قدمون) أي أن صورة الإله هي صورة الإنسان ، وتستقل التجليات العشرة تماماً عن الخالق حتى أنه يتحدث مع الشخيناه (التجلي العاشر) . كما أن التجلي المذكر للإله يطارد التجلي المؤنث . وتصبح تلاوة الشماع ، حسب الفكر القبَّالي ، هي المحاولة التي يبذلها اليهود ليتوحد التجلي الذكوري بالتجلي الأنثوي ، ويجتمعان معاً بالمعنى الجنسي . وفي داخل التراث القبَّالي ، يصبح التجلي العاشر (شخيناه) الذات الإلهية والتعبير الأنثوي عن الإله ، وهو نفسه جماعة يسرائيل ، أي أن الزواج بين الخالق والشعب يصبح هنا توحداً كاملاً . ويقوم هذا الشعب بتوزيع رحمة الإله على العالمين . ثم تصل الحلولية إلى ذروتها والشرك إلى قمته ، حين يصبح الإنسان اليهودي شريكاً للإله

في عملية الخلق نفسها ، ويزداد الإله اعتماداً على الإنسان . وبعد عملية السقوط ، وتَهشُّم الأوعية في القبَّالاه اللوريانية ، تتفتت الذات الإلهية نفسها ، وتتوزع الشرارات الإلهية ، ولا يتأتى للإله أن يستعيد كماله ويحقق ذاته إلا من خلال شعبه اليهودي . فاليهود ، بآثامهم ، يؤخرون عملية الخلاص التي تؤدي إلى خلاص العالم وإلى اكتمال الإله . وهم ، بأفعالهم الخيرة ، يعجلون بها . ولذا ، فالأغيار والإله يعتمدون على أفعال اليهود الذين يشغلون مكانة مركزية في العملية التاريخية والكونية للخلاص . وعند هذه النقطة ، يصبح من الصعب الحديث عن اليهودية باعتبارها ديانة توحيدية .

ويظهر هذا النزوع الحلولي المتطرف في أحد التعليقات القبَّالية في أحد كتب المدراش على إحدى فقرات سفر أشعياء (٤٣/ ١٢) ، حيث جاء فيها "أنتم شهودي ، يقول الرب ، وأنا الله" ، وهي فقرة تؤكد وحدانية الإله وتساميه . وهي وإن كانت تتحدث عن علاقة خاصة ، فإنها مع هذا أبعد ما تكون عن الحلولية أو الشرك . ولكن كاتب المدراش الحاخامي يفرض الطبقة الحلولية على الطبقة التوحيدية فرضاً فيفسرها بقوله : "حينما تكونون شهودي أكون أنا الإله ، وحينما لا تكونون شهودي فكأنني لست الإله" ، وكأن كينونة الإله من كينونة الشعب وليس العكس . بل إن كمال الإله يتوقف على الشعب ، إذ قال أحد الحاخامات : "حينما ينفذ اليهود إرادة الإله ، فإنهم يضيفون إلى الإله في الأعالي . وحينما يعصي اليهود إرادة الإله ، فهم كما لو أنهم يضعفون قوة الإله العظمى في الأعالي" . ورغم أن كاتب المدراش يستخدم دائماً عبارة «كما لو أن» لتأكيد بعدها المجازي ، فإن تكرارها وارتباطها بالمفاهيم الأخرى ينقلها من عالم المجاز إلى عالم العقائد الحرفية المباشرة التي لا تحتاج أي تفسير .

وعلى أية حال ، فإن التيار التوحيدي ظل لمدة طويلة أساسياً في النسق الديني اليهودي بل كان يكتسب أحياناً قوة كما حدث من خلال التفاعل مع الفكر الديني الإسلامي ، كما هو الحال مع كلٍّ من سعيد بن يوسف الفيومي وموسى بن ميمون . وكثيراً ما حاول الحاخامات الوقوف ضد الاتجاه الحلولي الشعبي (الفلكلوري) ، فحاولوا أن يفسروا الطبائع البشرية للإله بأنها مجرد محاولة لتبسيط الأمور حتى يفهمها العامة . بل يُلاحَظ أن عبارة "كما لو أن" كانت تضاف حتى في التفسيرات القبَّالية الحلولية الأولى لتأكيد الطابع المجازي للخطاب ، ولكن هذا التحفظ تآكل بالتدريج وتغلغلت القبَّالاه ذات الأصول الشعبية في صفوف العامة ثم في صفوف المؤسسة الحاخامية نفسها وسيطر فكر حلولي حرفي متطرف . ومع تغلغل القبَّالاه ذات الأصول الشعبية والغنوصية والتي اكتسبت أبعاداً مسيحية ، حدثت عملية تنصير لليهودية ، حيث فقدت اليهودية هويتها واكتسبت هوية شبه مسيحية جديدة تستند إلى تشويه العقائد المسيحية .

ومع بدايات العصر الحديث ، كانت الحسيدية أوسع المذاهب انتشاراً ، وهي شكل من أشكال الحلولية المتطرفة بكل ما تحمل من شرك وثنوية . ويتضح هذا في الدور الذي يلعبه التساديك فإرادته معادلة لإرادة الإله ، فهو الوسيط بين اليهود والخالق ، وهو محل القداسة ، وهو الإنسان التقي صاحب القدرة الذي يمكنه النطق باسم الإله والتحكم فيه والتأثير في قراراته .

وقد تبنَّى الفيلسوف اليهودي مارتن بوبر رؤية حلولية للإله . فتحدث عن الحوار الدائر بين الشعب والإله باعتبار أنهما طرفان متساويان ، وهذا تصوُّر ممكن داخل إطار حلولي قومي . كما نجد فرقاً يهودية حديثة مثل اليهودية المحافظة واليهودية التجديدية تبنيان تصوراتهما الدينية على أساس فكرة الشعب المقدَّس ، مع إسقاط فكرة الإله تماماً (حلولية موت الإله) ، أو وضعها في مرتبة ثانوية (حلولية شحوب الإله) . ويصل الأمر إلى حد أن حاخاماً إصلاحياً مثل إيوجين بوروفيتز يتحدث عن حرب عام ١٩٦٧ باعتبار أنها لم تكن تهدد دولة إسرائيل فحسب ، وإنما تهدد الإله نفسه باعتبار أن الإله والشعب والأرض يكوِّنان جوهراً واحداً ، فمن أصاب جزءاً من هذا الجوهر بسوء (أرض دولة إسرائيل على سبيل المثال) ، فقد أصاب الذات الإلهية نفسها . بل إن بعض المفكرين الدينيين اليهود يتحدثون عن «لاهوت موت الإله» ، وهي محاولة الوصول إلى نسق ديني خال تماماً من أي جوهر إلهي مفارق ، فهي حلولية بدون إله . وقد تفرَّع من هذا «لاهوت الإبادة» أو «لاهوت ما بعد أوشفيتس» الذي يذهب دعاته إلى أن الإله شرير لأنه هجر الشعب اليهودي . كما يذهبون إلى أن المنطلق أو الركيزة النهائية هو الشعب اليهودي (دون الإله) وأن القيمة الأخلاقية المطلقة هي البقاء ، وأن الآلية الأساسية لإنجاز ذلك هي الدولة الصهيونية ، فكأن الدولة الصهيونية هي الإله أو اللوجوس في الحلولية الصهيونية بدون إله . ومن الصعب عند هذه النقطة الحديث عن اليهودية كديانة توحيدية ، إذ أصبحت ديانة وثنية حلولية .

ومع هذا ، عبَّرت الطبقة التوحيدية داخل التركيب الجيولوجي التراكمي اليهودي مؤخراً عن نفسها ، في محاولة مخلصة من جانب بعض المفكرين الدينيين اليهود من أعداء الصهيونية ، لتخليص اليهودية من حلوليتها . فدعاة لاهوت التحرر يرفضون أن تصبح

الإبادة النازية ليهود أوربا أو قيام الدولة الصهيونية أو بقاء اليهود هو المطلق ، بل يتحدثون عن إله يتجاوز المادة والتاريخ ، نسقه الأخلاقي مُلزِم لكل البشر ، ولذا فهو إله لا يُوظَّف في خدمة اليهود أو المنظمة الصهيونية العالمية . ومن ثم لا يرضى بذبح الأطفال على يد النازيين ولا بتكسير عظامهم على يد الصهاينة !

التوحيــــد

Monotheism

انظر الباب المعنون «إشكالية الحلولية اليهودية» .

أسماء الإلـــه

Names of God

توجد أسماء كثيرة للإله في اليهودية ، لبعضها دلالات تصنيفية ، وبعضها الآخر أسماء أعلام ، وتبلغ الأسماء نحو تسعين . ومن أهم الأسماء من النوع الأول ، تسمية الإله باسم «السلام» (شالوم) ، وهو أيضاً «الكمال المطلق» و«الملك» ، و«الراعي» ، و«مقدَّس يسرائيل» (قيدوش يسرائيل) ، و«الرحمن» (هرحمان) . ومن أهم الأسماء التي شاعت ، العبارة الحاخامية «المقدَّس تبارك هو» (هاقدوش باروخ هو) .

أما أسماء الأعلام التي يتواتر ذكرها ، في العهد القديم أساساً ، فهي كثيرة ومن أهمها «إيل» بمعنى «القوي» ، وهي الأصل السامي لكلمة «إله» التي تتضمنها كلمة «إسرائيل» أو «ناتان إيل» . ومن الأسماء الأخرى : «شدَّاي» و«إلوهيم» (وهي صيغة الجمع لكلمة «إلوها») . وأكثر الأسماء شيوعاً هو اسم «يهوه» (أو «يهوفاه» أو «التتراجراماتون») وهو أكثر الأسماء قداسة . وكان لا ينطق به سوى الكاهن الأعظم في يوم الغفران في قدس الأقداس . أما بقية اليهود ، فكانوا يستخدمون لفظة «أدوناي» ، أي «سيدي» . وبمرور الزمن ، اكتسب هذا الاسم ، هو الآخر ، شيئاً من القداسة ، وأصبح من العسير التفوه به . ولذا ، يستخدم بعض المتدينين كلمة «هاشِّيم» (الاسم) للإشارة إلى الإله ، كما يكتفي بعض الأرثوذكس بكتابة حروف عبرية مثل حرف اليود ، أو حرف الهاء ، اختصاراً لـ «هاشِّيم» ، أو حرف الدال اختصاراً لـ «أدوناي» . وباللغة الإنجليزية يكتفي بعض اليهود الأرثوذكس بكتابة الحرف الأول والأخير من كلمة «جود God» التي يكتبونها على شكل G-d كما يكتفي بعضهم برسم علامة جبرية مثل (×) للإشارة للإله (واستبعدت علامة (+) لأنها تشبه الصليب) . ويُشار أحياناً إلى الإله بأنه «الذي لا يمكن التفوه باسمه» (هاشِّيم هامفورَّاش) . وظهرت أسماء أخرى في الكتب الخارجية أو الخفية (الأبوكريفا) من أهمها «خالق كل شيء» (يوتسير هاكول) ، و«درع إبراهيم» (ماجن أبراهام) و«صخرة إسحق» (تسور يتسحاق) . وقد أضافت القبَّالاه أيضاً أسماء للإله أهمها : «الذي لا نهاية له» (إين سوف) ، و «أقدم القدماء» (عتيقا دي عتيقين) ، و«قديم الأيام» (عتيق يومين) . وشاعت الإشارة إليه بأنه الشخيناه التي هي التعبير الأنثوي عن القوة الإلهية ، وعاشر التجليات النورانية (سفيروت) ، وهي أيضاً جماعة يسرائيل .

ويُنظَر إلى اسم الإله في التراث الديني اليهودي الحلولي ، وبخاصة القبَّالي ، باعتباره أعلى تركيز للمقدرة الإلهية على الخلق أو باعتباره جوهر الإله نفسه الذي يتجاوز الفهم البشري واللغة الإنسانية .

ورغم أن هذا الاسم يتجاوز كل ما هو بشري ، ورغم أنه "وراء المعنى" ("بلا معنى" على حد قول جرشوم شوليم) إلا أنه هو نفسه المصدر الذي لا ينضب لكل معنى في العالم . وهو لهذا "نص مفتوح" يمكن تفسيره تفسيرات لا حصر لها ولا عدد . فاسم الإله مطلق ويتسم بالامتلاء الذي لا حد له ولذا فلا يمكن فهمه إلا من خلال الوساطة البشرية التي تقوم بالتفسير ، أي الحاخامات (وهذه هي التوراة الشفوية) .

ويميِّز شوليم بين هذه « الكلمة التي لا معنى لها » وكلمات الكتاب المقدَّس والتفاسير الحاخامية ويبيِّن أن القبَّاليين يرون أن الكتاب المقدَّس إن هو إلا تحولات وتنويعات على هذه « الكلمة التي لا معنى لها » ، ومن ثم يصبح الوصول إلى الكتاب المقدَّس العادي بدون وساطة المفسر أمراً مستحيلاً ولا يبقى سوى التفسيرات الباطنية (وهكذا فرغم عدم وجود كنيسة في اليهودية إلا أن وساطة المفسر لا تختلف البتة عن وساطة الكاهن) .

ولعل فكرة الوساطة هذه تتضح لنا بشكل أكبر وأكثر تبلوراً حينما ندرك أنه بتطور الحلولية اليهودية شاع الإيمان بأن من يعرف اسم الإله الأعظم (أي يعرف الجوهر الإلهي) يمكنه التأثير في الذات الإلهية وتغييرها في الأرض أو التحكم فيها (فهو الغنوص الكامل والصيغة السحرية اللازمة للتحكم في الكون بل في الذات الإلهية) ، بل إنه هو التجليات النورانية العشرة في حالة تكامل عضوي ، وهي فكرة ذات علاقة بالسحر والتأمل الباطني . ومن هنا ، كان اهتمام القبَّاليين بأسماء الإله ، فهي سبيلهم إلى التأمل الغنوصي في الطبيعة الإلهية ، وفي السيطرة عليه وعلى الكون عن طريق السحر .

وقد ظهرت جماعة «بَعْلي هاشِّيم» أي «أصحاب الاسم»

ومفردها «بَعلْ شيم» ، أي «سيد الاسم» ، وهم من الدراويش الذين تصوروا أنهم حصلوا على المعرفة الكاملة والدقيقة لطريقة نطق اسم الإله ، وبالتالي بوسعهم التحكم فيه ، والإتيان بالمعجزات . وكان أهم هؤلاء الدراويش إسرائيل بن إليعازر ، المعروف باسم بعل شيم طوف ، وهو مؤسس الحركة الحسيدية .

ويرى القبَّاليون أن بعض حروف اسم الإله قد انتُزعت أو سقطت ، وبالتالي أصبح اسمه ناقصاً ، أي أنه هو نفسه أصبح ناقصاً . وهذه نظرية تشبه نظرية الخلل الكوني الناجم عن تهشُّم الأوعية في القبَّالاه اللوريانية . وحتى يستعيد الإله توازنه الداخلي ، يتعين على اليهودي أن يتوجه بكل كيانه إلى الداخل ، كما يتعين عليه أن يقوم بأداء الأوامر والنواهي (متسفوت) ، فيستعيد الإله توازنه ويكتمل اسمه . وأول شيء يقوم به أي ماشيَّح دجال هو التفوه باسم يهوه أمام الملأ ، فيبطل الشريعة وكل النواميس ، وهذا ما فعله شبتاي تسفي وغيره .

وفي العصر الحديث ، اختلفت الفرق اليهودية في ترجمة وتفسير أسماء الإله ، فاتجه المفكرون اليهود في نهاية القرن الثامن عشر وفي معظم القرن التاسع عشر ، تحت تأثير مُثُل الاستنارة والتنوير والدراسات التاريخية ، إلى أن يفسروا هذه الأسماء على أساس فلسفي ميتافيزيقي . فترجم موسى مندلسون كلمة «يهوه» إلى «الأزلي» ، وأشار نحمان كروكمال إلى الإله على أنه «الروح المطلق» ، وترجم هرمان كوهين كلمة «الشخيناه» بتعبير «الراحة الأزلية» .

وعلى العكس من هذا ، نجد أن مارتن بوبر وروزنزفايج يصران على الجانب التشخيصي (الصوفي الوجودي) ، فبتأثير القبَّالاه ترجم بوبر كلمة «يهوه» إلى «أنت» ، أو «هو» . واتجه مناحم كابلان ، زعيم اليهودية التجديدية التي تقرن الإله بمبدأ التقدم ، إلى الإشارة إلى الإله باعتباره «القوة التي تؤدي إلى الخلاص» أو «القوة التي تؤدي إلى إفراز المثل العليا كافة» .

وحينما كانت تتم مناقشة نص بيان إعلان دولة إسرائيل ، أثيرت مشكلة حول العبارة الأخيرة في البيان واقترح الدينيون أن تكون على الشكل التالي : «واضعين ثقتنا في الإله» . ولكن اللادينيين رفضوا ، فاتفق الجميع على عبارة «تسور يسرائيل» أو «صخرة إسرائيل» ، وهي عبارة غامضة يمكن أن تُفهَم كإشارة للإله الواحد الأحد ، على غرار عبارة «تسور يتسحاق» أي «صخرة إسحق» ، ولكنها يمكن أن تفهم أيضاً فهماً حرفياً أو تُفسَّر تفسيراً حلولياً ، وتصبح الصخرة أرض يسرائيل أو جماعة يسرائيل .

وتحت ضغوط حركة التمركز حول الأنثى في العالم الغربي ، بدأت نُطرح قضية أن كلمة «الإله» وصورته تفترض أنه مذكر ، وأنه لابد أن يكون محايداً أو متضمناً كلاً من عناصر التذكير وعناصر التأنيث . وبالتالي ، أُدخل تعبير في كتب الصلوات وترجمات الكتاب المقدَّس ، بحيث أصبح يُشار إلى الخالق باعتباره هو/ هي . وعلى سبيل المثال : «وصلوا له/ لها ، وقالوا هو/ هي ، الذي/ التي خلق/ خلقت العالم» . بل أحياناً يصرون على الإشارة إلى الإله على أنه مذكر أو مؤنث وجماد (بالإنجليزية : هي/ شي/ إت he/ she/ it) .

تقديس الاسم (قيدوش هاشيم)

Kiddush ha-Shem

«قيدوش هاشيم» عبارة عبرية تعني «تقديس الاسم المقدَّس» . والمصطلح يشير إلى الاستشهاد ، ولكنه أصبح يشير إلى أي عمل من أعمال التقوى والاستقامة . وهي ضد «حيلول هاشيم» ، أي «تدنيس الاسم المقدَّس» .

إيل

El

«إيل» الاسم السامي للإله . و«إيل» مفرد كلمة «إليم» الكنعانية يُراد بها الجمع والتعدد . وكلمة «إيل» في الأكادية تعني «الإله على وجه العموم» . ولا يُعرف أصل الكلمة ، ولكن يُقال إنه من فعل بمعنى «يقود» أو «يكون قوياً» . وقد ورد في النصوص المصرية التي تعود إلى عهد الهكسوس مُصطلح «يعقوب إيل» ، أي «ليعقب الرب بعده» ، ومُصطلح «بيت إيل» (تكوين ١٢/ ٨ ، ٣٥/ ٧) .

وكثيراً ما يُستخدَم اسم «إيل» مع لقب من ألقاب الإله ، مثل : «إيل عليون» ، أي «الإله العلي» ، و«إيل شدَّاي» ، أي «الإله القدير» . وتُستعمَل كلمة «إيل» كجزء من أسماء عديدة مثل «إليعازر» ، أي «الإله قد أعان» . والواقع أن أسلوب قَرْن أسماء الأشخاص بكلمة «إيل» لا يزال مستعملاً حتى يومنا هذا ، مثل «ميخائيل» . وربما يكون أصل كلمة «خليل» هو (خل-إيل) ، أي «صديق الإله» . ومن المرجح أن يكون معنى إسماعيل (شماع-إيل) هو «ليسمع الإله» . ويُقال أيضاً إلياهو ، وصموئيل ، ويسرائيل .

يهـوه (يهـوفاه)

Jehovah; Yahweh

الكلمة العبرية «يهوفاه» هي كلمة سامية قديمة ، ويُقال إنها مشتقة من مصدر الكينونة في العبرية « أهييه آشر أهييه » (خروج ٣/ ١٤) ، أي «أكون الذي أكون» . وقد تكون الكلمة من أصل عربي . ويذهب البعض إلى أن الاسم مشتق من الفعل «هوَى» ، بمعنى «سقط» ، أي أن يهوه هو مُسقط المطر والصواعق . ويتم الربط بين معنى هذا الاشتقاق وبين الصفات التي عرفت عن يهوه كإله للعواصف والبرق والقوى الطبيعية ، أو «هوَى» بمعنى «وقع» ، أو «حدث» وما حدث يكون . ويُقال إن «يهوه» ، مثله مثل معظم الأسماء العبرية في العهد القديم ، صيغة مختصرة لعبارة «يهفيه أشير يهوفيه» ، أي «يخلق الذي هو موجود» ، أو لعلها اختصار «يهوه تسفاؤت» أي «رب الجنود» . ويميل معظم العلماء إلى نطق الاسم على أنه «يهوه» ، وإن كانت التفسيرات بشأن ذلك ليست نهائية .

ولا يرد اسم «يهوه» في المصدرين الإلوهيمي أو الكهنوتي ، إلى أن يسفر الإله لموسى عن نفسه (خروج ٣/ ١٥ ، ٦/ ٢ ـ ٣) ، ولكن المصدر اليهوي يستخدم الاسم في سفر التكوين (٢/ ٤) ، مفترضاً بذلك أنه يعود إلى أيام إبراهيم . ولكن يبدو أن هذا إسقاط من محرري العهد القديم لمصطلحات مرحلة لاحقة على مرحلة سابقة . وقد جاء في سفر الخروج أن الرب كلم موسى ، وقال : «أنا الرب ، وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء . وأما باسمي يهوه ، فلم أعرف عندهم » (خروج ٦/ ٢ ـ ٣) .

واسم «يهوه» أكثر الأسماء قداسة ، وكان اليهود لا يتفوهون به ، فكانوا يستخدمون كلمة «أدوناي» العبرية (أو «كيريوس» اليونانية في الترجمة السبعينية) بمعنى «سيدي» أو «مولاي» للإشارة إلى الإله ، ثم أصبحوا يستخدمون كلمة «هشيم» العبرية بمعنى «الاسم» وحسب .

والاسم العبري كما تَقدَّم يتكون من أربعة أحرف ، ولذا سمي «تتراجراماتون» ، أي «الرباعي» ، وهي «ي هـ و هـ YHWH» . ولكن ، في القرن الرابع عشر ، قرأ أحد الكتاب المسيحيين الكلمة خطأ على أنها «يهوفاه» ، وذلك بأن وضع الحروف المتحركة لكلمة «أدوناي Adonai» مع أحرف «يهوه» الأربعة Yahowai . وهذا هو أصل كلمة Jehovah «جيهوفاه» . ويأتي ذكر «يهوه» أكثر من ستة آلاف مرة في العهد القديم ، وهو أكثر أسماء الإله شيوعاً وقداسة . وكان يتفوه به الكاهن الأعظم فقط داخل قدس الأقداس في يوم الغفران .

ويبدو أن يهوه كان رب الصحراء . عُرف أول ما عُرف في شبه جزيرة سيناء في الجزء المتاخم لشمال الجزيرة العربية ، وفي أماكن متاخمة لهذه المنطقة . وكانت القرابين تُقدَّم له من بين القطيع .

وقد نسب إليه العهد القديم صوراً عديدة من القسوة والوحشية . فهو يأمر شعبه بالإبادة والخيانة والغدر . وهو إله غيور يناصر شعبه ظالماً أو مظلوماً ، ويعاقب الأبناء على الجرائم التي يرتكبها الآباء ، ويعاقب الشعب على ما يرتكبه الملك ، بل يعاقب على الأخطاء التي تُرتكَب عن غير عمد ، وهو محدود المعرفة تُنسَب إليه صفات البشر كافة .

وكان الغنوصيون يرون أن يهوه إله العهد القديم هو الإله الصانع الشرير ، الذي خلق هذا العالم الفاسد وهذا الزمان الرديء وسَجَن البشر فيه وفرض عليهم قوانين جائرة لا يستطيعون تنفيذها ، هذا على عكس إله العهد الجديد الإله الخيِّر الذي يضحي بنفسه من أجل البشر .

إلوهيم

Elohim

«إلوهيم» كلمة من أصل كنعاني . وهي ، حسب التصور اليهودي ، أحد أسماء الإله . وهي صيغة الجمع من كلمة «إيلوَه» أو «إله» أو «إيل» ، وهو ما يدل على أن العبرانيين كانوا في مراحل تطوُّرهم الأولى يؤمنون بالتعددية . ولم ترد كلمة «إلوَه» إلا في سفر أيوب ، أما «إلوهيم» ، فترد ما يزيد على ألفي مرة في العهد القديم ، وبأداة التعريف «ها إلوهيم» . وللكلمة معنيان ، فهي تدل على الجمع فتكون بمعنى الآلهة (الوثنية) ككل ، أو تدل على المفرد فتُعدُّ اسماً من أسماء الإله . ويُعامَل الاسم أحياناً باعتباره صيغة جمع وأحياناً أخرى باعتباره صيغة مفرد . ولذا ، فهو يتبع أحياناً بفعل في صيغة الجمع ، وفي أحيان أخرى يُتبَع بفعل في صيغة المفرد . وتتردد كلمة «إلوهيم» اسماً للإله في المصدر الإلوهيمي . وصفات الإله «إلوهيم» مختلفة عن صفات يهوه ، فإلوهيم رحيم يراعي في أعماله القواعد الأخلاقية ، وهو خالق السماوات والأرض .

تتراجراماتون

Tetragrammaton

«تتراجراماتون» كلمة إغريقية بمعنى «مُكوَّن من أربعة أحرف» أو «رباعي» . وهو مُصطلَح يُستخدَم للإشارة إلى الاسم المقدَّس «يهوه» المُكوَّن من أربعة أحرف .

ـناي

Ado

«أدوناي» اسم من أسماء الإله حسب التصور اليهودي، عني «سيدي»، أو «مولاي».

ـدَّاي

Shadda

كلمة «شدَّاي» مأخوذة من الجملة العبرية «شومير دلاتوت يسرائيل» ومعناها «حارس أبواب يسرائيل»، وهي أيضاً أحد أسماء الإله. وهي من أصل أكادي («شدر»)، وكانت تُستخدَم في الأصل للإشارة إلى القوى الشريرة التي تأتي من الجبال (بالأكادية «شديم») أي إلى الجن والشياطين. وقد تطوَّر استخدام الكلمة وأصبحت تشير إلى إله الجبال ثم إلى «الإله القوي». ويذهب بعض العلماء إلى أن أصل الاسم من جذر يعني «يخرب»، ولكنه أصبح يعني «القدير» أو «القادر على كل شيء». وقد فسر الحاخامات لفظ «شدَّاي» بأنه يعني «الكافي». ولكنه تفسير غير دقيق. وتُقرن الكلمة بلفظة «إيل» فيقال «إيل شدَّاي». وتُكتب كلمة «شدَّاي» في تميمة الباب (مزوزاه) التي تأخذ هيئة صندوق، بحيث تمكن رؤية الكلمة من ثقب صغير في الصندوق.



٢
الشعب المختار

الشعب المختار - أمة الروح - الشعب المقدَّس - البقية الصالحة - كلال يسرائيل - كنيست يسرائيل - العهد - الميثاق

الشعب المختار
Chosen People

مصطلح «الشعب المختار» ترجمة للعبارة العبرية «هاعم هنفحار». ويوجد معنى الاختيار في عبارة أخرى مثل : «أتَّا بحرتانو»، والتي تعني «اخترتنا أنت»، و «عم سيجولاه»، أو «عم نحلاه» أي «شعب الإرث» أي «الشعب الكنز». وإيمان بعض اليهود بأنهم شعب مختار مقولة أساسية في النسق الديني اليهودي، وتعبير آخر عن الطبقة الحلولية التي تشكلت داخل التركيب الجيولوجي اليهودي وتراكمت فيه. والثالوث الحلولي مكوَّن من الإله والأرض والشعب، فيحل الإله في الأرض، لتصبح أرضاً مقدَّسة ومركزاً للكون، ويحل في الشعب ليصبح شعباً مختاراً، ومقدَّساً وأزلياً (وهذه بعض سمات الإله). ولهذا السبب، يُشار إلى الشعب اليهودي بأنه «عم قادوش»، أي «الشعب المقدَّس» و«عم عولام» أي «الشعب الأزلي»، و«عم نيتسح»، أي «الشعب الأبدي». وقد جاء في سفر التثنية (١٤/ ٢) "لأنك شعب مقدَّس للرب إلهك. وقد اختارك الرب لكي تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض". والفكرة نفسها تتواتر في سفر اللاويين (٢٠/ ٢٤، ٢٦) : "أنا الرب إلهكم الذي ميَّزكم من الشعوب .. وتكونون لي قديسين لأني قدوس أنا الرب. وقد ميَّزتكم من الشعوب لتكونوا لي". ويشكر اليهودي إلهه في كل الصلوات لاختياره الشعب اليهودي. وحينما يقع الاختيار على أحد المصلين لقراءة التوراة عليه أن يحمد الإله لاختياره هذا الشعب دون الشعوب الأخرى، ولمنحه التوراة علامة على التميز.

وقد حاول كثير من حاخامات اليهود وكثير من فقهائهم ومفكريهم تفسير فكرة الاختيار، فجاءوا بتفسيرات كثيرة. ولكن، وبغض النظر عن مضمون التفسير، فإن فكرة الاختيار على وجه العموم تؤكد فكرة الانفصال والانعزال عن الآخرين (تعبير عن القداسة الناجمة عن الحلول الإلهي في الشعب). وقد جاء في التلمود أن جماعة يسرائيل يُشبَّهون بحبة الزيتون لأن الزيتون لا يمكن خلطه مع المواد الأخرى، وكذلك أعضاء جماعة يسرائيل يستحيل اختلاطهم مع الشعوب الأخرى. وقد كانت عملية التفسير هذه ضرورية، في الواقع، لأن أعضاء الشعب المختار المقدَّس، الذي يفترض أن الإله قد حل فيه، وجدوا أنهم من أصغر الشعوب في الشرق الأدنى القديم وأضعفها، ولم يكونوا بأية حال أكثرها رقياً أو تفوقاً، كما حاقت بهم عدة هزائم انتهت بالسبي البابلي.

وقد وردت تفسيرات عدة للاختيار، هي في نهاية الأمر تعبير عن درجات متفاوتة من الحلول، فإن ازدادت النزعة الحلولية زادت القداسة في الشعب، ومن ثم زادت عزلته واختياره :

١ - الاختيار كعلامة على التفوق :

أ) لم يختر الإله اليهود بوصفهم شعباً وحسب، بل اختارهم كجماعة دينية قومية توحِّدها أفكارها وعقائدها، وقد عُرضت الرسالة على شعوب الأرض قاطبة، فرفضت هذه الشعوب حملها، وحملها الشعب اليهودي وحده. وقد حوَّلهم هذا الاختيار إلى مملكة من الكهنة والقديسين، وإلى أمة مقدَّسة تتداخل العناصر الدينية والقومية فيها. واختيار الإله لليهود هو جوهر العهد أو الميثاق المبرم بينه وبين إبراهيم (ولنقارن هذه الفكرة الحلولية، بالتصور الإسلامي التوحيدي العالمي، فقد عُرضت الرسالة على السماوات والأرض والجبال فأبيْن أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان).

ب) يدل الاختيار على تفوق اليهود عرْقياً، فقد اختير إبراهيم لنقائه، واختير اليهود لأنهم من نسله. وقد جاء في التلمود ما يلي : "كل اليهود مقدَّسون .. كل اليهود أمراء .. لم تُخلَق الدنيا إلا لجماعة يسرائيل .. لا يُدْعى أحد أبناء الإله إلا جماعة يسرائيل .. لا يحب الإله أحداً إلا جماعة يسرائيل".

ج) ويدل الاختيار على تفوق اليهود الأخلاقي، فقد اختار الإله الشعب اليهودي لأنه أول شعب يعبده وحده، أي أنه اختار الشعب لأن الشعب اختاره. وقد جاء في التلمود هذه الكلمات : "لماذا اختار الواحدُ القدوسُ تباركَ اسمُه جماعةَ يسرائيل، لأن ...

أعضاء جماعة يسرائيل اختاروا الواحد القدوس تبارك اسمه وتوراته" .

ويمكن أن تنحسر النزعة الحلولية قليلاً بحيث يصبح الاختيار علامة على التفرد وحسب (لا على التفوق) . وقد قلّص أحد المفكرين الإسرائيليين نطاق فكرة الاختيار بحيث جعلها تنصرف إلى علاقة الشعب بالإله وحسب ، لا إلى علاقة اليهود بكل البشر .

٢ ـ الاختيار كتكليف ديني :

اختار الإله الشعب اليهودي حتى يكون خادماً له بين الشعوب، وليكون أداته التي يُصلح بها العالم ويوحد بها بين الشعوب . وهذا يعني أن الاختيار ليس ميزة وإنما هو تكليف إلهي يعني زيادة المسئوليات والأعباء : "إياكم فقط عرفت من جميع قبائل الأرض لذلك أعاقبكم على جميع ذنوبكم" (عاموس٣/ ٢) ، وبالتالي يصبح اليهود "خدام الإله الطيعين" . وكثيراً ما يُلاحَظ أن الأنبياء كانوا يعنفون الشعب لفساده الأخلاقي ولاتباعه طرق الشعوب الوثنية الأخرى ، وفي هذا تأكيد للفكر التوحيدي . ومع هذا ، يُلاحَظ أن الأنبياء ، حتى في لحظات نقدهم للشعب اليهودي، كانوا ينطلقون من مقولة اصطفاء الشعب (وفي هذا تأكيد للرؤية الحلولية) .

٣ ـ الاختيار كأمر رباني وسر من الأسرار :

وأكثر التفسيرات تواتراً ، على الأقل على المستوى الوجداني ، هو أن الاختيار غير مشروط ولا سبب له ، فهو من إرادة الإله التي لا ينبغي أن يتساءل عنها أي بشر ، الإله الذي اختار الشعب ووعده بالأرض ، وليس لأي إنسان أن يتدخل في هذا . وهذا هو تفسير راشي الذي كان متأثراً بالفكر الإقطاعي الغربي الوسيط والفكر المسيحي ، فالاختيار هنا أمر ملكي على العبد الإذعان له وهو سر من الأسرار يشبه الأسرار المسيحية .

والاختيار ، حسب هذا التفسير ، لا علاقة له بالخير أو الشر ، ولا بالطاعة أو المعصية ، فهو لا يسقط عن الشعب اليهودي ، حتى ولو أتى هذا الشعب بالمعصية ، إذ أن حب الإله للشعب المختار يغلب على عدالته ، ولذلك لن يرفض الإله شعبه كلية ، في أي وقت من الأوقات مهما تكن شرور هذا الشعب . بل يدَّعي أحد المفسرين أن الإله هو الذي اختار الشعب اليهودي ، فالاختيار مُلزم له هو وحده وليس ملزماً للشعب (وهذا بخلاف المفهوم الإسلامي للاختيار حيث جعل الاختيار مشروطاً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما أنه ليس اختياراً عنصرياً أو عرقياً بل هو اختيار أخلاقي غير مقصور على أمة بعينها) .

ورغم أن أتباع كل جماعة دينية يرون أن ثمة علاقة خاصة تربطهم بالإله ، وأنهم مختارون بشكل ما ، فإن هذا التيار قد تعمق في اليهودية بشكل متطرف ، وفَقَد الاختيار أي مضمون أخلاقي واكتسب أبعاداً عرقية قومية ، وتحولت التجربة الدينية عند اليهود من تجربة فردية عمادها الضمير الفردي إلى تجربة جماعية عمادها الوعي القومي . ثم هيمنت القبَّالاه بالتدريج بحيث حولت الشعب اليهودي من مجرد شعب مختار إلى شعب يُعدُّ جزءاً عضوياً من الذات الإلهية، فهو الشخيناه (التجسيد الأنثوي للحضرة الإلهية) التي تجلس إلى جواره على العرش وتشاركه السلطة .

وقد كانت النزعة الحلولية كامنة في داخل النسق الديني اليهودي ، ولكن تحوُّل اليهود إلى جماعة وظيفية تعمل بالتجارة والربا زاد إحساسهم باختيارهم . فالجماعات الوظيفية ، بسبب وضعها ، يكون لديها دائماً إحساس بما يُسمَّى «مُركَّب الشعب المختار» لتبرر وضعها غير الإنساني كجماعة بشرية توجد داخل مجتمع ما ولا تنتمي إليه ، فهي فيه وليست منه ، تتعامل مع جماهير تُكِنّ لها البغض والكراهية ، لأنها تمثل مصالح النخبة الحاكمة . كما أن إحساس الجماعة الوظيفية بأنهم مقدَّسون وأن الآخر مدنَّس مُباح يُعمق الإحساس بالاختيار . وقد عبَّر التلمود عن هذا الوضع بمقارنة جماعة يسرائيل بخَدَم الملك . وهناك الكثيرون ممن يكرهون الملك ، ولكنهم عاجزون عن الهجوم عليه ، ولذا فهم يلومون خادم الملك ويهجمون عليه . فقد اختار الإله جماعة يسرائيل خادماً له ، ولذا أصبحت محط حقد الأغيار الذين يهجمون عليها .

ولقد عززت أسطورة الشعب المختار من النزعة المشيحانية في الفكر الديني اليهودي ، فكل عضو في أمة الكهنة والقديسين هو تجسيد حي للإله ، وصوته من صوت هذا الإله ، أي أنه نبي أو شبه نبي بالضرورة . وقد عززت فكرة الاختيار أيضاً الإحساس الزائف لأعضاء الجماعات اليهودية بوجودهم خارج التاريخ وبأن القوانين التاريخية التي تسري على الجميع لا تسري عليهم . ومن المعروف أنه كلما كانت تزداد حال الجماعات اليهودية سوءاً ، كان أعضاؤها يزدادون إصراراً على فكرة الاختيار .

وفي العصر الحديث ، حاول بعض المفكرين اليهود التخفيف من حدة مفهوم الشعب المختار . فقال ليو بايك إن كل شعب يتم اختياره ليكون له نصيب من تاريخ البشرية ، ولكن حظ اليهود من هذا التاريخ أكبر من أي نصيب آخر . وقد تمرَّد دعاة حركة التنوير اليهودية ، واليهودية الإصلاحية ، على مفهوم الاختيار بمعناه العنصري والأخلاقي ، وأحلوا محله فكرة الرسالة ، ومفادها أن

الإله شتَّت اليهود في أنحاء الأرض لا عقاباً لهم وإنما لينشروا رسالته وينصبحوا أداته في تحقيق السلام والخلاص . وقد تخلَّى التجديديون تماماً عن فكرة الاختيار . أما اليهودية المحافظة والأرثوذكسية ، فأبقت هذا المفهوم الديني وعمقته .

وتسيطر فكرة الشعب المختار ، بعد علمنتها ، على الفكر الصهيوني بجميع اتجاهاته . وقد أكد آحاد هعام ، منطلقاً من المفاهيم النيتشوية الخاصة بالسوبرمان ، أن اليهود أمة متفوقة («سوبر أمة» على حد قوله) . وتحدَّث المفكر الصهيوني الاشتراكي نحمان سيركين عن اليهودي بوصفه البروليتاري الأزلي . أما لويس برانديز ، فقد تحدَّث عنه بوصفه الديموقراطي الأزلي ، أي أن اليهودي قد اختير منذ القدم ليؤدي رسالة أزلية اشتراكية عند الصهيوني الاشتراكي ، وأزلية ديموقراطية ليبرالية عند الصهيوني الديموقراطي الليبرالي .

وقد صرح بن جوريون أن دولة إسرائيل تضم الشعب الكنز ، ولهذا فإن بوسعها أن تصبح منارة لكل الأمم . وبإمكان المرء ، حسب تصوُّر بن جوريون ، أن يشير إلى ثلاثة عناصر فعالة في الدولة الصهيونية تلمح إلى المقدرة الأخلاقية والفكرية الكامنة في اليهود :

أ) الاستيطان العمالي للأرض .

ب) جيش الدفاع الإسرائيلي .

جـ) رجال العلم والفن والأدب ، أي العبقرية اليهودية .

وبطبيعة الحال ، لم يذكر بن جوريون شيئاً عن اغتصاب الصهاينة للأرض الفلسطينية وعن الإرهاب الصهيوني لأهلها . بل إن فلسفة بوبر الحوارية هي تعبير مصقول عن فكرة الاختيار ، فالحوار الحق ممكن بين الإله واليهود ، أساساً بسبب التشابه بينهما ، وهو أمر ليس متاحاً لكل الأمم .

ومرة أخرى ، تظهر فكرة الاختيار كسر من الأسرار الدينية في لاهوت موت الإله ولاهوت ما بعد أوشفيتس ، الذي يجعل الإبادة النازية حدثاً كونياً لا يمكن سَبْر أغواره ، ويجعل الدولة الصهيونية نقطة الخلاص التي يتجسد من خلالها الشعب المقدَّس . ولا يزالون في إسرائيل ، وفي الأوساط الصهيونية ، يتحدثون عن ذكاء اليهود ، وعن النسبة غير العادية من اليهود الحاصلين على جوائز نوبل ، باعتبار أن هذه الصفات الإيجابية نابعة من الخصوصية اليهودية أو الجوهر اليهودي أو الطبيعة اليهودية داخل الأفراد .

ولكن ثمة تياراً داخل الصهيونية يرى أن هدفها هو تطبيع اليهودي ، أي تحويله من إنسان مقدَّس إلى إنسان سوِي عادي يعيش في دولة قومية شأنه شأن الشعوب الأخرى .

وقد ساهمت فكرة الاختيار هذه في نشر كثير من الأوهام والشائعات عن أعضاء الجماعات اليهودية ، مثل : **بروتوكولات حكماء صهيون** ، والمؤامرة اليهودية الكبرى أو العالمية . وقد ظهر مؤخراً لاهوت التحرير الذي يقلِّص النزوع الحلولي . وبالتالي ، يتحول مفهوم الاختيار من مفهوم مطلق وسر من الأسرار إلى عملية تكليف ديني وإلزام خُلقي .

أمة الروح

Nation of the Spirit

«أمة الروح» بالعبرية «عم هاروَح» ، وهو مصطلح يطلقه اليهود على أنفسهم باعتبار أنهم أمة لا تعيش على أرض مشتركة ، ولا تتحدث لغة واحدة ، وإنما تتمركز حول التوراة والتراث اليهودي . وهي الصياغة الفريسية لليهودية التي استمرت منذ أن قام تيتوس بهدم الهيكل . ومفهوم أمة الروح مرتبط تماماً بمفهوم الشعب المختار والشعب اليهودي ، وتستند الصهيونية الثقافية إلى هذا المفهوم . ولكن ، رغم الزعم بأن الروح اليهودية تتمركز حول التوراة ، إلا أن قارئ كتابات آحاد هعام ومارتن بوبر يُلاحظ أن العناصر الإثنية تشكل أساساً لهذه الروح ، فالروح هنا هي روح الشعب العضوي اليهودي (فولك) التي لا تتحقق أو تعبِّر عن نفسها تاريخياً إلا في الأرض المقدَّسة . وهذه الأفكار تعود إلى كتابات الرومانسيين الألمان . ولذا ، فليس من الغريب أن نجد بوبر يتحدث ، مثل النازيين تماماً ، عن التربة والدم والعرْق باعتبارها قيماً روحية مطلقة .

الشعب المقدس

Holy People

«الشعب المقدَّس» ترجمة للعبارة العبرية «عم قادوش» . وهي عبارة يُطلقها كثير من اليهود ، وخصوصاً اليهود الأرثوذكس ، على الشعب اليهودي باعتبار أنه شعب مختار له رسالة متميِّزة وسمات خاصة تميِّزه وتفصله عن الشعوب الأخرى . بل إن الفكرة تأخذ شكلاً متطرفاً أحياناً ، فقد أتى في أحد كتب المدراش أن الشعب اليهودي والتوراة كانا كلاهما في عقل الإله قبل الخلق ، أي مثل القرآن في الإسلام والمسيح في المسيحية . و«يسرائيل» (الشعب) و«يسرائيل» (التوراة) متعادلان ، لأن يسرائيل وحدها هي التي ستحقق التوراة وتنفذ تعاليمها . فالعالَم بدون هذا الشعب ، شعب التوراة ، لا قيمة له ، أي أن الشعب المقدَّس هو الركيزة النهائية

للكون بأسره . وقد أصبح اليهود شعباً مقدَّساً بسبب الحلول الإلهي فيهم وتقبُّلهم عبء الأوامر والنواهي ، فحياة اليهودي لابد أن يتم تنظيمها بحيث يقلد اليهودي سمات الإله فتصبح حياته مقدَّسة . وانطلاقاً من هذا ، تصبح القومية اليهودية نفسها قومية مقدَّسة . ويستند كثير من المفاهيم الدينية إلى الإيمان بقدسية الشعب اليهودي . وقد عمَّقت القبَّالاه هذا التيار وجعلت الشعب المقدَّس شريكاً للإله في عملية إصلاح الكون (تيقون) . ومن المصطلحات الأخرى المستخدمة للإشارة إلى الفكرة نفسها ، تعبير «الشعب المختار» أو «الشعب الأزلي» . والواقع أن فكرة الشعب المقدَّس ، أو الأفكار الأخرى المماثلة ، هي في نهاية الأمر تعبير عن الطبقة الجيولوجية الحلولية في اليهودية حيث يتحول الشعب إلى شعب مقدَّس وتتحول الأرض إلى أرض مقدَّسة . وقد حاولت اليهودية الإصلاحية تخليص الدين اليهودي من مثل هذه المصطلحات ، لكن الحركة الصهيونية بعثتها من جديد بعد أن قامت بعلمنتها .

البقية الصالحة

Good Remnant

مصطلح «البقية الصالحة» يقابلها في العبرية مصطلح «شئيريت يسرائيل» . وفي الحقيقة ، فإن هناك تياراً نخبوياً ممتداً يسري في مجرى الفكر الديني اليهودي ويعبِّر عن الحلولية الكامنة فيه . فقد كان الأنبياء يؤمنون ، ضمن ما كانوا يؤمنون به من الفكر الأخروي ، بأن أفراد هذا الشعب لن يهلكوا جميعاً رغم صنوف العذاب والويل التي تلحق بالشعب المختار ، إذ ستبقى دائماً بقية أو نخبة صالحة سوف تعود وتشيد مملكة الإله في آخر الأيام . وترد الفكرة بصورة أساسية في سفر أشعياء (وخصوصاً ٦/ ١١ ـ ١٣ ، ١٠/ ٢١) الذي سمَّى ابنه «شيئار ياشوف» ، أي «البقية ترجع» (٧/ ٣) . ورغم نخبوية هذا المفهوم في فكر الأنبياء ، فإن له مضموناً خلقياً ، فهذه البقية صالحة لأنها قبلت عبء الوصايا وعبء مملكة الرب . ويرى الفيلسوف الألماني اليهودي روزنزفايج أن مفهوم «البقية الصالحة» مفهوم محوري في حياة جماعة يسرائيل ، يتحكم في تاريخها منذ عصر الأنبياء . وقد عرَّف روزنزفايج كلمة «البقية» بأنها « نخبة احتفظت بإيمانها » ، وأن أفراد البقية هم « الشعب داخل الشعب » . والتاريخ اليهودي ، من هذا المنظور ، هو تاريخ هذه النخبة التي تكيف مع العالم الخارجي حتى يتسنى لها أن تنسحب إلى داخل عالمها الخاص تنتظر عودة الماشيَّح . وقد تَعمَّق هذا المفهوم مع زيادة هيمنة الحلولية على النسق الديني اليهودي إلى أن نصل إلى الحسيدية وفكرة التساديك الذي تُعدّ إرادته من إرادة الإله ، والذي لا يمكن مساءلته أخلاقياً ، فهو وحده الذي يفهم المدلول الأخلاقي لأفعاله .

وقد علمن الصهاينة فكرة النخبة الصالحة وحولوها إلى فكرة سياسية . ولذا ، نجد أن ثمة تياراً نخبوياً بتشوياً داروينياً يسري أيضاً في الفكر الصهيوني . فالصهاينة يرون أنهم البقية أو النخبة الصالحة التي عادت وشيَّدت الدولة الصهيونية لتكون مركزاً لليهود واليهودية في العالم ، لتحفظها من الاندماج والانصهار والاختفاء . وانطلاقاً من هذا المفهوم ، فإنهم يؤمنون بضرورة نفي الدياسبورا ، أي القضاء على الجماعات اليهودية ، أو على الأقل استغلالها . واستناداً إلى هذا المفهوم أيضاً ، فإن الصهاينة فاوضوا أيخمان والنازيين وعقدوا معهم الصفقات . وبموجب إحدى هذه الصفقات ، وافق أيخمان على السماح بترحيل بضعة آلاف من اليهود إلى فلسطين مقابل أن تتم عملية شحن يهود المجر إلى ألمانيا في نظام وهدوء لتتم إبادتهم . وقد وصف أيخمان النخبة أو البقية الصالحة التي أرسلت إلى فلسطين بأنهم كانوا « من أفضل المواد البيولوجية » . وهكذا نجد أن المفهوم الدارويني الخاص بأن البقاء للأصلح يلتقي بالمفهوم الصهيوني الخاص ببقاء النخبة !

وبعد الحرب العالمية الثانية ، اكتسب المفهوم بعداً جديداً ، فقد نُحتَ مصطلح «شئيريت هبليتاه» ، أي «البقية الباقية» أو «الناجية» ، وهم اليهود الذين لم يبادوا ، والذين عليهم أن يضطلعوا بالمهمة المقدَّسة ، وهي تأكيد البقاء اليهودي والحياة القومية (الصهيونية الاستيطانية) وتأسيس دولة إسرائيل .

كلال يسرائيل

Kelal Yisrael

«كلال يسرائيل» عبارة عبرية تعني «جماعة يسرائيل» أو «عموم يسرائيل» أو «يسرائيل المجمعة على هويتها» أو «يسرائيل كافة» . وتُستخدَم العبارة للإشارة إلى كل الشعب اليهودي ككيان عضوي متكامل يكتسب تكامله وتلاحمه العضوي من خلال الحلول الإلهي . ونحن نذهب إلى أن الرؤية الحلولية هي في جوهرها رؤية عضوية للكون ، فكلاهما نسق يستند إلى ركيزة نهائية ليست متجاوزة للمادة الكامنة فيها . ومفهوم «كلال يسرائيل» مفهوم محوري في اليهودية المحافظة . فـ «كلال يسرائيل» ، هي في الواقع صياغة دينية حلولية لمفهوم الشعب العضوي (فولك) . وفي الواقع ، فإن بعض المفكرين اليهود ، مثل زكريا فرانكل ، قد تأثروا بالتراث الألماني الرومانسي الذي مَجَّد روح الشعب وفكرة الشعب العضوي

ثم حاولوا توليد فكرة مماثلة من داخل التراث الحلولي اليهودي . وقد طرح زكريا فرانكل تصوراً عضوياً نظر من خلاله إلى الحضارة اليهودية باعتبارها نسقاً كلياً عضوياً متلاحم الأجزاء ، ورأى الشعب اليهودي باعتباره شعباً عضوياً . وهذا التصور هو الذي أفرز فيما بعد الفكر النازي ورؤية النازيين للشعب . ومثل هذه الأفكار العضوية هي التي أفرزت شعارات مثل « ألمانيا فوق الجميع » ، وتفرز الآن شعارات التوسعية الصهيونية التي تنادي بأن « أرض إسرائيل لشعب إسرائيل حسب شريعة إسرائيل » .

كنيست يسرائيل

Knesset Yisrael

«كنيست يسرائيل» عبارة عبرية تعني «جماعة يسرائيل» . وهو اصطلاح ديني حلولي يشير إلى الجماعة اليهودية ككل ، ويُطلَق في التراث القَبَّالي على الشخيناه (التعبير الأنثوي عن الذات الإلهية) باعتبار أن الشعب اليهودي جزء من الإله متوحد معه يشغل مركز الكون ويشكل وجوده عنصراً أساسياً في خلاص الكون واتساقه وتوازنه . وقد استُخدمت العبارة في العصر الحديث للإشارة إلى التجمع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين قبل عام ١٩٤٨ . وهي بذلك مرادفة تقريباً لكلمة «يشوف» . ويُسمَّى البرلمان الإسرائيلي «الكنيست» .

العهد

Covenant

«العهد» ترجمة للكلمة العبرية «بريت» ، وتُترجم أحياناً بكلمة «ميثاق» . والعهد اتفاق يُعقَد بين طرفين بكامل حريتهما . وكانت كلمة «عهد» تعني «معاهدة سلام بعد الحرب» ، فكان دخول العهد في دول وممالك الشرق الأدنى القديم يأخذ الشكل التالي : يمر الطرفان المتعاهدان بين قطع من لحم حيوان ضُحِّي به ، ويقسمون بأنهم سيُقطَّعون إرباً إرباً مثل هذا الحيوان إذا هم حنثوا بالعهد ، ومن هنا عبارة «قطع العهد» (كارات : قطع - بريت : عهد) .

ويدور التفكير الديني اليهودي حول العهود التي قطعها الإله على نفسه ، وهي عهود متكررة عبر التاريخ المقدَّس الذي يحل فيه الإله ويوجهه حسب الرؤية الدينية اليهودية . فهذا التاريخ يبدأ بالعهد الذي قطعه الإله على نفسه لإبراهيم بأن يصطفيه دون العالمين وأن يورِّث نسله أرض كنعان (فلسطين) . وقد تم تأكيد العهد لإسحق ويعقوب . ثم جُدِّد هذا العهد مع الشعب ككل (أي مع جماعة يسرائيل) في سيناء ، وذلك بعد الخروج من مصر ، حيث يعلن الإله لأفراد الشعب أنه أخرجهم من مصر واختارهم شعباً له . وبذا ، حوَّل العهد جماعة يسرائيل ككل إلى شعب مختار من الكهنة ، وأصبحت ممثلة للإله بين الشعوب ، وأصبحت وظيفتها إنقاذ الجنس البشري من الخطايا والذنوب التي يرتكبها الناس . وقد كان العهد مع إبراهيم منحة ملكية وليس عقداً بين طرفين . ولكن تحت تأثير الأنبياء ، ظهرت فكرة العقد المتبادل ، وهو أن الشعب يُطيع الإله ويتبع الشريعة ، وأن الإله لذلك سيرعاه ويحميه ، أي أن الاختيار يصبح هنا مشروطاً بفعل الخير . لكن هذا الموقف تآكل وأصبح العهد مرة أخرى عهداً أبدياً . فقد يخطئ هذا الشعب ، وقد يزل ، وقد يعصى ويفسد ، بل قد يعاقبه الإله ، ولكنه سيظل مع هذا شعباً مختاراً . وتشبِّه المشناه هذه العلاقة بأنها مثل علاقة رجل بزوجته العاهرة ، فرغم عهرها الواضح لا يمكنه التخلي عنها ، لأنها أم أولاده (فسحيم ١٢٨ ـ ب) . وقد استخدم هوشع هذا التشبيه من قبل فهو قد اتخذ «بأمر الرب» زوجة من الداعرات ليبرهن للشعب المقدَّس بشكل تجسيدي من خلال دراما شخصية أنه على الرغم من انحرافه عن طريق الرب فإن الإله تمسَّك به . ويَتصوَّر بعض مفكري اليهود أن العهد بين الإله والشعب مُلزم له وحده ، وليس مُلزماً للشعب ، فهو الذي قطع العهد على نفسه . وهم بذلك يُسقطون ، مرة أخرى ، البُعد الأخلاقي الذي أضافه الأنبياء .

وقد عقد الإله عهوداً ومواثيق كثيرة ، فقد عاهد نوحاً بأنه لن يرسل طوفاناً آخر يخرب الأرض ، كما قطع عهداً منح فيه الكهانة لبيت هارون ، أما نسل داود فمنحهم الملوكية . وقد يعقد الإله مواثيق مع الشعوب الأخرى ، ولكن ميثاقه مع جماعة يسرائيل يظل هو الأساس . ويشير كل الأنبياء إلى اليهود بوصفهم «بنو يسرائيل» أو «بناي بريت (أبناء العهد)» على أساس من فكرة العهد هذه . ولكل ميثاق علامة تقف شاهداً على صلاحيته الدائمة ، فعلامة الميثاق أو العهد مع نوح كانت قوس قزح ، وعلامة الميثاق مع إبراهيم كانت الختان ، وعلامة العهد مع جماعة يسرائيل في سيناء هي السبت والوصايا العشر والتوراة .

وجاء في إرميا (٣١/ ٣١) إشارة إلى «بريت حداشاه » أي (العهد الجديد) ، وهو عهد سيبرمه الإله مع الشعب ليحل محل العهد القديم الذي لم ينفذه الشعب . ومن هنا كانت التسمية المسيحية ، إذ ترى المسيحية نفسها أنها هذا العهد الجديد الذي سيحل محل العهد القديم . والعهد الجديد سيتخلص من الحلولية القديمة ويطرح رؤية توحيدية عالمية تفتح باب الخلاص أمام الجميع ، إذ أن الإله ليس إلهاً قومياً حالاً في شعب واحد يتحد معه وإنما هو إله

العالمين المتجاوز للطبيعة والتاريخ . ويدور الفكر الصهيوني أيضاً حول فكرة العهد . فأحقية اليهود في أرض الميعاد ، حسب تصورهم، مسألة مطلقة لا تقبل النقاش بسبب هذا العهد . ويرى الصهاينة الدينيون أن العهد حقيقة تاريخية ، ومن ثم فإنهم يرون أن مصدر المطلقية هو الإله ، أما بن جوريون فكان يرى أن أعضاء جماعة يسرائيل هم الذين اختاروا الرب إلهاً لأنفسهم وبدونهم فلن يكون إلهاً . بل ويذهب بن جوريون إلى أنه لا يهم إن كانت واقعة العهد حقيقية أم لا ، وإنما المهم أن هذه الأسطورة مغروسة في الوجدان اليهودي ، ولذا فإن مصدر المطلقية هنا هو إيمان الشعب بأساطيره الشعبية . ولنلاحظ دائرية هذا المنطق والتفافه حول نفسه ، ولنلاحظ أيضاً تساوي الإله بالشعب كمصدر للقداسة وهو أمر كامن في النسق الحلولي الديني اليهودي .

الميثـــاق

Covenant

«الميثاق» ترجمة عربية لكلمة «بريت» ومعناها «عهد» . وفي هذه الموسوعة نستخدم كلمة «عهد» نظراً لاستخدامها وشيوعها في عبارتي «العهد القديم» و«العهد الجديد»



٣
الأرض

الأرض (إرتس) ـ صهيون ـ الأرض المقدَّسة ـ أرض الميعاد ـ احترام حياة اليهود (بكوّح نيفيش)

الأرض (إرتس)

The Land (Eretz)

«الأرض» هي المقابل العربي لكلمة «إرتس» العبرية التي ترد عادةً في صيغة «إرتس يسرائيل» أي «أرض إسرائيل» (فلسطين). ويدور الثالوث الحلولي حول الإله والشعب والأرض فتقوم وحدة مقدَّسة بين الأرض والشعب لحلول الإله فيهما وتوحده معهما. ولذا ترتبط الديانات والعبادات الوثنية الحلولية بأرض محدَّدة أو بمكان محدَّد وبشعب يقيم على هذه الأرض أو على علاقة ما بها.

والحلولية طبقة جيولوجية مهمة تراكمت داخل التركيب الجيولوجي اليهودي. تتبدّى في إضفاء القداسة على الأرض نتيجة الحلول الإلهي فيها. ولذا فإن إرتس يسرائيل (فلسطين) تُسمَّى «أرض الرب» (يوشع ٩/ ٣). وهي الأرض التي يرعاها الإله (تثنية ١١/ ١٢). ثم هي الأرض المختارة، وصهيون التي يسكنها الرب، والأرض المقدَّسة (زكريا ٢/ ١٢) التي تفوق في قدسيتها أيَّ أرض أخرى لارتباطها بالشعب المختار. وقد جاء في التلمود: «الواحد القدوس تبارك اسمه قاس جميع البلدان بمقياسه ولم يستطع العثور على أية بلاد جديرة بأن تمنح لجماعة يسرائيل سوى أرض يسرائيل». وهي كذلك «الأرض البهية» (دانيال ١١/ ١٦).

والواقع أن تعاليم التوراة، كتاب اليهود المقدَّس، لا يمكن أن تنفذ كاملة إلا في الأرض المقدَّسة. بل، وكما جاء في أحد أسفار التلمود وفي أحد تصريحات بن جوريون، فإن السكنى في الأرض بمنزلة الإيمان: «لأن من يعيش داخل أرض يسرائيل يمكن اعتباره مؤمناً، أما المقيم خارجها فهو إنسان لا إله له». بل إن فكرة الأرض تتخطى فكرة الثواب والعقاب الأخلاقية (كما هو الحال دائماً داخل المنظومة الحلولية). فقد جاء أن من يعيش خارج أرض الميعاد كمن يعبد الأصنام. وجاء أيضاً أن من يسر أربع أذرع في إرتس يسرائيل يعش لا ريب إلى أبد الآبدين. ومن يعش في إرتس يسرائيل يطهر من الذنوب. بل إن حديث من يسكنون في إرتس يسرائيل توراة في حد ذاته. وقد جاء في سفر أشعياء (٣٣/ ٢٤) أنه «لا يقول ساكن [في الأرض] أنا مَرِضْتُ. الشعب الساكن فيها مغفور الاثم».

وقد ارتبطت شعائر الديانة اليهودية بالأرض ارتباطاً كبيراً، فبعض الصلوات من أجل المطر والندى تُتلى بما يتفق مع الفصول في أرض الميعاد، كما أن شعائر السنة السبتية (سنة شميطاه)، والشعائر الخاصة بالزراعة وبعض التحريمات الخاصة بعدم الخلط بين الأنواع المختلفة من النباتات والحيوانات لا تُقام إلا في الأرض المقدَّسة. وتدور صلوات عيد الفصح حول الخروج من مصر والدخول في الأرض، ويردد المحتفلون بالعيد الرغبة في التلاقي العام القادم في أورشليم، والواقع أن الثمانية عشر دعاءً (أهم قسم في الصلوات اليومية ويُدعى «شمونة عسريه» بالعبرية) يتضمن دعاءً بمجيء الماشيَّح الذي سيأتي في آخر الأيام ويقود شعبه إلى الأرض. وحتى الآن، يرسل بعض أعضاء الجماعات اليهودية في العالم في طلب شيء من تراب الأرض ليُنثَر فوق قبورهم بعد موتهم.

وقد تَعمَّق التيار الحلولي، وتَعمَّق الارتباط اليهودي بالأرض، مع تدهور اليهودية، ولكنه مع هذا ظل ارتباطاً عاماً عاطفياً مجرداً بسبب وجود اليهود كجماعات منتشرة في العالم (لا يرغب معظمهم في العودة الفعلية). وقد عبَّر التراث التلمودي عن هذه الازدواجية بأن شجع على حب صهيون والارتباط بها، وحذَّر في الوقت نفسه من العودة الفعلية لها. وطالب الحاخامات اليهود بوجوب انتظار الماشيَّح والإذعان لإرادة الإله، وهو الرأي الذي رفضته الجماعات المشيحانية المختلفة ابتداءً بشبتاي تسفي وانتهاءً بالصهيونية التي ترتكب خطيئة «التعجيل بالنهاية» («دحيكات هاكيتس»). ومع هيمنة القبَّالاه، تَعمَّق الارتباط بالأرض وتعمقت قداستها، ولكن العودة ظلت أمراً محرماً، إلى أن نصل إلى العصر الحديث مع الحركة الصهيونية (أما في الإسلام، فإن الأمر مختلف حيث بدأ الإسلام في مكة والحجاز ثم انفصل عنهما لأنه دين مُرسَل إلى كل الناس في كل زمان ومكان، ولا تُقاس التقوى في الإسلام بمدى القرب أو البعد عن مكة، وإنما تقاس بمدى القرب أو البُعد عن القيم الأخلاقية الإسلامية، أي أن

انفصال الإسلام عن المكان وارتباطه بمجموعة من القيم هو بمنزلة تأكيد لحرية الفرد المسلم ومسئوليته ومقدرته على تجاوز الواقع المادي والتسامي عليه إن أراد) .

وإذا كان الشعب يمتزج بالأرض في النسق الحلولي ، فإن الزمان المقدَّس (التاريخ اليهودي) يمتزج بالمكان المقدَّس (الأرض) . ويتبدَّى هذا في أن الأرض المقدَّسة هي أرض الميعاد ، لأن الإله وعد إبراهيم وعاهده على أن تكون هذه الأرض لنسله . وهي أيضاً «أرض المعاد» التي سيعود إليها اليهود تحت قيادة الماشيَّح ، أي الأرض التي ستشهد نهاية التاريخ . والأرض هي مركز الدنيا لأنها توجد في وسط العالم ، تماماً كما يقف اليهود في وسط الأغيار وكما يشكل تاريخهم المقدَّس حجر الزاوية في تاريخ العالم وتشكل أعمالهم حجر الزاوية لخلاص العالم . فإذا كان الشعب اليهودي هو أمة الكهنة ، فإن الأرض بمنزلة المعادل الجغرافي لهذا التصور . وليس التاريخ اليهودي ، حسب التصورات الحلولية التقليدية أو الصهيونية ، إلا تعبيراً عن الارتباط بالأرض ، وهو في الواقع ارتباط يجمع بين التاريخ الحي والجغرافيا الثابتة ، الأمر الذي يؤدي إلى إلغاء وجود اليهود التاريخي خارج فلسطين . فهو وجود خارج الأرض ، وبالتالي خارج التاريخ . كما يُلغي تاريخ الأرض نفسها باعتبار أنها مكان مطلق منبت الصلة بالزمان ، خاو على عروشه ، ينتظر ساكنيه الأزليين المقدَّسين .

وقد تَضخَّم الحديث عن الأرض وعن ارتباط اليهود بها فتحولت إلى فكرة لاهوتية ونشأ ما يُسمَّى «لاهوت الأرض المقدَّسة». وكان من أهم المشكلات التي ناقشها لاهوت الأرض مشكلة حدودها ، فقد جاء في سفر التكوين (١٥/ ١٨) أن الإله قد قطع مع إبراهيم عهداً قائلاً : "لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات" . ولكن في الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر العدد توجد خريطة مغايرة حددت على أنها «أرض كنعان بتخومها» ، وحددت التخوم بشكل يختلف عن خريطة سفر التكوين . وقد حل الحاخامات هذه المشكلة بأن شَبَّهوا الأرض بجلد الإبل الذي ينكمش في حالة العطش والجوع ويتمدد إذا شبع وارتوى . وهكذا الأرض المقدَّسة ، تنكمش إذا هجرها ساكنوها من اليهود ، وتتمدد وتتسع إذا جاءها اليهود من بقاع الأرض .

ومن المشكلات الطريفة التي واجهها لاهوت الأرض مشكلة ملكيتها . فالأرض المقدَّسة عبر تاريخها كان يقطن فيها ، في معظم الأحيان ، شعب غير مقدَّس . فمنذ بداية تاريخها وحتى عام ١٠٠٠ ق.م ، كان يقطن فيها الكنعانيون والفلستيون ، ثم قطن فيها اليهود بضع مئات من السنين ، ثم توافدت عليها بعد ذلك أقوام أخرى ، إلى أن اختفى أي وجود يهودي حقيقي عام ٧٠م . وهنا ، كان على مفكري اليهود حل هذه المشكلة . وقد تناول الحاخام راشي العبارة الافتتاحية في التوراة التي تقول : "في البدء خلق الإله السموات والأرض" ، فكتب معلقاً : إن الإله يخبر جماعة يسرائيل والعالم أنه هو الخالق ، ولذلك فهو صاحب ما يخلق ، يوزعه كيفما شاء . ولذا ، إذا قال الناس لليهود أنتم لصوص لأنكم غزوتم أرض يسرائيل وأخذتموها من أهلها فبإمكان اليهود أن يجيبوا بقولهم : «إن الأرض مثل الدنيا ملك الإله ، وهو قد وهبها لنا» . فالأرض المقدَّسة ، توجد ، إذن ، خارج التاريخ ، وهي جزء من السماء والأرض اللتين خلقهما الإله قبل بداية التاريخ ، والإله الذي يحل في الطبيعة والتاريخ هو صاحب التصرف فيهما معاً . وقد استخدم مارتن بوبر المنطق نفسه في العصر الحديث في مجال تبرير الاستيلاء الصهيوني على الأرض .

وقد حاولت اليهودية الإصلاحية أن تنفي أية إشارات إلى الأرض والعودة إليها في الصلوات اليهودية ، على عكس اليهودية الأرثوذكسية والمحافظة التي تؤكد أهمية العلاقة الأزلية والرابطة الصوفية بين اليهودي والأرض . أما الصهيونية بجميع مدارسها ، باستثناء الصهيونية الإقليمية ، فتقوم على أساس التقديس العلماني أو الديني للأرض . وقد أحيا الفكر الصهيوني الثالوث الحلولي في اليهودية القديمة (وحدة الإله أو التوراة بالشعب بالأرض) ، فترك فكرة القداسة بشكل عام دون تحديد مصدرها : هل هي من الإله (وهذه هي الصيغة التي تأخذ بها الصهيونية الدينية) أم هي صفة دنيوية متوارثة لصيقة بالشعب اليهودي والأرض اليهودية كامنة فيهما (وهي التي تأخذ بها الصهيونية اللادينية) . والصيغة الدينية هي حلولية متطرفة بحيث يتم تقديس الأرض لأنها متوحدة مع الإله ، أما الصيغة العلمانية فهي حلولية بدون إله حيث تصبح الأرض هي الإله ، وقد صرح ديان أن أرض يسرائيل هي ربه الوحيد . وقد استولى الصهاينة على الأرض الفلسطينية ، وطردوا سكانها بالقوة العسكرية باعتبارها الأرض المقدَّسة . وأُسِّس الصندوق القومي اليهودي لتحويل المفهوم الصهيوني إلى حقيقة . وهكذا ، فإنه يقوم بالحصول على الأرض باسم الشعب اليهودي ، ويحرِّم دستوره تأجيرها أو بيعها لغير اليهود أو للأغيار العرب .

ونظراً لأن التراث الديني اليهودي يحتوي على عدة خرائط تتفاوت في اتساعها وضيقها ، فإنه توجد مدارس صهيونية عديدة

تطرح كل منها صيغتها التوسعية الخاصة . فمنهم من يوسِّع نطاق القداسة لتضم سيناء ، ومنهم من يضيقها لتقف عند حدود ١٩٤٨ . وهناك مدارس مختلفة داخل الجيش الإسرائيلي . ويرى يوري أفنيري أن فكرة الأرض المقدَّسة تُستخدَم فقط كنوع من الاعتذاريات والمسوغات بعد عمليات الضم نفسها ، وأن ما يقرر الضم والانسحاب هو حركيات القوة الذاتية الصهيونية . وقد أشار إلى أن مرتفعات الجولان ليست لها أية قداسة خاصة ، أو أن درجة قداستها تقل عن قداسة شبه جزيرة سيناء . وقد انسحبت إسرائيل مع هذا من سيناء ، ولكنها لم تنسحب من الجولان . ولذا ، يرى أفنيري أن دراسة التوسعية الصهيونية تتطلب دراسة الملابسات السياسية والعسكرية لا الآراء الفقهية .

وكما يؤكد الفكر الصهيوني أهمية الأرض كعنصر أساسي في البعث القومي ، يؤكد الفكر النازي أيضاً الشيء نفسه ، فالشعب العضوي لا يمكنه أن ينهض إلا في أرضه التي يرتبط بها برباط عضوي قوي ، وفي هذه الأرض وحدها يمكن أن تُولَد روح الشعب من جديد . ومن هنا أبدى النازيون تفهماً واضحاً لرغبة اليهود الصهاينة في الهجرة إلى أرضهم . ومن ثم قال أيخمان ، في محاكمته ، إن النازية كانت تهدف إلى وضع قليل من الأرض الثابتة تحت أقدام اليهود الجائلين . وهذا القول لا يختلف كثيراً عن الشعار الصهيوني «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» فالصورة المشتركة هي صورة شعب جائل تائه يحتاج إلى أرض راسخة يضرب بجذوره فيها .

ويبدو أن الارتباط بالأرض (الوطن القومي البعيد) من السمات الأساسية للجماعات الوظيفية كافة ، فهذا الارتباط يُضعف انتماءها للوطن الذي تعيش فيه . ومن ثم ، يُضعف ارتباطها به ، ويزيد انفصالها عنه وبالتالي تتزايد أيضاً موضوعيتها وتعاقديتها . كما أن الارتباط بالأرض (المقدَّسة البعيدة) ، مقابل الأرض غير المقدَّسة القريبة ، يزيد ترابط أعضاء الجماعة الوظيفية ، وهو في نهاية الأمر يضعف الانتماء التاريخي ، ومن ثم يعيش عضو الجماعة الوظيفية داخل مجتمع لا توجد بينه وبينها روابط تراحُم ، فتزداد كفاءته في أداء وظيفته .

صهيون

Zion

«تسيون» اسم تل وقلعة في القدس (يُشار له في اللغة العربية بـ «جبل المكبر» أو «جبل الزيتون») . وأصل الاسم غير معروف ، ولكن هناك من ذهب إلى القول بأن الاسم مشتق من الكلمة الحورية «صيا» التي تعني «قلعة أو صخرة أو مكاناً جافاً أو ماءً جارياً» . وقد استُخدم الاسم ، في بداية الأمر ، للإشارة إلى قلعة اليبوسيين جنوب شرقي القدس أسفل تل أوفيل وجبل الهيكل أو جبل البيت أو هضبة الحرم . وقد سُمِّيت «بيت داود» بعد أن وقعت في يد داود . وبعد أن نقل لها حكمه ، أصبحت كلمة «جبل صهيون» تشير إلى كل من تل أوفيل وجبل البيت ، وهذا هو الاستعمال الذي شاع في زمن الحشمونيين حينما كان يُشار إلى جبل البيت بأنه جبل صهيون . ويُقال إن داود قد دُفن فيه . ولكن ، مع القرن الأول الميلادي ، أصبح الموضع الحالي الذي يوجد جنوب غربي مدينة القدس والذي يُشار إليه باعتباره جبل صهيون ، مع أن معظم العلماء يرون أنه لا يمثل موضع جبل صهيون الأصلي .

وحسب الرؤية الحلولية اليهودية ، يسكن الإله في هذا الجبل المقدَّس ، فقد ورد في المزامير : «رنِّموا للرب الساكن في صهيون» (مزامير ٩/ ١١) . ولكن الحلولية ترد كل شيء إلى مستوى واحد ، وهو ما يعني تَداخُل الأشياء والظواهر وتَساقُط حدودها وذوبانها جميعاً في كلٍّ واحد . ولذا ، تأخذ دلالة الكلمة في الاتساع إلى أن تشمل أي زمان ومكان لهما علاقة بالشعب المقدَّس . فكلمة «صهيون» لا تشير إلى الجبل وحده ، بل إنها تشير أيضاً إلى المدينة المقدَّسة . ولكنها ليست مدينة وحسب ، بل هي أيضاً «أم يسرائيل» التي سيُولَد الشعب اليهودي من رحمها . ولذا ، يُطلَق على الشعب مُصطلَح «بنت صهيون» . ويزداد نطاق دلالة الكلمة اتساعاً ، فنجد أن صهيون ليست الأم فحسب ، بل هي الزوجة المهجورة ، أي أنها «الشعب اليهودي» نفسه الذي يقاسي من آلام النفي . ثم تتسع الدلالة أكثر ، فنجد أن كلمة «صهيون» تشير إلى كلٍّ من الشعب والأرض ، فالأرض المقدَّسة ككل تُسمَّى «صهيون» . وتعني كلمة صهيون أيضاً «السماء» . ومع هذا ، تظل الدلالة تتسع حتى نكتشف أن صهيون (الجبل أو المدينة أو الأرض) ستصبح عاصمة العالم كله عند مقدم الماشيَّح ، وتصبح ذات دلالات أخروية (إسكاتولوجية) عميقة . وهكذا ، تتمركز صهيون في وسط الجغرافيا والتاريخ ، وعلى قمتهما .

وفي محاولة لتهدئة النزعة المشيحانية في اليهودية ، ولترويض الاتجاهات المتطرفة ، فسر فقهاء اليهود كلمة «صهيون» بأنها المكان الذي اختاره الإله واصطفاه بالمعنى الديني وحسب . وبالتالي ، يُعَدُّ السكن في صهيون عملاً خيِّراً بالمعنى الديني ، ويُصبح حب صهيون والحنين إليها أمراً دينياً ، أي أن صهيون ليست موقعاً جغرافياً وإنما هي مفهوم ديني .

وقد أسقطت الحركة الصهيونية هذا التمييز وفسَّرت «صهيون» تفسيراً حرفياً ، فلم تعُد رمزاً دينياً ، وإنما مكاناً ملائماً للاستيطان . وقد اشتق اسم الحركة الصهيونية من كلمة «صهيون» .

وبسبب اختلاط المجال الدلالي للكلمة ، طبعت الكنيسة الإنجليكانية في نيوزيلندا كتاب صلوات يُسقط كلمة «صهيون» وكلمة «إسرائيل» ويحل محلهما كلمات مثل : «جبل الإله المقدَّس» بدلاً من «صهيون» ، و«شعب الإله» بدلاً من «إسرائيل» . وبالتالي ، فإن الكنيسة تضمن عدم الخلط بين المصطلحات ، التي أفسدها الصهاينة باستيلائهم عليها ، وبين القصد الديني الأصلي .

الأرض المقدسة

Holy Land

«الأرض المقدَّسة» هي «إرتس يسرائيل» ، أي أرض فلسطين (انظر : «الأرض [إرتس]» - «إرتس يسرائيل») .

أرض الميعاد

The Promised Land

انظر : «الأرض (إرتس)» .

احترام حياة اليهودي (بكوّح نيفيش)

Pikuah Nefesh

«احترام حياة اليهودي» هي عبارة نستخدمها للتعبير عن مُصطلَح «بكوَّح نيفيش» العبري ، وكلمة «نيفيش» تعني «نفس» ، أما كلمة «بكوَّح» فتعني حرفياً «الوعي» (بقيمة الإنسان) . وينطلق هذا التعبير من مفهوم تلمودي ويشير حرفياً إلى واجب إنقاذ الحياة الإنسانية إن تعرضت للخطر ولكنه يشير فعلياً إلى واجب إنقاذ حياة اليهود . وقد ورد في اللاويين (١٩/١٦) "لا تقف على دم قريبك" بمعنى أنك لن تقف متفرجاً حينما يسيل دم جارك (اليهودي) . إذ يبدو أن احترام الحياة ينطبق على حياة أعضاء الشعب المقدَّس وحسب . ويذهب الحاخامات إلى أن مفهوم احترام الحياة يجب حتى قوانين السبت وشعائره .

وقد دارت حرب بين الحاخامات في إسرائيل حول هذا المفهوم ، إذ طالب حاخام السفارد الأكبر السابق عوبديا يوسف بالانسحاب من الأراضي المحتلة لإنقاذ حياة اليهود عملاً بمفهوم بكوَّح نيفيش هذا ، وقد أيَّده بعض الفقهاء في رأيه واقتبسوا من العهد القديم من سفر التثنية الإصحاح ٣٠ ، فقرة ١٩ "قد جعلت قدامك الحياة والموت ، البركة واللعنة ، فاختر الحياة لكي تحيا أنت ونسلك" . ومن الواضح مرة أخرى أن المقصود حياة اليهود . وقد اقتبس المعارضون لرأيه من سفر العدد ، إصحاح ٣٣ ، فقرة ٥٢ - ٥٣ «كلم بني إسرائيل وقل لهم إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان ، فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم وتمحون جميع تصاويرهم وتبيدون كل أصنامهم المسبوكة وتخربون جميع مرتفعاتهم . تملكون الأرض وتسكنون فيها لأني قد أعطيتكم الأرض لكي تملكوها» . وتبيِّن المقطوعة أن الأرض هي المطلق ، والارتباط بها والحفاظ عليها يجبُّ كل القيم الأخرى ، ومنها حياة اليهود أنفسهم . وكان بوسع معارضي الحاخام عوبديا يوسف ألا يذهبوا بعيداً وأن يكتفوا باقتباس الفقرة التي تأتي بعد الفقرة التي اقتبسها مؤيدوه (سفر التثنية ٣٠/ ٢٠) والتي جاء فيها «إذ تحب الرب إلهك وتسمع لصوته وتلتصق به لأنه هو حياتك والذي يطيل أيامك لكي تسكن على الأرض التي حلف الرب لآبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب أن يعطيهم إياها» . والفقرة الثانية تجعل الحياة الإنسانية (ومنها حياة اليهود) ثانوية بالنسبة للأرض ، فالإله يطيل حياة اليهود لكي يسكنوا الأرض .

والواقع أن الصراع هنا صراع بين رؤيتين داخل التركيب الجيولوجي اليهودي تعبِّران عن درجتين من الحلول ، وفي الرؤية الأولى يتم الحلول الإلهي في الشعب اليهودي (دون الأرض) فيصبح اليهودي مركز الكون ومن ثم تصبح حياته أمراً مهماً . أما الرؤية الحلولية الأخرى فتختزل الوجود بأسره إلى مستوى واحد ويتم الحلول الإلهي في كل من الشعب والأرض ، ليكتمل الثالوث الحلولي ويفقد الإنسان أية مركزية وأهمية لتحل الأرض محله وتسيل الدماء من أجلها . وقد وصف الشاعر الإسرائيلي حاييم جوري أرض إسرائيل بأنها ليست مجرد قطعة أرض أو إقليم وإنما إلهة ثأر وثنية بذيئة لا تشبع قط من شرب دماء عابديها ، فهي تطالب بمزيد من المدافن وصناديق دفن الموتى . وقد لاحظ الكاتب الإسرائيلي بن عزرا أن الإسرائيليين الشباب الذين يخدمون في الجيش يشعرون بأن أهلهم ، بالاشتراك مع الدولة ، يضحون بهم بدون تعويض أو عزاء من عقيدة دينية تؤمن بالحياة بعد الموت ، ولذا فهم يشعرون بأن هذه الحروب هي «تضحية علمانية بإسحق» ، أي أنها تضحية تدور في إطار حلولية بدون إله ، ولذا فهي تضحية بشرية لا هدف لها ولا معنى .

إن الدائرة الحلولية بدون إله قد انغلقت على رأس المستوطنين ، فالأرض مقدَّسة ، بل «هي ربي الوحيد» على حد تعبير موشي ديان ،

وهي موضع الحلول الإلهي دون إله ، ولذا فهي صماء لا تعي ولا تنطق ، ولذا فلا مجال للحفاظ على حياة العرب ولا حياة الإسرائيليين أو اليهود ، لا مجال لبكوّح نيفيش ، فهذا المفهوم الحلولي يفترض وجود إله يحابي شعبه ، أما الصهيونية فقد أعلنت موت هذا الإله وبقيت الأرض مقدَّسة دون أي احترام لأي حياة ، سواء كانت حياة اليهود أم غيرهم . ولذا لا يملك ديان إلا أن يقول :

"إننا جيل من المستوطنين لا نستطيع غرس شجرة أو بناء بيت بد الخوذة الحديدية والمدفع ، وعلينا ألا نغمض عيوننا عن الحقد المشتـ في أفئدة مئات الآلاف من العرب حولنا ، علينا ألا ندير رؤوس حتى لا ترتعش أبدينا . إنه قدر جيلنا ، إنه خيار جيلنا ، أن نكو مستعدين ومسلحين ، أن نكون أقوياء وقساة ، حتى لا يقع السيف من قبضتنا وتنتهي الحياة" .



٤
الكتب المقدَّسة والدينية

الكتب المقدَّسة والدينية ـ العهد القديم ـ التوراة ـ الكتاب ـ سفر ـ إصحاح ـ أسفار موسى الخمسة ـ نسخ ـ الكتاب المقدَّس ـ الإنجيل ـ الماسوراه ـ الترجوم ـ الفوجاتا أو الشعبية ـ البشيطاء ـ الترجمة السبعينية ـ سفر التكوين ـ سفر الخروج ـ سفر العدد ـ سفر التثنية ـ سفر اللاويين ـ الوصايا العشر ـ سفر أيوب ـ سفر الأمثال ـ سفر الجامعة ـ سفر المزامير ـ سفر نشيد الأنشاد ـ سفر المراثي (مراثي إرميا) ـ تفسير العهد القديم ـ نقد العهد القديم ـ الكتب الخارجية أو الكتب الخفية (أبوكريفا) ـ الكتب المنسوبة (سيودايبجرفا) ـ مخطوطات البحر الميت

الكتب المقدَّسة والدينية
Sacred and Religious Books

تتَّسم اليهودية بتعدد كُتُبها الدينية المقدَّسة . ويعود هذا إلى عدة أسباب من أهمها فكرة العقيدة الشفوية الحلولية التي تضفي القداسة على كتابات الحاخامات الدينية واجتهاداتهم ، بل تعادل بين الوحي الإلهي (التوراة) والاجتهاد البشري (التلمود) . وقد مرَّت اليهودية ، كنسق ديني ، بمراحل تطور تاريخية طويلة ؛ متعددة ومتناقضة . ولذا ، فهي تأخذ شكل تركيب جيولوجي تراكمت داخله عدة طبقات تتعايش جنباً إلى جنب ، أو الواحدة فوق الأخرى ، ويتبدَّى هذا التراكم الجيولوجي في الصراع الحاد بين التوحيد والحلولية ، والذي يتضح في كتب اليهود المقدَّسة وأهمها الكتاب المقدَّس أو التوراة ، والتي تُقسَّم إلى أسفار موسى الخمسة (وهي أهم أجزائه وأكثرها قداسة) ، ثم كتب الأنبياء (وهي أكثر الأسفار توحيدية) ، وأخيراً كتب الحكم والأمثال والأناشيد . وبعد انتهاء تدوين العهد القديم واعتماده من قبَل الحكماء اليهود ، ظهرت كتب الرؤى وغيرها من الأسفار التي استُبعد بعضها ، وأصبحت تُسمَّى الكتب الخارجية أو الخفية (أبوكريفا) أو غير القانونية ، وسُمِّي بعضها الآخر الكتب المنسوبة (سيود إبيجرفا) . ومعظم هذه الكتب ذو أصل شعبي واتجاه حلولي واضح . وقد نسي اليهود هذه الكتب طوال العصور الوسطى في الغرب ، ولم يكتشفوها إلا مع عصر النهضة . ومع القرن السادس ، تم تدوين التلمود الذي أصبح كتاب اليهود الديني الأول ، حتى أنه حل محل العهد القديم نفسه ، وبذلك تكون النزعة الحلولية قد انتصرت وبدأت في الهيمنة التدريجية على النسق الديني اليهودي . ومع القرن الثالث عشر ، ظهرت كتب القبَّالاه ابتداءً من الباهير فالزوهار ثم كتابات إسحق لوريا التي سادت الفكر الديني اليهودي تماماً حتى أن التلمود أُهمل من قبَل معظم أعضاء الجماعات وحاخاماتهم ، وأصبح مقصوراً على أرستقراطية الحاخامات وحسب . ويشكل شيوع القبَّالاه الهيمنة الكاملة للطبقة الحلولية داخل التركيب الجيولوجي اليهودي . ولليهود كتب صلوات تضم صلواتهم . وتُضاف إليها بركات وأدعية وأناشيد وقصائد ، بعضها حلولي والبعض الآخر توحيدي .

وقد انعكس هذا التركيب الجيولوجي على الفكر الديني اليهودي الحديث الذي يضم اتجاهات فكرية مختلفة علمانية وإلحادية ووجودية وصوفية ، كما انعكس على الصهيونية وعلى الفكر المعادي للصهيونية . ويجد كل فريق سنداً لرأيه في التراث الديني الذي يضم طبقات متراكمة مختلفة . ويمكن القول بأن الحلولية بدون إله قد وجدت هي الأخرى كتبها المقدَّسة ، فقد أكد ماكس نوردو أن كتاب هرتزل **دولة اليهود** سيحل محل التوراة والكتب الدينية الأخرى . ورغم مغالاة هذا الزعيم الصهيوني ، فإن من يدرس الفكر الديني اليهودي ، بعد أن تمت صهينته ، وبعد أن تم إضفاء مركزية دينية على الدولة الصهيونية ، لا في الوجدان الشعبي فقط وإنما في العقيدة نفسها ، لا يملك إلا أن يرى قدراً كبيراً من الصدق في هذا القول . وقد جاء حاييم كابلان ليؤكد أن وثائق التاريخ الأمريكي تُعتبَر أيضاً من كتب اليهود المقدَّسة ، كما أن الولايات المتحدة تشكل أساس المطلقية .

ويذهب أحد مفكري لاهوت موت الإله (إرفنج جرينبرج) إلى أن العهد القديم هو كتاب اليهود المقدَّس في مرحلة الهيكل ، وأن التلمود كتاب مرحلة الشتات اليهودي ، أما في المرحلة الثالثة (مرحلة ما بعد أوشفيتس وتشييد الدولة الصهيونية) فإن كتابهم المقدَّس هو النصوص التي تُذكِّر الشعب اليهودي بالإبادة وبضرورة البقاء ، ومن هنا يعتبر جرينبرج كتابات إيلي فيزيل ، على سبيل المثال ، كتابات مقدَّسة ، وكذلك إعلان استقلال إسرائيل . وحالة السيولة هذه أمر متسق تماماً مع الحلولية بدون إله .

العهد القديم

Old Testament

«العهد القديم» مصطلح يستخدمه المسيحيون للإشارة إلى كتاب اليهود المقدَّس ، بينما يُستخدَم مصطلح «العهد الجديد» للإشارة إلى الأسفار التي تتضمنها الأناجيل الأربعة وإلى أعمال الرسل ورسائلهم (سبعة وعشرين سفراً) . أما اليهود أنفسهم ، فيستخدمون عبارة «سيفري هاقودش» أو «كتبي هاقودش» ، أي «الكتب المقدَّسة» . ويستخدمون أحياناً تعبير «كتوفيم» ، أي «الكتب» كما يُستخدَم لفظ «توراة» في بعض الأحيان . ومن الألفاظ الأخرى المستخدمة ، لفظ «المقرا» و«تناخ» . ويشتمل العهد القديم على الأقسام التالية :

أولاً : أسفار موسى الخمسة (بالعبرية : حوميش موشيه) ، وتُعرَف أيضاً باسم «التوراة» أو «شريعة موسى» . وهي تحتوي على الشرائع والقوانين والشعائر والوصايا العشر التي أوصى الإله بها موسى ، كما تضم أخباراً تاريخية عن جماعة يسرائيل :

١ ـ سفر التكوين . ويهتم بوصف الخليقة ، وأصل العبرانيين (جماعة يسرائيل) حتى الخروج من مصر .

٢ ـ سفر الخروج . ويروي تاريخ العبرانيين في مصر وخروجهم منها .

٣ ـ سفر اللاويين . ويعالج واجبات الكهنة والطقوس الأخرى .

٤ ـ سفر العدد . وفيه تعداد رؤساء الشعب وحاملي السلاح ، وفيه أيضاً أخبار تذمُّر الشعب ، والتجسس على أرض كنعان .

٥ ـ سفر التثنية . أي تثنية الاشتراع أو إعادة الشريعة وتكرارها على جماعة يسرائيل .

ثانياً : أسفار الأنبياء (بالعبرية : نفيئيم) .

هذا القسم يتضمن ما وقع للعبرانيين من أحداث بعد موت موسى حتى هدم الهيكل المقدَّس . وهو يغطي فترة زمنية تمتد بين سنة ١٣٠٠ وسنة ٢٠٠ ق . م تقريباً ، وينقسم إلى قسمين :

١ ـ الأنبياء الأولون أو المتقدمون (نفيئيم ريشونيم) ، وعدد أسفاره ستة : سفر يشوع (يوشع بن نون) الذي يروي قصة احتلال جماعة يسرائيل أرض كنعان وتقسيم الأرض بين الأسباط أو القبائل العبرانية ، وسفر القضاة الذي يذكر أسماء القضاة وتاريخ جماعة يسرائيل في عهدهم وانتصارهم على الفلستيين ، وسفرا صموئيل : وهما (الأول والثاني) اللذان يعالجان تأسيس المملكة العبرانية المتحدة وقصة داود ، وسفرا الملوك (الأول والثاني) وهما يغطيان فترة حكم داود وسليمان وسقوط المملكة الشمالية ثم المملكة الجنوبية .

٢ ـ والأنبياء الآخرون أو المتأخرون (بالعبرية : نفيئيم أحرونيم) : وهذا القسم يضم مجموعة من النبوءات والمواعظ والقصص ، وعددها خمسة عشر سفراً ، منها ثلاثة لأنبياء كبار (أشعياء ، وإرميا ، وحزقيال) ، واثنا عشر لأنبياء صغار (هوشع ، ويوئيل ، وعاموس ، وعوفديا ، ويونس [وهو نبي مرسل إلى نينوي وليس إلى جماعة يسرائيل] ، وميخا ، وناحوم ، وحبقوق ، وصفنيا ، وحجاي ، وزكريا ، وملاخي) .

وتتبع أسفار موسى الخمسة وأسفار الأنبياء نسقاً تاريخياً متصلاً يحكي تاريخ العبرانيين منذ ظهورهم في التاريخ حتى عودتهم من التهجير إلى بابل . وتشكل الأسفار كلها ما يشبه الملحمة ، تدور أحداثها حول عبقرية هذا الشعب المختار والمصاعب التي واجهها ، وطريقة انتصاره عليها وتحقيقه إرادته .

ثالثاً : كتب الحكمة والأناشيد (بالعبرية : كيتوفيم) ، أي «الكتابات» . وهي مجموعة من الأسفار التي تضم مواد تاريخية وقصصية وغنائية وعددها أحد عشر ، إذا اعتبرنا سفري عزرا ونحميا سفراً واحداً . وترتيب هذه الأسفار حسب ورودها في العهد القديم كما يلي :

١ ـ مزامير داود . ويُنسَب معظمها إلى داود ، وهي أناشيد شكر للإله وتراتيل روحية .

٢ ـ سفر الأمثال .

٣ ـ سفر أيوب . ويحدثنا عن حياة أيوب الصالح (ويُعتقَد أن هذا السفر من أصل عربي ، فأيوب من بني عيسو) .

٤ ـ نشيد الأنشاد . وهو من الأغاني الشعبية للأفراح والزفاف ، ويُقال إنه نشيد غزل بين الإله وجماعة يسرائيل ، ويُنسب إلى سليمان .

٥ ـ راعوث . وهي قصة بطلة ترجع إلى عصر القضاة .

٦ ـ مراثي إرميا . وهي قصائد بكاء على أورشليم (القدس) بعد تخريبها .

٧ ـ سفر الجامعة . وهو خواطر فلسفية ذات طابع عدمي .

٨ ـ سفر إستير . ويتحدث عن خلاص جماعة يسرائيل على يد إستير . ويحتفل اليهود بهذه المناسبة في عيد النصيب .

٩ ـ سفر دانيال . ويحدثنا عن سيرة هذا النبي .

١٠ ـ سفر عزرا . ويتحدث عن عودة العبرانيين (أعضاء جماعة يسرائيل) إلى أورشليم (القدس) ، وإعادة بناء الهيكل الثاني .

١١ ـ سفر نحميا . وهو يعنى أيضاً بعودة اليهود من السبي البابلي .

١٢و١٣ ـ سفرا أخبار الأيام (الأول والثاني) . وهما تلخيص

للوقائع التاريخية الواردة في العهد القديم منذ بدء الخليقة حتى السبي البابلي .

وقد أضاف المسيحيون ، إلى كل ذلك ، الكتب الخارجية أو الخفية (أبوكريفا) ، ثم أضافوا العهد الجديد ، وقد اتخذ كل هذا اسم «الكتاب المقدّس» .

ويختلف ترتيب العهد القديم عند الكاثوليك عنه عند البروتستانت ، وهذا يعود إلى أن الكاثوليك يقرون الأسفار التي وردت في الترجمة السبعينية زائدةً عن الأصل العبري ، بل يفضلونه ، ذلك لأنه ييسر عملية ربط العهد الجديد بالعهد القديم . هذا ، بينما لا يعتبر معظم البروتستانت تلك الزيادات مقدّسة ، فهي في نظرهم لا تنتمي إلى العهد القديم .

وتتضارب الآراء المتصلة بتاريخ تدوين الأسفار ، ولا تزال المسألة خلافية . وأولى المشاكل هي الإشارات العابرة في العهد القديم إلى نصوص لم تُدوَّن ، مثل : كتاب حروب الرب ، وسفر ياشر ، وسفر أخبار شمعيا ، وسفر أمور سليمان ، وسفر كلام ناثان النبي ، وسفر أخبار الأيام لملوك يهودا ، وسفر ملوك جماعة يسرائيل ، وغيرها . وتدل أسماء الأسفار السابقة على أن ملوك العبرانيين كانوا يدونون أخبارهم على عادة ملوك الشرق الأدنى القديم ، وأن كتب الأخبار وكتب الملوك الحالية هي كل ما تبقى .

والمشكلة الثانية هي أن نصوص العهد القديم تم تَنَاقُلها شفاهةً . ولذا ، فإن معظم المؤرخين يرجحون تعرُّضها إلى ما تتعرض له عادةً كل الأقوال المنقولة مشافهة ، وبالتالي دخلتها التناقضات وتداخلت النصوص والمصادر . ومن هنا ، فقد قام علم نقد العهد القديم بتطوير نظرية المصادر وتفسير التناقضات وعدم التجانس الأسلوبي .

والواقع أن تدوين العهد القديم بدأ في فترة زمنية تَبعُد عن موسى مئات السنين ، وكذلك عن كثير من الأحداث التي تم التأريخ لها . كما أن عملية التدوين لم تتم دفعة واحدة ، وإنما تمت خلال مدة زمنية طويلة . وتم اختيار بعض النصوص المقدّسة من بين نصوص مقدّسة أخرى . ويرى كثير من الباحثين أن أول جزء من العهد القديم تم تدوينه هو أسفار موسى الخمسة ، ويُقال إن هذه العملية تمت في بابل أثناء فترة التهجير (٥٨٧ ق . م) أو ربما قبل ذلك بوقت قصير ، ذلك أنه لم يأت ذكر لقراءة التوراة في الاحتفالات الخاصة بافتتاح الهيكل ، وأول إشارة إلى قراءة التوراة هي قراءة عزرا عام ٤٤٤ ق . م .

أما كُتُب الأنبياء ، فمن الأرجح أنها دُوِّنت أثناء المرحلة الفارسية فيما قبل عام ٣٣٣ ق . م . ومما يدعم هذا الرأي أن سفري الأخبار لم يحلا محل سفري صموئيل والملوك ولم يلحقا بهما ، الأمر الذي يدل على أن كتب الأنبياء كان قد تم تدوينها والاعتراف بها ككتب قانونية . ولا توجد في أسفار الأنبياء أية كلمة إغريقية ، ولا أية إشارة إلى سقوط الإمبراطورية الفارسية أو ظهور الإمبراطورية اليونانية . ولكن لابد أن ثمة فترة زمنية قد مرّت بين تدوين أسفار موسى الخمسة وتدوين أسفار الأنبياء ، ذلك لأن هذه الأخيرة لم تكن تُقرأ في الاجتماعات العامة التي وُصفت في سفر نحميا (٨ و ١٠) . كما أن السامريين الذين انفصلوا عن اليهود ، وبنوا هيكلهم في جريزيم عام ٤٢٨ ق . م ، اعترفوا بالتوراة ولم يعترفوا بكتب الأنبياء . وقد جُمعت أسفار الأنبياء ونُظِّمت خلال الفترة الممتدة من القرن السادس حتى القرن الثالث قبل الميلاد ، ويبدو أنها أُلِّفت في فترة كانت فيها أسفار موسى مجهولة منسية ، إذ يَندُر أن تجد فيها ذكراً لاسمه . ويبدو أن بعض الأنبياء أيضاً (عاموس مثلاً) لم يكن لهم به علم .

أما القسم الثالث ، وهو كتب الحكمة والأناشيد ، فقد أُلِّف بعضه أثناء عصر الأنبياء ، ولكنها لم تُضَم إلى كتب الأنبياء باعتبار أنها لم تكن ثمرة الوحي الإلهي . أما الكتب ذات الطابع النبوي ، مثل كتب دانيال وعزرا والأخبار ، فلابد أنها كُتبت في مرحلة متأخرة بحيث لم يمكن ضمها إلى كتب الأنبياء . ولقد ضُمَّت أسفار الحكمة والأناشيد ، لكنها لم تُعتَبر جزءاً من العهد القديم إلا في القرن الثاني قبل الميلاد ، فقبل ذلك التاريخ كان الحديث يتواتر عن التوراة باعتبارها أسفار موسى الخمسة والأنبياء دون إشارة إلى كتب الحكمة والأناشيد . ومن الأدلة الأخرى على أن هذه الأسفار كانت متأخرة ، وجود كلمات يونانية في نشيد الأنشاد ودانيال ، وكذلك الإشارة في سفر دانيال إلى سقوط الإمبراطورية الفارسية . ولا يشير بن سيرا إلى سفر دانيال أو إستير . وقد استمر الجدل حول أسفار مثل : الأمثال ، ونشيد الأنشاد ، وإستير ، وسفر الجامعة ، هل تُضَم مع الأسفار القانونية أم لا ؟

ويُطلَق مصطلح «كانون Canon» أي «الأسفار القانونية» ، على تلك الأسفار أو النصوص التي تم اعتمادها . أما الكتب غير القانونية ، فتُسمَّى الكتب الخارجية أو الخفية أو الكتب المنسوبة (سيودإبيجرفا) . والقواعد التي استخدمها محررو العهد القديم لضم أو استبعاد هذا أو ذاك النص غير معروفة ، ولكن يبدو أن هذه القواعد هي بشكل عام:

١ ـ أن يكون النص مكتوباً بالعبرية . ويبدو أن بداية ونهاية سفر

دانيال تُرجمتا من الآرامية إلى العبرية بسرعة حتى يمكن ضمهما إلى النص القانوني المُعتمَد .

٢ ـ أن يكون النص قد كُتب في مرحلة ما قبل النبي مالاخي ، أي في القرن الخامس قبل الميلاد ، وهي الفترة التي يرى الحاخامات أن النبوة توقفت عندها في جماعة يسرائيل .

٣ ـ أن يتفق مضمون النص مع المعايير الدينية التي تبناها الحاخامات .

ويبدو أن مشادات فقهية بين الفقهاء ، كانت تحدث من وقت لآخر ، في شأن بعض الأسفار نظراً لما تحتويه من أفكار غنوصية مثل سفر حزقيال واتفقوا في نهاية الأمر على تركه داخل إطار الكتب القانونية مع عدم تدريسه للصغار .

ولغة الكتاب المقدَّس (اليهودي) هي العبرية ، وإن كانت التراكيب والأساليب وبعض المفردات تختلف باختلاف هذه الأسفار وتنم عن الفترة التي وُضع فيها كل سفر . ومع هذا ، فإن هناك أجزاء وُضعت باللغة الآرامية . والعبرية ، مثلها مثل العربية ، تتميَّز بالعلامات الصوتية المميِّزة للحرف ، أي علامات التشكيل . ولما كان النص العبري الأصلي مكتوباً دون علامات التشكيل ، فقد كان لابد أن يتم الاتفاق على قراءة معيارية . وبالفعل ، ظهر النص المعتمد كتابةً وقراءة ، وهو الذي يُطلَق عليه مصطلح النص «الماسوري» أو «ماسوراتي» . ويُطلَق على المحققين الذين وضعوا علامات الضبط بالحركات «الماسوريون» .

وقد قُسِّم العهد القديم إلى أسفار وإصحاحات وفقرات ومقاطع في القرن الثالث عشر ، فنص التوراة الذي كُتب على لفائف التوراة لا يزال حتى الآن بدون علامات تشكيل ولا علامات فصل بين الأسفار والإصحاحات والفقرات المختلفة . وقد تُرجم الكتاب المقدَّس إلى مختلف لغات العالم تقريباً . ومن أهم الترجمات : الترجمة اليونانية ، وهي ما يُعرَف باسم «الترجمة السبعينية» ، والترجمة الآرامية وأهمها «الترجوم» ، والترجمة اللاتينية وتُعرَف باسم «الفولجاتا أو الشعبية» . كما تُرجم الكتاب المقدَّس إلى السريانية باسم «البشيطاه» ، وكذلك تُرجم إلى العربية . وأقدم ترجمة هي ترجمة سعيد بن يوسف الفيومي ، فيما نعلم ، إلا أن ثمة محاولات سابقة عُثر عليها في الجنيزاه القاهرية باللهجة المصرية العامة .

ويرى اليهود الأرثوذكس أن كلمات العهد القديم ، وأسفار موسى الخمسة بصفة خاصة ، هي كلام الإله الذي أوحى به إلى موسى حرفاً حرفاً ، وأملاه عليه حينما صعد إلى جبل سيناء ، وهو كلام أزلي لا يتغيَّر . والكتب التاريخية وأسفار الأنبياء والأناشيد والحكم ، هي الأخرى نتاج الروح المقدَّسة ، وإن كانت بدرجة أقل ، تلك الروح التي تغمر روح الإنسان فيتحدث باسم الإله . وتُعتبَر كل كلمة ، وكل جملة وردت في العهد القديم ، ذات معنى داخلي ومغزى عميق . لكل هذا ، نجد أن العهد القديم ، بالنسبة إلى اليهود الأرثوذكس ، هو السلطة العليا التي لا يمكن التشكيك فيها ، وهو المرجع الأخير في الحياة الدينية . ولكن أسفار موسى الخمسة ، مع هذا ، تظل أهم الأجزاء التي تشكل جوهر اليهودية وشريعتها .

أما بالنسبة إلى اليهود الإصلاحيين والمحافظين والتجديديين ، فإن العهد القديم يُعَدُّ مجرد إلهام من الإله وليس وحياً منه . وقد وصل هذا الإلهام إلى واضعي الكتاب المقدَّس بدرجات مختلفة . ولذا ، فإن بعض أجزاء العهد القديم ذو قيمة روحية وأخلاقية أعلى من غيره . كما لم يكن الوحي الإلهي ، أي الإلهام ، خالصاً . فقد اصطبغ هذا الوحي بصبغة إنسانية ، فلزم أن يقوم اليهودي بإعادة تفسيره ليستخلص الوحي الإلهي (المطلق) من النص الذي يضم عناصر إنسانية تاريخية (نسبية) .

ويُعتبَر العهد القديم العبري من مصادر التشريع اليهودي الأساسية ، وقد ظل قروناً طويلة يشكل المنهج الدراسي الوحيد في المدارس الدينية اليهودية ، وإلى جانبه التلمود الذي هو تفريع منه . وفي إسرائيل ، فإن منهج الدراسة يتضمن خمس ساعات أسبوعياً لدراسة العهد القديم .

كما أن الصهاينة اللادينيين يعتبرون العهد القديم وكتب اليهود المقدَّسة كتباً عظيمة تشكل جزءاً مهماً من تراث اليهود وفلكلورهم القومي وهو تعبير عن انتشار الحلولية بدون إله بين الصهاينة . وقد نشر أحد التربويين الإسرائيليين في أحد الكيبوتسات كتاباً يروي قصص العهد القديم باعتبارها أدباً من صنع البشر ، ومن ثم فإنه قد استبعد أي إشارة إلى الإله .

التوراة
Torah

«توراة» كلمة من أصل عبري مشتقة من فعل «يوريه» بمعنى «يُعلِّم» أو «يوجِّه» ، وربما كانت مشتقة من فعل «باراه» بمعنى «يُجري قرعة» . ولم تكن كلمة «توراة» ذات معنى محدد في الأصل ، إذ كانت تُستخدَم بمعنى «وصايا» أو «شريعة» أو «علم» أو «أوامر» أو «تعاليم» ، وبالتالي كان اليهود يستخدمونها للإشارة إلى اليهودية ككل ، ثم أصبحت تشير إلى البنتاتوخ أو أسفار موسى الخمسة

(مقابل أسفار الأنبياء وكتب الحكمة والأناشيد) . ثم صارت الكلمة تعني العهد القديم كله ، مقابل تفسيرات الحاخامات . ويُشار إلى التوراة أيضاً بأنها القانون أو الشريعة ، ويبدو أن هذا قد تم بتأثير الترجمة السبعينية التي ترجمت كلمة «توراة» بالكلمة اليونانية «نوموس» أي «القانون» . وقد شاع هذا الاستخدام في الأدبيات الدينية اليهودية حتى أصبحت كلمة «توراة» مرادفة تقريباً لكلمة «شريعة» .

ويُلاحَظ أنه ، داخل الإطار الحلولي ، تتداخل حدود الأشياء والدوال وتذوب المدلولات بعضها في البعض وتنفصل الدوال عن المدلولات ، وهذا ما يحدث في لفظ «توراة» مع هيمنة الحلولية بشكل تدريجي . وقد وسَّع الحاخامات معنى الكلمة استناداً إلى العقيدة أو الشريعة الشفوية الحلولية التي تساوي بين الوحي الإلهي والتفسير الحاخامي والقائلة بأن هناك توراتين أو شريعتين : واحدة مكتوبة تلقاها موسى عند جبل سيناء ، والأخرى شفوية يتناقلها الحاخامات عن موسى ، ولها نفس قداسة التوراة المكتوبة . وبهذا أصبحت كلمة «توراة» تعني «هالاخاه» ، وكل الأوامر والنواهي التي ورد ذكرها في كل من التوراة والتلمود والشولحان عاروخ وفتاوى الحاخامات وتفسيراتهم ، بل أحياناً ما ورد ذكره في الكتب القبَّالية . وقد جاء في التلمود أن الإله يقول : "ياليت الناس يهجرونني ولا يهجرون التوراة" (حجيجاه ١ / ٧) ، وهي عبارة تعبِّر عن درجة عالية من الحلولية باعتبار أن التوراة هنا مطلق منفصل عن الإله ، وربما يفوقه في الأهمية . والمقصود هنا هو التوراة الشفوية ، أي آراء الحاخامات وتفسيراتهم .

ومن ناحية أخرى ، فإن المجال الدلالي للكلمة واسع للغاية ، وقد أشار القبَّاليون إلى التوراة الظاهرية والتوراة الباطنية أو توراة الخلق (بالآرامية : توراه دى بريئاه) وتوراة الفيض (بالآرامية : توراه دي أتسليوت) . وتوراة الفيض هي التوراة التي يمكن أن يتوصل لها المفسرون العالمون بالقبَّالاه ، وهي مختلفة تماماً عن التوراة المتداولة بين اليهود ولها تعاليم وشرائع تقف الواحدة أحياناً على الطرف النقيض من الأخرى . وتُستخدَم كلمة «توراة» أيضاً للإشارة إلى سلوك أتقياء اليهود وأقوالهم باعتبارها «توراة» . وقد جاء في التلمود أن حديث من يعيش في أرض الميعاد «توراة» ، كما أن الحسيديين كانوا يقولون إن حديث بعل شيم طوف توراة ، بل كذلك حديث وأفعال كل تساديك حسيدي يلتصق بالإله !

وتحتل التوراة ، بمعنييها الضيق والواسع ، مكاناً مركزياً في الوجدان الديني لليهود ، فهي أقدم من هذا العالم ، بها ولها خلق الإله الدنيا ، وهي عروس الرب التي تجلس إلى جواره على العرش ، والتي ستُزَف إلى الماشيّح حينما يأتي إلى هذا العالم . ويُحتفظ في المعبد اليهودي بـ «تاج التوراة» ، وبمؤشر من الذهب أو الفضة على شكل يد لاستخدامه في قراءة التوراة . ومن أقدس الأماكن في المعبد اليهودي ، الدولاب المسمَّى «تابوت العهد» الذي يُحتفظ فيه بلفائف الشريعة .

وتُستخدَم كلمة «توراة» كذلك للإشارة إلى كل التراث الديني اليهودي بقضه وقضيضه ، وكل ما أوصى الإله به لجماعة يسرائيل ، أو للعالم كله من خلال جماعة يسرائيل . وفي المصادر الكلاسيكية اليهودية لم يكن يشار إلى «اليهودية» وإنما إلى «التوراة» ، بل لم يظهر مصطلح «يهودية» إلا في العصر الهيليني . ولكن ، ورغم ترادف المصطلحين ، فإن ثمة اختلافاً دقيقاً بينهما . فبينما تُستخدَم كلمة «توراة» للإشارة إلى الجوانب الإلهية الثابتة في العقيدة اليهودية ، تستخدم كلمة «يهودية» للإشارة إلى الجوانب المتغيرة التاريخية . ومن هنا يمكن الحديث عن «اليهودية الحاخامية» ، أو «اليهودية الإصلاحية» ، ولكن لا يمكن الحديث عن «التوراة الحاخامية» ، أو «التوراة الإصلاحية» .

ويرى بعض علماء اليهود أن كلمة «توراة» هي ، بالمعنى العام ، المقابل لكلمة «لاهوت» في المسيحية . فلاهوت اليهودية هو التأمل في التاريخ اليهودي والتقاليد اليهودية ، تماماً مثل اللاهوت المسيحي ، ولكنه لاهوت معلمين وحاخامات وليس لاهوت كنيسة ، جانبه الخارجي هو الهالاخاه ، أي الشريعة ، وجانبه الداخلي هو الأجاداه ، أي القصص الوعظية ، وكلاهما «توراة» .

وتُستخدَم الكلمة أيضاً للإشارة إلى مخطوط أسفار موسى الخمسة المكتوب بخط اليد (لفائف الشريعة) ، والذي يُحفَظ في تابوت العهد في المعبد اليهودي .

وكان الأطفال اليهود يتعلمون في الجيتو أن التوراة هي الشيء الوحيد الباقي ، أما العالم فزائل ، ولذا يجب على اليهودي أن ينفق كل وقته في دراستها ، وأن هذا واجب ديني نص عليه العهد القديم . وفي واقع الأمر ، لا يوجد مثل هذا النص لا في أسفار موسى الخمسة ولا في كتب الأنبياء ، ويبدو أن فكرة دراسة التوراة ذات أصل يوناني . وقد قال أحد الفقهاء اليهود إن اليهود يعملون بالتجارة والربا ، لأنهم بهذه الطريقة يحققون أرباحاً كبيرة سريعة دون أن يعملوا ، وبذلك يتفرغون لدراسة التوراة .

على أن هذه الدراسة لا تهدف إلى الخروج من الذات وتحدِّيها ، بقدر ما هي ضرب من عبادة الذات وتوثينها ، إذ أننا

نكتشف أن التوراة (مكتوبة وشفوية) ليست نتاج عبقرية الشعب فحسب ، بل هي أيضاً «جماعة يسرائيل» ، وهما معاً يكوِّنان شيئاً واحداً . ومن الواضح أن هناك جوانب قومية للاهتمام اليهودي بالتوراة ، كما هو الحال مع الأنماط الحلولية . فالحكمة ملك لكل الشعوب ، أما التوراة فهي الكتاب المقدَّس لليهود وحدهم وهي مصدر الحياة بالنسبة إليهم والشاهد على عبقريتهم الدينية وعلى اتخاذهم كشعب مختار دون سائر أهل الأرض . وتحتوي الصلوات اليهودية على شكر للإله لإرساله التوراة إلى الشعب . وحينما يُنادَى على أحد المصلين ليقرأ أسفار موسى الخمسة ، فإنه يقول : «مبارك الرب الذي خلقنا من أجل جلاله وفضَّلنا عمن ضلوا سواء السبيل ، وأرسل لنا التوراة ، وبذا غرس الحياة الأبدية وسطنا فليفتح الرب قلوبنا على التوراة» . وهكذا تكون التوراة تجسيداً لروح الإله ، ولكنها في الوقت نفسه هي الشعب الذي هو بدوره تجسيد لروح الإله ، أي أنها دائرة حلولية مقدَّسة مغلقة يعبِّر فيها كلٌّ من التوراة والشعب عن روح الإله بالدرجة نفسها .

والفقيه اليهودي الذي يربط في فتواه بين دراسة التوراة والتجارة والربا وضع يده (دون أن يدري) على العلاقة بين دراسة التوراة ودور الجماعات اليهودية كجماعة وظيفية . فالجماعات الوظيفية تعيش في بلد ما دون أن تكون منه ، ولذا فهي تحتاج إلى وطن أصلي . وفي حالة الجماعات اليهودية الوظيفية ، كانت صهيون هي هذا الوطن الأصلي الذي تشتتوا منه والتوراة (والتلمود) هو الوطن المتنقل الذي يستطيعون التمركز حوله وتطوير هويتهم وضرب أسوار العزلة حول أنفسهم من خلاله ، وهي عزلة أساسية كي يضطلعوا بدورهم . كما أن ارتباطهم بهذا الوطن يقلل حركيتهم، فهو وطن متنقل معهم .

والجدير بالذكر أن التوراة تشكل الأرضية المشتركة بين اليهود المؤمنين واليهود الملحدين ، فهما يشتركان في تقديسها . فأما المؤمنون منهم ، فإنهم يرونها مقدَّسة لأنها مرسلة من الإله . وأما الملحدون (الذين يدورون في إطار الحلولية بدون إله) ، فإنهم يقدسونها لأنها جزء من فلكلور الشعب اليهودي وتعبير عن عبقريته . والخلاف في نهاية الأمر ظاهري لأن البنية الحلولية لليهودية توحد بين الشعب والإله . وفي التراث الصهيوني ، يؤكد المفكرون الصهاينة أهمية ثالوث الشعب والأرض والإله أو التوراة إذ تؤمن الصهيونية الثقافية (اللادينية) بثالوث الشعب والأرض والتوراة ، في حين تؤمن الصهيونية الدينية بثالوث الشعب والأرض والإله (الذي يعادل التوراة) .

وفي الوقت الحاضر ، تُستخدَم كلمة «توراة» في العبرية الحديثة مرادفة لكلمة «عقيدة» أو «نظرية» ، ومن هنا يمكن الحديث عن «التوراة العلمانية» أو «التوراة الماركسية» .

الكتـــاب

The Book

«الكتاب» اصطلاح يُستخدَم للإشارة إلى العهد القديم أو إلى التوراة (بالمعنى المحدد للكلمة) ، ويتحدث بعض المفكرين اليهود والصهاينة عن اليهود باعتبارهم «شعب الكتاب» .

سفـر

Book

«سفر» وهي «سيفر» بالعبرية وتعني «كتاباً» . ويُشار إلى كتب العهد القديم بكلمة «أسفار» . ويُقسَّم السفر إلى إصحاحات ويُقسَّم كل إصحاح إلى فقرات ، وتُقسَّم كل فقرة إلى مقاطع .

إصحـاح

Chapter

تُسمَّى أقسام الكتاب المقدَّس «أسفاراً» ، ويُقسَّم كل سفر إلى إصحاحات ، ويُقسَّم كل إصحاح إلى فقرات والفقرات تُقسَّم إلى مقاطع .

أسفار موسى الخمسة

Pentateuch

«أسفار موسى الخمسة» تشكل القسم الأول من العهد القديم ، ويشمل خمسة أسفار ، هي : سفر التكوين ، وسفر الخروج ، وسفر اللاويين ، وسفر العدد ، وسفر التثنية . ويعتقد اليهود المتدينون أن الإله أنزلها على موسى في سيناء وأملاها عليه حرفاً حرفاً ، وهي تبدأ بسرد أحداث العالم منذ بدء الخليقة حتى وفاة موسى . والكلمة مرادفة لكلمة «توراه» ، وإن كانت أكثر دقة كما أن دلالاتها أكثر تحدداً قياساً إلى كلمة «توراه» فضفاضة المعنى متعددة الأبعاد والدلالات .

تنــاخ

Tanach

«تَناخ» اسم عبري للعهد القديم ، وهو مختصر من الحروف الأولى لثلاث كلمات عبرية هي : التوراة (أسفار موسى الخمسة) ،

ونفيئيم (أسفار الأنبياء)، وكتوفيم (المزامير وسفر الأمثال ونشيد الأنشاد وبقية أسفار الحكمة وغيرها).

ويُفضِّل اليهود استخدام مصطلح «تَناخ» على عبارة «العهد القديم» لأن هذه العبارة الأخيرة تفيد أن العهد الجديد قد أكمل كتاب اليهود المقدَّس وحل محله. أما مصطلح «تَناخ» فهو تعبير وصفي وحسب، وهو يخلو من أي اعتراف ضمني بقدم الكتاب المقدَّس، وبأن «العهد الجديد» قد أكمله وحل محله.

الكتاب المقدس

Bible; Holy Book; Holy Scriptures

«الكتاب المقدَّس» هو المقابل العربي للعبارة العبرية «كتيفي هاقودش». وتُستخدَم عبارة «الكتاب المقدَّس» عند المسيحيين للإشارة إلى العهدين القديم والجديد. أما في الدراسات اليهودية والصهيونية، فهي تشير إلى العهد القديم وحسب. ولذا، فقد يكون من المفيد ألا نستخدم هذا المصطلح («الكتاب المقدَّس») إلا إذا اضطرنا السياق إلى ذلك، نظراً لغموضه، ونستخدم بدلاً منه مصطلحات مثل: «العهد القديم» أو «تَناخ» أو «أسفار اليهود».

ومن أسماء الكتاب المقدَّس عند اليهود «المقرا» وتعني «القراءة» أو «المطالعة».

الإنجيل

Bible

«إنجيل» كلمة ذات أصل يوناني من كلمة «أونجليون» ومعناها «خبر طيب». والإنجيل هو الكتاب المقدَّس عند المسيحيين الذين يشيرون إليه أحياناً بكلمة «العهد الجديد»، ويتكون من أربعة أقسام، هي: إنجيل متَّى، وإنجيل مرقص، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا. وقد أطلق اليهود (بين القرنين الثالث والخامس) على الإنجيل «جليون هامينيم» أي «اللفيفة المهرطقين».

الماسوراه

Masorah

«ماسوراه» كلمة عبرية من فعل «مَسَار» بمعنى «تلقَّى» و«تناول»، ولكنها تشير إلى مجموعة القواعد التي وضعها الحاخامات عبر القرون والتي تتصل بطريقة هجاء وكتابة وقراءة العهد القديم. ويُشار إلى نص العهد القديم الذي ارتضاه العلماء ورفضوا ماعداه بأنه «النص الماسوري» أو «الماسوراتي». والكلمة لا تشير إلى نسخة العهد القديم التي جمعها عزرا، بل يضاف إلى ذلك ضبطها بالحركات، وتقسيمها إلى أسفار وإصحاحات وفقرات ومقاطع، وتعيين مواضع الفصل والوصل والوقوف عند التلاوة، وتحديد نطق بعض الألفاظ التي كُتبت بطريقة لا تؤدي إلى النطق الشرعي الصحيح. وقد استغرق إقرار هذا النص الشرعي، في صورته النهائية، عدة أجيال، واستمر حتى عهد الفقهاء (جاءونيم).

الترجوم

Targum

«ترجوم» كلمة آرامية من الأصل الفارسي «تورجمان» وهي تعني «ترجمة». ويُطلَق هذا المصطلح على الترجمات الآرامية للكتاب المقدَّس. وقد وُضعت هذه الترجمات في الفترة الواقعة بين أوائل القرن الثاني وأواخر القرن الخامس قبل الميلاد. وقد أصبحت مثل هذه الترجمة أمراً مهماً وحيوياً بالنسبة إلى اليهود، نظراً لأن الآرامية حلَّت محل العبرية بعد التهجير البابلي. فمنذ أيام عزرا، كانت تُضاف ترجمة آرامية بعد قراءة أجزاء من العهد القديم، وقد صار هذا تقليداً ثابتاً.

ومن أشهر الترجمات الآرامية للكتاب المقدَّس: ترجوم أونكيلوس لأسفار موسى الخمسة وحدها، وترجوم يوناثان لبقية أسفار العهد القديم. ويُعتقَد أن آرامية الترجوم كانت مُتكلَّفة إلى حدٍّ ما. وسعت التراجم الآرامية إلى إضفاء مسْحَة من ثقافة عصرها على النص فقام المترجمون بإدخال مصطلحات مثل «الجن والملائكة» بديلاً عن الإشارة إلى الرب مجسداً.

الفولجاتا (أو الشعبية)

Vulgate

«فولجاتا» من الكلمة اللاتينية «فولجاتوس Vulgatus» وتعني «شائع». وتُستخدَم الكلمة للإشارة لترجمة العهد القديم اللاتينية التي اضطلع بها إيرونيموس (٣٤٠ ـ ٤٢٠) عن الترجمة السبعينية، ومع هذا فإنها لم تأت مطابقة لها كل المطابقة. وقد اشتملت الفولجاتا على سفرين اثنين فقط للمكابيين، مقابل أربعة في السبعينية، وحُذفت منها أسفار عزرا الثلاثة وزيد عليها سفر باروخ. وفيما عدا ذلك، لا يوجد فرق يذكر بين الترجمتين. وقد أقرت الكنيسة الكاثوليكية جميع الأسفار والأجزاء الزائدة في الترجمة اللاتينية على الأصل العبري، واعتبرتها جميعاً أسفاراً أو أجزاء مقدَّسة من أسفار العهد القديم وأجزائه. ولكن معظم البروتستانت

لا يعتبرون هذه الزيادات مقدَّسة ، وهي في نظرهم لا تنتمي إلى العهد القديم . أما اليهود ، فإنهم يدخلونها في القسم الذي يسمونه الأسفار الخارجة أو الخفية (أبوكريفا) .

البشيطا

Peshitta

«بشيطَّا» كلمة سريانية تعني «البسيطة» . وتشير إلى الترجمة السريانية للعهد القديم التي تم إنجازها في القرن الثاني بعد الميلاد من نسخة للعهد القديم تختلف عن النص القياسي (الماسوري) . ويتخذها مسيحيو سوريا والنسطوريون في العراق وفارس كتاباً مقدَّساً لهم .

الترجمة السبعينية

Septuagint

كلمة «سبتواجينت» الإنجليزية من الكلمة اللاتينية «سبتواجينتا» ومعناها «سبعون» ، وهي إشارة إلى الأسطورة القائلة بأن اثنين وسبعين من علماء اليهود قاموا بترجمة العهد القديم العبري إلى اليونانية بأمر من بطليموس فيلادلفيوس (٢٢٨ ـ ٢٤٧ ق.م) ، وهي أقدم ترجمات العهد القديم بأية لغة . وتقول الأسطورة إن كل عالم جلس في حجرته بمفرده ليترجم العهد القديم ، وعند الانتهاء وجدوا أن الترجمات كلها متماثلة . وبغض النظر عن مدى صدق الأسطورة ، فقد كان الغرض من الترجمة إلى اليونانية سد حاجة المصريين اليهود المتأغرقين الذين كانوا يجهلون العبرية تماماً بسبب اندماجهم في المحيط الهيليني ، واتخاذهم اللغة اليونانية السائدة آنذاك في حوض البحر الأبيض المتوسط لغةً لهم . وقد تمت الترجمة بالتدريج ابتداءً من القرن الثالث قبل الميلاد ، وتم الانتهاء منها في السنوات الأخيرة قبل رسالة المسيح . ولم تكن الترجمة على مستوى رفيع ، فلم يكن المترجمون ملمين بالعبرية بالقدر الكافي ، ولم تكن النصوص التي ترجموا عنها نصوصاً جيدة . كما أن المترجمين أخذوا في الاعتبار حساسيات العالم الهيليني . فمثلاً تُرجمت كلمة «الأرنب» (لاويين ١١/٦) ، وهو حيوان مدنَّس حسب الشريعة اليهودية ، بعبارة «ذو الأقدام الخشنة» لأن كلمة «الأرنب» باليونانية هي «لاجوس lagos» ، وهي أحد ألقاب أسلاف الأسرة البطلمية . وتم تغيير عبارة «أرامياً تائهاً كان أبي فانحدر إلى مصر وتغرَّب هناك» (تثنية ٢٦/٥) فصارت «أبي ترك سوريا وذهب إلى مصر» ، وذلك لإرضاء البطالمة أيضاً حيث كانت سوريا تحت حكم السلوقيين أعدائهم ، وكلمة «آرامي» تعني «سوري» وأسقط المترجمون أسماء الأعلام التي كان يتسمَّى بها الإله مثل «أدوناي» ، و«شدَّاي صباءوت» ، واستخدموا بدلاً من ذلك أسماء مثل «الإله» أو «الخالق» . وبدلاً من تأكيد خصوصية الإله وخصوصية علاقته بالشعب ، يصبح هو الكائن الأعظم للجنس البشري . وهذا يعود إلى وجود اتجاه عام في العالم الهيليني نحو تعظيم الخالق الواحد ، وكانت الآلهة المحلية آخذة في الاختفاء . كما أسقط المترجمون العبارات التي تنسب إلى الخالق صفات جسدية ، فبينما تتحدث النسخة العبرية عن أنهم «رأوا إله يسرائيل» (خروج ٢٤/١٠) ، فإن الترجمة اليونانية تتحدث عن أنهم «رأوا المكان الذي كان قد وقف فيه إله يسرائيل» . والهدف من هذا كله هو : تقريب التوراة من العقل الهيليني .

وقد تم أغرقة المصطلح تماماً في بعض الأحيان ، فتُرجمت «توراة» بكلمة «نوموس» اليونانية ، والتي تعني «قانون» . أما كلمة «إيموناه» ، وهي بمعنى «إيمان» ، فتُرجمت بالكلمة اليونانية «بيستيس pistis» وتعني «الاعتقاد» .

وتجدر بنا الإشارة إلى وجود صياغات في الترجمة السبعينية لم نجدها في النص العبري الحالي . ومع هذا عُثر على نظيرها العبري في مخطوطات قُمران ، وهو ما يؤكد اعتماد المترجمين على نصوص عبرية متعددة .

وقد تجاهل العلماء الهيلينيون العهد القديم ، ولم تصلنا أية تعليقات لهم عليه . ولكن الفقهاء اليهود في فلسطين ، قبلوا الترجمة واعتمدوها في بادئ الأمر ، فأجَّلها اليهود المتحدثون باليونانية ، واستفادت اليهودية منها في عملية التبشير . ونظراً للاختلافات بين الترجمة والنص العبري ، وهي اختلافات استفاد منها المسيحيون الأولون ، وبعد أن اعترفت الكنيسة المسيحية بالترجمة السبعينية باعتبارها الإنجيل الرسمي ، أظهر الحاخامات العداء لها ، وخصوصاً ابتداءً من عام ٧٠ الميلادي . وأصبحت الترجمة السبعينية تشبَّه بـ «العجل الذهبي» .

وقد ساهمت الترجمة السبعينية في نشر المسيحية بين اليهود المتأغرقين وبين العناصر الهيلينية في الإمبراطورية الرومانية . وتشتمل الترجمة السبعينية على عدة أسفار لا توجد في الأصل العبري الذي وصل إلينا ، وهي : سفر طوبيا ، وسفر الحكمة لسليمان ، وأسفار المكابيين وعددها أربعة أسفار ، وسفر يهوديت ، وسفر الكهنوت أو سفر الحكمة ليسوع بن سيراخ ، ونشيد الأطفال الثلاثة ، وسفر الحكماء الثلاثة ، وسفر بعل والتنين ، وثلاثة أسفار

منسوبة إلى عزرا ، وذلك زيادة على السفر المثبت في الأصل العبري ، وبعض زيادات في سفر إستير ودانيال ، وهي الأسفار التي أصبحت تشكل أبوكريفا العهد القديم (الكتب الخارجية أو الخفية) . ولقد تُرجم العهد القديم إلى اللاتينية (في الترجمة المعروفة بالفولجاتا عن الترجمة السبعينية) .

سفر التكوين

Genesis

يُسمَّى «سفر التكوين» في العبرية «بريشيت» بمعنى «في البدء»، وهي أول كلمة ترد في السفر . و«التكوين» اسم أول أسفار موسى الخمسة ، ويحكي تاريخ العالم من بدء تكوين السماوات والأرض ، وقصة آدم وحواء ، ونوح والطوفان وأولاده سام وحام ويافث ، ونسل سام إبراهيم وإسحق ويعقوب ، والعهد بين الخالق وشعبه . وينتهي هذا السفر بقصة يوسف ومجيئه إلى مصر ولحاق يعقوب وأبنائه الأحد عشر به واستقرارهم في أرض الفراعنة .

وتعكس الأجزاء الأولى التقاليد الحضارية لبلاد الرافدين بعد أن دخلت عليها العناصر التوحيدية . ويرى علماء الكتاب المقدَّس أن سفر التكوين ليس متجانساً وإنما قام بوضعه كُتَّاب مختلفون ، في حين يرى البعض الآخر أنه عمل متكامل يستند إلى فلسفة متسقة مع نفسها ، وأن تكرار بعض الأجزاء ليس إلا من قبيل الصيغة الأدبية ، وأنه وُضع في القرن التاسع قبل الميلاد ، أي بعد موسى بنحو خمسة أو ستة قرون .

سفر الخروج

Exodus

يُسمَّى «سفر الخروج» في العبرية «شيموت» ، أي «الأسماء» ، وهي كلمة مأخوذة بتركيب الحروف الأولى من كلمات العبارة الافتتاحية فيه . وسفر الخروج ثاني أسفار موسى الخمسة ، ويعرض تاريخ جماعة يسرائيل في مصر . كما يأتي فيه ذكر قصة موسى وذهابه إلى سيناء ، والوحي الإلهي الذي جاء فيه ، والعهد بين الإله وجماعة يسرائيل ، وعودة موسى إلى مصر ليساعد اليهود على الخروج من أرض العبودية . ثم تلقَّى موسى الوصايا العشر في سيناء ، وقيادته جماعة يسرائيل حتى حدود أرض كنعان . كما يشتمل السفر على طائفة من أحكام الشريعة اليهودية في العبادات والمعاملات ، وما إلى ذلك مما يشبه قوانين حمورابي ، وترد فيه أيضاً قصة عبادة العجل الذهبي وما تبع ذلك من محاولات تطهير الدين .

ويرى علماء الكتاب المقدَّس أن ثمة مصادر عديدة لهذا السفر ، وأنه وُضع نحو القرن التاسع قبل الميلاد ، أي بعد موسى بنحو خمسة أو ستة قرون .

سفر العدد

Numbers

يُسمَّى «سفر العدد» بالعبرية «بميدبار» ، أي «في البرية» ، وهي أول كلمة ترد في السفر ، وسفر العدد رابع أسفار موسى الخمسة . وسُمِّي سفر العدد بهذا الاسم لأنه يشتمل في معظمه على إحصاءات عن قبائل العبرانيين وجيوشهم وأموالهم وكثير مما يمكن إحصاؤه من شئونهم كما يشتمل على أحكام تتعلق بطائفة من العبادات والمعاملات . ويأتي في هذا السفر ذكر تذمُّر جماعة يسرائيل من متابعة السير على خطوات موسى ، وهو ما أثار غضبه عليهم ، وقد دُوِّن هذا السفر بعد التهجير البابلي في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد .

سفر التثنية

Deuteronomy

يُسمَّى «سفر التثنية» بالعبرية «ديفاريم» ، أي «الكلمات» ، وهي أول كلمة ترد في السفر . وهو يُسمَّى أيضاً «مشنا توراه» ، ومعناها «إعادة الشريعة وتكرارها على جماعة يسرائيل مرة ثانية عند خروجهم من سيناء» ، أو «تثنية الاشتراع» . وهو آخر أسفار موسى الخمسة ، ويتكون من :

أ) المقدمة ، وتحوي مراجعة موسى لما حدث منذ عبور سيناء
ب) نصائح موسى الأخلاقية (ومنها إعادة الوصايا العشر) ، وتتضمن تلخيصاً للتشريع الذي قبلته جماعة يسرائيل .
جـ) خطب موسى الأخيرة .
د) أفعال موسى الأخيرة وأغنية الوداع ومعها سرد لأحداث موته .

ويختلف هذا السفر من حيث الأسلوب واللغة عن الأسفار السابقة ، بل يناقضها أحياناً . ولذا ، يرى بعض العلماء أن بعض القوانين التي أتت في سفر التثنية إنما هي من وضع مجموعة من المؤلفين قاموا بكتابة بعض الأجزاء الأخرى في أسفار موسى الخمسة . ويختلف العلماء في تحديد تاريخ هذا السفر ، فيرى بعضهم أنه وُضع أثناء عصر القضاة ، ويرى البعض الآخر أنه وُضع في وقت لاحق في أواخر القرن السابع قبل الميلاد .

سفر اللاويين

Leviticus

يُسمَّى «سفر اللاويين» في العبرية «فايقرا» أي «دعا أو نادى» وهي الكلمة التي يبدأ بها سفر اللاويين. وكان في الماضي يُعرَف باسم «تورات كوهانيم» أي «شريعة الكهنة»، وهو ثالث أسفار موسى الخمسة. ويتوقف السرد القصصي في هذا السفر ليحل محله تناول شئون العبادات، وخصوصاً ما يتعلق بالأعياد والأضحية والقرابين والمحرمات من الحيوانات والطيور وما يتعلق بالطهارة، وكذلك التعاليم الأخلاقية والنظم الاجتماعية التي لم ترد في سفر الخروج، والتعليمات الخاصة بخيمة الاجتماع.

واللاويون هم سدنة الهيكل والمشرفون على شئون الذبح والأضحية والقرابين. وثمة وحدة في الموضوع بين هذا السفر والجزء الأخير من سفر الخروج وجزء كبير من سفر العدد. ويرى بعض علماء الكتاب المقدَّس أن هذا السفر تجميع لوصايا متفرقة كُتبت على حدة في بداية الأمر. كما أن بعضهم يرى أن السفر كله لم يُكتب إلا بعد التهجير البابلي في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد.

الوصايا العشر

Ten Commandments; Decalogue

ورد في العهد القديم، في سفر التثنية، عبارة «عسِّيريت هادبروت»، أي «الكلمات العشر» التي كُتبت على لوحي حجر (تثنية ٤/ ١٣). ووردت العبارة نفسها تقريباً في سفر الخروج (٣٤/ ٢٨): «فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر». وفي اللغة الإنجليزية يُفرَّق أحياناً بين تعبير «تن كوماندمنتس Ten Commandments» وكلمة «ديكالوج Decalogue»، فتُستخدَم العبارة الأولى عادةً للإشارة إلى ما يُسمَّى بالوصايا العشر التي وردت في سفر الخروج (٢٠/ ١ ـ ١٧) أو سفر التثنية (٥/ ٦ ـ ٢١)، أما كلمة «ديكالوج» فتشير إلى الشيء نفسه في هذه الصيغة أو الصيغ الأخرى التي وردت في العهد القديم، وهي كثيرة ومتنوعة. لكن التعبيرين كثيراً ما استُخدما بشكل يفيد الترادف.

ويذهب بعض الدارسين إلى أن الوصايا العشر هي جوهر اليهودية، وروح اليهودية والقوانين اليهودية ككل؛ لكننا لا نأخذ بهذا الرأي. فاليهودية تركيب جيولوجي تراكمت داخله طبقات عديدة. والوصايا العشر بصيغها المختلفة تعبير عن الظاهرة نفسها، فهي تضم وصايا ذات توجُّه توحيدي عالمي أخلاقي، وأخرى ذات توجُّه حلولي قومي لا أخلاقي. ومن ثم يكون من الصعب الحديث عن شيء متناقض مثل الوصايا العشر باعتباره جوهر اليهودية، إلا إذا كان في ذهننا تركيبها الجيولوجي.

وثمة مشاكل عديدة تثيرها الوصايا العشر، أولاها أن من المتفق عليه في الموروث الديني اليهودي أن موسى ذهب إلى جبل سيناء، وصام أربعين يوماً، ونزلت عليه الوصايا هناك، لكنه حطمها عندما اكتشف أن أعضاء جماعة يسرائيل يعبدون العجل الذهبي، وعاد فصام أربعين يوماً أخرى، وأعطاها الإله له مرة أخرى. ولكن ليس من المعروف على وجه الدقة هل أعطاها الإله له مباشرة، وقام هو بتوصيلها للشعب أم أنه أعطاها له على مسمع من الشعب، أم أن الإله أعطاها للشعب مباشرة. وهناك إشارات عديدة إلى كل هذه الاحتمالات في سفر الخروج (١٩/ ٩ ـ ٢٥ و٢٠/ ١٨ ـ ٢)، وسفر التثنية (٤/ ١٠ و٥/ ٤ ـ ٥ و٥/ ٢٢)، بل يُقال في الاجتهادات الحاخامية إن الإله خطها بإصبعه على جانبي اللوحين (لوحي الشهادة)، أي أنها كانت صيغة مقروءة وليست مسموعة استناداً إلى النص الوارد في سفر الخروج (٣١/ ١٨، ٣٢/ ١٥ ـ ١٦).

ولكن المشكلة الأكثر حدة هي ما أثاره نقاد العهد القديم، فالإشارة الواردة في سفر الخروج إلى الكلمات العشر تتعلق بالصيغة المألوفة الواردة في سفري الخروج (٢٠/ ١ ـ ٧) والتثنية (٥/ ٦ ـ ٢١). ولكن هناك صيغة ترد مباشرة قبل عبارة «الكلمات العشر» في سفر الخروج (٣٤/ ٢٨)، وهي في سفر الخروج أيضاً وفي الإصحاح نفسه (٣٤/ ١١ ـ ٢٦)، وهي تختلف تماماً عن الصيغتين الأخريين المألوفتين شكلاً ومضموناً.

ولنبدأ بنص الصيغة غير المألوفة: «احفظ ما أنا موصيك اليوم. هأنا طارد من قدامك الأموريين والكنعانيين والحيثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين. احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض التي أنت آت إليها لئلا يصيروا فخاً في وسطك. بل تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم:

١ ـ فإنك لا تسجد لإله آخر. لأن الرب اسمه غيور. إله غيور هو. احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض فيزنون وراء آلهتهم ويذبحون لآلهتهم، فتُدعَى وتأكل من ذبيحتهم، وتأخذ من بناتهم لبنيك، فتزنى بناتهم وراء آلهتهن ويجعلن بنيك يزنون وراء آلهتهن.

٢ ـ لا تصنع لنفسك آلهة مسبوكة (أي من معدن مصهور).

أما بقية الوصايا، فجاءت على النحو التالي:

ـ تحفظ عيد الفطير (الفصح). سبعة أيام تأكل فطيراً كما أمرتك في وقت شهر أبيب. لأنك في شهر أبيب خرجت من مصر.

ـ لي كل فاتح رحم . وكل ما يُولد ذكراً من مواشيك بكراً من ثور وشاه . وأما بكر الحمار فتفديه بشاة ، وإن لم تفده تكسر عنقه . كل بكر من بنيك تفديه ولا يظهروا أمامي فارغين .

ـ ستة أيام تعمل . وأما اليوم السابع فتستريح فيه ، في الفلاحة وفي الحصاد تستريح .

ـ وتصنع لنفسك عيد الأسابيع .

ـ أبكار حصاد الحنطة وعيد الجمع في آخر السنة . ثلاث مرات في السنة يظهر جميع ذكورك أمام السيد الرب إله يسرائيل فإني أطرد الأمم من قدامك وأوسع تخومك ولا يشتهي أحد أرضك حين تصعد لتظهر أمام الرب إلهك ثلاث مرات في السنة .

ـ لا تذبح على خمير دم ذبيحتي .

ـ ولا تبت إلى الغد ذبيحة عيد الفصح . أول أبكار أرضك تحضره إلى بيت الإله إلهك .

ـ لا تطبخ جدياً بلبن أمه .

ويرى نقاد العهد القديم أن هذه الصيغة تعود إلى المصدر القيني (K) أقدم مصادر العهد القديم ، وهو مصدر يختلف اختلافاً تاماً عن المصادر الأخرى نصاً وروحاً . ويشير نقاد العهد القديم إلى هذه الصيغة باعتبارها «الوصايا القربانية» ، لأنها تحتوي على عدد كبير من الطقوس الخاصة بالأعياد والقرابين ، كما أن الأخلاقيات الواردة فيها بدائية إلى أقصى حد تعكس بيئة رعوية .

ويرى أحد نقاد العهد القديم أنه توجد صيغ أخرى مثل تلك الواردة في خروج (١٣/ ٣ ـ ١٦ ، ٢٣/ ١٠ ـ ١٩) ، وهي لا تختلف كثيراً عن الصيغة السابقة في بدائيتها ، وتعكس بيئة شمالية أكثر ثراء . كما يشيرون إلى صيغ أخرى موجودة بشكل متناثر في سفر التثنية . ويُفسِّر تعدُّد الصيغ بالإشارة إلى الثورات المختلفة في المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية ضد العبادات الأجنبية ، وأن كل ثورة كانت تؤكد صيغة جديدة .

وأهم الصيغ التي وردت هي ، كما تقدَّم ، في سفري الخروج (٢٠/ ١ ـ ١٧) والتثنية (٥/ ٦ ـ ٢١) ، والصيغتان متشابهتان تماماً إلا في تفاصيل قليلة لا دلالة لها ، باستثناء الوصية الثالثة حيث نجد أن ثمة اختلافاً جوهرياً بين الصيغتين ، والوصيتين التاسعة والعاشرة حيث هناك تباينات لفظية . وقد أوردنا فيما يلي الصيغة الأولى بأكملها ، بعد أن أثبتنا بين قوسين في السياق الوصايا الثالثة والرابعة والتاسعة والعاشرة في صياغتها الأخرى :

ثم تكلم الإله بجميع هذه الكلمات قائلاً : أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية :

١ ـ لا يكن لك آلهة أخرى أمامي . لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض . لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي . وأصنع إحساناً إلى ألوف من محبي وحافظي وصاياي .

٢ ـ لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً . لأن الرب لا يبرئ من نطق اسمه باطلاً

٣ ـ اذكر يوم السبت لتقدسه . ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك . وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك . لا تصنع عملاً ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك . لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع . لذلك بارك الرب يوم السبت وقدَّسه [وأما اليوم السابع فسبت للرب إلهك لا تعمل فيه عملاً ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وثورك وحمارك وكل بهائمك ونزيلك الذي في أبوابك لكي يستريح عبدك وأمتك مثلك واذكر أنك كنت عبداً في أرض مصر . فأخرجك الرب إلهك من هناك بيد شديدة وذراع ممدودة . لأجل ذلك أوصاك الإله إلهك أن تحفظ يوم السبت] .

٤ ـ أكرم أباك وأمك لكي تطول على الأرض التي يعطيك الرب إلهك [أكرم أباك وأمك كما أوصاك الرب إلهك لكي تطول أيامك ولكي يكون لك خير على الأرض التي يعطيك الرب إلهك] .

٥ ـ لا تقتل .

٦ ـ لا تزن

٧ ـ لا تسرق .

٨ ـ لا تشهد على قريبك شهادة زور .

٩ ـ لا تشته بيت قريبك [لا تشته امرأة قريبك]

١٠ ـ لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك [لا تشته بيت قريبك ولا حقله ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا كل ما لقريبك]» .

ويمكن تقسيم الوصايا على النحو التالي من (١) إلى (٣) : وصايا تختص بعلاقة الإنسان بالإله . وبقية الوصايا تختص بعلاقة الإنسان بالإنسان . وتبدأ الوصايا بالإله يُعرِّف نفسه ، وأهم سماته هي مساهمته في التاريخ اليهودي ، فهو يُعرِّف نفسه بأنه الإله الذي «أخرجك من أرض مصر وأرض العبودية» . أي أن ديباجة الوصايـ العشر ذات طابع حلولي ترسِّخ الإحساس بالعلاقة الخاصة بالإل

الذي يتدخل في التاريخ لصالح جماعة يسرائيل ، وتعمّق الإحساس بكره الأغيار (المصريين) . كما يُلاحظ أن فكرة التوحيد ليست كاملة، إذ أن هذه الوصية تعترف ضمناً بوجود آلهة أخرى . أما الوصية الأولى ، فهي تتحدث عن الإله الغيور الذي يتعقب ذنوب الآباء في الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع من أعدائه ، وهي بذلك تنسب صفات بشرية إلى الإله ، وتتضمن أخلاقيات بدائية إذ يصبح الشر والخير بالضرورة مسألة موروثة وليست مسألة دينية مرتبطة بقيم أخلاقية وبالاختيار والمسئولية الفردية .

أما الوصية الثالثة ، فهي الوصية التي يرد فيها تفسيران مختلفان لتقديس يوم السبت . وهذا يعود بطبيعة الحال إلى تعدُّد المصادر ، ولكن الحاخامات فسروا الاختلاف باعتبار أنه يعود إلى أن موسى حطم لوحي العهد ، فلما عاد أتى بنسخة أخرى من الوصايا ، وكانت النسخة الأخرى غير مطابقة تماماً للنسخة الأولى . وقد فسر آخرون هذا الاختلاف بأنه معجزة محضة ، فقد أرسل الإله النسختين في آن واحد . وهو التفسير الذي ساد والذي يتسق إلى حدٍّ كبير مع تركيب اليهودية الجيولوجي التراكمي الذي تتعايش داخله الطبقات المتراكمة المتناقضة . ولهذا التفسير الحاخامي الأخير دلالة خاصة . فالصيغتان الأولى والثانية ، كما بيّنا ، تتفقان في كل التفاصيل تقريباً ، إلا في الوصية الثالثة التي تختص بتقديس يوم السبت ، حيث يختلف تفسير مصدر القداسة من صيغة إلى أخرى ، فصيغة سفر الخروج (٢٠/ ١١) تورد أن الإله قد خلق الأرض في ستة أيام واستراح في اليوم السابع . أما سفر التثنية (٥/ ١٥) فيذكر أن ذلك اليوم مقدّس لأنه اليوم الذي أخرج الإله فيه جماعة يسرائيل من مصر ، أي أنه من خلال ربط الصيغتين يتم مزج المقدّس بالدنيوي والإلهي بالقومي . فقد ساوت الصيغتان الحادثة الكونية (خلق العالم أو الطبيعة) بحادثة قومية تاريخية (الخروج من مصر) في بداية التاريخ اليهودي . وهكذا ترتبط الطبيعة والتاريخ ، ويُمنَح اليهود عطلة يوم السبت لسببين : أحدهما كوني ، والآخر تاريخي يختص بالشعب المقدّس ، ولكنهما يتساويان في الدرجة . والسبت في هذا لا يختلف عن معظم الأعياد اليهودية التي هي أعياد دينية تاريخية وهي في الوقت نفسه أعياد طبيعية لا علاقة لها بالدين أو التاريخ أو الأخلاق . وفي هذا اتساق مع النمط الحلولي الذي لاحظناه ، وهو تداخل النسبي والمطلق ، والدنيوي والمقدّس ، وإضفاء مركزية كونية على التاريخ اليهودي .

وتعالج بقية الوصايا قضايا أخلاقية عامة ومهمة لتنظيم أي مجتمع ، وإن كان هناك تخصيص في الوصية الأخيرة التي توصي اليهودي بعدم ارتكاب المعاصي ضد أقاربه من اليهود ، وتلتزم الصمت تجاه الأغيار .

وثمة تشابه واضح بين الوصايا العشر في موضوعاتها وعناصرها الأساسية وأقسامها وترتيب أجزائها من جهة والمعاهدات المعروفة في حدود النصف الأول من القرن الثالث عشر ق.م . مثل المعاهدات المبرمة بين الملوك الحيثيين والدويلات الخاضعة لهم من جهة أخرى . فهذه المعاهدات تبدأ بديباجة أو مقدمة تاريخية ، يليها شروط تتعلق بحفظ المعاهدة . وقد أخذت الوصايا العشر شكل إحدى هذه المعاهدات . فالرب هو الحاكم الإلهي الذي يذكر لعبيده أفضاله عليهم ، وما أسدى إليهم من جميل ، ثم يملي عليهم شروطه ، ويهدد بإنزال العقوبات على المخالفين منهم . كما كانت مثل هذه المعاهدات تتطلب أن تُقرأ نصوص المعاهدة علناً بشكل دوري ، وأسلوب الوصايا العشر يدل على أنه يجب قراءتها بصوت عال على الملأ . وقد وُضعت الوصايا العشر في سفينة العهد التي كان يُنظَر إليها باعتبارها مسند قدم الإله . والواقع أن هذه العادة سادت الشرق الأدنى القديم حيث كانت تُودَع نسخ من المعاهدات تحت أقدام الإله الذي شهد عليها .

وثمة تشابه بين الجانب الأخلاقي في الوصايا وبين الدليل الذي كان يُوضَع بجوار الموتى في مصر الفرعونية ، ليهديهم في اليوم الآخر ، والمسمَّى «إعلان البراءة» ، الذي ورد فيه : «لم أسرق ؛ لم أطمع في شيء ؛ لم أقتل إنساناً ؛ لم أكذب ؛ لم أزن» .

وقد أصبحت الوصايا العشر جزءاً من الصلاة التي تتلى في عيد الأسابيع (عيد نزول التوراة) وهو ما يدل على أنه كان هناك عيد يسرائيلي قديم (لتجديد العهد) ، وأنه كان يتضمن قراءة نصوص الوصايا العشر . وكانت الوصايا العشر ، في الأصل ، جزءاً من الصلاة في الهيكل ، وكان اليهود يريدون أن تصبح هذه الوصايا جزءاً من الصلاة اليومية ، ولكنهم مُنعوا من ذلك ، حتى تُدحَض ادعاءات الفرق اليهودية المهرطقة التي كانت تدَّعي أنها وحدها المنزلة من الإله وما عدا ذلك فهو اجتهاد بشري ولذا فهو غير مُلزم لأحد . ورداً على ذلك ، جاء في الأجاداه أن هذه الأوامر والنواهي كانت مكتوبة على لوحي العهد في الفراغات بين الكلمات ، وهذه محاولة لخلع القداسة على الشريعة الشفوية التي يحمل الحاخامات مشعلها . ولكل هذا ، لم تُضَم الوصايا العشر إلى الصلوات اليومية . والواقع أن الأهمية الخاصة والوحيدة لهذه الوصايا هي أن المصلين يقفون عند تلاوتها في المعبد . وفي احتفالات بلوغ اليهودي سن التكليف الديني (برمتسفا) في المعابد الإصلاحية ، يقوم المُحتفَل به بتلاوتها أمام تابوت العهد .

وقد أضاف حاخامات اليهود ما يُسمَّى الأوامر والنواهي أو المتسفوت وعددها ٦١٣ . ويوجد أيضاً ما يُسمَّى شريعة نوح ، وهي تضم مجموعة من الأوامر والنواهي الملزمة لليهود وغير اليهود .

سفر أيوب

Job

«أيوب» اسم لا يُعرَف معناه على وجه الدقة ، ليس له اشتقاق عبري ، أشار جيزينوس إلى أنه من أصل عربي من آب بمعنى رجع/ عاد/ تاب ، ولعله قريب من اللفظة العربية «أيب» بمعنى «الراجع إلى الإله أو التائب» ، و«أيوب» اسم سفر يعالج مسألة عذاب الأبرار ، وتدور أحداثه حول رهان بين الإله وبين الشيطان الذي سُمح له بأن يختبر إيمان أيوب . وابتلي أيوب ، ففقد ممتلكاته وحُرم من أسرته وأصيب في جسده . وتلت المقدمة حوارات شعرية بين أيوب وثلاثة أصدقاء جاءوا لمواساته . ويضم السفر إشارات عديدة يُفهم منها إنكار البعث والحياة في الآخرة ، وأن الثواب والعقاب يقتصران على الحياة الدنيا . ومع هذا ، يظهر الإله لأيوب في العاصفة ويوجه إليه اللوم على الاعتراض على حكمه ، فعقل الإنسان قاصر عن إدراك حكمة الإله ولذا لا يحق له أن يعترض على حكمه ، فيتوب أيوب وينيب ويعود إلى نجاح فاق نجاحه الأول .

ولا توجد أية إشارة إلى يهوه في الحوار الشعري الذي يدور في السفر ، ولا إلى تاريخ جماعة يسرائيل ، ولا إلى أيٍّ من شرائعهم ، إذ أن تناول القوانين الأخلاقية يتم بشكل إنساني عام . كما أن السفر خال من الزخارف اللفظية ، من الصور التي تسم الأسفار ذات الأصل العبراني . كل هذا حدا ببعض الباحثين إلى القول بأن الكتاب من أصل أدومي أو تقليد لنص أدومي . ولم يُحدَّد ، على وجه الدقة ، تاريخ كتابة السفر ، فالبيئة والظروف التي يتحدث عنها تشبه البيئة والظروف التي عاش فيها الآباء الأولون . ولذلك يُحتمَل أنه يرجع إلى الألف الثاني قبل الميلاد ، وإن كانت هناك آراء تذهب إلى أنه وُضع في تاريخ متأخر من القرن الرابع قبل الميلاد ، وربما بعد ذلك .

وكان الكاهن الأعظم يتلو سفر أيوب في يوم الغفران . ولا يزال السفارد يقرأونه في التاسع من آب .

سفر الأمثال

Proverbs

يُسمَّى «سفر الأمثال» بالعبرية «ميشاليم» وهو يضم مجموعة من الأمثال ، ويتناول موضوعات مختلفة مثل : مخافة الإله ، وطاعة الوالدين ، واحترام المعلمين ، والنهي عن المنكر ، والأمر بالعدل ، والصبر ، وعدم الغش في الكيل ، والتبصُّر في الأمور . ويؤكد السفر أن الصالحين من العلماء سيُكافأون وأن الصالحين من الجهلاء سيُجازون . والتوجه الأخلاقي للسفر فردي إنساني وليس قومياً . كما يخلو السفر من النهي عن عبادة الأوثان . وتُنسب معظم أجزاء السفر إلى سليمان . كما تُنسب أجزاء أخرى إلى مؤلفين آخرين حُذفت أسماء بعضهم ولم تُحدَّد أسماء البعض الآخر . ويشبه السفر كتب الحكم والأمثال المصرية ، كما يُلاحَظ تأثره بأدب الأمثال الكنعاني والآشوري . ويختلف ترتيب مجموعات الأمثال في النسخة العبرية عن ترتيبها في الترجمة السبعينية ، الأمر الذي يدل على تعدُّد المصادر .

وينسب الحاخامات نشيد الأنشاد وسفر الأمثال وسفر الجامعة إلى سليمان ، فيقولون إنه وضع الأول في شبابه ، والثاني في تمام عقله وحكمته ، والثالث في شيخوخته .

سفر الجامعة

Ecclesiastes

ويُسمَّى بالعبرية «قوهيليت» أي «الجامعة» ، وهو رابع المجلات الخمس ، وأحد أسفار العهد القديم ، يحاول واضعه أن يُعرِّف معنى الحياة وهدفها ، ولكنه يرى أن كل شيء باطل وعبث ، فيسقط في العدمية والحسية والقدرية ، وشعاره هو «باطل الأباطيل ، كل شيء باطل» ، فكل شيء مقرَّر من قبل لا مجال للاختيار الإنساني . ويرى صاحب السفر أن الحكمة والمعرفة لا جدوى من ورائهما ، فلا فرق بين الحيوان والإنسان ، ولا حساب بعد الموت ، ولذا فيوم الوفاة خير من يوم الميلاد ، وأن يذهب الإنسان للعزاء خير من أن يذهب ليبارك مقدم مولود . وثمة تَماثُل في بعض الوجوه بين سفر الجامعة وبين الفلسفة اليونانية ، إذ يقول بركليس : «إن الخير كل الخير ألا يولد الإنسان أصلاً ، ولكن ما يلي ذلك هو أن يموت الإنسان صغيراً» . وقد ضُمِّن السفر في العهد القديم برغم رؤيته اللادينية . ويبدو أنه قد وُضع في القرن الثالث قبل الميلاد ، وكُتب في أسلوب دقيق سهل ناصع ، ولغته قريبة من عبرية المشناه . وينسب اليهود نشيد الأنشاد إلى سليمان ، وكذلك سفر الأمثال وسفر الجامعة . ويقولون إنه كتب الأول في شبابه والثاني في تمام عقله وحكمته والثالث في شيخوخته . ويُقرأ سفر الجامعة في عيد المظال .

سفر المزامير
Psalm

ويُسمَّى بالعبرية «تهيليم» أي «المزامير» . سُمِّي «سفر المزامير» بهذا الاسم لأنه يحوي مجموعة من الأغاني تُنشَد بمصاحبة المزامير . وتُقسَّم المزامير إلى خمس مجموعات (١) ، (٤٢) ، (٧٨) ، (٩٠)، (١٠٧) ، وتُختَم كل مجموعة بتسبيحة شكر . وقد نُسبت المزامير أساساً إلى داود ، ولكن بعضها نُسب إلى سليمان أو مؤلفين آخرين ، كما أن بعضها لا يُنسب إلى أحد . ويتناول هذا السفر موضوعات كثيرة ، كالترانيم والأدعية والتسابيح ، والتعبير عن ثقة وإيمان المؤمنين بإله الكون ، وأغان تعبِّر عن الحزن والفرح ، وأناشيد تُغنَّى في مناسبات مثل يوم الزفاف الملكي واعتلاء العرش وفي الأعياد وأغاني الأفراح والحروب . وكان بعض المزامير يُغنَّى بشكل جماعي والبعض الآخر يُغنَّى بشكل فردي . ويشبه كثير من المزامير القصائد الأوجاريتية ، كما يظهر في المزمور رقم ١٠٤ أثر قصيدة أخناتون التي يخاطب فيها معبوده الشمس ، وتوجد أيضاً تأثيرات بابلية . ولا يُعرَف على وجه الدقة متى أصبح إنشاد المزامير جزءاً من الصلوات في المعبد اليهودي ، وإن كانت أغلبية الباحثين تميل إلى القول بأن ذلك تم بعد التهجير البابلي . وقد أصبح كثير من المزامير جُزءاً من الصلوات اليهودية والمسيحية ، نظراً لجمال بعضها وبساطته . ولكن البعض الآخر يتسم بالنزعة القومية العنصرية (بل العسكرية أيضاً) . وقد خُصِّصت بعض المزامير لمناسبات معيَّنة ولأيام محدَّدة . وفي التراث القبَّالي ، يُنظَر إلى المزامير باعتبارها «أسلحة» في يد المؤمن يبيد بها أعداءه . ومن ناحية أخرى ، فإن إصحاحات السفر مرتبة في النص العبري بطريقة تختلف في هذا السفر عنها في الترجمة السبعينية .

سفر نشيد الأنشاد
Song of Songs

بالعبرية «شير هشيريم» أي «نشيد الأنشاد» ، ويُسمَّى «نشيد الأنشاد» أحياناً «نشيد سليمان» ، وهو أولى المجلات الخمس . يضم نشيد الأنشاد قصائد حب كُتبت على هيئة حوار ، وقد فسرها البعض على أنها مسرحية شعرية ذات فصول ومناظر ، شخصياتها هي الراعية شولاميت وبنات أورشليم والراعي الشاب ، وتدور أحداثها حول غرام سليمان بشولاميت التي كانت تحب الراعي بعد أن خطبت له ، وبقيت وفية على حبها له إلى أن تزوجا في النهاية . ويرى البعض أنها مجرد أغاني حب وزفاف . وتتسم قصائد السفر بالإسراف في التعبير عن عاطفة الحب والحسية في الوصف الأمر الذي أثار الجدل حوله ، وقد تم تفسيره تفسيراً رمزياً باعتباره نشيد زفاف جماعة يسرائيل إلى الإله ، أو زفاف التوراة إلى جماعة يسرائيل . ويُعَد نشيد الأنشاد من أهم أسفار العهد القديم من منظور التراث القبَّالي لأنه يستخدم صوراً مجازية جنسية . ويُلاحَظ أن اسم الإله لم يُذكَر في هذا السفر إلا مرة واحدة (٨/ ٦) : «اجعلني كخاتم على قلبك كخاتم على ساعدك . لأن المحبة قوية كالموت . الغيرة قاسية كالهاوية لهيبها لهيب نار لظى الرب» .

ويُنسَب نشيد الأنشاد إلى سليمان ، كما يُنسَب إليه الأمثال والجامعة . ويقولون إنه وضع الأول في شبابه ، والثاني في أيام العقل والحكمة ، والثالث في شيخوخته .

سفر المراثي (مراثي إرميا)
Lamentations

ثالثة المجلات الخمس (وهو بكلمة «إيخاه = كيف» العبرية ويضم مراثي أشبه بالبكائيات على الأطلال) ، ويضم خمسة إصحاحات من المراثي تتناول هدم يهودا وأورشليم والهيكل على يد البابليين . وتقرر المراثي أن ما حدث من خراب ودمار لأورشليم ، إنما هو نتيجة أعمال قاطنيها وشرورهم . ويبكي الشاعر احتلال أورشليم ورحيل حكامها ، ويدعو إلى التوبة ويأمل في رحمة الإله وفي انتقامه من الأعداء ، وأخيراً فإنه يستعطف الإله ويرجوه إرجاع المجد القديم . وتوجد كتب مراث للمدن المهدمة في الأدب السوري والأكادي ، وكلها تتناول موضوعات مثل : المجاعة وتهديم المدينة والمعبد ونهب المدينة والأسر والنحيب ، وهو ما يشير إلى احتمال تأثيرها في مراثي إرميا . ويُنشد السفر في التاسع من آب . ومن الواضح أن له أكثر من مؤلف .

تفسير العهد القديم
Exegesis of the Old Testament

بالعبرية «بيروشيم أوبيثوريم» = «تفسيرات وشروح» ، وتُعَدُّ قضية التفسير مسألة أساسية بالنسبة للعهد القديم ، نظراً لعدم اتساقه وتعدُّد مصادره وعدم تمازجها . وتفسير العهد القديم هو ما يشكل الشريعة الشفوية التي فاقت في أهميتها (عند اليهود) الشريعة المكتوبة المتمثلة في العهد القديم . وكان أول طرح للقضية في القرن الأول قبل الميلاد ، حينما تحوَّلت قضية التفسير إلى قضية سياسية في الصراع الدائر بين الفريسيين والصدوقيين ، إذ رأى الفريسيون أن

الشريعة المكتوبة لا تكفي ، وأنه لابد من إكمالها بالشريعة الشفوية ، أي بالتفسير الحاخامي ، الأمر الذي يعني في واقع الأمر توسيع نطاق المشاركة في إدارة حياة اليهود وصياغة رؤيتهم للكون بحيث لا يستأثر الكهنة (الصدوقيون) بمفردهم بهذه العملية . وقد قدَّم الغيورون ، وخصوصاً حَمَلة الخناجر منهم ، تفسيراً شعبياً بدائياً لليهودية وجد صداه بين الجماهير اليهودية ، فاندلع التمرد الأول ضد الرومان .

وبعد استقرار اليهودية الحاخامية ، مر تفسير العهد القديم بعدة فترات . تمتد الفترة الأولى حتى القرن السادس الميلادي . وقد بدأت هذه الفترة مع تدوين العهد القديم نفسه ، إذ صاحب ذلك ظهور كتب المدراش المختلفة (بشقيها الهالاخي والأجادي ، أي التشريعي والوعظي القصصي) التي تمثل النواة الأولى للشريعة الشفوية . وقد وُضعت قواعد مختلفة للتفسير ، وظهرت مدارس مختلفة ، لكن من الواضح أن التفسير اكتسب من البداية مركزية وحل محل النص المقدَّس كمرجع نهائي . وقد ظل التفسير ينطلق من النص ويعود إليه في حلقات متداخلة حيث يفرض المفسر الرأي الراجح في تصوُّره .

وقد ظهرت مدارس مختلفة للتفسير ، منها الحرفي والمباشر (بيشاط) ، ومنها ما يحاول أن يغوص في المعنى الكامن (دراش) ، ومنها الرمزي (ريميز) ، وأخيراً هناك التفسير الذي يحاول أن يصل إلى المعنى الفلسفي أو اللاهوتي والباطني والغنوصي (سود) ، وهو أيضاً التفسير الصوفي . وقد ساد النوعان الأول والثاني في بادئ الأمر ، وفي هذه الفترة فسَّر فيلون العهد القديم تفسيراً مجازياً حاول فيه أن يوفق بين اليهودية والفلسفة اليونانية . ومن أشهر مدارس التفسير ، في هذه الفترة ، بيت شماي وبيت هليل . وقد ظهرت الحلقات التلمودية ، إبان هذه الفترة ، في فلسطين وبابل ظهرت طبقات الشارحين المختلفة : الكتبة (سوفريم) ، ومعلمي المشناه (تنائيم) ، والشراح (أمورائيم) ، والمفسرين (صابورائيم) ، والفقهاء (جاؤنيم) . ويرى بعض النقاد أن ترجمات العهد القديم ، اليونانية (السبعينية) والسريانية (البشيطّاه) واللاتينية (الفولجاتا) ، هي في الواقع من قبيل التفسير إذ أن المترجمين كانوا يضيفون أحياناً كلمات هنا وهناك لتوضيح المعنى . كما أن فكرة الكتب الخارجية والخفية (أبوكريفا) ، والكتب المنسوبة (سيودابيجرفا) ، هي أيضاً من قبيل كتب التفسير التي تلقي الضوء على نصوص الكتاب المقدَّس . ومع نهاية هذه الفترة ، جُمعت التفسيرات والفتاوى والشروح المختلفة في التلمود وفي كتب المدراش المختلفة . وبدأت التفسيرات الصوفية في الظهور ، وخصوصاً تفسيرات قصة الخلق ، كما ظهرت التأملات الخاصة بتركيب السماء والأرض .

أما في الفترة الثانية ، فقد ظهرت طرق تفسير جديدة بتأثير الحضارة الإسلامية . وعلى سبيل المثال ، ابتعد سعيد بن يوسف الفيومي عن التفسير الوعظي الملتصق بالنص ، واشتهر باستخدام المعارف الدنيوية السائدة في عصره ، وتطبيق طرق البحث الفلسفية واللغوية لتفسير العهد القديم . وقد تطورت هذه الطرق في إسبانيا الإسلامية ثم المسيحية ، حيث ظهرت جذور علم نقد العهد القديم . ووصل التفسير الفلسفي قمته في أعمال موسى بن ميمون الذي لم يكتب تفسيراً كاملاً للعهد القديم ، ولكن أعماله الفلسفية تتضمن الكثير من التفسيرات للعديد من النصوص . وقد استخدم ابن ميمون معرفته بالفلسفة الإسلامية ، والعلوم الدنيوية في الحضارة الإسلامية التي عاش في كنفها ، ليقدم تفسيراً عقلانياً لا يستبعد الجوانب الرمزية ، بل يستفيد من معرفة قوانين المنطق واللغة . أما في أوربا الغربية ، فقد انحصر راشي (في القرن الحادي عشر) داخل نطاق التفسير الحرفي والمباشر ، فلم يرجع إلا لكتب المدراش ، وكانت تفسيراته ذات طابع لغوي ضيق .

ومما يجدر ذكره أن الطبقة الحلولية داخل التركيب الجيولوجي اليهودي اكتسبت مركزية وأهمية في هذه الفترة . ويتبدى هذا في هيمنة الشريعة الشفوية التي تذهب إلى أن التفسير البشري أهم من الوحي الإلهي . ولذا نجد أن الحاخامات أعطوا أنفسهم الحق في إصدار تفسيرات وتشريعات لا تستند بالضرورة إلى النص وتهدف ، في تصوُّرهم ، إلى حماية الأوامر التوراتية . كما يُلاحَظ أن تفسيرات الحاخامات لها منزلة أعلى من النص نفسه . فإن تناقضت أحكامهم مع أحكام التوراة ، أي مع كلمات الإله ، فإن تفسيرهم يكون التفسير الملزم لأن التوراة ، بعد أن أعطاها الإله للإنسان ، أصبحت خاضعة لتفسيره . وقد جاء في التلمود أن الإله وافق على أنه يجب أن يُفسِّر الحاخامات ما قاله هو . وعلى كلٍّ تقرر الشريعة الشفوية أنها تصدُر عن الإرادة الإلهية ، شأنها في هذا شأن الشريعة المكتوبة ، الأمر الذي عارضه السامريون والقرّاءون . وقد شهدت هذه الفترة هيمنة التلمود (ثمرة الشريعة الشفوية) بحيث حل محل العهد القديم باعتباره أهم كتب اليهود المقدَّسة .

ويُقسِّم التلمود اليهود وفق ترتيب هرمي حدِّي يتناسب مقدار الصعود أو الهبوط فيه تناسباً طردياً مع مدى التعمق في التفسير ومن ثَمَّ درجة الحلول الإلهي في التفسير . فأقل اليهود منزلة هم الجهلاء الذين لا يعرفون العهد القديم ولا تفسيراته ، يعلوهم أولئك الذين

يعرفون العهد القديم ، ثم أولئك الذين يعرفون المشناه والأجزاء الوعظية القصصية (الأجادية) منها أو تلك الموجودة في الجماراه . أما أعلى اليهود منزلة ، فهم أولئك الذين يعرفون الأجزاء التشريعية (الهالاخية) من المشناه والجماراه ويفسرونها . وهذا الترتيب الهرمي يبين مدى علاقة التفسير بالسلطة بحيث نجد أن الحاخامات (مفسري الشريعة) ، أصحاب الشريعة الشفوية ، يقفون على قمة الهرم . وقد سادت القرن الثامن عشر طريقة البيلبول ، وهي طريقة في التفسير تهدف إلى إبراز براعة المفسر ومقدراته ، بغض النظر عن مدى صدق تفسيره أو مطابقته للنص .

وقد انفصلت الدراسات التلمودية تماماً عن الواقع ، أي واقع ، بحيث انغمست في الاعتبارات المنطقية التي لا يربطها أي رابط مع مشاكل أعضاء الجماعات اليهودية وحياتهم . وعلى سبيل المثال ، فمن الضروري ألا يتزوج الكاهن الأعظم إلا عذراء . ورغم هدم الهيكل وانتهاء العبادة القربانية ، فإن التلمود والحاخامات استمروا في مناقشة أدق التفاصيل الخاصة بذلك التحريم ، مثل محاولة تعريف العذراء . ويتساءل التلمود عن امرأة تمزّق غشاء بكارتها بسبب حادث وقع لها ، فتطرح أسئلة مثل : هل وقع الحادث قبل أو بعد سن الثالثة ؟ وعن طريق جسم معدني أو خشبي ؟ وهل وقع الحادث بسبب تسلّق شجرة ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فهل وقع الحادث أثناء صعودها أم أثناء نزولها من الشجرة ؟ وذلك إلى جانب عشرات من الأسئلة الأخرى .

ومع الدراسات التلمودية ، نشأت التفسيرات الصوفية القبّالية في القرن الرابع عشر ، جنباً إلى جنب ، وأخذت في الانتشار حتى سادت تماماً مع بدايات القرن السابع عشر ، واتبعت منهجاً حلولياً باطنياً في التفسير . والحلولية لا توحد الإله والطبيعة وحسب ، وإنما توحد الكل والجزء كذلك ، ولذا تصبح المادة والأجزاء ، داخل الإطار الحلولي ، إما الجسد الإلهي نفسه أو مادة مقدّسة مُستمَدة من الإله لها معنى رمزي باطني ، ولكن المفارقة تكمن في أنها قد تصبح عكس ذلك تماماً ، مجرد مادة خام يسبر عقل الإنسان المقدّس أغوارها ويشكلها حسب هواه ويفرض عليها أي معنى باطني يعن له باعتبار أن الإنسان تجسُّد للإله الذي حل فيه .

ويُلاحَظ أن علاقة الدال بالمدلول داخل الإطار الحلولي تضطرب تماماً وتعكس الموقفين المتناقضين نفسيهما ، فقد يلتصق الدال بالمدلول (التصاق أو توحُّد التوراة مع الإله) ليصبح الدال أو النص (مثل جسد الإله) مقدّساً ويشمل كل شيء ، أو العكس إذ يصبح الدال ظاهرياً جافاً منفصلاً عن مدلوله (الحقيقي) ومن ثم يفرض المفسر عليه أي معنى يشاء (وهذا يعني موت النص وهيمنة المفسر) . وفي التراث القبّالي ، كل شيء انعكاس لشيء آخر بسبب اختفاء الحدود في النسق الحلولي وذوبان الكل في الجزء واختفاء الثغرة ، ولذا يمكن أن يدل أي دال على أي مدلول . كما أن الرمز ، لهذا السبب ، يصبح أحياناً هو المعنى نفسه (مثل الصليب أو الأيقونة) . وثمة تشابه بين هذه الطريقة في التفسير وبين بعض أطروحات المدرسة التفكيكية التي أسسها جاك دريدا ، وخصوصاً مفهوم «لا ديفيرانس La differance» ، وهي كلمة مركبة تفيد الاختلاف والإرجاء ، أي أن كل دال مختلف عن أي دال آخر ، ومع هذا فهو على صلة بكل الدوال الأخرى فمعناه النهائي مختلف ومرجأ ، ولذا نعبِّر عن هذا المفهوم بكلمة «الإخترجلاف» . وفي كلتا الحالتين ، يحاول المفسر أن يصل إلى المعنى الباطني وهو الغنوص الكامل الذي يمكن التحكم من خلاله في الإله ومن ثم في الكون .

وتذهب إحدى مدارس التفسير القبَّالية إلى أن التوراة عبارة عن مجرد مادة خام (هيولي) يشكلها المفسر القبَّالي بالطريقة التي يراها حسب هواه . وقد ذكر إسحق لوريا أن للتوراة ستمائة ألف معنى أو وجه ، وهذا العدد هو نفسه عدد أعضاء جماعة يسرائيل الافتراضي في سيناء حين أوحى الإله إلى موسى بالتوراة . ومعنى هذا أن لكل يهودي تفسيره الخاص ، أو كما يقول لوريا : كل يهودي يقرأ التوراة بطريقته ، حسب «جذره» . وقد اتبع القبَّاليون منهج الجماتريا في التفسير وهو حساب القيمة الرقمية للأعداد وتحوير معاني المفردات ، بحيث يستنطقها المفسر بما يريد من مدلولات ، الأمر الذي يعني أن النص المقدَّس ينطق بما يراه المفسر .

وقد تعمقت الحلولية وازداد المجال الدلالي اضطراباً مع هيمنة القبَّالاه التي يدور موقفها من التوراة حول موضوعين أساسيين : أولهما أن «التوراة» اسم للإله أو دال عليه . ويُنظَر في التراث اليهودي إلى هذا الاسم باعتباره أعلى تركيز للمقدرة الإلهية (وهي فكرة لها علاقة بالسحر وبالتأمل الباطني) ، ومعنى ذلك أن التوراة ليست مجرد مادة خام بل لم تَعُد كتاباً ينقل معنىً أو مدلولاً محدداً ، وإنما هي وحدة صوفية تهدف إلى التعبير عن قدرة الإله المتركزة في اسمه ، وما القصص والمواعظ والمعاني التي ترد فيها سوى رداء خارجي للاسم المقدَّس . وحينما كان القبَّاليون يشيرون إلى أن التوراة هي «اسم الإله» ، فإنهم لم يكونوا يعنون بذلك أنها اسم يُنطق به ، وإنما كانوا يعتقدون أنها الوجود الإلهي المتسامي نفسه ، أي أنها هي نفسها اللوجوس أي تجسُّد الإله وليس مجرد دال عليه أو رسالة منه (في التفسيرات المسيحية يُنظر إلى النص باعتباره قصة

رمزية بسيطة ، بالإنجليزية : أليجوريكال allegorical) ، أي أن علاقة المستوى الرمزي بالمستوى الواقعي علاقة مباشرة وواضحة ، ومن ثم فأحداث القصة علامات تشير إلى مغزى أخلاقي رمزي آخر ، فتكون أحداث القصة الدال الذي يشير إلى مدلول وراءه) . وقد جاء في الأجاداه أن التوراة أداة الإله في خلق العالم ، كما جاء في أحد كتب المدراش أن الإله نظر إلى التوراة ثم خلق العالم ، أي أن القانون الذي يحكم العالم يوجد في التوراة ، وهنا يتداخل التأمل مع السحر . وتعبِّر التوراة عن الحياة الداخلية للإله ، بل هي جزء منه . ومن هنا ، فإن الإشارة كانت إلى التوراة الكونية (توراة قيدوماه) باعتبارها أحد التجليات النورانية العشرة (سفيروت) . ومن هنا ، كان الحديث عن أن التوراة هي الإله ، حروفها جسده ومعناها روحه .

أما الموضوع الثاني ، فهو أن التوراة كيان عضوي حيّ ، وهذه فكرة نابعة من الفكرة السابقة . فالتوراة اسم ، ولكنه اسم على هيئة كيان حيّ ، ولذا يشار إليها بأنها شجرة الحياة تظهر على هيئة إنسان . وهنا يتحد كل من التوراة وجماعة يسرائيل . فالتوراة التي تجسد الإله متوازية مع الشعب ، والشعب هو الشخيناه التي هي أحد تجليات الإله . وبالتالي ، فإن الشعب أحد التجليات النورانية ، أي أنه جزء عضوي من الإله .

وقد امتد هذا التصور ليشمل فكرة التوراة الشفوية التي تعتبر الكل الذي يضم مختلف فتاوى الحاخامات . والتوراة الشفوية هي التي تكمل التوراة المكتوبة وتجعلها متعيِّنة ، أي أن التوراتين تمثلان كلاً عضوياً ، وكل منهما تكمل الأخرى ولا يمكن تصوُّر الواحدة منفصلة عن الأخرى . وقد قرن القبَّاليون التوراة المكتوبة بالتجلي النوراني المسمَّى «تفئيرت» (الإله من حيث هو عنصر مذكر) ، في حين تكون التوراة الشفوية الوعاء المتلقي أو الشخيناه ، أي جماعة يسرائيل (الإله من حيث هو عنصر مؤنث) ، ومعنى هذا أن الإله والتوراة والشعب يكوِّنون كلاً عضوياً . والواقع أن مضامين الفكرة جادة وخطيرة للغاية ، فالتوراة المكتوبة تكتسب مضمونها من خلال التوراة الشفوية وليس العكس . ويكتسب الإله هويته من خلال الشخيناه (الشعب) وليس العكس (وهنا يتبدَّى النمط الحلولي الكامن الذي يبدأ بحلول الإله في الإنسان ، ولكنه يصبح دونه مرتبةً ومنزلةً ومعتمداً عليه) . والشيء نفسه يُقال عن التوراتين ، فالتوراة الشفوية (التي وضعها الإنسان) تفوق التوراة المكتوبة المرسلة من عند الإله . وقد قال نحمانيدس إنه جاء في الأجاداه أن التوراة كُتبت بنار سوداء على نار بيضاء ، ولذا فإن حروف التوراة المكتوبة لا معنى لها دون المفسرين ، فهم يكتشفون التوراة المكتوبة بالنار البيضاء الخفية التي لا يمكن إلا لكبار المفسرين قراءتها ، إذ أن التوراة التي بين أيدينا مكتوبة بالحروف السوداء التي تعطي معنى مباشراً عادياً ، أي أنه ليست هناك سوى التوراة الشفوية في نهاية الأمر . بل إن نحمانيدس يذهب إلى القول بأن كتابة التوراة كانت متصلة بدون أي فراغ بين الكلمات ، أي أنها كلمة واحدة متصلة الأمر الذي يجعل من الممكن قراءتها : إما بالطريقة التقليدية كتاريخ ووصايا ، أو بالطريقة الباطنية كأسماء للإله . وجاء أيضاً أن موسى تلقى التوراة التي تقرأ كوصايا ، ولكن التوراة الشفوية هي التي ستمكنه من قراءتها بوصفها أسماء للإله . وقال بعض القبَّاليين بنظرية الحرف الناقص ، وهو حرف الشين الغائب أو الباطني الذي له أربع أسنان على عكس الشين العبرية الظاهرة التي لها ثلاث أسنان فقط ، مثلها مثل الشين العربية . ويقول البعض الآخر بأن ثمة حرفاً ناقصاً من العبرية المعروفة لنا ، وسيُكشف هذا الحرف المختفي في الدورة الكونية المقبلة ، ولكنه يمكن أن يكشف للعارفين المقبَّلاه في الدورة الكونية الحالية . وحسب هذه النظرية ، فعند قراءة أوامر ونواهي التوراة ، تكون النواهي مرتبطة بهذا الحرف الناقص ، فإن وُضع في موضعه فإن الأوامر مثل «لا تسرق ، لا تزن» ستتحول إلى دعوة للإباحية بمعنى «فلتسرق ، ولتزن» . وستظهر هذه التوراة الكاملة السفلى في العصر المشيحاني .

وقد طوَّر القبَّاليون فكرة التوراتين على أسس جديدة ، فآمنوا بوجود توراتين : توراة الخلق الظاهرة (توراه دي برياه) ، وتوراة الفيض الباطنة (توراة دي أتسيلوت) . وهاتان التوراتان ، على عكس التوراة المكتوبة والشفوية ، كلمتهما واحدة ولكن ثمة معنى خفياً وراء النص الظاهر لا يمكن أن يصل إليه سوى المشايخ ومن هم في منزلته . والواقع أن توراة الخلق هي توراة هذا العالم المكتوبة على رقائق الجلد والورق وتحوي الأوامر والنواهي والتحريمات . أما توراة الفيض الكاملة ، فهي توراة عالم الخلاص ، توراة الحرية وعدم التقيد بأية حدود أو أوامر ، توراة الإباحة الكامنة وراء توراة الخلق . ولذا ، فإن من يدرك كنهها ، مثل شبتاي تسفي وفرانك ، يتحلل تماماً من الشريعة .

ويمكن القول بأن ثمة نمطاً كامناً وراء كل التفسيرات الحلولية يفترض أن ثمة تساوياً بين الإله والتوراة والشعب بحيث يصبح الشعب إلهاً ، وهو ما يؤدي إلى الإباحية التي تؤدي بدورها إلى الإباحية الكاملة . ويتحدث التراث القبَّالي عن حادثة طرد آدم من الجنة ، وكيف أنه بعد أن أكل من شجرة المعرفة اكتشف عورته التي بدا له أنها خطيئة ، ولذا اضطر إلى ارتداء ثوب ليستر به عورته

(معرفته) . وبالمثل ، فإن الشخيناه التي تتجسد في التوراة ، والتي ترافق جماعة يسرائيل في منفاها ، بل تصبح هي نفسها كنيست يسرائيل ، تصبح في حاجة إلى الثياب لكي تغطي بها أصلها الحقيقي . ومن ثم ، فإنها ترتدي ملابس الحداد الكئيبة (الأمر الذي يوضح أثر فكرة السقوط المسيحية وفكرة الجسد من حيث هو خطيئة) . والتوراة/ الشخيناه ترتدي هي الأخرى الثياب التي تتمثل في الأوامر والنواهي التي ينبغي على اليهودي مراعاتها في عالم المنفى ، أي في عالم السقوط (إذا استخدمنا المصطلح المسيحي) . أما في عصر الخلاص أو العصر المشيحاني ، فإن التوراة التي بين أيدينا (توراة شجرة المعرفة المغطاة برداء من الوصايا) سوف تتجرد من ملابسها لتظهر التوراة الحقيقية (توراة شجرة الحياة) ، ومن ثم تكون العودة إلى الحالة الفردوسية (قبل السقوط) حين كان آدم وحواء يقفان عاريين دون حاجة إلى ثياب تستر عورتهما ، أي أن كل شيء ينتهي في الفردوس ليسود الحلول الإلهي الكامل ويترسخ إلغاء الشريعة والإباحية والترخيصية ، ويباح كل شيء .

ومعنى التوراة الخفي ، الذي لا يدركه سوى العالمين بأسرار القبَّالاه ، مرتبط بفكرة الدوائر الكونية التي تتكون كل واحدة منها من سبعة آلاف عام ، وكل واحدة تتكون من وحدات من سبعة أعوام ، والتاريخ يتكون من سبع دورات كونية ، ويُقال إننا في ثاني هذه الدورات . وفي كل دورة تأخذ التوراة شكلاً محدداً ، والتوراة التي بين أيديَ اليهود هي مجرد شكل للتوراة في دورتها الحالية ، ولكن هذا الشكل ليس الشكل الأوحد أو النهائي لها ، فلكل دورة كونية توراتها ، ولكل توراة معنى مختلف تماماً .

ويؤكد التراث القبَّالي وجود درجات وطبقات للمفسرين تعبِّر عن درجات القداسة أو الحلول الإلهي ، أهمها هو من «يعرف التوراة وجهاً لوجه» . وقد جاء في التوراة أن موسى عرف الإله وجهاً لوجه ، أي رآه رؤية العين . ولكن كلمة «عرف» تعني في العهد القديم ، «نكح» : «وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين» (تكوين ٤/ ١) . وفي التراث اليهودي الصوفي ، يُقال إن موسى عرف الشخيناه ، أي الحضرة الإلهية ، بمعنى أنه ضاجعها ونكحها . وكذلك تفسير التوراة ، فمن يعرفها وجهاً لوجه يكون كمن نكحها . وتصور القبَّالاه مراحل التفسير مستخدمة هذه الصورة المجازية الجنسية . فالعابد يدخل مخدع حبيبته التوراة ، فتقف من خلف حجاب كثيف ، وكلما تعمَّق في القراءة وغاص في المعنى كشفت له عن نفسها حتى تتجرد تماماً من ملابسها وتقف عارية أمامه ، فيقف هو أمامها وجهاً لوجه فيما يشبه الزواج المقدَّس . وهذا هو أساس جميع التهويمات الفكرية والجنسية (فلنقارن هذا بفكرة لذة النص عند رولاند بارت ، ولنتذكر أن الصورة المجازية الجنسية أساسية في النسق الحلولي وفي فلسفة ما بعد الحداثة) .

ومما يجدر ذكره أن كتب القبَّالاه (مثل الباهير والزوهار وكتابات لوريا) ، وكلها كتب تفسير للعهد القديم ، حلت بين الجماهير وصغار الحاخامات محل التلمود وأصبحت في واقع الأمر الشريعة الشفوية .

وكان هذا هو الوضع السائد حين لاح العصر الحديث في الغرب وقام مندلسون بترجمة العهد القديم وكتب مع بعض زملائه تعليقه الشهير عليه ، وهو ما يُعرَف باسم «البيئور» . وقد استفاد مندلسون من التفاسير القديمة ، ولكنه وَجَّه الأنظار نحو المعرفة الدنيوية على حساب التقاليد . وبعد ذلك ، اتسع نطاق نقد العهد القديم ، وظهر ما يُسمَّى «علم اليهودية» والتفسيرات الحديثة المختلفة التي تستفيد من المعارف الدنيوية ، مثل علم النفس وعلم الأنثربولوجيا .

ومن أهم الاتجاهات في التفسير ما يمكن تسميته «الاتجاه الوجودي الحلولي» عند مارتن بوبر ، وهو اتجاه يرى أن ما يهم ليس النص في حد ذاته وإنما المواجهة بين الإله والإنسان (أو بين الإله واليهودي) ، بمعنى أن النص (كمادة خام له ستمائة ألف معنى) يختفي لتظهر بدلاً منه ذات المفسر ، الأمر الذي يعني موت النص ومولد الناقد وهيمنته . وهذا الموقف لا يختلف في أساسياته عن التفسيرات القبَّالية التي تفرض أي معنى باطني على النص ، والتي تقتل المؤلف (الإله) وتُعلي إرادة المفسر .

لكل ما تقدَّم ، يصبح من المهم جداً ، عند قراءة نص توراتي أو تلمودي ، أن نحدِّد التفسير المقصود . ولنأخذ ، على سبيل المثال ، العبارة التي وردت في التلمود حيث يقول الإله : «ياليت الناس يهجرونني ولا يهجرون التوراة» ، فهل المقصود بهذا التوراة الناقصة أم أن المقصود التوراة الكاملة ، توراة الخلق أم توراة الفيض ، أم أن المقصود أقوال الحاخامات ، أي التوراة الشفوية ؟ وعلى كلٍّ ، فإن معنى كلمة «توراة» (كما بيَّنا) متداخل ومتضارب في المجال الدلالي ، ولذا فإن الجملة في حد ذاتها لا تعني شيئاً ، والمهم هو تفسير المقصود من كلمة «توراة» .

والشيء نفسه ينطبق على أي اقتباس من التوراة ، فعبارة مثل تلك التي ترد في الشماع «الإله واحد» تحمل معاني مختلفة بعضها حلولي مغرق في الحلولية والشرك لا علاقة له بالتوحيد . فحينما يقولها القبَّالي بمفهوم التجليات العشرة النورانية ، فإنه يعني شيئاً

مختلفاً تماماً عما يقصد إليه الحاخام الإصلاحي أو الأرثوذكسي . وإن اقتبس أحد عبارة من تلك العبارات التي تحضه على الإحسان إلى «أخيك» ، فإن الأخ في كثير من التفسيرات تعني «اليهودي» وحسب . والوصية الخاصة بترك لقاط الحصيد «للمسكين والغريب» (لاويين ١٩/ ٩ ، ١٠) ، تُفسَّر بأن المقصود المسكين اليهودي والغريب اليهودي وحسب . بل أية إشارة إلى الإنسان أو الرجل هي، حسب كثير من التفسيرات ، إشارة إلى اليهودي وحده .

ومن أهم التطورات في تاريخ اليهودية ظهور ما يمكن تسميته «حلولية شحوب الإله» وهي مرحلة تالية لمرحلة وحدة الوجود الروحية ، فبعد الحلول الكامل يتوحد الإله مع المادة (الأرض المقدَّسة ـ الشعب المقدَّس) فيَضمُر ويشحُب ويصبح لا أهمية له بل يموت داخلها (وهذا يُشكل مرحلة الانتقال من وحدة الوجود الروحية إلى وحدة الوجود المادية وهي حلولية بدون إله) ، وبذا تصبح المادة مصدر القداسة . وقد تبدَّى هذا في الفكر الديني اليهودي حين وصف أحد زعماء جوش إيمونيم الجيش الإسرائيلي بأنه القداسة الكاملة (مادة مقدَّسة دون مرجعية إلهية متجاوزة) . وقد أخذ بن جوريون الخطوة المنطقية وأعلن أن الجيش الإسرائيلي خير مفسر للتوراة ، وهذا يفتح الباب على مصراعيه للقداسة الإسرائيلية المسلحة لكي تفرض التفسير الذي تراه . وعلى كلٍّ ، فإن هذا أمر مفهوم تماماً إذا كانت الكلمات دالاً بدون مدلول ، أو كان مدلولها مرجأً ومؤجلاً (على حد قول دريدا) ، ذلك لأن ما يحدد المعنى في هذه الحالة هو القوات المسلحة أو المخابرات العسكرية ، فهي وحدها القادرة على إغلاق النسق المتبعثر وتزويده بالمركز والمعنى ، وهي وحدها القادرة على أن تحوِّل كلمة «فلسطين» إلى «إرتس يسرائيل» بحيث يصبح الدال (فلسطين) يشير إلى مدلولات أخرى يرتضيها صاحب السلاح الأقوى .

ويُلاحَظ أن المدارس المسيحية لتفسير العهد القديم تختلف في منهجها عن المدارس اليهودية ، فهي تميل إلى التفسير المجازي ، أو تميل إلى التفسير الرمزي الذي يفترض وجود علاقة بين الرمز ومجاله الدلالي ، على عكس كثير من المدارس اليهودية التي إما أن ترتبط بالتفسير الحرفي أو تتركه تماماً وتفصل الدال عن المدلول تماماً . ويُلاحَظ أن كثيراً من مدارس التفسير البروتستانتية (المتطرفة) يأخذ بتفسير حرفي لنصوص العهد القديم ويفرض عليه معنىً صهيونياً . وقد تأثر كثير من النقاد اليهود ، من دعاة المدرسة التفكيكية ، بالقبَّالاه اللوريانية وبطرق التفسير القبَّالية . ولهارولد بلوم كتاب بعنوان **القبَّالاه والنقد** .

نقــد العهــد القــديم

Biblical Criticism (of the Old Testament)

جاء في التلمود (بابا باترا ، ١٤ب ـ ١٥أ) أن موسى هو الذي كتب ، أي حرَّر ودوَّن التوراة (أسفار موسى الخمسة) ، والجزء الخاص عن بلعام وسفر أيوب ، وأن يوشع بن نون هو كاتب السفر المسمَّى باسمه وآخر ثماني مقطوعات في أسفار موسى الخمسة ، وأن صموئيل كتب السفر المسمَّى باسمه وسفري القضاة وراعوث ، وأن داود هو صاحب المزامير وقد ضمنها كتابات من سبقوه مثل آدم وإبراهيم ، وأن إرميا كتب السفر المسمَّى باسمه وكتب الملوك والمراثي ، وأن حزقيال كتب سفر أشعياء والأمثال ونشيد الأنشاد وسفر الجامعة ، وأن أعضاء المجمع الكبير كتبوا (أي حرروا) سفر حزقيال وأسفار الاثني عشر نبياً وسفر دانيال وسفر إستير ، وأن عزرا كتب السفر المسمَّى باسمه .

وقد قسَّم علماء التلمود المتناقضات في العهد القديم إلى ما يلي :

أ) متناقضات تامة ، تناقض المقطوعة منها الأخرى تماماً (بالعبرية : هحخحاشوت) .

ب) ما يثير الدهشة (بالعبرية : تموهوت) مثل خلق الطير من الماء .

جـ) المتقدم والمتأخر (بالعبرية : موقدام أو مؤحر) ، أي عدم ترتيب المادة التاريخية في العهد القديم .

وفي العصر الحديث ، يذهب علماء العهد القديم إلى أن هذا الرأي يتنافى مع القرائن الموجودة داخل النصوص نفسها . فعلى سبيل المثال ، يُلاحَظ أنه ورد في نهاية سفر التثنية : «فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب» (٣٤/ ٥) . ثم يستمر السفر ، حتى نهايته ، في الحديث عن موت موسى . وجاء في سفر التكوين ما يلي : «وهؤلاء هم الملوك الذين مُلكوا في أرض أدوم قبلما مَلَكَ ملكٌ لبني يسرائيل» (تكوين ٣٦/ ٣١) ، أي أن كاتب هذه الفقرة عاش بعد أن عرفت جماعة يسرائيل نظام الملكية ، ولم يحدث ذلك إلا بعد عدة قرون من موت موسى . كما أن التوراة كُتبت بالعبرية ، ولم يكن موسى الذي عاش في مصر يتحدث العبرية ، وإنما كان في الأغلب يتحدث لغة المصريين القدامى أو كان يتحدث لغة كنعانية متأثرة بالمصرية القديمة .

لكل هذا ، ظهر ما يُسمَّى «نقد العهد القديم» ، وهو العلم الذي يهدف إلى دراسة نصوص العهد القديم باعتبارها نصوصاً تاريخية على الدارس أن يُطبِّق عليها كل المعايير التي يطبقها على أية نصوص تاريخية أخرى . كما يهدف إلى اكتشاف أسباب التناقضات التي قد توجد بين نص وآخر ، وعدم الاتساق فيما بينها ، ثم محاولة

تفسيرها في ضوء المعطيات التاريخية. ويلجأ علم نقد العهد القديم إلى تحليل النصوص المختلفة ليصل إلى عناصرها الأساسية، وإلى الربط بينها لإيضاح تتابعها التاريخي بحيث تلقي الضوء على تطور العبرانيين وعقائدهم منذ مراحلهم البدائية حتى اكتمال النسق الديني اليهودي. أي أن نقد العهد القديم هو العلم الذي يهدف إلى إبراز وتوضيح سائر المشاكل الخاصة بنصوص العهد القديم. وبالتالي وضع أساس للدراسات الأخرى، الاجتماعية والتاريخية والدينية، التي تتناول العصور التي تم فيها وضع العهد القديم وتدوينه.

وقديماً كان يتم التمييز بين الدراسة النقدية أو الأدبية (العليا) والدراسة النقدية (الدنيا) أو الأولية. فبينما كانت الدراسة الأولية تختص بدراسة النص وحسب، فإن الدراسة العليا كانت تركز على تحليل مؤلف النص وظروفه التاريخية والمغزى من مؤلفه. ولكن الجهد يتجه الآن نحو مزج الدراستين، وبالتالي قد تؤدي الدراسة التاريخية أو الأدبية (العليا) لنصٍّ ما إلى إعادة صياغة كلمات النص وطريقة نطقها (الدراسة الأولية)، والعكس صحيح، بمعنى أن اكتشاف طريقة جديدة لنطق بعض الكلمات قد يلقي ضوءاً على مؤلف النص وتاريخه.

وقد أدرك الحاخامات، منذ البداية، وجود التناقضات وعدم الاتساق داخل النصوص التوراتية، ولكن جل همهم انصرف إلى محاولة تفسيرها. فعلى سبيل المثال، عرف الحاخامات أن الإصحاح رقم ٣٤ في سفر التثنية لا يمكن أن يكون موسى قد كتبه، ففُسِّر على أساس أنه كتبه وهو يموت، وأن الإله أملى عليه هذه الكلمات، وأنها كُتبت بروح النبوة. وقد أدرك الحاخامات كذلك، منذ أيام الترجمة السبعينية، أن عدد السنين التي تفصل بين لاوي وموسى لا تصل إلى ٤٣٠ سنة (حسبما ورد في سفر الخروج) ففسروها بأن الفترة الزمنية بدأت مع مولد إسحق.

وقد بدأ نقد العهد القديم على يد المؤلف اليهودي القرّائي (حيوي البلخي) الذي عاش في القرن التاسع. وقد ظهرت محاولات متفرقة هنا وهناك، أهمها دراسة إسحق أبرابانيل (١٤٤٧ ـ ١٥٠٨) الذي قدَّم أول دراسة علمية لنصوص العهد القديم. كما أن ابن حزم الأندلسي وبعض الدارسين المسلمين القدامى لاحظوا أن ما ينسبه العهد القديم إلى الأنبياء من جرائم، يُعدُّ دخيلاً على النص الأصلي. ولكن العلم نفسه، بالمعنى الحديث، بدأ مع الفيلسوف اليهودي إسبينوزا الذي قال بأن أسفار موسى ليست من تأليف موسى، وأن عزرا مؤلفها الحقيقي. وبعد ذلك، تتالى العلماء الغربيون في دراسة العهد القديم من وجهة نظر نقدية. وكان أول الكتب لجان إستروك الأستاذ في جامعة باريس عام ١٧٥٣، وتبعه كتاب ج. أيتشورن عام ١٧٧٩، وهناك آخرون بينوا مصادر العهد القديم المختلفة، ولم يبق سوى تبيان تتاليها التاريخي، وهو ما أنجزه فون جراف عام ١٨٦٦، وفلهاوزن (١٨٧٦ ـ ١٨٧٨)، وكونهيل. ويُلاحَظ أن هؤلاء الثلاثة من أشهر علماء الإسلاميات في الغرب، ولابد أن النقد القرآني للتحريفات التي وردت في التوراة، كان دافعاً لدراستهم النقدية. وقد انضم إليهم آخرون، من بينهم جايجر (أحد مؤسسي اليهودية الإصلاحية) وجرايتس وكاوفمان وكوهلر. وظهر علم اليهودية الذي يحاول اكتشاف الأسس التاريخية للنصوص المقدَّسة.

وقد استخدم نقاد العهد القديم في دراساتهم المعايير التالية:

١ ـ التناقض في الأجزاء التشريعية: وكما هو واضح في الحكمة من فرض شريعة السبت، فقد ورد مرة أنه فُرض "لأن الرب استراح في اليوم السابع بعد أن خلق السماوات والأرض" (خروج ٢٠/ ١١). أما في سفر التثنية، فلا يوجد ذكر للخلق، وإنما الإشارة إلى الخروج من مصر (تثنية ٥/ ١٢ ـ ١٥).

٢ ـ التناقض في القصص: فقد ورد في سفر التثنية (٢/ ٤) أن العبرانيين مرُّوا بأرض الأدوميين (بني عيسو) في طريقهم إلى كنعان. أما في سفر العدد (٢٠/ ٢١)، فقد ورد شيء مخالف تماماً.

٣ ـ التناقض بين ما جاء في الشرائع وما ورد في القصص: فسفر التثنية (١٢/ ٥، ٦) يصر على ضرورة تقديم القرابين في مذبح مركزي، ومع هذا قدَّم إلياهو قرابين على جبل الكرمل (ملوك أول ١٨/ ١٩ ـ ٣٧). وتؤكد أسفار موسى الخمسة أهمية تقديم القرابين خلال سنوات التيه، بينما يؤكد النبي عاموس أن مثل هذه القرابين لم تُقدَّم (عاموس ٥/ ٢٥). وينكر إرميا أن الإله أمر بمثل هذه القرابين (إرميا ٧/ ٢٢).

٤ ـ تباين الأسلوب الأدبي: وقد توصَّل الباحثون، بعد دراسة الاختلافات الواضحة في مفردات النصوص وأفكارها، إلى أن هذه النصوص تعود إلى فترات زمنية مختلفة. فسفر الخروج يعلن أن الآباء يعرفون الإله باسم «شدَّاي»، وهو ما يساعد على تحديد هذه النصوص وتحديد تاريخها، وأنها تعود إلى المصدر نفسه. كما أن اختلاف الخلفيات التاريخية في سفر أشعياء والمزامير يُسهِّل عملية معرفة المؤلف وتاريخ التأليف.

٥ ـ استخدام ترجمات العهد القديم المختلفة: يجد النقاد أن الترجمات القديمة للعهد القديم تظهر فيها نصوص أو مقطوعات ليست في النص العبري، كما وجدوا أيضاً ما هو مخالف.

فالترجمة السبعينية لسفر أيوب (٣٨/ ٢) تضم فقرة لا توجد في النص العبري تُغيِّر تفسير السفر تماماً .

٦ ـ الاكتشافات الأثرية : يدرس ناقدو العهد القديم الآثار والمدونات الآشورية والبابلية والمصرية ليحصلوا على المعلومات التي تلقي ضوءاً جديداً على التاريخ . وتتفق هذه المدونات مع الرواية التوراتية أحياناً ، وأحياناً تتناقض معها . وقد ألقت عقائد أمم الشرق الأدنى القديم الكثير من الضوء على عقائد العبرانيين القدامى ، وعلى تطوُّر العقيدة اليهودية .

وقد اتفق نقاد العهد القديم على أن أسفار موسى الخمسة وسفر يشوع بن نون ترتد إلى مصادر (بالإنجليزية : سورسيز Sources) أربعة أساسية :

١ ـ المصدر اليهوي : مصدر (J) وهذا هو الحرف الأول من كلمة «Jahwist» نسبة إلى «جهوفاه» . ومن الواضح أن هذا المصدر يحمل اسم الإله يهوه ، ويرجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد ، ويُرجعه البعض الآخر إلى القرن العاشر . وقد سُمِّي «مصدر يهوه» لأنه يستخدم هذا الاسم للإشارة إلى الإله ، وكان رواته من المملكة الجنوبية . والواقع أن تصوُّر الإله في هذا المصدر قَبَلي ضيق يتداخل فيه المقدَّس والزمني والمطلق والنسبي (فهو حلولي وثني) ، والإله سلطته محدودة بمكان خاص باليهود ، وهو يتعصب لليهود ويناصرهم على أعدائهم ويتجلى في تاريخهم ، وهو ذو سمات بشرية عديدة . فالإله لا يختلف كثيراً عن مخلوقاته ، فهو يغار منهم، ويخشى أن يصبح الإنسان عاقلاً أو قوياً ، وهو يصارع يعقوب ولكن يعقوب يهزمه . كما أن قيمه الأخلاقية ليست سامية ولا عالمية ، فإبراهيم يكذب على فرعون ليضمن بقاءه ، ويجعل زوجته تدَّعي أنها أخته «ليكون لي خير بسببك» (تكوين ١٢/ ١٣)، فهي امرأة حسنة المنظر . وبالفعل «رآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون ، فأُخذت المرأة إلى بيت فرعون . فصنع إلى أبرام خيراً بسببها» و«صار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأُتن وجمال» (تكوين ١٢/ ١١ ـ ١٦) . ويعقوب يخدع إسحق وعيسو ، ويهودا يضاجع زوجة ابنه ، وهكذا .

وقصص هذا المصدر متأثرة بالأدب الشعبي والقصص الديني للشعوب التي عاش العبرانيون بينها ، سواء في الفكرة أو الحبكة القصصية . ويؤكد هذا المصدر أهمية سبط يهودا ، ويرى أن عصر داود هو العصر الذهبي الذي تحقَّق فيه الثالوث الحلولي ، إذ ارتبط الإله بالشعب بالأرض في رباط حلولي عضوي . وهذا المصدر هو الذي يشير إلى أرض كنعان باعتبارها أرض يسرائيل .

٢ ـ المصدر الإلوهيمي : مصدر (E) نسبة إلى «إلوهيم Elohim» . ويحمل هذا المصدر اسم «إلوهيم» باعتباره اسم الإله ، ويتحاشى اسم «يهوه» ، وقد أُلِّف حوالي ٧٧٠ ق.م في المملكة الشمالية . وهذا المصدر يتسم بالرؤية التوحيدية أو شبه التوحيدية للإله ، فهو يصوِّر الإله في صورة أسمى مما يفعل المصدر اليهوي ، فهو الإله الذي يقول «كن فيكون» ويتسامى عن صفات وعواطف البشر . وهو إله شامل قد تكون له علاقة خاصة بشعبه ، ولكنها علاقة لا تنتقص من عالميته ، كما أن ثمة شعوراً دينياً عميقاً بطاعة الإله والولاء له . ويُلاحَظ على هذا المصدر تأكيد البُعد الأخلاقي بكل وضوح على حساب الجانب الشعائري . كما تسيطر عليه رؤية الأنبياء إذ هناك أحكام مشابهة لأحكام الأنبياء . وهو ينفرد بنسبة النبوة إلى إبراهيم ويوسف وموسى (ولذا ، فإن كثيراً من النقاد يعتبرون المصدر الإلوهيمي الإطار النظري لحركة النبوة) . والواقع أن المصدر الإلوهيمي يفتح الباب واسعاً أمام أعضاء جماعة يسرائيل لإعلان توبتهم وندمهم على ما اقترفوه من أخطاء ، وعن طريق التوبة والندم يحدث العفو الإلهي . والمصدر الإلوهيمي ينظر إلى المصريين نظرة أكثر تسامحاً . ويُعنى هذا المصدر بسرد التاريخ الديني لجماعة يسرائيل ، كما أنه يعكس بيئة المملكة الشمالية . وقد استقى المصدر قصصه من قبيلة أفرايم .

٣ ـ مصدر التثنية : مصدر (D) نسبة إلى «ديتيرونومي Deuteronomy» أو تثنية الشريعة . وقد أُدخل هذا المصدر في صميم العهد القديم عام ٦٢١ ق.م . ويحاول المصدر التوفيق بين المصدرين الإلوهيمي واليهوي ، وبين تراث الشمال وتراث الجنوب . وكذلك بين الفكر النبوي والفكر الكهنوتي المتعارضين ، فالأول يركز على الجوانب الروحية ، والثاني يركز على العبادة القربانية ، ولذا فإن هذا المصدر يحتفظ بالاتجاه القومي العنصري (اليهوي) والاتجاه العالمي المثالي (الإلوهيمي) . كما أن هذا المصدر صادر عن وسط مثقف مرتبط بالإصلاح الديني (التثنوي) الذي حدث عام ٦٢٢ ق.م ، حين أرسل الملك يوشيا (٦٤١ ـ ٦١١ ق.م) ، أي بعد وفاة موسى بما يقرب من سبعمائة عام ، أحد أتباعه إلى الكاهن الأعظم ، ليحسب النقود التي دفعها زوار الهيكل . فوجد «توراة موسى» في بيت الإله وندموا على أنهم كانوا قد نسوها . ويبدو أن كاتب هذا السفر هو أحد الكهنة .

والواقع أن النص كان يمثل رد فعل للغزو الثقافي الآشوري الذي اكتسح العبرانيين آنذاك فانصرفوا عن عبادة يهوه ، ولذا كان لابد للكهنة والأنبياء أن يوحدوا صفوفهم ، وهو ما ينجزه هذا

المصدر الذي يشبه أسلوبه أسلوب إرميا الذي عاش في ذلك الوقت . كما أنه يصر على أن التضحية ليهوه لابد أن تتم في مكان واحد يختاره هو ، أي الهيكل ، وهو الأمر الذي يتفق مع إصلاحات يوشيا ومع أهداف الكهنة ، كما يتفق مع محاولة تقوية الدولة من خلال العبادة القربانية المركزية .

٤ ـ المصدر الكهنوتي (حواشي الكهنة) : مصدر (P) من كلمة «بريستلي Priestly» ، أي الكهنوتي ويعود تاريخه إلى ما بعد فترة التهجير البابلي . ويضم أساساً قوانين اللاويين والإحصاءات والأرقام التي وردت في أسفار موسى الخمسة ، كما يضم بعض الروايات التي وردت في سفر التكوين والخروج والعَدد . ويستخدم هذا المصدر القصص إطاراً للشرائع ، بهدف إعطاء القوانين والشرائع صفة القدسية . والإله في هذا المصدر هو خالق كل شيء ، كائن وحاضر في كل آن ومكان ، وفي كل شيء . ومؤلفو هذا المصدر يتمتعون بثقافة عالية ، ولذا فهو يتسم بالصياغات المنطقية . كما أن أسلوبهم دقيق ونمطي وجاف ، ويظهر فيه التمييز بين الكهنة واللاويين ، ويرد فيه أول ذكر للأعياد ووصف تفصيلي لخيمة الاجتماع .

وقد امتزج المصدران ، اليهوي والإلوهيمي ، حوالي عام ٦٥٠ ق . م ، ولذا يشار أحياناً إلى المصدر (JE) الواحد ، أي المصدر اليهوي الإلوهيمي . كما توجد مصادر سابقة أخرى ، مثل مصدر (H) نسبة إلى «هولينيس Holiness» ويُطلَق عليه «مصدر القداسة» . ويُنسب إلى مجموعة من الكتاب أثناء السبي البابلي ، وقد حاولوا أن يعطوا طابعاً شخصياً للإيمان الديني يَبعُد عن الشعائر البرانية الجافة ، وقد تبنوا مجموعة من المبادئ الأخلاقية العالية . وأخيراً ، فإن هناك مصدر (K) من «كينايت Kenite» ، أي «المصدر القيني» ، ويُقال إنه أقدم المصادر على الإطلاق ، ولكن أجزاءً كثيرةً منه فُقدت . وقد استفاد منه كتّاب المصدرين اليهودي والإلوهيمي وحذفا منه الكثير . ويذكر الدكتور محمد خليفة حسن أحمد في كتابه **علاقة الإسلام باليهودية** أن ثمة مصادر أخرى للتوراة غير هذه المصادر الأربعة الأساسية ، ولكنها تقل عنها كثيراً في الأهمية وفي وجودها داخل النص . وقد اتجه بعض النقاد إلى ضم هذه المصادر . بل مال بعضهم إلى تقسيم المصدر الواحد إلى عدة مصادر داخلية والتمييز بينها بإعطاء رقم معيَّن كأن نقول مثلاً يهوي١ ، يهوي٢ ، يهوي٣ أو إلوهيمي٢ ، إلوهيمي٣ ، وهكذا .

وهناك مصدر مهم لم يتمكن النقاد من ضمه بسهولة إلى مادة المصادر الأربعة الرئيسية . ولهذا ، فقد اتجه بعض النقاد ، مثل إيسفلت ، إلى إعطائه علامة تميّزه عن غيره . ووقع اختيار إيسفلت على الرمز (L) للدلالة على مادة هذا المصدر . وهذا الرمز اختصار لكلمة «لاي Lay» التي نترجمها هنا إلى كلمة «العامي» أو «غير الكهنوتي» ، وقد اعتبر إيسفلت هذا المصدر أقدم المصادر على الإطلاق لاحتوائه على عناصر تبدو أصلية وبدائية في آن واحد منها ، مثلاً ، نظرته إلى الإنسان القديم بوصفه بدوياً ، وإلى البشرية آنذاك باعتبارها جماعة من البدو ، وإلى جماعة يسرائيل باعتبارها جماعةً بدوية ، وهي صورة لا نجدها في بقية المصادر . كما أن تصوير هذا المصدر للألوهية تصوير تجسيدي تشبيهي .

ويجب ألا تُفسَّر كلمة «مصدر» بأنها نص كتبه مؤلف واحد ، فقد يكون نصاً كتبته مجموعة من المؤلفين في فترة زمنية واحدة . وقد تداخلت المصادر كالطبقات الجيولوجية دون أي تمازج ، وهو ما يفسر وجود التناقضات المختلفة ، وخصوصاً في مفاهيم محورية مثل مفهوم الخالق ، إذ تتفاوت بين الحلولية ذات النزعة الأخلاقية القومية والتوحيدية ذات النزعة الأخلاقية العالمية . ويتضح تعدُّد المصادر وعدم تمازجها بصورة كبيرة في أسفار موسى الخمسة ، ثم يطَّرد التناقض في أسفار القضاة والملوك والأيام . ونجد أن أسفار الأنبياء عادةً ما تضم خطبهم ونبوءاتهم وتتسم بكثير من الاتساق ماعدا سفري أشعياء وزكريا . أما كتب الحكم والأمثال ، فمصادرها متنوعة وكثيرة ومتناقضة .

وتعبير «تكستوال ويتنسيز textual witnesses» يشير إلى تلك البقايا (الترسبات) التي وردت من عصور مختلفة لتدلنا على فترة (أو فترات) زمنية لم يكن كل مصدر فيها قد تبلور بعده وتُعَدُّ لفيفة المعبد (مجيلات هامقدش) من تلك الشواهد ، كما أن مخطوطات قمران والترجمة السبعينية تُعَدُّ هي الأخرى دليلاً على أن هناك حالة من الاضطراب في وضع المصادر سادت بين المحررين للتوصل إلى قدر من المواءمة بين النصوص (بالإنجليزية : هارمونيست تكست harmonist text ، أي «نص متوائم») . وهذه المصادر هي النص في حالة سديمية . فمخطوطات قمران هي النص في الحالة الجنينية ومرحلة النص الماسوري هي المرحلة الناضجة .

والواقع أن أثر نقد العهد القديم في اليهودية المعاصرة واضح بيِّن ، فاليهودية الإصلاحية تنطلق من تَقبُّل نتائجه ، فهي تنطلق من دنيوية أو نسبية أو تاريخية أو زمنية التراث الديني اليهودي بأسره ، وهذا ما يعني أنه ليس مرسلاً من الإله وإنما نتيجة قريحة عقل الإنسان ، وربما بإلهام (وليس بوحي) من الإله . ولا تختلف اليهودية المحافظة أو التجديدية عن اليهودية الإصلاحية في هذه الناحية إلا من ناحية الدرجة .

كما أن الصهيونية وسائر التيارات التي تعرِّف اليهودية بأنها انتماء إثني أو عرْقي ، وليس دينياً ، تستند إلى معطيات نقد العهد القديم الذي يحوِّل كتب اليهود المقدَّسة إلى شكل من أشكال الفلكلور . واليهودية الأرثوذكسية وحدها هي التي ترفض نقد العهد القديم .

أما الفكر المسيحي ، فقد استفاد بنقد العهد القديم في نقده اليهودية ، إذ يشير كثير من المفكرين الدينيين المسيحيين إلى أن اليهودية تحوي عناصر وتراكمات وثنية عديدة حاول الأنبياء القضاء عليها وتطهير النسق الديني اليهودي منها ، وقد نجحوا في ذلك بعض الوقت . ولكن اليهودية سقطت مرة أخرى في الوثنية والعبادة القربانية ، والالتفاف حول الهيكل ، والانغماس في النزعة العرْقية . ولذا ، فلم يكن بالإمكان إنقاذ الجوهر الديني الحق لليهودية إلا عن طريق المسيحية .

الكتب الخارجية (و الكتب الخفية (أبوكريفا)
Apocrypha

«الكتب الخارجية» ، كمصطلح ، يقابل كلمة «أبوكريفا» ، وهي كلمة يونانية تعني «الخفي» أو «غير الموثوقة» أو «غير المعترف به» . وقد كان هناك نوعان من المعرفة الدينية عند اليونان : النوع الأول يشمل عقائد وطقوساً عامة ، بإمكان جميع طبقات البشر معرفتها وممارستها . أما النوع الثاني ، فيشمل حقائق عميقة غامضة لا يمكن أن يفهمها أو يدرك كُنهها إلا قلة من الخاصة ، ولذلك بقيت مخفاة عن العامة . ومصطلح «أبوكريفا» يشير إلى النصوص المقدَّسة غير القانونية ، التي لم يعترف بها اليهود ضمن أسفار العهد القديم ، ولم تُسجَّل باعتبارها أجزاء معتمدة منه ، ولا تبلغ نفس درجته من القداسة عندهم . والواقع أن كلمة «أبوكريفا» تسمية مغلوطة ، فالكتب التي أوصى الحاخامات بإخفائها ، أي «سيفاريم جينوزيم» (دانيال ١١/ ٤٣) الكنوز المخفية عن العامة (على أن يطلع عليها الخاصة وحدهم) لا تتعدى كتاباً واحداً أو اثنين . أما بقية الكتب فهي «أبوكريفا» ، بمعنى أنها استُبعدت من الكتاب المقدَّس المعتمد لدى اليهود لأسباب أخرى فهي تنطوي مثلاً على تناقض مع ما جاء في التوراة ، أو كُتبت بعد انتهاء عهد الأنبياء والوحي وبعد أن قام عزرا بتدوين العهد القديم ، أو هي مجرد كتب حكمة لا علاقة لها بالدين ودُوِّنت إعجاباً بقيمتها ، أو هي كتب لا ترتفع إلى المستوى الروحي الماثل في الأسفار القانونية ، ولذلك لا يمكن اعتبارها وحياً . كما استُبعدت بعض النصوص الأسطورية التي تروي قصصاً نشورية تتصل بنهاية العالم . ونظراً لاستبعادها ، يسميها بعض الباحثين بالكتابات الخارجية . وقد كُتبت معظم الكتب الخفية في الفترة بين عامي ٢٠٠ قبل الميلاد و١٠٠ بعده ، وهي :

١ ـ أسفار تاريخية ورؤياوية ، وتشمل : عزرا الثاني الذي يُقال له أسدراس الأول في الترجمة السبعينية وأسدراس الثالث في الفولجاتا ، والمكابيين الأول والثاني ، وإضافات إلى سفر دانيال ، وهي (أ) نشيد الثلاثة الفتية المقدَّسين (ب) تاريخ سوسنة (جـ) تاريخ انقلاب بيل (بيل والتنين) ، وبقية سفر إستير ، وباروخ الأول ، ورسالة إرميا (التي تظهر كجزء من باروخ الأول) ، وصلاة منَسَّى .

٢ ـ أسفار قصصية تحوي أساطير ، وهي سفر باروخ وسفر طوبيت ، وسفر يهوديت .

٣ ـ سفران تعليميان ، هما سفر حكمة سليمان وسفر حكمة يشوع بن سيراخ . لكن كثيراً من هذه الكتب وُضع أصلاً بالآرامية ، وفُقد الأصل ولم يبق سوى الترجمة اليونانية المتمثلة في الترجمة السبعينية أو اللاتينية المتمثلة في الفولجاتا .

وتجب التفرقة بين الكتب الخفية والكتب المنحولة أو المنسوبة (سيود إبيجرفا) . فالأولى ذات توجُّه أخلاقي واجتماعي (ويُقال إن الفريسيين هم واضعوها) والثانية ذات توجُّه أخروي حاد (ويُقال إن الفرق اليهودية المتطرفة مثل الأسينيين هم واضعوها) . والكتب الخفية التي استبعدها علماء اليهود ، اعتمدتها الكنيسة الكاثوليكية كجزء معتمد من الكتاب المقدَّس (باستثناء عزرا الثاني) وإن كان أُطلق عليها مصطلح «كتب تثنوية» (أي مجموعة ثانية من الكتب المعتمدة) . وقد حذت حذوها الكنائس الأرثوذكسية . اليونانية والأرمنية والقبطية الإثيوبية . ومن الطريف أن يهود الفلاشاه يحذون حذو الكنائس القبطية . أما الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ، فقد اعتمدتها وإن كانت قد أعطتها مكانة أقل من كتب العهدين القديم والجديد . أما الكنيسة القبطية المصرية ، فقد استبعدت هذه الكتب ولم تعطها أية قيمة دينية . كما استبعدها البروتستانت وقالوا إن قراءتها أمر مستحسن .

ورغم أن الكتب الخفية والمنسوبة كتبها يهود ليقرأها اليهود ، فإن حاخامات العصور الوسطى في الغرب كانوا يجهلون أمرها تماماً ، إذ أن الكنيسة هي التي احتفظت بها . ولا توجد أية إشارات لها في التلمود إلا كتاب حكمة بن سيراخ ، ولم يَعُد علماء اليهود إلى دراستها مرة أخرى إلا في عصر النهضة . ويطلق الكاثوليك كلمة «أبوكريفا» على الكتب المنسوبة (سيود إبيجرفا) .

الكتب المنسوبة (سيودابيجرفا)

Pseudepigrapha

«الكتب المنسوبة» ، مصطلح يقابل كلمة «سيودابيجرفا» اليونانية ، وتعني «المنسوبة خطأً لغير مؤلفها» أو «الزائفة النسبة» أو «المنحولة» . وتشير هذه الكلمة إلى الكتب التي تُنسَب إلى بعض مشاهير أبطال الكتاب المقدَّس ، مثل باروخ وحنوخ ، والتي لم تُضَم إلى الترجمة السبعينية اليونانية أو الفولجاتا (الترجمة اللاتينية) . ولذا، فهي ليست من الكتب الخارجية أو الخفية (أبوكريفا) . والكتب المنسوبة أكثر عدداً من الكتب الخفية ، ولا يزال بعضها يُكتشف حتى الوقت الحاضر ، ومن أهمها : مزامير سليمان وصعود موسى وصعود أشعياء ووصايا الآباء الاثنتا عشرة ، وهو عمل أخلاقي مهم ينصح فيه أبناء يعقوب أولادهم ضد الخطيئة التي ارتكبها كل واحد منهم . وترد في هذا الكتاب فكرة الماشيَّحين : أحدهما من قبيلة يهودا والآخر من قبيلة لاوي . وتختلف الكتب الخارجية أو الخفية عن الكتب المنسوبة في أن الأولى تشبه كتب الحكم والأمثال في الكتاب المقدَّس . أما الكتب المنسوبة ، فهي ذات توجه أخروي حاد ، ولذا يُقال إنها في أغلب الأمر من وضع الفرق اليهودية المتطرفة مثل الأسينيين الذين أداروا ظهرهم للمجتمع . كما أنها لم تكن موجهة إلى اليهود ككل ، وإنما إلى قطاعات منهم وحسب . أما الكتب الخفية ، فيُقال إنها من وضع الفريسيين الذين كانوا حريصين على التعامل مع المجتمع كله ، ولذا فهي موجهة إلى اليهود بأجمعهم . ولهذا ، فإن الفريسيين ، مبالغةً في الحرص من جانبهم ، فرقوا بين الكتب المعتمدة (العهد القديم) وأية كتب أخرى سواء كانت من الكتب الخفية أو المنسوبة ، وأقاموا سياجاً حول العهد القديم لحمايته . وقد تبنت الكنيسة الكاثوليكية الكتب الخفية لأنها موجهة إلى الشعب ككل ، على عكس الكتب المنسوبة ذات الطابع الطائفي . ولذا ، أصبحت الأولى جزءاً من كتابها القياسي المعتمد ، وأصبحت الكتب المنسوبة هي أبوكريفا الكاثوليكية .

مخطوطات البحر الميت

Dead Sea Scrolls

هي لفائف مدوَّنة على الرق والبردي ، بالعبرية والآرامية واليونانية ، من أسفار أصلية من العهد القديم وكتابات أدبية أخرى وُجدت على هيئة مخطوطات في كهوف ومغاور النهاية الشمالية الغربية للبحر الميت في فلسطين منها : خربة قمران ، ووادي المربعات ، وخربة المرد (شمال وادي النار) ، وكهف القشخة ، وكانت اللفائف الكتابية مُغلقة ، وملفوفة ، ومحفوظة بعناية في قدور كبيرة من الفخار لصيانتها من الرطوبة أو العبث . وقد كشفت لنا البعثات الأثرية (المُشكَّلة من إرساليات المدارس الإنجليزية والفرنسية ، وبعد ذلك الهيئة الأثرية الإسرائيلية) عن أحد عشر كهفاً حتى الآن ، ولا تزال الاكتشافات تتوالى في المنطقة وما حولها (وتقوم بها ـ حالياً ـ جمعية دراسة «إرتس يسرائيل» وآثارها وهي تابعة للجامعة العبرية) .

وقد عُثر في المغارة الرابعة منها على الكم الأكبر من هذه المكتبة بعد إعادة التنقيب عنها (على مدى ثلاث بعثات للتنقيب) منها كتب تراتيل وطلاسم سحرية وأدعية وتعاويذ لإبعاد الأرواح الشريرة والشياطين . وعلى ما يبدو ، يميل الاتجاه الغالب لدى الباحثين إلى نسبة تلك الكتابات إلى جماعة الأسينيين وافتراض أن أفرادها دأبوا على نسخ تلك المخطوطات التي تتضمن حتى الآن ما يلي :

١ ـ أسفار العهد القديم :

أهم ما وصل إلينا منها كاملاً ، سفر أشعياء النبي ، وهو من نسختين إحداهما كاملة وتتفق في النص مع السفر المعتمد حالياً وإن اختلفت في بعض الفقرات والقراءات وفي هجاء بعض الكلمات ، وأخرى متفقة نصاً مع النص المعتمد (الماسورتي) . وتُعدُّ اللفيفة المدوَّنة في أربعة وخمسين عموداً أقدم نسخة كاملة لسفر من أسفار العهد القديم . وبالإضافة إلى ذلك ، عُثر على أجزاء عديدة من أسفار العدد وصموئيل .

وتبدو أهمية هذه الأسفار في أنها تُمثل لنا اتجاهاً مبكراً إلى إيجاد نصوص متوائمة تتلافى التناقضات التي يعثر عليها الباحثون في النص الحالي للعهد القديم ، وهو ما يدلنا على انفصال كُتَّابها عن المدرسة الكتابية للعهد القديم . وفي عام ١٩٥٠ ، نشرت المدرسة الأمريكية للدراسات الشرقية لأول مرة النص المخطوط من سفر أشعياء ، وتابعت المدرسة الفرنسية للدراسات الأثرية نشر ما يُعثر عليه من لفائف العهد القديم .

٢ ـ تفاسير على أسفار العهد القديم :

وهي تفاسير متنوعة أهمها تفسير كامل لسفر حبقوق . ونُلاحظ اقتصار الناسخ على إصحاحين فقط ، وهو ما يدل على عدم قانونية الإصحاح الثالث (وهو أمر ألمح إليه النقاد الدارسون للعهد القديم) . وأسلوب التفسير الذي تنتهجه طائفة قمران هو الأسلوب الباطني بمعنى العودة بالنص إلى مدلول مختلف وإخراجه من سياقه المباشر أو شبه المباشر . وتُلقي التفاسير الضوء على الفترة التي عاشت فيها الطائفة القمرانية وعلى نظرتها للأحداث مثل دخول

بومبي القدس وتناظر بينه وبين أحداث الماضي (دخول سنخريب للقدس) .

٣ ـ ميثاق الجماعة (سرخ هايحاد) :

ويضم ثلاث وثائق منفصلة نصاً ولكنها تتفق مضموناً في تنظيم شئون الجماعة وعلاقتها الحالية والمستقبلية بما حولها . وتدلنا هذه الوثيقة على انتهاج الطائفة أساليب صارمة في التنظيم وفرضها لعقوبات على من يخالف نظامها أو ينشر أسرارها ، وهي تشير إلى علاقة الفرد بالآخرين ممن هم خارج جماعته وإلى عدم جواز مخالطتهم أو الإفاضة عليهم مما أفاء الله عليه من علم بالشريعة وأسرارها !

٤ ـ لفيفة حرب أبناء النور وأبناء الظلام :

هي خطة حربية محكمة (خيالية) يتوقع أفراد الجماعة أنهم سيخوضونها قريباً ، بعد عودتهم من «صحراء الأمم» في دمشق فسيُعينهم الرب بملائكته وجنده ليقضوا على كل الأعداء التقليديين المذكورين في العهد القديم (الفلسطينيين والآشوريين . . إلخ) . وتبدو الإشارات إلى الشعوب المعادية في اللفيفة كإشارات رمزية إلى جماعات عرْقية سكنت فلسطين في الفترة الممتدة من القرن الثاني قبل الميلاد حتى القرن الأول الميلادي .

٥ ـ مخطوطة لامك (أبوكريفون جينيسيس أو بريشيت أبوكريفون) :

هو سفر غير قانوني يُعتبَر إعادة صياغة لأحداث قصة لامك . والشخصية الأساسية في السفر هي شخصية لامك حفيد حنوخ والد نوح . إلا أن المضمون العام يتضمن تكرار قصة الخلق والآباء مع إضافات عديدة منها ما يشير إلى التشكك في ولادة نوح والتساؤل عن ولادته الإعجازية بتناسل البشر مع أنصاف الملائكة (وهي كائنات سماوية شاع الاعتقاد في وجودها في الفترة من القرن الثاني قبل الميلاد وحتى القرن الأول الميلادي) ، الأمر الذي يوضح صلة طائفة قمران بالمسيحية الناشئة التي تبنَّت مثل هذه الاعتقادات .

٦ ـ مزامير التسبيح والشكر (هودايوت) :

هي أكثر من ٣٠٠ من المزامير الترتيلية تُستهَل بعبارة «أوديخاي أودناي» أي «أشكرك يا ربي» ، وهي تتضمن تصويراً لمعلِّم الجماعة ومعاناته مع مناوئيه ، ومحاولتهم إثناءه عن شريعة الرب . ومع أنه لا يذكر اسمه تحديداً ، إلا أن الإشارة إلى الأسرار الإلهية التي انكشفت له تعبِّر عن الاتجاه الغنوصي الواضح داخل فكر الجماعة .

٧ ـ الوثيقة الدمشقية والأسفار الخارجية :

عُثر من الوثيقة الدمشقية (سفر عهد دمشق) على ١٢ جزءاً مقتطفاً من سفر عهد دمشق القاهري الذي كان قد عثر عليه سلومو شيختر عام ١٨٩٠ ونشر نسخته عام ١٩١٠ . وكان أول نص عُثر عليه في القاهرة في معبد بن عزرا (بالفسطاط) . وأطلق عليه «جذاذات من وثيقة صدوقية» . وقد دلت الأسفار الخارجية (بالعبرية والآرامية) التي لها صلة وثيقة بمضمون كتابات الطائفة ومنهجها على أنها جميعاً تنتمي إلى التيار الديني نفسه الذي تمثله جماعة قمران المنشقة . وتمثل وثيقة دمشق القاهرية نقداً لاذعاً للفرق الدينية التي انعزلت عنها الجماعة . وتكمل لنا صورة التطور التاريخي للجماعة اليهودية عموماً . وتطلق الجماعة على أفرادها اسم «أبناء العهد الجديد» ، وهو الاسم الذي أدى ببعض الباحثين للربط بينها وبين المسيحية .

ودلنا الكشف الأثري على الدأب الذي تميَّز به سكان قمران في استنساخ الأسفار المقدَّسة وكتابات الطائفة ، وعلى أنهم خصصوا لهذه الغاية قاعة معيَّنة أقاموا فيها الموائد والمقاعد المكتابة . وأنشأوا مغاسل (قاعات استحمام) للتطهر الطقوسي قبل بداية أداء الشعائر وقسَّموها حسب درجة قدسية كل فرد ينتمي إلى الجماعة .

وقدَّر الباحثون عمر المخطوطات اعتماداً على دراسة اللغة والخطوط والمادة المكتوبة عليها والمادة التي دُوِّنت بها وشكل الأحرف والصياغة والرق والكتان والنحاس والأوعية الفخارية والعملات . ونجح البحث الأثري (باستخدام طريقة الكربون ١٤ المشع لفحص الكتان الذي لُفت به الوثائق والجرار الفخارية) في إعطائنا معلومات تقديرية عن عمر المخطوطات حيث قُدِّرت بالفترة من ٣٠٠ قبل الميلاد حتى ٧٠ ميلادية .

لقد كُتب أكثر من ثلاثة آلاف دراسة عن المخطوطات : مضمونها وتفسيرها وشروحها وتأويل ما بها وتقدير الأحداث التي تتناولها بالاستعانة بالبحث التاريخي المقارن . ولا ندري هل ستؤدي هذه الدراسات إلى إجراء تعديلات أو تأويلات مختلفة حول نشوء المسيحية ، فهذه مسألة تنتظر إجابات بعد الدراسات النهائية الكاملة المقارنة بالنصوص التاريخية ونصوص العهد القديم المعتمدة والترجمة عنها .

وتثير مخطوطات البحر الميت كثيراً من الإشكاليات . نذكر منها ما يلي :

١ ـ رغم الافتراضات العديدة ، لا يستطيع الباحثون إلى الآن الجزم بانتماء هذه المخطوطات إلى فرقة بعينها دون غيرها ، والتساؤلات المطروحة في هذه النقطة هي : إلى أي حد تمايزت الفرق اليهودية في بداية نشأتها ؟ وما مصداقية ما قاله المؤرخون اليهود وغيرهم مما نقله عنهم بعد ذلك آباء الكنيسة والمؤرخون اليونان والرومان القدامى ؟ وما الصلة القائمة بين الفرقة التي دوَّنت المخطوطات (أو نسخنها)

وغيرها من فرق طريدة سكنت مناطق مجاورة من برية نهر الأردن ؟ ولماذا عُثر في قلعة ماسادا على كتابات خاصة بطائفة قمران التي يُظن أنها طائفة من الزهاد ؟ ولماذا عُثر بين مخطوطات هذه الفرقة ، التي تُنسب إلى القرنين الأول قبل الميلاد والأول الميلادي ، على مخطوطة (أو أجزاء منها) تنتمي إلى منسوخات القرن العاشر الميلادي في معبد بن عزرا ؟ وما مصير الطائفة التي نسخت أو دوّنت النصوص ؟ هل ذابت الطائفة داخل التيار المسيحي الناشئ أم قضى عليها الصراع الطائفي ؟ وهل ما زالت لها بقايا أو ذيول في الفكر اليهودي للجماعات المتمردة على اليهودية الرسمية أو ممثليها ؟

٢ ـ تبلورت في اليهودية اتجاهات عديدة (قبل الفترة اليونانية الرومانية) ، فهل جاء إليها هذا النمط الفكري مع التيار الكاسح من التيارات الثقافية والدينية العديدة التي حملتها الهيلينية ؟ وهل صمدت اليهودية أم تطورت داخلياً لتواجهه ؟ وهل بدأت شيع منها تذوب في هذا الخضم من الأفكار الشرقية الهيلينية التي اكتسحت الشرق الأدنى القديم ؟ وهل الأسينية حركة يهودية ؟ وما الصلات القائمة بين الأسينية والمسيحية الناشئة وبين أتباع الجماعات السرية والغنوص الوثني ؟

٣ ـ تثير المخطوطات قضية علاقة الغنوصية (تلك الحركة التي طاردها بكل عنف آباء الكنيسة الأولون) باليهودية ؟ وهل يُخفي العداء الغنوصي للإله اليهودي «يهوه» نقداً يهودياً للإله ؟ ثم هل سبقت الجماعات من أشباه الغنوصيين «اليهود» ظهور الغنوصية نفسها أم أنها ظهرت متزامنة مع جماعات ظهرت في كلٍّ من الإسكندرية ومدن يونانية عديدة خلقتها ظروف متشابهة ناتجة عن مزج عقائد الشرق والغرب ؟

ثم ما الصلة بين هذه الجماعة وأصول القبَّالاه (وهي التي يطلق عليها جرشوم شوليم «الغنوص اليهودي») ؟ وإلى أي حد قد تكشف لنا هذه المخطوطات من الأسرار الخفية التي وردت عنها شذرات في التلمود (حجيجاد ٢/ ١٢ وغيرها) بشأن البحث في كرسي العرش الإلهي والكروبيم والأسرار المقدَّسة واسم الرب الأعظم (هشيم همفوراش) ؟

٤ ـ العثور على أسفار ونسخ من أسفار الأبوكريفا (غير القانونية) لأول مرة بالآرامية وليس بالترجمات اليونانية المعروفة للنصوص التي كانت تُعتبر غير قانونية وهذا ما يثير التساؤل بشأن مصداقية حفاظ زعماء اليهود على معيار ثابت يقدرون به قانونية أو عدم قانونية الأسفار المقدَّسة ؛ والتساؤل عن احتفاظ جماعة من الأتقياء بأسفار أفتى الفقهاء بعدم قانونيتها .

٥ ـ أما بالنسبة لكتابة المدراش والتفاسير على الأسفار المقدَّسة وهي تفاسير لأسفار الأنبياء الصغار ولأجزاء من سفري صموئيل والتثنية وأشعياء ، فقد طُرحت تساؤلات عديدة بشأن بداية مدارس تفسير يهودية قديمة ، وأسباب اتجاه بعض التيارات الفقهية المنشقة (مثل القرائين) للأخذ بمثل هذه المناهج التفسيرية ، ومدى الصلة بينها وبين مدرسة قمران التفسيرية . وكذلك زعزعت التفاسير الفقهية على النصوص الهالاخية في قمران وجهة النظر القائلة بعدم وجود شرائع شفهية لدى جماعات أخرى في اليهودية (مثل الصدوقيم) إن ثبت انتماء المخطوطات إليهم . ويُطرَح أيضاً التساؤل عن أسباب أخذ بعض الفلاسفة اليهود أمثال فيلون السكندري بالمنهج الرمزي في التفسير ومن بعده آباء الكنيسة أمثال هيرونيموس .

وقد هُرِّبت المخطوطات المكتشفة من بعض البلاد العربية وجرى الاتجار فيها بصورة غير شرعية وحصلت الحكومة الإسرائيلية على بعض المخطوطات المعروضة في الولايات المتحدة الأمريكية . وفي عام ١٩٥٧ ، حصلت الحكومة الأردنية على المخطوطات الأثرية المكتشفَة في منطقة البحر الميت بجميع أنواعها وبكل اللغات المكتوبة بها ثم سمحت بعرض بعضها في المتاحف بالولايات المتحدة الأمريكية وكندا وإنجلترا .

وقد خالفت إسرائيل اتفاقية لاهاي المبرمة عام ١٩٥٤ بشأن حماية الممتلكات الثقافية في حالة النزاع المسلح ، وذلك عندما نقلت أثناء معركة القدس (يونيه ١٩٦٧) كميات كبيرة من مخطوطات البحر الميت بدعوى الحفاظ عليها بصفة مؤقتة . وحتى اليوم ، لم تتم إعادة مخطوطات البحر الميت إلى مكانها الأصلي في (المتحف الفلسطيني - الأردني) .

وبالمقارنة بين مصير مخطوطات وبرديات نجع حمادي ومخطوطات البحر الميت ، نجد أن برديات نجع حمادي الغنوصية (اكتُشفت عام ١٩٤٧) نُشرت بالكامل بينما لم يتم نشر وتحقيق مخطوطات قمران وهي تحت سيطرة فريق محدد من الباحثين (إلا أن هناك عالمين أمريكيين قاما بتركيب نسخة من خلال معجم كلمات المخطوطات ، وقد بدآ في نشر بعض أجزاء منها) .

والسؤال الذي لا يزال مطروحاً هو :

لماذا التأجيل الذي دام عشرات السنين ؟ ولماذا يصر الفريق الدولي الباحث على إرجاع المخطوطات إلى ما قبل ظهور المسيح والمسيحية الناشئة وعلى تصوير جماعة قمران على أنها جماعة منعزلة غير مؤثرة بعيدة كل البُعد عن الواقع الديني والاجتماعي والسياسي في ذلك العصر ؟

في محاولة للإجابة على هذا التساؤل ، يمكن القول بأن ثمة تشابهاً واضحاً ، قد يصل إلى درجة التطابق أحياناً بين نصوص من العهد الجديد (الأناجيل) ونصوص وردت إلينا من مخطوطات البحر الميت . ومن ذلك ما ورد في أعمال الحواريين (الرسل) من أن أعضاء الكنيسة الأولى كانوا يشاركون في كل شيء . وثمة نص صريح يتصل بهذه الحياة التعاونية المشاعية في المخطوطة المعروفة باسم «ميثاق الجماعة» ، وكذلك مجموعة نصوص أخرى منظمة لشئون الجماعة .

ووفقاً لنص أعمال الحواريين أيضاً ، فإن ثمة قيادة جماعية للكنيسة الأولى تتكون من اثنى عشر حوارياً ، وثمة ثلاثة لهم أهمية خاصة (جيمس وبطرس وجون) وهو التقسيم نفسه الذي نجده في فتاوى جماعة قمران دون ذكر أسماء .

كذلك ثمة تشابه شديد في الطقوس على سبيل المثال ، فطقس التعميد وهو أحد أهم الطقوس المسيحية له نظيره في نصوص قواعد الجماعة حيث يرد : "إن الماء الطاهر ليُطهِّر الشخص الذي يرتضي لنفسه الخضوع للحق والإيمان بشريعة الرب حقاً ، تطهيراً من آثامه ولا يتطهر لو اغتسل بالأنهار والبحار وهو لا يزال على شريعة مخالفة" . يرد ذلك تمشياً مع المنهج الأخلاقي لسفر أشعياء : "اختتنوا أولاً غرلة قلوبكم قبل ختان غرلة أجسادكم" .

كذلك نجد أن هناك توجُّهاً واحداً ذا طابع مشيحاني فيما يخص كلاً من الكنيسة الأولى ونصوص قمران . وبالطبع ، فإن الماشيَّح المنتظر في الكنيسة الأولى هو «يسوع المخلِّص» ، بينما لا يوجد ذكر اسم محدد في نصوص قمران وإنما ثمة لقب هو «مُعلم الفضيلة» والشيء المهم هنا أن نصوص قمران لا تتكلم إطلاقاً عن أية طبيع إلهية لمعلم الفضيلة المذكور ، وهنا مربط الفرس ، فلو كان ثمة رب بين جماعة قمران وبين المسيحيين الأوائل لأمكن أن نقول إن مُعل الفضيلة «موريه هاتسيدق» هو السيد المسيح نفسه . وهكذا ، تنتفي الصفة الإلهية التي ينسبها بعض النصارى للسيد المسيح ، وبذلك نستطيع أن نفهم سبب الإصرار على إبعاد هذه الجماعة عن التداخ مع الواقع المحيط بها تماماً .

كما أن تأكيد عزلة تلك الجماعة يخدم أيضاً غرضاً آخر . ف أن هذه الجماعة كانت متداخلة في الحياة والواقع المحيط بها لأمك القول بأن المسيحية نشأت في إطار دعوة عامة للعودة إلى الح والشريعة التي انتهكتها جماعة اليهود (في فلسطين) ، وأن ث تواصلاً واطراداً تاريخياً بين جماعات متفرقة ومستمرة منذ انه حق اليهود في فلسطين وبين المسيحيين الأوائل الذين كانوا يحمل أفكاراً مشابهة ترفض الرؤية الشكلية للديانة والانغماس الشهوات وما إلى ذلك ، أي أن ثمة جماعات يهودية متعددة ول مجرد شعب يهودي واحد ذي تاريخ واحد وتطلعات واحدة . و ثم ، إن ثبت أن هذه الجماعة كانت تمثل رأياً مهماً ورمزاً أساسي الحياة السياسية والدينية والاجتماعية في وقتها ، فإن أسطورة الش اليهودي الواحد تتهاوى من الأساس وينهار معها أهم الر الأيديولوجية الصهيونية . وحينذاك ، نستطيع أن نفهم لماذا الصهاينة مع المعادين لليهود على طمس وإخفاء هذه الح التاريخية طوال هذه الفترة .



٥
الأنبياء والنبوة

الأنبياء والنبوة ـ صموئيل ـ إلياهو ـ يونان ـ هوشع ـ أشعياء ـ ميخا ـ عاموس ـ ناحوم ـ صفنيا ـ إرميا ـ حبقوق ـ دانيال ـ حزقيال ـ حجاي ـ زكريا ـ ملاخي ـ عوبديا ـ يونيل

الأنبيـــــاء والنبـــوة
Prophets and Prophecy

تعني كلمة «نافي» في اللغة العبرية «من يتحدث باسم الإله» ، أو «من يتحدث الإله من خلاله» ، أو «من يتكلم بما يوحي به الإله» ، أو «من يدعوه الإله» . وصيغة الجمع لكلمة «نافي» هي «نفيئيم» ، والإله يختار النبي ويوحي إليه ليحمل رسالته إلى الناس ، والنبي يكرس نفسه كلها للإله . كما أن النبي لابد أن يكون الإله قد اصطفاه وفضله على من عداه من بين قومه وزوده بهبة روحية وأمده بعون من عنده وبالقدرة على استقبال الوحي الإلهي وتلقينه لجماعته وبالدعوة التبشيرية لرسالته . ويُلاحَظ أن النبي رغم كل هذه المقدرات ليس تجسداً للكلمة الإلهية وإنما هو مجرد حامل ومبلغ لها وحسب . بل يمكن القول بأن فكرة النبوة هي تعبير عن رفض الحلولية والواحدية الكونية التي تردُّ كل شيء إلى مستوى واحد وتعبير عن رفض المباشر والمادي (الذي يأخذ شكل كهنوت وقرابين وسحر) وعن تَقَبُّل الثنائية الكونية (الخالق والمخلوق) . ولذا ، فإن النبي يبلغ كلمة موحى بها من الخالق تتضمن نسقاً أخلاقياً ثم يقوم بتدوينها فتصبح رسالة مكتوبة . ويمكننا القول بأنه إذا كان الكهنوت تعبيراً عن الرؤية الحلولية التي تذهب إلى أن الإله والإنسان (والطبيعة) يكوِّنون كلاً واحداً ، فإن النبوة تعني أن ثمة مساحة تفصل بين الخالق والمخلوق ، كما أن النبي بحمله الرسالة من الإله للبشر يحوِّل هذه المسافة إلى مجال يتفاعل فيه البشر مع الإله .

وإذا كان الكهنوت (شأنه شأن السحر) هو التقرب من الإله (بل وتقليم الرشاوي له) لتطويع إرادته لخدمة الإنسان في الحاضر والمستقبل ، فإن جوهر النبوة هو النظر إلى الماضي ورؤية الحضور الإلهي في التاريخ ، ليرى الإنسان معناه ومغزاه ، الأمر الذي قد يهديه سواء السبيل في الحاضر والمستقبل ، إن شاء الإنسان ذلك . ثمة عنصر صراعي حتمي يسم علاقة الخالق بالمخلوق في الإطار الكهنوتي (السحري) ، وثمة حيز إنساني ومجال للاختيار بين الخير والشر في إطار فكرة النبوة .

وإذا كانت كلمة «نبي» ذات مدلول واضح إلى حدٍّ كبير في العربية ، يزداد تحدُّداً ووضوحاً من خلال النص القرآني وأقوال الرسول ، فإن كلمة «نبي» لا تتمتع في العبرية أو داخل النسق الديني اليهودي بمثل ذلك التحدد والوضوح ، ويرجع ذلك إلى طبيعة اليهودية كتركيب جيولوجي تراكمي .

ويمكننا أن نقول إن مؤسسة النبوة هي إحدى محاولات حل مشكلة الحلول الإلهي ، أي كيفية التقاء الخالق بمخلوقاته (المطلق بالنسبي وما وراء الطبيعة بالطبيعي) وكيف يبلغهم قصده وأوامره . والحل الوثني للقضية معروف ، وهو الحلول الإلهي في الشعب والأرض ، ويتركز الحلول في طبقة كهنوتية ثم يزداد تركُّزاً في أسرة مالكة إلى أن يصل إلى قمة تركُّزه في شخص الملك (أو الكاهن الأعظم) الذي يصبح هو نفسه الإله المعصوم في الأرض . وهذا المخروط أو الهرم البشري (الزمني) يقابله مخروط أو هرم مكاني يتمثل في الأرض المقدَّسة (التي يوجد فيها الشعب) يشيَّد عليها المعبد المركزي المقدَّس (الذي يقوم على خدمته من الخارج صغار الكهنة) الذي تضطلع داخله أسرة كهنوتية متميزة بهذه المهمة ، إلى أن نصل إلى قدس الأقداس قمة تركز الحلول وهو البقعة التي لا يدخلها إلا الكاهن الأعظم أو الملك لينطق باسم الخالق فيتم التواصل بين السماء والأرض ، أو بين الخالق والمخلوقات ، من خلال شخصه .

وتنتمي العبادة اليسرائيلية إلى هذا النمط ، فهي عبادة وثنية حلولية يسيطر عليها الكهنة وتدور حول الشعائر والتمائم والأوثان (مثل الإيفود والترافيم) وحول محاولة معرفة الغيب والسحر ، وهي إن لم ترتبط في بداية الأمر بأرض فهذا يعود إلى طبيعة التركيب البدوي للمجتمع العبراني القَبَلي المتنقل .

ويمكن القول بأن مؤسسة النبوة هي محاولة لحصار الحلولية الوثنية وإحلال رؤية أكثر توحيدية محلها ، وذلك بطرح طريقة أكثر نقاءً وتجريداً لتواصل الخالق مع مخلوقاته . وكانت فكرة النبوة شائعة بين الشعوب السامية في بلاد الرافدين (في ماري) وفي كنعان . ويبدو أن النبوة (أو ما يُقال له النبوة) لعبت دوراً أساسياً ومهماً

ومركزياً بين العبرانيين القدامى (جماعة يسرائيل). ولكن مفهوم النبوة في هذه الحضارات السامية، وضمنها الحضارة العبرانية، كان مُختلَطاً إذ كانت شخصية النبي تختلط بشخصية الكاهن والعراف.

ولفهم مفهوم النبوة عند العبرانيين، قد يكون من المفيد الإشارة إلى مقطوعة في سفر الخروج (١٩/ ٢٠ ـ ٢٥) ترد فيها هذه الحادثة: "ونزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل. ودعا الإله موسى إلى رأس الجبل، فصعد موسى فقال الرب لموسى انحدر حذِّر الشعب لئلا يقتحموا إلى الرب لينظروا فيسقط منهم كثيرون. وليتقدس أيضاً الكهنة الذين يقتربون إلى الرب لئلا يبطش بهم الرب. فقال موسى للرب لا يقدر الشعب أن يصعد إلى جبل سيناء لأنك أنت حذَّرتنا قائلاً أقم حدوداً للجبل قدِّسه. فقال له الرب اذهب انحدر ثم اصعد أنت وهارون معك. وأما الكهنة والشعب فلا يقتحموا ليصعدوا إلى الرب لئلا يبطش بهم. فانحدر موسى إلى الشعب".

ومعنى كل هذا أن المواجهة المباشرة والجسدية والمادية مع الخالق أمر صعب للغاية، وقد يؤدي إلى الاحتراق، وأنه لابد أن تكون هناك حدود وحاجز ومسافة بين الخالق ومخلوقاته. وهذا الحاجز والوساطة هو موسى، أي أن الحلول الإلهي سينحسر بذلك عن الشعب والكهنة وسيصبح النبي وحده حلقة الوصل بين الشعب والإله التي سيتم من خلالها التبليغ الإلهي، حيث يسمع النبي كلمة الإله (لوجوس) وهي كلمة غير متجسدة، وإنما كلمة تُسمَع وتُقرأ وتُدوَّن. وقد تأكد هذا المعنى في سفر التثنية (٥/ ٥) «أنا كنت واقفاً بين الرب وبينكم في ذلك الوقت لكي أخبركم بكلام الرب، لأنكم خفتم من أجل النار ولم تصعدوا إلى الجبل». ثم يتكرر المعنى مرة ثالثة في سفر التثنية (٥/ ٢٦ ـ ٢٧) «لأنه من هو من جميع البشر الذي سمع صوت الله الحي يتكلم من وسط النار مثلنا وعاش. تَقدَّم أنت واسمع كل ما يقول لك الرب إلهنا وكلمنا بكل ما يكلمك به الرب إلهنا فنسمع ونعمل». فهنا، بدلاً من الاتصال المباشر بين الإله والشعب، يقف النبي كي يأتي برسالة يسمعها من الإله ثم يدونها ويبلغ كلماته إلى الشعب، أي أن الاتصال بين الإله ومخلوقاته لا يصبح اتصالاً جسدياً مباشراً وإنما يصبح اتصالاً غير مباشر أو مجرداً. وبدلاً من أن يصبح الشعب لوجوس، كلمة مقدَّسة متجسدة في التاريخ، وبدلاً من أن يصبح النبي لوجوس ابن الله، يتركز الحلول الإلهي في رسالة مكتوبة، أي رسالة هي حرفياً «لوجوس» أي كلمة.

وتدوين الكلمة مسألة في غاية الأهمية، لأنها تعني أن الرسول ليس سوى أداة تحمل الرسالة. فالرسالة حينما تُدوَّن تنفصل عن حاملها الذي يفقد أهميته، ويتم التركيز على القول نفسه، أي على اللوجوس بالمعنى الحرفي. بل إن الكلمة ـ لأنها مدوَّنة ـ تخضع لتفسير من يقرؤها. ولكل هذا، يُلاحظ أنه بعد أن يقوم موسى بدور الرسول، يتم تدوين الرسالة على الفور على لوحين (بل يقال إن الرسالة أتته مدوَّنة أو أن الإله دوَّنها بنفسه على اللوحين). وجوهر الرسالة هو الوصايا العشر التي تبدأ بتأكيد وحدانية الإله وتنزُّهه عن المخلوقات. ففكرة النبوة قد تحددت من البداية بأنها: انحسار الحلولية، وظهور التوحيد، واختفاء الكهانة، وظهور النبي، وضمور الشعائر، وتأكيد الالتزام الخلقي، وتجاوز القومية، والصعود إلى العالمية، ونبذ المباشر والجسدي والمادي، وتبنِّي غير المباشر والمتجرد والمنزه. ويذهب نُقّاد العهد القديم إلى أن هذه الفقرات التي تُنسَب إلى موسى ليست سوى إضافات قام بها محررو العهد القديم لينسبوا إلى عصر سابق فكرة لاحقة ظهرت في عصر لاحق، أي أنها فقرات كتبها أحد كتاب أسفار الأنبياء ليضفي رؤية الأنبياء التوحيدية على أسفار موسى الخمسة.

ومهما يكن الأمر، فإن الأمور، مع بداية تأسيس الدولة العبرانية المتحدة، كانت مختلطة تماماً. ولذا، فقد سقطت اليهودية مرة أخرى في العبادة القربانية والحلولية الوثنية الأولى، وكان يُشار إلى النبي بأربعة مُصطلَحات متناقضة يتبدى من خلالها تركيب اليهودية الجيولوجي التراكمي:

١ ـ «حوزيه»، أي «رائي»، وهو الشخص الذي يتنبأ بالغيب ويخبر بما سيكون، حسب علامات معروفة تلقى دلالاتها وتأويلاتها من السابقين، فهو حكيم وساحر وعراف وكاهن أكثر من «نبي» (مثل «الرائي» أو «الكاهن» العربي قبل الإسلام).

٢ ـ «روئيه»، أي «رائي»، وهو لا يختلف كثيراً عن الحوزيه.

٣ ـ «إيش إلوهيم»، أي «رجل الإله»، وهو رجل اختاره الإله وحباه وخصَّه بالمعرفة، فيقوم بتبليغ رسالته، وهو دال غير محدد الدلالة. ويُستخدم اللفظ للإشارة إلى كلٍّ من الحوزيه والروئيه والنبي (نافيء).

٤ ـ «نافيء»، أي «نبي».

وقد جاء في سفر صموئيل الأول (٩/ ٩) ما يلي: «هلم نذهب إلى الرائي، لأن النبي اليوم كان يُدعى سابقاً الرائي... فذهبا إلى المدينة التي فيها رجل الإله». وجاء في سفر صموئيل الثاني (٢٤/ ١١) إشارة إلى «جاد النبي رائي داود». وفي سفر أخبار الأيام الأول (٢٩/ ٢٩) ثمة إشارة إلى «صموئيل الرائي (روئيه) وناثان

النبي (نافيء) وجاد الرائي (حوزيه)» وكلهم من رجال الإله (إيش إلوهيم) .

ومن الواضح أن الأمور من الاختلاط بحيث لا يمكن التوصل إلى الصورة الواضحة . ولعل وجود ما يُسمَّى «أبناء الأنبياء» (بالعبرية : هانفيئيم) ، وهم جماعات من الأنبياء أو الدراويش ، شاهد آخر على مدى اختلاط المحيط الدلالي لكلمة «نبي» في العبرية وفي النسق الديني اليهودي .

ونُستخدَم كلمة «نبي» بهذا المعنى الجيولوجي المختلط للإشارة إلى عدة شخصيات دينية تتسم كلها (ما عدا الفريق الأخير) بأنها لم تترك رسالة مدوَّنة :

١ ـ الآباء : أخنوخ ونوح وإبراهيم ويعقوب وهارون وموسى .

٢ ـ القضاة : ديبورا وصموئيل .

٣ ـ وفي تقسيم العهد القديم تُستخدم كلمة «الأنبياء» للإشارة إلى قسمين مختلفين :

أ) الأنبياء الأولون أو المتقدمون (بالعبرية : نفيئيم ريشونيم) أو الشفويون ، وكانوا يكتفون بالنطق بنبوءاتهم ، كما يُشار إليهم بوصفهم «ما قبل الكلاسيكيين» .

ب) الأنبياء المتأخرون (بالعبرية : نفيئيم أحرونيم) ، ويسمَّون أيضاً بالأنبياء الأدبيين أي الذين دوَّنت أسفارهم . ويشار إليهم أيضاً بالكلاسيكيين ، ونحن نميل إلى تسميتهم «الكتابيين» .

وتضم قائمة الأنبياء الأولين الأسماء التالية مرتبة ترتيباً تاريخياً : داود ، وناتان ، وصادوق ، وجاد ، واخيا ، وعدّو ، وشمعيا ، وعزريا بن عوديد ، وحناني ، وياهو بن حناني ، وإيليا ، وإليشع ، وميخا بن يملة ، وزكريا بن يهوياداع ، وعوديد ، ويدوثون . ويبدو أن النبوة لم تكن مقصورة على الرجال ، فهناك إشارات إلى نبيات منهن مريم أخت هارون .

ولكن ، ورغم استخدام الدال «نبي» للإشارة إلى هذا الحشد الكبير ، فإننا نرى أن كلمة «نبي» بالمعنى المحدد للكلمة ، والذي تم تعريفه في إطار الطبقة التوحيدية في اليهودية ، يستبعد كل الأنبياء ما عدا الأنبياء الآخرين (الأدبيين أو الكتابيين أو الكلاسيكيين) للأسباب التالية :

١ ـ يُلاحَظ ، على سبيل المثال ، أن قيام الآباء بدور الأنبياء يعني أن النبوة هنا أمر مرتبط بالعرْق لا بالوحي ، فكلمة «آباء» تعني الارتباط بجماعة يسرائيل ، وهذا يعني أن القداسة تُورَّث (فالإله يحل في الإنسان ويجري في العروق) . كما يُلاحَظ أن الأنبياء من القضاة ينحون منحى قومياً شرساً ، فهم يعبِّرون عن النموذج الحلولي القومي حيث يظل الإله مرتبطاً بشعبه ، ولذا فهم لا يظهرون إلا في وقت الضائقة القومية . وبين الانتماء العرْقي والانتماء القبلي (القومي) تفقد الرسالة عالميتها وإنسانيتها . ولذا ، فإننا نجد أن فكرة تبليغ كل البشر برسالة الإله الواحد إله العالمين ، المنزه عن الطبيعة والتاريخ ، ليست مطروحة ، بل تظل النبوة شأناً عرْقياً قبلياً قومياً (حلولياً وثنياً) مقصوراً على جماعة يسرائيل . وتظل رسالة الأنبياء رسالة إلى جماعة يسرائيل وحدها ، من إله قومي إلى شعب مختار يرتبط بالإله بعقد خاص ، ولا يستهدف البشرية كلها .

٢ ـ ويُلاحَظ كذلك الاختلاط في ملك مثل داود الذي ارتكب عدداً لا بأس به من الذنوب ومع هذا ارتبط اسمه بالنبوة أيضاً ، حيث تُنسَب إليه المزامير ، كما أن الماشيَّح (نبي الأنبياء) سيكون من نسله . وثمة إشارة مبهمة في مزمور ١٦/٨ ـ ١١ توحي بعلاقة داود الخاصة للغاية مع الإله وتضعه تقريباً في مصاف الأنبياء . أما سليمان الغَزِل، الذي سمح لزوجاته الوثنيات العديدات بإحضار آلهتهن معهن ، فهو منشد نشيد الأنشاد أحد الكتب الدينية اليهودية (ولكن يبدو أن النبوة لم تُنسَب له قط) .

ونحن لو دققنا ، لوجدنا أن نبوة داود هي في واقع الأمر تعبير عن مؤسسة الملكية المقدَّسة ، على نمط الحلوليات القديمة في الشرق الأدنى القديم حيث يتم الحلول داخل شخص الملك الذي هو أيضاً الكاهن الأعظم .

٣ ـ كان الأنبياء الأولون يتحركون داخل نطاق البلاط الملكي ، الأمر الذي يعني تداخل القومي والديني وارتباط مؤسسة الملكية بالعقيدة الدينية . وكان الملوك والملكات يطلبون المشورة والنصح من الأنبياء نظير أجر يبلغ ، في بعض الأحيان ، ربع شيكل . وقد لعب هؤلاء الأنبياء الأولون دوراً سياسياً مهماً ، فكانوا يطلقون نبوءات سياسية . كما أن صموئيل مثلاً عيَّن شاؤول ملكاً على العبرانيين ، ثم عيَّن من بعده داود ، وكان دور ناتان في بلاط داود نشيطاً وفعالاً . ويصل هذا التوحد بين القومي والمقدَّس إلى قمته حين يصبح الشعب اليهودي بأسره أمة من الكهنة والقديسين والأنبياء والمشحاء المخلصين، فعضو جماعة يسرائيل يوصف بأنه «خادم الإله» و «كنز الإله الغالي»، وهذه أوصاف تُستخدَم لوصف الأنبياء وحدهم ، أي أن اختلاط المجال الدلالي هنا يصبح كاملاً .

٤ ـ ويمكن أن نبيِّن مدى تركيبية الصورة بالإشارة إلى الجماعات المسماة «أبناء الأنبياء» ، وهم جماعات من «الأنبياء» أو ر[illegible] الدراويش يدل وجودهم على أن النسق الديني بين العبرانيين لم يكن قد اكتسب الأبعاد العالمية التي دخلته فيما بعد . وكان هؤلاء الأنبيا[ء]

يتحركون في جماعات تبلغ المئات أحياناً يتقدمها رباب ودف وناي (أي أنهم كانوا في مظهرهم يشبهون الدراويش ، وهو ما يبيِّن أن التيار الحلولي كان قوياً) وكان الوحي يأتيهم بشكل جماعي ، وتزورهم روح الإله كجماعة لا كأفراد ، وكان هؤلاء أقرب من بعض الأوجه إلى العرافين : يقرأون الطالع ويحاولون معرفة أحداث المستقبل يقومون بأعمال السحر ، ويأتون بالمعجزات ، فهم ليسوا أصحاب رسالة عالمية أخلاقية ، وإنما يبحثون عن الحل السحري (الغنوصي) .

وفي تصوُّرنا أن صموئيل يشكل شخصية انتقالية للنبي من مستوى الرائي (روئيه أو حوزيه أو إيش إلوهيم) إلى مستوى النبي بالمعنى الدقيق والتوحيدي للكلمة وباعتباره عنصراً يتفاعل الإنسان مع خالقه من خلاله دون حاجة إلى حلول إلهي . هذا ما يقوله النص التوراتي ، وهو ما يعني انفصال الرائي (بكل ما يحمل من صفة الكهنوت) عن النبي (بكل ما يحمل من مقدرة على التبليغ) . لكن النص ينطوي ، مع هذا ، على استمرار واختلاط بين العنصرين . ولعل تعيين صموئيل لشاؤول ، وتردده في ذلك في الوقت نفسه ، هو تعبير عن هذه الانتقالية ، فكأن صموئيل هو الشخصية التي يتم من خلالها الانتقال مرة أخرى من الحلولية ومؤسسات الملكية المقدَّسة الوثنية إلى التوحيد ، ومن السحر والعرافة إلى النبوة الحقة ، تماماً كما حدث مع موسى حينما عاد بالوصايا العشر المكتوبة على اللوحين . ومما له دلالته أن الأنبياء الآخرين هم أيضاً دعاة توحيد يدونون أسفارهم ولا ينغمسون في قراءة الطالع والتنبؤ ومعرفة الغيب . ورغم أننا قدمنا صموئيل بوصفه شخصية انتقالية تفصل بين الأنبياء الأولين والآخرين ، فإن هذا لا يعني أن الأنبياء الذين كانوا على نمط الأنبياء الأولين قد توقفوا عن نشاطهم ، إذ من المعروف أنه كان هناك أنبياء من هذا النوع بعد ظهور الأنبياء الآخرين الكتابيين .

ويُقسَّم الأنبياء الآخرون أو المتأخرون أو الكتابيون إلى أنبياء كبار وأنبياء صغار . أما الأنبياء الكبار فهم : أشعياء وإرميا وحزقيال (ويذهب البعض إلى أن إليا أو إلياهو أحد الأنبياء الكبار وأنه أولهم) . أما الأنبياء الصغار فهم : هوشع ويوئيل وعاموس وعوبديا ويونان وميخا وناحوم وحبقوق وصفنيا وحجاي وزكريا وملاخي .

والواقع أن تقسيم الأنبياء إلى كبار وصغار يستند إلى حجم نبوءاتهم وليس إلى كيفها . ولذلك ، فإن هذا التصنيف لا مغزى له لأن أعمال الأنبياء الكبار لا تشكل وحدة ، ولأنها تنسب إلى أكثر من مؤلف . كما أن أعمال حزقيال ليست مرتفعة القيمة ، وأعمال أشعياء كمٌّ مركب من المواد التي أتت من عصور ومؤلفين مختلفين . وقد رتب مؤرخو العهد القديم المحدثون الأنبياء الكتابيين ترتيباً تاريخياً يختلف عن ترتيب أسفارهم في العهد القديم :

أ) أنبياء ما قبل السبي :

يونان (حوالي ٧٨٥ ـ ٧٤٥ ق . م) عاصر يُربعام الثاني في المملكة الشمالية (وفي رأي آخر أنه عاش في القرن الرابع قبل الميلاد) .

يوئام (حوالي ٧٦٠ ـ ٧٤٦ ق . م) عاصر عزيا في المملكة الجنوبية ، وعاصر يربعام الثاني في المملكة الشمالية

هوشع (حوالي ٧٥٠ ـ ٧٢٢ ق . م) عاصر عزيا ويوثام وآحاز وحزقيا في المملكة الجنوبية وعاصر يربعام الثاني في المملكة الشمالية .

أشعياء (حوالي ٧٣٤ ـ ٦٨٠ ق . م) عاصر عزيا ويوثام وحزقيا في المملكة الجنوبية .

ميخا (حوالي ٧٣٠ ـ ٧٠١ ق . م) عاصر يوثام وآحاز وحزقيا في المملكة الجنوبية .

ناحوم (حوالي ٦٣٣ ق . م)

صفنيا (حوالي ٦٣٠ ق . م) منذ أوائل ملك يوشيا في المملكة الجنوبية .

إرميا (حوالي ٦٢٦ ـ ٥٨٦ ق . م) عاصر يوشيا ويهوياقيم ويهوياكين وصدقيا في المملكة الجنوبية .

حبقوق (حوالي ٦٠٥ ق . م) .

ب) أنبياء فترة السبي :

دانيال (حوالي ٦٠٥ ـ ٥٣٧ ق . م) عاصر نبوختنصر ودارا وقورش .

حزقيال (حوالي ٥٩٣ ـ ٥٧٠ ق . م) عاصر نبوختنصر .

جـ) أنبياء ما بعد السبي :

حجَّاي (حوالي ٥٢٠ ق . م) عاصر دارا .

زكريا (حوالي ٥٢٠ ـ ٥١٨ ق . م) عاصر دارا .

عوبديا (حوالي ٤٥٠ ق . م) .

ملاخي (حوالي ٤٥٠ ق . م) .

يوئيل (حوالي ٤٥٠ ق . م) .

ولفهم السياق الاجتماعي للأنبياء الكتابيين ، لابد أن نعود إلى عهد القضاة حيث كانت الأسرة تشكل الوحدة الاقتصادية الأساسية ، وكانت الرابطة القَبَلية الشكل الأساسي للتضامن وكانت كل النشاطات الاقتصادية من رعي وزراعة وغيرهما تتم داخل هذ

الإطار السياسي الاجتماعي . ولكن الملكية الخاصة للأراضي بدأت تظهر بالتدريج ، وهو اتجاه أخذ في الزيادة مع ظهور نظام الملكية التي قامت بأعمال الإنشاءات الحكومية الضخمة كالهيكل والقصور الملكية ، وهو ما أدَّى إلى تراكم الثروات في أيدي بعض الأفراد . ثم انتهت الحروب مع الآراميين بعد أن كسر الآشوريون شوكتهم . ومع انتهاء الحرب ، ظهرت علامات الاستقطاب الطبقي داخل المجتمع العبراني إذ ازداد الفقراء فقراً والأثرياء ثراء . وقد أدَّى كل هذا إلى ضعف سلطان الأسرة ، وضعف واضمحلال النظام القَبَلي ، وتزايد بروز الفرد كوحدة اقتصادية ، وإلى ازدياد الصراع بين القرية والمدينة .

هذا على مستوى العلاقات داخل المجتمع العبراني . ولكن العنصر الحاسم ربما كان هو الخلفية الدولية . فقد كان المجتمع العبراني مجتمعاً صغيراً لا أهمية له بين إمبراطوريات الشرق الأدنى القديم الضخمة ، والتي كانت تتميَّز آنئذ بظهور الآشوريين ثم البابليين كقوى عظمى ، ثم ازدياد الهيمنة المصرية . وكان على المجتمع العبراني أن يتخذ قرارات سياسية محددة لحماية نفسه في خضم العلاقات الدولية الصاخبة . وكان الحوار المتصل بهذه القرارات هو الذي يشكل مضمون معظم كتب الأنبياء .

ونظراً لاحتكاك العبرانيين بالكنعانيين والإمبراطوريات العظمى ، بدأت تظهر عناصر دينية جديدة داخل المجتمع العبراني . فكانت الملكات اللائي يأتين من بيوت ملكية أجنبية يُحضرن معهن آلهتهن وبعض الكهنة للاستمرار في عبادة آلهة بلادهن ، بل كُنَّ يحاولن فرض هذه العبادات على العبرانيين ، كما فعلت إيزابيل . كما انتشرت عبادة آلهة الكنعانيين ، فترك أعضاء جماعة يسرائيل عبادة يهوه التوحيدية ، وانصرفوا إلى عبادة بعل . وقد كانت مثل هذه العبادات تجد سنداً لها ، في كثير من الأحوال ، في البيت الملكي والسلطة الحاكمة .

هذه هي العناصر الاجتماعية والدولية والعقائدية التي تشكل خلفية أسفار الأنبياء الآخرين ، والتي تركت أثرها العميق في نبوءاتهم ، وفي التفكير الديني في العالم . ويُلاحَظ تراجع النزعة القومية الحلولية الجماعية في كتاباتهم وتأكيد النزعة التوحيدية ، فقد صار لكل نبي صوته الفردي ، فأصبح يتحرك بمفرده كنبي صاحب رسالة يواجه المجتمع ، وليس كجماعة ولا كفرد ملحق بالبلاط الملكي ، الأمر الذي كان يعني الانفصال النسبي للديني عن القومي وللمطلق عن النسبي . كما بدأ المضمون الأخلاقي للنبوءات يتعمق ، وازداد تأكيد المسئولية الأخلاقية الفردية ، وأخذ نطاقها السياسي يتسع لتصبح هذه النبوءات أكثر أممية وتوحيدية وأقل قَبَلية وحلولية . وازدادت النبوءة علانية بحيث أصبحت الرسالة التي ينقلها النبي أكثر أهمية من الظواهر العجائبية التي تصاحبها ، مثل : الإغماء وتعطُّل الحواس والتصرفات غير الواعية . وصار مُصطلح «نبي» لا يشير إلى من يقرأ الطالع أو يحاول معرفة أحداث المستقبل (أي أن النبوة تخلصت من محاولة البحث عن الحل السحري والتحكم الكامل في الواقع) ، وإنما يشير إلى مُعلِّم ديني يتحدث باسم الميثاق أو العهد مع الإله ويخبر عنه وعن خفايا مقاصده وعن الأمور المستقبلية ومصير الشعوب والمدن والأقدار (بوحي خاص منه) . وهو يفعل ذلك لا ليبين مقدراته العجائبية على التنبؤ وإنما لينقل مضموناً أخلاقياً ملزماً . وهو لا يختار أن يكون نبياً وإنما يقع عليه الاختيار ليضطلع بهذه المهمة ، فالنبوة ليست ميزة لصاحبها وإنما هي تكليف إلهي . ويبدي بعض الأنبياء اليهود شيئاً من الإحجام والتردد عندما يتم اختيارهم ، لإحساسهم بأنهم غير جديرين بالمهمة .

ومع هذا ، يجب ألا نفترض أن الاختلاف بين الأنبياء الأولين ، والأنبياء الآخرين يعني أن لا علاقة بينهما ، فالفريقان في نهاية الأمر ينتسبان إلى التقاليد الدينية نفسها تقريباً . فكان الأنبياء الآخرون ، على سبيل المثال ، شأنهم شأن الأنبياء الأولين يأتون بأفعال رمزية . فقد سار أشعياء عارياً حافياً مدة ثلاثة أعوام ليرمز إلى أن ملك آشور سيقود المصريين والكوشيين عارين إلى المنفى (أشعياء ٢٠/ ٢ وما يليها) . واشترى إرميا إبريقاً فخارياً ثم كسره أمام أعين القوم ، تماماً كما سيكسر الإله هذا الشعب وهذه المدينة (إرميا ١٩/ ١ وما يليها) . كما أن الأنبياء الأولين ، مثل الآخرين ، تعتريهم أحوال وشطحات في لحظات الوحي .

ولم يختف الصوت القومي الحلولي تماماً في كتب الأنبياء الآخرين ، فهوشع يرى في يهوه أباً لجماعة يسرائيل يغار عليهم ويحبهم حباً جماً . وكان تفكيرهم الأخروي يتسم بأنه مازال إلى حد كبير يدور في إطار يوم الإله حينما تعلو جماعة يسرائيل على العالم .

ورغم عدم تَجانُس رؤى الأنبياء وتأرجحهم بين أقطاب متعارضة ، فيمكن رصد موضوعات أساسية تبين تصاعُد النزعة التوحيدية وتراجُع النزعة الحلولية ، من بينها أنهم كانوا يهتمون بالوضع الراهن ، والأحداث التاريخية (على عكس مؤلفي كتب الرؤى [أبوكاليبس] فيما بعد) . والإله ـ حسب رؤيتهم ـ هو محرك أحداث التاريخ ، لا التاريخ العبراني وحسب ، وإنما محرك التاريخ البشري ككل . كما أنه سيعاقب كل الأمم على ما تقترفه من معاصٍ وإن كان يخص جماعة يسرائيل بعقابه وحبه في الوقت نفسه . وم

ناحية أخرى ، فإن نبوآت الأنبياء ذات مضمون أخلاقي تدور حول سلوك جماعة يسرائيل في الوقت الحاضر وتوبتهم وعودتهم إلى الإله . وقد طوَّر الأنبياء عقائد اليهود الأخروية ، وبدأت الآخرة ترتبط بفكرة الخير والشر والثواب والعقاب حين يعاقب الإله الأشرار ، ولا يبقي سوى البقية الصالحة التي ستؤسس مملكته . وبدأت فكرة البعث تظهر بشكل جنيني عند دانيال وربما أشعياء . وقد ساهم الاحتكاك بالحضارة البابلية المتفوقة ، ثم التهجير إلى هناك ، في تعميق فكر الأنبياء . ونحن نذهب إلى أن تبلور الفكر الأخروي واكتسابه مضموناً أخلاقياً (ارتباط الثواب والعقاب بالخير والشر) هو أيضاً تعبير عن ضمور الحلولية التي يتراجع داخل إطارها التفكير الأخروي والمضامين الأخلاقية .

وقد شنَّ الأنبياء حرباً شعواء على انزلاق جماعة يسرائيل إلى الشرك والحلولية والوثنية وطالبوا الشعب بالعودة إلى الإله : إله شخصي يهتم بمصير البشر ولكنه لا يشبههم (فهو منزَّه عن الطبيعة والتاريخ)؛ إله خلق العالم من عدم ولم يهجره ؛ إله أخلاقي عادل يريد من عابديه أن يتمسكوا بأهداب الفضيلة وأن يمارسوا العدل ، ولذا فهو لا يُسرُّ بالذبائح وإنما بالعيش حسب قواعد الأخلاق ، أي أن الأنبياء بدأوا في تحرير اليهودية من الحلولية وما يرتبط بها من أسرار الكهنوت والعبادة القربانية . وقد ظهرت النبوة ، في واقع الأمر ، احتجاجاً على عبادة بعل (الطبيعية الحلولية) ، وضد الظلم الاجتماعي ، فطرحت رؤية توحيدية تنكر وجود الآلهة الأخرى . ولقد ظهر التوحيد الحقيقي على أيديهم ، فقد كان موسى وداود (حسب النصوص التوراتية) من أتباع المرحلة الوسطى ، مرحلة التوحيد المشوب بالشرك والاعتقاد بوجود إله واحد أعلى دون أن يمنع ذلك الاعتقاد بآلهة أخرى . ولأن رؤى الأنبياء توحيدية صارمة ، فإنها أيضاً رؤى أممية في الغالب . ولذا ، فالإله حسب تصوُّرهم لم يكن مقصوراً على جماعة يسرائيل ، وإنما هو إله العالمين ، ومن الممكن أن تكون آشور أو بابل أداة عقاب في يد الإله يضرب بها العصاة ، حتى لو كان هؤلاء العصاة شعبه المختار .

ومما يجدر ذكره ، أن الأنبياء كانوا ينطقون بنبوآتهم سواء كانت ترضي سامعيهم أم لا ، فالنبي يرى أن مهمته هي أن يبلغ الناس إرادة الإله بأمانة ، حتى ولو كانت ضد إرادته الشخصية أو ضد إرادة الناس الذين سيقوم بإبلاغهم الرسالة . ولذا ، فإننا نجد أن أسفارهم تضم الكثير من التقريع لجماعة يسرائيل والانتقادات الموجهة إليها . ومن أهم سمات الأنبياء الآخرين تدوينهم لأسفارهم ، وقد أشرنا إلى دلالة عملية التدوين هذه .

ومن أهم الموضوعات التي ترد في كتب الأنبياء ، فكرة «الميثاق» أو «العهد الجديد» الذي سيحل محل «العهد القديم» ، والذي سيكون أساسه القلب لا القرابين والطقوس ، وهو عهد عالمي لكل الأمم وليس مقصوراً على جماعة يسرائيل (والمسيحية ترى أنها هي هذا العهد الجديد بين الإله والشعب ، وأن الشعب هو كل من يؤمن بالمسيح لا اليهود وحسب ، أي أن المسيحية هي استمرار رسالة الأنبياء بأخلاقيتها وعالميتها) .

وفي مجال التفرقة بين الموقف الإسلامي والموقف اليهودي (الحاخامي) من النبوة والأنبياء يمكن أن نذكر العناصر التالية :

١ ـ لا يقتصر الوحي داخل النسق اليهودي على نبي أو رسول واحد (كما هو الحال في الإسلام) ، بل نجده ينتقل من نبي إلى نبي . ومن هنا ، فإن إحدى هبات الإله لجماعة يسرائيل (حسب تصوُّر الحاخامات) أنه أرسل وسيرسل لها دائماً عدداً من الأنبياء يكملون الطرق المعتادة للإرشاد والهداية التي يستخدمها الكهنة (ولهذا ، فإن هناك توتراً دائماً بين الكهنة والعقيدة الشعبية السائدة من جهة والأنبياء من جهة أخرى) . ويعبِّر هذا في تصورنا عن أن التركيب الجيولوجي اليهودي لم يتخلص من الصراع الحاد والدائم بين النزعة الحلولية (الوقوع في براثن الشرك وعبادة العجل الذهبي) والنزعة التوحيدية ، وأن تعدُّد الأنبياء ـ على مستوى من المستويات ـ هو تعبير عن هذا . كما أنه نظراً لاختلاف المجال الدلالي لكلمة «نبي» في اليهودية ، واختلافه عن المجال الدلالي للكلمة في الإسلام ، فإننا نجد أن عدداً ممن سموا «أنبياء» في التراث اليهودي لم يرد لهم ذكر في المصادر الإسلامية .

٢ ـ ويرى الدكتور أحمد خليفة أن التاريخ الذي يقدمه الإسلام للأنبياء هو تاريخ لكل الأنبياء والرسل باختلاف أزمنتهم وأمكنتهم وأجناسهم ولغاتهم ، بينما التاريخ الذي يقدمه التراث اليهودي للأنبياء هو تاريخ خاص قد تختلف فيه أزمنة الأنبياء ولكن تتحد فيها أمكنتهم وجنسهم ولغتهم (فالمكان هو فلسطين ، والجنس هو العبرانيون ، واللغة هي العبرية) .

٣ ـ ويذكر الدكتور علي وافي أن ثمة اختلافاً جوهرياً في بنية القصص في أسفار العهد القديم وقصص القرآن الكريم . فأسفار العهد القديم قد تناولت كل قصة من قصص الأنبياء في صورة سلسلة كاملة من الأجزاء مترابطة الحوادث (كما تفعل كتب التاريخ) وتناولتها لغرض تاريخي بحت . على حين أن القرآن يكتفي بذكر مواقف من هذه القصص ، باستثناء قصة يوسف ، ولكنه على كل حال لا يذكرها للتاريخ وإنما يذكرها للعظة والذكرى على وجه

الخصوص ويحسب المناسبات . فقد يذكر القرآن موقفاً من قصة لمناسبة خاصة ، ثم يذكر موقفاً آخر من القصة نفسها في سورة أخرى لمناسبة أخرى .

وعلى هذا الأساس ، يجب على القارئ المسلم أن يميز بين أنبياء اليهود والأنبياء الذين يرد ذكرهم في القرآن ، حتى لو حملوا نفس الاسم . فموسى (موشيه) القائد الحربي «القومي» ليس هو سيدنا موسى عليه السلام . وداود (ديفيد) قاطع الطريق والملك ليس هو سيدنا داود عليه السلام . وسليمان (شلومو) قاتل منافسيه ليس هو سيدنا سليمان عليه السلام . فرغم الاتفاق في الأسماء وفي بعض تفاصيل القصص ، فإن السياق والبناء العقائدي والديني والقصصي الذي ترد فيه هذه الأسماء يختلف اختلافاً جوهرياً ، والسياق والبناء وحده هو الذي يحدد المعنى العام والشامل .

وفي كتاب دانيال ، يُلاحَظ بداية اختفاء النبرة النبوية باهتمامها بالحاضر والإصلاح الأخلاقي ومواجهة الواقع . وتتضح بداية هيمنة الحلولية (وهو تيار استمر مع التلمود ووصل إلى قمته مع القبَّالاه) إذ تبدأ نبرة كتب الرؤى (أبوكاليبس) التي تركز على التغير الفجائي والتحولات الفجائية اللاتاريخية والهروب من الواقع في الحلول محل النبرة النبوية . وتُعَد الإصحاحات الأخيرة في كتاب دانيال بداية كتب الرؤى . ويُفسَّر هذا التغير على أساس أن الروح النبوية عادت لبعض الوقت بعد العودة من بابل . ولكن الهيكل الثاني لم يحقق أياً من أمنيات اليهود وآمالهم المشيحانية إذ أنهم لم يسودوا العالم . وقد حلت الإمبراطورية اليونانية محل الإمبراطورية الفارسية ، فأدَّى تحطُّم الآمال إلى تصاعد الحمى وتكاثر كتب الرؤى بنهجها التعويضي ونزوعها الحلولي . ورغم أن الحاخامات قد نادوا بأن روح النبوة انتهت بالنبي زكريا آخر الأنبياء الصغار (أي ظهر مفهوم يشبه مفهوم خاتم المرسلين الإسلامي) ، إلا أن ارتباط بنية اليهودية نفسها بالطبقة الحلولية الكامنة فيها تقف ضد هذا المفهوم . ولذا ، نجد أن تقاليد النبوة نفسها تم تحويلها من الداخل بحيث استولت عليها النزعة الحلولية ، فيُقال إن موسى ـ حسب الرواية التوراتية ـ تمنى على الإله أن يكون كل أفراد شعبه من الأنبياء ، وهذا ما يمكن تسميته «تقاليد النبوة المنفتحة» والمتاحة لكل فرد في كل زمان ومكان ، وهو مفهوم ينطوي على فكرة حلول إلهي مستمر في التاريخ وفي بعض البشر ، بل في الشعب اليهودي بأسره . وبطبيعة الحال ، ومع ظهور مفهوم الشريعة الشفوية التي تَجبُّ الشريعة المكتوبة ، يعود الحلول بكامل قوته ويصبح حامل الرسالة (الحاخام) أكثر أهمية من الرسالة المكتوبة .

وبالفعل ، نجد أن أعضاء المجمع الكبير والحكماء والحاخامات الذين أتوا من بعدهم أصبحوا هم نقطة الاتصال بين الخالق والمخلوق، يزعمون لأنفسهم المقدرة على التنبؤ . وبدلاً من الأنبياء الذين يبلغون نصاً مكتوباً للبشر وينادون بطاعة الإله والامتثال لأوامره ، تظهر تقاليد الشريعة الشفوية التي تؤكد أن التفسير البشري (الحاخامي) لكلام الإله أكثر أهمية وإلزاماً ، ومن ثم ورد في التلمود أن حكماء اليهود أعلى قدراً من الأنبياء (بابا باترا) . ومع هيمنة تراث القبَّالاه ، يصبح المفسر الذي يصل إلى المعنى الباطني (توراة الفيض) هو النبي الحقيقي الذي لا يعرف رسالة الإله وإنما يبلغها (توراة الخلق) ويعرف إرادة الإله ويغيِّرها ، ونصه الشفوي الذي ينطق به أكثر إلزاماً من النص الإلهي المكتوب ، ولذا فكل ما ينطق به «توراة» . وهذا الاتجاه يصل إلى ذروته في التساديك الحسيدي . وقد ورد في التراث الشفوي أن الشعب اليهودي سيصبح كله شعباً من الأنبياء ، أي أن الحلول أو التواصل الإلهي سيشمل الشعب بأسره ويصبح الشعب جزءاً من الإله ، وفي هذا عودة للوثنية الحلولية اليهودية قبل ظهور الأنبياء . وهذا المفهوم الأخير هو الذي يشكل خلفية معظم الآراء الدينية اليهودية في فكرة النبوة في العصر الحديث .

وقد حاول مندلسون أن يُقلِّل أهمية التقاليد النبوية المنفتحة في اليهودية ، وهذا أمر طبيعي حيث إنه كان يحاول وقف النزعة الحلولية ومن ثم التفرقة بين الزمني والمقدَّس وبين القومي والديني . أما الفيلسوف اليهودي هرمان كوهين ، فكان يحاول استعادة المضمون التوحيدي الأخلاقي لرسالة الأنبياء ، فأكد أن النبي هو المدافع عن الأخلاقيات العالمية ، وأن الأنبياء مفكرون تقدميون حاولوا تخليص الإنسان من أوهام الأساطير . ويُصرُّ الفكر الأرثوذكسي عند هيرش على فكرة الوحي (لا مجرد الإلهام كما يعتقد الإصلاحيون) ، وهو وحي يأخذ شكل رسالة على هيئة كلمات . ولكن الفكر الأرثوذكسي الحاخامي ، وريث مفهوم الشريعة الشفوية ، لا يعبِّر عن فكرة الأنبياء وحدها ، وإنما يعبِّر بشكل أكبر عن الفكر التلمودي الحلولي الذي قوضه وحل محله .

ويرى بوبر أن النبوة حوار بين الإله والإنسان وليس رسالة منزلة، وأن ثمة حواراً بين الإله والشعب اليهودي ككل ، الأمر الذي حوَّل تاريخ الشعب إلى وحي وحوَّل الوحي إلى تاريخ . فالإله هنا حالٌّ تماماً في التاريخ لا يتجاوزه ، وهو امتداد لذات الشعب ، ولذا فهو شعب من الأنبياء .

وتتأكد الحلولية في موقف الحاخام الصهيوني كوك من النبوة

فهي ـ حسب تصوره ـ ضرب من الاتحاد الصوفي بالشخيناه ، أو الحضرة الإلهية ، وأن الإنسان يصل إلى الاستنارة والشفافية من خلال هذا الاتحاد حتى يصل إلى أعلى درجات النبوة ، وبذا تصبح النبوة هدف أية تجربة دينية ، ويصبح كل يهودي مخلص في مصاف الأنبياء . ويتداخل الموضوعي والذاتي تداخلاً كاملاً وتدخل النبوة مرحلة شحوب الإله حتى أن النبوة عُرِّفت بأنها صوت الإله واستجابة الإنسان لها بحيث لا يمكن تمييز الصوت عن الاستجابة ولا الموضوع عن الذات . ويتحدث برانديز وكابلان ، فيريان علاقة وثيقة بين الأفكار النبوية اليهودية والأفكار الديموقراطية الأمريكية .

ويدور الفكر الصهيوني في إطار الحلولية بدون إله ووحدة الوجود المادية ، فأنكر كلٌّ من آحاد هعام وحاييم كابلان الطبيعة الميتافيزيقية للنبوة ، فالنبوة إن هي إلا تعبير عن الروح القومية اليهودية وليس لها أي مصدر إلهي . ولذا ، يمكن الحديث عن بن جوريون باعتباره النبي المدجج بالسلاح ، وعن جابوتنسكي باعتباره النبي المحارب . وبإمكان بن جوريون أن يتحدث عن اليهودي العادي باعتباره نبياً أو شهيداً ، بينما يؤكد نحمان سيركين أن استشهاد اليهودي قد رفعه إلى مصاف الأنبياء .

صموئيل (القرن الحادي عشر قبل الميلاد)

Samuel

«صموئيل» (أو «شموئيل») اسم عبري معناه «اسم الإله» أو «اسمه إيل» ، أي الإله . وصموئيل اسم لنبي عبراني وآخر القضاة . وهو أول نبي عبراني يقف إلى جوار الملوك . ويرتبط اسم صموئيل بفكرة الملكية بين جماعة يسرائيل ، فالقبائل العبرانية لم يكن يحكمها سوى قضاة أو زعماء يظهرون عندما تدعو الحاجة . ويرى ماكس فيبر أنها نوع من أنواع القيادة الكاريزمية البطولية . ولذلك ذهب شيوخ العبرانيين إلى زعيمهم الديني صموئيل ، وطلبوا إليه أن يجعل لهم «ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب» . وقد حذرهم صموئيل من أن الملكية في تصوره حنث بالميثاق أو العهد بين الإله والشعب ، ذلك العهد الذي جاء فيه أن جماعة يسرائيل لن يكون لها ملك سوى الإله . ولكنه في نهاية الأمر توَّج شاؤول ملكاً عليهم . وبعد تتويج شاؤول ، تدهورت العلاقات بينهما حتى انفصمت تماماً ، فتوج داود ملكاً بدلاً منه .

ويبين سفرا صموئيل العناصر التي أدّت إلى ظهور الملكية وجذورها المقدَّسة ، ويؤكدان أن الملك ، شأنه شأن الشعب ، مُلزَم بإطاعة العهد وبإرادة الإله . وتدور أحداث السفر الأول حول صموئيل نفسه وشاؤول . أما السفر الثاني ، فتدور أحداثه حول الملك داود .

إلياهو (النصف الأول من القرن التاسع قبل الميلاد)

Elijah

«إلياهو» (أو «إليا») اسم عبري معناه «إلهي هو يهوه» ، والصيغة اليونانية للاسم هي «إلياس» التي تستعمل أحياناً في العربية . وإلياهو نبي في المملكة الشمالية أثناء حكم كلٍّ من أخاب وأحازيا . جاء أصلاً من جلعاد . ويمكن اعتباره أول الأنبياء الكبار . كان يعمل راعي أغنام ، وسعى إلى استرجاع العبادة الأصلية ليهوه ، وخصوصاً بعد أن قامت إيزابيل بإدخال عبادة بعل ، فعارض البلاط الملكي دعوته لأسباب سياسية ، بل شجع عبادات الشعوب المجاورة . واضطر إليا إلى الهرب ، ولجأ إلى الصحراء ، ولكنه قاد الشعب ، وذبح كهنة بعل . ومن المعروف أن ثورة إليا التوحيدية كانت ثورة ضد النظم الاجتماعي أيضاً . وقد انضم إليه في دعوته صديقه النبي إليشع .

وحسب الرواية التوراتية ، لم يمت إليا وإنما صعد إلى السماء في عربة نارية تجرها خيول نارية . وهو يُعد المبشر بالماشيَّح وأهم علامة مؤكدة تبشر بتقدمه ، وسينفخ في البوق (الشوفار) معلناً قدومه ، وسيلعب دوراً أساسياً في العصر المشيحاني ، فسيقوم بتطهير النفوس مما علق بها من فساد ويهيء اليهود لهذا العصر ، وهو كذلك سيضع الحلول لجميع المشاكل ، وسيجلو الغموض الذي يتعلق بالدين والقضاء والشريعة ، كما سيقوم ببعث الموتى .

وفي احتفالات عيد الفصح ، تُصَبُّ له كأس ، ويُعَدُّ له كرسي عند احتفالات الختان يُسمَّى «كرسي إليا» . ويأخذ إليا في الوجدان الشعبي اليهودي في شرق أوربا هيئة النبي الجوال على الأرض الذي لا يعرف شخصيته أحد ، يرتدي ملابس بدوي ، ويقدم العون في لحظات الخطر والضيق ، ويظهر للمتصوفة والعلماء ليعلمهم الحقائق الخفية . وقد وردت قصة إليا في سفر الملوك الأول (الإصحاحان ١٦ ـ ١٩) ، وفي سفر الملوك الثاني (الإصحاحات ١ ـ ٢) .

يونان (حوالي ٧٨٥-٧٤٥ ق٠م)

Jonah

«يونان» أو «يونس» هما الصيغة السريانية والعربية للاسم العبري «يوناه» ومعناه «حمامة» . ويونان خامس الأنبياء الصغار ، تنبأ في أيام يربعام الثاني باتساع حدود المملكة الشمالية في عهده

وقد ورد في هذا السفر أن الإله طلب إلى يونان أن يذهب إلى نينوى، عاصمة الإمبراطورية الآشورية، ليعلن خرابها. ولكن القوم في نينوي أصغوا إلى نصيحة يونان وتابوا، فلم يُخرِّبها الإله وصفح عنهم. فاغتم يونان لذلك فقرَّعه الإله. كما ورد في السفر حادثة ابتلاع الحوت ليونان، حيث مكث في بطنه ثلاثة أيام. والسفر يتسم بالرؤية العالمية.

هوشع (حوالي ٧٥٠-٧٢٢ ق.م)

Hosea

«هوشع» اسم عبري معناه «الإله المنقذ المخلِّص». وهوشع نبي عاش وتنبأ في المملكة الشمالية في عصر يُربعام الثاني، وخصوصاً في الأيام الأخيرة للمملكة. وهو معاصر لعاموس قبل الغزو الآشوري، وقد استمرت نبوَّته أربعين عاماً.

وينصرف جل اهتمام هوشع إلى محاربة عبادة الأوثان، فلا يركز كثيراً على فكرة العدالة الاجتماعية. وقد تبع الازدهار والفساد، في عصر عاموس، فترة من الضعف الشديد والحرب الأهلية، كما أخذت قوة آشور في التصاعد. وقد كان لكل ذلك صداه في سفر هوشع، فتنبأ بسقوط المملكة الشمالية ونفى سكانها، وهاجم الشرك باعتباره تعبيراً عن تفكك الأمة.

والصورة المجازية الأساسية في سفر هوشع هي صورة الزنى: "وأول من كلم الرب هوشع قال الرب لهوشع اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى لأن الأرض قد زنت زنى تاركة الأرض" (١/ ٢). وقد أنجب هوشع من زوجته الزانية ثلاثة أبناء لهم أسماء رمزية، فالأول يُسمَّى "يزرعيل" باسم البقعة التي ذبح فيها ياهو أسرة آخاب (١/ ٤)، والثاني طفلة سماها «لورحامة» (من العبرية: «لا رحمة»): «لأنني لا أعود أرحم بيت يسرائيل بل أنزعهم نزعاً» (١/ ٦)، والثالث سماه «لوعمي» (من العبرية: «ليس شعبي»): "لأنكم لستم شعبي وأنا لا أكون لكم" (١/ ٨). فذنب جماعة يسرائيل هو سلوكها اللاأخلاقي واعتمادها على القرابين والقوة العسكرية.

ويهيب هوشع دائماً بالماضي فيشير إلى يعقوب، وإلى الخروج والتيه، فالرب هو الذي أخرج الشعب من مصر ولكن الشعب أثبت أنه غير وفيّ حتى قبل أن يصل إلى أرض الميعاد. وحينما وصلوا إلى هناك، أخفقوا في معرفة مصدر نجاحهم الحقيقي ونسبوا إلى بعل الخيرات التي منحهم يهوه إياها، ولذا فإن الرب سيعاقب الأمة ويلحق بها الخراب ويقتل سكانها.

ولكن، مع كل هذا، ورغم فساد الأمة، فإن يهوه في علاقته بجماعة يسرائيل يشبه هوشع في علاقته بزوجته الزانية. فيهوه هو الزوج الذي تركته زوجته الزانية التي تسير مع الفساق الآخرين، ولكنه مع هذا يظل على حبه لها. ولذا، وإلى جانب العقاب والوعيد، فإن هوشع يدعو الشعب للتوبة ويبشر بالعودة (١٤/ ١-٩). ويمكن القول بأن العلاقة بين يهوه والشعب علاقة حب مشبوب لا يمكن أن تنال منه خطايا الشعب.

وتوجد في السفر صور مجازية أخرى مثل صورة الأب والابن (١١/ ١-٣)، والطبيب والمريض (٧/ ١)، والصائد والطير (٧/ ١٢). وسفر هوشع أول أسفار الأنبياء الصغار.

اشعياء (حوالي ٧٣٤-٦٨٠ ق.م)

Isaiah

«أشعياء» (أو «يشعياهو») اسم عبري معناه «الإله يخلص». وأشعياء اسم نبي من أهم أنبياء اليهود، بل هو أعظم أنبياء العهد القديم قاطبةً. كان من أسرة نبيلة، أو ربما من دم ملكي، كما كان ذا ثروة طائلة. ولذا، كان أشعياء مقرباً من البلاط الملكي. ويُقال إن منَسَّى أعدمه.

ويُشكل صعود القوة الآشورية، التي تهددت العبرانيين القدامى، الخلفية التاريخية لنبوءات أشعياء. وربما كان أهم حدثين تاريخيين في نبوءات أشعياء هما: الأول رفض آحاز ملك المملكة الجنوبية الانضمام إلى ملوك المملكة الشمالية في الحلف المضاد لآشور، وقد أيَّد أشعياء هذه السياسة المحايدة.

والثاني أن حزقيال (ملك المملكة الجنوبية) تحدَّى آشور، وقد أدَّى هذا إلى حصار القدس. وحتى عندما انسحب الجيش الآشوري فجأة (٧٠١ ق. م)، استمر أشعياء في التحذير من المصير النهائي. وقد كان حسه التاريخي والسياسي دقيقاً إذ تنبأ بامتداد سلطان الآشوريين على الشرق الأدنى، ورأى في المستقبل البعيد الخطر المحدق من قِبَل بابل على المملكة الجنوبية، وعارض اعتمادها على مصر وتعاونها معها ضد آشور.

وكان أشعياء يرى يد الإله وراء كل الحوادث التاريخية، فكان يؤكد أن آشور هي أداة عقابه (١٠/ ٥)، وأن شعب الإله يجب ألا يثق إلا به، وألا يعتمد إلا عليه، فالإله وحده هو سند الشعب. وقد أكد أن الخلاص لا يتأتى إلا بتنفيذ مطالب الإله الأخلاقية، فالشفقة والبر بالفقراء أكثر أهمية عند الإله من تقديم القرابين. وكان أشعياء من الأنبياء الذين اتجهوا إلى القضية الاجتماعية، فهاجم

الأثرياء والحكام لتقبُّلهم الرشاوى وظلمهم المساكين وبذخهم وترفهم وطمعهم وجشعهم وسكرهم وانعدام الحس الأخلاقي عندهم .

وقد أعلن أشعياء بوضوح أن للعالم كله إلهاً واحداً ، الإله الحي الحقيقي الذي ستعترف به كل الأمم في النهاية ، ويعود الجميع إليه ، ويتوحدون فيما بينهم «وفي ذلك اليوم تكون سكة من مصر إلى آشور فيجيء الآشوريون إلى مصر والمصريون إلى آشور ويعبد المصريون مع الآشوريين ، في ذلك اليوم يكون يسرائيل ثلثاً لمصر ولآشور بركة في الأرض . بها يبارك رب الجنود قائلاً : مبارك شعبي مصر وعمل يدي آشور وميراثي يسرائيل» (١٩/ ٢٣ ـ ٢٥) . ثم تصل الأمور ذروتها في آخر الأيام حين تتوقف الحروب ويأتي الماشيَّح ملكاً من نسل داود .

وفي السفر المسمَّى باسمه يتحدث أشعياء عن العذراء التي ستحمل وتلد ابناً اسمه عمانوئيل (٧/ ١٤) ، وعن حلم السلام العام تحت رئاسة «أمير السلام» ، فتعم سلطته العالم ، ويطبع الناس سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل ويسكن الذئب مع الحمل . ولكثرة نبوءات هذا السفر عن الماشيَّح (٩/ ٦ ـ ٧) يُشار إليه بأنه النبي الإنجيلي ، وتُقتبَس نبوءاته في العهد الجديد أكثر من أي سفر آخر في العهد القديم .

ورغم عالمية نبوءاته ، فإنه كان يصر على إيمانه بخصوصية الشعب اليهودي . فجماعة يسرائيل هي الشعب المختار الذي قد يلحق به العذاب ، دون أن يفنيه الإله تماماً ، إذ ستبقى دائماً بقية صالحة تعود إلى فلسطين وتجدد الصلة بين الإله والأرض المقدَّسة .

أعطى أشعياء ولديه اسمين رمزيين : فسمَّى أحدهما «شثار ياشوف» ، أي «البقية ترجع» (٧/ ٣) ، وسمَّى الآخر «مهير شلال حاش باز» ، أي «يُعجِّل السلب ويُسرع النهب» (٨/ ١ ، ٤) . وربما كان له ابن ثالث هو عمانوئيل ، أي «الإله معنا» (٧/ ١٤) . ويُعتبَر الأسلوب الأدبي الرائع الذي كتب به سفره أجمل ما ورد في العهد القديم .

والسفر الذي يحمل اسمه ، هو أول سفر في كتب الأنبياء ، وينقسم إلى قسمين : أشعياء الأول (١/ ٣٩) . وأشعياء الثاني (٤٠/ ٦٦) ، كتبهما مؤلفان مختلفان ، وإن كان يُقال إن الجزء الأخير (٥٦/ ٦٦) هو أشعياء الثالث وكتبه مؤلف ثالث . ويُقال أيضاً إن تاريخ أشعياء الأول هو ٧٤٠ ق.م ، وأشعياء الثاني هو ٥٤٠ ق.م ، أما الثالث فيرجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد .

ميخا (حوالي ٧٣٠-٧٠١ ق.م)

Micha

«ميخا» اسم عبري معناه «مَنْ مثل يهوه» . وميخا نبي من المملكة الجنوبية من أصل فلاحي ، نشر تعاليمه بين عامي ٧٣٠ و٧٢٢ ق.م . وكان معاصراً لأشعياء ، كما كان يشبهه في أسلوبه ونهج كتابته . وقد دافع ميخا عن الفقراء ، وتحدث عن الشعب واضطهاد الطبقات الحاكمة له (٣/ ١ ـ ٣) ، وكان أول من أنذر بدمار البلد والنفي إلى بابل (٣/ ١٢) . كما تنبأ بملك من نسل داود سيأتي بالخير للعالم . وبذلك تتضح النزعتان العالمية والقومية في نبوءاته .

عاموس (حوالي ٧٧٠-٧٤٦ ق.م)

Amos

«عاموس» اسم عبري معناه «مُحَمَّل» أو «المُثقل بالأحمال» ، وعاموس أول نبي يهودي يُسمَّى باسمه أحد الأسفار . أعلن رسالته عام ٧٥٠ ق.م . وكان عاموس يعمل راعياً . وجاني جميز في مدينة تقواع الصحراوية على بعد تسعة عشر كيلو متراً من القدس . ولكنه نشر رسالته في المملكة الشمالية في عهد يربعام الثاني الذي أدَّت فتوحاته إلى تدفُّق الثروات والسلع الترفية الجديدة على المجتمع العبراني ، الأمر الذي أدَّى إلى انتشار الفساد ، وإلى ظهور طبقة من الأثرياء وملاك الأراضي الذي كبلوا صغار الملاك بالديون ، وصادروا أملاكهم ، وأفسدوا ذمم القضاة (عاموس ٢/ ٦ ـ ٧ ، ٣/ ١٠ ، ٥/ ١٠ ، ١٢) .

وقد هاجم عاموس هذا الفساد بضراوة ، بل إننا نجد أن فكرة التوحيد عنده مرتبطة بالعدالة الاجتماعية . وثمة رفض في سفر عاموس للعبادة القربانية والأضاحي (٥/ ٢١ - ٢٤) ، فالعبادة والطقوس والقرابين ليست إلا سخرية واستهزاء . ولذا ، فإن الأخلاقيات التي بشر بها عاموس أخلاقيات أممية ، وكانت تُعَدُّ جديدة على عصره ، كما أنها لم تكن تمثل الروح القومية الحلولية اليهودية . فيهوه هو إله كل الشعوب والأمم «ألستم لي كبني الكوشيين يا بني يسرائيل يقول الرب ، ألم أصعد يسرائيل من أرض مصر والفلسطينيين [أي الفلستيين] من كفتور والآراميين من قير» (٩/ ٧) . فلم يكن خروج العبرانيين من مصر هو وحده الحادثة التاريخية ذات المغزى الخاص ، بل خروج الشعوب الأخرى أيضاً . ولكن يهوه يظل ، مع هذا ، تربطه علاقة خاصة بشعبه ، فهو يعرف جماعة يسرائيل فقط ، ولذا فسيعاقبها على ذنوبها (٣/ ٢) . ثم تأخذ

الكارثة شكل هزيمة عسكرية يعقبها نفي جماعة يسرائيل . وكان عاموس مدركاً مدى خطورة التهديد الآشوري . ومن المحتمل أنه أُعدم على يد الكهنة (ويُقال إنه نُفي إلى تقواع) لأنه تنبأ بزوال المملكة الشمالية وزوال بيتها الملكي .

وسفر عاموس ثالث أسفار الأنبياء الصغار ، وهو مكتوب بأسلوب سهل يتواتر فيه عدد كبير من الصور المستمدة من الطبيعة ومن حياة الرعاة والمزارعين .

ناحوم (حوالي ٦٣٣ ق.م)

Nahum

«ناحوم» اسم عبري معناه «المُعزِّي» (صيغة اسم مفعول) . وناحوم أحد الأنبياء الصغار . تنبأ في السفر المسمَّى باسمه بسقوط نينوي . وأسلوب سفره أدبي ناصع يدل على أن مؤلفه امتلك ناصية اللغة وفن الوصف .

صفنياه (حوالي ٦٣٠ ق.م)

Zephaniah

«صفنياه» اسم عبري معناه «يهوه يستر» أو «يهوه يكنز» . وصفنياه نبي من أسرة نبيلة في المملكة الجنوبية . تنبأ في السنين الأولى من حكم يوشيا ، وكانت نبوءاته ذات طابع أخروي ، فهو يصف يوم الإله ، وكيف سيعاقب الأشرار . ويؤكد في سفره أن الفقراء سيرثون الأرض ، وأن كل الأمم ستعود إلى الإله وستعتمد عليه بقية جماعة يسرائيل وتصبح مقدَّسة ، فسيجمعهم ويصيِّرهم تسبحةً في الأرض كلها ، ويحكم وسطهم ملكاً في وسط شعبه .

إرميا (حوالي ٦٢٦-٥٨٦ ق.م)

Jeremiah

«إرميا» أو «إيرمياهو» ، وهي عبارة عبرية تعني «الإله يؤسس» أو «الإله يثبت» أو «الإله يُعلي» . وإرميا ثاني الأنبياء الكبار ، وكان من أسرة من الكهنة ناصبته العداء بسبب موقفه .

بدأ في التنبؤ عام ٦٢٧ ق.م أثناء ملك يوشيا ، فأعلن أن القدس ستسقط في يد البابليين ، وحذر من الثورة ضدها . وقد اتهمه الكهنة بمحاولة الانضمام إلى العدو وسجنوه في قبو ليموت جوعاً ، ولكن الملك رأف بحاله ونقله إلى سجن آخر وقدَّم له فيه الطعام . وظل إرميا على هذه الحال إلى أن سقطت القدس في يد البابليين على يد نبوختنصر ، وتحولت بعدها الدولة الجنوبية إلى دويلة تابعة . وبعد سقوط القدس ، قام الموظفون البابليون بحمايته، بسبب موقفه الممالئ لبابل . ولكن بعد مقتل جداليا ، وبعد أن نال الذعر من الثوار العبرانيين ، فرَّ العبرانيون إلى مصر واضطر إرميا إلى الفرار معهم ، حيث استمر في التنبؤ هناك . وكانت آخر نبوءاته أن اللعنة ستحل على يهود مصر لعبادتهم الأوثان (٤٣، ٤٤) .

اتصفت نبوءته بالآلام والمرارة ، ولكنه يطرح رؤية جديدة تماماً للتجربة الدينية يتجاوز بها الحلولية المادية الوثنية ويصل بها إلى التوحيدية الحقة إذ ينقلها من عالم الظاهر إلى عالم الباطن ، ومن عالم القرابين إلى عالم القلب والحياة ، ومن عالم المسئولية الجماعية إلى عالم المسئولية الأخلاقية الفردية . فالإله لا يطلب الذبائح فحسب ، بل يطلب الطاعة الداخلية ، فهو يريد من البشر حياة أخلاقية رفيعة (٧/ ٢١ـ٢٣) : «محرقاتكم غير مقبولة وذبائحكم لا تلذ لي» (٦/ ٢٠) . والإله لا يرضى إلا عن ذبائح المستمع المطيع (١٧/ ٢٤ـ٢٧) . وسيأتي وقت لا يُذكَر التابوت فيه (٣/ ١٦)، وإنما ينظر الإله إلى القلب وحسب (١٧/ ١٠ ، ٢٠/ ١٢) . وقد تنبأ إرميا بالعهد الجديد ، حين يكون للشعب قلب جديد ، وتُكتَب شريعة الرب في هذا القلب (٢٤/ ٧) . غير أن ما يتوِّج سفر إرميا هو ما جاء في الإصحاح ٣١ في الفقرتين ٣١ ـ ٣٣ إذ يقطع يهوه عهداً جديداً مع شعبه حيث يجعل شريعتهم في نفوسهم ويكتبها على قلوبهم ، وليس على ألواح حجرية (لوحي الشريعة) كما حدث في عهد آبائهم . ومن هنا يعلن مبدأ المسئولية الفردية .

وقد ارتفع إرميا بفكرة الإله من مستوى الفكر القومي الضيق إلى مستوى الفكر العالمي ، حيث تصبح العقيدة ديانة شخصية يعتنقها الفرد بعد أن يتوب إلى الإله ويرجع إليه ، وتصبح الأساس الذي ينبني عليه العهد الجديد . وتصبح عبادة عالمية تتبعها كل الشعوب (٣/ ١٧) ، وسيعترفون بأن آلهتهم أكاذيب لا قيمة لها (١٦/ ١٩ـ٢٠) .

حبقوق (حوالي ٦٠٥ ق.م)

Habkuk

«حبقوق» اسم عبري معناه «يعانق» ، وهناك رأي يذهب إلى أنها كلمة فارسية بمعنى «زنبقة سوداء» أو نوع من الزهور . وحبقوق أحد الأنبياء الصغار ، تنبأ في المملكة الجنوبية ، وكان لاوياً يغني في الهيكل . وقد تنبأ في القرن السابع أثناء حصار الكلدانيين (البابليين) لنينوي . يضم سفره صرخة يتوجه بها إلى الإله ضد العنف والعسف

والظلم ، وضد انتصار البابليين ، ثم يتساءل هل سيسمح الإله للبابليين بأن يتلفوا ويخربوا من هم أبر منهم . والجواب أن البابليين سيهلكون ، أما البار فبإيمانه يحيا (حبقوق ٢/ ١ ـ ٤) .

والسفر في أساسه ـ فيما يُرجح العلماء ـ مكوَّن من إصحاحين (الأول والثاني) أما الإصحاح الثالث فله جانب أسطوري واضح ، ولذا افتُرض أنه منحول . ومما يؤكد ذلك اكتشاف تفسير للسفر في قمران لا يحتوي إلا على الإصحاحين الأولين منه .

دانيال (حوالي ٦٠٥-٥٣٧ ق٠م)

Daniel

«دانيال» كلمة عبرية معناها «الإله قضى» . ودانيال أحد الأنبياء الأربعة الكبار . كان دانيال من عائلة شريفة ، ويُظن أنه وُلد في القدس . والسفر المسمَّى باسمه ينقسم إلى قسمين ، يضم القسم الأول والمعروف باسم دانيال (الإصحاحات من ١ إلى ٦) ، وتضم ست قصص عن محن دانيال وانتصاراته هو ورفاقه الثلاثة . وقد جاء في هذا القسم أن دانيال ورفاقه جاءوا إلى بابل بأمر من نبوختنصر ، فتعلموا الكلدانية ، وأبوا أن يأكلوا من طعام الملك أو أن يشربوا من خمره حتى لا يتنجسوا . ومع هذا ، وجدهم الملك عند نهاية فترة التعليم أكثر ذكاء وبهاء من الآخرين . وقد فسر دانيال حلماً لنبوختنصر ، وسُرَّ الملك بتفسيره ، وعينه ورفاقه مديرين لكل مقاطعة بابل . وكان الملك قد طلب إليهم أن يسجدوا للتمثال الذي نصبه ، وحينما رفضوا ألقى برفاق دانيال الثلاثة في النار ، ولكنهم لم يلحق بهم أي أذى ، فعبَّر الملك عن إعجابه بإله اليهود . وقد فسر دانيال حُلْمَ الملك عن الشجرة العظيمة التي قطعت ، وأخيراً فسر الكتابة على الحائط في الوليمة التي أقامها بيلشاصر ، والتي كان ينوي أن يستخدم فيها الأوعية التي أحضرها البابليون من الهيكل ، وأخبره دانيال بأن نهايته قد دنت . وبعد ذلك رفعه دارا الميدي إلى أسمى المناصب فأثار هذا حسد أعدائه فكادوا له ، وأُلقي به في جُب الأسود ولكن الإله نجاه .

أما القسم الثاني (دانيال B) ، فيضم الإصحاحات من ٧ إلى ١٢ . وهنا تتغيَّر شخصية دانيال ، ويتحول من حكيم يفسر الأحلام ، والإشارات للملوك ، ومن وزير يقع ضحية دس منافسيه إلى صاحب رؤى (أبوكاليبس) . فدانيال هو نفسه الذي يرى الأحلام المفزعة هذه المرة ، ويقوم ملاك بتفسيرها له .

أما الرؤيا الأولى ، فهي تمثل قوى العالم الأربع العظمى الطاغية (بابل ميديا وفارس واليونان) على شكل أربعة حيوانات ، ثم تزول هذه القوى وتسود من بعدها «مملكة شعب قديسي العلا» ، أي اليهود .

أما الرؤيا الثانية ، فيرى فيها القوة التي يمثلها تيس المعز الذي له قرن كبير ينكسر وينبت بدلاً منه أربعة قرون أخرى (الإمبراطورية اليونانية تحت حكم الإسكندر ثم خلفائه من بعده) ، وينبت قرن أصغر (وهو أنطيوخوس إيفانيس) . ويحارب تيس المعز ضد كبش له قرنان أحدهما أطول من الآخر (الأسرة المالكة الإيرانية : الميديون والفرس) .

أما الرؤيا الثالثة ، فهي رسالة حملها إلى دانيال الملك جبرائيل تتعلق بالمملكة المشيحانية التي ستأتي بعد تسعة وأربعين عاماً ، بعد أن يكفِّر اليهود عن خطاياهم .

أما الرؤيا الرابعة ، وهي أطول الرؤى ، فتأخذ شكل رسائل من الإله تؤكد محبته للمؤمنين الأمناء في شعبه ، وهي تخبره عما سيحدث من وقت السفر الافتراضي (ثالث عام من حكم قورش) حتى خلاص جماعة يسرائيل . فسيأتي بعد قورش ثلاثة ملوك فرس ، ولكن اليونان سيحتلون مكانهم ، أولهم ملك عظيم (الإسكندر الأكبر) . ثم يستمر السفر في سرد تفاصيل الحروب والزيجات الملكية المختلفة بين ملوك الممالك اليونانية ، إلى أن يصل إلى التدخل الروماني الذي اضطر أنطيوخوس الرابع (إيفانيس) إلى الانسحاب من مصر عام ١٦٨ ق . م . ثم اضطهاده لليهودية . ويتناول بقية السفر ما سيحدث بعد ذلك .

والجزء الثاني من سفر دانيال يُعَد من كتب الرؤى (أبوكاليبس)، والتي تختلف اختلافاً جوهرياً عن كتب الأنبياء . فبينما تركز كتب الرؤى على تفسير التاريخ تفسيراً عجائبياً غير أخلاقياً ، حيث يأتي الخلاص ويصبح كل ما يحدث في التاريخ الإنساني مصيراً محتوماً ، تركز كتب الأنبياء على الخلاص التدريجي، ومن خلال الإرادة الإنسانية . وقد أصبح السفر أساساً لكثير من التأملات الرؤياوية والصوفية ، وخصوصاً تلك المتعلقة بحسابات مقدم الماشيَّح . والواقع أن هذا السفر في عداد القسم المسمَّى بالكتب في العهد القديم ، وقد كُتب بعضه بالعبرية وبعضه بالآرامية . وكان بعض الباحثين يرى أن هذا السفر كتبه علماء المجمع الكبير . ولكن معظم العلماء يرون الآن أن الجزء الأكبر كُتب عام ٣٠٠ ق . م ، أما الثاني ، فكُتب في عهد أنطيوخوس الرابع في وقت كانت اليهودية تتعرض فيه للاضطهاد الشديد على يد هذا الحاكم السلوقي ، ولذا فإن رسالة الأمل التي يحملها السفر مناسبة للعصر .

وسفر دانيال أول سفر ترد فيه إشارة صريحة وواضحة إلى حياة ما بعد الموت والبعث ، وهي حياة مقصورة على كلٍّ من الأخيار والموغلين في الشر (١٢/ ٢) . وترد في السفر أيضاً إشارات عديدة إلى الملائكة ، وأن لكل أمة ملاكها ، وميخائيل هو ملاك جماعة يسرائيل . ويُقال إن شخصية دانيال رُسمت على طراز «دانيال» الذي أشير إليه في حزقيال (١٤/ ١٣ ـ١٤) ، وهو شخص معروف بحكمته ، يظهر في بعض النصوص الأوجاريتية . ويثير سفر دانيال كثيراً من الجدل ، فهو أولاً لا يرد ضمن كتب الأنبياء في النسخة العبرية من العهد القديم ، وإنما يرد ضمن كتب الحكمة . أما الترجمة السبعينية ، فتورده في القسم الخاص بالأنبياء ، ولعل هذا يعود إلى أن نص السفر كُتب متأخراً كما أنه كُتب بالعبرية والآرامية .

وقد اقتبس كتاب «رؤيا يوحنا اللاهوتي» كثيراً من أفكار وتصويرات ورؤى سفر دانيال عن الممالك الكونية وسقوطها . ويمثل سفر دانيال المعين الذي لا ينضب لتفسيرات كنائس السبتيين المسيحية (الأدفنتست) الذين يتبنون رؤيته للتاريخ الكوني .

حزقيال (حوالي ٥٩٣-٥٧٠ ق٠م)

Ezekiel

«حزقيال» أو «يحزقئيل» كلمة عبرية معناها «الإله يقوِّي» . وحزقيال نبي من أسرة صادوق الكهنوتية ومن قبيلة إفرايم ، وهو معاصر لإرميا ، وقد كان على دراية تامة بتعاليمه وصوره المجازية الإيضاحية . أطلق حزقيال نبوءاته في القدس ، ثم في بابل حيث هُجِّر مع اليهود الذين هُجِّروا إلى هناك ، واستمر في التنبؤ لسنوات طويلة (٥٩٣ ـ ٥٧٠ ق . م) . ويبدو أنه نُفي قبل التدمير النهائي للقدس (٥٨٦ ق . م) ، فقد تنبأ بدمارها ، وألقى باللوم على اليهود الذين بقوا في المملكة الجنوبية لاتباعهم طرق الشر ، ولتقتهم البالغة في نجاتهم من التهجير البابلي . وقد استخدم حزقيال «الزنى» كصورة مجازية ، وهي الصورة التي استخدمها هوشع من قبل ، ولكنه طورها . كما أنه كان يرى أن تاريخ الشعب كله ، منذ الخروج ، تاريخ عصيان (٢٠/ ١ ـ٣٨) .

ولكنه ، بعد تحطيم القدس ، أدخل العزاء على قلب المتقين برؤى الخلاص ونبوءات الخراب التي ستلحق بالأغيار . وقد فسَّر حزقيال الغرض الإلهي من شتات اليهود بأنه نشر العدالة في العالم ، وبشر بفكرة أورشليم المستقبل حينما يغفر الإله للشعب . وبين لهم أن خطايا الجيل السابق لا تمنع الجيل الحالي من أن يقرر ، إن شاء ، العودة إلى الإله . وثمة أمل في أن يعود الشعب إلى أرضه ، ليعيش في سلام وطمأنينة يسوس أموره حكامه ، ويكون الإله هو راعيه الصالح . وسيقوم الشعب ببناء الهيكل الجديد . ويبشر حزقيال كذلك بطبيعة الشعب التي ستُخلَق من جديد ، فجماعة الإله الجديدة هي موضوع رجاء شعبه (٣٦/ ٢٤ ـ ٣٠) . ويتميَّز حزقيال بتأكيده المسئولية الفردية بشكل أوضح (١٨ ، ٣٣/١ ـ ٢٠) .

وسفر حزقيال ثالث الأسفار في كتب الأنبياء العظام ، وهو مكتوب بضمير المتكلم ، وأسلوبه شعري ويحوي صوراً مجازية ورموزاً عديدة .

حجاي (حوالي ٥٢٠ ق٠م)

Haggai

«حجَّاي» اسم عبري معناه «عيد» (مولود في يوم عيد) . وحجَّاي أحد الأنبياء الصغار . تنبأ بعد التهجير إلى بابل في العام الثاني من حكم دارا الأول . وقد دعا إلى إعادة بناء الهيكل ، وتحدث عن قوانين النجاسة ، وتنبأ بعظمة الهيكل .

زكريا (حوالي ٥٢٠ ق٠م)

Zechariah

«زكريا» (زخارياه) اسم عبري معناه «يهوه قد ذكر» . وزكريا أحد الأنبياء الصغار . وقد كتب زكريا سفره أثناء حكم دارا الأول وبعد العودة من بابل ، وكان زكريا من الكهنة . وتتعلق نبوءاته بتجميع المنفيين ، والتحرر من النير الأجنبي ، وتوسيع القدس . وهو يصف رؤاه وتفسيرها من خلال ملاك . وينسب بعض العلماء الإصحاحات ٩ - ١٤ إلى مؤلف آخر عاصر فترة الهيكل الأول ، وذلك على أساس لغتها ومضمونها .

ملاخي (حوالي ٤٥٠ ق٠م)

Malachi

«ملاخي» اسم عبري معناه «رسولي» أو «ملاكي» . وملاخي آخر أنبياء العهد القديم ، يقرنه البعض بعزرا ، ويساوون بينهما ويرى بعض العلماء أن «ملاخي» ليس اسم علَم وإنما صفة لكاتب السفر . وقد عاش ملاخي بعد بناء الهيكل الثاني . ويتضمن السفر توبيخاً للكهنة ، لتراخيهم في تطبيق قواعد القرابين والعشور ، فه

يقدمون ذبائح بها عيوب ولا يعيشون وفقاً للشريعة، وهم لا يعلّمون الناس الحق . وهو يذم التزوج بمن هن من خارج المجتمع . وينتهي السفر برؤية أخروية ليوم الإله .

عوبديا (حوالي ٤٥٠ ق.م)

Obadiah

«عوبديا» اسم عبري معناه «عبد يهوه» . وعوبديا رابع الأنبياء الصغار ، يوجه اللوم العنيف في سفره إلى أدوم ، لأنها لم تهبّ لمساعدة القدس ساعة محنتها . ويؤكد فيه أن يوم الرب قريب . ومن غير المعروف متى كُتب السفر ، ولكن من المتفق عليه أنه كُتب بعد هدم الهيكل .

يوئيل (حوالي ٤٠٠ ق.م)

Joel

«يوئيل» تركيب عبري معناه «يهوه هو الإله» . ويوئيل أحد الأنبياء الصغار ، وهو أيضاً مؤلف السفر الذي يُعرف باسمه . ويمكن تقسيم سفر يوئيل إلى ما يلي : الإصحاحين الأول والثاني اللذين ترد فيهما نكبة الجراد ، ثم الإصحاحين الثالث والرابع اللذين يتناولان يوم الرب حينما يعيد الرب شعبه من السبي ويعاقب أعداءه . والتاريخ الذي كُتب فيه السفر غير معروف ، فمن العلماء من يظن أن كاتبه كان معاصراً لأشعياء ، ومنهم من يذهب إلى أنه عاش في ملك يوشيا ، ولكن ثمة اتفاقاً عاماً بين العلماء على أن يوئيل تنبأ بعد العودة من بابل .



٦
اليهودية الحاخامية (التلمودية)

اليهودية الحاخامية (التلمودية) - اليهودية الربانية - اليهودية المعيارية - اليهودية الكلاسيكية - التلمود : تاريخ - أقسام التلمود - الموضوعات الأساسية الكامنة في التلمود - سمات التلمود الأساسية - التلمود وأعضاء الجماعات اليهودية - كتب التفسير (مدراش) - المشناه - الجماراه - التشريع والشريعة - هالاخاه - التفسيرات القصصية الأسطورية (أجاداه) - أجاداه - الفتاوى - القواعد التكميلية (تاقانوت) - الأعراف (منهاج) - القرارات (جزيروت) - بيلبول - الكتاب الخارجي (برايتا) - التذييل (توسفتا) - الشولحان عاروخ

اليهودية الحاخامية (التلمودية)

Rabbinical (Talmudic) Judaism

«اليهودية الحاخامية» أو «اليهودية التلمودية» أو «اليهودية الربانية» أو «اليهودية الكلاسيكية» أو «اليهودية المعيارية» هي شكل العقيدة اليهودية السائد بين معظم الجماعات اليهودية في العالم ابتداءً من حوالي القرن التاسع الميلادي وحتى نهاية القرن الثامن عشر. وهي عبارة استخدمها اليهود القرّاءون ليؤكدوا أن النسق الديني الذي يؤمن به الفريق الديني المعادي لهم لا يتمتع بالمطلقية وإنما هو ثمرة جهود الحاخامات (بمعنى الفقهاء) الذين فسروا التوراة (الشريعة المكتوبة) وابتدعوا الشريعة الشفوية (التوراة الشفوية أو التلمود) وجعلوها الأساس الذي تستند إليه رؤيتهم الدينية والمحور الذي تدور حوله وذلك تمييزاً لها عن اليهودية (التوراتية ، إن صح التعبير) التي تستند إلى التوراة وحسب (الشريعة المكتوبة) المرسلة من الإله . ولكن ، بتحوّل القرائين إلى جماعة دينية هامشية ، أصبح مصطلحا «يهودية حاخامية» و«يهودية» مترادفين .

واليهودية السائدة في إسرائيل على المستوى الرسمي هي اليهودية الحاخامية التلمودية ، وهو ما يسبب كثيراً من المشاكل لأعضاء الجماعات الدينية أو الإثنية اليهودية الأخرى ، مثل : الفلاشاه والسامريين وبني إسرائيل (من الهند) ، فهم لا يعترفون بالتلمود ولا يعرفونه أصلاً . والوضع نفسه يسري تقريباً على اليهود الإصلاحيين والمحافظين (رغم ادعاء الفريق الثاني أن يهوديتهم المحافظة إن هي إلا تطوير لليهودية الحاخامية) . وفي مقابل هذا ، فإن دار الحاخامية في إسرائيل (ممثلة اليهودية الحاخامية) لا تعترف بهم كيهود .

اليهودية الربانية

Rabbinical Judaism

«اليهودية الربانية» مصطلح مرادف لمصطلح «اليهودية الحاخامية التلمودية» . وتستخدم هذه الموسوعة المصطلح الأخير لأننا نترجم كلمة «رابي» إلى كلمة «حاخام» التي كانت شائعة في الدولة العثمانية . وكلا المصطلحين مرادف أيضاً لكلٍّ من «اليهودية المعيارية» و«اليهودية الكلاسيكية» .

اليهودية المعيارية

Normative Judaism

«اليهودية المعيارية» صياغة أخرى لمصطلح «اليهودية الكلاسيكية» أو «اليهودية الحاخامية والتلمودية» ، وهو مصطلح يستند إلى تصوُّر أن ثمة جوهراً ثابتاً لليهودية ، فلُب اليهودية (حسب هذا التصور) متفق عليه ، وهو أن عدم التجانس لا ينصرف إلا إلى الأفكار الفرعية ، وأن العقائد اليهودية الأساسية أمر مستقر ومحدد . ولكن ، نظراً لتركيب اليهودية الجيولوجي التراكمي ، فإن هذا الجوهر من الصعب الوصول إليه ، إذ يصعب تقرير الأساسي والفرعي وتمييز اللباب عن القشور . والواقع أن ما يراه مفكر ما لب اليهودية ، يجده آخر أمراً ثانوياً ، وقد تكون التصورات اليهودية الخاصة بالإله وتأرجحها بين التوحيد والحلولية مثلاً جيداً على ذلك . ويرفض كثير من المفكرين اليهود المحدثين فكرة اليهودية المعيارية مفضلين رؤية اليهودية ككيان عضوي متطور منفتح يتغيَّر بتغير الظروف والبيئة ، أي أنها نسق فكري (تاريخاني) غير متجاوز للزمان والمكان .

ولعل في افتقار اليهودية إلى المعيارية ما جعل بوسع الصهيونية أن تبحث لنفسها عن شرعية من خلال الدين اليهودي نفسه ، ثم

تنجح في الاستيلاء على اليهودية ككل من خلال علمنتها من الداخل. وهذا أيضاً هو السبب في أن اليهودية التجديدية التي لا تؤمن بالإله أو تسوّي بينه وبين فكرة التقدم وتقرنه به مازالت تستطيع أن تُطلق على نفسها مصطلح «يهودية». وللسبب نفسه، فإن أكثر من خمسين في المائة من يهود العالم لا يؤمنون بالإله، ومع هذا يصرون على تسمية أنفسهم «يهوداً» (وإن كانوا يقرنون كلمة «يهودي» بكلمة «إثني» حتى يميّزوا أنفسهم عن اليهود المتدينين أو المعياريين).

اليهودية الكلاسيكية

Classical Judaism

مصطلح «اليهودية الكلاسيكية» مرادف مصطلح «اليهودية المعيارية». وفي هذه الموسوعة فإننا نشير إلى «اليهودية الكلاسيكية» بتعبير «اليهودية الحاخامية» أو «اليهودية التلمودية». ويمكن أن نقول إن تاريخ ظهورها يرجع إلى ما بعد تدوين التلمود وبداية العصور الوسطى في الغرب (القرن التاسع تقريباً). وقد بدأ نفوذ اليهودية الكلاسيكية ينحسر مع عصر الاستنارة والانعتاق في نهاية القرن الثامن عشر، وانقسمت بعدها اليهودية إلى فرق عديدة. وتُعَدُّ اليهودية الأرثوذكسية استمراراً لليهودية الكلاسيكية أو المعيارية أو الحاخامية.

التلمـود: تاريـخ

Talmud : History

«التلمود» كلمة مشتقة من الجذر العبري «لامد» الذي يعني الدراسة والتعلم كما في عبارة «تلمود توراه»، أي «دراسة الشريعة». ويعود كل من كلمة «تلمود» العبرية وكلمة «تلميذ» العربية إلى أصل سامي واحد. والتلمود من أهم الكتب الدينية عند اليهود، وهو الثمرة الأساسية للشريعة الشفوية، أي تفسير الحاخامات للشريعة المكتوبة (التوراة). ويخلع التلمود القداسة على نفسه باعتبار أن كلمات علماء التلمود كان يوحي بها الروح القدس نفسه (روح هقودش) باعتبار أن الشريعة الشفوية مساوية في المنزلة للشريعة المكتوبة. والتلمود مُصنَّف للأحكام الشرعية أو مجموعة القوانين الفقهية اليهودية، وسجل للمناقشات التي دارت في الحلقات التلمودية الفقهية اليهودية حول المواضيع القانونية (هالاخاه) والوعظية (أجاداه). وقد أصبح التلمود مرادفاً للتعليم القائم على أساس الشريعة الشفوية (السماعية). ومن هنا، يطلق المسعودي (المؤرخ العربي الإسلامي) على سعيد بن يوسف اسم «السمعاتي» (مقابل «القراني» أو من يرفض التراث السماعي ويحصر اهتمامه في قراءة التوراة المكتوبة).

وتتضح الخاصية الجيولوجية اليهودية في التلمود، فهو يضم داخله وجهات نظر شتى متناقضة تماماً. فهو عبارة عن موسوعة تتضمن الدين والشريعة والتأملات الميتافيزيقية والتاريخ والآداب والعلوم الطبيعية. كما يتضمن، علاوة على ذلك، فصولاً في الزراعة وفلاحة البساتين والصناعة والمهن والتجارة والربا والضرائب وقوانين الملكية والرق والميراث وأسرار الأعداد والفلك والتنجيم والقصص الشعبي، بل ويغطي مختلف جوانب حياة اليهودي الخاصة، أي أنه كتاب جامع مانع بشكل لا يكاد يدع للفرد اليهودي حرية الاختيار في أي وجه من وجوه النشاط في حياته العامة أو الخاصة، إن هو أراد تطبيق ما جاء فيه. ويشيرون إلى التلمود بعبارة «كلُّ بو» (أي: كلٌّ به)، فهو يشتمل على كل ما يعنُّ لليهودي أن يسأل عنه من شريعة دينه.

والواقع أن التلمود ليس من الكتب الباطنية أو تلك التي تحيط بها هالة من السرية والغرابة والإخفاء (كما يتوهم البعض). وهناك نسخ منه في معظم المكتبات الجامعية المتخصصة في الولايات المتحدة وفي بعض مكتبات مراكز البحوث أو الجامعات في الدول العربية. ويُلاحَظ أن التلمود كتاب ضخم متعدِّد الأجزاء، مجلداته كثيرة وضخمة تصل في بعض الطبعات إلى ما يزيد على عشرين مجلداً. لكن هناك طبعة «إفري مانز تلمود Everyman's Talmud» المختصرة.

وهناك تلمودان:

١ ـ التلمود الفلسطيني: وينسبه اليهود خطأً إلى أورشليم (القدس) فيقولون «الأورشليمي»، ذلك مع أن القدس خلت من المدارس الدينية بعد هدم الهيكل الثاني، وانتقل الحاخامات إلى إنشاء مدارسهم في يفنه وصفورية وطبرية. كما أطلق يهود العراق على التلمود الفلسطيني اسم «تلمود أرض يسرائيل»، وأطلقوا عليه أحياناً اسم «تلمود أهل الغرب» نظراً لوقوع فلسطين إلى الغرب من العراق.

٢ ـ التلمود البابلي: وهو نتاج الحلقات التلمودية (أكاديمية ـ يشيفا) في العراق (بابل)، وأشهرها سورا ونهاردعه وبومبديثا. ويُعرَف هذا التلمود في حالات نادرة جداً باسم «تلمود أهل الشرق».

وكلا التلمودين مكوَّن من المشناه والجماراه. والمشناه في كل منهما واحد لا اختلاف بينهما، أما الجماراه فاثنتان: إحداهما وُضعت في فلسطين، والأخرى في العراق. ولما كانت الجماراه

البابلية أكمل وأشمل من الجماراه الفلسطينية ، فإن التلمود البابلي هو الأكثر تداولاً ، وهو الكتاب القياسي عند اليهود . ولذا ، فحين يُستخدَم لفظ «التلمود» بمفرده ، محلّى بأداة التعريف ، فإن المقصود به هو التلمود البابلي دون سواه ، وذلك على أساس الميزة والأفضلية والتفوق . وفي الكتابات العلمية ، يشير اللفظ إلى الجماراه وحدها . ويضاف عادةً تعليق راشي على التلمود عند طبعه ، وإن كان هذا التعليق لا يُعَدُّ جزءاً منه . ويبلغ عدد كلمات التلمود البابلي مليونين ونصف مليون كلمة في نسخته الأصلية (تشكل الأجاداه ٣٠٪ منها)، وعلى هذا فإن حجمه يبلغ ثلاثة أضعاف حجم التلمود الفلسطيني . وقد كُتب التلمود بأكثر من لغة ، فالمشناه كُتبت بعبرية خاصة تُسمَّى عبرية المشناه ، أما الجماراه فكُتبت بالآرامية (كُتبت الجماراه الفلسطينية باللهجة الآرامية الغربية ، أما الجماراه البابلية فكُتبت باللهجة الآرامية الشرقية) . وتتسم الشروح الواردة في التلمود الفلسطيني بأنها أقصر وأكثر حرفية وقرباً من النص .

ويُلاحَظ أن بعض المفاهيم القانونية في التلمود البابلي تعكس أثر القانون الفارسي . كما أن التلمودين مختلفان في بعض المواطن ، فيُلاحظ مثلاً أن الموقف من الوثنيين في التلمود البابلي أكثر تسامحاً لأن وضع اليهود في بابل كان جيداً ، فقد جاء في التلمود البابلي أن الأغيار خارج فلسطين لا يمكن اعتبارهم من الوثنيين . وبينما يُحرِّم التلمود الفلسطيني بيع أية سلع للوثنيين في الأيام الثلاثة التي تسبق أي عيد وثني ، فإن علماء بابل حرموا البيع في أيام العيد الوثني وحسب .

ومن أهم التطورات التي دخلت الشريعة اليهودية ما جاء في التلمود البابلي من أن : «شريعة الدولة هي شريعتنا» ، بل قد ورد في التلمود البابلي دعاء خاص يُتلى أمام ملوك الأغيار ويطلب لهم البركة ، نصه : "مبارك هو الذي منح مخلوقاته شيئاً من جلاله" .

وتعود الآراء والفتاوى التي وردت في التلمود إلى القرن الخامس قبل الميلاد . وقد بدأت عملية جمعها وتدوينها مع القرن الثاني الميلادي ، واستمرت عملية التفسير والتدوين حتى القرن السادس . وبعد اكتمال نص التلمود ، استمرت الإضافات والتعليقات ، حتى القرن التاسع عشر ، حين أضاف إلياهو (فقيه فلنا) تعليقاته . ويمكن تلخيص ظهور التلمود وتطوره على النحو التالي :

السنة	الإضافات والتعليقات
٤٠٠-١٠٠ق.م	الكتبة (سوفريم) يكتبون كتب المدراش بالعبرية .
١٥٠ق.م-٣٠م	الأزواج (زوجوت) .
١٠٠ق.م-٧٠م	الفريسيون دعاة الشريعة الشفوية .
٧٠ - ٢٠٠	معلمو المشناه (التنائيم) ، يهودا الناسي يجمع أقوال العلماء الدينيين السابقين في المشناه المكتوبة بالعبرية .
٢٠٠ - ٤٠٠	الشراح (أمورائيم) الجماراه الفلسطينية بالآرامية، وقليل من العبرية .
٢٠٠ - ٥٠٠	الشراح (أمورائيم) الجماراه البابلية بالآرامية وقليل من العبرية .
٥٠٠ - ٧٠٠	المفسرون (صبورائيم) تدوين المشناه والجماراه . وبذا يكون قد انتهى تدوين التلمود ، وتبدأ مرحلة التعليقات .
٧٠٠ - ١٠٠٠	الفقهاء (جاءونيم) في بابل ينشرون التعاليم التلمودية .
١٠٠٠	تعليقات راشي (١٠٤٠ـ١١٠٥) ، وتعليقات الشراح الإضافيين (توسافوت)ـ أهم التعليقات بالعبرية .
١٢٠٠	موسى بن ميمون (١١٣٥ـ١٢٠٤) يؤلف **مشنيه توراه** (تثنية الشريعة) .
١٣٠٠	يعقوب بن آشر يؤلِّف **سفر هاطوريم** (كتاب الصفوف) .
١٦٠٠	جوزيف كارو (١٤٨٨ ـ ١٥٧٥) يؤلف الشولحان عاروخ (المائدة المصفوفة) عام ١٥٦٤ ، ويشير إلى أن الإيمان بالقبَّالاه فرض ديني .
١٨٥٠	إلياهو (فقيه فلنا) يضيف تعليقاته .

ويتكون التلمود من عنصرين ؛ فهناك العنصر الشرعي والقانوني (هالاخي) الذي يُذكِّرنا بأحكام الفرائض والتشريعات الواردة في أسفار الخروج واللاويين والتثنية ، وهناك العنصر القصصي والروائي والأسطوري (أجادي) بما يشمله من الأقوال المأثورة (والأخبار والخرافات والشطحات والخيال) إلى جانب السحر والتراث الشعبي . ومعظم المشناه تشريع (هالاخاه) ، بينما معظم الجماراه قصص وأساطير (أجاداه) . ويُلاحَظ أن التفسير يستمد أهميته وثقله من مدى قدمه ، فالأقدم أكثر ثقةً وأهمية من الأحدث ويشكل التلمود ، بسبب ضخامته وطريقة تصنيفه ، صعوبة غير عادية في محاولة استخدامه والاستفادة منه . ومن هنا ، بدأ

جهود تصنيفه بعد الانتهاء منه . وقد كانت أولى هذه المحاولات هي هالاخوت بيسكوت (القوانين المقررة) التي تُنسب إلى يهوداي جاءون ، والقوانين العظمى التي كتبها سيمون كيارا ، وكلا العملين يلخصان المادة التلمودية المتعلقة بالشرائع . وظهرت عدة مصنفات أخرى في القرن الحادي عشر ، وخصوصاً في العالم العربي ، في شمال أفريقيا وأوربا وأهمها :

١ ـ **مشنيه توراه** ، أي «تثنية التوراة» أو «إعادة الشريعة» التي كتبها موسى بن ميمون في القرن الثاني عشر . وهي من أهم الأعمال التي صدرت في هذا الحقل . ويختلف منهجه عن التلمود في أنه لا يكتفي بالعرض دون ترجيح . وهو لا يجمع روايات ولا يخوض غمار المناقشات بل نجده يفصل في الأمور حكماً فاصلاً . وقد اتبع ابن ميمون مبدأ عقلانياً ، فأقصى عن مادته جميع القواعد الشعبية التي كانت في منزلة الشريعة في زمن التلمود والتي ترجع جذورها إلى الخرافات الشائعة . والموقف الأساسي لديه يتلخص في القول بأن الشريعة والشعائر وُجدت من أجل الإنسان وليس العكس . وقد أعاد موسى بن ميمون توزيع السداريم الستة إلى أربعة عشر كتاباً يُسمَّى الواحد منها «السفر» . وقد اشتهر كتابه باسم «**يد حزقاه**» (أي «اليد القوية») لأن الياء تساوي عشرة والدال تساوي أربعة في حساب الجمل ، وفي ذلك ما يرمز إلى الأربعة عشر جزءاً التي يتألف منها الكتاب .

٢ ـ وقد أثّر مصنف ابن ميمون في المصنفات التي جاءت بعده . ويظهر هذا في كتاب **سفر هاطوريم** ، أو كتاب **الصفوف** الذي وضعه يعقوب بن آشر في الأندلس في القرن الرابع عشر حيث اعتمد على تثنية التوراة في تنسيق الأحكام الشرعية وثيقة الصلة بالحياة العملية ، وحذف تلك الشرائع التي أصبحت بالية منذ هدم الهيكل .

٣ ـ الشولحان عاروخ . وقد وضعه جوزيف كارو في القرن السادس عشر ، وقد اتبع تقسيم **سفر هاطوريم** ، وهو آخر التصنيفات وأصبح أهمها ، وخصوصاً بعد أن قام موسى إيسيرلز (موشي يسرائيليتش) بإضافة شروحه . ويُعَدُّ الشولحان عاروخ المستودع الأساسي للأفكار والقيم الحاكمة في اليهودية الحاخامية أو التلمودية .

وقد ظل التلمود مجهولاً تقريباً في أوربا المسيحية ، ولم يكتشفه المسيحيون إلا في أواسط القرن الثالث عشر ، وذلك عن طريق اليهود المتنصرين . ومنذ ذلك التاريخ ، أصبح التلمود محط سخط السلطات الدينية لأنها كانت تراه كتاب خرافات مسئولاً عن عدم اعتناق اليهود المسيحية ، كما كانت ترى أنه يحتوي على ملاحظات مهينة ضد المسيحية كعقيدة ، وضد شخص المسيح . ومما يذكره التلمود عن المسيح أنه كان يهودياً كافراً ، وأن تعاليمه كفر بيّن ، وأن المسيحيين كفرة مثله ، وأن أمه حملت به سفاحاً من جندي روماني يُدعى بندارا . ويضم التلمود ، فضلاً عن ذلك ، أجزاء عن محاكمة المسيح في السنهدرين ، ويُقر بأن اليهود هم الذين صلبوا المسيح ، وأنهم يتحملون المسئولية كاملة عن ذلك . وقد كانت الكنيسة تنظم مناظرات (مجادلات خلافية) علنية يشترك فيها عادةً يهود متنصرون ملمون بالتلمود ويعرفون جوانبه السلبية . ومن أهم المناظرات ، وربما آخرها ، تلك المناظرة التي تمت في بولندا في يونيه ١٧٥٧ ويوليه ١٧٥٩ بين أتباع يعقوب فرانك وممثلي المؤسسة الحاخامية . وقد كانت الكنيسة تحرق نسخ التلمود التي تُضبط من آونة إلى أخرى .

ويُلاحظ أن تزايد انتشار التلمود بين اليهود يشكل ترابطاً في هيمنة الحلولية الواحدية على الفكر الديني اليهودي . ومما ساهم في عملية شيوع التلمود ، تحوُّل الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية ، لا ترتبط بالوطن الذي تعيش في كنفه ، وإنما بوطن وهمي . وهذا الارتباط يحقق لها قدراً من الهوية شبه المستقلة عن مجتمع الأغلبية ، وكان هذا أمراً ضرورياً لها كي تضطلع بوظيفتها التي تتطلب عدة الحياد والانفصال العاطفي وأحياناً الفعلي . وإذا كانت صهيون الوطن الوهمي البعيد ، فإن التلمود أصبح الوطن المتنقل . وتتحول الجماعات الوظيفية نحو حلولياً (في إيمانها بأنها موضع القداسة وفي موقفها المنكر للزمان والمكان) . وقد ساهم هذا بكل تأكيد في تزايد شيوع التلمود بين أعضاء الجماعات اليهودية ومما ساعد التلمود على اكتساب مركزية في الفكر الديني اليهودي جهل أوربا المسيحية بوجوده حتى القرن الثالث عشر الميلادي ، وهو ما يعني أنه أصبح الرقعة اليهودية الخالصة ، بعد أن اعتبرت الكنيسة العهد القديم (كتاب اليهود المقدَّس) أحد كتبها المقدَّسة . ولكل هذا ، حل التلمود محل التوراة في العصور الوسطى باعتباره كتاب اليهود المقدَّس الأساسي ، حتى أن كثيراً من الحاخامات كانوا يعرفون التلمود أساساً ويعرفون العهد القديم بدرجة أقل . وقد تركزت في التلمود ، بعد تدوينه ، كل السلطة الدينية والروحية في اليهودية ، حتى أن كل قرار في الحياة اليهودية ، مهما علا شأن هذا القرار أو صَغُر ، قد جرى اتخاذه وفقاً للسلطة التلمودية .

ومع هذا ، فقد أخذت قبَّالاة الزوهار ، والكتب القبَّالية الصوفية الحلولية الأخرى ، تحل ابتداءً من القرن السادس عشر محل التلمود ، إلى أن اكتسبت الصدارة في القرن السابع عشر . ويُقال إن اليهود المنتشرين في الشتتلات ، بعيداً عن مراكز الدراسات الحاخامية ، كانوا يعرفون الزوهار ، ولا يعرفون إلا أقل القليل

عن التلمود . وعلى كل ، فإن التلمود كان دائماً كتاب الأرستقراطية الدينية الحاخامية ، فهو مكتوب بأسلوب مركب وبلغة لا تعرفها الجماهير التي كانت لا تعرف العبرية ولا الآرامية (بطبيعة الحال) . ولهذا ، كانت حركات الاحتجاج الشعبي بين اليهود (الصوفية والمشيحانية) تأخذ شكل معاداة التلمود ومعاداة سلطته ومعاداة المؤسسة التي تدرسه وتهيمن باسمه . وأولى هذه الحركات هي الحركة القرائية التي لم تكن حركة شعبية بقدر ما كانت حركة عقلانية متأثرة بالفكر الإسلامي . ولكن الحركات الصوفية المشيحانية اليهودية كانت شعبية إلى حدٍّ كبير ، وقد اتخذت موقفاً سلبياً من التلمود ، فكان المتصوفة ينظرون إليه باعتباره المحارة التي يكمن داخلها المعنى الخفي للتوراة . كما أن الحركات المشيحانية ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، رفضته تماماً . ومع هذا ، يُلاحَظ أن التفسيرات السائدة داخل كثير من المدارس التلمودية العليا ، وداخل الدوائر الحاخامية ، كانت تفسيرات قَبَّالية .

ولكن الضربة القاضية جاءت مع حركة التنوير ، فحركة التنوير بين أعضاء الجماعات اليهودية ، في مراحلها الأولى ، كانت ذات اتجاه ربوبي إصلاحي يهدف إلى إصلاح اليهودية دون التخلي عنها . ومن هنا وجَّه دعاة الحركة سهام نقدهم إلى التلمود وأنكروا قداسة الشريعة الشفوية ككل ، وأصروا على اعتبار التلمود بمنزلة مجموعة من تفسيرات المشرعين والشارحين يرجع عهدها إلى فترة متأخرة ، كما نفوا كل سلطة إلزامية ، وأنه في واقع الأمر يعبر عن السلطة الحاخامية . وبينوا ما في التلمود من خرافات وحكايات شعبية تتنافى ـ في تصورهم ـ مع العقل .

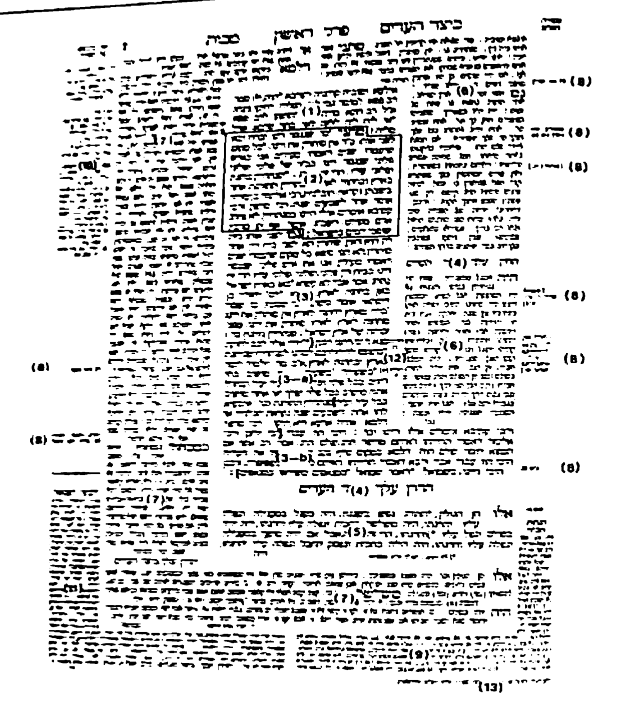
وكان معظم هؤلاء النقاد ممن تلقوا تعليماً غربياً علمانياً ، ولذا لم تكن لديهم الكفاءات الأكاديمية اللازمة لفَهْم التلمود أو تفسيره ، ومع هذا استمروا في هجومهم الشرس الذي تصاعد بعد ذلك مع تصاعُد حدة حركة التنوير نفسها ، التي انتقلت من مرحلة الربوبية إلى مرحلة إلحادية صريحة معادية لا للتفسيرات البشرية وحسب وإنما لأية نصوص مقدَّسة . وأعلن دعاة حركة التنوير أنه لا أمل يُرجى في تطوُّر اليهود إلا بالإطاحة بسلطة التلمود وبينوا للحكومات الغربية مدى خطورة هذا الكتاب وأنه سبب هامشية اليهود وتخلفهم . ولكن الحاخامات الأرثوذكس ، أعضاء المؤسسة الدينية الحاخامية الذين كان يدور عالمهم حول التلمود وحده ، والذين كانوا لا يعرفون الكثير عما يدور حولهم ، ولا يدركون أهمية الإصلاح ، دافعوا دفاعاً مستميتاً عن التراث التلمودي ووقفوا بشراسة ضد كل محاولات التطوير . وحينما حاولت حكومات شرق أوربا ووسطها تحديث اليهود ، كان الجهد ينصب دائماً على التلمود فكان يُستبعد تماماً من مدارس اليهود ، كما كان يُحرَّم على اليهود أحياناً قراءته لأبنائهم قبل بلوغهم سن الرشد . وفي الوقت الحالي ، فإن الأغلبية العظمى من أعضاء الجماعات اليهودية يرفضون التلمود بل يجهلون ما جاء فيه ولا يعرفون حتى حجمه .

وأثر التلمود والشرع التلمودي واضح في قوانين الأحوال الشخصية في إسرائيل ، فالتشريعات التي تضبط قضايا الزواج والطلاق فيها لا تختلف عن الأحكام التلمودية الواردة في أسفار سدر ناشيم . وفي شئون الطلاق ، لا يزال سفر جيطين المصدر الأساسي للأحكام المتعلقة بوثيقة الطلاق (جيط) التي يكتبها الزوج . وفي مسائل الزواج وتسجيل المواليد ، لا تزال أحكام الشريعة التي حددها التلمود هي الشريعة السائدة ، فاليهودي هو المولود لأم يهودية ، أو من اعتنق اليهودية على يد حاخام أرثوذكسي . وعملية التهود ليست هينة ، إذ يصر الحاخام على التقيد بالشعائر التلمودية ، ومن بينها الحمام الطقوسي الذي يجب أن تخضع له الأنثى التي تريد التهود ، فتدخل الحمام عارية تماماً ، بحضور ثلاثة من الحاخامات وتحت أنظارهم .

وكذلك تُطبَّق في إسرائيل الشرائع التلمودية الخاصة بقوانين الطعام والقوانين الزراعية التي وردت في سفر براخوت من سدر زراعيم . ويُدرَّس التلمود في إسرائيل ، وتقتصر الدراسة في المدارس والمعاهد الدينية على دراسته ، كما أن جامعة بار إيلان تشترط على طلابها تحصيل معرفة تمهيدية بالتلمود .

وقد طُبع التلمود الفلسطيني في البندقية (١٥٢٣ ـ ١٥٢٤) كما أن التلمود البابلي كان قد بدأت طباعته في إسبانيا عام ١٤٨٢ . لكن أقدم طبعة كاملة ظهرت في البندقية أيضاً (١٥٢٠ ـ ١٥٢٣) ، وأشرف على طبعها دانيال بومبرج . وقد أصبحت هذه الطبعة النموذج الأصلي الذي حذت حذوه مختلف الطبعات التي تلتها . وقد نُشرت الطبعة القياسية في فلنا عام ١٨٨٦ ، وهي تحوي تعليقات ، وتعليقات على تعليقات في أكثر من عشرين جزءاً . فكان يتم طبع المشناه والجماراه في العمود الأوسط ، وتُطبَع ببنط أسود ، ثم تُطبَع في العمود المجاور لها تعليقات راشي على النحو التالي :

وقد تُرجم التلمود إلى معظم اللغات الأوربية الأساسية ،



صفحة من سفر ماكوت من سدر نزيقين (ضبعة فلنا) ، وهي تناقش مصير إنسان صدر عليه حكم ولكنه فرّ . وكيف يمكن إصدار حكم آخر عليه .

١ ـ نهاية الجماراه من مقطوعة المشناه السابقة . ٢ ـ المقطوعة داخل المربع هي مقطوعة المشناه موضع النقاش في هذه الصفحة . ٣ ـ الجماراه المتعلقة بها . ٣ أ) مدراش تشريعي (هالاخي) يؤيد ما جاء في المشناه ٣ ب) ثلاثة تعليقات قصيرة من حلقات فلسطين وسورا وبومبديثا التلمودية . ٤ ـ علامة تدل على انتهاء الفصل . ٥ ـ مقطوعة مشناه أخرى . ٦ ـ تعليق راشي . ٧ ـ تعليق الشراح الإضافيين (التوسافوت) تناقش نقطة محددة من الجماراه وتعليق راشي . ٨ ـ إحالات لمصادر تلمودية وحاخامية أخرى . ٩ ـ تعليقات كتبها جويل سيركيس (١٥٦١ ـ ١٦٤٠) . ١٠ ـ إشارات لمصنفات موسى بن ميمون ، ويعقوب بن آشر . ١١ ـ تعليقات أحد حاخامات شرق أفريقيا من القرن الحادي عشر . ١٢ ـ إشارات للكتاب المقدَّس . ١٣ ـ ملاحظات كتبها إلياهو (فقيه فلنا) .

وتُرجمت مختارات قصيرة منه إلى العربية لا تمثل الطبيعة الجيولوجية المتناقضة للفكر التلمودي . ولكنه تُرجم بأكمله إلى الإنجليزية (في لندن) وإلى كثير من اللغات الأوربية الأخرى .

ويُلاحَظ أن الرقابة الحكومية كانت تفرض على اليهود أحياناً أن يحذفوا بعض الفقرات التي تُظهر عداءً متطرفاً للأغيار ، أو أن يُضيِّقوا المجال الدلالي لبعض الكلمات والعبارات العنصرية المتطرفة . ولذا ، حلت كلمة «عكوم» بمعنى «عابد الكواكب وأبراج النجوم» ، و«كوتي» بمعنى «سامري» ، و«كوشي» بمعنى «زنجي» ، أو «جبني» محل «نكري» ، أو «جوي» بمعنى «أجنبي» أو «غريب» . وحلت كلمة «بابليم» ، أي «البابليين» ، و«كنعانيم» ، أي «الكنعانيين» ، محل «أوموت هاعولام» ، التي تعني «أُمم العالم» . والواقع أن جميع المحاولات تُضيِّق المجال الدلالي لكلمة «الأغيار» وتخصصها ، وتجعلها مقصورة إما على الوثنيين وحسب ، أو على جماعة محدَّدة من الناس مثل السامريين أو البابليين . وهذا من قبيل استرداد البُعد التاريخي لمصطلح الأغيار (العام) حتى تتكيف نصوص التلمود مع الواقع الجديد حيث لم يعُد الأغيار وثنيين بل

أصبحوا من عبدة الإله . وكان يُسجَّل في مستهل كل صفحة من التلمود إعلان رسمي يقرر أن قوانين التلمود ضد الوثنية لا تنطبق على الأمم التي يعيش اليهود بين ظهرانيها ، وأنها لا تنطبق إلا على الوثنيين وحسب (وحينما احتلت إنجلترا الهند ، قيل إن المقصود هو الهنود ، كما ضُمَّ إلى قائمة المعنيين بالهجوم سكان أستراليا الأصليون) . وبعض الطبعات تقرر أن المعني بالهجوم هو «الإسماعيلي» ونعني «المسلم العربي» .

وكما يقول الحاخام آجوس . فإن هذه الصيغة التي كانت قوانين الرقابة تتطلبها كان يتم تجاهلها في النصوص المختلفة ، لأن كتّاب التلمود وشارحيه لا يعرفون سوى نوعين من البشر : اليهود ، وغير اليهود . وحتى حينما كان بعض الزعماء الدينيين اليهود يعترضون على النزعة الحلولية العنصرية المتعالية ، كان اعتراضهم ينطلق من أسباب عملية مثل : الخوف من اعتياد اليهود ممارسة الشر ، والخوف من الإساءة إلى سمعة اليهود ، أو إثارة حنق الأغيار وكرههم . وكثيراً ما كان يتبادل أعضاء الجماعات اليهودية فيما بينهم، دون علم السلطات . مخطوطات خاصة تضم المحذوفات التلمودية ، أي تلك النصوص التي حذفتها الرقابة الحكومية . كما كان يُعاد شرح بعض المصطلحات الجديدة ، مثل «بابلي» أو «كوتي» ، حتى يُعرَف معناها الأصلي والحقيقي لتكون بمعنى «مسيحي» . ويُعاد في إسرائيل طبع النسخة الأصلية من التلمود دون تعديل . ولما كانت عملية الطباعة مكلفة وتستغرق وقتاً طويلاً ، فقد نشروا كتاباً في طبعة شعبية رخيصة بعنوان **حسرونوت شاس** (أي المحذوفات التلمودية) .

وقد صدرت في إسرائيل **موسوعة تلمودية** ضخمة تُسهِّل عملية الوصول إلى الأحكام الفقهية . ورغم ذلك ، ففي إحصاء أُجري عام ١٩٨٧ . قرر ٨٤٪ من الإسرائيليين أنهم لم يقرأوا التلمود قط ولم يطلعوا على أي جزء منه . وفي الوقت الحالي ، يقوم الحاخام آدين ستاينسلاتس بإعداد طبعة جديدة من التلمود (البابلي والفلسطيني) تكون في متناول القارئ العادي ، وهي مزودة بترجمة عبرية حديثة للنصوص الآرامية فضلاً عن شروح الكلمات الصعبة . وقد طُبعت المشناه والجماراه ، وكذلك الشروح المتعلقة بهما بينوط طباعية مختلفة . وقد صدر حتى الآن عشرون جزءاً من التلمود البابلي . ومن المتوقع أن يصدُر التلمود في أربعين جزءاً خلال خمسة عشر عاماً . وقد ظهرت ترجمة إنجليزية للأجزاء الأولى .

أقســـام التلمـــود

Tracts of the Talmud

ينقسم التلمود إلى المشناه والجماراه . وتبلغ أقسام المشناه ستة ، وتُسمَّى «سداريم» ، وهي أيضاً أقسام التلمود الأساسية (وذلك باعتبار أن الجماراه تعليق على المشناه وشرح لها) . وتنقسم السداريم بدورها إلى أسفار تُسمَّى «ماسيختوت» تنقسم بدورها إلى فصول تسمَّى «براقيم» . وقد قام الدكتور أسعد رزوق بوضع وصف موجز لأقسام التلمود (البابلي) وأسفاره حتى يُعرَف بالموضوعات والمسائل الواردة فيه ، وهي :

أ) السدر الأول : سدر زراعيم (البذور) :

يتألف هذا السدر من أحد عشر سفراً أو مقالة ، ويتناول قوانين التوراة الزراعية من الناحيتين الدينية والاجتماعية ، ويسهب في شرح الأحكام التوراتية المتصلة بحقوق الفقراء والكهنة واللاويين في غلال الأرض والحصاد . كما يَبسُط القواعد والأنظمة المتعلقة بالفلاحة والحرث وزراعة الحقول والجنائن وبساتين الأثمار ، والسنة السبتية والعشار ، بالإضافة إلى المواد المحظور خلطها في النبات والحيوان والكساء . أما أسفار سدر زراعيم فهي :

١ ـ براخوت (البركات) :

ويتناول هذا السفر صلوات اليهود وعباداتهم والقواعد المتعلقة بالأجزاء الأساسية للصلوات اليومية .

٢ ـ فعاه (زوايا الحقل) :

ويتناول القوانين المتعلقة بزوايا الحقل واللقاط المنسي مما ينبغي تركه للفقراء ، وغير ذلك من الفرائض والواجبات التي يرد ذكرها في سفر اللاويين (١٩/ ٩ ـ ١٠) .

٣ ـ دماي (المشكوك بأمره من المحاصيل) :

يتحدث هذا السفر عن المحاصيل الزراعية ، كالذرة وغيرها من منتوجات الأرض ، وعن استخراج العشار اللازم منها أو عدمه .

٤ ـ كلاتايم (المخاليط أو الأخلاط) :

ويعالج هذا السفر الأحكام التوراتية الواردة في اللاويين (١٩/ ١٩) ، والتثنية (٢٢/ ٩ ـ ١١) ، بالنسبة لخلط البذور المختلفة في الزراعة ، أو الجمع بين جنسين من المواد في الثوب .

٥ ـ شفيعوت (السنة السابعة أو السبتية) :

ويبحث في القوانين المتعلقة بإراحة الأرض والإبراء من الديون في السنة السبتية .

٦ ـ ترومot (التقدمات : الرفائع أو جراية الكهنة) :

ويعالج القوانين والفرائض المتعلقة بذلك القسم من الغلالْ والمحاصيل المعين للكاهن .

٧ ـ معشروت (العشور) :

وموضوعه العشار الأول المتوجب دفعه سنوياً إلى اللاوي من غلة الحصاد ، واللاوي بدوره يعطي الكاهن منه نسبة العُشر .

٨ ـ معشر شيني (العشار الثاني) :

يتناول هذا السفر موضوع العشار الثاني الذي يحمله المالك بنفسه إلى أورشليم (القدس) لكي يؤكل هناك .

٩ ـ حلّه (أول العجين) :

ويتعلق هذا السفر بذلك القسم من العجين المفروض إعطاؤه للكاهن . وقد سمي هذا السفر كذلك لأنه يتناول قانون العجين الأول وفرائضه .

١٠ ـ الغُرله (بلاختان ـ الغلفاء) :

ويتناول هذا السفر الحظر على استعمال ثمار الأشجار الصغيرة خلال السنوات الثلاث الأولى ، وقواعد الاعتناء بهذه الأشجار في السنة الرابعة طبقاً لما جاء في سفر اللاويين (١٩/٢٣ـ ٢٥) .

١١ ـ البكوريم (البواكير ، الثمار الأولى) :

وهنا أيضاً ، فإن هذا السفر ينص على قوانين تقديم الثمار الأولى في الهيكل ، ويتضمن وصفاً للشعائر التي ترافق التقدمة .

ب) السدر الثاني : سدر موعيد (الأعياد والمواسم) .

يؤلف سدر موعيد القسم الثاني من التلمود البابلي في طبعة سونسينو ، وهو يتوزع على اثنى عشر سفراً تضمها أربعة مجلدات ضخمة . أما تسمية «موعيد» بمعنى «الموعد» أو «الموسم المقدَّس» ، فهي مأخوذة على الأرجح من سفر اللاويين (٢٣/ ٢) . والملاحَظ أن المسائل الأساسية التي تتناولها أسفار هذا القسم تتعلق بالسبت والأعياد وأيام الصوم وغير ذلك من المواسم والمناسبات الدينية ، بالإضافة إلى الطقوس والشعائر والفرائض والقرابين ، وإلى قواعد تنظيم التقويم العبراني «حساب الميقات للأعياد اليهودية . . وكيفية معرفة الأشهر العبرية القمرية من السنة الشمسية لتعيين الأعياد اليهودية» . وهنا أيضاً يطالعنا الكثير من شرائع التوراة والشرائع والقوانين المستمدة من خارج التوراة ، جنباً إلى جنب :

١ ـ شبات (السبت) :

يتناول هذا السفر قوانين السبت والقواعد اللازمة لمراعاة عطلة يوم الراحة ، كما يتحدث بالتفصيل عن الأعمال المحظورة في ذلك النهار . وفي مواضع أخرى من التلمود ، نجد الحاخامات يضعون السبت مقابل جميع الأحكام الأخرى الواردة في التوراة من حيث الأهمية .

وقد وضع الحاخامات قائمة مفصلة تتضمن تسعة وثلاثين عملاً من الأعمال الأساسية وأضافوا إليها سلسلة أخرى من الأعمال الفرعية وغيرها .

٢ ـ عيروبين (المقادير) :

لفظة «عيروب» تكون بمعنى «الخليط» أو «المزيج» ، ومن هنا فإن صيغة الجمع «عيروبين» تكون بمعنى كمية من الأطعمة المحددة التي تُودَع في مكان معيَّن لكي تكون بمنزلة الزاد للمسافرين أثناء عطلة السبت دون أن تبتعد تلك الأمكنة عن بعضها البعض الآخر فيصبح الانتقال خرقاً لقانون السبت . والعيروبين هي المقادير المثالية التي يصح الجمع بينها فيما يتعلق بالأمكنة والأطعمة والمسافات بحيث يؤدي ذلك إلى توسيع حدود السبت . لذا ، نجد هذا السفر يتناول القوانين والأنظمة التي تتيح لليهودي حرية الحركة خارج نطاق الحدود الموصوفة وأثناء السبت والأعياد .

٣ ـ فصحيم (خراف الفصح) :

ويتناول هذا السفر قوانين إتلاف الخمائر أثناء عيد الفصح اليهودي ، وتقديم الخراف والذبائح قرباناً ، ومواسم الرب المقدَّسة . وفي الفصل العاشر والأخير من هذا السفر ، ترد التفاصيل المتعلقة بوليمة عشية الفصح والصلوات التي تصحبها

٤ ـ شقاليم (الشواقل)

من «شيقل» ، أي «شيكل» وهو «المثقال من الفضة» . ويحوي هذا السفر أحكام الضرائب والرسوم التي تتم جبايتها لصيانة الهيكل وتأمين نفقاته وتقديم الذبائح بصورة منتظمة . كما يتحدث بالتفصيل عن الأشياء التي تُنفق من أجلها الشواقل ، ويتضمن القوائم التي تسرد أسماء كبار العاملين الرسميين في الهيكل .

٥ ـ يوما (اليوم) :

يُعرف هذا السفر أيضاً باسم سفر «يوم الغفران» لأنه يتناول أنظمة هذا العيد وفرائضه داخل الهيكل ، كما يبسُط قوانين الصوم وأحكامه ويصف الاحتفالات والطقوس التي كان يترأسها الكاهن الأعظم في ذلك اليوم .

٦ ـ سوكاه (المظلة) :

يحوي هذا السفر قوانين عيد المظال ، وكيفية إقامة المظلة أو الخيمة ، والإقامة تحتها سبعة أيام . كما يتحدث عن شعائر هذا العيد وصلواته ، وعن النباتات الأربعة التي تؤخذ أغصانها لصنع المظلة .

٧ ـ بيصة (بيضة العيد) :

ويُعرف أيضاً باسم «العيد» أو «يوم طوف» ، إذ يرسم الحدود التي تتحكم في إعداد الأطعمة أثناء الأعياد . كما يسرد مختلف أنواع الأعمال التي يُحظَر إتيانها أو يُسمَح بها خلال أيام العيد .

٨ـ روش هشاناه (رأس السنة) :

يتناول المسائل المتعلقة بالتقويم العبري ورؤية الأهلة للسنة الجديدة ، مثلما يحوي القوانين التي تجب مراعاتها في مطلع الشهر السابع (تشري) ، أي رأس السنة المدنية عند اليهود .

٩ـ تعنيت (الصوم) :

ويتناول أحكام الصوم للأيام الرسمية أو المناسبات الطارئة على الصعيدين الشخصي والجماعي ، وترتيب الصلوات التي تُتلى في ذلك اليوم .

١٠ ـ مجيلاه (لفافة التوراة) :

ويتناول هذا السفر كتاب إستير (بالدرجة الأولى) لأنه يتناول أحكام قراءة قصة إستير في عيد النصيب . كما ترد فيه أحكام أخرى تتعلق بقراءة التوراة أثناء العبادات العامة .

١١ـ موعيد قاطان (العيد الصغير) :

ويُعرف هذا السفر أيضاً باسم «مشكين» ، نسبة إلى الكلمات الأولى في السفر . ويتناول أحكام العمل أثناء الأيام الفاصلة بين أوائل عيد الفصح وأواخره وبين عيد المظال . كما يتحدث عن الفرائض المتعلقة بالحزن والحداد .

١٢ـ حجيجاه (قرابين الأعياد) :

يتناول القوانين والأحكام المتصلة بالقرابين التي تُقدَّم في الأعياد ، ويقارن بين شعائر الأعياد الثلاثة الكبرى ، بالإضافة إلى الحديث عن فريضة الحج إلى القدس ، وأنواع القرابين التي ينبغي تقديمها في مثل تلك المناسبات . ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا السفر يتضمن ذلك الاستطراد الشهير عن التعليم الباطني للتوراة ، حيث تكثر التخريجات والشطحات الخيالية التي وجدت تربتها الخصبة في كتاب الزوهار ، وكان لها أبعد الأثر في تعاليم القبَّالاه أو التصوف اليهودي .

جـ) السدر الثالث : سدر ناشيم (النساء) .

تشتمل أسفار هذا القسم من التلمود على قوانين الزواج والطلاق ، وغير ذلك من الأحكام التي تحدد العلاقات بين الزوجين ، وبين الجنسين بصورة عامة . وهي تبلغ السبعة عدداً ، موزعة على أربعة مجلدات في طبعة سونسينو .

١ ـ يباموت :

وهذه الكلمة صيغة جمع مؤنث في اللغة العبرية مفردها «يبماه» ، واليبماه هي امرأة الأخ المتوفي التي يجب على أخيه الباقي على قيد الحياة الزواج منها . وهذا السفر يبدأ بالحديث عن الشرع التوراتي القائل بوجوب زواج الأخ من امرأة أخيه الذي تُوفي دون أن ينجب . كما يتناول الزيجات المحظورة بشكل عام ، وحق الفتاة القاصر في إبطال عقد زواجها ، بالإضافة إلى التقليد اليهودي المعروف باسم «خلع النعل» . و«خلع النعل» يتم عند امتناع الرجل عن أخذ امرأة أخيه عملاً بقوانين زواج الأرملة .

٢ ـ كتوبوت (شئون الزواج والعقود) :

يتناول هذا السفر أحكام الاتفاق حول العروس والغرامة المتوجبة عن الإغواء ، بالإضافة إلى واجبات الزوجين وحقوق الأرملة والأولاد المنحدرين من زيجات سابقة .

٣ـ نزاريم (النذور) :

يصف هذا السفر مختلف أشكال النذور ، والأنواع غير الصحيحة منها ، وكيفية إلغائها والتراجع عنها . كما يتحدث عن قوة إلغاء النذور التي نذرتها المرأة أو الابنة وألزمت نفسها بها .

٤ـ نازير (النذير أو الناذر) :

ويتحدث هذا السفر عن النذر الذي يُلزم الناذر به نفسه وكيفية التخلي عنه ، والأمور المحظورة على الناذر والقيمة التي تُعطَى لنذر النساء والعبيد .

٥ ـ سوطه (المرأة المشبوهة) :

الموضوع الأساسي في هذا السفر هو المحنة التي تتعرض لها المرأة التي يشكك زوجها في إخلاصها ، ويتهمها بارتكاب الزنى ، والإجراءات التي ترافق ذلك . وهناك موضوعات أخرى تتعلق بالمعادلات والصياغات الدينية ، ما يجوز منها بلغات أخرى ، وما لا يصح إلا بالعبرية وحدها . كما يتحدث هذا السفر عن الأنواع السبعة من الفريسيين ، وعن الإصلاحات التي أوجدها هيركانوس إلى جانب الحرب الأهلية التي دارت رحاها بين أريسطوبولس وهيركانوس حينذاك .

٦ ـ جيطين (كتب أو وثائق الطلاق) :

ويعرض بالتفصيل للظروف المختلفة التي تؤدي بالرجل إلى مناولة المرأة وثيقة طلاقها عندما يفسخ الزواج . وفي الشرع اليهودي، هناك أسباب معينة (كما هو الحال في الشرائع الدينية الأخرى) تخوِّل الزوج حق إرغام زوجته على قبول الطلاق ، والعكس بالعكس . وصيغة المفرد من كلمة «جيطين» هي «جيط» ومعناها «كتاب الطلاق» أو «وثيقة الطلاق» .

٧ـ قدوشيم (التكريس) :

يتناول هذا السفر الشعائر والفرائض المتصلة بالخطوبة

والزواج، كما يتحدث عن كيفية اقتناء العبيد والأقنان بصورة شرعية، وتملُّك العقارات، إلى جانب مبادئ الأخلاق وغير ذلك من المسائل المتعلقة بعقود الزواج والقران . . . إلخ .

د) السدر الرابع : سدر نزيقين (الأضرار) .

وتُقسَّم الأسفار العشرة في هذا الجزء من التلمود إلى قسمين أساسيين : القسم الأول يضم الأسفار، أو الأبواب الثلاثة الأولى (الباب الأول والأوسط والأخير) وموضوعها العام هو القانون المدني . وفي التلمود الفلسطيني تندرج هذه الأسفار الثلاثة تحت واحد وشامل : قضايا المال . أما القسم الثاني، فيضم مقالتي «سنهدرين»، و«ماكوت» في القانون الجنائي، وتأتي الأسفار الخمسة الباقية كملاحق لهما .

١ ـ بابا قاما (الباب الأول) :

التسمية آرامية الأصل، والمسمَّى يتناول أحكام الأضرار اللاحقة بالأملاك، والأذى المرتكب ضد الأشخاص بدافع إجرامي، أو على صعيد الجنحة . كما يعالج قضايا التعويض عن السرقة والسلب واقتراف العنف . ومن أحكامه الشائعة في شتى المصنفات والمقتبسات عن التلمود، ما يلي : إذا نطح ثور الإسرائيلي ثوراً يملكه رجل كنعاني، فإن صاحب الثور اليهودي لا يلتزم بشيء . أما إذا كان الثور الكنعاني هو البادئ بالنطح، فعلى صاحبه أن يتكفل بالتعويض الكامل عن كل عطل وضرر .

٢ ـ بابا متسيعا (الباب الأوسط) :

ويتناول الأحكام المتعلقة بالأشياء المفقودة التي يتم العثور عليها، والبيع والمبادلة والربا والغش والاحتيال واستئجار العمال والبهائم، بالإضافة إلى الإيجار والتأجير والملكية المشتركة للبيوت والحقول .

٣ ـ بابا باترا (الباب الأخير) :

يعالج هذا السفر القوانين المتعلقة بتقسيم أملاك الشراكة والعقارات، وقوانين التجارة، بالإضافة إلى القيود المفروضة على الأملاك الخاصة والعامة وحقوق الملكية والوراثة . كما يتناول مسألة التملك والتمليك، وإعداد مسودات الوثائق .

٤ ـ سنهدرين (المحاكم القضائية) :

ويتناول تأليف مختلف المحاكم القضائية، وإجراءات المحاكمة، وعقوبات الموت والإعدام عن الجرائم الكبرى . فهو مليء بالقوانين المتعلقة بالمحاكمات والتحكيم والإجراءات القضائية في القضايا المالية وفي الجرائم الكبرى . كما يتضمن مواصفات كيفية تنفيذ أحكام الإعدام وعقوبات الموت، إلى جانب العقائد المتصلة بالديانة اليهودية . ويحوي السفر الشيء الكثير مما له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بمحاكمة السيد المسيح والعقوبة التي يجب إنزالها بالخارج على دينه .

٥ ـ مكوت (الجلدات) :

يتحدث هذا السفر عن اليمين الكاذبة والحنث باليمين وشهادة الزور، وعن «مدن الملجأ» . بالإضافة إلى الآثام التي عقوبتها الجلد بالسياط، والأحكام المتعلقة بكيفية تنفيذ الجلد (٣٩ جلدة)

٦ ـ شبوعوت (القسم أو اليمين) :

يتناول هذا السفر مختلف أنواع اليمين . أي ما يحلفه الشخص بمفرده أمام المحكمة . ويمين المحكمة يصدق على الشهود والمتخاصمين . مثلما يصدق على المراقبين والأوصياء

٧ ـ عيديوت (الشهادات)

ويتضمن هذا السفر مجموعة من القوانين والأحكام المختلفة .

٨ ـ عفوده زاراه (عبدة الأصنام) :

ويتحدث هذا السفر عن عبدة الأصنام والأوثان : شعائرهم وطقوسهم وأعيادهم . كما يتضمن مواصفات الأحكام التي ينبغي إنزالها بعبدة الأصنام، والذين يشاركونهم، أو يختلطون معهم عن طريق التعامل أو الاتصال الاجتماعي . ويتضمن السفر كثيراً من الأحكام والأقوال ذات الطابع الأخلاقي التعريفي

٩ ـ آفوت (سفر الآباء) :

ويتضمن التعاليم والأقوال المأثورة عن آباء التراث اليهودي منذ السنهدرين الأكبر فصاعداً . وهو مليء بالتعاليم الأخلاقية والأقوال الحكمية المنسوبة في معظمها إلى معلمي المشناه (تنائيم) .

١٠ ـ هورايوت (الأحكام أو القرارات) :

ويتناول هذا السفر الأحكام الخاطئة التي تصدر عن السلطات الدينية في المسائل المتعلقة بالشعائر والطقوس . كما يتحدث عما يجب تقديمه من تضحيات وذبائح، إذا تصرف الجمهور وفقاً لهذه التعاليم والأحكام الخاطئة

هـ) السدر الخامس : سدر قداشيم (المقدسات)

يدور الموضوع الأساسي في هذا القسم من التلمود حول الطقس القرباني والتضحيات المتعلقة بالهيكل . وكانت معظم الفرائض والأحكام الواردة في أسفاره مرتبطة أشد الارتباط بوجود الهيكل . لكن الحاخامات، في فلسطين وبابل، تابعوا اهتمامهم بالطقوس القربانية والعبادات رغم هدم الهيكل وانقطاع الصلة بين الممارسة الفعلية والغرض الأساسي من وراء تلك الشعائر . ويحاول الحاخام الذي كتب مقدمة هذا الجزء في طبعة سونسينو إرجاع الاهتمام لدى المدارس الدينية المتأخرة بموضوع الطقوس القربانية إلى

اعتبارات تاريخية أكاديمية وأخرى عملية على حدٍّ سواء . فمن جهة، كان هناك الأمل اليهودي في تطلُّعه الدائم إلى إعادة بناء الهيكل عاجلاً أم آجلاً واستعادة العبادة القربانية . لذا ، فقد رأوا أن من واجبهم الإلمام بقوانين تلك الطقوس التي سوف تؤذن بالرجوع إلى سابق العهد . ومن جهة ثانية ، ثما اعتقاد الحاخامات بأن دراسة الشرائع والفرائض القربانية يمكنها أن تحل محل طقس الهيكل ، وهي بالتالي لا تقل قيمة عن تقديم القرابين والتضحيات في حد ذاتها .

ويقسَّم هذا السدر إلى أحد عشر سفراً كما يلي :

١ ـ زباحيم (الذبائح) :

يحتوي هذا السفر على الأحكام المتعلقة بتقديم الذبائح الحيوانية على اختلاف أنواعها وعلى اختلاف المراحل التي تمر بها . كما يضع الشروط التي تجعل القرابين مقبولة أو غير مقبولة . ويسهب السفر في شرح الشعائر المتصلة برش الدماء ، وإحراق القطع الدهنية أو الذبيحة الحيوانية كلها ، إلى آخر تلك التفاصيل المتعلقة بهذه الممارسات .

٢ ـ مناحوت (قرابين اللحوم والشراب) :

ويصف قواعد إعداد قرابين الطعام والشراب وكيفية القيام بها : من سكب الزيت على القرابين إلى الدقيق الملتوت ، ومن حزمة أول الحصيد إلى الرغيفين المخبوزين «خميراً باكورة للرب» ، إلى الفطائر الاثني عشر التي تُخبز من الدقيق أيضاً .

٣ ـ حولين (الدنيويات) :

ويتضمن هذا السفر مواصفات ذبح الحيوانات والطيور للاستهلاك العادي ، بالإضافة إلى تعداد مختلف الأمراض التي تجعل أكل تلك الذبائح محرَّماً . وهناك معالجة عامة لجميع قوانين الأطعمة والأحكام التي ينبغي التقيد بها في إعداد الطعام .

٤ ـ بكوروت (البواكير) :

ويتناول القوانين المتعلقة بالمواليد البكر من الحيوان والإنسان .

٥ ـ عراخين (التقديرات) :

ويتضمن هذا السفر قواعد تحديد الكمية التي ينبغي تقديمها وفاءً لنذر ما للهيكل ، بحيث يجري تقييم الشخص أو الشيء المنذور . ويختلف التقييم باختلاف السن والجنس (الذكر والأنثى) . كما أن تخمين البهيمة وتقييمها عائد إلى كاهن الهيكل . وعلاوة على التقييمات المذكورة ، يتناول السفر القوانين التابعة لسنة اليوبيل .

٦ ـ تموره (الإبدال أو البدل) :

ويتناول قواعد إبدال القرابين وتغييرها : الجيد بالرديء والرديء بالجيد ، أي أن الموضوع يتعلق بتبديل بهيمة نجسة بأخرى سَبَق تقديمها على مذبح الهيكل .

٧ ـ كريتوت (الرسوم الجزائية) :

ويعالج الآثام والأخطاء التي تخضع لعقاب القطع (كريتاه) أو الفصل فيما لو جرى اقترافها بمحض الإرادة . أما إذا جرى ارتكاب الخطيئة عن غير قصد ، فلابد أيضاً من تقديم القرابين تكفيراً عنها . ويبحث هذا السفر كذلك الحالات التي يتوجب فيها تقديم القرابين بصورة غير مشروطة أو يتوجب فيها تعليق القرابين .

٨ ـ معيله (الإثم والخطيئة) :

ويتناول هذا السفر مسألة انتهاك الحرمات والمقدَّسات وتدنيس الأشياء التابعة للهيكل أو المذبح .

٩ ـ تاميد (التضحية اليومية أو المستمرة) :

ويصف خدمات الهيكل من حيث اتصالها بتقديم القرابين اليومية في الصباح والمساء ، وخصوصاً الخراف التي ينبغي تقديمها على المذبح صباحاً وعشية .

١٠ ـ متروت (المقاييس والأبعاد) :

يحتوي هذا السفر على مقاييس الهيكل ومواصفاته ، سواء فيما يتعلق بالساحات والأبواب والقاعات ، أو فيما يتعلق بالمذبح . كما يتضمن وصفاً للخدمات التي يؤديها الكهنة أثناء وجودهم في الهيكل ، وأثناء قيامهم بحراسته وتدبير شئونه .

١١ ـ قنِّيم (الأعشاش) :

ويسرد الأنظمة والأحكام المتعلقة بتقديم العصافير والطيور قرباناً للتكفير عن الخطايا والمعاصي التي يقترفها الفقراء . كما يتناول بعض الأحوال والشروط المتصلة بالنجاسة والقذارة . ويبحث حالة الخلط بين الطيور التي تخص مختلف الأشخاص أو التي تنتمي إلى قرابين مختلفة .

و) السدر السادس : سدر طُهاروت (التطهيرات) .

والواقع أن الموضوع المشترك بين أسفار هذا الجزء السادس والجزء الأخير من التلمود يتصل بأحكام الطهارة والنجاسة (أو الرجاسة) لدي الأشياء والأشخاص . وتؤلف هذه الأحكام جزءاً من مجموعة قوانين تتعلق بالطهارة اللاوية . ومما يجدر التنبيه إليه أن قوانين النجاسة هذه لم تكن سارية المفعول خارج فلسطين ، فقد بطل معظمها في فلسطين بعد هدم الهيكل وطويت في عالم النسيان ، إلا ذلك القانون المتعلق بأحكام الحيض لدى النساء فما زال ساري المفعول حتى أيامنا هذه . وقد أصبح التشديد محصوراً بالدرجة

الأولى في مسألة النجاسة اللاوية وتعدِّي نطاق العلاقات الزوجية . والمعـروف أن أحكام الطهـارة هذه تستند إلى عـدد من الأوامـر والنواهي الواردة في أماكن مختلفة من الأسفار الخمسة للتوراة ، وبشكل خاص في الإصحاحات (١١/ ١٥) من سفر اللاويين .

١ ـ كلاثيم (الأواني والأوعية) :

ويتحدث هذا السفر عن قواعد النجاسة في الأواني والأدوات التي تُستخدَم للمنفعة البشرية ، فيحاول تبيان الظروف والشروط التي تتحكم في نجاستها أو تجعلها عرضة للتنجس . والأواني تشمل الأثاث والملابس ، وغير ذلك من أدوات الاستعمال .

٢ ـ أُهالوت (الخيام) :

ويتناول الخيام والمساكن باعتبارها ناقلة للنجاسة والرجس ، سواء عن طريق جثة الميت ، أو بواسطة الأواني والأوعية التي توجد معها تحت سقف الخيمة أو المسكن ، حيث تنتقل منها إلى الأشخاص والأدوات الأخرى .

٣ ـ نجاعيم (البَرَص والطواعين والأوبئة) :

يبسط القوانين المتعلقة بمعالجة البَرَص في البشر والألبسة والمساكن . كما يتضمن المواصفات الضرورية لتطهير الأبرص وطرد النجاسة من بدنه .

٤ ـ باراه (العجلة الحمراء ـ البقرة الصغيرة) :

ويتحدث هذا السفر عن الخصائص الواجب توافرها في العجلة الحمراء (باراه أدوما) وصولاً إلى إعداد رمادها للاستخدام في التطهير من النجاسة والرجاسة .

٥ ـ طُهاروت (تطهيرات) :

ويعالج أحكام النجاسة في الأطعمة والأشربة على اختلاف أنواعها ودرجاتها . كما يبين الشروط التي تتحكم في تنجيسها عن طريق الاحتكاك بمختلف مصادر النجاسة ودرجاتها .

٦ ـ مقواؤوت (الآبار والخزانات) :

ويتضمن هذا السفر مواصفات الآبار والصهاريج والخزانات فيما يتعلق بالمتطلبات التي تجعلها صالحة شعائرياً للتطهير والتغطيس . كما يتناول القواعد الحاكمة في جميع أنواع التغطيس الشعائري والطقسي .

٧ ـ نيدّه (الحائض والحيض) :

ويفصل القول في أحكام النجاسة الشرعية التي تنشأ لدى النساء بسبب الحيض والنفاس وبعد الولادة .

٨ ـ مقشيرين (الاستعدادات) :

ويتناول الظروف التي تصبح الأطعمة بموجبها قابلة للنجاسة أو عرضة للتنجس بعد احتكاكها بالسوائل ، كما يعدّد السوائل التي تجعل الأطعمة في تلك الحالة

٩ ـ زافيم (الزاب ـ السيلان) :

ويتحدث هذا السفر عن نجاسة الرجال والنساء عند الإصابة بأمراض الزهري والسيلان المنوي وغير ذلك .

١٠ ـ طِّبول يوم (الغسل اليومي) :

ويبحث في طبيعة النجاسة لدى الشخص الذي قام بالغسل الشعائري (المفروض أثناء النهار) لتطهير نفسه ، فإن عليه الانتظار حتى غروب الشمس لكي يُعتبر طاهراً ونظيفاً .

١١ ـ يادِيم (اليدان وتطهيرهما) :

ويتناول نجاسة اليدين قبل الغسل وكيفية تطهيرهما بطريقة شعائرية مستمدة من الشريعة الشفوية . والتطهير يتم بالماء . ويتضمن إلى جانب ذلك بحثاً عن بعض أسفار التوراة ، كما يسجل شيئاً من المناظرات والخلافات التي دارت بين الصدوقيين والفريسيين .

١٢ ـ عقصين (سويقات الثمار وقشورها) :

ويعرض للظروف والشروط التي تصبح بموجبها سويقات النبات والثمر قابلة لنقل النجاسة إلى الثمار والنباتات المتصلة بها والعكس بالعكس ، أي كيف تتنجس هذه الأشياء لدى ملامستها الأشياء النجسة .

الموضوعات الأساسية الكامنة في التلمود

Major Themes in the Talmud

منذ نهاية القرن السابع للميلاد ، ومع مطلع القرن الثامن ، صار التلمود العامل الجوهري في التجربة الدينية للجماعات اليهودية ، إذ أصبح المعيار السائد المقبول في كل ما يتعلق بحياة اليهود وأعمالهم ونشاطهم الفكري . حتى أننا حينما نتحدث عن «اليهودية» بعد ذلك التاريخ ، فإننا في واقع الأمر نتحدث عن «اليهودية الحاخامية» ، أي «التلمودية» . وقد استُخدم التلمود حتى نهاية القرن التاسع عشر أساساً للتربية بين أعضاء الجماعات اليهودية ، فكان الدارسون في كثير من الجماعات اليهودية في الغرب يستذكرونه سبع ساعات يومياً طوال سبع سنوات .

والتلمود سجل المحاولات التي بذلها حاخامات اليهود لتفسير العهد القديم بما يتناسب مع وضع اليهود باعتبارهم جماعات متشرة في العالم وليس باعتبارهم شعباً مستقراً في أرضه له عاصمته وهيكله وديانته المرتبطة بالأرض والعاصمة والهيكل . وهو أيضاً تعبير ع

محاولة اليهودية الحاخامية (التلمودية) عزل جماهير اليهود عن بقية الشعوب ، وخصوصاً بعد ظهور المسيحية التي اتخذت من العهد القديم كتاباً مقدَّساً ، وأكملته وعدلته بالعهد الجديد . والآلية الكبرى لتعميق العزلة هي تغليب الطبقة الحلولية داخل التركيب الجيولوجي اليهودي على غيرها من الطبقات والنزعات بحيث يحل الإله في الشعب ويملؤه قداسةً تعزله عن العالم المدنَّس العادي حوله ، وهذه الانعزالية مسألة عادية في معظم المجتمعات الوثنية وفي كثير من المجتمعات التقليدية التي كانت تشجع الفصل بين الطبقات والجماعات الدينية وتسهل عملية إدارة شئونها . بل تُعَدُّ مسألة حيوية وأساسية بالنسبة للجماعات الوظيفية المالية وهو الدور الذي اضطلعت به معظم الجماعات اليهودية في العالم حتى بدايات القرن التاسع عشر . فبدون الانعزالية ، لم يكن بإمكان أعضاء الجماعات الوظيفية الاحتفاظ بحيادهم وتعاقديتهم وموضوعيتهم وهي أمور لازمة وأساسية للقيام بالأعمال المالية في المجتمعات التقليدية . ولكن هذه الانعزالية ، في حالة الجماعات اليهودية ، شأنها في هذا شأن أية جماعة وظيفية أو أقلية تُوجَد في الوضع نفسه ، كانت تأخذ في الغالب شكل التعالي على الناس . وقد تعمقت الانعزالية حتى أصبح التعارض بين اليهود وغير اليهود (الأغيار) من المقولات الأساسية في التلمود وفي غيره من الكتابات الفقهية اليهودية .

والحلولية تيار مهم في العهد القديم ، ولكنها تضخمت واتسعت في التلمود بحيث يمكننا اعتبار التصور التلمودي للإله بشكل نكسة للفكر التوحيدي وللرؤية التي طرحها الأنبياء في العهد القديم . فالتلمود يخلع العديد من الصفات الإنسانية واليهودية على الإله . والعصمة ليست من صفاته ، فهو يكون مشغولاً خلال اثنتى عشرة ساعة يومياً : يقرأ التوراة في الساعات الثلاث الأولى ، ويحكم العالم في الثلاث التالية ، ويفكر في إفناء العالم ، ثم يترك كرسي القضاء إلى كرسي الرحمة ، ويجلس في الساعات الثلاث التالية يرزق العالم كله من أكبر الحيوانات إلى أصغرها . وفي الثلاث الأخيرة ، يلعب مع التنين أو الحوت . والإله ، في التلمود ، متعصب بشكل كامل لشعبه المختار ، ولذا فهو يعبِّر عن ندمه على تركه اليهود في حالة تعاسة وشقاء حتى أنه يلطم ويبكي . ومنذ أن أمر بهدم الهيكل وهو في حالة حزن وندم ، توقف عن اللعب مع التنين الذي كان يسليه ، وأصبح يُمضي وقتاً طويلاً من الليل يزأر كالأسد . ولكنه في آخر الأيام ، بعد إقامة المجتمع اليهودي الأمثل في العصر المشيحاني ، في ظل الدولة المستعادة ، يجلس على العرش يقهقه لانتصار شعبه ، وعبثاً يتوافد الوثنيون طالبين قبولهم .

ويتبدَّى التعصب الإلهي في أنه حينما يأتي الماشيَح سيصبح كل الناس عبيداً لجماعة يسرائيل .

وتظهر الحلولية والانعزالية في تلك القداسة التي تحيط بالتلمود. وهو في الواقع ـ كما أسلفنا ـ مجرد تفسير للعهد القديم وضعه الحاخامات ، إلا أنه ، مثله مثل كل كتب التفسير اليهودية ، يكتسب قداسة خاصة . وقد سيطرت أسطورة الشريعة الشفوية على الوجدان اليهودي سيطرة تامة بعد ظهور المسيحية ، فكان يُنظر إلى التلمود في بداية الأمر باعتبار أنه يأتي في المرتبة الثانية بعد التوراة ، ولكنه أصبح بعد حين يُلقَّب بالتوراة الشفوية ، أي صار مساوياً لتوراة موسى في المرتبة ، ولم يَعُد في وسع أي يهودي مخالفته . وأخذت درجة قداسته في الازدياد والاتساع حتى أصبح أكثر قداسة من التوراة نفسها . وقد قال أحد الحاخامات : «يا بني كن حريصاً على مراعاة أقوال الكتبة [أي الحاخامات واضعي التلمود] أكثر من حرصك على أقوال التوراة ، لأن أحكام التوراة تحوي الأوامر والنواهي . أما شرائع الكتبة ، فإن من ينتهك واحدة منها يجلب على نفسه عقوبة الإله» . وقد جاء أيضاً أنه : «لا خلاص لمن ترك التلمود واشتغل بالتوراة لأن أقوال علماء التلمود أفضل مما جاء في شريعة موسى ، وهي أفضل من أقوال الأنبياء» .

وفي معرض تقديس التلمود والإيمان المطلق بكل ما دوَّنه الحاخامات فيه ، ورد في التلمود أن خلافاً ما قد وقع بين الإله وعلماء اليهود حول أمر ما . وبعد أن طال الجدل ، تقرَّر إحالة الأمر موضع الخلاف إلى أحد الحاخامات الذي حكم بخطأ الإله الذي اضطر إلى الاعتراف بخطئه . وفي هذا المقام أيضاً ، ردد بعض الحاخامات أن الإله يستشير الحاخامات على الأرض إذا صادفته مسألة معضلة يتعذر عليه حلها في السماء . وهكذا اختل التوازن الحلولي ، كما هو الحال دائماً ، لصالح المخلوقات من الحاخامات على حساب الإله .

ويظهر ارتباط الانعزالية بالحلولية في فكرة الاختيار ، فقد جاء في التلمود أن الإله اختار اليهود لأنهم اختاروه ، وهي عبارة تفترض المساواة بين الإله والشعب . (كان يرددها بن جوريون برضا شديد، وهي تشكل أساس فلسفة بوبر الحوارية ، ونقطة انطلاق لكثير من النزعات الحلولية المعاصرة في اليهودية ولصهيونية جوش إيمونيم الحلولية) .

وتساءل كُتَّاب التلمود عن سبب تشبيه اليهود بشجرة الزيتون ، وترد الإجابات التالية :

١ ـ لأن شجرة الزيتون لا تفقد أوراقها ، كما أن كل اليهود لن يضيعوا في هذا العالم أو العالم الآتي .

٢ ـ وكما أن الزيتون لا ينتج زيتاً إلا بعد العصر والضغط عليه ، فإن أعضاء جماعة يسرائيل لن يعودوا كذلك إلى جادة الصواب إلا بعد الآلام والعذاب .

٣ ـ شُبِّه اليهود بحبة الزيتون لأن زيت الزيتون لا يمكن خلطه مع المواد الأخرى . وكذلك جماعة يسرائيل ، لا يمكن أن تختلط مع الشعوب الأخرى . ويدَّعي التلمود أن روح الإله من روح الشعب كما أن الابن جزء من أمه ، ولذا فمن يعتدي على يهودي فهو كمن يعتدي على العزة الإلهية ، ومن يعادي جماعة يسرائيل أو يكرهها فإنه يعادي الإله ويكرهه ، وخصوصاً إذا عرفنا أن الإله كان يقطن بينهم حينما كانوا في أرض الميعاد ، وأن الشخيناه (التعبير الأنثوي عن الإله) بقيت معهم حينما نُفوا خارجها إذ أن موسى طلب ذلك من الإله .

وكان الاختيار في بادئ الأمر تلقائياً نابعاً من رحمة الإله وإرادته الإلهية ، ولكن اليهود ـ حسب الرؤية التلمودية الحلولية ـ بينوا أنهم جديرون بهذا الاختيار . ولذا ، تحوَّل الاختيار من مجرد منحة من الإله إلى حق من حقوقهم مُلزم له وإلى دين عليه أن يؤديه حتى لو ضلوا الطريق . وقد جاء في التلمود على لسان الإله : «لن أعامل جماعة يسرائيل كالأمم الأخرى ، حتى وإن لم تعمل حسنات إلا قليلاً تافهاً كروث الدجاج المتناثر في الحظيرة ، فسأجمع هذه الحسنات ليكون لها حسنات كثيرة» . وهكذا اختل التوازن الحلولي لصالح اليهود مرة أخرى ، وإن كان هناك رأي تلمودي مغاير يرى أن الاختيار تكليف إلهي وعبء مُلقى على كاهل اليهود عليهم أن يضطلعوا به . والتوراة هي ميراث الشعب المختار وحده ، ومن يدرسها من الأغيار يستحق الموت (ولكن ثمة رأياً تلمودياً مغايراً يرى أن الوثني الذي يدرس التوراة هو في منزلة الكاهن الأعظم) .

هذه النزعة الانعزالية المتعالية توجد في معظم صفحات التلمود المليء بالأحكام الموجهة ضد غير اليهود (وخصوصاً سفر عفوده زاره أو عبادة الأوثان) ، فلن يدخل الجنة سوى اليهود . وقد خلق الإله الأغيار على هيئة الإنسان لكي يكونوا لائقين بخدمة اليهود الذين خُلقت الدنيا من أجلهم ، إذ ليس من الملائم أن يقوم حيوان على خدمة الأمير ، وهو على صورته الحيوانية . ولا يُعتدُّ بشهادة غير اليهودي أمام المحاكم إلا في حالات قليلة . وإذا وقع أذى بشخص ، فمن المهم جداً تحديد هل هذا الشخص يهودي أم لا ، بل إن هذا التمييز يسري أيضاً في المعاملات التجارية . وفي مسائل الطهارة ، يعتبر الأغيار أنجاساً في حياتهم . ولكن مقابرهم ، باعتبار أنها غير مقدَّسة ، لا تنجس الكهنة . والعكس صحيح بالنسبة إلى اليهود ، فهم طاهرون في حياتهم وقبورهم مصدر نجاسة أساسي للكهنة اليهود .

ويتناسى التلمود الفرق بين الأخيار والأشرار من الأغيار ، رغم أنه تمييز أساسي في العقيدة اليهودية نفسها . بل إن التلمود يطلب أحياناً إلى اليهود أن يستخدموا مقياسين أخلاقيين : أحدهما للتعامل مع اليهود ، والآخر للتعامل مع غير اليهود (انظر : بابا متسيعا ٩٥ أ ، وبابا قما ١١٣ أ) . وقد جاء في التلمود أنه لا يصح أن يبيع لليهودي الشيء الذي يحتمل فساده إن تُرك ، ولكنه من الممكن أن يُباع لغير اليهودي ، كما يُحرِّم على الطبيب اليهودي أن يعالج مريضاً غير يهودي (إلا لدرء أذى الأغيار) .

ولأن التلمود يرى أن اليهود وحدهم يجسدون روح الإله ، لذا نجده لا يرحب بالمتهوِّدين . وقد ورد فيه «إن المتهوِّدين مثل القذى في عين جماعة يسرائيل» وهو موقف لا يزال يسيطر على المؤسسة الأرثوذكسية وريثة التراث التلمودي في إسرائيل . وكان اليهودي يشكر إلهه على أن مكانه «بين أولئك الذين يجلسون في بيت الدراسة والمعبد [أي اليهود] ولم تجعل مكاني بين أولئك الذين يذهبون إلى المسارح والسيرك [أي غير اليهود]» . وحتى حينما كان بعض المفسرين ينصحون اليهود بعدم الكذب على الأغيار ، فإنهم يصرون على ضرورة عدم الاحتكاك بهم ، أو الدخول معهم في علاقة . وقد قال أحد الشارحين في القرن السابع عشر في بولندا إن من الواضح أن التوراة تأمر اليهود بأن يحتفظوا بالكراهية بينهم وبين الأغيار حتى يبعدوا خطر الزواج المُختلط . ولذا ، فلا يمكن السماح بتلك الأفعال التي قد تقلل الكره بين اليهود والأغيار . وتصل النزعة المتعالية ذروتها في عبارة : «اقتل أفضل الأغيار ، اسحق رأس أنبل الأفاعي» . وقد اقتبس أحد كتيبات الحاخامية العسكرية الإسرائيلية هذه العبارة التلمودية التي أثارت ضجة داخل إسرائيل وتصدَّى لها بعض القادة الدينيين ووصفوها بأنها تشويه للعقيدة اليهودية .

فالحلولية إذن هي الإطار الفلسفي ، والانعزالية والتعالي الإثنيين هما الترجمة العملية لها . ولكن التلمود كتاب جيولوجي ضخم يضم موضوعات شتى وتراكمت فيه رؤى وآراء مختلفة فكل العقائد اليهودية المعروفة قد دُوِّنت وصُنِّفت فيه ، بشكل واضح أحياناً ، وبشكل غامض مشوش أحياناً أخرى . كما يضم التلمود أيضاً موضوعات وطرائف لا تنضوي بالضرورة داخل إطار فلسفي واضح ، أو رؤية دينية محددة ، فهو يتحول أحياناً إلى مجرد وثيقة اجتماعية لا توجه الواقع وإنما تعكسه وحسب . فصفحات التلمود تعكس وضع اليهود الاقتصادي كجماعة وظيفية تعمل بالتجارة

ولذلك ، كان على اليهودي ، حسب التقاليد التلمودية ، أن يتلو ثلاث تسبيحات شكر كل يوم لأن الإله خلقه يهودياً ، ولأنه لم يخلقه امرأة ولم يخلقه فلاحاً . وقد جاء أنه «لا يوجد عمل أكثر امتهاناً من فلاحة الأرض» . ومع هذا ، هناك أقسام طويلة في التلمود عن الزراعة وقوانينها وأفضالها . ومن أهم أنواع التجارة التي مارسها أعضاء الجماعات اليهودية تجارة الرقيق . ولذا ، فإننا نجد أن التلمود نظم عملية امتلاك عبد من الأغيار . فهو يُمتلَك بالشراء أو بالصك أو بالخدمة الفعلية . ويوجد في التلمود صيغة لاستمارة يتم ملؤها للحصول على عبد تقول : «هذا العبد تم استعباده بصورة قانونية وليس له أي حق من حقوق الأجراء ، وليست له مطالب يقدمها للملك أو الملكة . وليست به أية علامة إنسانية ، وهو خال من أية عيوب جسدية ومن أية علامة في الجلد تدل على إصابته بالبرص سواء حديثاً أم في الماضي» . وكانت طبقة العبيد مُحتَقرة كما كان يسود الاعتقاد بأنهم كسالى : «هناك عشرة مقاييس من النوم نزلت إلى العالم . فأخذ العبيد تسعة منها وأخذ بقية الناس الواحد المتبقي» . ولا يتمتع العبد بثقة كاتبي التلمود ، فهو لا يُعَدُّ إنساناً ، ولذا فليس بإمكان اليهودي أن يصلي معه أو أن يصلي عليه أو يسير في جنازته .

ولا يقتصر التلمود على حياة اليهود العامة ، وإنما يمتد ليشمل أخص خصوصياتهم . فهو يتناول ، ضمن ما يتناول ، كل دقائق إعداد الطعام وتناوله والعلاقات الخاصة بين الرجل وزوجته والطمث . وينبعث من صفحات التلمود احتقار عميق للمرأة ، وقد كتب أحدهم يقول : «هناك أربع خصائص للنساء : فهن شرهات ، ومتصنتات وكسولات وغيورات ، وهن أيضاً كثيرات الشكوى وثرثارات» . وقد أفاض التلمود بشأن الصفة الأخيرة : "نزلت إلى العالم عشرة مقاييس للكلام ، أخذت النساء تسعة منها وأخذ الرجال واحداً" .

والتلمود كتاب طبي أيضاً . ولذا ، فإننا نجد فيه وصفات طبية عديدة ، فهو ينصح بضرورة التعرض للماء البارد بعد حمام ساخن . كما نجد في التلمود شرحاً لأسباب الإمساك وطريقة معالجته . وينصح التلمود أيضاً بأن من : «يطيل البقاء في المرحاض ، يطيل الرب أيامه وسنيه» . وهناك صلاة شكر تُتلى بعد تلبية نداء الطبيعة .

وعلاوة على كل هذا ، يمكن اعتبار التلمود كتاب فولكلور يعكس شتى الممارسات والآراء الخرافية التي كانت سائدة في مكان نشأته ، سواء في بابل أو في الأماكن الأخرى التي عاش فيها الشارحون . ولأن كُتّاب التلمود يدورون في نطاق حلولي ، فإننا نجدهم يؤمنون بإمكانية التحكم الكامل والتوصل للحل السحري (الغنوصي) وبفاعلية العلاجات العجائبية والعقاقير الشيطانية والسحر والرقى والتعاويذ . والتلمود أيضاً كتاب تنجيم وسحر وتفسير أحلام . ومما يُذكَر فيه أن قارئه الراغب في رؤية العفاريت رؤية العين يمكنه ذلك باتباع خطوات تم تحديدها بدقة متناهية ، وإذ أراد طرد العفاريت فصفحاته تضم تعاويذ تفي بذلك الغرض . وتصل الحلولية إلى ذروتها (أو هوتها) حين يؤكد التلمود أن الحاخامات كانوا قادرين على الخلق ، فقد ذكر أن حاخاماً خلق مرة إنساناً بأن نطق اسم الإله الأعظم وأرسله إلى الحاخام زعيرا الذي تحدَّث إليه ، ولكنه لم يستطع أن يجيب ، فتعجب الحاخام قائلاً : «أنت مخلوق بفعل السحر ، ارجع إلى التراب» .

وقد أثر التلمود ، بما احتوى من نظرة حلولية انعزالية ، في كثير من أجزائه ، في الفكر الصهيوني ، حيث وجد المفكرون الصهاينة ما يدعم اتجاهاتهم . فقد جاء في سفر «عفوده زاره» على سبيل المثال لا الحصر : «ينبغي ألا تُؤجَّر البيوت لغير اليهود في أرض يسرائيل ، ناهيك عن الحقول» . وهذه إحدى القواعد الأساسية للصندوق القومي اليهودي . كما أن الصهاينة يقتبسون من التلمود عبارات مثل : «من يقيم خارج أرض يسرائيل هو مثل إنسان بدون إله» (كتوبوت ١١٠ب) .

ولكن نظراً لخاصية التلمود الجيولوجية ، فإننا نجد أنه يرد فيه عكس هذه الأفكار تماماً ، فقد قال الحاخام يهودا : "من يصعد من بابل إلى أرض يسرائيل ، فقد انتهك إحدى الوصايا الإلهية" . ويستشهد بسفر إرميا (٢٧/ ٢٢) ، ثم يقول : "مثلما أنه ممنوع مغادرة أرض يسرائيل إلى بابل ، فمن الممنوع أيضاً مغادرة بابل إلى غيرها من البلدان" ، ثم يستطرد قائلاً : "إن من يعيش في بابل كأنه مقيم في أرض يسرائيل" (كتوبوت ١١١أ) . كما توجد في التلمود أيضاً أفكار متناقضة عن العصر المشيحاني ، بعضها ذو نكهة صهيونية انعزالية والبعض الآخر معاد لها وله نزعة اندماجية عالمية .

وتجد التوسعية الصهيونية تبريراً لها في الصورة التي يرسمها التلمود لحدود الأرض في المستقبل ، فهي سوف تمتد وتصعد في جميع الجهات ، ومن المقدر لأبواب القدس أن تصل إلى دمشق ، وسوف يأتي المنفيون لينصبوا خيامهم في الوسط . وقد جاء أيضاً : "إن فلسطين تُدعى أرض الظبي ، فكما أن جلد الظبي يعجز عن استيعاب لحمه وجسمه ، كذلك هي أرض يسرائيل : عندما تكون مأهولة تجد لنفسها متسعاً ، لكنها تتقلص متى كانت غير مأهولة" . فحدود هذه الأرض متغيرة ، وتزداد بازدياد المستوطنين اليهود فيها .

ولا يختلف هذا القول كثيراً عن موقف تيودور هرتزل من الحدود حين بيَّن أن ما سيقرر حدود الدولة هو مدى حاجة الصهاينة : "كلما ازداد عدد المهاجرين ازدادت حاجتنا إلى الأرض" .

ورغم أن ثمة عناصر صهيونية في التلمود ، إلا أنه لا يمكن القول بأنه تسبَّب في ظهور الصهيونية . فالصهيونية حركة سياسية تهدف إلى استعمار فلسطين عن طريق توطين عنصر سكاني غريب فيها ، وتعود جذورها أساساً إلى الفكر الألفي الاسترجاعي البروتستانتي وإلى وضع اليهود داخل الحضارة الغربية كجماعة وظيفية وإلى الإمبريالية الغربية . كما أن المؤسسة الحاخامية التلمودية ذات العلاقة الوثيقة بأثرياء اليهود في كل أنحاء العالم ، والتي امتزجت مصالحها بمصالحهم بحيث أصبح الفريقان يشكلان النخبة القائدة ، كانت تقف ضد فكرة العودة المشيحانية لأن مصالح هذه النخبة (ومصالح الجماعة الوظيفية ككل) كانت مرتبطة تمام الارتباط بمجتمعاتها المختلفة ومتجذرة فيها ، ومن هنا كان حرصها على تأسيس حلقات ومدارس تلمودية (أكاديميات ـ يشيفات) تعمل على تخريج حاخامات ملمين بالأوضاع المحلية الخاصة ، قادرين على إصدار الفتاوى الملائمة التي تفسر الأوضاع الجديدة وتتكيف معها . وبعد التهجير البابلي ، استقلت الحلقات التلمودية في بابل ، وحينما ظهرت حضارة الأندلس حرص أثرياء الجماعة اليهودية هناك على استقلال الحلقات فيها . وقد استقل يهود الغرب الإشكناز بحاخاماتهم ومدارسهم التلمودية . ولم يكن من مصلحة هؤلاء الأثرياء العودة إلى فلسطين ، بل كانت مصلحتهم في البقاء في المنفى . ومن هنا ، يتواتر الحديث في التلمود عن أن "شريعة الدولة هي شريعتنا" ، وعن ضرورة انتظار الماشيَح في صبر وأناة حتى يأذن الإله . ومن هنا أيضاً ، وقفت المؤسسة الحاخامية التلمودية ضد النزعات المشيحانية الصهيونية التي كانت أساساً نزعات شعبية تعبِّر عن بؤس فقراء اليهود ، وعدم إدراكهم للعلاقات الدولية أو لطبيعة البؤس الواقع عليهم . وقد ظلت هذه المؤسسة واقفة بقوة ضد كل المشحاء الدجالين تستعدي عليهم السلطات وتجند فقهاءها لإثبات كذبهم كما فعل الحاخام نحميا مع شبتاي تسفي . كما كانت تُكفِّر كل من كان يفكر في العودة وتُوجِّه إليه تهمة أنه ارتكب جريمة التعجيل بالنهاية (دحيكات هاكتس) . ويُلاحَظ أن ظهور الصهيونية الحديثة مرتبط بتآكل المؤسسة الحاخامية التلمودية وبانهيار نفوذ التلمود تماماً . وحينما نشر هرتزل كتيب **دولة اليهود** ، عارضه كبار الحاخامات جميعاً ، وبالذات الأرثوذكس (التلموديون) . ولذا ، فإن التلمود ، على مستوى من المستويات ، كان مسئولاً إلى حدٍّ ما عن تخفيف حدة النزعة المشيحانية في اليهودية ، وبالتالي نجح في صد الصهيونية .

وقد تقصَّى الدكتور أسعد رزوق موقف التلمود من العرب ، فوجد أنه (في بعض نواحيه) تعبير عن الانعزالية المتعالية نفسها وقد جاء في سفر سوكاه (٥٢ ب) أن الإله ندم على خلقه أربعة أشياء : المنفى ، والكلدانيين ، والإسماعيليين (أي العرب) ، ونزعة الشر . وينسب التلمود إلى العرب أعمال السحر ، فقد جاء في سفر سنهدرين (٦٧ ب) أن عربياً امتشق السيف وقطع به الناقة ، ثم قرع جرساً فنهضت دون وجود آثار عليها . والعرب ، حسبما جاء في التلمود ، خبراء في الطب ، وخصوصاً الطب الشعبي . ويرد في التلمود العديد من القصص الطريفة والأعاجيب عن العرب . وهناك قصص ليست في صالح رواية الحاخامي إذ أن بعضها يدل على خبرة العرب وبراعتهم واحترامهم موتى اليهود أكثر من احترام الحاخام إياهم . وأخيراً ، فقد جاء في سفر السبت (١١ أ) القول التالي : "لا بأس من الخضوع لحكم واحد من أبناء إسماعيل بدلاً من حكم الغريب [أي الأدومي]" . وحسب ما جاء في حاشية الشارح ، فإن المقصود بذلك هو تفضيل الحكم العربي على البيزنطي ، وهو ما يشكل أساساً تلمودياً للمصالحة مع العرب بل قبولهم حكاماً !

هذه بعض الأفكار والموضوعات الأساسية في التلمود . ويجب أن نقرر مع جيمس باركس ، وهو مؤرخ غير يهودي متعاطف مع اليهودية ، قوله "إنه لم يكن من الصعب أن يقتبس أي دارس للتلمود ، ويسر شديد ، كثيراً من الآراء والمشاعر التافهة والمضحكة بل الكريهة ، وبوسعه أن يفعل ذلك دون أن يخطئ في الاستشهاد أو يزيف السياق ، إذ أن مثل هذه النصوص توجد في الأدب الحاخامي [الخيولوجي] الضخم وغير المترابط" . ونحن إذ نوافقه على رأيه هذا ، فلن نحيد عن طريق الصواب ، فهذا أيضاً هو رأي الحاخام جيكوب آجوس أحد أهم مؤرخي اليهودية .

وهذا هو أيضاً رأي المؤلف اليهودي الصهيوني برنارد لازار الذي وصف التلمود بأنه "كتاب ضد المجتمع" . وقد لعب دو[ر]اً حاسماً في تحويل اليهود إلى شعب واحد ، فهو الذي صنع النف[سية] اليهودية وصاغ خصائصها ، وهو "خالق الجنس أو صانع العنص[ر] اليهودي" ، و"هو الذي علَّم اليهود الاستعلاء والتفوق المل[حمي] بعصبية ضيقة وضارية" . ونعل مثل هذه الآراء ، التي تفسر سلو[ك] اليهود في إطار بعض ما جاء في التلمود ، هي المسئولة عن مو[اقف]

المعادين لليهود الذين يجعلون كل يهودي في كل زمان ومكان مسئولاً عما ورد فيه من آراء متعصبة . ومثل هذا الرأي ينم عن عدم إدراك لطبيعة التلمود أو طبيعة علاقة اليهودية به . فالتلمود ليس كلاً متجانساً ، كما أن اليهود ليسوا على معرفة بما جاء فيه ككل ، وهو لا يحدد سلوك اليهود كافة في كل زمان ومكان . والواقع أن من يحوِّل التلمود إلى نموذج تفسيري لسلوك اليهود أو أعضاء الجماعات اليهودية (كما يفعل كثير من الدارسين) ، يكون قد حكم على نفسه بالانفصال عن الواقع والفشل الذريع في التنبؤ .

سمات التلمود الأساسية

Essential Characteristics of the Talmud

حينما يتم تناول أي نص أياً كانت قداسته ، لابد أن يؤخذ في الاعتبار سياقه التاريخي . فلا يمكن فهم ما جاء في العهدين القديم والجديد إلا بفهم الوضع في فلسطين منذ التسلل العبراني في كنعان حتى ظهور المسيح ، ولا يمكن فهم ما يقوله المسيح (رغم أهميته الدينية والأخلاقية المطلقة) إلا بإدراك الأبعاد التاريخية في أقواله . فالمطلق رغم مطلقيته ، لابد أن يتبدَّى من خلال النسبي (في لحظات) إذ أن الإنسان الذي يعيش في التاريخ لا يمكنه أن يدرك المطلق إلا من خلال النسبي . ورؤية المطلق في علاقته بالنسبي ، والإلهي في علاقته بالتاريخي ، لا تعني بالضرورة أن يُردَّ الأول برمته إلى الثاني ، وإنما تعني أن الثاني هو المجال الذي يتبدى من خلال الأول . وإذا كان هذا ينطبق على الكتب الدينية (المقدَّسة) ، فهو لا شك ينطبق بشكل أكبر على كتب الشروح والتفسير ، مهما خلعت على نفسها من قداسة وإطلاق . والتلمود هو ، في نهاية الأمر ، كتاب تفسير وضعته القيادة الدينية لأقليات متناثرة كانت تعيش في قلق وخوف وإحساس بالخطر المحدق بها (الحقيقي والوهمي) في عصور لم يكن يُعترف فيها بحقوق أعضاء المجتمع ، ناهيك عن حقوق أعضاء الأقليات ، تلك الأقليات التي كانت تلعب دور الجماعة الوظيفية المرتبطة بالطبقة الحاكمة ، ولكنها كانت غير محبوبة منها ، كما كانت قريبة من الطبقات الشعبية ولكنها مكروهة منها . لقد كانت هذه الجماعة تعيش ، إذن ، في عزلة عن الجميع (وكان التلمود من أهم وسائل هذا العزل) . وقد نتج عن هذا الوضع إحساس زائد بالذات . ولذا فقد أعضاء الجماعات اليهودية وقياداتهم قدراً كبيراً من علاقتهم بالواقع وانفصل فكرهم عنه ، وأصبح التلمود مجالاً للتعويض عما يلاقونه من اضطهاد ، فتحوَّل التلمود إلى صياغات لفظية يمارسون من خلالها الانتقام من أعدائهم ، عن طريق الحط من شأنهم وإظهار التفوق اليهودي ، وخصوصاً في آخر الأيام بعد عودة الماشيَّح حيث يبطشون ويبطش ربهم بكل أعدائهم . وقد كان شراح التلمود ينغمسون في هذه التهويمات اللفظية في الوقت الذي كانوا يعانون فيه صنوف العذاب ويُعامَلون معاملة الحيوان في بعض الأحيان . ومما له دلالته العميقة أن التلمود البابلي أكثر تسامحاً تجاه الأغيار من التلمود الفلسطيني ، نظراً لأن وضع أعضاء الجماعة اليهودية في بابل كان أفضل من وضع أعضاء الجماعة في فلسطين ، الأمر الذي صعَّد حدة العملية الانتقامية التعويضية في فلسطين وخفف من حدتها في بابل . والتلمود كان يُكتَب بلغة أو لغات ميتة لا تفهمها الشعوب التي كان اليهود يعيشون بين ظهرانيها ، كما أن عدم وجود الطباعة ووسائل النشر ذات الإمكانيات العالية كان يجعل الحصول على نسخة من التلمود مسألة صعبة ، فتحوَّل التلمود إلى جيتو لفظي يمارس فيه اليهودي حريته الوهمية كاملة !

وقد بدأت عملية التفسير والتعليق على العهد القديم حين كان اليهود يعيشون في وسط حلولي وثني مشرك ، الأمر الذي جعل نبرة الفتاوى والشروح الحاخامية الأولى بشأن الأغيار حادة رافضة ، وهي حدة تعود إلى العهد القديم نفسه حين وجد اليهود أنفسهم مكروهين يعيشون بين شعوب وثنية (كنعانيين ثم بابليين وفرس وهيلينيين ورومان) وتحت هيمنتها أحياناً ، ويشكل التعامل معهم خطراً على الدين التوحيدي الجديد . ومن هنا جاءت النظرة المتطرفة إلى الأغيار ، والتي تُسوِّغ الاستيلاء على أملاك الوثنيين وتستنكر تقديم أيٍّ نوع من المساعدة إلى عبدة الأصنام . ورغم أن المجتمعات التي كان يعيش فيها أعضاء الجماعات قد تغيَّرت بعد أن تبنت ديانات سماوية توحيدية ، فإننا نجد أن اليهودية وقد تحولت إلى عقيدة أقلية، مهددة ، تود الحفاظ على هويتها ، وتبنت رؤية حلولية متعالية للذات مقابل الآخر . وحدث الخلط بين عبدة الأوثان والمسيحيين ، كما يظهر في إشكالية العكوم ، فقد وُجِّه إلى التلمود اتهام بأن كلمة «عكوم» الواردة فيه ليست في حقيقتها اختصاراً للعبارة العبرية «عوفيد كوخانيم أومزالوت» ، أي «عابد الكواكب وأبراج النجوم» ، وإنما اختصار لعبارة «عبودت كريستوس وميريام» ، أي «عبدة المسيح ومريم» ، أي «المسيحيين» . والمسألة موضع نقاش ونظر ولكنها تبين طبيعة الخلط .

ويتكون التلمود من نص ، وشرح ، وتعليق ، وتعليق على التعليق ، وإضافات شتى . وقد استمرت عملية وضعه مئات الأعوام في أزمنة وأمكنة مختلفة ، ربما ابتداءً من التهجير إلى بابل

حتى تم الانتهاء من تدوينه وإضافة التعليقات في القرن الثاني الميلادي . واستمرت التعليقات حتى نهاية القرن التاسع عشر ، أي أن كتابته استمرت عبر التاريخ واشترك فيها ما يزيد على ألف حاخام. فهو يتكون ، إذن ، من تراكم مستويات على مستويات أخرى دون أن تتفاعل معها بالضرورة مثل تراكم الطبقات الجيولوجية . ولذا ، يمكننا أن نقول إن التلمود ليس الثمرة النهائية للتفكير بقدر ما هو عملية التفكير نفسها ، ولكنه على أية حال ليس تفكيراً يتسم بحد أدنى من الوحدة ، بل ينبع من حركيات اجتماعية وثقافية واقتصادية مختلفة ويتأثر بها . واستمرت عملية التراكم هذه دون حذف الأفكار الانعزالية الكريهة التي عبر عنها بعض الحاخامات بغير رقابة ذاتية أو خارجية عليها . وقد عمَّق هذا الاتجاه تلك القداسة التي خلعها التلمود على نفسه . وقد أدَّى هذا إلى أن عملية التحرير ، والتغيير والتعديل ، أصبحت أمراً مستحيلاً لا يمكن حتى التفكير فيه ، فالنص المقدَّس لا يصح تعديله أو الخوض فيه أو تبديله .

ومع هذا ، فقد جرت محاولة لإعادة صياغة التلمود تهدف إلى تضييق المجال الدلالي لبعض الكلمات ، بحيث تحل الكلمة المحددة محل الكلمة العامة حتى لا ينطبق ما جاء فيه من آراء وأحكام على كل الناس في كل زمان ومكان ، وبحيث يضيق المجال الدلالي لكلمة مثل «الأغيار» وتحل محلها كلمة «الكنعانيين» ، أو «البابليين» .

ولكل ما تقدَّم ، لا يتسم التلمود بالاتساق الداخلي ، إذ يحوي داخله العديد من الأفكار والأطر الفلسفية المتناقضة . فثمة تعارض بين العقل والطبقة التوحيدية من جهة والنزعة الحلولية من جهة أخرى ، وهناك الاهتمام المفرط بالطقوس مقابل الاهتمام بالتجربة الدينية الداخلية . وهناك من النصوص ما يؤيد هذا الموقف أو ذاك . وقد أشرنا أثناء عرضنا بعض أفكار التلمود الأساسية إلى أفكار مثل الشعب المختار وضرورة العودة إلى أرض الميعاد ، بل إلى أفكار أكثر تطرفاً تحمل الضغينة والكراهية نحو الآخرين . وقد أشرنا إلى أن التلمود يضم أيضاً أفكاراً متناقضة جداً تتصل بهذه الأفكار المحورية نفسها . ويقتصر المعادون لليهود عادةً على اقتباس الأفكار السلبية الحلولية الانعزالية والمتعالية وحدها متجاهلين الأفكار الإنسانية . وحتى نبين مدى عمق ذلك التناقض ، يمكننا أن نقتبس من التلمود بعض النصوص ذات البعد الإنساني العميق التي تتجاوز الانعزالية والحلولية . وسيُلاحَظ على سبيل المثال أن الاختيار يكتسب أبعاداً دينية عالمية ، إذ أن الإله سينزل العقاب باليهود : "إن لم يتحدثوا عن قداسته للعالمين" . فقد نُفيت جماعة يسرائيل وشُتِّتَ بهدف واحد هو "الدعوة لليهودية وكسب المتهودين" (بساحيم ٨٧ب) . وهذه النزعة التبشيرية ، التي تحدد اليهودية باعتبارها عقيدة لا باعتبارها ميراثاً عرقياً وإثنياً ، تفترض تساوي البشر وتتجاوز الحلولية التي ترى أن الإله محصور بين اليهود مقصور عليهم . وقد تبنت اليهودية الإصلاحية هذا الموقف من عملية التهويد .

وتصل الإنسانية قمتها في ذلك النص الذي جاء فيه أن الروح القدس تستقر على الجميع ، اليهودي وغير اليهودي ، الرجل أو المرأة ، العبد والجواري ، كل امرئ "حسب أفعاله" . كما جاء في جطين (٦١٦) أن أحد الحاخامات أوصى بإطعام فقراء الأغيار مع فقراء اليهود ، "وبزيارة مرضاهم مثلما نزور مرضانا ، وأن يُدفن موتاهم مع موتانا حتى ندعم سبل السلام" .

ومن الأمور الأخرى التي تُعاب على التلمود ، باعتباره أحد الكتب الدينية ، أنه يتناول من الموضوعات ما قد يرى البعض ، استناداً إلى تجربتهم الدينية ، أنها لا علاقة له بالدين مثل الطب وطريقة شراء العبيد . ولكن ما هو مقدَّس لا يوجد بمعزل عما هو دنيوي . كما أن كل نموذج ديني يُعرِّف ما هو ديني ومقدَّس وما هو دنيوي بطريقته الخاصة . وقد اتسع نطاق القداسة في اليهودية بسبب الطبقة الحلولية داخلها ليضم كثيراً من مناحي الحياة . فالأوامر والنواهي (متسفوت) والبالغ عددها ٦١٣ تغطي تقريباً كل كبيرة وصغيرة في حياة اليهودي . كما أن التلمود ليس كتاباً دينياً وحسب وإنما هو أيضاً كتاب فلكلور الجماعات اليهودية . والواقع أن تناقضاته الداخلية لا تنصرف إلى موضوعاته ومنطلقاته الدينية والفلسفية وحسب وإنما تنصرف أيضاً إلى نوعه أو جنسه الأدبي فهو كتاب فقه وقصص وحكم وأمثال . وعلى قارئ التلمود ودارسه أن يفرق بين ما هو ديني وما هو شعبي .

وفي نهاية الأمر ، لابد أن نشير إلى أن كثيراً من الأقوال والأحكام التي وردت في التلمود لا علاقة لها بأي واقع محدد وإنما هي أحكام خاصة بالهيكل بعد تشييده ، أو بدلائل آخر الأيام وما سيحدث فيها فيما بعدها ، الأمر الذي يجعل علاقتها واهية بالسلوك السياسي للأفراد والجماعات . كما أن قضية التفسير أساسية حينما نتناول أي نص ديني . ورغم أن التلمود هو نفسه تفسير ، فإنه يخضع دائماً لعملية تفسير من قبل الحاخامات (وتنطوي عملية التفسير على انتقاء واختيار واستبعاد) . ولما كان التلمود كتاباً ضخماً متناقضاً ، فهو بالضرورة «حمَّال أوجه» ، ويمكن أن يُفسَّر بألف طريقة . وفي كثير من المختارات التي تَصدُر في العصر

الحديث. يُلاحَظ أن محرريها يستبعدون العبارات الجارحة والأفكار الكريهة والمواقف العنصرية ويفسرون ما قد يرد منها تفسيراً يضفي عليها معاني إنسانية. وقد تهدف عملية الانتقاء والتفسير هذه إلى إخفاء الجوانب السلبية للتلمود، حتى لا تسبب حرجاً لليهود، ولكن الإحساس بالحرج نفسه يدل على الرغبة في الابتعاد عن المضمون الحلولي العنصري المتعالي.

التلمود وأعضاء الجماعات اليهودية

The Talmud and the Jewish Communities

يفترض المعادون لليهود الذين يهاجمون أعضاء الجماعات اليهودية بسبب ما جاء في التلمود، أن كل يهودي قد درس التلمود بعناية فائقة، وأنه يُخضع كل حركاته وسكناته لما ورد فيه من تعاليم سلبية. لكن هذا تصوُّر ساذج وتبسيط آلي، فما يحدد سلوك فرد ما، يهودي أو غير يهودي، ليس كتبه الدينية ومُثُله العليا وحسب وإنما مركب هائل من الأسباب التاريخية (الاقتصادية والاجتماعية) التي تختلف باختلاف الزمان والمكان. ولا يمكن فهم سلوك العرب المحدثين في ضوء ما جاء في تراثهم الديني، أو في ضوء ميثاق جامعة الدول العربية، رغم أهمية كل ذلك في تحديد هذا السلوك. والواقع أن دراسة التلمود مسألة شاقة للغاية تتطلب معرفة بالقراءة والكتابة باللغتين العبرية والآرامية، وهما لغتان ساميتان يصعب على الإنسان غير المتخصص دراستهما في الوقت الحاضر. ولذا، لم يكن يقرأ التلمود سوى أعضاء النخبة المتعلمة التي كانت في المراكز الدينية. أما جماهير اليهود، فكانت لا تعرف ما جاء فيه لأنها لم تكن تملك المقومات الثقافية لذلك. بل إن صغار الحاخامات أنفسهم الذين وجدوا في القرى المتناثرة، أو أولئك البعيدين عن المدارس التلمودية العليا، لم يكونوا يعرفون ما جاء فيه.

وقد تكون علاقة أعضاء أكبر جماعة يهودية في العالم (أي يهود بولندا) في بدايات العصر الحديث بالتلمود مثلاً جيداً على طبيعة العلاقة بين اليهود وهذا المجلد الضخم (التلمود). فقد انتشر اليهود، في القرن السادس عشر، في الشتتلات التي شيدها النبلاء البولنديون (شلاختا) في أوكرانيا وغيرها، فعاشوا بجوار الفلاحين الأوكرانيين المسيحيين السلاف بعيداً عن مراكز الدراسات التلمودية، واكتسبوا عبر السنوات سمات الفلاحين الذين كانوا يعيشون بينهم ومنها فلكلورهم الشعبي وبعض معتقداتهم الدينية (والواقع أن التمييز بين معتقدات دين ومعتقدات دين آخر مسألة صعبة بعض الشيء على المستوى الشعبي. كما أن الديانات الشعبية تركيبات جيولوجية تتسم في معظمها بالحلولية). ولقد أدَّى هذا الوضع إلى انتشار الحركات المشيحانية والصوفية بين اليهود ابتداءً من القرن السابع عشر، وهي حركات شعبية يهودية كانت موجهة ضد المؤسسة الحاخامية التلمودية الأرستقراطية، وكانت تجد تربة خصبة في الأطراف (وخصوصاً في مقاطعة بودوليا) بعيداً عن سلطة المؤسسة. وفي التربة نفسها، ظهرت الحركة الفرانكية والحركة الحسيدية، وكلتاهما حركتان شعبيتان ترفضان سلطة التلمود. وقد كان الفرانكيون يطلقون على أنفسهم اسم «الزوهاريين» نسبة إلى كتاب الزوهار القبَّالي. وقد انضم إلى هذه الحركات أساساً صغار التجار والحرفيين وصغار الحاخامات الذين لم تكن لهم علاقة كبيرة بالمؤسسة التلمودية الأرستقراطية.

ومع تحديث أغلبية اليهود وعلمنتهم التدريجية داخل الحضارة الغربية، ومع انتقاد اليهودية الإصلاحية للتلمود ورفضها له، ضعفت العلاقة بين اليهود والتلمود حتى اختفت تماماً بالنسبة إلى الأغلبية العظمى. فالأمريكيون اليهود (اليهود الجدد) والإسرائيليون لا يعرفون ما جاء في التلمود، ويُصدَم كثير منهم حينما تُذكَر أمامهم بعض أقواله. ويبدو أن أهم مفكرين دينيين يهوديين في العصر الحديث، مارتن بوبر وفرانز روزنزفايج، لم يدرسا التلمود، وربما لم يقرآه كاملاً. وقد حصل بوبر على أول نسخة منه في عيد ميلاده الستين! وفي استطلاع للرأي أُجري في إسرائيل صرح ٨٤٪ ممن شملهم الاستطلاع أنهم لم يقرأوا التلمود قط.

لكل ما تقدَّم، يجب ألا تُجرَّد النصوص التلمودية من سياقها، وألا يُجرَّد التلمود نفسه من سياقه التاريخي، بل يجب أن يُنظَر إليه في كليته لا ككتاب ديني وحسب وإنما أيضاً ككتاب أدب شعبي لا يتسم بكثير من التناسق أو التجانس، كما يجب أن يُقرأ باعتباره كتاباً يحوي الفكرة ونقيضها، وباعتباره كتاباً لا يحدد وحده سلوك الفرد اليهودي الذي عادةً ما يجهل ما جاء فيه. والواقع أن استخدام التلمود كنموذج تحليلي ينم عن الكسل الفكري، فهو رفض للتعمق في كلية الظاهرة اليهودية وتركيبيتها وتنوعها بحيث يصبح كل أعضاء الجماعات اليهودية في كل زمان ومكان مجرد يهود، ويصبح المحدد الأساسي لسلوكهم هو التلمود (وهذا ضرب من ضروب الحلولية المعرفية إذ يتم اختزال الواقع بأسره إلى مستوى واحد ويتم القضاء على التعددية وعلى كل الثنائيات). وينجم عن هذا، بطبيعة الحال، فشل كامل في رصد سلوك أعضاء الجماعات اليهودية أو التنبؤ به.

كتب التفسير (مدراش)

Midrash

"مدراش" من الكلمة العبرية "درش"، أي "استطلع" أو "بحث" أو "درس" أو "فحص" أو "محص". والكلمة تُستخدَم للإشارة إلى ما يلي :

١ ـ منهج في تفسير العهد القديم يحاول التعمق في بعض آياته وكلماته، والتوسع في تخريج النصوص والألفاظ، والتوسع في الإضافات والتعليقات، وصولاً إلى المعاني الخفية التي قد تصل إلى سبعين أحياناً. وهناك قواعد مدراشية للوصول إلى هذه المعاني. ومثل هذه المعاني الخفية، تُذكَر دائماً مقابل الـ "بيشات" أي "التفسير الحرفي".

٢ ـ ثمرة هذا المنهج من الدراسات والشروح، فالتلمود مثلاً يتضمن دراسات مدراشية عديدة، بمعنى أنها اتبعت المنهج المدراشي. ولكن هناك كتباً لا تتضمن سوى الأحكام والدراسات والتفسيرات المدراشية المختلفة ويُطلَق عليها أيضاً اسم "مدراش".

ويُفترَض أن مثل هذه الكتب المدراشية تعود إلى تواريخ قديمة شأنها في هذا شأن كل فروع الشريعة الشفوية. ويبدو أن العلماء المعروفين باسم الكتبة (سوفريم)، بدأوا بعد العودة من بابل بزعامة عزرا، في دراسة التفسيرات التقليدية للشريعة المكتوبة، وأخذوا يطبقونها على الاحتياجات اليومية للجماعة اليهودية. واستمروا في ذلك حتى بداية ظهور معلمي المشناه (تنائيم).

وقد ازدهر الأدب المدراشي في عصر معلمي المشناه (تنائيم)، لكن البدء في تدوين كتب المدراش لم يحدث إلا بعد عدة قرون من إلقاء المواعظ. وهناك نحو أربع وعشرين مجموعة مدراشية يمكن تقسيمها إلى عدة أقسام حسب المرحلة التاريخية :

١ ـ الكتب المدراشية المبكرة (وتم جمعها في الفترة ٤٠٠ ـ ٦٠٠).
٢ ـ كتب المرحلة الوسطى (٦٤٠ ـ ١٠٠٠).
٣ ـ كتب المرحلة المتأخرة (١٠٠٠ ـ ١٢٠٠).

وهناك مختارات مدراشية من القرن الثالث عشر، إلى جانب مواعظ مدراشية يمكن أن ترد في مجموعات مدراشية مختلفة أو في الجماراه.

وتنقسم كتب المدراش إلى نوعين :

١ ـ المدراش التشريعي الهالاخي (مشنوي)، وهي كتب المدراش التي تتضمن، أساساً، المبادئ الهادية إلى أحكام الشرع الديني (هالاخاه) ـ وهي تعليق على النصوص الشرعية، ومن أهمها :

أ) المخيلتا، وهذه كلمة آرامية تعني "المعيار" أو "المكيال" أو "الوعاء"، وتتضمن تسعة أبواب تُعالَج فيها أحكام شرعية موجودة في نص الكتاب المقدَّس (سفر الخروج) وتبدأ بالإصحاح رقم ١٢. وترجع المخيلتا إلى القرن الرابع أو القرن الخامس الميلادي.

ب) مخيلتا الحاخام شمعون بن يوحاي، وهي أيضاً تدور حول ما جاء في سفر الخروج من أحكام.

جـ) السفرا، أي "الكتابة" أو "الكتاب"، ويُسمَّى أيضاً "توراة الكهنة"، وهو تعليق على سفر اللاويين.

د) السفري (جمع سفرا)، وهو تعليق على سفر العدد، ابتداءً من إصحاحه الخامس، وعلى سفر التثنية بكامله.

هـ) سفر زوتا، وهو عن سفر العدد وحده.

ويختلف المخيلتا والسفري، عن بقية الكتب المدراشية، في المصطلح والمنهج. ويجب هنا أن نذكر ما يُسمَّى "مدراش معلمي المشناه (تنائيم)"، وهو تعليق على سفر التثنية ويتألف من فقرات مدراشية متفرقة وُجدت ضمن مختارات عُثر عليها في اليمن وتُسمَّى "مدراش هاجادول" أي "المدراش الأكبر".

ـ المدراش الأجادي، وهي التي كتبها الشراح (أمورائيم) وتتكون من المواعظ التي ألقوها في المعابد. واتبعوا فيها الأسلوب الأجادي أو الشرح القصصي على سبيل الوعظ. ومن أهم كتب المدراش الأجادية "مدراش رابا" (المدراش الكبير) الذي يتضمن أسفار موسى الخمسة. وتُدعى "بريشت (تكوين) رابا" و"شيموت (خروج) رابا" وهكذا في نشيد الأنشاد وراعوث وإستير وغيرها. وهناك مصنفات مدراشية أجادية أخرى مثل مدراش تنحوما ومدراش جلوت.

ويتكون التلمود أساساً، وخصوصاً المشناه، من أحكام مدراشية، ولكنه يتميَّز عن هذه الكتب المدراشية بأنه عبارة عن مناقشات وشروح تدور حول نصوص الأحكام الشرعية الناتجة من التفسير المدراشي بحيث لا يستند الشرح والتفسير إلى نصوص العهد القديم استناداً تاماً. فالمشناه تقدم الشريعة مجردة دون الأصل التوراتي، على عكس المدراش الذي يفسِّر نصاً أو نصوصاً توراتية. والاستخدام الشائع الآن لكلمة "مدراش" هو المدراش بالمعنى الأجادي أو القصصي الوعظي.

ويُقال إن يهود المدينة في عصر البعثة المحمدية كانوا لا يعرفون التلمود وكانوا يتداولون فيما بينهم بعض كتب المدراش.

المشناه

Mishnah

"مشناه" كلمة عبرية مشتقة من الفعل العبري "شنَّاه" ومعناه

«يثني» أو «يكرر» . ولكن ، تحت تأثير الفعل الآرامي «تانا» ، صار معناها «يدرس» . ثم أصبحت الكلمة تشير بشكلٍ محدد إلى دراسة الشريعة الشفوية ، وخصوصاً حفظها وتكرارها وتلخيصها . والمشناه مجموعة موسوعية من الشروح والتفاسير تتناول أسفار العهد القديم ، وتتضمن مجموعة من الشرائع اليهودية التي وضعها معلمو المشناه (تنائيم) على مدى ستة أجيال (١٠ـ ٢٢٠) .

وتُعدُّ المشناه مصدراً من المصادر الأساسية للشريعة ، وتأتي في المقام الثاني بعد العهد القديم الذي يُطلَق عليه لفظ «مقرا» (من «قرأ») باعتبار أن العهد القديم هو الشريعة المكتوبة التي تُقرأ . أما المشناه ، فهي الشريعة الشفوية ، أو التثنية الشفوية ، التي تتناقلها الألسن ، فهي إذن تكرار شفوي لشريعة موسى مع توضيح وتفسير ما التبس منها ، ولابد من دراسته (وتسمية العهد القديم بالمقرا حدثت في العهد الإسلامي ، وهي صدى للتفرقة بين القرآن والسنة ، فظهرت التفرقة بين المقرا والمشناه) . ولهذا ، فإن المشناه تُسمَّى «الشريعة الثانية» . وتتضارب الآراء المتصلة بمدلول كلمة «مشناه» ، فيذهب البعض إلى أنها تشير إلى الشريعة الشفوية بكاملها (مدراش وهالاخاه وأجاداه) . ولكن الرأي الآن مستقر على أن المشناه تعني الهالاخاه فقط ، حتى أن كلمتي «مشناه» و«هالاخاه» أصبحتا مترادفتين تقريباً . ومع هذا ، فإن هناك فقرات أجادية في نهاية كل قسم من أقسام المشناه . وعلى أية حال ، فإن فقرة واحدة تتضمن سنة واحدة في الفقهيات التشريعية يُسمَّى «مشناه» وجمعها «مشنايوت» . أما كتاب المشناه ككل فيشار إليه أحياناً بأنه «هالاخاه» وجمعها «هالاخوت» .

وقد دوِّنت المشناه نتيجة تراكم فتاوى الحاخامات اليهود (معلمي المشناه) وتفسيراتهم وتضاعفها كمياً بحيث أصبح من المستحيل استظهارها . فبدأ تصنيفها على يد الحاخام هليل (القرن الأول الميلادي) . وبعده الحاخام عقيبا ثم مائير . أما الذي قيدها في وضعها الحالي كتابةً ، فهو الحاخام يهودا الناسي (عام ١٨٩م) الذي دونها بعد أن زاد عليها إضافات من عنده (ولكن هناك من يقول إنه لم يدونها رغم اقترانها باسمه ، وقد ظلت الأجيال تتناقلها حتى القرن الثامن الميلادي) . ويتكون كل من التلمود الفلسطيني والتلمود البابلي من المشناه والجماراه . ووجه الاختلاف بينهما في الجماراه ، أما المشناه فهي مشتركة بين التلمودين . والواقع أن لغة المشناه هي تلك اللغة العبرية التي أصبحت تحتوي على كلمات يونانية ولاتينية وعلى صيغ لغوية يظهر فيها تأثر عميق بقواعد الآرامية ومفرداتها ، وتسمى عبرية المشناه . ويصل حجم المشناه في الترجمة الإنجليزية إلى ٧٨٩ صفحة . ولذا ، ورغم أنها تعليق على العهد القديم ، فإنها أكبر منه حجماً . ويجب التمييز بين المشناه والمدراش ، فالمدراش (حتى التشريعي الهالاخي) تعليق على النصوص التوراتية نفسها ، أما المشناه فتهدف إلى تقديم المضمون القانوني للشريعة الشفوية بشكل مجرد ودون العودة إلى النصوص التوراتية .

وتنقسم المشناه إلى ستة أقسام (سداريم) :

١ ـ سدِّر زراعيم ، أي البذر أو الإنتاج الزراعي : ويُعنى بالقوانين الدينية الخاصة بالزراعة والحاصلات الزراعية وبنصيب الحاخام من الثمار والمحصول .

٢ ـ سدِّر موعيد ، أي العيد : ويُعنى بالأعياد (والسبت) ، والأحكام الخاصة بها .

٣ ـ سدِّر ناشيم ، أي النساء : وفيه النظم والأحكام الخاصة بالزواج والطلاق .

٤ ـ سدِّر نزيقين ، أي الأضرار : ويتناول الأحكام المتعلقة بالأشياء المفقودة والبيع والمبادلة والربا والغش والاحتيال ، كما يُعنى بالحديث عن عصر المسيح ومحاكمته وصلبه . وهذا الكتاب موضع اهتمام الذين حاولوا إرجاع ما يُسمَّى «الأخلاق اليهودية» إلى تعاليم التلمود .

٥ ـ كتاب قُدَاشيم ، أي المقدَّسات : ويحوي الشرائع الخاصة بالذبح الشرعي ، والطقس القرباني وخدمة الهيكل . ويُقال إن واضعي المشناه قد أدركوا أنه (بعد القضاء على ثورة بركوخبا) لم يَعُد هناك احتمال في المستقبل القريب لإعادة بناء الهيكل ، ولذا فقد وضعوا القوانين الخاصة بالهيكل على مستوى آخر حيث أصبحت دراسة قوانين الهيكل بديلاً دينياً للطقوس المقدَّسة التي يقوم بها الكهنة في المعبد .

٦ ـ كتاب طهاروت أو الطهارة : ويعالج أحكام الطهارة والنجاسة .

وهذه الكتب الستة أو السداريم (جمع سدر) ، أصبحت تُسمَّى «شيشا سداريم» ، وهي تنقسم بدورها إلى أحكام فرعية أو مباحث تُسمَّى «ماسيختوت» ، ومفردها «مسيخت» ، وهي من جذر آرامي بمعنى «نسج» ، أو «حاك» ، ويُقال لها أيضاً «الأسفار» أو «المقالات» . ويتناول كل كتاب موضوعاً بعينه في عدة فصول أو براقيم أو مفاصل . ويتألف كل فصل بدوره من فقرات عديدة تُعرف باسم «هالاخوت» (جمع هالاخاه) وهي الأحكام الشرعية .

ويرى واضعو المشناه أنها جزء لا يتجزأ من الوحي الذي تلقاه موسى ، فهي التوراة (أو الشريعة الشفوية) لا بمعنى أن بعض أجزائها تلقاه موسى شفاهة في سيناء ثم تم تناقلها شفاهة عبر الأجيال من حاخام إلى آخر ، وإنما بمعنى أن تقاليد التوراة الشفوية لا تزال

مستمرة حتى وقتنا هذا . بل يرى بعض العلماء اليهود أن المشناه هي المقابل اليهودي للعهد الجديد ، فكلاهما إكمال للعهد القديم وشريعة موسى . والمشناه هي ، في الواقع ، الرد اليهودي على العهد الجديد . بل إن بعض العلماء اليهود يرون أن المشناه ، شأنها شأن المسيح ، هي تجسيد للعقل الإلهي ، أي أنها اللوجوس (الكلمة) . وإذا كان المسيح هو اللوجوس ، وقد أصبح بشراً ، فإن هذا التجسيد يأخذ في المشناه شكل لغة قانونية متزنة تشكل وتنظم مسار الواقع .

وقد ظلت المشناه أهم كتب اليهود المقدَّسة والمصدر الحقيقي للتشريع والأحكام والفتاوى ، رغم كل الأبهة الشعائرية التي تحيط بالعهد القديم . ومع هذا ، فإن المشناه بدأت تفقد منذ القرن السادس عشر ، مثلها مثل باقي أقسام الشريعة الشفوية ككل ، شيئاً من أهميتها ومركزيتها ، وذلك مع شيوع القبَّالاه وازدياد نفوذ القبَّاليين الذين أخذوا يهاجمون الحاخامات ويُصدرون الفتاوى استناداً إلى الزوهار وأقوال لوريا . وكان القبَّاليون يشيرون إلى المشناه بأنها «مقبرة موسى» ويشيرون إلى الحاخام بلفظ «الحمار المشناوي» (لأنه ينوء تحت طقوس المشناه ويكررها أحياناً دون فهم لمعناها) .

الجماراه

Gemara

«جماراه» كلمة آرامية تعني «التتمة» أو «التكملة» أو «الدراسة» . وهي عبارة عن التعليقات والشروح والتفسيرات التي وضعها على المشناه الفقهاء اليهود الذين يسمَّون بالشراح (أمورائيم) في الفترة ٢٢٠ ـ ٥٠٠م . وهي تأخذ عادةً شكل أسئلة وأجوبة . وتُعَدُّ الجماراه جزءاً من الشريعة الشفوية . لكن تسميتها بالجماراه ، أي «المكملة» ، هي من قبيل المجاز ، فالشراح لم يكتفوا بالتفسير والتوضيح فحسب ، بل قاموا بالتعديل حتى تطابق المشناه ظروف الزمان والمكان ، أي أنهم فعلوا بالمشناه ما فعله رواة المشناه بالعهد القديم . وكما أن المشناه أطول من العهد القديم ، فإن الجماراه أطول من المشناه . وهناك جماراتان إحداهما فلسطينية والأخرى بابلية . ويبلغ عدد كلمات الأولى نحو ثلث عدد كلمات الثانية .

وفي القرن الرابع ، نسقت مدارس فلسطين التلمودية شروحها في الصورة المعروفة بالجماراه الفلسطينية . أما الجماراه البابلية ، وهي أطول من المشناه عشر مرات ، فقد جُمعت في مائة عام كاملة ، وظل الحاخامات المفسرون (صبورائيم) نحو مائة وخمسين سنة أخرى يراجعون هذه الشروح الضخمة ويصقلونها حتى أخذت صورتها التي لدينا .

ووجه الاختلاف بين التلمود البابلي والتلمود الفلسطيني ماثل في الجماراه وليس في المشناه ، فالمشناه مشتركة بينهما . ولما كانت الجماراه البابلية أكمل وأشمل من الجماراه الفلسطينية ، ويزيد حجمها على حجم الجماراه الفلسطينية ، فإن التلمود البابلي هو التلمود المتداول الآن بين اليهود ، وهو الكتاب القياسي عندهم . والواقع أن كلمة «التلمود» ، في الأوساط العلمية ، تشير إلى الجماراه وحسب .

ولغة الجماراتين هي الآرامية (الآرامية الشرقية في حالة التلمود البابلي والآرامية الغربية في حالة التلمود الفلسطيني) . وقد كُتبتا بأسلوب إيضاحي بسيط . وإذا كان معظم المشناه تشريعاً قانونياً هالاخياً ، فإن الجماراه تجمع بين القانون والمواعظ والقصص (أجاداه) .

التشريع والشريعة

Halakhah

مصطلح «التشريع» هو المقابل العربي لكلمة «هالاخاه» العبرية . وهذا المصطلح يعني «القانون» أو «التشريع» . وكلمة «هالاخاه» من أصل آرامي ، ومعناها الحرفي هو «الطريق القويم» ، وإن كان يُقال في التفسيرات الحديثة إن معنى الكلمة الأصلي هو «الضريبة» أو «القاعدة الثابتة» . وكلمة «هالاخاه» لها معنى ضيق ، وقد ورد لأول مرة في كتابات معلمي المشناه (تنائيم) وكانت تعني في بداية الأمر «الحكم الشفهي الذي يصدره الفقهاء» ثم أصبحت تشير إلى «الفقرة الواحدة المُتضمَّنة في سنة واحدة في الفقهيات الشرعية» . ثم أصبحت الكلمة تشير إلى الجانب التشريعي لليهودية ككل (وضمن ذلك الشريعة الشفوية) بحيث أصبحت تشمل في نطاقها العرف والعادة والقوانين المحلية والمراسيم الشرعية وهي في ذلك مثل كلمة «لو law» في الإنجليزية أو «قانون» في العربية ، فيمكن أن نشير مثلاً إلى «قانون العقوبات» ، وإلى «القانون الجنائي» كما يمكن أن نشير إلى «القانون» بشكل عام . وهكذا يُقال : "ما الهالاخاه المتصلة بهذا الموقف ؟" ، أي "التشريع الخاص بهذا الموقف" ، كما يمكن القول "لقد امتلك فلان ناصية الهالاخاه" أي "التشريع بشكل عام" . والكلمة تكاد تكون مرادفة لكلمة «توراة» التي تعني أيضاً «الشريعة» و«القانون» بالمعنى العام . ولعل الفرق يكمن في أن كلمة «توراة» تظل ذات دلالة عامة فقط ، بينما كلمة «هالاخاه» تكون أحياناً ذات معنى عام أو معنى خاص . وحتى لا نخلط ، يمكن القول بأن «هالاخاه» تشير إلى الصياغة القانونية المحددة لتفاصيل الشريعة اليهودية ، وذلك في مقابل :

١ ـ المدراش : الدارسة والوعظ الذي يعتمد دائماً على الاستشهاد بالتوراة ، وعلى البحث عن المعاني الخفية .

٢ ـ الأجاداه : التي تعتمد على الوعظ عن طريق القصص .

ويحتوي التلمود على أجزاء هالاخية تشريعية ، أي قانونية مختلفة ، وأخرى أجادية قصصية وعظية . ولكن المشناه تتميز بأنها تحتوي على تشريع أكثر مما تحوي القصص والمواعظ ، في حين تتسم الجماراه بأن فيها من الأجاداه (أي من القصص والمواعظ) أكثر مما فيها من الهالاخاه (أي من التشريع) . وتُعَدُّ المصادر الأساسية للتشريعات : الشريعة المكتوبة (أي التوراة) والشريعة الشفوية والعرف السائد بين اليهود .

ويرى بعض الحاخامات أن التشريع بكامله مُوحى به من الإله . بل إن بعضهم يدعي أنه ، منذ هدم الهيكل ، لم يَعُد هناك من شغل شاغل للإله إلا هذا التشريع . ويُلاحَظ أن كلمة «تشريع» أو «هالاخاه» يضيق نطاقها أحياناً لتشير إلى الشعائر بالدرجة الأولى ، بحيث إن الحوار بشأن الهالاخاه أصبح حواراً بشأن الشعائر . وهنا يمكننا أن نقول إن نطاق كلمة «هالاخاه» بهذا المعنى هو تعبير عن الطبقة الحلولية داخل اليهودية . بل إن ترادف كلمة «هالاخاه» بمعنى «قانون» و«هالاخاه» بمعنى «شعيرة» هو نفسه تعبير عن النزعة الحلولية حيث تتلاحم كل الدلالات وحيث يقل التجريد والتسامي . ويتبدَّى النسق الحلولي لا في الإيمان بالله الواحد وإنما في ممارسة عدد هائل من الشعائر التي تعبِّر عن قداسة الممارس وعزلته عن الآخرين .

ويُلاحَظ أن الفلاسفة الدينيين اليهود في العالم الإسلامي ، مثل سعيد بن يوسف الفيومي وموسى بن ميمون ، لم يطبقوا تفكيرهم الفلسفي على التشريع والشعائر مكتفين بالتعامل مع القضايا الفلسفية الكبرى المجردة . فموسى بن ميمون ، في كتابه **مشنيه توراة** ، وهو مُصنَّفه التشريعي الضخم ، يكتب فصلاً فلسفياً تمهيدياً لا علاقة له بالتشريعات اليهودية التي ترد في الكتاب . بل إنه يشير إلى أن التشريعات اليهودية ، مثل تحريم طبخ الجدي في لبن أمه وغير ذلك من الوصايا والنواهي والشعائر ، هي بقايا عبادات وثنية اختفت منذ زمن قديم ، وأنها طريقة إلهية لمخاطبة عقول البسطاء والبدائيين . وبالنسبة للفلاسفة ، لا يوجد أي معنى للتشريعات ، وإن وجد معنى ما ، فهو معنى فلسفي مجرد يُقلل شأن التشريع نفسه . ولكن القبَّاليين نجحوا فيما فشل فيه الفلاسفة ، إذ جعلوا التشريع جزءاً من عالمهم السحري ، بحيث أصبح تنفيذه كالتميمة السحرية والوسيلة الأكيدة للتأثير في العالم العلوي ومعنى هذا أنهم وصلوا بالنسق الحلولي إلى نتيجته المنطقية .

وفي إسرائيل ، يواجه الناس كثيراً من المشاكل الناجمة عن محاولة تطبيق التشريعات بحذافيرها بعد تفسيرها حرفياً . وقد أنشئ معهد للتكنولوجيا والهالاخاه (التشريع) ، الهدف منه حل بعض المشاكل الناجمة عن محاولة إقامة الشعائر التي نص عليها الشرع . فتم تطوير نوع من أنواع النباتات العلفية التي لا تنتشر حتى لا تختلط مع النباتات الأخرى ، الأمر الذي يُعَد تحايلاً على التحريم الخاص بعدم الخلط بين النباتات المختلفة . كما تم تطوير طريقة لزراعة الخضر في الماء حتى يمكن إراحة الأرض في السنة السبتية . كما تم التوصل كذلك إلى أدوات كهربائية ذات مفاتيح زمنية يتم ضبطها قبل يوم السبت ، بحيث تنير من تلقاء نفسها يوم السبت .

والتشريعات المختلفة هي محور الخلاف بين الفرق اليهودية في العصر الحديث . ويرى اليهود الأرثوذكس أنهم ملتزمون بتنفيذ كل ما جاء في التشريعات ، وأن نمط حياتهم يتبع قواعدها . أما الإصلاحيون ، فيرون أن التشريعات مرتبطة بزمان ومكان محددين ، وأن قواعدها غير ملزمة لهم . ويرى اليهود المحافظون أنهم ينفذون روح التشريعات دون حرفيتها . وقد تخلَّى معظم يهود العالم عن تنفيذ التشريعات اليهودية من الناحية الفعلية والنظرية ، أي أنهم لا يتبعونها من ناحية المبدأ . كما أن هناك أعداداً كبيرة تخلت عنها من ناحية الممارسة وحسب ، دون أن تتخلى عنها من ناحية المبدأ . ولم يبق سوى جماعة صغيرة (تتراوح بين ٥٪ و ١٠٪) ترى أن ما جاء في هذه التشريعات مُلزم لها وتحاول وضعها موضع التطبيق .

هالاخـــاه

Halakhah

«هالاخاه» كلمة عبرية تعني «التشريع» أو «الشريعة» . وعادةً ما يتم الحديث عن «هالاخاه» مقابل «أجاداه» (القصص والمواعظ) . ويحتوي التلمود على أجزاء هالاخية وأخرى أجادية ، أي على أجزاء تشريعية وأخرى قصصية وعظية .

التفسيرات القصصية الأسطورية (اجاداه)

Agadah

لفظ «أجاداه» أو «هجاداه» آرامي ، ويعني «روى» أو «حكى» أو «قص» ، كما يعني أيضاً «أسطورة» أو «حدوتة فلكلورية» ، وهو مشتق من أصل عبري غير معروف على وجه الدقة ، فيُقال إنه من فعل «هجِّيد» بمعنى «قيل» للإشارة إلى القصص الشفوية مقابل القصص المدوَّنة . وإن كان يُقال إنه مشتق من عبارة «هجَّدْتا لبنيخا»،

أي «تخبر ابناءك» (خروج ١٣/٨) . وتستخدم هذه الكلمة للإشارة إلى الفقرات والقطع التلمودية التي تعالج الجوانب الأخلاقية أو القصصية الوعظية أو الأدعية أو الصلوات أو مديح الأرض المقدّسة أو التعبير عن الأمل في وصول الماشيّح . كما تشير إلى الأجزاء التي تتناول التاريخ والسير والطب والفلك والتنجيم والسحر والتصوف .

وتُقرَن الأجاداه دائماً بالهالاخاه . وتُعرَف الأجاداه بأنها ذلك الجزء من التعاليم الحاخامية الذي لا يعالج الهالاخاه (أو الجوانب القانونية أو التشريعية) . وحتى حينما تتعرض الأجاداه إلى مثل هذه الجوانب ، فإنها تقتصر دائماً على الحديث عن الحكمة من إرسال القوانين . ويقول الحاخامات إنه يمكن استخلاص الأجاداه من الهالاخاه ، ولكن العكس غير صحيح لأن الهالاخاه هي الأصل والأساس . والأجاداه هي من باب التفسير القصصي ، ولذلك فليس لها وزن وثقل الهالاخاه . وتختلط العناصر الأجادية بالعناصر الهالاخية في التلمود . وتتسم المشناه بقلة العنصر الأجادي فيها على عكس الجماراه . وتُطبَع أحياناً المقطوعات الأجادية من التلمود في كتب ، ويُطلَق على مثل هذه الكتب أيضاً «أجاداه» .

وتتَّسم القصص الأجادية بمبالغاتها الأسطورية ومعانيها الغريبة . وقد حاول الفلاسفة اليهود الدينيون أن يفسروها تفسيراً عقلانياً ، ولكنهم لم يهتموا بها كثيراً . وهذا على عكس المفكرين القبَّاليين الذين اهتموا بها وطوروها واستفادوا منها في تفسيراتهم المفتعلة . وقد أثرت الأجاداه تأثيراً عميقاً في الوجدان الديني الشعبي اليهودي ، ونبتت في تربتها القبَّالاه . ويمكن القول بأن الأجاداه والقبَّالاه هما اللذان صاغا هذا الوجدان . أما الجوانب التشريعية في التلمود ، فقد كانت مقصورة على الأرستقراطية الدينية التي كانت موجودة في المدارس التلمودية العليا (الأكاديميات - اليشيفات) والمراكز الدينية الكبرى بعيداً عن القرى والمدن الصغيرة . وقد ثار كثير من المفكرين الإصلاحيين على الأجاداه ، وإن كانت الصهيونية بنزعتها الأسطورية تقدس التلمود ، والجوانب الأجادية فيه بشكل خاص .

وتُستخدَم كلمة «هاجاداه» أحياناً للإشارة إلى «أجاداه» ، وإن كان معظم العلماء يفضلون استخدام كلمة «أجاداه» على أن يقتصر استخدام كلمة «هاجاداه» على الإشارة إلى صلوات عيد الفصح والكتب التي تضم الأدعية والصلوات الخاصة بهذا العيد .

اجـــاداه

Agadah

انظر : «التفسيرات القصصية الأسطورية (أجاداه)» .

الفـــتاوى

Responsa

«بساقوت» بالعبرية من فعل «بسق» بمعنى «فحص» أو «أفتى» أو «حكم» . وللفتاوى أهمية خاصة في اليهودية باعتبار أن الشريعة الشفوية (أي تفاسير الحاخامات) تفوق في أهميتها ومنزلتها الشريعة المكتوبة ، أي العهد القديم ، ومن ثم فإن الشرح الذي يقدمه الفقهاء أهم من المتن الموحى به . ونظراً لتعدد الأوامر والنواهي في اليهودية ، واختلاف الظروف التاريخية والجغرافية التي عاش فيها أعضاء الجماعات اليهودية ، يجد اليهودي نفسه مضطراً دائماً إلى العودة للحاخامات لاستفتائهم . وخصوصاً أن اليهودية كتركيب جيولوجي تراكمي تحوي قدراً كبيراً من التناقض وعدم التجانس . ومن هنا تراكمت الفتاوى والتفاسير عبر العصور ويضم التلمود عدداً ضخماً منها .

ولكن المصطلح العبري «شئيلوت وتشوفوت» ، أي «أسئلة وأجوبة» ، الذي يُترجم عادةً بكلمة «فتوى» بمعنى الاصطلاحي ، يشير إلى الخطابات التي كان يرسلها اليهود إلى أحد الحاخامات ، يسألونه رأيه في أحد موضوعات الشريعة ويجيبه عليهم . وقد ظهر هذا النوع من الفتاوى ، منذ القرن السادس حتى القرن الحادي عشر ، في العالم الإسلامي ، وقد ارتبط اسم الفقهاء (الجاؤنيم) بهذه الفتاوى . ويُلاحَظ أن ترابط العالم الإسلامي ، والحركة التجارية النشيطة ، ساعد على تناقل الأفكار . كما أن أسلوب الفتاوى نفسه تأثر بأسلوب الفتاوى الإسلامية المماثلة . وقد لعبت الفتاوى دوراً أساسياً في إشاعة الشريعة الشفوية والتلمود البابلي كمصدرين أساسيين للشريعة . وقد جُمعت بعض هذه الفتاوى في كتب ، ويزيد ما جُمع منها حتى الآن على نصف مليون فتوى .

ولم يتوقف الحاخامات عن إصدار الفتاوى بعد ذلك التاريخ إذ أن وضع أعضاء الجماعات اليهودية دخلت عليه تغييرات كثيرة مع انتهاء العصور الوسطى ، ثم مع الثورة الصناعية وعصر الانعتاق ، الأمر الذي أدَّى إلى ضرورة التكيف والبحث في التراث الديني عن سوابق تبرر عمليات التحديث (على المستويات الجمالية والعقائدية) التي دخلت اليهودية . ولكن عدم تجانس النسق الديني اليهودي ، وتركيبه الجيولوجي التراكمي ، هو الذي جعل من اليسير على المفكرين الدينيين اليهود أن يطرحوا آراء عديدة متناقضة (بعضها توحيدي والبعض الآخر حلولي إلحادي) وجدت كلها تسويغاً لها في التراث الديني . ويُعتبر موقف اليهودية من الصهيونية مثلاً جيداً على ذلك . فحينما نشأت الصهيونية ، عارضتها جميع المنظمات الدينية

اليهودية ، الأرثوذكسية والإصلاحية ، وقد استندوا في ذلك إلى التراث الديني . فالتلمود ، في بعض أجزائه ، يُحرِّم العودة (التعجيل بالنهاية) ، وصدرت فتاوى بذلك . ولكن ، بالتدريج ، تمت عملية صهينة لليهودية تستند هي الأخرى إلى التراث الديني . وصدرت فتاوى أيضاً بذلك ، حتى أصبحت الصهيونية واليهودية مترادفتين في ذهن كثير من أعضاء الجماعات اليهودية أنفسهم .

وقد أصدر الحاخامات الصهاينة الكثير من الفتاوى لتسهيل عملية الاستيطان الصهيوني ، من أهمها الفتوى الخاصة بأن اليهود يمكنهم الاستيطان في فلسطين تمهيداً لعودة الماشيّح بدلاً من انتظاره . كما أن ثمة فتاوى تؤكد أن ضم الضفة الغربية وغزة تنفيذ لتعاليم دينية . ومن أطرف الفتاوى ، تلك الخاصة ببيع أرض يسرائيل لأحد الأغيار ، في السنة السبتية ، حتى يتمكن المستوطنون الصهاينة من زراعتها ، إذ يتعيَّن على اليهود إراحة الأرض مرة كل ستة أعوام إن كانوا يمتلكونها .

والفتاوى مرتبطة أساساً بالمؤسسة الحاخامية وتستند إلى التوراة والتلمود . ولكن القبَّاليين ، ابتداءً من القرن السادس عشر ، أصدروا أيضاً فتاواهم مستندين إلى الزوهار ، ومعارضين المؤسسة الحاخامية . ولقد جُمعت فتاواهم في كتب خاصة حتى يمكن الرجوع إليها عند الحاجة .

القواعد التكميلية (تاقانوت)

Takkanot

عبارة «القواعد التكميلية» العربية هي المقابل الاصطلاحي لكلمة «تاقانوت» العبرية ، ومفردها «تاقاناه» ومعناها «اجتهاد لإصلاح» . وعادةً ما يأتي هذا المصطلح العبري في صيغة الجمع «تاقانوت» ، ويشير إلى مجموعة القواعد التي وضعها الحاخامات لسد الفراغات التي تركتها التوراة . وقد تراكمت هذه القواعد التكميلية على مر العصور ومن أهمها : ضرورة قراءة التوراة يوم السبت ، وأن تُعقَد المحاكم اليهودية يومي الاثنين والخميس ، وضرورة أن تعيِّن الجماعات اليهودية مدرسين للمدارس الابتدائية ، وأن على الأب أن يعول أولاده القصر . وقد كانت القواعد التكميلية تنظم حياة الجماعات اليهودية ، وأصبحت في غاية الأهمية بعد أن أصبحت الجماعات اليهودية جماعات وظيفية إذ كانت لابد أن تتسم بغاية الانضباط والترابط حتى يمكنها أداء وظيفتها . ومن أهم أمثلة القواعد التكميلية ، ما يُسمَّى «قوانين الترف» . وقد أصدر مجلس البلاد الأربعة عدداً ضخماً من القواعد التكميلية .

الأعراف (منهاج)

Minhag

«الأعراف» ترجمة لكلمة «منهاج» العبرية ومعناها الحرفي «عادة» ، وهو مفهوم في الفقه اليهودي يشير إلى مجموعة من الأعراف التي أصبحت مُلزمة رغم أنها ليست جزءاً من الشريعة المكتوبة أو الشفوية . وقد تنوعت الأعراف بتنوع البلدان والجماعات، الأمر الذي زاد عدم تجانس اليهودية وخاصيتها الجيولوجية . ومن أهم الأمثلة على ذلك ، الخلاف بين السفارد والإشكناز (المنهاج الإشكنازي والمنهاج السفاردي) . ولذا ، يشير يوسف كارو في الشولحان عاروخ إلى منهاج السفارد ، أما موسى إيسيرليز (موشيه يسرائيليتش) فيشير إلى منهاج الإشكناز في مصنفه الذي وضعه تعليقاً على الشولحان عاروخ التي وضعها على المؤلف نفسه . وهناك الخلاف بين منهاج الحسيديين ومنهاج المتنجديم .

وفي التلمود ، ذهب بعض الحاخامات إلى أن الأعراف السائدة بين الجماعات اليهودية يمكن أن تَجُب بعض قوانين الشريعة . وهذا يتفق مع الرؤية الحلولية ، ومع فكرة الشريعة الشفوية التي تعطي مرتبة ثانوية للنص المقدَّس المكتوب (الموحى به) قياساً إلى اجتهادات الحاخامات .

القرارات (جزيروت)

Gezerot

«القرارات» ترجمة لكلمة «جزيروت» العبرية التي مفردها «جزيراه» وتعني «قرار» أو «أمر» . والقرارات مصطلح يشير إلى عدة مدلولات من بينها الأوامر الإلهية التي لا يُفهَم سببها ، و الأوامر التي يصدرها حاكم غير يهودي بمنع ممارسة الشعائر اليهودية والاضطهاد الديني ، وأخيراً (وهذا ما يهمنا في هذا المدخل) فإنه يشير إلى قرار تصدره المحاكم الحاخامية بهدف الحفاظ على الشريعة وإحاطتها بسياج (حسبما أوصى رجال المجمع الكبير) . ومن أهم هذه القرارات ، تلك التي أصدرها تلاميذ هليل وشماي في بداية القرن الأول الميلادي لإقامة حواجز بين اليهود وغير اليهود ، وخصوصاً فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية . وهذه القرارات الحاخامية مُلزمة لليهود ، وإن حدث وكانت متناقضة مع الشريعة المكتوبة (المُرسَلة) فإنها تَجُب الشريعة .

بيلبول

Pilpul

«بيلبول» كلمة تُستخدَم للإشارة إلى عدة مناهج لدراسة التلمود والشريعة الشفوية في الأكاديميات التلمودية . والكلمة مشتقة من كلمة «بلبل» ، (الأصل «فلفل») ويُقال إنها من كلمة «بليل» بمعنى «يبحث» ، وهي تعني أسلوب التحليل والتركيب الذي يعتمد على المنطق المحض (الذي يتصف بالتحايل والتخريجات) مقابل المعرفة العابرة بالنصوص (وهو ما يُسمَّى «دراش») . ومنهج البيلبول قديم ، إذ كان يُفترض في أعضاء السنهدرين أن يمتلكوا ناصيته ، وكذا علماء بابل . وقد استُخدم المنهج في المدارس التلمودية في أوربا في العصور الوسطى ، كما استفاد منه أصحاب الشروح الإضافية (توسافوت) ، واستُخدم في مدارس إسبانيا التلمودية العليا (يشيفا) في القرن الرابع عشر ، ومن ثم فهو من أهم آليات الشريعة في محاولتها الدائبة إحلال الاجتهاد الحاخامي محل الوحي الإلهي .

وقد تجمَّد منهج البيلبول وأصبح مجموعة من القواعد التي تستند إلى الإيمان الحلولي بأن الحكماء القدامى (سواء الذين يرد ذكرهم في التلمود أو أولئك الذين كتبوا الشروحات عليه) معصومون وإن اختلفوا في الرأي ، فخلافهم لا يعدو أن يكون خلافاً ظاهرياً ، وغاية الطالب هي العثور على وسيلة جدلية تصلُح لإزالة الفروق وتسوية الخلافات . وقد كان العالم يحاول اكتشاف التناقضات الكامنة في التلمود ، وفي التعليقات عليه ، ثم يطرح الحلول التي تفسر هذه التناقضات ، وبعد أن يتم ذلك تُكتَشف التناقضات في الحلول نفسها ، ثم تُطرَح حلول جديدة . وتستمر هذه العملية إلى أن يتم توضيح الموضوع موضع النقاش وتُزال أية تناقضات ظاهرة كانت أم كامنة . ولكن النقاش الجدلي كان يأخذ أحياناً شكلاً متطرفاً حتى أصبح الهدف منه شحذ القريحة وحسب ، وتحوَّل إلى ضَرب من السفسطة . ولذا ، كان المنهج يُستخدَم في خلق بنيً ذهنية منطقية وفي التوصل إلى توازنات فكرية ليس لها أساس علمي أو واقعي . وأصبح المنهج ، في النهاية ، وسيلة في يد طلاب المدارس التلمودية العليا لتحميل النص بأي معنى يريدون ، وهو ما أدَّى إلى تحريف المعنى الحقيقي ، كما صار سلاحاً يستخدمه طلاب الوظائف الحاخامية المختلفة بحيث أصبح تَملُّك ناصية المنهج أكثر أهمية من معرفة الشريعة المكتوبة أو الشفوية نفسها . ومع بدايات التحديث والعلمنة في أوربا ، كان هذا منهج التفكير الأساسي بين الحاخامات اليهود ، وإن كان قد عارضه الحاخام إلياهو زلمان (فقيه فلنا) الذي حاول أن يبعث التقاليد الحاخامية من الداخل .

الكتاب الخارجي (برايتا)

Baraita

«الكتاب الخارجي» يقابلها في الآرامية «برايتا» . وتشير الكلمة إلى أقوال معلمي المشناه (تنائيم) ، والتي استبعدها يهودا الناسي لدى جمعه أعماله في كتاب التذييل (توسفتا) . كما يظهر عدد كبير منها متناثراً في التلمود . وتُعَد هذه الأقوال بمنزلة تكملة للمشناه ، أو كشفاً غير المدونة أو الخارجية ، و الأحكام الواردة فيها ملزمة إلا إذا تناقضت مع ما جاء في المشناه .

التذييل (توسفتا)

Tosephta

«التذييل» هي المقابل العربي لكلمة «توسفتا» الآرامية وتعني «التذييل» أو «الزيادة» أو «الإضافة» . والتوسفتا عمل تشريعي ملحق بالمشناه مكمل لها . وقد ورد في التلمود ذكر لأكثر من تذييل . ولكن لم يبق من ذلك سوى واحد . والتذييل الذي بين أيدينا يتكون من ستة أقسام (سداريم) تحمل عناوين أقسام المشناه نفسها . وتختلف الآراء بشأن التوسفتا . فيذهب أحد علماء التلمود إلى أن التذييل هو في الواقع مشناه متخصصة . ويذهب آخر إلى أن واضعي التلمود البابلي لم يكونوا يعرفون هذا التذييل شيئاً . ويضم التذييل كثيراً من الفقرات الخارجية أو البرايتا .

الشولحان عاروخ

Shulhan Arukh

«الشولحان عاروخ» عبارة عبرية تعني «المائدة المعدودة» أو «المائدة المعدة» . والشولحان عاروخ هو مُصنَّف تلمودي فقهي يحتوي على سائر القواعد الدينية التفصيلية للسلوك . ويُعَد حتى يومنا هذا المصنف المعول عليه بلا منازع في الشريعة والعرف اليهوديين ، ويشار إليه باعتباره التلمود الأصغر . أعده جوزيف كارو ونشره عام ١٥٦٥ مستنداً إلى العهد القديم والتلمود وآراء الحاخامات اليهود وفتاواهم وتفسيراتهم (الشريعة الشفوية) . ومما هو جدير بالذكر أن حياة اليهود تحكمها العديد من الشعائر والقيود والتشريعات ، الأمر الذي يضطرهم إلى البحث عن مصدر دائم للفتاوى . ويمكن التوصل إلى إجابة على أحد التساؤلات الدينية من

خلال التلمود مسألة شاقة جداً ، إذ يتعيَّن على المتسائل أن يقرأ أربع أو خمس فقرات في مجلدات مختلفة منه ثم يبحث عن التعليقات المختلفة على كل الفقرات وهي تعليقات تحوي كل واحدة منها تعبيرات مختلفة ومتناقضة . ولتبسيط هذه العملية ، لجأ مؤلف الشولحان عاروخ إلى إسقاط جميع المناقشات الفقهية الطويلة والآراء المختلفة والأحكام المتناقضة ، فلم يدوِّن إلا الأحكام الشرعية المستقرة التي تبيِّن ما هو حلال وما هو حرام ، وأوردها في نص واحد .

وينقسم الشولحان عاروخ إلى أربعة أقسام :

١ ـ أورَّح حاييم ، أي «سبيل الحياة» : ويتناول قواعد الصلاة والبركات والأعياد .

٢ ـ يوريه ديعاه ، أي «أستاذ المعرفة» : ويتناول قوانين الطعام الشرعي والطهارة والنجاسة والنذور وقواعد الحزن والحداد وقواعد الصدقات .

٣ ـ إيفين هاعوزير ، أي «الحجر المعين» : ويتناول أحكام الزواج والطلاق ، وكذلك سائر ما يتعلق بالنساء .

٤ ـ حوشين مشباط ، أي «صندوق القضاء الشامل» : ويتناول القوانين المدنية والجنائية وأصول المحاكمات ، كما يحوي أحكام الميراث والوصاية والوصايا والتوكيلات والشهادة واليمين والعقود والتسجيل .

ولأن الكتاب يحتوي على مختلف التعاليم مصنفةً تصنيفاً جيداً ، فقد لاقى نجاحاً كبيراً بين الجماهير اليهودية .

ومع أن الحاخامات الإشكناز هاجموا الشولحان عاروخ في بادئ الأمر ، فإنه صار الكتاب المُعتمَد لدى اليهود الأرثوذكس ، وخصوصاً بعد أن قام موسى إيسيرليز (يسرائيليتش) (١٥٢٠ ـ ١٥٧٢) بإضافة الهوامش والملاحق المتعلقة بالمنهاج الإشكنازي . وقد ظهرت هذه الهوامش والإضافات في كل طبعة من طبعات الكتاب وسُمِّيت «ماباه» أي «مفرش المائدة» ، وتشير عبارة «شولحان عاروخ» إلى كلٍّ من المائدة والمفرش .

ويحوي الكتاب كثيراً من الأحكام العنصرية التي وردت في التلمود ، فالشولحان عاروخ يُفرِّق بكل حدّة بين اليهودي وغير اليهودي ، حتى في الأمور الإنسانية المبدئية ، فقتل اليهودي يختلف عن قتل غير اليهودي ، وإنقاذ حياة يهودي أو علاجه يختلف عن إنقاذ حياة غير يهودي أو علاجه . وعلى سبيل المثال ، يسأل الشولحان عاروخ عما إذا كان ينبغي على اليهودي أن يزيل أنقاض منزل تهدَّم على سكانه يوم السبت ؟ والإجابة بالنفي ، ولكن إن كان بين السكان يهودي وجب على اليهودي أن يساعد في إزالة الأنقاض . كما ينبغي عليه أن يشترك في عملية الإنقاذ ، إذا كان إحجامه عن ذلك قد يلحق الأذى باليهود بوصفهم جماعة لأن الأغيار يتحكمون في اليهود . وبناء على ذلك لا يجوز إنقاذ حياة اليهودي القرائي لأنه لا سلطان له على اليهود الحاخاميين . وكذلك ينبغي على الطبيب اليهودي ألا يعالج غير اليهودي ، وإذا اضطر إلى ذلك وجب عليه أن يجعل الهدف الدفاع عن اليهود لا علاج المريض غير اليهودي . ويُحرِّم الشولحان عاروخ سرقة يهودي يهودياً آخر أو غير يهودي . ومع هذا ، تحل سرقة غير اليهودي ، إذا كان تحت حكم اليهود . وقد استُخدمت هذه الأحكام لتبرير سرقة الفلسطينيين . وقد جعل المعلقون على الشولحان عاروخ الإيمان بالقبَّالاه إحدى فرائض اليهودية . وقد هاجم دعاة حركة التنوير اليهودي ومفكرو اليهودية الإصلاحية هذا الكتاب باعتباره تجسيداً لكثير من الجوانب المتخلفة في اليهودية ، وبسبب تشدُّده وتحجُّره . ولا يزال الكتاب حتى الآن من أهم المصادر التي تستقي منها المؤسسة الأرثوذكسية تفسيرها للشريعة اليهودية في إسرائيل وخارجها .



٧
الفقهاء (الحاخامات)

الحاخامات (بمعنى «الفقهاء»)

Rabbis

«حاخام» كلمة عبرية معناها «الرجل الحكيم أو العاقل» . وكان هذا المصطلح يطلق على جماعة المعلمين الفريسيين «حاخاميم» ، ومنها أُخذت كلمة «حاخام» لتدل على المفرد . أما كلمة «راباي» ، فهي في عبرية التوراة بمعنى «عظيم» ، وهي من الجذر السامي «رب» بمعنى «سيِّد» أو «قيِّم على آخرين» مثلما نقول في العربية «رب البيت» ، ولكنها على أية حال لا ترد في التوراة نفسها . وتطوَّر معنى الكلمة في عبرية المشناه ، وأصبحت بمعنى «سيد» مقابل «عبد» ولكنها في كتابات مُعلِّمي المشناه (تنائيم) أصبحت لقباً للحكماء . وكلمة «راباي» تعني «سيدي» ، وينطقها السفارد «ربي» . وكانت تُطلَق على أعضاء السنهدرين . ولما كان اللقب لا يُخلَع إلا على من تم ترسيمه حاخاماً (ولم يكن هذا يتم إلا في فلسطين) ، فلم يكن لفظ «راباي» يُطلَق إلا على علماء فلسطين . أما الشراح (أمورائيم) في العراق ، فكانوا يحملون لقب «راف» . وقد حلت كلمة «راباي» محل «حاخام» في معظم المناطق . ومع هذا ، ظلت كلمة «حاخام» متداولة في بعض المناطق ، وخصوصاً في الدولة العثمانية حيث كان الزعيم الملي لليهود يحمل لقب «حاخام باشي» ، كما كان عضواً في المجلس الاستشاري للسلطان . ومن الكلمات الأخرى التي تُستخدَم للإشارة إلى الحاخام في اللغة العربية كلمة «حَبْر» وجمعها «أحبار» و«الرباني» وجمعها «الربانيون» .

وفي هذه الموسوعة ، نستخدم كلمة «حاخام» للإشارة إلى الفقهاء اليهود والأحبار والربيين (جمع ربي) ، أو الرابيين (جمع راباي) ، الذين فسروا التوراة (الشريعة المكتوبة) وابتدعوا الشريعة الشفوية (التوراة الشفوية أو التلمود) وجعلوها الأساس الذي تستند إليه اليهودية والمحور الذي تدور حوله . وهم الذين طوروا اليهودية المعيارية أو اليهودية الكلاسيكية ، التي تُسمَّى أحياناً «اليهودية الربانية» ، والتي نُطلق عليها «اليهودية الحاخامية» ، ومنهم الكتبة (سوفريم) ، ومعلمو المشناه (تنائيم) ، والشراح (أمورائيم) ، وعلماء التلمود كافة مثل : أصحاب الشروح الإضافية (توسافوت) ، وراشي ، وموسى بن ميمون ، وإلياهو فقيه فلنا ، وغيرهم . وكانت الأكاديميات التلمودية (يشيفا) في العراق وغيرها المراكز التي يتجمعون فيها للنقاش والحوار والتعلم . ومن ثم ، فإننا نتحدث أيضاً عن التعاليم الحاخامية والمؤسسة الحاخامية حين نشير إلى المؤسسة الفقهية والتعاليم الفقهية التي أخذت تدريجياً تكتسب مركزية بين أعضاء الجماعات اليهودية وفي النسق الديني اليهودي منذ عام ٧٠م إلى أن تبلورت اليهودية الحاخامية وأصبحت هي اليهودية منذ القرن السابع الميلادي وحتى نهاية القرن التاسع عشر .

كما تُستخدَم الكلمة للإشارة إلى القائد الديني للجماعة اليهودية الذي كان يقوم بتفسير التوراة وإصدار الفتاوى تماماً مثل فقهاء اليهود القدامى ، إلى جانب قيامه بالإشراف على الصلوات في المعبد اليهودي ، وكثيراً ما كان يضطلع بوظائف دنيوية مثل جمع الضرائب والإشراف على تنفيذ تعاليم الحكومة .

الكتبة (سوفريم ٤٤٠-١٠٠ ق.م)

Sopherim

«الكتبة» هي المقابل العربي لكلمة «سوفريم» وهي صيغة جمع عبرية بنفس المعنى ، وهي مصطلح يُطلَق على الكتبة والعلماء اليهود الذين قاموا بتدريس وتعليم وشرح الشريعة من حوالي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد إلى حوالي عام ١٠٠ ق.م ، وقد جُمعت أقوالهم واجتهاداتهم في كتب المدراش . وبهذا المعنى ، يكون عزرا أول الكتبة حين وضع أساس الدراسات الحاخامية ، والكتبة هم

أولئك الذين قاموا بوضع الشريعة الشفوية فعلاً . وتعود أهمية الكتبة إلى أنهم أول من بدأوا الدراسات الحاخامية (وبالتالي ، فإن ظهورهم يُعتبَر بداية المرحلة اليهودية ، مقابل المرحلة اليسرائيلية أو العبرانية من تواريخ الجماعات اليهودية في العالم) . وقد قام الكتبة بتحقيق العهد القديم وتنقيحه وتدوينه ، وتنسب إليهم المصادر اليهودية تحقيق المآثر التالية :

١ ـ قراءة نصوص الشريعة في أيام معينة من الأسبوع .

٢ ـ تحديد الصلوات اليومية ، وإدخال شعائر الشكر بعد تناول الطعام (صلاة المائدة) .

٣ ـ إدخال الشعائر والطقوس الدينية مثل عادة سكب الماء على الأرض في عيد المظال والدوران بمركب حول المذبح حاملين أغصان الصفصاف .

٤ ـ وضع القواعد المتعلقة بإعداد تميمة الصلاة (تفيلين) أو شال الصلاة (طاليت) بجدائله الأربع (تسيت تسيت) .

د ـ تعديل بعض الشرائع التوراتية وتكييفها وفقاً لمتطلبات الحياة ، وتخفيف قسوة الشرع الموسوي فيما يختص بشريعة القصاص التوراتية في حالة الاعتداء ، والتساهل في تطبيق قوانين السبت خلافاً لبعض الفرق المتشددة في تمسُّكها بحرفية القانون وفي امتناعها عن القيام بأية نشاطات جسدية في يوم الراحة . وكذلك تخفيف صرامة القانون الخاص بإثبات وفاة الزوج بحيث أصبحت شهادة رجل واحد تكفي لكي يحق للزوجة أن تتزوج من جديد ، حتى لو كانت هذه الشهادة تستند إلى مجرد الشائعات .

وقد كان ظهور الكتبة تعبيراً عن وضع الجماعات اليهودية كأقلية إثنية ودينية تضطلع في معظم الأحيان بدور الجماعة الوظيفية ومن ثم تتمتع بنوع من الإدارة الذاتية في الأمور الثقافية والقانونية ، فأصبح الكتبة فقهاء في القانون يحاولون تطبيق تعاليم التوراة والشريعة الشفوية على الحياة اليومية . وكان الهدف من هذا المشروع بناء سياج أو إطار حول التوراة والجماعات اليهودية ، وهو ما يحقق قدراً من العزلة الحقيقية أو الوهمية التي تضمن أداءهم لأدوارهم كجماعة وظيفية . وستظل هذه وظيفة علماء اليهود عبر تواريخ الجماعات اليهودية في العالم ، وخصوصاً في الغرب . وبعد الكتبة (سوفريم) ، جاء الفريسيون ومعلمو المشناه (تنائيم) ، والشراح (أموارائيم) والفقهاء (جاءونيم) ، وهؤلاء جميعاً يُعدون استمراراً طبيعياً للكتبة . وحين يشير العهد الجديد إلى الفريسيين والكتبة ، فإن الإشارة تنصرف إلى فقهاء الشريعة اليهودية بشكل عام ، وهم أولئك الذين أصبح يُطلق عليهم لفظ «حاخام» فيما بعد .

وقد كان يوجد كتبة في صفوف الفريسيين والصدوقيين ، كما أن بعضهم كانوا أعضاء في السنهدرين . وقد تطوَّر معنى الكلمة بحيث أصبحت كلمة «سوفير» تعني «معلم التوراة (للأطفال)» ، كما أصبحت تعني «كاتب لفائف التوراة» . وفي العبرية الحديثة ، تُستعمَل الكلمة بمعنى «كاتب» و«أديب» و «محرر صحفي» .

الأزواج (زوجوت) (١٥٠-٣٠ ق.م)

Zugot

«الأزواج» يقابلها في العبرية كلمة «زوجوت» ، وتُستخدَم اصطلاحاً للإشارة إلى خمسة أجيال من علماء الدين اليهودي أتوا قبل معلمي المشناه (تنائيم) في الفترة ١٥٠ ق.م- ٣٠م . ويمتد الزوجوت عبر خمسة أجيال ، وشغل كل زوج منهم المنصبين التاليين : رئيس السنهدرين (أو الأمير) ولقبه «الناسي» ، ونائب الرئيس ولقبه «آف بيت دين» . ويُعتبَر كلٌّ من هليل وشماي من آخر الأزواج ، وهما معاً يُعَدَّان أول معلمي المشناه .

معلمو المشناه (تنائيم) (١٠ق.م-٢٠٠م)

Tannaim

«معلمو المشناه» هي المقابل العربي لكلمة «تنائيم» ، و«تنا» كلمة آرامية تعني «يكرر» ومنها «تنائيم» . وتُستخدَم الكلمة للإشارة إلى علماء اليهود الذين جاءوا بعد الكتبة (سوفريم) وعاشوا في القرنين الأول والثاني الميلاديين . يبدأ عصرهم بمدرستي هليل وشماي (القرن الأول) وينتهي عند الحاخام يهودا الملقب بالبطريرك أو الناسي . ويحمل معظم معلمي المشناه لقب «رابي» بمعنى «سيدي» ، ثم صار لقبهم فيما بعد «راب» أو «رابّانان» ، أي «سيدنا» . وقد أتى ذكر أسماء مائتين وخمسة وسبعين من معلمي المشناه ، يُقسَّمون إلى أربعة أجيال . وقد شهدت هذه المرحلة سحق التمرد اليهودي الأول والتمرد اليهودي الثاني ضد الرومان ، حيث انتهى أولهما بهدم الهيكل وانتهى ثانيهما بهدم القدس وتحريمها على اليهود . وأدَّى سقوط السلطة المركزية الدينية إلى تهديد اليهودية نفسها ، ولكن معلمي المشناه نجحوا في تخليص اليهودية من عناصر العبادة القربانية بحيث أصبحت اليهودية ديناً يستند إلى الإيمان ويدور حول المعبد أينما كان بدلاً من الهيكل في أورشليم (القدس) ، وهم في الواقع تطوُّر كان الفريسيون قد مهدوا له . كما أن ظهور مركز اليهودية البابلي (ثم السكندري) ، وكذلك هيكل أونياس والتجمعات اليهودية المختلفة في مدن البحر الأبيض المتوسط ، ك

قد قضى على المركزية الدينية بالفعل ، ولم يبق سوى الاعتراف بالواقع القائم واستيعابه داخل البناء العقائدي . ويُعدُّ الحاخام يوحنان بن زكاي (مؤسس حلقة يفنه التلمودية) مهندس عملية الانتقال وقد عارضه في ذلك بقية الكهنة وبعض عناصر الأرستقراطية وعدد من الحاخامات . ولكنه نجح في أن يُدخل التعديلات المطلوبة ويؤكد قيادته ليهود فلسطين ، كما نجح في أن تعترف به السلطات الرومانية رئيساً دينياً لليهود (الناسي أو البطريرك) . وبعد هدم حلقة يفنه التلمودية ، اتبع جماليل السياسة نفسها حينما أسس حلقة أخرى .

وقد قام معلمو المشناه بتفسير العهد القديم وشرحه ، وبتجميع وتطوير التقاليد الشفوية الخاصة بالشريعة . وقد أخذ عملهم شكله النهائي في بداية القرن الثالث الميلادي على يد يهودا الناسي الذي جمع القوانين الفقهية وصنفها في المشناه . ويعتقد بعض العلماء أن المشناه دوِّنت في تلك الفترة (ويعتقد الآخرون أنها دوِّنت بعد ثلاثة أو أربعة قرون) . وقد تبعهم في عملية تفسير التوراة وجمعها الشراح (أمورائيم) .

هليل الأول (القرن الأول قبل الميلاد)

Hillel I

من أشهر الحاخامات اليهود في فترة معلمي المشناه (تنائيم) في بابل تَعلَّم فيها ودرس على يد معلمين فريسيين . وهو يُعدُّ من أهم المعلقين اليهود على العهد القديم ومن أهم مفسري التراث الديني اليهودي . وقد ترأَّس هو وشماي السنهدرين ضمن الأزواج (زوجوت) . وكان هليل (الأول) يشغل وظيفة الناسي من عام ٣٠ ق . م حتى عام ١٠ ميلادية ، كما كان صاحب مدرسة في التفسير كان يُطلَق عليها «بيت هليل» اتسمت بالمرونة . والآن ، يأخذ اليهود بأحكام هذه المدرسة ، بينما أصبحت المدرسة المنافسة (بيت شماي) ذات أهمية تاريخية وحسب .

شماي (القرن الأول قبل الميلاد)

Shammai

حاخام فريسي من معلمي المشناه (تنائيم) ، تَرأَّس هو وهليل السنهدرين . له مدرسة في التفسير أُطلق عليها «بيت شماي» ، اشتهرت بتعنتها . وقد عارض شماي «مبدأ النية» ، وهو المبدأ القائل بأن موقف الشرع من أفعال المرء يتوقف أيضاً على نواياه . والواقع أن تشدُّده كان نتيجة خوفه على اليهود من الاندماج في الشعوب الأخرى ، وخصوصاً أنه كان يعيش في وقت كانت الحضارة الرومانية فيه آخذة في الانتشار بين شعوب الشرق الأوسط .

ويُقارن بيت شماي عادةً ببيت هليل في الأدبيات الدينية اليهودية ، وقد كُتبت الغلبة لمدرسة هليل في نهاية الأمر في المدارس الدينية اليهودية إلا أن ذلك لا يمنع من إيراد العلماء رأي مدرسة شماي للمقارنة من حين لآخر .

يوحنان بن زكاي (القرن الأول قبل الميلاد)

Johanah Ben Zakkai

حاخام فريسي من معلمي المشناه (تنائيم) وهو من أتباع مدرسة هليل . وقد عارض يوحنان بن زكاي التمرد اليهودي ضد روما (٦٠ - ٧٠م) ، فقام تلاميذه بتهريبه من القدس داخل نعش أثناء حصار الرومان لها . ويُقال إنه ذهب إلى فسبسيان وتنبأ له بأنه سيعتلي العرش الإمبراطوري ، فسمح له بالاستمرار في تدريس الشريعة لتلاميذه . وقد أقام بن زكاي حلقة تلمودية في مدينة يفنه التي أصبحت مركزاً روحياً لليهود ومركزاً للسنهدرين الذي كان يضم معلمي الشريعة الذين لم تكن لهم أية سلطة دنيوية .

وقد أعاد بن زكاي صياغة توجه اليهودية . فبدلاً من اليهودية المقتصرة على التضحية وتقديم القرابين والحج إلى الهيكل في فلسطين ، أصبحت اليهودية تعتمد على الصلاة في المعبد وعلى أعمال التقوى والفراسة ، وتحوَّل اليهود إلى جماعة دينية إثنية قادرة على تحقيق أهدافها في أي مكان من خلال المعبد وليس من خلال الارتباط بمكان محدد ، وأصبحت مكافأة اليهود على إخلاصهم لدينهم ولقيمه هي الخلاص المشيحاني ، أي عودة كل المؤسسات المركزية التي عرفها اليهود (الهيكل والملكية) وعودة المنفيين أنفسهم . ولذلك ، قام بن زكاي بتسجيل كل الطقوس الخاصة بالهيكل حتى يكون اليهود مجهزين من الناحية الدينية والفقهية في حال استرجاعه . والصيغة التي طرحها يوحنان بن زكاي لليهودية هو الصيغة الفريسية التي تُعدُّ أُسس حياة يهودية الجماعات المنتشر واليهودية الحاخامية التي تدور حول المعبد اليهودي أينما كان ، لا حول الهيكل في القدس .

وقد تحوَّل يوحنان إلى رمز لما يُسمَّى «الاستمرار» و«البقاء» اليهوديين فقد أوجد لليهود وطناً ومركزاً روحياً بعد أن فقدوا وطنهم المادي الوحيد ، فمهَّد بهذا لتحوُّل اليهود من أمة عادية لها أرض ودولة ، إلى أمة الروح التي لا وطن لها إلا التوراة . والواقع أن بن زكاي هو بطل الصهيونية الثقافية وصهيونية الدياسبورا في دفاعها

عن فكرة الأمة الروحية . ولكنه في الوقت نفسه بطل اليهود الاندماجيين الذين يؤمنون بأن اليهود جماعة دينية وحسب وليسوا جماعة قومية أيضاً .

يفنه

Jabneh

«يفنه» مدينة فلسطينية قديمة جنوبي يافا واسمها اليوناني «جامنيا» . اكتسبت يفنه طابعاً هيلينياً أثناء الفترة الهيلينية ، وكانت موضع صراع أثناء حكم الحشمونيين ، ثم أصبحت بعد ذلك مدينة حرة . وقد أهداها أوغسطس إلى هيرود ، ثم أسس فيها يوحنان بن زكاي أول حلقة تلمودية بأمر من الرومان . وقد ورثت حلقة يفنه ما تبقى من سلطة دنيوية يتمتع بها السنهدرين . ولذا ، فقد أُبقي على بعض الأشكال الخاصة به ، مثل : عدد الأعضاء (٧١) ، والنفخ في البوق (شوفار) ، وإعلان رؤية القمر . وأصبح رئيس الحلقة هو رئيس اليهود (الناسي أو البطريرك) . وأصبحت حلقة يفنه مركزاً لليهودية إلى أن ظهرت حلقات أخرى في بابل وغيرها من البلاد . وقد دُمِّرت يفنه أثناء ثورة بركوخبا ، وهرب سكانها إلى الجليل ، وانتقلت حلقتها التلمودية إلى هناك .

وقد أخذت اليهودية هناك شكل نسق ديني روحي ، وهو نسق كامن في كتب الأنبياء الذين كانوا يهاجمون العبادة القربانية ويؤكدون الجانب الروحي للخلاص . وقد لخص علماء اليهود في يفنه تعاليم مدارس هليل وشماي ، وأكملوا تدوين وتقنين الكتب المقدَّسة ، وحددوا الصلوات ، كما نقلوا إلى المعبد اليهودي والسنهدرين بعض الممارسات والإجراءات الدينية والصلاحيات الخاصة بالهيكل . ومنذ ذلك التاريخ ، صار الحاخامات هم الفئة القائدة .

جملائيل الثاني (آخر القرن الأول الميلادي وأوائل القرن الثاني)

Gamaliel II

ويُسمَّى جملائيل الثاني «جَمْلائيل يفنه» أيضاً ، وهو رئيس السنهدرين الذي خلف يوحنان بن زكاي في المنصب . وقد استمر جملائيل في اتجاه سلفه ، فشرع في تدعيم سلطة حلقة يفنه التلمودية كمركز لليهودية . كما استمر رئيساً لهذه الحلقة يتحدث باسم الجماعة اليهودية أمام السلطات الرومانية ، ويحاول إعادة صياغة اليهودية كدين مستقل عن العبادة القربانية . والواقع أن هذا الاتجاه يتجلَّى بوضوح تام في محاولة تحديد الشريعة وشعائرها بشكل واضح ومنظم ، وفي صياغة العبادات والصلوات . ويُنسَب إليه تحديد طقوس عيد الفصح والصيغة النهائية للشمونه عسريه (عميدا)، وكذلك إقرار الصلاة فرضاً على كل يهودي فيصلي اليهودي ثلاث مرات في اليوم الواحد . كما يُنسَب إليه أيضاً أحد الأدعية في العميدا ، ألا وهو دعاء استبعاد المسيحيين من حظيرة اليهودية . ويُعَدُّ جملائيل من أتباع مدرسة هليل في التفسير والإفتاء .

عقيبا بن يوسف (٤٠-١٣٥م)

Akiba Ben Yossef

عالم ديني يهودي من معلمي المشناه (تنائيم) . أحرز شهرة كبيرة ومكانة عالية بين اليهود ، لأنه جمع كل أحكام الشريعة الشفوية وصنفها بحسب الموضوع . وقد قام يهودا الناسي وزملاؤه بتسجيل المشناه على الأسس التي وضعها عقيبا ، ولذا فهو يُدعى باسم «أبو المشناه» . وترجع أهمية عقيبا في تاريخ الجماعات اليهودية إلى تأييده تمرد بركوخبا وقبول ادعاءاته بأنه الماشيَّح رغم معارضة السنهدرين . وقد اشترك عقيبا في الثورة المسلحة ضد الرومان . وحينما حَرَّم الرومان دراسة الشريعة اليهودية أو تدريسها ، رفض الانصياع لهذه الأوامر ، فقُبض عليه وحُكم عليه بالإعدام .

وعقيبا هو النموذج الصهيوني للحاخام الذي يُعمِّق النزعة الحلولية في اليهودية ويحوِّل الفكر الديني إلى فكر قومي ثم يترجمه إلى عدوانية مسلحة ، مازجاً بين السيف والتوراة . ومما هو جدير بالذكر أن بعض منظمات الشباب الصهيوني تُسمَّى باسمه .

يهودا الناسي (الأمير) (١٣٥-٢٠٠)

Judah Ha-Nasi (The Prince)

ويُعرف أيضاً بلقب «سيدنا القديس» (رابينو هاقادوش) ، أو «رابي» دون إضافة ، أو «بطريرك» . وهو رئيس الجماعة اليهودية في فلسطين (الناسي أو البطريرك) وجامع المشناه . أقام علاقة وديّة مع السلطات الرومانية في فلسطين ، وكان سليل أسرة نبيلة على جانب كبير من الثراء ، ملماً بالتراث الديني اليهودي ، متمكناً بشكل عام من مضامين الشريعة الشفوية ، وهو ما أكسبه سلطة على معاصريه لم يصل إليها أحد غيره من معلمي المشناه (تنائيم) . وكان تلاميذ الحاخام عقيبا قد أحرزوا بعض التقدم في جمع الشريعة الشفوية وأحكام الشريعة التي أفتى بها العلماء اليهود في محاولتهم الإجابة عن أسئلة اليهود . ولكنهم كانوا يعملون بشكل فردي ، فجمع يهودا

كل هذه الفتاوى والأحكام والشرائع ونظمها (واستبعد بعضها) . ولذا ، يُنسَب إليه جمع مواد المشناه وتصنيفها وتبويبها ، كما يُنسب إليه تقسيم المادة المجموعة إلى ستة أقسام .

إليشع بن أبوياه (النصف الأول من القرن الثاني الميلادي)

Elishah Ben Avuyah

هو أحد معلمي المشناه (تنائيم) . كان من أكبر علماء عصره ، ولكنه ارتد عن اليهودية . وكان يُشار إليه بأنه «آحير» أي «شخص آخر» (أي كافر) ، وُلد قبل عام ٧٠ ميلادية ، واستهوته الحضارة الهيلينية تماماً ، وربما كان هذا ما أدَّى إلى ارتداده عن اليهودية . وقد كان إليشع يتعمد خرق الشريعة اليهودية ، بل يُقال إنه ، أثناء حكم هادريان، اشترك في الإخبار عن أولئك اليهود الذين لم ينفذوا تعاليم الإمبراطور . وهناك عدة نظريات لتفسير ارتداده ، فهناك نظرية تقول إنه كان من أتباع فيلون، وهناك نظرية أخرى ترى أنه كان غنوصياً ، ولعله كان قد اعتنق المسيحية . ولكن من الصعب أن نحدِّد ماذا حدث بالضبط ، لأن جميع المصادر التي تتحدث عنه يهودية حاخامية . وعلى أية حال ، فإن حياته قد أثَّرت في مفكري حركة التنوير ، وهو الشخصية الأساسية في عديد من الروايات التي كُتبت في تلك الفترة . وقد كتب المفكر الصهيوني بيرديشفسكي دراسة عنه ، يعتبره ليلينبلوم من أبرز الشخصيات التنويرية في مقابل حاخامات عصره .

الشرّاح (أموراثيم) (٢٠٠-٥٠٠)

Amoraim

«الشُرَّاح» هي المقابل العربي لكلمة «أموراثيم» وهي صيغة جمع عبرية لكلمة «أموراثي» آرامية الأصل التي تعني «متكلِّم» أو «شارح» أو «مفسر» . والأموراثيم ، أي «الشراح» ، هم علماء الحلقات الفقهية التلمودية في فلسطين (طبرية وقيصرية وصفورية) وفي بابل (سورا وبومبديثا ونهاردعه) في الفترة بين القرنين الثالث والسادس الميلاديين ، لكن مكانة علماء فلسطين كانت قد هبطت بعد القرن الرابع . والشراح هم خلفاء معلمي المشناه (تنائيم) الذين كتبوا المشناه ، ولا توجد اختلافات حقيقية بين الفريقين . بل تعاون الفريقان في كتابة تفسيرات عديدة للمشناه ، وفي التعليق على حواشيها المعتمدة . وتطور الأمر بحيث صارت شروحهم في منزلة المتن نفسه ، وقد تم تسجيل أقوالهم في ما يعرف بالجماراه . وقد كتب الشراح شروحهم بلهجات آرامية عديدة ، بداخلها بضعة نصوص عبرية .

وهناك ، على الأقل ، ألف ومائتان وخمسون من الشراح (أربعة أجيال في فلسطين وستة في بابل) معروفون لنا بالاسم . وكان العالم الشارح في فلسطين يحمل لقب «رابي» . أما في بابل ، فكان يحمل لقب «راف» ، أو «مار» . وظهور الشرح ، ومن بعدهم الفقهاء (جاءونيم) ، تنفيذ عملي لفلسفة يوحنان بن زكاي ، القائلة بأن اليهودية كدين يمكنها أن تحيا خارج فلسطين

آشي (٣٣٢-٤٢٧)

Ashi

وُلد في بابل ويُعرف باسم «رابانا» أي «معلمنا» ، وهو من الشراح (أموراثيم) . وقد كان آشي يُعدُّ المحرر الأساسي للتلمود البابلي ، لكن الرأي السائد الآن أنه بدأ (فقط) هذه العملية التي استمرت بعده حتى انتهت مع بدايات المفسرين (صبوراثيم)

المفسرون (صبوراثيم) (٥٠٠-٧٠٠)

Saboraim

«المفسرون» تقابل الكلمة العبرية «صبوراثيم» التي تعني «الشراح» وهم المتأملون في أقوال السلف أو الأساتذة الشارحون المناطقة ، أي «المفسرون» . وتشير الكلمة إلى العلماء اليهود الذين اشتركوا في المرحلة الأخيرة في جمع الأقوال والأحكام التي شكلت التلمود . وقد امتد نشاطهم في بابل طيلة القرن السادس حتى القرن الثامن ، أي أنهم جاءوا بعد معلمي المشناه (أموراثيم) وقبل الفقهاء (جاءونيم) . ولم يُصدر المفسرون (صبوراثيم) أية تشريعات جديدة ، وإنما قاموا باستخراج تضمينات التشريعات القديمة على التلمود وتنظيم أبوابه وفصوله بالشكل المعروف إلى يومنا هذا . وينسب إليهم بعض العلماء وضع بعض نصوصه وحسب .

الفقهاء (جاءونيم) (٥٨٩ حتى القرن الثالث عشر)

Geonim

«الفقهاء» هي المقابل العربي لكلمة «جاءونيم» العبرية ومفردها «جاءون» ، وتعني حرفياً «الأفخم» أو «المعظم» ، أو تعني «نيافة» أو «سمو» ، وتقابلها في العربية «فقيه» أو «إمام» . وكان يُشار إلى الجاءونيم أيضاً باسم «ريش مثيبتاه» أي «رأس المثيبة» (أصلها كلمة «مثيبتا» الآرامية والتي تقابل كلمة «يشيفا» . وتُستخدَم الكلمة للإشارة إلى رؤساء الحلقات الفقهية التلمودية الأساسية في بابل (سورا وبومبديثا) . وقد كانوا يُعَدُّون ، نظرياً على الأقل ، الرؤساء

الروحيين ليهود العالم ، وذلك من أواخر القرن السادس حتى أواخر القرن الثالث عشر وربما حتى القرن الرابع عشر . وفي فلسطين ، كان رئيس الحلقة يحمل لقب «جاءون» . ويرى اليهود أن الفقهاء (جاءونيم) هم خلفاء أعضاء السنهدرين . وقد كان العلماء يجتمعون فيما كان يُسمَّى «الكالا» ، حيث كان يشكل حوالي سبعين من الفقهاء ما يشبه السنهدرين ، ويترأسهم جاءون سورا ، فيتدارسون القضايا المطروحة ويناقشونها ، ويصدرون بشأنها الفتاوى ، وقد كان يحضر الاجتماعات فقهاء ليسوا أعضاء في الحلقات التلمودية ، وكذا بعض الأفراد من غير رجال الدين .

وكان يتم اختيار الجاءون بالانتخاب ، ولكن عادةً ما كان يتم ترشيح أبناء عدد محدود من العائلات . كما أن تصديق رأس الجالوت (المنفى) على الانتخاب كان ضرورياً (وكان الجاءون بدوره يشارك في اختيار رأس الجالوت) . وكان الأمر ، بطبيعة الحال ، خاضعاً لسلطة الخليفة (أمير المؤمنين) الذي كان يُصدِّق على هذا الاختيار ويتلو قراره قاضي القضاة . وفي أحد هذه القرارات ، جاء ما يلي لتحديد مهام الجاءون : «رتبتك زعيماً على أهل ملتك من أهل دينك . . . لتأخذهم بحدود دينهم وتأمرهم بما أُمروا به في شريعتهم وتنهاهم عما نُهوا عنه في شريعتهم وتفصل بينهم في وقائعهم وخصوماتهم بموجب شريعتهم» .

وقد انصب اهتمام الفقهاء (جاءونيم) على تفسير الشريعة . وهم ، بهذا ، استمرار للكتبة (سوفريم) ومعلمي المشناه (تنائيم) والشراح (أمورائيم) . وقد ساهموا في تطوير القانون التلمودي عن طريق إصدار فتاوى يستفيد منها اليهود خارج بابل . وقد تأثروا في تصنيفاتهم الفقهية ، وفي فتاواهم ، بالفتاوى والتصنيفات الإسلامية . وكانت لغة مؤلفاتهم هي الآرامية والعربية وأحياناً العبرية . وكان ثمة تنافس بين جاءون فلسطين وجاءون العراق في بداية الأمر (وكان هناك في القاهرة ، على سبيل المثال ، معبدان يتبع أحدهما العراق ويتبع الآخر فلسطين) . لكن حلقات العراق الفقهية هي التي أحرزت قصب السبق في نهاية الأمر ، وأصبحت هي المعترَف بتفوقها . ولكن مكانتها تدهورت هي الأخرى بعد ظهور حلقات فقهية تخدم حاجات الجماعات اليهودية المختلفة في العالم . وكثيراً ما كان أثرياء اليهود يموِّلون الحلقات الفقهية المحلية حتى لا يظل مركز الإفتاء والسلطة في العراق في يد جماعة دينية مستقلة عنهم لا تمثل مصالحهم ورؤيتهم . ولكن السبب الأساسي لتدهور حلقات العراق هو ظهور الحلقات المستقلة في الغرب . ويُعَدُّ عام ١٠٣٨ تاريخ نهاية المرحلة الجاءونية .

وكان الجاءون (رئيس حلقة سورا) يشارك رأس الجالوت (في بغداد) السلطات ، فكان الأول يُعَدُّ الرئيس الديني والثاني الرئيس الدنيوي ، وكانت المحاكم الشرعية تابعة للجاءون . وقد كانا ، مع هذا ، يشتركان في تعيين القضاة الشرعيين . ويبدو أن الرشوة كانت تلعب دوراً أساسياً في هذه العملية . ونظراً لعدم تحديد نطاق سلطة ونفوذ كل منهما ، ونظراً لاتساع هذا النفوذ وضيقه من فترة زمنية إلى أخرى ، فقد كانت تنشب صراعات حادة وطويلة بين الطرفين . وكان رأس الجالوت يتحالف أحياناً مع جاءون إحدى الحلقات ضد جاءون الحلقة الأخرى ، وكان رؤساء الحلقات بدورهم يتحدون رأس الجالوت . ومن أشهر الفقهاء (جاءون) سعيد بن يوسف الفيومي ، الذي يُعَدُّ صراعه مع رأس الجالوت داود بن زكاي ، لمدة أربع سنوات ، من أشهر الخلافات في هذا المجال . وقد قام رأس الجالوت بتطبيق قرار الطرد من حظيرة الدين (حيريم) على سعيد بن يوسف .

سعيد بن يوسف *الفيومي* (سعديا جاءون) (٨٨٣-٩٤٣)

Said Ben Joseph al-Fayyumi (Saadiah Gaon)

ويُدعى أيضاً «سعديا جاءون» . وُلد في مصر (في قرية أبو صوير بالفيوم) ، وتلقى في قريته تعليماً عربياً فتوفر له العديد من المعارف العربية الإسلامية في عصره ، كما درس الكتاب المقدَّس والتلمود ، ثم توجَّه إلى فلسطين حيث أكمل دراسته . وقد بدأ في وضع مؤلفاته في سن مبكرة ، فذاعت شهرته . وحينما ذهب إلى العراق ، عُيِّن في حلقة سورا التلمودية .

وتعود أهمية سعيد بن يوسف إلى أنه ظهر في وقت كانت اليهودية الحاخامية تعاني فيه أزمة حقيقية ، نتيجة انتشار الإسلام وازدهار الحضارة الإسلامية بكل معارفها بوتيرة سريعة ، الأمر الذي أدَّى بالكثير من اليهود إلى اعتناق الدين الجديد ، أو الشك في دينهم ، أو محاولة إصلاحه ، كما يتبدَّى في اليهودية القرّائية التي رفضت التلمود ومفهوم الشريعة الشفوية . ومن مظاهر هذه الأزمة أيضاً إعلان الحاخام هارون بن مائير عام ٩٢١ أن التقويم اليهودي الذي تصدره حلقات العراق خاطئ ، محاولاً بذلك تأكيده أهمية المركز الفلسطيني مقابل المركز العراقي . ومن هنا ، فقد أصدر الحاخام هارون تقويماً فلسطينياً ، الأمر الذي أدَّى إلى انقسام الجماعات اليهودية ، فكان الاحتفال بالأعياد يتم في أيام مختلفة . وقد تمكَّن سعيد من الرد على قيادة المركز الفلسطيني استناداً إلى معرفته بعلم الفلك .

وقد كانت حياة سعيد عاصفة ، فبعد استقراره في العراق عُيِّن رئيساً (جاءون) لحلقة سورا التلمودية ، ثم نشبت معركة بينه وبين رأس الجالوت . وقد ألَّف في هذه المرحلة كتاب **الأمانات والاعتقادات** الذي ألّفه بالعربية (ثم تُرجم إلى العبرية فيما بعد بعنوان **أمونوت وديعوت**) ، وهو كتاب يهدف إلى الرد على القرّائين ، وإلى جعل اليهودية عقيدة مقبولة لليهود المتعلمين من خلال تقديم تفسير عقلاني لها . ويبدو أنه كان يهدف أيضاً إلى تقديم عقائد اليهودية للعالم الإسلامي ، فاتبع في مؤلفه هذا أسلوب المتكلمين الإسلاميين ومنهجهم ، كما مزج التوراة بالحكمة اليونانية حسب قواعد علم الكلام ، وقد كان سعيد بن يوسف يرى أنه لا يوجد أي صراع بين العقل والوحي .

كان سعيد بن يوسف جزءاً من الخطاب الحضاري العربي الإسلامي ولذا فلم يكن يجد أي حرج في الإشارة للتوراة باعتبارها «الشريعة» وللعهد القديم باعتباره «قرآناً» ، والاتجاه نحو القدس أثناء الصلاة بأنه «قبلة» ، أما المرتل «حزان» فكان يشير له بأنه «الإمام» .

ويُعَدُّ سعيد أول من وضع فلسفة دينية يهودية متكاملة حول أسس العقيدة اليهودية ، فقد كانت هذه العقيدة من قبل مجموعة من الممارسات والفتاوى التي تَصدُر حسب الحاجة . وقد لخص سعيد العقيدة اليهودية في تسعة مبادئ (الإله خلق العالم من العدم ـ الإيمان بوحدة الإله وعدالته ـ حرية الإرادة ـ الثواب والعقاب ـ خلود الروح ـ البعث ـ خلاص يسرائيل ـ الخلود في الآخرة ـ صفات الإله مطابقة لذاته ولا يمكن فصلها) . وفي هذا ، وفي غيره من الأفكار ، يتضح تأثير الفكر الديني الإسلامي بشكل عام والمعتزلة بوجه خاص ، وبخاصة في قبولهم خمسة مبادئ عُرفت باسم «الأصول» : التوحيد ـ العدل ـ الوعد والوعيد (أي الثواب والعقاب) ـ المنزلة بين المنزلين ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . والإله ـ حسب تصوُّر سعيد الفيومي ـ هو وحده مصدر الحق ، ولكن الحق الذي يرسل به يتفق مع ما قد يتوصل إليه العقل . وقد أكد سعيد بن يوسف أن الإيمان بعقيدة موسى لا يستند إلى الإيمان بالمعجزات التي أتى بها ، وإنما يستند إلى الإيمان بالقيمة الأخلاقية الذاتية لهذه العقيدة . وقسَّم سعيد وصايا اليهود إلى وصايا أخلاقية وأخرى احتفالية امتزجت معاً ، الأمر الذي يعطي ـ في تصوُّره ـ مزية تنفرد بها تجربة اليهود الدينية .

وسعيد بن يوسف هو أول من ترجم العهد القديم إلى العربية ، كما كتب تفسيراً لمعظم أجزائه ، وهو ما جعله متاحاً للجماهير اليهودية التي كانت لا تعرف العبرية . ويُعَدُّ سعيد من أوائل الذين درسوا اللغة العبرية دراسة منهجية . كما أنه نظم بعض الأشعار للصلوات اليهودية وألّف كتاب صلوات يهودية (سدور) .

أصحاب الشروح الإضافية (توسافوت)

Tosaphot

«الشروح الإضافية» أو «التذييلات» هي المقابل العربي لمصطلح «توسافوت» وهي كلمة عبرية تعني «إضافة» ، وهي ملاحظات على التلمود كتبها بعض حاخامات ألمانيا وفرنسا بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر ويبلغ عددهم ثلاثمائة . من أهمهم الحاخامات إسحق وصموئيل ويعقوب أولاد مائير أحفاد راشي . ويُطلَق عليهم «بعلي توسافوت» أي «أصحاب التوسافوت» . وقد بدأوا هذا العمل كتعليق نقدي على تعليقات راشي على التلمود . وقد تناولت التوسافوت نصوص التلمود مثلما تناول كتب الجمارا المشناه ، فأخذوا يقارنون بين النصوص المختلفة ويصلون إلى تخريجات تشريعية جديدة مختلفة عن تخريجات راشي .

جيرشوم بن يهودا (٩٦٠-١٠٤٠)

Gershom Ben Yehuda

هو أحد العلماء التلموديين في فرنسا وألمانيا . ويُعد أهم المفكرين الدينيين اليهود بلا منازع في عصره . وقد وُصف بأنه «مائور هاجولاه» (نور الشتات أو المنفى) . أسس جيرشوم بن يهودا مدرسته التلمودية العليا في ماينس (ماينز) حيث درس كثير من الطلاب اليهود من فرنسا وإيطاليا والبلاد السلافية . وكان أساتذة راشي من بين تلاميذه . وقد أدّى ذيوع صيته («الفرنسي في بلاد الألمان» كما كان يُطلَق عليه) إلى انحسار نفوذ المؤسسة الحاخامية في فلسطين والعراق . وقد كتب بن يهودا تفسيراً على بعض أسفار التلمود التي تم ضمها إلى طبعة فلنا ، كما أن له العديد من الفتاوى المهمة .

وتعود أهمية جيرشوم بن يهودا إلى نشاطه التشريعي ، إذ دعا إلى عقد مجمع يهودي (عام ١٠٠٠) ، وأصدر (أحكام الحاخام جيرشوم) والتي تتناول الحياة الاجتماعية والعائلية ، والتي كان يعدها اليهود في منزلة تعاليم سيناء . وكان من بين هذه الأحكام منع تعدُّد الزوجات ، وضرورة موافقة الزوجة على الطلاق ، وحق اليهودي المظلوم في أن يمتنع عن الصلاة في المعبد إلى أن ينال حقوقه ، وتحريم الإساءة إلى اليهود الذين تنصروا ثم عادوا إلى اليهودية .

ولم تكن حياة جيرشوم بن يهودا بلا منغصات ، فقد تنصر ابنه

عام ١٠١٢ ، حينما أصدر هنري الثاني أمراً بطرد اليهود من ماينس . وحتى بعد أن ألغى قرار الطرد ، ظل ابنه على دينه الجديد ومات مسيحياً .

راشي (١٠٤٠-١١٠٥)

Rashi

«راشي» اختصار لاسم الحاخام «رابي شلومو بن يتسحاق» ، وهو من أشهر المعلقين والمفسرين الإشكناز للتلمود ، وكان رئيس إحدى المدارس التلمودية . وقد وُلد راشي في فرنسا حيث اشتغل بتجارة الخمور ، وكان ملماً بالمصادر الدينية اليهودية السابقة عليه وإن كان لا يشير إليها . كما كان يعتمد على ترجمة أونكيلوس الآرامي في تفسير أسفار موسى الخمسة . وقد كتب راشي تفسيراً لمعظم كتب العهد القديم ، يجمع بين المنهجين المجازي والحرفي بكل يُسر ووضوح . كما كتب تفسيراً للتلمود ، وحقق نصه ، وعرَّف مصطلحاته ، وشرح مفرداته الصعبة ، ويُعَدُّ هذا من أهم أعماله . وله أسلوب خاص في رسم الخطوط يُعرَف باسمه استخدمه في كتابة الشروح والحواشي على التوراة وأسفار العهد القديم . ولم يتأثر راشي كثيراً بالأفكار الفلسفية السائدة في عصره ، ولم يُعرْها بالاً ، كما أن القضايا النقدية الخاصة بالنصوص لم تستحوذ على اهتمامه . ومما يُلاحَظ ، تأثره العميق ، في أحكامه الدينية ، بالعلاقات الإقطاعية السائدة في أوربا آنذاك . وقد كان راشي يورد دائماً المرادف الفرنسي للمصطلحات التي يستخدمها بحروف عبرية مضبوطة (لهجة لُعز) ، ولذلك فقد أصبحت أعماله مصدراً مهماً لدراسة نطق فرنسية العصور الوسطى . وتُعَدُّ أعمال راشي الأساس الذي استند إليه نحمانيدس وابن عزرا في تفاسيرهما .

ابن فاقودة (١٠٥٠-١١٢٠)

Ibn Pakuda

هو باهي يوسف بن فاقودة . مفكر ديني يهودي وُلد في سرقسطة بإسبانيا الإسلامية ، وكان قاضياً شرعياً . أهم كتبه **الهداية إلى فرائض القلوب والتنبيه إلى لوازم الضمير** وهو بالعربية وتُرجم إلى العبرية . وقيل إنه أول كتاب في الفلسفة اليهودية الأخلاقية ، وهو صورة من الكتب الأخلاقية الإسلامية يؤكد فيه الكاتب أهمية فرائض القلوب : الثقة في الإله ، والتواضع ، والزهد والشكر للإله ، والتوبة عما يغضبه . وكلها خطوات تؤدي في نهاية الأمر إلى الحب الخالص للإله . وفرائض القلوب عنده لا تقل أهمية عن الشعائر أو الفرائض الجسمانية . وقد تأثر في فلسفته بالأفلاطونية الحديثة وبالمتصوفين المسلمين . وقد ذاع الكتاب وترك أثراً عميقاً في المتصوفين والمفكرين الأخلاقيين اليهود .

ابن داود (١١١٠-١١٨٠)

Ibn David

هو إبراهيم بن داود . مفكر ديني يهودي عاش في إسبانيا الإسلامية . أهم مؤلفاته هو **العقيدة الرفيعة** الذي كتبه بالعربية ثم تُرجم إلى العبرية (وأصله العربي مفقود) . ويُعتبَر كتابه هذا أول الكتب اليهودية التي كُتبت داخل إطار الفلسفة الأرسطية والفلسفة العربية الإسلامية ، وخصوصاً فلسفة ابن سينا .

يذهب ابن داود إلى أن التوراة كتاب يحوي كل شيء ، لكن المعرفة التي يطرحها لم تتيسر لغير اليهود إلا بعد آلاف السنين . ويدافع ابن داود عن حرية الإنسان ، ويحاول أن يحل مشاكل الاختيار والجبر فيذهب إلى أن الإله شاء أن يضع حدوداً على إرادته وعلى مقدرته المطلقة حتى يخلق رقعة من الحرية للإنسان . ومن ثم، فإن الخالق لا يعرف نتائج فعل الإنسان ، فالممكن عند الخالق يظل ممكناً من غير أن ينتقص ذلك من قدرة الخالق وإرادته .

كذلك ألَّف ابن داود كتاباً بالعبرية بعنوان **سفر هاقبَّالاه** ، أي **كتاب التراث** ، حاول فيه أن يسرد تاريخ علماء التلمود حتى عصره، وكتب فيه أيضاً تاريخاً قصيراً للفترة الهيلينية التي يُطلق عليها أيضاً «فترة الهيكل الثاني» .

موسى بن نحمان (نحمانيدس) (١١٩٤-١٢٧٠)

Moses Ben Nahman (Nahmanides)

ويُعرف أيضاً باسمه اللاتيني «نحمانيدس» وباسم «رامبان» . وهو أحد كبار حاخامات اليهود ، وكان حاخام جيرونا في أراجون (إسبانيا) . وكان يُعَد أكثر علماء اليهود اطلاعاً وثقافة في عصره ، وقد كتب تعليقات على التلمود كما كتب دراسة قبَّالية في مراسم الحداد . وعارض موسى ابن نحمان دراسة الفلسفة ، ولكنه طالب بعدم تحريم دراسة كتابات موسى بن ميمون . وقد استقر نحمانيدس في فلسطين عام ١٢٦٧ حيث كتب تعليقاً على العهد القديم يعتمد أساساً على العقل ، وإن لم يستبعد القبَّالاه تماماً . وقد كان موسى بن نحمان من أوائل المفكرين القبَّاليين الذين نادوا بتناسخ الأرواح ، فأعطى الفكر القبَّالي شرعية ، وهو ما ساهم في ذيوعه وهيمنته فيما بعد على الفكر الديني اليهودي .

بن جرشون (١٢٨٨-١٣٤٤)

Ben Gershon

هو لاوي بن جرشون ، ويُعرَف أيضاً باسمه اللاتيني «جيرسونيدس» . كان عالماً في الدين اليهودي ، كما كان عالماً في الرياضيات والفلك . عاش في بروفانس بفرنسا ، وتأثر بكتابات أرسطو من خلال تعليقات ابن رشد . أهم مؤلفاته سفر ملاحم الرب .

ويُعَدُّ بن جرشون من أهم الكُتّاب الأرسطيين اليهود الذين اتخذوا موقفاً عقلانياً كاملاً . ولذا ، فإننا نجد أن الإله في كتاباته مفارق تماماً للعالم منفصل عنه بعيد عن أحداث العالم الجزئية وعن البشر كأفراد . والدليل الوحيد على وجود الخالق هو كمال الطبيعة . ومن هنا ، يُقال إن بن جرشون أول مفكر ربوبي .

وصل بن جرشون بكثير من مقولات موسى بن ميمون إلى نهايتها المنطقية . فالخلود مسألة عقلية ، ولذا فإن عقل الإنسان هو وحده الذي يُبعَث بعد الموت . والعناية الإلهية تتوقف أيضاً على العقل البشري ، فكلما ازداد العقل إحاطة بالمبادئ الكونية شملته العناية الإلهية ، والنبوة إن هي إلا مَلَكة عقلية وقدرة على الاتصال بالعقل الكوني . ويرى بن جرشون أن الإنسان يصل إلى النبوة دون إرادة الإله أي من خلال المران العقلي . والإله هو الصلة الأولى والفكرة الأسمى . والعالم مخلوق من مادة قديمة وليس من العدم، إلا أن قدم هذه المادة لا يعني أنها متجاوزة الزمن ، وما دامت حدود فعاليتها داخل العالم المخلوق ، فإنها تكون قديمة ولكنها خاضعة للزمن . ومع ذلك ، إذا كانت المادة قديمة بشكل ما ، وكانت الصور وحدها تَصدُر عن الإله ، فإن الإله لا يستطيع معرفة المخلوقات العديدة التي تُولَد من اتحاد الصورة مع المادة ، بمعنى أن الإله يعرف العام وحده ولا يعرف الجزئي من حيث هو جزئي ، ويعني هذا أن هناك قدراً من الحرية للإنسان إذ أن الجزئي يخرج عن نطاق العلم الإلهي . ويقتصر العقل الإلهي عند ابن جرشون على خلق ما يسميه «العقول المفارقة» ، وهي مخلوقات لا مادية تفيض منها الصور على العالم المادي ، وحالما تُخلَق هذه العقول تتولى حكم العالم ، وهي لا تدير نظام الطبيعة العادي فحسب بل هي تصنع أيضاً النبوة والعناية الإلهية وحتى المعجزات . ولكن المعجزات هنا تتبع نمطاً وقانوناً خاصّين ، ولكنهما مع هذا يظلان قانوناً ونمطاً للحالات النادرة . ويُلاحَظ الاتجاه الغنوصي في فكر ابن جرشون ، كما يُلاحَظ كذلك التقارب الشديد بين فكره وفكر ابن رشد من ناحية وفكر إسبينوزا من ناحية أخرى .

قريشقش (١٣٤٠-١٤١٠)

Crescas

هو حسداي قريشقش («كريسكاس» بالنطق اللاتيني) عالم ديني يهودي كان يعيش في برشلونة حيث عمل تاجراً ورئيساً للجماعة اليهودية ، وكان حاخام البلاط في أراجون . اندلعت المظاهرات ضد اليهود في برشلونة عام ١٣٩١ ، فتضررت على أثرها أعداد كبيرة منهم ، كما قُتل ابنه أثناء المظاهرات ، فانتقل إلى سرقسطة وألف في آخر أيامه كتاب **نور الله (أور أدوناي)** . ويهدف الكتاب إلى توضيح عقائد اليهودية ومعارضة ابن ميمون والرد على الفلسفة الدينية اليهودية المتأثرة بأرسطو والفلسفة الإسلامية . ولقد تعرَّض الكتاب للفارابي وابن سينا والغزالي ، وكان شديد النقد لابن رشد .

يرفض قريشقش عالم أرسطو المغلق المحدد حيث لا يمكن أن يوجد فراغ في المكان ، ويطرح بدلاً منه عالماً مفتوحاً يوجد فيه فراغ لا يشغله جسم . وينكر قريشقش أيضاً فكرة أرسطو الخاصة برفض الأعداد اللانهائية ، ويذهب إلى أنه حتى لو لم توجد أعداد لا نهائية فإن سلاسل لا نهائية من الأعداد سوف تكون موجودة . وإن كان هذا ممكناً فإن سلسلة السببية يمكن أن تكون هي الأخرى لا نهائية أيضاً . ولذا ، يذهب قريشقش إلى أنه ، بغض النظر عن كون عدد الأسباب محدوداً ، لابد أن يكون هناك سبب ليس نتيجة ، وهذا هو الإله .

ويختلف قريشقش عن الأرسطيين في أنه لا يرى أن العقل هو جوهر الإله والإنسان . ويصر بدلاً من ذلك على أن الخير لا الفكر هو أساس كيان الإله وكل صفاته الأخرى ، فهو يفيض بالخير دائماً . كما أن الروح يمكنها أن تنفصل عن الجسد وأن تَبقَى إلى الأبد بغض النظر عما حصل عليه الفرد من معرفة نظرية . كما أن السعادة لا تأتي من العقل وإنما من العاطفة ، والفرح ليس مجرد الحصول على المعرفة وإنما ينبع من حب الإنسان للإله . وهنا يعبِّر فرح الإله عن نفسه فيما يفيض عنه من حب لمخلوقاته على عكس الموقف الأرسطي الذي يرى أن العاطفة تقلل من شأن الإله .

وحينما ناقش قريشقش فكرة حرية الإرادة ، ذهب إلى أن أفعال الإنسان تحدِّدها الأسباب المحيطة به كما هو الحال مع كل الأشياء ، فالإنسان مسيَّر بالأسباب التي تقع خارجه . ومع هذا أصر قريشقش على مسئولية الإنسان عن أفعاله . وناقش قريشقش أصول الدين اليهودي وجعلها ثمانية بدلاً من الثلاثة عشر أصلاً التي خرَّجها موسى بن ميمون .

جوزيف كارو (١٤٨٨-١٥٧٥)

Joseph Caro

أحد العلماء الدينيين اليهود . وُلد في إسبانيا ، وطُرد منها مع من طُرد من اليهود والمسلمين عام ١٤٩٢ ، ثم استقر به المقام في البلقان عام ١٤٩٨ ، ثم في فلسطين عام ١٥٣٥ حيث أسس مدرسة تلمودية في صفد . وقد ألَّف ، وهو لا يزال في البلقان ، كتاب **بيت يوسف** ، وهو تعليق تفصيلي على المشناه . وقد لاحظ كارو التناقض بين الممارسات الدينية ليهود الدولة العثمانية ، نظراً لتنوع انتماءاتهم ، وتنبه إلى أن ظهور الطباعة سيشيع هذه التناقضات ومن ثم سيزيد الفوضى . ولذا ، قرر أن يُعد كتاباً أصغر حجماً من كتابه السابق ، لا يضم الآراء المختلفة والأحكام المتناقضة ، وإنما يضم الأحكام الملزمة وحسب ، حتى يوفر للدارسين والقضاة مرشداً واضحاً وحاسماً للشريعة . وكان ثمرة جهده كتاب الشولحان عاروخ (المائدة المنضودة) وهو المرجع الفقهي والشرعي الأساسي لليهود منذ تاريخ ظهوره عام ١٥٦٤ . وقد قابل الحاخامات الإشكناز هذا المُصنَّف الديني بمعارضة شديدة في بادئ الأمر لاعتماده على التقاليد والآراء السفاردية وحسب ، ولكن الشولحان عاروخ فرض نفسه مع هذا وصار الكتاب المعتمد لليهود الأرثوذكس جميعاً ، وخصوصاً بعد إضافة حواش إشكنازية إليه . وكان كارو من المهتمين بالقبَّالاه ، وكان يدَّعي أن ملاكاً يفضي إليه بالأسرار الدينية .

موسى إيسيرليز (١٥٢٥-١٦٧٢)

Moses Isserles

حاخام بولندي وواضع واحد من أهم المصنفات الدينية اليهودية . كان أبوه تاجراً ثرياً وأحد الشخصيات المهمة بين أعضاء الجماعة اليهودية في كراكوف (بولندا) . وقد أسَّس إيسيرليز (أويسر اتيليتش) مدرسة تلمودية في كراكوف وعُيِّن حاخاماً فيها ، وهو منصب ظل يشغله حتى وفاته .

اشتهر بفتاواه ، وخصوصاً تلك الفتاوى التي كان يصدرها للتخفيف عن الفقراء ، كما كان من الحاخامات الذين أصدروا فتوى تحريم أعمال موسى بن ميمون .

وقد كتب تعليقات عديدة على العهد القديم وتراث الشريعة الشفوية ، ولكن شهرته تعود إلى تعليقاته على ما كتبه معاصره جوزيف كارو . فقد ألف هذا الأخير كتاب **بيت يوسف** ، وهو عمل موسوعي شامل في الشريعة اليهودية من منظور سفاردي ، فكتب موسى إيسيرليز تعليقاً ونقداً لهذا الكتاب بعنوان **دراخي موشي** (طُرُق موسى) أكد فيه المنهاج الإشكنازي . ويبدو أن إيسيرليز يرى أن المنهاج أو العرف السائد يَجُب الشريعة ، وأنه يجب اتباع العرف حتى لو لم يكن له سند في الشريعة .

وحينما وضع جوزيف كارو ملخصاً لكتابه بعنوان **الشولحان عاروخ** (أي المائدة المنضودة) وذاعت شهرته ، وضع إيسيرليز كتاباً بعنوان **مـاباه** (أي المفرش) يضم الآراء والممارسات الإشكنازية في الموضوع نفسه . وقد ظل الشولحان عاروخ و **مـاباه** ، منذ تاريخ نشرهما ، العمود الفقري لليهودية الأرثوذكسية .

وقد كتب الحاخام حاييم بتسلنيل نقداً لأعمال إيسيرليز يُعَدُّ نموذجاً جيداً للحوار بين حاخامات اليهود في أوربا في القرن الثامن عشر . وقد عدَّد بيزاليل نقاط اعتراضه فيما يلي :

١ ـ يتبنى إيسيرليز أعراف (منهاج) آراء الحاخامات الأوائل (رشونيم) ويُفضلها على آراء الحاخامات المتأخرين (أحرونيم) .

٢ ـ يورد إيسيرليز منهاج يهود بولندا ، ويهمل منهاج يهود ألمانيا ، ثم يسأل : لماذا يجب على يهود ألمانيا أن يتخلوا عن منهاجهم لصالح منهاج يهود بولندا ؟

٣ ـ قد يؤدي مصنف إيسيرليز إلى إهمال دراسة الأعمال الفقهية الأصلية والتلمود وآراء الحاخامات الأوائل الأمر الذي يؤدي إلى الجهل بأحكام الدين اليهودي .

٤ ـ لن يلتفت عامة الناس لآراء الحاخامات لأنهم سيعتمدون على الكتب المنشورة .

٥ ـ ولأن إيسيرليز قد عبَّر عن اختلافه مع أحكام كارو ، فبإمكان الآخرين أن يعبِّروا هم أيضاً عن اختلافهم معه ، الأمر الذي قد يبدأ سلسلة طويلة من الاختلافات معه .

٦ ـ لم يحتكم إيسيرليز إلى أحكام الحاخامات الآخرين ، واعتمد على أحكامه هو .

٧ ـ أظهر إيسيرليز التسامح في مواضع تشددت فيها الشريعة .

٨ ـ إن تم تحريم شيء ، فإن ذلك كان يبقى عرفاً ومن ثم لا يمكن إلغاؤه ، ومع هذا فقد تهاون إيسيرليز في هذا الأمر .

والواقع أن هذه الاعتراضات تبيِّن أن الجو الذي ساد الأوساط الحاخامية في شرق أوربا كان خانقاً ، وجعل من المستحيل على اليهودي أن يصبح يهودياً وإنساناً في الوقت نفسه على حد قول أحد دعاة الاستنارة . ويبيِّن رد الحاخام بيزاليل مدى الجفاف الروحي والعقم الفكري الذي ساد الدراسات الفقهية كما أدَّى إلى ظهور الحسيدية بنزعتها المعادية تماماً للعقل .

ليون دي مودينا (١٥٧١-١٦٤٨)

Leon De Modena

حاخام ، وواعظ ، وشاعر ، ومغن في المعبد (حزان) ، ومصحح . وضع في صباه كتاباً يُسمَّى **تحاشى الميْسر** ، وهو ، أي الميْسر ، عادة مارسها بشدة في شبابه ورجولته وكانت سبباً في مشاكله المالية ، ومن هنا كان تعدد الوظائف التي اضطر إلى العمل فيها لسداد ديونه .

مات أولاده الواحد تلو الآخر ثم جُنّت زوجته وماتت هي الأخرى . نشر عدة كتب في حياته ليست لها أهمية كبيرة ، ولكن الكتب التي نُشرت بعد وفاته تكتسب أهميتها من أنها تشكل هجوماً مبكراً على القبّالاه وكتاب الزوهار .

ألّف كتاباً يُدعى **قول ساخال** ، أي صوت الأحمق ، هاجم فيه بحدة الشريعة الشفوية والتقاليد اليهودية ، واعترض على الشرائع اليهودية التي كانت تحتاج إلى الإصلاح فاقترح إلغاء العديد من الشعائر والتخفيف من صرامة شعائر السبت والأعياد كما اقترح إلغاء أو تبسيط قوانين الطعام ورفع الحظر عن شرب الخمر مع الأغيار . ويُعَدُّ نقده أهم نقد للشريعة اليهودية حتى القرن التاسع عشر الميلادي حين ظهرت اليهودية الإصلاحية .

اوريل اكوستا (١٥٨٥-١٦٤٠)

Uriel Acosta

اسمه الأصلي جبريل داكوستا ، ثم اتخذ هذا الاسم صيغة لاتينية ، فصار «أوريل أكوستا» . وهو يهودي من أصل مارانى ، أي يهودي ومن أسرة ثرية من يهود إسبانيا المتخفين أظهرت يهوديتها بعد أن استقرت في أمستردام . وهو ، مثل كثير من اليهود المارانو ، كان يجهل حقيقة اليهودية الحاخامية التلمودية ، ولذا فقد صبغها بصبغة عقلانية مثالية متصوراً أنها عقيدة تستند إلى نصوص العهد القديم وحسب وغير متأثرة بالتلمود (أي أنها يهودية توراتية موسوية) . ولكنه ، بعد استقراره هو وعائلته في أمستردام ، أُصيب بصدمة عنيفة إذ وجد العقيدة اليهودية الحاخامية أو التلمودية شيئاً مخالفاً تماماً لتصوراته ، فأعلن معارضته لها واتهم الحاخامات بتحريف العقيدة . وبدأ حركة تفسير الكتاب المقدَّس تفسيراً تاريخياً يبين تناقضاته ، فشكك في صدق نسبة النصوص التوراتية إلى الإله أو حتى صدورها عن أولئك الذين تُنسَب إليهم . فأسفار موسى الخمسة ، حسب رأيه ، لم يكتبها موسى . كما أن سفر يوشع لم يكتبه يوشع ، وهكذا . وأنكر كوستا صدق التراث المنقول لتعارضه مع المعقول ، ونفى أن يكون هناك نص في التوراة عن خلود النفس أو البعث أو الجزاء ، وأكد أن ذلك من افتعال الفريسيين . ولذا ، فإنه يُعدّ من أهم نقاد العهد القديم . وقد طُرد كوستا من حظيرة الدين مرتين ، ولم تُقبل توبته في المرة الثانية إلا بعد جَلْده وبعد أن داسه المصلون أمام المعبد ، فأحس بالمذلة وانتحر بعد أن كتب سيرته الذاتية بعنوان **مثل لحياة إنسان** طالب فيها برفض المسيحية واليهودية وتَقبُّل القانون الطبيعي . وهو بذلك من أوائل دعاة الربوبية ، وقد تأثر إسبينوزا بسيرته وآرائه .

جيكوب ساسبورتاس (١٦١٠-١٦٩٨)

Jacob Sasportas

حاخام مغربي عُرف بعدائه الشديد للنزعة المشيحانية والشبتانية . عُيّن حاخاماً لتلمسان في سن مبكرة ، واعترف كثير من الجماعات اليهودية بعلمه وتفقهه . ولكن الحكومة طردته ، فبدأ في التجول في ألمانيا وإيطاليا وإنجلترا . عُرض عليه منصب حاخام السفارد في لندن عام ١٦٦٤ ولكنه ترك المدينة بسبب الوباء ، وخصوصاً أن طموحه كان يتجه نحو حاخامية أمستردام ، ولكنه لم يحصل عليها إلا عام ١٦٩٣ .

تعود شهرة ساسبورتاس إلى مجموعة الخطابات التي كتبها رداً على الأدبيات الشبتانية في عصره . وقد نُشرت الخطابات ومعها الأدبيات الشبتانية ، وهو ما جعل هذا الكتاب مصدراً أساسياً لدراسة الحركة الشبتانية إبان حياة شبتاي تسفي . ويُغطي العمل الفترة ١٦٦٦ ـ ١٦٧٦ ويدور النصف الأول من الخطابات حول عام ١٦٦٦ ، ويتناول النصف الثاني تحوُّل تسفي إلى الإسلام وفشل الحركة الشبتانية .

وينبع اعتراض ساسبورتاس على الحركة الشبتانية من إيمانه العميق بالشريعة ومعرفته الوثيقة بوصفها التفصيلي للعصر المشيحاني . ولذا كان بوسعه أن يُبيِّن الفروق الشاسعة بين ما كان يحدث في عصره والعصر المشيحاني الحقيقي . وقد لاحظ أن الحركة الشبتانية ثورة لا ضد المؤسسة الحاخامية وحسب وإنما ضد المعيارية اليهودية ككل . كما لاحظ بعض نقط التشابه بين الشبتانية والمسيحية .

إلياهو بن سولومون زلمان (فقيه فلنا) (١٧٢٠-١٧٩٧)

Elijah Ben Solomon Zalman (The Vilna Gaon)

هو إلياهو زلمان الذي يشار إليه في الأدبيات الغربية بعبارة «فلنا

جاءون» ، أي «جاءون أو فقيه فلنا» . وهو واحد من أهم علماء التلمود وُلد في ليتوانيا واشتهر منذ صغره بالعلم . تنقَّل في الفترة بين عامي ١٧٤٠ و١٧٤٥ بين كثير من التجمعات اليهودية في بولندا وألمانيا ، واستقر في فلنا حيث درس فيها وأسس مدرسة تلمودية عليا (يشيفا) خاصة به . ومع أنه رفض منصب حاخام وعاش في عزلة ، فإن شهرته كعالم تلمودي فاقت كل وصف . وقد ظهرت سلطته بصورة واضحة عندما قاد معارضي الحسيدية في ليتوانيا ، ونجح في الحد من انتشارها هناك . وهو يُعَدُّ زعيم المتنجديم . وعندما بلغ الستين من عمره ، خرج فقيه فلنا قاصداً فلسطين ، ولكنه (لأسباب لا تفصح عنها المراجع اليهودية) رجع دون أن يصل إلى هناك . وفي الواقع ، فإن شهرته الأساسية تعود إلى دراساته في الشريعة وإلى أنه جدَّد الدراسات التلمودية من الداخل .

ويُعَدُّ منهج فقيه فلنا أهم من مضمون كتاباته ، فيُقال إنه بعث شيئاً من الحيوية في الدراسات التلمودية بالتخلي عن منهج البيلبول والطرق التقليدية ، محاولاً الوصول إلى تفسير دقيق وتفصيلي يفرضه المعنى العقلي المباشر للنص . وقد أدَّى به هذا إلى توجيه النقد أحياناً إلى علماء العصر التلمودي نفسه . وقد أدَّت به اهتماماته إلى محاولة دراسة عدة فروع من المعرف الدنيوية ، مثل : الجبر والفلك والجغرافيا ونحو العبرية ، مادامت تنير النصوص التلمودية ، وشجع طلبته على ترجمة هذه المعارف إلى العبرية (ومع هذا ، فإن معرفته بالرياضيات والعلوم الطبيعية كانت مستقاة من كتب العصور الوسطى ، ولذا فإنه لم يكن يدرك المضامين الثورية الكامنة في علم الفلك الحديث أو في علم الطبيعة ، ومن ثم كان عالمه مختلفاً تماماً عن فكر حركة التنوير الذي ساد بروسيا في فترة حياته) . وقد عارض إلياهو الفلسفة ، وخصوصاً أعمال موسى بن ميمون ، ولكنه كان مهتماً بالدراسة القبَّالية وحاول أن يوفِّق بينها وبين تعاليم التلمود .

وتكمن أهمية فقيه فلنا في أنه كان من أواخر علماء التلمود . ففي حياته بدأت الحركة الشبتانية تعصف باليهودية الحاخامية ، ثم انتشرت الحسيدية رغم كل محاولاته التي استهدفت وقفها . وأخيراً ، ظهرت الحركات الإصلاحية وحركة التنوير والصهيونية ، وهي حركات (برغم اختلاف مضامينها السياسية والدينية والفكرية) قدمت رؤى تختلف عن الرؤية الحاخامية التلمودية التي سادت بين يهود العالم الغربي منذ جَمْع التلمود في بداية العصور الوسطى في الغرب حتى نهاية القرن الثامن عشر تقريباً .

ورغم كل معارضته للحسيديين إلا أنه كان جزءاً من المؤسسة الحاخامية التي كانت قد سيطرت عليها الحلولية ولذا وضع شرحاً على سفر يتسيرا (كتاب الخلق) وهو من أهم كتب التراث القبَّالي . ويُبيِّن شرحه قبوله بعض أفكار القبَّالاه الأساسية من بينها أن الإله خلق العالم من خلال التجليات النورانية . ولكنه مع هذا ينبه المؤمنين إلى أنه ليس لنا أن نبحث في «كنه» هذه التجليات . ووضع فقيه فلنا لشرح لكل من المشناه وسفر يتسيرا يُبيِّن مدى الازدواجية الفكرية عنده وعند غيره من الفقهاء ومدى سيطرة الفكر الحلولي وتغلغله .

وقد خلف فقيه فلنا عدداً كبيراً من الكتابات المخطوطة ، وهي تتكون أساساً من تعليقات على العهد القديم والمشناه والتلمود (البابلي والفلسطيني) ، كما علق على أدب المدراش وكتب القبَّالاه والشولحان عاروخ .

ادين شتاينسالتس (١٩٣٧-)

Adin Steinsaltz

حاخام إسرائيلي وُلد في القدس لأسرة صهيونية علمانية اشتراكية . تخصص في الدراسات اليهودية كما درس الكيمياء والفيزياء في الجامعة العبرية . عمل في مهنة التدريس في صحراء النقب لمدة ثلاثة عشر عاماً ، ثم استقر في القدس حيث قام بالتدريس والبحث ، وكتب عدة مقالات لمجلات علمية . أسس عام ١٩٦٥ معهد إسرائيل للنشرات التلمودية الذي قام بإنتاج طبعة من التلمود البابلي بعلامات الترقيم والضبط وتصاحبها ترجمة عبرية وتعليق كتبه شتاينسالتس نفسه . وقد ظهر منها ٢٥ جزءاً حتى عام ١٩٩٣ (صدر الجزء الأول عام ١٩٦٧) .

أسَّس الحاخام شتاينسالتس مدرسة تلمودية عليا (يشيفا) تُدعى «ميقور حاييم» (أي مصدر الحياة) عام ١٩٨٤ ، ومن أهم أهدافها محاولة سد الهوة بين اليهود المتدينين وغير المتدينين . كما أسس عام ١٩٨٩ مدرسة تلمودية عليا أخرى في موسكو تُسمَّى «مركز دراسة اليهودية» .

ويقوم الحاخام شتاينسالتس بإلقاء العديد من المحاضرات خارج إسرائيل ، كما تُرجمت كتبه إلى الإنجليزية من بينها **خلاصة التلمود** وظهرت له دراسات عن التلمود وقصص عن الحاخام نحمان البراتسلافي .

٨
القبَّـــالاه

الصوفية اليهودية (القبَّالاه) ـ القبَّالاه: تاريخ ـ أسباب شعبية القبَّالاه وهيمنتها على الوجدان الديني اليهودي ثم اختفائها ـ الموضوعات الأساسية الكامنة في القبَّالاه وبنية الأفكار فيها ـ التجليات النورانية العشرة (سفيروت) ـ التوحد بالإله والالتصاق به (ديفيقوت) ـ التفسيرات الرقمية (جماتريا) ـ التجلي الأنثوي للإله (شخيناه) ـ الدورات الكونية

الصوفيــة اليهــودية (القبــالاه)

Jewish Mysticism (Kabbalah)

يُعـرف التـراث الصـوفي اليـهـودي باسـم «القبَّـالاه» التي مـرت بمراحـل عـديدة أهمـهـا «قبَّـالاة الزوهار» وتُسـمَّى أيضـاً «القبَّـالاه النبـوية»، و«القبَّـالاه اللوريانيـة» التي يمكن أن تُسـمَّى «القبَّالاه المشيـحانيـة». أما كلمة «الصوفيـة»، فلها (داخل النسق الديني اليهودي) دلالات خاصة، فهذا النسق يتَّسم بوجود طبقة جيـولوجية ذات طابع حلولي قوي تراكمت داخله، ابتداءً من العهد القديم، مروراً بالشريعة الشفوية، وقد انعكست هذه الحلولية من خلال شيوع أفكار، مثل: الشعب المختار، وأمة الروح، والأرض المقدَّسة.

وتراث القبَّالاه الصوفي تراث ضخم وضع أسس التفسيرات الصوفية الحلولية في الزوهار والباهير وغيرهما من الكتب، وحل محل التـوراة والتلمـود. ومن الملاحَظ أيضـاً انتشار الحركات المشيحانية الصوفية الحلولية بين الجماعات اليهودية في العالم عبر التاريخ. فكان التفكير الفلسفي بين اليهود نادراً، ولم يظهر إلا تحت تأثير الحضارات الأخرى، كما أنه كان ينحو منحى حلولياً في أغلب الأحيان. ففيلون السكندري، مثلاً، كان واقعاً تحت تأثير الحضارة الهيلينية، ولم يكن يعرف العبرية مطلقاً، ومع هذا فإن ثمة نزعة حلولية قوية في فلسفته، ولم يترك فكره الفلسفي أي أثر في تطور اليهودية اللاحق. وكذلك موسى بن ميمون، بطل كل المفكرين العقلانيين اليهود، فقد كان متأثراً تأثراً عميقاً بحضارته العربية الإسلامية. أما في العصر الحديث، مع ظهور فكر فلسفي يهودي حديث، فإننا نجد إسبينوزا بفلسفته الحلولية على رأس المفكرين كما أن أهم مفكر ديني يهودي، مارتن بوبر، كان مهتماً بالتصوف أشد الاهتمام، بل نجده أحد عُمُد التصوف في تاريخ الفكر الحديث في الغرب. والواقع أن الفكر الديني اليهودي الحديث ينحو، في جوهره، هذا المنحى الصوفي الحلولي. والشبتانية هي اللحظة التي تظهر عندها الحلولية بدون إله.

ويمكن التمييز بين نمطين من التصوف: واحد يدور في نطاق إطار توحيدي، ويعبِّر عن الإيمان بإله يتجاوز الإنسان والطبيعة والتاريخ، ومن ثم يؤمن بثنائيات دينية فضفاضة (السماء والأرض ـ الإنسان والطبيعة ـ الإله والإنسان). وتتبدَّى هذه الرؤية في تدريبات صوفية يقوم بها المتصوف ليكبح جماح جسده تعبيراً عن حبه للإله وعن محاولته التقرب منه وهو يعرف مسبقاً استحالة الوصول والتوحد مع الإله، فالحلول الإلهي يتنافى مع الرؤية التوحيدية، ووحدة الوجود قمة الكفر. والمتصوف الذي يدور في إطار توحيدي يعبِّر عن حبه الإلهي عن طريق فعل في التاريخ والمجتمع بتبنيه القيم الخيِّرة ويُعلي به من شأن القيم الخلقية الرحبة والإنسان من الإله ويصبح به حراً [illegible].

أما النمط الثاني من التصوف فيدور في إطار حلولي يصدر عن الإيمان بالوحدة الكونية حيث يحل الإله في الطبيعة والإنسان والتاريخ ويتوحد معها ويصبح لا وجود له خارجها، فيُختزَل الواقع بأسره إلى مستوى واحد يخضع لقانون واحد، ومن ثم يستطيع من يعرف هذا القانون (الغنوصي) أن يتحكم في العالم بأسره. وهذا هو هدف المتصوف في هذا الإطار. فبدلاً من التمرينات الصوفية التي يكبح بها الإنسان جسده ويطوع لها ذاته، يأخذ التصوف شكل التفسيرات الباطنية ووضع التمائم والتعاويذ والبحث عن الصيغ التي يمكن من خلالها التأثير في الإرادة الإلهية، ومن ثم التحكم الإمبريالي في الكون. وحتى لو أخذ هذا التصوف شكل الزهد، فالهدف من الزهد ليس تطويع الذات وإنما الوصول إلى الإله والالتصاق به والتوحد معه والفناء فيه ليصبح المتصوف عارفاً بالأسرار الإلهية. ومن ثم يصبح هو نفسه إلهاً أو شبيهاً بالإله. والمتصوف في إطار حلولي لا يكترث إلا بذاته، ولذا فهو لا يتحرك

في الزمان والمكان الإنسانيين ولا يأتي بأفعال في التاريخ ولا يهتم بإصلاح الدنيا بل يضع نفسه فوق الخير والشر وفوق كل القيم المعرفية والأخلاقية. فالتجربة الصوفية التوحيدية تطويع للذات وطاعة للخالق وإصلاح للدنيا. أما الثانية فهي تحقيق للذات وتطويع للحقائق وبحث عن التحكم في الدنيا. ورغم استخدام لفظ واحد («تصوف») للإشارة إلى التجربتين، إلا أنهما مختلفتان تمام الاختلاف. والتصوف الحلولي، وخصوصاً في أشكاله المتطرفة، هو شكل من أشكال العلمنة. فإذا كان الإله أو الخالق هو مخلوقاته، فإن مخلوقاته هي هو. وإذا حل الإله في المادة، فإن الطبيعة تصبح هي الإله (كما يؤكد إسبينوزا). كما أن صاحب العرفان يصبح قادراً على التحكم في الإله والطبيعة والكون. ويمكننا هنا أن نرى ملامح سوبرمان نيتشه. الذي لا يؤمن إلا بإرادة القوة ويتجاوز أخلاق الضعفاء.

ويمكننا القول بأن التصوف اليهودي (على وجه العموم) من النمط الحلولي وأنه ذو اتجاه غنوصي قوي. فالمتصوف اليهودي لا يتجه نحو تطويع الذات الإنسانية الفردية وخدمة الإله، وإنما يحاول الوصول إلى فهم طبيعة الإله من خلال التأمل والمعرفة الإشراقية الكونية (الغنوص أو العرفان) بهدف التأثير في الإله والتحكم الإمبريقي في الواقع. ومن هنا، كان ارتباط التصوف اليهودي أو القبَّالاه بالسحر، ومن هنا أيضاً كانت علاقة السحر بالعلم والغنوصية. وقد وصف العالم جيرشوم شوليم الصوفية اليهودية بأنها «ثيو صوفية»، أي أنها معرفة الإله من خلال التأمل والمعرفة الإشراقية الكونية (الغنوص) أو العرفان. ومن ثم، فهي تبتعد عن التمرينات الصوفية وعمليات الزهد ومحاولة الذوبان أو إفناء الذات الإنسانية في الذات الإلهية. ولكن هذا الوصف ليست له مقدرة تفسيرية عالية، فالتصوف اليهودي الحلولي يتجه نحو الاتحاد مع الإله والالتصاق به (ديفيقوت). وهو اتحاد يؤدي إلى وحدة الوجود (ووحدة الوجود يُفترض أنها تؤدي إلى الكشف الصوفي لطبيعة الإله وإمكانية التواصل معه ثم التحكم فيه!). ولعل سمة التصوف اليهودي الأساسية أنه يدور في معظمه في إطار حلولي، الأمر الذي يجعله يختلف عن التصوف الذي يدور في إطار توحيدي. ولذا، فنحن نؤثر أن نشير إلى التصوف اليهودي بكلمة «قبَّالاه»، فهي أكثر دقة وتفسيرية.

القبـــالاه: تاريـخ

Kabbalah: History

«القبَّالاه» هي مجموعة التفسيرات والتأويلات الباطنية والصوفية عند اليهود. والاسم مُشتَق من كلمة عبرية تفيد معنى التواتر أو القبول أو التقبل أو ما تلقاه المرء عن السلف، أي «التقاليد والتراث» أو «التقليد المتوارث». وكان يُقصَد بالكلمة أصلاً تراث اليهودية الشفوي المتناقل فيما يعرف باسم «الشريعة الشفوية»، ثم أصبحت الكلمة تعني، من أواخر القرن الثاني عشر، «أشكال التصوف والعلم الحاخامي المتطورة» (إلى جانب مدلولها الأكثر عموماً باعتبارها دالاً على سائر المذاهب اليهودية الباطنية منذ بداية العصر المسيحي). وقد أطلق العارفون بأسرار القبَّالاه («مقوباليم» بالعبرية و«القبَّاليون» بالعربية) على أنفسهم لقب «العارفون بالفيض الرباني».

ومصطلح «قبَّالاه» واحد من مصطلحات أخرى تشير إلى المدلول نفسه، فالتلمود يتحدث عن «رازي هتوراه»، أي «أسرار التوراة». وقد كان يُشار إلى المتصوفين بعبارات «يوردي مركافاه»، أي «النازلون إلى المركبة»، و«بعلي هاسود»، أي «أسياد أو أصحاب الاسم»، و«إنشي إيموناه»، أي «رجال الإيمان»، و«بني هيخلاه دي ملكا»، أي «أبناء قصر الملك».

وكان القبَّاليون يرون أن المعرفة، كل المعرفة (الغنوص أو العرفان)، توجد في أسفار موسى الخمسة، ولكنهم كانوا يرفضون تفسير الفلاسفة المجازي، وكانوا لا يأخذون في الوقت نفسه بالتفسير الحرفي أيضاً. فقد كانوا ينطلقون من مفهوم غنوصي أفلاطوني مُحدَث يُفضي إلى معرفة غنوصية، أي باطنية، بأسرار الكون وبنصوص العهد القديم وبالمعنى الباطني للتوراة الشفوية.

والتوراة ـ حسب هذا التصور ـ هي مخطَّط الإله للخلق كله، وينبغي دراستها. لكن كل كلمة فيها تمثل رمزاً، وكل علامة أو نقطة فيها تحوي سراً داخلياً، ومن ثم تصبح النظرة الباطنية الوسيلة الوحيدة لفهم أسرارها. وقد جاء أنه، قبل الخلق، كُتبت التوراة بنار سوداء على نار بيضاء، وأن النص الحقيقي هو المكتوب بالنار البيضاء، وهو ما يعني أن التوراة الحقيقية مختفية على الصفحات البيضاء لا تدركها عيون البشر. ويقول القبَّاليون إن الأبجدية العبرية لها قداسة خاصة، ولها دور في عملية الخلق، وتنطوي على قوى غريبة قوية ومعان خفية، وبالذات الأحرف الأربعة التي تكوِّن اسم يهوه (تتراجرماتون)، فلكل حرف أو نقطة أو شرطة قيمة عددية. ومن هذا المنطلق، فإن الحروف تنقسم بصفة عامة إلى ثلاث مجموعات: المجموعة الأولى الهمزة (رمز الهواء)، والمجموعة الثانية الميم (رمز الماء)، والمجموعة الثالثة الشين (رمز النار). وبإمكان الإنسان الخبير بأسرار القبَّالاه أن يفصل الحروف، ويجمع معادلها الرقمي ليستخلص معناها الحقيقي، كما كان من الممكن

جَمْع الحروف الأولى من العبارات ، وأن يُقرأ عكساً لا طرداً ليصل المرء إلى معناها الباطني . وكانت هناك أيضاً طريقة الجماتريا .

وبذلك تصبح كلمات التوراة مجرد علامات ، أو دوال ، تشير إلى قوى ومدلولات كونية وبنى خفية يستكشفها مفسر النص الذي يخترق الرداء اللفظي ليصل إلى النور الإلهي الكامن . ومن خلال هذا المنهج التفسيري ، تَمكّن القبَّاليون من فرض رؤاهم الخاصة على النصوص الدينية وإشاعتها ، الأمر الذي فتح الباب على مصراعيه لكل الآراء الحلولية المتطرفة .

وإذا كانت الديانات التوحيدية ، وضمنها اليهودية ، التي تدور حول إله مفارق يتجاوز الطبيعة والتاريخ ترى أن ثمة مساحة تفصل بين الخالق والمخلوق ، وبين الإله والكون ، فإن التراث القبَّالي ينزع نزوعاً حلولياً واضحاً نحو تضييق المسافة بينهما ، حتى تتلاشى تماماً في نهاية الأمر . والواقع أن الإله ، حسب التصور القبَّالي ، ليس الإله المفارق المتسامي الذي ليس كمثله شيء ، وإنما يُنظَر إليه من منظورين : باعتباره (أولاً) الإله الخفي والجوهر الذي لا يستطيع الإنسان إدراك كنهه ، وهذا هو إله الفلاسفة ؛ الإله الواحد الذي لا يتجزأ ، وهو في رأي القبَّالاه حالة ساكنة تفتقد إلى الحيوية ، وهو الخالق في حالة انكماش قبل عملية الخلق ، وهو العدم واللاوجود (فهو يشبه من كثير من الوجوه إله الغنوصية الخفي) ، كما يُنظَر إليه باعتباره (ثانياً) الإله القريب الحي ؛ القريب بسبب وجوده الذاتي وتعدديته ، فهو بنية داخلية ، مركبة ودينامية ، وهو عملية عضوية تؤثر في العالم وتتأثر به ، وهو تَجسُّد مادي (لوجوس) يحل في المادة (سواء كانت الشعب اليهودي أم الظواهر الطبيعية أم اسم الإله الأعظم من يكتشفه يتحكم في الكون بأسره) . والإله يتسم بسمات عديدة اشتقها القبَّاليون من خلال قراءاتهم الغنوصية الدينية اليهودية السابقة ، ومن خلال تجاربهم الصوفية (فهو يشبه من بعض الوجوه الإله الصانع في المنظومة الغنوصية والطبيعة الطابعة في المنظومة الإسبينوزية) .

وبينما حاول الفلاسفة اليهود والحاخامات تفسير ما يرد في العهد القديم من خلع صفات بشرية على الإله وتجسيمه بأنها من قبيل المجاز ، فإن القبَّاليين أخذوا ما جاء في سفر التكوين (١/ ٢٨) من أن الإله قد خلق الإنسان على صورته ، وفسروه تفسيراً حرفياً ثم فرضوا عليه كثيراً من المعاني حتى توصلوا إلى فكرة آدم قدمون ، أي الإنسان الأصلي ، ومفادها أن جسم الإنسان يعكس في سماته بناء التجليات النورانية العشرة (سفيروت) . وهذا مثل جيد للمنهج الذي يُفسِّر القبَّاليون به العهد القديم بطريقة ليست مجازية ولا حرفية، وإنما عن طريق فرض المعنى الذي يريده المفسر .

وقد أصبحت القبَّالاه في نهاية الأمر ضرباً من الصوفية الحلولية ترمي إلى محاولة معرفة الإله بهدف التأثير في الذات العلية حتى تنفذ رغبات القبَّالي أو المتصوف حتى يتسنى لصاحب هذه المعرفة السيطرة على العالم والتحكم فيه . ولذا ، فإن القبَّالاه تتبدى دائماً في شكل قبَّالاه عملية ، وهي أقرب إلى السحر الذي يستخدم اسم الإله والمعادل الرقمي للحروف (جماتريا) والأرقام الأولية والاختصارات (نوطيرقون) للسيطرة . وترتبط القبَّالاه في وجهها العملي بعدد من العلوم السحرية ، مثل : التنجيم ، والسيمياء ، والفراسة ، وقراءة الكف ، وعمل الأحجبة ، وتحضير الأرواح . ومع ابتعادها عن التقاليد الحاخامية الدراسية استوعبت عناصر كثيرة من التراث الشعبي تمثل الازدهار الأقصى للتفكير الأسطوري والحلولي في اليهودية .

ورغم تأكيدنا أن القبَّالاه ثورة على التراث الحاخامي إلا أنها تضرب بجذورها في الطبقة الحلولية التي تراكمت داخل التركيب الجيولوجي اليهودي منذ البداية في العهد القديم ، حيث يتوحد الإله مع شعبه . وهو توحُّد كان يأخذ شكل العهد المتجدد بين الإله والشعب ، والتدخل المستمر للإله في التاريخ لصالح شعبه ، وتجسُّده في شكل عمود نار ليقودهم ، وغضبه منهم وحبه لهم وغزله فيهم ومعهم . وقد عبر الحلول الإلهي وعشقه لبنت صهيون عن نفسه في نهاية الأمر في شكل العبادة القربانية المركزية حيث كانت تتم لحظة الحلول والالتحام بين الإله والشعب والأرض في يوم عيد الغفران حين كان كبير الكهنة يدخل إلى قدس الأقداس لينطق باسم يهوه .

ورغم حرب الأنبياء ضد الأفكار الحلولية إلا أنها زادت ترسخاً في القرن الأول قبل الميلاد ، وعبَّرت عن نفسها في جماعة مثل جماعة الأسينيين ، وفي أسفار الرؤى (أبوكاليبس) مثل كتاب حنوخ وفي الكتب الخفية (أبوكريفا) ، وفي الغنوصية اليهودية وغير اليهودية . كما ترسخت الطبقة الحلولية بترسُّخ مفهوم الخلاص المشيحاني باعتباره خلاصاً قومياً لا فردياً . ويُلاحَظ أن ثمة تشابهاً بين القبَّالاه وكُتب الرؤى في عدة أوجه من أهمها رؤية الخلاص ، فالخلاص لن يتم الوصول إليه من خلال عملية أخلاقية تاريخية تدريجية ، وإنما من خلال معجزة خارجية وتَدخُّل إلهي فجائي ، عندما يظهر الماشيَّح ويشع بضوئه على العالم بأركانه الأربعة عند نهاية التاريخ وتحقُّق الفردوس الأرضي . كما أن الأفكار الثنوية الرؤياوية التي تساوي بين الجوهر الإلهي وجوهر آخر ، وهي فكرة ذات أصول فارسية ، وجدت طريقها إلى القبَّالاه أيضاً ، في تفرقتها

بين عالم الدنس والرذيلة والموت الحالي من ناحية وعالم الخير والطهارة والوجود الأبدي الآتي بعد ظهور الماشيَّح من ناحية أخرى.

ومن المصادر الأخرى الأساسية للقبَّالاه، فكرة الشريعة الشفوية التي تضاهي الشريعة المكتوبة وتتفوق عليها، فهي فكرة حلولية متطرفة تساوي بين الخالق ومخلوقاته. وقد تعمَّق التيار الحلولي الذي يسري في العهد القديم وازداد كثافة في التلمود حتى اكتسب أبعاداً متطرفة في كثير من الأحيان. ولكن النزعة الحلولية في التلمود ظلت مختلطة بعناصر أخرى توحيدية تحددها وتحد منها. وما فعله القبَّاليون، فيما بعد، هو أنهم اقتبسوا من التلمود المقاطع والآراء ذات الطابع الحلولي ونزعوها من سياقها ودفعوها إلى نتيجتها المنطقية المتطرفة. وهذا يُفسِّر وقوف المؤسسة الحاخامية ضد القبَّاليين بعض الوقت، ويفسر التوتر بين الفريقين، ولكنه يفسر في الوقت نفسه سرّ انتشار الشبتانية (الحلولية) بين كبار العلماء التلموديين في القرن الثامن عشر. كما أنه يُفسِّر كيفية تَحوُّل القبَّالاه، في نهاية الأمر، إلى جزء أساسي من الشريعة الشفوية.

ويظهر ارتباط التلمود بالقبَّالاه من خلال دراسة تاريخ التصوف اليهودي، فقد تشكلت حلقات من أتباع يوحنان بن زكاي، وهو من معلمي المشناه (تنائيم) ومن مؤسسي حلقة يفنه التلمودية في القرنين الأول والثاني. وحاولت هذه الحلقات أن تغوص في أسرار الخلق أو ما يُسمَّى عمل الخليقة (بالعبرية: معسيه بريشيت)، وفي طبيعة العرش الإلهي (أو المركبة) (بالعبرية: معسية مركافاه) وقد ساهمت كتاباتهم في وضع أسس أدب الهيخالوت الصوفي، أو الحجرات السماوية، الذي ازدهر في بابل بيزنطة في القرنين السابع والثامن، والذي يصوِّر سبعة قصور أو عوالم سماوية تسكنها الملائكة التي تسبِّح بحمد الإله. ويوجد عرش الإله، حسبما جاء في قصص هذا الأدب، في العالم السابع، أي في السماء السابعة. وقد اعتقد أتباع هذه المدرسة أنه من خلال التدريبات الروحية الصارمة، ومن خلال الصوم وإرهاق الجسد، يمكن الوصول إلى الشطحات الصوفية التي تمكِّن الواصلين (أو مشاهدي المركبة) من أن يشعروا بروحهم وهي تصعد من خلال هذه السماوات حتى تصل إلى النقطة التي يطالعون فيها، وبشكل مباشر، التجلي أو الحضور الإلهي والعرش الإلهي. وبإمكان الأرواح التي تصل إلى هذه المنزلة أن تكشف أسرار الخلق وطرق الملائكة وموعد وصول الماشيَّح. وينتمي كتاب سفر يتسيرا (كتاب الخلق) إلى هذه الفترة نفسها والتي تمتد بين القرنين الثالث والسادس، وهو يصف بنية الكون من خلال التجليات النورانية العشرة، أو قدرات الرب الكامنة العشرة أو القنوات العشر (سفيروت)، وحروف الأبجدية وقيمتها العددية وقوتها الخالقة.

وقد انتقلت تقاليد أدب الهيخالوت إلى جنوب إيطاليا، ومنها إلى ألمانيا، حيث ظهر ضرب جديد من التقوى الصوفية وصل إلى قمته في القرن الثاني عشر بُسمَّى «أتقياء ألمانيا». وقد نادى هؤلاء بضرورة الاكتراث بالعواطف والرغبات الدنيوية. ومن أهم أعلام هذا الاتجاه يهودا هيحَاسيد (تُوفي عام ١٢١٧) مؤلف كتاب **سفر حسيديم** أي كتاب الأتقياء. وقد فرَّق أتباع هذا الاتجاه الصوفي بين الإله الخفي المتسامي الذي يتجاوز الإدراك البشري من جهة، وملاك المخلوق أو جلال الإله (كافود) الذي هو تجلٍّ للألوهية من جهة أخرى. ويتكون هذا الاتجاه الصوفي من خليط من عقائد سفر يتسيرا، وأفكار صوفية المركبة، وأفكار أرسطية مشوهة، وعقائد سحرية. وقد كان للحركات الصوفية المسيحية في أوربا أثرها في أتباع هذا المنهج الذين لجأوا أيضاً إلى التأمل في الحروف العبرية وقيمها العددية، وهي طريقة في التأمل أصبحت منذ ذلك الوقت أحد ثوابت التراث القبَّالي.

وعلى أية حال، فإن القبَّالاه، بمعناها الحالي، ظهرت في فرنسا، وكان من أهم العارفين بالقبَّالاه أبراهام بن داود وابنه إسحق الأعمى اللذان بدآ يتداولان كتاب الباهير (الذي ظهر أول ما ظهر في بروفانس؛ فرنسا) في القرن الثاني عشر. وانتقل مركز القبَّالاه بعد ذلك إلى إسبانيا حيث نشأت حلقات متصوفة تحاول أن تتواصل مع الإله من خلال التأمل في التجليات النورانية العشرة (سفيروت). كما كان هؤلاء المتصوفون يهدفون إلى تجديد تقاليد النبوَّة، وإلى الكشف الإلهي من خلال الشطحات الصوفية، ومن خلال التأمل في حروف الكتاب المقدَّس وقيمها العددية وأسماء الإله المقدَّسة. ومن أهم القبَّاليين أبراهام بن شموئيل أبو العافية (١٢٤٠ ـ ١٢٩١). وقد وصلت الحركة القبَّالية إلى قمتها بظهور الزوهار الذي وضعه موسى دي ليون المتوفى عام ١٣٠٥، والذي تستند إليه الأنساق القبَّالية التي ظهرت بعد ذلك. وكانت مدينة جيرونا في قطالونيا من أهم مراكز القبَّالاه في إسبانيا. وقد قام القبَّاليون بإنشاء مركز لهم في مدينة صفد في فلسطين عام ١٤٢١.

وكان شيوع القبَّالاه في هذه المرحلة تعبيراً عن رفض التراث التلمودي الذي وضعه الحاخامات وعلماء الدين الذين ارتبطوا بالطبقات الثرية وبيهود البلاط في إسبانيا. وقد شجع أعضاء هذه الفئات الفلسفة العقلانية واتبعوا في حياتهم العامة والخاصة سلوكاً

يتفق مع هذه الفلسفة ، ولا ينم عن كبير احترام لبعض العقائد اليهودية (من وجهة نظر العوام على الأقل) . وقد ساهمت القبَّالاه في عزل أعضاء الجماعات اليهودية عن هذا التراث الفلسفي العقلاني الذي أشاعه موسى بن ميمون وغيره من الفلاسفة المتأثرين بكتابات الفلاسفة المسلمين العرب . وقد كانت كتب الفلسفة تُسمَّى «الكتب الشيطانية» . وبعد ذلك ، انتشرت التقاليد القبَّالية بعد أن أخذت شكلها المحدد في الزوهار ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر في إسبانيا ثم في كل إيطاليا وبولندا . وتُسمَّى القبَّالاه التابعة من الزوهار قبَّالاة الزوهار (ويسميها جيرشوم شولم «القبَّالاه النبوية») . وازداد الاهتمام بالقبَّالاه بعد طرد يهود إسبانيا وتصاعُد الحميَّ المشيحانية ، وخصوصاً بما اشتملت عليه القبَّالاه من عقيدة خلاص جماعة يسرائيل . وقد وُجد واحد من أهم مراكز القبَّالاه في صفد ، وكان يضم مجموعة من اليهود السفارد الذين طُردوا من إسبانيا ، ومن هنا كان عمق إحساسهم بالكارثة التي حاقت باليهود وبعجزهم الكامل وعزلتهم عن أية مشاركة حقيقية في العمليات التاريخية .

ومن أهم أعضاء هذه المجموعة إسحق لوريا الذي طوَّر المفاهيم القبَّالية فيما سُمِّي «القبَّالاه اللوريانية» ، مقابل القبَّالاه التي سبقتها ، أي القبَّالاه النبوية أو قبَّالاة الزوهار . ولعل أهم إسهامات لوريا مفهومه الخاص عن الشرارات الإلهية المتناثرة والمتبعثرة (نيتسوتسوت) ومن ضمنها مشاركة الإنسان اليهودي الحَرْفية مع الإله (وليس المجازية) في عملية الخلاص الكونية ، وعودة جماعة يسرائيل وانتصارها كخطوة أساسية في هذه العملية . وقد ربطت هذه المفاهيم بين النزعة المشيحانية والنزعة الصوفية رغم تناقضهما الظاهري . فإذا كانت النزعة الصوفية الباطنية الحلولية تلجأ إلى التأمل والزهد لاكتشاف الأسرار الإلهية (وبالتالي ، فإن توجُّهها المبدئي داخلي بهدف السيطرة الإمبريالية الفردية على الكون) ، فإن النزعة المشيحانية تنعكس في التاريخ مباشرةً ، أي في العالم الخارجي ، بهدف السيطرة الإمبريالية القومية أو الجماعية على الكون . ولكن لوريا ربط التدريبات الصوفية (الفردية الباطنية الداخلية التي يقوم بها اليهودي بمفرده) بعملية استرجاع الشرارات الإلهية وعملية خلاص الإنسان وخلاص الكون التي يقوم بها اليهود كشعب ، ثم ربط كل هذا بعملية الاسترجاع المشيحاني والقومي لجماعة يسرائيل . فكأن لوريا جعل الطبقة الحلولية تعبِّر مرة أخرى عن نفسها على المستوى القومي بدلاً من المستوى الفردي . ومن هنا ، كان التفجر الكامن في الصيغة الصوفية المشيحانية لما يُسمَّى «القبَّالاه اللوريانية» (التي يسميها جيرشوم شوليم «القبَّالاه المشيحانية») ، وهو ما ساعد على ظهور الحركات المشيحانية المتتالية ابتداءً من شبتاي تسفي ، والتي لا يمكن فهمها أو فهم أنساقها الرمزية إلا في إطار القبَّالاه اللوريانية التي سيطرت على اليهود ابتداءً من القرن السادس عشر .

وكان تأثير القبَّالاه على التشريع (هالاخاه) ضئيلاً ، ولكن تأثيرها على الأجاداه كان قوياً حتى أنهما امتزجتا وأصبح من المستحيل تمييز الواحدة عن الأخرى الأمر الذي أدَّى إلى تأثير القبَّالاه تأثيراً عميقاً في الوجدان اليهودي . ويظهر أثر القبَّالاه في الصلوات والأدعية والتسابيح والابتهالات وشعائر السبت والأعياد والعادات والأخلاق ، وفي الأفكار الخاصة بالملائكة والشياطين والماشيَح والأفكار الأخروية بشكل عام ودور الشعب اليهودي في المنفى ، أي أن تأثير القبَّالاه في الحياة اليومية يفوق في عمقه تأثيرها في الأمور ذات الطابع التشريعي والفقهي ، وهي الرقعة التي تركوها لعلماء التلمود الذين كانوا يُصدرون فتاواهم الجافة المجردة التي لا حياة فيها لانفصالها عن الواقع .

وقد تولَّد توتر بطبيعة الحال بين القبَّاليين (المدافعين عن التفسيرات الباطنية) والفقهاء الشرعيين (المدافعين عن الشريعة) إذ كان العالمون بأسرار القبَّالاه يعتبرون أنفسهم أعلى منزلة ، بل كانوا يسخرون من الحاخامات ، فكانوا يقرأون الكلمة العبرية «حمور» ، أي «حمار» ، باعتبارها اختصاراً لعبارة «حاخام موفلاً في راف رابان» ، أي «فقيه عظيم وحاخام الحاخامات» . كما كانوا يطلقون على فقيه الشريعة مصطلح «الحمار المشناوي» ، نسبة إلى المشناه ، بل أشاروا إلى المشناه نفسها باعتبارها «مقبرة موسى» . وكانوا يقتبسون عبارات سلبية (قدحية) من العهد القديم للسخرية بها من الدراسات التلمودية فكانوا يشيرون مثلاً بعبارة "فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم" (خروج ١/ ١١) ، إلى العلماء التلموديين (وهذا هو رأي إسبينوزا أيضاً في العقيدة اليهودية ، فقد وصفها بأن الإله أرسلها عقوبة لليهود وثقلاً ينوءون بحمله) . وكان بعض القبَّاليين يُصدرون فتاوى استناداً إلى الزوهار ، ويعيدون تفسير الشريعة من منظور قبَّالي . وقد جُمعت بعض هذه الأحكام في كُتب . وكان بعضهم يعتبر أقوال لوريا أهم من الشولحان عاروخ .

وقد سيطرت القبَّالاه ، في نهاية الأمر ، حتى على مؤسسة اليهودية الحاخامية نفسها ، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من اليهودية الكلاسيكية أو اليهودية المعيارية أو التلمودية ، ويحدد جيرشوم شولم الفترة بين عامي ١٦٣٠ و١٦٤٠ على أنها الفترة التي أحكمت

فيها القبَّالاه اللوريانية سيطرتها شبه الكاملة على الفكر الديني اليهودي . حتى أن الحاخام جويل سيركيس (١٥٦١ ـ ١٦٤٠) ، وهو من أهم علماء التلمود ، قال إن من يعترض على العلم القبَّالي يُطرَد من حظيرة الدين . كما أن الشولحان عاروخ نفسه ، أهم كتب المؤسسة الحاخامية الأرثوذكسية ، يجعل الإيمان بالقبَّالاه فرضاً دينياً . وقد أصبحت القبَّالاه من اللاهوت اليهودي نفسه ، ولم يَعُد بمقدور أي يهودي مهاجمتها . وحينما حاول موردخاي كوركوس عام ١٦٧٢ أن ينشر كتاباً في البندقية يهاجم فيه القبَّالاه ، منعه الحاخامات من ذلك .

ورغم فشل حركة شبتاي تسفي المشيحانية ، واعتناقه الإسلام، فإنه سيطر على تابعيه ، وفُسِّر تحوُّله عن اليهودية بأنه نزول المخلِّص إلى عالم الذنوب والنجاسة ليخلِّص الشرارات الإلهية . وقد أدَّى هذا الموقف إلى ظهور النزعة المتطرفة المعادية للتشريعات (والتي يمكن أن نسميها «الترخيصية») والتي تحاول إسقاط الشريعة وتبطل فعالية القانون الإلهي . وقد استمرت هذه النزعة داخل الحركة الفرانكية وبين الدونمه ، وأخيراً في الحركة الحسيدية .

ومع حلول القرن التاسع عشر ، ظهرت الحركة الحسيدية التي اكتسحت يهود شرق أوربا (وهي تَصدُر عن الإيمان بعقائد القبَّالاه على وجه العموم والقبَّالاه اللوريانية على وجه الخصوص) ، وأكدت مفهوم التوحد مع الإله والالتصاق به (ديفيقوت) . ولكن الحسيدية ، شأنها شأن كثير من الحركات الصوفية ، تحولت بالتدريج إلى بيروقراطية دينية ، وتحوَّل التساديك إلى وسيط ، وظهرت أُسَر الحسيديين الحاكمة التي توارث أعضاؤها القداسة . ولكن العامل الأساسي الذي قضى على القبَّالاه وعلى التصوف الحلولي اليهودي هو ظهور العالم الحديث وحركة التنوير .

والصهيونية وريثة التراث القبَّالي في بنيتها ، فكما أن الحسيدية كانت هي الأخرى حركة مشيحانية كامنة ساكنة بدون ماشيَّح ، فإن الصهيونية تحولت إلى مشيحانية نشيطة (بدون ماشيَّح أيضاً) إذ يؤكد الصهاينة عملية خلاص الشعب اليهودي الذي يأخذ شكل عودة إلى صهيون دون انتظار الماشيَّح (أي شكل التعجيل بالنهاية) . والصهيونية ، في نهاية الأمر ، هي التعبير عن الطبقة الحلولية داخل التركيب الجيولوجي التراكمي اليهودي ، وهي طبقة عبَّرت عن نفسها في بداية الأمر من خلال رؤية حلولية تبشر بالخلاص القومي وترابط الثالوث الحلولي (الإله والشعب والأرض) ثم توارت قليلاً نتيجة القضاء على السلطة المركزية اليهودية فعبَّرت عن نفسها بشكل فردي من خلال القبَّالاه (التأملية والعملية) وهي تعود إلى سابق عهدها في العصر الحديث ، حيث يصبح الخلاص مرة أخرى خلاصاً قومياً ويصبح التأمل الأيديولوجيا الصهيونية التي تستعيد تداخل النسبي والمطلق ، وتؤكد ارتباط الشعب بالأرض نتيجة الحلول الإلهي أو سريان روحه المقدَّسة . والقبَّالاة العملية هي الاستيلاء على الأرض ونقل اليهود إلى فلسطين (ونقل العرب منها) ونصب الدولة الهيكل الذي يتعبد فيه الصهاينة ويهود العالم ويقدمون له القرابين (فهي استعادة للعبادة القربانية المركزية) .

وعلى كلٍّ ، فالنمط الصهيوني ليس مختلفاً عن الأنماط القومية العلمانية التي انتشرت في أوربا ابتداءً من عصر الملكيات المطلقة حين حوَّل الملك نفسه إلى مطلق ، ثم حوَّلت الدولة نفسها إلى مطلق واحد أحد يدين له الجميع بالولاء ، فهي محط الحلول الإلهي أو هي التعبير عن الحلولية بدون إله . وهدف هذه الدولة هو التحكم الإمبريالي في كل مواطني الدولة وشعوب الأرض عن طريق عمليات ترشيدهم (في إطار مادي) من خلال المؤسسات التربوية والأمنية وقطاع اللذة والعلم والتكنولوجيا وأخيراً القوة العسكرية .

وقد كان الحاخام الصهيوني (القلعي) من المهتمين بالحسابات القبَّالية . كما تأثر كثير من المفكرين الصهاينة بالفكر القبَّالي ، ومن أهمهم الحاخام أبراهام كوك الذي توصَّل إلى صيغة صهيونية ليست قومية دينية وحسب ، وإنما صيغة صهيونية قومية عضوية حلولية لا تقنع فقط بالرؤية التقليدية التي ترى أن الإله قد يجعل اليهود محط عنايته الخاصة بل تؤكد كذلك أن الإله يحل فيهم كجماعة حتى يشكِّل هو والشعب والأرض ثالوثاً حلولياً صهيونياً . وقد تأثر مارتن بوبر كذلك بالأساطير القبَّالية من خلال اهتمامه بالحسيدية . كما يُلاحَظ أثر القبَّالاه في فكر جماعة جوش إيمونيم . ويُعَدُّ الحاخام تسفي كوك ، حفيد أبراهام كوك ، من أهم مفكريها . وفي مقابلة بين كاتب إسرائيلي من رافضي الاستيطان في الضفة الغربية وأحد أعضاء جوش إيمونيم ، قال الأخير : «انطلاقاً من تراث القبَّالاه ، العالم مقسَّم إلى خمسة أقسام : الجماد والنبات والحيوان والناطق واليهودي . والتناقض الأساسي كامن بين الناطق واليهودي» .

وآخر كُتب القبَّالاه في العالم الغربي وضعه بالألمانية هيرتس أبراهام شيير ، ونُشر عام ١٨٧٥ . ولكن ، ظهرت كتب قبَّالية مختلفة في شرق أوربا والشرق الأوسط حتى الحرب العالمية الثانية . ولا تزال كتب القبَّالاه تُكتَب وتُطبَع وتُنشَر في إسرائيل . ويبدو أن القبَّالاه ، بصورها المجازية ورموزها الجنسية ، تركت أثراً في فرويد، وفي كثير من الأدباء اليهود مثل كافكا كما أن أساليب القراءات

الباطنية التي تفصل الدال عن المدلول المباشر تركت أثرها في أتباع المدرسة التفكيكية .

ومما يجدر ذكره أن هناك قبَّالاه مسيحية ظهرت منذ القرن السابع عشر ، أي بعد الإصلاح الديني ، وحاولت أن تستخدم المنهج القبَّالي في تفسير الكتب الدينية وتفرض عليها معنىً مسيحياً بحيث يصبح آدم قادمون هو المسيح على سبيل المثال . وقد كان كثير من القبَّاليين المسيحيين من اليهود المتنصرين . وقد تركت القبَّالاه المسيحية أثراً عميقاً في التصوف المسيحي في الغرب ، كما استخدم بعض الشعراء الرومانسيين رموزها ، مثل الشاعر الإنجليزي وليم بليك . ولا شك في أن انتشار القبَّالاه المسيحية ساهم في تهويد المسيحية وفي بعث الجوانب الغنوصية فيها .

أسباب شعبية القبَّالاه وهيمنتها على الوجدان الديني اليهودي ثم اختفائها

Reasons for the Popularity of the Kabbalah, its Domination over the Jewish Religious Imagination, and its Eventual Disappearance

يمكن القول بأن القبَّالاه وتراثها وطريقتها في تفسير النصوص اليهودية المقدَّسة ، وإيمانها بالحل السحري وبالخلاص القومي ، أخذت تسيطر بالتدريج على الوجدان الديني اليهودي ابتداءً من القرن الرابع عشر ، وهيمنت عليه تماماً مع نهاية القرن الثامن عشر ، وذلك للأسباب التالية :

١ ـ كانت اليهودية ، في الجزء الأول من تاريخها ، ديانة تؤمن ، رغم الطبقة الحلولية التي تراكمت داخلها ، بشكل من أشكال التوحيد ، في وسط وثني مشرك : آشوري أو مصري قديم أو يوناني أو روماني . وقد حاولت اليهودية آنذاك أن تُوسِّع الهوة بينها وبين أصحاب الديانات الوثنية الأولى بقدر المستطاع . ولذا ، فإننا نجدها ترفض تماماً الفكر الأسطوري وقصص الخلق المستفيضة الموجودة في ديانات الشرق الأدنى القديم ، وذلك رغم تأثرها بهذه الديانات في كثير من الوجوه ، ورغم أن النسق الديني اليهودي (كتركيب جيولوجي) قد احتفظ بكثير من التراكمات الوثنية . ولكن ، ومع ظهور الديانتين التوحيديتين الأخريين (الإسلام والمسيحية) ، وسيطرتهما على المحيط الحضاري الذي كانت تتحرك فيه اليهودية ، وجدت اليهودية نفسها دون وظيفة خاصة أو هوية مستقلة . ورغم هذا ، وربما بسببه ، استمر الحاخامات في توسيع الهوة بين اليهود وأصحاب الديانات التوحيدية الأخرى ، فتبنوا الأسطورة كوسيلة لاكتشاف الواقع وبدأوا من خلال التلمود ، ثم من خلال التراث القبَّالي ، في نسج الأساطير . وتُعتبَر القبَّالاه ، من هذا المنظور ، استجابة اليهود لتغلغل الفكر العقلي والتوحيدي ، وتعبيرهم عن محاولات الحفاظ على التماسك وعدم التفكك في وجه التحدي الذي أفقدها تميزها ووظيفتها . وقد أنجزت القبَّالاه ذلك عن طريق التخلي (إلى حد كبير) عن كثير من العقائد اليهودية الحاخامية ، ومن خلال تأكيد بعض الأفكار التي كانت تشغل مكانة هامشية في النسق الديني اليهودي ، وعن طريق الأساطير التي نسجها القبَّاليون من خلال منهج تفسيري تأويلي فريد .

٢ ـ لم تكن هناك مؤسسات دينية يهودية شاملة تضم كل يهود العالم ، كما لم يكن هناك جهاز تنفيذي يضمن شيوع أفكار هذه المؤسسات ويقضي على النزعات الحلولية الوثنية الشعبية ويكبح جماح الهرطقة . وهذا ما سمح للقبَّالاه ، بكل ما تشتمل عليه من هرطقات غنوصية ، أن تنمو بهذا الشكل المتضخم .

٣ ـ كما أن تركيب اليهودية الجيولوجي جعل من اليسير على أي مفكر ديني ، مهما كانت درجة تطرفه ، أن يجد سنداً وسوابق لآرائه . وقد فتحت فكرة الشريعة الشفوية باب التفسير والتأويل على مصراعيه بحيث أصبح في مقدور كل يهودي أن يفرض رؤيته

٤ ـ ومما لاشك فيه أن اضطلاع أعضاء الجماعات بدور الجماعات الوظيفية عمَّق الاتجاهات الصوفية . فالجماعات الوظيفية تعيش خارج العملية الإنتاجية في المجتمع ولكنها ، لأنها ليست منه ، تنمت لديها عقلية مجردة لا علاقة لها بما هو متعيِّن . كما أن اضطلاع اليهود بدور التاجر ساعد في تعميق هذه الاتجاهات . والتجارة الدولية تُحطم فكرة الحدود وتُشجِّع النزعات الصوفية (والواقع أن العلاقة بين التجارة والصوفية أمر يحتاج إلى مزيد من الدراسة) . وتستند رؤية الجماعة الوظيفية إلى العالم إلى مركب حلولي ، فتجعل من ذاتها مركز القداسة ومصدر المطلقية (مقابل مجتمع الأغلبية المباحة النسبية) . وقد لعبت عقيدة الماشيَّح (الذي سيأتي في نهاية الأيام ليحرر اليهود ويعود بهم إلى صهيون) دوراً في تعميق هذا الاتجاه ، فهي عقيدة تفصل اليهودي عن الزمان والمكان وتجعله ينتظر آخر الأيام بحيث يركز عيونه على البدايات والنهايات متجاهلاً التاريخ وتركيبيته . ولذا ، يمكن القول بأن ثمة علاقة ما بين تحول الجماعات اليهودية التدريجي إلى جماعات وظيفية وذيوع القبَّالاه التدريجي بينها .

٥ ـ والقبَّالاه هي أيضاً رد فعل أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الغربي إزاء تدهور وضعهم وفقدانهم دورهم كجماعات وظيفية . فكلما ازدادوا بُعْداً عن مركز السلطة وصنع القرار ، وكلما ازدادوا

هامشية وطفيلية ازدادوا التصاقاً بالقبَّالاه التي كانت تعطيهم دوراً مركزياً في الدراما الكونية ، وتجعل الذات الإلهية مرتبطة بهم ومعتمدة عليهم . والقبَّالاه ، بذلك ، هي تعبير عن حالة مرضية ، ولكنها في الوقت نفسه استجابة لهذه الحالة أخذت شكل الانسحاب من العالم إلى داخل القوقعة . ولذا ، فبينما كان بعض الفلاسفة اليهود يؤكدون العناصر المشتركة بين اليهودية والديانات التوحيدية الأخرى (وعلى سبيل المثال ، حاول ابن موسى بن ميمون ، في مصر ، أن يُطهِّر اليهودية من كثير من العناصر الغريبة فيها بإدخال عناصر إسلامية على العبادة اليهودية ، مثل السجود) ، كان القبَّاليون يحاولون أن يبينوا الاختلافات العميقة بين الدور الذي يلعبه اليهود في عملية الخلاص ودور أصحاب الديانات الأخرى . وهكذا ، بررت القبَّالاه لليهود ذلك العذاب ، الذي كانوا يتصورون أنه يحيق بهم في كل مكان ، باعتباره أمراً منطقياً ينجم عن مركزيتهم .

٦ـ كان طَرْد اليهود السفارد من إسبانيا كارثةً عظمى رجت اليهودية رجاً ، وبينت مدى هشاشة موقف أعضاء الجماعات اليهودية . وقد انتشر اليهود السفارد ونشروا معهم تعاليم القبَّالاه في مختلف أنحاء العالم ، وبدأت الأيدي تتداول المخطوطات التي كانت مقصورة على العالمين بأسرار القبَّالاه ، وخصوصاً أن كتب القبَّالاه تشبه من بعض الوجوه الكتب الإباحية ، الأمر الذي زاد شعبيتها .

٧ـ انتقل مركز اليهودية ، بعد طرد اليهود من إسبانيا ، إلى العالم المسيحي . ومع القرن السادس عشر ، استقر أغلبية اليهود فيه . كما أن السفارد أنفسهم كانوا يعيشون ، قبل طردهم ، في بيئة كاثوليكية ثرية وتشربوا كثيراً من أفكارها . وثمة نظرية تذهب إلى أن اليهودية التي انتشرت في شبه جزيرة أيبريا كانت ذات طابع شعبي صوفي حلولي لا يُفرِّق بين الأنساق الدينية المختلفة كما هي عادة الديانات الشعبية . وقد أدَّى هذا إلى تسرُّب أفكار مسيحية كثيرة إلى الفكر الديني اليهودي . ولعل أخطر ما يمكن أن يحدث لنسق ديني هو أن يتبنى أفكار دين آخر وصُوره المجازية ، فهذه الأفكار مرتبطة بأفكار أخرى ، ولها دلالات مختلفة داخل نسقها ، ولكنها حينما تُنقَل تصبح مثل الخلية السرطانية . وهذا ما حدث لليهودية ، إذ تأثر الفكر القبَّالي بفكرة التثليث المسيحية وتحولت إلى فكرة التعشير ، إن صح التعبير ، أي أن يتحول الإله إلى عشرة أجزاء في واحد وواحد في عشرة ، وهي التجليات النورانية العشرة (سفيروت) . كما أن الفكر الديني اليهودي بدأ يتأثر بالمسيحية الشعبية بكل ما تحمل من أساطير واتجاهات غنوصية (وقد لاحظ أتباع إبراهيم أبو العافية التشابه الشديد بين فكرة القبَّالي والمسيحية ، فتنصروا) .

٨ـ تزامن انتشار القبَّالاه مع ظهور المطبعة العبرية في القرن السادس عشر ، فطُبعت من الزوهار طبعتان كاملتان بين عامي ١٥٥٨ و١٥٦٠ ، في كريمونا ومانتوا في إيطاليا ، ثم تبعتهما طبعات أخرى في أزمير وسالونيكا وألمانيا وبولندا . وقد أدَّى كل ذلك إلى انتشار القبَّالاه على نطاق واسع يفوق انتشار التلمود . ومع حلول القرن السادس عشر ، احتلت كتب القبَّالاه مكان الصدارة بين كل الكتب الدينية .

كل هذه الأسباب المتصلة بأعضاء الجماعات اليهودية (وخصوصاً في الغرب) ساعدت على انتشار الرؤية الحلولية القبَّالية بينهم وهيمنتها عليهم . والرؤية الحلولية القبَّالية هي في جوهرها وحدة وجود روحية كاملة تحمل استعداداً للتحول لوحدة وجود مادية . وهذا ما حدث مع تَزايُد نزعات العلمنة في المجتمع الغربي وما واكب ذلك من انتشار الفكر الحلولي وتحوُّله إلى وحدة وجود مادية ، وهو الأمر الذي أنجزه إسبينوزا في إطار الفلسفة الغربية . وقد حدث شيء مماثل داخل الفكر الديني اليهودي إذ بدأت وحدة الوجود الروحية تتحول إلى وحدة وجود مادية (من خلال مرحلة شحوب الإله والفكر الربوبي ثم مرحلة موت الإله) . وقد دخلت القبَّالاه مرحلة وحدة الوجود الروحية الكاملة في حركات مشيحانية مثل الشبتانية والفرانكية التي تحولت تدريجياً إلى وحدة وجود مادية وبالتالي اختفت الديباجات الروحية ومعها الأساطير والصور المجازية القبَّالية وحلت محلها الأساطير والصور المجازية العلمانية فبدلاً من الصور المجازية الجنسية ظهر فرويد حيث تحل الإيد Id محل اليسود ، وظهرت النزعة الطبيعية المادية حيث تحل قوانين الحركة وقوانين العود الأبدي محل الدورات الكونية ، وظهرت الصهيونية حيث يحل الاستيطان في الأرض محل الالتصاق بالإله (ديفيقوت)، وظهرت ما بعد الحداثة حيث يحل الاخترجلاف محل تبعثر الشرارات وانفصال الدال عن المدلول محل الجماتريا .

الموضوعات الأساسية الكامنة في القبَّالاه وبنية الأفكار

Major Themes of the Kabbalah and Structure of Ideas

تطورت القبَّالاه وتراثها ، عبر مراحل تاريخية عديدة ، من قبَّالاة الزوهار إلى القبَّالاه اللوريانية ، وانقسمت إلى أشكال مختلفة من قبَّالاه نظرية أو تأملية إلى قبَّالاه عملية . وحفلت هذه الاتجاهات والحركات على اختلافها بمفكرين عديدين ، لكلٍّ إسهاماته وتفسيراته . وهذا الأمر ليس غريباً على حركة ذات طابع حلولي غنوصي إذ تلفح المفسر لفحة من الحلول الإلهي فيصبح مقدساً

وتكتسب تفسيراته قدراً من القداسة . ومع ذلك ، تظل هناك موضوعات أساسية وبنية عامة كامنة (نموذج كامن) تعبِّر عن نفسها من خلال الكتابات القبَّالية . والواقع أن وجود مثل هذه الموضوعات وتلك البنية هو ما يبرر لنا استخدام كلمة «قبَّالاه» للإشارة إلى هذه الكتابات كلها .

وتوجد في القبَّالاه رؤية فيضية للخلق ، ورؤية للشر وللإنسان ، ولعلاقة الإله بالإنسان ، وللشعب اليهودي ووضعه في العالم . كما أن التراث القبَّالي يستخدم مجموعة من الصور المجازية ذات دلالات فلسفية ونفسية وكونية عميقة . وسنحاول في هذا المدخل أن نبين تلك الموضوعات والصور المجازية التي تشكل نسيج البنية العامة . ويمكننا ، منذ البداية ، أن نقول إن القبَّالاه تَصدُر عن رؤية واحدية كونية تستند إلى ركيزة نهائية غير متجاوزة للنسق وإنما كامنة فيه . والبنية العامة للفكر القبَّالي بنية حلولية عضوية دائرية مغلقة حتى أن كل ما يظهر فيها من تعدُّد وتنوُّع أمر ظاهري ، فداخل البنية الحلولية المغلقة تُردُّ كل الظواهر إلى مستوى واحد وتُلغى كل الثنائيات وتصبح كل الأشياء متقابلة ومتساوية بعضها مع البعض الآخر ، ومع المطلق الكامن وراء كل شيء والذي يحل فيه ويتجسد من خلاله . فإذا كانت هذه البنية مكوَّنة من (أ) و(ب) و(جـ) و (د) ، على سبيل المثال ، فإننا سنكتشف أن (أ) هي ، في نهاية الأمر ، (ب) ، وأن (ب) هي مقابل (جـ) ومساوية لها ، تماماً كما أن (جـ) و(د) متصلان ومتقابلان ومتساويان . ومن ثم ، فإننا نكتشف أن (أ) هي (ب) و(ب) هي (جـ) و(جـ) هي (د) ، وهكذا ، رغم كل التغيرات والتحولات . ولكن يُلاحَظ أن العكس يمكن أن يحدث أيضاً ، فبدلاً من اختفاء الثنائيات وتَوحُّدها قد تتصلب وتتحول إلى ثنائية صلبة أي ثنوية . وهنا بدلاً من أن تكتسح دائرة القداسة الجميع نجد أنها تنغلق على نفسها تماماً ويتم تقسيم العالم على أساس قطبين متعارضين : الطاهر المقدَّس مقابل المدنَّس المباح .

ويتبدَّى النسق المغلق في الرؤية القبَّالية لخلق العالم ، فهذا الخلق لم يكن من العدم ، ولم يتم دفعة واحدة كما هو الحال في الديانات التوحيدية ، وإنما عن طريق الفيض الإلهي . وقد ذكر رفائيل باتاي أن رؤية القبَّالاه للإله تطورية ، أي أن الإله وُجد ، أو أوجَد نفسه على مراحل داخل الزمان . وقد تم خَلْق العالم من خلال عملية صيرورة مركبة بحيث يتحول اللاشيء الإلهي إلى الكيان الإلهي ، ويتجه من الداخل إلى الخارج . وتبدأ هذه العملية في جذر الجذور ، أي في «الإين سوف» التي يمكن أن تُترجَم إلى «اللانهائي» (أو «اللامحدود» أو «العلة الأولى» أو «الذي لا نظير له») الذي لا يستطيع العقل الإحاطة به . ولكن «الإين سوف» هو أيضاً «الآيين» (أو «اللاشيء» أو «العدم» أو «الشخفي الإلهي») . ولذا ، فإنه يسمى «الإله الخفي» الذي لا يمكن أن يكون إلهاً بالمعنى المألوف للكلمة ، كما لا يستطيع الإنسان أن يصل إليه . وقد أشارت إليه القبَّالاه بأنه «المطلق» الذي يقطن في أعماق العدم . وقد انبثق الآني (أي الأنا الإلهية) عن الآيين . ويشير القبَّاليون إلى أن الآيين والآني يضمان الحروف الساكنة نفسها وهو ما يشي بأن العدم والإله هما شيء واحد .

وقد تمت عملية التحول هذه على شكل تطوُّر من الهو إلى الأنت إلى الأنا ، على النحو التالي :

الهو : الإله المتخفي المنفصل عن العالمين .

الأنت : الإله الذي يعبِّر عن كيانه والذي يدركه الناس

الأنا : الإله المكتمل المتجلي الذي عبَّر عن كماله المطلق .

وهذه هي المرحلة التي يمكن أن يقول فيها الإله نفسه أنا . والأنا هذه هي الشخيناه ، أي جماعة يسرائيل . وهي المرحلة التي يجد فيها الإله نفسه (وهذه الأفكار لها صداها في فلسفة مارتن بوبر الذي لم يكن يعرف التلمود ، بل درس الفكر الحسيدي فقط وبالتالي الفكر القبَّالي) . وهكذا انبثق الإله من ذاته وظهر الآني من الآيين ، أي من العدم ، وظهرت هذه الخاصية العلوية السماوية التي تشكل بداية الفيض الإلهي ، وكان يُقال لها «الفكر الإلهي» (محشفاه) ، ثم أُطلق عليها فيما بعد اسم «الإرادة الإلهية» ، الأمر الذي يبين تحوُّل القبَّالاه عن العقل والتأمل الفكري إلى الإرادة والرغبة .

عند هذه النقطة ، تبدأ سلسلة الفيض التي تنبثق من الإرادة الإلهية (سفيروت) ، وهي القدرات الإلهية الكامنة التي تتحول إلى القداسة المتجلية ، والتي تأخذ شكل إشعاعات صادرة من النور الذاتي للإله على هيئة تجليات ، وهذه الإشعاعات هي التي أوجدت العالم . ولذا ، فإن السفيروت هي القوى الكامنة والتجليات النورانية نفسها ، وهي أيضاً مراحل التجلي والبذور والصفات الإلهية ودرجات الوجود الإلهي . لكن هذه الأشياء تشكل ، أولاً وأخيراً ، الوساطة بين الكون والإله وتكون بمنزلة حلقة الوصل بينهما ، ولذا فإننا نترجمها بعبارة «التجليات النورانية العشرة» .

وإذا كان الإين سوف يَصعُب إدراكه ، فإن التجليات النورانية العشرة (سفيروت) على خلاف ذلك تماماً ، فهي في مجموعها تشكل الإله الشخصي الذي يمكن إدراكه والذي يتوجه إليه المصلون (ويمكننا أن نرى الواحدية والازدواجية والتعددية) . ولتأكيد الواحدية والتعددية في وقت واحد ، يُشبِّه القبَّاليون السفيروت

الأولى التي يراها الإنسان في قمم ألسنة اللهب ، ويقررون أن عملية الفيض هذه هي الطريقة التي خلق الإله بها ذاته ثم خلق بها العالم .

ودرجات السفيروت ، أو التجليات النورانية العشر ، هي :

١ ـ كيتر (أو كيثر) عليون ، أي التاج الأعلى ، وهو أيضاً الإرادة المقدَّسة أو الرغبة المقدَّسة ، ويشار إليه أحياناً بالتاج وحسب ، ويساوي بعض القبَّاليين بين التاج والإله الخفي (ديوس أسكوندتيوس deus absconditus) فهو الإين سوف وهو أحياناً الآيين .

٢ ـ حوخمه ، أي الحكمة ، أول التجليات المتعيِّنة ، وهي الفكر الإلهي الكوني الذي يسبق الخلق ، والذي لا يقبل التقسيم ، وهي تحتوي على النماذج المُثلى التي وضعها الخالق لكل العوالم ، وهي العلة الذكرية الأولى .

٣ ـ بيناه ، أي الفهم ، وهو عكس الحكمة ، فهو العقل الذي يميز بين الأشياء ، ولذا فهو المرحلة التي يتحقق فيها النموذج الخفي ويأخذ شكلاً محدداً وهي العلة الأنثوية الأولى .

٤ ـ جدولاه ، أي العظمة ، وأحياناً يشار إليها بلفظ «حسيد» ، وهي الحب الفائض للإله أو الرحمة .

٥ ـ جبوراه ، أي القوة أو السلطة ، وغالباً ما يشار إليها بلفظ «دين» ، أي الحكم الصارم ، وهي مصدر الحكم الإلهي والشريعة .

٦ ـ تفئيريت ، أي الجمال أو الجلال ، ويُشار إليه أيضاً بلفظ «رحاميم» أي التعاطف ، وهو الوسيط بين التجلي الرابع والتجلي الخامس ليأتي بالتناسق والرحمة للعالم . ويُقال إن هذا التجلي أهم التجليات ، ربما لتوسُّطه كل التجليات ولدوره في عملية الخلق .

٧ ـ نيتسح ، أي التحمل أو الأزلية (أو النصر) .

٨ ـ هود ، أي الجلالة أو المجد أو العظمة .

٩ ـ يسود عولام ، أي أساس العالم ، ويُشار إليه أحياناً بلفظ «يسود» وحسب ، أي الأساس ، وكذلك على «التساديك» ، أي الصديق ، أو الرجل التقي ، وهو الذي ترتكز عليه كل التجليات السابقة .

١٠ ـ ملكوت ، أي المملكة ، أو عتاراه أي الجوهرة .

وتفترض فكرة الفيض ثلاثة مفاهيم متناقضة : الواحدية والتعددية (أو الثنوية) والتقابلية . فالفيض يتم على مراحل تنتهي بجماعة يسرائيل ثم العالم . ولكل مرحلة من مراحل الفيض استقلالها وحيويتها ووظيفتها . ولكن فكرة الفيض تفترض أيضاً العكس ، أي وجود وحدة تنتظم كل المخلوقات ، وضمنها الإنسان ، بل تنتظم الإله نفسه ، بحيث يصبح الإله ومخلوقاته (أي الإله من جهة والإنسان والطبيعة من جهة أخرى) عناصر في وحدة متكاملة لها المصير نفسه ولا يفصلها فاصل . بل إن كل مراحل الفيض ، رغم اختلافها ، تصبح على مستوى من المستويات الشيء نفسه ، وتحمل الصفات نفسها . ويرى القبَّاليون كذلك أن ثمة اتجاهاً متوازياً ، متقابلاً بين الإله وكل مخلوقاته ، وأن السماء تشبه الأرض ، والإله يشبه الإنسان ، والتاريخ يشبه الطبيعة . وتقول إحدى أفكار التراث القبَّالي الأساسية : «كما في السماء كذلك في الأرض ، كما في الداخل كذلك في الخارج» . ومعنى ذلك أن أجزاء البنية متوازية ومتساوية متعادلة ، فهي إذن بنية مغلقة لا ثغرات فيها .

وتظهر التقابلية في جميع الرموز المتواترة في التراث القبَّالي ، والذي يصوِّر الإله وعملية الخلق والتجليات العشرة على هيئة شجرة ، وعلى هيئة إنسان .

ويُشار إلى التجليات العشرة باعتبارها «آدم قدمون» ، أي «الإنسان الأصلي» و«الإنسان الأزلي» الذي يُتوِّجه التاج ، ويوجد الملكوت عند قدميه ، وتشكل أعضاء جسمه التجليات العشرة . كما تشكل التجليات الثلاثة الأولى رأسه ، والرابع والخامس ذراعاه ، والسادس صدره ، والسابع والثامن ساقاه ، والتاسع عضوه الجنسي (عادةً المذكر) ، والعاشر إما يشير إلى الصورة كلها أو يشير إلى الأنثى التي تصاحب الذكر أو يشير إلى عضو التأنيث . كما كان يُصوَّر الآدم قدمون وإلى يساره كل الصفات السلبية ، مثل الصرامة والاحتمال ، وإلى يمينه الصفات الإيجابية . والإنسان ، من هذا المنظور ، صورة مصغرة (ميكروكوزم) للعالم الأكبر (ماكروكوزم) ، يكمن فيه كل من العالم السفلي المادي والعالم السامي الروحي وهو كذلك صورة مصغرة للإله . وتتكون الروح من ثلاث درجات يُطلق عليها ما يلي :

١ ـ «نيفيش» ، أي «الحيوية» ، وهي مصدر القوة الحيوانية والحيوية ، وتقابل الحياة المادية .

٢ ـ «رُوَّح» ، أي «الروح» ، وهي مصدر السمات الأخلاقية .

٣ ـ «نيشماه» ، أي «النفس» ، أعلى الدرجات الثلاث ، وهي تلك الدرجة التي تجعل الإنسان قادراً على دراسة التوراة وإدراك كنه الإله . ويرى القبَّاليون أنها شرارة من بيناه (الفهم) ، وأنها غير قادرة على الخطيئة . وهذه الدرجة الروحية لا يصل إليها سوى التساديك (الصديق) .

وقد حاول القبَّاليون إماطة اللثام عن الروح ، وفك القيود التي تربطها ، بحيث يمكنها أن تتصل بالتيار المقدَّس الذي يجري في

الكون كله . ويرى القبَّاليون أن العذاب في الجحيم سيحل بالنيفيش وحسب ، وليس بالنيشماه . ويرى بعض القبَّاليين أن جسم الإنسان ما هو إلا رداء للشرارة الإلهية ، ويرى البعض الآخر أنه جزء من الجانب الآخر ، بينما يرى فريق ثالث أن وظائفه الجنسية هي الطقوس المقدَّسة التي تصوِّر ما يدور في العالم العلوي . ويظهر التقابل في نهاية الأمر في فكرة التماثل بين الإله وروح الإنسان والكون وفي تَداخُل هذه الأشياء ، وهو تَداخُل ينم عن حلولية النسق .

وقد تَعرَّض القبَّاليون لفكرة الشر ، وحاولوا حلها من خلال إطارهم الحلولي الواحدي أو التعددي (الثنوي) ، ثم من خلال فكرة التقابل . وكان القبَّاليون يقتربون من رؤية ثنوية للخير والشر ، فالشر هو «السترا أحرا» (الجانب الآخر) . بل إن بعض القبَّاليين يتحدثون عن تجليات اليسار ، وهي تجليات مضادة ؛ قوى مظلمة دنسة تعادي قوى القداسة والخير ، وتدخل في صراع شديد معها للسيطرة على العالم . ومن هنا كان اهتمام القبَّاليين بالجن سمائيل (الشيطان) وزوجته ليليت في القبَّالاه .

وتوجد شجرتان في التصور القبَّالي : شجرة الحياة المقدَّسة التي هي خير خالص لا يختلط بها أي شر أو دنس أو موت ، وهي الشجرة التي كانت تحكم العالم قبل السقوط . وهناك أيضاً شجرة المعرفة (معرفة الخير والشر ، والطهارة والدنَّس ، والفضيلة والرذيلة) وهي الشجرة التي تحكم هذا العالم ، ولذا فإن الموت مرتبط بها . وترتبط بهاتين الشجرتين رؤية ما يُسمَّى بالتوراتين : توراة الفيض وتوراة الخلق . فهناك توراة واحدة (مكتوبة) لها معنى ظاهري مرتبط بهذا العالم ويشمل الأوامر والنواهي والوصايا والشرائع والتشريعات ، وهذه الأشياء مرتبطة بشجرة المعرفة . أما التوراة الثانية ، فهي توراة نورانية ، توراة العالم الخالي من الدنَّس ، ولذا فهي لا تحوي أي أوامر أو نواه بل تدعو إلى الحرية الكاملة وإلى خَرْق الشرائع ، وهي مرتبطة بشجرة الحياة المقدَّسة ، وهي توراة غير مكتوبة لا تدركها سوى عيون الماشيَّح والواصلون والعارفون بأسرار القبَّالاه . ويُلاحَظ أن الرؤية هنا رؤية ثنوية حادة تشبه من بعض الوجوه كتب الرؤى (أبوكاليبس) .

ولكن القبَّاليين حاولوا أيضاً الاحتفاظ بإطار من الواحدية يُفسِّر الشر باعتباره القشرة الخارجية لشجرة التجليات النورانية والمحارة الخارجية التي تلف أشكال الوجود الدنيوي أو النمو المتطرف للحكم الصارم (دين) حينما ينفصل عن تجلِّي الحب الخالص . فالحكم الصارم داخل الذات الإلهية هو مجرد قوة محايدة ، ولكنه حينما ينفصل عنها يصبح قوة مدمِّرة . وفي إطار الواحدية ، تذهب القبَّالاه إلى أن التجليات المظلمة والقوى الشيطانية نفسها نبعت من الإله ولكنها انفصلت عنه ، وهي بانفصالها أصبحت قوى شريرة ، أي أن الشر هو تحطيم مؤقت وعارض للواحدية الكونية والمطلقة (وهو ، من هذا المنظور ، ليس له وجود حقيقي ، وهو فقط انفصال شجرة الحياة عن شجرة المعرفة) . ومن هذا المنظور ، يصبح الشر مجرد نتيجة جانبية وليس الجانب الآخر للقداسة الإلهية نفسها (مثل النفاية التي تبقى بعد تنقية الذهب أو الثُفْل الذي يبقى بعد عصر الخمرة الجيدة) . ولما كان الشر تفرعاً عن التجليات الإلهية ، فقد كان القبَّاليون يعتقدون أن ثمة شرارة مقدَّسة حتى في الجانب الآخر . ويُلاحَظ أن الرؤيتين الثنوية والواحدية للشر (باعتبار أن الأولى ترى أن الشر له وجود مستقل ومساو للخير ، والثانية لا ترى أي وجود حقيقي له) متصلتان تماماً ومتشابهتان . فكلتاهما تخلع حتمية على الشر ، بل نوعاً من القداسة ! وقد أدَّى هذا في نهاية الأمر إلى شيوع الفكرة القائلة بالوصول إلى الخير عن طريق الرذيلة . في أوساط الشبتائيين والحسيديين . وهذا تعبير عن البنية المغنقة على مستوى الأخلاقي .

وإلى جانب الإطار الثنوي والواحدي ، حاول القبَّاليون حل مشكلة الشر انطلاقاً من صورة التقابل المجازية : فالعالم السفلي يتأثر بالعالم العلوي وبالتجليات المختلفة ، فيأتي السلام والخير بتأثير الحسيد أو سفيروت الرحمة ، والحرب والجوع بتأثير سفيروت (جبوراه) . ولكن العالم العلوي يتأثر بدوره بالعالم السفلي ، فهما متقابلان . وثمة تفسير قبَّالي لقصة الشجرة التي أكل منها آدم وحواء باعتبارها الواقعة التي أدَّت إلى فصل التجليات السفلى (الملكوت) عن التجليات العليا ، وإلى انفصال الإله عن الإنسان . ومن هنا تكون الخطيئة الأولى هي الانفصال الذي أدَّى إلى نفي الشخيناه (التعبير الأنثوي عن الإله) مع جماعة يسرائيل ، أي أن خطيئة الإنسان قد أثَّرت في مصير الإله نفسه تأثيرها في مصير الإنسان . ومن هنا عظَم جُرم الإنسان الذي أدَّى إلى تَفتُّت الإله ، ومن هنا أيضاً تأتي أهمية ممارسة الشعائر الدينية التي تجد صداها في العالم العلوي وتؤثر فيه . ولذا ، يحاول أتقياء اليهود ، من خلال صلواتهم وأفعالهم ، أن يصلحوا الكون وأن يعيدوا الشخيناه من المنفى ، وهذه هي الفكرة التي أصبحت أساسية في القبَّالاه اللوريانية ويُطلَق عليها عملية التيقون (الإصلاح) ، أي إصلاح الانفصال ورأب الصدع الذي حدث بين الإله والإنسان نتيجة خطيئة قطع الشجرة . وهذه الفكرة هي أدق تعبير عن الحلولية القبَّالية . وقد

وردت في الأجـداه فكرة أن الإله يعتمد على الإنسان ، بل إن الإنسان شريك الإله في عملية الخلق (ولهذا ، فبوسعه التحكم في الأشياء الصالحة ، ومن هنا ارتباط القبَّالاه بالسحر) . وفي القبَّالاه ، تصبح مهمة الإنسان استعادة تناسق حياة الإله الداخلية التي تعتمد على إرادة الإنسان (ومرة أخرى ، يبدو كلٌ من الإله والإنسان شريكاً في عملية الخلاص) . والواقع أن هناك تقابلاً بين الإله والإنسان وامتزاجاً كاملاً بينهما في الرؤية القبَّالية .

ولعملية السقوط والانفصال أصداء مختلفة ، فهي سقوط آدم وهي أيضاً سقوط أو هدم الهيكل ، بل هي سقوط الكون كله . لكن جماعة يسرائيل ، كما تقدَّم ، هي جزء من الإله تُوجَد داخله ، فهي التجلي أو السفيروت العاشر الذي هو الشخيناه (التعبير الأنثوي عن الإله) التي يتم نفيها مع الشعب اليهودي ، ولذا ، فإن نفي اليهود خارج أرض الميعاد له دلالات خاصة تفوق حالة النفي الكونية العامة ، فنفيهم يعني تفتُّت الإله وتبعثره بل نفيه . ولهذا ، فإن اليهود لهم مكانة مركزية في عملية الخلاص ، إذ أن عليهم أن يحيوا حياة القداسة ، والتركيز الصوفي وتنفيذ التعاليم الإلهية والتمسك بالشريعة . وبذلك يأتي الخلاص لليهود وللعالم بأسره ، بل للإله نفسه ، إذ أن الشخيناه ، وهي وجه من أوجه الإله ، لن تعود إلا بعودتهم ، ولن يتم اكتمال وحدة الإله إلا بهذه العودة . وبذا ، فإن وجود اليهود ، وكذا أفعالهم ، تُشكل أساساً لاتزان الكون ولعملية الخلاص الإلهية والبشرية . بل إن رحمة الإله لا تفيض إلا بسبب أفعالهم الخيرة ، فتتحول حياة اليهود العادية إلى عملية مقدَّسة يستند إليها خلاص الكون نفسه .

ويظهر التقابل ، بل التطابق الكامل ، بين الإله والإنسان وبين العالمين العلوي والسفلي ، في استخدام القبَّاليين صورة مجازية جنسية عند الحديث عن الإله أو عن عملية الخلق . فالابن ـ وهو رمز ذكري واضح ـ (السفيروت السادس) يفيض بالرحمة الإلهية التي تنزل على التجلي العاشر الذي هو الشخيناه أو التعبير الأنثوي عن الإله ، وهي أيضاً جماعة يسرائيل التي يُشار إليها بتعبير "بنت صهيون" (بت تسيون) . ومن خلال التفاعل بين عناصر الذكورة وعناصر الأنوثة ، تفيض الرحمة على العالمين ، وتتحد الذات الإلهية ، وبذلك يصبح سر وحدة الإله والكون هو نفسه الوحدة الكونية وتُستخدم صورة الزواج المجازية للحديث عن علاقة الإله بالشعب (ونشيد الأنشاد هو نشيد زفاف الشعب إلى الإله !) . والواقع أننا نتحدث عن هذه الأفكار بوصفها صوراً مجازية ، ولكن قد يكون من الأدق الحديث عنها باعتبارها مقولات إدراكية أو حتى وجوداً أنطولوجياً أكثر منها صوراً مجازية بالمعنى المألوف ، إذ إن بعض القبَّاليين كانوا يدركون الإله على هذه الهيئة . والصورة المجازية الجنسية القذفية الفيضية تعبير عن البنية المغلقة .

وقد ورد في إحدى الدراسات أن الصورة المجازية الجنسية تُستخدَم لمعرفة كنه علاقات التجليات ، الواحدة بالأخرى ، وبالتالي فهي لا تَصدُق على علاقة الإنسان بالإله . وبناء على ذلك ، يصل المؤلف إلى أن التصوف اليهودي حسب هذا الرأي يختلف عن التصوف المسيحي الذي يرمي إلى تحقيق الاتحاد بالإله ، في حين تهدف التجربة الصوفية اليهودية إلى التواصل مع الإله والالتصاق به . ولكن ، كما بيَّنا ، تمثل الشخيناه حلقة وصل عضوية بين التجليات المختلفة الإلهية والعالم السفلي ، بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر ، كما أن فكرة التقابل بين الإله والإنسان تجعل الوحدة والحلولية الكاملة أمراً بيِّناً . وعلى كلٍّ ، أثبتت التطورات اللاحقة في الحركات المشيحانية أن الصورة المجازية الجنسية كانت أساسية في تفكير القبَّاليين ، وفي إدراك علاقة الإنسان بالإله .

وإذا كانت الحلولية التلمودية قد أدَّت إلى العزلة والتعالي ، فإن الحلولية القبَّالية المتطرفة أدَّت إلى عزلة وتعال متطرفين ، فزادت عزلة اليهود عن العالمين ، ولم يَعُد الاختلاف بينهم وبين الأغيار مسألة عقيدة وإنما أصبح مسألة أصول ميتافيزيقية مختلفة ، فأرواح اليهود مستمدة من الكيان المقدَّس في حين تَصدُر أرواح الأغيار عن المحارات الشيطانية والجانب الآخر . وأعضاء الشخيناه هم أعضاء الجماعة اليهودية ، أما الأغيار فهم أبناء الشيطان (نتيجة اغتصاب الشيطان الابنة/ الماترونت/ الملكة) . (يُلاحَظ أن الماترونيت هي مؤنث متاترون) . والخيِّرون من الأغيار هم في الواقع أجساد أغيار لها أرواح يهودية ضلت سبيلها . وإذا كان اليهود يعيشون في الظاهر بفضل الأغيار ، فإن العكس في الواقع هو الصحيح ، فاليهود هم وحدهم القادرون على التأثير في قنوات الرحمة التي عن طريقها سيرسل الإله رحمته إلى العالم ، وهم وحدهم الذين يقفون كوسيط بين الإله والعالم ، فأعمالهم الطيبة هي التي تجعل الخير يعم الجميع ، وذنوبهم هي التي تأتي بغضب الإله عليهم . ويوجد في القبَّالاه أيضاً ذلك الإحساس الذي يسري في كثير من صفحات التلمود ، بأن نهاية التاريخ ستشهد عُلو جماعة يسرائيل على العالمين ودمار أعدائهم من الشعوب الأخرى .

وقد وصف الحاخامات الأرثوذكس النزعة القبَّالية بأنها تخلت عن التوحيد اليهودي ، وأحلت محل الإله الواحد عشرة آلهة (التجليات النورانية العشرة) . وهم محقون تماماً في هذا ، فالخلق

عن طريق الفيض يفترض عشرة تجليات يحمل كل منها قداسة إلهية ، كما أن كلاً منها منفصل عن الآخر ، فهي تكاد تكون عدة آلهة أو إله واحد قابل للانقسام إلى أجزاء . ويمكن القول بأن التجسد في المسيحية يحدث مرة واحدة عند نزول المسيح (ابن الإله) ثم صلبه (وهو ما نسميه «الحلول الشخصي المؤقت النهائي») . أما التجسد في حالة القبَّالاه ، فهو حالة حلولية دائمة لا تنتهي وتستمر عبر التاريخ ، كما أن الفكر القبَّالي يفترض الشراكة بين الإنسان والإله وينطوي على ضرب من المساواة والتعادل والتقابل بينهما .

ولكن التنوع والتعدد في السياق القبَّالي هما في واقع الأمر من قبيل الوهم ، فهما مجرد مراحل وحلقات تؤدي إلى الوحدة والواحدية المطلقة النهائية ، وهي وحدة تنكر الثنائية (وليس الثنوية) التي تسم الديانات التوحيدية كافة وتتمثل في ثنائية الجسد والروح ، والدين والدنيا . وأكثر من ذلك ، فإن القبَّالاه تنكر انفصال الإله عن الكون ، وتنتهي إلى وحدة مغلقة لا يتجاوز الإله فيها مخلوقاته . لكن هذه الوحدة المطلقة النهائية تنطوي على إنكار أية دلالة تاريخية وأي وجود إنساني متعيِّن ، ذلك لأن كل الظواهر المادية والروحية والمعنوية تدخل في إطار هندسي جامد وتخضع للقوانين الصوفية أو الميكانيكية أو الرياضية نفسها ، أي أن التفكير القبَّالي تفكير غير جدلي ولا يرى أي تناقض حقيقي بين الأشياء ، فهو يذيب حدودها تماماً ، ويذيب الهويات كافة ، ومنها هوية اليهود كأفراد ، ولا يُبقي سوى هوية (وحقوق) جماعة يسرائيل كمركز للكون والجنس البشري والوجود الإلهي .

ولكل هذا ، فإن التفكير القبَّالي يحوي داخله نقيضين : تعدُّداً من ناحية ، يرى الإله أجزاء وتجليات مختلفة ، ومن ناحية أخرى واحدية متطرفة لا ترى أي وجود للإله خارج مخلوقاته المادية ، وهذه إحدى سمات الأنساق الدينية الحلولية المتطرفة .

الباهير
Bahir

«باهير» كلمة عبرية معناها «الساطع» أو «المشرق» ، وهي اسم كتاب مجهول المؤلف يُعَدُّ أقدم النصوص القبَّالية . وقد كان هذا الكتاب معروفاً في جنوب فرنسا في نهاية القرن الثاني عشر (في منطقة عُرفت بالنزعات الهرطقية) ، وإن كان تاريخ تأليفه لا يزال مجهولاً ، ثم انتقل إلى إسبانيا في القرن الثاني عشر أو في القرن الثالث عشر ، ثم انتقل بعد ذلك إلى إيطاليا . ويحتوي الكتاب على أول محاولة لشرح النظرية القبَّالية الحلولية في الفيض الإلهي ، وفكرة تناسخ الأرواح . كما يحاول الكتاب وضع أسس التفسير الصوفي لحروف الأبجدية العبرية ، كما ترد في الرموز الصوفية القبَّالية في شجرة الحياة مثلاً . وقد وردت فيه كذلك فكرة التجليات النورانية العشرة (سفيروت) التي تجلت من الإله الخفي . ويعتمد كتاب الباهير على كتاب سبقه هو **سفر يتسيرا (كتاب الخلق)** . وبينما يميل كتاب الخلق إلى تبنِّي المنطق الرياضي في حساب التجليات العشرة ودور كل شيء فيها وطبائع الحروف (المائية والنورانية والهوائية) نجد أن كتاب **الباهير** يميل إلى القصص الأسطوري . وقد لوحظ التشابه القوي بينه وبين كتابات بعض الجماعات الغنوصية مثل الكاثاريين (المرأة مساعد للشيطان ـ الشر نتيجة المعاشرة الجنسية بين آدم وبعض الجنيات ـ الشمال مصدر الشرور) . وقد كُتب الباهير بخليط من العبرية والآرامية ، وبأسلوب غامض ، وبناء الكتاب غير متماسك . ويبلغ عدد كلمات الباهير اثني عشر ألف كلمة . وظهرت أولى طبعاته في أمستردام عام ١٦٥١ ، وظهرت طبعة جديدة في القدس عام ١٩٥١ ، وترجمه إلى الألمانية جيرشوم شوليم .

التجليات النورانية العشرة (سفيروت)
Sephirot

«التجليات النورانية العشرة» هي المقابل العربي لكلمة «سفيروت» العبرية ، وهي من الكلمة العبرية «سفيراه» من الجذر العبري «سافار» المرتبط بالكلمات التالية : «سافار» (رقم) ـ «سيفر» (كتاب) ـ «سيبر» (يحكي) ـ «سابير» (لمعان) ـ «سيبار» (حدود) . وكلمة «سفيروت» تعني حرفياً «الأعداد» أو «الأرقام» ، ثم أصبحت الكلمة فيما بعد تشير إلى التجليات الإلهية (ومن ثم فهي من أهم المفاهيم أو التصور الحلولية في القبَّالاه) . وقد كانت هناك مصطلحات أخرى في بداية الأمر لوصف السفيروت أو حالة الامتلاء ، فكانت تُسمَّى «الصفات» (ميدوت) أو «القوى» (كوحوت) أو «الدرجات» (معالوت) أو «الخطوات» ، كما سُمِّيت «الأسس» و«الأسماء» و«التيجان» و«السمات» و«القنوات» ، وسُمِّيت أخيراً «سفيروت» .

والسفيروت تجليات الإشعاعات الصادرة من النور الذاتي للإله ، وهي التي أوجدت العالم ، فهي جذر المخلوقات ، وهي الواسطة وحلقة الوصل بين الإله والكون ، فإذا كان الإله هو نقوداريشوناه (النقطة الأولى) فإن التجليات هي النقط (نقودوت) ، وهي أداته في خلق العالم وحكمه ، وهي أيضاً الأوعية التي يقبض

فيها الإله ، ولذا تُسمَّى أيضاً «قنوات الفيض» (سفيروت هشيفع) . وهي أيضاً القوى الكامنة ومراحل التجلّيات أو التجلّيات نفسها ، وهي نواحي الخلق وبؤره أيضاً . والتجلّيات النورانية عشرة ، تركز قبَّالاة الزوهار على التأمل فيها ، كما تُعنَى بتصنيفها ودراسة العلاقات بينها والهيئات التي تتخذها . والتجلّيات النورانية العشرة في القبَّالاه اللوريانية تقابلها الصور التي تسمَّى «البرتسوفيم» وعددها خمس . ودرجات التجلّيات النورانية العشرة هي :

١ ـ كيتر (أو كيثر) عليون ، أي التاج الأعلى للإله ، وهي أيضاً الإرادة المقدَّسة والعقل الفعّال (لوجوس) ، ويُشار إليها أحياناً بالتاج وحسب ، وهي أول مرحلة تخرج من الإين سوف أو الإله الخفي . ومع هذا ، يساوي بعض القبَّاليين بين هذا التجلي وبين الإله الخفي نفسه ، فهو متوحِّد تماماً مع العدم وليس بإمكان العابد أن يدركه أو يصلي له . ويخرج من هذا التجلي النوراني زوجان مختلطان جنسياً ، فهو كائن خنثى .

٢ ـ الخوخمه ، أي الحكمة ، وهو أول التجلّيات المتعيِّنة التي انفصلت عن الإله المتخفي ، وهو الفكر الإلهي الكوني (محشفاه) الذي يسبق الخلق ، ولذا فهو يحتوي على النماذج المثلى التي وضعها الإله لجميع العوالم ، ويُشار إليه بأنه الأب العلوي أو السماوي ، وهو أيضاً العلة (الذكرية) الأولى . وقد تحوَّل فيما بعد من الفكر الإلهي إلى الإرادة أو الرغبة الإلهية .

٣ ـ البيناه ، أي الفهم أو الذكاء . وهو خلاف الحكمة ، فهو العقل الذي يميِّز بين الأشياء والذات والمخلوقات . ولذا ، فهو المرحلة التي يتحقق أو يولد فيها النموذج الخفي الكامن ويأخذ شكلاً محدداً . وهذا التجلي النوراني هو أيضاً الأم السماوية ، وهو عملية الخلق نفسها ، وهو أيضاً العلة الأنثوية الأولى ، ويدخل التجليان النورانيان الثاني والثالث في علاقة جنسية خاصة إذ يتزاوجان فينجبان التجليين النورانيين السادس والعاشر ، وهما أهم التجلّيات على الإطلاق . ولكن الفيض الإلهي يستمر وتظهر التجلّيات الأخرى .

٤ ـ جيدولاه ، أي «العظمة» . وأحياناً يشار إليه بكلمة «حسيد» ، وهو حب الإله الفائض والرحمة .

٥ ـ جبوراه ، أي القوة أو السلطة ، وغالباً ما كان يشار إليه بكلمة «دين» ، أي «الحكم الصارم» ، وهو مصدر الحكم الإلهي والشريعة والأوامر والنواهي والوصايا ، وخصوصاً النواهي .

٦ ـ تفثيرت ، أي الجمال ، ويشار إليه أيضاً بمصطلح «رحاميم» أي «التعاطف» . وهو أيضاً الشمس والابن والملك المقدَّس وعريس يسرائيل ، وهو الوسيط بين التجليين الرابع والخامس ليأتي بالتناسق والرحمة للعالم . وهو ، كما تقدَّم ، أهم التجلّيات النورانية . ويُلاحَظ أنه يتوسط التجلّيات ، ويلعب دوراً مهماً في عملية الخلق والخلاص (وثمة أصداء واضحة هنا لفكرة ابن الإله وابن الإنسان وهي فكرة مسيحية) .

٧ ـ نيتسح ، وهو التحمل ، أو الأزلية والنصر .

٨ ـ هود ، أي جلال الإله .

٩ ـ يسود عولام ، أي أساس العالم . وهو أساس كل القوى النشيطة في الإله ، وهو الذي يصل بينه وبين الأرض ، ويُشار إليه أحياناً بكلمة «التساديك» (الصديق) أي الرجل النقي . ويرتكز على هذا التجلي كل التجلّيات السابقة ، كما أن الفيض الإلهي يصل إلى الشخيناه من خلال يسود عولام . ولذا ، فهو يأخذ شكل القضيب .

١٠ ـ ملكوت ، أو المملكة . وهو أيضاً عَتَراه (أو عتيريت) ، أي التاج المرصَّع بالجواهر ، أو الإكليل ، وهي الشخيناه والماترونيت وكنيست يسرائيل (جماعة يسرائيل) .

وتُقسَّم التجلّيات النورانية إلى مجموعات تضم كل منها ثلاثة: أولها التاج أو الإدارة ، والحكم ، والفهم ، وهذه تشكل الجانب الفكري في الكيان الإلهي . أما العظمة والقوة والجمال ، فتشكل الجانب النفسي أو الأخلاقي . وأما التحمُّل والجلالة والأساس ، فهي تمثل القوى المادية في داخل الطبيعة . أما التجلي العاشر فيخضع لتفسيرات كثيرة ، وهو القناة الموصلة بين الإله والدنيا . وتظهر الدروب أيضاً على هيئة مثلثات أو دوائر متداخلة ، أو هيئة شجرة كونية شامخة جذورها في الإين سوف في الأعالي ، وتمتد ساقها وأغصانها في اتجاه العالم الأرضي . وقد تم الربط بين التجلّيات والرياح الأربع والعناصر الأربعة ، وأيام الخلق السبعة والدورات الكونية السبع . كما ظهرت التجلّيات على هيئة الآدم قدمون أو الإنسان الكوني (الأول أو القديم) . وفي هذه الصورة ، تشكل التجلّيات الثلاثة الأولى رأسه ، والرابع والخامس ذراعاه ، والسادس صدره ، والسابع والثامن ساقاه ، والتاسع عضوه الجنسي ، والعاشر يشير إما إلى الصورة كلها أو إلى الأنثى التي تصاحب الذكر . وعلى يسار الآدم قدمون كل الصفات السلبية ، وإلى يمينه الصفات الإيجابية .

وقد صدرت كل التجلّيات عن الإين سوف الذي هو أيضاً الآيين ، أي «العدم» ، والذي يمكن أن نترجمه بعبارة «الإله الخفي» ، وهو إله لا يمكن إدراكه ولا الصلاة له . أما التجلّيات النورانية ، فهي تجليات ذاتية له ، وفيض منه ، وهي طريقه إلى أن يخلق نفسه . وقد

كان يُنظر أحياناً إلى التجليات باعتبارها جزء لا يتجزأ من جوهر الإله، وأن مراحل التجلي تمت داخل الذات الإلهية . ولكن الرأي الغالب هو أن يُنظر إليها باعتبارها أوعية منفصلة عنه يفيض فيها .

وهذا يبين تذبذب القبَّاليين بين الرؤية التوحيدية التي ترى الإله جوهراً واحداً لا يتجزأ والرؤية الثنوية التي تقبل التعددية ، وإن أدركت القبَّالاه الوحدة فهي وحدة أحادية حلولية مادية . والتجليات النورانية العشرة تقابلها تجليات عشرة مظلمة ، هي السترا أحرا ، وهي تجليات اليسار التي استقلت عن الذات الإلهية .

وعلاقة كل تجلٍّ نوراني (سفيراه) بسائر التجليات موضع دراسة مستفيضة من القبَّاليين ، إذ يُنظَر إلى هذه التجليات باعتبارها متصلة بعضها بالبعض الآخر ، من خلال الشيفع ، أي الفيض ، فتسري فيه الرحمة الإلهية وكأنها النهر . وأهم العلاقات بين التجليات علاقة التجلي السادس بالعاشر . فالتجلي السادس ، وهو مركز النظام القبَّالي كله ، يتلقى فيض القوى العليا ، وينسقها ويرسلها إلى القوى السفلى ، ويجسد المقدرة الإبداعية الحيوية للتجليات ويعبِّر عنها من خلال الرموز الأساسية للذكورة ، فهو كما أسلفنا الشمس والملك والعريس . أما التجلي العاشر ، أي الملكوت، فهو الشخيناه أو التعبير الأنثوي عن الخالق ، وهي الرحمة والقمر والملكة والعروس . ولكن ، رغم أن التجلي العاشر يقع أسفل باقي التجليات ، فإنه ذو اليد الطولى في علاقته بالعالم السفلي (البشري) ، فيتم تأكيد جوانبه الملكية ، ويصبح هو الأم التي تتلقى سيل الرحمة التي تفيض من أعلى (من التجلي السادس) .

ويتم التعبير عن العلاقة الأساسية بين التجليات المختلفة من خلال صورة مجازية أو مقولة إدراكية جنسية واضحة . فالعلاقة بين الأب والأم (التجليان الثاني والثالث) علاقة جنسية واضحة ، وهما في حالة مضاجعة دائمة وعناق أزلي ، ومتى أراد الأب أن يقذف ، فإنه يجد الأم على استعداد دائم (وهذا يذكرنا بالكاما سوترا الهندوكية) . ويجب ألا ننسى أن الأب والأم هما النموذجان الأمثلان المتحققان . وقد حملت الأم من الأب ، وأنجبت الابن والابنة ، وكانا في الأصل كائناً واحداً أحادياً مخنثاً (ذكر/ أنثى) يعبِّر عن الواحدية الكونية ، ولكن الابن انفصل عن الابنة وبدأت قصة الحب بين الأخوين .

وابتعاد الأخوين هو مصدر الخلل الكوني ، فإذا اجتمعا عمَّ السلام . وكان من المفترض ، بعد عملية الخلق الأولى ، أن يجتمع الابن والابنة بالمعنى الحَرْفي والجنسي ، ولكن السقوط أدَّى إلى فراقهما وزاده . ويبدأ الملك في البحث عن الملكة (الماترونيت أو الشخيناه) . وتصف القبَّالاه العلاقة بينهما ، وكيف كان الملك يمسح ثدييها ويجتمع بها . ويصبح التجلي التاسع «اليسود» (نساديك) عضو التذكير الذي يصل بين الملك والملكة (وبالتالي يصبح شيف الذي يفيض بالمنيّ في التراث الهندوكي) . وقد خلق الإله الشعب اليهودي ليُصلح الخلل ويُقرِّب الابن والابنة . ولكن ، بسبب ذنوب جماعة يسرائيل ، هدم مخدع الشخيناه ، أي الهيكل ، فنُفيت الشخيناه معهم خارج فلسطين .

وبذلك تصبح الصورة المجازية الجنسية المقولة الإدراكية التفسيرية الكبرى في القبَّالاه ، فهي تبيِّن سر الكون ، ومصدر الوحدة بين الإله ومخلوقاته ، وأصل مكانة الشعب المختار المتميِّزة ، وهي أيضاً الطريقة التي تتوحد بها الذات الإلهية وتتحقق إذ أن توحُّد التجليات هو توحُّد الإله واكتمال وجوده . وفي إحدى الدراسات ، ورد أن الصورة المجازية الجنسية تُستخدَم لمعرفة علاقة التجليات ، الواحد بالآخر ، وبالتالي فهي لا تنطبق على علاقة المخلوق بالإله .

وبناء على ذلك ، يصل المؤلف إلى أن التصوف اليهودي يختلف عن التصوف المسيحي حيث يرى المؤلف أن هدف التصوف المسيحي هو الاتحاد بالإله بينما هدف التجربة الصوفية اليهودية هو التواصل مع الإله والالتصاق به . ولكن الشخيناه ، كما بيّنا ، تمثل حلقة وصل عضوية بين التجليات المختلفة والعالم السفلي ، بحيث لا يمكن فصل الواحد عن الآخر . كما أن فكرة التقابل بين الإله والمخلوقات ، وهي فكرة أساسية في القبَّالاه ، تجعل الوحدة والحلولية الكاملة أمراً واضحاً . وعلى كلٍّ أثبتت التطورات اللاحقة في الحركات المشيحانية أن الصورة المجازية الجنسية كانت أساسية في تفكير القبَّاليين وفي إدراك علاقة الإله بالإنسان . وإن كان ثمة اختلاف بين المتصوفين المسيحي واليهودي ، فهو في الهدف من عملية التوحد وفي نتيجته . فالهدف في التصوف المسيحي هو الفناء في الذات الإلهية ، والثمرة هي السكينة ، أما في التصوف اليهودي فالهدف هو التوحد مع الذات الإلهية للتأثير فيها ، والثمرة هي التحكم . والتجليات النورانية هي ، ولا شك ، تعبير عن عودة ما إلى التفكير الأسطوري والأساطير الإغريقية بآلهتها المذكرة والمؤنثة وتصوير زواج زيوس بجونو ، وهي تشبه أفكاراً مماثلة في النسق الديني الهندوكي . وبإمكان الدارس أن يُلاحظ كيف تأثر فرويد بهذا الفكر القبَّالي الذي درسه . وقد وُصفت القبَّالاه بأنها تجنيس الإله وتأليه الجنس (بمعنى الغريزة الجنسية) .

التوحد بالإله والالتصاق به (ديفيقوت)

Devekut

«التوحد مع الإله والالتصاق به» ترجمة لكلمة «ديفيقوت» التي تعني «الالتصاق بالإله» . والكلمة تشير إلى الحب العميق للإله الذي يؤدي إلى التوحد معه ، وهو مفهوم حلولي . والمصطلح يستند إلى تلك العبارة التي وردت في سفر التثنية (١١/ ٢٢) : «لتحبوا الرب إلهكم وتلتصقوا به» . وقد صار الديفيقوت مفهوماً مركزياً في القبَّالاه ، وأصبح يشير عند إبراهيم أبي العافية إلى «الشطحة الصوفية» . وهذا هو أيضاً معنى الكلمة عند الحسيديين الذين أصبح الدفيقوت هو العنصر الأساسي في عبادة الإله عندهم . ولكن الالتصاق بالإله لا يعني الخضوع له أو الفناء فيه وإنما يعني التوحد به ، وهو توحُّد يؤدي إلى معرفة الإنسان سر الإله وطبيعته وكنهه بحيث يمكن التأثير في الإله والتحكم الإمبريالي في الكون .

التفسيرات الرقمية (جماتريا)

Gematria

«التفسيرات الرقمية» هي الترجمة العربية لكلمة «جماتريا» ، وهي كلمة مأخوذة من اللفظ اليوناني «جيومتري» ومعناه «هندسة» . ومنهج الجماتريا هو منهج في شرح كلمات من العهدين القديم والجديد ، ويستند إلى تحليل القيمة العددية لحروف الكلمات العبرية التي يعتبرها المفسرون القبَّاليون وغيرهم مقدَّسة . وقد ظهر هذا المنهج بين معلمي المشناه (التنائيم) في القرن الثاني الميلادي ، وورد في التلمود مائة وخمسون حالة استخدام للجماتريا ، ثم ساد هذا المنهج بين المفسرين بسيادة الفكر القبَّالي وطموحه الأساسي للوصول إلى العرفان أو الغنوص أو الصيغة الهندسية التي تؤدي إلى التحكم في العالم . وتُفسَّر العبارة التي وردت في سفر التكوين (١٤ / ١٤) «٣١٨ عضواً في بيت إبراهيم» بأنها تعني «خادم إبراهيم» ، لأن القيمة العددية لاسم هذا الخادم هي ٣١٨ . وكلمة «ريدو» ، وهي بمعنى «اهبطوا» الواردة في سفر التكوين (٤٠/ ٢) وتُفسَّر بأنها تشير إلى عدد السنوات التي قضاها شعب يسرائيل في مصر وقيمتها ٢١٠ سنوات (فالراء = ٢٠٠ ، والدال = ٤ ، والواو = ٦) . وقد استخدم القبَّاليون الجماتريا لتحديد تاريخ قدوم الماشيَّح . ويتميَّز منهج الجماتريا بأن المفسِّر الذي يستخدمه يمكنه أن يستخلص من خلاله أي معنى من أي نص . فالعهد القديم مليء بالكلمات التي يَسهُل اختيار المناسب منها لتتلاءم مع الرقم الذي يريده واضع الحساب . وكان هرتزل يكتب خطاباته أحياناً بطريقة لا يمكن فهمها إلا باستخدام منهج الجماتريا في التفسير .

التجلي الأنثوي للإله (شخيناه)

Shekhinah

«التجلي الأنثوي للإله» تعبير تقابله كلمة «شخيناه» ، وهي كلمة عبرية تعني حرفياً «السكون» ، أو «الهجوع» . وهي تشير في الأدبيات الدينية اليهودية إلى الحضرة الإلهية ، أو حلول الإله في الإنسان والعالم . ويرى بعض علماء الدين أن ثمة علاقة بين فكرة الشخيناه ، وفكرة اللوجوس في فلسفة فيلون . ويرى باتاي أن الشخيناه - أصلاً - إلهة كنعانية قديمة هي ملكة السماء وأن اليهود قاموا بعبادتها في المملكة الجنوبية قبل سقوط أورشليم ، ويُقال إن بعض اليهود الذين فروا إلى مصر استمروا في عبادتها مدة طويلة بعد ذلك .

وقد جاء في العهد القديم (خروج ٢٥/ ٨ ، ولاويين ١٦/ ١٦) أن الإله يسكن وسط شعبه . ويؤكد التلمود أن الحضرة الإلهية لا توجد إلا في وسط الشعب . ولعل الشخيناه تتلبس أيضاً في اليهودي حينما ينفذ التعاليم الإلهية . وهي تتحول إلى حقيقة فعلية ، أي تتجسد في الأشخاص والأماكن والأشياء ذات القداسة ، وخصوصاً في ساعات الدروس الدينية والصلاة ، أي أنها تتجلى داخل الزمان والمكان وفي الشعب اليهودي بأسره ، ويرمز الضوء عادةً للشخيناه .

وفي التراث القبَّالي ، تُعَدُّ الشخيناه أهم التجلِّيات النورانية العشرة (سفيروت) على الإطلاق ، فهي السفيراه أو التجلي العاشر والأخير الذي يربط بين الإله ومخلوقاته لأنها الحلقة الأخيرة وأقربها إلى العالم الأرضي ، وهي التعبير الأنثوي عن الإله الذي يتلقى الفيض الإلهي (أو المنيّ الإلهي) ويوزعه على العالمين ، وهي الابنة والماترونيت والملكة والقمر الذي لا يشع نوراً وإنما يعكس نور الشمس . وهي أيضاً راحيل التي تبكي من أجل الشعب ، وهي الشفيعة بين الإله والإنسان (وهي في هذا تشبه العذراء مريم في اللاهوت الكاثوليكي الذي تأثر به القبَّاليون) . وهي أخيراً كنيست يسرائيل أو شعب يسرائيل أو جماعة يسرائيل ، وأعضاء الشخيناه هي أعضاء الشعب اليهودي . ورغم أنها آخر التجلِّيات ، فإنها ذات اليد الطولى في علاقة كل التجلِّيات بالعالم السفلي البشري ، كما تجري المساواة بين الشخيناه والتوراة ويُقرَن بينهما .

والشخيناه ، باعتبارها ابنة أو ملكة ، كانت جزءاً من كيان

واحد مخنث يضم الابن/ الملك المقدَّس (السفيراه السادس) الذي انفصل عن أخته ، ولكنه يبحث عنها دائماً ويطاردها ، ولن يتم إصلاح الخلل الكوني الناجم عن سقوط الإنسان إلا بالجماع (الجنسي) بينهما . وقد خلق الإله الشعب اليهودي لإصلاح الخلل ، وكان الكون قد اقترب من لحظة الخلاص هذه ، حين اتحد الابن/ الملك (في صورة موسى) مع الشخيناه فوق جبل سيناء . وكاد ينصلح الخلل ، ولكن خطيئة العجل الذهبي أعادته مرة أخرى . ومع ندم الشعب على فعلته ، بدأت مرة أخرى عملية الإصلاح التي أخذت شكل غزو أو اقتحام كنعان (هذا الاقتحام الذي يكتسب هنا معنىً جنسياً) ، ثم بناء الهيكل الذي حلت فيه الشخيناه وتوحَّدت بالشعب (ويُلاحَظ أن كلمة «يحوِّد» العبرية وتعني «توحد» هي الكلمة التي تُستخدَم في النصوص الشرعية القانونية للإشارة إلى الجماع) . وبسبب ذنوب جماعة يسرائيل هُدم مخدع الشخيناه ، أي الهيكل ، فنُفيت الشخيناه معهم خارج فلسطين .

وهدف الحياة الآن هو توحُّد (يحوِّد) الابن مع الشخيناه ، فكلما زادت ذنوب جماعة يسرائيل زاد نفي الشخيناه وزاد بعدها عن الابن ، وكلما حافظوا على الوصايا والصلاة وتنفيذ تعاليم التوراة ازداد اقتراب الابن من الابنة . وحتى يقوم اليهودي بدوره في عملية اليحود (الاجتماع/ الجماع) ، فإن عليه أن يردد الدعاء التالي قبل أن ينفذ أحد الأوامر أو النواهي ، وقبل أن يؤدي صلاته : «من أجل توُّحد (يحوِّد) الواحد المقدَّس ، الحمد له مع أنثاه (الشخيناه)» . والشخيناه المنفيَّة البعيدة عن الابن/ الملك/ الشمس ، يهجم عليها الشيطان سمائيل ويغتصبها ، بل يهجم عليها آلهة (أو أشباه آلهة) آخرون ، ويتمكنون جميعاً من السيطرة عليها وتملُّكها والتمتع بها . وقد كانت ثمرة هذا الاغتصاب خلق الأغيار الذين يرضعون منها ، تماماً كما كان يفعل اليهود حينما كانت الشخيناه بينهم . ورغم أن الشخيناه هي العنصر الأنثوي ، فإنها العنصر الأقوى والأكثر فعالية من العنصر الذكوري . وحينما تحين لحظة الانتقام من معذبي اليهود، ستتحول الشخيناه إلى وحش كاسر تقود جنوداً خرافيين . وهي بذلك (حسب رأي باتاي) تصبح مثل آلهة العذاب التي تُلحق الأذى بالجميع دون تمييز ، وتصبح المرأة الكونية المدمرة التي تبتلع آلاف الأنهار : تتجه أيديها وأظفارها في جميع الاتجاهات ولا يهرب من قبضتها أحد . وسيخرج من بين ساقيها شاب هو الملاك ميتاترون الذي سيدمر العالم . ويُقال إن الشخيناه ، في حالتها هذه ، هي «السترا أحرا» أي (الجانب الآخر من الذات الإلهية) «قوى الشر» .

وقد أثارت فكرة الشخيناه قضية الشرك والتوحيد . فهي يُنظر إليها أحياناً كمجرد تجلٍ للإله أو حتى كأحد أسمائه . ولكن أحد كتب المدراش جاء فيه فقرة يُفهَم منها أن الشخيناه مادة منفصلة عن الإله ، وأنه وضعها بين جماعة يسرائيل ، وأنه يتحدث معها أحياناً . والشخيناه ، كما تقدَّم ، حلَّت في الهيكل ، ولذا فقد أدّى هدمه إلى صعودها إلى السماء أو إلى نفيها مع الشعب (وهناك رأي يذهب إلى أن جزءاً منها بقي حالاً في حائط المبكى يتأوه ويبكي من أجل الشعب) . وخلاص جماعة يسرائيل يعني أيضاً خلاص الشخيناه . وهناك عبارات وطقوس وأدعية كثيرة يُفهم منها تجسُّد الشخيناه وتجزُّؤها . ولابد أن فكرة التجسُّد هنا صدى للاهوت المسيحي أيضاً .

وقد حاول الفلاسفة اليهود أن يعيدوا تفسير فكرة الشخيناه بحيث يبعدون عن الإله أي تشبيه أو تجسُّد . ولذا ، قرر سعيد بن يوسف الفيومي أن الشخيناه كيان مخلوق منفصل تماماً عن الإله ، وبهذا احتفظ للجوهر الإلهي بوحدته . وقد قال : إن الشخيناه ، مثل الملائكة ، وسيط بين الإله والإنسان . وهي النور الذي يراه الأنبياء أثناء الوحي الذي يأخذ شكلاً بشرياً أحياناً . وقد تبعه موسى بن ميمون في ذلك . أما نحمان كروكمال ، فقد حاول تفسيرها تفسيراً هيجلياً ، فهو يرى أن لكل شعب قوة روحية ، ولكن قوة الشعب اليهودي الروحية متجذرة في الروح المطلقة نفسها ، وتأخذ أكثر الأشكال صفاء ونقاء ، وتُدعَى الشخيناه . وهذا ، حسب رأي كروكمال ، ما كان يعنيه الحاخامات ، حينما كانوا يقولون إن الشخيناه كانت تسير مع الشعب اليهودي . فهي هنا مثل فكرة الشعب العضوي (فولك) الألمانية التي نبع منها الفكر النازي . أما هرمان كوهين ، فقد فسرها بأنها الراحة المطلقة والأساس الأزلي للحركة . أما بوبر ، فيعود إلى فكرة الانقسام والثنائية الأولى ، فالشخيناه تعني أن الإله لم يهجر شعبه قط رغم كل معاناته وإنما يحل فيه وبينه . وتزداد الحلولية عند روزنزفايج ، فالشخيناه جسر بين «إله آبائنا» و«بقية يسرائيل» ، أي البقية الصالحة ، كما أن نزول الشخيناه إلى اليهود وسكناها بينهم يعني الانقسام داخل الإله نفسه ، فهو ينزل ويعاني مع شعبه يتجول معهم في منفاهم ، بل إنه في نهاية الأمر يعاني أكثر من الشعب وتتحمل البقية الصالحة في يسرائيل أحزانه (وفي هذا صدى لفكرة الصلب المسيحية) .

الدورات الكونية

Cosmic Cycles

لم تتناول القبَّالاه علاقة الإله بنفسه ، أو علاقته بالبشر ، ورؤية الكون وفكرة الشر ، وحسب ، وإنما حاولت أن تقدم رؤية للتاريخ أخذت شكل الدورات الكونية . وحسب هذا الرأي ، يتكون الزمان الكوني - أي تاريخ الكون من البدء حتى النهاية ، من سبع دورات تتكون كل واحدة منها من سبعة آلاف عام . وتتكون كل دورة من وحدات طول كل واحدة منها سبع سنوات ، في نهاية كل منها تقع السنة السبتية أو سنة شميطاه . ويتحكم في كل دورة أحد الكواكب السبعة . وفي الدورة الخمسين (النهائية) سيحطم الإله العالم ، فيعود إلى حالة الهيولي أو الفوضى الأولى ، ثم تبدأ دورات أخرى .

وفي رواية أخرى ، يتحكم في كل دورة كونية أحد التجلِّيات النورانية العشرة (سفيروت) ابتداءً من التجلي الرابع ، فالثلاثة الأولى خامدة كامنة خفيَّة ، ولا تتحكم في أية عوالم خارجة عنها . وتخرج العوالم السبعة - التي تناظر التجلِّيات النورانية السبعة (٤ - ١٠) ، من البيناه (الفهم) ، وهي تُسمَّى أم العوالم . وبعد ستة آلاف عام ، يحل الألف السابع ، وهي مرحلة تحل فيها الدورة الكونية ، ثم تظهر دورة كونية تالية تتحكم فيها السفيراه التالية حتى الدورة السابعة حينما ينحل كل الزمان في اليوبيل الكوني ، ويعود الكون للبيناه ، وتبدأ الدورات من جديد .

وكان الرأي الغالب بين القبَّاليين أن العالم الآن في دورة الجبوراه أي العدالة الصارمة ، ولذا فإن الدورة السابقة كانت دورة حب الإله الفائض أو دورة الحسيد .

ولكل دورة تفسيرها الخاص للتوراة . فالكلمات باعتبار أنها دوال ، تظل كما هي ، أما المدلولات فتتغيَّر تماماً . ولذا ، فتوراة الدورة السابقة لم تكن تضم أياً من الفرائض (الأوامر والنواهي) . وقد ذكر القبَّاليون أن بعض أرواح الدورة السابقة ظهرت مرة أخرى في هذه الدورة ، ولذلك يستطيع أصحاب هذه الأرواح أن يقرأوا التوراة السابقة ، ويمكنهم كذلك أن يخففوا عبء الأوامر والنواهي بل أن يبطلوها تماماً . وهذا ما فعله شبتاي تسفي وفرانك وغيرهما من أصحاب الحركات المشيحانية الترخيصية .

ويمكن التوصل إلى أن الدورة الزمنية الأخيرة ، دورة الشخيناه، سترى سيادة أعضاء جماعة يسرائيل ، باعتبار أنهم متوحدون معها ، وهكذا ينتهي التاريخ بانتصار اليهود . وترتبط فكرة الدورات الزمنية بأفكار أخرى مثل التناسخ والآدم قدمون . ومن الواضح أن فكرة الشعب المختار والعودة هي فكرة تعويضية يحاول اليهود أن يشكِّلوا من خلالها رؤية للتاريخ تحقق لهم مالم يتحقق في التاريخ الفعلي . ويُلاحَظ أيضاً أن القبَّالاه بشكل عام ، وفكرة الدورات الكونية بشكل خاص ، تدل على أن أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب كانوا يشعرون بمدى ثقل الحمل الذي وضعته عقيدتهم على كاهلهم ، وبدأوا يبحثون عن مخرج من هذه الورطة . وقد كانت الحركات المشيحانية الترخيصية تحقق لهم ذلك ، ثم جاءت الصهيونية لتطرح نفسها بديلاً عن اليهودية ، ولتضع اليهود فوق اليهودية ، ولتجعل منهم شعباً مثل كل الشعوب لا شعباً مختاراً ينوء تحت نير الاختيار . وغنيٌّ عن القول أن فكرة الدورات الكونية تلغي أي إحساس بالتاريخ وتركز على البدايات والنهايات فقط ، وهذه سمة أساسية في فكر الجماعات الوظيفية وفي الفكر الصهيوني .



٩
قبَّالاة الزوهار والقبَّالاه اللوريانية

قبَّالاة الزوهار والقبَّالاه اللوريانية ـ الزوهار ـ القبَّالاه النبوية ـ أبو العافية ـ أبرابانيل ـ القبَّالاه اللوريانية ـ الانكماش (تسيم تسوم) ـ تهشُّم الأوعية (شفيرات هكليم) ـ الشرارات الإلهية (نيتسوتسوت) ـ إصلاح الخلل الكوني (تيقُّون) ـ كوردوفيرو ـ لوريا ـ فيتال ـ يوسف بن طبول ـ سروج ـ أبو حصيرة ـ جيبنيك

قبالاة الزوهار والقبالاه اللوريانية

Zohar and Lurianic Kabbalah

تنقسم القبَّالاه إلى تيارين أساسيين ، أو هي تيار أساسي واحد تفرَّع إلى عدة تيارات . أما التيار الأول فهو قبَّالاة الزوهار نسبة إلى كتاب الزوهار . وحينما تكون الإشارة إلى القبَّالاه بشكل عام ، أو إلى القبَّالاه دون تخصيص ، فإن المقصود عادةً هو قبَّالاة الزوهار («القبَّالاه النبوية» حسب تعبير جيرشوم شوليم) ، وليس «القبَّالاه اللوريانية» نسبة إلى إسحق لوريا («القبَّالاه المشيحانية» حسب تعبير جيرشوم شوليم نفسه) .

والواقع أن البنية الفكرية لقبَّالاة الزوهار هي البنية العامة للقبَّالاه قبل دخول الأفكار اللوريانية عليها . ويمكن الرجوع إلى مدخل القبَّالاه اللوريانية لمعرفة الفروق العامة بين التيارين . ومن أهم مفكري قبَّالاة الزوهار إبراهيم أبو العافية ، وكذلك موسى كوردوفيرو آخر ممثلي قبَّالاة الزوهار ، وهو أستاذ لوريا مؤسس القبَّالاه اللوريانية .

الزوهار

Zohar

«زوهار» كلمة عبرية تعني «الإشراق» أو «الضياء» . وكتاب الزوهار أهم كتب التراث القبَّالي ، وهو تعليق صوفي مكتوب بالآرامية على المعنى الباطني للعهد القديم ، ويعود تاريخه الافتراضي ، حسب بعض الروايات ، إلى ما قبل الإسلام والمسيحية ، وهو ما يحقق الاستقلال الفكري (الوهمي) لليهود ، وكتابته بلغة غريبة ، تحقق العزلة لأعضاء الجماعات اليهودية الوظيفية . ويُنسَب الكتاب أيضاً إلى أحد معلمي المشناه (تنائيم) الحاخام شمعون بن يوحاي (القرن الثاني) ، وإلى زملائه ، ولكن يُقال إن موسى دي ليون (مكتشف الكتاب في القرن الثالث عشر) هو مؤلفه الحقيقي أو مؤلف أهم أجزائه ، وأنه كتبه بين عامي ١٢٨٠ و١٢٨٥ ، مع بدايات أزمة يهود إسبانيا . والزوهار ، في أسلوبه ، يشبه المواعظ اليهودية الإسبانية في ذلك الوقت . وبعد مرور مائة عام على ظهوره ، أصبح الزوهار بالنسبة إلى المتصوفة في منزلة التلمود بالنسبة إلى الحاخاميين . وقد شاع الزوهار بعد ذلك بين اليهود ، حتى احتل مكانة أعلى من مكانة التلمود ، وخصوصاً بعد ظهور الحركة الحسيدية .

ويتضمن الزوهار ثلاثة أقسام هي : الزوهار الأساسي ، وكتاب الزوهار نفسه ، ثم كتاب الزوهار الجديد . ومعظم الزوهار يأخذ شكل تعليق أو شرح على نصوص من الكتب المقدَّس ، وخصوصاً أسفار موسى الخمسة ، ونشيد الأنشاد ، وراعوث ، والمراثي . وهو عدة كتب غير مترابطة تفتقر إلى التناسق وإلى تحديد العقائد . ويضم الزوهار مجموعة من الأفكار المتناقصة والمتوازية عن الإله وقوى الشر والكون . وفيه صور مجازية ومواقف جنسية صارخة تجعله شبيهاً بالكتب الإباحية وهو ما ساهم في انتشاره وشعبيته . والمنهج الذي يستخدمه ليس مجازياً تماماً ، ولكنه ليس حرفياً أيضاً ، فهو يفترض أن ثمة معنى خصباً لابد من كشفه ، ويفرض المفسر المعنى الذي يريده على النص من خلال قراءة غنوصية تعتمد على رموز الحروف العبرية ، ومقابيها العددي . ويُستخدَم أربعة طرق للشرح والتعليق تُسمَّى «ارديس» ، بمعنى «فردوس» وصولاً إلى المعنى الخفي ، وهي :

١ ـ بيشات : التفسير الحرفي .

٢ ـ رميز : التأويل الرمزي .

٣ ـ ديروش : الدرس الشرحي المكثَّف .

٤ ـ السود : السر الصوفي .

والزوهار مكتوب بأسلوب آرامي مُصطنَع ، يمزج أسلوب التلمود البابلي بترجوم أونكيلوس ، ولكن وراء الغلالة الآرامية المصطنعة يمكن اكتشاف عبرية العصور الوسطى . وهو كتاب طويل جداً ، يتألف من ثمانمائة وخمسين ألف كلمة في لغته الأصلية .

والموضوعات الأساسية التي يعالجها الزوهار هي : طبيعة الإله وكيف يكشف عن نفسه لمخلوقاته ، وأسرار الأسماء الإلهية ، وروح الإنسان وطبيعتها ومصيرها ، والخير والشر ، وأهمية التوراة ، والماشيَّح والخلاص . ولما كانت كل هذه الموضوعات مترابطة بل متداخلة تماماً في نطاق الإطار الحلولي ، فإن كتاب الزوهار حين يتحدث عن الإله ، فإنه يتحدث في الوقت نفسه عن التاريخ والطبيعة والإنسان ، وإن كان جوهر فكر الزوهار هو توقُّع عودة الماشيَّح ، الأمر الذي يخلع قدراً كبيراً من النسبية على ما يحيط بأعضاء الجماعات اليهودية من حقائق تاريخية واجتماعية .

ويتحدث الزوهار عن التجليات النورانية العشرة (سفيروت) التي يتجاوز الإله للكشف عن نفسه . كما يشير الكتاب إلى هذه التجليات باعتبارها أوعية أو تيجاناً أو كلمات تشكل البنية الداخلية للألوهية . وتُعَدُّ هذه الصورة (رؤية الإله لا باعتباره وحدة متكاملة وإنما على هيئة أجزاء متحدة داخل بناء واحد) من أكثر أفكار الزوهار جسارة ، كما كان لها أعمق الأثر في التراث القبَّالي .

وقد ظهرت أولى طبعات الزوهار خلال الفترة من ١٥٥٨ إلى ١٥٦٠ في مانتوا وكريمونا في إيطاليا . وظهرت طبعة كاملة له في القدس (١٩٤٥ ـ ١٩٥٨) تقع في اثنين وعشرين مجلداً ، وتحتوي على النص الآرامي يقابله النص العبري . وقد ظهرت ترجمات لاتينية لبعض أجزاء كتاب الزوهار (ابتداءً من القرن السابع عشر) . كما تُرجم إلى الفرنسية في ستة أجزاء (١٩٠٦ ـ ١٩١١) ، وإلى الإنجليزية في خمسة أجزاء (١٩٣١ ـ ١٩٣٤) . ومن أشهر طبعاته طبعة فلنا التي يبلغ عدد صفحاتها ألفاً وسبعمائة صفحة .

القبَّالاه النبوية

Prophetic Kabbalah

«القبَّالاه النبوية» هي قبَّالاة الزوهار . ومن أهم دعاتها إبراهيم أبو العافية ، وآخر ممثليها هو موسى كوردوفيرو ، أستاذ لوريا واسبينوزا .

إبراهيم أبو العافية (١٢٤٠-١٢٩٢)

Abulafia (Abraham Ben Samuel)

قبَّالي وُلد في إسبانيا ، وانخرط في دراسة الشريعة والتلمود ، وفي الدراسات والحسابات القبَّالية . وقد درس كذلك مؤلَّف ابن ميمون **دلالة الحائرين** ، ولكنه فسره وفق المنهج القبَّالي . سافر إلى فلسطين واليونان وإيطاليا ، باحثاً عن أسباط يسرائيل العشرة المفقودة . ولما بلغ أبو العافية الواحدة والثلاثين من عمره غلبته روح النبوة ، وزَعم أنه وصل إلى معرفة الإله الحقيقي ، وفي هذه الفترة قيل أيضاً إن الشيطان كان يشاغله عن اليمين بقصد فتنته وإرباكه ، بيد أنه لم يشعر أنه بدأ يكتب بوحي النبوة إلا حين بلغ الأربعين . وفي ذلك الوقت ، أي في عام ١٢٨٠ ، عاد إلى إيطاليا حيث جذب عدداً كبيراً من العلماء اليهود الشبان الذين اتبعوا تعاليمه ثم وجدوا أن ثمة تشابهاً عميقاً بينها وبين المسيحية فتنصَّروا ! وفي العام نفسه ، قرر أبو العافية أن يقنع البابا بأن يتهوَّد ، فقُبض عليه وصدر ضده حكمٌ بالقتل حرقاً ولكنه هرب من السجن . ثم ظهر مرة أخرى ، بعد أربعة أعوام ، في ميسينا (صقلية) ، وأعلن أنه الماشيَّح . وقد تصدت له المؤسسة الحاخامية وفندت ادعاءاته . وربما كانت حروب الفرنجة الدائرة آنذاك تشكل السياق الدولي لدعاواه المشيحانية ، كما كانت أزمة يهود إسبانيا المتزايدة تشكل السياق المحلي لدعواه . وقد كتب أبو العافية عدة مؤلفات عن القبَّالاه ، وينسب إليه البعض تأليف الزوهار الذي ظهر في حياته (ولكن جيرشوم شوليم لا يتفق مع هذا الرأي) . وقد أطلق شوليم مصطلح «القبَّالاه النبوية» على رؤية أبي العافية ، فهو يرى أن النفس الإنسانية أصلها الإله ، ولكن الحياة اليومية تستغرقها وتفرض الحدود والقيود عليها ، وهي حدود وقيود لها قيمتها من حيث حفظها للفرد من أن يجرفه تيار الكوْن ، ولكن كيما يتصل الإنسان بالتيار المقدَّس وبأصله الإلهي مرة أخرى ، لابد من فك القيود وتجاوز الحدود . ويطرح الدكتور صبري جرجس في كتابه المهم **التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي** السؤال التالي «ألسنا نرى الصلة بين هذه النظرية ونظرية الكبت وضرورة التحرر منه إذا شاء الإنسان أن يتخفف من متاعبه النفسية التي تحد من شعوره بالتحرر والانطلاق ؟» . ثم يستطرد قائلاً : وانطلاقاً من هذا ، يصبح هدف رسالة أبي العافية هدفاً نفسياً وهو إماطة اللثام عن الروح وفك القيود التي تربطها . وقد قدَّم أبو العافية في هذا الصدد نظريته عن تركيب الحروف بغرض ملاحقة الطريق الداخلي ، وتُعرَف باسم «حوخمة هاتسيروف» ، أو «علم تشابك الحروف» الذي يستطيع القبَّالي بمقتضاه أن يدرك منه اسم الإله الذي يعكس المعنى الخفي للكون .

«وثمة طريقتان لإبراهيم أبو العافية في التأمل بغية الوصول إلى ما يهدف إليه من تحرير الروح . الأولى هي الطريقة التفسيرية التي تستند إلى استخدام حروف الهجاء الأبجدية العبرية استخداماً حراً . وعند التأمل ، كانت هذه الحروف تُفصَل ثم تُجمَع ، وبعملية الفصل والجمع هذه كانت تظهر أفكار جديدة . وقد كان عند أبي العافية

إحساس عميق بالمنطق الخفي للحروف ، فترتيبها في نظره ليس مجرد عملية عرفية أو متعنتة ، بل كان ترتيباً يتم وفقاً لقواعد عليا . ومن نتيجة حركات هذه الحروف ، يستطيع المرء أن يصل إلى استبصار عميق بطبيعة الجوانب المقدَّسة - فهل من العسير علينا أن نرى ، في نطاق هذا المفهوم ، أن منطق عالم الإله الخفي عند أبي العافية قد أصبح منطق اللاشعور عند فرويد ؟ .

«وقد كانت هذه الطريقة في التأمل تمهيداً للطريقة الثانية التي عُرفت باسم التجاوز عن طريق «القفز والإغفال» . ووصف باكان نقلاً عن شوليم هذه الطريقة بقوله : سيُدهش القارئ المعاصر حين يرى وصفاً مفصلاً لطريقة كان أبو العافية وأتباعه يسمونها «القفز والإغفال» للانتقال من فكرة إلى أخرى . والواقع أن هذا منهج رائع في استخدام الترابط كوسيلة للتأمل . ولا ترادف هذه الوسيلة منهج التداعي الحر المتبع في التحليل النفسي مرادفةً كلية ، ولكنها تتضمن الانتقال من فكرة ما إلى أخرى وفقاً لقواعد معيَّنة تتسم بالمرونة . وكل قفزة تفتح ميداناً جديداً له خصائصه ، ويستطيع العقل داخل هذا الميدان أن ينتقل بحرية من فكرة لأخرى ، أي أن القفز يربط بين عناصر من الأفكار الحرة والموجهة ويؤدي إلى نتائج عجيبة من حيث توسيع دائرة الشعور ، كما أن هذا القفز يدفع على الفور بعملية خبيئة في العقل ، أي أنه يحررنا من سجن الدائرة الطبيعية وينتقل بنا إلى حدود «الدائرة الإلهية» . ثم يتساءل باكان بعد ذلك قائلاً : "ألا يُذكّرنا هذا التقييم من قبل شوليم بمنهج أبي العافية بشأن «الترابط الحر» في التحليل النفسي ، من حيث تُعَدُّ هذه النشوة مع مضمونها الذي ينطوي ، فيما يزعم لها ، على إدراك الإله ، هي الهدف من التأمل عند أبي العافية ، ونشوة الاستبصار مع مضمونها الذي ينطوي على معرفة الذات هي الهدف من التحليل عند فرويد" .

"ويُعَدُّ المعلِّم القبَّالي أبو العافية شخصاً بالغ الأهمية بالنسبة لعملية التحويل التي ينبغي أن تحدث للشخص ، وهذه العملية تحتاج إلى من يحركها من الخارج ومن يحركها من الداخل ، والمعلم هو المحرك من الخارج . وفي حالة النشوة ، يحدث نوع من التوحد مع المعلم يصبح بعد ذلك توحداً مع الإله وينتهي بتوحد سام مع الذات . وفي هذه الحالة ، يكون التوحد قد تم أيضاً بين الإنسان والشريعة ، ولعل هذا هو المقصود من قولهم إن الإنسان هو الناموس أو الشريعة . ويتساءل باكان أيضاً : ألا يذكرنا هذا بمعلم التحليل النفسي الذي يُعَدُّ شخصاً بالغ الأهمية في عملية التحويل التي لابد منها لمن يود ممارسة التحليل فيما بعد ؟ أفلا يذكرنا ذلك أيضاً بنشوة الاستبصار التي تحدث أثناء التحليل التعليمي والتي يتم فيها نوع من التوحد مع المعلم الذي هو السبيل إلى معرفة الذات ، أي السبيل إلى أن ينتقل الطالب من طور المران إلى طور الممارسة ؟" .

ومن المستبعد أن يكون فرويد قد درس فكر أبي العافية ومؤلفاته . ومع هذا ، يجب أن نتذكر أن الفكر القبَّالي كان الفكر المسيطر على اليهودية في القرن التاسع عشر ، وربما يكون فرويد قد انتظم في حضور محاضرات أدولف جيلينك الذي حرَّر أعمال أبي العافية . وفي الواقع ، فإن أدولف جيلينك كان من أهم الحاخامات دارسي القبَّالاه ، كما كان من أشهر الوعاظ في مدينة فيينا مسقط رأس فرويد والمدينة التي قضى فيها معظم حياته .

إسحق أبرابانيل (١٤٣٧-١٥٠٨)

Isaac Abravanel

يهودي بلاط في إسبانيا . وهو مفسر للعهد القديم ، ومؤلف لكتب ذات طابع فلسفي . وُلد في لشبونة ، وكان أبوه مسئولاً عن خزانة الدولة فيها . وقد تلقى أبرابانيل تعليماً دنيوياً ودينياً كاملاً ، ثم التحق بخدمة ألفونسو الخامس ملك البرتغال ، الأمر الذي كان يعني أنه أصبح قريباً من النخبة الحاكمة . ولكن الوضع تغيَّر حينما اعتلى جون الثاني العرش ، فقد اتبع سياسة القضاء على النبلاء والجيوب المختلفة للسلطة ليركز كل شيء في يد الدولة ، وقد ثار النبلاء ضد هذه المحاولة . ويبدو أن أبرابانيل كانت تربطه علاقة بهؤلاء النبلاء ، وخصوصاً أن قائد التمرد كان صديقاً له ، ففر إلى طليطلة (إسبانيا) عام ١٤٨٣ ، حيث أصبح خازن فرديناند وإيزابيلا عام ١٤٨٤ . وقد عمل هو وصديقه أبراهام سنيور في جمع الضرائب . كما قام الاثنان بتمويل الحروب ضد آخر الجيوب الإسلامية في غرناطة . وحينما سقطت غرناطة ، صدر مرسوم طرد اليهود ، ونُشر عام ١٤٩٢ . فحاول أبرابانيل أن يغيِّر القرار بتقديم هدية إلى فرديناند ، ولكنها رُفضت وتم طرد اليهود . واستقر أبرابانيل (هو وأسرته) في البندقية عام ١٥٠٣ حيث مات فيها .

ولأبرابانيل دراسات في العهد القديم ، تتسم بشيء من الطابع العلمي والمنهجي ، وتحولت فيما بعد إلى نقد العهد القديم . وقد حاول أن يضع النصوص المقدَّسة في سياق تاريخي . غير أن فكره الفلسفي لا يتسم بأي عمق أو أصالة . وفي السنوات الأخيرة من حياته ، تبنَّى أبرابانيل رؤية صوفية ، وزاد إيمانه بعقيدة الماشيَّح ، ووضع ثلاثة كتب عن هذا الموضوع (**مصادر الخلاص** ، و **خلاص الماشيَّح** ، و **إعلان الخلاص**) تُعَدُّ من أهم كتبه على الإطلاق ،

وتُوصَف أيضاً بأنها من أهم الكتب التي أشاعت الفكر المشيحاني وشجعت الحركات المشيحانية .

القبَّالاه اللوريانية

Lurianic Kabbalah

أهم تطور حدث في داخل تاريخ القبَّالاه هو ظهور القبَّالاه اللوريانية (نسبة إلى إسحق لوريا) . ولكن لا يمكن إغفال موسى كوردوفيرو الذي ساهم في صياغة أفكارها الأساسية (وقد تأثر إسبينوزا فيما بعد بأفكاره) . ويمكن القول بأن القبَّالاه اللوريانية لا تختلف في أساسياتها عن قبَّالاة الزوهار ، إذ أن البنية الحلولية القبَّالية العامة كامنة في القبَّالاه اللوريانية كمونها في قبَّالاة الزوهار . ولكن ، مع هذا ، يمكن أن نلخص بعض الاختلافات الأساسية بينهما فيما يلي :

١ ـ قبَّالاة الزوهار تعنى بأسرار الخلق ، أي ببداية الكون ، بينما تعنى القبَّالاه اللوريانية أساساً بالخلاص وبالنهاية . وينبع اهتمام قبَّالاة الزوهار بأسرار الخلق من اهتمامها بالخلاص المشيحاني بالنهاية ، ولذا فهي تتناول البدايات كي تفسر النهايات .

٢ ـ أسطورة الخلق في القبَّالاه اللوريانية أكثر تعقيداً وتناقضاً منها في قبَّالاة الزوهار .

٣ ـ والاختلاف الأساسي هو أن القبَّالاه اللوريانية تربط البداية بالنهاية ، كما ربطت الباطن بالتاريخ والتأمل بالنزعة المشيحانية .

٤ ـ الصورة المجازية الأساسية في قبَّالاة الزوهار هي الجنس ، ولكنها في القبَّالاه اللوريانية تتمثل في كل من الجنس والنفي .

وتبدأ أسطورة الخلق في قبَّالاة الزوهار بفيض الإله الخفي ، ولكنها في القبَّالاه اللوريانية تبدأ بعملية «تسيم تسوم» التي يمكن أن تُترجَم حرفياً بكلمة «انكماش» أو «تركُّز» . ولكن يُستحسن تأدية معناها بتعبير «انسحاب نتج عنه تركُّز» . فالإله المتخفي (الإين سوف) ينكمش داخل نفسه ليخلق فراغاً روحياً كاملاً . ويمكن تفسير هذا الانسحاب بأنه شكل من أشكال النفي ، كأن الإله ينفي نفسه بنفسه إلى داخل نفسه ، بعيداً عن وجوده الكلي . وقد نتج عن هذا الانسحاب ميلاد الشر ، فالحكم الصارم (الحدود والقيود التي تُفرَض على الأشياء التي ستنبع منها الأوامر والنواهي والتشريعات) كان قبل الانكماش جزءاً من كل ، قطرةً في المحيط ، ولكنه بعد عملية الانسحاب يتبلور ويصبح هو المحور . ثم يرسل الإين سوف في الفراغ شعاعاً ودروياً من نوره الذاتي وهي التجليات النورانية العشرة (سفيروت) ، وهي مرحلة الفيض الإلهي على الكون (وتُعرف في العبرية باسم «أتسيلوت») التي أدَّت إلى ظهور آدم قدمون (الإنسان الأصلي) ، وهو غير آدم أبي البشر . ويُلاحظ أن الإنسان الأصلي في قبَّالاة الزوهار هو رمز لبناء التجليات ككل . أما عند لوريا ، فهو يظهر قبل التجليات ، ثم تخرج أشعة النور الإلهي من عيون الإنسان الأصلي وأذنيه وأنفه وفمه . وهذا الضوء الخارجي الذي انبثق من الإنسان الأصلي ، آخذاً شكل شرارات ، كان من المفترض جمعه في أوعية (كليم) من ضوء تتخذ أشكالاً تتناسب مع عملها في مرحلة الخلق . ولكن هذه الأوعية تحطمت ، حسب رؤية لوريا ، أثناء ملئها . ويعود هذا إلى أن الضوء الإلهي كان أقوى من أن تتحمله الأوعية فتحطمت ، الأمر الذي أدَّى إلى تشتت الشرارات الإلهية وتبعثرها . ويُشار إلى هذه الواقعة بمصطلح «حادثة تهشُّم الأوعية» (شفيرات هكليم) وهي الأخرى حادثة نفي . وإذا كان الانكماش (تسيم تسوم) هو نفي من خلال الانسحاب ، فإن النفي هنا يتم من خلال الانتشار والتشتت . وقد سادت الفوضى واختلط النور والظلام ، والروحاني والمادي ، وهكذا دخل الشر والظلام إلى العالم . وقد عاد كثير من الشرارات إلى مصدرها الأصلي ، ولكن نحو ٢٨٨ شرارة التصقت بشظايا الأوعية المهشمة ، وأصبحت هذه الأجزاء هي القشرة الخارجية (قليبوت) ، أي قوى الشر التي أحاطت بالشرارات الباقية وحبستها .

ومنذ ذلك الوقت الذي حدث فيه هذا التهشُّم ، لم يَعُد في الكون أي شيء كامل متكامل . فالنور الإلهي الذي كان يجب أن يستمر في مكان مخصص له ، أي في الأوعية التي صنعها الإله ، لم يَعُد في مكانه الصحيح لأن الأوعية تحطمت . وتظهر الخطة الإلهية للخلاص من خلال صور تُسمَّى «برتسوفيم» (حرفياً : «الوجوه» أو «السيماء» ، أي «القسمات» أو «ملامح الوجه») وهي مقابلة للتجليات النورانية العشرة (سفيروت) في قبَّالاة الزوهار ولكنها تأخذ هنا شكلاً أكثر بشرية وعددها خمسة :

١ ـ أريخ أنبين (عبارة أرامية وتعني حرفياً : «ذو الأنف الطويل» أي «الصبور» أو «المتحمل» أو «الذي عانى كثيراً» باعتبار أن الأنف دليل على الصبر) ، وهو يقابل التجلي النوراني الأول «الكيتر» أو «التاج» في قبَّالاة الزوهار .

٢ ، ٣ ـ أباً وأماً (الأب والأم) . وهما يقابلان التجليين الثاني والثالث . وهما النمط الأعلى لهذا الزواج المقدَّس الذي يُعَدُّ نمطاً لكل وحدة فكرية وجنسية فيما بعد (ولنلاحظ هنا الأثر العميق للعقيدة والرموز المسيحية ولتواتر الصورة المجازية الجنسية في النسق الحلولي) . وهذا التزاوج يزداد عمقاً بصعود الـ ٢٢٨ شرارة النو

تساقطت مع الأوعية المهشمة ، والتي بعودتها إلى رحم البيناه تصبح قوة تبعث الحيوية ، ولذا تُسمَّى «المياه الأنثوية» (مايم نقفين) .

٤ ـ زعير أنبين (عبارة أرامية وتعني حرفياً : «ذو الوجه القصير» ، أي «الذي لا يطيق صبراً» ، أو «نافد الصبر») . وهو عكس «أريخ أنبين» ويقابل التجليات الستة التي ترد بعد الثلاثة الأولى من الجبوراه حتى اليسود .

٥ ـ نقيفاه دي زعير (عبارة أرامية وتعني حرفياً : «أنثى زعير» أي «أنثى نافد الصبر») . وهي تقابل التجلي العاشر أو الشخيناه .

وتتخذ الذات الإلهية من خلال هذه القوى الخمس شكلاً محدداً ، وتؤدي وظيفة محددة . والتجلي الأساسي للابن سوف يحدث من خلال زعير أنبين الذي وُلد من خلال اتحاد الأب والأم ، ثم يكبر ليتزوج من الشخيناه ليُولَد اتحاداً ووئاماً بين العدل والرحمة في الذات الإلهية . وتُلاحَظ مرة أخرى أصداء العقيدة المسيحية .

وتمثل هذه القوى في الحقيقة العملية التي يلد الإله بها نفسه . وحسب رؤية لوريا ، كانت عملية جمع الشرارات (أي ولادة الإله واكتماله) على وشك الاكتمال حين خلق الإله آدم (أبا البشر) ليساعده في الجهد المبذول لاستعادة النظام والكمال ولهزيمة القوى الشريرة الشيطانية . وكان من المفترض أن يقوم آدم بالخطوات الأخيرة ، ولكن خطيئته ومعصيته للإله أوقفت العملية ، ونجم عن ذلك انتشار فوضى في الأرض تُماثل الفوضى الناجمة عن تَهشُّم الأوعية في الأعالي . فآدم ، حينما خلقه الإله ، كان يحوي كل أرواح البشر التي كانت توجد في حالة التصاق بالإله ، وبسقوطه انفصلت الأرواح عن جذورها وتبعثرت ودخلت الأجسام المادية ، وجاء الموت والشر والعالم وانحرف كل شيء عن موضعه ، وأصبحت كل المخلوقات في حالة شتات دائم (جالوت) ، وهي حالة مستمرة تنسحب على الكون كله وعلى الخالق نفسه الذي تبعثرت شراراته وتناثرت مرة أخرى . وقد سقطت الشخيناه ضمن ما سقط من شرارات . وما دامت الشرارات الإلهية لم تُجمَع ، فإن الإله سيظل مجزأ غير مكتمل وغير متوحِّد مع نفسه .

وقبل أن ننتقل إلى الحديث عن إصلاح هذا الخلل ورأب هذا الصدع ، لابد أن نؤكد فكرة التقابل القبَّالية ، وهي تقابل كل الأشياء واللحظات نتيجة توحُّدها النهائي . فالعالم العلوي يشبه العالم السفلي ، والإله يشبه مخلوقاته ، وعملية الخلق والتبعثر هي مقلوب عملية الخلاص ، وطريق النهاية هو طريق البداية . ويقابل عملية الفيض الإلهي عمليات كونية مماثلة تغمر أربعة عوالم مختلفة . والنفس البشرية تشبه الذات الإلهية ، ومستوياتها تشبه التجليات المختلفة ، ولحظة التشتت الإلهية تشبه لحظة التشتت الفردية ، ونفي الشخيناه يشبه نفي الشعب (ويُلاحَظ أن فكرة التقابل تُسقط فكرة الزمان والتتالي والاختلاف تماماً ، فهي فكرة هندسية دائرية تحوِّل الزمان إلى ما يشبه المكان والبدايات تشبه النهايات) . كما أن إصلاح الخلل الكوني ، وعودة كل شيء إلى مكانه ، وإنهاء حالة النفي الكونية ، وخلاص الإله بل ولادته ووجوده من جديد ، هي عملية يُطلَق عليها الإصلاح (تيقون) ، وهي عملية تخليص الشرارات الإلهية المبعثرة من اللحاء أو المحارات (قليبوت) . وهي عملية كونية تاريخية باطنية شاملة يشارك فيها الإنسان ولكنها تعتمد بالدرجة الأولى على جماعة يسرائيل ، فاليهودي الذي يعرف التوراة ومعناها الباطني (وينفذ الأوامر والنواهي ويتلو الصلوات) بوسعه أن يسرع بعملية الإصلاح (تيقون) ، أي عملية ولادة الإله ، كما أن بوسعه أيضاً أن يوقفها إذا هو أهمل تنفيذ الأوامر والنواهي وإقامة الصلوات . وهذا من الممكن إنجازه نظراً لتقابل العالم السفلي والعالم العلوي ، والتأثير في العالم العلوي من خلال أفعال يقوم بها الإنسان (اليهودي) في العالم السفلي . لكن عملية الإصلاح تدريجية ، وهي تُتوَّج بظهور الماشيَّح وبعودة جماعة يسرائيل من المنفى إلى فلسطين ، ومن هناك فإنه سيحكم العالم ، وستسود جماعة يسرائيل على العالمين ، هذا هو الجانب التاريخي . وإذا كانت حالة النفي مرتبطة بالانكماش والحدود والفرائض والانسحاب ، فإن حالة التيقون مرتبطة بالتحرر الكامل من الحدود ، كما أنها مرتبطة بالترخيصية والإباحية الكاملة ، وهذا هو ما كان يفعله المشحاء الدجالون ، وهو الجانب النفسي أو الأخلاقي للإصلاح (تيقون) . وسينتهي التيقون بأن يُجمِّع الإله ذاته ويتوحد مع نفسه بعد تجميع الشرارات المبعثرة كما أنه سوف يتوحد مع شعبه (وسوف نكتشف أن الشعب اليهودي هو في واقع الأمر الشرارات الإلهية المشتتة) . ومعنى هذا أن اليهود هم جزء من الإله ، فهم الإله أو على الأقل أحد تجلياته . وهم إلى جانب ذلك الأداة التي تسترد بها الذات الإلهية وحدتها ، فهم بذلك الأداة والغاية . وهم أيضاً سبب النفي (بذنوبهم)، وهم وسيلة العودة (بصلاحهم وتقواهم) . فاليهودي هو مركز الكون وسيده . وهكذا نُلاحظ دائرية النسق القبَّالي الحلولي المغلق .

ويُلاحَظ هنا كيف ارتبط التأمل في المعنى الباطني للتوراة ، وكذلك تلاوة الصلوات وأداء الفرائض (وكلها أمور فردية ذاتية باطنية) ، بحدث كوني مثل ولادة الإله ، وكيف تتوحد ذاته من خلال حدث تاريخي هو ظهور الماشيَّح وعودة جماعة يسرائيل . وقد انعكس كل هذا مرة أخرى على عالم الفرد والباطن ، بالترخيصية

وإبطال الحدود والشرائع في العصر المشيحاني، فيتداخل الكون والإله والإنسان والزمان وكل شيء.

ومما يجدر ذكره أن تجربة يهود إسبانيا (طردهم منها) تشكل الصور المجازية الأساسية في القبّالاه اللوريانية، فالنفي والتبعثر والشتت كانت حقائق أساسية في حياتهم، وكان الاهتمام بالباطن دون الظاهر سمة أساسية لتجربة المارانو. وقد تبدّى فقدانهم السلطة، مع رغبتهم الحادة فيها، في فكرة مركزية اليهود في الكون واعتماد الإله عليهم، وتوقعهم وصول الماشيّح الذي سيجعلهم أسياد الأرض. ومع هذا، تظل الصور المجازية الأساسية الخاصة بالأب والابن والأم والشخيناه صوراً مجازية مسيحية.

الانكماش (تسيم تسوم)

Tsimtsum

لفظة «الانكماش» هي الترجمة العربية لكلمة «تسيم تسوم»، وهي كلمة وردت في المدراش لتشير إلى عملية انكماش الخالق حتى يدخل قدس الأقداس في الهيكل، وهذا هو أصلها الحلولي. ولكن إسحق لوريا استخدم الكلمة بطريقة مغايرة أو بالأحرى عمّق مدلولها الحلولي. فالانكماش عنده هو العملية التي من خلالها ينكمش الخالق إلى نقطة داخل نفسه (الوسط) وهو انكماش يَنتُج من تركّز (وهذا بخلاف الانكماش في المدراش حيث ينكمش الخالق ليدخل في مكان آخر غير ذاته) ثم تَصدُر عنه التجليات النورانية العشرة بعد ذلك. ومن منظور لوريا، كان الخالق يملأ الوجود باعتبار أن الذات الإلهية لا نهائية ولا تقبل التجزئة، ولا يوجد مكان لا يملؤه الحضور الإلهي. وهذه الذات لا تسمح بوجود شيء آخر، ولتتم عملية الخلق كان لابد أن تنكمش هذه الذات. ولكن هناك رأياً آخر يذهب إلى أن الانكماش هو محاولة، من جانب الخالق، لا لخلق فراغ وحسب وإنما لتطهير ذاته التي كانت تضم عناصر غير إلهية. ومن ثم، فإن الذات الإلهية لم تكن قط لا طاهرة ولا متوحدة، كما أن عملية توحد الذات الإلهية وتخليصها مما فيها من أدران إن هي إلا عملية تاريخية تُستكمل في نهاية التاريخ. والواقع أن هذه فكرة حلولية متطرفة يعقبها حادث تهشُّم الأوعية (شفيرات هكليم)، وأخيراً الإصلاح (تيقون).

ويمكن تفسير بعض مصطلحات دريدا ما بعد الحداثية في ضوء فكرة تسيم تسوم، فالانكماش والاختفاء هو الغياب الكامل (الذي يعقب الحضور الكامل أو حالة البليروما في المنظومة الغنوصية) وحضور التجليات النورانية هو بداية الحضور.

تهشم الأوعية (شفيرات هكليم)

Chevrat Hakelim

«تهشُّم الأوعية» هي ترجمة عبارة «شفيرات هكّليم» العبرية (من فعل «شافار» بمعنى «حطَّم»)، وتَهشُّم الأوعية مفهوم أساسي في القبّالاه اللوريانية. وتقع حادثة تهشُّم الأوعية أثناء عملية الخلق، حينما تخرج من عيون الإنسان الأصلي أشعة النور الإلهي التي تأخذ شكل شرارات كان من المفترض أن تُجمَع في أوعية (كليم). ولكن الأوعية كانت أضعف من أن تتحمل هذا النور، فتهشَّمت وتبعثرت. والحادثة رمز شتات الشعب اليهودي، وهي فكرة حلولية مغالية تربط بين الوجود الإلهي والشعب. وتدور القبّالاه اللوريانية حول ثلاث أفكار: الانكماش (تسيم تسوم)، وتهشُّم الأوعية، وأخيراً الإصلاح (تيقون). وهو تكوين ثلاثي يشبه تكوين: الخطيئة ـ النفي ـ الإصلاح والعودة.

الشرارات الإلهية (نيتسوتسوت)

Nizozot

«الشرارات الإلهية» هي الترجمة العربية للكلمة العبرية «نتسوتسوت». والمصطلح تعبير قبّالي يشير إلى الشرارات الإلهية التي تُحبَس في المادة بعد حادثة تهشُّم الأوعية حسب القبّالاه اللوريانية.

إصلاح الخلل الكوني (تيقون)

Tikkun

«إصلاح الخلل الكوني» هي الترجمة العربية لكلمة «تيقون»، وهي كلمة عبرية معناها «إصلاح». وتتحدد عملية الإصلاح بعد تخليص الشرارات الإلهية المبعثرة بعد انكماش الإله (تسيم تسوم) وبعد حادث تهشُّم الأوعية. والهدف من عملية الإصلاح أن يصل الإله إلى وحدته ويعم الخلاص العالم، وهي عملية كونية تاريخية شاملة يشارك فيها الجنس البشري بأسره، ولكنها تعتمد بالدرجة الأولى على جماعة يسرائيل. ويضمر المصطلح فكرة أن الذات الإلهية لا تشكل وحدة كاملة لا في الماضي ولا في الحاضر، وأنها ستصل إلى هذه الوحدة في المستقبل من خلال جهد الإنسان وهذه فكرة حلولية متطرفة.

موسى كوردوفيرو (١٥٢٢-١٥٧٠)

Moses Cordovero

عالم قبّالي من أصل إسباني. تتلمذ على يد يوسف كارو،

ويُعدُّ حلقة الوصل بين قبَّالاة الزوهار (التأملية) والقبَّالاه اللوريانية (المشيحانية) إذ كان لوريا تلميذاً لكوردوفيرو . أهم أعماله **برديس ريمونيم** (حديقة الرمّان) ، وهو عرض واف وواضح لتعاليم القبَّالاه يتناول فيه العلاقة بين اللامحدود والمحدود ، والتجليات النورانية العشرة ، وعلاقة الإله بالكون . وقد كتب موسى كوردوفيرو ثلاثين كتاباً آخر ، من بينها تعليق على الزوهار ، أحرز ذيوعاً بين أعضاء الجماعات . وهو يُعَدُّ آخر ممثل لقبَّالاة الزوهار التأملية .

ولم يبالغ كوردوفيرو في تأكيد أهمية الرموز والأساطير القبَّالية ، وخصوصاً العناصر الجنسية وأسطورة قوة الشر (سترا أحرا) . وتَوصَّل إلى أن الذات الإلهية خالية تماماً من الشر ، وأن جذور الشر توجد في الكون ، في اختيارات الإنسان الأخلاقية .

ويبدو أن إسبينوزا قد استقى رؤيته الحلولية للإله من كتابات كوردوفيرو ، فقد كتب لصديقه أولندبرج أنه استقى أفكاره من فيلسوف يهودي قديم (وكان يعني كوردوفيرو) . ويمكن هنا أن نرى أن الحلولية اليهودية تتسلسل من التلمود إلى القبَّالاه ، ومن القبَّالاه تتفرع إلى لوريا وشبتاي تسفي ، وإلى إسبينوزا والعلمانية .

إسحق لوريا (١٥٣٤-١٥٧٢)

Isaac Luria

ويُعرف لوريا أيضاً باسم «هاآري هاقدوش» أي «الأسد المقدَّس» . ويشار إليه أيضاً باسم «الإشكنازي» ، واختصار اسمه هو «آري» . وُلد إسحق لوريا في القدس لأب إشكنازي يعمل بالتجارة وأم سفاردية . درس في مصر التلمود واشتغل بالأعمال التجارية ، لكن الدراسات القبَّالية استغرقته تماماً . ويُقال إنه اعتكف في جزيرة الروضة في المنيل لمدة سبع سنوات حيث تأمل في الزوهار ودرس أعمال كوردوفيرو وعاش حياة الرهبان . وفي عام ١٥٦٩ ، استقر لوريا ، هو وأسرته في صفد حيث تجمعت حوله مجموعة من الطلبة والحواريين والمريدين ، ومات في هذه المدينة بعد عامين .

ولم يكن لوريا مفكراً منهجياً ، وإنما كان متصوفاً أضاف مجموعة جديدة كاملة من الصور والرموز إلى التراث القبَّالي ، وذلك من خلال تفسيراته لكتاب الزوهار التي أعلن أنها كشف أتاه به إلياهو . ولم يبق مما كتب لوريا سوى بعض مؤلفات غير مهمة لا تتضمن أفكاره الجديدة ، لأنه نقل القبَّالاه اللوريانية لطلبته شفهياً ، فقاموا بتدوينها ثم تداولها الناس . وبرغم وجود اختلافات كثيرة بين الكتابات التي دونّها تلاميذه ، فإن الموضوع الأساسي يظل واحداً وهو تأكيد فكرة الخلاص والعودة ، الأمر الذي يعكس النزعة المشيحانية التي بدأت في صفد وغيرها من المدن في القرن السادس عشر .

وقبل أن يبدأ في نشر تعاليمه الصوفية ، كان لوريا يقرض الشعر . ويضع بعض القبَّاليين أقواله في مرتبة أعلى من الشولحان عاروخ (كتاب اليهودية الأرثوذكسية الأساسي) . ومن أهم تلاميذ لوريا : يوسف بن طابول ، وإسرائيل سروج ، وحاييم فيتال ، أولئك الذين أشاعوا آراء أستاذهم .

حاييم فيتال (١٥٤٣-١٦٢٠)

Hayyim Vital

يهودي من أصل إيطالي ، وأحد أتباع إسحق لوريا في صفد في آخر سني حياته (١٥٧٠ - ١٥٧٢) . وبعد موت لوريا ، أعلن فيتال أنه هو وحده المحتفظ بتعاليمه . وقد كان فيتال يتفاخر أمام تلاميذه بأن روحه هي روح الماشيَّح بن يوسف ، وأنها معصومة من خطيئة آدم . وقد نُشرت مذكراته عن أسرار القبَّالاه اللوريانية ، الأمر الذي أدَّى إلى ذيوعها . ولولاه لما أحرزت القبَّالاه اللوريانية هذا الانتشار ، ذلك أن لوريا نفسه لم يترك أية نصوص مكتوبة إذ كانت الدروس التي يلقيها شفهية .

يوسف بن طبول (١٥٤٥- بداية القرن ١٧)

Joseph Ibn Tabul

قبَّالي ، من أهم تلاميذ إسحق لوريا . جاء من المغرب (ولذا كان يُقال له يوسف المغربي) ، وانضم إلى حلقة لوريا في صفد (عام ١٥٧٠) حيث مكث بعد موت معلمه . ونشأت بينه وبين حاييم فيتال بعض المشاحنات ، فذهب إلى مصر واستقر فيها بضع سنوات في شيخوخته . ويُعَدُّ شرحه لأفكار لوريا من أهم مصادر القبَّالاه اللوريانية .

إسرائيل سروج (؟ -١٦١٠)

Israel Sarug

قبَّالي مصري ، وُلد لأسرة حاخامية قبَّالية . تعرَّف إلى إسحق لوريا أثناء وجوده في مصر ، ودرس تعاليمه . واطلع سروج على كتابات بعض أتباع إسحق لوريا (حاييم فيتال ويوسف بن طابول) . وفي إيطاليا ، نشر سروج تعاليم القبَّالاه اللوريانية بين عامي ١٥٩٤ و١٦٠٠ ، ومات عام ١٦١٠ .

يعقوب أبو حصيرة (١٨٠٧-١٨٨٠)
Jacob Abu-Hasira

هو يعقوب (الثاني) ابن مسعود . من علماء القبَّالاه ، وله عدة مؤلفات عن التوراة والقبَّالاه نُشرت كلها في القدس . سافر من المغرب إلى فلسطين ، وفي الطريق ، نزل دمنهور حيث عمل إسكافياً ، وبدأت علاقته تتوطد مع اليهود المقيمين فيها وجمعته صداقة حميمة بأحد التجار من أعضاء الجماعة اليهودية . وبعد وفاته ، صرح صديقه بأن ابن مسعود توقَّع موته قبل أن يموت بأيام ، وهو ما أحاط موته بهالة أسطورية . ويُقال أيضاً إن أحد أصدقائه أراد نقل جثمانه إلى الإسكندرية ، وأثناء نقل الجثة هطلت الأمطار بشدة ، ففُسِّر هذا بأنه تعبير عن رغبته في أن يظل مدفوناً بقرية ديمتوه القريبة من دمنهور . ويُقال إنه سُمِّي «أبا حصيرة» لأنه أثناء سفره بحراً إلى سوريا تحطمت السفينة التي كانت تقله وهوت إلى القاع ومات كل من عليها إلا يعقوب الذي استطاع أن يطفو فوق حصيرة على سطح الماء حتى وصل إلى سوريا . ومن الواضح أن هذا تفسير شعبي أسطوري لأن اسم الأسرة يعود إلى القرن السادس عشر الميلادي . وهو من كلمة «حصير» العبرية وهي من كلمة «حضرة» أو بلاط الملك . و«حصيرة» على هذا تدل على أنه كان من عائلة مُقرَّبة من السلطان بالمغرب .

وقد بنى اليهود له ضريحاً في قرية ديمتوه وكانوا يذهبون إليه للتبرك به ، واتخذوا من مقبرته ما يشبه حائطاً جديداً للمبكى حيث يُقام الاحتفال بمولده كل عام . وبعد توقيع اتفاقيات كامب ديفيد ، سمحت الحكومة المصرية للإسرائيليين بزيارة المقبرة ، ويأتي لها مئات القاصدين من أنحاء العالم ، وبالذات إسرائيل .

وقد هاجرت أسرة أبي حصيرة من المغرب إلى إسرائيل ، ومن بين أفرادها كبير حاخامات الرملة وأحد الوزراء وهو أهارون أبو حصيرة مؤسس حزب تامي الذي يعبِّر عن مصالح اليهود المغاربة .

أدولف جيلينك (١٨٢٠-١٨٩٣)
Adolph Jellinek

واعظ وعالم يهودي عاش في فيينا . وُلد بالقرب من مدينة برودني ، وتعلم تعليماً دينياً تقليدياً . وقد تشبَّع بالحلولية اليهودية ، وبدأ يقبل علمنة اليهودية إلى أن تحوَّل لليهودية الإصلاحية ، وعُيِّن واعظاً في معبد إصلاحي . وكما هو الحال في المنظومات الحلولية ، تتداخل الحدود وتتآكل وتتساوى كل الأمور والعقائد . وقد أسَّس ، هو وبعض الوعاظ المسيحيين ، كنيسة عالمية تقبل عضوية اليهود والمسيحيين . وقد كان جيلينك عضواً قيادياً في مجلس رابطة الدفاع عن المواطنين الألمان في البلاد السلافية ، أي أنه كان يدافع عن فكرة الشعب العضوي الذي لا يتغيَّر انتماؤه بتغير المكان ، وهي فكرة حلولية أصبحت فكرة محورية في كلٍّ من النازية والصهيونية بعد ذلك . وفي عام ١٨٥٧ ، عُيِّن واعظاً في أحد معابد فيينا .

وفي عام ١٨٦٢ ، أسس جيلينك أكاديمية بيت هامدراش حيث كان هو ومفكرون يهود آخرون يلقون المحاضرات . وكان جيلينك يُعَدُّ من أكثر الوعاظ صيتاً في عصره ، وقد نشر حوالي مائتي موعظة نُشرت ترجمات لها . وتتسم هذه المواعظ بأنها كانت تتناول قضايا معاصرة من خلال مناهج التفسير التلمودية الوعظية القصصية والمدراشية .

وكان جيلينك شديد الاهتمام بالقبَّالاه ، فترجم دراسة عنها إلى الألمانية ، وكتب عدة دراسات من أهمها **الفلسفة والقبَّالاه** ، كما حرَّر أعمال إبراهيم أبي العافية حيث بيَّن أن دي ليون هو مؤلف الزوهار . وحرَّر جيلينك كذلك معجماً بالمصطلحات الأجنبية في التلمود والمدراش والزوهار ، وأعمال ابن فاقودة . وقد نشر جيلينك تسعة وتسعين موعظة (مدراش) قصيرة في ستة أجزاء تُعَدُّ في غاية الأهمية لدراسة القبَّالاه ، وله دراسات أخرى تاريخية . وكان جيلينك أحد المسئولين عن مشاريع البارون دي هيرش التوطينية ، وقد تنصَّر ابن جيلينك بعد موته .

ويذكر الأستاذ الدكتور صبري جرجس في مؤلفه المهم **التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي** أن عظات جيلينك هي الرابطة بين أبي العافية وفرويد . ويطرح الدكتور جرجس السؤال التالي : إذا ما نظرنا إلى التشابه الكبير بين طريقة تفكير أبي العافية ومنهجه في التفسير من ناحية ، ومنهج الترابط ومفاهيم اللاشعور والتوحد والاستبصار عند فرويد من ناحية أخرى ، فهل من المحتم أن يكون فرويد قد اطلع على التراث القبَّالي كما وضعه أبي العافية نصاً وتفصيلاً ونقل عنه ؟ والجواب المرجح الذي يطرحه الدكتور جرجس أنه "برغم تضلع فرويد في اليهودية وإلمامه إلماماً شاملاً وعميقاً بالتوراة ، ورغم تعمقه في دراسة ما ظهر من مبادئ اليهودية وما خفي ، فليس من الحتمي أن يكون فرويد قد اطلع على التراث القبَّالي تفصيلاً لينقل عنه أو ليتيسر له إعادة صياغة الكثير من مفاهيم ذلك التراث بلغة العصر وأسلوبه ، حسبه أنه عاش أكثر من نصف حياته في القرن التاسع عشر حين قام فريق من علماء اليهود الأوربيين (ومن بينهم أدولف جيلينك) بدراسة طبيعة القبَّالاه بالمنهج العلمي الغربي الحديث ، وحسبه أنه كان يعيش في فيينا حيث كان جيلينك يعيش ، وحسبه أن تلك العظات التي كان جيلينك يلقيها كل أسبوع

كانت تظل حديث الأسبوع كله بين سكان المدينة من اليهود ، وحسبه أن هذه العظات قد امتدت سبعاً وثلاثين سنة (١٨٥٦ - ١٨٩٣) ، وهي السنوات السبع والثلاثون الأولى من حياة فرويد . أجل ، حسب فرويد أن تكون له كل هذه الارتباطات اليهودية الأصيلة والمتشعبة والعميقة لتظل صلته المباشرة أو غير المباشرة بالتراث اليهودي قائمة وفعالة ، وحسبه أنه كان يعيش في المناخ الفكري والوجداني والروحي للبيئة القبّالية التي سادت حياة اليهود في جاليشيا وانحدر منها هو وغالبية يهود فيينا . حسبه كل ذلك لكي يتوحد بتفكيره مع الأصول التي قام عليها التفكير القبّالي في هذا العصر أو ذاك من تاريخه الطويل ، ولكي يستمد الكثير من مفاهيمه مضامينها من الأيديولوجيا القبّالية ، حتى وإن اختلفت الصياغة وتباينت أحياناً وجوه التطبيق .



١٠
السحر والقبَّالاه المسيحية

السحر ـ الجولم ـ نوستراداموس ـ فولك ـ القبَّالاه المسيحية ـ فلافيوس ميثرادتس ـ بيكو ديللا ميراندولا ـ ريسيوس ـ ريوشلين ـ إلياهو دا نولا

السحر
Magic

«السحر» هو محاولة التحكم في الطبيعة عن طريق صيغ سحرية خفية. وإذا كانت الطبيعة تعبِّر عن سنن الإله في الكون، فإن تحدي قوانينها هو تحدٍّ للإرادة الإلهية وتحدٍّ لمقدرة الإله. وثمة تمييز دائم بين السحر الأبيض والسحر الأسود، فالأول يهدف إلى حماية الإنسان من الأرواح الشريرة ويهدف الثاني إلى إلحاق الأذى بالآخرين. ولكنه، مهما كان مضمون السحر، أبيض كان أو أسود، فهو يعبِّر عن رغبة إمبريالية فاوستية عارمة في التحكم في الإنسان والكون والإله. والمؤمن بالعقائد التوحيدية يؤمن بإله قادر متجاوز للطبيعة لا يمكن تحدي مقدرته. ومن ثم فالسلوك الإنساني الأمثل هو سلوك أخلاقي (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر). أما العقائد الحلولية، فترى أن الإله يحلُّ في الإنسان وتصبح إرادة الإنسان من إرادة الإله ومن ثم تصبح السيطرة على الإله ممكنة والوصول إلى الغنوص أو الصيغة السحرية أمراً متاحاً. ولذا، فإن العبادات الحلولية دائماً مرتبطة بالسحر.

ورغم أن الطبقة التوحيدية في التركيب الجيولوجي اليهودي تتبدَّى في الحث على السلوك الأخلاقي، فإننا نجد أن الطبقة الحلولية أكثر شيوعاً وتجذراً. وقد ساعد على شيوع السحر تَنقُّل العبرانيين بين شعوب وثنية تؤمن بالحل السحري (مثل المصريين القدامى والكنعانيين والبابليين ثم الفرس والمراحل الأخيرة من العصر الهيليني). وقد تبلور كل ذلك في الغنوصية التي تدور حول محاولة الوصول إلى الغنوص والحل السحري، والتي ضمت في صفوفها كثيراً من أعضاء الجماعات اليهودية.

ويوجد في العهد القديم هجوم على السحر والسحرة (لاويين ٢٠/٦، ٢٧؛ تثنية ٢٢/١٨) حيث يُعتبر السحر رجساً ونجاسة ودنساً. ومع هذا، فهناك إشارات في العهد القديم إلى قبول السحر كوسيلة مشروعة. وهناك حادثة أليشع وهو ينصح الملك يوآش أن يتنبأ بغرض النصر ضد آرام عن طريق رمي السهام (ملوك ثاني ١٣/ ١٤ ـ ١٩). وقصة شمشون لا يمكن فهمها إلا في إطار أنها قصة ساحر يُعدُّ شَعره مكمن قوته وحياته بالنسبة إليه. ولعل أحجار أوريم وتوميم على رداء الكاهن الأعظم، وعمودي بوعز ويوقين في الهيكل، كانت لها وظائف سحرية. كما أن حادثة أصنام الترافيم تدل هي الأخرى على الإيمان بالسحر بشكل أو بآخر.

ويجب التمييز بين هذه الحوادث وأحداث أخرى في العهد القديم، خصوصاً في كتب الأنبياء، حيث يتنبأ الأنبياء لا كالعرافين والسحرة، وإنما انطلاقاً من إيمانهم بالإله الواحد ومعرفتهم لا بإرادته وإنما بنسقه الأخلاقي، فهو حتماً سيعاقب المذنبين ويثيب التائبين. وبالتالي، فإن التنبؤات الخاصة بسقوط القدس ليست عمليات تنجيم وإنما هي ما يمكن تسميته بـ«النذير». ويمكن رؤية معجزات الأنبياء والرسل في الإطار نفسه، فهي ليست تحدياً بشرياً للإرادة الإلهية بقدر ما هي تدخُّل إلهي يخرق سنن الطبيعة لتوصيل رسالة ما للبشر. والشعائر التي يقوم بها المؤمن تختلف تماماً عن الشعائر السحرية، فالشعائر التي يقوم بها المؤمن تهدف إلى إظهار طاعة المخلوق لخالقه ومحاولته التقرب منه، وجوهرها أن تتنازل الإرادة الإنسانية للإرادة الإلهية. أما الشعائر في الإطار السحري، فهي تهدف إلى التقرب من الإله ثم تحويل إرادته. ولعل هذا هو السبب في تأكيد الصراع بين يوسف وسحرة مصر (تكوين ٤١) ودانيال والسحرة في البلاط البابلي (دانيال٢) والصراع بين موسى وهارون من ناحية وعرافي مصر وسحرتها من ناحية أخرى (خروج ٧)، حيث يستخدم سحرة مصر سحرهم الخفي، أما موسى فيستغيث بالله الذي يغيثه. ولهذا، فإن نبوءات الأنبياء ومعجزاتهم والشعائر التي يؤديها المؤمنون مختلفة تماماً عن السحر والشعائر التي يقوم بها السحرة، بل تقف على النقيض منها.

ومهما يكن الأمر، فقد أصبح السحر اليهودي انعكاساً للوثنية السائدة في الشرق الأدنى في العصور القديمة إذ سقطت في الحلولية والوثنية والسحر تدريجياً، ثم بشكل سريع ابتداءً بالكتب الخفية (أبوكريفا)، ثم التلمود وأخيراً القبَّالاه حيث تدور القبَّالاه العملية

بأسرها حول السحر . ولكن المفارقة أن نصوص العهد القديم أصبحت المادة الخام التي تُستخدَم للوصول إلى الصيغة السحرية ، ففي منظومة الحلولية عادةً ما يصبح النص المقدَّس موضع الحلول الإلهي ويصبح النص جسد الإله ، ومن يتحكم في النص يتحكم في الخالق . وقد أدَّى ذلك إلى ظهور مفهوم التوراتين (التوراة المكتوبة والتوراة الشفوية) الذي تطور ليصبح توراة الخليقة الظاهرة وتوراة الفيض الباطنية التي لا يصل إليها إلا من يمتلكون مقدرات خاصة على التفسير ، وهي التوراة التي يمكن عن طريقها الوصول إلى الصيغة السحرية . ولذا ، فقد كانت هناك فقرة (عدد ١٢/ ١٣) تصف شفاء مريم من البرص كتعويذة ضد الحمى . وكان مزمور ٩١ من أهم التعويذات على الإطلاق . وحتى لا تفهم الشياطين مضمون الفقرات التوراتية كان السحرة يلجأون إلى الاختصارات فكان يُنطَق بكلمة هي عبارة عن الحروف الأولى في الكلمات التي تشكل الفقرة التوراتية أو يُنطَق بحرف واحد يرمز للكلمة كلها (وهو أسلوب يعرف باسم «نوتاريكون») أو ينطق بالمعادل الرقمي للكلمة (أسلوب الجماتريا) . وكثيراً ما كانت هذه التحويرات تستقل عن أصلها لتصبح كلمات مستقلة مثل كلمة «أبرا كادبراه abracadabra» التي يبدو أنها عبارة آرامية للإشارة إلى أحجار أبراكساس ، وهي أحجار عليها حروف وأرقام كانت تُستخدَم لأغراض سحرية . وقد أصبحت كلمة «أبرا كادبراه» الصيغة المستخدمة لشفاء الأمراض .

وكان يُظن أيضاً أن اسم الإله ، شأنه شأن التوراة ، هو نفسه جسد الإله ، ومن يتحكم في اسم الإله الأعظم (يهوه أو التتراجراماتون) يتحكم في الإرادة الإلهية . وقد استخدم اسم «شابريري» (شيطان العمى) فكان اسمه يُكتَب على هيئة مخروط مقلوب :

شابريري

شابرير

شابر

شا

وكان هذا المخروط المقلوب يُوضَع في حجاب يُلَف على رقبة المريض .

وإلى جانب السحر المرتبط بالنصوص والأرقام ، يوجد السحر المرتبط بالحروف ، وقد اكتسبت الأبجدية العبرية أهمية خاصة في السحر . ويُتداول حتى الآن في أرجاء العالم عدد كبير من التعاويذ والأحجبة التي تحتوي على حروف عبرية . كما أن نجمة داود نفسها كانت ذات دلالة بين المشتغلين بالسحر من اليهود وغير اليهود . بل إن الشعائر الدينية نفسها بدأت تتحول بالتدريج واكتسبت مضموناً سحرياً إذ أصبح الهدف منها السيطرة على الذات الإلهية أو على الأقل مساعدة الإله في إصلاح الخلل الكوني (تيقون) الذي يستعيد الإله من خلاله توحُّده ووجوده . ولذا ، كانت الصلاة اليهودية تؤدَّى باعتبار أنها تساعد في الزواج المقدَّس (زواج العنصر الذكوري في الذات الإلهية بالعنصر الأنثوي) . وبالتدريج ، أصبحت صياغة الصلوات وطريقة تلاوتها أكثر أهمية من الرؤية الفلسفية الكامنة وراءها . وأصبح الإيمان بالملائكة ليس إيماناً بالغيب ويحدود ذات الإنسانية وإنما الإيمان بأرواح يمكن رشوتها وتوظيفها ، والشياطين هي قوى يمكن خداعها عن طريق تلاوة الأدعية بالآرامية (مثلاً) . بل إن كل الأوامر والنواهي فقدت مضمونها الأخلاقي الديني وأصبحت بمنزلة الشعائر السحرية . وظهرت شعائر مثل الـ «تشليخ» حيث يقوم اليهود بنفض ذنوبهم في الماء ، وشعيرة «كاباراه» في ليلة يوم الغفران حيث تُذبَح دجاجة بعد أن تُمرَّر على رؤوس بعض اليهود لغسل الذنوب أيضاً . وقد وصلت كل هذه الاتجاهات إلى قمتها في الحركة الحسيدية حيث أصبح بوسع التساديك أن يغير الإرادة الإلهية عن طريق أداء بعض الشعائر والحركات ، كما كان يبيع لأتباعه الأحجبة الكفيلة بتحقيق السعادة لهم فيما يشبه صكوك الغفران . ومع حركات شبتاي تسفي ، يحل السحر تماماً محل الدين وتصبح الرقية والتعويذة والصيغ السحرية مركز العبادة . وقد وجدت قيادة الجماعة اليهودية منذ نهاية القرن السابع عشر تجارة رابحة في مثل هذه الأشياء . ومع حركة الاستنارة ، بدأ ظهور العلم وبدأ البحث عن الصيغة العلمية لحل كل المشاكل ، فتراجعت بالتالي الصيغة السحرية ، إذ حلت الصيغة العلمية محلها .

وقد ارتبط أعضاء الجماعات اليهودية في الوجدان الغربي بالسحر للأسباب التالية :

١ ـ لعل أهم الأسباب هو الرؤية التوراتية لليهود باعتبارهم شعباً مقدَّساً ، فالشعب المقدَّس عنده مقدرات عجائبية ولا شك ، فهو موضع الحلول الإلهي الذي يعيش خارج الزمان . وقد أصبح الشعب المقدَّس هو الشعب الشاهد الذي يعيش على هامش المجتمع مع الشخصيات الهامشية مثل العرافين والسحرة . وفي الرؤية البروتستانتية الألفية ، تحوَّل اليهود أنفسهم إلى ما يشبه الصيغة السحرية ، إذ أن الخلاص قمين بعودتهم إلى أرض الميعاد وتَنصُّرهم .

٢ ـ وقد عمَّق من هذا كله تحوُّل اليهود إلى جماعة وظيفية تعيش في المجتمع دون أن تكون منه في وقت كان فيه أعضاء الجماعات

اليهودية الوظيفية يعملون بالتجارة والربا . وفي المجتمع الإقطاعي ، كان الفلاح يعمل بالزراعة والنبيل يعمل بالحرب والقسيس يعمل في الكنيسة ، أي أن الجميع كانوا يعيشون من ثمرة عملهم . أما اليهودي ، فكان يبدو وكأنه لا يعمل ، فقد كان يحرك رأس ماله وحسب أو كان يحرك السلع من مكان لآخر ليحقق أرباحاً طائلة ، فظهرت العملية كلها وكأنها سحر .

٣ـ ومما رسَّخ هذه الرؤية في الوجدان الغربي أن أعداداً كبيرة من أعضاء الجماعات اليهودية كانوا يعملون فعلاً بالسحر . والتلمود ، في كثير من أجزائه ، هو كتاب سحر ، كما أن القبَّالاه العملية هي ، أولاً وأخيراً ، انشغال بالسحر وبمحاولة الوصول إلى الصيغة السحرية . وقد كانت الحركات المشيحانية ، التي كانت تكتسح أعضاء الجماعات اليهودية من آونة لأخرى ، حركات تعبِّر عن الإيمان بالحل السحري . ولعل ارتباط أعضاء الجماعات اليهودية بالسحر في الوجدان الغربي ، ومن ثم بالشيطان ، هو أهم أسباب معاداة اليهود والدافع وراء كثير من الهجمات الشعبية عليهم .

الجولم

Golem

«الجولم» في التراث الديني اليهودي هي الصورة الحية أو تلك الصورة التي مُنحت الحياة كنتيجة لاستخدام كلمات ذات قيمة سحرية وحلولية . وقد ظهر المُصطلَح في التوراة (الإصحاح ١٢٩/ ١٦) بمعنى المادة الجنينية غير المُشكَّلة . وبهذا المعنى يدعو التلمود آدم بالاسم «جولم» في ساعاته الأولى قبل أن تُنفَخ فيه الروح ، وهذه المرحلة توصف بأنها المرحلة الثالثة في خلق آدم .

وتتم صناعة أو تخليق الجولم بصياغة المادة الخام أو الأرض أو الأدمة على الهيئة التي يرغبها الصانع ثم تُكتَب «الكلمة» أو «اسم الإله» على الرأس أو الموضع الأعلى ، ومن ثم تكتسب المادة الخام القدرة على الحياة .

وحسبما جاء في الأساطير الشعبية للجماعات اليهودية في وسط أوربا وشرقها ، يقوم الجولم بحمايتهم ومساعدتهم على التخلص من كثير من المصاعب ، وهو الخادم المطيع الذي يسمع أوامرهم وينفذها ، فالجولم لا يستطيع الكلام أو التعبير ولكنه مُنفِّذ لأوامر سيده . وثمة ارتباط بين كلٍّ من أسطورة الجولم ورؤى «الأبوكاليبس» ونهاية العالم ، فمثلاً نلاحظ ازدهار الأساطير الجولمية في الوقت نفسه الذي ازدهرت فيه رؤى الأبوكاليبس والتبشير بالخلاص . ففي نهاية العصور الوسطى ، مع ازدياد الإيمان بالسحر وازدياد الحاجة للخلاص وبداية تصاعد الحمى المشيحانية ، انتشرت وسط جماعات يهود اليديشية أساطير الجولم وقدرة الخلق باستخدام الاسم أو الكلمة وقيل إن إلياهو الشلمي (وهو رجل دين عاش في القرن السادس عشر) قد خلق جولم باستخدام «اسم الإله الأعظم» حتى أنه لُقِّب بـ «سيد الاسم» أو «بعل شيم» .

ومن أهم الشخصيات اليهودية المرتبطة بأسطورة الجولم في تاريخ يهود اليديشية الحاخام يهودا لوف البراغي (١٥١٣ـ١٦٠٩) . وقد ساعد هذا الجُولم الذي خلقه هذا الحاخام ، كما تقول الحكايات، على إنقاذ اليهود من متاعب كثيرة وفضح كذب تهمة الدم التي وجهت إليهم . وقيل إن الحاخام قد خلق هذا الجولم بأمر إلهي ، وكشف له في المنام عن الصيغة المقدَّسة لصياغة الجولم مع الأمر بأن تُشطَب تلك الصيغة عن الرأس يوم الجمعة لكيلا يُدنِّس الجولم السبت المقدَّس . ويُقال إن بقايا هذا الجولم ما زالت مدفونة تحت أنقاض معبد براغ القديم . ومن أشهر الذين قيل إنهم قاموا بتخليق الجولم كلٌّ من إلياهو (فقيه فلنا) ، وإسرائيل بعل شيم طوف مؤسس الحسيدية .

ومن الملاحَظ أن الأدب الجولمي أو أدب الشخصيات المخلقة قد انتشر في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في وسط أوربا وشرقها (أي موطن يهود اليديشية) ونذكر على سبيل المثال قصة الجولم للبافاري جوستاف ميرينك وقصة «دراكيولا» ذات الأصل الترانسفالي وقصة فرانكنشتاين ذات الأصل البومراني (النسبة إلى مقاطعة حدودية تقع بين تشيكوسلوفاكيا وألمانيا وبولندا) .

وقد ارتبط انتشار قصص الجولم وأساطير تخليقه بفترة ازدياد الاتجاه للعلمنة . فقبل القرن السادس عشر كان الجولم مجرد أسطورة تفسيرية ، لكن الجولم تحوَّل بعدئذ إلى واقع متخيَّل . فهو تجسيد أسطورة الخلق العلمانية ، فبالإمكان استخدام الاسم الأعظم أو «الكلمة» (أي المعرفة العلمية أو «القانون العلمي») لتكوين المخلوق ، وهو الاتجاه نفسه الذي كان سائداً في أوربا منذ بداية عصر الإصلاح الديني حيث بدأ يسود الاعتقاد بأن الفرد (لا الكنيسة) هو موضع الحلول الإلهي وهو منقذ ذاته ومخلصها ، وهي الفكرة التي أصبحت في السياق العلماني الإيمان بأن الإنسان مكتف بذاته وأنه العبد والمعبود والمعبد ، وهو ما يمكن تسميته «تأله الإنسان» . والجولم يعبِّر عن هذا الجانب من الحلم العلماني ولكنه يعبِّر في الوقت نفسه عن جانب آخر ، وهو خوف الإنسان العلماني (وشكوكه العميقة) من هذه القوة التي ينسبها إلى نفسها . ولذا ، فإن الجولم ، شأنه شأن فرانكنشتاين ، يمثل ازدواجية المنقذ المدمر ،

وهو، بالتالي ، يتيح له إسقاط مخاوفه ومتاعبه على هذه الشخصية المُخلَّقة ويعطيه هذا إحساساً بالتجاوز وأيضاً إحساساً بالقدرة على الإنجاز في فترات عدم الإنجاز والانهيار الشامل . إن الجولم يجسد لكل فرد إمكانية أن يكون صانعاً للجولم في يوم ما أو أن يكون الإله أيضاً ، وهو في الوقت نفسه الوسيلة التي يفرغ بها الإنسان مخاوفه من هذا الطريق الشيطاني . والجولم ، بهذا المعنى ، معادل وظيفي دنيوي للأيقونة المنقذة المدمرة ، أو تلك الدمية التي يصنعها الساحر أو الشامان ويخزها ليدمر الآخر أو ينثر حولها البخور والقرابين ليقوي الذات ويُقدِّم رشوة للآلهة فيمكنه أن يسلبها قوتها أو يُسخِّرها لإرادته . ومن ثم يُمثِّل الجولم دعم الذات ودمار الآخر . وتُصبح الأسطورة في ذاتها مُولِّدة لأساطير أخرى ترتبط بها ويتم من خلالها تفسير سلوك الآخر في نظر الذات أو تفسير سلوك الذات في نظر الآخر .

نوستراداموس (١٥٠٣-١٥٦٦)

Nostradamus

اسم الشهرة لميشيل نوستردام ، منجِّم وطبيب فرنسي ، وأحد أكثر شخصيات عصر النهضة في الغرب إثارة وغموضاً ، اكتسب شهرة واسعة عبر التاريخ بسبب ما يُقال عن تَحقُّق نبوءاته . وُلد في مقاطعة بروفانس في فرنسا لعائلة من أصل يهودي حيث اعتنق جداه المسيحية بعد أن خضعت مقاطعة بروفانس للحكم الفرنسي عام ١٤٨٢ وخيَّر لويس السابع رعاياه من اليهود بين الطرد أو التنصر . وقد اتخذ جده أبراهام سولومون دي سانت ماكسيمين ، بعد اعتناقه المسيحية ، اسم بيير دي نوستردام . وقد وُلد نوستراداموس مسيحياً ونشأ نشأة كاثوليكية وإن تلقَّى قسطاً من تعليمه على يد جديه (اليهوديين سابقاً) . ودرس الطب في جامعة مونبلييه ، وتخرج فيها عام ١٥٢٩ ، واكتسب سمعة طيبة بعد نجاحه في علاج كثير من الأمراض ، وخصوصاً الطاعون ، باستخدام أساليب متطورة وغير تقليدية . ولكنه فشل في علاج زوجته وأولاده عندما أصابهم الطاعون وتوفوا عام ١٥٣٨ .

وقد أمضى نوستراداموس الفترة ما بين عامي ١٥٣٨ و١٥٤٧ متنقلاً من مكان إلى آخر ، ويُقال إنه التقى في إيطاليا بيهود من القبَّاليين ثم عاد إلى فرنسا حيث اتجه اهتمامه إلى السحر والتنجيم وعالم القوى الخفية . وأصدر نوستراداموس عدداً من الأعمال في التنجيم ، كان من أشهرها على الإطلاق نبوءاته التي صدرت عام ١٥٥٥ وضمت ٣٥٠ رباعية كُتبت بلغة فرنسية وبأسلوب مبهم وغامض . وقد نُظمت الرباعيات في مجموعات ، تضم كل مجموعة مائة رباعية ، ولذلك عُرف هذا العمل أيضاً باسم «المئويات» . ولم يلق هذا العمل أي اهتمام إلا عندما تحققت إحدى نبوءاته وهي مقتل الملك الفرنسي هنري الثاني في حادث عام ١٥٥٩ . ومنذ ذلك الحين ، بدأ الاهتمام الواسع بفك غموض نبوءات نوستراداموس ومحاولة تفسيرها . وقد عُيِّن نوستراداموس عام ١٥٦٤ طبيباً للملك الفرنسي شارل التاسع ومستشاراً له .

وبرغم أن أغلب رباعيات نوستراداموس بالغة الغموض ومكتوبة بأسلوب يصعب فهمه ، إلا أن بعض نبوءات نوستراداموس قد تحقَّق بالفعل : مثل أحداث ثورتي إنجلترا وفرنسا ، وصعود وسقوط نابليون ، ونجاح الإنسان في الطيران ، وتخلِّي إدوارد الثامن عن العرش في إنجلترا ، وصعود زعيم ألماني اسمه «هيستر» الذي سيتسبب في إراقة كثير من الدماء في أوربا قبل هزيمته ، وهو ما اعتبر إشارة للزعيم النازي هتلر (ومع هذا ، لم يقم أحد بدراسة النبوءات التي لم تتحقق وعددها ونسبتها إلى إجمالي عدد النبوءات) .

ومن المعروف أن كثيراً من أعضاء الجماعات اليهودية يتجهون نحو الاشتغال بالسحر والتنجيم بسبب تأثير القبَّالاه ذات النزعة الحلولية . والواقع أن الأنساق الحلولية تجعل الهدف من وجود الإنسان ليس الاتزان مع الذات أو الطبيعة (من خلال الاعتراف بالحدود) وإنما التحكم في الواقع من خلال معرفة الإله الخفي في المادة والتاريخ) . وكانت القبَّالاه قد بدأت في الهيمنة الكاملة على الفكر الديني اليهودي ، وخصوصاً في منطقة مثل بروفانس لا تبعد كثيراً عن إسبانيا مهد القبَّالاه ، حيث وُجد فيها أيضاً عارفون بالقبَّالاه وتزايد عدد اليهود المشتغلين بما يُسمَّى «القبَّالاه العملية» ، ولعل نوستراداموس جزء من هذا الاتجاه .

ويتزايد أزمة اليهودية الحاخامية تزايد البحث عن الحل السحري ، الذي يؤدي إلى التحكم الإمبريالي الكامل في الذات والطبيعة ، بدلاً من التوازن معهما ، وهو اتجاه استمر حتى العصر الحديث ، حيث يُلاحَظ تركُّز أعضاء الجماعات اليهودية في الجماعات التي تبحث عن الحلول السحرية والتي يمكن عن طريقها حل كل المشاكل بضربة واحدة (جماعات التنويم المغناطيسي ـ العبادات الجديدة ـ التنجيم ـ الحركات السرية ـ الحركات الثورية المتطرفة) .

صموئيل فولك (١٧١٠-١٧٨٢)

Samuel Falk

يهودي قبَّالي ومغامر يُعرف باسم «بعل شيم لندن» . وُلد في جاليشيا ، وكانت تربطه علاقة وثيقة بزعماء الحركة الشبتانية . وقد

غُرف كساحر وهرب من وستفاليا خوفاً من تطبيق عقوبة الموت حرقاً عليه (وهي العقوبة التي كانت تُطبَّق على السحرة). وقد قام الأسقف حاكم كونونيا بنفيه، فوصل إلى لندن عام ١٧٤٢ حيث مكث بقية حياته. وقد أحاطت به سمعة سيئة في الأوساط اليهودية والأوساط غير اليهودية لممارساته القبَّالية التي تستند إلى استخدام اسم الإله الأعظم الخفي. ومن هنا أصبح اسمه بعل شيم (صاحب أو سيد الاسم المقدَّس). وكان يمتلك في منزله معبداً يهودياً خاصاً، وأقام معملاً قبَّالياً أجرى فيه بعض التجارب التي تهدف إلى تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب. وقد أثارت التجارب بعض الاهتمام. ومن بين من انجذب إليه تيودور دي ستاين، وهو مغامر كان يدَّعي أنه ملك كورسيكا وكان يأمل أن يحصل على ذهب يكفي لاستعادة عرشه. وكان فولك على اتصال أيضاً ببعض أعضاء النخبة مثل دوق أورليانز والأمير البولندي تشارتوريسكي والماركيز دي لاكروا. ومن الشنعات التي انتشرت حوله أنه أنقذ المعبد الكبير في لندن من الدمار بالنار، وذلك من خلال بعض الكتابات السحرية التي كتبها على عتبته. ولكن الحاخام جيكوب إمدن هاجمه باعتباره مهرطقاً شبتانياً، ولكنه وقف إلى جواره في معركته مع عائلة جولد سميد. ويبدو أن فولك كسب مراهنة، أو لعل أحد الأسر اليهودية قد أعطته ثروة صغيرة، إذ أنه مات ثرياً. وقد أوصى فولك ببعض ثروته لأعمال الخير وللحاخامية الرئيسية في لندن.

القبالاه المسيحية

Christian Kabbalah

مُصطلح «قبَّالاه مسيحية» مُصطلح يشير إلى مجموعة الكتابات التي وضعها مؤلفون مسيحيون تبنَّوا المنظومة المعرفية القبَّالية. ويذهب بعض المؤرخين إلى أن القبَّالاه المسيحية ثمرة احتكاك الفكر الديني المسيحي بالفكر الديني اليهودي الذي سيطرت عليه القبَّالاه، وأن الفكر الديني اليهودي «أثَّر» في المسيحية. ولا شك في أن مثل هذا الاحتكاك كان له أكبر الأثر في شيوع الفكر القبَّالي بين المسيحيين. ولكننا، في الواقع، نميل إلى الأخذ بنموذج توليدي في التفسير، ونذهب إلى أن ثمة طبقة غنوصية حلولية كامنة في كل المجتمعات، وخصوصاً بين الطبقات الشعبية التي تجد أن من العسير عليها أن تتجرَّد من الواقع المباشر لتدرك العالم من خلال فكرة الإله الواحد المنزَّه عن المادة التي تُخلق من العدم، فالكثرة المادية أمر تدركه حواس الإنسان بصورة أكثر يسراً من إدراك فكرة الإله الواحد المتجاوز، والكل أكثر صعوبة في إدراكه من الجزء إذ يتطلب تجرُّداً من الذات وتجاوزاً لها. وهذه الطبقة الغنوصية تولد أنساقاً دينية مختلفة، والنسق القبَّالي لا يعدو كونه أحد هذه الأنساق. ويُلاحَظ، على سبيل المثال، أن الفكر القبَّالي اليهودي قد ازدهر في مقاطعة بروفانس في الوقت الذي ازدهر فيه الفكر الغنوصي بين المسيحيين (الهرطقة الألبيجينية). وقد ازدهرت القبَّالاه اليهودية في شبه جزيرة أيبريا مع بداية ازدهار التصوُّف الحلولي المسيحي. كما أن كتاب الزوهار قد بدأ انتشاره مع ازدهار المتصوف الألماني المعلم مايستر إيكهارت Meister Eckhart (١٢٦٠ ـ ١٣٢٩). فالتربة التي ساعدت على ازدهار القبَّالاه الغنوصية بين اليهود هي نفسها التي ساعدت على ازدهار أنماط غنوصية في التفكير بين بقية أعضاء المجتمع، خصوصاً في الطبقات الشعبية. كما تنبغي الإشارة إلى أن الفكر الديني المسيحي نفسه دخلته عناصر غنوصية تبناها من الفكر الهيليني أو من العهد القديم. كما أن التأملات الثيوصوفية المسيحية مسألة تسبق ظهور القبَّالاه بزمن طويل. وقد كان الفكر الأفلوطيني (بكل منظومته الأسطورية) أمراً راسخاً هو الآخر في العقل المسيحي الرسمي والشعبي. ولعل أهم العوامل التي خلقت لدى الغرب المسيحي استعداداً كامناً قوياً لتَقبُّل القبَّالاه اليهودية هو اتجاهه نحو تبنِّي رؤية حلولية كمونية تجسدية للكون (مع نهاية العصور الوسطى)، ويتضح هذا في هيمنة الرؤية الهرمسية وشيوع فكرة اللاهوت القديم، أي أن كل الأديان تعود إلى أصل واحد، وتزايد ظهور الرؤية المعرفية الإمبريالية حيث يصبح هدف الوجود الإنساني السيطرة على الكون لا التوازن معه.

ويمكن القول بأن القبَّالاه المسيحية تعود إلى القرن الخامس عشر، وكانت تهدف إلى تحقيق عدة أغراض: محاولة تنصير اليهود عن طريق التوفيق بين أفكار القبَّالاه اليهودية والعقائد المسيحية، وإظهار أن المعنى الحقيقي للرموز القبَّالية يشير إلى اتجاه مسيحي. وهذه المحاولة لم تكن تبشيرية متعسِّفة كما قد يبدو لأول وهلة، فكثير من رموز القبَّالاه نشأت في تربة مسيحية (إسبانيا الكاثوليكية) وهي عبارة عن تشويه لهذه الرموز. كما أن الفكر القبَّالي فكر تجسيدي يجعله يقترب إلى حدٍّ ما من الفكر المسيحي. وبطبيعة الحال، فإن هناك الطبقة الغنوصية الكامنة في كلٍّ من النسق الديني اليهودي والنسق الديني المسيحي، تلك الغنوصية التي تزدحم بها صفحات العهد القديم: الكتاب المقدَّس عند المسيحيين واليهود جميعاً. وإلى جانب هذا، كانت هناك الرغبة في اكتشاف الصيغة السحرية التي يمكن التحكم من خلالها في الكون والتي عبرت عن نفسها في انتشار الرؤية الهرمسية واكتساحها كثيراً من المفكرين

الغربيين . كانت هناك رغبة وثنية عميقة سادت أوربا مع بدايات عصر النهضة غايتها التوصل إلى كل الحقيقة من خلال دراسة نصٍّ ما، وقد كان ظهور القبَّالاه مناسباً لهذا الغرض . ومع تزايد معدلات العلمنة وتصاعد الرؤية المعرفية الإمبريالية ، ازداد الاهتمام بالقبَّالاه باعتبارها مفتاحاً للعلم (كل العلم) والعالم (كل العالم) وهي الرغبة التي تحولت إلى المشروع العلمي الحديث الذي يتصور أن بوسع الإنسان الإحاطة بقوانين الحركة في الطبيعة والتحكم الكامل فيها عن طريق هذه المعرفة .

هذا هو الأساس التوليدي لتغلغل القبَّالاه ، فهو استعداد كامن في الحضارة الغربية نفسها ، كان قد بدأ يتحقق من خلال عدة عناصر داخلية . ولم يكن شيوع نصوص القبَّالاه اليهودية سوى عنصر مساعد ساهم في الإسراع بالعملية وساعد على بلورتها .

ويبدو أن عدداً كبيراً من اليهود الذين تنصروا قد ساهموا بشكل فعال في نقل الأفكار القبَّالية ، ثم انضم إليهم العديد من يهود المارانو . ومن أهم مراكز الفكر القبَّالي المسيحي الأكاديميات الأفلاطونية التي شيدها آل مدتشي في فلورنسا والتي اكتشف علماؤها القبَّالاه اليهودية والنصوص الهرمسية ورأوا أنها تحتوي على كشف إلهي للجنس البشري فُقد بعض الوقت وتم استرجاعه . وقد ذهبوا إلى أن العالم بوسعه فهم فلسفة فيثاغورس وأفلاطون بل العقيدة الكاثوليكية نفسها من خلال النصوص القبَّالية . ومن أهم الشخصيات التي ساهمت في نقل القبَّالاه إلى العالم المسيحي ، اليهودي المتنصر فلافيوس مثراديتيس Flavius Mithradites (ويُقال إنه هو نفسه صمويل نسيم أبو الفرج الذي كان يعيش في صقلية في القرن الخامس عشر) والذي ترجم مقطوعات طويلة من القبَّالاه إلى اللاتينية لتلميذه العالم الفلورنسي بيكو ديلا ميراندولا Pico della Mirandola (١٤٦٣ ـ ١٤٩٤) الذي قام بصياغة ٩٠٠ أطروحة طرحها للمناظرة العامة ، كان من بينها ٤٧ أطروحة مستقاة بشكل مباشر من القبَّالاه و٧٢ أطروحة استخلصها هو من قراءته للقبَّالاه . بل إنه ذهب إلى أن العلم القبَّالي (والسحر) أفضل السبل لإقناع الإنسان بألوهية المسيح . وتُعَدُّ هذه اللحظة النقطة التي وُلدت فيها القبَّالاه المسيحية كمنظومة تتحدى المنظومة المسيحية الأرثوذكسية أو تقوضها من الداخل (وهو الأمر الأكثر شيوعاً) . وقد بيَّن بيكو أنه يمكن التدليل على صدق عقيدة التثليث والتجسد على أساس ما ورد في القبَّالاه .

ومن أهم تلاميذ بيكو ديلا ميراندولا ، العالم الألماني يوحانيس ريوشلين Johannes Reuchlin (١٤٥٥ ـ ١٥٢٢) الذي درس القبَّالاه بعمق ونشر كتابين باللاتينية عن الموضوع : **الكلمة صادقة المعجزات** (١٤٩٤) أول كتاب باللاتينية في القبَّالاه ، **وفي علم القبَّالاه** (١٥١٧) . وقد ربط ريوشلين بين مفهوم التجسد المسيحي وفكرة أسماء الإله المقدَّسة .

وقد اكتشف المسيحيون كلاً من القبَّالاه النظرية التأملية والقبَّالاه العملية (السحر) . وتعدُّ أعمال هنري كورنيليوس أجريبا التيشيمي Henri Cornelius Agrippa von Nettesheim (١٤٨٦ ـ ١٥٣٥) من أهم الأعمال التي تناولت القبَّالاه العملية . واستمر الاهتمام بالقبَّالاه في الأوساط المسيحية ، فكتب الكاردينال إديجيو دا فيتربو Edigio da Viterbo (١٤٦٥ ـ ١٥٣٢) عدة دراسات متأثرة بالزوهار ، وألَّف الراهب الفرنسي فرانسيسكو جيورجيو البندقي Francesco Giorgio of Venice (١٤٦٠ ـ ١٥٤٠) كتابين ضخمين تشكل القبَّالاه فيهما الموضوع الأساسي . وقد كان جيورجيو أول كاتب مسيحي يقتبس من كتاب الزوهار باستفاضة . وتُبيِّن كتابات المتصوِّف الفرنسي جويوم بوستل Guillaume Postel (١٥١٠ ـ ١٥٨١) مدى اهتمامه بالقبَّالاه ، فقد ترجم الزوهار وسفر يتسيراه إلى اللاتينية (حتى قبل أن يُطبعا بلغتهما الأصلية) وكتب لهما تفسيراً مستفيضاً . وقد نشر عام ١٥٤٨ تعليقاً قبَّالياً عن المعنى الصوفي لشمعدان المينوراه . وقد ازداد الحماس المسيحي للقبَّالاه ، حتى أن بعض المفكرين بدأوا في جمع النصوص القبَّالية التي كانت لا تزال مخطوطة . ومن بين هؤلاء يوهان ألبرخت ويدمنستتر Johanne Albrecht Widmanstetter (١٥٠٦ ـ ١٥٥٧) . وقد ظلت مراكز دراسات القبَّالاه على يد المسيحيين في إيطاليا وفرنسا طوال القرن السادس عشر ، ولكنها انتقلت إلى ألمانيا وإنجلترا في القرن السابع عشر .

وقد تبنَّى المتصوِّف الألماني جيكوب بومه Jacob Boehme (١٥٤٥ ـ ١٦٢٤) نسقاً قبَّالياً غنوصياً . ويتحدث بومه عن «أون جروند Ungrund» وهي الهوَّة (حرفياً : «اللا أرض») ، وهي أيضاً الإرادة الأولى أو العدم الأزلي ، وكلها عبارات تذكرنا بالإين والإرادة الإلهية الأولى في القبَّالاه . وقد شبه بومه «اللا أرض» هذه بالنار الخفيَّة التي توجد ولا توجد (وهي عبارة وردت في الزوهار) . ويتضح النسق القبَّالي وبحدة في الثنائيات الصلبة التي تسم نسق بومه . كما أن مفهوم بومه الخاص بالسقوط باعتباره خللاً أو عدم اتزان بين عناصر الكون الأربعة يشبه تماماً فكرة الخلل الكوني في القبَّالاه (وعند هذه النقطة يصبح من العسير التحدث عن القبَّالاه مستقلةً عن النسق الغنوصي الذي يَصدُر عن فكرة أن السقوط ليس ناجماً عن الخطيئة وإنما عن خلل ما) .

ومهما كان الأمر ، فإن تبنِّي بومه لهذا النسق قد جعله من أهم

القنوات التي تحولت من خلالها القبَّالاه إلى رافد أساسي في الفكر الديني المسيحي واليهودي . وقد بدأت الأفكار القبَّالية تتبدَّى في كتابات وأعمال بعض الفنانين مثل الفنان الألماني دورر Durer . وقد قام كريستيان نور فون روزينروث Christian Knorr Von Rosenroth بنشر أجزاء ضخمة من الزوهار والقبَّالاه اللوريانية في كتابه **كشف القبَّالاه** (١٦٨٤) ، وقد حقق الكتاب ذيوعاً كبيراً بين أعضاء النخبة الثقافية في أوربا . أما العَالم اليسوعي أثاناسيوس كيرشر Athanasius Kirsher ، فبيَّن التوازي بين مفهوم الآدم قدمون ومفهوم المسيح كإنسان أوَّل . وظهر اصطلاح «القبَّالاه المسيحية» لأول مرَّة في كتابات فرانسيسكوس ميركوريوس فان هلمونت Franciscus Mercurius Van Helmont ، وهو عالم دين هولندي يشكل حلقة وصل بين القبَّالاه وفلاسفة كمبردج الأفلاطونيين ، وكذلك الذين تأثروا بالقبَّالاه مثل : رالف كدورث Ralph Cudworth وتوماس فون Thomas Vaughn ، وتوماس بيرنت Thomas Burnet .

ولكن هنري مور Henry More (١٦١٤ ـ ١٦٩٧) هو أكثر فلاسفة كمبردج اهتماماً بالقبالاه وتأثراً بها . وقد تأثر مور بالفلسفة الفيثاغورسية وتقاليد اللاهوت القديم والأفلاطونية الحديثة (وحدة وجود روحية) ، ولكنه تأثر أيضاً بالفلسفة الديكارتية (وحدة وجود مادية) . وقد حسم هذا التناقض بأن جعل الحركة الآلية للمادة نتاج «روح الطبيعة» ، أي الروح (الإلهية) التي تسري في المادة . وكانت القبَّالاه إحدى الآليات التي حسم بها هذا التناقض فكان يذهب إلى أن التقاليد القبَّالية (تأكيدها على الجماتريا وغيرها من المفاهيم التي تنبع من رؤية واحدية كونية) تحوي داخلها المنظومة الديكارتية . وكان مور يرى أن القبَّالاه اليهودية أُعطيت لموسى حينما صعد إلى جبل سيناء . وأنها كانت تضم تلك الأسرار التي أتى بها فيثاغورس وأفلاطون من مصر ومن فارس . ولذا مزج مور بين تعليقاته القبَّالية وبين صوفية الأعداد الفيثاغورسية وتعاليم أفلاطون والأفلاطونية المحدثة . وهكذا تلتقي الحلولية الكمونية الروحية بالحلولية الكمونية المادية . وقد كتب مور كتاباً يُسمَّى **الإشراقات القبَّالية** وتظهر في كتاباته إشارات عديدة للقبَّالاه والصوفية المركبة .

وهناك كذلك إشارات للقبَّالاه في كتابات توماس ناش Thomas Nash وفرانسيس بيكون Francis Bacon ، ففي كتابه **أطلانطيس الجديدة** (١٦٢٧) ثمة وصف لجزيرة فيها مجتمع مثالي تضم جماعة يجتمعون في مجمع علمي يُسمَّى «بيت سليمان» ويتبعون تعاليم القبَّالاه . وهذا المجتمع يختلف تماماً عن الجامعات البريطانية في ذلك الوقت التي كانت لا تزال تُكرِّس جُلَّ وقتها للدراسات الإنسانية والفلسفية ، على عكس مجمع أطلانطيس الذي كان يكرس وقته لمعرفة الأسباب والحركة الخفية للأشياء ويرمي إلى توسيع حدود الإمبراطورية الإنسانية حتى يؤثر في كل الأشياء الممكنة . وقد تبدى أثر القبَّالاه كذلك في منظومة الفيلسوف ليبنتس الحلولية . وقد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى أن فلسفة إسبينوزا التي اكتسحت العالم الغربي بأسره هي فلسفة ذات أصول قبَّالية واضحة . ولعل إسبينوزا ، الذي عَلمَن الخطاب القبَّالي والحلولي ، هو أهم القنوات التي تدفَّق من خلالها الفكر الحلولي القبَّالي وخطابه على العقل الغربي .

ويُلاحَظ أنه منذ القرن الثامن عشر ، بدأت تتضح للقبَّاليين المسيحيين العلاقة بين القبَّالاه والسحر ورموز علم الكيمياء في العصور الوسطى Alchemy والتي تتبدَّى في كتابات الدبلوماسي الفرنسي بليز دي فيجينير Blaise de Vigenere (١٥٢٣ ــ ١٥٩٦) . ويصل هذا التيار إلى قمته في كتابات المتصوِّف الألماني فريدريك أتنجر (١٧٠٢ ـ ١٧٨٢) الذي تركت أعماله أثراً عميقاً في كتابات كثير من الفلاسفة الألمان مثل شلنج وهيجل .

وقد ذهب أوتينجر إلى القبَّالي اليهودي كويل هيخت المقيم في جيتو فرانكفورت طالباً منه المزيد من المعرفة عن القبَّالاه ، فأجابه الأخير بأن ما كتبه المسيحيون عن القبَّالاه أوضح بكثير مما جاء في كتاب الزوهار ، وكان على حق في هذا ، فالقبَّالاه المسيحية كانت من الذيوع والوضوح بحيث أن كثيراً من المتصوفين اليهود الذين كانوا يريدون تعميق معرفتهم بالقبَّالاه كانوا يقرأون كتب القبَّالاه المسيحة بل كتب القبَّالاه اليهودية التي نشرها المسيحيون !

ويتضح هذا الاختلاط بين القبَّالاه والسحر في رموز الماسونيين الأحرار في منتصف القرن الثامن عشر . وقد ظهرت بعد ذلك أعمال مارتين دي باسكوالي Martin de Pasqually (١٧٢٢ ـ ١٧٧٤) التي تركت أثراً عميقاً في تلميذه الفرنسي لوي كلود دي سان مارتين Louis Claude de St. Martin ، وهو من أهم المتصوفين الفرنسيين قبيل الثورة الفرنسية . وقد حامت الشكوك حول انتماء باسكوالي إلى يهود المارانو (وهي شكوك أيدتها البحوث الحديثة) . ومن أهم الأعمال القبَّالية المسيحية ، كتابات فرانز جوزيف موليتور Franz Josef Molitor الألماني (١٧٧٩ ـ ١٨٦١) .

وقد أصبحت القبَّالاه جزءاً لا يتجزأ من رؤية كثير من المثقفين الغربيين ، أو النموذج أو الصورة المجازية الكامنة في فكرهم ، حتى أنه لا يمكن الحديث عن أصولها اليهودية . فالمفكر الديني السويدي عمانويل سويدنبورج Swedenborg الذي أثَّر في ويليام بليك William

Blake ، الذي تشبع بالمنظومة القبَّالية حتى أصبحت منظومته الفكرية قبَّالية غنوصية دون أن يطلع على أية مصادر يهودية .

ويتبدَّى أثر قبَّالاة الزوهار على مدام بلافاتسكي Blavatsky وهي من أشهر المشتغلات بالتأملات الثيو صوفية في أوربا في أواخر القرن التاسع عشر (وكانت من جماعة الدوخوبور الروسية التي تركت أثراً عميقاً في مؤسسي اليهودية الحسيدية) . وقد تركت القبَّالاه أثراً عميقاً في سترندنبرج الذي كتب في مفكرته السرية ما يلي : "فتحت الكتاب فوجدت القبَّالاه . . . وكنت أفكر أن يهوه إن هو إلا أيون سفلي" . وقد طوَّر الشاعر الأيرلندي و . ب . ييتس W. B. Yeats نسقاً قبَّالياً غنوصياً . وكان كارل يونج ، معجباً أيما إعجاب بالقبَّالاه وبخاصة فكرة تهشُّم الأوعية (شفيرات هكليم) وكيف يشارك الإنسان في إصلاحها (تيقون) "فلأول مرة تنبثق فكرة أنه يجب على الإنسان أن يساعد الإله في رأب الصدع الحادث من عملية الخليقة" .

وبإمكان الدارس أن يجد آثاراً عميقة كامنة للقبَّالاه في أدب فرانز كافكا وبورخيس ، بل في مؤلفات الكاتب الألماني الماركسي ولتر بنجامين . ويُقال إن أشعار الشاعر الإنجليزي ناثانيل تارن Tarn Nathaniel وروايات الروائي الأسترالي باتريك وايت Patrick White ، وخصوصاً روايته **راكبو العربة** (١٩٦١) ، تُبيِّن الأثر العميق للقبَّالاه . ويتبدَّى أثر القبَّالاه بشكل واضح وصريح في كتابات الناقد الأمريكي المعاصر هارولد بلوم والفيلسوف الفرنسي ذي الأصل السفاردي جاك دريدا اللذين يؤسسان نقدهما الأدبي على أسس غنوصية عدمية .

والواقع أن ذيوع القبَّالاه في الحضارة الغربية ليس مجرد تعبير عن تهويد المسيحية أو الحضارة الغربية ، وإنما هي في واقع الأمر تعبير عن عنصر أكثر عمقاً وبنيوية ، وهو شيوع التفكير الحلولي الكموني الذي يدور في إطار مادي تجسدي ، بحيث يصبح اللوجوس كامناً في المادة لا متجاوزاً لها ، ويصبح الإله متوحِّداً مع الطبيعة والتاريخ لا منزَّهاً عنهما . وهو توحُّد يتم تدريجياً إلى أن يتحقق تماماً في مرحلة وحدة الوجود التي ينسحب فيها الإله ثم يموت ليبقى العالم المادي وحده واللوجوس (أو القوانين الطبيعية) الكامنة فيه . وهذا هو الإطار الذي حقَّق فيه المفكرون اليهود بروزهم ، وهو إطار لا هو بالمسيحي ولا هو باليهودي ، إطار معاد للتوحيد ومعاد للإله المنزَّه ويتجه نحو المادية والتجسد ، وهو إطار معرفي إمبريالي علماني .

فلافيوس ميثراديتس (القرن الخامس عشر)

Flavius Mithradites

هو صموئيل بن نسيم الفراج من صقلية . تنصَّر وتسمَّى باسم جوليلموس (أي الصقلي) علَّم العربية والعبرية والآرامية في إيطاليا وفرنسا وألمانيا . وكان أحد معلمي بيكو ديللا ميراندولا . عُيِّن أستاذاً في روما وقام بترجمة عدة كتب من العربية والعبرية واليونانية إلى اللاتينية (وضمن ذلك أجزاء من القرآن) . كما ترجم لديللا ميراندولا بعض التفاسير اليهودية للتوراة (المكتوبة بالعبرية) ، وكتاباً لموسى بن ميمون عن البعث ، وبعض الأعمال القبَّالية . وألقى موعظة أمام البابا عن عذاب المسيح على الصليب مستخدماً المدراش وبعض المصادر اليهودية . يُعدُّ ميثراديتس شخصية مهمة في تعريف العالم الغربي بالقبَّالاه ووضع أسس القبَّالاه المسيحية .

بيكو ديللا ميراندولا (١٤٦٣-١٤٩٤)

Pico della Mirandola

مفكر إيطالي من عصر النهضة ، ويُعدُّ أبا القبَّالاه . وُلد لأسرة إقطاعية كانت تحكم مقاطعة ميراندولا وكونكورديا في شمال إيطاليا . درس العربية والعبرية على يد معلمين يهود ، فترجم له دبلميديجو كتاب **ابن رشد** . وتعلَّم العربية والآرامية على يد فلافيوس ميثراديتس ، الذي ترجم له أيضاً عدداً لا بأس به من الكتابات القبَّالية ، والتي تُعدُّ المصدر الأساسي لكتابات ديللا ميراندولا القبَّالية . وديللا ميراندولا له كتاب في القبَّالاه ، يُسمى **استنتاجات قبَّالية حسب رأيه الخاص** .

قضى ديللا ميراندولا جزءاً كبيراً من حياته في فلورنسة حيث أصبح ، مع فيشينو ، عضواً في أكاديمية فلورنسة الأفلوطينية وهناك قابل سافونا رولا . أهم أعماله كتاب **الخطب** (١٤٨٦) وأهم الخطب خطبة عن كرامة الإنسان (باللاتينية : أوراتيو دي هومينيس ديجنيتاتي oratio de hominis dignitate) .

وفي عام ١٤٨٦ ، قدَّم ديللا ميراندولا ٩٠٠ أطروحة استقاها من كل فروع المعرفة للدفاع عن المسيحية ، ودعا إلى مناظرة عامة بشأنها ، وكان كثير من الأطروحات ذا نزعة قبَّالية واضحة . وقد أحست الكنيسة أن هذه الأطروحات مهرطقة فمنعت المناظرة . وتُعدُّ هذه الأطروحات البداية الحقيقية للقبَّالاه المسيحية . وفي كتابه عن **كرامة الإنسان** ضم ١٣ أطروحة من هذه الأطروحات التي رفضتها الكنيسة . وتقول إحدى الأطروحات : "ليس بإمكان علم أن يجعلنا أكثر إيماناً بألوهية المسيح أكثر من القبَّالاه" .

ويظهر أثر القبَّالاه اليهودية كذلك في كتابه هيبتايلوس (١٤٨٩) وهو تفسير من سبعة مستويات للخلق ، وكتابات ديللا ميراندولا مليئة بالإشارات إلى مؤلفين يهود مثل عزرا وليفي بن جرشوم .

كان ديللا ميراندولا لا يؤمن بأن كل الأساطير والمدارس الفلسفية واللاهوتية تحتوي على جزء من الحقيقة العالمية (الطبيعية) ، وتستحق الدراسة والدفاع عنها (وهو ما يُسمَّى باللاتينية : بريسكوس ثيولوجوس priscus theologus) . ولذا ، كانت كتاباته تشير إلى كثير من المصادر مثل كتابات الهرمسية والأورفية والقبَّالية وكتابات فيثاغورث وأرسطو وأفلاطون وزرادشت وابن رشد وابن سينا (وغيرهما من الفلاسفة العرب) . وكان ديللا ميراندولا يرى أنها كلها غير متناقضة . ومن ثم كان يبذل قصارى جهده للتوفيق بينها كلها في ديانة طبيعية عقلية عالمية واحدة . ولذا كان اهتمام ديللا ميراندولا ينصب في واقع الأمر إما على الكتابات الحلولية بالدرجة الأولى (مثل النصوص الهرمسية) أو على الجوانب الحلولية في النصوص التي يدرسها .

وديللا ميراندولا ـ شأنه شأن فيتشينو ـ كان يرى أن أفلاطون تعلَّم الحكمة من الكتابات الهرمسية والزرادشتية والأورفية وغيرها من المصادر الشرقية . فالأفلاطونية بالنسبة له (وكما هو الحال بالنسبة لكثير من كُتَّاب عصر النهضة) هي في واقع الأمر أفلوطينية غنوصية . وتوجُّهه الحلولي يُفسِّر اهتمامه العميق بالهرمسية وبالكتابات القبَّالية اليهودية . وقد لاحظ ديللا ميراندولا التشابه بين الكتابات الهرمسية والقبَّالاه في فكرة الخلق من خلال الكلمة ، فزاوج بين هذه الكتابات والقبَّالاه ، فبدأ بذلك التقاليد الهرمسية/ القبَّالية والحلولية الكمونية الواحدية التي تجمع بين اليهودية والمسيحية وأية عقيدة توحيدية أو وثنية حديثة أو قديمة (وهذا هو جوهر فكرة اللاهوت القديم) . ولكن ديللا ميراندولا هو أول عالم مسيحي يستخدم أدبيات القبَّالاه اليهودية وإطارها المعرفي في تفسير النصوص المقدَّسة وفي رؤيته للعالم . بل كان ديللا ميراندولا يؤمن بأن الكتابات القبَّالية تحتوي على معرفة سرية ثمينة ، فالقبَّالاه في تصوره تنبع من روايات شفوية قديمة موغلة في القدم تعود إلى أيام موسى (كان الظن السائد في عصر النهضة أن موسى وهرمس هما شخص واحد أو أن أحدهما تعلَّم من الآخر) ، ولذا فالقبَّالاه ـ بالنسبة له ـ كانت ذات حجية تماثل حجية كتابات هرمس وزرادشت والكتاب المقدَّس . بل يمكن القول بأن القبَّالاه ، لأنها «أصلية» ، أقدم من الكتاب المقدَّس . ولأنها سرية ، بمعنى أنها تحمل المعنى الباطني بشكل مباشر ، ولذا فهي أكثر حجية من الكتاب المقدَّس نفسه . وقد حاول ديللا ميراندولا أن يُبيِّن أنه لا يوجد أيّ فارق واضح بين القبَّالاه واللاهوت المسيحي (شأنها في هذا شأن العهد القديم) . وأنه يمكن النظر للقبَّالاه باعتبارها رؤية تُبشِّر بالعقيدة المسيحية وبرهاناً على صدقها . وقد وضع بذلك الأساس للقبَّالاه المسيحية التي دافع عنها كثير من المفكرين المسيحيين في القرن السادس عشر وبعد ذلك .

ويتضح أثر القبَّالاه في بيكو ديللا ميراندولا في تفسيره للعهد القديم ، فهو يستخدم التفسيرات الرقمية (الجماتريا) ويستخلص المعنى الباطني من النص بأن يُحل كلمة محل أخرى ، شريطة أن تكون قيمتهما الرقمية واحدة . كما أنه يعطي الكتاب المقدَّس معاني تتماثل مع أجزاء الكون المختلفة (وثمة تقابل بين العالم وجسد الإنسان في القبَّالاه ، وهنا أصبح التقابل بين العالم والكتاب المقدَّس) . ويُلاحَظ هنا كيف أن الحلولية أصبحت النقطة التي تلتقي فيها اليهودية بالمسيحية ويذوبان سوياً (مع أية تيارات وكتابات دينية أخرى) ويصبحان ديانة طبيعية علمانية واحدة !

وتظهر رؤية ديللا ميراندولا الحلولية في رؤيته للإنسان والكون ، فالطبيعة بالنسبة له هي كلٌّ متصل تسري فيه الحياة (كما هو الحال عند جيوردانو برونو) ، وأجزاء الكون هي أجزاء من الكل الكوني وحسب ليس لها وجود مستقل ، والإنسان جزء لا يتجزأ من الكون تسري فيه القوة الكونية .

هذه الرؤية الحلولية تترجم نفسها دائماً إما إلى تمركُز حول الموضوع (تأليه الطبيعة) أو تمركُز حول الذات (تأليه الإنسان) . وهي تأخذ الشكل الثاني في حالة بيكو ديللا ميراندولا . فالإنسان ، لأنه جزء من الكون تسري فيه القوى الكونية ، قادر على اختراق كل طبقات السماء من خلال قواه ليصل إلى المصدر الإلهي لكل الحياة . وهو ، لهذا ، يستطيع إعادة صياغة العالم وإعادة صياغة ذاته ، فالإنسان يمكنه أن يصبح ما يريد وأن يشغل المكان الذي يريد في الكون حسب مقدرته ومن خلال معرفته الغنوصية (كان ديللا ميراندولا يؤمن تماماً بالمقدرات السحرية للنصوص القبَّالية والغنوصية) .

وينسب ديللا ميراندولا إلى الإله هذه الكلمات في خطابه لآدم : «إرادتك حرة لا تحدها حدود . أنت الذي ستُقرر لطبيعتك حدودها . أنت صاحب المقدرة على أن تهبط إلى أدنى أشكال الحياة ، وأنت أيضاً صاحب المقدرة على أن تُولَد من جديد في أسمى الأشكال العليا ـ الإلهية» . أي أن الإنسان من خلال مقدرته يمكنه أن

يصبح إلهاً . وهو المنطق الهيجلي الحلولي نفسه الذي يزيل أي حاجز بين المقدَّس والزمني أو الدنيوي .

وقد لاحظ كاسيرر أن إنسان ديللا ميراندولا ليس سليل آدم (أعطاه الإله المعرفة) وإنما هو سليل بروميثيوس الذي سرق النار (والمعرفة) من الآلهة ، أي أنه سوبرمان وليس إنساناً . ولكن ، في الواقع ، يمكن القول بأن ما يظهر هو ثنائية السوبرمان (ما فوق الإنسان) والسبمان (ما دون الإنسان) . فالذين يصلون إلى المصدر الإلهي ومصاف الآلهة ويتألهون ليس كل البشر وإنما نخبة من أصحاب العرفان ، أما بقية البشر فيعيشون في الطبقات الدنيا وعليهم الإذعان والامتثال لأصحاب الغنوص . ويغيب في ثنايا كل هذا الإنسان الإنسان ، الثنائي المركب .

باولوس ريسيوس (؟ - ١٥٤١)

Paulus Ricius

مترجم من دعاة الحركة الإنسانية . وُلد في ألمانيا وعُمِّد في إيطاليا عام ١٥٠٥ . عُيِّن أستاذاً للفلسفة والطب ، وطبيباً خاصاً للإمبراطور ماكسيمليان وأستاذاً للعبرية في جامعة بافيا . ونشر ريسيوس عدة كتب من بينها ترجمات لنصوص إسلامية ويهودية ، وكذلك بعض الأعمال الأدبية ذات التوجه الصوفي .

يُعَدُّ ريسيوس من مؤسسي القبَّالاه المسيحية . وقد استخدم النصوص القبَّالية اليهودية دليلاً على أن البشارات بالمسيح تُوجَد في تلافيفها وأن مفهوم التثليث المسيحي هو الآخر يوجد كامناً داخل رموزها .

يوحانيس ريوشلين (١٤٥٥-١٥٢٢)

Johannes Reuchlin

مفكر ألماني وأحد رواد الفكر الإنساني الهيوماني والفكر الاستناري والدراسات العبرية ، وأحد واضعي أُسس القبَّالاه المسيحية .

درس ريوشلين العبرية واللغويات العبرية ونشر دراسة في الموضوع ، كما نشر نصاً عبرياً/ لاتينياً لبعض المزامير وكتب تعليقاً عليه . وعُيِّن أستاذاً للدراسات اليونانية والعبرية في جامعات هولندا وألمانيا .

ورغم أن ريوشلين لم يكن مهتماً بمصير اليهود كبشر إلا أنه كان مهتماً بشكل كبير بالكتابات اليهودية . وقد دخل فيما يُسمَّى «معركة الكتب» وهو الصراع الذي دار بين بعض دعاة حرق التلمود والكتب العبرية ، والتي تزعَّمها يهودي متنصر في كولونيا وسانده الرهبان الدومنيكان . ورغم أن ريوشلين كان مهتماً أساساً بالقبَّالاه ، إلا أنه رفض الدعوة إلى حرق التلمود؛ لأننا لا نعرف ما جاء فيه؛ ولأنه يجب ألا يُحرَق سوى الكتب المعادية للمسيحية بشكل واضح مثل **توليدوت يشو** .

وقد بدأ اهتمام ريوشلين بالقبَّالاه تحت تأثير بيكو ديللا ميراندولا (الذي قابله في إيطاليا عام ١٤٩٠) ومن خلال طبيب فريدريك الثالث اليهودي . وقد أحس ريوشلين بالتشابه بين العناصر الأفلوطينية في الكتابات القبَّالية وكتابات الفيلسوف الألماني نيكولاس من كوزا (أي أنه أحس بوجود منظومة حلولية كمونية في كل من القبَّالاه وفي كتابات الفيلسوف الألماني) .

وإعجاب ريوشلين بالقبَّالاه ، الذي لازمه طيلة حياته ، هو سبب أساسي وراء حماسه للدراسات العبرية . فالقبَّالاه في نظره منهج لقراءة نصوص العهد القديم (لا يعرفه سوى اليهود) الهدف منه هو معرفة سر اسم الإله الأعظم ، وهي معرفة إن توصَّل لها الإنسان وصل إلى معرفة تشير إلى ما وراء العهد القديم ، أي إلى العهد الجديد ، أي أنها قراءة تفكيكية تركيبية . وقد توقَّع ريوشلين ، شأنه في هذا شأن بيكو ديللا ميراندولا ، أن يجد مسيحية سرية في حالة جنينية داخل الكتابات القبَّالية . ومثل هذا الفهم للقبَّالاه يعطي شرعية للتوراة ويُبيِّن صدقها ، ولكن هذا الصدق محدود إذ أنها تحوي داخلها ما يشير إلى غيرها . ومن هنا احترام ريوشلين للقبَّالاه ، ومن هنا أيضاً رفضه التلمود باعتباره العقبة الكؤود أمام تنصير اليهود .

نشر ريوشلين في بازل عام ١٤٩٤ كتاباً باللاتينية عنوانه **الكلمة صانعة المعجزات** وهو أول كتاب باللاتينية يكرَّس لموضوع القبَّالاه . وهو حوار خيالي بين المؤلف وفيلسوف أبيقوري ويهودي . يؤمن ثلاثتهم بأن كل الأديان ، رغم اختلاف رموزها ، تكشف عن الحقيقة الأزلية الواحدة نفسها . ولكن ريوشلين يبيِّن لهم أن المسيحية هي التعبير الأدق عن هذه الحقيقة . ومن خلال خطاب ثيو صوفي يربط ريوشلين بين مفهوم التجسد المسيحي وفكرة أسماء الإله المقدَّسة . فيبيِّن أنه يمكن تقسيم التاريخ الإنساني إلى مراحل . أولاها مرحلة الآباء حيث كشف الإله للإنسان عن نفسه تحت اسم «شداي» ثم كشف لهم عن نفسه في مرحلة موسى تحت اسم التتراجراماتون (اسم يهوه) . وأما في فترة الخلاص (الفترة المسيحية) فهو ليس يهوه YHWH وإنما يهشوه YHSHWH وهو الاسم العبري ليسوع المسيح (وإضافة الشين للاسم لإبراز دلالته هي إحدى الطرق القبَّالية لتفسير

النصوص للوصول لمعناها الخفي أو لتوراة الفيض مقابل توراة الخلق). وحينما يصبح «يهوه» هو «يهشوه» فإن الشيم هامفوراش أو اسم الخالق الذي يُحرَّم التفوّه به يصبح مباحاً للبشر النطق به. ويُلاحَظ أن هذا التقسيم الثلاثي لتاريخ العالم يقابل تقسيماً يهودياً حيث يُقسَّم تاريخ العالم إلى: فوضى - توراة - عودة الماشيَح. ويقابل هذا أحد التقسيمات المسيحية الثلاثية التي ترى أن تاريخ العالم مقسَّم إلى: حكم الأب - حكم الابن - حكم الروح القدس (وهو تقسيم ترك أثره في جدل هيجل الثلاثي الإيقاع).

وقد ذهب ريوشلين إلى أن العبارة العبرية «بريشيت برا إلوهيم» تشير في واقع الأمر إلى «الابن والروح والأب» باعتبار أن أول حرف في كلمة «بريشيت» هو الباء التي تعادل كلمة «بن» أي الابن، والحرف الثاني في «برا» هو الراء، والتي تعادل كلمة «روح»، أما الحرف الأول في كلمة «إلوهيم» فهو الألف والتي تعادل كلم «الأب» (وهذه قراءة تتبع نظام النوطريكون، أي التفسير بالحروف الأولى). ويُركِّز الكتاب أساساً على أسماء الإله وتضميناتها السحرية وكيف أنها مجرد إعداد للمسيحيين، فكأن ريوشلين هنا هو الساحر (ماجوس magus) المسيحي يفك اسم الإله الأعظم. وبالفعل، ينتهي الكتاب بتحوُّل الأبيقوري واليهودي إلى المسيحية، ويُطلَب من اليهود ترك التلمود.

وقد تعمَّق ريوشلين بعد ذلك في القبَّالاه ثم كتب كتاباً جديداً في الموضوع وهو **في علم القبَّالاه** (١٥١٧) وأهداه للبابا ليو العاشر. ومرة أخرى، تبنَّى المؤلف أسلوب الحوار الخيالي ولكنه هذه المرة بين يهودي ومسلم وممثل للفلسفة الفيثاغورثية. ويتوحد ريوشلين هنا مع اليهودي القبَّاني ويُبيِّن علاقة القبَّالاه بفكر نيكولاس من كوزا، كما يُبيِّن العلاقة بين الاتجاهات الثيوصوفية في القبَّالاه وكتابات أبي العافية وجيكاتيلا ويشير إلى أسماء الإله وتحولاتها وكيفية استخدامها في السحر. وقد أصبح هذا الكتاب من كلاسيكيات القبَّالاه المسيحية.

ورغم اهتمام ريوشلين باليهودية إلا أن اهتمامه باليهود هامشي، بل إنه اهتمام ينم عن العداء الشديد، فهو يهتم بهم بمقدار إمكان تنصيرهم. وقد طالب بعتق اليهود فهم ليسوا عبيداً وإنما «مواطنون مثلنا» ويجب أن يصبحوا مواطنين في الإمبراطورية والمدن الألمانية. ولكن كل هذا محدود برؤيته الكلية، فاليهود شعب بائس، بؤسه عقاب له على خطيئته الجماعية (ضد المسيح)، وهم مواطنون مشاركون لنا في مملكة الدنيا ولكنهم أعداء في مملكة الرب. وهذا الخطاب يتأرجح بين الخطاب الديني التقليدي والخطاب الحديث. ولكن حداثة خطاب ريوشلين تظهر حينما يتحدث عن «ضرورة» إصلاح اليهود» (شأنه في هذا شأن دعاة الاستنارة). وقد جعل حصولهم على الحقوق مرتبطاً بمدى إصلاحهم لأنفسهم. ولخص ريوشلين موقفه في العبارة اللاتينية «ريفورماندي سيو إكسبلندي reformondi seu expellendi» ومعناها: إما أن تصلحوا أنفسكم أو تُطردوا. والإصلاح يعني ابتعادهم عن الأعمال الهامشية مثل العمل بالربا الذي يجب أن يقلعوا عنه.

إلياهو دا نولا (١٥٣٠-١٦٠٢)

Elijah Da Nola

هو إلياهو بن مناحم دانولا، حاخام وعالم طبيعة إيطالي يهودي، وكان أحد كبار الحاخامات في إيطاليا في أواخر القرن السادس عشر. ساعد في ترجمة العهد القديم إلى الإيطالية وعُيِّن معلماً للعبرية في الفاتيكان، وفي هذه الفترة، تنصر وعُيِّن مراقباً في مكتبة الفاتيكان حيث قام بنسخ المخطوطات العبرية.

نشر دانولا كتاباً عن دلالة الرقم سبعة في العهد القديم وآخر عن رحلته من اليهودية إلى المسيحية حيث بيَّن أنه لم يعتنق المسيحية لتحقيق أي ربح مادي وإنما بسبب إيمانه بأن المسيحية هي الدين الأسمى. كما استخدم دانولا كُتب القبَّالاه اليهودية ومنهج الجماتريا ليبيِّن أن هذه الكتب نفسها تحتوي على نبوءات تبشر بالمسيح.



١١
الشعائر

الشعائر – الأوامر والنواهي (متسفوت) ـ الوصايا ـ الختان ـ بلوغ سن التكليف الديني (برمتسفاه وبت متسفاه) ـ برمتسفاه ـ اللحية ـ السوالف ـ الطعام والقوانين الخاصة به في اليهودية ـ الطعام الشرعي (كوشير) ـ كوشير ـ الذبح الشرعي ـ تميمة الباب (مزوزاه) ـ السبت ـ دعاء مقدم السبت (قيدوش) ـ دعاء انتهاء السبت (هفدالاه) ـ الصوم ـ صوم العاشر من طيبت ـ التضحية

الشعائر

Ceremonial Law; Religious Ceremonies

«الشعائر» في الخطاب الإسلامي هي ما دعا إليه الشرع الديني وأمر بالقيام به من صلوات وغيرها ، مفردها «شعيرة» ، و«شعائر الحج» هي مناسكه ، ومواضع المناسك هي «المشاعر» ومفردها «مَشْعَر» . وفي الخطاب الديني المسيحي يُشار إلى الشعائر بكلمة «الطقوس» ومفردها «طقس» ، وهو نظام الخدمة والصلوات والاحتفالات الدينية . ويتم التمييز ، في الفكر الديني عامة ، بين «الشعائر» و«العقائد» . وهي ، في نهاية الأمر ، تعبير عن ثنائية الجسد والروح (أو المادة وما وراء المادة) الكامنة في أي نسق ديني . ففي الإسلام ، ثمة فارق بين الإيمان الداخلي وإشهار الإسلام الخارجي (دون أن يدخل الإيمان القلب) . ولكن ، مع هذا ، نجد أن الثنائية داخل إطار الديانات التوحيدية ثنائية فضفاضة لا تؤدي إلى استقطاب حاد ، ولذا تظل إقامة الشعائر والمناسك أمراً أساسياً إذ أنها وسيلة كبح الذات الإنسانية والتقرب بها إلى الله ، فهي تنفيذ لتعاليمه والدليل الخارجي على الإيمان الداخلي . ويُلاحَظ أن هذا التمييز بين العقائد والشعائر يأخذ شكلاً متطرفاً في الدين المسيحي على وجه الخصوص ، إذ تؤكد العقيدة المسيحية الجانب الروحي على حساب الجانب المادي ، وهذا ما يجعلها تميل أحياناً إلى شكل من أشكال الثنائية الصلبة التي تؤدي إلى الاستقطاب .

وللشعائر تاريخ طويل في اليهودية ، فهي تعود إلى أيام عبادة يسرائيل والعبادة القربانية . وقد استمر تراكم الشعائر ، وإن كان بعضها قد تساقط بعد هدم الهيكل واختفاء العبادة القربانية وشعائرها المرتبطة بالزراعة والأرض ، مثل : السنة السبتية ، والخلط المحظور بين النباتات ، وبعض الصلوات كصلاة الاستسقاء ، والتضحية بكبشين في يوم الغفران ، وتقديم أولى ثمار المحاصيل ، وافتداء الابن الأكبر .

والشعائر اليهودية كثيرة وصارمة . ومن أهمها الصلاة التي لا يمكن أن تُقام إلا بوجود النصاب (منيان) ، وعلى المصلين ارتداء شال الصلاة (طليت) ، وتمائم الصلاة (مزوزاه وجمعها مزوزوت) ، وطاقية الصلاة (يرملك) . وتصاحب الأعياد والأيام الخاصة (مثل يوم السبت) شعائر كثيرة ، ربما كان أهمها وأكثرها تعقيداً شعائر عيد الفصح .

وعلى اليهودي أن يقيم شعائر كثيرة من المهد إلى اللحد . فبعد الولادة يجري ختان المولود وإطلاق اسم عليه . وعند بلوغه سن الثانية عشرة (سن التكليف الديني) ، تُقام شعائر (أو بالأحرى احتفالات) البرمتسفاه . وعليه ، طوال حياته ، أن يتبع قوانين الطعام ، وخصوصاً الذبح الشرعي . وعند وفاة أحد أفراد أسرته ، عليه قراءة القاديش وإقامة مراسم الدفن . وإلى جانب هذا ، هناك عشرات الشعائر الأخرى ، مثل : شعائر الطهارة والنجاسة ، والحمام الطقوسي ، وتمائم الباب (مزوزوت) واللحية والسوالف . ويعد الكثير من الأوامر والنواهي (متسفوت) تنفيذاً لهذه الشعائر . والنساء غير مكلفات بالقيام بالشعائر المرتبطة بزمن محدد مثل إقامة الصلاة . ويُلاحَظ أن طريقة أداء بعض الشعائر عند الإشكناز تختلف عنها بين السفارد . كما أن شعائر الجماعات اليهودية الصغيرة المتفرقة ، مثل يهود كوشين ويهود كايفنج ويهود الفلاشاه ، تختلف جوهرياً عن شعائر اليهودية الحاخامية . واليهودية الحاخامية لا تعرف التفرقة بين الشعائر والعقائد ، فهي لم تحاول توحيد اليهود عن طريق توحيد العقائد والرؤية والقيم الأخلاقية وتأكيد شموليتها وفاعليتها ، وإنما حاولت أن تفعل ذلك عن طريق توحيد الشعائر وطريقة أدائها . والشعائر تعزل اليهود وتوحِّدهم . وقد يُقال إن اليهودية تشبه ، في هذا ، الإسلام أو أي دين . ولكن ثمة فارقاً عميقاً ، فاليهودية لم تحدد عقائدها الأساسية ، الأمر الذي جعل الشعائر حركات خارجية لا تدل على شيء خارج نفسها (أي أنها دال دون مدلول) . كما أن

اليهودية ، كتركيب جيولوجي تراكمي ، تحوي داخلها طبقات عقائدية غير متجانسة بل متعارضة . وفي غياب سلطة دينية مركزية، اكتسبت الشعائر مضامين عقائدية مختلفة حتى صارت الشعيرة نفسها تحمل مدلولات مختلفة ، ولكنها مع هذا ظلت تؤدَّى بالطريقة نفسها . وأصبحت طريقة الأداء أهم من المضمون الديني أو العقيدي ، بل أصبح بإمكان اليهود الملاحدة أن يؤدوا الشعائر دون الإيمان بالإله .

وقد تساءل كثير من الفلاسفة اليهود عن هذه الشعائر ، وهل تتفق مع العقل أم أنها جزء من التقاليد الدينية أو من الأوامر الإلهية التي على المؤمن قبولها . وقد انقسموا في هذا الشأن إلى ثلاثة أقسام. فمنهم من نادى بأنها عقلية . ومنهم من قال إنها لا علاقة لها بالعقل ، ومنهم من أخذ موقفاً وسطاً . والتلمود هو الكتاب الذي يضم هذه الشعائر ويفصل بين أحكامها بعناية وتفصيل . وقد قام يوسف كارو بتلخيص هذه الأحكام وتصنيفها في كتاب واحد هو الشولحان عاروخ الذي صار كتاباً معتمداً لدى اليهود .

وقد حاول بعض دارسي العقائد اليهودية تفسير ظاهرة تزايد الشعائر وصرامتها . ونحن نذهب إلى أن تزايد درجة الحلولية في الأديان يؤدي إلى موقفين من الشعائر متناقضين تماماً ، ولكنهما ، في الوقت نفسه ، متماثلان تماماً ويؤديان إلى النتيجة نفسها (وهذا هو الحال دائماً مع الثنائية الصلبة ، إذ يتقابل النقيضان) . أما الموقف الأول ، فهو تزايد هذه الشعائر بشكل متطرف ، وهو أمر مفهوم باعتبار أن تزايد درجة الحلولية يتبعه تزايد معدلات القداسة التي يظن الإنسان أنه يتمتع بها . ومن ثم تصبح كل أفعاله ، وضمن ذلك أدنى الأفعال الإنسانية وأحطها وأكثرها دناءة ، مقدَّسة . ولذا ، يجب أن تتبع هذه الأفعال نظاماً مقدَّساً محدداً ، أي الشعائر . والشعائر هنا ، في النسق الحلولي ، تحل محل الأخلاق في النسق التوحيدي . إذ أن هدف الوجود في النسق الحلولي ليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإنما التقرب من الإله والالتصاق به ثم التوحد معه عن طريق إقامة شعائر معينة ، تنتهي في نهاية الأمر إلى التوصل إلى التحكم في الإرادة الإلهية (ومن ثم نجد أن هذه الشعائر ترتبط دائماً بالسحر) . لكل هذا ، تختفي النزعة الأخلاقية الروحانية تماماً وتكتسب الشعائر ، خصوصاً شعائر الطهارة ، أهمية بالغة . كما أن وظيفة الشعائر هنا تصبح عزل الإنسان (المقدَّس) عن محيطه الديني ، التاريخي أو النسبي أو الإنساني . ورغم أن الحاخامات لم يعبّروا عن هذا الرأي بهذا الشكل المباشر ، فإن كثيراً من أقوالهم الخاصة بأن الشعائر منزلة من عند الإله ، حتى يقترب اليهود منه ويصبحوا جزءاً منه ويعزلوا عن الأغيار ، تحمل هذا المضمون أو على الأقل تتضمنه . وقد وصل هذا التيار إلى قمته في القبَّالاه اللوريانية التي جعلت حركات اليهودي وسكناته أموراً ذات دلالة شعائرية عميقة ، وجعلت صلاته وسيلةً لإنجاز الزواج المقدَّس بين الابن (التجلي السادس) والابنة (التجلي العاشر) والذي يأتي بالخلاص لليهود ولكل البشر ، بل للإله نفسه . وقد عدَّل القبَّاليون بعض الشعائر ، وأضافوا من الأدعية والبركات ما يؤكد ذلك المعنى .

ولكن النسق الحلولي لا يمكنه أن يفسر هذه الظاهرة بمفرده ، فثمة عناصر في الواقع التاريخي ساعدته على التحقق . ويمكننا أن نقول أيضاً إن تحوُّل اليهود إلى جماعات وظيفية كان عنصراً حاسماً في هذه القضية ، فالجماعة الوظيفية ترى أنها موضع القداسة ، وتعاني من مركب الشعب المختار ، كما أنها لابد أن تحافظ على عزلتها عن طريق العديد من الشعائر . وقد دعمت السلطة الحاكمة سيطرة القيادة الدينية على الجماعات اليهودية ، حتى يتسنى لها أن تضرب سياجاً من حولها يضمن لها أداء وظيفتها . وإقامة الشعائر كانت وسيلة أساسية لإنجاز هذا الهدف . ومن هنا ، كانت الحكومات غير اليهودية حريصة على أن يحافظ أعضاء الجماعات اليهودية على أداء الشعائر اليهودية وعلى أن يؤدوها بانتظام .

لكن ثمة جانباً آخر لتزايد النزعة الحلولية ، وهو أنها تنتهي بانفجار مشيحاني يتبدى في شكل خرق سائر الشرائع وعدم إقامة الشعائر وإسقاطها . فحينما تزداد قداسة الإنسان ، يزداد حلول الإله فيه ويصل الحلول إلى نقطة وحدة الوجود ، وعند هذه النقطة يفقد الإله نفسه ويبدأ في الشحوب ، إلى أن يحل تماماً في الإنسان وبذا يصير الإنسان هو نفسه إلهاً . ولكن الإله لا يحل في الإنسان وحسب وإنما في الطبيعة أيضاً . ومن ثم ، فإن الإله والإنسان يُردَّان إلى الطبيعة حتى تصل إلى درجة الواحدية المادية الكونية حيث تُختَزل كل المستويات (الإنسانية والإلهية) إلى مستوى كوني أو طبيعي واحد (ويصبح الإنسان إنساناً طبيعياً) . ولذا ، فإن الحلولية تؤدي إلى العلمانية والمادية وتأليه الإنسان وتطبيعه ، أي دمجه في الطبيعة في الوقت نفسه ، وهو اختفاء الجانب الروحي والأخلاقي . ومن ثم ، تصبح إقامة الشعائر أمراً سخيفاً لا قيمة له . وهذا يتضح أيضاً في التراث القبَّالي وفي التفسيرات القبَّالية في الحديث عن توراة الفيض (مقابل توراة الخلق) وهي توراة لا يقرؤها إلا العارفون بأسرار القبَّالاه . وتتميز هذه التوراة بأنها لا تتضمن أية شعائر أو أوامر أو نواه (فالأوامر والنواهي تفترض الحدود ، بينما العارفون بتوراة الفيض مقدَّسون لا حدود لهم ويتحكمون في الإرادة الإلهية

نفسها) . وقد تبدَّى هذا في الحركات الشبتانية حيث كان زعماء هذه الحركات يقومون بإبطال الشريعة والدعوة إلى خرق الشعائر . ولقد ذهب بعضهم إلى تحويل الوصايا العشر إلى نقائضها أو إلى إعادة تفسيرها . فوصية مثل «لا تسرق» تحولت إلى «لا تسرق إلا بحذر» أو «فلتسرق» . والشيء نفسه يُقال عن الوصية الخاصة بالزنى . وقد وصل هذا إلى قمته في حركات مثل الدونمه والحركة الفرانكية .

ومرة أخرى ، لم يكن النسق الحلولي يقدر بمفرده على أن يصل باليهود إلى هذه المرحلة الترخيصية دون وجود عناصر تاريخية وحضارية ساعدت على تحقُّقه . ومن أهم هذه العناصر ، انتشار يهود المارانو الذين لم يكونوا يعرفون الشعائر اليهودية ، إذ كانت دياناتهم مجموعة من العقائد الخفية المنفصلة عن الشعائر التي لم يكن بوسعهم القيام بها . كما أن ضعف دور الجماعات اليهودية ، كجماعة وظيفية ، ولَّد لديهم رغبة في الانفلات من العزلة الجيتوية والشعائرية التي فرضتها عليهم وظيفتهم . وأخيراً ، كان عدد الشعائر قد تزايد بشكل رهيب مع بدايات القرن السابع عشر حتى صرح أحد اليهود ، في منتصف القرن الثامن عشر ، بأنه أصبح من الصعب على الإنسان أن يكون إنساناً ويهودياً في الوقت نفسه .

كما أن تزايد الشعائر سبَّب الكثير من المشاكل لأعضاء الجماعات اليهودية ، فقد كان أعضاء الأغلبيات يتهمونهم بأنهم يعزلون أنفسهم عمداً عن بقية الشعب . بل يبدو أن تهمة الدم تعود إلى أن كثيراً من الناس لم يفهموا شعائر عيد الفصح البالغة التعقيد . ولعل أحد أسباب ظاهرة الجيتو هو حاجة اليهود ، الواحد منهم إلى الآخر ، حتى يتسنى لهم إقامة الشعائر الدينية .

وقد ظهر داخل اليهودية ، منذ بداية تاريخها ، نقد للتطرف الشعائري ، فقد هاجم الأنبياء (المدافعون عن الفكر التوحيدي) الشعائر والقرابين وتكريس الذات لها بدلاً من الإيمان الحقيقي الداخلي . فالإله لا يُسرُّ بالذبائح وإنما بالعيش حسب قواعد الأخلاق . ويمكن القول بأن سبب الأزمات المختلفة التي واجهتها اليهودية كان يتمثل في تزايد الشعائر وصرامتها وجفافها على حساب العقائد . وقد انتصرت المسيحية على اليهودية في القرن الأول الميلادي لأن العبادة القربانية كانت قد تحولت إلى شعائر خارجية خالية من المعنى ، وطرحت المسيحية بدلاً من ذلك فكرة الإيمان الذي يُفصح عن نفسه عن طريق قربان الشفتين والقلب (أي الإيمان والصلاة) وجعلته سبيل الخلاص .

ومع بدايات القرن السابع عشر ، كانت اليهودية الحاخامية (كما أسلفنا) قد بدأت تواجه الأزمة نفسها مرة أخرى ، إذ تزايدت الشعائر وتوارت العقائد وتراجع الإيمان . وقد نَمَت الحركات المشيحانية الهجوم على اليهودية الحاخامية ، فكانت تخرق الشعائر وتبطلها تماماً . وقد ذهب مندلسون إلى أن اليهودية ليست ديناً بالمعنى المتعارف عليه ، فهي مجموعة من القوانين والقواعد الأخلاقية السلوكية والشعائر المُرسلة التي تهدف إلى وضع أسس لسلوك اليهود لا إلى تقنين تفكيرهم وعقيدتهم . أما العقائد اليهودية ، من وجهة نظره ، فهي أمور عقلية عامة وطبيعية يستطيع العقل أن يصل إليها دون حاجة إلى دين مرسل . ومن هنا ، فإن الشعائر تُجسد في نظره الخصوصية اليهودية (القومية) ، أما العقائد فلا يوجد فيها ما يجعل اليهودية مختلفة عن غيرها من الديانات .

وقد تقبل اليهود الإصلاحيون هذه الأطروحة ، ولكنهم خلصوا منها إلى ضرورة الحفاظ على العقائد العقلية العامة وضرورة التخلص من الشعائر ومن الخصوصية ومن النزعة القومية التي تعزل اليهود وتمنعهم من الاندماج . وقد كان هذا الخط امتداداً لحركة التنوير اليهودية . وذهب دعاة اليهودية المحافظة إلى ضرورة الحفاظ على الشعائر باعتبارها جزءاً من التقاليد اليهودية الشعبية ، وعلى أساس أنه قد يكون من الضروري تغييرها وإعادة تفسيرها لتتفق مع روح العصر . ولكن عملية التغيير هذه يجب أن تتم بحذر شديد ومن خلال شكل من أشكال الاجتهاد أو الإجماع الشعبي .

وفي أواخر القرن الثامن عشر ، وعبر القرن التاسع عشر ، كانت الحكومات المطلقة في أوربا تحاول تشجيع أعضاء الجماعات بشتى الطرق للتخلي عن إقامة الشعائر ، خصوصاً ما يعمق منها الهوية اليهودية ويعزل اليهود عن بيئتهم الحضارية ، مثل إطلاق اللحية والسوالف . كما كانت تمنع أحياناً تعيين اليهود الذين يطلقون لحاهم ، وتمنع تدريس التلمود في المدارس اليهودية .

وقد استجاب كثير من اليهود لهذه الدعاوى التنويرية ، ولكن العقائد اليهودية ظلت غير واضحة أو مستقرة ، ولم يتم تعريفها . ولذا ، فإن اليهودي حينما يتخلى عن إقامة الشعائر لا يبقى له شيء من اليهودية . وهناك من السوابق التاريخية ما يبين أن التخلي عن الشعائر يؤدي إلى اختفاء اليهودية كما حدث مع يهود كايفنج مثلاً . ولعل هذا هو أيضاً ما حدث ليهود آشور بعد التهجير الآشوري . وهذا يفسر ارتفاع نسبة التنصُّر بين اليهود في العصر الحديث ، أو تحوُّل الأغلبية الساحقة منهم إلى يهود ملحدين أو لا أدريين أو مجرد يهود إثنيين . وفي هذه الحالة ، يتحول ما تبقَّى من شعائر إلى مجرد رموز إثنية أو عرقية قومية يتمسك بها كثير من اليهود الملحدين أو الإثنيين ، لا إيماناً بعقيدة دينية أو قيمة أخلاقية وإنما تعبيراً عن

الهوية . وبالتالي ، تُفرَّغ الشعائر من مضمونها بل تكتسب مضموناً مناقضاً لمعناها الديني الأصلي . والواقع أن إقامة الشعائر هي ، من المنظور الديني (التوحيدي) ، محاولة لكبح الذات والتقرب من الإله . أما من المنظور الإثني (الحلولي) ، فهي تأكيد للذات والتفاف حولها وتعبير عن توثنها . والصهيونية ، في جوهرها ، امتداد لهذا الموقف ، فهي محاولة للاستمرار في الشعائر الدينية باعتبارها تعبيراً عن الروح القومية اليهودية ، وهي لذلك شكل من أشكال توثن الذات .

ويُلاحظ أن أهمية الشعائر تتحدد حسب شعائر مجتمع الأغلبية . ففي الولايات المتحدة ، تآكلت شعائر السبت والطعام الشرعي تماماً (حيث لا يقيمها سوى قلة قليلة من يهود الولايات المتحدة لأنها تتناقض مع إيقاع المجتمع) . ورغم أن عيد التدشين غير مهم من منظور اليهودية الحاخامية بالمرة ، فقد اكتسب أهمية غير عادية بسبب وقوعه في التاريخ نفسه الذي يقع فيه الكريسماس (عيد الميلاد) . بينما تراجعت أهمية عيد المظال مثلاً ، برغم أنه من أعياد الحج الثلاثة ، لأنه لا يتزامن مع أي عيد أمريكي ولا يقع بالقرب منه .

ويواجه بعض أعضاء الجماعات اليهودية صعوبة بالغة في تنفيذ الشعائر . ولعل قوانين الطعام أكثر الشعائر اصطداماً بالواقع العلماني الغربي ، إذ يجد اليهودي صعوبة في الحفاظ عليها ، فرغم تميُّز أعضاء الجماعات اجتماعياً ، فإنهم لا يجدون جزاراً يقدم لهم لحوماً تتبع قواعد الذبح الشرعي . كما أن بعض الدول ، مثل الدول الإسكندنافية ، تحرم الذبح الشرعي باعتبار أنه يشكل قسوة ضد الحيوانات . وتشكل إقامة مظلة السوكاه (في عيد المظال) مشكلة بالنسبة إلى اليهود الذين يعيشون في البلاد الباردة ، ويتم التغلب على هذا إما عن طريق إقامتها في المعبد اليهودي أو في الشرفة (وهي امتداد للمنزل) ويمكن تدفئتها .

وقد بعثت في إسرائيل بعض الشعائر المرتبطة بالأرض ، مثل لاج بعومير (يوم الحصاد) ورأس السنة للأشجار ، كما يحاول بعض المتدينين تطبيق شعائر السنة السبتية وإن كانوا يجدون صعوبة بالغة في ذلك . وتحاول المؤسسة الدينية ، من خلال أجهزة الحكومة ، تذليل الصعوبات أمام من يود أن يؤدي الشعائر . وقد تأسس في إسرائيل معهد خاص يحاول التوصل إلى طرق يمكن بها تأدية الشعائر في المجتمع الحديث ، فيمكن مثلاً برمجة أضواء كهربائية في ليلة السبت حتى تعمل آلياً في اليوم التالي . كما أن كثيراً من المصالح الحكومية تأخذ الشعائر في الاعتبار فلا تؤسس فنادق إلا وبها مطبخان حتى يمكن تنفيذ الشعائر الخاصة بالطعام . ومع هذا ، لا يمكن القول بأن الإسرائيليين حريصون على أداء الشعائر ، فهم يلتهمون كميات كبيرة من لحم الخنزير بشراهة غير عادية ، وأصبح يوم السبت يوم عطلة نهاية الأسبوع يخرجون فيه ويمارسون سائر الأنشطة التي يمارسها الإنسان الغربي في المجتمعات العلمانية ، كما يذهبون إلى دور العرض السينمائي . وإهمال الشعائر هو تعبير عن حلولية الإسرائيليين الوثنية . فالإله يحل في المستوطنين (الذين يحلون في أرض فلسطين) . وهم بذلك يصبحون «قوة التشريع» ولذا تُعطَّل الشرائع . وكما تقول إحدى شخصيات رواية يائيل ديان **طوبى للخائفين** : " لا تقم الشعائر يا بني ، فديننا هو أرضنا وتوراتنا هي الدولة ، وعلمنا هو شعارنا وهو تميمتنا عوضاً عن المزوزاه" .

وهذا يخل باتفاق الوضع القائم (وهو ذلك الوضع الذي كان قائماً في فلسطين قبل عام ١٩٤٨ بشأن تنفيذ الشعائر فيها حيث كانت الشعائر تُنفَّذ في بعض القطاعات وتُستبَعد في قطاعات أخرى ، فمثلاً كان تُباح مشاهدة مباريات كرة القدم يوم السبت ولكن كان يُمنع عرض أفلام سينمائية) . وحتى عهد قريب ، كانت المدن الإسرائيلية مُقسَّمة حسب مدى التزامها بتنفيذ الشرائع ، فكانت تل أبيب غير مكترثة بها ، بينما كانت أعلى درجات الالتزام بالشعائر في القدس . وفي الآونة الأخيرة ، بدأ الزحف العلماني نحو القدس . وقد تقدَّم أحد زعماء الجماعة اليهودية الأرثوذكسية المعادية للصهيونية بمذكرة إلى ياسر عرفات ، يشكو فيها من إقامة محلات لبيع المواد الإباحية في القدس .

ويُصدَم كثير من أعضاء الجماعات اليهودية ، من المتدينين وغير المتدينين ، حينما يقومون بزيارة إسرائيل (فلسطين المحتلة) بسبب هذه الظاهرة . أما المتدينون ، فيرون في هذا تراجعاً عن المثل الدينية ، وأما غير المتدينين فيرون فيه تآكلاً للهوية . وقد صُدم يهود الفلاشاه أيضاً بهذه الظاهرة ، وأشاروا إلى مفارقة أن المؤسسة الحاخامية لا تعترف بيهوديتهم رغم حرصهم على إقامة الشعائر بدرجة تفوق حرص الإسرائيليين .

الأوامر والنواهي (متسفوت)

Mitzvot

«الأوامر والنواهي» هي المقابل العربي لكلمة «متسفوت» العبرية التي تعني أيضاً «الوصايا» أو «الفرائض» . و«متسفوت» صيغة جمع مفردها «متسفاه» . وللكلمة (داخل النسق الديني اليهودي) معنيان : معنى عام ، وهو القيام بأي فعل خيِّر تمتزج فيه الأفعال الإنسانية بالقيم الدينية ، فإذا ساعد يهودي أخاه منطلقاً من

حبه له فهذه «متسفاه» (وتأتي عادةً في هذه الصيغة) . أما المعنى الخاص للكلمة (ويأتي عادةً في صيغة «متسفوت») فهو الوصايا أو الأوامر والنواهي (متسفوت) التي تُكوِّن في مجموعها التوراة . وتشمل المتسفوت ستمائة وثلاثة عشر عنصراً ، منها مائتان وثمانية وأربعون أمراً ، وثلاثمائة وخمسة وستون نهياً ، وهي موجهة إلى اليهود وحسب (إذ أن أبناء نوح لهم وصايا خاصة بهم) .

وقد صُنِّفت المتسفوت إلى أوامر ونواه توراتية وأخرى حاخامية . كما قُسِّمت إلى أوامر ونواه أقل أهمية وأخرى أكثر أهمية ، وإلى أوامر ونواه عقلانية (أي تُفهَم بالعقل) وأخرى مُوحىً بها (أي يطيعها اليهودي دون تفكير) . ومن التصنيفات الأخرى ، أوامر ونواه تُنفَّذ بالأعضاء وأخرى بالقلب ، وتلك التي لا تُنفَّذ إلا في فلسطين (إرتس يسرائيل) ، وتلك التي تنفذ داخلها وخارجها . واليهودي البالغ ثلاثة عشر عاماً ويوماً يُكلف بتنفيذها ، وكذلك اليهودية البالغة اثني عشر عاماً ويوماً . ومن هنا تسمية الصبي اليهودي الذي يبلغ سن التكليف الديني «برمتسفاه» ، أما الفتاة فهي «بت متسفاه» . والنساء غير مكلفات بتنفيذ الأوامر المرتبطة بزمن محدَّد أو فصل محدَّد ، مثل إقامة الصلاة ، وإن كن مكلفات بإقامة شعائر السبت برغم ارتباطها بزمن محدَّد ، وكلٌ من الذكور والإناث مكلفون بالنواهي .

والأوامر تختص بالإله (١ ـ ٩) ، وبالتوراة (١٠ ـ ١٩) ، والهيكل والكهنة (٢٠ ـ ٣٨) ، والقرابين (٣٩ ـ ٩١) ، والإيمان (٩٢ ـ ٩٥) ، والطهارة (٩٦ ـ ١١٣) ، والهبات للهيكل (١١٤ ـ ١٣٣) ، والسنة السبتية (١٣٤ ـ ١٤٢) ، وذبح الحيوانات (١٤٣ ـ ١٥٣) ، والأعياد (١٥٤ ـ ١٧٠) ، والجماعة (١٧١ ـ ١٨٢) ، والشرك (١٨٥ ـ ١٨٩) ، والحرب (١٩٠ ـ ١٩٣) ، والعلاقات الاجتماعية (١٩٤ ـ ٢٠٨) ، والأسرة (٢٠٩ ـ ٢٢٣) ، والشئون الاقتصادية (٢٢٤ ـ ٢٣١) ، والعبيد (٢٣٢ ـ ٢٣٥) ، والأذى (٢٣٦ ـ ٢٤٨) .

أما النواهي ، فتختص بالشرك (١ ـ ٥٩) ، والهرطقة (٦٠ ـ ٦٦) ، والهيكل (٦٧ ـ ٨٨) ، والقرابين (٨٩ ـ ١٥٧) ، والكهنة (١٥٨ ـ ١٧١) ، وقوانين الطعام (١٧٢ ـ ٢٠١) ، ونذير الإله (٢٠٢ ـ ٢٠٩) ، والزرعة (٢١٠ ـ ٢٢٩) ، والإقراض بالربا والتجارة ومعاملة العبيد (٢٣٠ ـ ٢٧٢) ، والعدل (٢٧٣ ـ ٣٢٩) ، وجماع المحارم والعلاقات المحرمة الأخرى (٣٣٠ ـ ٣٦١) ، والملكية (٣٦٢ ـ ٣٦٥) .

ومن أهم الأوامر ، تلك الأوامر المتصلة بالختان وزراعة الأرض (السنة السبتية) والطعام والأسرة وغيرها . والواقع أن عدم الالتزام بالأوامر والنواهي يعني عدم الانتماء إلى الشعب اليهودي . ومن الملاحَظ أن كثرة الأوامر والنواهي والشعائر المرتبطة بها (في اليهودية) قد أدَّت إلى تكبيل اليهود وإلى زيادة سلطة الحاخامات ، الأمر الذي جعل عملية تحديث اليهودية أمراً عسيراً .

ولا شك في أن تزايد الأوامر والنواهي وتقنينها تعبير عن عنصرين مترابطين أولهما الطبقة الحلولية داخل التركيب الجيولوجي اليهودي . فالحلولية تتبدَّى دائماً في كثرة الشعائر وتطرفها ، فهي شكل من أشكال تأكيد قداسة من يتمتع بالحلول الإلهي مقابل من يقع خارج دائرة القداسة . أما ثانيهما فهو تحوُّل الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية وهي جماعات عادةً ما تفرض على نفسها عدداً هائلاً من الأوامر والنواهي حتى تحتفظ بهويتها المحايدة الضرورية للاضطلاع بوظيفتها .

وقد حاول الفلاسفة اليهود تفسير الأوامر والنواهي . ففسَّرها موسى بن ميمون بأنها تنازل من جانب الإله للعقل الإنساني . وقد أصبحت المتسفوت ، بالنسبة إلى القبَّاليين ، مثل الأسرار الدينية أو التعويذات السحرية . وهي تشبه ، في هذا ، السر المقدَّس عند المسيحيين . وإن كان اليهود يشغلون ، حسب الرؤية القبَّالية ، مركزاً أساسياً في عملية الخلاص الكونية ، فإن قيامهم بتنفيذ الأوامر والنواهي مسألة ذات أهمية كونية إذ يستطيع اليهود ، من خلال قيامهم بها ، أن يسرعوا بزواج الابن/الملك من الابنة/الملكة ، أو الإله من الشخيناه ، حتى يتوحد معاً (بالمعنى الجنسي) . ولذا ، فإن على اليهودي قبل أن يقوم بتنفيذ إحدى الوصايا ، أن يقول : «من أجل توحيد الواحد القدوس والشخيناه (ثناء)» .

وهناك كثير من الأوامر والنواهي (مثل تلك الخاصة بالملكية أو بالهيكل أو اللاويين أو الكهنة أو القرابين) ليس لها سوى أهمية جيولوجية تراكمية ، بمعنى أنها مرتبطة بمواقف تاريخية سابقة لم يعد لها وجود . ومن ثم ، لم يعُد من الممكن تنفيذها رغم ورودها ولعل أهم هذه الأوامر والنواهي تلك الخاصة بمؤسسة الملكية والهيكل ، واللاويين والقرابين . ومع هذا ، بدأت بعض هذه الأوامر والنواهي تدب فيها الحياة في إسرائيل مرة أخرى وتكتسب أهمية خاصة . فمع محاولات بعض المتطرفين الدينيين في إسرائيل أن يُعيدوا بناء الهيكل ، بدأت إعادة بعث الشعائر الخاصة به ، وأُسِّس معهد خاص لدراستها والتأكد من دقة تنفيذها . كما بُعثت بعض الوصايا الخاصة بالشعوب الأخرى مثل تلك التي تدعو اليهودي إلى أن يبيد الأقوام الكنعانية السبعة (١٨٧) ، وإلى أن يمحو ذكرى العماليق (١٨٨) ، وإلى تَذكُّر ما فعل أولئك بجماعة

يسرائيل (١٨٩) ، وكذا الوصايا التي تَنْهى عن الزواج من العمونيين أو المؤابيين (٥٣) ، أو عن عقد سلام معهم (٥٤) ، كما تَنْهى عن نسيان ما فعله العماليق باليهود (٥٩) . ويعود بعث هذه الأوامر والنواهي إلى الجو العنصري المتزايد في التجمع الصهيوني الذي يعبِّر عن الحلولية الحالية من إنه فهذه الأسماء مرتبطة في الوجدان الصهيوني بالعرب داخل أو خارج فلسطين ، كما أن العرب يُشار إليهم في أدبيات جوش إيمونيم بمثل هذه التسميات .

والأهم من كل هذا هو قضية التفسير ، فكثير من هذه الوصايا والأوامر ، في صيغتها المباشرة ، تبدو كأنها مجرد أوامر ونواه ذات طابع أخلاقي عام يتعيَّن على اليهودي التمسك بها ، ولكن التفسير يعطيها مضموناً مغايراً تماماً . وللبرهنة على ما نقول ، يمكننا أن نشير إلى أحد كتب الأوامر والنواهي وهو **كتاب التربية** ، الذي كتبه حاخام مجهول في القرن الرابع عشر ، وصنف فيه الأوامر والنواهي بحسب ترتيب ورودها في العهد القديم ، وشرحها حسبما جاء في التلمود . ومن أهم أهداف هذا الكتاب تحديد المضمون الدقيق للوصايا والنواهي والمصطلحات المستخدمة فيها . ومن أهم هذه المصطلحات كلمة «أخوك» ، أو كلمة «رجل» التي يفسرها بأنها تعني اليهودي وحسب . ولذا ، فإن الأوامر والنواهي الخاصة بأن «تحب أخاك» وألا «تسرق أمواله» ولا «تزني بزوجته» ، وكذلك ألا تخدعه أو تؤذيه أو تنتقم منه ، لا تنطبق إلا على اليهود وحدهم . وتفسر الوصية الخاصة بضرورة إعتاق العبد اليهودي بأنها تعني ضرورة أن يظل العبد غير اليهودي عبداً أبد الدهر . ويُفسِّر الكتاب هذا التكليف الديني بأنه يستند إلى أن الشعب اليهودي أرقى الأنواع البشرية ، وأن اليهود خُلقوا ليعرفوا إلههم ويعبدوه ، ولذا فهم يستحقون أن يقوم عبيد على خدمتهم ، وهم إن لم يستعبدوا الشعوب الأخرى سيضطرون لاستعباد إخوانهم في الدين . ويرى الكتاب أن هذا هو معنى الفقرة الآتية من سفر اللاويين (٢٥/ ٣٩ ـ ٤٦) : «وإذا افتقر أخوك عندك وبيع لك فلا تستعبده استعباد عبد ، كأجير كنزيل يكون عندك ، إلى سنة اليوبيل يخدم عندك . ثم يخرج من عندك هو وبنوه معه ويعود إلى عشيرته . وإلى ملك آبائه يرجع . لأنهم عبيدي الذين أخرجتهم من أرض مصر لا يباعون بيع العبيد . لا تتسلط عليه بعنف . بل اخش إلهك . وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب الذين حولكم . منهم تقتنون عبيداً وإماءً . وأيضاً من أبناء المستوطنين النازلين عندكم منهم تقتنون ومن عشائرهم الذين عندكم الذين يلدونهم في أرضكم فيكونون ملكاً لكم . وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك . تستعبدونهم إلى الدهر . وأما إخوتكم بنو يسرائيل فلا يتسلط إنسان على أخيه بعنف» . وتُفسَّر الوصية الخاصة بأخذ فائدة على الأموال المُقرَضة للأغيار بأنها تعني ضرورة ألا يبدي اليهودي نحوهم أية رحمة (لأنهم لا يعبدون الرب) . وتُفسَّر الوصية الخاصة بعدم اتباع عادات الأغيار بأنها لا تعني فقط أن يعزل اليهودي نفسه عن الأغيار وحسب ، وإنما أن يتحدث عنهم بالسوء أيضاً .

وقد كانت مثل هذه الآراء المتطرفة حبيسة الكتب الفقهية التي كُتبت في جيتوات شرق أوربا (مثل **كتاب التربية**) والتي تشكِّل رغبة من جانب الضعيف في أن ينتقم من الآخرين على الورق ، ولذا لم يكن يتداولها سوى بعض الحاخامات الأرثوذكس ، وخصوصاً بعد أن رفضت اليهودية الإصلاحية والمحافظة هذه الأوامر والنواهي . ولكن ، بعد حرب عام ١٩٦٧ ، ومع النفوذ المتزايد للمؤسسة الأرثوذكسية الصهيونية ، بدأت تظهر هذه الآراء في الصحف والمجلات الإسرائيلية ، بل في الإذاعة والتليفزيون . وقد طُبع **كتاب التربية** طبعة شعبية مدعومة من الحكومة ويُوزَّع على طلبة المدارس . ويستخدم أعضاء جماعة جوش إيمونيم ما جاء في هذا التفسير لتسويغ الاستيطان واستغلال العمالة العربية ، كما أنهم يقتبسون الأوامر والنواهي الخاصة بالعماليق والكنعانيين ويطبقونها على العرب .

وتظهر الخاصية الجيولوجية التراكمية لليهودية في اقتراح الحاخام اليهودي المحافظ فاكنهايم إضافة وصية جديدة (الوصية رقم ٦١٤) وهي «واجب البقاء» بمعنى أن واجب اليهود هو البقاء ، وقد وصفها بأنها الوصية الأساسية التي تحل محل كل الأوامر والنواهي الأخرى . وهم في الواقع يطلقون على هذه الفكرة اسم «لاهوت ما بعد أوشفيتس» ، أي اللاهوت الذي يتصدى للواقع اليهودي بعد الإبادة النازية ليهود أوربا والذي يهدد وجودهم . والبقاء (كما هو معروف) ليس خاصية أخلاقية ، وإنما هو خاصية طبيعية داروينية ، ولكنه تحوَّل على يد فاكنهايم إلى المتسفاه الأساسية . واليهودية التجديدية تطرح ، هي الأخرى ، البقاء باعتباره المتسفاه الأساسية بل الوحيدة بالنسبة إلى الشعب اليهودي .

الوصايا

Mitzvot

«الوصايا» ترجمة عربية لكلمة «متسفوت» ، وهي تعني «الأوامر والنواهي» ، ونحن نفضل استخدام المصطلح الأخير في معظم الأحيان نظراً إلى أن كلمة «الوصايا» قد تشير أيضاً إلى «الوصايا العشر» ، وهي مختلفة عن «الأوامر والنواهي» .

الختــــــان

Circumcision

«الختان» تقابلها في العبرية كلمة «ميلاَه» ، ويُقال أحياناً «بريت ميلاَه» ، أي «عهد الختان» ، وأحياناً «بريت» فقط ، أي «عهد» . ويختن الطفل اليهودي بعد ميلاده بسبعة أيام على الأكثر ، حتى ولو وقع اليوم السابع في يوم السبت ، أو في عيد يوم الغفران ، أكثر الأيام قداسة . وقد ذُكر الختان في العهد القديم في ثلاثة مواضع أهمها في سفر التكوين (١٧/ ١٠ ـ ١٥) .

والختان عادة قديمة جداً ، شاعت بين أمم العالم القديم ، وهو ضرب من الطقوس الخاصة بالدم (عهد الدم) التي تدخل ضمن القرابين البشرية الشائعة في الشرق الأدنى القديم ، أو ضمن شعائر بلوغ سن الرشد . وقد نقلها العبرانيون عن المصريين الذين كانوا يكنون ازدراءً خاصاً للشعوب التي لا تمارس الختان ، وهو ما يفسر العبارة الواردة في سفر يشوع (٥/ ٩) : "اليوم قد دحرجت عنكم عار مصر" .

والختان داخل الإطار التوحيدي تعبير عن تقبُّل الحدود ورغبة الإنسان في طاعة ربه ، ولكنه في اليهودية أصبح يعبِّر عن حلولية النسق الديني اليهودي ، وعن تداخل المطلق والنسبي ، ولذا فهو يعتبر مناسبة قومية ، فهو علامة العهد بين الإله وإبراهيم وجماعة يسرائيل ، وهو ما أسبغ القداسة عليهم . ولهذا ، فإن من لم يُختن لا يعتبر فرداً من الشعب المقدَّس لأن الإله لا يحل فيه . والختان علامة أن الإله منح جماعة يسرائيل أرض الميعاد («وأُعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون إلههم»[تكوين ١٧/ ٨]) . وإذا كان الإله يمنحهم الأرض ، فإن الختان على مستوى من المستويات هو القربان الذي يقدمونه له . ويتأكد الطابع القومي الحلولي للختان في الطقوس التي تصاحبه ، والتي تأخذ شكل حفل يحضره عشرة أفراد ، وهو نفس النصاب اللازم للقيام بصلاة الجماعة اليهودية . ويجلس الجد على كرسي وإلى جواره كرسي آخر يُترك خالياً يُسمَّى «كرسي إلياهو» ، صاحب العهد بين الإله وجماعة يسرائيل ، ويقوم بعملية الختان نفسها الموهيل (كلمة عبرية تشير إلى من يقوم بهذه المهمة) . وقد حل محله طبيب في العصر الحديث . بل إنه إذا مات الطفل قبل مرور سبعة أيام من ميلاده ، فإن جثمانه يُختن ويُعطى اسماً عبرياً ليكتسب الهوية اليهودية .

وقد كان الختان في الماضي يُجرى للذكور بصورة بسيطة تتيح للشخص مجالاً للادعاء بأنه غير مختون ، ليتقي عدوان غير اليهود عليه ، وليتفادى تهكم نساء الأغيار عليه إن عاشرهن جنسياً . وحينما زاد اندماج اليهود في العصر الهيليني ، كان بعضهم تُجرى له عملية تمكّنه من إخفاء آثار الختان . وبعد التمرد الحشموني ، أمر الكهنة بأن تزال الغلفة عن آخرها ، حتى لا يتمكن اليهود من الاندماج مع الأغيار . وكان الحشمونيون يفرضون التهود والختان على الشعوب التي يهزمونها (مثل الإيطوريين) . وقد منع أنطيوخوس الرابع (إيفانيس) الختان في محاولته دمج يهود فلسطين في إمبراطوريته السلوقية ، كما منعه الإمبراطور هادريان ، ويُقال إن هذا أحد أسباب ثورة بركوخبا . ومع ظهور المسيحية ، أصبح الختان العلامة الأساسية التي تميِّز اليهود عن المسيحيين .

وقد حاولت اليهودية الإصلاحية إسقاط هذه الشعيرة واستمر الجدل عدة سنوات . ويبدو أنه ، مع انتشار عادة الختان في الغرب ، لأسباب صحية ، توقفت المناقشة وقبلته الفرق اليهودية كافة .

وعند استيطان أعداد من يهود الفلاشاه في إسرائيل ، طلبت منهم الحاخامية أن يتهودوا ، باعتبار أن يهوديتهم مشكوك فيها ومن ثم مرفوضة . وحينما رفضوا ذلك ، وافقت الحاخامية أن تتم عملية تهويد اسمية تأخذ شكل عملية ختان مخففة (استنزاف نقطة دم واحدة من مكان الختان) . وحينما وافق بعض أعضاء الفلاشاه ، تم ختانهم مرتين ، مرة على يد الحاخامية الإشكنازية ، والأخرى على يد الحاخامية السفاردية . وقد كان كثير من المهاجرين السوفييت غير مختونين ، ولكن أعداداً كبيرة منهم قبلت عملية التهويد والختان حرصاً منهم على فرصة الاستقرار في إسرائيل ومن ثم الحراك اجتماعياً .

ولا يمارس ختان الإناث بين يهود العالم العربي ، ولكنه يمارس في المجتمعات التي تسود فيها هذه العادة ، ومن ثم فإننا نجده بين يهود الفلاشاه . وتحت تأثير حركة التمركز حول الأنثى ، ظهر ما يُسمَّى «بريت بنوت يسرائيل» ، أي «عهد بنات إسرائيل» ، رداً على البريت ميلاَه (عهد الختان) . وتصاحب بريت بنوت يسرائيل صلاة خاصة تؤكد أهمية الأمهات؛ ليليت التي قاومت ورفضت أن يطأها آدم ، وحواء ، وزوجة نوح ، وسارة ، ورفقة ، وليئة ، وراحيل .

بلوغ سن التكليف الديني (برمتسفاه وبت متسفاه)

Bar Mitzvah and Bat Mitzvah

«بلوغ سن التكليف الديني» هي الترجمة العربية لعبارة «برمتسفاه» وهي عبارة آرامية معناها «الابن (بر) المسئول عن تنفيذ الأوامر والنواهي (متسفاه)» ، أي التكليف الديني . ويُطلق هذا

المصطلح على اليهودي عند بلوغه سن النضج واكتسابه الهوية اليهودية (الثالثة عشرة ويوماً بالنسبة إلى الذكور والثانية عشرة ويوماً بالنسبة إلى الإناث «بت متسفاه»). ويُقام في هذه المناسبة احتفال ديني في المعبد يعقبه احتفال عائلي في المنزل. ويصبح من حق اليهودي البالغ أن يلبس شال الصلاة (طاليت) وينضم إلى صلاة الجماعة إذ يمكن حسابه ضمن النصاب (منيان)، وأن يقرأ التوراة في المعبد، وعليه أن ينفذ الأوامر والنواهي. وتنص الشريعة اليهودية على أن سن الثالثة عشرة هي السن المثلى لقيام الشخص الصغير بتحمل مسئولياته الدينية والقانونية كاملة، استناداً إلى أن إبراهيم كان في الثالثة عشرة عندما تصرَّف كشخص ناضج وأنكر على أبيه عبادة الأصنام. وهي أيضاً السن التي تعني اكتمال نضوج الصبي (أو الصبية) وبلوغه من الناحية الفسيولوجية الجنسية بحيث يصبح مؤهلاً للزواج وإنجاب الأطفال.

لكن عادة الاحتفال بهذه المناسبة ليس لها سند في الكتابات الدينية اليهودية الحاخامية، فلم يرد لها ذكر في التلمود، بل عارضها اليهود الأرثوذكس في شرق أوربا بشدة حينما أُدخلت لأول مرة وقتلوا أحد الحاخامات الإصلاحيين بأن دسوا له السم لقيامه بعقد أحد هذه الاحتفالات. وقد كان الاحتفال يأخذ شكلاً دينياً صرفاً، فيُنادى الشاب البالغ ليقرأ التوراة في المعبد. ولم يكن هناك أي احتفال آخر. ولم يكن يوجد أي احتفال بمناسبة «بت متسفاه» على الإطلاق، فهذا تقليد ابتدعه مردخاي كابلان (مؤسس حركة اليهودية التجديدية). ومن المنظور الديني التقليدي، كان الاحتفال بالختان مهماً جداً. ورغم كل هذا، أصبح الاحتفال ببلوغ سن التكليف الديني (لا الختان) من أهم المناسبات بين يهود الولايات المتحدة، فهم يبالغون في الاحتفال بها، بطريقة تفرغها من أي محتوى ديني أو حتى تقليدي، الأمر الذي جعل بعض الزعماء الدينيين اليهود يدعون إلى ضرورة المطالبة بالتقليل من شأنها. وقد صار الاحتفال يتسم بالسوقية والابتذال ويعبِّر عن الاستهلاكية المتزايدة في المجتمع الأمريكي. بل إنه لم يَعُد احتفالاً ببلوغ سن الاضطلاع بالأعباء الدينية، وإنما تمت علمنته تماماً فأصبح خليطاً من الاحتفال بعيد الميلاد (بيرثداي بارتي birthday party) والاحتفال بالهوية الإثنية.

ولتفسير هذه الظاهرة، يمكننا الإشارة إلى أن اليهودية تتأثر إلى حدٍّ كبير بمحيطها الثقافي، وتكتسب هويتها من خلاله. ولذا تتدعم فيها تلك الجوانب التي لها ما يقابلها في الواقع وتتآكل تلك التي ليس لها نظير. والاحتفال بالختان هو احتفال يهودي محض لا نظير له في المجتمع الأمريكي المسيحي، رغم أن هؤلاء يختنون أولادهم لأسباب صحية. وبالتالي، فإننا نجد أن الختان بين اليهود قد تراجعت أهميته وصار يقوم به طبيب دون أي احتفال ديني أو دنيوي. أما الاحتفال ببلوغ سن التكليف الديني، فقد تحوَّل إلى احتفال ضخم لأنه يقابل الاحتفال المسيحي، بتثبيت العماد بالنسبة إلى الأولاد والبنات المسيحيين. ولذا، كان من الضروري أن يظهر شيء مماثل بين أعضاء الجماعة اليهودية على هيئة «برمتسفاه» و«بت متسفاه»، وذلك رغم عدم وجود أي أساس ديني لها (ولذا، فإن هذا العيد ليس له وجود بين أعضاء الجماعة اليهودية في المجتمعات الإسلامية، على حين أن الاحتفال بالختان لا يزال عيداً مهماً وأساسياً بينهم).

برمتسفاه

Bar Mitzvah

انظر: «بلوغ سن التكليف الديني (برمتسفاه وبت متسفاه)».

اللحية

Beard

تُعتبَر إطالة اللحية في الحضارات القديمة علامة على بلوغ مرحلة الرجولة، وأحد أشكال الهوية. ولذا، كان المصريون يقصون لحيتهم بطريقة تختلف عن قص الآشوريين لها. ويمنع العهد القديم بصريح العبارة حلق أركان اللحية (لاويين ١٩/ ٢٧). ولذا، كان إطلاق اللحية أحد الأوامر الدينية التي يتعيَّن على اليهودي أن ينفذها. وينظر التلمود إلى اللحية بوصفها حلية الوجه، وقد نسب إليها المتصوفة من اليهود أسراراً لا يمكن سبر غورها. ويظهر اليهود في الصور المرسومة في العصور الوسطى في الغرب بدون لحى محفوفة، وهو ما يشير إلى تزايد معدلات الاندماج الحضاري بينهم. وفي عام ١٤٠٨، منع المرسوم الإسباني الصادر في ذلك العام اليهود من أن يحلقوا لحاهم، ربما حتى يتميَّزوا عن بقية السكان، وهو في هذا كان يشبه المراسيم النازية التي صدرت بعد ذلك.

وأثناء فترة الإعتاق، كانت الحكومات تمنعهم من إطلاق لحاهم باعتبار أن هذا نوع من التحديث، إذ كانت اللحية تُعَد شكلاً من أشكال الانعزال الحضاري. ولا يُطلق اليهود الغربيون لحاهم في الوقت الحاضر، لكن الأرثوذكس لا يزالون يحرمون حلق اللحية، في حين يسمح الأرثوذكس الجدد بحلاقتها بالشفرة الكهربائية، أي أنهم لا يقصونها.

السوالف

Side-Locks

كلمة «السوالف» يقابلها في العبرية «بيئوت» ، أي «أركان» ، ومفردها «بيئاه» وهي السالف المتدلي . وقد ورد في العهد القديم : «لا تقصروا رؤوسكم مستديراً ولا تفسد عارضيك» (لاويين ١٩/ ٢٧) ، وهي توصية ضد قص الشعر حول محيط الرأس . وكان من علامات التقوى أن يترك اليهودي جزءاً من شعره غير مقصوص (متدلياً فوق صدغيه وفوق الأذن) . ويترك اليهود الأرثوذكس (من الإشكناز) سوالف طويلة ، أما السفارد فإن سوالفهم قصيرة .

وقد نسبت القبَّالاه اللوريانية صفات عجائبية إلى السوالف ، فالقيمة الرقمية للكلمة العبرية «بيئاه» تعادل القيمة الرقمية لكلمة «إلوهيم» ، والسالفان واللحية تساهمان في ربط الإنسان بالإله من خلال التجليات النورانية العشرة (سفيروت) . ولذا ، يترك الحسيديون سوالفهم دون أن يقصوها . ونجد الوضع نفسه بين يهود اليمن الذي تأثروا بالقبَّالاه اللوريانية .

وبعد إعتاق اليهود ، قص كثير من اليهود سوالفهم مثلما تخلوا عن اليديشية واللحية والقفطان حتى يتم اندماجهم مع المواطنين كافة . وقد حرَّمت الحكومة الروسية على اليهود ترك السوالف ، عدا الحاخامات . وقد اختفت السوالف تقريباً بين اليهود إلا بين غلاة الأرثوذكس .

الطعام والقوانين الخاصة به في اليهودية

Dietary Laws

تُسمَّى القوانين الخاصة بالطعام في العبرية «كاشروت» وهي صيغة الجمع من كلمة «كاشير» أو «كوشير» ومعناها «مناسب» أو «ملائم» . وتُستخدَم هذه الكلمة لتشير إلى مجموعة القوانين الخاصة بالأطعمة وطريقة إعدادها وطريقة الذبح الشرعي عند اليهود ، وهي قوانين مصدرها التوراة . ويُسمَّى الطعام الذي يتبع قوانين الكاشروت «كوشير» ، ومعناها الطعام «المباح أكله» في الشريعة اليهودية . وهذه القوانين تحرم على اليهودي أكل أنواع معينة من الطعام ، وتُبيح له أكل أنواع أخرى . والواقع أن المحرمات تتعلق أساساً بلحوم الحيوانات ، لكن هناك بعض التحريمات الأخرى ، مثل : ثمرة الشجرة التي لم يمض على غرسها سوى أربعة أعوام ، أو أي نبات غُرس مع نبات آخر (باعتبار أن خلط النباتات مثل الزواج المختلط محرم) . ويُطبَّق هذا الحظر على أرض يسرائيل (أي فلسطين) وحسب . ويُحظر كذلك شرب أي خمر أعدها أو لمسها شخص من الأغيار . بل يُحرَّم أيضاً أكل خبز أو طعام أعده شخص من الأغيار حتى لو أُعدّ حسب قوانين الطعام اليهودي . وهناك تحريم أكل الخبز المُخمَّر في عيد الفصح . أما بالنسبة إلى لحوم الحيوانات ، فالأمر كالتالي :

أ) يحل لليهودي أن يأكل الحيوانات والطيور النظيفة ، وهي الحيوانات ذوات الأربع ، والتي لها ظلف مشقوق وليس لها أنياب ، وتأكل العشب وتجتر (تثنية ١٤/ ٤ - ٢٥ ، ولاويين ١١/ ٣) ، والطيور هي الطيور الأليفة التي يمكن تربيتها في المنازل والحقول وبعض الطيور البرية آكلة العشب والحب . وما عدا ذلك من الحيوانات والطيور فهي غير نظيفة . ولذلك يُحرَّم أكل الخيل والبغال والحمير لأنها ليست ذات أظلاف مشقوقة ، وكذلك الجمل لأنه ذو خف وليس ذا أظلاف ، ويُحرَّم الخنزير لأنه ذو ناب مع أن أظلافه مشقوقة . أما الأرانب وأشباهها ، فهي من القوارض آكلة العشب ، ولكنها ذات أظفار لا أظلاف مشقوقة . أما الطيور غير النظيفة ، فهي كل طير له منقار معقوف أو مخلب ، وهي أوابد الطير التي تأكل الجيف والرمم ، مثل الصقر والنسر والبومة والحدأة والببغاء .

ب) يُحرَّم على اليهودي أن يأكل لحم الحيوانات ، إن لم يكن قد ذبحها ذابح شرعي (شوحيط) ، وبالطريقة الشرعية بعد تلاوة صلاة الذبح (الذبح الشرعي) .

جـ) يُحرَّم أيضاً أكل أجزاء معينة من الحيوانات ، مثل عرق النسا ، حيث يجب أن يزال من الحيوانات ، أو لا يؤكل . كذلك يُحرَّم أكل أجزاء الحيوان الذي لا يزال حياً والشحم الذي لم يُسحَب منه الدم من خلال التمليح (بالعبرية : مليحاه) . (غسل اللحم لمدة ثلاثين دقيقة - تصفية ما تبقى من الدم - تغطية اللحم بالملح لمدة ساعة - غسل اللحم مما تبقَّى من دم وملح) . وعادةً ما يقوم الجزار بهذه المهمة .

د) يحل أكل السمك الذي له زعانف وعليه قشور ، أما أي شيء آخر ، مثل الجمبري والكابوريا وأنواع الأخطبوط والإستاكوزا ، فهو محرَّم . وكذا المحارات .

هـ) يحل لليهودي أكل أربعة أنواع من الجراد ، ولكن يُحرَّم عليه أكل الحشرات والزواحف .

و) يُحرَّم الجمع بين اللحم واللبن . ولذا ، يُحرَّم طبخ اللحوم في السمن والزبد بل يجب أن تُطبَخ في زيوت نباتية ، كما يحرم تناول اللحم والجبن أو الزبد أو نحوهما في وجبة واحدة (ويجب أن يفصل بين تناول أيٍّ منها والآخر ست ساعات) . بل من المُحرَّم أن يوضع اللحم في إناء كان قد وُضع فيه لبن أو جبن من قبل ، أو أن تُستعمَل

سكين واحدة في تقطيع اللحوم والجبن أو ما إليهما . ولذلك ، تُضطر المطاعم التي تقدم الأكل المباح شرعاً (كاشير أو كوشير) إلى أن يكون لديها مجموعتان من الأوعية ، واحدة لطبخ اللحوم وأخرى للألبان ، على أن يحفظا في مكانين منفصلين .

ولا يُحرَّم على اليهودي أكل أية خضراوات أو فاكهة . ومع هذا ، لا يجوز له أن يأكل من المحاصيل الأربعة الأولى لشجرة . وهناك كذلك التحريم الخاص بالخميرة في عيد الفصح .

كما يُحرَّم على اليهودي تناول خمر أعدها وثني أو حتى لمسها . ويُقال إن الحكمة من هذا التحريم هي أنه قد يكون قد كرَّسها لآلهته . غير أن الحاخامات وسعوا نطاق التحريم بحيث أصبح يشمل ما أعده الوثني أو أي إنسان غير يهودي . كما لم تَعُد المسألة إعداد الخمر وإنما مجرد فتح الزجاجة . وينطبق هذا القانون أساساً على المسيحيين ، وبدرجة أخف على المسلمين . فإذا فتح مسيحي زجاجة وجب سكبها ، ولكن إذا لمسها مسلم فإنه يحرم شربها ولكن يحل بيعها . كما حرَّم بعض الحاخامات تناول الطعام الذي أعده الأغيار حتى لو كان هذا الطعام شرعياً ، كما حرَّموا تناول الطعام في منزل الأغيار أو حتى معهم .

وقد بُذلت على مر العصور محاولات شتَّى لتفسير هذه التحريمات تفسيراً عقلانياً أو منطقياً كما فعل فيلون وموسى بن ميمون . وقد فسَّر علم اليهودية تحريم هذا العدد الكبير من الحيوانات والطيور على أسس أنثروبولوجية ، فقد كانت هذه الحيوانات والطيور طوطمية للقبائل العبرانية الاثنتي عشرة ، وحينما تم توحيد القبائل تم تحريم سائر الحيوانات والطيور الطوطمية (ومن هنا ، فإن عدد هذه الحيوانات والطيور المحرمة ٤٨ تقبل القسمة على ١٢ وهو عدد القبائل العبرانية) . أما تحريم طبخ اللحم في اللبن فهو عادة كنعانية . وقد فسر البعض الغرض الديني منها تفسيراً حلولياً بأنها تضفي عنصراً من القداسة على الحياة اليومية للشعب المقدَّس ، وتساعدهم في الحفاظ على تفرُّدهم وانعزالهم . وإن كان هناك من يذهب إلى أنها رمز تحريم الجماع بالمحارم . وقد ساهمت هذه القوانين المركبة إلى حدٍّ كبير في عزل اليهود فعلاً . فالطعام اليومي يضبط إيقاع حياة الإنسان ويتحكم في علاقاته الاجتماعية بالآخرين ، لأن الإنسان الذي يتناول طعاماً مختلفاً عن طعام الآخرين يجد نفسه شاء أم أبى منعزلاً عنهم لا يمكنه أن يشاركهم حياتهم اليومية . وحتى أولئك اليهود الذين تركوا صفوف اليهودية ، أو حاولوا التمرد على انعزاليتها ، كان من العسير عليهم ترك الطعام اليهودي ، ذلك لأنه ليس من اليسير على المرء أن يغيِّر الطعام الذي ألفه وتعوَّد عليه .

ونظراً لتغلغل قوانين الطعام في حياة اليهود اليومية وتعقُّدها ، فإن اليهودي العادي كان يواجه مشاكل دينية تضطره إلى اللجوء إلى الحاخام طلباً للفتوى ، الأمر الذي يزيد من سلطان الحاخام . كما أن ضرورة ذبح الطيور والحيوانات على يد الذابح الشرعي ، تجعل من المستحيل على اليهودي أن يعيش خارج الجماعة اليهودية .

وقد هاجم اليهود الإصلاحيون قوانين الطعام لأنها تعطل تطور اليهود واندماجهم . وذهبوا إلى أن هذه القوانين ذات طابع شعائري ولا تستند إلى أي أساس ديني أو أخلاقي ، وأنهم لذلك لا يلتزمون بها . أما اليهودية المحافظة والأرثوذكسية ، فتريان أن التمسك بقوانين الطعام يؤدي الغرض الأساسي من وضعه ، وهو القداسة ، ثم الانفصال والتميز عن باقي الشعوب . ويواجه يهود المجتمعات الغربية مشكلة الحصول على طعام مباح شرعاً ، إذ إنهم لا يعيشون داخل الجيتو ولا توجد محلات أطعمة مباحة شرعاً (كوشير أو كاشير) لسد حاجاتهم .

وفي إسرائيل ، تحاول دار الحاخامية الرئيسية جاهدة أن تُطبِّق قوانين الطعام على الحياة العامة ، فلا تقدم شركة الطيران الإسرائيلية إلا أكلاً مباحاً ، كما أن الفنادق لابد أن تخضع لضغط الحاخامية حتى تُصدر رخصة المطعم . ولهذا ، فإن بعض المطاعم يضطر إلى منع التدخين والرقص يوم السبت ، وذلك حتى تضمن الحصول على الرخصة . وقد صدر في إسرائيل عام ١٩٦٢ قانون يمنع تربية الخنازير على أرض الدولة . وفي ٢٥ يوليه عام ١٩٨٣ ، صدر قانون منع الغش في الطعام المباح شرعاً .

والأغلبية العظمى من يهود الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، (ما تزيد على ٨٠٪ منهم) والذين يشكلون الأغلبية الساحقة من يهود العالم لا يطبقون أياً من قوانين الطعام بل يأكل الكثيرون منهم لحم الخنزير ، ولا يتجاوز من يطبقون كل قوانين الطعام نسبة ٤٪ . والأمر ليس مختلفاً كثيراً في إسرائيل إذ يوجد نحو ٣٠ ألف شخص يعملون في قطاع تربية الخنزير وبيعه . ويبدو أن أكثر من نصف السكان اليهود الإسرائيليين يأكلون لحم الخنزير ، ومن بينهم كثير من أعضاء النخبة (وزراء وجنرالات بل أعضاء كنيست) ممن وافقوا على مشروع القرار الخاص بمنع تسويق لحم الخنزير . وهناك عدة مؤسسات في إسرائيل تقوم بتربية الخنزير وذبحه وبيع لحمه (أهمها كيبوتس مزرا) . ومع هذا ، ونظراً للإيحاءات السلبية التي ارتبطت بلحم الخنزير في الوجدان الديني اليهودي ، فإنهم يشيرون إلى لحم الخنزير في المطاعم وفي غيرها من الأماكن بأنه «اللحم الأبيض» (ولكنهم بدأوا في تل أبيب يُسقطون حتى هذا

الصيغة الشكلية التمويهية) . ولأن قانون عام ١٩٦٢ يمنع تربية الخنزير على أرض الدولة ، فقد قام أحد الكيبوتسات ببناء حظيرة لتربية الخنازير عند مستوى أعلى من مستوى الأرض (المقدّسة) . وتمارس الأحزاب الدينية في الوقت الحاضر ضغطاً شديداً على الحكومة الإسرائيلية لإصدار قرار منع تسويق لحم الخنزير . أما اللادينيون ، فإنهم يخشون أن يؤدي هذا إلى أن يباع لحم الخنزير في السوق السوداء ، الأمر الذي يضر بالسياحة والاقتصاد ، ويدفع الإسرائيليين للذهاب إلى المناطق العربية المسيحية لشراء لحم الخنزير ، تماماً كما يذهبون إلى الأحياء العربية أثناء عيد الفصح لشراء الخبز العادي .

وتندلع المناقشات من آونة إلى أخرى حول الطعام المباح شرعاً ، وخصوصاً أن بعض أعضاء المؤسسة الدينية يستخدمون صلاحياتهم في إصدار شهادات الإباحة لتحقيق منفعة شخصية (كما هو الحال في معظم المجتمعات الإنسانية) . ففي عام ١٩٨٧ ، أعلنت الحاخامية أن نوعاً معيَّناً من التونة ليس مباحاً ، رغم أن اتحاد الأبرشيات اليهودية الأرثوذكسية في أمريكا أصدر تصريحاً به . وقد فُهم من ذلك أن الحاخامية في إسرائيل تود أن توسع نطاق نفوذها ، وأن تهيمن على عملية إصدار التصاريح هيمنة كاملة . كما أن الصراع بين السفارد والإشكناز ينعكس على تصاريح الإباحة ، فنجد أن الحاخامية الإشكنازية ترفض التصاريح التي تصدرها الحاخامية السفاردية ، والعكس بالعكس .

الطعام الشرعي (كوشير)

Kosher

«كوشير» (أو «كاشير») كلمة عبرية تعني حرفياً «مناسب» أو «صالح» ، وفي الفقه اليهودي تعني «الطعام المباح شرعاً» .

كوشير

Kosher

«كوشير» كلمة عبرية تعني «الطعام المباح شرعاً» .

الذبح الشرعي

Ritual Slaughter

«الذبح الشرعي» هو الترجمة العربية للكلمة العبرية «شحيطاه» ، وهو مُصطلَح يُستخدَم للإشارة إلى ذبح الحيوانات شرعياً حيث يجب أن يتم الذبح بسكين ذي مواصفات محددة وأن يتم الذبح بطريقة معينة بعد فحص الحيوان أو الطير فحصاً دقيقاً للتأكد من أنه طاهر . ونظراً لأن عملية الفحص والذبح تتبعان خطوات وإجراءات مركبة ، فيجب أن يقوم بهما شخص مؤهل لذلك يُطلَق عليه الذابح الشرعي (شوحيط) .

وقد قام المعادون لليهود بالهجوم على أعضاء الجماعة اليهودية بسبب الذبح الشرعي ، وذلك باعتبار أنه يمثل قسوة تجاه الحيوانات . وقد كان الذبح الشرعي محرَّماً حتى عهد قريب في بعض الدول الغربية مثل السويد والنرويج . ومن ناحية أخرى ، فإن الذابح الشرعي كان شخصية أساسية في الجيتو ، ولكنه أخذ في الاختفاء بعد إعتاق اليهود وبداية اندماجهم في المجتمعات العلمانية . ولذا ، فإن الحصول على لحم مذبوح على الطريقة الشرعية ، أصبح يمثل مشكلة لكثير من اليهود المتدينين في العالم الغربي .

تميمة الباب (مزوزاه)

Mezuzah

«مزوزاه» كلمة عبرية (جمعها «مزوزت») يُقال إنها من أصل آشوري ، وهي تدل على عضادة الباب أو الإطار الخشبي الذي يُثبَّت فيه الباب ، وهي رقية أو تميمة تُعلَّق على أبواب البيوت التي يسكن فيها اليهود ، لها شكل صندوق صغير بداخله قطعة من جلد حيوان نظيف شعائرياً بحسب تعاليم الدين اليهودي ، ومنقوش عليها الفقرتان الأوليان من الشماع ، أو شهادة التوحيد اليهودية (تثنية ٦/ ٤ ـ ٩ ، ١١/ ١٣ ـ ٢١) ، ومكتوب على ظهرها كلمة «شدَّاي» وتُلَف قطعة الجلد هذه جيداً . وتوضع بطريقة معينة بحيث تظهر كلمة «شدَّاي» ، من ثقب صغير بالصندوق . وكلمة «شدَّاي» هي الأحرف الأولى من الجملة العبرية «شومير دلاتوت يسرائيل» ، ومعناها «حارس أبواب يسرائيل» ، وهي أيضاً أحد أسماء الإله في العقيدة اليهودية . ويصنع السامريون تميمة الباب من أحجار كبيرة ، ويضعونها إما على الأبواب ، أو بمحاذاة مدخل المنزل ، ويحفرون عليها الوصايا العشر ، ولا يجعل القراءون تميمة الباب فرضاً .

وتُثبَّت تميمة الباب على الأبواب الخارجية ، وعلى أبواب الحجرات ، في وضع مائل مرتفع قليلاً من ناحية اليمين عند الدخول ، وتُستثنى أبواب الحمامات والمراحيض والمخازن والإسطبلات . وقد قال موسى بن ميمون إن المزوزاه تُذكِّر الإنسان عند دخوله وخروجه بوحدانية الإله . ولكن قيل أيضاً إن التميمة تُذكِّر اليهود بالخروج من مصر حينما وضعوا علامات على منازلهم حتى يهتدي إليها الرب . ومع هيمنة الحلولية على النسق الديني

اليهودي ، أصبحت المزوزاه تعبيراً عن حب الإله ليسرائيل . أما الحاخام إليعازر بن جيكوب ، فقد بيَّن أن من يضع تميمة الصلاة (تفيلين) على رأسه وعلى ذراعه ، وأهداب شال الصلاة (تسيت تسيت) على ردائه ، وتميمة الباب على عتبة داره ، قد حصَّن نفسه وبيته ضد الخطيئة . ثم أصبحت تميمة الباب بمنزلة حجاب ضد الشياطين ، ولها قوة سحرية ، فكان يُضاف إليها أسماء الملائكة ورموز قبَّالية مثل نجمة داود . وقد جرت العادة بين اليهود المتدينين أن يُقبِّلوا تميمة الباب عند الدخول والخروج ، ولكن بالإمكان الاكتفاء بلمسها ثم لثم أصابع اليد بعد ذلك إذا كان تقبيلها سيسبب إزعاجاً للشخص طويل القامة أو قصيرها . وعند أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ، تُثبَّت تميمة الباب على أبواب المنازل بعد ثلاثين يوماً من الإقامة فيها . أما يهود إسرائيل ، فإنهم يثبتون تميمة الباب فوراً ، من أول يوم ، لأن اليهودي إذا غيَّر رأيه وترك المنزل فسيشغله يهودي آخر ، وبذلك لا تكون هناك ضرورة لتطهير البيت بدون جدوى . وقد اتُّبعت عادة وضع تميمة على الأبواب في إسرائيل ، فشملت المباني الحكومية أيضاً . وبعد حرب ١٩٦٧ ، عُلِّقت تميمة الباب على أبواب مدينة القدس القديمة ، باعتبار أن هذا هو الإجراء النهائي لكي تصبح المدينة يهودية تماماً ! كما توجد تميمة على باب السفارة الإسرائيلية في القاهرة . وفي رواية ليائيل ديان تقول إحدى الشخصيات «أرض إسرائيل هي بديل تميمة الباب بالنسبة لها» .

السبت
Sabbath

«السبت» الترجمة العربية لكلمة «شابات» العبرية المشتقة من كلمة «شبتو» البابلية التي كان يستخدمها البابليون للإشارة إلى أيام الصوم والدعاء ، وإلى مهرجان القمر المكتمل (البدر) . والسبت هو العيد الأسبوعي أو يوم الراحة عند اليهود ، ويُحرَّم فيه العمل . وبحسب ما يقوله الحاخامات ، فإن الإله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع . ولذلك ، فإنه بارك هذا اليوم وقدَّسه ، وحرَّم فيه القيام بأي نشاط . وقد جاء أكثر من نص صريح في التوراة يفيد هذا المعنى (تكوين ٢/ ١ ـ ٣) . ويرى آخرون أن تحريم العمل يوم السبت يعود إلى أن الإنسان ند للإله وشريك في عملية الخلق ، فالإله عمل ثم استراح ، والإنسان يعمل بدوره في الخلق ثم عليه أن يستريح ، وهذا تعبير عن الطبقة الحلولية في التركيب الجيولوجي اليهودي . ويرى فريق ثالث أن تقديس السبت إحياء لذكرى خروج اليهود من مصر وتخليصهم من العبودية .

وتؤكد أسفار موسى الخمسة ، في غير موضع ، ضرورة الحفاظ على شعائر السبت كعهد دائم بين الإله وجماعة يسرائيل . وبذا يصبح السبت إحدى علامات الاصطفاء ، وإقامة هذه الشعائر يُعجِّل بقدوم الماشيَّح .

ولم يكن عند اليهود خطيئة تفوق عدم المحافظة على شعائر السبت إلا عبادة الأوثان . ولهذا ، فإن عقوبة خَرْق شعائر السبت الإعدام رجماً . ويُحرَّم على اليهودي ، يوم السبت ، أن يقوم بكل ما من شأنه أن يشغله عن ذكر الإله ، مثل العمل وإيقاد النار ، وضمن ذلك النار التي تُوقَد للطهو أو التدفئة . وكذلك يُحرَّم السفر ، بل المشي مسافة تزيد على نصف ميل ، ويُحرَّم كذلك إنفاق النقود أو تسلُّمها ، كما تُحرَّم الكتابة . كذلك يرى البعض أن اليهودي المتمسك بتعاليم دينه لا يخرج من بيته يوم السبت ، إلا وقد تأكد من أن جيوبه ليس فيها أقلام ، أو أوراق أو نقود أو كبريت ، إذ يجب ألا يحمل أي شيء سوى التوراة ، أو كتاب الصلوات (غير أن جابوتنسكي يشير إلى أحد الحاخامات الذين أحلوا حمل التوراة والسيف معاً في يوم السبت لأنهما أُرسلا معاً من السماء) . وفي التلمود جزء كامل عن الأفعال المحرم على اليهودي القيام بها يوم السبت .

وتبدأ الاحتفالات بالسبت منذ دخوله قبل غروب شمس يوم الجمعة ببضع دقائق ، وتنتهي بخروجه عشية الأحد ، فتشعل ربة البيت شمعتين (شموع السبت) ، وتضع على المائدة رغيفين لكل وجبة من الوجبات الثلاث . والرغيفان ذكرى للطعام الذي أرسله الإله لجماعة يسرائيل في البرية ، ويكونان على شكل جدائل رمزاً لإكليل العروس (إذ أن السبت يُرمز له بالعروس في التراث القبَّالي) . كما تُعدُّ ربة البيت الوجبات نفسها مقدماً لأن العمل محرَّم في ذلك اليوم . ويُغطَّى الطعام بالمفرش ، ثم يأتي الأطفال فيباركهم الأبوان ، ثم تمسك ربة البيت بكأس الخمر وتقرأ دعاء مقدم السبت (قيدوش) ثم تبارك التوابل أضواء الشموع . وتُختتَم الاحتفالات بقراءة دعاء انتهاء السبت (هافدالاه) .

وقد تحوَّل الاحتفال بالسبت في التراث القبَّالي إلى أهم الاحتفالات وأكثرها دلالة ورمزية إذ اعتبروه شكلاً من أشكال الزواج المقدَّس بين الملك/ العريس/ الشمس/ الإله/ التفنيريت من جهة والملكة/ العروسة/ القمر/ الملكوت (أي الشخيناه أو كنيست يسرائيل) من جهة أخرى . ويُعَدُّ يوم السبت يوم القبَّالاه بالدرجة الأولى . وقد كان الاحتفال بمقدمه يشبه الزفاف ، وكانت ليلة السبت الليلة التي يعاشر الإله فيها «بستان التفاح المقدَّس» لينجب

أرواح الصالحين (أي اليهود) . وكان القبَّاليون في صفد يخرجون ظهيرة يوم الجمعة بملابسهم البيضاء إلى حقل يقع خارج المدينة وينتهي إلى بستان «التفاح المقدَّس» انتظاراً للعروس ، يغنون بعض المزامير وكذلك نشيد الأنشاد . وعند مساء السبت ، يتم إنشاد الإصحاح الحادي والثلاثين من سفر الأمثال وكأنه أنشودة زفاف .

وقد كبَّلت شعائر السبت اليهود أيما تكبيل ، وهو ما اضطرهم إلى الانعزال عن الآخرين والتكتل في جماعات طائفية منغلقة . لكن اليهود كانوا يتخطون على الدوام كثيراً من التحريمات من خلال التحلة (التصريح) والرخصة التي تأخذ شكل التفاف حول الشريعة عن طريق فتوى يصدرها أيٌّ من الفقهاء اليهود . فمثلاً يقوم بعض اليهود بوضع طعام يوم السبت على بعد نصف ميل من منزلهم ، وبالتالي يصبح هذا المكان هو منزلهم ، ويمكنهم من ثم أن يسيروا مسافة نصف ميل أخرى . كما يقوم اليهود أحياناً باستخدام الأغيار في القيام بالأعمال المحرمة مثل إيقاد النار ، وهذا ما يُطلَق عليه «جوي السبت» . وتقوم القوات المسلحة الإسرائيلية باستئجار عرب للقيام بهذه المهمة . ولما كان من الواجب على اليهودي ألا يطلب من غير اليهودي القيام بالمهمة بشكل مباشر ، فإنه يلمح إلى ذلك وحسب ، فإن أراد أن يشعل ناراً للتدفئة قال : «الجو بارد هنا» . وهناك أشكال أخرى للتحلة يمارسها اليهود في إسرائيل وخارجها .

كما أفتى أحد الحاخامات أنه لا مانع من أن تقوم القرود أو الكلاب المدربة على إطفاء الأنوار (يوم السبت) والقيام بأعمال منزلية أخرى ، إذا لم تكن هذه الحيوانات من ممتلكات العائلة (ففي هذه الحالة تُعتبَر جزءاً من الأسرة) وعليها أن ترتاح مع باقي أعضاء الأسرة .

وقد حاولت اليهودية الإصلاحية التخفيف من التطرف في الاحتفال بيوم السبت . أما في إسرائيل ، فقد صدر قانون العمل عام ١٩٥٦ وهو ينص على أن السبت يوم الراحة الأسبوعية . ويتفاوت الإسرائيليون في اتباع تعاليم السبت من مكان إلى آخر بحسب قوة أو ضعف الأحزاب الدينية داخل المجالس المحلية . فمثلاً تُفتَح المقاهي في تل أبيب طيلة يوم السبت ، في حين تغلق أبوابها نهائياً في القدس ، وإن كان الوضع قد بدأ يتغيَّر في الآونة الأخيرة مع تَصاعُد معدلات العلمنة . وفي بناي براك ، يُمنَع النقل العام وتُسد جميع الشوارع ولا يُسمَح بأي مرور ، في حين تجرى عمليات المرور والنقل العام في حيفا كالمعتاد في أي يوم من أيام الأسبوع . وتزيد إذاعة إسرائيل من بث نشرات الأخبار بعد غروب يوم السبت حتى يستمع إليها من فاته سماعها طيلة اليوم ، فالاستماع إلى الإذاعة محرَّم في ذلك اليوم المقدَّس . كما تُمنع إذاعة أنباء الموتى أو حوادث موت في ذلك اليوم . ويُقال إن نحو ربع السكان يقيمون شعائر السبت كاملة ، ولكننا نعتقد أن هذا رقم مُبالَغ فيه ، وفي الغالب سنجد أنهم يقيمون بعض شعائر السبت وحسب .

وقد أثيرت قضية السبت على المستوى القومي في إسرائيل إثر قيام عمدة بتاح تكفا بإصدار قانون محلي يسمح لدور العرض ومؤسسات التسلية بالعمل مساء الجمعة ويوم السبت . وقد اعتبر المتدينون هذا القانون تعدياً على سياسة الأمر الواقع التي يأخذ بها كبار الصهاينة . وهي المحافظة في مجال الأمور الدينية على الوضع القائم في فلسطين إبان عهد الانتداب . وهو وضع يسمح في حالة بتاح تكفا بمشاهدة مباريات كرة القدم ، ولكن لم يكن يسمح بمشاهدة العروض السينمائية .

وهذا الاتفاق يشكل حقيقةً أساس التحالفات الوزارية بين الدينيين واللادينيين . لكن طرح قضية السبت والقضايا المشابهة ، مرةً ومرات ، سيفجر قضايا مبدئية نجح الصهاينة في تسكينها منذ بداية الحركة الصهيونية مثل هوية الدولة الصهيونية الدينية ومصدر شرعيتها وتشريعها . ولا يحتفل بيوم السبت ، على الطريقة الدينية ، سوى ٥٪ فقط من يهود الولايات المتحدة . أما الباقون ، فيعتبرونه جزءاً من عطلة نهاية الأسبوع (الويك إند week end) يمارسون فيه هواياتهم وكل ما تشتهيه أنفسهم . وتحتفل بعض الجماعات البروتستانتية المتطرفة ، مثل الأدفنتست ، بالسبت .

دعاء مقدم السبت (قيدوش)

Kiddush

«دعاء مقدم السبت» عبارة تقابل كلمة «قيدوش» العبرية والتي تعني «تقديس» . والقيدوش دعاء يُتلى احتفالاً بمقدم يوم السبت والأعياد اليهودية وتُتلى الأدعية فوق كأس من الخمر قبل تناول الطعام، ويقوم رب الأسرة بترتيل الدعاء، ثم يجيب الجميع قائلين «آمين» .

ويقابل دعاء القيدوش دعاء الهفدالاه الذي يعلن نهاية شعائر السبت . ولا يزال دعاء القيدوش جزءاً أساسياً من الشعائر الأرثوذكسية والمحافظة، ويحافظ عليه أيضاً اليهود الإصلاحيون .

دعاء انتهاء السبت (هفدالاه)

Havdalah

«دعاء انتهاء السبت» هي المقابل العربي لكلمة «هفدالاه» العبرية ومعناها «تمييز» . والهفدالاه عبارة عن دعاء يأخذ شكل

ابتهالات تُتلى على النبيذ والتوابل الشمع احتفالاً بانتهاء شعائر السبت، وهي بذلك تقابل القيدوش الذي تبدأ به الشعائر. وأهم الابتهالات هي تلك التي تشير إلى التمييز بين اليوم المقدَّس الذي سينتهي واليوم العادي الذي سيبدأ، وبين النور والظلام، وبين اليهود والأغيار، وبين يوم الراحة المقدَّس وأيام العمل الستة الأخرى. وليس بإمكان اليهودي أن يستأنف نشاطه العادي إلا بعد تلاوة هذا الدعاء. ويبدو أن الدعاء يعود إلى أيام المجمع الأكبر.

الصوم

Fasting

كلمة «صوم» العربية تقابلها في العبرية كلمة «تسوم» وتُستخدَم كلمة «تَعنيت» مرادفاً لها في اللغة العبرية. ويصوم اليهود عدة أيام متفرقة من السنة أهمها صوم يوم الغفران (في العاشر من تشري) وهو الصوم الوحيد الذي ورد في أسفار موسى الخمسة، حيث جاء فيها: «تذللون نفوسكم» (لاويين ٢٣/ ٢٧). وقد أُخذت هذه العبارة على أنها إشارة إلى الصوم. ولكنها أساس للكلمة التلمودية «تَعنيت» التي تفضل كلمة «صوم». وثمة أيام صوم عديدة أخرى مرتبطة بأحزان جماعة يسرائيل وردت في كتب العهد القديم الأخرى. ومعظم هذه الأيام مناسبات قومية ومن أهمها التاسع من آب، يوم هدم الهيكل (خراب الهيكل في المُصطلَح الديني) الأول والثاني، والسابع عشر من تموز الذي يصوم فيه اليهود بسبب مجموعة من الكوارث القومية وردت في التلمود، فهو اليوم الذي حطم فيه موسى لوحي الشريعة، وهو اليوم الذي نجح فيه تيتوس في تحطيم حوائط القدس، ودخل فيه نبوختنصر إلى المدينة، وحرق فيه الجنرال السوري إتسوبيوموس لفائف الشريعة، وأقام فيه بعض الحاخامات أوثاناً على جبل صهيون. كما يصوم اليهود العاشر من طيبت، وهو اليوم الذي بدأ فيه نبوختنصر حصار القدس. ويصومون كذلك الثالث من تشري، وهو ما يُعرَف باسم «تسوم جداليا» لإحياء ذكرى حاكم فلسطين الذي ذُبح بعد هدم الهيكل. ويصوم اليهود أيضاً في الثالث عشر من آذار صوم «تعنيت إستير» أو «صيام إستير»، ويقع قبل عيد النصيب.

وقد قرر الحاخامات أيام صيام أخرى إضافية من بينها صيام أسابيع الحداد الثلاثة، بين السابع عشر من تموز والتاسع من آب، باعتبارها الفترة التي نهب الجنود الرومان أثناءها الهيكل والقدس، وأيام التكفير العشرة (بين عيد رأس السنة ويوم الغفران)، وأكبر عدد ممكن من الأيام في أيلول، وأول يومي اثنين وخميس من كل شهر، وثاني يوم اثنين بعد عيد الفصح وعيد المظال. وقد فُسِّر هذا الصوم بأنه تكفير عما قد يكون المرء قد ارتكبه من إفراط أثناء العيدين السابقين. ويصومون السابع من آذار باعتباره تاريخ موت موسى، يوم الغفران الصغير (يوم كيبور قاطان)، وهو آخر يوم من كل شهر. كما يمكن أن يصوم اليهودي في أيام الاثنين والخميس من كل أسبوع، فهي الأيام التي تُقرأ فيها التوراة في المعبد.

وإلى جانب أيام الصيام التي وردت في العهد القديم، والتي قررها الحاخامات توجد أيام الصيام الخاصة. فيصوم اليهودي في ذكرى موت أبويه أو أستاذه، كما يصوم العريس والعروس يوم زفافهما. وفي الماضي، كان اليهودي يصوم بعد رؤيته كابوساً في نومه. وإذا سقطت إحدى لفائف التوراة كان من المعتاد أن يصوم الحاضرون. وكان أعضاء السنهدرين يصومون في اليوم الذي يحكمون فيه على شخص بالموت. هذا ويصوم أعضاء الناطوري كارتا يوم عيد استقلال إسرائيل باعتباره يوم حداد عندهم. وفي صوم يوم الغفران والتاسع من آب يمتنع اليهود عن الشراب وعن تناول الطعام أو الجماع الجنسي، كما يمتنع اليهود عن ارتداء الأحذية الجلدية لمدة خمس وعشرين ساعة من غروب الشمس في اليوم السابق حتى غروب الشمس في يوم الصيام. أما أيام الصوم الأخرى، فهي تمتد من شروق الشمس حتى غروبها ولا تتضمن سوى الامتناع عن الطعام والشراب. وفي الماضي، كان الصائمون يرتدون الخيش ويضعون الرماد على رؤوسهم تعبيراً عن الحزن. وإذا وقع يوم الصيام في يوم سبت، فإنه يُؤجَّل إلى اليوم التالي ماعدا صيام عيد يوم الغفران. هذا ولا يعترف اليهود الإصلاحيون بأي من أيام الصيام هذه، كما أن معظم يهود العالم داخل وخارج فلسطين لا يقيمون هذه الشعيرة ولا حتى في يوم الغفران.

صوم العاشر من طيبت

Fast of the Tenth of Tevet

«صوم العاشر من طيبت» ترجمة لعبارة «عَسِّيريت بطيبت»، وهو صوم يقيمه اليهود في العاشر من طيبت بمناسبة حصار نبوختنصر للقدس، وهدمه الهيكل عام ٥٨٧ ق. م.

التحلـــــة

Dispensation; Heter

«التحلّة» تقابلها في العبرية كلمة «هيتر» ومعناها الحرفي «تصريح» أو «رخصة» أو «إجازة». والتحلة تأخذ شكل التفاف حول الشريعة عن طريق فتوى يصدرها أحد الفقهاء اليهود، تسمح

بإلغاء بعض الأوامر الدينية أو تسمح بالتساهل في تطبيقها استناداً إلى تحويرات شكلية حتى يتم التغلب على صعوبة أو ربما لاستحالة التطبيق الحرفي لأحد الأوامر والنواهي . ومن الناحية النظرية ، لا يمكن تطبيق نظام التحلة إلا على التشريعات الحاخامية وحدها دون الشرائع التي وردت في التوراة . ولكن ، من ناحية التطبيق ، نجد أن الأمر مختلف ، كما هو الحال في تحلة البروزبول التي أصدرها هليل حتى يتسنى جمع الديون حتى في السنة السبتية .

وقد أصدر الحاخامات ، عبر التاريخ ، كثيراً من التحلات مثل : بيع أرض فلسطين للأغيار بشكل صوري في السنة السبتية ، إذ أن من المحرم على اليهود زراعتها في هذا العام (طالما كانت حكومتها يهودية) ، وبعد انقضاء السنة السبتية يمكنهم أن يشتروها مرة أخرى . كما تُباع خميرة إسرائيل قبل عيد الفصح ، ثم يُعاد شراؤها بعد انقضائه لأن اليهود مُحرَّم عليهم الاحتفاظ بخميرة في منازلهم أثناء هذا العيد .

ومن القوانين الدينية ، تحريم دفع أجر عن عمل يتم القيام به يوم السبت ، وقد خلق هذا التحريم مشكلة للحاخامات في العصر الحديث إذ أنهم يعملون يوم السبت أساساً . ويتم التحايل على هذا الحظر عن طريق دفع رواتب الحاخامات أول الشهر وأول العام . وينص في العقد على أن الأجر يُدفَع لهم عن الأعمال التي يقومون بها في كل أيام الأسبوع ما عدا السبت . ولكن الراتب في الواقع يُدفَع لهم نظير كل ما يقومون به من أعمال ، وضمن ذلك يوم السبت . أما بالنسبة إلى العلماء التلموديين ، فالمسألة أكثر صعوبة لأن التلمود يحظر تلقِّي أي أجر . ولذا ، فإن رواتبهم هي نوع من التعويض عن التعطل (بالعبرية : «دمِّي بطالاه» أي «رسوم بطالة» أو «سخار بطالا» أي «راتب بطالة») .

ومن أهم أشكال التحلة ، تلك الخاصة بيوم السبت . فهناك «جوي شابات» ، وهو فرد من الأغيار يقوم بالأعمال المحرَّمة على اليهودي يوم السبت ، مثل إيقاد النار . وهناك أشكال أخرى من التحلة دون اللجوء إلى الأغيار . فعلى سبيل المثال ، يُحرَّم حلب الأبقار يوم السبت ، فكان يُستعان بالعرب للقيام بذلك . ولكن بعد الاحتلال الصهيوني لفلسطين ، حاول المستوطنون الالتزام بفكرة العمل العبري (أي استخدام عمال يهود وحسب واستبعاد العمال العرب) ، وكان لابد من التحايل على التحريم دون اللجوء إلى العرب ، فأصدر بعض الحاخامات الصهاينة فتوى مفادها أن التحريم ينصرف إلى اللبن الأبيض ولكنه لا ينطبق على اللبن الأزرق . ومن ثم ، كان اللبن يصبغ باللون الأزرق ، ويُستخدَم في صنع الجبن . وأثناء ذلك تُزال الصبغة الزرقاء . وقد تم فيما بعد التوصل إلى تحلات أخرى أكثر حذقاً وصقلاً . فعلى سبيل المثال ، يحل حلب البقرة يوم السبت إذا كان ذلك ضرورياً لإراحتها ، شريطة أن يدع اليهودي اللبن يسقط على الأرض . فعملت الكيبوتسات الدينية على التحايل على هذا الوضع بأن يدخل أحد أعضاء الكيبوتسات إلى الحظيرة ويضع دلواً أسفل البقرة ، ثم يدخل آخر بعده وهو يتعمد ألا يرى الدلو ، ويقوم بحلب البقرة لإراحتها تاركاً اللبن يسقط على الأرض في الدلو الذي لم يشاهده !

ومُحرَّم على اليهودي أخذ الربا من اليهودي . ولذا ظهر ما يُسمَّى «هيتر عسقاه» وهي عبارة تعني حرفياً «تحلة الصفقة» أي «تحلة التعامل المالي» . وهذه التحلة تأخذ الشكل التالي :

أ) الخطوة الأولى : إذا أراد اليهودي أن يقرض يهودياً آخر بربا ، فإن القرض سيُسمَّى استثماراً ، وسوف يُقال إن طرفاً أول سيستثمر نقوده لدى طرف ثان ، وعليه أن يتعهد بدفع نسبة مئوية تسمَّى أرباحاً (ولكنها في واقع الأمر فائدة) .

ب) الخطوة الثانية : يقوم الطرف الأول (الدائن) بإعفاء الطرف الثاني (المقترض) من دفع الأرباح ، إن خسرت العملية الاستثمارية . ولكن هذه الخطوة الثانية الضرورية لجعل العملية مباحة شرعاً لا يمكن اتخاذها إلا في حضور أحد الحاخامات وبشهادته . وحيث إن الدائن يخشى اتخاذ هذه الخطوة الثانية . فإن الحاخام عادةً ما يرفض تأدية هذه الشهادة بناء على ترتيب سابق . ومن ثم ، تبقى عملية الإقراض بالربا قائمة . وتُكتَب تفاصيل هذه العملية بخطوتيها الأولى والثانية بالآرامية وتُعلَّق على حائط الغرفة التي يُتفَق فيها على عملية الإقراض . وتتبع البنوك الإسرائيلية الإجراء نفسه حتى الوقت الحاضر . أما تحلات السبت ، فهي كثيرة ، وخصوصاً بالنسبة للكيبوتسات .

والتحلة تتمسك في جوهرها بحرفية القانون وتتناسى روحه ، الأمر الذي يجعل الالتفاف حول الشريعة أمراً سهلاً . ويرى إسرائيل شاحاك أن الرؤية الحاخامية في تبنيها التحلة تشبه رؤية الرومان لجوبتر إذ كان بمقدورهم رشوته وخداعه ، أي أن التحلة تعبير عن النزعة الحلولية داخل اليهودية . وهو يرى أن التحلة ، والتراث القبَّالي ، من أهم أسباب أزمة اليهودية الحاخامية وتآكلها في نهاية الأمر .

١٢
المعبد اليهودي

المعبد اليهودي ـ لوحا الشريعة (لوحا العهد/ لوحا الشهادة) ـ تابوت لفائف الشريعة ـ لفائف الشريعة ـ اللفائف الخمس (مجيلوت) ـ لفيفة سفر إستير (مجيلاه) ـ المجيلوت ـ شمعدان المينوراه ـ الفاصل (محيتساه) ـ الخزانة (جنيزاه) ـ المنصة (بيماه)

المعبد اليهودي

Temple: Synagogue

«المعبد» في اللغة العربية مكان العبادة (اسم المكان من الفعل «عبد») ، و«المعبد اليهودي» مكان لاجتماع اليهود للعبادة ، يُقال له بالعبرية «بيت هكنيست» أي «بيت الاجتماع» ، ويُسمَّى أيضاً «بيت هاتيفلاه» ، أي «بيت الصلاة» أو «بيت هامدراش» ، أي «بيت الدراسة» . وتعكس الأسماء الثلاثة بعض الوظائف التي كان المعبد يؤديها . وكان المعبد يُسمَّى في ألمانيا «شوليه Schule» ، وباليديشية «شول Shul» . وفي الولايات المتحدة يُطلَق اسم «تمبل temple» على أيٍّ من المعابد اليهودية الإصلاحية أو المحافظة . أما الأرثوذكس فيسمون معبدهم «شول» ، وهي تسمية يديشية كما هو واضح . وقد كان يُطلَق على المعبد باليونانية اسم «سيناجوج» ، وكذلك «بروسيوكتريون» ، وتعني حرفياً «بيت الصلاة» . وفي الثقافة العربية ، يُطلَق على المكان الذي تُقام فيه الصلوات اليهودية اسم «المعبد» أو «الهيكل» أو «الكنيس اليهودي» .

ويعود تاريخ المعابد إلى فترة التهجير البابلي . ويبدو أن اليهود هناك كانوا يجتمعون للصلاة في أماكن خُصِّصت لذلك الغرض . وقد بدأت تظهر إشارات إلى المعابد اليهودية في الكتابات الدينية اليهودية بعد ذلك التاريخ . ومع هدْم الهيكل ، أصبح المعبد المركز القومي والاجتماعي ليهود فلسطين والجماعات اليهودية المنتشرة في العالم ، والمكان الذي يتدارسون فيه تراثهم الديني . ولذا ، فإن انتهاء اليهودية الصدوقية والعبادة القربانية المرتبطة بالهيكل لم يتسبب في انتهاء اليهودية ككل ، وخصوصاً أن الفريسيين كانوا قد توصلوا إلى صياغة لليهودية تستند إلى التوراة ، وتجعل المعبد اليهودي (وليس الهيكل) مركزها .

ويحاول المعبد أن يكون صدى للهيكل . ومعظم المعابد اليهودية في الوقت الحاضر بُنيت متجهة للقدس . ويوجد حوض في الخارج يستطيع المصلون غسل أيديهم فيه قبل الصلاة ، وشكل المعبد في الغالب مستطيل . وتوجد في مقدمة المعبد فجوة تغطيها ستارة (أصبحت دولاباً ثابتاً) هي تابوت لفائف الشريعة الذي تُحفَظ فيه اللفائف ، وهي أكثر الأشياء قداسة في المعبد (وتقابل قدس الأقداس في الهيكل القديم) . وعادةً ما تُزيَّن المعابد في العصر الحديث بنجمة داود ولوحي العهد . وقد كان قارئ التوراة يقف في مكان أكثر انخفاضاً (نسبياً) من أرض المعبد . وفي الوقت الحاضر ، انعكس الوضع فصار القارئ يجلس على منصة عالية نسبياً تُسمَّى «بيماه» (أو «الميمار») . وتُقام في المعبد الصلوات اليومية ، فبإمكان أي شخص ، من الناحية النظرية ، أن يؤم المصلين . غير أن من المعتاد أن يؤم المصلين أفراد تلقوا دراسة خاصة للقيام بهذه الوظيفة . وتُقرأ التوراة في المعبد كل يوم سبت ، وفي يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع .

وحتى القرن الخامس الميلادي كان الأرش سيناجوجوس يترأس المعبد اليهودي ويساعده الشيوخ (كبار السن) . وكان الحاخام يقوم بدور المرتل (حزان) ، وأحياناً كان يقوم بدور الشماس (شمَّاش) ، أي خادم الكنيسة ، ولكنها وظائف أصبحت فيما بعد مستقلة . وكانت الجماعة ككل تمتلك المعبد . وفي حالات أخرى ، كان يمتلكه الفرد الذي قام ببنائه .

وقد صار المعبد مركز الحياة اليهودية في العصور الوسطى في الغرب (بعد تحوُّل معظم الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية) . وفي معظم الأحيان ، يعكس المعبد البنية الاجتماعية والحضارية للمجتمعات التي يعيش في كنفها أعضاء الجماعات اليهودية كما يعكس طبيعة الوظيفة التي يضطلعون بها . وكثيراً ما كان يتم تزويد المعبد بفناء صغير ومحكمة وبل وبسوق في بعض الأحيان . وبعد نشأة نظام الأرندا في أوكرانيا ، أصدرت الحكومة البولندية أمراً بأن تُبنَى المعابد اليهودية هناك على هيئة حصون ، فكانت تُفتَح كوّات في الحوائط لتخرج منها فوهات البنادق ، كما كانت تُنصَب عليها المدافع حتى يَسهُل الدفاع عنها ضد المهاجمين من الفلاحين والقوزاق . أما

في أمستردام ، فقد بنى اليهود (في القرن السابع عشر) معبدين كبيرين يدلان على ثراء الجماعة اليهودية وثقتها بنفسها .

وكانت المعابد اليهودية في أوروبا تعبِّر عن بنية المجتمعات الأوربية بعد عصر النهضة ، وهي مجتمعات كانت تتسم بالتفرقة الصارمة بين الطبقات وتزايد نفوذ وقوة طبقة التجار الأثرياء ومشاركتهم الحاخامات في السلطة والقيادة . فكان أعضاء الجماعات اليهودية يجلسون في المعبد ، كلٌّ على حسب موقعه أو انتمائه الاجتماعي أو الطبقي ، فيجلس الحاخامات والفقهاء وأصحاب المكانة العالية في المقدمة ، ويجلس وراءهم أثرياء التجار ثم اليهود العاديون . وكانت المكانة تُقاس بمقدار القرب أو البُعد عن الحائط الشرقي في المعبد ، فكان أعلى الناس مكانة يجلسون بالقرب منه ، أما الحائط الغربي فكان يجلس إلى جواره الشحاذون والمعوزون . وكانت المعابد مكاناً يتبادل فيه أعضاء الجماعات اليهودية المعلومات التجارية ويتشاجرون بالأيدي ويتناقشون بصوت عال . وكان الفوز بمقعد في المعبد يعد أمراً مهماً بالنسبة إلى أعضاء الجماعة ، فكان اليهودي إما أن يشتريه مدى الحياة ، أو يستأجره . ولا تزال عادة شراء المقاعد للصلاة في المعبد قائمة في المعابد الأرثوذكسية ، وإن كانت هناك مقاعد بالمجان لمن يثبت عجزه المالي شريطة أن يواظب على حضور الصلوات .

ولا يوجد طراز معماري خاص بالمعبد يمكن أن نسميه «الطراز اليهودي» . فالطراز المعماري للمعبد اليهودي يختلف باختلاف الحضارة الأم التي ينتمي إليها اليهود . وقد تأثرت المعابد اليهودية بالطراز الهيليني إبان المرحلة الهيلينية ، فمعبد ديورا يوروبوس مزين بكثير من لوحات الفسيفساء المحلاة بصور أشخاص ومناظر من العهد القديم على الطراز الهيليني ، بحيث يوجد تَناظُر بين شخصيات العهد القديم والشخصيات الأسطورية الهيلينية . كما كانت توجد رسوم للأفلاك والأرواح والرسوم النباتية .

وقد انتكست حركة بناء المعابد اليهودية بعد أن قامت الإمبراطورية الرومانية بتبنِّي المسيحية ديناً . ولكن أعضاء الجماعات اليهودية عاودوا البناء بعد حركة الفتوح الإسلامية ، فبُنِيَت بعض المعابد المهمة على الطراز الأندلسي في الأندلس (أثناء حكم العرب في شبه جزيرة أيبريا) وبُنِيت أيضاً المعابد المهمة في أوربا وتأثرت بالطرازين القوطي والباروك ، ولقد كان معبد كراكوف في بولندا أكبر معابد أوربا (في القرنين ١٣ و١٤) . والطراز المعماري للمعابد اليهودية ينحو منحى حديثاً سواء في الشرق أم الغرب .

ويظهر أثر يهود الخزر في المعابد الخشبية التي أقيمت في الشتتلات اليهودية في بولندا ، فقد أقيمت وفق طراز الباجودان (الباجودا) الذي يعود تاريخه إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وهو طراز مختلف تماماً عن كل من طراز العمارة المحلية ، وطراز البناء المستعمل لدى اليهود الغربيين والمتكرر بعد ذلك في جيتوات بولندا . كما تختلف الزخارف الداخلية لأقدم معابد الشتتل اختلافاً تاماً عن نمطها في الجيتو الغربي . فقد كانت جدران معبد الشتتل تُغطَّى بالزخارف العربية الإسلامية ، وتُصوَّر عليها الحيوانات التي تبيِّن التأثير الفارسي الموجود في المشغولات الفنية للخزر المجريين .

كما كان تقسيم المعبد وشكله من الداخل يختلفان باختلاف المذهب الديني . فالمعابد اليهودية الحسيدية متناهية البساطة لأن حياة الشخص نفسه تُعدُّ ضرباً من العبادة . والمعبد الحسيدي مكان للتجمع وحسب ، وتُسمَّى المعابد الحسيدية «شتيبلخ» ، وهي كلمة يديشية تعني «الغرفة الصغيرة» . وفي المعابد اليهودية الأرثوذكسية . يُفصَل الرجال عن النساء في الصلاة على خلاف المعابد الإصلاحية والمحافظة . وقد سَمَّى القرّاءون المعبد «بيت هشتحفوت» أي «موضع السجود» أو «مسجد» . وقد أدخل الإصلاحيون عنصر الموسيقى وتبعهم في ذلك المحافظون وبعض الأرثوذكس . وباستثناء الفلاشاه والسامريين ، لا يخلع اليهود نعالهم في المعبد اليهودي أو أثناء أداء الصلاة . ولم يكن السفارد يسمحون للإشكناز بالصلاة في معابدهم ، وحينما سُمح لهم ، فإنهم كانوا يصلون وراء حاجز خشبي (محيتساء) يفصلهم عن السفارد ، ولا تزال هذه العادة معمولاً بها بين يهود الهند .

وقد حاول دعاة التنوير بين اليهود إدخال شيء من النظام والوقار على المعبد اليهودي والصلاة اليهودية . وقد ظهر هذا في معمار المعابد الإصلاحية ، فهي عبارة عن بناء فخم يشبه الكنائس أو الكاتدرائيات ، لا تُمارَس فيه إلا الصلوات والعبادات ، وهو يُسمَّى «تمبل temple» (وليس «سيناجوج») وهو المصطلح القديم الذي كان يُستخدَم للإشارة إلى هيكل سليمان تعبيراً عن تَقبُّل اليهود لشتاتهم أو انتشارهم في العالم كحالة نهائية .

وفي بداية القرن الحالي ، حاولت المعابد الفصل بين النشاط الديني والأنشطة الاجتماعية والدراسية بحيث يكون المعبد مقصوراً على العبادة ، على أن تُمارَس الأنشطة الأخرى خارجه . وهذا تطبيق عملي للشعار الإصلاحي الاندماجي : يهودي في المنزل أو المعبد أو الحياة الخاصة ، مواطن في الشارع ، أي في المجتمع ككل أو في الحياة العامة . وقد حذت المعابد الأرثوذكسية ، في هذا

الحضار ، حذو المعابد الإصلاحية والمحافظة . ولكن ، يُلاحَظ أن هذا الوضع بدأ يتغيَّر ، حيث أصبحت المعابد تضم نوادي اجتماعية ومكتبات تضطلع بوظائف جديدة لم تعهدها المعابد اليهودية من قبل ، مثل تنظيم الرحلات وبناء الصالات الرياضية المغلقة وحمامات السباحة والمسارح وغيرها وكل هذا يُوسِّع ولا شك رقعة النشاط الإثني للمعابد . وتشجع الحركة الصهيونية إنشاء مثل هذه المعابد في الوقت الذي يزداد فيه أعضاء الجماعات اليهودية علمنة وابتعاداً عن الدين ، لأنها تصبح مراكز لتقوية الوعي القومي على حساب الإيمان الديني . كما أن الحاخام تحوَّل إلى متحدث باسم الحكومة الإسرائيلية والحركة الصهيونية . وكثيراً ما يُوضَع علم إسرائيل داخل المعبد . وربما يكون هذا تنفيذاً لرؤية كابلان (زعيم اليهودية التجديدية) الذي طالب بإنشاء حياة يهودية عضوية تدور حول المعبد وتعبِّر عن نفسها من خلال النشاط الصهيوني والنشاط التربوي ، على أن يقود الجماعة اليهودية ممثلون مُنتخَبون لا حاخامات مدربون ، الأمر الذي يعني صهينة أو علمنة حياة اليهودية بشكل تام . ومع هذا ، يُلاحَظ أن الدولة الصهيونية ، بامتصاصها أموال المعونات اليهودية أو الجزء الأكبر منها ، تضطر بعض المعابد إلى إغلاق أبوابها في نيويورك وفي غيرها من المدن الأمريكية ، وإن كان السبب الأساسي في هذا هو تزايد معدلات العلمنة . كما أن حركة أعضاء الجماعة اليهودية داخل الولايات المتحدة (من الساحل الشرقي وشيكاغو إلى ولايات فلوريدا وكاليفورنيا وغيرهما) تؤدي إلى إغلاق المعابد . ومع هذا ، لا يمكن اعتبار عدد المعابد مؤشراً على معدلات التدين . فأحياناً يزداد عدد المعابد لا بسبب تزايد تمسُّك أعضاء الجماعة اليهودية بعقيدتهم ، وإنما بسبب انقسامهم إلى جماعات إثنية متناحرة يرفض أعضاؤها أن يقيموا الصلاة إلى جوار بعضهم بعضاً . وبناء المعبد في مثل هذه الحالة ، ليس تعبيراً عن التقوى وإنما هو تعبير عن الرغبة في الاحتفاظ بالهوية الإثنية .

وتوجد في الحاضر معابد للشواذ جنسياً ومعابد أخرى مقصورة على النساء (تحت ضغط حركة التمركز حول الأنثى) ، كما أن هناك معابد من كل لون وشكل . وقد أسس القوادون والبغايا في الأرجنتين معابد يهودية بعد أن طردتهم القيادة الدينية من حظيرة الدين (حيرِم) !

وتوجد في إسرائيل معابد يهودية من كل طراز ، فكل جماعة يهودية هاجرت إليها أخذت معها تراثها الديني والحضاري الذي انعكس على طراز المعبد وعلى طريقة الصلاة . وقد سبَّب هذا التعدد والتنوع مشكلة للجيش الإسرائيلي ، فتوفير المعبد وأسلوب الصلاة الخاصين بكل جندي أمر عسير للغاية بل مستحيل ، وخصوصاً أن الجيش هو بوتقة الصهر الحضاري والأساسي فيها . ولتخطي هذه الصعوبة ، حاول الجيش أن يُطوِّر طرازاً موحداً للمعابد ، وأسلوباً موحَّداً للصلاة ، أي أن الجيش الإسرائيلي (خير مفسر للتوراة على حد تعبير بن جوريون) ساهم في توحيد المعابد والصلوات بالنسبة إلى الجيل الجديد . ويبلغ عدد المعابد في إسرائيل في الوقت الحاضر نحو ستة آلاف معبد ، تمولها جميعاً وزارة الشئون الدينية . ومعظم المعابد أرثوذكسية ، وإن كانت هناك معابد قليلة تتبع المذهبين الإصلاحي والمحافظ . ويُلاحَظ أن المعابد فقدت كثيراً من وظائفها التقليدية نظراً لأن الدولة تضطلع بها من خلال دار الحاخامية وأجهزتها المختلفة . كما أن العلمنة المتزايدة للحياة في إسرائيل أنقصت عدد رواد المعابد بشكل ملحوظ .

وأثناء الصراع الناشب بين الدينيين والعلمانيين في إسرائيل ، قام اللادينيون بحرق معبد يهودي ، الأمر الذي كان له صدى سلبي بين يهود العالم لأن الهجوم على المعابد اليهودية وحرقها مرتبط في وجدان أعضاء الجماعات اليهودية بالنازيين والمعادين لليهود . كما أن أحدهم وضع رأس خنزير داخل المعبد .

لوحا الشريعة (لوحا العهد - لوحا الشهادة)

Tablets of the Law

«لوحا الشريعة» ترجمة للعبارة العبرية «لوحوت هاعيدوت» أو «لوحوت هابريت» . والمعنى الحرفي للعبارتين هو «لوحا العهد» أو «لوحا الشهادة» . ولوحا الشريعة عبارة عن لوحين من الحجر ، نُقشَت عليهما الوصايا العشر (خروج ٣١/١٨ ، ٣٢/١٥-١٦) . وبحسب الرواية التوراتية ، تسلَّم موسى اللوحين علامةً على العهد بين الإله وبين جماعة يسرائيل ، وقد خُطَّت عليهما الوصايا العشر بإصبع الخالق . ولكن موسى ، لدى سماعه بارتداد الشعب وعبادته العجل الذهبي ، حطمهما . وغفر الإله للشعب المختار وطلب إلى موسى أن يحضر بديلاً لهما . وفيما بعد ، وضع اللوحان ، في تابوت العهد ، ولا يُعرَف ماذا حدث لهما .

ويُقال إن لوحي الشريعة كانا في الأصل حجرين مقدَّسين عند قبيلة إفرايم حَلَّ فيهما الإله . ثم تحولا ، مع تطوُّر الديانة اليهودية ، إلى لوحي الشريعة .

وقد اكتسب اللوحان مضموناً رمزياً حلولياً في التلمود ، إذ أصبحا يرمزان لا إلى الشريعة المكتوبة بأسرها وحسب وإنما إلى الشريعة الشفوية والأوامر والنواهي أيضاً . ومنذ العصور الوسطى

في الغرب ، استُخدم اللوحان زخرفاً يهودياً في المعابد اليهودية وغيرها من الأماكن ، وخصوصاً تابوت لفائف الشريعة . وفي القرن التاسع عشر الميلادي ، كان اللوحان يُحفَران على واجهة المعابد باعتبار أنهما رمز أكثر عالمية من شمعدان المينوراه . ويأخذ اللوحان في الزخارف شكل قطعتي حجر مستطيلتين قمتهما مستديرة ، ويُكتَب عادةً عليهما الحروف العشرة الأولى من الأبجدية العبرية ، أو أول كلمة من كل وصية من الوصايا العشر .

تابوت لفائف الشريعة

Ark of the Scrolls

«تابوت لفائف الشريعة» من العبارة العبرية «آرون هاقودش» عند الإشكناز ، ويقابلها عند السفارد مصطلح «هيكل» . والاختلاف بين التسميتين يعكس اختلافاً في تاريخ التابوت عند الجماعتين ، فقد كان التابوت جزءاً عضوياً ثابتاً من المعبد عند السفارد ، أما عند الإشكناز فكان جزءاً تكميلياً متنقلاً .

وكانت كلمة «تابوت» تُستخدَم للإشارة إلى تابوت العهد الذي يضم لوحي الشريعة والذي كان يُودَع داخل خيمة الاجتماع ثم في الهيكل ، وقد كانت تَحلّ فيه روح يهوه وتسكن بين الشعب . ولكنها تشير الآن إلى الصندوق الخشبي الذي تُحفَظ فيه لفائف الشريعة (أسفار موسى الخمسة) في المعبد اليهودي . وهو لا يُفتَح إلا في المناسبات العامة . ويعتبر التابوت أقدس الأشياء في المعبد اليهودي بعد اللفائف نفسها ، وعلى المصلين أن يقفوا احتراماً عند فتحه . ويَعُده البعض المعادل المعاصر لقدس الأقداس ، تماماً كما أن اللفائف هي المعادل المعاصر للوحي الشريعة .

ويُثبَّت التابوت في الحائط الشرقي المتجه إلى القدس . والملاحَظ أنه ، بمرور الزمن ، تحوَّل الصندوق إلى ما يشبه الدولاب الثابت ، يُوضَع على مكان عال ويُحلَّى بتاج (تاج الشريعة) ، ويُكتب عليه نص توراتي مناسب . وقد أصبح من المعتاد في البلاد الغربية أن يُثبَّت على التابوت ألواح كُتبت عليها نسخة مختصرة من الوصايا العشر . وكثيراً ما يُغطَّى هذا الجزء من المعبد بستارة (باروكيت) وُشِّيت ببعض الرموز الدينية ، ويُشعَل أمامه (أو بالقرب منه) ما يُسمَّى «المصباح الأزلي» (نير تاميد) .

لفائف الشريعة

Torah Scrolls

«لفائف الشريعة» هو المقابل العربي للمصطلح العبري «مجيلوت توراه» الذي يشير إلى مخطوط أسفار موسى الخمسة الذي يُقرَأ في المعبد اليهودي ، وهذا المخطوط لابد أن يقوم بكتابته كاتب خاص (سوفير) ، حسب قوانين وقواعد محددة ، على قطع من الرق تتم خياطتها الواحدة في الأخرى لتصبح القطع الصغيرة شريطاً طويلاً ، ويُثبت طرفا الشريط على عمودين من الخشب . وتُحفظ لفائف التوراة في تابوت لفائف الشريعة ولا تُخرج إلا في الصلاة أو في المناسبات المهمة . ويقوم أحد المسئولين في المعبد بحملها ، والمرور بها بين المصلين (قبل الصلاة عند السفارد وبعدها عند الإشكناز) .

وقد أحيطت اللفائف بكثير من التقديس ، فهي المعادل الموضوعي الحديث ليهوه الذي يسكن بين الشعب . إذ لابد أن تُلف برباط خاص ذهبي أو فضي يُسمَّى «تاج التوراة» . ويُستخدَم قضيب مصنوع من معدن ثمين على شكل يد للإشارة إلى الأسطر أثناء القراءة . وتوضع اللفائف في صندوق معدني أو خشبي ثمين للعناية . وعندما تَبلى لفائف التوراة من كثرة الاستخدام ، فإنها تُدفَن في مراسم دينية خاصة . وقد ازدهرت في إسرائيل صناعة كتابة اللفائف . ويبدو أنهم أحيوا التقاليد الخاصة بتابوت العهد الذي كان يضع فيه العبرانيون القدامى لوحي الشريعة أو العهد ، بعد إعطائه مضموناً عسكرياً ، إذ تُمرَّر لفائف الشريعة بين صفين من المقاتلين الشاهرين أسلحتهم في الحفلات التي تقيمها الفرق العسكرية الإسرائيلية . ولا تزال بعض القوات الإسرائيلية المحاربة تحمل معها لفائف الشريعة في صندوق كُتب عليه : «انهض أيها الإله ودع أعداءك يتشتتون واجعل من يكرهك يهرب من أمامك» . وقد أسرت القوات المصرية في حرب أكتوبر ١٩٧٣ بعض القوات الإسرائيلية التي كانت تحمل لفائف الشريعة الخاصة بها

اللفائف الخمس (مجيلوت)

Five Scrolls: Megillot

«اللفائف الخمس» هي الترجمة العربية للكلمة العبرية «مجيلوت» ومفردها «مجيلاه» . وكانت كلمة «مجيلاه» تشير في البداية إلى أي كتاب مكتوب على لفائف من جلد الحيوان ، ثم تم التمييز بين السفر (الكبير) والمجيلاه (الصغيرة) . وأصبحت كلمة اللفائف الخمس (مجيلوت) اسماً يشمل خمسة نصوص توراتية تُقرَأ في مناسبات خاصة من اللفائف ، ويُحتفَظ بها داخل المعبد . وهذه النصوص هي :

١ ـ نشيد الأنشاد ، ويُقرَأ يوم السبت وفي عيد الفصح .

٢ـ كتاب راعوث (روث)، ويُقرأ في عيد الأسابيع.
٣ـ كتاب المراثي، ويُقرأ في التاسع من آب.
٤ـ كتاب الأمثال، ويُقرأ في عيد المظال، ولا يقرؤه السفارد.
٥ـ كتاب إستير، ويُقرأ في عيد النصيب.

واللفائف الخمس عبارة عن خمسة أسفار من كتب الحكم والأناشيد في العهد القديم. ومن الناحية الفعلية، لا يُقرأ من اللفائف (في معظم المعابد اليهودية) سوى سفر إستير. وحينما تُذكَر كلمة «مجيلاه» وحدها دون إضافة، يكون المقصود عادةً كتاب إستير.

لفيفة سفر إستير (مجيلاه)

Megilah

«مجيلاه» كلمة عبرية تعني اللفافة التي يُكتَب عليها. وحين تُذكَر الكلمة في صيغة المفرد، فإنها عادةً ما تشير إلى سفر إستير. ولكنها، حينما تُذكَر في صيغة الجمع، تشير إلى اللفائف الخمس.

المجيلوت

Megilliot

«مجيلوت» هي صيغة الجمع لكلمة «مجيلاه» وتعني اللفافة التي يُكتَب عليها. و«مجيلوت» هي اللفائف الخمس.

شمعدان المينوراه

Menorah

«مينوراه» كلمة عبرية تعني «الشمعدان»، وهي من كلمة «نير» العبرية، ومعناها «نور». ونحن نستخدم عبارة «شمعدان المينوراه» للإشارة لهذا الشمعدان الذي يوجد في كثير من المعابد اليهودية ومنازل أعضاء الجماعات اليهودية. وهو يعود إلى الشمعدان الذهبي ذي الفروع السبعة الذي كان يُوضع داخل خيمة الاجتماع. وقد كان في هيكل سليمان عشرة شمعدانات ذهبية صنعها له حيرام ملك صور، فضلاً عن شمعدانات فضية أخرى. وقد حمل قسبيان شمعدان المينوراه الموجود في الهيكل الثاني (وهو الذي يظهر على قوس تيتوس). وشكل الشمعدان، حسب الرواية التوراتية، قد أوحى الإله به لصانعه على هيئة شجرة أفرعها على هيئة زهرة اللوز. وفي سفر زكريا (٤/ ١١ ـ ١٣) تفسير لشعلاته السبع بأنها: «أعين الإله الجائلة في الأرض كلها».

ويُفسَّر الشمعدان أحياناً بأنه يرمز أيضاً إلى أيام الخلق الستة مضافاً إليها يوم السبت، ويفسر يوسيفوس شعلاته السبع بأنها ترمز إلى الكواكب السبعة. وهناك تفسير آخر يرى أن أفرعه رمز للآباء. ويرى بعض العلماء اليهود أن وصف شمعدان المينوراه، الذي ورد في سفر الخروج (٢٥، ٣٧)، ليس وصفاً لما كان موجوداً في الهيكل الأول، وإنما هو وصف لشمعدان تيتوس.

وفي الاحتفالات بعيد التدشين (حانوخاه)، يُستخدَم شمعدان له ثمانية أفرع (تُدعَى «حانوخياه»، ونسميه «شمعدان التدشين») بعدد أيام الاحتفال حيث يُشعَل فتيل أو فرع منه مساء كل يوم من شعلة مستمرة يحملها فرع تاسع يبرز على حدة بعيداً عن الأفرع الثمانية، ويُسمَّى «شمَّاس» (أي الخادم). ويُذكِّر شمعدان عيد التدشين اليهود بثورة الحشمونيين الذين وضعوا رماحهم على هيئة فروع شمعدان المينوراه للإبقاء على الرمز الديني بعد دخولهم الهيكل.

وتتخذ القبَّالاه الحلولية شمعدان المينوراه رمزاً تنطلق منه إلى بنَى صوفية معقدة (فالزيت هو التوراة والضوء هو الشخيناه والفتيلة هي جماعة يسرائيل). كما أن بعض القبَّاليين يرون أن شمعدان المينوراه رمز التجليات النورانية العشرة (سفيروت) التي ورد ذكرها في الزوهار، بحيث يصبح كل فرع من فروع الشمعدان مقابلاً لأحد التجليات، ويصبح زيت الشمعدان المقابل الرمزي لرحمة الإله التي تفيض على جماعة يسرائيل وعلى الشخيناه من عل. وتتخذ دولة إسرائيل شمعدان المينوراه ذا الأفرع السبعة شعاراً رسمياً لها.

الفاصل (محيتساه)

Partition; Mehitzah

«الفاصل» ترجمة لكلمة «محيتساه» العبرية التي تشير إلى الحاجز الذي يفصل بين الجزء المخصَّص للرجال في المعبد اليهودي وذلك المخصَّص للنساء (والذي يوجد عادةً في أعلى المعبد)، تماماً مثلما كان يتم الفصل بين رواق الرجال ورواق النساء في الهيكل. وكان هناك مثل هذا الفاصل في معظم المعابد اليهودية في الغرب حتى عصر التنوير، حينما ألغته اليهودية الإصلاحية وتبعتها اليهودية المحافظة، بينما أصرت اليهودية الأرثوذكسية على الاحتفاظ به حيث يذهب الأرثوذكس إلى أن المعبد اليهودي الذي لا يحتوي على فاصل لا تجوز الصلاة فيه.

ويستخدم بعض اليهود الأرثوذكس ستارة للفصل بين الجنسين أثناء صلاتهم أمام حائط المبكى. وقد كان هذا مثار نزاع بين اليهود والعرب، إذ أن العرب كانوا يخشون أن تكون هذه ذريعة يستخدمها

الصهاينة لفرض المزيد من الهيمنة على الأماكن المقدَّسة . وفي الآونة الأخيرة ، يقوم دعاة حركة التمركز حول الأنثى بنزع مثل هذه الستارة باعتبارها تمييزاً ضد المرأة .

وكان الفاصل يُستخدَم أحياناً للفصل بين السفارد والإشكناز في بعض كنائس أوربا حينما كان السفارد يشكلون الأرستقراطية المالية التي ترفض الاختلاط بالإشكناز ، كما استُخدمت في الهند للفصل بين أعضاء الجماعات اليهودية المختلفة التي تشكل طوائف مغلقة تنفصل الواحدة منها عن الأخرى ، كما هو الحال في كثير من أنحاء الهند .

الخزانة (جنيزاه)

Genizah

«جنيزاه» كلمة عبرية مشتقة من الفعل الثلاثي العبري «جنز» أي «كنز» ، وهي تعني «مخبأ» . وتُستخدَم الكلمة للإشارة إلى المخبأ الملحق بالمعبد اليهودي الذي تُحفَظ فيه الكتب المقدَّسة البالية من كثرة الاستعمال ، وكذا الأدوات الشعائرية . كما تُحفَظ فيه أيضاً الكتب التي تحتوي على هرطقة وتجديف ، فهي لا يمكن إحراقها لاحتوائها على اسم الإله . وتُخزَّن هذه الكتب والأشياء المقدَّسة إلى أن يتقرر دفنها في يوم محدَّد كل عدة سنوات تبلغ ست سنوات غالباً. ويقوم اليهود الأرثوذكس في العصر الحديث بدفن مثل هذه الوثائق . ويتم دفن المخطوطات في احتفال جنائزي ، بعد أن تُلف بالكتان كالمومياوات وتوضع في جرار ذات أغطية محكمة لحمايتها من الرطوبة بقصد صيانتها (وكان دفن الكتابات المقدَّسة على هذه الصورة مألوفاً في مصر القديمة) . وقد عُثر على مجموعات كبيرة من هذه الجرار في الكهوف المختلفة حول البحر الميت ، من أهمها كهف قمران ، ولكن لا يمكن إطلاق مصطلح «جنيزاه» على هذه الكهوف .

وتُعدّ جنيزاه المعبد اليهودي في الفسطاط بالقاهرة (معبد ابن عزرا) أهم الجنيزاوات (المخابئ) على الإطلاق . وقد اكتشف فيها الحاخام سولومون شختر آلاف الصفحات والأوراق التي استولى عليها وأرسلها إلى مكتبة جامعة كمبردج .

وتعود أهمية هذه الخزانات إلى أنها تزودنا بصورة واضحة وبمعلومات مهمة عن الجماعات اليهودية في مصر طوال الفترات الفاطمية والأيوبية والمملوكية .

المنصة (بيماه)

Bimah

«بيماه» كلمة عبرية تعني «مكاناً مرتفعاً» وهو منصة عالية في المعبد اليهودي توضع عليها طاولة للقراءة وتُقرأ منها التوراة كما يُنفخ عليها في البوق (شوفار) . ويُلقي الحاخام أحياناً مواعظه من المنصة. كما يقوم المرتل (حزان) في المعابد السفاردية بقيادة الشعائر من فوقها . وتُسمَّى المنصة في المعابد الإشكنازية «الممر» (من العربية «المنبر») . أما في المعابد السفاردية فتُسمَّى «تيفاه» (أي «صندوق» بالعبرية) . ويعود استخدام المنصة كمنبر لتلاوة التوراة إلى أيام نحميا .

وتوجد المنصة في المعابد الإشكنازية في الوسط تفصلها بعض الكراسي عن تابوت لفائف الشريعة . أما في المعابد السفاردية والشرقية ، فتقع في الوسط في مواجهة التابوت لا يفصل بينهما شيء . وفي المعابد اليهودية الإصلاحية والمحافظة تُدمَج المنصة مع التابوت .



١٣
الحاخام (بمعنى «القائد الديني للجماعة اليهودية»)

الحاخام (بمعنى «القائد الديني للجماعة اليهودية») - راباي - ربّي - الربانيون - الأحبار - رسامة الحاخام - المرتل (حزّان) - الواعظ أو ملاك العرفان (مجّيد)

الحاخام (بمعنى «القائد الديني للجماعة اليهودية»)

Hakham (as a Religious Leader of the Jewish Community)

«حاخام» كلمة عبرية معناها «الرجل الحكيم أو العاقل» . وكان هذا المُصطلَح يُطلَق على جماعة المعلمين الفريسيين «حاخاميم» ، ومنها أُخذت كلمة «حاخام» لتدل على المفرد . ونستخدم في هذه الموسوعة كلمة «حاخام» للإشارة إلى الفقهاء اليهود الذين فسّروا كتب المدراش وغيرها من الكتب وجُمعت تفسيراتهم في التلمود «التوراة الشفوية» وجعلوها الأساس الذي تستند إليه اليهودية والمحور الذي تدور حوله . ومن هنا تكون «اليهودية الحاخامية» أو «التلمودية» مقابل «اليهودية التوراتية» . وهو اصطلاح لم يستخدمه أحد وإن كان مُتضمَّناً في كتابات القرّائين .

ولكن المعنى الأكثر شيوعاً هو استخدام كلمة «حاخام» للإشارة إلى القائد الديني للجماعة اليهودية الذي كان يقوم بوظيفتين : أولاهما تفسير التوراة وتطوير الشريعة الشفوية ، فقد كان فقيهاً ومفتياً ـ تماماً مثل الحاخامات ، أي الفقهاء اليهود القدامى ، ولكنه أصبح ، إلى جانب ذلك ، القائد الديني للجماعة اليهودية مهمته الإشراف على الصلوات في المعبد اليهودي ، فكان يلعب دور المرتل (حزان) . كما كان يقوم بشرح التوراة في كل من المعبد والبيت همدراش (المدرسة الملحقة بالمعبد) ، وإصدار الفتاوى ، والإشراف على التعليم الديني ، ومراقبة تنفيذ الأوامر والنواهي (قوانين الطعام وإقامة شعائر السبت وغير ذلك) . وكان يحضر حفلات الختان ، كما كان يقوم بكتابة عقود الزواج ودفن الموتى إلى جانب القيام بدور الخاطبة أحياناً .

ومع أن الحاخام لا يلعب دور الكاهن التقليدي ، نظراً لأنه لا يقوم بدور الوساطة بين الإله والإنسان ، فإنه كان يشغل مركزاً قيادياً في الجماعة . والواقع أن الديانة اليهودية ، بتشابك شعائرها وتدخُّلها في صميم الحياة اليومية اليهودية ، كما هو الحال في قوانين الطعام ، كانت تثير كثيراً من المشاكل لليهودي فيضطر إلى اللجوء للحاخام بشكل متكرر . ومما ساعد على تداخُل الحياة الدينية واليومية أن كثيراً من الحاخامات كانوا يعملون في مهن مختلفة مثل الاشتغال بالأعمال المالية المصرفية والتجارية . فسامسون فرتايمر كان من أهم المصرفيين في النمسا والمجر ، ثم عُيِّن في منصب الحاخام الأكبر للمجر بعد ذلك . كما أن المفهوم الحلولي للشريعة الشفوية ، الذي تنفرد به الديانة اليهودية بين الديانات التوحيدية الأخرى ، دعَّم مركز الحاخامات وخلع عليهم ضرباً من القداسة لأنهم مبشرو هذه الشريعة وحملة رايتها . كما أن البنية الحلولية في اليهودية التي جعلت الشعب أهم من الإله والشريعة الشفوية أهم من الشريعة المكتوبة ، أضفت أهمية قصوى على مركز الحاخام ، إذ أصبح أهم من التوراة نفسها (ما دام قادراً على تغييرها) . ومن ناحية أخرى ، فإن تحوُّل الجماعات اليهودية في الغرب إلى جماعات وظيفية وسيطة ، أدّى إلى تزايد نفوذ الحاخامات . فالطبقة الحاكمة عادةً ما تُقوِّي نفوذ قيادات الجماعة الوظيفية حتى يَسهُل استخدامها وتوظيفها لأداء مهامها . ومن ثم ، كان الحاخامات يُعفَون من الضرائب ، كما كانوا يلعبون دوراً أساسياً في تقديرها وجمعها . ولم يكن يباح للحاخام أن يتقاضى راتباً نظير ما كان يقوم به ، فلجأ الفقه اليهودي إلى «التحلة» وإلى ما أسمَوه «سيخَار بطّالاه» ، أي «بدل بطالة» أو «ديمّي بطّالاه» أي «رسوم بطّالة» ، وهو تعويض عن الوقت الذي يقضيه الحاخام في عمله الديني والإداري .

وفي العصر الحديث ، يُعطَى الحاخام مكافأة سنوية أو شهرية عن أعماله ، ولكن يُنَص في العقد على أنه يتقاضى الأجر عن الأعمال التي يؤديها خلال الأسبوع ، وهي أعمال غير دينية ، ولا يتقاضى أجراً عن يوم السبت ، أي اليوم الذي يلقي فيه الموعظة .

وكان تنظيم الحاخامات في أي بلد يتبع الشكل السياسي السائد فيه . فإذا كان البلد مقسَّماً إلى إمارات صغيرة يكون لكل إمارة حاخامها ، أما إذا كانت السلطة مركزية فإنه كان يُعيَّن حاخام أكبر مثل الحاخام باشي في الدولة العثمانية ، أو الأرش سيناجوجوس في بعض البلاد الأوربية في العصور الوسطى . وكان يوجد في إسبانيا ، بعد توحيد شبه جزيرة أيبريا ، منصب راب دي لاكورتي ، أي

حاخام البلاط ، كما يوجد في بريطانيا الآن حاخام أكبر بينما لا يوجد مثل هذا المنصب في الولايات المتحدة بسبب طبيعة التنظيم المركزي في بريطانيا على عكس التنظيم الفيدرالي في الولايات المتحدة .

وقد حدثت تحولات عميقة في تعليم الحاخامات وسلطتهم في الغرب ، إذ بدأت أهمية الحاخامات كقيادات في التراجع خلال القرن السادس عشر . ومع ظهور المموِّلين اليهود كنخبة قائدة تزايدت ثروتهم ونفوذهم ، الأمر الذي أدَّى إلى تناقص نفوذ الحاخامات ، كما حدث في فترة يهود البلاط حين كان يهودي البلاط القائد الفعلي . ولما ظهرت الحسيدية حل التساديك الحسيدي محل الحاخام (وكان الحسيديون ينادون على قائدهم بلفظ «ربي») . كما طرح دعاة حركة التنوير أنفسهم في عصر الانعتاق والإعتاق باعتبارهم القيادة الحقيقية ، ثم جاءت الدولة القومية المركزية فقلصت نفوذ أية قيادة يهودية ، إذ اضطلعت هي بكل وظائفهم تقريباً ولم يبق سوى الوظائف ذات الطابع الديني المحض . وحتى هذا وُضع تحت الرقابة الشديدة حتى تضمن الدولة أن يتجه ولاء اليهود نحوها . وفي فرنسا ، كان يُعطَى للحاخامات أحياناً مضمون المواعظ التي يلقونها ، ويُطلَب إليهم أن يعلموا أعضاء الجماعة اليهودية الولاء الكامل للدولة . كما تحوَّل الحاخامات في بعض البلاد إلى موظفين تابعين للحكومة يتلقون رواتبهم منها .

وكان الحاخامات يتلقون في الماضي تعليماً دينياً صرفاً تلمودياً ثم قبَّالياً في معظمه ، وكانوا يشكلون الأرستقراطية الثقافية في الجيتو . ولكن مع عصر الإعتاق ، أصرت الحكومات الغربية على أن يتلقى الحاخامات تعليماً علمانياً إلى جانب التعليم الديني ، حتى يتسنى إصلاح اليهود واليهودية . ومع أوائل القرن التاسع عشر ، ظهر جيل جديد من الحاخامات تعرَّفوا الثقافة الدنيوية ، وكان هذا أمراً جديداً تماماً على اليهودية في الغرب . وقد قام هؤلاء بمحاولة إصلاح اليهودية من الداخل ، وهم الذين قادوا كل الحركات الإصلاحية وأسسوا حركات فكرية مثل علم اليهودية . وقد ظهر في روسيا ما يُسمَّى «حاخامات التاج» من خريجي المدارس الدينية التي أسستها الحكومة . ولم يكن هؤلاء الحاخامات يتمسكون بشعائر الدين ، بل ساهموا بشكل فعال في تحديث اليهودية وتفكيكها من الداخل ، وكان بعضهم عملاء للحكومة . ويوجد الآن حاخامات لم يتلقوا تعليماً دينياً يؤهلهم لإصدار الفتاوى الدينية أو القيام بالمهام الدينية الأخرى مثل عقد الزواج ، ولذا فهم ليسوا قضاة شرعيين (ديَّانيم : جمع «ديَّان») . وتوجد مدارس عليا وكليات خاصة يلتحق بها من يريد أن يضطلع بوظيفة الحاخام . ويختلف الإعداد الفكري والديني للحاخامات ، من بلد لآخر ، ومن مذهب ديني لآخر (إصلاحي أو محافظ أو أرثوذكسي) .

وقد ضاقت وظيفة الحاخام وأصبحت مقصورة على الأمور الدينية في أواخر القرن التاسع عشر ، كما أن وظيفته انفصلت عن وظيفة المرتل (حزان) تماماً . ولكن ، مع تزايد معدلات علمنة اليهودية والمعبد اليهودي ، بدأت تتسع وظيفة المعبد وتأخذ شكل النادي الاجتماعي للجماعة اليهودية التي تبحث عن شكل من أشكال التضامن الإثني والاجتماعي . ومن ثم ، زادت أنشطة الحاخام الاجتماعية والسياسية وتنوعت . ونتيجة لذلك ، اتسعت وظيفة الحاخام ، ونجده الآن يقوم بالإشراف على وظائف اجتماعية كانت خارج نطاق سلطته في الماضي . فمن الوظائف المهمة التي أصبح يقوم بها استشارات الزواج ، حين تظهر مشاكل زوجية ولا يحب الزوجان أن يذهبا إلى محلل نفسي أو مستشار زواج مدني . وقد أصبحت وظيفة الحاخام في عمله (باستثناء حاخامات الأرثوذكس) مثل وظيفة الواعظ البروتستانتي الذي يعطي الموعظة يوم الأحد ، ويشرف على الأنشطة الاجتماعية لأعضاء الأبرشية ولا علاقة له بالجوانب الشرعية ، مثل الزواج والطلاق والدفن . لكن اتساع نطاق وظيفة الحاخام لا يعني زيادة هيبته أو نفوذه أو هيمنته ، فقد أصبح موظفاً معيناً من قبل المصلين بطريقة ديموقراطية ويدفعون هم راتبه .

ولا يوجد زي يهودي خاص للحاخامات . فحاخامات يهود اليديشية يرتدون الزي الحسيدي الأسود الذي أخذوه عن النبلاء البولنديين . أما في إنجلترا ، فهم يرتدون ملابس قساوسة الكنيسة الأنجليكانية . وكان بعض كبار الحاخامات يرتدون زياً يشبه أزياء أساقفة الكنيسة الأنجليكانية . أما في فرنسا ، فهم يرتدون زياً يشبه زي الواعظ البروتستانتي فيها . وكان الحاخامات في الدولة العثمانية يرتدون الجبة والعمامة مثل الشيوخ . ويرتدي الحاخامات الإصلاحيون الزي الأوربي العادي ، وإن كان بعضهم يرتدي زياً مختلفاً . وقد حولت الحركة الصهيونية الحاخامات إلى ممثلين لها بين الجماعات اليهودية المختلفة ، يقومون بحث المصلين على التبرع للدولة الصهيونية ، وعلى ممارسة الضغط السياسي لصالحها . وقد اشتكى جرسون كوهين من أن كثيراً من يهود أمريكا يتصورون الآن أن إسرائيل معبدهم اليهودي وأن رئيس وزرائها حاخامهم الأكبر .

أما في إسرائيل نفسها ، فإن دور الحاخامات قد تغيَّر وتبدل بشكل جوهري ، وهذا يرجع إلى طبيعة الدولة الصهيونية نفسها ،

فقد فقدوا كثيراً من وظائفهم التقليدية لأن المعبد لم يَعُد مركزاً للحياة اليهودية ، كما هو الحال في جميع أنحاء العالم ، باعتبار أن الدولة الصهيونية كلها مركز لهذه الحياة . فالزواج مثلاً يقوم به المسئولون عنه ، وهم مفوضون من قبَل دار الحاخامية . والجنازات تقوم بها أيضاً مؤسسات خاصة بذلك . كما أن زيارة المرضى لم تَعُد من مهامهم . لكل هذا ، نجد أن كثيراً من الحاخامات الذين هاجروا إلى إسرائيل يضطرون إلى تغيير وظيفتهم ، وشغل مناصب ووظائف جديدة . ولا تعترف دار الحاخامية في إسرائيل بالحاخامات الإصلاحيين أو المحافظين ، ولا بعقود الزواج ، أو مراسيم التهود التي يشرفون عليها ، الأمر الذي يثير مشكلة الهوية اليهودية . هذا ، وقد بدأت بعض الفرق اليهودية الإصلاحية والمحافظة في الولايات المتحدة في السماح للإناث بالاضطلاع بهذه المهمة . كما رُسِّم بعض الشواذ جنسياً حاخامات .

رابـاي

Rabbi

«رابای» كلمة عبرية (ترد في صيغة الجمع إلا أنها تدل على المفرد وذلك للتعظيم) معناها الحرفي «سيدي» ، أو «أستاذي» ، وهي من كلمة «راف» العبرية ومن الجذر السامي «رب» بمعنى «سيد» . وفي هذه الموسوعة نستخدم كلمة «حاخام» التي شاعت في الدولة العثمانية . وقد تُستخدَم كلمة «رابای» في الوقت الحاضر مرادفاً لكلمة «السيد فلان» . ولذا ، فحينما يُنادَى أحد المصلين لقراءة التوراة يُقال : «رابای فلان ابن رابای فلان» ، أي «السيد فلان ابن السيد فلان» .

ربــي

Rebbe

«ربي» بكسر الراء صيغة يديشية لكلمة «رابای» العبرية ، التي تعني «حاخام» . وكانت الكلمة تُستخدَم أساساً للإشارة إلى الحاخامات الحسيديين والتساديك ، وهي كلمة ذات إيحاءات ودودة . أما كلمة «ربي» فهي طريقة نطق السفارد لكلمة «رابای» .

الربانيون

Rabbis

كلمة «ربّانيون» هي صيغة جمع المذكر في العربية لكلمة «ربّاني» ، وهذه كلمة كان يستخدمها العرب أيام الرسول (عليه الصلاة والسلام) للإشارة إلى الحاخامات ، أي رجال الدين اليهودي وفقهائه ، وهي مرادفة لكلمة «أحبار» .

الأحبار

Rabbis

«الأحبار» صيغة جمع عربية لكلمة «حَبْر» وهو «العالِم» . وهي كلمة كان العرب أيام الرسول (عليه الصلاة والسلام) يستخدمونها للإشارة إلى الحاخامات أي رجال الدين اليهود وفقهائه ، وهي مرادفة لمُصطلَح «ربانيون» . والأصل في الكلمة هو «حَبارِيم» أي «الرفاق» وكذلك من كلمة «حور» أي الذين يرتدون أردية بيضاء . وربما يرجع المُصطلَح إلى اشتغالهم بالتدوين (محبِّريم) .

رسامة الحاخام

Ordination

«رسامة الحاخام» هي المقابل العربي لكلمة «سميخاه» العبرية التي تعني «ترسيم الحاخام» بعد أن يتلقى الدراسة اللازمة بحيث يصير مصرحاً له بأن يحكم في الأمور الخاصة بالشعائر والشرائع (وهي تعود للكلمة الآرامية «سميخا» وتعني «من يُستند إليه» ، أي «من هو أهل للثقة في شئون الشريعة») . ولكل فرقة يهودية حديثة معاهدها الخاصة لإعداد الحاخامات الذين سيعملون في المعابد التابعة لها . والآن ، يُرسَّم النساء والشواذ جنسياً كحاخامات في الولايات المتحدة .

المــرتل (حزّان)

Cantor, Hazzan

«المرتِّل» هي المقابل العربي للكلمة العبرية «حزّان» ، المشتقة من الكلمة الآشورية «حزانو» بمعنى «الحاكم» أو «المراقب» . والكلمة كانت تشير إلى أي موظف يقوم بوظيفة معينة في الجماعة ، ثم صارت تشير إلى المواطن الذي تُوكَل إليه مهمة الحفاظ على النظام والأمن في المدينة وتنفيذ أحكام الجَلد . وكان الحزان يضطلع أيضاً ببعض الوظائف الدينية مثل تلاوة التوراة في المعبد وإنشاد القصائد الدينية . وتشير الكلمة في الوقت الحاضر إلى المرتل وهو قائد الإنشاد في الصلوات اليهودية . ولم يكن المصلون في العصور القديمة في حاجة إلى قائد أو مرشد ، ولكنهم بنسيانهم العبرية ، بدأت تظهر حاجتهم إلى قائد حتى أصبح المنشد جزءاً من الصلاة ،

أصبح من الواجب توافر شروط معيَّنة في الفرد ليضطلع بهذه الوظيفة . وفي العصر الحديث ، يقوم الحاخام في كثير من الأحيان بدور قائد الجوقة .

وكانت هذه الوظيفة مقصورة على الذكور من قبل ، ولكن الإناث سُمح لهن بالقيام بها تحت ضغط حركات التمركز حول الأنثى . وقد أُلغيت وظيفة المرتل في كثير من المعابد الإصلاحية ، وخصوصاً في أوربا .

الواعظ أو ملاك العرفان (مجيد)

Maggid

«مَجِّيد» كلمة عبرية تعني حرفياً «من يخبر» ، وجمعها العبري «مجيديم» . وللكلمة معنيان ، أحدهما عادي ويعني «الواعظ الشعبي المتجول» . وظاهرة الواعظ المتجول معروفة منذ القدم بين الجماعات اليهودية ولكنها انتشرت في القرن الثامن عشر ، ويُعزى نجاح الحركة الحسيدية إلى مثل هؤلاء الوعاظ . وكانت كلمة «مجيد» في الحركة الحسيدية تشير إلى أقرب الأشخاص للتساديك ، الذي يروي عنه كراماته .

والمعنى الآخر للكلمة ذو مضمون حلولي ، فهي تشير إلى «الملاك» ، أو «الروح السماوية» التي تنقل للعلماء الأتقياء العرفان والحكمة بطريقة مبهمة (عادةً أثناء نومهم) ، ولذا فنحن نشير إلى «ملاك العرفان» .

ومن أشهر العلماء الذين تلقوا الحكمة بهذه الطريقة - حسبما جاء في الموروث الديني اليهودي - موسى كوردوفيرو ، وحاييم فيتال ، وجوزيف كارو ، وكلهم من العارفين بأسرار القبَّالاه . وقد أكدت الحركات الشبتانية فكرة ملاك العرفان وأهمية المعرفة التي ينقلها إلى زعماء هذه الحركات وقادتها .



١٤
الصلوات والأدعية

الصلوات اليهودية - الأدعية (الابتهالات واللعنات) - اللعنات - الشمّاع - الثمانية عشر دعاء (شمونه عسريه/ عميداه) - شمونه عسريه - صلاة الختام (نعيلاه) - الصلاة الإضافية (موساف) - الدعاء للحكومة - البيُّوط - قراءة التوراة - كل النذور (دعاء) - القاديش (تسابيح) - الاستغراق (كفاناه) - كتب الصلوات اليهودية (سدُّور) - كتب صلوات العيد (محزور) - الوضوء - النصاب الشرعي (منيان) - شال الصلاة (طاليت) - الأهداب (تسيت تسيت) - تميمة الصلاة (تفيلين) - طاقية الصلاة (يرمُلكا) - البوق (شوفار)

الصلوات اليهودية
Jewish Prayers

«تفيلاه» بالعبرية ، وكانت تعني في أصلها «الإرهاق» أو «تعذيب الذات وإظهار الخضوع» . والصلاة أهم الشعائر التي تُقام في المعبد اليهودي . ويذكر سفر التكوين جملة صلوات متفرقة وعبادات . كما يذكر الضحايا والقرابين التي يجب أن يقدمها اليهودي للإله . ولم تكن الصلوات في بادئ الأمر محدَّدة ولا إجبارية ، بل كانت تُتلى ارتجالاً حسب الأحوال والاحتياجات الشخصية والعامة . وثمة إشارة إلى بعض المظاهر المقدَّسة مثل وضع بعض الأحجار على هيئة مذبح قبل التضرع للإله . ومع التهجير إلى بابل ، بطلت الضحايا والقرابين وظهرت العبادات بالصلوات . وقد بدأ علماء المجمع الأكبر في وضع قوانينها وفي تقنينها ابتداءً من القرن الخامس قبل الميلاد . ولم تكتمل هذه العملية إلا بعد هدم الهيكل وانتهاء العبادة القربانية المركزية التي كانت تأخذ شكل تقديم الحيوانات والنباتات ، وحلت محلها الصلاة التي كان يُطلَق عليها «قربان الشفتين» أو «عبادة القلب» . واستغرقت هذه العملية ، كما تقدَّم ، وقتاً طويلاً . وعلى أية حال ، فإنها لم تستقر تماماً ، إذ كان يضاف إلى الصلوات قصائد البيُّوط التي يؤلفها الشعراء الدينيون . ثم أُدخلت تعديلات جذرية على الصلوات ابتداءً من أواخر القرن الثامن عشر .

ولا يزال مضمون الصلوات خاضعاً للتغيير حسب التغيرات السياسية والأحداث التاريخية . ففي صلاة الصبح كان اليهودي يشكر الإله على أنه لم يخلقه أممياً ، أي من غير اليهود (الأغيار) . والجزء الختامي من الصلاة نفسها ، والذي يُتلى أيضاً في صلوات رأس السنة اليهودية ويوم الغفران ، يبدأ بالدعاء التالي : «نحمد إله العالمين . . . أنه لم يجعلنا مثل أمم الأرض . . . فهم يسجدون للباطل والعدم ويصلون لإله لا ينفعهم» . وقد حُذف الجزء الأخير من الصلوات في غرب أوربا ، وظل يُتداوَل شفوياً في شرق أوربا وإسرائيل . وبدأ يُعاد طبعه مرة أخرى في كتب الصلوات في إسرائيل . كما يمكن أن تُضاف أدعية وابتهالات مرتبطة بأحداث تاريخية وقومية مختلفة ودعاء للحكومة . وقد كانت الصلاة تُقام بالعبرية أساساً . ولكن ، مع حركة إصلاح اليهودية ، أصبحت الصلاة تُؤدَّى بلغة الوطن الأم ، وإن كان الأرثوذكس قد احتفظوا بالعبرية ، ويُطعِّم المحافظون صلواتهم بعبارات عبرية .

وتُعَدُّ الصلاة واجبة على اليهودي الذكر لأنها بديل للقربان الذي كان يُقدَّم للإله أيام الهيكل ، وعلى اليهودي أن يُداوم على الصلاة إلى أن يُعاد بناء الهيكل ، وعليه أن يبتهل إلى الإله لتحقيق ذلك . أما عدد الصلوات الواجبة عليه فهي ثلاث صلوات كل يوم :

١ - صلاة الصبح (شحَاريت) ، وهي من الفجر حتى نحو ثلث النهار .

٢ - صلاة نصف النهار ، وهي صلاة القربان (منْحه) ، من نقطة الزوال إلى قبيل الغروب .

٣ - صلاة المساء (مَعَاريف) ، من بعد غروب الشمس إلى طلوع القمر .

وكانت الصلاتان الأخيرتان تُختزلان إلى صلاة واحدة (منحه-معاريف) . ويجب على اليهودي أن يغسل يديه قبل الصلاة ، ثم يلبس شال الصلاة (طاليت) وتمائم الصلاة (تفيلين) في صلاة الصباح ، وعليه أيضاً أن يغطي رأسه بقبعة اليرمُلكا . والصلوات اليهودية قد تكون معقدة بعض الشيء ، ولذا سنكتفي بالإشارة إلى القواعد العامة والعناصر المتكررة :

١ - يسبق الصلاة تلاوة الأدعية والابتهالات ، ثم قراءة أسفار موسى

الخمسة في أيام السبت والأعياد ، وتعقبها كذلك الابتهالات والأدعية ، وهذه الأدعية والابتهالات لا تتطلب وجود النصاب (منيان) اللازم لإقامة الصلاة لأنها ليست جزءاً أساسياً من الصلاة .
أما الصلاة نفسها فتتكون من :
أ) الشمَّاع ، أي شهادة التوحيد اليهودية .
ب) الثمانية عشر دعاء (شمونة عسْريه) أو العميداه . وهي تسعة عشر دعاء كانت في الأصل ثمانية عشر ، ومن هنا كانت التسمية .
جـ) دعاء القاديش .

هذا وتُضاف صلاة تُسمَّى «موساف» (الإضافي) يوم السبت وأيام الأعياد . أما في عيد يوم الغفران ، فتبدأ الصلاة بتلاوة دعاء كل النذور في صلاة العشاء ، وتُضاف صلاة تُسمَّى «نعيلاه» (الختام) .

والصلاة نوعان : فردية ارتجالية تُتلى حسب الظروف والاحتياجات الشخصية ، ولا علاقة لها بالطقوس والمواعيد والمواسم ، وأخرى مشتركة . وهذه صلوات تُؤدَّى باشتراك عشرة أشخاص على الأقل يُطلَق على عددهم مُصطلَح «منيان» أي «النصاب» في مواعيد معلومة وأمكنة مخصوصة حسب الشعائر والقوانين المقررة . ويردد الصلوات كل المشتركين فيها ، إلا أجزاء قليلة يرددها القائد أو الإمام أو المرتل (حزَّان) بمفرده .

ويتجه اليهودي في صلاته جهة القدس ، وأصبح هذا إجراءً معتاداً عند يهود الشرق كافة . أما في القدس نفسها ، فيولي المصلي وجهه شطر الهيكل . وتوجد كتب عديدة للصلوات اليهودية لا تختلف كثيراً في أساس الصلاة والابتهالات ، ولكن الخلافات تنحصر في الأغاني والملحقات الأخرى . وقد تغيَّرت حركات اليهود أثناء الصلاة عبر العصور ، ففي الماضي كان اليهود يسجدون ويركعون في صلواتهم (ولا يزال الأرثوذكس يفعلون ذلك في الأعياد) ، ولكن الأغلبية العظمى تصلي الآن جلوساً على الكراسي ، كما هو الحال في الكنائس المسيحية ، إلا في أجزاء معيَّنة من الصلاة مثل : تلاوة الثمانية عشر دعاء (شمونه عسريه) ، فإنها تُقرأ وقوفاً في صمت . ولا يخلع اليهود نعالهم أثناء الصلاة (باستثناء الفلاشاه والسامريين) .

ويُلاحَظ أن عدد المصليات في الوقت الحاضر يزيد على عدد المصلين في كثير من المعابد اليهودية (الإصلاحية أو المحافظة) مع أن العقيدة اليهودية لا تكلف النساء بالذهاب إلى المعبد ، وليس بإمكانهن تلاوة الأدعية إلا في أجزاء من أدعية معينة مقصورة عليهن - ولا شك في أن المحيط المسيحي قد ترك أثراً في اليهودية في هذا الشأن .

وقد اكتسبت الصلاة أهمية غير عادية في التراث القبَّالي الحلولي ، فالقبَّاليون يؤمنون بأن ما يقوم به اليهودي في العالم السفلي يؤثر في العالم العلوي . والصلوات من أهم الأفعال التي يقوم بها اليهودي في هذا المضمار ، فالصلاة مثل التعويذة السحرية التي يستطيع من يتلوها أن يتحكم في العالم العلوي . ولما كان اليهود العنصر الأساسي في عملية إصلاح الخلل الكوني (تيقون) ، وهي العملية التي تتم بمقتضاها استعادة الشرارات الإلهية التي تبعثرت وولادة الإله من جديد ، فهي تُسرع بالتقريب بين العريس/ الملك ، والعروس/ الملكة (الشخيناه) وتوحُّد بينهما ، كما تسهم في عقد الزواج المقدَّس بينهما . ولذا ، فإن اليهودي قبل أن يؤدي صلاته ، يقول : «من أجل توحيد الواحد المقدَّس . . . مع أنثاه (الشخيناه)» . والتوحيد هنا يحمل معاني جنسية صريحة . والهدف من صلاة الصباح بالذات الإسهام في عملية الجماع الجنسية هذه ، وكل فقرة توازي مرحلة من مراحل الوحدة أو الجماع . فبعد الفقرة الأولى من الصلاة تقترب الابنة المقدَّسة مع وصيفاتها ، وبعد الفقرة الثانية يضع الإله (متجسداً في الابن) ذراعه حول رقبتها ، ثم يلاطفها ويربت على ثدييها . ومع نهاية الصلاة ، يتم الجماع (وهذا تعبير متبلور عن الاتجاه الجنسي داخل المنظومة الحلولية ، وخصوصاً في مرحلة وحدة الوجود) .

ويُلاحَظ أن كلمة «يحود» ، والتي تعني الاجتماع أو التوحيد، تُستخدَم في النصوص القانونية الشرعية للإشارة إلى فكرة الجماع الجنسي . وعلى ذلك فإن اليحود هو الاجتماع/ الجماع . وحينما يتلو اليهودي دعاءً قبل الصلاة ، فإنه يقول فيه إنه سيقوم بالصلاة حتى يتحقق الزواج المقدَّس (هازيفوج هاقادوش) . ولكل فرقة يهودية منهاج أو عرف خاص بها . ولذا ، يمكننا الحديث عن «المنهاج الإشكنازي» ، و«المنهاج السفاردي» .

الأدعية (الابتهالات واللعنات)

Benedictions and Curses

كلمة «دعاء» العربية تعني «الابتهال» أو «الدعاء للناس» أو «الدعاء عليهم» . وتُستخدَم الكلمة للتعبير عن الكلمتين العبريتين «براخاه» (حرفياً «بركة») ، و«كيلالاه» (حرفياً «لعنة») ، وتُشير كلمة «أدعية» إلى كلٍّ من الابتهالات واللعنات . وجمع كلمة «براخاه» ، هو «براخوت» وهي مشتقة من فعل «بيراخ» ، أي «يخر ساجداً على ركبتيه» أو «ينشفع» أو «يُسبِّح الإله» . لكن كلمة «براخوت» قد تعني «بركة» (منحه بركته) وقد تعني أيضاً «أدعية» (دعا له) ، وثمة

إشارات عديدة في العهد القديم إلى منح البركات في مناسبات عدة مثل الرحيل (تكوين ٤٧/ ١٠ خروج ٤/ ١٨) وعند ولادة طفل (تكوين ٥/ ٢٩ وراعوث ٤/ ١٤) وعند الزواج (تكوين ٢٤/ ٦٠ ، ومزمور ٤٥ وراعوث ٤/ ١١ _ ١٢) ، ولكن أهم البركات هي تلك التي كان يمنحها الأب (المسن الذي على حافة الموت) لأبنائه ، فقد بارك نوح ابنيه شيم وجافت (تكوين ٩/ ٢٦ _ ٢٧) وبارك إسحق يعقوب وعيسو (تكوين ٢٧ و٢٨/ ١ _ ٤) كما بارك يعقوب (تكوين ٤٩) حفيديه إفرايم ومنَسَّى (تكوين ٤٨/ ١٣ _ ٢٢) .

ويبدو أن البركة الممنوحة (مثل اللعنة) لها قوة سحرية مرتبطة بالكلمة نفسها ، فهي بمنزلة صيغة سحرية . ولم تكن الكلمة مجرد تعبير عن عواطف أو مجرد دال يشير إلى مدلول ، وإنما كان يُنظَر إليها باعتبارها حروفاً تحمل قوة خارقة ينتج عنها واقع ما (مثل كلمة «الإله» الذي خلق العالم من خلالها ، ومثل التوراة باعتبارها جسد الإله القادر) . كما أنه إذا نطق شخصٌ ما كلمات البركة فإنه يفقد هو نفسه قدرته على التحكم فيها وتصبح مستقلة عن إرادته ، وهذا يفسر واقعة إسحق الأعمى حينما بارك يعقوب عن طريق الخطأ بدلاً من عيسو لأن يعقوب قد خدعه بمساعدة أمه (تكوين ٢٧/ ٣٣ _ ٣٨) . كما يفسر واقعة العراف أو النبي بلعم الذي كان يحاول أن ينطق بلعنة على جماعة يسرائيل ولكنه وجد نفسه ينطق بالبركة رغماً عنه (أعداد ٢٢/ ١٢ و ٢٣/ ٨) ، فأي من إسحق وبلعم لا يمكنه أن يغير البركة التي نطق بها ، فهي مستقلة عن إرادة من تفوه بها وكأنها تعويذة سحرية .

وجاء في سفر التثنية (١١/ ٢٩) أن الإله نصح موسى أن يجعل البركة على جبل جريزيم واللعنة على جبل عيبال ، وهذا يعني أن البركة واللعنة (كقوتين ماديتين) ستستقر واحدة منهما على جبل وستستقر الأخرى على الجبل الآخر .

ولعل هذا يفسِّر أهمية بركات الآباء الذين يقفون على مشارف الموت (والأزلية) ، فهم يقفون في منطقة تخومية (برزخية) يستمدون قوة من العالم الذي سيتحركون إليه . ولذا ، فإن بركاتهم (أو تعويذاتهم السحرية الملفظية) كانت تُعدُّ ذات قوة خاصة . ويُلاحَظ أن البركات واللعنات هنا لا تحمل مضموناً أخلاقياً وإنما تحمل مضموناً سحرياً ، الأمر الذي يشير إلى إطارها الحلولي .

وكما أسلفنا ، تطوَّر معنى كلمة «براخوت» وأصبحت تشير إلى الابتهالات التي تتضمن دعاء . ولكن ، ومع هذا ، ظل البعد السحري هناك دائماً . وتشكل الأدعية المعروفة باسم الثمانية عشر دعاءً (شمونه عسْريه) جزءاً أساسياً من الصلوات اليهودية . وأهم الأدعيـة التي تُتلى في الصلاة هي «مبارك أنت يا إلهي» (باروخ أتاه أدوناي) .

وهناك أدعية أخرى في المناسبات المختلفة من أهمها :

١ _ أدعية الأوامر والنواهي ، وتكون قبل أن يقوم اليهودي بأداء أيٍّ من الأوامر ، مثل وضع تميمة الباب (مزوزاه) على الباب أو إضاءة شموع السبت .

٢ _ أدعيـة تُقال عند الاستمتاع بشيء ما مثل الطعام والروائح العطرية .

٣ _ أدعية تُقال بعد تناول الطعام .

٤ _ أدعية تُقال في المناسبات ، وخصوصاً الدعاء الذي يقوله الأب حينما يصل ابنه سن البلوغ .

٥ _ أدعيـة النجاة من الضيق والأذى ، وتُقال عند العودة من سفر طويل أو عند النجاة من مكروه .

٦ _ دعاء الشهر ، ويكون عند نهاية كل شهر لمباركة الشهر التالي .

٧ _ دعاء القمر ، ويكون عند مشاهدة أشعة القمر الجديد .

٨ _ دعاء الشمس ، ويكون كل ثمانية وعشرين عاماً .

كما ينطق اليهودي بأدعية أخرى عندما يمر على مدافن اليهود أو عندما يرى حشداً كبيراً من أبناء ملته .

وعلى عكس الدعاء لشخص ما (بالبركة) يمكن توجيه اللعنة إليه أو الدعاء عليه ، أي دعوة الله بإنزال اللعنة عليه . فكما يتمتم اليهودي بالأدعيـة ، فإنه يردد اللعنات . فإذا كانت المدافن لغير اليهود ، فإنه يدعو على أم الموتى ، وإذا رأى حشداً كبيراً من غير اليهود طلب من الإله أن يهلكهم . وإذا مرَّ على منزل مهدم يملكه يهودي فإنه يدعو الإله أن يعمره مرة أخرى ، أما إذا كان مالكه غير يهودي ، فإنه يحمد الإله على انتقامه من الأغيار . وقد تقلَّص نطاق اللعنة ، وأصبح ينطبق على الكنائس ، وأماكن العبادة التي تخص المسيحيين وغيرهم (واستُثنيَت أماكن العبادة الخاصة بالمسلمين) . وعُدِّلت اللعنة ، فأصبح على اليهودي أن يبصق حينما يرى صليباً ويتلو الإصحاح التالي من سفر التثنية : « ولا تُدخل رجساً إلى بيتك لئلا تكون محرَّماً مثله . تستقبحه وتكرهه لأنه محرم » . والرجس هنا إشارة إلى الصليب . وفي القرن الرابع عشر ، شيَّد ملك بوهيميا تشارلز الرابع (وكان إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة) صليباً ضخماً في براغ . وحينما أخبروه عن عادة البصق هذه فرض على أعضاء الجماعة اليهودية أن يكتبوا على الصليب لفظة «أدوناي» (أحد أسماء الإله في اليهودية) التي يُجلُّها اليهود ولا يجسرون على الإتيان بأفعال تنم عن ازدرائها . ويجب التنبيه على أن مثل هذه الممارسات

كان يقوم بها بعض الجماعات اليهودية وليس كلها ، وفي بعض المراحل التاريخية وليس في كل زمان ومكان ، كما أن كثيراً من هذه التقاليد الدينية العنصرية آخذة في التآكل بين غالبية أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ، ولكنها آخذة في التزايد بين الصهاينة الأرثوذكس في إسرائيل . وقد استُخدم سلاح استمطار اللعنات والبركات في انتخابات الكنيست عام ١٩٨٨ . فكان حاخامات الأحزاب الدينية يدعون بالبركات (بالمال والبنين) لكل من يدلي بصوته لمرشحهم ، ويدعون باللعنات على من لا يفعل . وقد صدر قرار في إسرائيل بمنع استمطار اللعنات أثناء المعارك الانتخابية .

اللعنات

Curses

«اللعنات» عكس البركات (انظر : «الأدعية [الابتهالات واللعنات]») .

الشماع

Shema

دعاء «الشمَّاع» من كلمة «شمَع» العبرية وتعني «اسمع» (ويُعرَف أيضاً باسم «قريئات شماع» ويُختصَر إلى «قريشماع») . وكلمة «شماع» أول كلمة في نصٍّ من نصوص العهد القديم تُقرأ في صلاة الصباح والمساء « اسمع يا يسرائيل الرب إلهنا رب واحد » (تثنية ٦/ ٤) . والشماع ككل يتكون من النصوص التالية :

١ ـ « اسمع يا يسرائيل الرب إلهنا رب واحد . فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك . ولتكن هذه الكلمات التي أنا أوصيك بها اليوم على قلبك . وقصها على أولادك وتكلّم بها حين تجلس في بيتك وحين تمشي في الطريق وحين تنام وحين تقوم . واربطها علامةً على يدك ولتكن عصائب بين عينيك . واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك » (تثنية ٦/ ٤ ـ ٩) .

٢ ـ « فإذا سمعتم لوصاياي التي أنا أوصيكم بها اليوم لتحبوا الرب إلهكم وتعبدوه من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم ، أعطي مطر أرضكم في حينه المبكر والمتأخر . فتجمع حنطتك وخمرك وزيتك . وأعطي لبهائمك عشباً في حقلك فتأكل أنت وتشبع . فاحترزوا من أن تنغوي قلوبكم فتزيغوا وتعبدوا آلهة أخرى وتسجدوا لها فيحمى غضب الرب عليكم ويُغلق السماء فلا يكون مطر ولا تعطي الأرض غلتها . فتبيدون سريعاً عن الأرض الجيدة التي يعطيكم الرب . فضعوا كلماتي هذه على قلوبكم ونفوسكم واربطوها علامةً على أيديكم ولتكن عصائب بين عيونكم . وعلّموها أولادكم متكلمين بها حين تجلسون في بيوتكم وحين تمشون في الطريق وحين تنامون وحين تقومون . واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك . لكي تكثر أيامك وأيام أولادك على الأرض التي أقسم الرب لآبائك أن يعطيهم إياها كأيام السماء على الأرض » (تثنية ١١/ ١٣ ـ ٢١) .

٣ ـ « وكلم الرب موسى قائلاً . كلّم بني يسرائيل وقل لهم أن يصنعوا لهم أهداباً في أذيال ثيابهم في أجيالهم ويجعلوا على هدب الذيل عصابة من أسمانجوني . فتكون لكم هدباً فترونها وتذكرون كل وصايا الرب وتعلمونها ولا تطوفون وراء قلوبكم وأعينكم التي أنتم فاسقون وراءها . لكي تذكروا وتعلموا وصاياي وتكونوا مقدّسين لإلهكم . أنا الرب إلهكم الذي أخرجكم من أرض مصر ليكون لكم إلهاً . أنا الرب إلهكم » . (عدد ١٥/ ٣٧ ـ ٤١) .

وتُقرأ الشماع في صلاة الصباح والمساء ، ولا تُتلى في صلاة الظهر . وعلى اليهودي أن ينطق بعبارة التوحيد قبل موته ، أو ينطق له بها أحد الواقفين بجواره .

والعبارات الأولى في الشماع قد تعطي انطباعاً بأن ثمة اتجاهاً توحيدياً قوياً ، وأنها من ثم تشبه شهادة التوحيد الإسلامية وتقترب منها . ولكن الدارس المدقق يُلاحظ الفروق الجوهرية بينهما :

فالشمَّاع جزءٌ من كل ، والكل (أي التركيب الجيولوجي اليهودي) يحوي طبقة حلولية واضحة تتنافى مع التوحيد الذي تعبِّر عنه هذه العبارة الأولى . وحتى لو أخذنا العبارة الأولى من الشماع بمفردها ، فسنلاحظ أنه بينما تبدأ الشهادة الإسلامية بضمير المتكلم (المفرد) ، أي أن الإنسان الفرد صاحب الضمير الفردي والمسئولية الخلقية يشهد على أن الله ، إله العالمين ، واحد أحد ، أما الشماع فتبدأ بخطاب إلى الأمة ككل ، وهو ما يعطي الشمَّاع بعداً جماعياً قومياً . ثم ينتقل الشماع بعد ذلك للتأكيد على أن « الرب إلهنا » والواقع أن استخدام ضمير المتكلمين ، في العقيدة اليهودية بأكملها ، ذو دلالة قومية جماعية عميقة ، فهو يخصص الإله ويجعله مقصوراً على اليهود أو الشعب المختار الذي يحل فيه الإله . لكن تخصيص الإله لشعب معيَّن قد يفيد التوحيد ولكنه لا يفيد الوحدانية الخالصة ويجعلها تقترب من التغليبية (وهي نوع من التوحيد البدائي) يفيد الإيمان بعدد من الآلهة يترأسهم إله واحد . وهو ما يحمل معنى الشرك بالإله (على عكس الشهادة الإسلامية التي تعني عدم وجود إله آخر سوى الله) . ويتأكد هذا الموضوع الأساسي في بقية الدعاء : « وتعبدوا آلهة أخرى وتسجدوا لها » . ويختم الدعاء هكذا

«أنا الرب إلهكم الذي أخرجكم من مصر ليكون لكم إلهاً . أنا الرب إلهكم» .

ولكن الأهم من هذا كله هو بقية العبارات المستقاة من العهد القديم . فثمة إشارات عديدة إلى بعض الشعائر مثل : تمائم الصلاة (تفيلين) ، وشال الصلاة (طاليت) ، وتميمة الباب (مزوزاه) . وتستغرق الإشارات إلى هذه الشعائر نصف الدعاء تقريباً . وهذه الشعائر ذات اتجاه حلولي واضح فهي تؤكد انفصال اليهود وقداستهم واختيارهم : (وتكونوا مقدَّسين لإلهكم) .

والجزء الثاني من الدعاء (تثنية ١١/ ١٣ ـ ٢١) يؤكد المكافأة المادية المباشرة التي سيمنحها الإله للشعب ، لو أنه نفذ الوصايا . وهناك إشارة إلى « الأرض الجيدة التي يعطيكم الرب » . وبذا ، تكتمل كل علامات الحلولية المتطرفة ، فثمة إله يحل في الشعب والأرض فيكتسب كلٌّ من الشعب والأرض قداسة . ولذا ، لابد أن يعزل نفسه عن بقية العالم ، ومن هنا كثرة الشعائر ، فنحن أمام تركيب جيولوجي تراكمي مدهش يبدأ بالتعبير عن التوحيد وينتهي بالحلولية المتطرفة .

ورغم التشابه اللفظي والمضموني السطحي ، فإن البنية الكامنة للشماع ، والتي لابد أن يُنظَر إليها في علاقتها بالطبقة الحلولية داخل التركيب الجيولوجي اليهودي ، تدل على أن نص التوحيد اليهودي ليست له علاقة كبيرة بالشهادة الإسلامية ، وهذا ينطبق أيضاً على كثير من الجوانب التي يُتصوَّر أنها مشتركة بين اليهودية والإسلام مثل الختان وقوانين الطعام .

ويجب أن نشير إلى أن العنصر الحلولي ازداد قوة في القرن العشرين ، كما اكتسب الشعب مطلقية وقداسة تفوق ما كان يُتصوَّر أنه تمتع به في الماضي . وبظهور اليهودية المحافظة واليهودية التجديدية (التي تعبِّر عن شحوب فكرة الإله داخل الثالوث الحلولي) والصهيونية (التي تعبِّر عن حلولية بدون إله) ، ومع تزايد صهينة الدين اليهودي ، ومع تزايد تأكيد مقولة الشعب العضوي (فولك) ، فإننا سنكتشف أن الحديث عن وحدانية الإله هو في واقع الأمر حديث عن وحدانية الشعب وتماسكه .

الثمانية عشر دعاء (شمونه عسريه - عميداه)

Eighteen Benedictions (Shemoneh Esreh; Amidah)

تعتبر «الثمانية عشر دعاء» أهم أجزاء الصلاة اليهودية عند الإشكناز ، وعبارة «شمونه عسريه» معناها «ثمانية عشر» . أما كلمة «براخوت» التي تعني «الأدعية» (بمعنى بركات) فهي مفهومة ضمناً .

وعند السفارد يشار إلى هذه الأدعية بكلمة «عميداه» وتعني «الوقوف» لأنها تُتلى وقوفاً . كما تُعرَف باسم «تفيلاه» ، أي «الصلاة» وحسب . وكان عدد الأدعية (أو البركات) ثمانية عشر عندما قام جملائيل الثاني ورجال المجمع الأكبر بتقنينها وإعطائها شكلها النهائي . ومن هنا جاء الاسم ، ولكن أضيف إليها دعاء إضافي ، فأصبحت الأدعية تسعة عشر .

والثمانية عشر دعاءً تشكل الجزء الأساسي في الصلاة اليهودية ، وتُتلى في كل الصلوات في كل الأيام وفي الأعياد كافة ، ومن ذلك صلاة الختام (نعيلاه) التي لا تقام إلا في يوم الغفران . والأدعية هي :

١ ـ «آبوت» ، أي «الآباء» ، وهو إشارة إلى عهد الإله مع الآباء .

٢ ـ «جبروت» ، أي «القوة» ، وهو وصف للمقدرة الإلهية . ويُسمَّى أيضاً «تحيت همِّتيم» ، أي «بعث الموتى» ، إذ توجد فيه عدة إشارات إلى الإله الذي يُحيي الموتى .

٣ ـ «قيدوشوت» ، أي «التقديس» ، ويُسمَّى أيضاً «قيدوشيت هشِّيم» ، أي «تقديس الاسم» ، وهو مدح لقداسة الإله .

٤ ـ «بيناه» ، أي «الذكاء» ، أو «بريحات حوخمه» ، وهو صلاة الحكمة ، ويتضمن طلب الحكمة .

٥ ـ «تشوفاه» ، أي «التوبة» ، وهو تضرُّع إلى الإله لأن يأتي بالتوبة ، فهو يحب التوابين .

٦ ـ «سليحاه» ، أي «المغفرة» ، وهو دعاء من أجل المغفرة .

٧ ـ «جئيولاه» ، أي «الخلاص» ، وهو دعاء من أجل أن يأتي الإله بالخلاص ، فهو «مخلِّص جماعة يسرائيل» .

٨ ـ «بركَّات هاحوليم» ، وهو دعاء من أجل شفاء المرضى ، وينتهي هذا الدعاء بوصف الإله بأنه «هو الذي يشفي مرضى شعبه يسرائيل» .

٩ ـ «بركَّات هشَّانيم» ، أي «دعاء من أجل السنين الطيبة» ، وهو دعاء من أجل أن يجعل الإله العام المقبل عام خير .

١٠ ـ «كيبّوتس جاليوُت» ، أي «تجميع المنفيين» ، وهو دعاء من أجل جمع المنفيين ، أي اليهود المنتشرين في كل بقاع الأرض ، فهو «الذي سيجمع المنفيين من شعبه يسرائيل » .

١١ ـ «بركَّات هدِّين» ، وهو الدعاء من أجل العدل ، ومن أجل أن يحكم الإله ببراءة المصلين في يوم الحساب في آخر الأيام .

١٢ ـ «بركَّات هامنيم» ، وهو دعاء على المهرطقين أو الكفار ، ويُقصَد به أساساً المسيحيون والمتنصرون من اليهود . وقد أضافه جماليل الثاني عام ١٠٠ ميلادية حتى يفصل بين المسيحيين واليهود ،

وجاء في هذا الدعاء : « فليحطم [الإله] اليأس على قلب المرتدين ، وليهلك كل المسيحيين في التو » ، فالإله هو « الذي يحطم الأعداء ويذل المتكبرين » . وقد تم تعديل الصيغة على مر السنين تحت ضغط من الحكومات . ففي القرن الرابع عشر عُدِّل هذا الدعاء ليصبح «وليهلك كل المهرطقين في التو » (ولكنهم بدأوا مرة أخرى في إسرائيل يعودون إلى الصيغة الأولى) .

١٣ ـ «بركّات تساديكيم» ، أي الدعاء من أجل الصديقين .

١٤ ـ «بركّات يروشاليم» ، أي الدعاء من أجل القدس . وكان هذا الدعاء ، في البداية ، دعاءً من أجل أن يحمي الإله القدس ، ولكنه عُدِّل ليشير إلى إعادة بناء القدس (بنيان يروشليم) .

١٥ ـ «بركّات داود» ، أي الدعاء من أجل داود ، أي عودة الماشيّح المخلص .

١٦ ـ «قبلات تفيلاه» ، أي قبول الصلاة ، وهو دعاء بأن يسمع الإله كل صلوات جماعة يسرائيل .

١٧ ـ «عفوداه» ، أي العبادة ، وهو دعاء بأن يقبل الإله الصلاة .

١٨ ـ «هوداءاه» ، أي الحمد أو الشكر ، ويتضمن هذا الدعاء الشكر والحمد للإله لما يخص به شعب يسرائيل من فضل .

١٩ ـ «بركات هاكوهانيم» ، أي بركة الكهان ، وهو الدعاء من أجل السلام ، ويُختَم بعبارة : « فأنت الذي تبارك شعبك يسرائيل بالسلام » .

ويُلاحَظ أن الأدعية تعكس تركيب اليهودية الجيولوجي ، من تأرجُح بين التوحيد والحلولية ، وتأرجُح بين العالمية والانغلاق . كما يلعب التفسير دوراً أساسياً هنا ، فكثير من المُصطلَحات ، مثل «جبروت» وغيرها ، أصبحت أسماء للتجليات النورانية العشرة (سفيروت) في القبَّالاه اللوريانية . وقد أعطى القبَّاليون معنىً محدَّداً لكل الأدعية واستوعبوها تماماً في نسقهم الحلولي .

وكل من الثلاثة أدعية الأولى والأخيرة ، هي الأساسية ، وهي أيضاً أقدم الأدعية وتُتلى في كل الصلوات ، وتُحذَف الثلاثة عشر الوسطى في يوم السبت والأعياد ، وتحل محلها أدعية تخص العيد الذي يُحتفَل به .

ويبدو أن تاريخ الأدعية الثمانية عشر يعود إلى أيام جملائيل الثاني . وقد كان لها صيغ متعددة تختلف من جماعة إلى أخرى حتى أن أحد الفقهاء اليهود في أشبيلية اشتكى عام ١٣٥٠ من أنه لا يوجد نصٌ يشبه الآخر .

وفي العهد الحديث ، غيَّرت اليهودية الإصلاحية النص من ناحية الشكل والمضمون ، فاستبعدت كل الإشارات القومية وفكرة عودة الماشيّح والإيمان بالبعث . وبطبيعة الحال ، تم استبعاد الدعاء الثاني عشر تماماً . أما المحافظون ، فقد عدَّلوها بحيث تصبح الإشارة لا إلى المهرطقين وإنما إلى الهرطقة نفسها .

شمونه عسريه
Shemoneh Esreh

انظر : «الثمانية عشر دعاء (شمونه عسريه - عميداه)» .

صلاة الختام (نعيلاه)
Neilah

«صلاة الختام» هي المقابل العربي لعبارة «نعيلاه» العبرية ومعناها «الختام» ، و«نعيلاه» تعني أيضاً «إغلاق البوابة» . وقد كانت صلاة الختام في الماضي صلاة تُقام في الهيكل قبل إغلاق البوابات (نعيلات شعاريم) ، كما كانت تُتلى في أيام الصوم ، ولكنها لا تُتلى الآن إلا في يوم الغفران . وهي آخر الصلوات الخمس التي تقام في ذلك اليوم ، فهي خاتمة اليوم . ويرتدي المصلون شال الصلاة (طاليت) مثلما يفعلون في كل الصلوات في ذلك اليوم . ويُنفَخ في البوق (شوفار) عند انتهائها .

الصلاة الإضافية (موساف)
Mussaph

«الصلاة الإضافية» هي المقابل العربي لعبارة «موساف» العبرية ومعناها «الإضافي» . والموساف صلاة إضافية بعد صلاة الصباح في يوم السبت وفي بعض الأعياد : أعياد الحج والقمر الجديد ورأس السنة ويوم الغفران ، وهي الأعياد التي كانت تتطلب قرباناً إضافياً . وتتضمن الصلاة وصفاً للقربان الذي كان يُفترض تقديمه . كما أن الصلاة الإضافية الخاصة بيوم الغفران تتضمن وصفاً لصلاة الكاهن الأعظم في ذلك اليوم .

الدعاء للحكومة
Prayer for the Government

«الدعاء للحكومة» من التقاليد الدينية الراسخة في اليهودية على عكس ما يتصوره الصهاينة والمعادون لليهود . فالاندماج من الظواهر الأساسية التي تسم الجماعات اليهودية ، ويتبدَّى ذلك في ولائها للحكومات أو السلطات الحاكمة . وبعد سقوط آخر معاقل الحكم العبراني في المملكة الجنوبية (عند التهجير إلى بابل) ، نصح

إرميا المهجَّرين بأن يصلوا لصالح المدينة التي قامت بنفيهم (إرميا ٢٩/ ٧) : "واطلبوا سلام المدينة التي سبيتكم إليها وصلوا لأجلها إلى الرب لأنه بسلامها يكون لكم سلام" . ويتكرر الشيء نفسه في عزرا (٦/ ١٠) : "والصلاة لأجل حياة الملك وبنيه" . والإشارة هنا إلى دارا الأعظم الذي أصدر أمراً بالسماح لليهود بالاستمرار في إعادة بناء الهيكل . وكذلك في الأمثال (٢٤/ ٢١) : " يابني اخش الربَّ والملك" . وقد ظهر المفهوم الأساسي الخاص بأن شريعة الدولة هي الشريعة التي تجعل أمن الحكومة ضرورة لأمن أعضاء الجماعة اليهودية ، وأصبح مفهوماً مركزياً بالنسبة إلى أعضاء الجماعات وخصوصاً بعد تزايد انتشارهم . ولذا ، كان اليهود يقدمون قرباناً باسم دارا في الهيكل الثاني ، ويدعون له ، ثم للأباطرة الرومانيين من بعده . وقد قال نائب الكاهن الأعظم في التلمود : "صلوا من أجل صالح النظام القائم ، لأنه لولا الخوف منه لابتلع الناس بعضهم بعضاً" . وبعد هدم الهيكل ، أكد الحاخامات الحاجة إلى الدعاء للحكومة بشكل أكبر .

والدعاء للحكومة لا يعكس فقط ولاء الجماعات اليهودية للحكومات ، وإنما يعكس أيضاً وضعها كجماعة وظيفية وسيطة قريبة من النخبة الحاكمة . وقد كانت الحكومة في الماضي (قبل ظهور المُثُل الديموقراطية) تعني السلطة الحاكمة بشكل واضح ومباشر . وقد ظهر هذا الارتباط بشكل واضح حينما نشب الصراع بين الحسيديين من جهة ، والمتنجديم (ممثلي المؤسسة الحاخامية) من جهة أخرى ، حيث اتهم المتنجديم الحسيديين بأنهم "لا يخافون إلا الإله ولا يخافون الإنسان" ، أي السلطة الحاكمة ، وذلك حتى تلقي الحكومة القبض عليهم . وتحوي أقدم كتب الصلوات اليهودية دعاء لحاكم البلد ، كان يُتلى كل يوم سبت بعد قراءة التوراة . وقد استمر هذا التقليد حتى الوقت الحاضر في الشرق والغرب .

ويعود أقدم الأدعية إلى وادي الراين (القرن الحادي عشر) . ولكن الأدعية كانت مُتداوَلة أيضاً في إسبانيا في ذلك الوقت نفسه . وقد حمل يهود السفارد معهم هذا الدعاء : "هو الذي يعطي الخلاص للملوك" ، الذي أحرز شيوعاً ولا يزال قائماً في المعابد اليهودية في الكومنولث البريطاني . ويتلو الأرثوذكس في الولايات المتحدة الدعاء السابق ولكنهم يضيفون إليه العبارة التالية : "فليبارك الخالق الرئيس ونائب الرئيس ويحميهما ، هما وكل موظفي هذا البلد" . ويتلو اليهود المحافظون دعاءً للولايات المتحدة فيقولون : "... وحكومتها وقادتها ومستشاريها" .

أما في إسرائيل ، فيوجد دعاء خاص من أجل الحكومة ، ويبدأ بتأكيد أن "استقلال إسرائيل هو فجر خلاصنا" ، ثم يطلب من الإله أن يحمي هذه الدولة ، وأن يمنح قادتها النور والحق . ويعقب ذلك دعاء من أجل رخاء يهود العالم ، وأن يتم جمع شملهم . وهناك ، أخيراً ، دعاء من أجل جنود الجيش الإسرائيلي .

البيوط

Piyyut

«بيُّوط» كلمة عبرية مشتقة من كلمة «بويايتيس» اليونانية التي تعني «إنشاد» أو «شعر» (ومنها كلمة «بويتري poetry» الإنجليزية) . وجمع الكلمة العبرية هي «بيوطيم» . وهي نصوص شعرية غنائية تتناول الموضوعات الدينية وتعبِّر عن المشاعر الدينية ، وتدخل على الصلوات اليهودية بهدف إثرائها وتزيينها ، خصوصاً على صلوات الأعياد والسبوت .

ولغة البيوط هي أساساً عبرية المشناه ، ولكنها تستخدم مفردات العهد القديم والآرامية ، كما أن كُتَّاب البيُّوط نحتوا كلمات جديدة تصل إلى بضعة آلاف . وتتميَّز البيُّوط كذلك بصيغ وبنىً نحوية جديدة . وقد استخدم كتاب البيُّوط إشارات عديدة إلى العهد القديم والمدراش لا يفهمها إلا المتخصص في الأدب المدراشي .

ويعود تاريخ البيُّوط إلى القرن الخامس الميلادي في فلسطين . وعندما بدأت تُقحَم على الصلوات ، اعترض فقهاء بابل على إدخالها . كما اعترض موسى بن ميمون ، فيما بعد ، على الصور الشعرية التي تضمها هذه القصائد ، والتي كانت متطرفة غير مقبولة من الناحية الدينية ، وخصوصاً في حديثها عن الإله . ولكن رغم كل هذه الاعتراضات ، استمر إقحام قصائد البيُّوط على الصلوات حتى صارت جزءاً أساسياً منها .

ويتجه الإصلاحيون ، بل والأرثوذكس ، إلى إنقاص عدد قصائد البيُّوط ، حتى لا تستغرق الصلاة وقتاً طويلاً ، ولأن أسلوبها صعب غير مفهوم لمعظم أعضاء الأبرشية . وقصائد البيوط تعبير عن عدم تَحدُّد النسق الديني اليهودي ، وعن تركيبته الجيولوجية التراكمية التي تسمح له بضم أية عناصر أو عقائد مع عدم استيعابها ، أو استبعاد أي عنصر مع عدم تأثر البناء ككل .

قراءة التوراة

Reading of the Law

«قراءة التوراة» ترجمة للعبارة العبرية « قريئت هتوراه» ، وهي قراءة أسفار موسى الخمسة على المصلين في المعبد اليهودي . ويبدو

أن شعيرة قراءة التوراة هي صدى للعادة المتبعة في الشرق الأدنى القديم حين كانت المعاهدات المبرمة بين الدول المنتصرة والتابعة تنص على أن تُقرأ بنود المعاهدة في مكان عام على الملك والشعب مرة كل سبعة أعوام ، وأن توضع في المعبد بالقرب من الإله . فكان التوراة هي العقد أو المعاهدة بين الإله باعتباره الملك المنتصر وجماعة يسرائيل باعتبارها الطرف الثاني في المعاهدة ، وهي توضع في تابوت الشريعة باعتبارها نص المعاهدة .

وتُقرأ التوراة قبل الصلاة في يوم السبت ، وفي الأعياد ، وفي عيد القمر الجديد في المعبد اليهودي ، وفي أيام الصوم . كما تُقرأ التوراة أيضاً يومي الاثنين والخميس . وتُستخدَم في القراءة لفائف الشريعة . ويُنادَى على المصلي (الذكر) الذي سيقوم بالتلاوة (عليّاه لتوراه) ، فيتلو دعاءً قبل قراءة التوراة ودعاءً بعد القراءة . ويُنادَى يوم السبت على سبعة أشخاص للقراءة ، وعلى ستة في يوم الغفران ، وعلى خمسة في الأعياد ، مثل : عيد الفصح أو عيد الأسابيع أو عيد المظال أو عيد رأس السنة ، وعلى أربعة في عيد القمر الجديد ، وعلى ثلاثة (وهو أصغر عدد ممكن) في الأيام والمناسبات الأخرى مثل أيام الصوم . ولابد أن تضم مجموعة القراء كاهناً ، ولاوياً ، ويسرائيلياً (أي نفراً من جماعة يسرائيل أي يهودياً) . وأهم القراءات هي التي تتم يوم السبت ، حيث تُقرأ أسفار موسى الخمسة ، جزءاً جزءاً ، وسفراً سفراً ، ويتم الانتهاء منها في دورة كاملة .

وكانت هناك دورتان لقراءة أسفار موسى الخمسة : إحداهما بابلية ، تُختَم القراءة فيها في عام ، والأخرى فلسطينية تستغرق القراءة فيها ثلاث سنوات ، وقد سادت الصيغة البابلية . وتُقسَّم الأسفار إلى أربعة وخمسين جزءاً (باراشيوت) ، وتُختَم الصلاة في يوم «بهجة التوراة» (سمحت توراه) أو عيد الثامن الختامي (شميني عصيريت) ، وتبدأ الدورة الجديدة في اليوم نفسه . ويضطر أحياناً إلى قراءة جزءين في يوم السبت حتى يمكن إكمال الدورة في عام واحد .

وكانت لفائف الشريعة تؤخذ من تابوت الشريعة ، ثم تُعاد إليه بطريقة احتفالية . وإذا كان بين المصلين الذكور شخص يحمل اسم «كوهين» ، يُنادَى عليه أولاً ، ثم يليه لاوي ، وأخيراً الحاخام . ويقرأ اليهودي الذي وصل سن التكليف الديني (بَرْمتسفاه) من التوراة . وكانت لفائف الشريعة توضع مرة أخرى في تابوت الشريعة . ومن ناحية أخرى ، فإن دعوة أحد المصلين لأن يقرأ من التوراة كانت تُعَدُّ ميزة وشرفاً كبيراً . ولذا ، كان كثير من المصلين يحاولون الاستئثار بهذا الفضل بإعطاء الهدايا للجماعة . ولذا ، فقد كان يتم بيع هذه المزايا بالمزاد العام لتمويل المعبد . ولكن هذه العادة بدأت في الاختفاء بالتدريج ، وخصوصاً في المعابد الإصلاحية والمحافظة ، وإن كان يبدو أنها لا تزال قائمة في الأوساط الأرثوذكسية .

وتكتفي المعابد اليهودية الإصلاحية بقراءة مقطوعات مختارة ، كما أن بعضها قد أوقف هذه العادة تماماً . وقد تبنت بعض المعابد المحافظة الدورة الفلسطينية ، بحيث تُختَم القراءة مرة كل ثلاثة أعوام .

ومن المطالب الأساسية لحركات التمركز حول الأنثى بين يهود أمريكا المطالبة بحق قراءة المرأة التوراة في الصلاة وأمام حائط المبكى . وبالفعل ، تسمح المعابد اليهودية الإصلاحية والمحافظة بذلك ، على خلاف الأرثوذكس الذين يتمسكون بتعاليم دينهم . وتقوم كل عام مظاهرة أمام حائط المبكى حيث تحاول النساء الأمريكيات تلاوة التوراة وهن يرتدين شال الصلاة (طاليت) .

كل النذور (دعاء)

Kol Nidre

«كل النذور» ترجمة عربية للعبارة الآرامية «كول نيدري» . وهو دعاء يهودي باللغة الآرامية تُفتتَح به صلاة العشاء في يوم الغفران . وهي أولى الصلوات ، ويبدأ ترتيله قبل الغروب ، ويستمر إلى أن تغرُب الشمس . ويرتدي المصلون شال الصلاة (طاليت) الذي لا يتم ارتداؤه عادةً إلا في صلاة الصباح في الأيام العادية . وقد بدأت ممارسة هذه العادة منذ القرن الثامن ، لكن مصدرها وأصلها غير معروفين . وقد عارضه بعض فقهاء العراق من اليهود في القرن التاسع ، وأكدوا أنها عادة لا تُمارَس في بلادهم . ومع ذلك ، فقد أصبح دعاء كل النذور الدعاء المفضل لدى اليهود ، واكتسب قدسية خاصة ، وهو عبارة عن إعلان إلغاء جميع النذور والعهود التي قطعها اليهود على أنفسهم ، ولم يتمكنوا من الوفاء بها طوال السنة . وقد غيَّرها أحد الحاخامات ليجعلها تشير إلى العام المقبل ، وهي الصيغة الشائعة بين الإشكناز . وتُتلى هذه الصلاة ثلاث مرات ، حتى تتأكد دلالتها ، وحتى يسمعها الجميع ، وهكذا يتخلصون من عبء الشعور بالذنب ، فيبدأون الاحتفال بأقدس يوم عندهم مرتاحي الضمير تماماً . ومنطوق الدعاء هو : «نعبِّر عن ندمنا عن كل النذور والتحريمات والأيمان واللعنات التي نذرناها وأقسمنا بها ووعدنا بها والتي حلت ولم نف بها من يوم الغفران هذا حتى

الذي يليه ، والذي ننتظر مقدمه السعيد ، فلتكن كلها منسية ، ونكون في حلٍّ منها ، معفين منها ، ملغاة ولا أثر لها ، ولن تكون مُلزِمة لنا ولا سلطة لها علينا . والنذور لن تُعَدَّ نذوراً ، والتحريمات لن تُعَدَّ تحريمات ، ولن تُعدَّ الأيمان أيماناً » .

وقد تعرَّض اليهود للهجوم الشديد بسبب هذا الدعاء ، فقيل إن أي وعد ، أو أي قَسَم صادر عن يهودي ، لا قيمة له ولا يمكن الوثوق به ، وقيل أيضاً إن هذا الدعاء كان سلاح اليهود المتخفين الذين تظاهروا بالإسلام أو المسيحية ، مثل الدونمه أو المارانو ، وظلوا يهوداً في الخفاء . فكان دعاء «كل النذور» وسيلتهم في التحلل من كل العهود التي قطعوها على أنفسهم . وقد حاول الحاخامات جاهدين شرح المقصود بهذا الدعاء ، فهو ، حسب تفسير بعضهم ، لا يُحل اليهودي من وعوده وتعهداته أمام الآخرين (فهذه لا تحلّل منها إلا باتفاق الطرفين) وإنما هو يحله من وعوده للإله . وحينما كانت تتم مناقشة مسألة منح اليهود حقوقهم في روسيا وإعتاقهم ، طُلب إلى اليهود إعداد مقدمة للدعاء بالعبرية يأتي فيها أن الوعود التي يُحَلّ منها هي الوعود التي قطعها اليهودي على نفسه تجاه نفسه وليس العهود التي قطعها على نفسه تجاه الآخرين . وقد أثر دعاء كل النذور في القَسَم اليهودي وصياغته في العصور الوسطى . وقد حذفت اليهودية الإصلاحية هذا الدعاء واستبقت اللحن وحده بعض الوقت ، ولكنها أعادته في الآونة الأخيرة .

وفي انتخابات الكنيست عام ١٩٨٨ ، قام بعض « حكماء » حزب شاس (الليتواني سليل المتنجديم) بتلاوة دعاء كل النذور على شاشة التليفزيون ليُحلُّوا الناخبين الذين وعدوا بإدلاء أصواتهم لحزب أجودات إسرائيل (ذي الأصول الحسيدية) من وعودهم حتى يمكنهم الإدلاء بها لمرشحي حزب شاس !

وتقوم بعض الكيبوتسات العلمانية بإنشاد بعض القصائد والأغاني في عيد يوم الغفران ، وقد يكون من بينها الموسيقى المصاحبة لدعاء كل النذور .

القاديش (تسابيح)

Kaddish

«قاديش» كلمة آرامية تعني «مقدَّس» ، و«القاديش» نوع من أشهر التسابيح الدينية اليهودية المكتوبة بالآرامية . وأصله قديم ، فقد عُرف منذ عهد الهيكل الثاني ، إذ كان يُتلى قبل وبعد الصلاة أو قبل وبعد قراءة التوراة ، إلا أنه لم يكتسب صيغته الحالية إلا في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين . وتسبيح القاديش كلمات تمجيد لاسم الإله وملكه والخضوع لحكمه ومشيئته والتعبير عن الأمل في سرعة مجيء الماشيَّح . وقد تطوَّر القاديش وأُدخلت عليه عدة إضافات ، وهو يشكل الجزء الختامي في الصلاة اليهودية (الشماع ، الأدعية ، القاديش) . وقد تعدَّدت الأدعية التي تُسمَّى «القاديش» ، وأصبح هناك أربعة أنواع أساسية :

١ ـ القاديش القصير (أو نصف القاديش) ويُتلى قبل أو بعد أجزاء معيَّنة من الصلاة .

٢ ـ القاديش الكامل وهو الجزء الختامي في الصلاة اليهودية .

٣ ـ القاديش الحاخامي ويُتلى بعد الانتهاء من الدرس .

٤ ـ قاديش الحداد ويتلوه أقارب الميت ، وقد أصبح أهم الأنواع بعد قاديش الصلاة .

وحينما يُتلى القاديش كصلاة حداد على أرواح الموتى ، فإن ابن الميت هو الذي يقوم بالتلاوة (وإذا لم يكن هناك ابن ، فذكر رشيد من الأسرة ، أو أي يهودي متطوِّع) . ويستمر ترتيل القاديش طيلة أحد عشر شهراً ويوم واحد من تاريخ الوفاة . والسبب في طول هذه المدة هو اعتقاد اليهود بأن عقاب الآثمين في جهنم يدوم عاماً كاملاً ، ولهذا فيجب أن تتوقف تلاوة القاديش قبل تمام السنة حتى لا يبدو أن الفقيد كان من المذنبين ، كما أن القاديش يُتلى أيضاً في الذكرى السنوية . وبانتشار القبَّالاه ، أصبح قاديش الحداد نوعاً من أنواع الشفاعة والصيغة السحرية التي يمكنها التأثير في الإرادة الإلهية . وهناك أسطورة يهودية مفادها أن الحاخام عقيبا قد نال المغفرة لرجل حيث علَّم ابنه كيف يتلو قاديش الحداد على روح أبيه .

وفي الوقت الحاضر ، تسمح المعابد الإصلاحية والمحافظة للنساء بقراءة القاديش ، ولعل هذا يرجع إلى تأثير المحيط المسيحي (حيث تقوم النساء بإشعال الشموع لإحياء ذكرى الموتى) .

الاستغراق (كفاناه)

Kavanah

«الاستغراق» ترجمة لكلمة «كفاناه» العبرية التي تعني «اتجاه» أو «نيَّة» ، وهي تشير إلى حالة الاستغراق العقلية والروحية الكاملة أثناء الصلاة أو أثناء تنفيذ الأوامر والنواهي التي تأخذ شكل تركيز كامل على ما هو مقدَّس وإهمال كامل لغير المقدَّس . ويركز القبَّاليون ، وخصوصاً أتباع لوريا ، على هذا الجانب من التجربة الدينية . وقد كُتبت دراسات عن كيفية الوصول إلى التركيز أو الاستغراق أو الشطحة الصوفية . ويرى القبَّاليون أن الصلاة التي تُتلى بهذا الاستغراق تؤثر في التجليات النورانية العشرة

(سفيروت). والمفروض أن استغراق اليهودي في الصلاة يؤثر في عملية الإصلاح الكونية التي يُولد الإله من خلالها من جديد أو يجمع ذاته الإلهية التي تبعثرت، فتعود كل الأشياء إلى مكانها، وضمن ذلك عودة جماعة يسرائيل إلى فلسطين. والاستغراق يؤدي إلى حالة الالتصاق الكاملة والتوحد بالإله (ديفيقوت).

كتب الصلوات اليهودية (سدور)

Prayer Books; Siddur

تُسمَّى كتب الصلوات اليومية عند الإشكناز «سدُّور»، من الكلمة العبرية «سدْر» التي تعني «نظام». أما بين السفارد، فتُسمَّى كتب الصلاة «سيفر تفيلاه». وهذه الكتب تضم الصلوات اليهودية المفروضة والاختيارية، كما تضم بعض النصوص الدينية المأخوذة من الكتب اليهودية الدينية، وبعض الأدعية والأغاني (بيوط) التي تُتلى في السبت، وأحياناً كل المزامير، وبعض فصول المشناه التي عادةً ما تُتلى قبل أو بعد الصلاة، وكل المعلومات التي قد يحتاج إليها المصلي أثناء أداء الصلاة في المعبد اليهودي. ويختلف حجم هذه الكتب حسب الغرض الذي أُعدت من أجله، ولكنها جميعاً تحوي الصلوات اليهودية الثلاث الأساسية.

ورغم شيوع كلمة «سدور» بمعنى كتب الصلاة، هناك نوعان:

(١) سدور. وتُشير إلى الكتب التي تضم الصلوات الأصلية.

(٢) محزور. وتضم الصلوات، وكذا الأغاني (بيوط).

وتختلف كتب الصلوات اليهودية باختلاف البيئة، فثمة اختلاف بين الكتب الإشكنازية والكتب السفاردية، وهناك أيضاً اختلاف بين الكتب اليهودية الإصلاحية والكتب المحافظة والكتب الأرثوذكسية. فالإصلاحيون ترجموا كل الصلوات إلى اللغة المحلية، وأبقوا نصوصاً عبرية قليلة. كما استبعدوا كل الصلوات ذات الطابع القومي الديني، مثل الصلوات من أجل العودة إلى فلسطين، والأدعية بسقوط أعداء اليهود، ودعاء كل النذور. وقد بلغ رفض الأرثوذكس لكتب الصلوات الخاصة بالإصلاحيين حد أن أحد الأعضاء المتدينين بصق، أثناء مناقشة مسألة الهوية اليهودية في الكنيست، على نسخة من كتاب صلوات إصلاحي ثم ألقاها على الأرض. أما كتب المحافظين والأرثوذكس، فقد أكدت أفكار الأمة والشعب المختار والعودة، كما أنها استبقت العبرية تأكيداً لاستقلال اليهود الديني الإثني. وتحتوي كتب المحافظين على إشارات إلى عيد استقلال إسرائيل، كما لو كان مناسبة دينية جليلة. أما كتب اليهودية التجديدية، فتحوي إشارات إلى الإبادة النازية، كما تحوي أناشيد شكر على توطين اليهود في الولايات المتحدة. كما أنها حذفت كل الإشارات إلى البعث والثواب والعقاب وكل المفاهيم غير العلمية. أي أنها تعبير عن الحلولية الدنيوية (أي حلولية بدون إله)!

وكتب الصلوات اليهودية عرضة للتغيير الدائم بسبب تداخل العنصر الديني والعنصر الدنيوي حتى أن بعض يهود العالم يقومون بوضع كتب صلوات ثم يطبعونها على الاستعجال على عجل حينما تجد مناسبة قومية دينية يريدون الاحتفال الفوري بها، مثل انتصار عام ١٩٦٧ الفجائي، وذلك حتى لا يضيعوا وقتهم في انتظار المطبعة.

وتتضمن كتب الصلوات في إسرائيل إشارات لإعلان الدولة الصهيونية، ولأولئك الذين سقطوا أثناء الدفاع عن إسرائيل. وقد نظمت حاخامية الجيش الإسرائيلي صلاة خاصة بمظلين كتبها الحاخام جورين. وبعد حرب يونيه ١٩٦٧، عدلت بعض معابد في إسرائيل الصلوات الخاصة بها وتغيَّر الدعاء من «الالتقاء العام القادم في أورشليم» إلى الدعاء بإعادة بنائها. وقد عُدِّلت الصلوات في عيد استقلال إسرائيل. وثمة اتجاه لإعادة تعديلها مرة أخرى لتأكيد الأهمية الدينية لهذه المناسبة، ولتأكيد أن الخلاص يتم على يد جيش إسرائيل لا على يد الإله. وقد كان يظهر في كتب الصلاة في الماضي دعاء يقول: «نحمد الإله على أنه لم يجعلنا مثل أمم الأرض. فهم يسجدون للباطل والعدم ويصلون لإله لا ينفعهم». وقد حذف الجزء الأخير بعد عصر التنوير، ولكنه ظل يُتداوَل شفوياً في شرق أوربا ثم أُضيف من جديد في بعض كتب الصلاة في إسرائيل.

كتب صلوات العيد (مَحزور)

Mahzor

«كتب صلوات العيد» المقابل العربي لكلمة «مَحزور» العبرية وتعني «دورة». وتشير الكلمة إلى كتب الأدعية والصلوات الخاصة بالأعياد. وكانت كتب المَحزور تضم في البداية كل صلوات العام بأكمله، ومنها الصلوات اليومية وصلاة يوم السبت، ولكنها أصبحت تضم صلوات الأعياد وحسب مقابل السدور (وهي كتب الصلوات لكل أيام السنة). ولكل فرقة يهودية كتابها الخاص بها: فهناك كتاب صلوات الأعياد للسفارد، وثلاثة للإشكناز، إذ هناك واحد للأرثوذكس وآخر للمحافظين وثالث للإصلاحيين. ويبدأ كتاب الأرثوذكس بالأدعية التقليدية، حيث يشكر اليهودي الإله لأنه لم يخلقه من الأغيار ولا عبداً ولا امرأة (أما النساء فيشكرنه لأنه خلقهن حسب مشيئته) ويُختَم الدعاء بالابتهال لإعادة بناء الهيكل، وبأن تُقدِّم فيه جماعة يسرائيل القرابين مرة أخرى. ويضم الكتاب

أيضاً إشارات إلى الثواب والعقاب والبعث والحياة بعد الموت ، واختيار جماعة يسرائيل ، وشريعة الإله التي لا تتغيَّر ، وإلى المعجزات الإلهية . كما يتحدث كتاب المحزور الأرثوذكسي عن نفي جماعة يسرائيل باعتبار أن ذلك عقاب لها على خطاياها . وقد وجَّه أعضاء الفرق الأخرى النقد للكتاب بسبب غيبيته ، وبسبب المفاهيم التي يعتبرها أعضاء الفرق الأخرى منافية لروح العصر الحديث . كما أنهم يرون فيه تجاهلاً لأحداث تاريخية مهمة مثل الإبادة النازية وتأسيس الدولة ، وهو نقد مقبول من وجهة نظر حلولية دنيوية ، على اعتبار أن الأحداث التاريخية التي تقع لليهود تكتسب قدراً من القداسة . وقد أسقطت كتب المحزور الخاصة بالفرق الأخرى الأدعية الافتتاحية الخاصة بالأغيار والعبيد والنساء . وبدلاً من ذلك، يحمد اليهودي الإله لأنه خلقه يهودياً حراً . وقد أسقطت الكتب إشارات للماشيَّح ، ولكنها بدلاً من ذلك تستخدم كلمة «الخلاص» . وتحت تأثير حركة التمركز حول الأنثى ، ظهرت أدعية تتحدث عن الإله باعتباره ذكراً وأنثى (ومن ثم تستخدم كلمة «الشخيناه» أي التعبير الأنثوي عن الإله للإشارة إليه) . ويتحدث كتاب المحزور الإصلاحي عن رب الآباء إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ورب الأمهات سارة ورفقة وراحيل وليئه . كذلك تُسقط الكتب الإصلاحية أية إشارة للبعث واليوم الآخر والشريعة التي لا تتغيَّر . وتشير بعض كتب المحزور إلى إنشاء إسرائيل باعتباره حدثاً مقدَّساً، وكذا إلى هجرة اليهود السوفييت . وهناك كتب مَحْزور علمانية (أي حلولية دنيوية بدون إله) تحتفل بدورة الأعياد باعتبارها دورة كونية ، وأخرى تنظر إلى حادثة الخروج من مصر باعتبارها حدثاً قومياً وحسب ، وهكذا . وتتضمن كتب المحزور المحافظة قراءات بديلة بحيث يختار المصلي الصلاة التي تروق له .

الوضوء

Ablution

تنص الشريعة اليهودية على ضرورة الاغتسال أو الوضوء للتطهر قبل تأدية فرائض دينية معينة ، وبعد أي شيء يسبِّب النجاسة . وهناك ثلاثة أشكال للوضوء :

١ - الحمام الطقوسي (مقفيه) للمتهودين وللسيدات بعد الدورة الشهرية .

٢ - غسل القدمين واليدين (للكهنة قبل أداء الفرائض في الهيكل) .

٣ - غسل اليدين .

وتنص الشريعة على ضرورة أن يغسل اليهودي يديه قبل الأكل أو الصلاة ، وبعد الاستيقاظ من النوم ، وبعد زيارة المدافن أو دخول دورة المياه .

النصاب الشرعي (منيان)

Minyan

«النصاب الشرعي» ترجمة لكلمة «منيان» العبرية التي تعني حرفياً «عدد» . وتُطلَق الكلمة على أية مجموعة لا تقل عن عشرة ذكور بالغين ، فهذا العدد يكوِّن النصاب الشرعي المطلوب للقيام بصلاة الجماعة اليهودية ، ويُعتبَر أفراده ممثلين لجماعة يسرائيل . ويكون العدد نفسه مطلوباً أيضاً للقيام بعملية الختان أو لإقامة شعائر دينية أخرى . وتحت ضغط حركة التمركز حول الأنثى تسمح اليهودية المحافظة أو الإصلاحية الآن بأن يكون للنساء جزء من النصاب الشرعي المطلوب .

شال الصلاة (طاليت)

Tallit

«شال الصلاة» ترجمة لكلمة «طاليت» العبرية التي قد تكون مستعارة من كلمة يونانية بمعنى «سرق» . وتُستخدَم الكلمة في التلمود والمدراش بمعنى «ملاءة» أو أي رداء يشبه الملاءة . وشال الطاليت مستطيل الشكل ، عادةً تكون نسبة طوله إلى عرضه ٩ : ٨ تقريباً . والضلعان الأصغران للشال محلَّيان بالأهداب (تسيت تسيت) . وعادة ما يختار المصلون شالاً يصل إلى تحت الركبة . وكانت الأهداب زرقاء في العادة ، ولكن خلافاً نشأ بين الحاخامات بشأن اللون الأزرق ودرجة الزرقة ، فتقرَّر أن يكون اللون أبيض . ومع هذا ، هناك دائماً خطوط زرقاء أو سوداء في أطراف الشال (والأبيض والأزرق هما لونا عَلَم الدولة الصهيونية) . ويكون هذا الشال عادةً من الصوف أو الكتان ، ولكن الحرير كثيراً ما يُستخدَم ، وخصوصاً بين الأثرياء ، في الماضي وفي العصر الحديث . كما كان شال الكهنة يُوشَّى في الماضي بخيوط من الذهب ، ولكن هذا الأمر أصبح الآن مقصوراً على أثرياء اليهود . وكذلك هناك أنواع من شيلان الصلاة السوداء في اليمن ، والملونة في المغرب . وكان اليهود يرتدون الشال طيلة اليوم قبل التهجير البابلي ، ليقيهم شر الحر . ولكن ، بعد التهجير البابلي ، وبعد انتشار اليهود في أنحاء العالم، تأثر اليهود بالمحيط الحضاري الذي يعيشون فيه ، وأصبح الشال رداءً دينياً وحسب . ويرتدي الذكور الشال أثناء صلاة الصبح ، وفي كل الصلوات الإضافية ، إلا في التاسع من آب حيث يرتدونه أثناء صلاة

الظهيرة أيضاً . كما يرتدونه في كل صلوات عيد يوم الغفران ، وخصوصاً في دعاء كل النذور ، ليذكّرهم ذلك بأوامر ونواهي العهد القديم . ويباح للصبية ارتداؤه بشروط معيَّنة .

وقبل أن يرتدي اليهودي الطاليت ، يتلو الدعاء التالي : " مبارك أنت يا إلهنا ، ملك الدنيا ، يا من قدستنا بوصاياك العشر ، وأمرتنا أن نلف أنفسنا بالرداء ذي الأهداب " . ويوضع الطاليت ، أولاً على الرأس ، ثم توضع أطرافه الأربعة على الكتف الأيسر على طريقة الإسماعيليين (بالعبرية : عطيفات يشماعيليم) ، والإسماعيليون هم العرب . وبعد وقفة قصيرة يدعون الأطراف الأربعة تأخذ وضعها الطبيعي ، فيتدلى طرفان من كل جانب . وعلى المصلي أن يرتدي شال الصلاة قبل أن يضع تمائم الصلاة (تفيلين) . وكان من عادة اليهود المغالين في تدينهم أن يرتدوا الشال والتمائم قبل الذهاب إلى المعبد ويسيروا بها في الطريق .

وأثناء الصلاة تُتلى النصوص الخاصة بالأهداب، فيضع المصلون (من الأرثوذكس والمحافظين) الأهداب على عيونهم وأفواههم ويضغطون عليها . والأهداب، مثلها مثل تميمة الباب (مزوزاه)، وتمائم الصلاة (تفيلين)، تُذكِّر اليهود بالأوامر والنواهي .

ويرتدي العريس الشال في حفل زفافه ، كما يكفَّن به أيضاً عند مماته بعد نزع الأهداب منه . والملاحَظ أن عادة ارتداء الشال تختلف من مجتمع إلى آخر . وهناك نوع أصغر من الطاليت يُسمَّى «طاليت قاطان» أو الشال الصغير (مقابل الطاليت جادول ومعناها «الشال الكبير») يرتديه اليهود الأرثوذكس بصفة دائمة تحت ملابسهم . أما الإصلاحيون ، فقد استغنوا عن شال الصلاة كلية ، ولا يرتديه سوى الحاخام أو المرتل (حزَّان) أو المصلين الذين يُدعَون لقراءة التوراة . وتحت تأثير حركة التمركز حول الأنثى تصرح كل الفرق اليهودية للنساء (الآن) بارتداء شال الصلاة ، باستثناء بعض الجماعات الأرثوذكسية ، وليس كلها . كما بدأت نصيرات حركات التمركز حول الأنثى يستخدمن شيلاناً للصلاة ذات طابع أنثوي (لونها وردي ومزخرفة بالدانتيلا والشرائط) .

الأهداب (تسيت تسيت)

Tiztzith

«الأهداب» هي الترجمة العربية لكلمة «تسيت تسيت» العبرية والتي يُشار إليها أيضاً بالتعبير العبري «أربع كنافوت» ، أي «الأركان الأربعة» . وتعود عادة ارتداء ملابس ذات أهداب (بين العبرانيين) إلى عصور سحيقة ، إذ تصورهم بعض الآثار الأشورية مرتدين مثل هذه الأهداب . ويبدو أن العادة نفسها كانت أشورية وبابلية ، وكانت الأهداب تُعرف باسم «سيسكتو» ، وأحياناً «زيكو» . ومن المفروض أنها كانت تضمن لمرتديها حماية الإله . وأي دعاء يتلوه المرء وهو ممسك بهذه الأهداب لا يمكن أن يخيب أو يُرَدّ ، فكأن الأهداب نوع من أنواع التمائم .

وقد ورد في العهد القديم (عدد ١٥/ ٣٧ ـ ٤١) أن الإله طلب إلى أعضاء جماعة يسرائيل أن " يصنعوا لهم أهداباً (تسيت تسيت) في أذيال ثيابهم " و " يجعلوا على هدب الذيل عصابة من أسمانجوني " ، أي اللون الأزرق ، لتذكرهم بوصاياه . وقد وردت التوصية أيضاً في سفر التثنية (٢٢/ ١٢) ، وإن كانت الإشارة الخرفية إلى الجدائل وليس الأهداب .

ولا يوجد في العهد القديم أي تفسير للون الأزرق ، وإن كان التلمود يرى أنه لون السماء . وقد كان من الصعب الحصول على الصبغة المطلوبة ، كما نشأت معركة بين الحاخامات حول درجة الزرقة المطلوبة . ولما لم تُحسَم المسألة ، تُركت الأهداب بيضاء . وعند القرن الثاني الميلادي ، أصبح هذا رأي معظم الحاخامات ، ومع القرن الثامن تَقبَّله كل اليهود .

وقد كان العبرانيون يرتدون الأهداب على كل ملابسهم ، ولكن بعد أن تبنوا أزياء اليونانيين والرومان أصبح من المعتاد أن تقتصر الأهداب على قطعة من القماش مستطيلة (مثل الشال) أهدابها زرقاء . ويُسمَّى هنا أيضاً «طاليت جادول» ، أي «الشال الكبير» ، مقابل «طاليت قاطان» ، أي «الشال الصغير» . وهو قطعة قماش صغيرة مستطيلة بها فتحة للرأس محلاة بالأهداب في أركانها الأربعة . ومن هنا الإشارة لهذا الشال أحياناً بكلمة «تسيت تسيت» ، وأحياناً أخرى بكلمة «أربع كنافوت» .

تميمة الصلاة (تفيلين)

Tefilin, Phylacteries

«تميمة الصلاة» هي المقابل العربي لكلمة «تفيلين» ، وهي صيغة جمع مفردها «تفيلاه» . وربما تكون الكلمة قد اشتُقت من كلمة آرامية بمعنى «يربط» . ولأن كلمة «تفيلاه» تعني «صلاة» ، فقد ارتبطت الكلمتان في الوجدان الشعبي وأصبح من المألوف أن يُقال إن كلمة «تفيلاه» بمعنى «صلاة» هي الأصل اللغوي لكلمة «تفيلين» . وقد ذكر البعض أن الكلمة مشتقة من كلمة عبرية بمعنى «يفصل» أو «يميز» ، وهو ما يدل على انفصال اليهود وانعزالهم عن الأغيار . وتميمة الصلاة عبارة عن صندوقين صغيرين من الجلد

يحتويان على فقرات من التوراة ، من بينها الشماع أو شهادة التوحيد عند اليهود كُتبت على رقائق ويُثبَّت الصندوقان بسيور من الجلد . ويُعزى أن هذه التميمة تعود إلى تواريخ قديمة ، بعضها يتفق مع الشكل الحالي ، وبعضها لا يتفق ، مثل تلك التي وُجدت في كهوف قمران . وقد نشب صراع في القرن الثامن عشر بين فقهاء اليهود حول طريقة ارتداء هذه التمائم ، وأُخذ برأي راشي في نهاية الأمر .

وقد نجح الفقه اليهودي في فرض هذه التميمة بتفسيره الفقرة الثانية من سفر التثنية تفسيراً حرفياً "واربطها علامة على يدك ، ولتكن عصائب بين عينيك" (تثنية ٦/٨) . ولذا ، يثبتها اليهودي البالغ حسب الترتيب التالي : يضع الصندوق الأول على ذراعه اليسرى ويشده بسير من جلد يُلَف على الذراع ثم على الساعد سبع لفات ثم على اليد ، ويُثبَّت الصندوق الثاني بين العينين على الجبهة بسير أيضاً كعصابة حول الرأس ، ثم يعود ويتم لف السير الأول ثلاث لفات على إصبع اليد اليسرى ، ويُزال بعد الصلاة بالنظام الذي وُضع به . ويرتدي اليهودي تمائم الصلاة بعد ارتدائه شال الصلاة (طاليت) . ويُلاحظ أن ترتيب ارتداء تميمة الصلاة عند السفارد مختلف نوعاً ما عن ترتيبه عند الإشكناز . فيلف الإشكناز على الذراع عكس اتجاه الساعة ، أما السفارد فيلفونه باتجاه الساعة ، وقد تبعهم في ذلك الحسيديون . وتُرتدى التميمة أثناء صلاة الصباح خلال أيام الأسبوع ، ولا تُرتدى في أيام السبت والأعياد . ويؤكد التلمود أهمية تميمة الصلاة ، فقد جاء أن الإله نفسه يرتديها حينما يسمع الفقرة الثانية من سفر أخبار الأيام الأول (١٧/ ٢١) "وأية أمة على الأرض مثل شعبك يسرائيل" .

أما القبالاه ، فقد حولت شعائر ارتداء التمائم إلى تجربة صوفية حلولية ، إذ على اليهودي أن يقول "لقد أمرنا أن نرتدي التمائم على ذراعنا تذكرة لنا بذراعه الممتدة ، وفي مقابل القلب حتى يعلمنا أن نخضع تطلعات قلوبنا وخدمته ، وعلى الرأس في مقابل المخ ليعلمنا أن العقل ، الذي يوجد في المخ ، وكل الحواس والملكات ، تخضع لخدمته" . ويرى اليهودي أن تميمة الصلاة عاصم من الخطأ ، وتحصّن ضد الخطايا . وإذا حدث ووقعت التمائم على الأرض ، فينبغي على اليهودي أن يصوم يوماً كاملاً . وقد أسقطت اليهودية الإصلاحية استخدام التمائم . ويقال جايجر إنها كانت في الأصل حجاباً وثنياً .

طاقية الصلاة (يرملكا)

Yarmulke

كلمة «طاقية» العربية يقابلها في العبرية «قُبَّه» ، ويُقال لها في اليديشية «يرمُلكا» ، وهي القلنسوة التي يلبسها اليهودي على رأسه لأداء الصلاة في المعبد ويلبسها المتدينون من اليهود الأرثوذكس على الدوام ، وهي تشبه شال الصلاة (طاليت) الذي يرتديه البعض أثناء الصلاة ويرتديه الأرثوذكس في حياتهم اليومية كلها . ولا توجد أية إشارة في التوراة أو التلمود إلى ضرورة تغطية الرأس أثناء الصلاة ، ولكن الشولحان عاروخ يجعل ذلك فرضاً . ويبدو أن هذه العادة ذات أصل بولندي ، فاليرمُلكا كان غطاء الرأس الخاص بالأرستقراطية البولندية . ولا يلبس اليهود الإصلاحيون الطاقية أثناء الصلاة ، بينما يُصر اليهود الأرثوذكس على ذلك . أما اليهود المحافظون فيلبسونها من قبيل الاهتمام بالفلكلور . وقد أثيرت مؤخراً في الولايات المتحدة مشكلة الطاقية ، حيث أصر أحد الضباط اليهود على ارتدائها أثناء عمله رافضاً طلب رئيسه بخلعها ولبس الزي العسكري ، بل قام برفع دعوى أمام المحكمة الدستورية العليا (ولكنها حكمت ضده) .

البوق (شوفار)

Shofar

كلمة «بوق» تقابلها في العبرية لفظة «شوفار» ، والبوق يكون مصنوعاً من قرن كبش ، ويُقال إن أول بوق صُنع من قرن الكبش الذي ضحَّى به إبراهيم افتداءً لابنه . ويبلغ طول البوق ما بين عشر بوصات واثنتي عشرة بوصة . وقد استخدم العبرانيون البوق في المناسبات الدينية مثل إعلان السنة السبتية ، وسنة اليوبيل ، وتكريس الملك الجديد عن طريق مسحه بالزيت ، كما يُنفَخ في البوق في عيد رأس السنة ، وفي يوم الغفران بعد صلاة الختام (نعيلاه) . ويُتلى في رأس السنة مزمور (٤٧) : "ياجميع الأمم صفقوا بالأيادي لأن الرب عليّ مخوف ملك كبير على كل الأرض . يخضع الشعوب تحتنا والأمم تحت أقدامنا" . ويُتلى المزمور سبع مرات رمزاً لعدد المرات التي طافها أعضاء جماعة يسرائيل حول أريحا قبل أن ينفخوا في البوق ، فسقطت أسوارها . ولكن لا يصح النفخ فيه إذا وقعت رأس السنة يوم سبت . ويرى بعض اليهود المتدينين أن النفخ في البوق يربك الشيطان .

وقد أُعيد بعث هذا التقليد الديني في إسرائيل ، فيُنفَخ في

البوق حين يؤدي رئيس الدولة اليمين ، وللإعلان عن عيد رأس السنة اليهودية . ولا يزال يُستخدَم هذا في المعابد اليهودية ، وفي بعض الأحياء اليهودية الأرثوذكسية ، للإعلان عن مقدم يوم السبت. وحينما احتُلت القدس عام ١٩٦٧ ، ذهب الحاخام الجنرال جورين ، ونفخ في بوقه أمام حائط المبكى ، وهو نفسه البوق الذي نُفخ فيه فوق جبل سيناء حينما احتلت إسرائيل شبه الجزيرة المصرية (سيناء) عدة شهور عام ١٩٥٦ . ويُكتب على البوق في العصر الحديث عبارة «السنة القادمة في القدس» .



١٥
الأغيار والطهارة

الأغيار (جوييم) - جوييم - الشيكسا (امرأة من الأغيار) - شريعة نوح - الخلط المحظور بين النباتات والحيوانات (كيلئيم) - الطهارة والنجاسة - البقرة الصغيرة الحمراء - الحمام الطقوسي (مكفيه)

الأغيـــار (جوييم)

Gentiles; Goyyim

«الأغيار» هي المقابل العربي للكلمة العبرية «جوييم»، وهذه هي صيغة الجمع للكلمة العبرية «جوي» التي تعني «شعب» أو «قوم» (وقد انتقلت إلى العربية بمعنى «غوغاء» و«دهماء»). وقد كانت الكلمة تنطبق في بادئ الأمر على اليهود وغير اليهود ولكنها بعد ذلك استُخدمت للإشارة إلى الأمم غير اليهودية دون سواها. ومن هنا كان المُصطلح العربي «الأغيار». وقد اكتسبت الكلمة إيحاءات بالذم والقدح، وأصبح معناها «الغريب» أو «الآخر». والأغيار درجات أدناها العكوم، أي عبدة الأوثان والأصنام (بالعبرية: عوبدي كوخافيم أو مزالوت أي «عبدة الكواكب والأفلاك السائرة»)، وأعلاها أولئك الذين تركوا عبادة الأوثان، أي المسيحيون والمسلمون. وهناك أيضاً مستوى وسيط من الأغيار «جيريم» أي «المجاورين» أو «الساكنين في الجوار» (مثل السامريين).

ولا يوجد موقف موحَّد من الأغيار في الشريعة اليهودية. فهي بوصفها تركيباً جيولوجياً تراكمياً، تنطوي على نزعة توحيدية عالمية وأخرى حلولية قومية. وتنص الشريعة اليهودية على أن الأتقياء من كل الأمم سيكون لهم نصيب في العالم الآخر، كما أن هناك في الكتابات الدينية اليهودية إشارات عديدة إلى حقوق الأجنبي وضرورة إكرامه. وتشكل فكرة شريعة نوح إطاراً أخلاقياً مشتركاً لليهود وغير اليهود. ولكن، إلى جانب ذلك، هناك أيضاً النزعة الحلولية المتطرفة، التي تتبدى في التمييز الحادّ والقاطع بين اليهود كشعب مختار أو كشعب مقدَّس يحل فيه الإله من جهة والشعوب الأخرى التي تقع خارج دائرة القداسة من جهة أخرى. فقد جاء في سفر أشعياء (٦١/ ٥-٦): "ويقف الأجانب ويرعون غنمكم ويكون بنو الغريب حراثيكم وكراميكم. أما أنتم فتُدعون كهنة الرب تُسمَّون خدام إلهنا. تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدهم تتأمّرون". كما جاء في سفر ميخا (٤/ ١٢): "قومي ودوسي يا بنت صهيون لأني أجعل قرنك حديداً وأظلافك أجعلها نحاساً فتسحقين شعوباً كثيرين".

وقد ساهم حاخامات اليهود في تعميق هذا الاتجاه الانعزالي من خلال الشريعة الشفوية التي تعبِّر عن تزايد هيمنة الطبقة الحلولية داخل اليهودية، فنجدهم قد أعادوا تفسير حظر الزواج من أبناء الأمم الكنعانية السبع الوثنية (تثنية ٧/ ٢-٤)، ووسعوا نطاقه بحيث أصبح ينطبق على جميع الأغيار دون تمييز بين درجات عليا ودنيا. وقد ظل الحظر يمتد ويتسع حتى أصبح يتضمن مجرد تناول الطعام (حتى ولو كان شرعياً) مع الأغيار، بل أصبح ينطبق أيضاً على طعام قام جوي (غريب) بطهوه، حتى وإن طبَّق قوانين الطعام اليهودية. كما أن الزواج المُختلَط، أي الزواج من الأغيار، غير مُعترَف به في الشريعة اليهودية، ويُنظَر إلى الأغيار على اعتبار أنهم كاذبون في بطبيعتهم، ولذا لا يؤخذ بشهاداتهم في المحاكم الشرعية اليهودية؛ ولا يصح الاحتفال معهم بأعيادهم إلا إذا أدَّى الامتناع عن ذلك إلى إلحاق الأذى باليهود. وقد تم تضييق النطاق الدلالي لبعض كلمات، مثل «أخيك» و«رجل»، التي تشير إلى البشر ككل بحيث أصبحت تشير إلى اليهود وحسب وتستبعد الآخرين، فإن كان هناك نهي عن سرقة «أخيك» فإن معنى ذلك يكون في الواقع «أخيك اليهودي».

وقد تحوَّل هذا الرفض إلى عدوانية واضحة في التلمود الذي يدعو دعوة صريحة (في بعض أجزائه المتناقضة) إلى قتل الغريب، حتى ولو كان من أحسن الناس خلقاً. وقد سببت هذه العدوانية اللاعقلية كثيراً من الحرج لليهود أنفسهم الأمر الذي دعاهم إلى إصدار طبعات من التلمود بعد إحلال كلمة «مصري» أو «صدوقي» أو «سامري» محل كلمة «مسيحي» أو «غريب». وأصبح التمييز ذا طابع أنطولوجي في التراث القبَّالي، وخصوصاً القبَّالاه اللوريانية بنزعتها الحلولية المتطرفة، حيث ينظر إلى اليهود باعتبار أن أرواحهم مستمدة من الكيان المقدَّس، في حين صدرت أرواح الأغيار من المحارات الشيطانية والجانب الآخر (الشرير) والخيرون من الأغيار هم أجساد أغيار لها أرواح يهودية ضلت سبيلها. وقد صاحب كل

هذا تزايد مطّرد في عدد الشعائر التي على اليهودي أن يقوم بها ليقوي صلابة دائرة الحلول والقداسة التي يعيش داخلها ويخلق هوة بينه وبين الآخرين الذين يعيشون خارجها .

والواقع أن هذا التقسيم الحلولي لليهود إلى يهود يقفون داخل دائرة القداسة ، وأغيار يقفون خارجها ، ينطوي على تبسيط شديد ، فهو يضع اليهودي فوق التاريخ وخارج الزمان ، وهذا ما يجعل من اليسير عليه أن يرى كل شيء على أنه مؤامرة موجهة ضده أو على أنه موظف لخدمته . كما أنه يحوِّل الأغيار إلى فكرة أكثر تجريداً من فكرة اليهودي في الأدبيات النازية أو فكرة الزنجي في الأدبيات العنصرية البيضاء . وهي أكثر تجريداً لأنها لا تضم أقلية واحدة أو عدة أقليات ، أو حتى عنصراً بشرياً بأكمله ، وإنما تضم الآخرين في كل زمان ومكان . وبذا ، يصبح كل البشر أشراراً مدنَّسين يستحيل الدخول معهم في علاقة ، ويصبح من الضروري إقامة أسوار عالية تفصل بين من هم داخل دائرة القداسة ومن هم خارجها . وقد تعمقت هذه الرؤية نتيجة الوضع الاقتصادي الحضاري لليهود (في المجتمع الإقطاعي الأوربي) كجماعة وظيفية تقف خارج المجتمع في عزلة وتقوم بالأعمال الوضيعة أو المشينة وتتحول إلى مجرد أداة في يد النخبة الحاكمة . ولتعويض النقص الذي تشعر به ، فإنها تنظر نظرة استعلاء إلى مجتمع الأغلبية وتجعلهم مباحاً ، وتسبغ على نفسها القداسة (وهي قداسة تؤدي بطبيعة الحال إلى مزيد من العزلة اللازمة والضرورية لأداء وظيفتها) .

وبظهور الرأسمالية القومية وتزايد معدلات العلمنة في المجتمعات الغربية ، اهتزت هذه الانعزالية بعض الشيء ، وظهرت حركة التنوير اليهودية واليهودية الإصلاحية اللتان كانتا تحاولان تشجيع اليهود على الاندماج مع الشعوب . لكن الرؤية الثنائية المستقطبة عاودت الظهور بكل قوتها مع ظهور الصهيونية بحلوليتها الدنيوية (حلولية بدون إله) التي ترى أن اليهود شعب مختلف عن بقية الشعوب لا يمكنه الاندماج فيها ، كما شجعت الانفصالية باعتبارها وسيلة مشروعة تحافظ بها أقلية عرْقية على نفسها وتقاليدها وتراثها . فتحاول الصهيونية أن تنشئ سياجاً بين يهود الخارج وبين الآخرين (ومن هنا الاهتمام الشديد بتأكيد ظاهرة معاداة اليهود والإبادة النازية لليهود باعتبارها العلاقة النموذجية والحتمية بين اليهودي والأغيار) . كما أن الصهاينة يشجعون اليهود على الاعتمام بهويتهم اليهودية وبإثنيتهم حتى لا يذوبوا في الآخرين . ويشار في الولايات المتحدة إلى الذكر غير اليهودي على أنه «شيكتس» ، وإلى الأنثى غير اليهودية على أنها «الشيكسا» (وهما كلمتان مضمونهما الدلالي يتضمن فكرة الدنس والنجاسة وعدم الطهارة) . ويشار إلى «الشيكسا» على أنها حيوان مخيف يختطف الأولاد اليهود . ويشار إلى الزواج المختلط على أنه «هولوكوست صامت» ، أي «إبادة صامتة» .

وفي الأدبيات الصهيونية العنصرية ، فإن الصهاينة يعتبرون العربي على وجه العموم ، والفلسطيني على وجه الخصوص ، ضمن الأغيار حتى يصبح بلا ملامح أو قسمات (ويشير وعد بلفور إلى سكان فلسطين العرب على أنهم «الجماعات غير اليهودية» أي «الأغيار») . وينطلق المشروع الاستيطاني الصهيوني من هذا التقسيم الحاد ، فالصهيونية تهدف إلى إنشاء اقتصاد يهودي مغلق ، وإلى دولة يهودية لا تضم أي أغيار . ومعظم المؤسسات الصهيونية (الهستدروت ، والحركة التعاونية ، والجامعات) تهدف إلى ترجمة هذا التقسيم الحاد إلى واقع فعلي ، كما أن فكرة العمل العبري تنطلق من هذا التصور .

وبعد ظهور الدولة الصهيونية الوظيفية (أي التي يستند وجودها إلى وظيفة محددة تضطلع بها) ، انطلق هيكلها القانوني من هذا التقسيم . فقانون العودة هو قانون عودة لليهود ، يستبعد الأغيار من الفلسطينيين . ودستور الصندوق القومي اليهودي يُحرِّم تأجير الأرض اليهودية للأغيار . ويمتد الفصل ليشمل وزارات الصحة والإسكان والزراعة .

ومن أطرف تطبيقات هذا المفهوم في الوقت الحاضر ، القرار الذي أصدره مؤتمر الدراسات التلمودية الثامن عشر الذي عُقد في القدس عام ١٩٧٤ وحضره رئيس الوزراء إسحق رابين ، والذي جاء فيه ضرورة منع «قيام الطبيب اليهودي بمساعدة المرأة غير اليهودية على الحمل» . ومن المعروف أن الشرع اليهودي قد تناول بشيء من التفصيل قضية : هل يجوز للطبيب اليهودي أن يعالج غير اليهودي ؟ وقد كان الرد هو النفي في جميع الأحوال ، إلا إذا اضطر اليهودي إلى ذلك . وينبغي أن تكون نية الطبيب دائماً هي أن يحمي الشعب اليهودي ونفسه ، لا أن يشفي المريض . وقد أجاز بعض الفقهاء اليهود (مثل جوزيف كارو في كتابيه : **بيت يوسف** والشولحان عاروخ) أن يجرب الأطباء اليهود الدواء على مريض غير يهودي (وهي فتوى كررها موسى إيسيرليز في تعليقه على الشولحان عاروخ) . وقد وردت كل الحقائق السابقة في مقال كتبه إسرائيل شاهاك ، ولم ترد نقابة الأطباء الإسرائيلية على اتهاماته .

وقد أثبتت بعض استطلاعات الرأي في إسرائيل أن الخوف من الأغيار لا يزال واحداً من أهم الدوافع وراء سلوك الإسرائيليين .

وتحاول الدولة الإسرائيلية تغذية هذا الشعور بإحاطة المواطن الإسرائيلي بكم هائل من الرموز اليهودية . فشعار الدولة هو شمعدان المينوراه ، وألوان العلَم مستمدة من شال الصلاة (طاليت)، وحتى اسم الدولة ذاتها يضمر التضمينات نفسها . بل إن شعار العام الدولي للمرأة ، الذي يتضمن العلامة (+) باعتبارها الرمز العالمي للأنثى ، تم تغييره في إسرائيل حتى يكتسب الرمز طابعاً يهودياً وحتى لا يشبه الصليب . وقد جاء في التراث الديني التقليدي أنه لا يصح مدح الأغيار . ولذا ، فحينما تسلَّم عجنون جائزة نوبل للسلام، مدح الأكاديمية السويدية ولكنه في حواره مع التليفزيون الإسرائيلي ، قال : "أنا لم أنس أن مدح الأغيار محرم ، ولكن يوجد سبب خاص لمديحي لهم" فقد منحوه الجائزة .

جوييم

Goyyim

«جوييم» كلمة عبرية تعني «الأغيار» (انظر : «الأغيار [جوييم]») .

الشيكسا (المرأة من الأغيار)

Shiksa

«شيكسا» كلمة يديشية تعني «الأنثى غير اليهودية» ، والمذكَّر منها هو «شيكتس» . ولا تشير كثير من المعاجم التي ترد فيها الكلمة إلى حقلها الدلالي . فالكلمة مشتقة من كلمة «شيكتس» العبرية التي تعني «حيوان قذر» أو «مخلوق كريه» أو «الرجس» . وهي أيضاً تشير إلى «الذكر غير اليهودي» . وحسب الكتابات الدينية التقليدية ، فقد كان يتعيَّن على اليهودي ، إن مر على معابد المسيحيين ، أن يبصق ويتلو إحدى اللعنات ، ثم فقرة من سفر التثنية : « ولا تدخل رجساً إلى بيتك لئلا تكون محرَّماً مثله . تستقبحه وتكرهه لأنه محرَّم» (٧/ ٢٦) . ويضم النص السابق كلمة «الرجس» ، وهي بالعبرية «شيكتس» كما تقدَّم .

شــــــريعة نــــــــوح

Laws of Noah (Noachian Laws)

ورد في سفر التكوين (٩/ ٤ ـ ٧) ما يُسمَّى «قوانين أو شرائع نوح» ، التي فسرها الحاخامات بأنها سبعة ، إذ حظر الإله على نوح وأبنائه عبادة الأوثان والهرطقة وسفك الدماء والزنى والسرقة وأكل لحم الحيوان الحي ، كما فُرض عليهم إقامة نظام قانوني ، أي تنفيذ الشرائع السابقة . وهذه الشرائع ملزمة لليهود وغير اليهود . أما الأوامر والنواهي (المتسفوت) ، فهي ملزمة لليهود وحدهم . والذي ينفذ هذه الوصايا من غير اليهود يُسمَّى «جرتوشاف» ، أي «مقيم غريب» ، أو حتى «متهود» ، وكان يُعَد من الأخيار . ومنذ البداية ، فإن الكتابات الدينية اليهودية وصفت المسلمين على أنهم من النوحيين أي من غير المشركين (ثم ضُم إليهم المسيحيون فيما بعد) . وفي الفكر الديني اليهودي الحديث ، أكد كلٌ من مندلسون وهرمان كوهين على أهمية شريعة نوح ، على أنها تشكل الأساس العقلاني لأخلاقيات عالمية مشتركة بين اليهود والأغيار .

الخلط المحظور بين النباتات والحيوانات (كيلئيم)

Prohibited Mixtures of Plants and Animal: Kilayim

«الأخلاط المحظورة» هي ترجمة للمُصطلَح «كيلئيم» . واليهودية تُحرِّم أخلاط النباتات ، أي النباتات المخلوطة (كيلئيم زراعين) ، وأخلاط الحيوانات أي الهجين (كيلائيم بهيماه) ، كما تحرم الخلط بين الصوف والكتان (شاتنز) . فقد جاء في سفر اللاويين (١٩/ ١٩) "لا تنز بهائمك جنسين وحقلك لا تزرع صنفين ولا يكن عليك ثوب مصنف من صنفين" . وجاء في سفر التثنية (٢٢/ ٩ ـ ١١) : "لا تزرع حقلك صنفين . . . لا تحرث على ثور وحمار معاً . لا تلبس ثوباً مختلطاً صوفاً وكتاناً معاً" . وقد أفتى الحاخامات بأن الخلط في الزراعة لا ينطبق إلا على أرض فلسطين . ولاحظ العلماء أن ثمة تشابهاً بين الحظر التوراتي ، وبعض الشرائع المماثلة عند الحيثيين . وحظر الخلط تعبير آخر عن الطبقة الحلولية التي تتسم في أحد أوجهها بالفصل الصارم بين الأشياء وبالثنائية الصلبة . وقد حاول فقهاء اليهود تفسير الحكمة من الحظر فقال أحدهم إنه يتجاوز فهم الإنسان . أما موسى بن ميمون فيرى أن التهجين قد حرم لأن الوثنيين كانوا يلجأون إليه لأسباب غير أخلاقية . أما راشي فقد أفتى بأن الغرض من التحريم هو الطاعة ، فالحظر قرار ملكي ، وهو متأثر في هذا بخلفيته الإقطاعية الأوربية . أما نحمانيدس ، فقد أفتى بأن الغرض هو تذكير الإنسان بألا يغيِّر نظام الطبيعة . وعلى الرغم من هذا ، يُلاحَظ أن العبرانيين استخدموا حيوانات مهجنة مثل البغل .

والواقع أن الأخلاط المحظورة لم تثر سوى مشاكل ثانوية ليهود العالم باعتبار أنها لا تنطبق إلا على إرتس يسرائيل (فلسطين) . وقد اهتم اليهود الأرثوذكس بالحظر الخاص بالنسيج ، فأعلن اتحاد الأبرشيات اليهودية الأرثوذكسية في عام ١٩٤١ أنه أنشأ مختبراً

خاصاً لفحص الملابس للتأكد من أن القماش لم يخلط فيه الصوف بالكتان .

أما في الدولة الصهيونية ، فإن الوضع مختلف تماماً إذ أن القوانين الخاصة بالزراعة تنطبق على الأرض التي احتلتها باعتبارها أرض يسرائيل (فلسطين) . ولما كان من المحظور بذر نباتات الأعلاف مع النباتات المنتجة للحبوب ، لمنع نباتات الأعلاف من الانتشار على الأرض والاختلاط بالحبوب ، فقد لجأ المستوطنون الصهاينة الأرثوذكس إلى زراعة أنواع من النباتات العلفية التي لا تنتشر .

وقد لجأ الإسرائيليون إلى التحلّة أيضاً فيمكن خلط الحبوب بأن يقوم مستوطن صهيوني ببذر حبوب نبات ما في اليوم الأول ، ويأتي مستوطن آخر يتظاهر بأنه لا يعرف ما حدث في اليوم السابق ويقوم ببذر حبوب نبات آخر . وقد تم تطوير هذه التحلّة بأن تُكوَّم حبوب النوع الأول وتُغطّى بقطعة جوال ، ثم يوضع النوع الآخر من الحبوب فوق الجوال ، ثم يأتي شخص ويقول أريد هذا الجوال ويأخذه ، وبالتالي يتم خَلْط الحبوب «بالصدفة المتعمدة» .

الطهارة والنجاسة

Purity and Impurity

«الطهارة» هي المقابل العربي لكلمة «طُهوراه» العبرية ، وتضادها كلمة «نجاسة» أو «طمأه» وهي من «طامي» أي «نجس» . ويعود اهتمام الشريعة اليهودية الحاد بمشاكل الطهارة والنجاسة إلى الطبقة الحلولية داخلها التي تتبدّى في محاولة دائمة للفصل بين اليهود المقدَّسين والأغيار المدنَّسين . وتنص الشريعة اليهودية على عدة مصادر أساسية للنجاسة الشعائرية أهمها أجساد الموتى (عدد ١٩/ ١١ وما يليها) ، ولكن توجد مصادر أخرى (سفر اللاويين- الإصحاحان ١٢ ، ١٣) . والأشخاص الذين يتصلون بالأشياء النجسة قد ينقلون نجاستهم إلى الآخرين . والأشياء المقدَّسة التي تنجس ، مثل القرابين التي تُقدَّم من ذبائح وحبوب ، يجب أن تُحرَق . وينبغي على الأشخاص غير الطاهرين ألا يلمسوا الأشياء المقدَّسة ، وألا يدخلوا الهيكل أو ملحقاته .

وتختلف شعائر التطهر باختلاف مصدر النجاسة فالحمام الطقوسي كان يُعَد كافياً للتطهر من النجاسة الناجمة عن الجماع الجنسي أو القذف ، بينما يجب تقديم القرابين الحيوانية للتطهر من النجاسة الناجمة عن الولادة أو غيرها . وكانت أعلى درجات النجاسة ملامسة جثث الموتى ، وهذه تتطلب رش الماء المخلوط برماد بقرة صغيرة حمراء . ومع هدم الهيكل ، توقف العمل بتلك القوانين المرتبطة به ، وأصبحت كلمة «طاهوراه» تشير إلى تغسيل جثة الميت .

البقرة الصغيرة الحمراء

Red Heifer

البقرة الصغيرة الحمراء (بالعبرية «باراه» أو «دومناه») بقرة كان رمادها يُستخدم لتطهير الأشخاص والأشياء التي تدنّست بملامسة جثث الموتى . وكان يجب أن تكون البقرة «حمراء صحيحة لا عيب فيها ولم يعل عليها نير» (عدد ١٩/ ٢) . وقد جاء في التلمود أن البقرة لابد أن تكون حمراء تماماً ، ليس بها أية تموجات ، وحتى وجود شعرتين سوداوين على ظهرها يجعلها لا تصلح لأن تكون بقرة مقدَّسة تفي بهذا الغرض . ويبدو أن الأحمر رمز الخطيئة . والسفر الرابع من السدر السادس في التلمود (سدر طهوروت) يُدعى «باراه» . ويتناول الشعائر الخاصة بالبقرة الحمراء الصغيرة .

ومن المعروف أن جثة الميت من أهم مصادر النجاسة بالنسبة للكهنة ، فأي كاهن يلامس جثة يهودي أو يتصل بها ، حتى ولو بشكل غير مباشر (كأن يسير على مقبرة أو حتى يوجد في مستشفى أو منزل يضم جثة) فإنها تنجسه ، على عكس جثث الأغيار فهي لا تسبِّب أية نجاسة لأنها لا قداسة لها . وإن دنس اليهودي ، فهو يظل كذلك دائماً ، إلا إذا تم تطهيره بالطريقة التي وردت في سفر العدد (الإصحاح ١٩) ، والتي تم شرحها في التلمود ، وهي طريقة استخدام رماد البقرة الحمراء الصغيرة . وكان هذا الأمر يحدث في الماضي حتى القرن السادس ، حين فُقد رماد آخر بقرة حمراء طاهرة . ومنذ ذلك الحين ، واليهود جميعاً غير طاهرين . والأغيار على كل حال جميعاً مدنَّسون . ولا يوجد سبيل أمامهم للتطهر . ولأن أرض الهيكل (الموجودة في منطقة المسجد الأقصى) لا تزال طاهرة ، فإن دخول أي يهودي إليها يُعَد خطيئة وأمراً محظوراً عليه وبالتالي الصلاة فيه .

لماذا لا يضحي اليهود ، إذن ، ببقرة حمراء ويستخدمون رمادها في عملية التطهير؟ هنا نجد أن الموقف حرج ودائري ، إذ أنه لا يمكن أن يُضحي بالبقرة إلا الكهنة الطاهرون ، ولكنهم بدون رمادها يظلون نجسين ، ولا يوجد مخرج من هذه الورطة الدائرية . ويوجد الآن في إسرائيل معهد لدراسة البقرة الحمراء ، وقد اقترحت إحدى المجلات العلمية الدينية في إسرائيل أن تُعزَل امرأة يهودية حامل من إحدى الأسر الكهنوتية داخل منزل يُبنى على أعمدة حتى يُعزَل المنزل

نفسه عن أي جثث يهودية قد تكون موجودة تحته ، ويقوم رجال آخرون بتوليدها ، ثم يقومون بعد ذلك على تنشئة الطفل بعيداً عن كل البشر ، حتى يصل سنه الثالثة عشرة . ساعتها ، يمكنه أن يصبح كاهناً طاهراً فيُضحي بالبقرة الحمراء ، وتُحَل المشكلة . وقد اقترح آخرون القيام ببعض الحفائر حول بقايا الهيكل ، فقد يُعثر على زجاجة تضم بقايا رماد البقرة الحمراء ، وتُحل بذلك المعضلة . ولكن مجلة **تـيلم** نشرت في عدد ١٦ أكتوبر ١٩٨٩ أنه تقرَّر أن يبدأ الكهنة في تطهير أجسادهم ، وأن ممثلي الحاخامية الأساسية في إسرائيل قضوا أسبوعين في أوربا يبحثون عن جنين بقرة حمراء ليُزرَع في إحدى أبقار مزرعة في إسرائيل .

وقد نقلت صحيفة **يديعوت أحرونوت** عن الحاخام شمارياشور (أحد قادة إحدى الجماعات التي تعمل من أجل إعادة بناء الهيكل) أنه فحص بواسطة عدسة مكبرة بقرة حمراء في كفار حسيديم (يُعتقد أنها وُلدت نتيجة تلقيح اصطناعي لبقرة أمريكية وبقرة إسرائيلية لونها أسود وأبيض) فلم يجد فيها شعرة لونها أسود . ومن ثم فهي صالحة لأن يُضحى بها ويُستخدَم رمادها في عملية التطهير اللازمة لإقامة الطقوس التعبدية ودخول منطقة المسجد الأقصى ، حيث يُفترض أن الهيكل كان قائماً من قبل . وقد استنكر بعض الحاخامات هذه المحاولة ووصفوها بأنها قد تؤدي إلى اندلاع الحرب .

الحمام الطقوسي (مكفيه)

Ritual Bath: Mikveh

تعبير «الحمام الطقوسي» يقابل كلمة «مكفيه» العبرية . والحمام الطقوسي هو الحمام الذي يُستخدَم ليتطهر فيه اليهود بعد أن يكونوا قد تنجسوا ، كما يُستخدَم الحمام الطقوسي لتطهير الأوعية التي صنعها غير اليهود . وحتى يكون الحمام شرعياً ، يجب أن يحتوي على ماء يكفي لتغطية جسد امرأة متوسطة الحجم ، ويجب أن يأتي الماء من عين أو نهر . ولا يبيح الشرع لليهود أن يسكنوا في مكان لا يوجد فيه حمام طقوسي . ويتعيَّن على المرأة اليهودية أن تأخذ حماماً طقوسياً بعد العادة الشهرية ، وقد جاء في إحدى الصياغات الحاخامية المتطرفة أن على مثل هذه المرأة ، وهي في طريقها إلى المنزل ، أن تحذر مقابلة فرد من الأغيار ، أو خنزير أو كلب أو حمار ، وإن قابلت أياً منها فعليها أن تغيِّر طريقها لأنه سينجسها مرة أخرى .

وعلى كل من يتهود أن يأخذ حماماً طقوسياً . وعلى سبيل المثال ، فقد طلبت الحاخامية من يهود الفلاشاه أن يأخذوا حماماً طقوسياً ليتطهروا حتى تكتمل يهوديتهم ، فرفضوا ذلك لأن هذا يفترض نجاستهم . كما أن النساء المتهودات عليهن أن يأخذن حماماً طقوسياً وهن عاريات تحت عيون ثلاثة حاخامات ، الأمر الذي ترفضه الكثيرات منهن .



١٦
الأســـرة

الأسرة ـ المرأة اليهودية ـ الجنس ـ الزنى ـ الزواج ـ وثيقة الزواج ـ زواج الأرملة ـ الطلاق ـ قسيمة الطلاق الشرعية (جيط) ـ العجونة ـ طفل غير شرعي (ممزير)

الأسرة
Family

«الأسرة» بالعبرانية «مشباحاه» . ومدلول هذا المصطلح يختلف من مجتمع لآخر . وفي المجتمع العبراني القديم (القَبَلي) كانت الأسرة تعني في واقع الأمر «العشيرة» إذ كانت تستند إلى قرابة الدم والعلاقة التعاقدية (الزواج) والجوار ، والموالي ممن كانوا يطلبون الأمن ويلجأون إليها . ولكن ، بعد تغلغل العبرانيين في كنعان واستقرارهم فيها ، اختفت هذه الأسرة القبلية وحلت محلها الأسرة الممتدة التي كانت تُسمَّى بالعبرية «بَيْت» وكانت تتكون من الأبوين والأبناء والخدم . وكان الأب هو رب الأسرة الذي يقف على رأسها وتخضع له الزوجة . ومع هذا ، كانت الزوجة تحتفظ بثروتها ، وكان لها حق التصرف فيها ، ولكن لم يكن لها حق في أن تُطلِّق أو ترث . بل كانت تعدُّ أحياناً جزءاً من هذا الميراث . وكانت الأسرة العبرانية النواة الحقيقية للحياة الاجتماعية العبرانية ، كما هو الحال في معظم المجتمعات القَبَلية .

ومع العصور الوسطى ، كانت قوانين الشريعة اليهودية قد تبلورت؛ ومن بينها قوانين الزواج والزواج المُختلَط ، والطلاق وزواج الأرملة ، والجنس والطهارة والشعائر الدينية المختلفة المرتبطة بالأسرة ، وهي قوانين زودت مؤسسة الأسرة داخل أعضاء الجماعات اليهودية بإطار وفر لها قدراً عالياً من التماسك والاستمرار .

ولكن هذه الشريعة لم تكن مُطبَّقة على الجماعات اليهودية كافة ، فالتنوع على مستوى الممارسة كان عميقاً جداً ، إذ أن مؤسسة الأسرة بين الجماعات اليهودية كانت تتأثر بالتشكيل الحضاري والاجتماعي الذي كانت توجد فيه . وفي العصر الحديث ، يتضح هذا بشكل جلي في الغرب إذ تآكلت مؤسسة الأسرة بين اليهود (شأنها في ذلك شأن مؤسسة الأسرة في العالم الغربي) بل في كل التشكيلات الاجتماعية التي تتزايد فيها معدلات التحديث والعلمنة (التوجُّه نحو المنفعه واللذة) اللذين ينتج عنهما تزايد سلطة الدولة بحيث تضطلع مؤسساتها بكثير من وظائف الأسرة (مثل تنشئة الأطفال) كما تتزايد النزعات الفردية ، فيقل ارتباط المرء بأسرته ويتركها عندما يصل إلى سن السادسة عشرة . وتنتشر حركات تحرير المرأة والتمركز حول الأنثى وما يتبع ذلك من إصرار المرأة على العمل خارج المنزل وإحساسها بأن تربية الأطفال هو استغلال لها لأنه عمل بلا أجر . ويؤدي كل هذا (مع زيادة التوجه نحو اللذة) إلى تناقص معدلات الإنجاب وتزايد الزواج المُختلَط وانتشار ظاهرة التعايش بين الذكور والإناث بلا زواج وتزايد معدلات الطلاق والأطفال غير الشرعيين .

وحسب إحصاءات عام ١٩٩١ ، فإن الأسرة التقليدية بين اليهود (زوجاً وزوجة كليهما من اليهود ومتزوِّجين للمرة الأولى وعندهما أكثر من طفل واحد) قد اختفت تماماً تقريباً في الولايات المتحدة ولا تمثل سوى ١٤٪ من كل الأسر اليهودية . وقد صرح أحد الدارسين أن هذه هي البداية وحسب ، إذ يعيش اليهود في عالم فردي علماني ذي توجه استهلاكي لا يوجد فيه إجماع ويفعل كل فرد فيه ما يروق له/لها ! ويُعَدُّ تآكل الأسرة من أهم أسباب موت الشعب اليهودي .

المرأة اليهودية
Jewish Woman

يتواتر تعبير «المرأة اليهودية» في كثير من الدراسات ، وهو تعبير ليس له أية قيمة تفسيرية أو تصنيفية ، إذ أن المرأة اليهودية في أمريكا في العصر الحديث (التي لا تمارس أية شعيرة من شعائر اليهودية) لا يربطها أي رابط بالمرأة اليهودية في بغداد في العصر العباسي الأول إذ كانت ترتدي زياً مختلفاً وتمارس معظم شعائر دينها وتنظر للعالم نظرة مختلفة . ويمكن تناول موضوع المرأة من منظورين : ديني ، وتاريخي . ولنبدأ بالمنظور الديني .

تذهب العقيدة اليهودية إلى أن حواء خُلقت من ضلع آدم حسب الشريعة اليهودية ، لتكون أنيساً له (تكوين ٢/ ٢١ - ٢٥) .

ولكن، حسب رؤية يهودية أخرى وردت في القبَّالاه، خُلقت امرأة أخرى من طين وهي تُدعى ليليت مساوية تماماً للرجل، ثم تمرَّدت عليه وعلى علاقتها معه ومن ذلك وضع الجماع، وهو أن ينام الرجل على أنثاه. ومع أن حواء لعبت دوراً أساسياً في معصية الإله إذ حرَّضت آدم على أن يأكل من الشجرة، إلا أن موقف الشريعة اليهودية هو أساساً الإيمان بالمساواة الإنسانية الكاملة بين الرجل والمرأة (تكوين ١/ ٢٧). صحيح أن الوظيفة الأساسية للمرأة هي إنجاب الأطفال وتربيتهم، لكن هذا لا يترتب عليه أي تمييز بينهما في أمور المعاملات بسبب اختلاف الوظيفة الموكلة إلى كلٌّ منهما. فإن ألحق ثور ضرراً برجل أو امرأة أو طفل، يتعيَّن على صاحبه أن يدفع التعويض نفسه، وإن كانت المرأة حاملاً، فقد يزيد هذا من العقوبة. وعقوبة الزنى توقَّع على كلٌّ من الزاني والزانية، وعلى الجماع بالمحارم. وتتطلَّب الشريعة اليهودية أن يظهر اليهودي احتراماً متساوياً للأب والأم.

ويظهر الاختلاف بين الرجل والمرأة في العبادات، فلم يكن هناك كاهنات. وإن كان من المعروف أن النساء اشتركن في موكب استقبال سفينة العهد في القدس (صموئيل ثاني ٦/ ١٩)، وكان بينهن نبيات وعرافات. وقد أُعفيت النساء من كل الوصايا المرتبطة بزمان ومكان محدَّدين، فلم يكن مكلفات بأداء شعائر الحج، ولا أداء الصلوات في المعبد، وإن ذهبن إلى المعبد تم فصلهن عن الرجال. وبطبيعة الحال، لم يكن بإمكان المرأة أن تلتحق بالمدارس التلمودية العليا، كما أن شهادتها لا تُقبَل. ويذهب أحد المراجع إلى أن النساء وُضعن، من بعض النواحي، على قدم المساواة مع العبيد والأطفال. لكن هناك شعائر تقوم بها المرأة (ثلاث شعائر) هي شعائر الطهارة (الخاصة بالعادة الشهرية: نيداه)، وإيقاد شموع السبت والأعياد. وخَبز خُبز الحلاَّ (أي الرغيف الذي يُقدَّم في وجبة السبت). والشعائر الثلاث مرتبطة بالأسرة، ولهذا فمن المفترض أن تكون الأنثى متزوجة. وهذا يعني أن الأنثى غير المتزوجة لا تتمتع بمكانة أو منزلة عالية. وليس من الممكن عقد قران فتاة على رجل إلا بموافقتها. ومن ناحية أخرى، فإن تعدُّد الزوجات مباح حسب الشريعة اليهودية، وإن حرَّمه الحاخامات في الغرب في القرن الحادي عشر. وتحرِّم اليهودية الزنى والبغاء، وإن كان التحريم غير قاطع.

ويحتوي التلمود على نصوص تؤكد أهمية المرأة في حياة الرجل والأسرة وتتحدث عنها بكثير من العطف والفهم، فالرجل بدون امرأة يعيش بلا أفراح ولا بركة. كما أن التلمود يقرن بين المرأة والشخيناه (التجسد الأنثوي للإله). ولذا، كان الحاخام يوسف يقف قبل أن تدخل أمه ويقول: «لأقف قبل صول الشخيناه». ويجب على الرجل ـ حسب الرؤية التلمودية ـ ألا يهين زوجته لأن السيدات يتسمن بحساسية أكبر من الرجال، كما أن إيمان المرأة أعمق من إيمان الرجل. وتتسم النساء برقة القلب. ولكن التيار الغالب في التلمود هو الإشارة إلى جوانبها السلبية، فهن ثرثارات («أنزل الإله عشرة مكاييل من الكلام للعالم وأخذت النساء تسعة»). كما وصفت النساء بأنهن طماعات يتجسسن على الأسرار، كما أنهن كسولات وغيورات ودائمات الشجار. ومثل هذه الأقوال هي جزء من الفلكلور الشعبي أكثر من كونها تعبيراً عن موقف الشريعة. ومع هذا، فإن هذه الأفكار الفلكلورية تحدِّد، في كثير من الأحيان، سلوك المرء أكثر من الشريعة التي يؤمن بها.

ولكن هناك الدعاء الذي يتعيَّن على اليهودي أن يردده كل يوم، إذ يحمد الإله أنه خلقه يهودياً وليس من الأغيار، وخلقه رجلاً وليس امرأة. وقد حاول الفقه اليهودي تفسير هذا الدعاء بأنه حمد للإله على أنه أتاح للرجل اليهودي فرصة أكبر في تنفيذ التعاليم، والأوامر والنواهي.

والمرأة جزء أساسي من الصور المجازية التي تتواتر في العهد القديم، فالحلول الإلهي في الشعب يعبَّر عنه بأنه حب الرب للشعب وهذا يشبه حب الرجل للمرأة أو الزوج لزوجته، وابتعاد الشعب عن الرب يشبه الزنى. والشعب هنا يصبح مثل المرأة اللعوب. وهذه الصور المجازية أساسية في نشيد الأنشاد والتوراة التي يُشار إليها بأنها أنثى، فهي ابنة الرب وعروسه التي تجلس إلى جواره على العرش. وقد تَعمَّق هذا الاتجاه في القبَّالاه التي تؤكد أهمية العنصر الأنثوي في كيان الإله، فمن بين التجليات النورانية العشرة (سفيروت) توجد ثلاثة ذات طابع أنثوي واضح: الأم والعروس والشخيناه. وأخيراً هناك الشخيناه، وهي التعبير الأنثوي عن الإله، وهي أيضاً الشعب. والإله ذكر وأنثى في الوقت نفسه، ولذا يجب أن يظل الذكر مع الأنثى. وماذا يفعل الإنسان إذن عند السفر، حيث سيصبح الرجل ذكراً بمفرده؟: عليه أن يصلي للإله قبل سفره، وهو لا يزال بعدُ ذكراً وأنثى (أي ومعه زوجته)، حتى يجتذب روح بارئه، فتحل فيه الشخيناه، وتتحد معه، فيصبح هو نفسه ذكراً وأنثى أثناء سفره. ولكن العنصر الأنثوي في التراث القبَّالي ينتمي إلى اليسار، وهو جانب الحكم الصارم، وهو أيضاً الجانب الآخر مصدر النزعة الشيطانية. لذا، نجد أن المرأة ارتبطت بهذا التصنيف أيضاً. وذهب القبَّاليون إلى أنها غير قادرة على أن تصل إلى درجات الفكر العليا.

وعلى المستوى التاريخي ، يمكن أن نشير إلى بعض النساء اللائي لعبن دوراً بارزاً ، فهناك أولاً الأمهات ، سارة وهاجر ، في عصر الآباء . وتلعب أخت موسى دوراً بارزاً في فترة الهجرة من مصر إلى فلسطين . ومن الأسماء المهمة «دبوراه» التي كانت من القضاة . ويمكن الإشارة أيضاً إلى كلٍّ من راعوث وإستير ويهوديت، وكل هذه الشخصيات شبه أسطورية . ولكن ، داخل التاريخ الحقيقي ، يمكن أن نشير إلى عثاليا (زوجة أخاب) ، وسالومي ألكسندرا الحشمونية ، وبيرنيكي (عشيقة تيتوس وأخت أجريبا الثاني) ، وأختها دورسيلا (عشيقة عدة ملوك وشخصيات مهمة في عصرها) . ولا نسمع بعد ذلك عن دور المرأة في الجماعات اليهودية إلا في عصر النهضة ، وقد ارتبطت بدايات الأدب اليديشي بالمرأة ، فجمهور هذا الأدب كان أساساً من النسوة . أما الدراسات الجادة (الفقهية والدينية) ، فكانت تُكتَب بالعبرية والآرامية . ومع حلول القرن الثامن عشر وبداية حركة التنوير ، قامت بعض النسوة اليهوديات المثقفات بفتح صالونات أدبية مهمة كانت ملتقى كبار المثقفين . ومن النساء اليهوديات المرموقات في العصر الحديث الشاعرة الأمريكية اليهودية إما لازاروس ، وإما جولدمان الفوضوية الأمريكية ، وروزا لوكسمبرج الفوضوية الشيوعية الألمانية ، وإن كان من الصعب اكتشاف البُعْد اليهودي في رؤيتهن للعالم أو في نشاطهن . ومن الشخصيات الطريفة التي تستحق الذكر عذراء لادومير (١٨٠٥ ـ ١٨٩٢) ، وهي أنثى اضطلعت بدور التساديك الحسيدي . وكان لها أتباع ومريدون ، ولعل ظهورها في حد ذاته تعبير عن تزايد معدلات العلمنة في التجمعات اليهودية ، وعن تآكل المجتمعات التقليدية التي عاش فيها اليهود . وقد ساعدت الهجرة على تحطيم البقية الباقية من الدور التقليدي للمرأة داخل الجماعات اليهودية . وقد كان لهذا أثره العميق ، فيُلاحَظ مثلاً انتشار البغاء بين النساء اليهوديات (وخصوصاً في منطقة الاستيطان) في الفترة من عام ١٨٨٢ حتى عام ١٩٣٥ ، كما تزايد الزواج المُختلَط بين النساء مع بداية الستينيات ، وهي ظاهرة لم تكن معروفة تقريباً بين النساء اليهوديات فقد كانت مقصورة على الذكور . وقد أدّى هذا بدوره إلى تزايد ضعف الأسرة اليهودية .

ومن الحقائق التي تستحق التسجيل أن معظم من يؤدُّون الصلاة الآن داخل المعابد اليهودية في الولايات المتحدة من النساء لأن أعداداً لا بأس بها منهن لا يعملن . هذا على عكس الجماعات اليهودية التقليدية ، حيث كان الذهاب إلى المعبد مقصوراً على الرجال تقريباً . ولابد أنه ، مع ازدياد عمل النساء ، سيقل عدد المصليات .

وقد اشتركت النساء في حركة الاستيطان الصهيوني في فلسطين . وهذا أمر متوقَّع باعتبار أن الاستعمار الصهيوني استعمار استيطاني إحلالي ، بمعنى إحلال كتلة بشرية متكاملة محل السكان الأصليين . ومن ثم ، لابد أن تحوي هذه الكتلة قدراً كافياً من النساء يضمن لها التوازن والاستمرار . وقد اشتركت النساء في الزراعة المسلحة . وبعد إنشاء الدولة ، مُنحت النساء حقوقاً متساوية مع الرجال ، وهن يجندن في الجيش في مهام غير قتالية أساساً ، وإن كان بعضهن يعملن في المهام القتالية أيضاً . وتُعفَى الفتيات من أسر أرثوذكسية من التجنيد . والمشكلة الكبرى التي تواجهها النساء في إسرائيل هي في الأحوال الشخصية التي لا تزال تُدار حسب القوانين الدينية . فتظهر مشاكل خاصة بالزواج والطلاق . ومن أهم هذه المشاكل ، مشكلة وثيقة الطلاق (جيط) حين يرفض الزوج منح زوجته هذه الشهادة التي تنص على أنها مطلقة شرعاً ، وفي هذه الحالة تصبح المرأة «عجوناه» ، أي منفصلة عن زوجها دون أن تكون مطلقة ، فلا يمكنها الزواج مرة أخرى . وتواجه النساء في الكيبوتس مشاكل عديدة ، وخصوصاً أن تقسيم العمل لا يزال يتم على أساس الجنس . والقانون الإسرائيلي يُعرِّف اليهودي بأنه من وُلد لأم يهودية ، أما من وُلد لأب يهودي وأم من الأغيار فليس يهودياً .

وهناك منظمات عديدة خاصة بالإناث بين أعضاء الجماعات اليهودية ومن أهمها :

- المجلس القومي للمرأة اليهودية . وقد تأسست هذه المنظمة عام ١٨٩٣ في الولايات المتحدة . وهي من أقدم المنظمات اليهودية الأمريكية الخاصة بالمرأة . ويبلغ حجم العضوية بها حوالي ١٠٠,٠٠٠ عضو . وتنشط المنظمة في مجالات حقوق المرأة والخدمة الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية داخل الجماعة .
- المنظمة النسوية الأمريكية لإعادة التأهيل والتدريب . وهي منظمة مرتبطة بمنظمة أورت العالمية المتخصصة في برامج التدريب المهني والفني . وقد تأسست هذه المنظمة عام ١٩٢٨ في الولايات المتحدة الأمريكية وتضم أكثر من ١٠٠,٠٠٠ عضو ، وهي تهتم بمجال واسع من القضايا الاجتماعية في الولايات المتحدة .
- رابطة المرأة اليهودية في إنجلترا .
- الجمعية النسائية في فرنسا . وتهتم بالمجالات الثقافية والاجتماعية .

وتوجد منظمات يهودية نسائية في ألمانيا وهولندا وغيرهما من دول أوربا . كما توجد منظمة صهيونية نسائية هي الهاداساه ، وهي أكبر المنظمات الصهيونية وأكثرها عدداً ، ولعل هذا يعود إلى أن عدد

النساء اليهوديات في أمريكا اللائي لا يعملن كبير (بسبب ثراء الجماعة اليهودية) . كما أن من الصعب أن نسمّي مثل هذه المنظمة «صهيونية» . فقد قُدِّم مشروع قرار إلى المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرين في القدس عام ١٩٧٢ ، نص على أن من يشغل منصباً قيادياً في المنظمة الصهيونية ولا يهاجر إلى إسرائيل خلال أربع سنوات من انتخابه لا يُنتخَب مرة أخرى . وقد أثار الاقتراح ما يشبه الثورة ، وهدد وفد منظمة الهاداساه بالانسحاب إذا تمت الموافقة عليه وبالفعل سُحب مشروع القرار . ولذا ، فإن هذه المنظمة الصهيونية النسائية هي منظمة نسائية بالدرجة الأولى ويمكن أن نعتبر أن ما يُسمَّى «النشاط الصهيوني» نشاط اجتماعي يساعد النساء الأمريكيات اليهوديات من ساكنات الضواحي والمدن على تزجية وقت الفراغ وإضفاء معنى على حياتهن في مجتمع استهلاكي تتآكل فيه المطلقات والكليات .

الجنس

Sex

«جنس» بالعبرية «مين» ترى اليهودية الحاخامية أن الجنس غريزة إنسانية طبيعية ، وأن على الإنسان أن يشبعها من خلال العلاقات الزوجية . ويكرس التلمود أجزاء كبيرة لتناول هذا الموضوع ، كما يشجع الزواج المبكر للحفاظ على الفضيلة . ويُحرِّم على الزوج أن يجامع زوجته أثناء فترة العادة الشهرية ، ولمدة اثنى عشر يوماً بعدها (فترة الحيض أو الدنس «نيداه») . ونظراً لطول المدة ، فقد كان الزوجان ينامان عادةً في فراشين مختلفين . وكان على الزوجة أن تأخذ حماماً طقوسياً بعد انتهاء فترة الحظر . وتُحرِّم اليهودية الزنى والدعارة والشذوذ الجنسي بين الرجال (أما بين النساء ، فإن هذا الأمر ليس محرَّماً بقدر ما هو مكروه) . ولا تُحرِّم اليهودية تعدُّد الزوجات وإن كان الحاخامات قد حرَّموه . ولا يعتبر التلمود الزنى بامرأة من الأغيار ، متزوجة أو غير متزوجة ، محرماً . أما التحريم ، في العهد القديم ، فيقتصر على «زوجة أخيك» لا زوجة الغريب . وفي إحدى الفتاوى ، جاء أن إناث الأغيار «زوناه» وجمعها «زونوت» أي «عاهرات» حتى لو تهودن . ولكن هناك فتوى أخرى تُحرِّم الزنى كليةً باليهوديات أو بنساء الأغيار .

ومع هذا ، تسلك بعض شخصيات العهد القديم سلوكاً منافياً تماماً للقيم الدينية اليهودية نفسها (اعتداء أحد أبناء يعقوب على جارية أبيه ـ العلاقة بين يهودا وثامار زوجة ابنه ـ داود وامرأة أوريا الحيثي ـ إبراهيم وزوجته في مصر) . وكان على الحاخامات تفسير ذلك ، والتوفيق بينه وبين الرؤية الدينية العامة . وفي العهد القديم تتواتر صور مجازية جنسية ، وخصوصاً في سفر هوشع ونشيد الأنشاد ، ولكن هذه الصور المجازية تُفسَّر بأنها من قبيل المجاز ، كما هو الحال في الشعر الصوفي . وفي فترة الهيكل الثاني أخذ تمثالا الملاكين (كروب) اللذان كانا على تابوت العهد ، حسب بعض الآراء ، شكل ذكر وأنثى في وضع عناق جنسي . وكان التابوت يُحمل في أعياد الحج ، فيقول الحاخامات للجماهير : «هكذا يحب الإله جماعة يسرائيل» (ومن المعروف أن تشبيه علاقة الإله بالإنسان بعلاقة الذكر بالأنثى أمر شائع في العقائد الحلولية) . وقد ظل موقف العهد القديم غامضاً للغاية إزاء مشكلة البغاء . وهو غموض استمر إلى أن استقرت دعائم اليهودية الحاخامية .

وكما تقدَّم ، أخذت اليهودية الحاخامية موقفاً متشدداً من الإباحية الجنسية . وقد بيَّن موسى بن ميمون ، متبعاً أرسطو ، أن حاسة اللمس أدنى الحواس باعتبارها الحاسة المرتبطة بالجنس . وقد نجح هذا الإطار الحاخامي التلمودي في أن يضرب عزلة حول اليهود ، وأن يضبط سلوكهم الجنسي ، وخصوصاً أنه كان من المحرَّم عليهم الاختلاط بأعضاء المجتمع الخارجي . وقد كانت المؤسسة الحاخامية ، في تلك الآونة ، شديدة القوة إذ أن المؤسسة الحاكمة كانت تعطيها من الصلاحيات ما يسمح لها بالتحكم في أعضاء الجماعة اليهودية . والواقع أن عملية الضبط الاجتماعي للجماعات الإنسانية الصغيرة تكون في العادة أكثر نجاحاً من عمليات الضبط في المدن والتجمعات الكبيرة . ولذا ، يمكن النظر إلى حوائط الجيتو باعتبارها أيضاً سياجاً أخلاقياً للجماعات اليهودية حتى عصر الإعتاق .

ومن المعروف ، حسب الإحصاءات المتوافرة لدينا ، أن نسبة الأطفال غير الشرعيين (وهو مؤشر جيد على السلوك الجنسي) بين أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب أقل من النسبة على المستوى القومي ، ويبدو أن السلوك اليهود الجنسي كان يميل نحو المحافظة .

ومع هذا ، فإن ثمة استثناءات من هذه الصورة العامة ، ففي إسبانيا المسيحية يُلاحَظ أن سلوك أعضاء الطبقة الأرستقراطية اليهودية كان يتسم بالانحلال الجنسي (ولعل هذا يعود إلى الثراء ، وإلى عدم وجود أسوار الجيتو) . وفي الجو الإباحي لعصر النهضة الإيطالية نجد الظاهرة نفسها . فكثير من الفتيات اليهوديات اشتغلن بالبغاء بعد الانغماس في الجنس . ومن أهم المؤشرات على مدى الإباحية المنتشرة بين أعضاء الجماعة اليهودية آنذاك ، تلك الإحصاءات التي يوردها العالم الإسرائيلي روفائيل باتاي والتي تقول إنه كان في فلورنسا في القرن الخامس عشر نحو مائة أسرة

يهودية وحسب ، ومع ذلك فقد رُفعت ضدها ثمان وثمانون قضية منها أربع وثلاثون مرتبطة بقضايا الآداب والأخلاق وسبع عشرة قضية مرتبطة بالقمار . ويضيف باتاي أن القضايا لم تكن تُرفع إلا في حالات قليلة ، الأمر الذي يدل على أن حالات الزنى والقمار كانت أعلى من ذلك كثيراً داخل جماعة لا تزيد على مائة أسرة . ولكن حالة إيطاليا كانت الاستثناء ، فأغلبية يهود العالم كانوا مُقسَّمين بين الدولة العثمانية وشرق أوربا .

ولكن ، داخل سياج الجيتو نفسها ، ظهر الفكر القبَّالي الحلولي الذي طوَّر كثيراً من الأفكار والصور المجازية الجنسية الجنينية في العهد القديم ومنحها قدراً من المركزية . وأصبحت الصورة المجازية الجنسية (أي تشبيه تماسك أجزاء الكون بالتشابك الجنسي) صورة مجازية أساسية لا يمكن إدراك العالم بدونها . ويدور التراث القبَّالي حول أسطورة الخلق : خلق الإله ، وخلق الإنسان . فالإله يخلق نفسه (في قبَّالاة الزوهار) من خلال التجليات النورانية العشرة ، أما في القبَّالاه اللوريانية فإن الإله يخلق نفسه من خلال الانكماش ثم الانتشار والتبعثر . والذات الإلهية ، في القبَّالاه ، تحوي داخلها عناصر تذكير وعناصر تأنيث ، فالحوخمه أو الأب العلوي (العلة الذكرية الأولى) تُدخل علاقة جنسية مع البيناه أو الأم العلوية (العلة الأنثوية الأولى) ، وهما يقابلان أبا وأما في القبَّالاه اللوريانية ، فينجبان في قبَّالاة الزوهار الابن (عريس يسرائيل) والابنة (جماعة يسرائيل) ، ولهما أيضاً ما يقابلهما في القبَّالاه اللوريانية . وكان من الممكن أن يتم خلق الإله وتُنجَز وحدة العالم حينما يتحد الابن والابنة ، أي الإله مع يسرائيل ، وهو اتحاد يُنظَر إليه من خلال صورة مجازية جنسية .

وتظهر المقولة الجنسية في تصوُّر أن اليسود (أساس العالم) هو نفسه التساديك اليهودي (الرجل التقي) وهو أيضاً القضيب الإلهي الذي تمر منه الرحمة الإلهية حتى تصل إلى الشخيناه (التعبير الأنثوي عن الإله) التي تأخذ شكل عضو التأنيث ، فهي كالوعاء السلبي الذي يتلقى ولا يعطي ، فالشخيناه هي أيضاً جماعة يسرائيل . وبذا يتم التوحد بين الإله والشعب . وتشير كلمة «يحود» العبرية إلى الوحدة وأيضاً إلى الجماع الجنسي في النصوص القانونية . ويُطلَق على هذا التوحد أيضاً اسم «هازيفوُج هاقادوش» أي «الزواج المقدَّس» . وحينما صعد موسى إلى جبل سيناء كان مثل ابن الإله الذي ضاجع الشخيناه ، والهيكل هو مخدع الشخيناه الذي يحل فيه الإله ليضاجعها ، ولذا فحينما هُدم الهيكل توقَّف اليحود أو التوحد/ الجماع بينهما .

وقد أثرت الصورة المجازية الجنسية في البناء الديني اليهودي ، فاختيار الإله للشعب يصبح مثل اختيار الذكر للأنثى ، كما أن العذاب الذي يلقاه اليهود بسبب اختيارهم هو مثل تعذيب الذكر للأنثى ، ولذا فإنه يصبح مصدراً للذة . ويُشار إلى الشعب ، باعتباره التعبير الأنثوي عن الإله ، على أنه بنت صهيون (وليس ابن صهيون) ، وهو أيضاً التوراة ، عروس الإله التي تجلس إلى جواره على العرش والتي تُزف إلى الماشيَّح حينما يأتي إلى هذا العالم . ونشيد الأنشاد هو نشيد زفاف الشعب (الأنثى) إلى الإله (الذكر) . ولقد أصبح تفسير التوراة مثل الجماع الجنسي ، فالتوراة التي أمامنا (توراة الخلق) هي مجرد رداء ، وفي الأعماق توجد توراة الفيض (ويُلاحظ هنا صورة الفيض الجنسية) . وكلما تعمَّق الدارس خلعت التوراة أحد أرديتها حتى يصل إلى معناها الحقيقي ، أي يراها «وجهاً لوجه» ويعرفها ، أي يجامعها ، تماماً مثلما رأى موسى الشخيناه وجهاً لوجه فعرفها ، أي جامعها . والهدف من الصلاة أن يتحقق اليحود أو (الوحدة/ الجماع) بين الملك والماترونيت (العنصر الأنثوي) ، وأن تفيض بركة الإله (ذات الطابع الجنسي) . ويصبح الهدف من المتسفوت ، (أي الأوامر والنواهي) هو الشيء نفسه . ولذا ، فقبل أن يقوم أي يهودي بأي عمل ، فإن عليه أن يردد الصيغة التالية : "من أجل التوحد بين المقدَّس المبارك والشخيناه" . والهدف من صلاة الصباح الإسهام في هذه العملية الجنسية . وكل فقرة توازي مرحلة من مراحل الوحدة . فبعد الفقرة الأولى ، تقترب الابنة المقدَّسة (ماترونيت) مع وصيفاتها . وبعد الثانية ، يضع الإله ذراعه حول رقبتها ثم يلاطفها ويربِّت على ثديها . وفي نهاية الصلاة ، يتم الجماع . وقد أوصى الحاخام نوب (المُعلِّم من برودواي) بأن يفكر الإنسان في امرأة عارية أثناء الصلاة حتى يصل إلى أعلى درجات السمو . وقد شاعت القبَّالاه في القرن السادس عشر في أوربا ، وحلَّت محلَّ التلمود كأساس للوجدان ومصدر للقيم الأخلاقية ، حتى هيمنت تماماً على الوجدان اليهودي بين يهود اليديشية في شرق أوربا ، وهم أغلبية يهود العالم . ويقول روفائيل باتاي إن أحد أسباب شيوع كتب القبَّالاه هو أنها كانت كتباً إباحية يقبل الناس على قراءتها بشغف شديد .

لكن ظاهرة مركزية الصورة المجازية الجنسية وشيوعها تحتاج إلى تفسير . والواقع أنه يمكننا أن نقول إن اليهودية الحاخامية ، بتشدُّدها ، أحاطت اليهودي بعدد هائل من التحريمات والأوامر والنواهي (وقد حرَّم الحاخامات في كثير من الحالات ما أحلَّ الإله ، ولعل شعائر السبت التي أخذت تتزايد على مر السنين خير مثال على

ذلك) . وقد يكون كل هذا قد خلق إحساساً عميقاً بالذنب بين أعضاء الجماعات في أوربا ، وخصوصاً بسبب وجودهم في تربة مسيحية تنظر إلى الجسد باعتباره شيئاً كريهاً ، وبسبب الفقر الذي عشوا فيه ، الأمر الذي زاد من حرمانهم وشقائهم . وقد حدث نتيجة هذا ردُّ فعل عنيف ، هو في جوهره ، حسب قول باتاي ، «تجنيس للإله وتأليه للجنس» (من الغريزة الجنسية) . ويجب أن نشير إلى أن هذه الظاهرة ليست مقصورة على اليهود ، بل هي ظاهرة تعم كثيراً بين الحركات الصوفية الحلولية ، وإن أخذت شكلاً متطرفاً في حالة يهود شرق أوربا . كما أن الأنساق الدينية الحلولية المتطرفة عادةً ما تتبدّى في ترخيصية جنسية . فإذا كان الإله يحل في كل شيء ، فإن كل شيء يصبح الإله ومن ذلك الجنس ، بل خصوصاً الجنس الذي يُعَدُّ هو الآخر تعبيراً عن الإله ، بل يُعَدُّ أكثر الأشياء تعبيراً عنه بسبب ما يحيطه من غموض وأسرار وبسبب ما يتضمنه من فقدان للذات وإحساس بالفيضان والفيض . وقد عقد باتاي مقارنة بين القبَّالاه والديانة الهندوكية الحلولية ، وبيَّن عمق التشابه بينهما .

ومما زاد الأمور تطرُّفاً ظهور حركات مسيحية منشقة في روسيا ابتداءً من القرن السابع عشر ، مثل السكوبتسي (المخصيون) والخليستي (الذين يضربون أنفسهم) وغير ذلك ، وهي جماعات تحرِّم الجماع الجنسي تماماً من ناحية ، ثم تقيم من ناحية أخرى احتفالات ذات طابع جنسي داعر . وقد تأثر يهود اليديشية بتلك الحركات . ولعل كل ذلك قد أدَّى إلى تهيئة الجو لظهور شبتاي تسفي الذي نادى بالترخيصية ، وبإسقاط الأوامر والنواهي ، وبدأ في ممارسات جنسية كانت تُفسَّر تفسيراً رمزياً من قِبَل أتباعه . وبعد إسلامه ظهرت الحركات الشبتانية ، وخصوصاً الدونمه والفرانكية ، التي جعلت الإباحية الجنسية طقساً دينياً أساسياً ، والتي أدركت الإله من خلال صور مجازية جنسية واضحة . وكانوا يقولون إنه "كلما ازداد الإنسان انحلالاً ازداد ارتفاعه وسموُّه ، وكلما ازداد خرقاً للشرائع كان هذا دليلاً على وصوله واقترابه" . وقد آمنوا بما يُقال له «العاليّاه» من خلال «اليريداه» ، أي الصعود من خلال الهبوط . وقد ورثت الحركة الحسيدية معظم هذه الاتجاهات الإباحية الترخيصية ونادت بما أسمته «عفوداه بجشيموت» ، أي «الخلاص بالجسد» ، وإن حاولت تفسير ذلك تفسيراً رمزياً .

وقد كان هذا هو الإطار الفكري السائد بين يهود أوربا عشية الانعتاق ، وكان الفكر الشبتاني متغلغلاً تماماً حتى في صفوف القيادات الحاخامية ، كما أن القبَّالاه كانت قد هيمنت تماماً على الوجدان الديني اليهودي وكانت تُعَدُّ أساساً للتشريع أو على الأقل لتفسير الشعائر والشرائع .

ومن الواضح أنه لا يمكن فهم ظاهرة مثل فرويد إلا في إطار الفكر القبَّالي الشبتاني ، فالواقع أنه برغم اختياره أسطورة يونانية (أوديب) ومصطلحات لاتينية (إجو ، وسوبر إجو ، وإيد super ego, ego and id) ، فإن مصطلحه الكامن وصوره الأساسية مستقاة من التراث القبَّالي الذي درسه وهو في فيينا التي كان يوجد فيها واحد من أهم القبَّاليين في عصره (ويُقال إن كلمة «إيد» هي اختصار لكلمة «ييد» اليديشية ، أي يهودي) . كما أن حديث رولان بارت عن لذة النص كلذة جنسية له ما يناظره في الفكر القبَّالي .

ولذا ، فليس غريباً أن نجد أن سلوك أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب يختلف مع الانعتاق عنه قبله . والواقع أن سقوط الجيتو ، واليهودية الحاخامية ، وانتشار القبَّالاه ، جعلت اليهود مرشحين لدخول عصر الإباحة والإباحية الحديثة من أوسع أبوابه . وقد ساعد على ذلك تَعثُّر التحديث في شرق أوربا ، الأمر الذي أدَّى إلى هجرة الملايين من قراهم وجيتواتهم إلى العالم الجديد ، حيث لا ضوابط ولا آليات ضبط اجتماعية أو دينية ، فتآكلت الأسرة اليهودية وزاد عدد الأطفال غير الشرعيين بعد أن كانت هذه ظاهرة غير معروفة تقريباً بين أعضاء الجماعات في الغرب .

وقد ظهر قدر كبير من عدم التماسك بين أعضاء الجماعات في نهاية القرن التاسع عشر ، فوجدت أعداد كبيرة منهم من البغايا والقوادين ، وبين المشتغلين فيما نسميه صناعات اللذة (حقل نشر المجلات والكتب الإباحية - النوادي الليلية - حقل صناعة السينما التي لا تلتزم بمقاييس أخلاقية عالية) . ومع اندماج أعضاء الجماعات اليهودية في مجتمعاتهم ، وتزايد معدلات العلمنة ، أصبح من الملاحَظ أن درجة الانحلال وعدم التماسك لا تختلف عن درجة الانحلال وعدم التماسك في المجتمع ككل .

وتتمتع الدولة الإسرائيلية بواحد من أعلى مستويات العلمنة في العالم . وقد انعكس هذا على سلوك الإسرائيليين الذي يتسم بكثير من الحرية الجنسية . وقد ساهم في ذلك أن المجتمع الإسرائيلي مجتمع مهاجرين يعتمد على السياحة كمصدر أساسي من مصادر الدخل . ويتسم كل من المهاجر والسائح (وهما من الشخصيات الوظيفية الهامشية) بأن درجة التزامهما بقيم المجتمع ليست عالية . والسائح بالذات لا يلتزم إلا بقيمة المتعة . كما أن القوات المسلحة الإسرائيلية تضم عدداً كبيراً من المجندات اللائي يوجدن مع عدد كبير من الذكور في مناطق مختلفة ، وتحت ظروف تتسم بانعدام الضبط

الاجتماعي ، الأمر الذي يؤدي إلى توسيع رقعة الحرية الجنسية ويشجع على السلوك غير المنضبط .

وقد قامت الصهيونية بتحويل اليهودية من عقيدة دينية قومية إلى عقيدة قومية الأمر الذي يعني إمكانية استخدامها لضبط سلوك المستوطن الإسرائيلي على المستوى القومي . ولكن لا يمكن ، بطبيعة الحال ، توظيفها لضبط السلوك الجنسي للمستوطن على المستوى الشخصي . ولذا ، فقد نشأت ظواهر مرتبطة بالحرية الجنسية مثل انتشار البغاء ، وأخيراً الأيدز ، كما يُلاحَظ زيادة عدد الأطفال غير الشرعيين . وقد ظهر مؤخراً قانون يسمح بممارسة البغاء في الدولة الصهيونية بشكل قانوني يتزايد يوماً بعد يوم . ولا توجد لدينا إحصاءات دقيقة ، ولكننا نعرف (حسب إحصاءات ١٩٨٦) أن ٤٥٪ من الإسرائيليات اللائي في المرحلة العمرية ٢١ سنة فأكثر يتزوجن لأنهن يتوقعن طفلاً ، وأن ١١٪ من الفتيات اللائي يتزوجن في إسرائيل (بغض النظر عن أعمارهن) يتزوجن وهن حوامل . والواقع أن إباحة الإجهاض محاولة أخرى لهذا الاتجاه حيث إن نسبة الإجهاض من أعلى النسب في العالم ، فقد سجَّلت المستشفيات الحكومية نحو سبعين ألف حالة إجهاض سنوياً ، الأمر الذي يعني أن الحالات أكثر من ذلك كثيراً . وينتشر الشذوذ الجنسي أيضاً في إسرائيل (ويُقال إن نسبته تصل إلى ١٠٪ بين الرجال) . وقد وصف وزير السياحة السابق (أمنون روبنشتاين) المجتمع الإسرائيلي بأنه من أكثر المجتمعات إباحيةً ، وأشار إلى شارع دزنجوف (أحد الشوارع الكبرى في تل أبيب) باعتباره «زبالة دزنجوف» إذ تُعرَض فيه الأفلام الإباحية وتروَّج المخدرات (وقد عُرضت فيه مؤخراً مسرحية تمثل الملك داود وصديقه يوناثان تربطهما علاقة جنسية شاذة) .

وتتسم الحياة في الكيبوتسات بالحرية الجنسية ، إذ لا يتم فصل أفراد الجنسين إلا بعد سن الثامنة عشرة تقريباً . أما فيما قبل ذلك ، فإنهم يقضون معظم الوقت معاً ويمارسون كل الأنشطة الإنسانية المختلفة مثل الاستحمام معاً . ولكن يبدو أن العلاقة الجنسية داخل الكيبوتس (بين أعضائه) أصبحت تشبه علاقة الإخوة بالأخوات ، فلقد ظهرت أنماط للتعامل تشبه أنماط التعامل داخل الأسرة الواحدة، وظهرت أشكال من التابو (الحظر) تلقائياً . ومن الملاحَظ أن أعضاء الكيبوتس الواحد لا يتزوجون فيما بينهم ، إلا فيما ندر ، ولا يتزوجون إلا بأعضاء الكيبوتسات الأخرى في معظم الأحيان .

الزنــى

Adultery

كلمة «الزنى» يقابلها في العبرية كلمة «نيئوف» ، وأحياناً «زينوت» . وهي استخدام فضفاض لأن كلمة «زينوت» تعني بالمعنى الدقيق للكلمة «البغاء» . وتحرِّم اليهودية الزنى ، كما جاء في الوصايا العشر . وقد عُرِّف الزنى بأنه علاقة جنسية بين امرأة متزوجة ورجل غير زوجها ، وعقوبتها الموت للاثنين . أما الأنثى غير المتزوجة إن دخلت علاقة جنسية عرضية (مع يهودي) فإن ذلك أيضاً أمر مكروه ولكنه غير محرَّم ، وثمرة مثل هذه العلاقة لا يكون ممزير . وعقوبة زوجة الكاهن الزانية أقسى من عقوبة الزانية العادية . وثمرة هذه العلاقة «ممزير» ، أي طفل غير شرعي . وتذهب بعض الفتاوى اليهودية إلى أن الوصايا الخاصة بالزنى لا تنصرف إلا إلى «زوجة أخيك» ، أي العبراني الأمر الذي يعني أن نساء الأغيار مباحات . ولكن الرأي السائد بين الحاخامات هو أن اليهودي الذي يزني بامرأة من الأغيار زانٍ أيضاً ، ومن حق زوجته أن تطلب الطلاق منه . وعلى العكس من هذا ، ذهبت بعض حركات الشبتانية إلى أن الوصية الخاصة بالزنى تعني نعكس تماماً في التوراة الخفية (توراة الفيض) ، فحينما تقول الوصية «لا تزن» فإن معنى الباطني هو «فلتزن» . أما بالنسبة إلى الرجل المتزوج الذي يدخل علاقة جنسية مع أنثى غير متزوجة ، فإن الأمر مكروه ولكنه ليس محرماً .

الــزواج

Marriage

«الزواج» بالعبرية «نيسوئين» ، وتشجع العقيدة اليهودية اليهود على الزواج والإنجاب : "وباركهم الله وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض" (تكوين ١/ ٢٨) . ولعل حركة الأسينيين التي يُقال إن أفرادها امتنعوا عن الزواج كانت استثناء يثبت القاعدة . ومع هذا ، فإن ثمة نظرية تذهب إلى أنهم لم يكونوا جماعة مترهبنة ، وإنما نظمت عملية الزواج بحيث لم تكن تتم إلا بين أعضاء الجماعة وحسب . والزواج كصورة مجازية مهمة في العهد القديم ، كما أن القبَّالاه اللوريانية جعلتها صورة مجازية مركزية ، إذ يتزوج الإله من الشعب ، وكل الأوامر والنواهي تهدف إلى إنجاز هذا الزواج المقدَّس .

وفي الماضي ، كان الزواج يتم في ثلاث خطوات : الأولى «شيدوخين» وهو طلب يد الفتاة ، والثانية «إيروسين» أو «قيدوشيم» أو «قيدوشين» ، وهي تشبه عقد القران عند المسلمين ، وبموجبها

تصبح المرأة اليهودية زوجة شرعية لمن تقدَّم إليها ، ولا يمكنها الزواج من آخر إلا إذا مات زوجها أو طلقها . ويجب أن تتم هذه الخطوة أمام شهود . وعلى الزوج إما أن يدفع نقوداً ، بالعبرية «مهار» أي «مَهْر» ، أو يوقع شهادة الزواج «كتوباه» ، أو يجامع زوجته دون أن يدفع لها مهراً أو يكتب عقد زواج (والطريقة الأخيرة أقلها حدوثاً ، كما أن بعض الحاخامات رفض هذا الإجراء) .

أما الخطوة الثالثة في الزواج ، فهي تحقيق الزواج نفسه (نسوئين) ، وهذا يقابل الزفاف عند العرب (أو «الدُخلة» بالعامية المصرية) . ويصاحب الزفاف احتفالات تختلف من بلد إلى بلد حسب العادات والتقاليد المحلية ، فيهود كوشين يحتفلون بطريقة مختلفة عن يهود الولايات المتحدة في العصر الحديث ، أو عن يهود الجبال الذين لا يزالون يمارسون عادة خطف العروس ، كما هو الحال في مجتمعهم . ولكن من أكثر أشكال الزواج شيوعاً زواج يهود اليديشية . وربما يعود هذا إلى أنهم كانوا يشكلون الأغلبية العظمى من يهود العالم ، وهؤلاء هم الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة ، ونقلوا معهم أشكال الاحتفال بالزفاف الخاصة بهم ، كما أن هوليود ساعدت على إشاعة هذا الشكل من الاحتفال . ويبدأ الاحتفال بينهم ، بحضور عشرة أشخاص على الأقل (وهو نفس عدد النصاب في الصلاة) من بينهم حاخام . ويقف العريس والعروس تحت كوشة تُسمَّى «هوبا» (المحفة) ، ويقرأ الحاخام بعض الأدعية طالباً البركة (براخوت) ، ثم يضع العريس خاتماً ذهبياً غير مُزيَّن بأحجار في يد العروس ، وتُقرأ شهادة الزواج (كتوباه) ثم تُقرأ بعض الأدعية والابتهالات مرة أخرى . وأحياناً يُطلَب إلى العروس أن تدور سبع مرات حول العريس ، وتُقرأ الأدعية أحياناً على كأس خمر يشرب منه العريس والعروس ، ويُطلَب إلى العريس أن يكسر كأساً ، علامة على حزنه على الهيكل . ولم يعُد اليهود ، في معظم أنحاء العالم ، يحتفلون بعقد القران منفصلاً عن الزواج نفسه .

وليس الزواج في اليهودية من الشعائر المقدَّسة ، كما هو الحال في المسيحية ، وإنما هو عقد ذو طابع أخلاقي ديني ، ولا يمكن أن يتم إلا بموافقة الأنثى . ولا تُحرِّم اليهودية تعدد الزوجات ، وإن كان الفقه اليهودي قد منعه ابتداءً من القرن الحادي عشر في الغرب ، ثم امتد المنع إلى كثير من بلاد العالم الأخرى ، وإن كان لا يزال هناك بعض اليهود يمارسون هذا الحق الشرعي . ويناقش التلمود الأمور المتعلقة بالزواج في أحد أسفاره .

ولا يحق لليهود الزواج من المحارم . ويتشدد القرّاءون في تعريف المحارم . كما لا يُباح ليهودي أن يتزوج من مامزير (شخص غير شرعي) . ويُمنَع الزواج المُختلَط من الأغيار بتاتاً (ومع هذا ، كان هناك في الماضي درجات ، فزواج اليهود من الكنعانيين ذكوراً أم إناثاً كان محظوراً ، ولكن الزواج من الذكور العمونيين والمؤابيين ومن الذكور والإناث المصريين والأدوميين من أبناء الجيل الثالث بعد تهودهم كان غير محظور) . أما الكاهن ، فيمتنع زواجه من مطلقة . ولا تستطيع الأرملة أن تتزوج إلا بعد مرور تسعين يوماً على موت زوجها . وإذا كان شقيق زوجها على قيد الحياة وليس لها أطفال ، فإن اليهودية توجب عليه الزواج منها . وإذا اختفى الزوج ولم يُعرَف مصيره ، تصبح المرأة عجوناه ، أي لا يحق لها الزواج إلا بقرار محكمة شرعية . ولا تُحرِّم اليهودية الطلاق ولكن لا يمكن للمطلقة الزواج إلا بعد الحصول على شهادة الجيط ، أي القسيمة الشرعية للطلاق التي لا تَصدُر إلا بعد أن تتأكد المحكمة الحاخامية من أن المرأة قد طلقها زوجها فعلاً .

وقد سبَّبت هذه القيود كثيراً من المشاكل للمستوطنين في إسرائيل ، حيث تشرف المحاكم على عمليات الزواج والطلاق ، فكثير منهم لا يعرف مثلاً أنه كاهن إلا حينما يتقدم طالباً الزواج من مطلقة .

وقد كان الزواج العمود الفقري للجماعات اليهودية في العالم ، فهو أساس التماسك والتضامن . كما أنهم ، كجماعة وظيفية ، لا يتزاوجون إلا فيما بينهم ، حتى لا يذوبوا في محيطهم الحضاري . وكان كثير من الجيتوات يُحرِّم على اليهود المقيمين فيها الزواج من يهود جيتو آخر ، وذلك حتى لا يعطيهم هذا حق السكنى في الجيتو . وكان الزواج بين السفارد والإشكناز نادراً حتى عهد قريب ، ولكن معدلاته أخذت في الارتفاع .

وحينما ظهرت الدولة المطلقة في أوربا ، فإنها كانت تتدخل في تنظيم الزواج بين أعضاء المجتمع ومنعهم أعضاء الجماعات اليهودية ، فكان بعضهم لا يستطيع الزواج إلا بعد سن معيَّنة ، حتى لا يتكاثر عددهم ، ولم يكن يسمح للبعض بالزواج على الإطلاق . وفي محاولة تحديث اليهود في النمسا ، في القرن التاسع عشر ، لم يكن يُسمَح لبعض اليهود بالزواج إلا بعد قراءة كتاب عن الدين اليهودي كتبه أحد دعاة التنوير . وفي العصر الحديث ، تزايدت معدلات الزواج المُختلَط ، وبدأت الأجيال الجديدة اليهودية تُحجم عن الزواج والإنجاب ، وهذه ظاهرة عامة في الغرب الآن وتساهم في ظاهرة موت الشعب اليهودي .

وثيقة الزواج

Ketubbah

«وثيقة الزواج» مصطلح يقابله في العبرية كلمة «كتوباه» ،

وهي الوثيقة التي تُسجَّل فيها الالتزامات المالية والأخلاقية للعريس تجاه عروسه ، وتعتبر وثيقة الزواج أحد شروط الزواج حسب الشريعة اليهودية . ويجب أن تحمل الوثيقة توقيع شاهدين ، وتُكتب الكتوباه عادةً بالآرامية . ويُضاف إليها الآن ملخص بلغة البلد الذي يعيش فيه اليهودي . وتحتفظ العروس بالوثيقة .

وقد قام اليهود المحافظون بتعديل صيغة الشهادة . أما اليهودية الإصلاحية ، فتخلت عنها تماماً . ويتناول الجزء الخاص من التلمود والمسمَّى «كتبوت» كل الأمور المتعلقة بهذه الوثيقة . وعادةً ما كانت هذه الوثيقة تُكتَب على الرق وتُزيَّن حوافها .

زواج الأرملـــــة

Levirate Marriage

«زواج الأرملة» يُطلَق عليه «يبُّوم» بالعبرية . والأرملة في العبرية «ماناه» وهي من أصل لغوي يعني «الصامتة» وهي غير «يباماه» أي "الأرملة التي مات زوجها ولم تنجب أطفالاً" . ويُحرِّم العهد القديم زواج أرملة الأخ إذا كان لها أطفال ، لكنه يوجب مثل هذا الزواج إذا لم يكن لها أطفال . وقد جاء في سفر التثنية (٢٥/ ٥ ـ ١٠) : "إذا سكن إخوة معاً ومات واحد منهم وليس له ابن فلا تصير امرأة الميت إلى خارج لرجل أجنبي . أخو زوجها يدخل عليها ويتخذها لنفسه زوجة ويقوم لها بواجب أخي الزوج . والبكر الذي تلده يقوم باسم أخيه الميت لئلا يُمحَى اسمه من يسرائيل" .

وإن لم يرض الرجل أن يأخذ امرأة أخيه تصعد امرأة أخيه إلى الباب إلى الشيوخ وتقول قد أبى أخو زوجي أن يقيم لأخيه اسماً في يسرائيل . لم يشأ أن يقوم لي بواجب أخي الزوج . فيدعوه شيوخ مدينته ويتكلمون معه ، فإن أصرَّ وقال لا أرضى أن أتخذها ، تتقدم امرأة أخيه إليه أمام أعين الشيوخ وتخلع نعله من رجله وتبصق في وجهه وتصرخ وتقول هكذا يُفعَل بالرجل الذي لا يبني بيت أخيه . فيُدعى اسمه في يسرائيل «بيت مخلوع النعل» . (وهذه شعائر الحليتساه) . وتصبح المرأة عجوناه إن رفض الأخ أن يتزوجها ويخضع هو لطقوس خلع النعل ، وقد تظل المرأة عجوناه إن كان الأخ قاصراً أو غائباً أو مفقوداً .

الطلاق

Divorce

«الطلاق» بالعبرية «جيطين» ويتم الطلاق حسب الشريعة اليهودية في محكمة حاخامية ، وتنتهي الإجراءات بأن يعطي الرجل زوجته قسيمة طلاق تُسمَّى في التوراة «سفير كيريتوت» أي كتاب الطلاق (تثنية ٢٤/ ٣)، وتُسمَّى في التلمود «جيط» ، ويكون في حضور شهود أو أمام محكمة شرعية (بيت دين) . وتتلخص وظيفة المحكمة في التأكد من أن الإجراءات تتفق مع القانون الديني ، ولا تتنافى معه . ثم يسجل كاتب المحكمة الطلاق ، ويعطي نسخة من القسيمة لكل من الزوجين . والطلاق ، حسب الشريعة اليهودية ، من حق الرجل ، يمارسه متى أراد ، وإن كان من المعروف أن قسائم الزواج (كتوباه) كثيراً ما كانت تحتوي على شروط تحمي الزوجة من أهواء الرجل .

وحصول المرأة على قسيمة الطلاق أمر أساسي ، إذ أن اليهودي من حقه أن يعدد الزوجات ، على الأقل من الناحية النظرية . ولذا ، فبإمكانه الزواج دون أن يكون معه نسخة من القسيمة . أما المطلقة التي هجرها زوجها ، أو حتى طلقها أمام المحاكم المدنية دون أن يسلمها وثيقة الطلاق (جيط) التي لابد أن تتم أمام المحكمة الشرعية لكي يتم بمقتضاها فسخ الزواج شرعاً ، فتبقى «عجوناه» ، أي «مهجورة ومربوطة في آن واحد» . وفي شريعة التلمود ، تُعرَّف «العجوناه» بأنها الزوجة المهجورة المرتبطة بزوج غائب ، والتي لا تعرف على وجه اليقين ما إذا كان على قيد الحياة أم لا ، أو التي طُلِّقت مدنياً ولم تحصل على شهادة جيط ولذلك لا يحق لها الزواج من جديد ، وزواجها من رجل آخر يُعتبَر عملاً من أعمال الزنى ، ويعتبر أولادها غير شرعيين .

وفي البلاد الغربية ، حيث لا تعترف المحاكم بقسيمة الطلاق الشرعية ، لا يمنح الحاخام هذه القسيمة إلا بعد التأكد من أن الطلاق قد تم أمام المحاكم المدنية . ومع هذا ، لا تعترف المحاكم الحاخامية بالطلاق المدني إلا بعد إكماله بقسيمة الطلاق الشرعية .

وفي إسرائيل ، يقع الطلاق ، مثله مثل الزواج ، تحت سلطة المحاكم الحاخامية . ومع تزايد معدلات الطلاق في الغرب ، وخصوصاً في الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، أصبح الطلاق إحدى المشاكل التي تواجه المؤسسة الحاخامية ، إذ يصل العديد من المهاجرات السوفيتيات المطلقات اللاتي لم يحصلن على قسيمة الطلاق ، وبالتالي فكل منهن عجوناه ، وحينما تتزوج للمرة الثانية ترفض الحاخامية أن تعترف بزواجها . ومن المتوقع أن تصبح مشكلة قسيمة الطلاق الشرعية من أهم المشاكل التي ستواجه المُستوطَن الصهيوني ، وربما تصل هذه المشكلة في أهميتها مشكلة التهود على يد حاخام غير أرثوذكسي ، الأمر الذي لا تعترف به المحاكم الحاخامية في إسرائيل ، كما أنها ستزيد تفاقم حدة قضية الهوية اليهودية .

قسيمة الطلاق الشرعية (جيط)

Get

«جيط» هي «القسيمة الشرعية للطلاق» ، وبدونها تصبح المرأة اليهودية عجوناه ، أي مطلقة لا يمكنها الزواج . وتنقسم قسيمة الطلاق إلى قسمين : العام (توفيس) وهو الديباجة العامة في كل قسائم الطلاق ، والخاص (توريف) وهو الجزء الخاص بالحالة المدوَّنة في القسيمة . وعادةً ما تنتهي قسيمة الطلاق بعبارة «إن من حق المطلقة أن تتزوج من أي رجل» . ويجب أن يُكتَب التاريخ الصحيح بعناية . وبعد الانتهاء من إعداد القسيمة يسلمها الزوج لزوجته في حضور شهود . وبعد أن تأخذ الزوجة القسيمة تعطيها للمحكمة الشرعية التي تعطيها وثيقة تثبت أنها تم تطليقها حسب الشرع ثم تمزق المحكمة القسيمة حتى لا تثار أية شكوك بشأنها في المستقبل ، ثم تحفظها وهي ممزقة . ويوجد في التلمود جزء خاص بالجيط والعجوناه .

العجوناه

Ajuna

كلمة «عجوناه» كلمة عبرية مشتقة من فعل عبري بمعنى «يسجن» أو «يربط» . والعجوناه امرأة يهودية اختفى زوجها ولكن السلطات الدينية ليست على ثقة من وجوده على قيد الحياة ، ولذا فهي مرتبطة برجل لا يمكنها أن تعيش معه فعلياً ، ولكنها لا تستطيع أن ترتبط بآخر لأنها من الناحية النظرية متزوجة ، فهي مهجورة ومربوطة في آن واحد معاً . ولهذا ، لا يحق لها الزواج من جديد . وينطبق المصطلح الآن على الزوجات اللائي هجرهن أزواجهن دون أن يطلقوهن ، أولئك اللائي طُلِّقن دون الحصول على قسيمة الطلاق الشرعية (جيط) التي لابد أن توثِّقها محكمة شرعية (بيت دين) . وتلجأ بعض السيدات إلى المحاكم الشرعية لإكراه الزوج على منح الوثيقة ، لكن هذه المحاكم تتحرك ببطء شديد كما أنه في كثير من الأحوال لا يمكن الوصول إلى الزوج . ولا يزال هذا التقليد التلمودي سارياً في إسرائيل . ولا تستطيع العجوناه أن تتزوج للمرة الثانية زواجاً دينياً شرعياً ، وإذا تزوجت دون شهادة الجيط ، فإن أطفالها يُعتَبرون غير شرعيين ، أي مامزير حسب الشريعة اليهودية . ومن المتوقع أن يزداد عدد السيدات العجونات بين المهاجرين من المجتمعات الغربية بسبب ارتفاع معدلات الطلاق فيها . وقد لوحظ وجود عدد كبير من النساء العجونات بين المهاجرين السوفييت ، ويعود هذا إلى أن الحاخامية في إسرائيل لا تعترف بالطلاق المدني الذي تُصدره المحاكم السوفيتية والتي لا تملك أن تُصدر وثيقة الجيط رغم اعتراف الحاخامية بالزيجات التي تتم أمام هذه المحاكم . وقد لوحظ أن أعداداً من النساء العجونات بدأن ينكرن أنهن مطلقات حتى لا يفقدن حقوقهن وحتى لا يصنف أولادهن باعتبارهم «مامزير» . وتوجد في إسرائيل ما بين ثمانية إلى عشرة آلاف عجوناه . ولم يحدث أن منحت المحاكم الشرعية الإسرائيلية عبر تاريخها وثائق الجيط رغم إرادة الزوج إلا في ثلاثين حالة فقط . وكانت وثيقة الجيط مسئولة عن وجود عدد كبير من المطلقات في جاليشيا لا يمكنهن الزواج ، الأمر الذي أدَّى إلى انتشار البغاء بينهن .

طفل غير شرعي (مامزير)

Mamzer

«طفل غير شرعي» مصطلح يقابل مصطلح «مامزير» وهي كلمة عبرية معناها «طفل يهودي غير شرعي» . ومنزلة المامزير أقل من منزلة اليهودي العادي لأنه ثمرة علاقة جنسية محرَّمة (من وجهة نظر أسفار موسى الخمسة والشريعة الشفوية) ، مثل زواج رجل من امرأة محرمة عليه كأخته أو أمه ، أو اتصال امرأة يهودية متزوجة اتصالاً جنسياً بغير زوجها ، وهي علاقات عقوبتها الرجم . ويُحرَّم على اليهودي مولداً أن يتزوج من مامزير ، لكن المامزير يمكنه أن يتزوج من مامزير مثله ، أو من متهود ، وهذا يعني أن الطفل غير الشرعي في منزلة المتهود . وأولاد المامزير مامزير مثله حتى لو كان متزوجاً من يهودي أو يهودية . أما إذا كان المامزير من الأغيار ، فإن أبناءه يُعدّون من الأغيار .

ويجب التنبيه إلى أن ولادة الطفل خارج الزواج لا تجعله بالضرورة طفلاً غير شرعي أو مامزير ، فالأم اليهودية غير المتزوجة تنجب أطفالاً شرعيين إذا كان والد الطفل يهودياً بالمولد وغير متزوج وليس محرماً عليها الزواج منه شرعاً . وفي هذه الحالة ، سواء تزوج الرجل المرأة أو لم يتزوجها ، فإن هذا لا يغيِّر مكانة الطفل . ولعل هذا هو ما يجعل تجارب مثل الكيبوتس ممكنة ، إذ يصبح الزواج أمراً غير مهم ، بل هامشياً .

ويُسمَّى الطفل المشكوك في أبوته «شيتوكي» ، وهي كلمة تعني حرفياً «غير معروف الأصل» لأن أمه ترفض أن تكشف شخصية الأب ، أو لأنها لا تعرفه . وفي أغلب الأحوال ، لا يُعتبر هذا الطفل مامزير باعتبار أنه وُلد لأم يهودية !

ويُطلَق على الطفل اللقيط بالعبرية «أسوفي» ، وهو ليس مامزير وإنما هو غير معروف النسب . ويتوقف الأمر على المكان

الذي وجد فيه . فإذا وُجد بالقرب من حي يهودي ، فهو مامزير ، وإذا وجد بالقرب من حي للأغيار فهو من الأغيار . ومع هذا ، لا يستطيع مثل هذا الطفل أن يتزوج من مامزير آخر ، لأنه مشكوك في انتمائه اليهودي ككل !

ويُعتبر أي يهودي قرّائي مامزير ، إذ أن اليهود الحاخاميين يعترفون بأن الزواج القرّائي شرعي ، بينما الطلاق غير شرعي ، وبالتالي فإن كل امرأة قرّائية تُطلّق ثم تتزوج للمرة الثانية يكون زواجها الثاني غير شرعي وثمرته مامزير . ولأن هذه العملية استمرت عبر الأجيال ، فإن كل القرّائين صاروا مامزير . ومع هذا ، فقد ظهرت فتاوى أخرى ترى أن التشريعات الحاخامية لا تعترف بالزواج القرّائي نفسه . وتحدث أكثر حالات المامزير حينما تتزوج امرأة مطلقة لم تحصل على الجيط (قسيمة الطلاق) من زوجها الأول ، إذ أنها من وجهة نظر القانون الشرعي تظل في ذمة زوجها الأول ، ومن ثم فزواجها الثاني زواج غير شرعي وأولادها منه غير شرعيين .

وهناك أيضاً الحلال ، وهو الطفل الذي يكون ثمرة زواج كاهن وامرأة لا يحل له أن يتزوجها بسبب نسبه في سلك الكهونت ومثل هذا الطفل لا يفقد أية حقوق ، ولكنه لا يُعتبر كاهناً



١٧
التقويم اليهودي

التقويم اليهودي ـ تشري ـ حشفان ـ كسليف ـ تيفت ـ شفاط ـ آدار ـ نيسان ـ إيّار ـ سيفان ـ تموز ـ آف ـ إيلول

التقويم اليهودي

Jewish Calendar

لا نعرف الكثير عن تقويم العبرانيين ، وإن كنا نعرف أنه كان يبدأ في الخريف . وأنه كان قمرياً يُضاف إليه شهر كل أربعة أعوام حتى يتفق التقويم القمري والتقويم الشمسي . كما أننا لا نعرف حتى أسماء الشهور باستثناء أربعة (أبيب وزيف في الربيع ، وبول وإيثانيم في الخريف) . والتقويم اليهودي الحالي ، الذي استقرت معالمه في القرن الأوّل الميلادي ، يعود إلى أيام التهجير البابلي .

ويبدو أنه ظهرت تقاويم مختلفة . وثمة إشارة في سفر الملوك : الأوّل (١٢/ ٣٢ ـ ٣٣) إلى أن يربعام ملك المملكة الشمالية اتّبع تقويماً مغايراً للتقويم المتبع في المملكة الجنوبية ، وقد اتّبع السامريون تقويم المملكة الشمالية . وكان للصدوقيين تقويمهم الخاص بهم ، كما أن للقرائين تقويمهم أيضاً حتى الوقت الحالي .

وتتحدث المشناه عن أربعة رؤوس سنوات ، أي أربعة تقاويم :

١ ـ أوّل نيسان ، لتحديد الأعياد وحكم الملوك (وهو التقويم الديني) .

٢ ـ أوّل إيلول ، لدفع عشور الماشية .

٣ ـ أوّل تشري ، لحساب السنة السبتية ، وسنة اليوبيل ، والعام المدني (وهو التقويم المدني) .

٤ ـ أوّل أو منتصف شفاط ، لغرس الأشجار .

ومع هذا ، لا يحتفل اليهود بعيد رأس السنة إلا في تشري وحسب ، وهو العيد الذي يُسمَّى بالعبرية «روش هشاناه» .

وحينما يسرد اليهودي شهور السنة ، يبدأ بشهر نيسان أوّل شهور التقويم المدني ، وليس تشري ، أي أن رأس السنة يقع في سابع شهورها ، كما هو موضح في الجدول التالي :

الشهر	المدة	الموافق
١ ـ نيسان	٣٠ يوماً	آخر مارس ـ أبريل .
٢ ـ إيار	٢٩ يوماً	آخر أبريل ـ مايو .
٣ ـ سيفان	٣٠ يوماً	آخر مايو ـ يونيه .
٤ ـ تموز	٢٩ يوماً	آخر يونيه ـ يوليه .
٥ ـ آف	٣٠ يوماً	آخر يوليه ـ أغسطس .
٦ ـ إيلول	٢٩ يوماً	آخر أغسطس ـ سبتمبر .
٧ ـ تشري	٢٩ يوماً	آخر سبتمبر ـ أكتوبر (وهو أوّل الشهور في التقويم البابلي ، وفيه يقع رأس السنة) .
٨ ـ حشوان	٢٩ أو ٣٠ يوماً	آخر أكتوبر ـ نوفمبر .
٩ ـ كسليف	٢٩ أو ٣٠ يوماً	آخر نوفمبر ـ ديسمبر .
١٠ ـ تيفت	٢٩ يوماً	آخر ديسمبر ـ يناير .
١١ ـ شفاط	٣٠ يوماً	آخر يناير ـ فبراير .
١٢ ـ آدار	٢٩ يوماً	آخر فبراير ـ مارس .

ومن المرجح أنها عادة قديمة جداً مصدرها الأهمية الخاصة لشهر نيسان عند اليهود ، ففي هذا الشهر خرج موسى بقومه من مصر . وهو أيضاً الشهر الذي يقع فيه أهم أعيادهم على الإطلاق ، عيد الفصح ، وهو أوّل الأعياد حسب التقويم الديني . وهو كذلك عيد الربيع ، كما ورد في سفر الخروج (١٢/ ٢) : "هذا الشهر يكون رأس الشهور" .

والتقويم اليهودي تقويم معقد ، ولهذا التعقيد سببان : أولهما أن حساب الشهور يتبع الدورة القمرية ، فنجد أن الشهور مكونة إما من ثلاثين يوماً أو تسعة وعشرين يوماً ، وبذلك تصبح السنة ٣٥٤ يوماً . في حين أن حساب السنين يتبع الدورة الشمسية وذلك حتى يستطيع اليهود الاحتفال بالأعياد الزراعية في مواسمها . والفرق بين السنة الشمسية والسنة القمرية أحد عشر يوماً ، فكان لابد من تعويض هذا الفرق في عدد الأيام حتى يتطابق الحسابان ، وتم إنجاز ذلك بإدخال تعديلات معقدة على تقويمهم بحيث يتطابق التقويمان تمام التطابق مرة كل عشرين عاماً ، فأضافوا شهراً كاملاً مدته ثلاثون يوماً في كل عام ثالث وسادس وثامن وحادي عشر ورابع عشر وسابع عشر وتاسع عشر من هذه الدورة العشرينية ، وهكذا . وهذا الشهر الذي يُقحَم على السنة ، يأتي بعد آدار ، ويُسمَّى «آدار شني» ، أي «آدار الثاني» (أواخر فبراير أو مارس) حيث تصبح سنتهم الكبيسة

مكوَّنة من ثلاثة عشر شهراً . أما السبب الثاني لتعقيد التقويم اليهودي، فهو سبب شعائري بحت ، فمثلاً لا ينبغي أن يقع عيد يوم الغفران أو عيد رأس السنة قبل أو بعد يوم السبت . ولذلك ، فقد تؤجَّل بداية السنة عندهم يوماً أو يومين حسب الأحوال ، فتصبح السنة اليهودية العادية ٣٥٣ أو ٣٥٤ أو ٣٥٥ يوماً . أما السنة الكبيسة، فيزاد عليها شهر كامل فتصبح ٣٨٣ أو ٣٨٤ أو ٣٨٥ يوماً . وطبقاً للحسابات اليهودية الفلكية ، هناك أيام محدَّدة يبدأ فيها كل شهر ، ولا يجوز أن يبدأ بغيرها . وفي جميع الأحوال ، يجب أن تظل الفترة من أوَّل نيسان إلى أوَّل تشري ١٧٧ يوماً . وكانت بداية الشهور ، «روش حودش» (حرفياً «رأس الشهر») تُعرَف حين يذهب شاهد عيان إلى السنهدرين ويُعلن أنه رأى القمر ، فتُوقَد النيران إعلاناً عن رؤية القمر . ولذلك ، فقد جرت العادة منذ ذلك الوقت (عند أعضاء الجماعات اليهودية خارج فلسطين) على الاحتفال بالأعياد يومين على التوالي لصعوبة تحديد اليوم الفعلي لظهور القمر الجديد في فلسطين .

وكان تحديد التقويم ورأس السنة من أهم مهام السنهدرين في فلسطين . ويبدو أن هذه المهمة صارت من أهم مظاهر الاستقلال والهيمنة . ولذلك ، كانت قيادات يهود بابل تحاول أن تضطلع بهذه المهمة ، كلما سنحت لها الفرصة . فعلى سبيل المثال ، حينما سُحق تمرُّد بركوخبا قاموا بأولى هذه المحاولات ، ولكنهم اضطروا إلى التنازل عنها فيما بعد . ولكن ، بعد تحوُّل الإمبراطورية الرومانية إلى المسيحية ، وانفصال الجماعات اليهودية تماماً عن فلسطين ، قام أمير اليهود (البطريرك أو الناسي) هليل الثاني عام ٣٥٩ بإعلان القواعد الرياضية السرية لحساب التقويم ، الأمر الذي أنهى ما تبقَّى للقيادة اليهودية في فلسطين من سلطة . وقد حاول علماء فلسطين ، في القرن العاشر ، أن يستعيدوا سلطة تحديد التقويم ، ولكن علماء العراق نجحوا في كبحهم بعد أن ازدادوا نفوذاً لوجودهم في مركز السلطة . وقد استقر التقويم اليهودي وأصبح تحديده يخضع للحسابات الفلكية .

ولم يكن التقويم اليهودي يحدِّد في بداية الأمر تاريخ السنة بشكل مستقر أو متعارف عليه ، فكان حساب السنوات يتم بالرجوع إلى أحداث مهمة مثل : الخروج من مصر ، أو حادث يَسهُل تَذكُّره مثل زلزال ، أو بداية حكم ملك . ومنذ فترة الهيكل الثاني ، اتبع اليهود حسابات غير اليهود ، وخصوصاً بعد حكم السلوقيين الذي بدأ عام ٣١٢ ق . م . ولكن ، ابتداءً من القرن الثالث الميلادي ، بدأ وضع حساب التقويم اليهودي بالعودة إلى تاريخ الخلق . وفي أدبيات التلمود ، ثمة رأيان يذهب أحدهما إلى أن الخلق بدأ في نيسان (أوَّل الشهور) ، في حين يذهب الثاني إلى أنه بدأ في تشري (الشهر السابع) . وقد استقر الأمر على اعتبار أنه في تشري (عيد رأس السنة) . وقد ازدادت هذه العادة شيوعاً مع العصور الوسطى . وقد حدَّد حاخامات اليهود تاريخ بدء الخليقة (على أساس التواريخ التوراتية) بسنة ٣٧٦٠ قبل الميلاد . ويمكن التوصل إلى السنة اليهودية، بإضافة التاريخ الافتراضي لخلق الكون إلى التاريخ الميلادي . وبحسب هذا التقويم ، يوافق عام ١٩٩٥ - ١٩٩٦ الميلادي سنة ٥٧٥٦ اليهودية (وهو مجموع ٣٧٦٠ + ١٩٩٦) .

ويُلاحظ أن التقويم الإسلامي يبدأ بالهجرة ، كما أن التقويم المسيحي يبدأ بميلاد المسيح ، وهي مناسبات تاريخية محددة . أما التقويم اليهودي ، فيجعل نقطة بدايته لحظة كونية هي خلق العالم (تماماً مثل نقطة نهايته وهي لحظة عودة الماشيَح التي ينتهي عندها التاريخ الإنساني) . وأسماء الشهور في التقويم اليهودي بابلية . فتموز مثلاً هو أحد الآلهة البابلية ، وتشري من «تشريتو» وتعني «البداية» . وتُستخدَم أحياناً حروف عبرية بدلاً من الأرقام في التواريخ اليهودية . ويتَّبع أعضاء الجماعات اليهودية التقويم المدني الذي يبدأ بتشري (رأس السنة) للأغراض الدينية . ويستخدمون في حياتهم العادية التقاويم المدنية السائدة في البلاد التي يعيشون في كنفها . ولا تظهر السنة اليهودية إلا في الوثائق الدينية مثل عقود الزواج والشهادات الصادرة من معاهد الدراسة الحاخامية .

ومع تصاعُد معدلات العلمنة في الدولة الصهيونية ، بدأت بعض الأصوات التي تطالب بالتخلي عن التقويم اليهودي . وقد رفعت أم أحد الجنود الذين لقوا حتفهم أثناء غزو لبنان دعوى أمام المحكمة وطالبت فيها بإلغاء السنة اليهودية على أن يحل محلها التقويم الجريجوري .

وفيما يلي تقويم يهودي من عام ٥٧٥٨ حتى عام ٥٧٦٠ ، أي حتى عام ٢٠٠٠ ميلادية :

تشري

Tishri

«تشري» كلمة مشتقة من اللفظ الأكادي «تشريتو» ، وتعني «البداية» ، وهو الشهر السابع في التقويم الديني اليهودي وأوَّل شهر في التقويم المدني ، ويتكون من ٣٠ يوماً . ويوافق هذا الشهر سبتمبر

التقويم اليهودي حتى عام ٢٠٠٠ ميلادية

التقويم	٥٧٥٨	٥٧٥٩	٥٧٦٠
تشري	٢ أكتوبر ١٩٩٧	٢١ أكتوبر ١٩٩٨	١١ سبتمبر ١٩٩٩
حشفان	١ نوفمبر ١٩٩٧	٢٠ نوفمبر ١٩٩٨	١١ أكتوبر ١٩٩٩
كسليف	٣٠ نوفمبر ١٩٩٧	٢٠ نوفمبر ١٩٩٨	١٠ نوفمبر ١٩٩٩
تيفت	٣٠ ديسمبر ١٩٩٧	٢٠ ديسمبر ١٩٩٨	١٠ ديسمبر ١٩٩٩
شفاط	٢٨ يناير ١٩٩٨	١٨ يناير ١٩٩٩	٨ يناير ٢٠٠٠
آدار	٢٧ فبراير ١٩٩٨	١٧ فبراير ١٩٩٩	٧ فبراير ٢٠٠٠
نيسان	٢٨ مارس ١٩٩٨	١٨ مارس ١٩٩٩	٨ مارس ٢٠٠٠
إيّار	٢٧ أبريل ١٩٩٨	١٧ أبريل ١٩٩٩	٦ أبريل ٢٠٠٠
سيفان	٢٦ مايو ١٩٩٨	١٦ مايو ١٩٩٩	٦ مايو ٢٠٠٠
تموز	٢٥ يونيه ١٩٩٨	١٥ يونيه ١٩٩٩	٤ يونيه ٢٠٠٠
آف	٢٤ يوليه ١٩٩٨	١٤ يوليه ١٩٩٩	٤ يوليه ٢٠٠٠
إيلول	٢٣ أغسطس ١٩٩٨	١٣ أغسطس ١٩٩٩	٥ أغسطس ٢٠٠٠

ـ أكتوبر . وأوّل أيامه عيد رأس السنة اليهودية (روش هشّاناه) . ولذا ، فإن هذا اليوم هو أيضاً يوم الحساب ، حيث يحاسب الإله العالم بأسره . ويقع صوم جداليا في الثالث من هذا الشهر (أيام التكفير العشرة) التي تبدأ في عيد رأس السنة لتصل إلى نهايتها في عيد يوم الغفران . ويقع عيد المظال بين الخامس عشر والثالث والعشرين منه ، ويتضمن عيد الثامن الختامي (شميني عتسيريت) وبهجة التوراة (سمحات توراه) .

حشفان

Heshvan

كلمة «حشوان» اختصار لكلمة «مرحشوان» وهي من عبارة بابلية تعني «الشهر الثامن» ، و«حشوان» هو الشهر الثامن في التقويم الديني اليهودي ، وثاني شهور التقويم المدني وهو ٢٩ أو ٣٠ يوماً ، ويوافق أكتوبر - نوفمبر . وقد صدر وعد بلفور في السابع عشر من حشوان ، ولذا فإنه يُحتفَل به في ذلك اليوم !

كسليف

Kisleve

«كسليف» من الكلمة الأكادية «كيسليمو» . وهو تاسع شهور التقويم الديني اليهودي ، وثالث شهور التقويم المدني ، ويتكون من ٢٩ أو ٣٠ يوماً ، ويوافق نوفمبر ـ ديسمبر . ويبدأ عيد التدشين في الخامس والعشرين من كسليف ، حين تُشعَل أوّل شموع شمعدان التدشين ، ويستمر العيد ثمانية أيام (ثاني أو ثالث أيام تيفت) .

تيفت

Tevet

«تيفت» من الكلمة الأكادية «تبيتو» ، وهو عاشر شهور التقويم الديني اليهودي ، ورابع شهور التقويم المدني ، ويتكون من ٢٩ يوماً ، ويوافق ديسمبر ـ يناير . وفي هذا الشهر ، بدأت جيوش نبوختنصر حصارها للقدس . ولذا ، فإن ذكرى هذا اليوم يتم إحياؤها بصوم العاشر من تيفت .

شفاط

Shevat

«شفاط» من الكلمة الأكادية «شفاطو» ، وهو الشهر الحادي عشر في التقويم الديني اليهودي ، وخامس شهور التقويم المدني ، ويتكون من ٣٠ يوماً ، ويوافق يناير - فبراير . ويقع عيد السنة الجديدة للأشجار في الخامس عشر منه .

آدار

Adar

«آدار» من الكلمة الأكادية «أدارو» ، وهو الشهر الثاني عشر في التقويم الديني اليهودي ، وسادس شهور التقويم المدني ، ويتكون

من ٢٩ يوماً ، ويوافق فبراير ـ مارس . وأهم الأعياد في هذا الشهر عيد النصيب في الرابع عشر منه (في السنوات الكبيسة) . وهو يشمل آدار ريشون (أي آدار الأول) الذي يتكون من ثلاثين يوماً ، وآدار شني (أي آدار الثاني) وهو من تسعة وعشرين يوماً . وفي هذه الحالة ، تُنقل المناسبات والأعياد كافة إلى آدار الثاني .

نيسان

Nisan

«نيسان» من الكلمة الأكادية «نيسانو» ، وهو أول شهور التقويم الديني اليهودي ، وسابع شهور التقويم المدني ، ويتكون من ٣٠ يوماً ، ويوافق مارس ـ أبريل . ولقد جاء في المشناه أن أوَّل نيسان هو أوَّل يوم في السنة للملوك والأعياد .

ولقد كان خروج جماعة يسرائيل من مصر في منتصف نيسان ، ومن ثم يُحتفَل بعيد الفصح في الفترة من الخامس عشر إلى الحادي والعشرين منه . ومنتصف نيسان هو أيضاً بداية عيد الحصاد . ويُسمَّى نيسان في أسفار موسى الخمسة شهر أبيب ، أي الربيع . ويقع يوم هاشواح (يوم المحرقة) في السابع والعشرين منه .

ومع هذا ، فإنه يُمنَع الصيام والجنازات والحزن خلال هذا الشهر ، فهو كما تقدَّم شهر الربيع ، كما أنه «زمان حرتنو» ، أي «فصل حريتنا» .

إيــار

Iyyar

«إيّار» من الكلمة الأكادية «إيّار» ، وهو ثاني شهور التقويم الديني اليهودي ، وثامن شهور التقويم المدني ، ويتكون من ٢٩ يوماً ، ويوافق أبريل ـ مايو . ويُشار إليه في العهد القديم باسم «زيف» أي «الروعة» أو «الجلال» باعتبار أن الربيع يصل قمة ازدهاره في هذا الشهر . ويقع عيد لاج بعومير في الثامن عشر منه ، وكذلك عيد استقلال إسرائيل (احتلال فلسطين من وجهة نظرنا) في الخامس منه ، وكذلك ذكرى التحرير (سقوط القدس) في اليوم الثامن والعشرين .

سيفان

Sivan

«سيفان» من الكلمة الأكادية «سيمانو» ، وقد سُمّي باسم الإله السامي للقمر الإله سين (جبل سيناء) ، وهو ثالث شهور التقويم الديني اليهودي ، وتاسع شهور التقويم المدني ، ويتكون من ٣٠ يوماً ، ويوافق مايو ـ يونيه . ويقع عيد الأسابيع في السادس والسابع من سيفان . وكان عيد الأسابيع قديماً عيد الحصاد حيث كانت تُحضر إلى الهيكل بواكير الحصاد وتُقدَّم قرباناً .

تمــوز

Tammuz

«تمُّوز» من الكلمة الأشورية البابلية «دوزو» أو «دوموزي» ، أي «الإله تموز» . وهو رابع شهور التقويم الديني اليهودي ، وعاشر شهور التقويم المدني ، ويتكون من ٢٩ يوماً ، ويوافق يونيه ـ يوليه . ويوافق اليوم السابع عشر من تمُّوز ، ذكرى اختراق نبوختنصر حائط القدس في ٥٨٦ ق . م . ويُقال إن جيوش تيتوس الرومانية اخترقت حوائط القدس هي الأخرى في التاريخ نفسه . ويصوم اليهود في ذلك اليوم . ويُعَد يوم ٧ تموز ابتداء أسابيع الحداد الثلاثة التي تصل إلى نهايتها في التاسع من آف .

آف

Av

«آف» من الكلمة الأكادية «أبو» ، وهو خامس شهور التقويم الديني اليهودي ، والشهر الحادي عشر في التقويم المدني ، ويتكون من ٣٠ يوماً ، ويوافق يوليه ـ أغسطس . وأهم أيامه هو التاسع منه والذي يوافق ذكرى سقوط الهيكلين الأوَّل والثاني . وقد ارتبط هذا التاريخ بكوارث أخرى في تواريخ الجماعات اليهودية . وتصل أسابيع الحداد الثلاثة التي تبدأ في السابع عشر من تموز نهايتها في التاسع من آف . وتُعتبَر التسعة أيام ، من أوله حتى التاسع منه ، أكثر الأيام حزناً . ويُسمَّى الشهر «مناحم» أي «المؤاسي» ، لا لأن الأحزان ستُؤاسى بعد التاسع منه ، وإنما لأن الماشيَّح سيولد في التاسع من آف .

إيلول

Elul

«إيلول» من الكلمة الأكادية «إيلولو» ، وهو سادس شهور التقويم الديني اليهودي ، والشهر الثاني عشر في التقويم المدني ، ويتكون من ٢٩ يوماً ، ويوافق أغسطس ـ سبتمبر . ولا توجد أعياد أو أيام صيام في إيلول . ومن ثم ، فهو يُعتبَر إعداداً لليهود لأيام الأعياد الكبرى .

١٨
الأعياد اليهودية

أعياد يهودية ـ أيام الأعياد الكبرى ـ عيد رأس السنة اليهودية (روش هشاناه) ـ تشليخ ـ عيد المظال (سوكوت) ـ السوكاه ـ عيد يوم الغفران (يوم كيبور) ـ يوم الغفران ـ يوم كيبور ـ كابّاروت ـ عيد التدشين (حانوخه) ـ عيد النصيب (بوريم) ـ عيد الفصح أو الفسح ـ سدر ـ خبز الفطير (متساه) ـ كتاب احتفالات عيد الفصح (هجاداه) ـ الميمونه ـ عيد الاستقلال ـ يوم الذكرى ـ عيد الأسابيع (شفوعوت) ـ التاسع من آف ـ بهجة التوراة (سمحات توراه) ـ عيد الثامن الختامي (شميني عتسيريت) ـ عيد رأس السنة للأشجار ـ عيد القمر الجديد ـ لاج بعومير ـ السنة السبتية (شنة شميطاه) وسنة اليوبيل ـ سنة اليوبيل

أعياد يهودية

Jewish Festivals (Holy Days)

كلمة «أعياد» تقابلها في العبرية كلمة «حَجّيم» (مفردها «حَج»)، ويقابلها أيضاً «موعيد» أو «يوم طوف» . وتُستخدَم كلمة حجيم للإشارة إلى عيد الفصح وعيد الأسابيع وعيد المظال (أعياد الحج الثلاثة) . أما كلمة «موعيد» (وجمعها : موعاديم) ، فتشير إلى الأعياد السابقة ، وكذا لعيد رأس السنة (روش هشّاناه) ويوم الغفران. « هذه مواسم الرب المحافل المقدَّسة التي تنادون لها في أوقاتها » (لاويين ٢٣/ ٤) . ويتسع النطاق الدلالي لكلمة «أوقاتها» (موعاديم) لتشير أحياناً إلى كل « المحافل المقدَّسة » ومنها السبت وعيد بداية الشهر القمري (عدد ٢٨/ ١١) . وكان الأنبياء يشيرون إلى كل هذه الأعياد باعتبارها « المحافل المقدَّسة » . ومع هذا ، تُستخدَم كلمة «موعاديم» أحياناً للإشارة إلى أعياد الحج الثلاثة وحسب . وبالتالي ، فإن كلمة «موعاديم» أكثر اتساعاً في معناها من كلمة «حجيم» لأنها تشمل الدلالة على كل الأعياد . أما أيام الصوم والفرح التي يقررها اليهود أو حاخاماتهم بأنفسهم ، فيشار إليها بأنها «يوم طوب» ، أي «يوم طيب أو سعيد أو مبارك» . ولذا ، فلا يَلْزم تقديم أية قرابين أو تضحيات فيها (صموئيل أول ٢٥/ ٨ ، وإستير ٨/ ١٧) .

وتنقسم الأعياد اليهودية إلى قسمين : الأعياد التي جاء ذكرها في التوراة ، أي التي نزلت قبل التهجير ، وتلك التي أُضيفت بعد العودة من بابل . ومن بين أهم أعياد القسم الأوَّل : يوم السبت (وهو ليس عيداً بالمعنى الدقيق) ، وأعياد الحج الثلاثة (وهي أعياد زراعية ارتبطت بأحداث تاريخية) ، وعيد الفصح ، وعيد الأسابيع ، وعيد المظال ، وعيد الثامن الختامي (شميني عتسيريت) الذي يَعُده البعض عيداً مستقلاً ، ثم أيام التكفير وهي رأس السنة اليهودية (روش هشّاناه) ، ويوم الغفران (يوم كيبور) ، وأخيراً عيد القمر الجديد (روش حودش) وهو أقل أهمية من الأعياد الأخرى . أما مجموعة الأعياد التي أضيفت بعد نزول التوراة ، فهي : عيد النصيب (بوريم) ، وعيد التدشين (حانوخه) ، وعيد لاج بعومير ، والخامس عشر من آف ، وعيد رأس السنة للأشجار . ومع أن التاسع من آف يوم صوم وحداد على سقوط القدس وهَدْم الهيكل، فإنه يُعتبَر أيضاً عيداً . وتُعَدُّ الأيام الأولى والأخيرة في أعياد الفصح والمظال والأسابيع ورأس السنة ويوم الغفران أعياداً أساسية يُمنَع فيها العمل إلا إعداد الطعام (وحتى هذا مُحرَّم في يوم الغفران) . أما الأيام التي تقع بين اليومين الأوَّل والأخير ، فيُباح فيها القيام بالأعمال الضرورية . ولا يُحرَّم العمل في الأعياد الأخرى ، مثل النصيب والتدشين .

ويضم الاحتفال بأي عيد يهودي ثلاثة عناصر :

١ ـ المرح الذي يأخذ شكل المأدبات الاحتفالية (باستثناء يوم الغفران) والامتناع عن العمل في الأعياد المهمة .

٢ ـ الأدعية والابتهالات التي تضاف إلى الصلاة (عاميدا) .

٣ ـ طقوس احتفالية خاصة مثل أكل خبز الفطير في عيد الفصح ، وإيقاد الشموع في عيد التدشين ، وزرع الأشجار في عيد رأس السنة للأشجار .

وقد بدأت أصوات الاحتجاج تعلو في الأوساط اللادينية داخل إسرائيل على ما يسمونه «الجانب الجنائزي» في الأعياد اليهودية . ففي شهر مارس ، يُحتفَل بعيد النصيب الذي يشير إلى تهديد اليهود بالإبادة في فارس . وفي شهر أبريل ، يحل عيد الفصح ، حيث يروي اليهود قصص عبوديتهم في مصر وما عانوه من مشقة في الهرب عبر الصحراء . وفي شهر أبريل (٢٧ نيسان) يحتفلون بيوم الإبادة (يوم هاشواه) ثم بيوم الذكرى (يوم

هازيخارون) . وتُضاف إلى كل هذا أعياد أخرى مثل التاسع من آف وأيام الصيام الحدادية التي لا تنتهي ، الأمر الذي يترك أثراً سيئاً في الأطفال الإسرائيليين .

ويُحتفَل بالأعياد خارج إسرائيل مدة يومين ما عدا عيد يوم الغفران ، وذلك ناتج عن عادة قديمة مصدرها الخوف من عدم وصول الحجاج إلى الأرض المقدَّسة في الموعد المحدد ، فكانت الأعياد تزاد يوماً من باب الاحتياط . وثمة تفسير آخر يذهب إلى أن اليوم الإضافي تعويض عن غياب قداسة الأرض بسبب وجودها في يد المغتصبين . ويكتفي اليهود الإصلاحيون بالاحتفال بالعيد في أيامه المقررة .

وبالنسبة إلى كيفية إقامة الشعائر الدينية في الأعياد ومدى التمسك بها ، يمكن تقسيم اليهود في إسرائيل وخارجها إلى فئتين : فهناك اليهود الأرثوذكس ، وهم الفئة الأكثر محافظة وتمسكاً بتقاليد الأعياد (وهؤلاء يقيمون معظم الشعائر) . وتولي الدولة الصهيونية هؤلاء اهتماماً خاصاً ، فهي تزيد مثلاً برامج نشرات الأنباء في الإذاعة والتلفزيون مساء السبت حتى يتسنى لهم سماع ما فاتهم طيلة اليوم ، لأن استعمال الكهرباء من المحرمات في ذلك اليوم المقدَّس . أما الفئة الثانية ، فهم اليهود العلمانيون في إسرائيل وخارجها . وموقف هؤلاء من الأعياد متنوع ، إذ يوجد أولاً أولئك الملحدون الصريحون الاندماجيون (وهؤلاء يُسقطون أي احتفال بالعيد كلية) . وفي إحصاء عام ١٩٨٩ (في الولايات المتحدة) ، لوحظ أن حوالي ٩٠٪ احتفلوا بعيد يوم الغفران ، و٨٣,٤٪ احتفلوا بعيد الفصح ، و٧٥٪ بعيد التدشين ، و٣٦٪ يقيمون شعائر السبت ، وقد يتراءى للمرء بناء على ذلك أن ثمة حفاظاً على الهوية اليهودية ، ومن ثم على الشعائر الدينية ، ولكن يُلاحَظ ما يلي :

١ ـ أن مثل هؤلاء اليهود لا يقيمون كل الشعائر ، وإنما يقيمون بعضها وحسب ، كما يروق لهم ، ويبدو أن عدد من يقيم كل الشعائر لا يزيد على ٥٪ .

٢ ـ يُلاحَظ أن هؤلاء لا يقيمون شعائر تتطلب كبتاً للذات وإرجاء للذة ، وإنما يقيمون الشعائر الاحتفالية وحسب . ففي عيد يوم الغفران ، نجد أنهم لا يصومون قط ولا يمتنعون عن الجماع الجنسي ، وإنما يذهبون إلى المعبد لمقابلة أصدقائهم ويخرجون معاً ويقيمون الحفلات ، تماماً مثلما يحدث في احتفالات بلوغ اليهودي سن التكليف الديني (برمتسفاه) إذ تحولت هذه الحفلات إلى مظهر من مظاهر الاستهلاكية الأمريكية .

وهذا يقودنا إلى استخلاص ما يلي :

١ ـ أن العيد لم يعُد جزءاً من زمان مقدَّس أو دورة كونية يحاول الإنسان أن يربط بينه وبينها عن طريق إقامة الشعائر ، وإنما هو تحقيق للذات الفردية . ومن ثم ، فقد أصبح جزءاً من وقت الفراغ يشبه عطلة نهاية الأسبوع الهدف منه الترويح عن النفس (الركيزة النهائية للنسق) لا كبح جماحها .

٢ ـ أن اليهودي في الأعياد يحقق ذاته الإثنية عن طريق تأكيد انتمائه إلى الجماعة الإثنية اليهودية ، لا إلى جماعة دينية تلتزم بشعائر دينها ، أي أن الأعياد تمت علمنتها تماماً . وهذه ظاهرة عامة في الحضارة الغربية إذ تمت علمنة احتفالات عيد الميلاد تماماً حتى أصبح أكبر موسم للاستهلاك وزيادة اللذة .

ويُلاحَظ أنه في إطار علمنة الأعياد ، قد تختفي بعض الأعياد ، ولكن البعض الآخر يمكن أن يتم بعثه وتأكيد أهميته إذ تصبح الأعياد جزءاً من الفلكلور . وبالفعل ، يُلاحَظ أن كثيراً من أعضاء الجماعات اليهودية في إسرائيل وخارجها ، الذين لا يدينون بأي إيمان ، بدأوا يوقدون الشموع ليلة السبت أو في عيد التدشين ويبذلون جهداً لإعادة تفسير المحتوى الديني للعيد ليصبح عيداً قومياً أو إثنياً .

ولكن يُلاحَظ تحوُّل آخر في مدى أهمية الأعياد . فيُلاحَظ مثلاً أن عيد الفصح بدأ يفقد أهميته ومركزيته بين أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب رغم أنه أهم الأعياد اليهودية . وعلى العكس من هذا ، بدأ عيد التدشين يكتسب مركزية خاصة رغم أنه ليس عيداً مهماً من منظور ديني (ولذا ، فإنه لا يُحرَّم فيه العمل) . ولكن عيد التدشين يتزامن مع احتفالات عيد الميلاد في الغرب ، وأعضاء الجماعات اليهودية يكتسبون هويتهم الحضارية من خلال الحضارات التي يعيشون بين ظهرانيها . ولذا ، اكتسبت هذه الفترة من السنة أهمية خاصة ، وإن لم يوجد عيد يهودي ملائم فإن أعضاء الجماعات اليهودية سيواجهون مشكلة . ولا شك في أن عيد التدشين قد حل مشكلة الكريسماس أو احتفالات الميلاد المسيحي بالنسبة للأسرة اليهودية ، إذ يتيح لأطفالهم الاحتفال بعيد الميلاد على طريقة يهودية فلا يشعرون بالحرمان . وهذا على عكس إسرائيل حيث لا توجد احتفالات بعيد الميلاد . ومن ثم ، لا تنشأ حاجة إلى الاحتفال بعيد ما في هذا الوقت من السنة . ولكن ، يُلاحَظ أن عيد المصيب قد اكتسب شعبية خاصة في إسرائيل بسبب مضمونه القومي الفاقع وخصوصاً أنه تصاحبه حفلات تنكرية وتشجيع على الانفلات المؤقت يجعله يشبه الكرنفال .

لكن عملية التحويل هذه ليست عسيرة في إطار الحلولية

اليهودية إذ يُلاحَظ أن كل الأعياد اليهودية ابتداءً من عيد الفصح ، مروراً بعيد الخروج من مصر ، وانتهاءً بعيد الاستقلال (عيد إنشاء الدولة الصهيونية) ، هي أعياد دينية قومية تتداخل فيها القيم الأخلاقية والقيم القومية ، والقيم المطلقة والقيم النسبية . والملاحَظ أن تداخل العناصر الدينية مع العناصر القومية يقابله تداخل آخر هو تداخل الطبيعة والتاريخ . ولعل هذا تعبير آخر عن التركيب الجيولوجي اليهودي الذي تراكم داخله طبقات وعناصر عديدة ، فقد تداخلت عبادة يهوه (إله التاريخ) التي تتجه نحو التوحيد وعبادة بعل (إله الطبيعة) التي تميل نحو الحلولية . وتداخلت من ثم أعياد العبادتين وامتزجت . كما أن تداخل الطبيعة والتاريخ في الأعياد اليهودية هو أيضاً تعبير عن الطبقة الحلولية التي هي بدورها تعبير عن الواحدية المادية الكونية التي ترد كل شيء إلى مستوى واحد . فالإله يحل في كل شيء : في التاريخ اليهودي والطبيعة ويساوي بينهما ، وهو ما يجعل الزمن الطبيعي يرتبط بالزمن أو التاريخ اليهودي ، وهذا ما يجعل معظم الأعياد الدينية مرتبطاً بدورة الطبيعة .

ويُلاحَظ أن اليهود، في إسرائيل وخارجها، تحت تأثير الصهيونية (التي تعبِّر عن الحلولية بدون إله والتي تدور حول عنصرين اثنين من الثالوث الحلولي : الشعب والأرض أو الطبيعة)، يؤكدون المغزى القومي للأعياد (الشعب) وعلى الجانب المرتبط بالفصول (الطبيعة) على حساب المغزى الديني (الإله) . ويتجلى هذا، على سبيل المثال، في الاحتفال بعيد الأسابيع، فهو عيد زراعي ولكنه أيضاً عيد نزول التوراة . ومن هنا، فإننا نجد المحتفلين يهملون الجانب الثاني أو يقللون أهميته ويؤكدون الجانب القومي والطبيعي . وهم يهتمون بالغ الاهتمام بعيد رأس السنة للأشجار . وهذا يتفق مع الاتجاه العام نحو صهينة الدين اليهودي بحيث تتم العودة إلى تلك العناصر الحلولية الأولى في العهد القديم ويتم إهمال العناصر الأخلاقية العالمية التوحيدية . وقد أضافوا في إسرائيل أعياداً جديدة ذات طابع قومي أو طبيعي مثل الاحتفال بتمرُّد بركوخبا، وعيد ميلاد هرتزل، وعيد استقلال إسرائيل، وقد جعلوا للإبادة النازية يوماً .

ولكن هذه العلمنة ، أو الحلولية بدون إله ، تصل إلى الذروة في الكيبوتسات التي تحتفل بالأعياد بدون معبد يهودي ، ولا حاخامات ولا صلوات ، والتي استبعدت تماماً أية إشارة إلى الإله . وإن جاءت الإشارة إليه بسبب ضرورة النص أو أية ضرورة رمزية ، فإنه لا يُقدَّم له الشكر ، بل يتم تأكيد الجانب القومي والزراعي أو الطبيعي . وعلى سبيل المثال ، تضاف إلى كتاب احتفالات عيد الفصح (هاجاداه) أحداث قومية أخرى ، مثل استقلال دولة إسرائيل ، ويصبح الخروج من مصر هو نضال الشعب اليهودي الذي حقق حريته دون تدخُّل إلهي . بل هناك من يطالب في إسرائيل بالاحتفال بعيد الفصح (عيد تحرُّر اليهود من العبودية في مصر وخروجهم منها) في يوم إعلان إسرائيل باعتبار أن هذا هو اليوم الذي تحقَّق فيه التحرُّر بالفعل . كما تُذكَر أحداث أخرى توصف بأنها «قومية» مثل هجرة اليهود السوفييت . أما ما يتصل بالعنصر الطبيعي ، فإن الإشارة العابرة إلى الربيع في الهجاداه الدينية تصبح موضوعاً أساسياً في الهجاداه العلمانية . وفي ليلة عيد الفصح نفسه ، أضافوا عيداً جديداً مرتبطاً بالطبيعة يُسمَّى «سفيرات هاعومير» أي «حساب الشعير» . وفي هذا الاحتفال ، يشكل أعضاء الكيبوتسات وأولادهم موكباً ، ويذهبون للغناء والرقص في الحقول ثم تُقطَع بضع سنابل قمح بطريقة احتفالية ، وتوضع في قاعة الاحتفالات في الكيبوتسات ، وفي بقية أيام العيد يجرى الاحتفال بالعيد وشعائره من خلال الغناء والموسيقى . والشيء نفسه يُقال عن عيد الأسابيع ، فالمحاصيل السبعة التي ورد ذكرها في سفر التثنية (الحنطة والشعير والكروم والرمان والزيتون والتين والعسل) يتم تأكيد أهميتها من خلال الغناء والرقص ، ويُخصَّص يوم في هذا العيد يُسمَّى «هاجيجات هابيكوريم» (عيد بواكير الثمار) ، حيث يُعقَد اجتماع جماهيري وتُقدَّم أولى الثمار إلى الصندوق القومي اليهودي (بدلاً من الهيكل والإله في النسق الحلولي الوثني القديم) . وقد خُصِّص يوم في عيد المظال سُمِّي «هاجيجات هاسيف» ، أي «عيد الحصاد» للاحتفال ببداية السنة الزراعية وسقوط الأمطار ، ويُحتفَل به أحياناً ليلاً حول حمام السباحة ، وهو ما يشي بطابعه الحلولي الوثني (ولا تذكر أيٌّ من المراجع التي تتناول هذا الموضوع الطابع الجنسي لهذه الاحتفالات) . والواقع أن ذلك يمكن أن يُفسَّر على أساس أنه أمر طبيعي وعادي ومُتوقَّع في كثير من المجتمعات الحديثة ، ولكننا نعرف أن هذا هو ما يحدث بالفعل ، وهو أمر متفق تماماً مع الحلولية الوثنية إذ أن العبادات الحلولية عادةً ما تترجم نفسها إلى احتفال ذي طابع جنسي ترخيصي .

والاحتفال بعيد الغفران يأخذ شكل عزف مقطوعات موسيقية، وإنشاد بعض الأغاني التي قد يكون من بينها دعاء كل النذور ، ثم تُعقد حلقة نقاش . وقد أضافت بعض الكيبوتسات أعياداً أخرى ، من بينها عيد «هجيجات هاجِزّ» (جَزّ الأغنام) ، ولا يُحتفَل به إلا في الكيبوتسات التي تمتلك قطعاناً . ويقوم أعضاء مثل هذه الكيبوتسات بجَزّ فرو آخر خروف بمصاحبة الموسيقى والرقص ، ثم يقومون بعرض بعض البضائع التي يدخل الفرو فيها . ومن الأعياد

الأخرى المستجدة، «هاجيجات هاكيراميم» (عيد الكرمات)، والاحتفال به يأخذ كما هو مُتوقَّع شكل موسيقى ورقص وغناء. وتحتفل الكيبوتسات بأيام أخرى مثل عيد تأسيس الكيبوتس أو ذكرى سقوط أحد أعضاء الكيبوتس في الحروب الكثيرة ضد العرب.

ويأخذ هذا الاتجاه نحو علمنة الأعياد شكلاً مضحكاً أحياناً، ففي احتفال عيد التدشين يقول المتدينون "من يتكلم بجبروت الرب" (مزامير ١٠٦/ ٢)، ولكن اللادينيين، في محاولة لتأكيد الجانب القومي، يقولون «من يتكلم بجبروت إسرائيل» (وإسرائيل هنا هي الشعب والدولة). وفي عيد الاستقلال، يغيِّرون النص الذي يقول: "هذا هو اليوم الذي صنعه الرب" (مزامير ١١٨/ ٢٤) بحيث يصبح "هذا هو اليوم الذي صنعه الجيش الإسرائيلي". بل، في أحد الأعياد، يردد الأطفال عبارة: "وهكذا تبيد جميع أعدائك يارب" (من أنشودة دبوراه في سفر القضاة ٥/ ٣١). أما أطفال الكيبوتسات فيرددونها على النحو التالي: "وهكذا تبيد جميع أعدائك يا إسرائيل". ويقول الدينيون: "يزكور إلوهيم"، أي "اذكروا الرب"، أما اللادينيون فيقولون: "يزكور عام يسرائيل"، أي "اذكروا شعب إسرائيل"، أو "أنونذكور"، أي "سنذكر"، فكأن العلاقة هنا هي علاقة مع الذات وحسب.

ويوجد في آخر هذا الباب تقويم الأعياد وأيام الصوم حسب التقويمين اليهودي والميلادي حتى عام ٢٠٠٠ ميلادية.

أيام الأعياد الكبرى

High Holidays

عيدا رأس السنة (١ ـ ٢ تشري) ويوم الغفران (١٠ تشري) يُعدَّان من أهم الأعياد اليهودية، وفي عيد رأس السنة تتم محاسبة جميع البشر ويصدر الحكم في يوم الغفران. وتُسمَّى الأيام من ١ ـ ١٠ تشري «ياميم نورائيم»، أي «أيام التكفير أو الندم» (حرفياً: أيام الرهبة). وقد وردت العبارة لأوَّل مرة في كتاب في القرن الرابع عشر، وهي تشير إما إلى الأيام التي أشرنا إليها أو إلى الفترة من ١ إيلول حتى يوم الغفران.

عيد رأس السنة اليهودية (روش هشاناه)

Rosh Hashanah

«عيد رأس السنة اليهودية» هو عيد «روش هشَّاناه» بالعبرية، أي «رأس السنة». وهو عيد يُحتفَل به لمدة يومين في أوَّل تشري (سبتمبر/ أكتوبر). وقد ورد في المشناه أربعة أيام أخرى باعتبارها «رأس السنة»:

١ ـ أوَّل نيسان: أول العام وهو لتحديد حكم الملوك العبرانيين، ولتحديد الأعياد (التقويم الديني). ولذا، فإن اعتلى ملك العرش في شهر آدار، وهو آخر شهور التقويم الديني، فإن الشهر الذي يليه يشكل العام الثاني من حكمه. وعيد الفصح حسب هذا التقويم أوَّل أعياد السنة، وليس عيد رأس السنة. ويذكر التلمود أن أوَّل نيسان هو أيضاً رأس السنة لشراء القرابين بالشيقل التي يتم جمعها في آدار.

٢ ـ أوَّل إيلول: هو أوَّل العام لدفع عشور الحيوانات، إذ كانت تُدفَع العشور عن الماشية التي تُولَد بين أوَّل إيلول وآخر آف.

٣ ـ أوَّل تشري: أوَّل العام المدني، وتتضمن أيضاً حساب حكم الملوك الأجانب، وحساب السنة السبتية، وعام اليوبيل. ويُحرَّم الزرع والحصاد منذ أوَّل هذا الشهر كما يُعَدُّ تشري رأس السنة من الناحية الدينية. ويرى بعض الحاخامات أن أوَّل تشري هو رأس السنة بالنسبة إلى دفع عشور الحيوانات أيضاً. وبالتالي فلا يوجد سوى ثلاثة رؤوس للسنة حسب هذا الرأي.

٤ ـ أوَّل شفاط (أو منتصف شفاط): رأس السنة للأشجار باعتبار أنه في ذلك اليوم تسقط أكبر كمية من الأمطار حسبما ورد في التلمود.

ومع ذلك، فإن اليهود لا يحتفلون إلا برأس السنة التي تقع أول تشري، وهي وحدها التي يُشار إليها باسم «روش هشَّاناه».

وحينما يعد يهودي شهور السنة، فإنه لا يبدأ بتشري الذي يُحتفَل فيه برأس السنة، وإنما يبدأ بنيسان (أوَّل شهور التقويم الديني)، وربما كان هذا يعود إلى أن نيسان قد ورد ذكره في التوراة على أنه رأس الشهور. وهو كذلك الشهر الذي يُحتفَل فيه بالخروج، أهم أحداث التاريخ المقدَّس عند اليهود، وهو التاريخ الذي تم فيه خلق العالم (والحاخامات لا يتفقون جميعاً مع هذا الرأي). وهكذا تقع رأس السنة في سابع شهورها. ويشير العهد القديم إلى هذا اليوم باعتباره أوَّل يوم في سابع شهر (لاويين ٢٣/ ٢٤). ويعود هذا التناقض إلى أن الحضارة العبرانية كانت تدور في فلك الحضارة البابلية المتفوقة التي صبغت الشرق الأدنى القديم بصبغتها. وكان شهر تشري رأس السنة بالنسبة إلى البابليين («تشرينو» تعني «البداية» في اللغة البابلية) الذين كانوا يعتقدون أن كل آلهتهم تجتمع في ذلك اليوم في معبد مردوك (كبير الآلهة) لتجديد العالم، وللحكم على الأفراد والشعوب. وقد تبع العبرانيون البابليين في ذلك، وكان هذا اليوم، أي «روش هشَّاناه»،

يسمى «يوم هازيخارون» (يوم التذكر والذكرى) أو يوم «هدين» (يوم الحساب). وهو لم يُسمَّ باسمه هذا إلا في المشناه، أي في مرحلة لاحقة (وفي هذه يتبدَّى ما نسميه تركيب اليهودية الجيولوجي التراكمي).

وليس لعيد رأس السنة ذكرى تاريخية معيَّنة، كما أنه لا يُعتبَر أهم من الأعياد اليهودية الأخرى. ومع هذا، فقد اكتسب هذا العيد دلالة دينية وقدسية خاصة. فلقد جاء في المشناه أنه اليوم الذي بدأ فيه الإله خلق العالم (ولكن، حسب رواية أخرى، بدأ خلق العالم في نيسان)، وهو اليوم الذي تمر فيه المخلوقات كقطيع الغنم أمام الإله. ومن ثم، فعلى اليهودي أن يحاسب نفسه في هذا اليوم عما ارتكبه من ذنوب (وفي هذه الشعائر أصداء بابلية). وعيد رأس السنة أوَّل أيام التكفير التي يبلغ عددها عشرة، والتي تنتهي بأقدس يوم لدى اليهود على الإطلاق، وهو يوم الغفران (يوم كيبور). ويُحيي اليهود بعضهم بعضاً في عيد رأس السنة اليهودية بقولهم: «فليُكتب اسمك هذا العام في سجل الحياة السعيدة». ومن أهم طقوس ذلك اليوم النفخ في النفير (شوفار)، حيث ينفخون فيه بثلاثة أصوات مختلفة لكل صوت منها دلالته الخاصة. وهم في هذا اليوم أيضاً، يرتدون الثياب البيضاء أثناء الصلاة.

ويرتبط كثير من التقاليد اليهودية بهذا العيد، فمثلاً تُجهز أطباق من الطعام ذات دلالة معيَّنة، كالخبز والتفاح المغموس في العسل، والذي يؤكل مع تلاوة صلوات تعبِّر عن الأمل في سنة حلوة قادمة. أو يُقدَّم رأس حيوان حتى يكون المرء هو الرأس دائماً ولا يكون الذنب أبداً. أما في اليوم التالي من العيد، فلابد له أن يذوق فاكهة جديدة لم يسبق له أن أكلها طوال الموسم الماضي. وهناك تقليد يُتَّبع أيضاً في هذا العيد، إذ يذهب اليهود عصر ذلك اليوم إلى الأنهار، أو أي مكان فيه مياه جارية، ليتلوا الصلوات ويلقوا خطايا العام المنصرم إلى المياه لتحملها بعيداً، وبذلك يبدأون العام الجديد بلا ذنوب. ويقال أيضاً في تفسير هذا التقليد إن أسماك الأنهار وعيونها المفتوحة دائماً تُذكِّر الناس بعين الإله الساهرة التي لا تغفل عن مراقبة مخلوقاته (هذه عادة شائعة بصفة خاصة بين الجماعات الإشكنازية، وهي ترجع إلى القرن الرابع عشر وتُسمَّى «تشليخ»). ومن الجدير بالذكر أن رأس السنة اليهودية هو العيد الوحيد الذي يُحتفَل به في إسرائيل لمدة يومين على التوالي. وقد بدأت حركات تحرير المرأة بين اليهود في القيام باحتفال «تشليخ» مقصور على النساء اليهوديات وحدهن دون الرجال.

تشـليخ

Tashlikh

انظر: «عيد رأس السنة اليهودية (روش هشاناه)».

عيـد المظـال (سـوكوت)

Feast of Tabernacles; Succot

«عيد المظال» ترجمة لكلمة «سوكوت» العبرية وتعني «المظال». وكلمة «المظال» العربية هي صيغة الجمع لكلمة «مظلة». وعيد المظال ثالث أعياد الحج عند اليهود، إلى جانب عيد الفصح وعيد الأسابيع. وقد سُمِّي هذا العيد على مدى التاريخ بعدة أسماء من بينها «عيد السلام» و«عيد البهجة». وهو يبدأ في الخامس عشر من شهر تشري (أكتوبر)، ومدته سبعة أيام، بعد عيد يوم الغفران. والمناسبة التاريخية لهذا العيد هي إحياء ذكرى خيمة السعف التي آوت العبرانيين في العراء أثناء الخروج من مصر (لاويين ٢٣/ ٤٣). وكان هذا العيد في الأصل عيداً زراعياً للحصاد، فكان يُحتفَل فيه بتخزين المحاصيل الزراعية الغذائية للسنة كلها، ولذا فإنه يُسمَّى بالعبرية «حج ها آسيف»، أي «عيد الحصاد».

وقد جاء في سفر اللاويين إشارة إلى هذا العيد: «وتأخذون لأنفسكم في اليوم الأوَّل ثمر أشجار بهجة وسعف النخل وأغصان أشجار غبياء وصفصاف الوادي» (٢٣/ ٤٠). وقد أجمع الحاخامات على أن أشجار «بهجة» هذه هي نبات حمضي يُسمَّى «الأترُج»، وهو نوع من الموالح يشبه الليمون. ويتم الاحتفال بأن يأخذ اليهود النباتات الأربعة المشار إليها، فيمسكوا بالأغصان بيمناهم بعد ربطها بطريقة خاصة ويلوحوا في كل اتجاه (شرقاً وغرباً، وإلى الجنوب والشمال، وإلى أعلى وأسفل) رمزاً إلى أن الإله هو رب الطبيعة. ويؤخذ أحد الأسفار من تابوت لفائف الشريعة ويوضع على المنصة الذي يتلو فيه القارئ (بيماه) فيدور المصلون حوله مرة إلا في اليوم الأخير حيث تؤخذ كل الأسفار ويدورون حولها سبع مرات. وبعد ذلك، يقيمون في أكواخ مصنوعة من أغصان الشجر في الخلاء تُدعى «سوكاه». ولابد أن يصنع اليهودي هذه الأكواخ بنفسه، أو على الأقل يشارك في صنعها. ويُكتفَى الآن في الدول الغربية الباردة بعمل مظلة صغيرة من السعف، تُنصَب في إحدى الشرفات بالسكن، ويتناولون فيها وجبات الطعام. وقد يُكتفى ببناء سوكاه بجوار المعبد اليهودي حيث يتناول فيها اليهود وجبة رمزية، على أن يقضوا ليلتهم في بيوتهم.

وقد لاحظ بلوتارك الشبه بين طقوس السوكاه وعبادات ديونيزيوس الإغريقية . ولعل هذا يعود إلى أن السوكاه تُغطّى بأوراق الكرم ، وتُعلّق عليها عناقيد العنب ، وكان اليهود يشربون داخلها الخمر ويغنون ويرقصون . كما أن الإطار الحلولي الذي تُعبِّر عنه الأعياد يُفسِّر هذا الجانب في عيد المظال كما يُفسِّر كونه عيد طبيعة وعيد تاريخ .

واليوم الأوَّل من أيام العيد (الأوَّل والثاني عند أعضاء الجماعات اليهودية خارج فلسطين) يُعتبر يوماً مقدَّساً يُحرَّم فيه العمل . أما اليوم الثامن (التاسع خارج فلسطين) ، فهو عيد الثامن الختامي (شميني عتسيريت) لأنه يختتم الأعياد الكثيرة الواقعة في شهر تشري ، ويتبعه عيد بهجة التوراة (سمحت توراه) . ولكنهما يُدمجان في إسرائيل (ويُعطَّل العمل في كلا اليومين) .

السوكاه

Sukah

أكواخ من أغصان الشجر يقيمها اليهود في الخلاء في عيد المظال (سوكوت) .

عيد يوم الغفران (يوم كيبور)

Day of Atonement; Yom Kippur

«يوم الغفران» ترجمة للاسم العبري «يوم كيبور» . وكلمة «كيبور» من أصل بابلي ومعناها «يطهر» . والترجمة الحرفية للعبارة العبرية هي «يوم الكفارة» . ويوم الغفران هو في الواقع يوم صوم ، ولكنه مع هذا أضيف على أنه عيد ، فهو أهم الأيام المقدَّسة عند اليهود على الإطلاق ويقع في العاشر من تشري (فهو ، إذن ، اليوم الأخير من أيام التكفير أو التوبة العشرة التي تبدأ بعيد رأس السنة وتنتهي بيوم الغفران) . ولأنه يُعتبَر أقدس أيام السنة ، فإنه لذلك يُطلَق عليه «سبت الأسبات» ، وهو اليوم الذي يُطهِّر فيه اليهودي نفسه من كل ذنب . وبحسب التراث الحاخامي ، فإن يوم الغفران هو اليوم الذي نزل فيه موسى من سيناء ، للمرة الثانية ، ومعه لوحا الشريعة ، حيث أعلن أن الرب غفر لهم خطيئتهم في عبادة العجل الذهبي . وعيد يوم الغفران هو العيد الذي يطلب فيه الشعب ككل الغفران من الإله . ولذا ، فإن الكاهن الأعظم كان يقدم في الماضي كبشين (قرباناً للإله نيابة عن كل جماعة يسرائيل) وهو يرتدي رداءً أبيض (علامة الفرح) وليس رداءه الذهبي المعتاد . وكان الكاهن يذبح الكبش الأوَّل في مذبح الهيكل ثم ينثر دمه على قدس الأقداس . أما الكبش الثاني ، فكان يُلقى من صخرة عالية في البرية لتهدئة عزازئيل (الروح الشريرة) ، وليحمل ذنوب جماعة يسرائيل (وكما هو واضح ، فإنه من بقايا العبادة اليسرائيلية الحلولية ويحمل آثاراً ثنوية ، ذلك أن عزازئيل هو الشر الذي يعادل قوة الخير) . ولا يزال بعض اليهود الأرثوذكس يضحون بديوك بعدد أفراد الأسرة بعد أن يُقرأ عليها بعض التعاويذ . وهناك طقس يُسمَّى «كابَّاروت» يقضي بأن يمسك أحد أفراد الأسرة بدجاجة ويمررها على رؤوس البقية حتى تعلق ذنوبهم بالدجاجة . وفي هذا العيد ، كان الكاهن الأعظم يذهب إلى قدس الأقداس وينطق باسم الإله «يهوه» الذي يُحرَّم نطقه إلا في هذه المناسبة . ولا تزال لطقوس الهيكل أصداؤها في طقوس المعبد اليهودي في الوقت الحاضر ، إذ يُلف تابوت لفائف الشريعة بالأبيض في ذلك اليوم على عكس التاسع من آف حيث يُلف بالأسود .

ويبدأ الاحتفال بهذا اليوم قبيل غروب شمس اليوم التاسع من تشري ، ويستمر إلى ما بعد غروب اليوم التالي ، أي نحو خمس وعشرين ساعة ، يصوم اليهود خلالها ليلاً ونهاراً عن تناول الطعام والشراب والجماع الجنسي وارتداء أحذية جلدية ، كما تنطبق تحريمات السبت أيضاً في ذلك اليوم ، وفيه لا يقومون بأي عمل آخر سوى التعبد . والصلوات التي تُقام في هذا العيد هي أكثر الصلوات اليومية لليهود وتصل إلى خمس ، وهي الصلوات الثلاث اليومية مضافاً إليها الصلاة الإضافية (مُوساف) وصلاة الختام (نعيلاه) ، وتتم القراءة فيها كلها وقوفاً . وتبدأ الشعائر في المعبد مساءً بتلاوة دعاء كل النذور ويختتم الاحتفال في اليوم التالي بصلاة النعيلاه التي تعلن أن السماوات قد أغلقت أبوابها . ويهلل الجميع قائلين : «العام القادم في القدس المبنية» ، ثم يُنفخ في البوق (الشوفار) بعد ذلك .

ويُطلَق على حرب أكتوبر حرب يوم الغفران لأن عبور القوات العربية تم في ذلك اليوم من عام ٥٧٣٣ حسب التقويم اليهودي .

ويحتفل معظم أعضاء الجماعات اليهودية بهذا العيد ، ومن بينهم اليهود العلمانيون ، ولكن احتفالهم به يأخذ شكلاً علمانياً ، فهم لا يمارسون أية شعائر مثل الصوم أو الامتناع عن الجماع الجنسي (الأمر الذي يتطلب كبحاً للذات) ، وإنما يقيمون يوماً احتفالياً فيحصلون على إجازة ويذهبون إلى المعبد حيث تقوم الجماعة بممارسات تؤكد الهوية الإثنية الآخذة في التآكل . وعلى ذلك ، فإن الاحتفال بالعيد تعبير عن رغبة عارمة لدى عدد كبير من أعضاء الجماعة في الحفاظ على هويتهم وتعبير أيضاً عن إدراكهم أنها هوية تتجه إلى الاختفاء .

وتقوم بعض الكيبوتسات العلمانية بتطوير الاحتفال بهذا العيد داخل إطار حلولي دنيوي ، أو حلولية بدون إله ، فيبدأ الاحتفال في ليلة عيد الغفران بإقامة صلاة علمانية لإحياء ذكرى كل من عاشوا من قبل في الكيبوتس ، وتُعلّق صورهم في قاعة الاجتماعات وتُقرأ أسماؤهم أثناء الصلاة ! ويبدأ الاحتفال بتلاوة مقطوعة من أعمال يتسحاق تابنكين ، وهو من قادة حركة الكيبوتس الموحد كما لو كانت أعماله نصوصاً مقدَّسة . وتُتلى بعض القصائد والأغاني ، وقد يكون من بينها دعاء كل النذور . والهدف من الاحتفال المشاركة في الذكريات والأحزان ، أي أن الذاكرة الشعبية هي الركيزة النهائية . ثم يقضي أعضاء الكيبوتس بقية الليلة واليوم التالي في حلقة نقاش حول إحدى القضايا التي تهمهم مثل الانتفاضة . وقد لخص أحد أعضاء الكيبوتس مشاعره بعد هذا الاحتفال شبه الديني بقوله : «لم أصلِّ ولم أصم ، ولكنني شاركت في تجربة جماعية ، في تَذكُّر موتانا وتجربة حياتنا» . ومن الواضح أن الاحتفال ينم عن مدى تغلغل الحلولية الدنيوية . حيث يصبح الإنسان والطبيعة هما محل القداسة ، فيحتفل الإنسان بنفسه ويعبر عنها دون إشارة إلى أي إطار خارج عنها ، وبالتالي تصبح الذكرى (أي الذات في الماضي) أو حياة الإنسان (الذات في الحاضر) أو تطلعاته (الذات في المستقبل) الموضوعات الأساسية ، كما أن العناصر الكونية يتم تأكيدها .

يوم الغفران

Yom Kippur

انظر : «عيد يوم الغفران» .

يوم كيبور

Yom Kippur

«يوم كيبور» كلمة عبرية تشير إلى يوم الغفران .

انظر أيضاً : «عيد يوم الغفران» .

كاباروت

Kapparot

صيغة جمع لكلمة «كاباراه» العبرية وتعني «تكفير» . وهي إحدى الشعائر اليهودية التي يتم من خلالها نقل خطايا اليهودي الآثم بشكل رمزي إلى طائر . ولا يمارس هذا الطقس الآن سوى بعض اليهود الأرثوذكس في عيد يوم الغفران (يوم كيبور) ، كما يُمارَس أحياناً في عيد رأس السنة . وتأخذ الشعيرة الشكل التالي : تُتلى بعض المزامير وفقرات من سفر أيوب ثم يُدار حول رأس اليهود طائر (ديك إذا كان الآثم ذكراً ودجاجة إذا كان أنثى) يُفضَّل أن يكون أبيض اللون ثم يُتلى الدعاء التالي : «هذا هو بديلي ، قرباني ، الذي ينوب عني في التكفير عني . هذا الديك (أو الدجاجة) سيلقى حتفه ، أما أنا فستكون حياتي الطويلة مفعمة بالسلام» . ثم يُعطى الطائر بعد ذلك لأحد الفقراء ، أما أمعاؤه فتُعطى للطيور . وقد تَعدَّل الطقس إذ يذهب بعض الحاخامات إلى أنه يمكن إعطاء نقود تعادل ثمن الطائر .

ولم يأت ذكر لهذا الطقس في التوراة أو التلمود ويظهر أول ما يظهر في كتابات الفقهاء (جاؤون) في القرن التاسع . وقد اعترض بعض الحاخامات في بداية الأمر على هذا الطقس لأنه يشبه الشعائر الوثنية وقد وافق على هذا الاعتراض كل من نحمانيدس ويوسف كارو . ولكن الوجدان الشعبي يميل لمثل هذه الشعائر ، فهي تُقرِّب العابد من الإله بطريقة محسوسة ، ولهذا كُتب لها الاستمرار ، وخصوصاً أن القبَّاليين أحاطوها بكثير من الهالات الصوفية الحلولية . ثم تم قبولها بالتدريج حتى أن الحاخام إيسيريلز جعلها إجبارية . وهذا يُبيِّن الخاصية الجيولوجية التراكمية في اليهودية . وفي اليديشية والعبرية الدارجة أصبحت كلمة «كاباروت» تعني «خسارة مالية» أو «جهداً لا طائل من ورائه» .

عيد التدشين (حانوخه)

Hannukah

«عيد التدشين» هو الاسم العربي لعيد «حانوخه» وهي كلمة عبرية معناها «التدشين» . ويستمر عيد التدشين ثمانية أيام بدءاً من الخامس والعشرين من كسلو (يقابل ديسمبر) حتى ٣ تيفت . والمناسبة التاريخية لهذا العيد هي دخول يهودا الحشموني (أو المكابي) القدس وإعادته للشعائر اليهودية في الهيكل . من هنا كانت تسميته بعيد التدشين . ويُقال إن يهودا المكابي ، حينما دخل الهيكل ، وجد أن الزيت الطاهر الذي يحمل ختم الكاهن الأعظم لا يكفي إلا يوماً واحداً (وكان من الضروري أن تمر ثمانية أيام قبل إعداد زيت جديد كما تقضي التوراة) . فحدثت المعجزة ، واستمر الزيت في الاحتراق مدة ثمانية أيام بدلاً من يوم واحد . ولذلك ، صُمِّم لهذا اليوم شمعدان مينوراه خاص من تسعة أفرع ، فتُوقَد شمعة في الليلة الأولى ، ثم تُضاف ثانية في اليوم التالي ، وهكذا حتى اليوم الثامن . وتُقرأ بعض الفقرات من سفر العدد ، ثم يُضاف وصف لمعجزة الحانوخه في تلاوة العميداه أثناء الصلاة .

وقد قرر الحاخامات أن تُقرَأ فقرات من سفر زكريا (٤/٦) « لا بالقــدرة ولا بالقــوة بل بروحي قــال رب الجنود » . وقــد أراد الحاخامات بذلك أن يقللوا من شأن الجانب العسكري للعيد ، وأن يركـزوا على الجــانب الروحي . ولكن العكس يحـدث الآن في الأوساط اليهودية تحت تأثير الصهيونية ، وفي الدولة الصهيونية على وجه الخصوص ، إذ يبالغون في الاحتفال بهذا العيد وفي تأكيد الجانب القومي .

وعيد التدشين ليس في الواقع من الأعياد التي وردت في العهد القديم . وقد كان هذا العيد عيداً بلا أهمية كبيرة . ولذا ، فهو العيد الوحيد (باستثناء عيد النصيب) الذي لا يُحرَّم فيه العمل . وكان يُحتفَل به بطريقة بسيطة جداً ، فتُوقَد شمعة واحدة في أول يوم ، ثم شمعتان في اليوم التالي ، وهكذا إلى أن تُوقَد الشموع الثمانية . وكان رب الأسرة يتلو دعاءً ، وتُنشد الأسرة أغنية بسيطة لشكر الإله يشار فيها إلى السلوقيين بوصفهم « الكلاب » (حرفياً : العدو الذي ينبح) . وكان الأطفال يلعبون لعبة بسيطة . ولم تكن أيام عيد التدشين تختلف عن أيام الأسبوع الأخرى . ولكن العيد بحكم توقيته (الخامس والعشرين من ديسمبر) يقع في الفترة نفسها التي يحتفل فيها المسيحيون بأهم أعيادهم (عيد الميلاد) . ولما كان أعضاء الجماعات اليهودية يكتسبون هويتهم من خلال الحضارة التي يعيشون بين ظهرانيها ، فإن عيد التدشين يكتسب أهمية خاصة ، حتى صار هذا العيد غير المهم من أهم الأعياد على الإطلاق وأصبح صدى لعيد الكريسماس . فهناك المينوراه المقابل لشجرة الكريسماس ، كما أن الهدايا تُعطَى للأطفال في ذلك العيد . وقد تمت علمنة العيدين بحيث تحولًا إلى مناسبتين للمرح واللعب . بل بلغ تقليد الكريسماس إلى حد أن الأدعية التي كانت تُتلى في عيد التدشين والأغاني والألعاب التقليدية لأطفال اليهود اختفت تقريباً وحل محلها ما يُسمَّى «شجرة الحانوخه» (التدشين) ، وهي تعادل شجرة الكريسماس . وهناك «العم ماكس رجل الحانوخه» الذي يوزع الهدايا ، وهو مقابل سانتا كلوز . ومن الطريف أن العيد ، بعد أن فقد هويته اليهودية تماماً ، يُنظر إليه باعتباره أهم تعبير عن الهوية اليهودية .

ويُحتفَل بالعيد في إسرائيل على أنه عيد ديني قومي ، فتُوقَد الشمعدانات في الميادين العامة ، وتُنظَّم مواكب من حملة المشاعل . وأثناء الاحتفال ، يصعد آلاف الشبان إلى قلعة ماسادا .

عيد النصيب (بوريم)

Purim

«عيد النصيب» هو الاسم العربي لعيد البوريم . و«بوريم» كلمة عبرية مشتقة من كلمة «بور» أو «فور» البابلية ومعناها «قرعة» أي «نصيب» . وكان عيد النصيب يُدعى أيضاً «يوم مردوخت» إشارة إلى «الباروكة» التي كان يرتديها الشخص في عيد النصيب في القرن الأول قبل الميلاد (وقد سمّى العرب هذا العيد «عيد الشجرة» أو «عيد المساخر») . وعيد النصيب يُحتفَل به في الرابع عشر من آذار . وهو عيد بابلي . كانت الآلهة البابلية تُقرِّر فيه مصير البشر . ويوم الرابع عشر من آذار هو اليوم الذي أنقذت فيه إستير يهود فارس من المؤامرة التي دبرها هامان لذبحهم . ولهذا ففي اليوم الذي يسبق العيد يصوم بعض اليهود ما يُسمّى «صوم (تعنيت) إستير» ، إحياءً لذكرى الصوم الذي صامته إستير وكل اليهود في شوشان قبل ذهابها إلى الملك تستعطفه لإلغاء قرارات هامان (حسب الرواية التوراتية) . وكان قد تقرَّر بالقرعة (أي بالنصيب) أن يكون يوم الذبح في الثالث عشر من آذار ـ ومن هنا التسمية .

ويحتفل اليهود بهذا العيد بأن يقرأ أحدهم سفر إستير من إحدى اللفائف الخمس (أي من مخطوطة خاصة مكتوبة بخط اليد) ليلة العيد وفي يوم العيد نفسه . ويتعيَّن على الجميع ، وضمن ذلك النساء والأطفال ، أن ينصتوا إلى القارئ . ويصاحب هذا العيد الكثير من الصخب ، إذ كان اليهود عند ذكر اسم هامان ، أثناء قراءة سفر إستير ، يُحدثون جلبة أو يدقون بالعصي التي في أيديهم وكأنهم يضربون هامان وينكلون به . ويتوقف القارئ تماماً عن التلاوة حتى يتلاشى الصوت ، ثم يتلو مرة أخرى إلى أن يصل إلى كلمة «هامان» مرة أخرى . ويقدم اليهود في هذا العيد الهدايا إلى الأصدقاء والمحتاجين ، كما أن الأسر تتبادل الطعام . ومن العادات الأخرى ، تناول فطيرة خاصة يدعونها «أذن هامان» . وكذلك كان أعضاء الجماعات يحتفلون بالعيد بارتداء الأقنعة ، كما كانوا يقومون في العالم الغربي بتمثيل مسرحيات عن قصة إستير التي مُثِّلت أول مرة في جيتو البندقية عام ١٥٣١ . وهي مسرحيات متأثرة بالكرنفالات الإيطالية والتمثيليات المسيحية التي تُسمَّى التمثيليات الأخلاقية (بالإنجليزية : مورلايتي بليز morality plays) كما كانوا يسرفون في الشراب حتى أن بعض فقهاء اليهود أفتوا بأنه بوسع اليهودي أن يغرق في الشراب إلى درجة أنه لا يعرف (أثناء قراءة سفر إستير) الفرق بين الدعاء على هامان ، والدعاء لمردخاي . وجاء في المشناه أنه قد تُلغَى كل الأعياد إلا عيد النصيب لأن اليهود سيظلون

دائماً مخلصين لإلههم ولشعبهم . ولذا ، سيكون هناك دائماً هامان يتآمر لتدمير الشعب . ومع هذا ، اختفى هذا العيد تقريباً في الولايات المتحدة نظراً لتفاعل اليهودية الأمريكية مع محيطها الحضاري ، فهذا العيد يقع في فبراير حيث لا توجد أية أعياد أمريكية أو مسيحية ، الأمر الذي أدَّى إلى ضمور العيد ، على عكس عيد التدشين الذي يتزامن مع احتفال عيد الميلاد المسيحي ، ولهذا أصبح عيداً مهماً للغاية .

وهناك أعياد نصيب أو بوريم خاصة بكل جماعة يهودية تحتفل فيها بنجاتها من إحدى الكوارث مثل بوريم القاهرة (٢٨ آدار الذي أصبح يُحتفَل به ابتداءً من عام ١٥٢٤) وبوريم بادوا (١٠ إيلول) ، وهناك أعياد بوريم خاصة بكل فرد . والاحتفال بهذه الأعياد الخاصة يشبه الاحتفال بالعيد الديني ، فتُكتَب قصة المناسبة التي يُقام العيد من أجلها على لفيفة وتُقرأ أثناء الاحتفال ، وتُقام الولائم وتُتلى أدعية خاصة . وكان عيد البوريم وصوم إستير من أهم الأعياد بالنسبة إلى يهود المارانو المتخفين ، فقد كانوا مضطرين إلى إظهار غير ما يبطنون، تماماً مثل إستير التي كانوا يعدونها بطلتهم الدينية .

عيد الفصح أو الفسح

Passover

«عيد الفصح» أو «عيد الفسح» هو المصطلح المقابل العربي للكلمة العبرية «بيساح» . ويبدأ عيد الفصح في الخامس عشر من شهر نيسان ويستمر سبعة أيام في إسرائيل (وعند اليهود الإصلاحيين) وثمانية أيام عند اليهود المقيمين خارج فلسطين . ويُحرَّم العمل في اليومين الأول والأخير (وفي اليومين الأولين واليومين الأخيرين خارج فلسطين) . وتُقام الاحتفالات طوال الأيام السبعة . أما الأيام الأربعة الوسطى فيلتزم فيها بتناول خبز الفطير دون أن يقترن ذلك بطقوس احتفالية كبرى . وعيد الفصح أول أعياد الحج اليهودية الثلاثة . وإذا أخذنا المغزى التاريخي للعيد ، فإنه يُشار إليه بالأسماء التالية :

١ ـ «حج البيساح» . و«بيساح» كلمة عبرية تعني «العبور» أو «المرور» أو «التخطي» . ومن هنا التسمية الإنجليزية «باس أوفر Passover» إشارةً إلى عبور ملك العذاب فوق منازل العبرانيين دون المساس بهم وإشارةً إلى عبور موسى البحر .

٢ ـ وهو أيضاً العيد الذي كان يُضحَّى فيه بجمل أو جدي (بِشال) .

٣ ـ وهو كذلك عيد خبز الفطير غير المخمر (حج هامتسوت) .

٤ ـ يُحتفَل في هذا العيد بذكرى نجاة شعب يسرائيل من العبودية في مصر (زمن حيروتينو) ورحيلهم عنها .

أما إذا نظرنا إلى معنى العيد الطبيعي أو الكوني ، فإنه يشار إليه بأنه «عيد الربيع» . ويكون العبور هنا هو عبور الشتاء وحلول الربيع محله (حج هاآبيب) .

ويذكر سيسل روث أن كلمة «بيساح» نفسها لا تعني العبور وحسب ، وإنما هي مأخوذة من جذر بمعنى «يرقص» أو «يقفز» . ولعل هذا يربط بين كل المعاني التاريخية والطبيعية السابقة . وهكذا نجد أن ميلاد الشعب بالخروج من مصر ، وميلاد الطبيعة والكون ، شيئان متداخلان تمام التداخل في إطار البنية الحلولية اليهودية .

ويبدو أن عيد الفصح نتاج امتزاج عيدين قديمين : أولهما عيد أبيب (الربيع أو الاخضرار) . وهو عيد الاحتفال بالربيع على عادة الحضارات التي سادت الشرق الأدنى القديم ، وقد كانت تصاحبه طقوس صاخبة احتفالاً بالخصوبة . وكان المحتفلون يقدمون أول أبكار الأرض إلى المعبد (خروج ٢٣/ ١٩) . أما العيد الآخر ، فهو عيد المتسوت (الخبز غير المُخمَّر) ، وهو عيد غير معروف الأصل . وهناك إشارة في سفر الخروج (٢٣/ ١٥) تذكر أن خروج جماعة يسرائيل من مصر قد تزامن مع هذا العيد ، أي أن الخروج كان بالصدفة أثناءه . وكانت العبادة اليسرائيلية القديمة تحرم استخدام الخميرة في الخبز في بعض أوقات السنة . وقد امتزجت طقوس العيدين السابقين مع عناصر أخرى من العبادة اليسرائيلية والحضارات الوثنية التي عاش أعضاء جماعة يسرائيل بين ظهرانيها لتكوِّن طقوس عيد الفصح .

والواقع أن طقوس الاحتفال بهذا العيد كثيرة ومعقدة ، نظراً لتعدد مصادرها الأمر الذي يبين تركيب اليهودية الجيولوجي التراكمي بشكل واضح . ورغم أن هذه المصادر دنيوية ، وأحياناً وثنية ، فإن حاخامات اليهود قد فسروها بطريقة تضفي عليها مغزى دينياً . ويبدأ العيد بليلة التفتيش عن الخميرة . ويجب على اليهودي فيها أن يتأكد من أن أية خميرة تصلح للخبز قد أُبعدت عن البيت تماماً، ثم بعد ذلك يبدأ الاحتفال نفسه ، ويُسمَّى «سدَر» ، وهي كلمة عبرية معناها «نظام» . ويتّبع السدَر نظاماً محدّداً فيُقرأ القيدوش في البداية ويحمد اليهودي الإله على أنه أعطى جماعة يسرائيل أعيادها ، ثم تُغسَل الأيدي فيما يشبه الوضوء . وتدور معظم الطقوس حول أمرين : مائدة الفصح ، وحكاية الفصح . فتوضع على مائدة الفصح حزمة من النباتات المرة كالخس أو الشيكوريا أو الكرفس (مارور) ، ثم كأس من الماء المالح أو المخلوط

بالخل (رمز الحياة القاسية التي عانوا منها في مصر ، ورمز دموع جماعة يسرائيل) أو المأكولات الكريهة على النفس (مثل تلك التي أكلها أسلافهم أثناء الفرار في الصحراء) ، وبجانب ذلك يوضع شيء من الفاكهة المهروسة أو المدقوقة في الهون والمنقوعة في النبيذ (رمز الملاط الذي كانوا يستخدمونه في البناء في مصر) ، كما يوضع ذراع خروف مشوي (تذكرةً بالحمل الذي كان يُضحَّى به) ، وبيضة مسلوقة (تذكرةً بقربان العيد) . ولنا أن نلاحظ أن التفسيرات التي أوردناها للطقوس لا يأخذ بها كل اليهود ، كما أنها ظهرت في فترة لاحقة لظهور الطقوس نفسها .

ولكن أهم شيء على مائدة الفصح هو خبز المتسوت أو خبز الفطير الذي لا تداخله خميرة ، والذي لا يأكل اليهود سواه طيلة هذا اليوم؛ تذكيراً لهم بأنهم عند فرارهم مع موسى من وجه فرعون لم يكن لديهم وقت للتأنق في الخبز والانتظار على العجين (حسب تفسير الحاخامات) ، أو يُقال لأن الخميرة تشبه الشر المخبأ (حسب تفسير القبَّالاه) . ويوضع على مائدة عيد الفصح ثلاثة أرغفة من خبز الفطير ترمز إلى كلٍّ من الكهنة واللاويين وجماعة يسرائيل . ومن يأكل خبزاً مخمراً في هذا اليوم ينظر إليه وكأنه انفصل عن الشعب اليهودي انفصالاً كاملاً . وقد يضيف البعض رغيفاً رابعاً رمزاً لليهود المضطهدين في بعض بلاد العالم .

ويتم تناول هذه الأطعمة والمأكولات حسب نظام معيَّن ، فتُغمس الأعشاب في الماء المالح ، ويكسر رغيف الفطير الأوسط ، ويُخبأ نصفه ليبحث الأطفال عنه ولا يؤكل هذا النصف إلا بعد نهاية الوجبة . والنظام الذي يتبعه السدر متأثر تماماً بنظام المأدبات في الحضارة اليونانية الرومانية كما عرفها معلمو المشناه (تنائيم) . وفي مثل هذه المأدبات ، كان الضيوف يأكلون مشهيات (خضراوات مغموسة في الخل ، وفاكهة مهروسة) ثم يدخلون بعد ذلك إلى غرفة العشاء نفسها حيث يشاركون في الوجبة الأساسية التي تتكون من لحم وخبز وهم مضطجعون على الأرائك . وكان الضيوف يشربون الخمر مع المشهيات ، ثم يشربونها مرة ثانية مع الطعام نفسه ، ومرة ثالثة وأخيرة بعد العشاء .

وقد ظهر أثر هذه العادة في مائدة عيد الفصح إذ تبنَّى اليهود فكرة الكؤوس الثلاثة وأضافوا إليها كأساً رابعة تُشرب أثناء تلاوة القاديش . ولذا ، توضع على مائدة الفصح أربعة أقداح (أربع كوسوت) من النبيذ يشربها أعضاء الأسرة ، وهي ترمز إلى وعد الإله لليهود بتخليصهم وقيامه بإنقاذهم من مصر بنفسه دون وساطة . وقد تمت عملية الإنقاذ على أربع مراحل (سأخرجكم ، وسأرسلكم ، وسأخلصكم ، وسأجعلكم شعبي المختار) . كما يُقال إن الكؤوس الأربع رمز للشعوب الأربعة التي أذلت العبرانيين ، وهم : البابليون والفرس واليونانيون والرومان ، ويُضاف قدح خامس يُترك دون أن يمسه أحد لأنه كأس النبي إيليا الذي سينزل من السماء قبل قدوم الماشيَّح المخلِّص . كما يضاف أحياناً الآن قدح سادس وتصحبه صلاة شكر للإله على قيام دولة إسرائيل! وأمام مائدة الفصح ، توضع أريكة يضطجع عليها رئيس العائلة ، ويقص على أفراد أسرته قصة الخروج ، وهذا الجزء من السدر يُسمَّى «هاجاداه» . ويأخذ القص شكل إجابة عن أسئلة يوجهها أطفال الأسرة . وهي على ثلاث صيغ تناسب كل صيغة سناً معيَّناً . ويجب على كل يهودي أن يستمع إلى القصة ويخوض التجربة كما لو كانت تجربة شخصية يخوضها بنفسه . ويتبادل أعضاء الأسرة التهنئة بهذا العيد بقولهم : «لنلتقي العام القادم في أورشليم» ، وهي التهنئة التي حولتها الصهيونية من مفهوم ديني معنوي إلى مفهوم سياسي . ويتداول اليهود في هذا العيد كتباً يُطلَق عليها اسم «هاجداه» تحتوي على قصة الخروج من مصر .

وهذا العيد يرتبط أساساً بواقعة الخروج من مصر . ولذا نجد أن الصراع ، بين السلوقيين حكام سوريا والبطالمة حكام مصر ، قد ألقى بظلاله على عيد الفصح . فالمدراش الخاص بعيد الفصح والذي وافقت عليه سلطات الهيكل تحت نفوذ البطالمة ، أكد أن لابان هو تجسيد سوريا (آرام) التي كان يحكمها السلوقيون ، وأنه يحاول الفتك بأخيه يعقوب . ولذا فقد جاء إلى مصر حسب أوامر الإله . ولكن بعد سنة ٢٠٠ ق . م . وبعد استيلاء السلوقيين على الحكم ، تغيرت موازين القوى في المنطقة وتغيَّرت من ثم طقوس عيد الفصح فتم تأكيد وضع مصر كمنفى بإيعاز من السلوقيين منافسي البطالمة ، وأصبح الخروج من مصر هو الحرية (ويُقال إن يهود الإسكندرية كانوا يتحدثون عن الخروج دون تأكيد وضع مصر) .

وارتبط عيد الفصح بتهمة الدم ، إذ كان يسود الاعتقاد بين العامة أن أعضاء الجماعات اليهودية يعجنون خبزهم بدم طفل مسيحي . ويُقال إنه ، لهذا السبب ، كانت تُفتح الأبواب بعد الانتهاء من مأدبة الفصح حتى يرى غير اليهود ما يدور في المنزل . ولم يكونوا يشربون نبيذاً أحمر في هذه المأدبة للسبب نفسه .

ويحتفل كثير من أعضاء الجماعات اليهودية والإسرائيليين بعيد الفصح كمناسبة قومية . ولذا ، فإنهم لا يتَّبعون كثيراً من طقوسه ، وبالذات الخاصة بخبز الفطير . وقد لوحظ أن ١٠٪ من الإسرائيليين الذين لا يتناولون خبز الفطير في هذا العيد يتدافعون إلى المخابز في

الأحياء العربية لشراء الخبز المخمر ، وتضاعف هذه المخابز إنتاجها في هذه الفترة نظراً لأنه يُحظر بيع مثل هذا الخبز في تلك الفترة في المناطق اليهودية . وقد أصدر رئيس لجنة الداخلية بالكنيست مؤخراً قراراً يمنع السكان العرب في القدس من بيع الخبز والمأكولات الأخرى التي تحتوي على خميرة أثناء أسبوع عيد الفصح (باعتبار أن القدس بيت جماعة يسرائيل) . ودخل الجنود الإسرائيليون ، وأجبروا المخابز على إغلاق أبوابها كما أجبروا الحوانيت على عدم بيع الخبز . وبذا أصبح مفروضاً على العرب أن يأكلوا خبز الفطير أثناء ذلك العيد .

ويختلف السفارد عن الإشكناز في الاحتفال بهذا العيد . فالسفارد يأكلون ، على سبيل المثال ، الأرز والبقول (كالحمص والفول) ، وهو ما لا يفعله الإشكناز . كما أن السفارد يحرصون على أن يقذف بعضهم بعضاً بالبصل ليُذكِّروا أنفسهم بالمصريين حيث كانوا يضربون اليهود ، في حين أن الإشكناز يرون أن هذه طريقة شرقية «متخلفة» للاحتفال بالعيد .

سدر

Seder

«سدر» كلمة عبرية تعني «نظام» أو «ترتيب» . وتشير «سدر» كمصطلح إلى الاحتفالات بالأعياد التي تحتاج إلى ترتيبات مسبقة . وهي عادةً تشير إلى الليلة الأولى (الليلتين الأوليين خارج فلسطين) من احتفال عيد الفصح (خروج ٢٣/ ١٤ ـ ١٩) حيث تتسم بطقوسها المركبة الخاصة بحمل التضحية (باشال) ، وفطير الخبز غير المخمر (متسوت) ، والأعشاب البرية (مارور) ، والكؤوس الأربع (أربع كوسوت) . وتُقام هذه الطقوس على النحو التالي :

١ ـ تبدأ الاحتفالات بقراءة القيدوش التي يحمد فيها اليهودي الإله على أنه أعطى جماعة يسرائيل أعيادها ، ويشرب أول كأس من الخمر .

٢ ـ يغسل رب الأسرة يديه فيما يشبه الوضوء .

٣ ـ تُغمس الأعشاب في الخل أو الماء المملح .

٤ ـ توضع أرغفة خبز الفطير ، الواحد فوق الآخر ، قبل ابتداء الاحتفال . وأثناء الاحتفال نفسه ، يُقطَّع الرغيف الذي في الوسط إلى نصفين ، ويُخبأ النصف الذي يُدعى «أفيكومان» ، أي «ما بعد المأدبة» . ويؤكل في نهاية المأدبة تذكرةً بحَمَل التضحية الذي كان يؤكل في الماضي مع نهاية المأدبة حتى يبقى طعمه في الفم . ومن المعتاد أن يبحث الأطفال عن النصف المخبأ . وتُعطى جائزة لمن يعثر عليه . وبعد تناوله ، لا يؤكل شيء بقية الليلة .

٥ ـ تُتلى أنشودة دينية بالآرامية يتم فيها ترديد ما معناه : «هذا هو خبز المعاناة الذي أكله آباؤنا في مصر . من هو في جوع فليأت وليأكل . ومن هو في عوز فليأت وليحتفل بعيد الفصح معنا هذا العام . العام القادم في أورشليم . في هذا العام نحن مازلنا عبيداً ، وسنكون أحراراً في العام القادم» .

٦ ـ تُتلى الهاجاداه ، فيتلو أصغر الأطفال الأربعة أسئلة تبدأ بالعبارة «ماه نيشتاناه» ، أي «لمَ هذه الليلة مختلفة عن بقية الليالي؟» وتُروى قصة الهاجاداه أساساً من أجل الأطفال ، فيروي القاص (رب البيت المضطجع على أريكته) قصة العبودية في مصر والخروج منها . ويشرح الراوي رموز مائدة الفصح ، ويلي ذلك قراءة العبارة التالية : «في كل عصر يتعيَّن على اليهودي أن يعتبر نفسه وكأنه خرج هو نفسه من مصر» . وبذا ، ينتهي الجزء المسمَّى «الهاجاداه» في السدر ، ثم تُشرب الكأس الثانية بعد تلاوة دعاء يحمد اليهود فيها الإله على خلاصهم في الماضي ، ويطلبون منه الخلاص في المستقبل .

٧ ـ غسل اليدين مرة أخرى قبل قطع خبز الفطير .

٨ ـ يُتلى دعاء شكر للإله « الذي . . . أعطى الخبز » .

٩ ـ يؤكل أجزاء من رغيف خبز الفطير الأول (العلوي) ، ثم يؤكل نصف الرغيف الثاني (الأوسط) .

١٠ ـ تُغمَس الأعشاب الخضراء في الفاكهة المهروسة ، وتؤكل .

١١ ـ تُصنَع شطيرة (ساندويتش) من رغيف خبز الفطير الثالث (السفلي) والأعشاب المريرة ، وتُؤكل .

١٢ ـ تُؤكل الأطعمة الأخرى في مأدبة العيد .

١٣ ـ يبحث الأطفال عن نصف الرغيف المخبأ ويُؤكل .

١٤ ـ تُتلى صلاة شكر ، وتُشرب الكأس الثالثة .

١٥ ـ تُتلى مزامير الشكر للإله (مزامير ١١٥ ـ ١١٨) ، وتُشرب الكأس الرابعة ، ويُفتَح باب المنزل . ومع نهاية المأدبة ، تُتلى بعض فقرات العهد القديم (خروج ١٢/ ٤٢) للدلالة على أن أعضاء جماعة يسرائيل لا يخافون شيئاً ، وإن كان يُقال إن السبب الحقيقي هو إعطاء فرصة لغير اليهود لأن يروا أنهم لا يأكلون خبزاً معجوناً بدم طفل مسيحي ، وللسبب نفسه كانوا يشربون نبيذاً أبيض ، مع أن النبيذ الأحمر مُفضَّل حسب العرف الديني .

خبز الفطير (متساه)

Matzah

«خبز الفطير» هو الخبز الذي لا تدخله خميرة ، ويعبَّر عنه في

العبرية بكلمة «متساه» وجمعها «متسوت» ، وهو نوع من الخبز يمكن إعداده بسرعة . ولذا ، يُشار إليه بأنه الخبز الذي يُعَدّ للضيوف غير المتوقعين (تكوين ١٩/ ٣) . وهو أيضاً «خبز الخروج» أو الخبز الذي يأكله اليهود في عيد الفصح الذي يُسمَّى أيضاً «عيد المتسوت» .

والتفسير الديني لخبز الفطير هو أن أعضاء جماعة يسرائيل ، عند خروجهم من مصر ، كانوا في عجلة من أمرهم ، فعجنوا خبزهم بدون خميرة ، لأنه لم يكن لديهم وقت للتأنق . ولكن يبدو أن هذا الخبز يعود إلى أحد احتفالات الربيع في كنعان ، فقد كانت تُعَد فطائر من عجين غير مخمر من المحصول الجديد وتُؤكل بوصفها جزءاً من الطقس الديني . ويُلاحَظ أن حظر استخدام الخميرة في المنزل ينطبق على كل أيام عيد الفصح . أما أكل خبز الفطير نفسه ، فهو فريضة دينية يجب أن يؤديها اليهودي في اليوم الأول من عيد الفصح (وفي اليومين الأول والثاني بين أعضاء الجماعات خارج إسرائيل) وإن كان من المستحسن أن يُؤكل هذا الخبز طيلة الأسبوع . وفي إسرائيل يتزاحم المواطنون اليهود على المخابز العربية لشراء خبز عادي ، حتى لا يضطروا إلى أكل خبز الفطير حيث يكون محظوراً على المخابز اليهودية أن تحتفظ بخميرة أثناء فترة العيد . ومؤخراً ، طُبِّق هذا الحظر على المخابز العربية في القدس . وفي الآونة الأخيرة، لجأت الحاخامية إلى حيلة شرعية حتى لا يكون هناك أي خميرة في إسرائيل فتُباع أية خميرة في إسرائيل لأحد العرب قبل عيد الفصح ، ثم تُشترَى بعد العيد !

كتاب احتفالات عيد الفصح (هاجاداه)

Haggadah

«هاجاداه» كلمة عبرية معناها «القص» أو «القول» ، وهي الصيغة الثابتة التي تُروَى بها قصة الخروج في الليلة الأولى من احتفالات عيد الفصح ، وهي جزء من السدر (النظام) . والنطاق الدلالي للكلمة مرن ، فهي قد تُستخدَم للإشارة إلى كل السدر ، كما تُستخدَم للإشارة إلى الكتب التي تحوي القصة ، أو تشير إلى كتب السدر نفسها . وهي تشير أيضاً إلى مجموعة الصلوات والأدعية والتعليقات المدراشية والمزامير وقصة العبودية في مصر والخروج منها، وإلى شكر الإله على تخليص اليهود من العبودية والتوسل إليه أن يخلصهم في العام القادم .

وسرد قصة الخروج فرض ديني ، فقد جاء في سفر الخروج (١٣/ ٨) : « وتخبر ابنك في ذلك اليوم قائلاً من أجل ما صنع إليّ الرب حين أخرجني من مصر» . ويكتفي القراءون بقراءة الفقرات المناسبة في العهد القديم ، ولكن اليهود الحاخاميين يفضلون أن يأخذ القص شكل العرض والتفسير المدراشي لهذه الفقرات ، فتأخذ شكل أسئلة وأجوبة . ويطرح هذه الأسئلة أصغر الأطفال الموجودين في المأدبة ، فيقول : «ماه نيشتاناه» : أي «لم هذه الليلة مختلفة عن بقية الليالي ؟» ، ثم يتبعه بأربعة أسئلة عن خبز الفطير (متسوت) . والأعشاب المرة (مارور) ، وعن عادة الاضطجاع أثناء الأكل . والإجابة عن هذه الأسئلة هي الهاجاداه بالمعنى المحدد للكلمة . وهي تأخذ أيضاً شكل صيغة ثابتة مقررة من قبل ، فتبدأ الإجابة بالإشارة إلى أن اليهود كانوا عبيداً في مصر ، يتبعها بعض التعليقات المدراشية على فقرات من سفر التثنية (٢٦/ ٥-٨) وذكر الأوبئة العشرة ، ثم تُتلى أنشودة شكر .

وكتب الهاجاداه مكتوبة بالعبرية وبها بعض العبارات الآرامية. وهي عادةً محلاة بالصور . وتحتفظ كثير من الكيبوتسات في إسرائيل بهاجاداه خاصة بها ، مُصوَّرة تصويراً خاصاً ، ولها ألحانها الخاصة أيضاً . كما أصدر الجيش الإسرائيلي هاجاداه خاصة به محلاة بصور عسكرية ، وتهدف هذه الطبعة إلى المزج بين كل المهاجرين الذي يتسمون بعدم التجانس الثقافي . وقد بدأت بعض الجماعات اليهودية مؤخراً في إصدار طبعات من الهاجاداه تحذف بعض الصيغ التقليدية ، وتضيف مادة جديدة مثل الإشارة إلى الحركة الصهيونية وتأسيس إسرائيل . وقد ألَّف الكاتب الإسرائيلي حاييم حزاز هاجاداه إسرائيلية حديثة تماماً للاحتفال بعيد الاستقلال لا بعيد الفصح . باعتبار أن استقلال إسرائيل أكثر أهمية من الخروج القديم من مصر فهو يمثل التحرر الحقيقي والكامل لليهود من كل بلاد العبودية . كما وضعت بعض مفكرات حركة اليهودية المتمركزة حول الأنثى كتاب هاجاداه خاصاً بالنساء ، فبدلاً من كأس النبي إلياهو وضعن كأس الكاهنة مريم وبدلاً من الأبناء الأربعة نجد البنات الأربع ، وهكذا . كما وضعت إحدى الجماعات اليهودية المدافعة عن البيئة هاجاداه «بعد تحرير الحمل» ، أي أنه لا يتم التضحية بالحمل أو أكل لحمه ويكتفى بأكل الأعشاب والخضروات .

الميمونه

Maimuna

يُقال إن كلمة «الميمونه» تعود إلى كلمة «ميمون» العربية بمعنى «السعيد» ، و«الميمونه» احتفال يعقده يهود المغرب ، وكثير من العرب اليهود ، في آخر يوم من أيام عيد الفصح . وهو اليوم الذي يوافق ذكرى وفاة ميمون بن يوسف (والد موسى بن ميمون) الذي

عاش في فاس لبعض الوقت . وفي هذا اليوم ، تُصف على الموائد تلك الأطعمة والمشروبات التي لها دلالة رمزية مثل دوارق اللبن الحليب ، وأكاليل أوراق الشجر والزهور ، وغصون شجر التين ، وسنابل القمح ، كما يوضع دورق فيه سمكة حية (رمزاً للخصوبة) . وينصمر الطعام حب يُغمس في العسل واللبن المخيض ، وفطائر مغطاة بالزبد والعسل . ويوضع إناء فيه دقيق ، داخله بعض الأشياء والحلي الذهبية (رمزاً للثراء) ، وإناء فيه خميرة (الخبز أول رغيف بخميرة بعد انتهاء الحظر على استخدامها) وأحياناً يوضع طبق من الدقيق عليه حمص بيضات ، وحمص حبات فول وبلح . وفي ليلة هذا الاحتفال ، لا يأكل اليهود سوى منتجات الألبان وبسكويت صُنع بطريقة خاصة تُسمّى «موفليتا» ، ولا يأكلون أي نوع من اللحم . كما أنهم يزورون بعضهم البعض ويتبادلون الطعام . وفي يوم الميمونة نفسه ، يخرج اليهود إلى الحقول والمقابر والشواطئ . ويحتفل يهود المغرب في إسرائيل بالميمونة ، وهو ما يثير حفيظة اليهود الإشكناز بسبب طابعه الشرقي .

عيد الاستقلال

Independence Day

«عيد الاستقلال» ترجمة لعبارة «يوم هاعتسماءوت» العبرية . و«عيد الاستقلال» هو العيد الذي يحتفل فيه الإسرائيليون بإنشاء الدولة الصهيونية (يوم ١٤ مايو حسب التقويم الميلادي ، ٥ إيار حسب التقويم اليهودي) . ويشير له الفلسطينيون باصطلاح «النكبة» ، باعتبار أنه ذكرى ما حل بهم من تشريد نتيجة لاغتصاب المستوطنين الصهاينة لوطنهم . وإذا كان يوم ٥ إيار يوم جمعة أو سبت ، فإن الاحتفال بالعيد يكون يوم الخميس الذي يسبقه ويكون عطلة رسمية في إسرائيل . وتبدأ احتفالات العيد على جبل هرتزل في القدس بجوار مقبرته . ويبدأ المتحدث باسم الكنيست الاحتفال بأن يوقد شعلة ، ثم اثنتى عشرة شعلة أخرى رمزاً للقبائل العبرية الاثنتى عشرة ، ثم يسير حملة المشاعل في استعراض . وكان الاستعراض العسكري للقوات المسلحة الإسرائيلية ، والذي كانت تُعرض فيه أحدث الأسلحة التي حصلت عليها الدولة ، أهم فقرات الاحتفال ، ولكنه توقف بعد عام ١٩٦٨ . وقد حل محله الآن استعراض عسكري لفصائل الجدناع . وتُقام احتفالات رياضية وراقصة ، كما تُمنح جوائز إسرائيل في ذلك اليوم . وينتهي الاحتفال بإطلاق المدافع ، على أن يكون عدد الطلقات مساوياً لعدد سني الاستقلال ، ولهذا فقد أُطلقت أربعون طلقة عام ١٩٨٨ .

وداخل الإطار الحلولي ، يكتسب الاحتفال بمناسبة قومية أبعاداً دينية ويكون للاحتفال جانب ديني ، وقد قررت الحاخامية الكبرى في إسرائيل أن يبدأ الاحتفال بقراءة المزامير (١٠٧ ، ٩٧ ، ٩٨) ، وينتهي بالنفخ في البوق (شوفار) الذي لا يُستخدم إلا في المناسبات الدينية الجليلة مثل عيد رأس السنة (روش هشَّاناه) . وتُتلى العبارات التالية : « فلتكن مشيئتك أن تجعل من نصيبنا أن نسمع الشوفار يعلن مقدم الماشيّح سريعاً ، كما جعلت من نصيبنا أن نرى بداية الخلاص» . وتُعدَّل الصلوات في ذلك اليوم ، كما هو الحال دائماً مع الأعياد اليهودية .

وبرغم صبغ المناسبة القومية بصبغة دينية فاقعة ، فإن بعض العناصر التي يقال لها «دينية» في إسرائيل لا ترى أن تعبير الحاخامية عن أهمية المناسبة كاف . وبالفعل ، فقد أدخلت هذه العناصر كثيراً من التعديلات على الصلوات ، كما قرروا قراءة أجزاء من التوراة (من سفر التثنية ٧/ ١ـ٨/ ١٨ و٣٠/ ١ ـ ١٠) . وهناك دعوة الآن إلى إلغاء يوم الصيام الخاص بهدم الهيكل وبسقوط القدس في أيدي الرومان باعتبار أنه تم استردادها كما تم إنشاء الهيكل الثالث (الدولة الصهيونية) .

وقد قامت الأوساط غير الدينية ، هي الأخرى ، بصياغة قراءات وأدعية للاحتفال بهذا اليوم على نمط الاحتفال بعيد الفصح . وقد كتب المؤلف الإسرائيلي حاييم حزاز هاجاداه للجيش الإسرائيلي بهذه المناسبة . أما وزارة المعارف ، فقد نشرت مختارات وأدعية ، وقررت شرب ثلاث كؤوس من الخمر (على غرار الكؤوس الأربعة في عيد الفصح) : أولاها للدولة ، والثانية للقوات المسلحة ، والثالثة للشعب اليهودي . ومن بين الإضافات الأخرى ، إعلان عدد السنوات التي مرت منذ استقلال الدولة قبل النفخ في البوق (شوفار) في صلاة المساء ، وهم في هذا يتبعون نمطاً دينياً معروفاً لدى يهود اليمن الذين يتبعون النهج السفاردي ، إذ يُتلى دعاء يذكر فيه المصلون السنوات التي مرت منذ هدم الهيكل . أما العبارة التي تُتلى في عيد الاستقلال في إسرائيل ، فهي : «اسمعوا يا إخوتي ، . . . اليوم [كذا] مضت [كذا] سنوات منذ بداية خلاصنا ، وعلامته تأسيس الدولة» . ولعل تغيير الصلوات والأدعية للتعبير عن المناسبة القومية ، وكذلك صياغة الاحتفال بعيد الاستقلال على نمط الأعياد اليهودية ، وخصوصاً عيد الفصح ، تعبير آخر عن تداخل الجانب الديني والجانب القومي ، والمطلق والنسبي ، الذي هو بدوره تعبير عن الطبقة الحلولية داخل التركيب الجيولوجي اليهودي .

ويحتفل نواطير المدينة ، وهي جماعة يهودية معادية للصهيونية ، بيوم الاستقلال على أنه يوم صوم وحداد ، ويحرقون

فيه علم إسرائيل . هذا ، وعادةً ما تُستخدَم كلمة «استقلال» في العالم الثالث للإشارة إلى استقلال بلد مُستعمَر في آسيا أو أفريقيا عن القوة الإمبريالية الغربية التي تستعمره . أما بالنسبة إلى إسرائيل ، فقد تم إعلان الدولة الصهيونية حينما نجح المستوطنون الصهاينة ، بمعاونة الإمبريالية الغربية ، في احتلال جزء من فلسطين ، وفي طرد جزء كبير من سكان البلد الأصليين ، وفرضوا وجودهم فرضاً عن طريق القوة المسلحة ، أي أن ما يُسمَّى «الاستقلال الإسرائيلي» هو في واقع الأمر «احتلال واستيطان وإحلال» من منظور الفلسطينيين الذي فقدوا أرضهم .

ويسبق عيد الاستقلال ، يوم الذكرى ، وهو يوم إحياء ذكرى الجنود الذين سقطوا في حرب ١٩٤٨ . وكانت إسرائيل قد أعدت لاحتفالات ضخمة للذكرى الأربعين لإنشاء الدولة ، كما أعدت لعمل إعلامي ضخم . ولكن اندلاع الانتفاضة فوَّت الفرصة على الصهاينة إذ أن الصحافة العالمية ركزت اهتمامها على الفلسطينيين ، وعلى إبداعهم في نضالهم اليومي ضد الدولة الصهيونية .

يوم الذكرى

Remembrance Day

«يوم الذكرى» هو ترجمة لعبارة «يوم هازيخارون» العبرية . و«يوم الذكرى» هو يومٌ يقيمه المستوطنون الصهاينة قبل يوم ٥ إيار ، وهو اليوم الذي يحتفلون فيه بعيد الاستقلال . ويكرِّس هذا اليوم لذكرى الجنود الذين سقطوا في حرب ١٩٤٨ والحروب التي تلتها .

ويبدأ هذا اليوم بإطلاق صفارة إنذار في كل أنحاء الدولة في مغرب اليوم السابق ، فتُنكَّس الأعلام ، وتُغلَق دور اللهو بأمر القانون ، وتُقام الصلوات في المعابد اليهودية ، وتُوقَد الشموع فيها ، كما تُعلن صفارات الإنذار في الصباح عن دقيقتي حداد يتوقف فيهما النشاط تماماً في الدولة الصهيونية بكاملها . ثم تُطلَق صفارة إنذار أخرى للإعلان عن انتهاء اليوم وبداية عيد الاستقلال . ويُتلى في الصلوات التي تُقام في ذلك اليوم المزمور (١٤٤) الذي يقول : «مبارك الرب صخرتي الذي يُعلِّم يدي القتال وأصابعي الحرب» . وقد لاحَظ الفيلسوف الديني الإسرائيلي اليهودي يشياهو لايبوفيتش أن الاحتفال بيوم الذكرى يزداد حدة عاماً بعد عام لأن قائمة أسماء الضحايا تزداد يوماً بعد يوم .

عيد الأسابيع (شفوعوت)

Shavout

«عيد الأسابيع» يشار إليه بالعبرية بكلمة «شفوعوت» أي «الأسابيع» . وعيد الأسابيع أحد الأعياد اليهودية المهمة ، فهو من أعياد الحج الثلاثة ، مع عيد الفصح وعيد المظال جنباً إلى جنب . ويأتي هذا العيد بعد سبعة أسابيع من عيد الفصح ومن هنا تسميته . ومدة هذا العيد يومان ، هما السادس والسابع من شهر سيفان (٩ - ١٠ يونيه) ، وهو بهذا يُعتبر من أعياد الحصاد . وكان يهود مصر الذين لا يعرفون العبرية يسمونه باليونانية «بنتيكوست» ، ويعني «الخمسين» ، لأنه كان يقع بعد مرور تسعة وأربعين يوماً ، أو بعد سبعة أسابيع من اليوم الذي يقدِّم فيه الفلاحون اليهود أولى ثمار الحصاد (بكوريم) ، مع رغيفين ، إلى الكهنة في الهيكل .

لكن هذا العيد ليس عيداً زراعياً وحسب ، وإنما هو أيضاً عيد له مناسبة تاريخية ، وهي نزول التوراة والوصايا العشر على موسى فوق جبل سيناء ، فهو إذن عيد زواج الإله بالشعب . ولذا ، فهم يزينون المعابد بالزهور والنباتات ويقيمون حفل زفاف للتوراة وكأنها عروس . أما في التراث القبَّالي ، فإن الليلة السابقة على العيد هي الليلة التي تُعدُّ فيها العروس نفسها للزواج من العريس . ولهذا ، فإن كل من يقرأ في كتب العهد القديم الأربعة والعشرين ويفسرها تفسيراً صوفياً حلولياً ، يُعتبَر وكأنه يُزيِّن العروس . وأثناء الليل ، يصبح القبَّالي الدارس للتوراة شاهداً على زفاف التوراة (أو الشخيناه) إلى الإله . وإذا سئل العريس (الإله) في اليوم التالي عمن زيَّن الشخيناه ، فستكون الإجابة : إنه ذلك العارف بأسرار القبَّالاه . وقد تطورت طريقة الاحتفال حتى أنه (في اليوم التالي) كان أحد اليهود يرفع التوراة قبل قراءة الوصايا العشر ، ثم يقرأ عقد زواج بين العريس (الرب) والعذراء (جماعة يسرائيل) التي هي أيضاً الشخيناه . وقد أوحى إليهم الرقم ٤٩ ، وهو حاصل ضرب ٧×٧ ، بتأويلات صوفية حلولية عديدة ، فهو يمثل الفترة التي قضاها أعضاء جماعة يسرائيل في الصحراء بعد خروجهم من مصر إلى أن حان وقت خلاصهم وزواجهم بالتوراة .

ويُقرأ في هذا العيد سفر راعوث ، وهي امرأة من مؤاب تهودت وأظهرت ولاءً للشعب اليهودي . ويُقال أيضاً إن الملك داود ، وهو من نسل راعوث ، تُوفي في ذلك اليوم . كما ترد في سفر راعوث إشارة إلى الشعير والقمح . وفي إسرائيل يأخذ أعضاء مزارع الكيبوتس والموشاف باكورة إنتاج الأرض ، ويقدمونه لا إلى الهيكل ، وإنما إلى الصندوق القومي اليهودي .

التاسع من آف

Ninth of Av

«التاسع من آف» ترجمة لعبارة «تشعاه بآف» العبرية . وهو يوم صوم وحداد عند اليهود في ذكرى سقوط القدس وهدم الهيكلين الأول والثاني (وهما واقعتان حدثتا في التاريخ نفسه تقريباً حسب التصور اليهودي) . وتربط التقاليد اليهودية بين هذا التاريخ وكوارث يهودية أخرى يُقال إنها وقعت في اليوم نفسه ، حتى وإن كان الأمر ليس كذلك ، مثل : سقوط قلعة بيتار (١٣٥م) ، وطرد اليهود من إنجلترا (١٢٩٠) ، وطردهم من إسبانيا (١٤٦٢) .

ويُقرأ كتاب المراثي في المعبد اليهودي بعد صلاة المساء في هذا العيد . كما تُقرأ أثناء صلاة الصباح ، أو بعدها ، مراث تتناول كوارث التاريخ اليهودي في ضوء شموع خافتة . ويجلس المصلون إما على الأرض أو يجلسون على مقاعد منخفضة (علامة الحداد) . ويزور اليهود المدافن في ذلك اليوم ، ويصلون من أجل عودة جماعة يسرائيل إلى فلسطين . وفي التاسع من آب ، يُحرَّم الاستحمام والأكل والشرب والضحك والتجمل ، ولا يحيي المصلون بعضهم البعض في ذلك اليوم .

ويُقال إن الماشيَّح سيولد في التاسع من آف ـ ولذا ، فإن بعض نساء اليهود يمسحن شعورهن بالزيت . ولا يحتفل اليهود الإصلاحيون بهذا اليوم . وقد اقترح مناحم بيجين أن يُحتفَل بذكرى الإبادة في التاسع من آب ، ولكن المؤسسة الدينية رفضت اقتراحه بدعوى أن التاسع من آب مناسبة دينية ، أما الإبادة فليست كذلك .

بهجة التوراة (سمحات توراه)

Simchat Torah

«بهجة التوراة» ترجمة لعبارة «سمحات توراه» العبرية ، وهو عيد يلي اليوم الثامن الختامي (شميني عتسيريت) وهو اليوم الأخير من عيد المظال . وخارج فلسطين ، يُدمَج العيدان ، ويُحتفَل بهما في يوم واحد . وهو عيد ظهر متأخراً في العراق (في القرن التاسع أو العاشر) . وهو أيضاً اليوم الذي تُختتَم فيه الدورة السنوية لقراءة أسفار موسى الخمسة في المعبد . ويُحتفَل به داخل المعبد بأن تُحمَل لفائف الشريعة ، ثم يتم الطواف بها سبع مرات (أما الأولاد ، فإنهم يحملون الأعلام الصغيرة ويسيرون أمام الكبار) . ويُسمَّى كل طواف باسم أحد الآباء : فالطواف الأول باسم إبراهيم ، والثاني باسم إسحق ، والثالث باسم يعقوب ، والرابع باسم موسى ، والخامس باسم هارون ، والسادس باسم يوسف ، والسابع باسم داود . ويُقرأ في هذا الاحتفال آخر سفر من أسفار موسى الخمسة . والمصلي الذي يقوم بالقراءة يُطلَق عليه اسم «عريس التوراة» . ثم يُدعَى مصلٍّ آخر ، ويُسمَّى «عريس سفر التكوين» ليبدأ الدورة السنوية لقراءة أسفار موسى الخمسة مرة أخرى . ويُسمَّى القارئ باسم «العريس» لأن التوراة عروس جماعة يسرائيل ، وكل قراءة جديدة هي بمثابة حفل عرس متجدد .

وقد سُمِّي هذا العيد بعدة تسميات ، إلى أن استقر اسمه على ما هو عليه . ففي فترة التلمود ، كان يُسمَّى «آخر أيام العيد» . وعلى أيام الفقهاء (جاءونيم) ، كان يُسمَّى «يوم الكتاب» و«يوم النهاية» . ولم يُسمَّ «سمحات توراه» إلا في آخر أيام هؤلاء الفقهاء .

عيد الثامن الختامي (شميني عتسيريت)

Shemini Atzeret

«الثامن الختامي» تُطابق العبارة العبرية «شميني عتسيريت» . وعيد الثامن الختامي عيد يهودي مستقل عن عيد المظال ، ولكنه ضُم إليه كيوم ثامن . ولا يُعرَف السبب في الاحتفال بهذا العيد ، وإن كان من الواضح أنه عيد زراعي قديم ، إذ يتم فيه ترديد دعاء خاص بطلب نزول المطر ، وذلك أثناء دعاء الصلاة الإضافية (مُوساف) . فقد جاء في سفر اللاويين (٢٣/ ٣٦) : « في اليوم الثامن يكون لكم محفل مقدَّس » . ويُضاف يوم تاسع للاحتفال خارج فلسطين ، وهو يوم بهجة التوراة (سمحات توراه) . أما في فلسطين ، فإنهم يحتفلون ببهجة التوراة وعيد الثامن الختامي في يوم واحد .

عيد رأس السنة للأشجار

New Year for Trees

«رأس السنة للأشجار» هي ترجمة للعبارة العبرية «روش هشَّاناه لا إيلانوت» . ويُحتفَل بهذا العيد في السادس عشر من شفاط حسب مدرسة هليل ، والأول من شفاط حسب مدرسة شماي . وهو اليوم الذي يجب بعده أن يحسب اليهودي عشور النباتات التي كان عليه أن يقدمها للهيكل ، فأي ثمار بعد ذلك التاريخ تجب عليها العشور . ولم ترد في التلمود أية إشارات إلى طريقة محددة للاحتفال بهذا العيد ، وإن كان من المعروف أنه يُحرَّم فيه الصوم . وقد اكتسب العيد دلالة خاصة لدى القبَّاليين حيث تكتسب الشجرة في رؤيتهم للكون دلالة ومركزية . ويحتفل الإشكناز بتناول أنواع معيَّنة من الفواكه ، وخصوصاً التي تنبت في

فلسطين . أما السفارد ، فإنهم يحتفلون به بطريقة مركبة ، إذ يأكلون خمسة عشر نوعاً مختلفاً من الفواكه . ويُصاحب ذلك قراءة نصوص مناسبة من العهد القديم والتلمود والزوهار . وفي إسرائيل ، فإن هذا العيد قد أصبح العيد القومي للشجرة حيث يقوم أطفال المدارس بغرس الأشجار .

عيد القمر الجديد

New Moon

«القمر الجديد» هي ترجمة للعبارة العبرية «روش حودش» . ويُحتفَل به بعد رؤية القمر الجديد كل شهر . وكان العبرانيون يمتنعون عن العمل في هذا اليوم ويذهبون إلى الهيكل ، ولعله كان استمراراً لأحد أعياد القمر الوثنية . ولكن الطقوس الاحتفالية قد اختفت بعد العودة من بابل (إلا النساء ، فكن يُمنحَن إجازة في ذلك اليوم مكافأة لهن على إحجامهن عن إعطاء حليهن لصنع العجل الذهبي) . ولكن اليوم ، مع هذا ، لم يفقد أهميته إذ أن تحديد التقويم (وأوَّل يوم في الشهر) كان من أهم الوظائف التي يضطلع بها السنهدرين . وفي هذا اليوم ، يُحرَّم الصوم والحداد .

لاج بعـومير

Lag Ba'omer

كلمة «لاج» معناها «الثالث والثلاثون» ، أما «عومير» فمعناها «حزمة من محصول الشعير» . وهو عيد يهودي غير مهم يُحتفَل به في يوم ١٨ إيار ، أي في اليوم الثالث والثلاثين من فترة السبعة أسابيع الممتدة من ثاني أيام عيد الفصح حتى عيد الأسابيع . وفي هذا اليوم ، يتم إنهاء فترة الحداد ويُسمح بالزواج وبقص الشعر .

ولا تُعرَف المناسبة التي من أجلها يُحتفل بهذا العيد . ويُقال إنه انتهى في هذا اليوم الوباء الذي انتشر بين تلاميذ الحاخام عقيبا . ولذا ، فإنه يُسمَّى «عيد العلماء» . ولكن جاء أيضاً في بعض الأقوال الحاخامية الأخرى أنه اليوم الذي حدث فيه طوفان نوح ، وأنزل فيه الإله المن من السماء . وفي العصور الوسطى ، اعتُبر أن هذا اليوم اليوم الذي مات فيه الحاخام سيمون بار يوحاي الذي يُنسَب إليه الزوهار . ولذا ، يحتفي القبَّاليون بهذا اليوم . وقد أصبح قبره في الجليل مزاراً يحج إليه الحسيديون في ذلك اليوم ، فيأتون بأطفالهم ليقصوا شعورهم لأول مرة ويُشعلوا النيران ويرقصوا طيلة الليل . ويُحتفَل بهذا العيد في إسرائيل حتى الوقت الحالي .

السنة السبتية (شنة شميطاه) وسنة اليوبيل

Shemittah and Jubilee Year

«السنة السبتية» (بالعبرية : «شنة شميطاه») هي السنة التي يجب أن تُراح فيها الأرض ، وكلمة «شميطاه» كلمة عبرية معناها «تبوير الأرض لإراحتها» . وقد جاء في العهد القديم ، في سفر اللاويين وفي مواضع أخرى ، أن الإله يأمر شعبه بأن يزرع الأرض ست سنوات على أن يريحها في السنة السابعة . وكل ما ينمو على الأرض في هذه السنة يُصبح ملكاً مشاعاً للجميع يُحرَّم الاتجار فيه ، كما تصبح كل الديون بين اليهود وكأنها قد وُفيَت ودُفعت ، كما يُحرَّر العبيد اليهود في هذه السنة . ويذكر المؤرخ يوسيفوس ثلاث سنوات سبتية في الفترة التاريخية التي يتناولها . ويبدو أن مثل هذه الاحتفالات كان موجوداً بين شعوب الشرق الأدنى القديم . ويُلاحظ أن شعائر السنة السبتية تنطبق على فلسطين وحدها . أما الشعائر الخاصة بالديون فتنطبق على أعضاء الجماعات اليهودية أينما كانوا .

ولا شك في أن الدافع وراء الاحتفال بالسنة السبتية ديني قومي ، أي أنه تعبير عن النزعة الحلولية داخل اليهودية . فهو ، من ناحية ، تنفيذ لكلمة الإله وتعبير عن الإيمان بأن الأرض هي ملك له وحده يهبها من يشاء . ولكنه ، من ناحية أخرى ، تأكيد للرابطة العضوية (الحلولية) التي تربط اليهودي بالأرض المقدَّسة ، كما أنه ينطوي على إسقاط حق أي إنسان في امتلاك هذه الأرض حتى ولو كان فلسطينياً عاش فيها مئات السنين . ولأن الإله في الوجدان اليهودي يصطبغ بصبغة قومية يهودية ، فإن ملكيته للأرض تأكيد لملكية اليهود لهذه الأرض بصورة أبدية .

وتتسع دائرة سنة الراحة حتى إنه ، بعد سبع دورات كل دورة فيها مكونة من سبعة أعوام ، تحل السنة الخمسون التي يُطلَق عليها «سنة اليوبيل» نسبة إلى كلمة «يوبيل» ، وهي كلمة عبرية تشير إلى «قرن الكبش» (أي بوق الشوفار) . وفي سنة اليوبيل ، تُطبَّق كل شعائر السنة السبتية وتُضاف إليها شعيرة أخرى ، وهي إعادة الأرض المرهونة إلى أصحابها ، كما تُعاد الأرض المبيعة إلى ملاكها الأصليين ، وكأن من اشتراها قد استأجرها وحسب طيلة هذه المدة ، ولا يبقى سوى الأرض الموروثة في حوزة صاحبها .

وتأخذ دائرة السنة السبتية في الاتساع إلى أن تشمل الزمان كله ثم تنغلق حين تصل إلى «سبت التاريخ» ، أي نهايته ، حين تستريح الأرض كلها ويأتي الماشيَّح ليقود شعبه بأسره إلى أرض الميعاد . وهكذا تظل الدائرة في الاتساع إلى أن تبتلع كل الزمان والمكان كما هو الحال دائماً في الأنظمة الحلولية . وقد أفتى بعض علماء اليهود بأن طقوس سنة

اليوبيل لا تُنفَّذ إلا بعودة جميع اليهود واستيطانهم في فلسطين (ذلك لأن الاحتفال بها يؤدي إلى مجاعة، باعتبار أن السنة الخمسينية اليوبيلية تتبع عادةً سنة سبتية، أي السنة السابعة في الدورة السابعة) .

وقد تسبَّبت السنة السبتية في التضييق على اليهود إذ كان أصحاب الأموال يرفضون إقراضها خشية إلغاء الديون في السنة السبتية . ولذا ، فقد أصدر الحاخامات ما سُمِّي «بروزبول» ، وهي كلمة يونانية معناها «قبل المجلس» تمنع إلغاء الديون في السنة السبتية . ولإقامة شعائر السنة السبتية يلجأ الإسرائيليون إلى كل أنواع الفتاوى والحيل (التحلة) ، فقد أصدر بعض الحاخامات (ومن بينهم الحاخام الصهيوني كوك) فتوى في أوائل هذا القرن ، مفادها أن على القاطنين في الأرض المقدَّسة أن يبيعوها بشكل صوري إلى بعض الأغيار ، وبذلك تصبح الأرض غير يهودية ، ويمكن بالتالي زراعتها (وهذا يشبه من بعض الوجوه الفتوى الخاصة بضرورة بيع تذاكر مباريات كرة القدم التي تجرى يوم السبت في اليوم الذي يسبقه) . وبالفعل ، يتم بيع أرض إسرائيل كل ست سنوات إلى جندي درزي ، على أن يبيعها مرة أخرى إلى الحكومة الإسرائيلية بعد انتهاء العام (ويُعَدُّ هذا من أهم الأمثلة على التحلة) . هذا وقد اعترض بعض الحاخامات بأن بيع الأرض نفسه مُحرم ، فكان الرد أن بيعها بيعاً حقيقياً أمر محرم ، لكن بيعها الوهمي ليس مُحرماً ! ويحاول الإسرائيليون من اليهود الأرثوذكس إجراء تجارب دينية علمية لزراعة الخضراوات في الماء لتحاشي زراعتها في اليابس . ولكن بعض الأرثوذكس ينطلقون من الرؤية اليهودية الخاصة بالبقية الصالحة ، ويُنفِّذون تعاليم التوراة بحذافيرها ويمتنعون عن زراعة الأرض ، وإن كانوا يقومون بتخزين الحبوب ، كما يحاولون التحايل على الدورة الزراعية . وقد أثيرت القضية مرة أخرى عام ١٩٨٦ـ ١٩٨٧ ، وكانت سنة سبتية ، إذ اقتُرح أن تستورد إسرائيل الحبوب . وقد فتح بعض اليهود الأرثوذكس محلات لبيع فواكه مستوردة غير مزروعة في فلسطين ، كما صدَّروا المحاصيل الإسرائيلية . ويساهم يهود الولايات المتحدة في تمويل الاحتفال بالسنة السبتية عن طريق «صندوق شميطاه» لجمع التبرعات وإرسالها إلى الإسرائيليين الذين ينفذون التعاليم الدينية تنفيذاً حرفياً . وقد كان عام ١٩٩٣ ـ ١٩٩٤ (عام ٥٧٥٤ في التقويم اليهودي) سنة سبتية .

سنة اليوبيل

Jubilee Year

انظر : «السنة السبتية وسنة اليوبيل» .

تقويم الأعياد وأيام الصوم اليهودية حتى عام ٢٠٠٠

التقويم اليهودي	رأس السنة	صوم جداليا	يوم الغفران	عيد المظال	عيد التدشين	صوم العاشر من تيفت	صوم إستير	عيد النصيب	عيد الفصح	لاج بعومير	عيد الأسابيع	صوم تموز	صوم التاسع من آف
	١-٢ تشري	٣ تشري	١٠ تشري	١٥ تشري أول يوم ١٦ تشري ثاني يوم ١٧-٢١ تشري ٢٢ تشري الثامن الختامي ٢٣ تشري بهجة التوراة اخر أيام العيد	٢٥ كسليف أول يوم ٢٦-٣٠ كسليف ١ تيفت ٢ تيفت اخر أيام العيد	١٠ تيفت	١٣ ادار	١٤ ادار أول يوم ١٥ أدار ثاني يوم	١٥ نيسان أول يوم ١٦-٢٢ نيسان	١٨ إيار	٦ سيفان أول يوم ٧ سيفان ثاني يوم	١٧ تموز ٢٢	٩ آف
التقويم الميلادي													
١٩٩٨-١٩٩٩ ١٩٩٩-٢٠٠٠ ٢٠٠٠	٢١ سبتمبر ١١ سبتمبر ٣٠ سبتمبر	٢٣ سبتمبر ١٣ سبتمبر ٢ أكتوبر	٣٠ سبتمبر ٢٠ سبتمبر ٩ أكتوبر	٥ أكتوبر ٢٥ سبتمبر ١٤ أكتوبر	١٤ ديسمبر ٤ ديسمبر ٢٢ ديسمبر	٢٩ ديسمبر ١٩ ديسمبر	١ مارس ٩٩ ٢٠ مارس (٢٠٠٠)	٢ مارس ٩٩ ٢١ مارس	١ أبريل ٢٠ أبريل	٤ مايو ٢٣ مايو	٢١ مايو ٩ يونيه	١ يوليه ٢٠ يوليه	٢٢ يوليه ١٠ أغسطس

١٩
الفكر الأخروي

الفكر الأخروي (إسكاتولوجي) - أسفار الرؤى (أبوكاليبس) - الآخرة أو العالم الآخر (الآتي) - آخر الأيام (اليوم الآخر) - يوم الرب - يوم الحساب - البعث - تناسخ الأرواح - خلود الروح - الموت - الانتحار - الدفن والمدافن - التشريح - الثواب والعقاب - حلقة الأعالي - الجنة - أرض الموتى (شيول) - جهنم - الملائكة - الكروب (الملائكة) - ميتاترون - الجن والشياطين - ليل (ليليت) - عزازيل

الفكر الأخروي (إسكاتولوجي)

Eschatology

«الفكر الأخروي» يُشار إليه في الإنجليزية بكلمة «إسكاتولوجي» من الكلمة اليونانية «إسكاتوس» ومعناها «آخر» أو «بعد» . ويشير المصطلح إلى المفاهيم والموضوعات والتعاليم الخاصة بما سيحدث في آخر الزمان ، وإلى العقائد الخاصة بعودة الماشيَّح ، والمحن التي ستحل بالبشرية بسبب شرورها ، والصراع النهائي بين قوى الشر وقوى الخير (حرب يأجوج ومأجوج) ، والخلاص النهائي ، وعودة اليهود المنفيين إلى أرض الميعاد ، وإلى يوم الحساب وخلود الروح والبعث ، وهي الموضوعات التي تظهر أساساً في كتب الرؤى (أبوكاليبس) ، والتي تعود جذورها إلى الحضارات البابلية والمصرية والكنعانية ، وخصوصاً الفارسية الزرادشتية .

وقبل الخوض في هذا الموضوع بتعريفاته المختلفة وتناقضاته المتعددة ، لابد أن نميِّز بين التفكير الأخروي داخل إطار حلولي والتفكير الأخروي داخل إطار توحيدي ، فالفكر الديني التوحيدي يفترض وجود إله خارج الزمان والطبيعة ويتجاوزهما ومن ثم تتحدد الثنائيات الفضفاضة المختلفة (التي يشكل الإله نقطة الوصل بينها دون أن يملأ الثغرة التي تفصل بينها) . وينجم عن ذلك أن التفكير الأخروي يتحدد باعتباره حدثاً كونياً يقع لا في آخر الزمان وإنما خارجه ، ولا يقتصر على مجموعة من البشر دون أخرى بل يشمل كل البشر ، ويرتبط تماماً بفكرة الثواب والعقاب للفرد لا للجماعة ، أي أن التفكير الأخروي (ورؤية الخلاص) يدور في إطار أخلاقي عالمي إنساني . أما التفكير الأخروي في الإطار الحلولي ، فيقف على النقيض من ذلك تماماً وبسبب حلول الإله في التاريخ والإنسان والطبيعة وكمونه فيها ، فإن كل الثنائيات تَمَّحي (أو تتحدد بشكل صلب) ، وتقع الآخرة في نهاية التاريخ (داخل الزمان لا خارجه) ، وهي حدث تاريخي وكوني في آن واحد تدور أحداثه حول شعب واحد مختار لا أفراد مسئولين ، كما أنها لا ترتبط بالقيم الأخلاقية أو الثواب والعقاب . فرؤية الخلاص لا علاقة لها بالقيم الأخلاقية .

ويمكننا أن نقول إن التفكير الأخروي اليهودي كان يدور في البداية داخل إطار حلولي كامل ثم تحرَّر منه بالتدريج في كتب الأنبياء . ثم عاد وبدأت عملية السقوط التدريجي في الحلولية في أسفار الرؤى (أبوكاليبس) . وتزايدت معدلات الحلولية في التلمود ، إلى أن نصل إلى القبَّالاه حيث نصل إلى نقطة وحدة الوجود الروحية التي يتبعها حلول بدون إله في العصر الحديث ، أي وحدة الوجود المادية .

وهناك ، في العهد القديم ، عبارة ليست مرادفة تماماً لكلمة «إسكاتولوجي» وهي عبارة «أحريْت هايميم» التي تحمل تضمينات أخروية وتعني حرفياً «نهاية الزمان» أو «آخر الأيام» . وتعني عبارة «آخر الأيام» التي سنستخدمها في هذه الموسوعة ثلاثة أشياء مختلفة :

١ - ففي أسفار موسى الخمسة ، قد تكون العبارة بمعنى «في المستقبل» أو «في الأيام المقبلة» . وبالتالي ، فإن الإشارة في مثل هذا السياق تنصرف إلى مراحل تاريخية زمنية تالية ، وقد تأتي بعدها مراحل أخرى .

٢ - ولكن العبارة قد ترد أيضاً بمعنى «الأيام الأخيرة» ، وهي هنا تعني «آخر المراحل التاريخية» التي لا تأتي بعدها مراحل أخرى ، ولكنها تظل مع هذا مرحلة زمنية .

٣ - ثم اكتسبت العبارة ، فيما بعد ، دلالة جديدة تماماً ، بحيث أصبحت تشير إلى ما بعد البعث . وفي القرون الأخيرة قبل الميلاد وبعده ، ظهر مصطلح آخر هو «كيتس هيَّاميم» ، ويعني حرفياً «نهاية الأيام» (دانيال ١٢/ ١٣) ، وهو مفهوم يشير بوضوح إلى ما بعد البعث ، قارن ذلك بمصطلح «وقت المنتهى» (دانيال ٨/ ١٧) .

وقد اجتازت المفاهيم الأخروية عدة تطورات ، ولكن على الطريقة الجيولوجية التي يتسم بها النسق الديني اليهودي . فالمفاهيم الحلولية القديمة للآخرة لم تكن تُستبعد ، بل كان يُكتفَى بضم المفاهيم الجديدة إليها ، فتتعايش معها جنباً إلى جنب أو تكون الواحدة فوق الأخرى . ولذا ، لا يتسم الفكر الأخروي اليهودي عبر تاريخه بالوضوح أو التحدد ، إذ ظلت هناك أسئلة خلافية تُركَت دون حسم من بينها ما يلي :

١ ـ هل ستقع آخر الأيام داخل الزمان والتاريخ أم ستقع خارجهما ؟

٢ ـ هل تختص آخر الأيام بمصير الشعب اليهودي وحده أو تختص بمصير الشعوب كافة ؟ وهل للشعب اليهودي دور خاص أم أنه سيكون شعباً واحداً ضمن شعوب أخرى عديدة متساوية في المصير؟

٣ ـ هل المقصود بالشعب اليهودي الشعب ككيان جماعي أو اليهود كأفراد ؟

٤ ـ ما هي علاقة البعث بالثواب والعقاب في آخر الأيام ؟

وإذا نظرنا إلى أسفار موسى الخمسة وأسفار يوشع والقضاة ، وإلى الفكر الديني اليسرائيلي في القرون الأولى من حكم الملوك ، لما وجدنا أية إشارة إلى مفاهيم أخروية محددة حقيقية . ومع هذا ، يمكن القول بأن ثمة عناصر أخروية تسم الفكر الديني اليهودي في مرحلة ما قبل السبي . فأعضاء جماعة يسرائيل كانوا يعبدون الإله الذي اختارهم ، وعقد عهداً أو ميثاقاً معهم ، وحلَّ في تاريخهم ، ولذا فإنه يتجلى فيه من آونة إلى أخرى مثلما فعل حينما خرج بهم من مصر ، ثم هزم أعداءهم ووعدهم بأرض كنعان وساعدهم على غزوها . ولقد أصبح تدخُّل الإله في التاريخ ، ونصره للشعب ، من ثوابت الفكر الأخروي اليهودي فيما بعد ، وإن كانت الآخرة هنا مجرد نقطة تحوُّل جوهرية في التاريخ نفسه ، مثل الخروج من مصر أو الاستيطان في كنعان ، ولا تشكل نقطة نهاية إذ تتبعها مرحلة تاريخية أخرى مختلفة نوعياً عن المرحلة السابقة ولكنها تظل مع هذا نقطة في الزمان ، وهي في هذا لا تختلف كثيراً عن التغيرات النوعية أو الطفرات التي تؤدي إلى «التقدم» إذا أردنا استخدام المصطلحات الحديثة . والواقع أن هذا المفهوم الأخروي يعني التدخل المستمر من قبل الإله في التاريخ وحلوله فيه ، وإن كان ثمة نهاية ، فهي تتجلى في الفكرة البدائية الخاصة بيوم الرب ، ذلك اليوم الذي ستسود فيه جماعة يسرائيل على الجميع ، أي أنها رؤية أخروية حلولية مادية تتحقق داخل التاريخ .

وقد تطوَّر الفكر الأخروي اليهودي على يد الأنبياء ، وظهر كلٌّ من عاموس وهوشع مع بداية حكم الملوك ، فطوَّر الأول فكرة يوم الرب ، بحيث تحولت إلى فكرة يوم الحساب ، وهو مفهوم أكثر عالمية وأخلاقية إذ أنه اليوم الذي سيحاسب فيه الإله اليهود وغير اليهود . وقد تَعمَّق المفهوم الأخروي ، إذ يشير عاموس إلى تغيرات ستدخل على الطبيعة مثل كسوف الشمس ، وقد استخدمها بشكل مجازي ، ولكنها مع هذا فُسِّرت حرفياً ثم أصبحت عنصراً ثابتاً في الفكر الأخروي منذ ذلك التاريخ . ورغم أن عاموس يتحدث عن عقاب الآثمين من اليهود وغير اليهود ، فإنه يعرف أن الإله وفيٌّ لشعبه . وهنا ظهرت في سفر عاموس ، ثم في سفر هوشع ، فكرة البقية الصالحة التي ستنجو من الهلاك ، وظهرت أيضاً فكرة تجديد الميثاق أو العهد مع الإله واسترجاع جماعة يسرائيل وعودتها ، كما ظهرت فكرة السلام الذي سيعم الأرض ويشمل كل الأمم .

ورغم أن كثيراً من ثوابت الفكر الأخروي اليهودي قد تحددت على يد الأنبياء ، فلم تكن هناك حتى هذه الفترة إشارات إلى آخرة تقع خارج التاريخ ، إذ تظل الآخرة مجرد مرحلة زمنية لها ملامحها الفريدة ومختلفة عما سبقها من مراحل . ويُلاحَظ أن الفكر الأخروي يتطور من خلال سياقين : أحدهما محلي ، وهو ما يحدث داخل المجتمع العبراني ، والآخر دولي ، وهو ما يحدث حوله ويؤثر فيه . وقد تأثر فكر عاموس الأخروي بالاستقطاب الاجتماعي الذي شهده عصره ، فظهرت فكرة العقاب الذي سيحيق بالآثمين من جماعة يسرائيل . كما أن ظهور القوة الآشورية يشكل القطب الثاني ، فقد تحولت القوة العالمية التي تتهدد العبرانيين إلى أداة العقاب التي سيستخدمها الإله للقصاص من الشعب المذنب .

وتَعمَّقت كل هذه الاتجاهات في نبوءات أشعياء الذي تنبأ بخراب كامل لجماعة يسرائيل وللأمم الوثنية (ويُلاحَظ أن الاضطرابات التي تصاحب آخر الأيام بدأت تأخذ بُعداً كونياً) . وقد قام أشعياء بوصف المُلك الثاني ليهودا والذي سيكون في المستقبل ، وأدخل بذلك فكرة الماشيَّح ، كما وصف السلام الذي سيعم العالم، ويأخذ شكل عودة إلى حديقة عدن ، وبذا بدأت تظهر بذور فكرة الجنة في الفكر الأخروي . أما في سفر ميخا ، فتظهر فكرة جبل صهيون كمركز للخلاص النهائي ، كما تظهر موضوعات مثل قرب النهاية في سفر صفنيا ، والحرب الكونية التي تسبق النهاية في سفر يوئيل . ويُلاحَظ أن الآخرة ، رغم كل التحولات التاريخية والكونية المصاحبة لها ، لا تزال زمنية ، وما يحدث فيها هو واقعة تاريخية داخل الزمان .

وتشكل واقعة السبي نقطة تحوُّل في تاريخ الأفكار الأخروية ، إذ تكتسب فكرة العودة وإعادة بناء الهيكل مركزية حقيقية تظهر في

سفر حزقيال ، وتصبح الحرب الكونية ، حرب ياجوج وماجوج ، من العلامات المهمة على آخر الأيام . ويصبح التاريخ مجرد تعبير عن خطة إلهية مقررة مسبقاً . كما أن الأبعاد الكونية أصبحت أكثر وضوحاً وبروزاً ، وأصبحت الأفكار الأخروية لا تتحدث عن بداية مرحلة تاريخية جديدة ، وإنما عن تحوُّل كوني كامل نتيجة تَدخُّل إلهي . ثم تظهر ، في سفر ملاخي ، شخصية إلياهو العجائبية التي ستأتي في يوم الرب .

ويدل ظهور كل هذه الموضوعات ضمن الفكر الأخروي ، على أن الفكر الرؤياوي (الأبوكاليبسي) أخذ يتغلغل ويحل محل الفكر النبوي ، كما يتضح في الإصحاحات الستة الأخيرة في سفر زكريا التي أشارت إلى أن الشعب المختار سيعاني قبل الخلاص . وتبدأ النزعة الرؤيوية في التعمق حتى أن إصحاحات ٢٤/ ١ ـ ٢٧/ ١٣ من سفر أشعياء يُطلَق عليها «أبوكاليبس أشعياء» . وقد كان مجال التفكير الأخروي ، كما تقدَّم ، هو «هذه الدنيا» ، و«المستقبل» . ولكن عدة انتكاسات حلت باليهود فقد سمح لهم قورش بالعودة ، وبناء الهيكل دون أن يسمح لهم بتأسيس مُلك يهودي في ولاية يهودا ، أي دون أن يسمح بعودة القوة السياسية اليهودية ، وبالتالي لم يسودوا العالمين كما كانت تقول النبوءات الأولى . ثم زال حكم الفرس وظهرت الإمبراطورية اليونانية كقوة عظمى ، وبعدها الإمبراطورية الرومانية التي أحكمت قبضتها عليهم تماماً وهدمت الهيكل . بعد هذه الانتكاسات العديدة ، اكتسب التفكير الأخروي أبعاداً جديدة ، وأصبح مجاله «العالم الآخر» ، «في المستقبل» ، «خارج الزمان» .

وقد اكتملت ملامح الفكر الأخروي اليهودي ومعظم ثوابته مع سفر دانيال ، فهو يقدم رؤية لتاريخ العالم ، وتاريخ الممالك الأربع التي ستزول وتحل محلها المملكة التي لا تزول (الملكوت الأبدي) . كما يظهر مفهوم ابن الإنسان الذي يأتي مع سُحُب السماء (أي من الإله) مقابل وحوش البحر الأربعة (الإصحاح السابع) . ويبدو أن ثمة إرهاصات لفكرة البعث في أشعياء (٢٦/ ١٩) وفي المزامير (٧٣/ ٢٣ ـ ٢٦) ، ولكنها تظهر في دانيال بشكل لا إبهام فيه (١٢/ ١ ـ ٣) ، ويصبح البعث بعثاً لأفراد لا لأمم ، وبالتالي يصبح الحساب حساباً أخلاقياً فردياً لا قومياً جماعياً . وتظهر في آخر سفر دانيال واحدة من أولى المحاولات لحساب آخر الأيام . وقد ازدادت الرؤية الأخروية اليهودية تبلوراً بعد ذلك ، فظهرت في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد كتب الرؤى التي تدور حول موضوعات أخروية نشورية . ويُلاحَظ أن فكرة شيول غير المحددة اكتسبت تَحدُّدها في آخر هذه الفترة وأصبحت كلمة «جهنم» تدل عليها ، ووُضعت «جهنم» مقابل «حديقة عدن» التي تحدَّد مفهومها هي الأخرى فأصبحت «الجنة» . وأصبح الشيئان مرتبطين بفكرة البعث والثواب والعقاب في العالم الآخر .

ومع هذا ، فإن عدم التجانس وسمة الجيولوجية ظلا واضحين في الفكر اليهودي الأخروي ، فعند هدم الهيكل ، أي في تاريخ متأخر نسبياً ، كان هناك فريق كبير من اليهود (الصدوقيون) لا يزال ينكر البعث . أما الأسينيون ، فمع أنهم اهتموا بالتفكير الأخروي وجعلوه محور رؤاهم ، فإن الآخرة بالنسبة إليهم كانت في هذه الدنيا ، ولا يوجد أي ذكر للبعث في المخطوطات التي خلفوها ، فمخطوطات البحر الميت تتحدث عن النهاية ولا تتحدث قط عن جنة أو جهنم (فقد كان يدور الحديث عن الموت كعقاب أزلي للآثمين ، وعن الحياة الأزلية للصالحين) .

وفي يهودية العصور الوسطى في الغرب ، أخذ الحاخامات بالمفاهيم الأخروية بعد تبلورها . ولكن عملية التبلور لم تكن كاملة ، فالمضمون الأخلاقي للأفكار الأخروية بدأ يزداد شحوباً مرة أخرى ، واكتسبت رؤية الخلاص مضموناً قومياً . كما ميَّز الحاخامات بين أيام الماشيَّح ، أو العصر المشيحاني . وبين العالم الآتي أو الآخرة . إذ أن الأولى تسبق الثانية ، وتشكل مرحلة انتقالية . وهذا يدل على أن عدم التجانس مازال قائماً بين الإيمان بالآخرة كمرحلة تاريخية داخل الزمان والإيمان بها كآخرة تقع في آخر الزمان وخارجه . ويُلاحَظ أن الحاخامات قد نصحوا اليهود بألا يحاولوا أن يحسبوا متى تأتي آخر الأيام ونهاية الزمان ، كما أنهم حرَّموا أن يحاول اليهودي التعجيل بالنهاية (دحيكات هاكيتس) . وأصبح الإيمان بالآخرة إحدى العقائد اليهودية الأساسية التي تبناها القبَّاليون ، ولكنهم أدخلوها في أنساقهم الحلولية فظهرت الدورات الكونية والتناسخ وعودة الشخيناه . ولذا ، نجد أن من هموم القبَّاليين الكبرى الحسابات القبَّالية الخاصة بالنهاية . وقد انسلخ الفكر الأخروي تماماً عن الفكر الأخلاقي وأصبح مرتبطاً إلى حدٍّ كبير بالسحر وبالخلاص القومي للشعب اليهودي وهلاك كل الأغيار . ويُلاحَظ أن الفكر الأخروي اليهودي في العصر الحديث يزداد اختلاطاً ، إذ تتراجع أفكار أخلاقية أساسية مثل البعث والثواب والعقاب والآخرة لتحل محلها أفكار عامة مثل العصر المشيحاني (في اليهودية الإصلاحية) أو فكرة التقدم (في اليهودية التجديدية) .

وقد تأثر الفكر الصهيوني بالفكر الأخروي اليهودي الحلولي (حلولية بدون إله) بمعنى أن الآخرة هي النهاية داخل الزمان أو آخر

مرحلة تاريخية ، أو هي نهاية التاريخ التي تصل بالجدل والصراع والانحرافات إلى نهايتها ، فيكون «الخروج» الكامل من تاريخ الأغيار بكل شذوذه وعنفه ، ويكون «الدخول» في كنعان حيث يمكن استئناف التاريخ اليهودي بكل مثالياته . ومثل هذا التفكير الأخروي البداني عادة ما يأخذ شكلاً هندسياً متناسقاً تكون فيه النهايات شبيهة بالبدايات .

وإذا كانت بداية التاريخ اليهودي من وجهة النظر الصهيونية هي الخروج من أرض العبودية في مصر ودخول أرض الميعاد ، فالنهاية الأخروية هي الخروج أيضاً من أرض العبودية في مصر أو روسيا أو أي منفى آخر ، ودخول أرض الميعاد أيضاً ، أي أن النهاية لابد أن تشبه البداية حتى يكتمل الاتساق الهندسي . وإذا كان دخول كنعان قد أدَّى إلى إنشاء الهيكل والعبادة القربانية المركزية (حيث يحل الإله وسط الشعب في قدس الأقداس) ، فإن الدخول الحديث إلى فلسطين يؤدي إلى إنشاء الدولة الصهيونية ، بحيث يحل الإله فيها بالنسبة للمتدينين اليهود ، فتصبح دولة مقدَّسة . أما بالنسبة إلى الملحدين ، فهي دولة مقدَّسة بذاتها إذ أن حلوليتهم حلولية بدون إله ووحدة وجود مادية .

أسفار الرؤى (أبوكاليبس)

Apocalypse

«الرؤيا» ترجمة لكلمة «أبوكاليبس» اليونانية الأصل والتي تعني الكشف عن الغيب ، وخصوصاً عن آخر الأيام (إسكاتولوجي) ويوم الحساب . ويتم الكشف عن طريق الأحلام والرؤى والغيب ، وفي الدراسات العربية يُطلَق على الكتب التي تتناول هذه الأشياء مصطلح «أسفار الرؤى» ، وذلك لاعتمادها على الرؤى في سرد الأحداث وفي شرح الأفكار المتضمَّنة فيها . وتُستخدَم الكلمة للإشارة إلى الكتب الدينية اليهودية والمسيحية التي تحتوي على مثل هذه الرؤى ، مثل سفري حنوخ وسفر صعود موسى وسفر باروخ وكتاب اليوبيل ، وتُعدُّ ضمن الكتب الخارجية أو الخفية (أبوكريفا) . وتُعدُّ الإصحاحات الأخيرة من سفر دانيال (٨/ ١٧ ـ ١٢/ ١٣) ضمن أسفار الرؤى ، ويُشار إلى بعض إصحاحات كتاب أشعياء بوصفها أبوكاليبس أشعياء (٢٤/ ١ ـ ٢٧/ ١٣) . كما أن مخطوطات البحر الميت ، هي الأخرى تدخل ضمن كتب الرؤى وتضم الكثير من الأسرار التي تقع خارج نطاق المعرفة الإنسانية كأسرار السماء والأرض والملائكة والشياطين .

وتأخذ كتب الرؤى شكل نبوءة على لسان بطل تاريخي قديم (ذائع الصيت مات منذ زمن بعيد) يدَّعي أنه يرى أحداث ذلك التاريخ كله منذ بدايته حتى نهايته ، وأن هذه المعرفة قد أُخفيت (باليونانية «أبوكريفون») طيلة هذه السنين حتى الوقت الحاضر ، وهو عادةً زمن الأزمة (ومن هنا نجد أن معظم كتب الرؤى من الكتب الخفية) . ولا تُعنَى كتب الرؤى بالحاضر ، كما أنها تورد إشارات سريعة إلى الماضي ، أما المستقبل والنهاية فقد وُجه إليهما اهتمام بالغ فتم وصفهما بالتفصيل . وتنقل هذه الكتب رؤاها من خلال نسق مركب من الرؤى الرمزية والصور الخيالية الباهرة تلعب فيه الحيوانات والطيور والزواحف والوحوش ذات الرؤوس البشرية دوراً أساسياً . والواقع أن أدب الرؤى غامض للغاية ، يحتمل العديد من التفسيرات بحيث يمكن توظيفه لأي غرض ولإثبات أي شيء ، وهي سمة سيتصف بها الماشيَّح فيما بعد . ويرى مؤرخو اليهودية أن جذور الصوفية اليهودية والقبَّالاه ترجع إلى هذه الكتب . ولأن الرؤية الواردة في هذه الكتب لم تكن تساندها شرعية الرؤية الإلهية ، فمؤلفوها كانوا ينسبونها إلى شخصيات توراتية . كما أن الخوف من الاضطهاد السياسي كان سبباً أساسياً لإخفاء شخصية المؤلف . وقد استخدم مؤلفو كتب الرؤى موضوعات كتب الأنبياء بعد تطويرها وتغيير معناها بما يتناسب مع ظروف وشخوص تاريخية معاصرة لهم .

وكتب الرؤى تعبير عن الطبقة الحلولية في اليهودية تنبع من الإيمان بأن أعضاء الشعب المختار الراهن أمة من الأنبياء والقديسين والكهنة يمتلكون إمكانيات نبوية خارقة خاصة ، وأن تقاليد النبوة عندهم لا تزال ممكنة ومفتوحة ومتاحة .

ومما يزيد من حدة التأملات الرؤياوية (الأبوكاليبسية) عندهم أنهم ، وهم الشعب المختار ، كانوا دائماً يذوقون صنوف الويل والعذاب الأرضيين ، فتجربتهم التاريخية هزيمة تلو هزيمة ، وانكسار إثر انكسار ، على أيدي الآشوريين والبابليين ، ثم زادت الأمور سوءاً بعد العودة من بابل ، وتوقُّف سلسلة أنبياء اليهودية ، وبعد إعادة بناء الهيكل . وقد عاد اليهود من المنفى تحدوهم تطلعات مشيحانية ، وأمل في أن تسود جماعة يسرائيل مرة أخرى . ولكن الماشيَّح لم يأت بل تدهور حالهم وأصبح الحاضر تحفه المشاكل ، وبدأت نذر الشر تظهر في الأفق ، فقد ظهرت الإمبراطورية الرومانية بقوتها الضخمة لتهيمن على الشرق الأدنى القديم ، وفلسطين ، ثم دمرت الهيكل تماماً على يد تيتوس ، ثم القدس على يد هادريان . وفي هذه المرحلة الأخيرة الخطرة (من القرن الثاني قبل الميلاد إلى القرن الثاني بعد الميلاد) ظهرت أسفار الرؤى .

وقد ساعد كل ذلك على انصراف اليهود عن الحاضر إلى التأمل الأخروي في آخر الأيام ، إذ كان من غير المنطقي ، من وجهة نظرهم، أن يتركهم الإله في عذابهم الدنيوي دون نهاية سعيدة . وقد ترسَّخ لديهم الإيمان ، تحت تأثير الأفكار الفارسية ، بالفكرة الثنوية التي ترى أن الوجود يتكون من عالمين : العالم الحاضر ويحكمه الشيطان ومصيره الزوال ، والعالم القادم ويحكمه إله الخير والنور ؛ وهو عالم حر تنتشر فيه السعادة الأبدية ، يأتي بعد انتصار إله النور على إله الظلام . ولذا ، فقد آمنوا بأن الإله سيرسل حتماً من يرفع عنهم العذاب . بل إنهم يؤمنون بأنه كلما تأخر يوم الخلاص ، زادت شدة العذاب الذي سيحيق بأعدائهم ، علماً بأن زيادة الآلام علامة اقتراب الخلاص والنصر (وهذا هو النمط الأساسي في كتب الرؤى) . وستأخذ النهاية الرؤياوية للبؤس اليهودي صورة عودة الماشيَّح أو انتصار داود أو تنصيب سليمان معلماً للأمم ، أو عودة اليهود إلى أرض الميعاد . وقد تبنَّى مؤلفو كتب الرؤى فلسفة للتاريخ ذات أصل فارسي ، فقد كان الفرس يُقسِّمون تاريخ العالم إلى ممالك ثلاث : الآشورية والميدية والفارسية ، ثم أضافوا إليها فيما بعد المملكة اليونانية . وقد تبنَّى مؤلفو كتب الرؤى هذا التقسيم ، وأحلوا محل آشور بابل التي كانت لا تزال عالقة بذاكرتهم التاريخية ، وأضافوا مملكة خامسة هي مملكة اليهود الأزلية . وهناك بعض رؤى الأبوكاليبس المسيحية التي ترى أن الخلاص النهائي مرتبط بعودة اليهود إلى فلسطين وتَنصُّرهم ، وتُسمَّى «الرؤى الاسترجاعية» نسبة إلى استرجاع اليهود إلى فلسطين، أو «الرؤى الألفية» نسبة إلى الألف عام التي سيحكم فيها الماشيَّح الأرض .

وتجب التفرقة بين كتب الرؤى (أبوكاليبس) وكتب النبوة ، فكلتاهما وسيلة لمعرفة الإرادة الإلهية . ولكن ، بينما تدور كتب الأنبياء داخل نطاق رؤية توحيدية ، تدور أسفار الرؤى داخل رؤية حلولية ، وتمكن التفرقة بينهما على النحو التالي :

١ ـ من نقط الاختلاف الأساسية ، موقف كتب الأنبياء والرؤى من التاريخ والمجتمع . فالأنبياء توجهوا برسالاتهم مباشرة إلى مجتمعاتهم وركزوا على الحاضر ، وأشاروا إلى الخيارات الفلسفية والأخلاقية المطروحة مطالبين جماعة يسرائيل باتخاذ موقف محدَّد واستجابة مباشرة . وقد كان المستقبل بالنسبة إلى الأنبياء لا يزال عملية مستمرة تستطيع الإرادة الإنسانية أن تلعب فيها دوراً . أما مؤلفو كتب الرؤى ، فكانوا يركزون على البدايات والنهايات ، وعلى النهايات أكثر من البدايات . فكانوا يرون التاريخ عملية موصدة مغلقة ، وما العصر الذي يعيش فيه الكاتب سوى حلقة من سلسلة متكاملة قررها الإله من قبل ، وهي عادةً الحلقة الأخيرة . ويُقال إن هذه الرؤية متأثرة بالرؤية الإغريقية الهيلينية للتاريخ والتي تنظر إليه باعتباره دائرة هندسية مغلقة . ولكن يمكننا أن نقول إن انغلاق كتب الرؤى تعبير عن الحلولية الكامنة فيها .

٢ ـ لا تنشغل كتب الرؤى بالتاريخ انشغال كتب الأنبياء به ، فهي قد تتعامل معه ومع أحداثه ولكنها لا تحترم تفاصيله . فالعقلية الرؤياوية تتوقع وتؤيد التغيير في المجتمع ، لكنه تغيير غير تاريخي لأنه غير مرتبط بمسار التاريخ ، كما أنه يأخذ شكل انفجار أو تحوُّل فجائي جوهري في كل شيء إذ يتم التحول عن طريق التدخل (أو الحلول) المباشر والفجائي للإله في شئون البشر وفي التاريخ . هذا على عكس رؤية معظم الأنبياء التي كانت تبشر بأن إرادة الإله تتحقق داخل التاريخ من خلال أحداثه لا من خلال تَدخُّل مباشر ، فتصبح آشور مثلاً أداة العقاب الإلهي .

٣ ـ لكل هذا ، نجد أن كتب الأنبياء منشغلة بالمضمون الأخلاقي لرسالاتهم وبإبلاغها ، وبكيفية تحقيق الخلاص داخل التاريخ أو تعديل مساره عن طريق التوبة والعودة . ويُحجم الأنبياء عن ذكر ما رأوه في لحظة الوحي ، أما كُتَّاب الرؤى فيعطون وصفاً تفصيلياً لكل شيء : السماء أو البلاط المقدَّس أو الملائكة . وعيون كُتَّاب الرؤى مركزة دائماً على النهاية (لحظة التدخل الفجائي) حين ينتهي التاريخ كليةً ، فالنهاية دائماً وشيكة الوقوع ، هذا على عكس النهاية الأخروية عند الأنبياء ، فقد كانت هذه النهاية عند معظمهم في المستقبل البعيد . ويُلاحَظ أن رؤية النهاية عند كُتَّاب كتب الرؤى كانت شخصية وتاريخية في آن واحد ، إذ يرد في الإصحاح ١٢ من سفر دانيال أول ذكر واضح لبعث الموتى ولعملية العقاب والثواب (دانيال ١٢/ ١٣) . ومن الواضح أن كتب الرؤى تشكل عودة لرؤية الحلولية اليهودية ، كما مهدت للقضاء على تأثير رؤى الأنبياء التي وجدت تطورها الحقيقي في المسيحية .

والتفكير الصهيوني تفكير رؤياوي علماني يؤمن بأنه لا حل للمسألة اليهودية عن طريق التدرج التاريخي (الاستنارة أو الاندماج أو الثورة الاجتماعية) أو عن طريق التعامل مع الواقع التاريخي المتعين ، وإنما يجب أن يتم « الآن وهنا » على الفور (الدولة الصهيونية ـ العودة ـ تكوين جيش من اليهود يغزو فلسطين ويطرد العرب) ، أي أن الصهيونية تتعجل وتعمل من أجل «نهاية التاريخ» ، وذلك بطرح رؤى مثالية فاشية يتم فرضها على الواقع التاريخي لا عن طريق الحلول الإلهي لصالح الشعب اليهودي وإنما عن طريق

العنف والتحالف مع الإمبريالية (مثلاً) ، ومن هنا فإن الصهيونية تعبير عن الحلولية بدون إله .

الآخرة أو العالم الآخر (الآتي)

World to Come

«الآخرة» أو «العالم الآخر» هي المقابل العربي للمصطلح العبري «عولام هبّا» ، وهو مصطلح يهودي أخروي يعني «العالم الآتي في آخر الأيام» (مقابل «عولام هازّيه» ، أي «هذا العالم») . ومفهوم الآخرة أو العالم الآخر مفهوم أخروي ، أخذ في الظهور التدريجي ، واكتسب كثيراً من ملامحه بعد العودة من بابل ، ثم صار إحدى الأفكار الدينية الأساسية في التلمود . وهذا العالم الآتي يشير إلى عدة أشياء متناقضة ، فهو قد يشير إلى المستقبل وحسب ، وقد يشير إلى العصر المشيحاني (الألفي) قبل أو بعد يوم الحساب وقبل أو بعد البعث . وقد يشير إلى الآخرة بمعنى نقطة خارج الزمان . وقد قرنه بعض الحاخامات بالجنة وحسب . وهو قد يشهد التَحرُّر القومي لليهود من ظلم الأمم الأخرى ، ولكنه قد يشهد تَحرُّر الكون بأسره ، أي أنه يعكس كل تناقضات التفكير الأخروي اليهودي ، وتأرجحه ما بين الرؤية الحلولية والرؤية التوحيدية .

آخر الأيام (اليوم الآخر)

End of Days; Aharit Ha Yamim

«آخر الأيام» أو «اليوم الآخر» مصطلح عربي يقابل المصطلح العبري «أحريت هياميم» ، وهو مصطلح أخروي يهودي ، ويكون بأحد معنيين :

١ - يكون بمعنى «في المستقبل» أو «في الأيام المقبلة» ، أي في فترة زمنية مقبلة تتلوها أيام وفترات أخرى .

٢ - ويكون بمعنى «في الأيام الأخيرة» ، ويعني آخر المراحل الزمنية التي لن يأتي بعدها مراحل أخرى . ومع هذا ، فإن هذه المرحلة الأخيرة تقع داخل الزمان .

وإذا كان المعنيان السابقان مختلفين ، فإنهما متفقان في أنهما يقعان داخل الزمان . ومع هذا ، فقد تغيَّر المجال الدلالي للمصطلح قليلاً في القرن الأول قبل الميلاد بحيث أصبح يشير إلى آخر الزمان كمرحلة تقع خارج التاريخ كلية ، يتم فيها بعث الموتى وحسابهم .

يوم الرب

Day of the Lord

«يوم الرب» مصطلح يهودي أُخروي حلولي ، وهو اليوم الذي سيكشف فيه الإله عن نفسه للأمم بكل قوته وعظمته في آخر الأيام ليحطم أعداء جماعة يسرائيل ، بسبب ما اقترفوه من آثام في حق شعبه المقدَّس المختار . وستعلو جماعة يسرائيل في ذلك اليوم ، وتسمو على العالمين ، بعد أن تتجدد قوتها وتنتقم من أعدائها ، وتؤسس مملكة قوية . وهذا المفهوم البدائي القومي ينم عن رغبة عميقة في الانتقام ، ويحمل تضمينات عسكرية (تماماً كما نقول في العربية «يوم داحس والغبراء» أو «يوم الخندق») ، ويجعل الآخرة أمراً مختصاً بالجماعة لا بالأفراد .

وقد حوَّل عاموس المفهوم تماما حين أسماه «يوم يهوه» ، فلم يعد هذا اليوم يوم انتقام جماعة يسرائيل من أعدائهم ، وإنما أصبح «يوم الحساب» أو «يوم الحكم» أو «يوم القضاء العالمي الشامل» ، وهو اليوم الذي سيحاسب فيه الإله كل الناس ، يهوداً كانوا أو أغياراً ، دون تمييز أو تفرقة . ويُعَدُّ هذا أهم التطورات التي دخلت على المفاهيم اليهودية الأخروية .

يوم الحساب

Day of Judgement

«يوم الحساب» ترجمة لمصطلح «يوم هدِّين» ، وهو مصطلح عبري بمعنى "اليوم الذي سيحاسب فيه الإله كل البشر في آخر الأيام" . وهو تطوير لمصطلح «يوم الرب» ذي الطابع الحلولي القومي المتطرف الذي كان يعني حدوث الخلاص (الثواب والعقاب) داخل إطار قومي . وقد تَحوَّل هذا المفهوم القومي الأخير (على يد النبي عاموس وغيره من الأنبياء) إلى مصطلح «يوم الحساب» أو «يوم الحكم والقضاء» (العالمي والشامل) ، وهو يوم سيُحاسَب فيه كل الناس يهوداً كانوا أو أغياراً دون تمييز أو تفرقة . وقد حذر عاموس شعبه من أن الإله سيحطم جماعة يسرائيل بسبب فسادها (عاموس ٥/١٨) ، وأكد كلٌّ من إرميا وحزقيال (إرميا ٣١/٢٩-٣٠ ، حزقيال ١٨) المسئولية الفردية ، كما أكَّد كثير من الأنبياء أن النفي عقوبة تستحقها جماعة يسرائيل . لكن أول إشارة للثواب والعقاب بعد البعث ترد في أشعياء (إصحاح ٢٦) ، ودانيال (١٢/٢) : "وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون ، هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار ، للازدراء الأبدي" . وتطوَّر المفهوم ، فأصبح المصطلح يشمل الموتى

الذين سيُبعثون يوم الحساب "حتى يشملهم الحساب هم أيضاً".

ويُلاحَظ أن مفهوم يوم الحساب، الذي لم يستقر بصورته الجديدة إلا بعد المرحلة البابلية، لم يفقد محتواه القومي تماماً، إذ نكتشف أن اليهود سيتطهرون في يوم الحساب من آثامهم ثم تعود البقية الصالحة منهم إلى أرض الميعاد ليحيوا حياة سعيدة هنيئة كما جاء في سفر هوشع (٢، ١٤). كما يجب التنبيه أيضاً إلى أن يوم الحساب ليس مثل يوم القيامة أو الآخرة، لأنه (حسب كثير من التفسيرات) سيحل قبل البعث النهائي، أي أنه واقعة تاريخية (وفي هذه الدنيا)، وهو مثل المرحلة الألفية سيقع قبل الآخرة ولن يُحاسَب فيه إلا الأحياء الموجودون في الدنيا بالفعل. وكان البعض يرى أن الإله يحاسب العالمين أربع مرات كل عام. وكان البعض يؤمن بأن عيد رأس السنة اليهودية هو اليوم الذي يحاسب فيه الإله البشر، وأن أحكامه تصبح نهائية في يوم الغفران.

والواقع أن دولة إسرائيل هي، بمعنى من المعاني، محاولة علمانية لترجمة مفهوم الفردوس اليهودي الأرضي إلى واقع حقيقي.

البعث

Resurrection

«البعث» تقابلها في العبرية كلمة «تحيَت همِّيتيم». وفي الواقع، فإن ثمة إطارين لفهم فكرة البعث: الإطار التوحيدي، وفي نطاقه نجد أن الإيمان بالبعث يعني الإيمان بعودة الروح إلى الجسد في المستقبل (في اليوم الآخر) لتشاب أو تُعاقَب. وداخل الإطار الحلولي، وفي نطاقه أشكال مختلفة لفكرة البعث من بينها الإيمان بتناسخ الأرواح، أو الإيمان بخلود الروح وحسب دون بَعْث، أو الإيمان بأن بعض الأرواح وحدها هي التي تُبعَث ولا يُبعَث البعض الآخر، أو الإيمان بأن الموتى يحيون بعد الموت في عالم خاص بهم. ولا توجد في كتب العهد القديم الأولى أية إشارات إلى بعث الموتى أو الحياة الأبدية، إذ يبدو أن العبرانيين القدامى لم يكونوا من المؤمنين بالبعث، وإنما كانوا يؤمنون بأن الإنسان جسد يفنى بالموت. وحتى بعد أن ظهرت فكرة خلود الروح، فإن هذه الفكرة لم تكن بعد مرتبطة بفكرة البعث والخير والشر والثواب والعقاب، إذ أن الروح كانت تذهب بعد الموت إلى مكان مظلم يُسمَّى «شيول»، حيث تبقى إلى الأبد، بغض النظر عما ارتكبته من أفعال في هذا العالم الدنيوي. وتتضح هذه الرؤية العدمية في سفر أيوب الذي جاء فيه: «اذكر أن حياتي إنما هي ريح، وعيني لا تعود ترى خيراً... السحاب يضمحل ويزول، وهكذا الذي ينزل إلى الهاوية (شيول) لا يصعد» (أيوب ٧/ ٧-٩) "أما الرجل فيبلى ويموت الإنسان يسلم الروح فأين هو... الإنسان يضطجع ولا يقوم، لا يستيقظون حتى لا تبقى السماوات ولا ينتبهون من نومهم" (أيوب ١٤/ ١٠-١٢).

وقد كانت مكونات فكرة البعث موجودة، فإحدى صفات الإله أنه يُحيي الموتى، وقد رُفع إليه إلياهو بالفعل. ويبدو أن هناك إرهاصات لفكرة البعث في سفر أشعياء (٢٦/ ١٩)، ولكنها لا تظهر بشكل واضح لا إبهام فيه إلا في سفر دانيال (وتحت تأثير فارسي): "وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار، للازدراء الأبدي" (سفر دانيال ١٢/ ١-٣). وبعد ظهور المفهوم، حاول مفسرو العهد القديم أن يقوموا بعملية إسقاط لهذه الفكرة على نصوص سابقة تُفسَّر على أنها تتحدث عن البعث، كما فعل راشي مع مزمور ١٦/ ١٥. ومع هذا، لم تستقر الفكرة تماماً في اليهودية. وعند هدم الهيكل، كان الصدوقيون لا يزالون ينكرون البعث. ويبدو أن الأسينيين أيضاً لم يكونوا يؤمنون به، على عكس الفريسيين.

وترى اليهودية الحاخامية أن الإيمان ببعث الموتى إحدى العقائد الأساسية في اليهودية، وأحد أُسس الإيمان، كما ترى أن البعث بعث للروح والجسد. ولكن، حتى بعد ظهور فكرة البعث بشكلها الكامل، ظهرت عدة إشكاليات من بينها زمن البعث. فالتفكير الأخروي اليهودي يتضمن عنصرين: أحدهما زمني وهو العصر المشيحاني، والآخر لا زمني هو صيغة من صيغ آخر الأيام. كما أن علاقة البعث بيوم الحساب وجهنم والجنة لم تتحدد (وهذه أسئلة أثارها حسداي قريشقش). كما أن فكرة البعث احتفظت بكثير من العناصر الحلولية، ولذلك نجد أنها تكتسب بُعداً قومياً وتظل مرتبطة بالعودة القومية إلى الأرض. وحتى بين هؤلاء الذين يؤمنون بفكرة البعث، هناك خلاف حول من يُبعث من البشر إذ قال موسى بن ميمون إن الأبرار وحدهم هم الذين سيُبعَثون، وذهب آخرون إلى أن كل أفراد جماعة يسرائيل سيُبعَثون، وقال فريق ثالث إن الجنس البشري بأسره سيُبعَث في آخر الأيام. وثمة بعض المفكرين من اليهود ينكرون حتى الآن عقيدة البعث. وتنكر اليهودية الإصلاحية فكرة أن البعث هو عودة الروح إلى الجسد وحسابها، مكتفية بتأكيد عقيدة خلود الروح. وقد تم تعديل كتاب الصلوات ليتفق مع العقائد الجديدة.

والواقع أن في إنكار البعث إنكاراً للمسئولية الشخصية وإنكاراً لفكرة الضمير الفردي ، فالأخلاقيات اليهودية الحلولية أخلاقيات جماعية قومية لا تميِّز بين الخير والشر بقدر تمييزها بين اليهود والأغيار . وإنكار البعث تعبير مباشر عن النزعة الحلولية . فإذا كان الإله يحل في الأمة والأرض ولا يتجاوز المادة والتاريخ ويجمع بينهما ، فإن البعث الفردي (والمسئولية الخلقية) تصبح أموراً مستحيلة وغير مرغوب فيها . فالبعث هو التوحد مع الأمة المقدَّسة والبحث عن الاستمرار والخلود من خلالها ، وربما الدفن في الأرض المقدَّسة . ومن هنا كان الاهتمام المتطرف في إسرائيل بالدفن والمدافن ، وباستعادة جثث الموتى من الجنود الإسرائيليين ، بل من الشائع لدى بعض الجماعات اليهودية شراء تراب من أرض فلسطين (ومن القدس بالذات) لُيْنثر على رأس المتوفي أملاً في أن يحوز بذلك البركة الخاصة بالبعث . وفي إطار الحلولية الصهيونية بدون إله ووحدة الوجود المادية التي تقدِّس الأرض ، بدأ بعض الشباب الإسرائيلي يشعر بأن هذه الأرض المقدَّسة أصبحت تطالب بمزيد من المدافن وصناديق دفن الموتى . ولعل ما يدعم إحساسهم هذا ، رفض يهود العالم الهجرة إليها وحرص الكثيرين منهم في الوقت نفسه على أن يدفن فيها .

تناسخ الأرواح

Transmigration of the Souls

«تناسخ الأرواح» مصطلح يقابله في العبرية مصطلح «جلجول هنيفيش» ، وهو يعني الإيمان بأن أرواح البشر تعود بعد الموت إن عاجلاً أو آجلاً وتستقر في جسد إنسان آخر ، وهي عقيدة مرتبطة تماماً بالفكر الحلولي وتحل محل فكرة البعث التوحيدية (وتشبه فكرة العود الأزلي لنيتشه) وهي عقيدة تستند إلى الإيمان بخلود الروح ولكنها لا تحرِّر الروح تماماً من الزمن . وقد آمن القراءون بشكل من أشكال تناسخ الأرواح . وتظهر الفكرة أيضاً وبشكل أوضح في القبَّالاه : سواء في الزوهار أو في القبَّالاه اللوريانية . وبحسب ما جاء في التراث القبَّالي ، كانت أرواح كل البشر جزءاً من الآدم قدمون ؛ الإنسان الأول أو الكامل ، ولكن خطيئة آدم الأولى أدَّت إلى اغتراب روح البشر عن الإله . وروح كل إنسان جزء من روح آدم ، ومن هنا فإن كل الأرواح تشارك في حالة السقوط والنفي . فإذا اقترف الإنسان آثاماً في حياته ، فإن روحه تتجسد في أشكال أدنى من الحياة . ولذا ، يتعيَّن على الإنسان أن يفعل الخير حتى تحل روحه في أجساد الأبرار لكي تصل الروح إلى حالة الإصلاح (تيقون) وهي استقرارها في مكانها الطبيعي في روح آدم . وقد تستقر روح أحد المذنبين في جسد إنسان آخر ، فتمتلكه وتستحوذ عليه ، وتشكل أثراً سيئاً فيه ، ويمكن طرد هذه الروح بطقوس دينية خاصة .

ومن المفاهيم المهمة الأخرى المرتبطة بتناسخ الأرواح ، فكرة «تلقيح الروح» (بالعبرية : عبُور) ، وذلك حينما تلقى روح شخص ما ظلالها على روح شخص آخر (حيّ) دون أن تسكن جسده بالضرورة . وقد يكون الهدف من عملية التلقيح هذه سلبياً أو إيجابياً . وإذا كانت الروح الهائمة روحاً مذنبة ، فهي تلقي بظلالها على الشخص لتكفِّر عن سيئاتها . وبالتالي ، فهي ستتلبس الشخص الحي ، وفي هذه الحالة ، يُقال لها «ديبُّوق» ولابد من طردها . وقد تلقي الروح الهائمة بظلالها على روح شخص آخر لهدايته ، وإضفاء هيبة عليه . وتذكر القبَّالاه اللوريانية حالات عديدة لتناسخ الأرواح ، منها أن روح هارون حلت في عزرا ، كما حلت روح يعقوب في مردخاي ، في حين أن روحي موسى وسيمون بن يوحاي كانتا تلقيان بظلالهما على روح إسحق لوريا . ويُقال إن روح حاييم فيتال (تلميذ لوريا) لم تتأثر قط بخطيئة آدم .

وفكرة تناسخ الأرواح تعبير عن التيار الحلولي في اليهودية ، وقد سادت هذه الفكرة بين اليهود وهيمنت على كثير منهم منذ القرن السابع عشر ، فقد كان شبتاي تسفي (ومن تبعه) يتحدث عن حلول روح الإله في تسفي أو حلول روح تسفي فيمن أتى بعده . وقد أصبحت هذه الفكرة مركزية بين الحسيديين . ومن مظاهر ذلك ما يفعله الأتباع على قبر أبي حصيرة إذ يلقون أجسادهم عليه أملاً في أن تحل روحه فيهم وتُسمَّى تلك العملية «شيطَّوح» أو «التسطح على القبر» .

خلود الروح

Immortality of the Soul

لا يوجد في يهودية ما قبل التهجير ، ولا في معظم العهد القديم ، إيمان واضح بخلود الروح . ولعل هذا يعود إلى النزعة الحلولية التي تمحو كل الثنائيات وترى أن الروح إن هي إلا جزء من الجسد تفنى بفنائه ، وأن الموت إن هو إلا نقصان فيما يُسمَّى «المادة الحيوية» . ولذا ، فقد أخذت الحياة الآخرة عندهم شكل شيول ، وهو مكان محايد لا يعرف الثواب أو العقاب . ولم يُقدَّر لمفهوم خلود الروح أن يتبلور ، بسبب تخبط الفكر الديني اليهودي بين الفكر الديني التوحيدي المصري وفكر بلاد الرافدين الحلولي ، فقد

أخذ بخلود الروح عن المصريين من ناحية وعن بلاد الرافدين من ناحية أخرى . وفي عبادة يسرائيل ، أي في يهودية ما قبل التهجير ، نجد أن ما يضفي معنى على الأشياء ليس حياة الفرد ، وإنما تاريخ الأمة . ولذا ، فإن الكتاب المقدَّس هو تاريخ الأمة ، ويصبح هذا التاريخ محط اهتمام الإله واهتمام الشعب ، ويصبح الخلود هو خلود الشعب . وقد طرح بعض الأنبياء فكرة خلود روح الفرد ، وإن كان بشكل متردِّد وغير قاطع . ولا نعرف على وجه الدقة متى بدأت الفكرة تضرب بجذور راسخة في العقيدة اليهودية ، ولكن يمكن القول بأن الفكرة بدأت تأخذ شكلاً محدداً في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد وبدأ الفريسيون يبشرون بها . واليهودية الهيلينية تفترض هي الأخرى فكرة خلود الروح ، وأصبحت فكرة البعث التي تفترض خلود الروح إحدى العقائد الأساسية لليهودية .

ومع تزايد هيمنة الحلولية على النسق الديني اليهودي ، نجد أن خلود الروح يأخذ عند القبَّاليين شكلاً آخر هو إيمانهم بتناسخ الأرواح . وهو مفهوم يفترض خلود الروح ولكنه لا يحررها تماماً من الزمان . وقد يكون مما ساعد على عدم تبلور فكرة موحَّدة ومحدَّدة عن البعث ، تَخبُّط الفكر الأخروي اليهودي بين الأفكار المتناقضة عن العصر المشيحاني والآخرة أو العالم الآخر (الآتي) ، وكذلك العقائد الألفية قبل وبعد العصر المشيحاني . ويظهر هذا التخبط في فكر موسى بن ميمون نفسه الذي أنكر أن كل الناس سيُبعَث .

وفي العصر الحديث ، أُعيد طرح القضية مرة أخرى ، وبُعِثَت من جديد بعض الأفكار الحلولية القديمة . فرفض المفكر الديني موريتس لازاروس فكرة خلود روح الفرد وفكرة الآخرة . أما هرمان كوهن ، فيرى أن خلود الروح في اليهودية ينطبق على الشعب ككل ، لا على أفراده ، فالشعب هو وحده الذي لا يموت (فتاريخه أزلي) ، والروح الفردية تكتسب استمرارها من خلال هذا التاريخ ، وهذا هو ما ورد في العهد القديم ، أما ما عدا ذلك فأساطير ، ولذا يجب ألا يجرى التفكير في مصير الإنسان بعد الموت . أما المفكر الصهيوني أحاد هعام ، فيرى أن الإيمان بخلود الروح علامة من علامات الضعف ومرض الروح ، ولذا فهو يسخر من الآخرة ومن الإيمان بها ، ويرى أن الالتصاق العضوي بالأمة يحقق مثل هذا الخلود ، وبذا تحل فكرة الشعب العضوي (فولك) محل فكرة خلود الروح والبعث واليوم الآخر .

الموت
Death

كلمة «موت» العربية يقابلها في العبرية كلمة «مافت» ، التي كانت تُستخدَم كذلك للإشارة إلى إله الموت في العبادة الكنعانية القديمة الذي كان دائماً يصارع بعل إله المطر والخصب . ويعود بعل في شهر المطر ويموت في نهايته ، أما موت ، فيعود إلى الحياة حينما يتوقف المطر ، ويموت حينما يهطل المطر مرة أخرى . وهذه رؤية ثنوية للإله وجدت طريقها إلى العهد القديم ، إذ يُنظَر إلى الموت باعتباره قوة مستقلة عن الإله ، وله رسله (هوشع ١٣/ ١٤ ، أمثال ١٦/ ١٤) . وتوجد عبارات عديدة في العهد القديم يُفهَم منها أن أعضاء جماعة يسرائيل تصوروا أن الموت ضرب من ضروب العودة إلى الأسلاف والانضمام إليهم (تكوين ٤٩/ ٣٣ ، عدد ٢٧/ ١٣) وهو تعبير عن الطبقة الحلولية داخل اليهودية باعتبارها تركيباً جيولوجياً تراكمياً ، ومن هنا الاهتمام بمكان الدفن في اليهودية إذ أصبح من الضروري أن يدفن اليهودي بجوار أسلافه . وقد تأثر مفهوم الموت بعدم الإيمان بالبعث . فكان الموت يُنظَر إليه (في سفر أيوب مثلاً) باعتباره نهايةً مطلقةً وعدماً كاملاً وفناءً لا يُرجى منه شفاء .

وقد ورد في العهد القديم سببان يفسران الموت : الأول أن الإنسان خُلق من تراب ، ولذا فإنه لابد أن يعود إلى التراب (تكوين ٢/ ٧ ، أيوب ١٠/ ٩) . أما سفر التكوين ، فيعطي سبباً آخر وهو أن الموت عقاب على الذنوب التي يرتكبها الإنسان وعلى معصية آدم (الأولى) التي طُرد بسببها من الجنة ، فلم يعد بمقدوره أن يأكل من شجرة الحياة الأزلية (تكوين ٣/ ٢٢ـ٢٤) . والموت ، بهذا المعنى ، عقوبة سيرفعها الإله عن الناس في الآخرة ، أي في العالم الآخر (الآتي) . وكان الموت يعني الذهاب إلى أرض الموتى (شيول) التي لا عودة منها دون أن يكون هناك ثواب أو عقاب . وظهر فيما بعد الإيمان بخلود الروح وبالبعث ، وذلك بعد الاحتكاك بالفُرْس واليونان ، ونطورت المفاهيم الأخروية ، وتَقبَّل الفكر الحاخامي الموت كحقيقة طبيعية حتمية . وحينما ظهر التفكير القبَّالي ، طُرِحَت قضية الموت مرة أخرى ، فالفكر القبَّالي يرى أن الموت نتيجة خلل حدث في الكون بعد حادثة تَهشُّم الأوعية . وقد حاول الفكر القبَّالي أن يهوِّن من نهائية الموت ، فطرح فكرة تناسخ الأرواح التي تجعل الزمان الإطار المرجعي الأساسي ، إن لم يكن الوحيد ، والذي تمكن هزيمته عن طريق دورات التناسخ .

وفي العصر الحديث ، اتخذ الفكر اليهودي مواقف متفاوتة

متضاربة من حقيقة الموت تعكس التناقصات القديمة . وقد عاد الفكر القبَّالي إلى الظهور من خلال الحاخام الصهيوني إسحق كوك الذي يرى ، على طريقة القبَّالاه اللوريانية ، أن الموت ليس حقيقة نهائية يقبلها المؤمن ، وإنما هو عيب في الخَلْق ، وعلى الشعب أن يصلح هذا العيب ويزيله وينقذ الطبيعة من الموت بالتوبة والصلاة . ويتفق هذا الموقف تماماً مع موقف كوك الحلولي المتطرف . فالحلولية لا يمكن أن تقبل الموت لأن هذا يعني وجود مسافة بين الخالق والمخلوق . وقد كان كوك يرى أن تزايد متوسط عمر الفرد في القرن العشرين إحدى علامات اقتراب زوال الموت ، وربما الانتصار النهائي عليه ، وهذا اتجاه غنوصي واضح .

الانتحار

Suicide

بالعبرية «ايبّود» . ويُعدُّ الانتحار ، حسب التصور الديني اليهودي ، جريمة مثل القتل . ويشير الحاخامات إلى ما جاء في سفر التكوين (٩/ ٥) على أنه تحريم للانتحار . ولهذا ، فإن المنتحر أو القاتل المحكوم عليه بالإعدام كان لا يُدفن في داخل المقابر اليهودية ، كما أنه لم تكن تُقام من أجله الشعائر الدينية الخاصة بالدفن . ومع هذا ، فقد ورد في العهد القديم أربع حالات انتحار ، وهي انتحار كلٍّ من : شمشون ، وشاؤول وحامل درعه ، وأحيتوفل . وفي العصر الحديث ، قرَّر الحاخامات أن من ينتحر لا يتمتع بكامل قواه العقلية ، ولذلك يمكن دفنه مع بقية الموتى وبالطريقة نفسها التي يُدفنون بها .

وتختلف معدلات الانتحار بين اليهود والإسرائيليين باختلاف الظروف الاجتماعية ومعدلات التقدم والتخلف . فقد لاحَظ دوركهايم ، في أواخر القرن التاسع عشر ، أن معدلات الانتحار بين أعضاء الجماعات اليهودية منخفضة قياساً إلى الكاثوليك والبروتستانت . كما لوحظ أن نسبة الانتحار في إسرائيل كانت آخذة في التناقص حتى عهد قريب . ولكن ، مع زيادة نسبة الاضطرابات النفسية في الكيان الصهيوني ، زادت نسبة الانتحار ، فقد بلغ عدد المنتحرين عام ١٩٨٤ نحو مائتين وسبعين منهم مائتان وأربعون يهودياً ، وهي نسبة ليست عالية بالقياس إلى اليابان أو الدول الاسكندنافية المشهورة بارتفاع معدلات الانتحار فيها ولكنها على أية حال أعلى في إسرائيل منها في معظم الدول الغربية . وقد بلغ عدد الذين حاولوا الانتحار وأخفقوا ودخلوا المستشفى للعلاج نحو ألف وأربعمائة ، وهذا يشكل نصف العدد الحقيقي لأنه لا يتم عادةً الإبلاغ عن محاولات الانتحار . ولا تضم هذه الأرقام حالات الانتحار في الحبس أو السجون . ويُقال أيضاً إن هذه الأرقام ليست دقيقة لأن الاعتبارات الدينية تجعل بعض الأسر تبلغ عن حادث الانتحار كما لو كان حادثة عادية ، كما يُقال إن بعض المنتحرين ينفذون انتحارهم بحيث يبدو كما لو كان حادثة حتى لا يسببوا حرجاً لأسرهم . وقد لوحظ ارتفاع معدلات الانتحار بين الجنود الإسرائيليين أثناء التورط الإسرائيلي في لبنان . كما انتحر عدد من يهود الفلاشاه بعد استيطانهم فلسطين بسبب عدم تكيفهم مع الأوضاع الجديدة . وبعد الانتفاضة ، انتحر أكثر من ثلاثين جندياً خلال عام ١٩٨٩ ، وكان معظمهم من الجنود النظاميين (ولذا ، فقد أدخل الجيش الإسرائيلي لأول مرة ضباطاً متخصصين في الطب النفسي) . وتمجِّد الصهيونية فكرة الانتحار الجماعي . ومعظم الأساطير القومية ، مثل أسطورة ماسادا وشمشون بل وبركوخبا ، هي أساطير انتحارية . ولذلك ، فإن أحد المفكرين الإسرائيليين (يهوشفاط حركبي) سَمَّى النزعة الانتحارية عند الإسرائيليين «أعراض بركوخبا» . ويتحدث الكتاب الغربيون عن «عقدة ماسادا» .

الدفـــن والمدافـــن

Burial and Burial Places

تتسم العقائد الأخروية «قبيراه» عند اليهود بعدم تحدُّدها أو تبلورها ، إذ تتعايش داخل إطارها عدة أفكار غير متجانسة بل ومتناقضة على طريقة اليهودية الجيولوجية ، بعضها حلولي بدرجات متفاوتة من الحلول والبعض الآخر توحيدي . ويُلاحَظ أن شعائر الدفن والمدافن تكتسب أهمية خاصة داخل الإطار الحلولي . وقد دخل على اليهودية بعض المفاهيم البابلية عن أرض الموتى . وحسب هذه المفاهيم ، يتوقف مصير الموتى لا على ما اقترفوه من آثام ، وما أدوه من حسنات ، وإنما على الطريقة المادية للدفن ، وهل تمت طقوس الدفن حسب القواعد المرعية أم لا ؟ وهل وُضع بجوارهم طعام أم لا ؟ وتوجد مثل هذه الأفكار في العهد القديم ، إذ يجب تقديم طعام للموتى على أن يكون قد دُفعَت عشوره .

ويؤكد العهد القديم أهمية الدفن ، وخصوصاً في مقبرة الأسرة (تكوين ٢٩/٤٧ ـ ٣٠ ، ٢٩/٤٩) . وقد اهتم الآباء بمكان دفنهم وأعدوا العدة لذلك . والسير التي وردت في العهد القديم تنتهي دائماً بسرد تفاصيل دفن الشخص الذي وردت سيرته . ويُعَدُّ عدم دفن الجثمان عقوبة قاسية تلحق بصاحبه ، ومع هذا لم تكن هناك طريقة

عبرانية محدَّدة للدفن إذ استمر العبرانيون في استخدام طرق الدفن السائدة في فلسطين قبل التسلل العبراني . ولم ترد قواعد محددة للدفن في العهد القديم .

لكل ما تقدَّم ، تشغل طقوس الدفن جزءاً مهماً في اليهودية ، وتأخذ أشكالاً متنوعة . ويقوم اليهود بغسل موتاهم في أسرع وقت ممكن ، ثم يقومون بدفنهم في احتفال يجب أن يتسم بالبساطة بعد أن يتلوا صلاة القاديش . ويستخدم الإشكناز توابيت يدفنون فيها الموتى، أما اليهود الشرقيون فيدفنون موتاهم في الأرض مباشرة كما هي عادة المسلمين . وعادةً ما يُدفَن اليهودي الذي يموت ميتة طبيعية في شال الصلاة (طاليت) الذي كان يستخدمه أثناء حياته . أما من يُقتَل فيؤخذ بملابسه الملطخة ، ويُلَف بشاله حتى لا يفقد أي جزء من أعضاء جسمه . ويقوم اليهود بختان الطفل الذي يموت قبل أن يُختن، ثم يُطلق عليه اسم عبري ويُدفَن .

وهناك عدة طقوس ذات طابع حلولي شعبي مرتبطة بمراسم الدفن ، فإحدى صلوات الإشكناز في الجنازة اليهودية كانت تتضمن طلب الغفران من الجثة ، وهي عادة ظلت قائمة حتى عام ١٨٨٧ حينما أوقفها الحاخام الأكبر في إنجلترا . ويلقي السفارد عملات في الجهات الأربع كهدية أو رشوة للأرواح الشريرة . ويُدفَن اليهود في اليمن وأقدامهم موجهة نحو القدس . وفي ليبيا ، إذا كانت أرملة الميت حبلى ، فإنهم يرفعون النعش وتمر الأرملة تحته حتى تبين أن الميت هو أبو الجنين الذي تحمله . ولا شك في أن كل هذه العادات متأثر بالمحيط الحضاري الذي يعيش فيه أعضاء الجماعات اليهودية .

وتحظى المدافن اليهودية بالاهتمام نفسه الذي تحظى به طقوس الدفن ، وهي تُسمَّى «بيت الأحياء» ، كما يُطلَق عليها أيضاً اسم «بيت الأزلية» . وتقع المدافن اليهودية عادةً خارج حدود المدينة لأن جثث الموتى أحد مصادر النجاسة . ويزور اليهود المقابر في الأعياد ليقدموا الصلوات أمام قبور الموتى حتى يتشفعوا لهم عند الإله . ولابد من دفن جميع اليهود في المكان نفسه بالطريقة نفسها ، ويُحتَفَظ بأماكن خاصة في المدافن للعلماء والحاخامات والشخصيات البارزة .

وللدفن في الأرض المقدَّسة دلالة خاصة (وهذا أمر منطقي في الإطار الحلولي) ، فمع حلول الإله في الأرض والشعب ، وعدم تجاوزه لهما ، فإن الخلود الفردي يتراجع ويحل محله الخلود عن طريق التوحد مع الأمة والأرض . فإبراهيم اشترى لنفسه قبراً في فلسطين ، أما موسى فلم يُدفَن هناك ، وقد قلل هذا من شأنه . ولا يزال كثير من أثرياء اليهود في العالم يشترون قطع أرض في إسرائيل ليُدفَنوا فيها . وجرت العادة خارج فلسطين على أن يُرش على رأس الميت تراب يُحضر خصيصاً من فلسطين . كما أن الحكومة الإسرائيلية وجهت عنايتها البالغة لنقل رفات معظم الزعماء الصهاينة فور إعلان دولة إسرائيل ، وبذلت جهداً كبيراً لاسترداد جثث الجنود الإسرائيليين الذين قُتلوا أثناء حرب أكتوبر . ولا يجوز إخراج جثة اليهودي المدفونة من الأرض إلا لإعادة دفنها في مدافن العائلة أو في أرض إسرائيل . ويُقال في الفلكلور الديني في التلمود إن جثة الميت خارج فلسطين تزحف تحت الأرض بعد دفنها حتى تصل إلى الأرض المقدَّسة وتتوحد معها .

وقد تحوَّلت المدافن إلى حلبة أساسية للصراع بين أعضاء الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية . فالإشكنازي الذي يتزوج سفاردية كان لا يمكن أن يُدفَن في مدافن السفارد . كما أن السيطرة على المدافن أصبحت من أهم مظاهر الهيمنة الحاخامية في أمريكا اللاتينية ، الأمر الذي حدا بأحد الباحثين إلى القول بأنه إذا كانت الكنيسة الكاثوليكية تؤكد أنه لا خلاص للمسيحي خارج الكنيسة ، فإن المؤسسات اليهودية في أمريكا اللاتينية حولت الدفن في المقابر اليهودية إلى شيء يشبه الخلاص من خلال الكنيسة (لا خلاص خارج المدافن!) . وتقوم مجالس الجماعات اليهودية المختلفة بجمع الرسوم الباهظة من أعضاء الجماعة اليهودية . ومع تزايد معدلات العلمنة ، بدأت تخف حدَّة هذا التوتر نظراً لعدم اكتراث كثير من أعضاء الجماعات ، في الوقت الحالي ، بمكان الدفن أو مراسمه .

وتُشكِّل القداسة والنجاسة مشكلة أساسية في عملية الدفن كما هو متوقع في الإطار الحلولي ، وتعبِّر القداسة (أو انعدامها) عن درجات الحلول الإلهي . فالكهنة ، أي أولئك اليهود الذين يُفترَض أنهم من نسل الكهنة ، وهم الذين يعبِّرون عن الحلول الإلهي بدرجة أعلى من بقية اليهود ، يُدفَنون إما في نهاية صف المقابر أو في الصف الأمامي وعلى بعد أربع خطوات من المقبرة ، وذلك حتى يتسنى إقامة حاجز يقي أقارب الميت (وهم أيضاً من الكهنة) من الدنس الذي قد يلحق بهم لو لمسوا جثث الموتى من اليهود العاديين أو اقتربوا منها . وعادةً لا يجوز دفن اليهود في مقابر غير اليهود . ولكن ، إن لم تتوافر مدافن خاصة بهم ، فيمكن دفنهم في مقبرة عامة على أن يكون هناك فاصل من أربع خطوات بين مقبرة اليهودي ومقبرة أيٍّ من الأغيار (ونلاحظ أن الخطوات الأربع هي أيضاً المسافة التي يجب أن تفصل الكاهن عن اليهود العاديين) .

ويتبدَّى الفصل الحاد بين اليهود والأغيار ، الذي يشكل مقولة أساسية في اليهودية ، في الموقف من مدى قداسة المدافن والموتى أو

نجاستها . فمدافن غير اليهود ، على عكس مدافن اليهود ، لا تُدنِّس الكهنة نظراً لانعدام قداستها . ولا يمكن إزالة مدافن اليهود لأنها مقدَّسة ، أما مدافن العرب والمسلمين وغير اليهود فيمكن هدمها بكل بساطة . وعلى سبيل المثال ، أُزيلت مئات المقابر في إسرائيل لإقامة هيلتون تل أبيب . ولكن ، عندما هدمت الحكومة الأردنية بعض مقابر اليهود على جبل الزيتون ، حدث احتجاج على ذلك وبشدة . وقد أثيرت مؤخراً قضية مقابر اليهود في حي البساتين في القاهرة ، إذ تقرر بناء طريق سريع حول القاهرة يمر بهذه المقابر ، وهو ما سيؤدي إلى نقل بعضها بضعة أمتار . وهناك فتاوى حاخامية تذهب إلى أنه يجوز نقل هذه المقابر ، وهناك سوابق لذلك . ومع هذا ، قررت المؤسسة الصهيونية تحويل هذه الواقعة إلى مناسبة للصراع ، وإلى وسيلة للضغط على الحكومة المصرية ، وتأكيد فكرة الشعب اليهودي على حساب السيادة المصرية . فصرح الحاخام هرتس فرانكيل (من بروكلين) بأن المقبرة ، حسب العقيدة اليهودية ، أكثر قدامة من المعبد اليهودي ، وهو أمر قد يكون صحيحاً من منظور حلولي يهودي يساوي بين الإله (المعبد) والإنسان (المقبرة) بل يُعلي من شأن الإنسان على الإله ومن ثم يُعلي من شأن المقبرة على المعبد . ولكن ذلك ليس صحيحاً من منظور حاخامي توحيدي معتدل . وقد أضاف الحاخام فرانكيل أيضاً أن المقابر اليهودية جزء من التراث اليهودي وتاريخ الشعب اليهودي ، فأعطى مضموناً أيديولوجياً للمقابر . وقد جندت المؤسسة الصهيونية بعض رجال الكونجرس للضغط على الحكومة المصرية لبناء كوبري يمر فوق المقبرة بدلاً من نقل المقابر . وقد طُبع مؤخراً في إسرائيل ما يُسمَّى «محذوفات التلمود» جاء فيه أنه إذا مرَّ يهودي على مقبرة فعليه أن يلقي عليها دعاءً بالبركة إن كانت المقبرة مقبرة يهودي ، وعليه أن يلعن أمهات الموتى إن كانت المقبرة لغير يهودي .

وقد غيَّر اليهود الإصلاحيون كثيراً من طقوس الدفن ، فأصبح من الممكن دفن الميت بعد يوم أو يومين في ملابس عادية ، كما أنهم يصرحون بإحراق الجثة . وفي الآونة الأخيرة ، هناك اتجاه أخذ في التزايد نحو إحراق جثمان الميت وذَرْ رماده أو الاحتفاظ به في وعاء خاص ، وذلك بسبب تزايد العلمنة ، وهي ممارسة يعترض عليها اليهود الأرثوذكس لأنها تتنافى مع الشريعة اليهودية .

وتُطبَّق قوانين الدفن والمدافن تطبيقاً كاملاً في إسرائيل . وقد أثار أفنيري ، في الكنيست ، مسألة التفرقة التي تمارسها الدولة في دفن الجنود الإسرائيليين الذين يسقطون أثناء القتال ، إذ يُدفنون دون تمييز في بادئ الأمر ، ثم تقوم دار الحاخامية (سراً) بغرس شجرة أمام القتلى الذين لم تعترف الحاخامية بيهوديتهم ، حتى يتم عزلهم عن بقية المدفونين .

وقد أثيرت مؤخراً حادثة جثة تيريزا أنجليلوفيتش ، المستوطنة الصهيونية التي هاجرت من رومانيا إلى إسرائيل مع زوجها ودُفنَت في مقابر اليهود ، وقد اختُطفَت جثتها لدفنها في مقبرة منفصلة ، لأنها لم تتهوَّد بالطريقة المعتمدة لدى الحاخامية . وفي نهاية الأمر ، أُعيد دفنها في مقابر اليهود . وتقدمت شولاميت ألوني باقتراح إنشاء مقابر لليهود العلمانيين مستقلةً عن مقابر المتدينين . ومن القضايا التي أُثيرت أخيراً ، الطلب الذي تقدمت به إحدى أمهات الجنود الإسرائيليين الذين قُتلوا في لبنان بأن يُزال من فوق شاهد قبر ابنها عبارة « عملية السلام من أجل الجليل » ، وهو الاسم الرسمي للغزو الإسرائيلي للبنان . وقد أشارت الأم إلى أنها لم تكن عملية وإنما كانت حرباً ، ولم تكن من أجل السلام كما أنها لم تحققه . كما أشارت إلى أن ابنها لم يسقط في الجليل وإنما في لبنان . وطلبت الأم تغيير التاريخ المكتوب على قبر ابنها من التاريخ العبري إلى التاريخ الجريجوري ، وقد وافقتها المحكمة على طلبها هذا . ويطلب كثير من أعضاء الجماعات اليهودية أن يُدفَنوا في إسرائيل ، الأمر الذي أدَّى إلى ارتفاع ثمن المقابر . وقد لوحظ أن بعض المهاجرين السوفييت يصلون أحياناً ومعهم توابيت لبعض أفراد الأسرة ليُدفَنوا في فلسطين ، ولكنهم يكتشفون أن أسعار المدافن باهظة ، وأنهم غير قادرين على دفع الثمن . وتنوي بلدية القدس المحتلة بناء مقابر تابعة لها في الضفة الغربية بالقرب من معليه أدوميم .

التشريح

Autopsy

لا يوجد تحريم واضح لعملية التشريح في العهد القديم . وبحسب ما جاء في القانون الإسرائيلي ، يمكن تشريح جثث الموتى إذا لم يطالب بغير ذلك آخر ، أو نصَّ الميت على ذلك في وصيته . كما يمكن تشريح الجثث لأسباب قانونية لمعرفة سبب الوفاة أو لأي أسباب أخرى . وقد وافق الحاخام الأكبر على القانون الإسرائيلي ، إلا أن ثمة معارضة قوية من جانب بعض الحاخامات الأرثوذكس . وتُطرَح القضية من آونة إلى أخرى في إسرائيل .

الثواب والعقاب

Retribution, Reward and Punishment

الإيمان بالثواب والعقاب في الآخرة هو إحدى العقائد

الأساسية في الطبقة التوحيدية في اليهودية ، وهي طبقة واحدة توجد بجوار طبقات أخرى مختلفة عنها من أهمها الطبقة الحلولية . ولذا ، لا توجد إشارات واضحة في أسفار موسى الخمسة إلى فكرة الثواب والعقاب ، وإن كان ثمة ثواب وعقاب فإنهما يأخذان شكلاً قومياً ينصرف إلى الشعب اليهودي ككل ، أو إلى الشعوب الأخرى ، لا إلى الأفراد . كما أن الثواب والعقاب في العهد القديم عادةً ما يتمان داخل الزمان . ولذا ، فقد جاء في الوصايا العشر أن طاعة الوالدين تطيل العمر . كما جاء في سفر التثنية : "فإذا سمعتم لوصاياي . أعطي مطر أرضكم في حينه" (١١/١٣ ـ ١٤) . ويثير سفر أيوب قضية معاناة الأبرار وازدهار الأشرار ، ومع هذا فإن السفر يحل هذه الإشكالية بالعودة إلى النمط المادي القديم ، أي بمكافأة أيوب في هذا العالم . فبعد طول معاناة ، وبعد تأملات عدمية تنكر البعث ، يقول السفر : "بارك الرب آخرة أيوب أكثر من أولاه ، وكان له أربعة عشر ألفاً من الغنم وستة آلاف من الإبل وألف فدان من البقر وألف أتان ، وكان له سبعة بنين وثلاث بنات . . . ولم توجد نساء جميلات كبنات أيوب في كل الأرض وأعطاهن أبوهن ميراثاً بين إخوتهن" (٤٢/١٣ ـ ١٥) .

ولكن بعد أن أكد الأنبياء فكرة المسئولية الخلقية ، أصبح من الصعب تقبُّل هذا الرأي الخاص بالمكافأة المادية المباشرة في هذا العالم ، وظهرت فكرة يوم الحساب ، ثم فكرة البعث وفكرة جهنم حيث يُعاقَب الفرد المخطئ ويُثاب المصيب . وقد وضع فقهاء اليهود الثواب والعقاب في إطار أخروي ، رغم وجود النصوص التوراتية التي تؤكد أن مسألة الثواب والعقاب الإلهي تتعلق بأمور الدنيا . وقد ساد هذا التفسير بين فقهاء اليهود في العصور الوسطى في الغرب وفي العالم الإسلامي ، وإن كان التلمود يضم نصوصاً كثيرة هي استمرار للأفكار الحلولية القديمة . ويتعمق التيار الحلولي مع القبَّالاه التي ترى أن الثواب والعقاب يَتمَّان من خلال تناسخ الأرواح . فإذا كان الإنسان خيِّراً ، حلت روحه في جسد إنسان خير . أما إذا كان شريراً ، فإنها تحل في جسد إنسان وضيع أو حتى في جماد أو حيوان .

وعلى كلٍّ ، فإن فكرة الثواب والعقاب ، برغم تحدُّدها وتبلورها في الفكر الديني اليهودي ، لم تستبعد الأفكار الأخرى ، وبما أن اليهودية تركيب جيولوجي تراكمي يضم الأفكار دون صهرها بحيث تتعايش هذه الأفكار بكل تناقضاتها داخل النسق الواحد ، فليس من المستغرب أن يطرح الفكر الديني اليهودي فكرة الثواب والعقاب للنقاش مرة أخرى في العصر الحديث . وقد ذكر كلٌّ من كوهلر وكبلان وبوبر أن فكرة الثواب والعقاب لا يمكن أن تؤخذ بشكل حرفي ، بل لا تنطبق على الفرد ، فهي تنطبق على المجتمع ككل ، وبذلك فقد قرنوا فكرة الثواب والعقاب بفكرة التقدم والتخلف ، بل إن كابلان يقرن الإله نفسه بالتقدم .

وقد طُرحت القضية مرة أخرى بعد الحرب العالمية الثانية ، أي بعد الإبادة النازية ليهود أوربا ، وظهر ما يُسمَّى «لاهوت ما بعد أوشفيتس» ، وهي عبارة تشير إلى تساؤل أساسي يطرحه الفلاسفة الدينيون اليهود ، وهو : هل من الممكن ، بعد أوشفيتس ، الاستمرار في الإيمان بالإله بعد ما حاق باليهود من عذاب وإبادة ؟ وقد تحدَّث بوبر عن «خسوف الإله» . أما ريتشارد روبنشتاين ، فقال إنه لم يعد بوسعه أن يقبل المفهوم التقليدي للإله ، إذ أن مثل هذا الإله عليه أن يتحمل مسئولية أوشفيتس ، باعتبار أن الإبادة النازية لليهود كانت حدثاً فريداً في تاريخ اليهود . ورفض أن يكون النازيون هم أداة عقاب الإله . ونقد رد عليهم فاكنهايم فقال إن رفض الفكرة التقليدية للإله يعني انتصار هتلر . وتؤمن الجماعات الأصولية المسيحية في الولايات المتحدة برغم صهيونيتها الواضحة بأن أوشفيتس عقاب إلهي حل باليهود نظراً لرفضهم المسيح عيسى بن مريم . كما أن الحاخام مناحيم إيمانويل هرتوم يرى أن الإبادة النازية عقاب لليهود من الإله على خطاياهم ، وحيث إنهم لا يزالون مستمرين فيما هم فيه ، فقد يحل بهم العقاب مرة أخرى .

حلقة الأعالي

Academy on High

«حلقة الأعالي» هي ترجمة للعبارة العبرية «يشيفا شيل معلاه» . وقد وردت في الأدب الأخروي (إسكاتولوجي) ، وخصوصاً في العصر التلمودي ، فكرة حلولية مفادها أنه توجد حلقة تلمودية (يشيفا) في السماء يترأسها الإله حيث يستمر الأنبياء والعلماء في دراسة التوراة ، ومناقشاتهم لها وللقضايا الدينية الأخرى . وفي كل يوم ، يطرح الإله تفسيره للتوراة ، ويذكر آراء العلماء الآخرين . وتذكر الأجاداه أن المناقشات الحادة كانت تدور بين الإله وأعضاء حلقة الأعالي . ويدرس في هذه الحلقة التلمودية الأطفال الصغار الذين ماتوا قبل أن تتاح لهم فرصة دراسة الشريعة . ولكن لا يدخل هذه الحلقة ، من بين الكبار ، إلا من درس في الحلقات التلمودية أو المدارس التلمودية العليا على الأرض ، أو أولئك الذين لم يدرسوا ولكنهم عاونوا الآخرين على الدراسة .

وقد طوَّر القبَّاليون هذا المفهوم ، بحيث أصبح هناك حلقتان :

تُسمَّى إحداهما حلقة السماء ، وتُسمَّى الأخرى حلقة الأعالي . ويترأس الأولى ملاك ، ويترأس الثانية الإله . ويمكن أن ينتقل عضو الحلقة الأولى بعد أن ينجح إلى الحلقة الثانية التي تُعَدُّ أعلى مرتبة .

وهذه الفكرة الأخروية الطريفة الساذجة هي تعبير حاد عن التيار الحلولي اليهودي في اليهودية الذي يعادل تماماً بين الإله والإنسان ، وبين الأرض والسماء ، بحيث يُسقط تناقضات العالم الأرضي وصراعاته وسماته على ما يدور في السماء . وفي صلاة يوم الغفران ، يطلب المصلون ، قبل تلاوة دعاء كل النذور ، أن تسمح لهم هذه الحلقة بإقامة الصلاة مع المخطئين .

الجنـــة

Paradise

«الجنة» هي الترجمة العربية لكلمة «جن عيدن» العبرية . كما توجد كلمة أخرى في العبرية هي «باراديس» وتعني «جنة» . والكلمة من أصل فارسي ، وتعني «بقعة يحيط بها سور» ، ولعلها ذات صلة بالكلمة اليونانية «باراديوس» التي أصبحت في الإنجليزية «بارادايز paradise» . ويشكل مفهوم الجنة أحد المفاهيم الأخروية اليهودية المتأخرة . وقد ورد في العهد القديم (سفر التكوين) أن الإله غرس جنة عدن ليقطن فيها آدم وحواء . وهذه الجنة بقعة جغرافية في هذا العالم . والواقع أن اليهودية الأولى ، أي عبادة يسرائيل الحلولية ، لم تعرف الحياة الآخرة أو العالم الآخر أو البعث . وثمة مشاكل عديدة في قصة جنة عدن هذه تتعلق بشجرة الحياة والمعرفة ودلالتهما الرمزية . ومفهوم جنة عدن هو أصل مفهوم الفردوس الأرضي (الموجود بعيداً في الشرق) الذي يقطن فيه الصالحون .

وقد تطوَّر مفهوم الجنة مع تطوُّر المفاهيم الأخروية الأخرى ، وظهرت مفاهيم مثل : العالم الآخر (الآتي) ، والمستقبل ، والعصر المشيحاني ، وكلها مفاهيم تدور حول فكرة الفردوس (وإن كان هذا الفردوس فردوساً أرضياً داخل الزمان) . ومع ظهور فكرة البعث وفكرة الثواب والعقاب الفرديين ، صارت فكرة الجنة مرتبطة بهذه الأفكار وأصبحت جنة عدن "حديقة في العالم الآخر" . بل ذهب بعض الحاخامات ، لحل مشكلة الثنائية بين جنة عدن والجنة أو الفردوس الأرضي والفردوس السماوي ، إلى أن جنة عدن نُقلَت إلى السماء . ومع هذا ، لم يتبلور المفهوم تماماً ، واختلط بمفهوم العالم الآتي وتداخل مع المفاهيم الفردوسية الأخرى . وهكذا ، فإننا نجد أن الفكر القبَّالي يجعل الجنة (باراديس) في متناول العارفين بالقبَّالاه الذين يصلون إلى معنى التوراة الخفي ، فيخترقون سطح توراة الخالق ليصلوا إلى توراة الفيض ، ومن هنا ذهب القبَّاليون إلى أن بارديس هي التفسير المتعمق للتوراة . والحروف المكوِّنة لكلمة «بارديس» هي الحروف الأولى لمستويات التفسير الأربعة : ب = بيشاط (حرفي) ، ر = ريميز (رمزي) ، د = ديراش (وعظي) ، س = سود (باطني أو صوفي حلولي) . وفي العصر الحديث ، تخلَّى الفكر الديني اليهودي عن هذه الفكرة تماماً ، وهي لم تكن في أي وقت إحدى العقائد الأساسية .

أرض الموتى (شيول)

Sheol

«أرض الموتى» ترجمة لكلمة «شيول» العبرية التي تُستخدَم كاسم عَلَمْ ، وهي مجهولة الأصل وتأتي دائماً في صيغة المؤنث وبدون أداة تعريف ولا تظهر في اللغات السامية الأخرى . وتشير الكلمة إلى مكان يسكن فيه الموتى . وقد أُشير إليه بأسماء أخرى ، مثل «عفر» ، أي «تراب» ، و«جفر» ، أي «قبر» ، كما استُخدمت عبارات شتى للإشارة إليه مثل «مكان السكنى» ، و«أماكن الأرض السفلى» ، و«أرض الظلمة» . وتقع شيول إما تحت الأرض ، أو تحت الماء ، أو تحت قاعدة الجبال ، وأحياناً تُصوَّر على هيئة تنين مخيف .

وتُعتبَر شيول مكاناً محايداً ، أي أنه لم يكن مكاناً للثواب والعقاب يتساوى فيه الملوك والعامة والأثرياء والفقراء والسادة والعبيد والأخيار والأشرار ، بل هو يكاد يكون مجرد مكان للدفن . ورغم أن الإله يتحكم (حسب التصور اليهودي) في العالمين العلوي والسفلي ، فإن الموتى لا يمكنهم التواصل معه أو التسبيح له (مزامير ١١٥/ ١٧) ، ذلك أنهم قد انحدروا إلى أرض السكون . ومع هذا ، فيمكن استدعاء الموتى من هناك ليجيبوا عن أسئلة الأحياء . وشيول تشبه في كثير من النواحي عالم الأراللو أو عالم الظلمات في بلاد أرض الرافدين ، فهو عالم مظلم لا حساب فيه ويُنسى من ينزل إليه .

ومفهوم كلمة «شيول» مفهوم منطقي في السياق الحلولي الوثني للعهد القديم وعبادة يسرائيل ، فالديانة القديمة ترى أن الجسد والروح شيء واحد ، وأن الحياة الآتية امتداد للحياة الحالية . ولذا ، فإن حياة ما بعد الموت ، إن وُجدت ، فليست إلا صورة شاحبة لهذه الحياة تتسم بنوع من نقصان الحيوية . وحين يموت المرء ، تذهب روحه وجسده إلى أرض الموتى .

وقد تطوَّر هذا المفهوم فيما بعد ، في فترة ما بعد السبي البابلي

حين ظهرت فكرة الثواب والعقاب الفرديين ، بحيث أصبحت شيول المكان الذي ينتظر فيه الموتى يوم الحساب حين يُبعثون ليُحاسَبوا . ولذا ، فقد قُسِّمت شيول إلى أقسام مختلفة ، ينتظر الأخيار في مكان خاص بهم ، وينتظر الأشرار في أماكن أخرى مختلفة كل حسب درجة شره . ومن هنا ، تداخل مفهوم كلمة «شيول» مع مفهوم كلمة «جيهنوم» (جهنم) وهو مكان العذاب الدائم للمذنبين .

جهنم

Hell

«جهنم» من الكلمة الآرامية «جيهينوم» ، ويقابلها في العبرية كلمة «جي بني هنوم» ، أي «وادي أبناء هنوم» . و«جهنم» أحد المفاهيم الأخروية اليهودية ، ولم يظهر إلا متأخراً . فقد ظهرت في بداية الأمر كلمة أرض الموتى (شيول) ، وهي كلمة ذات مفهوم محايد غير مرتبط بالثواب والعقاب أو البعث والحساب . ومع تطوُّر الفكر اليهودي من الحلولية إلى التوحيدية ، ودخول أفكار خلود الروح الفردي والبعث والحساب ، تطوَّر مفهوم أرض الموتى لتعبِّر عنه كلمة «جهنم» ، أي «المكان الذي سيُعاقَب فيه الأشرار» . وكان المعروف أن عقاب المذنبين سيتم داخل الزمان ، ولذا كان يُشار إليه باعتباره «الوادي الملعون» ، ثم تحوَّل إلى المكان الذي سيُعاقَب فيه الآثمون بعد البعث .

ومع هذا ، ظل المفهوم قلقاً غير محدد ، مثله مثل معظم المفاهيم الأخروية ، فليس من المعروف ما إذا كان الآثمون سيدخلون جنهم بعد البعث أم بعد الموت ؟ ولم يحدد الفكر الديني مدى العقوبة ، فثمة رأي يذهب إلى أن الآثمين من جماعة يسرائيل سيُعاقَبون مدة عام ، ثم تباد أرواحهم بعد ذلك . وذهب الحاخام عقيبا إلى أنهم سيذهبون إلى الجنة بعد قضاء فترة العقوبة . وكان الرأي يذهب إلى أن كل أعضاء جماعة يسرائيل ، باستثناء قلة مذنبة صغيرة ، سيكون لهم نصيب في الآخرة أو العالم الآخر (الآتي) . ويُقال إن إبراهيم سيقف عند باب جهنم وينقذ من دخولها المختونين من نسله . وسيستريح كل المذنبين من العذاب ، ومن ضمنهم غير اليهود ، يوم السبت . وقد أنكر بعض حاخامات فلسطين وجود جهنم وقالوا إن أرواح الأشرار ستباد تماماً يوم الحساب . وفي العصر الحديث ، أسقط كثير من المفكرين الدينيين اليهود فكرة جهنم تماماً . وقد كان الأمر بالنسبة إليهم يسيراً لأنها لم تصبح قط ضمن العقائد اليهودية المستقرة .

الملائكة

Angels

«الملائكة» صيغة جمع عربية لكلمة «ملاك» التي تقابلها «ملاك» العبرية ومعناها «مُرسَل» لأداء «مل آخا» أي «مهمة» أو «بعثة» . ويمكن القول بأن الملائكة داخل إطار حلولي تختلف تماماً عنها داخل إطار توحيدي ، فهم داخل الإطار التوحيدي رمز للغيب وتعبير عن قدرة الإله اللانهائية التي تتجاوز مقدرات البشر وإدراكهم . أما داخل الإطار الحلولي ، فالأمر جدُّ مختلف ، فهم ليسوا رسل الإله وحسب وإنما هم جزء منه ووسطاؤه . ولذا ، يشار إلى الملائكة في التراث الديني اليهودي باعتبارهم «بنو إلوهيم» أو «بنو إليم» ، أي «أبناء الإله» أو «قيدوشيم» ، أي «المقدَّسون» ، وأحياناً «إيش» ، أي «رجل» . أما أسماء مثل : «أرئيليم» ، أو «كروبيم» أو «سيرافيم» أو «أوفانيم» ، فتُستخدَم للإشارة إلى الملائكة المرتبطين بالعرش أو المركبة الإلهية . وقد عرف الشرق الأدنى القديم آلهة مجنحة لها رؤوس بشر ذكور وإناث ، هي التي تظهر أمام القصور الآشورية ، كما عرفتها العبادة الكنعانية .

ويظهر الملائكة في الأجزاء الأولى من العهد القديم على هيئة بشر . وهم يضطلعون بوظائف عديدة ، من بينها حماية العبرانيين أثناء خروجهم من مصر وأثناء تجوالهم في البرية . ويفسرون لزكريا ودانيال الرؤى (أبوكاليبس) التي شاهدها . كما أنهم يقومون بعقاب المذنبين ، مثلما فعلوا عند تحطيم سدوم وعموراء . وهم يحيطون بالعرش الإلهي ، ومنهم أيضاً الجوقة التي تسبح للإله . ومن أهم أحداث العهد القديم ، حادثة الصراع بين يعقوب والملاك (الذي ظهر فيما بعد أنه الإله) ، وقد صرعه يعقوب ، وسُمِّي «يسرائيل» ، أي «الذي تصارع مع الإله» أو «من صرع الإله» . ويرتكب الملائكة الحماقات . فقد ورد في العهد القديم (تكوين ٦/ ١-٢) : "وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات ، أن أبناء الإله رأوا بنات الناس أنهن حسنات . فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا" .

وبعد العودة من بابل ترسَّخ مفهوم الملائكة في العقيدة اليهودية ، وأصبح للملائكة أسماء وطبقات . وقد تزايد عددهم وتزايدت أسماؤهم في كتب الرؤى (أبوكاليبس) ، وظهرت فكرة رئيس الملائكة الذي سقط . ومع هذا ، فقد استمرت فرق مثل الصدوقيين في إنكار الملائكة ، وهو جزء من إنكارها لفكرة البعث والإله المتجاوز للطبيعة والتاريخ .

والإيمان بالملائكة داخل الإطار الحلولي هو إحدى العقائد

الأساسية في التلمود . وقد تَعمّق الاهتمام بهم مع ظهور التراث القبَّالي ووصوله إلى ذروته ، وهو تعبير عن هيمنة الحلولية . ويضم كتاب الزوهار ، وغيره من الكتب القبَّالية ، قوائم طويلة بأسماء الملائكة ، ومهمة كل واحد منها والوقت الذي يزداد فيه نفوذ كل ملاك ومكانه في الأبراج السماوية . وقد استُخدمت أسماؤهم في القبَّالاه العملية ، في إعداد التمائم والتعاويذ المختلفة . بل يصبح الملائكة ، شأنهم في هذا شأن عزازيل ، قوى مستقلة عن الذات الإلهية ، أي آلهة صغيرة لها إرادة مستقلة تقف على باب السماء تمنع دخول أدعية البشر للإله ، ولذا يحاول اليهود خداعهم . ولاتقاء شرهم ، يتلون بعض الأدعية في صلاة الصباح بالآرامية بدلاً من العبرية . وحينما يسمع الملائكة الأدعية بالآرامية ، فإنهم يحتارون في أمرها . وأثناء حيرة حارس بوابة السماء ، تدخل الأدعية الأخرى دون أن يدري .

وقد اتُهم اليهود بأنهم من عبدة الملائكة من فرط اعتمادهم عليها وتَضرُّعهم لها . ولا يزال كتاب الصلوات الأرثوذكسي يتضمن تضرعات موجهة إلى الملائكة ، مثل تلك الموجهة إلى ملاك الرحمة (ملآخ هارحيم) . أما أنشودة "شالوم عليخم مل آخي هاشاريت" ، أي "السلام عليكم يا ملائكة العون" ، فهي تُنشَد في المعبد أو في المنزل بعد صلاة المساء . وتتضمن الصلاة الإضافية (موساف) التي تُتلى في السبت والأعياد في المعابد الأرثوذكسية تضرعاً إلى الملائكة ، وكذا الأدعية التي تُتلى أثناء نفخ الشوفار في احتفال رأس السنة . هذا على الرغم من أن موسى بن ميمون أدان أية صلاة لغير الإله .

وقد استبعدت كتب اليهودية الإصلاحية أية إشارة إلى الملائكة تقريباً . كما استبعدت اليهودية المحافظة معظمها ، وخصوصاً تلك الصلوات ذات الأصل القبَّالي . وقد احتفظ الأرثوذكس بطقوس الصلوات القديمة ، دون أن يضفوا أهمية غير عادية على الكلمات والفقرات الصوفية كما كان الحال في الماضي .

وقد أُثيرت مؤخراً (في إسرائيل) قضية خاصة بالملائكة ، إذ صنع المثَّال الإسرائيلي إدوارد لفين ثلاثة تماثيل للملائكة لتزيين دار البلدية في القدس ، ولكنه نظراً لأنه نشأ في روسيا جعل الملائكة تشبه تلك التي تظهر في الأيقونات البيزنطية ، وقد طُلب إليه تهويدها فأضاف إليها نجمة داود !

الكروب (الملائكة)

Cherub; Kerub

«كروب» كلمة عبرية تعني «ملاك» وجمعها «كروبيم» . وهي مشتقة من الكلمة الأكادية «كاريبو» بمعنى «شفيع» . وكانت «الكاريبو» في بلاد الرافدين ، خصوصاً في آشور ، عبارة عن ثيران أو أسود مجنحة لها رؤوس بشر . وكانت هذه التماثيل توضع على مداخل المعابد والقصور . والكروب آلهة ثانوية تتدخل لدى كبير الآلهة لصالح الإنسان . وقد عُثر على تماثيل للكروبيم في سوريا أيضاً ، وكان بعضها على هيئة بشر ذوي جناحين . وتعود فكرة الملائكة (كروبيم) في اليهودية إلى أصول آشورية وسورية وكنعانية وربما مصرية أيضاً . وقد استُخدمت الكروبيم لإضفاء طابع جمالي على الهيكل . ولم تكن الملائكة آلهة ثانوية في اليهودية ، وإنما كائنات خلقها الإله ، وهي تحمل عرشه وتحرس بوابات جنة عدن وشجرة الحياة والهيكل ، وتظهر على هيئات مختلفة ، فقد تم تخيُّلها على أنها ذات وجهين ؛ وجه بشر ووجه حيوان . وفي رواية أخرى صُوِّرت على هيئة حيوانات ذات أربعة أوجه ؛ إنسان وأسد وثور ونسر .

ووجود تماثيل الملائكة في الهيكل يدل على أن اليهودية لم تكن معادية تماماً للتصوير . فقد كان هناك أيضاً العجول الذهبية (في دان وبيت إيل) التي شُيِّدت كرموز ليهوه . وقد وُجدت تماثيل للملائكة (كروبيم) في الهيكل ، كما وُجدت صور لها على الحوائط والستائر . وداخل قدس الأقداس ، فوق تابوت العهد ، كان يوضع تمثالان من الذهب طول كل منهما خمسة عشر قدماً ، وأجنحتها بالطول نفسه . وقد تلامس جناحان من أجنحتها في حين يلامس الجناحان الآخران حائط قدس الأقداس . وتغيَّرت صورتهما ، في مرحلة لاحقة بعد العودة من بابل ، وأصبحا على هيئة رجل وأنثى مجنحين في عناق ذي طابع جنسي ، رمز الحب بين الإله وجماعة يسرائيل (وقد ذكر راشي أن الملاكين كانا متصلين أحدهما بالآخر ، وملتصقين ومتعانقين ، كما يعانق الذكر الأنثى) . وكان الإله يكلِّم موسى من فوق غطاء تابوت العهد ومن بين الملاكين الذين يظللان التابوت . وقد حاول فيلون أن يفسر دلالة الملاكين بأنهما رمز للخير والسيادة ، ولكن راب فتينا (وهو فقيه من بابل في القرنين الثالث والرابع) بيَّن أنهما يمثلان رموزاً جنسية مقدَّسة ، وأنهما كانا يُعرضان أثناء الحج على جماهير اليهود ، فيزاح ستار قدس الأقداس ، ويُقال : "انظروا إن حبكم للإله هو مثل حب الذكر للأنثى" ! .

ميتاترون

Metatron

«ميتاترون» هو اسم أعلى الملائكة بحسب ما جاء في الأجاداه

والتراث القبَّالي ، ويبدو أن الاسم من اللاتينية «ميتاتور» وتعني «من يخطط الحدود» ، أو من اليونانية «ميتاثرونون» وتعني «أقرب إلى العرش الإلهي» . ولعل هذا الاسم يعود إلى اسم الإله الفارسي «ميثرا» . ويُقال إن «ميتاترون» تعني «الملاك حامل الاسم الرباعي» . وأحياناً يُطلَق عليه «أمير الحضور» وكأنه شخيناه مُذكَّرة ، ويُقرَن بالملاك ميخائيل . ويقوم ميتاترون بتسجيل حسنات الناس وسيئاتهم، وأحياناً يصبح الوسيط بين الإله والعالم والذي خلق العالم من خلاله ، وهو إحدى حلقات الفيض الإلهي . وتعادل القيمة الرقمية لاسمه القيمة الرقمية لاسم أحد أسماء الإله (شدَّاي)، وأحياناً كان يُقرن بالإله والإنسان في آن واحد ، أي أن الحلقة الحلولية تكتمل من خلاله . ويُتداوَل اسم «ميتاترون» بين الدروز في لبنان ، ومن الواضح أن أصل ميتاترون غنوصي .

الجن والشياطين

Demons

توجد في العهد القديم إشارات عديدة إلى كائنات خرافية قد تكون خيرة أو شريرة حسب الوظيفة التي تقوم بها . ومن هذه الكائنات الشياطين ، وأهمها عزازيل وليل (ليليت) .

ليل (ليليت)

Lilith

«ليل أو (ليليت)» شيطانة في التراث الديني اليهودي الشعبي . ويبدو أن كلمة «ليل» صيغة مُعبْرَنة للشيطانة البابلية ليليتو ، ومن خلال ربط اسمها بالكلمة العبرية «ليلاه» ، أي «الليل» ، فُسِّرت ليل بأنها شيطانة الليل والظلام التي تأتي بالأحلام الجنسية للرجال وتسبب القذف أثناء النوم ، وتقتل الأطفال المولودين وأمهاتهم ، وخصوصاً في الأيام السبعة الأولى بعد الميلاد ، وتظهر صورتها في آثار سومر على هيئة أنثى عارية مجنحة تقف على ظهر أسد ، ولها مخالب طائر . وحسبما جاء في التلمود ، كانت ليل عشيقة آدم في الفترة التي افترق فيها عن حواء بعد طردهما من الجنة وولدت له عدة شياطين . وفي رواية أخرى ، كانت ليل هذه زوجته الأولى قبل حواء ، خُلقَت مثله من طين لا من ضلعه ، ولكنهما تشاجرا لأنها لم توافق على أن يطأها الرجل في عملية الجماع ، وذلك لأنها ترى أن في هذا إذلالاً لها وهيمنة للرجل عليها ، فنطقت باسم يهوه وهربت وأقسمت أن تنتقم منه . ولذا ، فهي تقتل أولاد حواء . ولكن يمكن أن يُوقَف مفعول لعنتها عن طريق استخدام الحجاب المناسب .

والواقع أن شخصية ليل (أو ليليت) مثال جيد للسمة الجيولوجية في النسق الديني اليهودي ، فهي قد ذُكرت في العهد القديم بشكل عابر (أشعياء ٣٤/ ١٤) باعتبارها إحدى الأرواح أو أحد الوحوش المفترسة التي ستدمر الأرض في آخر الأيام . ثم نُسجت حولها الأساطير بحيث أصبح داخل اليهودية قصتان متناقضتان للخلق يتعايشان جنباً إلى جنب . وقد أصبحت ليليت إحدى بطلات حركة التمركز حول الأنثى في أمريكا والعالم الغربي وعلماً على الأنثى المتمردة .

عزازيل

Azazel

«عزازئيل» اسم عبري معناه «الرب يقوي» ، و«قوة الرب» ، وكذلك «القوة المناوئة للرب» كما يُقال إن الاسم يعود إلى اسم الإله السوري الكنعاني «عزيز» . وعزازئيل روح شريرة أو شيطان ورد اسمه في العهد القديم (لاويين ١٦/ ٨ ـ ١٠ ـ ٢٦) . وهو أحد قواد الملائكة الذين سقطوا من السماء . ويعيش عزازئيل حسب الرؤية اليهودية القديمة في البرية بالقرب من أورشليم . وكان كبير الكهنة يُقدِّم في يوم الغفران كبشين : أحدهما قرباناً ليهوه ، والآخر قرباناً لعزازئيل . وكان الكبش الثاني لا يُذبح ، وإنما يُطلَق سراحه في البرية ، حاملاً ذنوب جماعة يسرائيل ، ولكنه مع هذا كان يُذبَح فيها أو يُدفَع به من عل حتى لا يعود حاملاً هذه الذنوب .

ومن الواضح أن عزازئيل هذا هو استمرار لطقوس وثنية وأفكار غنوصية ، فهو رمز الشر ، بل هو خالق كل الشرور في العالم، وهو نقيض يهوه خالق الخير . ويبدو أن هذا الطقس يفترض أن يهوه وعزازئيل عنصران متكاملان يشبهان في هذا علاقة إله الخير بإله الشر في عبادات الفرس الثنوية . وقد توارى وجوده بعض الشيء أثناء الفترة التلمودية ، ولكنه عاد إلى الظهور مرة أخرى مع انتشار القبَّالاه .

وقد صار عزازئيل في القبَّالاه قوة مستقلة تصارع ضد الإله ، ولذلك يقرأ القبَّاليون أدعية لإرضاء الإله وأخرى لإرضاء الشيطان . بل ويؤمن القبَّاليون بأن بعض القرابين في الهيكل كانت تُقدَّم إلى الشيطان ، وهم ليسوا مجانبين الصواب تماماً في ذلك . ويُقال إن كل القرابين في الأيام السبعة الأولى من عيد المظال كانت تُقدَّم إلى عزازئيل باعتباره حاكم الأغيار ، حتى يظل مشغولاً عن اليهود ، وحتى يمكن تقديم القرابين إلى الإله في اليوم الثامن .

٢٠
الماشيَّح والمشيحانية

الماشيَّح والمشيحانية ـ أبو عيسى الأصفهاني ـ يودغان ـ داود الرائي ـ رءوبيني ـ ملكو ـ شبتاي تسفي ـ نيثان الغزاوي ـ قويريدو ـ الحركة الشبتانية ـ الدونمه ـ المناظرة الشبتانية ـ إيبشويتس ـ إمدن ـ بولي ـ الحركة الفرانكية ـ فرانك ـ دوبروشكا

الماشيَّح والمشيحانية

Messiah and Messianism

«ماشيَّح» كلمة عبرية تعني «المسيح المخلِّص» ، ومنها «مشيحيوت» أي «المشيحانية» وهي الاعتقاد بمجيء الماشيَّح ، والكلمة مشتقة من الكلمة العبرية «مشح» أي «مسح» بالزيت المقدَّس . وكان اليهود ، على عادة الشعوب القديمة ، يمسحون رأس الملك والكاهن بالزيت قبل تنصيبهما ، علامة على المكانة الخاصة الجديدة وعلامة على أن الروح الإلهية أصبحت تحل وتسري فيهما . وكما يحدث دائماً مع الدوال في الإطار اليهودي الحلولي ، نجد أن المجال الدلالي لكلمة «ماشيَّح» يتسع تدريجياً إلى أن يضم عدداً كبيراً من المدلولات تتعايش كلها جنباً إلى جنب داخل التركيب الجيولوجي التراكمي اليهودي . فكلمة «الماشيَّح» تشير إلى كل ملوك اليهود وأنبيائهم ، بل كانت تشير أيضاً إلى قورش ملك الفرس ، أو إلى أي فرد يقوم بتنفيذ مهمة خاصة يوكلها الإله إليه . كما أن هناك في المزامير إشارات متعددة إلى الشعب اليهودي على أنه شعب من المشحاء .

وهناك أيضاً المعنى المحدد الذي اكتسبته الكلمة في نهاية الأمر إذ أصبحت تشير إلى شخص مُرسَل من الإله يتمتع بقداسة خاصة ، إنسان سماوي وكائن معجز خلقه الإله قبل الدهور يبقى في السماء حتى تحين ساعة إرساله . وهو يُسمَّى «ابن الإنسان» لأنه سيظهر في صورة الإنسان وإن كانت طبيعته تجمع بين الإله والإنسان ، فهو تجسُّد الإله في التاريخ ، وهو نقطة الحلول الإلهي المكثف الكامل في إنسان فرد . وهو ملك من نسل داود ، سيأتي بعد ظهور النبي إليا ليعدل مسار التاريخ اليهودي ، بل البشري ، فينهي عذاب اليهود ويأتيهم بالخلاص ويجمع شتات المنفيين ويعود بهم إلى صهيون ويحطم أعداء جماعة يسرائيل ، ويتخذ أورشليم (القدس) عاصمة له ، ويعيد بناء الهيكل ، ويحكم بالشريعتين المكتوبة والشفوية ويعيد كل مؤسسات اليهود القديمة مثل السنهدرين ، ثم يبدأ الفردوس الأرضي الذي سيدوم ألف عام ، ومن هنا كانت تسمية «الأحلام الألفية» و«العقيدة الاسترجاعية» .

ولأن إله اليهود لا يَحلّ في التاريخ فحسب ، وإنما يحل في الطبيعة أيضاً ، فإننا نجد أن العصر الذهبي (أو العصر المشيحاني) يشمل التاريخ والطبيعة معاً . فعلى مستوى التاريخ ، نجد أن السلام ـ حسب إحدى الروايات ـ سيعم العالم ، وأن الفقر سيزول ، وستُحول الشعوب أدوات خرابها إلى أدوات بناء ، ويصبح الناس كلهم أحباء متمسكين بالفضيلة ، ولكن صهيون ستكون بطبيعة الحال مركز هذه العدالة الشاملة ، كما ستقوم كل الأمم على خدمة الماشيَّح . وفي رواية أخرى: ستسود صهيون الجميع وستحطم أعداءها . أما على مستوى الطبيعة ، فإننا نجد أن الأرض ستُخصب وتطرح فطيراً ، وملابس من الصوف ، وقمحاً حجم الحبة منه كحجم الثور الكبير ، ويصير الخمر موفوراً .

والفكر المشيحاني فكر حلولي متطرف يعبِّر عن فشل الإنسان في تَقبُّل الحدود ، وعن ضيقه بالفكر التوحيدي الخاص بفكرة الإله المتجاوز للطبيعة والمادة والتاريخ ، وعن ضيقه بفكرة حدود الإرادة الإنسانية والعقل البشري ، وبالتاريخ باعتباره المجال الذي تركه الإله للإنسان ليمارس حريته (فكأنه ضيق طفولي بالوضع الإنساني) يضيق الإنسان بكل هذا ويتخيل تساقط الحدود ليحل الإله في التاريخ والطبيعة والإنسان وينهي كل المشاكل دفعة واحدة إما بتَدخُّله الفجائي والمباشر في التاريخ أو بإرساله المخلِّص (كريستوس) في المنظومة الغنوصية لينجز المهمة (وتظهر هذه الفجائية في أسفار الرؤى على عكس كتب الأنبياء الذين يرون التاريخ مجالاً للفعل الإنساني الحر والرقي التدريجي) .

وقد أضعفت عقيدة الماشيَّح انتماء أعضاء الجماعات (وخصوصاً في الغرب) لمجتمعاتهم ، وزادت انفصالهم عن الأغيار ، ذلك أن انتظار الماشيَّح يلغي الإحساس بالانتماء الاجتماعي والتاريخي ، ويلغي فكرة السعادة الفردية . أما الرغبة

في العودة ، فتلغي إحساس اليهودي بالمكان وبالانتماء الجغرافي . ويبدو أن اضطلاع أعضاء الجماعات اليهودية بدور الجماعة الوظيفية واشتغالهم بالتجارة الدولية في الغرب ، كعنصر تجاري غريب لا ينتمي إلى المجتمع ، هو الذي عمَّق أحاسيسهم المشيحانية ، فالتاجر لا وطن له ، ولا تحد وجدانه أو تصوراته أية قيود أو حدود ، على عكس الفلاح الذي لا يجيد التعامل إلا مع قطعة معينة من الأرض . ومما له دلالته أن الحركات المشيحانية ارتبطت دائماً بالتصوف الحلولي وتراث القبَّالاه الذي ينطلق من رؤية كونية تلغي الفوارق والحدود التاريخية بين الأشياء .

وأصل عقيدة الماشيَّح المخلِّص فارسية بابلية ، فالديانة الفارسية ديانة حلولية ثنوية تدور حول صراع الخير والشر (إله النور وإله الظلام) صراعاً طويلاً ينتهي بانتصار الخير والنور . وقد بدأت هذه العقيدة تظهر أثناء التهجير البابلي ، ولكنها تدعمت حينما رفض الفرس إعادة الأسرة الحاكمة اليهودية إلى يهودا . وقد ضربت هذه العقيدة جذوراً راسخة في الوجدان اليهودي ، حتى أنه حينما اعتلى الحشمونيون العرش ، كان ذلك مشروطاً بتعهدهم بالتنازل عنه فور وصول الماشيَّح .

وقد أخذت عقيدة الماشيَّح في البداية صورة دنيوية تعبِّر عن درجة خافتة للغاية من الحلول الإلهي ولكنها أصبحت بعد ذلك تعبيراً عن حلول إلهي كامل في المادة والتاريخ . وحسب هذه الصورة ، فإن الماشيَّح محارب عظيم (أو هو الرجل الممتطي صهوة جواده) الذي سيعيد مُلْك اليهود ويهزم أعداءهم (أشعياء ٩/ ٩ - ٧) . وتزايدت درجة الحلول ، ومن ثم ازدادت القداسة ، فيظهر الماشيَّح بن داود على أنه ابن الإنسان أو ابن الإله (دانيال ٧/ ١٣) . ولما لم تتحقق الآمال المشيحانية ، ظهرت صورة أخرى مكملة للأولى ، وهي صورة الماشيَّح ابن يوسف الذي سيعاني كثيراً ، وسيخر صريعاً في المعركة ، وستحل الظلمة والعذاب في الأرض (وهذه هي الفكرة التي أثرت في فكرة المسيح عند المسيحيين) . ولكن ، سيصل بعد ذلك الماشيَّح العجائبي الخارق من نسل داود ، والذي سيأتي بالخلاص . ويفسر الحاخامات تأخُّر وصول الماشيَّح بأنه ناتج عن الذنوب التي يرتكبها الشعب اليهودي ، ولذا فإن عودته مرهونة بتوبتهم .

وصورة المسيح في الفكر الديني المسيحي متأثرة بكل هذه التراكمات ؛ فهو أيضاً مُرسَل من الإله ، وهو ابن الإنسان وابن الإله ، وهو يتعذب كثيراً بل يُصلَب ثم يقوم وسيُحرز أتباعه النصر . ولعل الفارق الأساسي بين الرؤية المشيحانية في اليهودية والرؤية المشيحانية في المسيحية هو أن المسيحية جعلت الحلول الإلهي في شخص بعينه (عيسى ابن مريم) وهو حلول مؤقت ونهائي وغير قابل للتكرار ، على عكس الفكرة المشيحانية في اليهودية . كما أن الخلاص في الفكر المسيحي غير مرتبط بمصير أمة بعينها وإنما هو ذو أبعاد عالمية ، فباب الهداية مفتوح للجميع .

والنزعة المشيحانية يمكن أن تأخذ أشكالاً مختلفة . فهي باعتبارها تعبيراً عن الحلولية اليهودية (أي حلول الإله في مخلوقاته وتوحُّده معهم) تكتسب بُعداً مادياً قومياً شوفينياً متطرفاً (إذ كانت حلولية ثنائية صلبة) ، حيث إن وصول الماشيَّح يعني عودة الشعب المختار إلى صهيون ، أو وصوله إلى أورشليم التي سيحكم منها الماشيَّح ، قائد الشعب اليهودي ، بل قائد شعوب الأرض قاطبة ، فهنا هو خلاص لليهود وحدهم وسينتقم اليهود من أعدائهم شر انتقام ، ويشغلون مكانتهم التي يستحقونها كشعب مقدَّس . ولكن ثمة صورة أخرى عالمية وغير قومية للعصر المشيحاني (تعبير عن الحلولية الكونية الشاملة الساذجة) ، فهو حسب هذه الرؤية عصر يسود فيه السلام والوئام بين الأمم . وإذا كان الشعب اليهودي ذا مكانة خاصة ، فإن هذا لا يستبعد الشعوب الأخرى من عملية الخلاص . وإذا كانت الرؤية الأولى تؤكد الفوارق الصلبة الصارمة بين اليهود والأغيار ، فالرؤية الثانية تُلْغي الفوارق تماماً بحيث تنتج عن ذلك حالة سيولة كونية محيطية (تشبه حالة الطفل في الرحم قبل الولادة) ، ينتج عنها إسقاط الحدود تماماً وذوبان اليهود في بقية الشعوب .

ويمكن أن تأخذ المشيحانية طابعاً ترخيصياً مترانياً (نسبة إلى يهود المارانو المتخفين) كما هي الحالة مع الشبتانية (نسبة إلى شبتاي تسفي) ، وكذلك الدونمه والفرانكية ، فالماشيَّح وأتباعه كانوا يخرقون الشريعة ويسقطونها ويتمتعون بالحرية الناجمة عن ذلك ويمارسون الإحساس بما تبقَّى من هوية يهودية في الخفاء ، ومن خلال أشكال أبعد ما تكون عن اليهودية . ولعل هذا يعود إلى أن اللحظة المشيحانية هي لحظة حلول الإله تماماً في الإنسان (الماشيَّح) ، فهي لحظة وحدة وجود ومن ثم لحظة شحوب كامل أو حتى موت للإله إذ يتحول إلى مادة بشرية . وإذا حدث ذلك ، فإن شرائعه التي أرسل بها باعتباره الإله تموت وتسقط . وقد ارتبطت المشيحانية بالتعبير الفجائي وبمظاهر العنف الذي قد يأخذ شكل البعث العسكري أحياناً ، كما هو الحال مع كلٍّ من أبي عيسى الأصفهاني ، وداود الرائي ، وديفيد رءوبيني ، ويعقوب فرانك (والصهيونية في نهاية الأمر) .

وثمة محاولة داخل اليهودية الحاخامية لتهدئة التطلعات المشيحانية المتفجرة ، فركزت على الجانب الإلهي لعودة الماشيّح ، وعلى الماشيّح من حيث هو أداة الإله في الخلاص . وبناءً على ذلك ، أصبح من الواجب على اليهود انتظار عودة الماشيّح في صبر وأناة . ويصبح من الكفر أن يحاول فرد أو جماعة التعجيل بالنهاية (دحيكات هاكتس) . وقد نجحت المؤسسة الحاخامية في ذلك إلى حد كبير ، إلى أن انتشر يهود المارانو في أوربا ، وبعض أجزاء الدولة العثمانية (وخصوصاً البلقان) . وقد كانت النزعة المشيحانية بينهم عميقة متجذرة ، وانتشرت القبّالاه اللوريانية بين أعضاء الجماعات بما تتضمنه من رؤى مشيحانية . وأصبح اليهودي مركز الكون . وأصبحت صلاته ، وقيامه بأداء الأوامر والنواهي (متسفوت) بمنزلة مساهمة نشيطة فعالة من جانبه للتعجيل بمجيء الماشيّح . وقد خلق هذا تربة خصبة لشبتاي تسفي والشبتانية . ومن المعروف أن المؤسسة الحاخامية بذلت قصارى جهدها عبر تاريخها للوقوف ضد كل هذه النزعات ، ولكن أزمة اليهود واليهودية كانت قد وصلت إلى منتهاها .

وقد ظهر بين أعضاء الجماعة اليهودية عدد من المشحاء الدجالين ، نذكر من بينهم كلاً من : بركوخبا ، وأبي عيسى الأصفهاني ، ويودغان ، وداود الرائي . أما في العصر الحديث في الغرب ، فيمكن أن نذكر منهم : ديفيد رءوبيني وشبتاي تسفي وجوزيف فرانك .

ويلاحظ أن النزعة المشيحانية في العصر الحديث ، رغم جذورها السفاردية ، قد انتشرت في شرق أوربا وفي الأجزاء الأوربية من الدولة العثمانية . وبعد البدايات السفاردية ، أصبحت المشيحانية مقصورة على الأقليات الإشكنازية . فالفرانكية ، والحسيدية ، وأخيراً الصهيونية ، هي حركات إشكنازية بالدرجة الأولى . ولعل هذا يعود إلى وجود الإشكناز في تربة مسيحية ، فالمسيحية تركز الحلول الإلهي في شخص واحد هو المسيح عيسى بن مريم ، وهو ما تقوم به أيضاً الحركات المشيحانية إذ أنها تنقل الحلول الإلهي من الشعب اليهودي إلى شخص الماشيّح الذي سيأتي بالخلاص .

ومع ذلك ، فيمكن القول بأن الرؤى المشيحانية إمكانية كامنة في جميع الحضارات ولا تفجرها سوى حركة التاريخ نفسه ، وأن الانفجارات المشيحانية اليهودية المتكررة في العصر الحديث تعبير عن أزمة اليهود واليهودية . فالمجتمع الأوربي كان يتحرك بسرعة منذ عصر النهضة ، حين بدأت البورجوازية بقيمها الدينامية في الظهور ، في حين أن أعضاء الجماعات اليهودية في الجيتو كانوا غير قادرين على مواكبة التطور لأن المجتمع لم يساعدهم على ذلك ، ولأن تقاليدهم الدينية الفكرية المعقدة جعلت التكيف أمراً عسيراً إن لم يكن مستحيلاً . وكلما كانت هامشية أعضاء الجماعات تتزايد ، كان الاضطهاد الواقع عليهم يتزايد ، وبازدياد الاضطهاد كانت التوقعات تزداد أيضاً وكذلك الانفجارات المشيحانية . ففي أوقات الضيق والبؤس ، كانت الجماهير اليهودية التي تتحرك داخل إطار حلولي ساذج وبسيط تتذكر دائماً الرسول الذي سيبعثه إله الطبيعة والتاريخ ، والذي سيأتي بكل المعجزات اللازمة لإصلاح أحوالهم . كما أن الماشيّح الملك يشبع رغبة أعضاء الجماعات في تَملُّك زمام السلطة السياسية التي حُرموا منها . ويمكن القول بأن المشيحانية هي الثورة الشعبية اليهودية ، ولذا كانت تجتذب الفقراء والعناصر التي تم استبعادها من النخبة . ولكنها ، مع هذا ، كانت ثورة حمقاء عاجزة عن إدراك الأسباب الحقيقية للأزمة ، وبالتالي فهي عاجزة عن الإتيان بحلول . وهي بذلك تشبه نزعة معاداة اليهود بين أعضاء الطبقات الشعبية المسيحية ، فهي الأخرى شكل من أشكال الثورة الشعبية العاجزة عن إدراك سبب إفقار الجماهير وآليات الاستغلال . ولذا ، فبدلاً من أن تصل إلى لب المشكلة وتهاجم المستغل الحقيقي ، كانت الجماهير الشعبية تنحرف عن هدفها وتهاجم الجماعات اليهودية لأنها كانت الأداة الواضحة المباشرة للاستغلال .

ومن المهم التأكيد على أن للحركات المشيحانية سياقين : أحدهما محلي ، والآخر دولي . كما يهمنا أن نؤكد على أن تلاقي السياقين هو عادةً ما كان يؤدي إلى الانفجار . أما العنصر المحلي فيتمثل كما أشرنا في تزايد بؤس اليهود ، وأما العنصر الدولي فيتمثل في وجود لحظة مفصلية يتصور الماشيّح المزعوم أنها الفرصة المواتية له (انتهاء العصر الأموي بالنسبة لأبي عيسى الأصفهاني ، والتطلعات البابوية لتجديد حروب الفرنجة بالنسبة لداود الرائي ، وبدايات الاستعمار الغربي وأول هزيمة للعثمانيين بالنسبة إلى شبتاي تسفي) .

وتتميَّز المشيحانية بأنها صيغة هلامية لا يمكن أن تُهزَم . فإذا ظهر ماشيّح ، فإن ظهوره علامة على صدق الرؤية المشيحانية ، وإذا لم يظهر فإن الواجب هو الانتظار . أما إذا ظهر الماشيّح وانتصر في المراحل الأولى ، فهذا علامة على صدقه . وإذا انهزم فهزيمته نفسها تعد علامة صدقه ، فهو يتعذب من أجل شعبه . وإذا أخذت الهزيمة شكل ارتداد عن اليهودية ، فإن هذا (حسب التصورات المشيحانية) من باب التمويه والتقية . كما أنه ، باعتباره الماشيّح ، عليه أن ينزل

إلى عالم الشر ذاته لمواجهته (ومن هنا ارتداده عن اليهودية) . كما أنه إذا قُتل أو مات ، فإن أتباعه عادةً ما يؤمنون بأنه لم يمت أو يُقتَل وإنما اختفى وسيعود . وتكون جماعة التابعين المنتظرين ، شيعة أو فريقاً دينياً مستقلاً عن المؤسسة الحاخامية ، تدور عقائدها حول أفكار الماشيَّح ، وتدور ممارساتها حول انتظاره . وهذا هو ، في الواقع ، النمط الكامن في معظم الحركات المشيحانية (اليهودية وغير اليهودية) التي عادةً ما تنتهي بالإخفاق ، فيدفع المؤمنون بها الثمن غالياً .

ويُلاحَظ زيادة حدة النزعة المشيحانية في العصر الحديث في الغرب ، ابتداءً من القرن السابع عشر ، وهو بداية المشروع الاستعماري الغربي وتزايد علمنة الحضارة الغربية ، بكل ما يطرحه ذلك من إمكانات أمام الإنسان الغربي لحل مشاكله عن طريق تصديرها وعن طريق غزو العالم . كما شهدت هذه الفترة تصاعد التفكير الصهيوني (الألفي) في الأوساط البروتستانتية التجارية . وقد ظلت هذه النزعة المشيحانية كامنةً بعد فشل محاولات شبتاي تسفي وجيكوب فرانك ، إلى أن ظهرت الصهيونية . ويمكن القول بأن الحركة الحسيدية هي أيضاً حركة مشيحانية دون ماشيَّح أو حركة مشيحانية مبعثرة بحيث تشتت الحلول الإلهي في عدد كبير من الأولياء الذين يُسمَّون «تساديك» وكان كل واحد منهم يجسد قدراً من الحلول الإلهي ويلتف حوله عدد كبير من التابعين .

ولا يعرف اليهود القرّاءون عقيدة الماشيَّح ، وربما يرجع ذلك إلى تأثير الإسلام ، وقد حذروا أتباعهم من أولئك الذين يتنبأون بظهور الماشيَّح . أما موسى بن ميمون فإنه ، برغم إيمانه بأن السلام سيعم المجتمع بمقدم الماشيَّح ، أكد أن الطبيعة لن تغيِّر قوانينها ، كما شكَّك في مدعي المشيحانية في أيامه وحذَّر منهم . وفي العصر الحديث ، يؤمن اليهود الأرثوذكس بالعودة الشخصية للماشيَّح ، على عكس اليهودية الإصلاحية التي ترفض هذه الفكرة وتُحلّ محلها فكرة العصر المشيحاني ، أي مشيحانية بدون ماشيَّح ، وهذا تعبير عن الحلولية بدون إله .

والصهيونية ، بمعنى من المعاني ، عقيدة مشيحانية . ويمكن القول بأن السياق المحلي للحركة المشيحانية الصهيونية هو تزايد بؤس يهود شرق أوربا ، وخصوصاً بعد تعثُّر التحديث . أما سياقها الدولي ، فهو ضعف الدولة العثمانية ، وتزايد حدة الهجمة الإمبريالية الغربية على الشرق . والكتابات الصهيونية تزخر بإشارات إلى العودة ، والعصر المشيحاني الذهبي ، والماشيَّح . وفي يوميات هرتزل ، نجد أن جزءاً من أوهامه عن نفسه يأخذ طابعاً مشيحانياً . وإذا كان بعض الصهاينة لا يؤمنون بعودة الماشيَّح شخصياً ، فإنهم جميعاً يؤمنون بفكرة العصر المشيحاني أو «نهاية التاريخ» على حد قول هس ، أو «نهاية التاريخ» ، وهي فكرة لا تختلف كثيراً عن التصورات الدينية التقليدية ، إلا في استبعاد شخصية الماشيَّح نفسه ، أي أنها مشيحانية بدون ماشيَّح (نابعة من حلولية بدون إله) . وباستبعاد شخصية الماشيَّح أصبح من الممكن أن يتحالف المؤمنون والملحدون ، وأصبح من الممكن أن تظهر مشيحانية لا دينية ، أي محاولة استرجاع العصر المشيحاني الذهبي في فلسطين عن طريق التكنولوجيا والعنف والوسائل اللادينية كافة ، دونما انتظار مقدم أي مبعوث إلهي ، ولكن المشيحانية المتحدة لا تختلف كثيراً عن التصور اليهودي للقصبة في صورته الدنيوية الأولى التي وصفناها آنفاً . وتحافظ الصهيونية على المشاعر والتوقعات المشيحانية بين أعضاء الجماعات بتصعيد إحساسهم بالاضطهاد وبعدم الانتماء لبلادهم ، حتى يفقدوا صلتهم بالزمان والمكان ويتجهوا إلى إسرائيل . ومن يدرس التجارب التاريخية لأعضاء الجماعات يعرف أنه لم يحدث قط أن تمكنت أية حركة مشيحانية من السيطرة على يهود العالم جميعاً ، وذلك بسبب عدم ترابطهم . ولذلك ، فإن إخفاق أية حركة مشيحانية ، وتحوُّل أتباعها عن اليهودية في أية منطقة ، لم تكن تَنتُج عنه هزة شاملة لليهودية في كل البلاد الأخرى . أما في العصر الحديث ، فقد حدث لأول مرة أن تمكنت حركة مشيحانية مثل الصهيونية من الوصول إلى يهود العالم تقريباً . وحركة جوش إيمونيم حركة مشيحانية في كثير من جوانبها: في توقعاتها وخطابها ورموزها .

ويمكن القول بأن حدة التفكير الثوري والعدمي عند بعض المفكرين اليهود أو مفكرين من أصل يهودي في العصر الحديث (إسبينوزا برؤيته لعالم هندسي مادي مصمت ، وماركس برؤيته لعالم شيوعي خالٍ من الجدل ، ودريدا برؤيته لعالم يسوده اللامعنى) قد يكون نتيجة التراث المشيحاني . كما يمكن القول بأن ثوريتهم وعدميتهم ورفضهم الكامل للحدود التاريخية والبشرية تعبير عن حالة متطرفة من المشيحانية بدون ماشيَّح ، وعن رغبة طفولية في اختزال العالم إلى عنصر أو اثنين والعودة إلى حالة السيولة الكونية (الرحمية) التي تسم الفكر المشيحاني .

أبو عيسى الأصفهاني (القرن الثامن الميلادي)

Abu-Issa Al-Asfahani

اسمه الحقيقي إسحق بن يعقوب ، وهو من مواليد أصفهان .

ويُعتبَر أبو عيسى مؤسس فرقة يهودية في فارس ، وهي أولى الفرق

بعد هدم الهيكل الثاني . وحسبما ورد عند المؤرخ القرّائي (القرقساني) ، كان أبو عيسى خياطاً أمياً عاش في زمن الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥) ، بينما يذهب الشهرستاني إلى أنه عاش في الفترة بين حكم الخليفة الأموي مروان بن محمد (٧٤٤ ـ ٧٥٠) والخليفة العباسي المنصور (٧٥٤ ـ ٧٧٥) ، ويبدو أن هذا التاريخ الأخير أكثر دقة ، فقد كانت هذه الفترة فترة انتقال شهدت سقوط الدولة الأموية وظهور الدولة العباسية ، وعادةً ما كانت الحمى المشيحانية تتصاعد بين اليهود (والأقليات بشكل عام) في مثل هذه الفترات .

وفي عام ٧٥٥ ، أعلن أبو عيسى أنه الماشيَح الذي سيحرر اليهود من الأغيار ، وأن هناك خمسة أنبياء (من بينهم موسى وعيسى عليهما السلام ، ومحمد صلوات الله وسلامه عليه) سبقوا ظهور الماشيَح ، وأنه هو خاتم المرسلين . وقد قيل إنه لم يعلن أنه الماشيَح نفسه ، وإنما المبشر به ، أي الماشيَح ابن يوسف الذي يُمهِّد لظهور الماشيَح الحقيقي (الماشيَح ابن داود) . وقاد بهذه الصفة ، ثورة ضد الحكم العباسي . ويُلاحَظ أن ثورة أبي عيسى الأصفهاني ، رغم اعتدالها ، كانت أولى الثورات ضد المؤسسة الحاخامية ، ومن ثم تُعَدّ ثورته أولى الثورات المعادية للتلمود . وقد أدخل بعض التعديلات على الشعائر ، فجعل الصلوات سبعاً بدلاً من ثلاث ، ومنع الطلاق (متأثراً بالمسيحية) ، ومنع أكل اللحم ، وشرب الخمر ، والنواح بسبب هدم الهيكل . لكن أتباع الأصفهاني لم يَجر طردهم من حظيرة الدين اليهودي .

قاد الأصفهاني تمرداً ضد الحكم الإسلامي ، وانضم له العديد من يهود فارس . لكن هذا التمرد تم إخماده بعد عدة سنوات وقُتل أبو عيسى . لكن أتباعه ، كما هي العادة ، أعلنوا أنه لم يقتل وإنما دخل كهفاً واختفى . كما تداولوا بعض القصص عن المعجزات التي أتى بها ، من بينها أنه ضرب المسلمين ضربة قوية وأنه انضم لأبناء موسى في الصحراء ليطلق نبوءاته . وقد تأسست من بعده فرقة العيسوية التي ظلت قائمة حتى حوالي عام ٩٣٠ . ويُقال إن يودغان وعنان بن داود (مؤسسي المذهب القرّائي) تأثرا برؤية أبي عيسى وبأفكاره .

يودغان (القرن الثامن الميلادي)

Yudghan

يُقال إن كلمة «يودغان» صيغة فارسية لكلمة «يهودا» . ويودغان هو مؤسس «اليودغانية» وهي فرقة يهودية ، وقد عاش في أصفهان (وربما في حمدان) ، في النصف الأول من القرن الثامن . وجاء في القرقساني أن يودغان ظهر بعد أبي عيسى الأصفهاني (ويُقال إنه تلميذه) ، وكان أتباعه يسمونه «الراعي» . وقد ادعى يودغان النبوة ، كما ادعى أنه الماشيَح . وهو يشبه أبا عيسى في كثير من عقائده ، فقد قدَّم تفسيراً باطنياً للعهد القديم ، وخصوصاً النصوص التي تخلع على الإله صفة إنسانية ، ونادى بأن الإنسان مخيَّر لا مسيَّر ، وقد اعترف يودغان برسالة كلٍّ من عيسى (عليه السلام) ومحمد (صلى الله عليه وسلم) ، وحرَّم أكل اللحم وفرض شعيرة الصيام . وكان يودغان يذهب إلى أن شعائر السبت والأعياد ليست ملزمة لليهود ، فهي مجرد تذكرة لهم بالماضي . ويُقال إن عنان بن داود مؤسس المذهب القرّائي تأثر بأفكار يودغان .

داود الرائي (القرن الثاني عشر)

David Alroy

هو داود بن سليمان ، ويُدعى أيضاً داود الرائي (أو الروحي) . سمَّى هو نفسه مناحِم ، أي «المواسِّي» ، وهو أحد الألقاب التي كانت تُطلَق على الماشيَح . وقد قيل إن كلمة «الروحي» أو «الرائي» تصحيف لكلمة «الدوحي» ، وهو اسم اسرته بالعربية . وهو من مواليد مدينة آمد في إقليم كردستان سنه ١١٣٥ ، درس التوراة والمدراش والمشناه ، كما أتقن علوم العرب التي كانت مزدهرة آنذاك وتعلَّم فنون السحر والتصوف اليهودية . وفي شمال شرق القوقاز ، بدأت دعوته المشيحانية بين يهود الجبال ، وذلك بعد هجوم قبائل الكبشاك (من شعوب الإستبس المقيمين حول البحر الأسود) وهو الهجوم الذي ألحق البؤس الشديد بأعضاء الجماعة اليهودية . ويبدو أن هجمات الفرنجة على فلسطين ، والفوضى في العالم العربي ، طرحت إمكانات العودة وتحرير القدس في مخيلة أعضاء الجماعة .

بدأت الحركة على يد سليمان (أبي داود) الذي أعلن أنه إليا المبشِّر به . وقد أخذ داود الرائي في نشر دعوته بين يهود بغداد والموصل والمناطق المحيطة ، وتَجمَّعت حوله أعداد كبيرة من يهود أذربيجان . وبعد أن انكسرت قواته ، حاول نقل مركز حركته إلى آمد (في جبال كردستان) على الطريق الإستراتيجي الموصل بين مملكة الخزر اليهودية التركية (ولعل شيئاً من ذكراها كان لا يزال عالقاً بذهنه أو وجدانه) والممالك الصليبية . وقد انتشرت حوله الشائعات ، فأشيع أنه أودع السجن ولكنه فرَّ منه بسحره . وقد دعا الرائي يهود أذربيجان وفارس والموصل إلى أن يأتوا إلى آمد مخبئين أسلحتهم ، ليشهدوا كيف سيستولي على المدينة . ويبدو أن بعض المحتالين زيفوا

خطاباً باسمه ، وعد فيه يهود بغداد بأنه سينقلهم إلى القدس ليلاً على أجنحة الملائكة ، وصدق كثيرون ما جاء في الخطاب . فانتظروا وصول الماشيَّح طوال الليلة الموعودة ، وفي الصباح أصبحوا اضحوكة الجميع .

ومما يجدر ذكره ، أن المؤسسة الحاخامية ، كعادتها ، وقفت ضد هذه الدعوى المشيحانية وحاولت رد داود الرائي عن عزمه دون جدوى . وفي نهاية الأمر ، قتله والد زوجته بعد أن تقاضى مكافأة من حاكم المدينة . وبعد مقتله ، تحوَّل إلى أسطورة حافلة بالخوارق والمعجزات الخرافية . وقد بقي المؤمنون من يهود أذربيجان ينتظرون عودته ، وكانت فرقتهم تُسمَّى «النحمانيين» . وقد كتب دزرائيلي رواية خيالية تدور أحداثها حوله .

ديفيد رءوبيني (؟ -١٥٣٥)

David Reuveni

مغامر ذو تطلعات مشيحانية . والمصدر الأساسي لمعرفة هويته الحقيقية مذكراته وبعض خطاباته . كان ديفيد رءوبيني يدَّعي أنه ابن لملك يُدعى سليمان ، وأخ لملك يُدعى يوسف يحكم قبائل رءوبين وجاد ، وكذلك نصف قبائل منَسَّى في خيبر بالقرب من المدينة المنورة، ومن هنا كان اسمه «الرءوبيني» . وقد كانت رواياته عن أهله متضاربة ، فقد ذكر في مناسبة أخرى أنه من نسل قبيلة يهودا وأنه رسول من ملك يُدعى يوسف . وانتقل من بلد إلى آخر ، حتى وصل إلى روما راكباً فرسه الأبيض (إحدى علامات الماشيَّح) . وذهب إلى البابا كليمنت السابع عام ١٥٢٤ ، وأخبره بأن أخاه لديه ثلاثمائة ألف جندي مدربين على الحرب ، ولكنهم لسوء الحظ ينقصهم السلاح ، وطلب إلى البابا تزويدهم بما ينقصهم حتى يمكنهم طرد المسلمين من فلسطين . وقد استقبله البابا استقبالاً حسناً (فقد كان رءوبيني يخبره أن رؤيته بالنسبة له كانت مثل رؤية الإله) . وقد التف يهود روما من حوله ، واكتتبوا ببعض الأموال له ، حتى يعيش على مستوى يليق بمقام سفير ملك اليهود . وقد نجح رءوبيني في مقابلة ملك البرتغال عام ١٥٢٥ ، وفي التأثير فيه ، حتى إنه أوقف محاكمات يهود المارانو الذين أحرز رءوبيني شعبية واسعة بينهم ، وكان من بينهم ديوجو بيريس الذي أخذه الحماس فتهود وتختن وغيَّر اسمه إلى سولومون ملكو وتبع رءوبيني وكانت له هو الآخر تطلعات مشيحانية . وقد طلب الاثنان (رءوبيني ومولوخو) من إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة تشارلز الخامس تسليح المارانو ليحاربوا ضد المسلمين . ولكن نظراً لانشغال الإمبراطور بأمور عظمى (تهديد البروتستانتية لحكمه من الداخل والعثمانيين من الخارج) لم يكن عنده متسع من الوقت فقبض عليهما وأحرق أحدهما لخروجه على المسيحية وأودع الآخر السجن في إسبانيا حيث مات مسموماً .

ولحياة رءوبيني دلالة عميقة . إذ يبدو أنه كان يرى أن مهمته تمهد للعصر المشيحاني ، وربما إلى عودة الماشيَّح ، وبالتالي يمكن أن نعده قائد أولى الحركات ذات الطابع المشيحاني ، والتي ظهرت تعبيراً عن ضائقة أعضاء الجماعات اليهودية وبداية أزمة اليهودية نفسها في الغرب . كما يمكننا أن نرى في سيرة حياة رءوبيني ملامح من الحل الصهيوني للمسألة اليهودية . فرغم استفادته من التطلعات المشيحانية لدى اليهود ، لم يدَّع أنه نبي أو ماشيَّح ، بل حاول أن يقدم برنامجاً سياسياً واقعياً عملياً ، وأن يقدم نفسه كقائد عسكري ، ويُلاحَظ أيضاً أنه أكد الفائدة العسكرية لليهود . وهذا ما حاولت الصهيونية إنجازه ، فقد قدمت نفسها هي الأخرى باعتبارها الحل السياسي العسكري الواقعي للمسألة اليهودية . وقد علمنت الصهيونية التطلعات المشيحانية ، وحولتها إلى حركة استيطانية . وقد أدرك رءوبيني إمكانية الاستفادة من التطلعات العسكرية لأوربا نحو الشرق ، ومن الصراعات الداخلية فيها . فقد كان يعلم أن البابا يود تعزيز سلطته الدنيوية ، وأن قيام حملة صليبية (على حد تعبيره) تحت رعايته لابد أن تنجز مثل هذا الهدف . وقد قدَّم هو حملته اليهودية على أنها تفي بهذا الغرض . والصهيونية دائمة الاستفادة من الصراعات داخل العالم الغربي ، ومن التطلعات الاستعمارية للغرب . والواقع أن الحل الصهيوني ومخطط رءوبيني متماثلان ، فكلاهما مبني على التحالف بين أعضاء الجماعات والغرب لتهجير اليهود وإعادة توطينهم في الشرق ، وبذلك تتخلص أوربا منهم ، وفي الوقت نفسه تفتح أجزاء من العالم المتخلف للنفوذ الغربي ، أي أن حل رءوبيني شبه المشيحاني هو الحل الصهيوني الاستعماري .

ومن الأمور الأخرى التي تثيرها حياة رءوبيني أن الدعوة الاسترجاعية والألفية كانت أمراً منتشراً في أوربا بأسرها ليس بين أعضاء الجماعات اليهودية وحسب ، وإنما بين أعضاء النخبة الحاكمة الدينية والسياسية . فنجد أن شخصية أساسية مثل البابا يستقبل رءوبيني وتابعه ويبسط عليهما حمايته (رغم تحريم المسيحية الكاثوليكية للعقيدة الألفية وحربها ضدها) . كما نجد أن ملك البرتغال هو الآخر يسلك السلوك نفسه . ولا شك في أن انتشار الأحلام الاسترجاعية نتيجة متوقعة لظهور الرؤية الإمبريالية الغربية .

سولومون ملكو (١٥٠١-١٥٣٢)

Solomon Molcho

اسمه الحقيقي هو ديوجو بيريس . وهو يهودي من المارانو ، تلقَّى تعليماً علمانياً وعُيِّن سكرتيراً لملك البرتغال . قابل الماشيَّح الدجال ديفيد رءوبيني في لشبونة عام ١٥٢٥ . وتملَّكه الحماس فتختن وأعلن يهوديته وسمَّى نفسه ملكو ، ربما من الكلمة العبرية «ميليك» أي «ملك» ، ومن ثم فإن اسمه يعني «سليمان الملك» . فرَّ مع رءوبيني واستقر بعض الوقت في سالونيكا (عاصمة المارانو) حيث درس القبَّالاه ، ونشر كتابه **الدراشوت** «المواعظ» (١٥٢٩) وهي مواعظ مليئة بالادعاءات المشيحانية .

وحينما نُهبت روما عام ١٥٢٧ على يد تشارلز الخامس رأى علامات على مقدم النهاية والخلاص وعاد إلى إيطاليا عام ١٥٢٩ ، وقد جذبت مواعظه عديداً من الناس ، ومنهم المسيحيون . ولكن أحد المارانو وشى به ، قائلاً إن ملكو كان مسيحياً أبطن اليهودية ثم أظهرها حينما سنحت الفرصة ، وهو الأمر الذي كانت محاكم التفتيش لا تسمح به ، ولذا اضطر إلى الفرار من روما . وحتى يؤكد أنه الماشيَّح ، وكي ينفذ إحدى النبوءات الخاصة بالماشيَّح ، ارتدى ملكو ملابس الشحاذين وجلس لمدة ثلاثين يوماً مع المرضى والشحاذين والعجزة على كوبري على نهر التيبر في روما . وقد نجح ملكو في كسب ثقة البابا كلمنت السابع الذي منحه الحماية عام ١٥٣٠ . وخصوصاً أنه كان قد تنبأ بوقوع فيضان في روما وزلزال في البرتغال وتحققت نبوءاته . ثم وشى به أحد الوشاة مرة أخرى لمحاكم التفتيش فحُكم عليه بالحرق ، ولكن البابا تدخَّل شخصياً وحُرق رجل آخر مكانه ، وعندئذ ذهب إلى شمال إيطاليا حيث قابل رءوبيني عام ١٥٣٢ وذهبا معاً إلى تشارلز الخامس (إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة) ليقنعاه بتجنيد جيش من يهود المارانو للحرب ضد الدولة العثمانية ، ولكنه سلمهما لمحاكم التفتيش التي حكمت بحرقه ونفذت فيه حكم الإعدام .

شبتاي تسفي (١٦٢٦-١٦٧٦)

Shabettai Tzevi

ماشيَّح دجال . وُلد في أزمير لأب إشكنازي يشتغل بالتجارة ، وكان إخوته أيضاً من التجار الناجحين . وقد تلقَّى تسفي تعليماً دينياً تقليدياً ، فدرس التوراة والتلمود ، ولكنه استغرق في دراسة القبَّالاه وخصوصاً القبَّالاه اللوريانية بنزوعها الغنوصي . وتتزامن الفترة التي وُلد ونشأ فيها تسفي مع بداية تعاظم نفوذ الرأسمالية البريطانية والهولندية (البروتستانتية) ، وبدايات مشروعهما الاستعماري العالمي ، وبداية حلولهما محل المشروع الاستعماري الإسباني والبرتغالي (الكاثوليكي) . كان أبوه مندوباً لشركتين تجاريتين : إحداهما بريطانية والأخرى هولندية . وقد شهد عام ١٦٤٨ حدثين من أخطر الأحداث في تاريخ الجماعات اليهودية في الغرب : أولهما انتهاء حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ ـ ١٦٤٨) ، وهي حرب استفاد منها أعضاء النخبة من يهود البلاط ، وعانت منها الجماهير اليهودية أيما معاناة . وبرغم استفادة أثرياء اليهود ، فإن نهاية الحرب نفسها كانت بداية تدهور الشبكة التجارية اليهودية العالمية ، وتدنِّي وضع النخبة اليهودية بسبب تصاعد عملية تَركُّز السلطة في يد الدولة القومية المركزية الذي أدَّى إلى الاستغناء عن اليهود كجماعة وظيفية . أما الحدث الثاني ، فهو انتفاضة فلاحي أوكرانيا والقوزاق تحت قيادة شميلنكي (١٦٤٨) التي هزت قواعد التجمع اليهودي في بولندا ، أكبر تجمُّع يهودي في العالم آنذاك . وكان مجلس البلاد الأربعة أهم مؤسسة يهودية تتمتع بشرعية لم تحققها مؤسسة يهودية أخرى منذ زمن بعيد . وقد كان لهذه الانتفاضة أعمق الأثر في يهود العالم كافة . ومن الطريف أن كتاب الزوهار ، حسب بعض التفسيرات ، كان قد تنبأ بوصول الماشيَّح عام ١٦٤٨ ، وقد أعقب ذلك كله حروب عام ١٦٥٥ (بين روسيا والسويد) في مناطق تَركُّز اليهود في بولندا ، ثم هجمات القوزاق الهايدماك . وتُعرَف هذه الفترة من تاريخ بولندا باسم «الطوفان» .

وشهدت هذه الفترة إرهاصات الفكر الصهيوني بين المسيحيين في إنجلترا ، وبداية الاهتمام باليهود ، واسترجاعهم كشرط أساسي للخلاص . وكانت هناك نبوءة تسري في الأوساط المسيحية (البروتستانتية الصهيونية في إنجلترا وبعض فرق المنشقين المسيحيين في روسيا) بأن عام ١٦٦٦ هو بداية العصر الألفي الذي سيتحقق فيه استرجاع اليهود لفلسطين . ولا شك في أن مثل هذه النبوءات الاسترجاعية ذات علاقة قوية بالجو الاستعماري والاستيطاني النشيط في تلك المرحلة . وقد تزايد في تلك الفترة أيضاً نشاط محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال ، وظهر الإصلاح المضاد في إيطاليا بنزعته المعادية لليهود .

وفي هذا الجو من الإحباط والثورات والتردي الحضاري والاقتصادي ، حققت القبَّالاه اللوريانية انتشاراً غير عادي (يرى جيرشوم شوليم أن الفترة بين عامي ١٦٣٠ و١٦٤٠ هي التي حققت فيها القبَّالاه اللوريانية الهيمنة الكاملة التي جعلت اليهود مركزاً لعملية الخلاص الكونية ، وإن كان شبتاي قد عدَّل هذه الصياغة

بحيث يتم الخلاص من خلال شخصية الماشيَّح ، أي أنه جعل شخص الماشيَّح مركز الحلول الإلهي بدلاً من الجماعة اليهودية) .

ومن العوامل الأخرى الأساسية التي هيأت الجو للانفجار المشيحاني انتشار يهود المارانو في كثير من موانئ البحر الأبيض المتوسط والمدن التجارية ، فقد كانوا يحملون فكراً قبَّالياً ، كما أنهم كانوا يعانون من الضيق بعد أن شهدوا أيامهم الذهبية في الأندلس وإسبانيا المسيحية ، وكانوا يعيشون أيضاً خارج نطاق السلطة وبعيداً عن مراكز صُنع القرار ، الأمر الذي جعل من العسير عليهم تَقَبُّل الوضع القائم . وفي الواقع ، فإن كل هذا قد هيأ الجو لتصاعُد الحمى المشيحانية ، وقامت أعداد كبيرة من اليهود بالإعداد لوصول الماشيَّح، وبدأت الإشاعات تنتشر عن جيش يهودي جرار يجرى إعداده في الجزيرة العربية ليخرج منها ويفتح فلسطين .

في هذا المناخ ، ظهر شبتاي تسفي . ويبدو أن حياته النفسية لم تكن سوية ، مثله مثل حياة جيكوب فرانك الماشيَّح الدجال الذي جاء بعده ، فقد كان محباً للعزلة ، كثير الاغتسال والتعطر ، حتى أن أصدقاءه الشبان كانوا يعرفونه برائحته الزكية . وكان يظهر عليه ما يُسمَّى في علم النفس بالسيكلوثاميا ، وهي حالة نشاط وهيجان بالغين يعقبهما انقباض وقنوط ، وقد صاحبته هذه الحالة حتى الأيام الأخيرة من حياته . وكثيراً ما كان شبتاي يتغنى بالأشعار وينشد المزامير في حالة نشاطه . وحيث إنه تلقى تعليماً دينياً تلمودياً كاملاً، فلم يتهمه أحداً قط بالجهل . وتزوج شبتاي فتاة بولندية يهودية حسناء تُدعى سارة تربت في أحد الأديرة الكاثوليكية أو ربما في منزل أحد النبلاء البولنديين إذ يبدو أن أباها كان من يهود الأرندا ، أي وكيلاً مالياً للنبيل في منطقة أوكرانيا ، ويبدو أنها كانت سيئة السمعة من الناحية الأخلاقية ، وهناك من يقول إنها كانت عاهرة وكانت تدَّعي أنها لن تتزوج إلا الماشيَّح ولذا فإن الإله قد أعطاها رخصة أن تعاشر من تشاء جنسياً إلى أن يظهر الماشيَّح ويعقد قرآنه عليها . وحينما نشبت انتفاضة شميلنكي التي اكتسحت الإقطاع البولندي في أوكرانيا ، كما اكتسحت وكلاء النبلاء الإقطاعيين ، كان أبواها من ضحاياها . وقد قابل تسفي سارة في القاهرة ، أو ربما سمع عنها ، فأرسل إليها وتزوجها . وقام تسفي بخرق الشريعة عامداً عام ١٦٤٨ ، فأعلن أنه الماشيَّح ، ونطق باسم يهوه (الأمر الذي تحرمه الشريعة اليهودية) ، وأعلن بطلان سائر النواميس والشريعة المكتوبة والشفوية . ولتأكيد مشيحانيته ، طلب أن تُزَفَّ التوراة إليه ، فهي عروس الإله . وقد رفض الحاخامات الاعتراف به ، فطُرد من أزمير . وقد تنقَّل تسفي في الأعوام العشرة التالية في مدن اليونان ، فذهب إلى سالونيكا وغيرها ، وقضى بضعة أشهر في إستنبول . وقام بخرق الشريعة مرة أخرى في هاتين المدينتين ، إذ نظَّم أدعية أو ابتهالات تتلى في الصلوات للإله ليحلل ما حرَّم .

وحينما زار القاهرة ، انضم إلى حلقة من دارسي القبَّالاه كان من أعضائها رئيس الجماعة اليهودية ، روفائيل يوسف جلبي ، مدير خزانة الدولة . ثم رحل إلى فلسطين عام ١٦٦٢ . وقد بشَّر به اليهودي الإشكنازي نيثان الغزاوي عام ١٦٦٤ ، على أنه الماشيَّح الصادق الموعود ، وأنه ليس مجرد المسيح ابن يوسف ، وإنما هو المسيح بن داود نفسه . وأعلن نيثان أنه هو نفسه النبي المرسل من هذا الماشيَّح ، وكتب عدة رسائل لأعضاء الجماعات اليهودية يخبرهم فيها بمقدم الماشيَّح الذي سيجمع الشرارات الإلهية التي تبعثرت أثناء عملية الخلق ، والذي سيستولى على العرش العثماني ويخلع السلطان (وهذه من الأفكار الأساسية لقبَّالاه اللوريانية) .

وقد دخل شبتاي القدس في مايو عام ١٦٦٥ ، وأعلن أنه المتصرف الوحيد في مصير العالم كله ، وركب فرساً (كما هو متوقع من الماشيَّح) وطاف مدينة القدس سبع مرات هو وأتباعه ، وقد عارضه الحاخامات وأخرجوه من المدينة . ولكن تسفي أعلن عام ١٦٦٦ أنه سيذهب إلى تركيا ويخضع السلطان . وقد زاد ذلك حدة التوقعات المشيحانية بين يهود أوربا وزاد حماسهم . وقد وصلت الأنباء إلى لندن وأمستردام وهامبورج وصارت الجماهير اليهودية تحمل بيارق الماشيَّح في بولندا وروسيا . ومما يجدر ذكره أن أهم مؤسسة يهودية في العالم آنذاك ، وهي مجلس البلاد الأربعة ، اكتسحتها الحمى المشيحانية فأرسلت مندوبين عنها للحديث معه والاعتراف به (ولم تُصدر هذه المؤسسة قراراً بطرده إلا عام ١٦٧٠ بعد تردُّد طويل) . بل إن بعض الأوساط المسيحية بدأت تؤمن بأن تسفي سيُتوَّج ملكاً على فلسطين . وحينما حاول حاخامات أمستردام الاعتراض على رسائل تسفي وما جاء فيها ، كادت الجماهير تفتك بهم . ولقد باع بعض الأثرياء كل ما يملكونه استعداداً للعودة ، واستأجروا سفناً لتنقل الفقراء إلى فلسطين ، واعتقد البعض الآخر أنهم سيُحملون إلى القدس على السحاب . وسيطرت الهستريا على الجماهير ، فكان أتباعه يُغشَى عليهم ويرونه في رؤاهم ملكاً متوجاً . وانقسم كثير من الجماعات اليهودية بصورة حادة . وقد سمى الحاخامات أتباع تسفي بأنهم الكفار (بالعبرية : كوفريم) . ولكن تسفي تمادى في دوره ، وبدأ في توزيع الممالك على أتباعه ، وألغى الدعاء للخليفة العثماني الذي كان يُتلى في المعبد اليهودي ، ووضع بدلاً من ذلك الدعاء له هو نفسه كملك على اليهود ومخلِّص

بهم . واخذ تسفي يصفي على نفسه ألقاباً يوقع بها رسائله . ومن هذه الألقاب : «ابن الإله البكر» و«أبوكم يسرائيل» و«أنا الرب إلهكم شبتاي تسفي» . وتوجّه تسفي إلى إستنبول في فبراير عام ١٦٦٦ حيث أُلقي القبض عليه

ويبدو أن السلطات العثمانية التي اعتادت عدم التجانس الديني في الإمبراطورية الشاسعة ، لم تكن تريد أية مواجهات مع أتباعه ، ولذلك تم سجنه في قلعة جاليبولي المخصصة للشخصيات المهمة . وقد تحوَّل السجن بالتدريج إلى بلاط ملكي لشبتاي تسفي (فكان يحتفظ بعدد كبير من الحريم ، ومع هذا كانت له تصرفات تنم عن ميول نحو الشذوذ الجنسي ، أي أنه كان مخنثاً) . وكان الحجاج يأتونه من كل بقاع الأرض ، وكُتبت الأناشيد الدينية تسبيحاً بحمده ، وأُعلنت أعياد جديدة وطقوس جديدة . فألغى صيام اليوم السابع عشر من تموز من التقويم اليهودي ، كما ألغى صيام التاسع من آب وجعله عيداً لميلاده . وقد أعلن نيثان أن التغييرات الحادة التي تطرأ على مزاج الماشيَح تعبير عن الصراع الدائر داخل نفسه بين قوى الخير والشر .

وفي سبتمبر من ذلك العام ، جاء الحاخام القبَّالي نحميا (من بولندا) لزيارة شبتاي ، وقضى ثلاثة أيام في الحديث معه رفض بعدها دعواه بأنه الماشيَح ، بل أخبر السلطات التركية بأنه يحرض على الفتنة ، فقُدِّم للمحاكمة وخُيِّر بين الموت أو أن يعتنق الإسلام ، فأشهر إسلامه وتعلَّم العربية والتركية ودرس القرآن . وأسلمت زوجته من بعده ، ثم حذا حذوه كثير من أتباعه الذين أصبح يُطلَق عليهم اسم «دونمه» . ولكنه ، مع هذا ، لم يقطع الأمل في أن يستمر في قيادة حركته . وظل كثير من أتباعه على إيمانهم به ، لأن الماشيَح في التصور القبَّالي «سيكون خيِّراً من داخله ، شريراً من خارجه» ، وهذه مواصفات تنطبق على تسفي تمام الانطباق . ويتضح هنا تأثر تسفي بتفكير يهود المارانو بشأن ضرورة أن يُظهر المرء غير ما يُبطن . وقد نقل العثمانيون تسفي في نهاية الأمر إلى ألبانيا حيث مات بوباء الكوليرا عام ١٦٧٦ .

وظهور شبتاي تسفي تعبير عن الأزمة العميقة التي كانت تخوضها اليهودية الحاخامية بسبب تآكل العالم الوسيط في الغرب بل ونهايته ، وهو العالم الذي نشأت فيه اليهودية الحاخامية التي فشلت في التعامل مع العالم الجديد . ويشبه شبتاي تسفي في هذا معاصره إسبينوزا ، فكلاهما تعبير عن أزمة واحدة ، وكلاهما تحدَّى الشريعة (هالاخاه) وطرح رؤية ذات جوهر علماني تركِّز على هذا العالم المادي . وبينما تحداها تسفي من الداخل ، تحداها إسبينوزا من الخارج . وكلاهما كان يؤمن بنسق حلولي يَصدُر عن رؤية حلولية كونية واحدية (أخذت طابعاً دينياً عند تسفي وطابعاً فلسفياً لا دينياً عند إسبينوزا) .

ويمكن القول بأن تسفي يمثل وحدة الوجود الروحية ، أي أن يحل الإله في الطبيعة والتاريخ ويظل محتفظاً باسم الألوهية ، أما إسبينوزا فيمثل مرحلة وحدة الوجود المادية ، حيث يصبح الإله هو قوانين الحركة ، ولكنه مع هذا كان من الدهاء بحيث أبقى اسم الإله ولكنه قال إن الإله هو الطبيعة . ولذا يُشار إلى إله إسبينوزا بأنه الإله/ الطبيعة .

وتُعتبَر حركة شبتاي تسفي أهم الحركات المشيحانية على الإطلاق ، فقد هزت اليهودية الحاخامية من جذورها ، حتى لم تقم لها قائمة بعد ذلك . وانتشر أتباع تسفي في كل مكان ، وانتشر معهم الفكر الشبتاني حتى بين بعض القيادات الحاخامية ، ويتضح ذلك في المناظرة الشبتانية الكبرى التي ظهر خلالها أن الحاخام جوناثان إيبيشويتس ، وهو من أهم العلماء التلموديين في عصره ، كان شبتانياً . وبعد ذلك ، ظهرت الحركتان الحسيدية والفرانكية اللتان رفضتا القيادة التقليدية التلمودية ، وأخيراً ظهرت الصهيونية التي ورثت كثيراً من النزعات المشيحانية . وثمة رأي يذهب إلى أن تسفي بهجومه على اليهودية الحاخامية التقليدية مهد الطريق للصهيونية التي ترفض القيود الدينية ، كما ترفض الأوامر والنواهي وتُعلِّي الذات القومية على كل شيء . كما أن تَوجُّه تسفي للعمل على العودة الفورية إلى فلسطين يشبه ، في كثير من النواحي ، المشيحانية الصهيونية العلمانية التي ترفض الموقف الديني التقليدي الذي ينصح اليهود بالانتظار ، بل تبادر إلى الإسراع بالنهاية ليبدأ العصر المشيحاني دون انتظار مشيئة الإله . وقد كان تيودور هرتزل معجباً للغاية بتسفي وكان يفكر في كتابة أوبرا عنه لتمثيلها في الدولة الصهيونية بعد إنشائها .

نيثان الغزاوي (١٦٤٣-١٦٨٠)

Nathan of Gaza

الداعية الأول لشبتاي تسفي وأهم المبشرين به ، وهو من أصل إشكنازي . درس القبَّالاه ، واستقر في غزة ، ثم أعلن أن شبتاي تسفي هو الماشيَح . وبعد أن أسلم تسفي ، تجوَّل نيثان في شبه جزيرة البلقان ، وطوَّر الفكر الشبتاني مستنداً إلى القبَّالاه اللوريانية ، فقال إن روح الماشيَح عليها أن تنزل إلى عالم الظلمات التي هي القشرة الخارجية (قليبوت) لهذا العالم ، لتخلص الشرارات الإلهية

(نيتسوتسوت) التي التصقت بها ويتحقق إصلاح الخلل الكوني (تيقون) فيستعيد حالته الأصلية. وبذلك، حل نيثان مشكلة أساسية واجهها أتباع تسفي وهي اعتناقه الإسلام، فقد فسَّر مسلك شبتاي على أنه نزول إلى عالم الظلمات. وقد استخدم الشبتانيون هذه الفكرة فيما بعد لتفسير الانحلال الأخلاقي عند زعمائهم.

جيكوب قويريدو (؟-١٦٩٠)

Jacob Querido

أحد أتباع شبتاي تسفي ووريثه الأساسي. أظهر الإسلام، وأبطن اليهودية منذ عام ١٦٨٣، هو وثلاثمائة أسرة من أتباعه، واستمروا في ممارسة الطقوس الشبتَّانية سراً. وهو مؤسس طائفة الدونمه.

الحركة الشبتانية

Shabbateanism

«الشبتَّانية» مصطلح يُطلَق على الحركات المشيحانية الدينية الباطنية (الغنوصية) اليهودية التي ظهرت في الغرب وأطراف الدولة العثمانية بعد أن أسلم شبتاي تسفي. وكلها هرطقات ضد الدين اليهودي، وضد الصياغة التلمودية على وجه الخصوص. وتُعَدُّ الشبتانية شكلاً من أشكال الثورة ضد الدين اليهودي، وتعبيراً عن أزمة اليهودية. وقد ساهمت القبَّالاه اللوريانية وانتشارها في خلق التربة الخصبة لانتشار الأفكار الشبتانية.

والواقع أن المفهوم القبَّالي الخاص بإصلاح الخلل الكوني (تيقُّون) قد غيَّر كثيراً من المفاهيم اليهودية التقليدية تماماً. فقد كان الخلاص يعني العودة إلى أرض الميعاد، أما التيقون فقد جعل الخلاص هو إصلاح الخلل الكوني وإنهاء حالة النفي التي تَسِم الكون بأسره. والنفي ليس وضعاً خارجياً كامناً في وجود اليهود خارج فلسطين، وإنما هو وضع داخلي كامن في الطبيعة البشرية نفسها ويتمثل في ابتعادها عن الإله وعدم التصاقها به (ومن هنا أهمية الأوامر والنواهي والوصايا لكل من اليهود والأغيار). وتبدأ عملية الخلاص في هذا العالم الداخلي الباطني، أي في عقل الإنسان وقلبه، استعداداً للخلاص الخارجي، بمعنى أن الحالة العقلية النفسية أكثر أهمية من اللحظة التاريخية. وبذلك، فقد مزجت القبَّالاه اللوريانية النزعة القبَّالية الباطنية (الذاتية) بالنزعة المشيحانية الخارجية، وجعلت الثانية تعتمد على الأولى، ومهدت الطريق بذلك لظهور شبتاي تسفي والشبتانية ككل.

ولكن أتباع شبتاي تسفي قاموا بتعديل التصور اللورياني وتعميقه، فالقبَّالاه اللوريانية، مثلها مثل قبَّالاة الزوهار (برغم حلوليتها المتطرفة وهرطقتها)، كانت تحوي داخلها إمكانية تعميق الولاء للشريعة وممارسة شعائرها، وبالفعل جعلت الخلاص المشيحاني وإصلاح الخلل الكوني (تيقون) مرتبطاً بممارسة اليهود للشعائر وتنفيذهم الأوامر والنواهي. أما شبتاي تسفي وأتباعه، فقد كان موقفهم معادياً للشريعة والشعائر بشكل واضح وصريح، بل تعمدوا خرق قوانينها وإبطال أوامرها ونواهيها. وإذا كان الشعب اليهودي يشغل في التصور اللورياني مركز عملية الخلاص، فإن شخصية الماشيَّح تشغل هذا المركز في التصورات الشبتانية. فالمؤمن هو من يؤمن بالأفعال الصوفية الخارقة التي يأتي بها شبتاي تسفي كماشيَّح مخلِّص. ولعل التأكيد على شخصية الماشيَّح، بدلاً من الشعب اليهودي، يعود إلى وجود اليهودية إما في تربة مسيحية (بولندا وروسيا) أو على مقربة منها (في شبه جزيرة البلقان). وقد قضى يهود المارانو عشرات السنين يعانون من الاضطهاد الناجم عن قولهم إن المسيح عيسى بن مريم ليس هو الماشيَّح الحقيقي، وأن الماشيَّح اليهودي سيأتي لينقذ شعبه. وهكذا تحوَّلت النزعة المشيحانية إلى إيمان بشخصية الماشيَّح.

وكان من الممكن أن يؤدي ظهور شبتاي تسفي إلى سد الفجوة بين الظاهر والباطن. ولكنه، كما هو متوقع، فشل في ذلك تماماً، الأمر الذي أدَّى إلى ظهور الحركة الشبتانية برؤيتها للكون. ويُعدُّ نيثان الغزاوي أهم مفكري الشبتانية وأبرز دعاتها، فقد أعاد تفسير كثير من الأفكار اللوريانية، وأضاف إليها حتى خلَق نسقاً فكرياً يُعدُّ تنويعاً جديداً على النسق اللورياني. وأهم أفكار نيثان هي فكرة "النور الذي لا عقل له" مقابل "النور العاقل". وحسب هذا التصور، يحوي الإين سوف (الإله الخفي أو العدم) النورين داخله. أما الأول، فهو قوة مدمرة هائلة لا عقل لها، وهي لا تكترث كثيراً بعملية الخلق بل تعاديها فهي قوة العدم. وأما النور العاقل، فهو النور الذي يفكر في عملية الخلق ويقوم بها في نهاية الأمر. وقد حدثت عملية الانكماش الإلهي (تسيم تسوم) ليس في الوجود الإلهي بنوريه العاقل والمعادي للعقل وإنما حدثت في النور العاقل وحده استعداداً لعملية الخلق، فانفصل النور العاقل عن النور الذي لا عقل له فصار هذا النور العدمي قوة نابعة من الإين سوف (الإله الخفي) مستقلة عنه، وبذلك فقد أصبح قوة الشر، أي أن الشر الماثل في الدنيا إن هو إلا جزء من الإله. ويقوم هذا النور بتدمير كل ما يتجه النور العاقل الذي اخترق، رغم هذا، الفضاء العلوي وشيَّد

العالم . ومع هذا ، فقد ظل النصف السفلي ، أو الهوة الكبرى (الهيولي السفلي) ، مظلماً بعيداً عنه وعن سلطانه . ويصبح جدل الكون هو محاولة النور العاقل الوصول إلى العالم السفلي ، وقيام النور غير العاقل بصد الإشعاعات (وهذا تعبير عن الثنوية القوية داخل التركيب الجيولوجي اليهودي) . ولا يمكن في الواقع أن تصل هذه الإشعاعات إلا من خلال شخصية الماشيّح ، فهو وحده القادر على توصيلها وعلى إعادة تشكيل الهيولي السفلي . بل إن روح الماشيّح توجد في هذا العالم السفلي ، فهو إحدى الشرارات الإلهية التي التصقت بالقشرة (قليبوت) ، ولذا فهو ليس خاضعاً لسلطان التوراة أو القانون ، وهو وحده القادر على بدء عملية التيقون .

والبشر جميعاً خاضعون لسلطة الشريعة ، التي هي تعبير عن النور العاقل والأرواح المتصلة به ، على عكس الماشيّح الذي لا يخضع لسلطانه . فهو يحوي النورين ، وله من الرخص ما لم يُمنَح لبشر . وقد مكَّنت هذه الفكرة نيثان الغزاوي من أن يفسر تلك الأعمال الغريبة التي صدرت عن الماشيّح . وقد وصفه بأنه البقرة الصغيرة الحمراء التي ورد ذكرها في العهد القديم (عدد ١٩) ، فهو يطهر المدنَّسين ولكنه هو نفسه مدنَّس ، وهو أيضاً الثعبان المقدَّس الذي سيُخضع ثعابين الهوة (والواقع أن كلمة «ناحاش» العبرية ، أي ثعبان ، لها القيمة الرقمية نفسها التي لكلمة «ماشيّح» ، ولذا فإنه مقدَّس مهما أتى من أفعال قد تبدو مُدنَّسة) .

وتستند هذه الرؤية للماشيّح إلى فكرة شبتانية أساسية ، وهي فكرة التوراتين : توراه دي أتسليوت ، أي توراة العالم العلوي أو توراة الفيض والخلاص ، وتوراه دي بريئاه ، أي توراة الخلق أو توراة الظاهر والعالم الحسي أو السفلي . فحسب التصور الشبتاني (وهو مجرد تطوير وتعميق للفكر القبَّالي) ، هناك معنيان للتوراة : أحدهما ظاهري والآخر باطني . ويرتبط المعنى الظاهري بهذا العالم، عالم الخير والشر والحياة والموت والزوال والدنس والشتات والنفي . ولذا ، فإن هذه التوراة ، توراة الخلق والخليقة ، تحوي الوصايا والأوامر والنواهي التي يجب على اليهودي اتباعها ليساعد الشخيناه (المنفية مع اليهود) في محنتها . ويُشار إلى توراة الخلق هذه بأنها رداء الشخيناه في سبيها . أما المعنى الباطني للتوراة ، فيرتبط بالعالم السامي ، عالم الخير والحياة الأزلية ، وهو عالم ثابت لا نفي فيه ولا شتات . وتوراته هي توراة الخلاص ، ولا يدرك كنهها سوى القديسين ، والماشيّح المخلّص . وبرغم التشابه بين التوراتين في المحتوى والألفاظ ، فإن طريقة فهم كل منهما مختلفة لأن تفسير كل توراة يتم وفقاً للعالم الذي نزلت من أجله . فالتوراة في العصر السابق على الخلاص (العصر الشبتاني أو المشيحاني) ، تُقرأ في ضوء من الوصايا والنواهي والتحريمات المعروفة لدينا . أما توراة الخلاص والفيض فتسمح بالمحرمات ، بل إن انتهاك توراة الخليقة لينهض دليلاً على مجيء العصر الجديد الذي بشَّر به شبتاي تسفي .

ويستند كل هذا إلى مفهوم محوري في الفكر الشبتاني ، هو مفهوم قداسة الرذيلة . فالأفعال المدنَّسة هي في الواقع أفعال مقدَّسة ، شكلها الخارجي وحسب هو المدنَّس (ويظهر هنا تأثير المارانو مرة أخرى) . ويصبح العقل المدنَّس مقدَّساً إن عمل بحماس ديني . وقد وجد الشبتانيون تبريراً لرأيهم هذا في التلمود الذي ورد فيه أن الخطيئة التي تُقتَرف لذاتها هي أعظم من وصية لا تُؤدَّى لذاتها . كما أن المختارين لا يمكن أن يُحكَم عليهم بالمقاييس العادية ، فهم ينتمون إلى قانون مختلف هو قانون الفيض ، وهم فوق الخير والشر (مثل الإنسان الأعلى عند نيتشه) . فمن المستحيل على الذين يعيشون في عالم التيقون أن يرتكبوا الخطيئة ، لأن الشر بالنسبة إليهم فَقَد معناه لأنهم وصلوا إلى الخلاص الداخلي الكامل .

وقد بشَّر باروخيا روسو أتباعه بأن الست والثلاثين خطيئة القاطعة التي تنص الشريعة اليهودية على قتل من يرتكبها ، هي خطايا من وجهة نظر توراة الخلق فقط . أما وقد تم الوصول إلى مرحلة الخلاص ، مرحلة توراة الفيض ، فإن تلك الخطايا قد أصبحت من المحللات . وأصبح الشبتانيون يتحللون من كل الأوامر ويترخصون في كل النواهي ، بل أصبحوا يرون أن من واجبهم انتهاك الشريعة وتدنيس الأخلاقيات الشائعة باسم المعاني الباطنية والمبادئ السامية . وصار شعارهم الأساسي عبارة شبتاي تسفي : "الحمد لك يارب ، يا من تُحلِّل المحرمات" .

والمعنى الباطني للتوراة هو المعنى الحقيقي بالنسبة إلى المبشرين بعالم الخلاص ، وبالنسبة إلى الذين وصلوا إليه . ومن العلامات الحقة لإيمانهم أنهم يخفون دينهم الحقيقي ويبقونه سراً خفياً عن عيون البشر . بل يجب على المؤمن الحق أن يدخل كل الأديان وينتمي إليها بصورة ظاهرة ، على أن يبطن دينه الحقيقي . وهو بذلك سيتمكن من أن يهدم الأديان كلها التي سيرتديها فقط كغطاء خارجي . ويبدو أن يهود المارانو الذين كانوا يعتنقون اليهودية سراً والمسيحية علناً ، قد لعبوا دوراً أكيداً في إشاعة هذه الأفكار وفي قبولها . ويرى بعض الدارسين أن ثمة تأثراً بالتراث الديني المسيحي في الفكر الشبتاني ، يتبدى في مركزية فكرة الماشيّح الفرد الذي يُصلَب (والصلب في حالة الفكر الشبتاني قد يكون حقيقياً وقد يأخذ شكل الارتداد والتدنس) . كما يتبدى الفكر المسيحي في تأكيد الخلاص

الداخلي ، والحرية الباطنية . بل يذهب الدارسون إلى وجود ثالوث شبتاني : الإله الخفي وإله جماعة يسرائيل والشخيناه ، أو تنويعات على هذا الثالوث . وقد تأسست بعد موت تسفي مراكز شبتانية في أطراف الدولة العثمانية في البلقان ، وفي كلٍ من إيطاليا وبولندا وليتوانيا .

وأهم الحركات الشبتانية هي حركة جيكوب فرانك . ولقد كانت الحركة الشبتانية منتشرة بشكل عميق في أوربا إذ ظل الشبتانيون داخل اليهودية الحاخامية ، وأبطنوا آراءهم ، وقاموا بالدعوة لها سراً ، حتى أن أحد عُمُد اليهودية الحاخامية (الحاخام إيبشويتس) كان من دعاتها . وقد أصبح الشبتانيون من أهم العناصر الثورية والعدمية في أوربا واحتفظوا بآرائهم داخل أنفسهم ، حتى ظهرت الثورة الفرنسية ، فصار كثير منهم من دعاتها ورسلها . وكان موسى دوبروشكا ، أحد المرشحين لرئاسة حركة فرانك ، من زعماء الثورة الفرنسية ممن أُعدموا مع دانتون عام ١٧٩٤ .

والحركة الشبتانية واحدة من الحركات اليهودية المشيحانية الحديثة التي تعبِّر عن بؤس اليهود ، وعن أزمة اليهودية التي انتهت بظهور الحسيدية ثم الصهيونية ، وكلها حركات شعبية هروبية ترفض الزمان والمكان وتطالب بالانتقال من وضع تاريخي متعين متأزم إلى مجتمع جديد مثالي يُشيَّد على أرض فلسطين . وقد اتخذت حركة الهروب هذا الشكل المشيحاني ، بسبب الحلولية الكامنة في النسق الديني اليهودي ، التي تشكل واحداً من أهم طبقاته الجيولوجية .

ويرى أحد المفكرين اليهود أن الحركة الشبتانية هي بداية اليهودية الحديثة ، فظهورها تعبير عن ضعف اليهودية المعيارية ، أي اليهودية الحاخامية . وهي ، بإسقاطها كل النواميس ، تشبه في كثير من النواحي الحركات اليهودية المعاصرة ، أي اليهودية التي تحاول أن تطرح جانباً القيود المتزمتة التي فرضتها اليهودية الحاخامية على اليهود . وبالتالي ، فإن الوريث الحقيقي للشبتانية هو اليهودية الإصلاحية . فهذه ، هي الأخرى ، ثورة على التقاليد التلمودية الحاخامية ، ويُقال إن أحد أهم زعماء اليهودية الإصلاحية في المجر (أرون كورين) كان شبتانياً في شبابه .

وثمة رأي آخر يرى أن الوريث الحقيقي للحركة الشبتانية هو الصهيونية ، فهي ترفض الأوامر والنواهي ، ولا تقبل الانتظار حتى يشاء الإله أن يأتي الماشيَّح . ولكن الطبقة الحلولية اليهودية هي التي تجمع بين كل هذه الحركات التي تُعدُّ مجرد تجليات لهذه الطبقة التي تنكر وجود الإله المفارق ، وتبحث عن المطلق والركيزة النهائية في المادة نفسها ، ولذا يحل الإله تماماً في الطبيعة والتاريخ وتتقدس المادة ، ومن ثم تصبح كل الأمور متساوية (نسبية) وتسقط المطلقات الأخلاقية لتصبح الرذائل فضائل والفضائل رذائل .

الدونمه

Donmeh

«الدونمه» كلمة تركية بمعنى «المرتدين» :

١ ـ كلمة «دونمه» مكوَّنة من كلمتين تركيتين مدغمتين «دو» بمعنى «اثنين» و«مه» بمعنى «عقيدة» فهم أصحاب عقيدتين واحدة ظاهرة وهي الإسلام ، والثانية مبطنة وهي اليهودية .

٢ ـ يُقال إن الكلمة مشتقة من كلمة «دونمك» بمعنى «العائدين» ، أي يهود المارانو الذين هاجروا من شبه جزيرة أيبريا إلى الدولة العثمانية .

وقد أُطلق هذا الاسم على جماعة يهودية تركية شبتانية من اليهود المتخفين استقرت في سالونيكا وأشهرت إسلامها تشبُّهاً بشبتاي تسفي (الماشيَّح الدجال) . فقد اعتقد كثيرون من أتباعه المؤمنين به أن ارتداده عن دينه واعتناقه الإسلام تلبية لأمر خفي من الرب وتنفيذ للإرادة الإلهية ، فحذوا حذوه ، ولكنهم ظلوا متمسكين سراً بتقاليد اليهودية . وهم يختلفون عن يهود المارانو في أنهم اعتنقوا الإسلام طواعية دون قسر ، فلم تكن الدولة العثمانية تُكره أحداً على اعتناق الإسلام . وعقيدة الدونمه عقيدة حلولية غنوصية متطرفة فهم يؤمنون بألوهية شبتاي تسفي ، وأنه الماشيَّح المنتظر الذي أبطل الوصايا العشر وغيرها من الأوامر والنواهي وهم يرون أن التوراة المتداولة (توراة الخلق) فارغة من المعنى وأنه أحل محلها توراة التجليات ، وهي التوراة بعد أن أعاد تسفي تفسيرها .

وكان مركز الجماعة في بادئ الأمر في أدرنة ثم انتقل إلى سالونيكا . ويحمل كل عضو من أعضاء الدونمه اسمين : اسم تركي مسلم وآخر عبري يُعرَف به بين أعضاء مجتمعه السري . وكانوا يعتبرون أنفسهم يهوداً ، فكانوا يتدارسون التلمود مع بقية اليهود ويستفتون الحاخامات فيما يقابلهم من مشاكل ، كما كانوا يحتفلون بجميع الأعياد اليهودية ويقيمون شعائرهم عدا شعيرة الكف عن العمل يوم السبت حتى لا يلفتوا النظر إلى حقيقتهم . وقد أضافوا إلى الأعياد عيداً آخر اعتبروه أقدس الأعياد على الإطلاق وهو عيد ميلاد شبتاي تسفي . ويدفن الدونمه موتاهم في مدافن خاصة بهم ، ولكل فريق منهم يتعبد في معبده الخاص الذي يُسمَّى «القهال» (الجماعة أو جماعة المصلين) ، والذي يوجد عادةً في مركز الحي الخاص بهم مخبأً يخفيهم عن عيون الغرباء . وكانت صلواتهم

وشعائرهم تُكتَب في كتب صغيرة الحجم حتى يسهُل عليهم إخفاؤها، ولهذا لم يطّلع عليها أحد حتى عام ١٩٣٥ . وكانت كتب الصلوات بالعبرية أصلاً، لكن اللادينو حلت محل العبرية سواء في الأدب الديني أم الدنيوي، ثم حلت التركية محل اللادينو في منتصف القرن التاسع عشر . وقد اتُهمت هذه الجماعة، أو على الأقل إحدى فرقها، بالاتجاهات الإباحية وبالانحلال الخلقي والانغماس في الجنس، وذلك بسبب تحليل الزيجات التي حرمتها الشريعة اليهودية وبسبب الحفلات التي كانوا يقيمونها ويتبادلون خلالها الزوجات (وهذا أمر شائع في أوساط الجماعات الحلولية التي تُسقط كل الحدود، بمعنى حدود الأشياء والعقاب) . وللدونمه صيغة خاصة من الوصايا العشر لا تُحرِّم الزنى، بل إنها تُحوِّل عبارة «لا تزنِ» إلى ما يشبه التوصية بأن يتحفظ الإنسان فقط في ارتكاب الزنى وليس أن يمتنع عنه تماماً . والموعظة الطويلة التي تركها أحد زعمائهم تحتوي على دفاع قوي عن إسقاط التحريمات الخاصة بالجنس في «توراة الخلق» . وتؤكد **الموسوعة اليهودية** أنهم يعقدون احتفالات ذات طابع عربيدي داعر في عيد من أعيادهم الذي يُسمَّى «عيد الحمل» (٢٢ مارس/آذار) وهو عيد بداية الربيع . وإن كان يبدو أن مثل هذه الاحتفالات مقصورة أساساً على فرقة القنهيليه، وهي على كل حال أكبر فرق الدونمه عدداً .

وتنقسم الدونمه إلى عدة فرق :

١ ـ اليعقوبية : بعد موت تسفي، أعلنت آخر زوجاته أن روح زوجها قد حلت في أخيها يعقوب فيلسوف (أو يعقوب قويريدو، أي المحبوب)، وأن تسفي تجسَّد مرة أخرى من خلاله . وقد اعتنق أتباع يعقوب الإسلام بل أدّى هو فريضة الحج عام ١٦٩٠ ومات أثناء عودته . وقد تبعه ما يقرب من ثلاثمائة أسرة انقسمت عن جماعة الدونمه ككل . وقد سُمِّي أتباع يعقوب «اليعقوبلية» أي «اليعقوبيون»، وهم يسمون باللادينو «أرابادوس»، أي «الحليقون النظفاء» لأنهم يحلقون شعر رؤوسهم تماماً، وإن كانوا يرسلون لحاهم . وكان الأتراك يسمونهم «الطربوشلوه» أي «لابسو الطرابيش» لأنهم كانوا يرتدون الطرابيش . ويضم هذا الفريق أساساً أفراداً من الطبقات الوسطى أو الدنيا من الموظفين الأتراك . وهم مندمجون في المجتمع التركي تماماً، على الأقل من الناحية الشكلية .

٢ ـ الأزميرليه : وقد أُطلق على بقية الدونمه اسم «الأزميرليه»، ولكنهم ما لبثوا أن انقسموا إلى قسمين :

أ) القنهيليه («القونيوسوس» باللادينو، و«كاركاشلر» بالتركية) . وقد حدث انقسام آخر في صفوف هؤلاء عام ١٧٠٠ حين ظهر قائد جديد هو باروخيا روسو الذي أعلن أنه تجسُّد جديد لشبتاي تسفي وأعلن أتباعه أنه التجسد أو التجلي المقدَّس وأنه ربهم . وكان باروخيا روسو (وكان اسمه التركي مصطفى شلبي، كما كان يُعرف باسم الحاخام باروخ فونيو) أكثر الدونمه راديكالية . فقد قام بتعليم التوراة المشيحانية الخفية، أو توراة التجليات التي تطالب بقلب القيم، فطالب على سبيل المثال بإيقاف العمل بالستة والثلاثين حظراً التي وردت في التوراة والتي تُعرف باسم «القاطعة» (بالعبرية: كيريتوت)، وقد كانت عقوبة من يخالفها هو اجتثاث الروح من جذورها وإبادتها تماماً، بل وحوَّلها إلى أوامر واجبة الطاعة . وقد كان ذلك يتضمن العلاقات الجنسية، ومن ذلك العلاقات بين المحارم . وأعضاء هذه الفرقة من الدونمه هم أساساً من الحرفيين، مثل الحمالين والإسكافيين والجزارين، ويُقال إن جميع الحلاقين في سالونيكا كانوا من أتباع هذه الفرقة . وكانوا يرسلون لحاهم ولا يحلقون شعر رأسهم (وهذا مثل جيد لجماعة وظيفية تَتبنَّى الرؤية الحلولية) . وتُعدُّ فرقتهم أكثر الفرق تطرفاً نظراً لعدميتهم الدينية . وقد قام هذا الفريق من الدونمه بنشاط تبشيري كثيف بين أعضاء الجماعات اليهودية، وأُسِّست جماعات تابعة له في أماكن عدة . وقد ظهرت الحركة الفرانكية من أحد هذه الأماكن .

ب) القبانجي : بعد موت باروخيا، انفصلت مجموعة أخرى سُمِّيت «القبانجي»، وهي كلمة تركية تعني «القدماء» أو «القائمون على حراسة الأبواب» (باللادينو: «كافاليروس»)، رفضوا الاعتراف بقويريدو، كما رفضوا الطبيعة المشيحانية لباروخيا، ولم يعترفوا إلا بشبتاي تسفي، وأصبح اسم «الأزميرلية» يُطلَق عليهم وحدهم، وأصبحوا أرستقراطية الحركة الشبتانية . وتضم هذه الفرقة المهنيين (من أطباء ومهندسين) وأصحاب المهن الحرة وأثرياء اليهود . وهؤلاء كانوا يحلقون رؤوسهم ولا يطلقون لحاهم .

وكان كل فريق من الدونمه يعيش بمعزل عن الآخر . وقد لعب الكثير من أعضاء الدونمه دوراً قيادياً في الثورة التركية سنة ١٩٠٩، وخصوصاً داود بك الذي أصبح فيما بعد وزيراً للمالية، وكان من نسل باروخيا رئيس الجماعة القنهيلية المتطرفة . ويُشاع بين يهود سالونيكا أن كمال أتاتورك نفسه كان من الدونمه .

ولا تُعرف أعداد الدونمه إلا على وجه التقريب . ويُقال إن عددهم وصل إلى ما بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً قبل الحرب العالمية الأولى . وقد تَفرَّق شملهم على أثر اتفاقية تبادل السكان التي وقعتها تركيا واليونان بعد الحرب عام ١٩٢٤ بسبب اضطرار أعضائها، باعتبارهم مسلمين اسماً، إلى ترك مقرهم في سالونيكا

والاستقرار في جهات متفرقة في تركيا، خصوصاً إستنبول. وقد حاولوا أن ينضموا مرة أخرى إلى الجماعة اليهودية، ولكن طلبهم رُفض لأن أولادهم يُعتبرون غير شرعيين (مامزير). وتم أخيراً إزاحة النقاب عن سر هذه الجماعة بعد أن نجحت طويلاً في إخفاء حقيقة أمرها عن المسلمين واليهود على السواء، فقد ظهرت وثائق ومخطوطات كشفت عن عدميتهم المتأصلة وبعدهم التام عن الإسلام وعن اليهودية. وقد فشلت جميع المحاولات التي بُذلت لإقناعهم بالهجرة إلى إسرائيل، ولم يكن بين المهاجرين الأتراك غير أفراد قلائل من الدونمه. وثمة دلائل تشير إلى أن القنهيليه استمرت موجودة حتى الستينيات، وأنها لا تزال تبقي على إطارها التنظيمي، وأن رئيس الجماعة أستاذ في جامعة إستنبول. ويبدو أن أعضاءها تربطهم علاقة وثيقة بالحركات الماسونية في تركيا ويلعبون دوراً نشيطاً في عملية علمنة تركيا، وهو ما يُعطي الحركة الماسونية طابعاً خاصاً.

المناظـــرة الشـــــبتانية

Shabattean Controversy

نشبت معركة فكرية بين يعقوب أمدن وجوناثان إيبيشويتس، وكلاهما كان من كبار العلماء التلموديين في عصرهما، حين قام أمدن باتهام إيبيشويتس بأنه مؤمن بالأفكار الشبتانية سراً رغم تحريمه إياها علناً. وقد أثبت أمدن، بالأدلة القاطعة، صدق اتهامه. وقد هزت المعركة المؤسسة الحاخامية، وأضعفت هيبتها وبينت مدى تغلغل الأفكار القبَّالية (أساس الشبتانية) داخل المؤسسة التلمودية.

جوناثـان إيبيشويتـس (١٦٩٠-١٧٦٤)

Johnathan Eybeshuetz

واحد من أكبر العلماء التلموديين والقبَّاليين في عصره. وُلد في بولندا وتَعلَّم في براغ حيث استقر عام ١٧١٥. صادق بعض العلماء غير اليهود، من بينهم الكاردينال هاسباور الذي استصدر له رخصة لطبع التلمود شريطة أن يستبعد العبارات المعادية للمسيحية. ولكن المشروع لم يتحقق بسبب معارضة زعماء الجماعة اليهودية. وكان إيبيشويتس أحد القضاة الذين حكموا بتحريم المذهب الشبتاني. وقد عُيِّن حاخاماً لمتز وثلاث مدن أخرى عام ١٧٥٠.

ويرتبط اسم إيبيشويتس بالمناظرة الشبتانية الكبرى حين اتهمه جيكوب أمدن بأنه يروج للشبتانية سراً. وقد وقف إلى جانبه حاخامات بولندا (وطنه الأصلي) ووقف ضده حاخامات ألمانيا (الوطن الذي استقر فيه). وقد استعرت المعركة بين الفريقين، فاضطر إلى اللجوء إلى السلطات غير اليهودية التي وقفت في صفه. وظهرت المشكلة مرة أخرى، حينما تبين وجود عدد من أتباع الاتجاه الشبتاني بين تلامذته، كما أعلن ابنه ديفيد أنه نبي شبتاني، الأمر الذي أدى إلى إغلاق المدرسة التلمودية التي كان يدرِّس فيها إيبيشويتس الأب.

وتعود أهمية إيبيشويتس إلى أنه كان من أهم علماء اليهودية الحاخامية، ومن كبار المعارضين العلنيين للشبتانية. ولذا، فإن اتهامه باتباعها، وإثبات ذلك، يدل على مدى تجذُّر الشبتانية وهيمنتها. وفي عام ١٧٢٤، ظهرت مخطوطة كتبها إيبيشويتس، وهي شبتانية النزعة دون جدال. كما قام يعقوب أمدن بحل طلاسم بعض الأحجبة التي كتبها إيبيشويتس، وبيَّن أنها تحوي صيغاً شبتانية.

جيكوب أمدن (١٦٩٧-١٧٧٦)

Jacob Emden

عالم تلمودي من أصل ألماني، قاد معركة ضارية ضد النزعة الشبتانية. وهو معروف بمعركته مع جوناثان إيبيشويتس التي سُمِّيت «المناظرة الشبتانية الكبرى».

هولجر بولي (١٦٤٤-١٧١٤)

Holger Paulli

تاجر دنماركي من غلاة البروتستانت، وصاحب ادعاءات مشيحانية يهودية. وُلد في الدنمارك في مدينة كوبنهاجن، ودرس اللاهوت في جامعتها. ثم اشتغل بعد ذلك في تجارة العبيد في جزر الهند الغربية فحقق ثروة طائلة. وفي عام ١٦٩٤، عاد إلى الدنمارك. ثم انجذب بشكل حاد نحو الدين، فهجَّر أسرته وترك بلده وسافر إلى فرنسا ثم إلى أمستردام حيث أصدر أول منشور ديني له عام ١٦٩٧ دعا فيه إلى دمج اليهودية والمسيحية، وأعلن نفسه المسيح الجديد وملك اليهود الذي اختاره الإله لكي يعيد بناء الإمبراطورية اليهودية في فلسطين. وفي عام ١٧٠٠، كتب منشوراً آخر موجهاً إلى ملوك أوربا أبلغهم أن المملكة اليهودية ستقام مرة أخرى عام ١٧٢٠، كما طالب ملك فرنسا بالتخلي عن العرش والانضمام له لتنصير اليهود بالقوة.

وقد قامت السلطات في أمستردام بسجن بولي عام ١٧٠١ بتهمة التحريض على أعمال الشغب. وقد أُفرج عنه بفضل وساطة

أسرته وأصدقائه الذين التمسوا له العذر بحجة جنونه . وقد انتقل بعدها إلى ألمانيا ثم عاد إلى الدنمارك حيث منعته السلطات منعاً باتاً من التدخل في الشئون الدينية أو الاتصال باليهود .

والواقع أن قصة بولي تبين بكل جلاء التداخل الواضح بين الأجنحة المتطرفة في البروتستانتية واليهودية (وعلى أية حال ، فقد كان كثير ممن ادعوا أنهم مشحاء ، مثل تسفي وفرانك ، يتحولون عن اليهودية وينخرطون في دين آخر) . كما تبين هذه القصة أن النزعة المشيحانية بين اليهود ليست مرتبطة بالنسق الديني اليهودي ، وإنما هي مرتبطة بعناصر في الحضارة الغربية ، وأن تفجرها لا يمكن تفسيره إلا بالعودة لآليات وحركيات هذه الحضارة . ويمكن القول بأن النزعة المشيحانية الصهيونية (مسيحية كانت أم يهودية) هي في واقع الأمر تعبير عن اتساع أطماع الإنسان الغربي وتفتُّح أفقه وشهيته وظهور الرؤية المعرفية الإمبريالية حيث قرَّر هذا الإنسان غزو العالم وتسخيره ، ويبدو أن الخطاب المشيحاني هو الوسيلة الدينية لهذه الرؤية الإمبريالية .

والذي حدث بعد ذلك هو أن هذه النزعة المشيحانية تمت علمنتها وتجريدها من أية رواسب أو ديباجات دينية ، إلى أن نصل إلى الدعوة الاستعمارية الصريحة في القرن التاسع عشر . ومع هذا ، لا يعدم الأمر وجود شخصية مثل بلفور ، وهو وزير إنجليزي ذو توجُّه استعماري واضح ، يظل يُدافع عن مشروعه الصهيوني في فلسطين من منظور ديني .

الحركــة الفرانكيــة

Frankist Movement

الحركة الفرانكية نسبة إلى جيكوب فرانك ، التي تعود نشأتها إلى عام ١٧٥٩ حين تنصَّر فرانك هو ومجموعة من أتباعه على الطريقة المارانية ، أي أظهروا المسيحية وأبطنوا عقيدتهم الغنوصية . ويمكن القول بأن منظومة فرانك الحلولية هي منظومة يصل الحلول فيها إلى منتهاه إذ يحل الإله في المادة ويموت وتصبح وحدة وجود مادية كاملة . المادة فيها مقدَّسة تماماً ، والإنسان فيها إله ، ومن ثم فهي أيضاً النقطة التي تسقط فيها كل الحدود ويتساوى فيها المطلق والنسبي والمقدَّس والمدنَّس والمحرَّم والمُباح وتنقلب القيم رأساً على عقب ويتساوى الخير والشر والوجود والعدم ، ولذا فإن منظومة فرانك أكثر حداثة وجذرية من منظومة نيتشه على سبيل المثال .

ويتحدد إسهام فرانك في أنه خلَّص القبَّالاه من رموزها الكونية المترابطة المركبة ، ووضعها في مصطلح شعبي مزخرف ، وفي إطار أسطوري ، بل طعَّمها بصور مسيحية مألوفة لدى يهود شرق أوربا الذين اختلطوا بالفلاحين السلاف في الريف ، وابتعدوا عن مراكز الدراسة التلمودية في المدن . وقد تأثر الفرانكيون بالفرق الأرثوذكسية الروسية المنشقة ، وخصوصاً الدوخوبور والخليستي .

وتدور العقيدة الفرانكية حول ثالوث جديد يتكون مما يلي :

١ ـ الإله الخيِّر أو الأب الطيب . وهو إله خفي يختبئ وراء ثاني أعضاء الثالوث ، ولا علاقة له بعملية الخلق أو المخلوقات ، فهو لم يخلق الكون (فلو أنه خلق الكون لأصبح هذا الكون خالداً وخيِّراً ، ولكانت حياة الإنسان أبدية) . وهو مقابل الإين سوف في العقيدة القبَّالية .

٢ ـ الأخ الأعظم أو الأكبر ، ويُسمَّى أيضاً «هذا الذي يقف أمام الإله» . وهو الإله الحقيقي للعقيدة الذي يحاول العبد التقرب منه ، ومن خلال الاقتراب منه يستطيع العابد أن يحطم هيمنة حكام العالم الثلاثة (قيصر روسيا ، والسلطان العثماني ، وحاكم إحدى القوى العظمى الأخرى ولعلها النمسا أو ألمانيا) الذين يهيمنون على العالم ويفرضون عليه شريعة غير ملائمة . والأخ الأعظم (المقابل للتفئيريت أو الابن ، ولبعض التجليات الأخرى) مرتبط بالشخيناه التي هي الأم التي يُقال لها «علماه» .

٣ ـ الأم «علماه» ، أو العذراء «بتولاه» ، أو «هي» . وهي خليط من الشخيناه والعذراء مريم . والواقع أن صورة الأنثى في الثالوث الفرانكي جعلت العنصر الجنسي الكامن في القبَّالاه اللوريانية أو في الحركة الشبتانية عنصراً أكثر وضوحاً . وقد استخلص الفرانكيون أن التجربة الدينية الحقة لابد أن تأخذ شكل ممارسة جنسية . ولن يصل العالم إلى الخلاص إلا باكتمال الثالوث الجديد السابق .

وهذا الثالوث أقرب إلى شخصيات المنظومة الغنوصية (الإله الخفي أو الديوس أبيسكونديتوس ، والمخلص أو الكريستوس ، وصوفيا أو الحكمة) . وشبتاي تسفي نفسه ، حسب التصور الفرانكي ، ليس إلا أحد تجليات الإله ، فهو تجسيد جديد للأخ الأعظم ، ولكنه تملَّكه الضعف وهو بعد في منتصف الطريق ، فلم يستطع تحقيق أي شيء . ووصولاً إلى الخلاص ، لابد أن يظهر ماشيَّح جديد يكمل الطريق ، ولابد أيضاً أن تظهر العذراء (تجسيد العنصر الأنثوي) . وحتى يتحقق الخلاص ، ينبغي أن يسير المؤمن بالعقيدة الفرانكية في طريق جديد تماماً ، لم يطرقه أحد من قبل ، وهو طريق عيسو (أدوم) الذي يُشار إليه في الأجاداه بلفظ «أدوم» ويُستخدَم اللفظ نفسه للإشارة إلى «روما» ، أي القوى الكاثوليكية ،

فعيسو رمز تدفُّق الحياة الذي سيحرر الإنسان والحياة فهو قوة لا تخضع لأي قانون فهي حالة سيولة كونية ورحمية .

وقد جاء في التوراة أن يعقوب قال إنه سيزور أخاه (تكوين ٣٣/ ١٤) ولكنه لم يفعل لأن الطريق كان صعباً عليه . وقد حان الوقت لأن يسير الماشيَّح في ذلك الطريق الذي يؤدي إلى الحياة الحقة التي تحمل كل معاني الحرية والإباحية (ولنلاحظ هذا الارتباط بين حالة السيولة الرحمية والإباحية الجنسية وهو أمر متكرر في الأنماط الحلولية) . فالطريق الجديد يؤدي إلى عالم لا توجد فيه قوانين ولا حدود ، عالم تم فيه التجرد من كل الشرائع والقوانين والأديان ، لكنه عالم ليس فيه حدود (الحد بمعنى «الحاجز الذي يفصل بين شيئين» وبمعنى «عقوبة مقدَّرة وجبت على الجاني» وبمعنى «حدود الشخصية» أي هويتها) ، وتصبح العدمية والتخريب هما طريق الخلاص . إن هذا العالم الشرير لم يخلقه الإله الخفي ، وهو مادة دنيئة تقف في وجه وصول الإنسان إلى الأخ الأعظم (ولنلاحظ هنا الأثر العميق للغنوصية) . وحتى يتم إنجاز هذا الهدف ، لابد أن تُحطَّم كل القوانين والتعاليم والممارسات التي تعوق تدفُّق الحياة : «لقد أتيت لأحرر العالم من كل الشرائع والعادات الموجودة فيه . إن مهمتي هي إزالة كل شيء حتى يستطيع الإله أن يكشف عن نفسه» . ثم تظهر العدمية الدينية بشكل أوضح في الحديث عن الطريق إلى الحياة الجديدة ، فهو طريق جديد تماماً ، وكما يقول فرانك : «أينما كان يخطو آدم ، كانت تنشأ مدينة . لكن أينما أضع أنا قدمي ، يجب أن يُدمَّر كل شيء ، فقد أتيت إلى هذا العالم لأُدمِّر وأُبيد» .

والطريق الجديد طريق غير مرئي ، لا يكون إلا في الخفاء . ولذا ، فإنه يتعين على المؤمنين أن يرتدوا رداء عيسو (أي المسيحية) ، فعليهم أن يتظاهروا بالتنصر (والواقع أن التظاهر بدين واعتناق دين آخر من أهم ممارسات جماعة الدوخوبور من المسيحيين الروس المنشقين) . وقد عبر المؤمنون إلى الأمة اليهودية والإسلام (الإشارة إلى شبتاي تسفي) ولم يبق سوى المسيحية . والمؤمن الحق يختبئ تحت «عبء الصمت» يحمل الإله في قلبه الصامت فيعتنق الديانات الواحدة تلو الأخرى ويمارس شعائرها . لكن التغلب على الأديان الأخرى وتدميرها يتطلب من الفرد أن يكون صامتاً تماماً ومخادعاً : «فالإنسان الذي يرغب في غزو حصن لا يفعل ذلك بالكلام والإعلان ، بل يتسلل إليه في صمت وسكون ، لقد تحدَّث الأجداد كثيراً ، لكنهم لم يفعلوا شيئاً . لذلك يجب الآن تَحمُّل الصمت . وحينئذ ، لن يكون الفرد في حاجة إلى الدين» (ويتضح هنا أثر يهود المارانو المتخفين) . وحينما يمارس المؤمن طقوس الديانات الأخرى دون أن يتقبل أياً منها ، بل يحاول أن يحطمها من الداخل ، فهو يؤسس الحرية الحقة . والواقع أن الديانة المطلقة على أساس موسى التي يعتنقها اليهودي المتخفي ليست سوى عباءة يرتديها المرء كرداء يلقي به (فيما بعد) في طريقه إلى المعرفة المقدسة . وهي المعرفة الغنوصية بالمكان الذي تحطم فيه كل القيم التقليدية في تيار الحياة ، طريق غير مرتبط بأي قانون وإنما مرتبط بإرادة فرانك وحده . وإذا كان الإفصاح عن الإيمان بالمسيحية ضرورياً ، فإن الاختلاط بالمسيحيين وكذلك الزواج منهم محظور .

وفرانك نفسه تجسيد آخر للأخ الأعظم تقمصته الروح القدس . سمَّى نفسه «سنتو سنيور» ، أي «السيد المقدس» ، والروح بالمفهوم القبَّالي اللوريان للشر ، وهو مفهوم يرى أن الشر ليس حقيقياً . وكل شيء ، وضمن ذلك الشر نفسه ، هو خير أو علقت به شرارات إلهية على الأقل . ومن هنا ، فقد أعلن فرانك أن ظهور الماشيَّح أضفى القداسة على كل شيء في الحياة حتى الشر . وبهذا ، برزت فكرة «الخطيئة المقدَّسة» التي ترى أنه ينبغي الوقوع في الخطيئة الكبرى حتى ينشق عالم لا مكان فيه للخطيئة ، على حد تعبيره . ولكي يصعد الإنسان ، يجب عليه أن يهبط أولاً : «إنني لم آت إلى هذا العالم لكي أصعد بكم ، بل لأهبط بكم إلى قاع الهوة ، حيث لا يستطيع الإنسان أن يصعد بقوته الذاتية» . أما النزول إلى تلك الهوة ، فهو لا يقتضي فقط ترك كل الأديان والمعتقدات ، بل يوجب أيضاً اقتراف أعمال آثمة غريبة . وهذا يتطلب أن يتخلى الإنسان عن الإحساس بذاته إلى درجة تصبح معها الوقاحة والفجور هما ما يقود إلى إصلاح الأرواح . وقد عيَّن فرانك اثني عشر من الإخوة أو الحواريين أو الرسل ، هم تلاميذه الأساسيون (مثل حواريي المسيح) ، ولكنه عيَّن أيضاً اثنتي عشرة أختاً كن في واقع الأمر خليلاته (فمن الواضح أن فرانك استمر في الممارسات الجنسية التي كان يمارسها روحياً) . وأعلن أنه سيخلص العالم من كل النواميس الموجودة وسيتجاوز كل الحدود ، فقضى ببطلان الشريعة اليهودية . ورغم أن الإله أرسل رسلاً إلى جماعة يسرائيل ، فإن التوراة تتضمن شرائع يصعب مراعاتها وثبت عدم جدواها . والشريعة الحقة هي إذن التوراة الروحية أو توراة الفيض التي أتى بها شبتاي تسفي . وشن فرانك حرباً شعواء على التلمود ، وأعلن أن الزوهار هو وحده الكتاب المقدس . وكان الفرانكيون يُدعَون باسم «الزوهريين» لهذا السبب . ومع هذا ، وصلت العدمية بفرانك إلى منتهاها إذ طلب من أتباعه التخلي عن الزوهار نفسه ، وعن كل تراث قبَّالي .

كانت كل هذه الأفكار تعمل على إعداد أتباعه للتنصُّر الماراني

الظاهري ، حيث كان لهم شرط أساسي هو الاحتفاظ بشيء من هويتهم اليهودية الفعلية كأن يمتنعوا عن حلاقة سوالفهم ، وأن يرتدوا الثياب الخاصة بهم ، ويُبقوا أسماءهم اليهودية إلى جانب أسمائهم المسيحية الجديدة ، وألا يأكلوا لحم الخنزير ، وأن يستريحوا يوم السبت (ونعل من المفارقات أن مثل هذه الشعائر السطحية كانت كل ما تبقى من اليهودية بالنسبة للبعض) . كما طالبوا بإعطائهم رقعة أرض في شرق جاليشيا تستطيع جماعتهم أن تؤسس فيها حياتها الجديدة ، وخصوصاً أن مسرح الخلاص في الرؤية الفرانكية هو بولندا وليس صهيون . هذا مع وضع برنامج لتحويل اليهود إلى قطاع منتج ، كأن يعملوا بالزراعة مثلاً . وقد أكد فرانك أهمية الجوانب العسكرية في تنظيمه . وكان ينادي بأن يترك اليهود الكتب والدراسات الدينية ، وأن يتحولوا إلى شعب محارب .

وكان معظم أتباع فرانك من الفقراء أو من اليهود الذين يشغلون وظائف هامشية أو وظائف لم يَعُد لها نفع . فكان منهم الذين يعملون في تقطير الكحول ، وكان منهم أصحاب حانات وأعضاء في الطبقات من بقايا يهود الأرندا . وكان هؤلاء قد فقدوا علاقتهم بالمؤسسة الحاخامية وزادت علاقتهم بالفلاحين السلاف ، حتى أنهم تأثروا بفكرهم ومعتقداتهم . كما انضم إليه عدد كبير من صغار الحاخامات الذين لم يحققوا ما كانوا يطمحون إليه من نجاح . ومع هذا ، فقد كانت الحركة تضم غير قليل من كبار التجار الأثرياء .

وقد ظهرت الفرانكية في الواقع تعبيراً عن أزمة كان يجتازها كل من اليهود واليهودية :

١ ـ أما اليهودية ، فمن المعروف أنها كانت قد وصلت ، مع انتصاف القرن الثامن عشر ، إلى طريق مسدود . فقد تحولت إلى عبادة عقلية جافة ، سيطر عليها الحاخامات بدراساتهم التلمودية المنفصلة عن أي واقع وتمثلت فيما يشبه التمارين المنطقية . وربما كانت العدمية الواضحة في فكر فرانك تعبيراً عن الملل والسأم من هوية يهودية دينية قد تآكلت .

٢ ـ وقد بدأت الدراسات القبَّالية تحل محل الدراسات التلمودية ، ولكن القبَّالاه التي سادت كانت القبَّالاه اللوريانية بنزعتها المشيحانية المتفجرة واتجاهها الحلولي المتطرف . ولهذا ، فإنها لم تَصلُح كإطار لحركة تجديد وإصلاح اجتماعية .

٣ ـ تعرُّض اليهود لهجمات شميلنكي ، ثم الهايدماك والفلاحين القوزاق ، ولهجمات سكان المدن البولندية والكنيسة الكاثوليكية . ولهذا ، فقد لاذوا بمنطقة كانت تتنازعها الدول المجاورة؛ فهي تارة تابعة إلى بولندا وتارة تابعة إلى روسيا ، أو النمسا (أوكرانيا وجاليشيا) . وكانت مقاطعة بودوليا (التي نشأت فيها الفرانكية وغيرها من الحركات) تابعة للدولة العثمانية بعض الوقت . ولا شك في أن هذا الوضع السياسي القلق سبَّب للجماهير اليهودية كثيراً من الخوف وعدم الاطمئنان جعلها تبحث عن مخرج .

٤ ـ بدأت الجماعات اليهودية تفقد دورها كجماعة وظيفية وسيطة تعمل بالتجارة والوظائف الأخرى ، وذلك بظهور عناصر بولندية محلية أخذت تحل محلها وتضطلع بما كان اليهود يؤدونه من وظائف ويقومون به من دور ، وبدأ وضع اليهود الاقتصادي يسوء تبعاً لذلك . وتنعكس الأزمة الاقتصادية للجماعة اليهودية في أزمة القهال الذي تحوَّل إلى مؤسسة مدنية تثقلها الأعباء المالية ، كما أصبحت مسرحاً للتوترات الاجتماعية بين أعضاء الجماعة اليهودية بدلاً من أن تكون مؤسسة لحلها .

٥ ـ وبرغم تفاقم الأزمة ، فلم تظهر فرص اقتصادية بديلة ، كما لم تظهر أشكال اجتماعية ، داخل الجماعة اليهودية أو خارجها ، تحل لها أزمتها وتساعد أعضاءها على الاندماج في المجتمع مرة أخرى من خلال الاضطلاع بوظيفة إنتاجية محددة توجد داخل المجتمع نفسه لا في مسامه . ولذا ، كانت الصيغة الشبتانية المارانية صيغةً ملائمة للاندماج ولحل الأزمة . فما كان يقترحه فرانك هو تكوين جماعات يهودية مسيحية ، تتساوى في الحقوق مع المواطنين كافة ، ويمكنها أن تذوب فيهم . وكان هدف هذه الصيغة التقليل من آلام الانتقال ، فجماعة يهودية مسيحية تعيش داخل منطقة زراعية مقصورة عليها يمكنها التكيف والاندماج ، وفي نهاية الأمر الانصهار في المجتمع الأكبر ، دون أن تضطر إلى تَبنِّي الأشكال المسيحية البولندية دفعة واحدة . والفرانكية تشبه ، في هذا ، الربوبية والماسونية ، وهما حركتان تستخدمان خطاباً دينياً يخبئ مضموناً علمانياً لتخفيف آلام الانتقال من عقيدة إلى أخرى .

٦ ـ ومن أهم القضايا التي كانت تواجهها الجماعة اليهودية في أوربا ، وبولندا بالذات ، بُعدها عن القرّار السياسي ومناطق النفوذ ، أو ما كان يُسمَّى بمشكلة العجز (أي انعدام السيادة وعدم المشاركة في السلطة) . وقد حُلَّت هذه المشكلة بالتدريج في أوربا الغربية باندماج اليهود في المجتمع وتحوُّلهم من عنصر تجاري نافع غريب إلى عنصر قد يكون متميِّزاً دينياً أو إثنياً ولكنه بدون وظيفة محددة . وبالتالي ، فقد أصبح اليهود مواطنين أعضاء في مؤسسات صُنع القرّار . أما في شرق أوربا ، فقد ازدادت المشكلة تفاقماً وازداد يهود اليديشية عزلة ، وخصوصاً أن أعدادهم كانت كبيرة ، وكان يكفيهم مجرد الانكفاء على الذات لتزداد مشكلتهم حدة . وفي الواقع ، فإن

الحركات الشبتانية المشيحانية كانت ، في أحد جوانبها ، تعبيراً عن رغبة عارمة في السلطة وفي الهيمنة عليها ، وفي حل هذه الإشكالية . ويتجلى ذلك بشكل حاد في مطالب فرانك وفي سلوكه حيث حاول أن يشبع هذه الرغبة (على نحو ما فعل تسفي من قبل) ، فقد طالب فرانك بمنطقة شبه مستقلة يمارس اليهود من خلالها شيئاً من السلطة ، كما أنه هو نفسه كان خليطاً من الباشا التركي والنبيل البولندي ، فكان يرتدي غطاء رأس تركياً ، ويركب مركبة يسير حولها مجموعة من الخدم المترجلين والراكبين تشبهاً بالنبلاء البولنديين . وكان التشبه بالنبلاء البولنديين أمراً شائعاً بين يهود بولندا ، بعد أن قرنوا أنفسهم بهم عشرات السنين من خلال مؤسسات الإقطاع الاستيطاني البولندي (وخصوصاً نظام الأرندا) . وربما كان النظام العسكري الذي فرضه فرانك على أتباعه تعبيراً آخر عن الرغبة في التشبه بالنبلاء البولنديين . وظهر حب السلطة في شخصية فرانك في سلوكه الدكتاتوري الكامل مع أتباعه ، ورغبته في السيطرة عليهم تماماً حتى عن طريق الجنس وغيره من الطرق ، كما أنه كان يَعدُ أتباعه بطريقة الملوك . وحينما راقته امرأة ذات مرة ، أخبرها بأن فيها شرارة ملكية . بل يُقال إن ما كان فرانك يرمي إليه من وراء حركته هو خلق قاعدة جماهيرية تشكل أساساً للقوة . وأن عملية التنصر لم تكن إلا محاولة لخلق هوية مستقلة لهذه الجماهير عن كل من اليهود والمسيحيين حتى يمثلوا قاعدة جماهيرية له .

ومع الفرانكية ، ظهرت الحسيدية في المرحلة الزمنية نفسها وفي المكان نفسه (بودوليا) جنباً إلى جنب ، وانتشرتا بين الجماهير نفسها (الفلاحين اليهود ، وأصحاب الحانات ، ومستأجري الامتيازات من يهود الأرندا ، والوعاظ المتجولين الذين لم يكونوا أعضاء في النخبة الدينية) . والواقع أن نقاط التشابه بينهما كثيرة وعميقة . فكلتاهما تنطلقان من القبَّالاه (وخصوصاً اللوريانية) كإطار فكري ، وتؤكدان أهمية التلقائية والحرية ، وتهملان دراسة التوراة والتلمود (والفرانكية تعادي التلمود) ، كما أن كلتيهما تأثرتا بالنزعة الشبتانية وبكثير من أفكارها ، واتخذتا موقفاً متحرراً جدلياً من مشكلة الخطيئة والذنب ، كما أن كلتيهما جعلت من المنفى حالة شبه نهائية على اليهود تَقبُّلها . ورغم أن الحسيدية تعبِّر عن حب عارم لفلسطين ، فإن الحسيديين لم يشجعوا الهجرة إليها قط ، بل وقفوا ضدها . أما فرانك ، فلم يكترث كثيراً لفلسطين ، وقد تضمَّن برنامجه الإصلاحي (المشيحاني) تأسيس جماعة زراعية في إحدى مناطق بولندا . وقد وقفت كل من الحركتين موقفاً معادياً من المؤسسة الحاخامية .

ولكن الفرانكية فشلت كحركة جماهيرية في حين أن الحسيدية نجحت حتى أصبحت أهم الحركات الدينية بين يهود اليديشية في شرق أوربا . ويرجع هذا إلى عدة أسباب :

١ ـ بينما قامت الفرانكية بإعلاء الخطيئة وجعلها فضيلة ، وانغمس أتباعها في الممارسات الجنسية ، قللت الحسيدية من أهمية مشكلة الخطيئة وحسب وجعلت التساديك واسطة الغفران . وقد كان موقف الفرانكية الراديكالي العدمي موقفاً متفجراً غير اجتماعي ، أما موقف الحسيديين ، فهو على العكس يساعد على الترابط التنظيمي والاجتماعي .

٢ ـ لجأت الفرانكية ، في النهاية ، إلى الكنيسة الكاثوليكية ، وكان تحديها للمؤسسة الدينية اليهودية تحدياً جذرياً رافضاً . أما الحسيدية ، فقد ظلت تعمل من داخل الجماعة اليهودية

٣ ـ جعلت الفرانكية الخلاص ممكناً من خلال شخص الماشيح ، لكن تعليق مصير الحركة على شخص واحد كان لابد أن يؤدي إلى أزمة عميقة في حالة فشل هذا الشخص أو انحرافه . وهو الأمر الذي أودى في نهاية الأمر بالفرانكية . أما الحسيدية ، فقد جعلت المشيحانية مسألة لفظية ، وفتتت النزعة المشيحانية بتوزيعها على شخصيات متعددة هم التساديك . وبالتالي لم تصل إلى مرحلة الأزمة .

٤ ـ ظل الحلم الفرانكي ، حتى النهاية ، قابلاً للتحقيق من خلال رجل باطش وشخصية كاريزمية . أما الحسيدية ، فقد ظلت دون حسم واضح محدد الحلم وإنما انعكست في عدة ممارسات تهدف إلى تخفيف حدة اغتراب اليهود وآلامهم وتأكيد أهمية الجماعة .

والواقع أن كلاً من الفرانكية والحسيدية تشبه الصهيونية من بعض الوجوه . لكن الأولى أكثر قرباً إلى الصهيونية من الثانية . فالفرانكية والصهيونية ، كلتاهما ، ترفضان التراث الديني اليهودي بشكل راديكالي ، وكلتاهما تخرقان الشريعة ولا تحترمان بها ، كما أن قضية السلطة أساسية بالنسبة إلى الفريقين . وقد انتقد فرانك فكرة أن ينتظر اليهود عودتهم إلى صهيون في آخر الأيام ، ورأى فيها فكرة سلبية تماماً ، وهو يتفق في ذلك مع الصهاينة . وكذلك ، فإن الصياغة الفرانكية لدمج اليهود كجماعة تم تطبيعها (أي تنصيرها جزئياً وتحويلها إلى شعب منتج) لا تختلف كثيراً عن التصور الصهيوني الخاص بإخلاء أوربا من يهودها ، وتجميع هؤلاء اليهود في فلسطين ، وتطبيعهم داخل إطار الدولة اليهودية التي ستندمج في المجتمع الدولي . كما أن اهتمام فرانك بالزراعة والتنظيم العسكري له ما يناظره في النظرية والممارسة الصهيونيتين .

والعدمية الفرانكية تشبه في كثير من النواحي العدمية المتغلغلة في الفكر الغربي الحديث ، ولا ندري إن كان هذا أثراً من آثار الفرانكية أم هو مجرد تماثل بنيوي . ونحن لا نستبعد أن يكون سيجموند فرويد قد تأثر بنمط تفكير فرانك . وفي الواقع ، فإن النمط الفكري لجيكوب فرانك يشبه إلى حدٍّ ما الفلسفة الأدبية السائدة الآن في الغرب باسم «التفكيكية» التي ترمي إلى هَدْم فكرة المعنى أساساً وترى أن مهمة الناقد ليست تفسير العمل الأدبي وإنما تفكيكه وإظهار افتقاره إلى المعنى . ويجب أن نشير إلى أن التقاليد السفاردية العدمية بدأت باسبينوزا وشبتاي تسفي ، ثم تبعهما في ذلك الدونمه والحركة الشبتانية ، ثم انتقلت هذه التقاليد إلى جيكوب فرانك (السفاردي) ، وأخيراً انتقلت إلى كلٍّ من جاك دريدا وإدموند جابيس .

جيكوب فرانك (١٧٢٦-١٧٩١)
Jacob Frank

جيكوب فرانك هو مؤسس الحركة الفرانكية . وُلد في بودوليا باسم جيكوب يهودا ليب لأسرة متواضعة ، وكان أبوه يعمل تاجراً ومقاولاً صغيراً . وقد درس فرانك في مدرسة دينية أولية خاصة (حيدر) . ولكن يبدو أنه لم يكن على معرفة كبيرة بالتلمود ، وكان يتباهى بجهله ، وبأنه رجل بسيط جاهل (بالبولندية : بروستاك) . ولبعض الوقت ، عمل جيكوب فرانك في بوخارست ، كتاجر ملابس وأحجار نفيسة ، كما عمل في وظائف أخرى عديدة أتاحت له أن يتنقل بين مدن البلقان التابعة للدولة العثمانية في الفترة من ١٧٤٥ إلى ١٧٥٥ .

اتصل بأتباع الحركة الشبتانية في مرحلة مبكرة من حياته ، ودرس الزوهار ، واتبع مذهب الدونمه (طائفة الباروخيا أو اليعقوبية المتطرفة) . وقد قضى فرانك مدة طويلة من حياته في الدولة العثمانية ، يتصرف كيهود السفارد ويتحدث اللادينو . وكان الإشكناز يشيرون إليه باسم «فرانك» (وهي الكلمة اليديشية التي تُطلَق على السفارد) بما كانت تحمله من إيحاءات تربط بينه وبين الشبتانية ولعل هذا يعود إلى أثر القبالاه اللوريانية ذات الأصول الإسبانية السفاردية . وقد قبل هو هذا التعريف لهويته ، وعدَّل اسمه إلى جيكوب فرانك . وفي عام ١٧٥٣ ، سافر فرانك إلى سالونيكا لأول مرة ، وتعرّف على أتباع باروخيا . وسافر إلى بعض المدن العثمانية الأخرى ، ثم عاد إلى سالونيكا عام ١٧٥٥ وبدأ يتلبس دور الماشيَّح . وكانت حلقته تطلق عليه اسم «الحاخام جيكوب» . وأعلن فرانك أن الروح التي كانت تسكن في شبتاي تسفي وباروخيا (اللذين كان يشير إليهما فرانك بكلمتي «الأول» و«الثاني») قد تقمصته ، وأنه تجسيد جديد لها .

ضُبط فرانك عام ١٧٥٦ وهو يقود إحدى الجماعات الشبتانية في طقوس ذات طابع جنسي تشبه طقوس جماعة «اليعقوبية» ، وقُبض على أتباعه ، وأطلقت السلطات سراحه ظناً منها أنه مواطن تركي . فسافر إلى تركيا ومكث فيها بعض الوقت ، واعتنق الإسلام عام ١٧٥٧ ، ولكنه كان يزور أتباعه في بودوليا سراً .

وحينما عاد فرانك علناً إلى بولندا ، اعترف به الشبتانيون (في جاليشيا وأوكرانيا والمجر) زعيماً لهم ، لكن المحكمة الدينية اليهودية (بيت دين) قررت أن ممارساته الجنسية تتعارض مع اليهودية وكل الأديان ، وطالبت الكنيسة الكاثوليكية بالحرب ضد الفرانكيين . لكن هذا أتى بنتيجة عكسية ، إذ أسقط الفرانكيون الواجهة اليهودية تماماً ، وأكدوا المعتقدات الدينية المشتركة بينهم وبين الكنيسة ، وأعلنوا أنهم معادون للتلمود ، وطلبوا حماية الكنيسة التي وافقت على ذلك على أمل أن يتنصروا بشكل جماعي . وأُجريت مناظرة علنية (١٧٥٩) بين الفرانكيين والحاخامات ، حول موضوعات مثل تهمة الدم ، وعقيدة الماشيَّح ، وهل المسيح عيسى بن مريم هو الماشيَّح الذي يرد ذكره في الكتابات الدينية اليهودية ، وقد انتهت المناظرة بتَقبُّل فرانك التعميد والتنصر ولكنه كان تنصراً على الطريقة المارانية، أي أنه أبطن معتقداته الغنوصية المتأثرة بالقبَّالاه اللوريانية والتي تطرفت في حلوليتها حتى وصلت إلى حد الفوضوية الكاملة والعدمية التامة .

وقد اكتُشف أمر فرانك وجماعته ، فقُبض عليه وأُودع السجن . وقد استمر أتباعه في تقديسه واعتبروه الماشيَّح المعذب . ثم أفرجت عنه السلطات الروسية بعد التقسيم الأول لبولندا (عام ١٧٧٢) ، ولكنها عادت وألقت القبض عليه فيما بعد . ومات فرانك عام ١٧٩٩ (ودُفن في مقابر المسيحيين) دون أن يترك وراءه أعمالاً مكتوبة ، ولكنه مع هذا ترك كتاباً بعنوان **أقوال السيد** يُعَدُّ أهم مصدر لمعرفة أفكاره . وعلى أية حال ، فإن هناك نقصاً شديداً في المادة والوثائق الخاصة بالفرانكية .

ومن المعروف أنه ، بعد وفاة فرانك ، خلفته ابنته الحسناء إيف في قيادة الجماعة ، واستمرت هي الأخرى ، مثلها مثل أبيها ، في الممارسات الجنسية الشاذة (ويبدو أنها كانت تربطها علاقة جنسية به» فالجماع بالمحارم هو قمة العدمية الفلسفية والرفض الكامل لأية حدود أو مُطلَقات) . أما أتباعه المتنصرون ، فقد استمروا في التزاوج

فيما بينهم بعض الوقت ، وأصبح بعضهم من كبار النبلاء البولنديين ، كما انخرط كثير من أبنائهم في سلك حركة التنوير اليهودية وفي الحركات الليبرالية والماسونية ، وكان من بينهم بعض رجالات الثورة الفرنسية (وخصوصاً اليعاقبة منهم) . وهذا ولا شك ترجمة لمفهوم عبء الصمت حيث ينخرط الفرانكي في عدة ديانات ومؤسسات بهدف تقويضها من الداخل ثم نبذها بعد ذلك .

موسى دوبروشكا (١٧٥٣-١٧٩٤)

Moses Dobrushka

يهودي من أتباع الحركة الفرانكية . وُلد في الإمبراطورية النمساوية في أسرة ثرية من ملتزمي الضرائب والمتعهدين العسكريين ممن كانوا متحكمين في تجارة التبغ إبان حكم الإمبراطورة ماريا تريزا . ونظراً لأن أمه هي ابنة عم جيكوب فرانك مؤسس الحركة الفرانكية ، فإن بيتها في برونو كان مكاناً يلتقي فيه أتباع الحركة . وقد استقر فرانك نفسه في هذه المدينة التي كان يقع فيها هذا المنزل لمدة ثلاثة عشر عاماً (١٧٧٣ ـ ١٧٨٦) بعد أن خرج من السجن .

تلقى دوبروشكا تعليماً تلمودياً تقليدياً ، كما درس الأفكار الشبتانية بالإضافة إلى دراسة الأدب الألماني وبعض اللغات الأجنبية في مرحلة مبكرة من حياته . وفي عام ١٧٧٣ ، تزوج من ابنة واحد من أثرياء براغ . وقد دخل دوبروشكا مجال الأعمال المالية حينما كانت النمسا تُعد للحرب ضد الأتراك ، وجمع ثروة كبيرة باعتباره المتعهد العسكري الأساسي . وقد منحه الإمبراطور جوزيف الثاني لقب «نبيل» . وسمَّى دوبروشكا نفسه فرانز توماس أدلر فون شونفلد ، واستقر في فيينا في أواخر الثمانينيات من القرن الثامن عشر حيث عاش حياة الأثرياء ، وكانت له حلقة كبيرة من المعارف من أعضاء الطبقة الثرية والحاكمة ، كما كانت له صلات واسعة مع كبار الكتَّاب الألمان . وقد رُشح دوبروشكا ليخلف فرانك في رئاسة الحركة الفرانكية ولكنه رفض ذلك .

كتب دوبروشكا عدة مؤلفات ذات اتجاه تنويري ، كما انخرط في صفوف الحركة الماسونية وأدخل عليها عناصر من القبَّالاه ذات طابع شبتاني . وقد كان دوبروشكا (أو شونفلد) معجباً بمبادئ الثورة الفرنسية (كان هناك عدد كبير من الشبتانيين والفرانكيين والماسونيين من مؤيديها) ، وأصبحت حياته مرتبطة بها تماماً منذ بداية التسعينيات .

وصل دوبروشكا إلى ستراسبورج في مارس ١٧٩٢ ، وغيَّر اسمه إلى جونيوس جوليوس فراي ، ثم انتقل إلى باريس في يونيه من العام نفسه وانضم إلى نادي اليعاقبة فيها ، واشترك في اقتحام قصر التويلري . وكتب مؤلفاً فلسفياً سياسياً عنوانه **الفلسفة الاجتماعية : إلى الشعب الفرنسي** . والكتاب دفاع حار عن اليعاقبة وهجوم شديد على موسى والشريعة الموسوية .

وفي يناير ١٧٩٣ ، تعرَّف دوبروشكا على واحد من أهم المحرضين اليعاقبة يُدعى فرانسوا شابو الذي تزوج من أخت دوبروشكا في أكتوبر من ذلك العام . ولكن دوبروشكا اتُّهم بعد ذلك بأنه عميل نمساوي كما اتُّهم بالفساد الخلقي حيث كان متورطاً في جريمة مالية ، فأُلقي القبض عليه هو وشابو ، وحُكم عليه بالإعدام ونُفِّذ فيه الحكم في أبريل ١٧٩٤ (مع دانتون) . وبعد إعدامه ، انتشرت شائعة مفادها أن دوبروشكا ذهب في مهمة سرية لتحرير الملكة ماري أنطوانيت من معتقلها .

ولقد كانت حياة موسى دوبروشكا حياة فريدة ، ولكنها كانت مع هذا ذات دلالة عامة وعميقة . فهو نتاج أزمة اليهودية الحاخامية وتآكلها : تبنَّى الرؤية الفرانكية ، ثم التحق بحركة الماسونية . وكتب دراسات تنويرية يهودية ، وانخرط في عبادة العقل التي مورست بشكل حرفي إبَّان الثورة الفرنسية . ولعل العنصر المشترك في كل هذا هو رفضه الواقع رفضاً كاملاً . وكذلك رفض التصالح معه ، ومحاولة التحكم فيه والسيطرة عليه ، سواء من خلال الصيغ السحرية أو من خلال العقل ، الأمر الذي يدل على وجود العنصر الحلولي الغنوصي في فكره .

الجزء الثالث

الفرق الدينية اليهودية

١
الفرق الدينية اليهودية (حتى القرن الأول الميلادي)

الفرق الدينية اليهودية ـ الخلافات الدينية اليهودية ـ أزمة اليهودية ـ السامريون ـ جريزيم ـ الفريسيون ـ الصدوقيون ـ الغيورون (قنائيم) ـ الأسينيون ـ عصبة حملة الخناجر ـ الفقراء (الإبيونيون) ـ المغارية ـ المعالجون (ثيرابيوتاي) ـ المستحمون في الصباح (هيميروبابتست) ـ عبدة الإله الواحد (هبسستريون) ـ البناءون (بنائيم)

الفرق الدينية اليهودية

Jewish Religious Sects

توجد في اليهودية فرق كثيرة تختلف الواحدة منها عن الأخرى اختلافات جوهرية وعميقة تمتد إلى العقائد والأصول ، فهي في الواقع ليست كالاختلافات التي توجد بين الفرق المختلفة في الديانات التوحيدية الأخرى . ومن ثم ، فإن كلمة «فرقة» لا تحمل في اليهودية الدلالة نفسها التي تحملها في سياق ديني آخر . فلا يمكن، على سبيل المثال ، تصوُّر مسلم يرفض النطق بالشهادتين ويُعترَف به مسلماً ، أو مسيحي يرفض الإيمان بحادثة الصلب والقيام ويُعترَف به مسيحياً . أما داخل اليهودية ، فيمكن ألا يؤمن اليهودي بالإله ولا بالغيب ولا باليوم الآخر ويُعتبر مع هذا يهودياً حتى من منظور اليهودية نفسها . وهذا يرجع إلى طبيعة اليهودية بوصفها تركيباً جيولوجياً تراكمياً يضم عناصر عديدة متناقضة متعايشة دون تمازج أو انصهار . ولذا ، تجد كل فرقة جديدة داخل هذا التركيب من الآراء والحجج والسوابق ما يضفي شرعية على موقفها مهما يكن تطرفه . وأولى الفرق اليهودية التي أدَّت إلى انقسام اليهودية فرقة السامريين التي ظلت أقلية معزولة بسبب قوة السلطة الدينية المركزية المتمثلة في الهيكل ثم السنهدرين .

ولكن ، مع القرن الثاني قبل الميلاد ، خاضت اليهودية أزمتها الحقيقية الأولى بسبب المواجهة مع الحضارة الهيلينية . فظهر الصدوقيون والفريسيون ، والغيورون الذين كانوا يُعَدون جناحاً متطرفاً من الفريسيين ، ثم الأسينيون . ومما يجدر ذكره أن الصدوقيين كانوا ينكرون البعث واليوم الآخر ، ومع هذا كانوا يجلسون في السنهدرين ، جنباً إلى جنب مع الفريسيين ، ويشكلون قيادة اليهود الكهنوتية . وقد حققت هذه الفرق ذيوعاً ، وأدَّت إلى انقسام اليهودية . ولكنها اختفت لسببين : أولهما انتهاء العبادة القربانية بعد هدم الهيكل ، ثم ظهور المسيحية التي حلت أزمة اليهودية في مواجهتها مع الهيلينية إذ طرحت رؤية جديدة للعهد يضم اليهود وغير اليهود ويحرر اليهود من نير التحريمات العديدة ومن جفاف العبادة القربانية وشكليتها .

وجابهت اليهودية أزمتها الكبرى الثانية حين تمت المواجهة مع الفكر الديني الإسلامي . فظهرت اليهودية القرائية كنوع من رد الفعل ، فرفضت الشريعة الشفوية وطرحت منهجاً للتفسير يعتمد على القياس والعقل ، أي أنها انشقت عن اليهودية الحاخامية تماماً . ويمكن أن نضيف إلى الفرق اليهودية يهود الفلاشاه ويهود الهند الذين لا يشكلون فرقاً بالمعنى الدقيق ، فهم لم ينشقوا عن اليهودية الحاخامية بقدر ما انعزلوا عنها عبر التاريخ وتطوروا بشكل مستقل ومختلف ، فهم لا يعرفون التلمود أو العبرية ، كما أن كتبهم المقدسة مكتوبة باللغات المحلية . وتجدر ملاحظة أن ثمة فرقاً صغيرة ، مثل الإبيونيين والمغارية والعيسوية والثيرابيوتاي وغيرها ، وهي فرق صغيرة لكل منها تصوُّرها الخاص عن اليهودية . ولكنها ، نظراً لعزلتها ، لم تؤثر كثيراً في مسار اليهودية وقد اختفى معظمها من الوجود . أما القرّاءون ، فإنهم بعد عصرهم الذهبي في القرن العاشر ، سقطوا في حرفية التفسير ، الأمر الذي قلَّص نفوذهم حتى تحولوا إلى فرقة صغيرة آخذة في الاختفاء .

وقد جابهت اليهودية أزمتها الكبرى الثالثة في العصر الحديث (في الغرب) مع الانقلاب التجاري الرأسمالي الصناعي . وقد ظهرت إرهاصات الأزمة في شكل ثورة شبتاي تسفي على المؤسسة الحاخامية ، فهو لم يهاجم التلمود وحسب ، وإنما أبطل الشريعة نفسها ، وأباح كل شيء لأتباعه ، الأمر الذي يدل على أن تراث القبَّالاء الحلولي ، الذي يعادل بين الإله والإنسان ، كان قد هيمن على الوجدان الديني اليهودي ، وقد وصف الحاخامات تصور القبَّاليين للإله بأنه شرك .

وبعد أن أسلم شبتاي تسفي ، هو وأتباعه الذين أصبحوا

يعرفون بـ «الدوغه» ، ظهر جيكوب فرانك الذي اعتنق المسيحية (هو وأتباعه) وحاول تطوير اليهودية من خلال أطر مسيحية كاثوليكية . وقد تفاقمت الأزمة واحتدمت مع الثورة الفرنسية ، حيث إن الدولة القومية الحديثة في الغرب منحت اليهود حقوقهم السياسية ، وطلبت إليهم الانتماء السياسي الكامل ، الأمر الذي كان يعني ضرورة تحديث اليهود واليهودية وما تسبب عن ذلك من أزمة أدَّت إلى تصدعات جعلت أتباع اليهودية الحاخامية التقليدية (أي اليهود الأرثوذكس) أقلية صغيرة . إذ ظهرت اليهودية الإصلاحية ثم المحافظة ثم التجديدية . وهي فرق أعادت تفسير الشريعة أو أهملتها تماماً ، واعترفت بالتلمود أو وجدت أنه مجرد كتاب مهم دون أن يكون مُلزماً . كما أنها عَدَّلت معظم الشعائر ، مثل شعائر السبت والطعام ، وأسقطت بعضها ، وعَدَّلت أيضاً كتب الصلوات وشكل الصلاة ، أي أن فهمها لليهودية وممارستها لها يختلف بشكل جوهري عن اليهودية الحاخامية الأرثوذكسية . ومن الواضح أن هذه الفرق الجديدة هي الآخذة في الانتشار ، في حين أن الأرثوذكس يعانون من الانحسار التدريجي .

ومنذ أيام الفيلسوف إسبينوزا ، ظهر نوع جديد من اليهود لا يمكن أن نقول إنه فرقة ولكن لابد من تصنيفه حيث يشكل الأغلبية العظمى من يهود العالم (نحو ٥٠٪) . وهذا النوع من اليهود هو الذي يترك عقيدته اليهودية ، ولكنه لا يتبنى عقيدة جديدة ، وهو لا يؤمن عادةً بإله على الإطلاق . وإن آمن بعقيدة ما فهو يؤمن بشكل من أشكال الدين الطبيعي أو دين العقل أو دين القلب ، ولا يمارس أية طقوس . وهؤلاء يُطلَق عليهم الآن اسم «اليهود الإثنيون» ، أي أنهم لا ينتمون إلى أية فرقة دينية تقليدية أو حديثة ، ولكنهم مع هذا يسمون أنفسهم يهوداً لأنهم ولدوا لأم يهودية ! وتنعكس الخلافات بين الفرق اليهودية المختلفة على الدولة الصهيونية الأمر الذي يزيد صعوبة تعريف الهوية اليهودية .

الخلافات الدينية اليهودية

Jewish Religious Controversies

الخلاف الديني هو خلاف غير جوهري لا يمتد إلى العقائد الدينية الأساسية ، ويختلف عن الصراع بين الفرق الدينية ، وهو ما تناولناه في مدخل آخر . وقد ظهرت عبر تاريخ اليهودية خلافات عديدة ، بعضها عميق وبعضها سطحي . وأول هذه الخلافات ، ما ورد في سفر العدد ، عن قورح بن يصهار وأتباعه ، حين اجتمعوا على موسى وهارون ، أنهم قالوا لهما : « كفاكما ، إن كل الجماعة بأسرها مقدَّسة وفي وسطها الرب . فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب » (عدد ١٦/ ٢ ـ ٣) . وقد انتهى الأمر بأن ابتلعت الأرض قورح وصحبه . ويبدو أن القصة تعبير عن رغبة الملوك في تعزيز نفوذ طبقة الكهنة التي كانت تشاركهم في إدارة دفة الحكم .

ولعل الخلاف الثاني في تاريخ اليهودية هو هجوم الأنبياء على الكهنة ، وعلى الجوانب السلبية في مؤسسة الملكية . ومن هنا ، كان الأنبياء ، أمثال عاموس وإرميا ، يُسجَنون ويُعذَّبون بل كانوا يعدمون .

ثم ظهر الخلاف مرة أخرى ، في القرن الثاني قبل الميلاد ، في شكل صراع بين الفريسيين والصدوقيين ، ولكن من الواضح أنه لم يكن خلافاً دينياً وحسب وإنما كان اختلافاً في العقائد يجعل من كل فريق فرقة دينية مستقلة ، على عكس الخلاف بين الفريسيين والغيورين ، ذلك الاختلاف الذي كان أمراً يتعلق بالتفاصيل والأولويات والأصول . وقد أثارت كتابات موسى بن ميمون الكثير من الخلافات المريرة حتى أنه اتُّهم بالهرطقة .

ومن أهم الخلافات ، ما يُسمَّى «المناظرة الشبتانية الكبرى» بين يعقوب إمدن وجوناثان إيبشويتس بشأن الأحجبة التي كان يكتبها الأخير . وفي العصر الحديث ، ظهر خلاف بين الحسيديين وأعدائهم من المتنجديم (الحاخاميين) انتهى بظهور حركة التنوير .

ولا تزال الخلافات مستمرة في العصر الحديث ، فهناك الخلاف بين اليهود الأرثوذكس أتباع أجودات إسرائيل الذين يؤيدون الصهيونية والأرثوذكس الذين يرفضونها تماماً . ويوجد داخل إسرائيل صراع بين اليهود الأرثوذكس الذين يشجعون الاستيطان على أسس دينية وأولئك الذين يعارضونه على أسس دينية أيضاً .

أزمة اليهودية

Crisis of Judaism

عاشت اليهودية في كنف عدة حضارات تأثرت بها وشكَّل بعضها تحدياً لها ولقيمها . فقد تحركت اليهودية (أو العبادة اليسرائيلية إن توخينا الدقة) داخل التشكيلات الحضارية المختلفة في الشرق الأدنى القديم وتأثرت بها وتبنَّت رموزها وقيمها . ومن الواضح مثلاً أن العبرانيين استوعبوا فكرة التوحيد من المصريين القدماء . ثم حَدَث التغلغل العبراني في كنعان وحدثت المواجهة الأولى مع الحضارة الكنعانية وحدثت المواجهة الثانية مع الحضارة البابلية . وقد أدَّت هذه المواجهات إلى أن النسق الديني السائد بين العبرانيين قد استوعب الكثير من العناصر الدينية والثقافية من هاتين

الحضارتين (ثم من الحضارة الفارسية) وهو ما أدّى إلى تزايد تركيبها الجيولوجي التراكمي . ولكن المواجهات الثالثة والرابعة والخامسة ، مع الحضارة الهيلينية والإسلامية ثم المسيحية على التوالي ، كانت أكثر حدة ، وأدّت إلى ما يشبه الأزمة في حالة المواجهة مع الحضارة الهيلينية إذ دخل كثير من الأفكار اليونانية على النسق الديني اليهودي . وتأغرقت النخبة ، وأدّى هذا إلى التمرد الحشموني في نهاية الأمر وإلى انتشار المسيحية وتنصُّر أعداد كبيرة من أعضاء الجماعات . أما المواجهة مع الإسلام والمسيحية فقد أدّت إلى تطوير التلمود الذي كان بمنزلة السياج الذي فرضه الحاخامات على أعضاء الجماعات ليحموا هويتهم الدينية والإثنية . وكان الاحتجاج القرائي تعبيراً عن واحدة من أهم أزمات اليهودية الحاخامية .

ولكن مصطلح «أزمة اليهودية» حينما يُستخدَم في هذه الموسوعة ، وفي غيرها من الدراسات ، فإنه يشير في العادة إلى الأزمة التي دخلتها اليهودية الحاخامية ابتداءً من القرن السابع عشر نتيجة الجمود الذي أصاب المؤسسة الحاخامية ، حتى تحولت العقيدة اليهودية إلى مجموعة من الشعائر والعقائد الخارجية . ونتيجةً لذلك ، ازدهر التراث القبَّالي ، وخصوصاً القبَّالاه اللوريانية ، لحل مشكلة المعنى ، ولتزويد اليهودي بنسق ديني يستجيب لحاجاته العاطفية والإنسانية . وقد أدّى هذا الوضع إلى ضرب عزلة على الجماهير اليهودية عما حولها من تحولات ، كما زاد من الهوة التي تفصل بينهم وبين المؤسسة الحاخامية . وكانت حركة شبتاي تسفي أول تعبير عن هذه الأزمة من داخل المؤسسة ، وفلسفة إسبينوزا من خارجها ، وكلاهما طرح حلاً حلولياً للأزمة ، فرأى الأول الطبيعة في الإله ، ورأى الآخر الإله في الطبيعة . وبعد هاتين الهجمتين لم تفق اليهودية الحاخامية وانزوت على نفسها وزاد تغلغل الفكر القبَّالي ، وانتشرت الحركات الشبتانية (مثل الفرانكية) ، وانتشرت الحركة الحسيدية بحيث ضمت معظم جماهير يهود اليديشية في شرق أوربا (أي الكتلة البشرية اليهودية الكبرى) . وظل الصراع بين الحسيديين والمتنجديم (ممثلاً بالمؤسسة الحاخامية) قائماً إلى أن أفاق الطرفان ليواجها اندلاع أهم تعبير عن الثورة العلمانية الكبرى والفكر العقلاني ، أي الثورة الفرنسية وحركة الإعتاق ، وحدثت المواجهة السادسة مع الحضارة العلمانية في الغرب . ومنذ تلك اللحظة التاريخية ، اتضحت معالم الأزمة تماماً ، إذ انتشر فكر حركة الاستنارة وأخذ اليهود يحاولون إعادة صياغة اليهودية على نمط العالم الغربي المسيحي العلماني ، فظهرت حركة التنوير التي وَجَّهت نقداً قاسياً للفقه اليهودي ولما يُسمَّى «الشخصية اليهودية» . وظهرت حركة اليهودية الإصلاحية والمحافظة والحركات الثورية المختلفة . وتصاعدت معدلات التنصر والاندماج والعلمنة والإلحاد بين اليهود بحيث أصبح اليهود الأرثوذكس (الحاخاميون) ، أي اليهود الذين يمكن اعتبارهم يهوداً بمقاييس دينية يهودية ، لا يشكلون سوى نحو ٥ ـ ١٠٪ من يهود العالم . ومما أدى إلى تفاقم الأزمة أن اليهود الذين تركوا العقيدة اليهودية أصروا على الاستمرار في تسمية أنفسهم «يهوداً» .

وقد حاولت الصهيونية حل أزمة اليهودية بالعودة إلى النموذج الحلولي (ولكنها حلولية بدون إله) إذ جعلت الدولة الصهيونية موضع القداسة (بدلاً من الإله) بالنسبة إلى العلمانيين ، أو باعتبارها أهم تجلٍّ لهذه القداسة الإلهية بالنسبة إلى المتدينين الذين تمت صهينتهم . ويرى اليهود الأرثوذكس المعادون للصهيونية أن الصهيونية ، بهذا المعنى ، ليست حلاً لأزمة اليهودية وإنما هي تعبير عنها . بل إنها تشكل الآن مصدر الأزمة وأكبر خطر يواجه اليهودية . فالصهيونية قد تبنت المصطلح الديني ، وتطرح نفسها بوصفها نظاماً كلياً شاملاً شبه ديني ، يحل محل العقيدة اليهودية باعتبارها رؤية للكون ومصدراً للمعنى ومنظماً للسلوك .

السامريون

Samaritans

«السامريون» صيغة جمع عربية ، وهي كلمة معربة من كلمة «شومرونيم» العبرية ، أي سكان السامرة . ويشار إليهم في التلمود بلفظة «كوتيم» وتعني «الغرباء» . لكن هذه التسميات هي تسميات اليهود الحاخاميين لهم . وكان يوسيفوس يسميهم «الشكيميين» نسبةً إلى «شكيم» (نابلس الحالية) . أما هم فيطلقون على أنفسهم «بنو يسرائيل» ، أو «بنو يوسف» ، باعتبار أنهم من نسل يوسف . كما يطلقون على أنفسهم اسم «شومريم» ، أي «حفظة الشريعة» ، باعتبار أنهم انحدروا من صلب يهود السامرة الذين لم يرحلوا عن فلسطين عند تدمير المملكة الشمالية عام ٧٢٢ ق.م ، فاحتفظوا بنقاء الشريعة .

ومهما كانت التسمية ، ومهما كان تفسيرها ، فمن المعروف تاريخياً أنه ، بعد تهجير قطاعات كبيرة من سكان المملكة الشمالية ، قام الآشوريون بتوطين قبائل من بلاد عيلام وسوريا وبلاد العرب لتحل محل المهجرين من اليهود ، وتسكينهم في السامرة وحولها . وامتزج المستوطنون الجدد مع من تبقَّى من اليهود ، واتحدت معتقداتهم الدينية مع عبادة يهوه . وقد نتج عن ذلك اختلاف عن

بقية اليهود . ولكن الانشقاق النهائي حدث عام ٤٣٢ ق . م ، بين اليهود والسامريين ، بعد عودة عزرا ونحميا من بابل ، حيث دافعا عن فكرة النقاء العرقي .

وثمة قصتان لتاريخ الانشقاق ، أولاهما ترد في العهد القديم (نحميا ١٣/ ٢٣ ـ ٢٨) "في تلك الأيام ، كان واحد من بني يوياداع بن ألياشيب الكاهن العظيم صهراً لسنبلط الحوروني فطردته من عندي" . وقد وردت عن يوسيفوس رواية أخرى مفادها أن منَسَّى شقيق الكاهن الأعظم تزوج من ابنة حاكم السامرة سنبلط الثالث (الفارسي) ، فخيَّره الكهنة بين أن يطلق زوجته أو أن يتخلى عن مكانته وسلطاته الكهنوتية . فلجأ منَسَّى لحميه الذي بنى لزوج ابنته هيكلاً على عادة العبرانيين القدامى على جبل جريزيم لينافس هيكل القدس ، وأصبح الشاب المطرود كاهن السامريين . وبعد أن أسس الهيكل ، انضم إليه عشرات الكهنة الآخرين المتزوجين من أجنبيات وعناصر يهودية أخرى غير راضية عن المؤسسة الدينية في القدس .

ومن الواضح أن ثمة عناصر مشتركة بين القصتين تتمثل في بعض الأسماء والعلاقات الأساسية وفي عملية الطرد . ومع أن هناك قرناً من الزمان يفصل بين القصتين الأولى والثانية ، فإن من الواضح أنهما تشيران إلى الواقعة نفسها . ويحل المؤرخون هذه القضية بأن يأخذوا بقصة يوسيفوس ويرجعوا بتاريخها إلى زمن نحميا .

وقد نشبت صراعات بين السامريين وبقية اليهود ، لكنهم تعرضوا لكثير من التوترات التي تعرَّض لها اليهود في علاقتهم بالإمبراطوريات التي حكمت المنطقة . فبعد أن فتح الإسكندر المنطقة عام ٣٢٣ ق . م ، هاجر بعض السامريين إلى مصر وكونوا جماعات فيها . وهذه هي بداية الشتات السامري أو الدياسبورا السامرية التي امتدت وشملت سالونيكا وروما وحلب ودمشق وغزة وعسقلان .

وحينما قرر أنطيوخوس الرابع (١٧٥ ـ ١٦٤ ق . م) دَمْج يهود فلسطين في إمبراطوريته لتأمين حدوده مع مصر ، كان السامريون ضمن الجماعات التي استهدف دمجها وإذابتها رغم أنهم أعلنوا أنهم لا ينتمون إلى الأصل اليهودي . وحينما استولى الحشمونيون على الحكم (١٦٤ ق . م) ، واجه السامريون أصعب أزمة في تاريخهم إذ سيطر الحشمونيون على شكيم وجريزيم ، واستولوا على مدينة السامرة وحطموها . وقد حطم يوحنا هيركانوس هيكلهم عام ١٢٨ ق . م . ومع هذا ، فقد استمر السامريون في تقديم قرابينهم على جبل جريزيم . كما أن هَدْم الهيكل لم ينتج عنه انتهاء طبقة الكهنة على عكس اليهود أو اليسرائيليين الذين انتهت عبادتهم القربانية المركزية وطبقة الكهنة التي تقوم بها بهدم هيكل القدس .

ويبدو أن السامريين لم يساعدوا اليهود أثناء التمرد اليهودي الأول ، ومع هذا نشب تمرُّد مستقل في صفوفهم ضد فسبسيان عام ٦٧ ق . م ، وتم قمعه . كما ثار السامريون ضد الرومان عام ٧٩ ـ ٨١ م ، فهُدمت شكيم وبُني مكانها نيابوليس (نابلس) أي «المدينة الجديدة» .

وتمتع السامريون بمرحلة ازدهار فكري في القرن الرابع الميلادي تحت قيادة زعيمهم القومي بابا رابا . ومن أهم مفكريهم الدينيين مرقه الذي عاش في القرن نفسه ، وكاتب الأناشيد التي تُسمَّى «إمرالم دارا» .

وقد عانى السامريون من الاضطهاد على يد الإمبراطورية البيزنطية . وفي عام ٥٢٩ الميلادي ، قام جوستينيان بشن هجمة شرسة عليهم لم تقم لهم قائمة بعدها . ويُقال إن الرومان سمحوا للسامريين ببناء هيكلهم الذي دمره الحشمونيون حينما رفضوا الانضمام إلى ثورة بركوخبا . ولكن هذا الهيكل دُمِّر بدوره عام ٤٨٤م . وقد ساعد السامريون المسلمين إبان الفتح الإسلامي ، كما وقفوا مع المسلمين ضد الغزو الصليبي . وقد أفتى فقهاء المسلمين حينذاك بأن من يُقتَل من أهل الذمة في هذه الحرب فهو شهيد .

وثمة نقط اتفاق بين السامريين واليهود الحاخاميين قبل ظهور القبَّالاه وحركات الإصلاح الديني اليهودي ، فكلا الفريقين يؤمن بالله الواحد وباليوم الآخر والملائكة . ولكن السامريين احتفظوا بقدر أكبر من الوحدانية التي تراجعت في اليهودية إلى أن اختفت تماماً تقريباً . وقد تبنوا الجزء الأول من الشهادة الإسلامية وهو « لا إله إلا الله » ، وكانوا يشيرون إلى الخالق بلفظة «إل» ، أو «ألّا» القريبة من كلمة «الله» ، ولكنهم كانوا أيضاً يسمونه «يهوه» . كما كانوا يؤمنون بأن موسى نبي الله الأوحد وخاتم رسله وبأنه تجسيد للنور الإلهي والصورة الإلهية .

والكتاب المقدَّس عند السامريين هو أسفار موسى الخمسة ، ويُضاف إليها أحياناً سفر يشوع بن نون . وهو ، في عقيدتهم ، منزل من عند الله . وهم لا يعترفون بأنبياء اليهود ولا بكتب العهد القديم . بل إن أسفار موسى الخمسة المتداولة بينهم تختلف عن الأسفار المدونة في نحو ستة آلاف موضع (ويتفق نص التوراة السامرية مع الترجمة السبعينية في ألف وتسعمائة موضع من هذه المواضع ، الأمر الذي يدل على أن مترجمي الترجمة السبعينية استخدموا نسخة عبرية تتفق مع النسخة السامرية) . وهم ينكرون الشريعة الشفوية ، شأنهم في ذلك

شأن الصدوقيين والقرّائين (ومن هنا التشابه بين الفرق الثلاث في بعض الوجوه). كما أنهم يأخذون بظاهر نصوص التوراة .

ولغة العبادة عند السامريين هي العبرية السامرية ، ولكن لغة الحديث ولغة الأدبيات الدينية كانت العربية . وكان كتابهم المقدَّس يُكتَب بحروف عبرية قديمة . ويزعم السامريون أن اللغة والحروف جاءتهم صحيحة من عهد النبي موسى .

ويحتفل السامريون بالأعياد اليهودية ، مثل يوم الغفران وعيد الفصح ، ولكنهم كانت لهم أعياد مقصورة عليهم وتقويم خاص بهم. والسامريون يؤمنون بعودة الماشيَّح برغم أنه لا توجد في أسفار موسى الخمسة أية إشارة إليه . وهم لا يعترفون بداود أو سليمان ولا يعترفون بقدسية جبل صهيون ، فلهم جبلهم المقدَّس جريزيم (الجبل المختار) الذي سيعود إليه الماشيَّح . ويُلاحَظ أن الأفكار الأخروية لم تلعب دوراً مهماً في التفكير الديني لدى السامريين ، كما حدث مع اليهودية بعد العودة من بابل . وينفي بعض اليهود عن السامريين صفة الانتساب إلى اليهودية ، كما أنهم يعاملونهم معاملة الأغيار في أمور الزواج والموت .

وقد استمر العداء بين السامريين واليهود الحاخاميين ، إذ يذهب السامريون إلى أن اليهودية الحاخامية هرطقة وانحراف ، وأن قيادة اليهود الدينية أضافت إلى التوراة وأفسدت النص ليتفق مع وجهة نظرها .

ويُعَدُّ السامريون جماعة شبه منقرضة . وهم ، في واقع الأمر، أصغر جماعة دينية في العالم ، فعددهم لا يتجاوز خمسمائة، يعيش بعضهم في نابلس ويعيش البعض الآخر في حولون (إحدى ضواحي تل أبيب) . وفي بعض طبعات التلمود ، تحل كلمة «السامريين» محل كلمة «الأغيار» حتى تبدو عبارات السباب العنصري وكأنها موجهة إلى السامريين وحدهم وليس إلى كل الأغيار .

جريزيم

Gerizim

«جريزيم» جبل صخري يطل على الوادي الذي تقع فيه شكيم (نابلس فيما بعد) . ويواجه جبل عيبال على ارتفاع ٢٨٤٩ قدماً فوق سطح البحر ، و٧٠٠ قدم فوق مدينة نابلس . وقد بُني فوق جريزيم أقدم هيكل للعبرانيين ، ثم جاء داود فأبطله وعطله بعد أن نقل عاصمته إلى القدس .

وقد جاء في العهد القديم أنه حينما فتح العبرانيون الجزء الأوسط من فلسطين ، نفذ يشوع التوجيه الذي أعطاه إياه موسى حسب الرواية التوراتية ، وأوقف نصف القبائل العبرانية على جبل جريزيم لينطقوا بالبركات ، وأوقف النصف الآخر إلى جهة جبل عيبال لينطقوا باللعنات (تثنية ١١/ ٢٩ ، ٢٧/ ١١-١٣ ، ويشوع ٨/ ٣٣-٣٥) .

ويرى السامريون أن الموضع الذي وقف فيه إبراهيم بابنه ، ليذبحه ، كان على هذا الجبل . وجريزيم جبل مقدَّس عند السامريين؛ بنوا فوقه هيكلهم ليحجوا إليه ، واستمروا في تقديم القرابين عليه حتى بعد أن هدم يوحنا هيركانوس هيكلهم عام ١٢٨ ق.م . وقد أعادوا بناءه إلى أن هدمه الرومان في النهاية عام ٦٧ ق.م .

الفريسيون

Pharisees

كلمة «فريسيون» مأخوذة من الكلمة العبرية «بيروشيم» ، أي «المنعزلون» . وكانوا يلقبون أيضاً بلقب «حبيريم» ، أي «الرفاق أو الزملاء» ، وهم أيضاً «الكتبة» ، أو على الأقل قسم منهم ، من أتباع شماي الذين يشير إليهم المسيح عليه السلام . والفريسيون فرقة دينية وحزب سياسي ظهر نتيجة الهبوط التدريجي لمكانة الكهنوت اليهودي بتأثير الحضارة الهيلينية التي تُعلي من شأن الحكيم على حساب الكاهن . ويُرجع التراث اليهودي جذورهم إلى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد ، بل يُقال إنهم خلفاء الحسيديين (المتقين) ، وهي فرقة اشتركت في التمرد الحشموني . ولكن الفريسيين ظهروا باسمهم الذي يُعرَفون به في عهد يوحنا هيركانوس الأول (١٣٥ - ١٠٤ ق.م) ، وانقسموا فيما بعد إلى قسمين : بيت شماي وبيت هليل . وقد كان الفريسيون يشكلون أكبر حزب سياسي ديني في ذلك الوقت إذ بلغ عددهم حسب يوسيفوس نحو ستة آلاف ، لكن هذا العدد قد يكون مبالغاً فيه نظراً لتحزبه لهم ، بل لعله كان من أتباعهم . ويُقال إنهم كانوا يشكلون أغلبية داخل السنهدرين ، أو كانوا على الأقل أقلية كبيرة .

ومن المعروف أنه حينما عاد اليهود من بابل ، هيمن الكهنة عليهم وعلى مؤسساتهم الدينية والدنيوية ، تلك المؤسسات التي عبَّر عن مصالحها فريق الصدوقيين . ولكن اليهودية كان قد دخلتها في بابل أفكار جديدة ، كما أن وضع اليهود نفسه كان آخذاً في التغير ، إذ أن حلم السيادة القومية لم يَعُد له أي أساس في الواقع ، بعد التجارب القومية المتكررة الفاشلة ، وبعد ظهور الإمبراطوريات

الكبرى ، الواحدة تلو الأخرى . وقد زاد عدد اليهود المنتشرين خارج فلسطين ، وخصوصاً في بابل (ويقول فلافيوس إن عدد يهود فلسطين آنذاك كان نصف مليون وحسب ، وإن كانت التقديرات التخمينية ترى أن عددهم يقع بين المليونين والمليون ونصف المليون ، وهم أقلية بالنسبة ليهود العالم آنذاك) . ولكل ذلك ، نشأت الحاجة إلى صيغة جديدة تعبِّر عن الوضع الجديد . ومن هنا ، ظهر الفريسيون الذين لم يكونوا من عامة الشعب (عم هاآرتس) ، بل كان بعضهم من الأثرياء ، وإن كانوا على العموم يتسمون بأنهم يعيشون من عملهم ، فكان منهم الحرفيون والتجار ، على عكس الصدوقيين الذين كانوا يشكلون طبقة كهنوتية أرستقراطية مرتبطة بالهيكل وتعيش من ريعه . ولذا ، فرغم تميز الفريسيين طبقياً ، ورغم تعصبهم للشريعة ، وربما بسببه ، فإنهم كانوا يلقون تأييد الجماهير .

ويُعَدُّ الفكر الفريسي أهم تطوُّر في اليهودية بعد تبنِّي عبادة يهوه . وقد كان جوهر برنامجهم يتلخص في إيمانهم بأنه يمكن عبادة الخالق في أي مكان ، وليس بالضرورة في الهيكل في القدس ، أي أنهم حاولوا تحرير اليهودية ، كنسق أخلاقي ديني ، من حلوليتها الوثنية المتمثلة في عبودية المكان والارتباط بالهيكل وعبادته القربانية . ووسعوا نطاقها بحيث أصبحت تغطي كل جوانب الحياة إذ أن واجب اليهودي لا يتحدد في العودة إلى أرض الميعاد وإنما في العيش حسب التوراة ، وعلى اليهودي أن ينتظر إلى أن يقرر الخالق العودة . وبهذا ، يكون الفريسيون هم الذين توصلوا إلى صيغة اليهودية الحاخامية أو اليهودية المعيارية التي انتصرت على الاتجاهات والمدارس الدينية الأخرى .

وقد دافع الفريسيون عن الهوية اليهودية دون عنف أو تعصُّب . والهوية اليهودية التي دافعوا عنها لم تكن الهوية العبرانية القديمة المرتبطة بالمجتمع القبلي العبراني ، ولا حتى المجتمع الزراعي الملكي أو الكهنوتي (فقد كانت تلك الهوية في طريقها إلى الاختفاء النهائي) ، وإنما كانوا يدافعون عن هوية متفتحة استفادت من الفكر البابلي الديني ، ثم الفكر الهيليني ، وكانت تدرك عبث محاولة الاستقلال القومي . ولذا ، أُعيد تعريف الهوية بحيث أصبحت هوية دينية داخلية روحية ذات بُعد إثني ليس قومياً بالضرورة . وقد واكب هذا التعريف الجديد استعداداً للتصالح مع الدولة الحاكمة ، أو القوة العظمى في المنطقة آنذاك (روما) ، وعدم اكتراث بنوعيتها وروقيتها مادامت لا تتدخل في حياة اليهود الدينية ، بل إنهم كانوا يفضلون حكومة غير يهودية لا تعطل شعائر اليهودية على حكومة يهودية تعطلها ، مثل الحكومة الهيرودية أو حتى الحشمونية .

وانطلاقاً من هذا التعريف الجديد للهوية ، أقام الفريسيون نظاماً تعليمياً مجانياً للصغار بين الجماعات اليهودية كافة ، حتى يدركوا تراثهم الروحي ويفلتوا من سيطرة الكهنوت المرتبط بالهيكل. ويمكن النظر إلى محاولة إنشاء سياج حول التوراة بهذا المنظور نفسه، أي باعتبارها التعبير عن الهوية الروحية الجديدة . وكذلك كان دفاعهم عن مؤسسة المعبد اليهودي (السيناجوج) الذي يمكن إقامته في أي مكان على عكس هيكل القدس . كما أنهم طالبوا بتطبيق العقل وتفسير التوراة على أن يبتعد التفسير عن الحرفية ، وأن يتم التركيز على روح النصوص في مواجهة تفسير الصدوقيين الحرفي . والواقع أن تفسير الشريعة هو شكل من أشكال السلطة السياسية في نهاية الأمر ، ولذا فإن التفسير المرن يوسع ولا شك رقعة الأرستقراطية الدينية ويفتح المجال أمام شريحة جديدة تطرح فكراً جديداً . وللسبب نفسه ، كان الفريسيون من أنصار الشريعة الشفوية بخلاف الصدوقيين (أنصار الشريعة المكتوبة) الذين كانوا يرون أن الشريعة الشفوية غير ملزمة . ومع هذا ، كان الفريسيون لا يدَّعون النبوة ، فقد كانوا ينادون بأن مرحلة النبوة وصلت إلى نهايتها وأنهم أقرب إلى حكماء الحضارة الهيلينية .

آمن الفريسيون بوحدانية الخالق ، وبالماشيَّح ، وبخلود الروح في الحياة الآخرة ، وبالبعث والثواب والعقاب والملائكة وحرية الإرادة التي لا تتعارض مع معرفة الخالق المسبقة بأفعال الإنسان ، وهي أفكار دينية أنكرها الصدوقيون الذين حافظوا على صياغة حلولية وثنية لليهودية . ولعل من العسير ، إلى حد ما ، تصوُّر عقيدة دينية دون إيمان بالبعث أو باليوم الآخر . ولذا ، فقد يكون من المشروع لنا أن نسأل : كيف تَقَبَّل الفريسيون الصدوقيين يهوداً؟ ونعود فنقول : إنها الخاصية الجيولوجية التراكمية لليهودية . والشريعة اليهودية ـ على أية حال ـ تُعرِّف اليهودي بأنه من يؤمن بالعقيدة اليهودية أو يولد لأم يهودية .

وتتلخص رسالة يسرائيل ، حسب وجهة نظر الفريسيين ، في مساعدة الشعوب الأخرى على معرفة الخالق وعلى الإيمان به ، ولذا فإنهم لم يكونوا كالفرق القومية المغلقة ، وإنما قاموا بنشاط تبشيري خارج فلسطين ، الأمر الذي يفسر زيادة عدد يهود الإمبراطورية الرومانية في القرنين الأول قبل الميلاد والأول الميلادي . وقد بيَّنت هذه الحركة التبشيرية مدى ابتعاد الفريسيين عن الحلولية الوثنية التي تولِّد نسقاً دينياً قومياً مغلقاً ، يتوارثه من هو داخل دائرة القداسة ويستبعد من سواه ، لأن الإيمان لا يَصلُح أساساً للانتماء . وثمة نظرية جديدة تقول إن المسيح عليه السلام كان (في الأصل) فريسياً

من أتباع مدرسة هليل ذات الاتجاه العالمي التبشيري ، والتي كانت ترى أن مهمة اليهود نشر وصايا نوح بين الأغيار ، وأنه حينما كان يشير إلى «الكتبة والفريسيين» إشارات سلبية وقدحية فإنما كان يشير إلى أتباع شماي وحسب .

وقد دخل الفريسيون في صراع دائم مع الصدوقيين على النفوذ والمكانة والامتيازات . فكانوا يتصرفون مثل الكهنة كأن يأكلوا كجماعة ، ويقيموا شعائر الختان ، بل حاولوا فرض نفوذهم على الهيكل نفسه على حساب الصدوقيين ، وذلك عن طريق ممارسة بعض الطقوس المقصورة على الهيكل خارجه . وقد قوي نفوذ الفريسيين مع ثراء الدولة الحشمونية والرخاء الذي ساد عصرها بعض الوقت . وبلغوا درجة من القوة حتى إنهم نجحوا في حَمْل الكاهن الأعظم على القَسَم بأنه سيقيم طقوس عيد يوم الغفران حسب تعاليمهم .

وقد أيَّد الفريسيون التمرد الحشموني (١٦٨ ق . م) وساندوه ، في بادئ الأمر ، على مضض . ولكن التناقض بينهم وبين الأسرة الحشمونية ظهر إبان حكم يوحنا هيركانوس الأول ، فتحدوا سلطته الكهنوتية وذبح هو آلافاً منهم . وتَحقَّق للصدوقيين بذلك شيء من النصر . ولكن زوجة هيركانوس (سالومي ألكسندرا) التي خلفته في الحكم ، تصالحت معهم وأسلمتهم زمام الأمور في الداخل ، فاضطهدوا الصدوقيين حتى أن الجو صار مهيئاً لحرب أهلية . والواقع أن الصراع الذي دار بين يوحنا هيركانوس الثاني وأخيه أرسطوبولوس الثاني كان صراعاً بين الصدوقيين والفريسيين . ويبدو أن الفريسيين اصطبغوا بصبغة هيلينية في أواخر الأسرة الحشمونية وعارضوا التمرد اليهودي الأول (٦٦ ـ ٧٠م) . لكن خوفهم من الغيورين كان عميقاً ، فأخذوا يسايرونهم ، غير أنهم كانوا يستسلمون للقوات الرومانية كلما سنحت لهم الفرصة كما فعل يوسيفوس . وقد كانوا يرون أن الدولة الرومانية أساس للبقاء اليهودي . ويقول أحد الفريسيين : "صلوا من أجل سلام الحكومة الرومانية ، فلولا الخوف الذي تبعثه في القلوب لابتلع الواحد منا الآخر" (فصول الآباء ٣/ ٢) . وقد قام أحد الفريسيين (يوحنان بن زكاي) بتأسيس حلقة بفنه التلمودية التي طورت اليهودية الحاخامية .

ويُصنَّف «الغيورون» و«عصبة الخناجر» و«الأسينيون» باعتبارهم أجنحة متطرفة من الحزب الفريسي (باعتبارهم ينتمون إلى ما يمكن تسميته «الحزب الشعبي») في مواجهة حزب الصدوقيين الكهنوتي الأرستقراطي .

الصدوقيون

Sadducees

«الصدوقيون» مأخوذة من الكلمة العبرية «صدوقيم» ، ويُقال لهم أحياناً «البوئيثيون Boethusian» . وأصل الكلمة غير محدد . ومن المحتمل أن يكون أصل الكلمة اسم الكاهن الأعظم «صادوق» (في عهد سليمان) الذي توارث أحفاده مهمته حتى عام ١٦٢ ميلادية . و«الصدوقيون» فرقة دينية وحزب سياسي تعود أصوله إلى قرون عدة سابقة على ظهور المسيح عليه السلام . وهم أعضاء القيادة الكهنوتية المرتبطة بالهيكل وشعائره والمدافعون عن الحلولية اليهودية الوثنية .

وكان الصدوقيون ، بوصفهم طبقة كهنوتية مرتبطة بالهيكل ، يعيشون على النذور التي يقدمها اليهود ، وعلى بواكير المحاصيل ، وعلى نصف الشيقل الذي كان على كل يهودي أن يرسله إلى الهيكل ، الأمر الذي كان يدعم الثيوقراطية الدينية التي تتمثل في الطبقة الحاكمة والجيش والكهنة . وكان الصدوقيون يحصلون على ضرائب الهيكل ، كما كانوا يحصلون على ضرائب عينية وهدايا من الجماهير اليهودية . وقد حوَّلهم ذلك إلى أرستقراطية وراثية تؤلف كتلة قوية داخل السنهدرين .

ويعود تزايد نفوذ الصدوقيين إلى أيام العودة من بابل بمرسوم قورش (٥٣٨ ق . م) إذ آثر الفرس التعاون مع العناصر الكهنوتية داخل الجماعة اليهودية لأن بقايا الأسرة المالكة اليهودية من نسل داود قد تشكل خطراً عليهم . واستمر الصدوقيون في الصعود داخل الإمبراطوريات البطلمية والسلوقية والرومانية ، واندمجوا مع أثرياء اليهود وتأغرقوا ، وكوَّنوا جماعة وظيفية وسيطة تعمل لصالح الإمبراطورية الحاكمة وتساهم في عملية استغلال الجماهير اليهودية ، وفي جمع الضرائب .

ولكن ، وبالتدريج ، ظهرت جماعات من علماء ورجال الدين (أهمهم جماعة الفريسيين) تلقوا العلم بطرق ذاتية ، كما كانت شرعيتهم تستند إلى علمهم وتقواهم لا إلى مكانة يتوارثونها . وكانوا يحصلون على دخلهم من عملهم ، لا من ضرائب الهيكل . وقد أدَّى ظهور الفريسيين ، بصورة أو بأخرى ، إلى إضعاف مكانة الصدوقيين . ومما ساعد على الإسراع بهذه العملية ، ظهور الشريعة الشفوية حيث كان ذلك يعني أن الكتاب المقدَّس بدأت تزاحمه مجموعة من الكتابات لا تقل عنه قداسة . كما أن الكتب الخفية والمنسوبة وغيرها من الكتابات كانت قد بدأت في الظهور . وقد ساهم الأثر الهيليني في اليهود في إضعاف مكانة الصدوقيين الكهنة ،

فقد كان اليونانيون القدامى يعتبرون الكهنة من الخدم لا من القادة . وكانت جماعات العلماء الدينيين (الفريسيين) أكثر ارتباطاً بالحضارة السامية وبالجماهير ذات الثقافة الآرامية . لكل هذا ، زاد نفوذ الفريسيين داخل السنهدرين وخارجه ، حتى أنهم أرغموا الكاهن الأعظم على أن يقوم بشعائر يوم الغفران حسب منهجهم هم . وقد وقف الصدوقيون ، على عكس الفريسيين ، ضد التمرد الحشموني (١٦٨ ق . م) ، ولكنهم عادوا وأيدوا الملوك الحشمونيين باعتبار أن الأسرة الحشمونية أسرة كهنوتية (ابتداءً من ١٤٠ ق . م) . ولا يمكن فهم الصراعات التي لا تنتهي بين ملوك الحشمونيين إلا في إطار الصراع بين الحزب الشعبي (الفريسي) وحزب الصدوقيين . وقد أيّد الصدوقيون بعد ذلك الرومان .

وارتباط الصدوقيين بالعناصر الحلولية البدائية في التركيب الجيولوجي التراكمي اليهودي واضح ، فهم لا يؤمنون بالعالم الآخر ويرون أنه لا توجد سوى الحياة الدنيا وينكرون مقولات الروح والآخرة والبعث والثواب العقاب . ومن المهم أن نشير إلى أنهم ، برغم رؤيتهم المادية الإلحادية ، كانوا يُعتبَرون يهوداً ، بل كانوا يشكلون أهم شريحة في النخبة الدينية السائدة . وقد اعترف بيهوديتهم الفريسيون ، وكذلك الفرق اليهودية الأخرى كافة رغم رفضهم بعض العقائد الأساسية التي تشكل الحد الأدنى بين الديانات التوحيدية . ولعل هذا يعود إلى طبيعة العقيدة اليهودية التي تشبه التركيب الجيولوجي التراكمي ، وإلى أن الشريعة اليهودية تُعرِّف اليهودي بأنه من يؤمن باليهودية ، أو من وُلد لأم يهودية حتى ولو لم يؤمن بالعقيدة . وحينما كان فيلسوف العلمانية باروخ إسبينوزا يؤسس نسقه الفلسفي المادي ، أشار إلى الصدوقيين ليبرهن على أن الإيمان بالعالم الآخر ليس أمراً ضرورياً في العقيدة اليهودية ، وأنه لا توجد أية إشارة إليه في العهد القديم .

وقد كان الصدوقيون يرون أن الخالق لا يكترث بأعمال البشر ، وأن الإنسان هو سبب ما يحل به من خير وشر . ولذا ، فقد قالوا بحرية الإرادة الإنسانية الكاملة . وكانوا لا يؤمنون إلا بالشريعة الشفوية ، كما كانوا يقدمون تفسيراً حرفياً للعهد القديم ، ويحرِّمون على الآخرين تفسيره . وكانوا يدافعون أيضاً عن الشعائر الخاصة بالهيكل والعبادة القربانية ، ويرون أن فيها الكفاية ، وأنه لا توجد حاجة إلى ديانة أو عقيدة دينية مجردة ، ولا حاجة إلى إقامة الصلاة أو دراسة التوراة باعتبار أن ذلك شكل من أشكال العبادة . ويُقال إنه بينما كان الصدوقيون يحاولون (كما هو الحال مع الديانات الوثنية) أن ينزلوا بالخالق إلى مقام الإنسان والمادة ، حاول الفريسيون (على طريقة الديانات التوحيدية) الصعود بالإنسان كي يتطلع إلى الخالق ويتفاعل معه . ويُعَدُّ الصدوقيون في طليعة المسئولين عن محاكمة المسيح في السنهدرين . وقد اختفت هذه الفرقة تماماً بهدم الهيكل (٧٠م) نظراً لارتباطها العضوي به .

الغيورون (قنائيم)

Zealots

كلمة «غيورون» ترجمة للفظة «قنَّائيم» ، وهي من الكلمة العبرية «قانَّا» بمعنى «غيور» أو «صاحب الحمية» . والغيورون فرقة دينية يهودية ، ويُقال إنه جناح متطرف من الفريسيين وحزب سياسي وتنظيم عسكري . وقد جاء أول ذكر لهم باعتبارهم أتباعاً ليهودا الجليلي في العام السادس قبل الميلاد . ويبدو أن واحداً من العلماء الفريسيين ، ويُدعَى صادوق ، قد أيده . ولكن يبدو أن أصولهم أقدم عهداً ، إذ أنها تعود إلى التمرد الحشموني (١٨٦ ق . م) . ويذكر يوسيفوس شخصاً يُدعَى حزقيا باعتباره رئيس عصابة أعدمه هيرود ، وحزقيا هذا هو أبو يهودا الجليلي الذي ترك من بعده شمعون ويعقوب ومناحم (لعله أخوه) . وقد تولَّى مناحم الجليلي ، وهو زعيم عصبة الخناجر ، قيادة التمرد اليهودي الأول ضد الرومان (٦٦ ـ ٧٠م) ، وذلك بعد أن استولى على ماسادا وذبح حاميتها واستولى على الأسلحة ، ثم عاد إلى القدس حيث تولَّى قيادة التمرد هو وعصبته الصغيرة ، فأحرقوا مبنى سجلات الديون ، وأحرقوا أيضاً قصور الأثرياء وقصر الكاهن الأعظم آنانياس ثم قاموا بقتله ، بل يبدو أنهم حاولوا إقامة نظام شيوعي . ويبدو كذلك أن عصابة مناحم كانت متطرفة ومستبدة في تعاملها مع الجماهير اليهودية . وقد كانت لدى مناحم ادعاءات مشيحانية عن نفسه ، كما أنه جمع في يديه السلطات الدينية والدنيوية . ولذا ، قامت ثورة ضده انتهت بقتله ، هو وأعوانه ، وهروب البقية إلى ماسادا . وقد استمر نشاط الغيورين حتى سقوط القدس وهدم الهيكل عام ٧٠ ميلادية ، ولكن هناك من يرى أنهم اشتركوا أيضاً في التمرد اليهودي الثاني ضد هادريان (١٣٢ ـ ١٣٥م) .

وكان الغيورون منقسمين فيما بينهم إلى فرق متطاحنة متصارعة . ومن قياداتهم الأخرى ، يوحنان بن لاوي وشمعون برجيورا .

ويُعَدُّ ظهور حزب الغيورين تعبيراً عن الانهيار الكامل الذي أصاب الحكومة الدينية وحكم الكهنة . وقد قام الغيورون ، تحت زعامة يهودا الجليلي ، بحَثّ اليهود على رفض الخضوع لسلطان

روما ، وخصوصاً أن السلطات الرومانية كانت قد قررت إجراء إحصاء في فلسطين لتقدير الملكية وتحديد الضرائب . وقد تبعت حزب الغيورين، في ثورته ، الجماهير اليهودية التي أفقرها حكم أثرياء اليهود بالتعاون مع اليونانيين والرومان . ويتسم فكر الغيورين بأنه فكر شعبي مفعم بالأساطير الشعبية ، ولذا نجد أن أسطورة الماشيِّح أساسية في فكرهم ، بل إن كثيراً من زعمائهم ادعوا أنهم الماشيِّح المخلص ، وقد قدموا رؤية للتاريخ قوامها أن هزيمة روما شرط أساسي للخلاص ، وأن ثمة حرباً مستعرة بين جيوش يسرائيل وجيوش يأجوج ومأجوج (روما) ، وأن اليهود مكتوب لهم النصر في الجولة الأخيرة . وعلى هذا ، فإن فكرهم يتسم بالنزعة الأخروية التي انتشرت في فلسطين آنذاك ، ويُقال إن معظم أدب الرؤى (أبوكاليبس) من أدب الغيورين .

ونظراً لجهل الغيورين بحقائق القوى الدولية وموازينها ، وبمدى سلطان روما في ذلك الوقت ، قاموا بثورة ضارية ضد الرومان واستولوا على القدس . وقد تعاونوا مع الفريسيين في هذه الثورة ، ولكن الفريسيين كانوا مترددين بسبب انتماءاتهم . وحينما بدأت المقاومة المسلحة ، استخدم الغيورون أسلوب حرب العصابات ضد روما ، كما قاموا بخطف وقتل كل من تعاون مع روما ، حتى أن الجماهير اليهودية ثارت ذات مرة ضدهم . وقد قضى الرومان على ثورة الغيورين ، واستسلمت القوات اليهودية ، وكان آخرها القوات اليهودية في ماسادا بقيادة القائد الغيوري إليعازر بن جاير ، وهي القوات التي آثرت الانتحار على الاستسلام نظراً لأنها كانت قد ذبحت الحامية الرومانية بعد استسلامها لهم وخشي قائد الغيورين أن يذبحهم القائد الروماني ، على عكس القلاع الأخرى (مثل ماخايروس وهيروديام) التي استسلمت للرومان .

الأسينيون

Essenes

«أسينيون» من الكلمة الآرامية «آسيا» ، ومعناها «الطبيب» أو «المداوي» ، وهي من «يؤاسي المريض» . ويُقال إنها من الكلمة السريانية «هاسي» ، كما يُقال إنها تعود إلى كلمة «هوسيوس» اليونانية ، أي «المقدَّس» ، ولعلها النطق اليوناني «أسيديم» للكلمة العبرية «حسيديم» ، أي «الأتقياء» ، ولعلها تصحيف للكلمة العبرية «حَاشائيم» ، أي «الساكتين» . والأسينيون فرقة دينية يهودية لم يأت ذكرها في العهد الجديد ، وما ذُكر عنها في كتابات فيلون ويوسيفوس متناقض . ولعل هذا يدل على وجود خلافات في صفوف الأسينيين أنفسهم الذين لم يزد عددهم عن أربعة آلاف ، وكانوا يمارسون شعائرهم شمال غرب البحر الميت في الفترة ما بين القرنين الثاني قبل الميلاد والأول الميلادي .

والأسينيون (فيما يبدو) جناح متطرف من الفريسيين ، وتقترب عقائدهم من عقائد ذلك الفريق ، ويظهر هذا في ابتعادهم عن اليهودية كدين قرباني مرتبط بهيكل القدس . آمن الأسينيون بخلود الروح والثواب والعقاب ، ووقفوا ضد العبودية والملكية الخاصة ، بل ضد التجارة ، وانسحبوا تماماً من الحياة العامة (على عكس الفريسيين) . وقد قسَّم الأسينيون الناس إلى فريقين : البقية الصالحة من جماعة يسرائيل ، وأبناء الظلام . وترقبوا نزول الماشيِّح لينشئ على الأرض ملكوت السماء ويحقق السلام والعدالة في الأرض . وقد عاش الأسينيون في جماعة مترابطة حياة النساك يلبسون الثياب البيض ويتطهرون ويطبقون شريعة موسى تطبيقاً حرفياً ، وكانوا أحياناً يتعبدون في اتجاه الشمس ساعة الشروق .

عاش الأسينيون على عملهم بالزراعة ، وكانوا لا يتناولون من الطعام إلا ما أعدوه بأنفسهم ، وهو ما زاد ترابط الجماعة (الأمر الذي جعل عقوبة الطرد منها بمنزلة حكم الإعدام) . ويبدو أنه كان لهم تقويمهم الخاص . وقد حرموا الذبائح ، ولذلك فقد كانوا يقدمون للهيكل قرابين نباتية وحسب . كما حرموا على أنفسهم ، أو على الأقل على الأغلبية العظمى منهم ، الزواج . وقد انقرض الأسينيون كلية في أواخر القرن الأول الميلادي .

كان فكر الأسينيين متأثراً بالفكر الهيليني وأفكار فيثاغورث ، وبآراء البراهمة والبوذيين ، وهو ما كان منتشراً في فلسطين (ملتقى الطرق التجارية العالمية في القرن الأول قبل الميلاد) . ويُقال إن المسيحية الأولى تأثرت بهم ، كما يُقال إن يوحنا المعمدان كان قريباً من الأسينيين ، وأن المسيح عليه السلام كان عضواً في هذه الفرقة الدينية وأنه تأثر بفكرهم (ومن المعروف أن المسيح طرد التجار والمرابين من الهيكل) . وقد كشفت مخطوطات البحر الميت عن كثير من عقائد الأسنيين . ومن أهم كتبهم كتاب **الحرب بين أبناء النور وأبناء الظلام** ، وهو من كتب الرؤى (أبوكاليبس) ، وهو ذو طابع أخروي حاد . ويُقال إن الأسينيين آمنوا بيسوع الناصري كواحد من أنبياء يسرائيل المصلحين ، ولكنهم رفضوا دعوة بولس إلى العقيدة المسيحية وظلوا متمسكين بالنواميس اليهودية . ويُقال أيضاً إن الأبيونيين هم الأسينيون في مرحلة تاريخية لاحقة .

عصبة حملة الخناجر

Sicarii

«عصبة الخناجر» ترجمة لكلمة «سيكاري» المنسوبة إلى كلمة «سيكا» اللاتينية ، التي تعني الخنجر . و«سيكاريوس sicarius» كلمة مفردة تعني «حامل الخنجر» وجمعها «سيكاريي sicarii» . وعصبة الخناجر جماعة متطرفة من الغيورين الذين كانوا بدورهم جماعة متطرفة من الفريسيين ، وقد كانوا يخبئون خناجرهم تحت عباءاتهم ليباغتوا أعداءهم في الأماكن العامة ويقتلوهم . وأثناء التمرد اليهودي الأول ضد الرومان (٦٦ ـ ٧٠م) ، يُقال إنهم كانوا تحت قيادة مناحم الجليلي ، وأنهم هم الذين أحرقوا منزل الكاهن الأعظم أنانياس ، وقصري أجريبا الثاني وأخته بيرنيكي عشيقة تيتوس . كما أحرقوا سجلات الديون حتى ينضم الفقراء المدينون إليهم . وقد أدّى نشاطهم إلى فرار الأرستقراطيين اليهود . ولكن الجماهير ، بقيادة الغيوري المعتدل إليعازر بن حنانيا من حزب القدس ، تمردت على المتطرفين وقتلت زعيمهم مناحم الجليلي ، ففرت فلولهم . ويُقال إن الجماعة التي لجأت إلى ماسادا ، وأبادت الجالية الرومانية بعد استسلامها ، من أعضاء عصبة الخناجر . وثمة رأي آخر يرى أن جماعة إليعازر بن جاير كانت معادية لهم ، ولكنها اختلفت معهم بشكل مؤقت .

ويبدو أنه كان يوجد داخل حركة الغيورين جناحان : جناح متطرف هو عصبة الخناجر ، وجناح القدس ، ويشار إلى أعضاء هذا الجناح باسم «الغيورين» وحسب . وكان الفارق بين الفريقين كما يلي :

١ ـ لم يرتبط غيورو القدس بأية أسرة محددة ، ولم يعلنوا قوادهم ملوكاً .

٢ ـ كانت قاعدة الغيورين في القدس ، بينما كانت قاعدة العصبة في الجليل .

٣ ـ كانت الأبعاد الاجتماعية لعصبة الخناجر أوضح منها في حالة الغيورين ، رغم ثورة هؤلاء على الكاهن الأعظم والأقلية الثرية الحاكمة .

والواقع أن عصبة الخناجر هي الجماعة الوحيدة التي استمرت في نشاطها بعد إخماد التمرد ، هذا التمرد الذي اتسع نطاقه إلى الإسكندرية وبرقة ، حيث قام يهودي من عصبة الخناجر يدعى يوناثان بقيادة أعضاء الجماعة اليهودية في ثورة تم قمعها . وبعد اغتيال بعض القيادات اليهودية هناك ، قام أعضاء الجماعة اليهودية بالقبض على أعضاء عصبة الخناجر وتسليمهم إلى القوات الرومانية . وقد كانت عصبة الخناجر ، رغم نشاطها وحركتها ، تشكل أقلية لا يزيد عددها حسب بعض التقديرات على ألفين .

ويبدو أن فكر عصبة الخناجر كان فكراً شيوعياً بدائياً يعود إلى بعض التيارات الكامنة في العهد القديم . فقد جاء في سفر اللاويين (٢٥/ ٢٣) : "والأرض لا تُباع بتة . لأن لي الأرض وأنتم غرباء ونزلاء عندي . بل في كل أرض ملككم تجعلون فكاكاً للأرض" وغيرها (٢٥/ ٢٣ ، ٢٥/ ٥٥ ، وتثنية ١٥/ ٤ ـ ٥ ، ١٥/ ٦) . وفي مفهوم السنة السبتية حيث تُلغى ديون الفقراء من اليهود وهو ما يعكس هذه الشيوعية البدائية التي يبدو أنها أثرت في فكر عصبة الخناجر الذين كان شعارهم "لا ملك إلا الرب" ، فهو وحده "مالك الأرض" .

الفقراء (الإبيونيون)

Ebionites

الكلمة العبرية «إبيون» تعني «فقير» ، وهي كلمة ذات مدلول اقتصادي ومنها «الإبيونيون» ، وقد أصبحت هذه الكلمة ذات تضمينات دينية واستخدمها بعض أعضاء الجماعات اليهودية المسيحية في بداية العصر المسيحي للإشارة إلى أنفسهم باعتبار أنهم ورثة مملكة الرب . وقد تبع الإبيونيون الشريعة اليهودية ، وأصروا على أن المسيحيين ملزمون بها ، كما أنهم راعوا شعائر السبت . وقد رفض معظمهم فكرة ألوهية المسيح وولادته العذرية ، ولكنهم آمنوا بأنه الماشيَح الذي اختاره الإله عند تعميده . ومن هنا كان تعميد المسيح موضوعاً أساسياً في إنجيل الإبيونيين . وقد اعتبر الإبيونيون تعاليم بولس الرسول هرطقة محضة . وذهب فريق من الإبيونيين مذهب الغنوصيين ، فقالوا بأن المسيح هو آدم . وقال فريق آخر إنه الروح القدس حل بآدم ، ثم بالآباء ، وأخيراً حل بعيسى ، فلما صُلب عيسى صعد الروح القدس ، الذي هو المسيح ، إلى السماء . ومع اتساع الهوة بين اليهودية والمسيحية ، اختفت هذه الجماعات في نهاية القرن الرابع الميلادي .

المغاريــــة

Maghariya

«المغارية» فرقة يهودية ظهرت في القرن الأول الميلادي حسبما جاء في القرقشاني . وهذا الاسم مشتق من كلمة «مغارة» العربية ، أي كهف ، فالمغارية إذن هم سكان الكهوف أو المغارات ، وهذه إشارة إلى أنهم كانوا يخزنون كتبهم في الكهوف للحفاظ عليها ،

ويبدو أنها فرقة غنوصية ، إذ يذهب المغارية إلى أن الإله متسام إلى درجة أنه لا تربطه أية علاقة بالمادة (فهو يشبه الإله الخفي في المنظومة الغنوصية) ، ولهذا فإن الإله لم يخلق العالم ، وإنما خلقه ملاك ينوب عن الإله في هذا العالم . وقد كتب أتباع هذه الفرقة تفسيراتهم الخاصة للعهد القديم وذهبوا إلى أن الشريعة والإشارات الإنسانية إلى الإله إنما هي إشارات لهذا الملاك الصانع . وقد قرن بعض العلماء المغارية بالأسينيين والثيرابيوتاي .

المعالجون (ثيرابيوتاي)

Therapeutae

«المعالجون» ترجمة لكلمة «ثيرابيوتاي» المأخوذة من الكلمة اليونانية «ثيرابي» أي «العلاج» ، وتعني «المعالجون» . والمعالجون (ثيرابيوتاي) فرقة من الزهاد اليهود تشبه الأسينيين استقرت على شواطئ بحيرة مريوط قرب الإسكندرية في القرن الأول الميلادي ، ويشبه أسلوب حياتهم أسلوب الأسينيين وإن كانوا أكثر تشدداً منهم . وقد كانت فرقة المعالجين تضم أشخاصاً من الجنسين ، وأورد فيلون في كتابه كل ما يعرفه عنهم ، فيذكر إفراطهم في الزهد وفي التأمل وبحثهم الدائب عن المعنى الباطني للنصوص اليهودية المقدَّسة . كما يذكر فيلون أنهم كانوا يهتمون بدراسة الأرقام ومضمونها الرمزي والروحي ، كما كانوا يقضون يومهم كله في العبادة والدراسة والتدريب على الشعائر . أما الوفاء بحاجة الجسد ، فلم يكن يتم إلا في الظلام (وهو ما قد يوحي بأصول غنوصية) .

المستحمون في الصباح (هيميروبابتست)

Hemerobaptists

«المستحمون في الصباح» ترجمة للكلمة اليونانية «طوبلحاشحريت» أو «هيميروبابتست» والمستحمون في الصباح فرقة يهودية أسينية كان طقس التعميد بالنسبة إليها أهم الشعائر . ولذا ، فقد كان هذا الطقس يُمارَس بينهم كل يوم بدلاً من مرة واحدة في حياة الإنسان . كما أنهم كانوا يتطهرون قبل النطق باسم الإله . ويبدو أن يوحنا المعمدان كان واحداً منهم . وقد ظلت بقايا من هذه الفرقة حتى القرن الثالث الميلادي .

عبدة الإله الواحد (هيبستريون)

Hypsisterion

«عبدة الإله الواحد» ترجمة للكلمة اليونانية «هيبستريون» . وعبدة الإله الواحد هم فرقة شبه يهودية كانت تعبد الإله الواحد الأسمى (والاسم مشتق من كلمة يونانية لها هذا المعنى) . وقد كان أعضاء هذه الفرقة يعيشون على مضيق البسفور في القرن الأول الميلادي وظلت قائمة حتى القرن الرابع . ومن الشعائر اليهودية التي حافظوا عليها شعائر السبت والطعام ، وكانت عندهم شعائر وثنية مثل تعظيم النور والأرض والشمس ، وخصوصاً النار ، ومع هذا يُقال إن الأمر لم يصل بهم قط إلى درجة تقديس النار كما هو الحال مع المجوس .

البناءون (بنائيم)

Banaaim

«البناءون» ترجمة لكلمة «بنائيم» . والبناءون فرقة يهودية صغيرة ظهرت في فلسطين في القرن الثاني الميلادي . ومعنى الكلمة غير معروف بصورة محددة ، فيذهب بعض العلماء إلى أن الاسم مشتق من كلمة «بنا» بمعنى «يبني» ، وأن أتباع هذه الفرقة علماء يكرسون جلّ وقتهم لدراسة تكوين العالم (كوزمولوجي) . ويذهب آخرون إلى أن (البنائيم) فرع من الأسينيين . ويذهب فريق ثالث إلى أن الاسم مشتق من كلمة يونانية بمعنى «حمام» أو «المستحمون» . ويذهب فريق رابع إلى أنهم أتباع الراهب الأسيني بانوس . ولعل ربط البنائيم بالأسينيين يرجع إلى اهتمامهم البالغ بشعائر الطهارة والحفاظ على نظافة ملابسهم .



٢
اليهودية والإسلام

أسلمة اليهودية وتهويد الإسلام ـ القراءون : تاريخ ـ القرّاءون : فكر ديني ـ عنان بن داود ـ النهاوندي ـ القرقساني ـ فيركوفيتش ـ الإسرائيليات (تهويد الإسلام) ـ عبد الله بن سبأ ـ كعب الأحبار ـ صموئيل ابن عباس

أسلمة اليهودية وتهويد الإسلام

Islamization of Judaism and Judaization of Islam

«أسلمة اليهودية» و«تهويد الإسلام» مصطلحان قمنا بسكهما لنصف علاقة التأثير والتأثر بين اليهودية والإسلام . ويُلاحَظ أن مقارنة الأديان ودراسة العلاقة بينهما تنصرف عادةً إلى دراسة الشعائر والمصطلحات ومدى التشابه بينهما ، الأمر الذي يؤدي بها إلى السطحية . ففي مجال مقارنة الإسلام باليهودية سيُلاحظ الدارس أن شعيرة الختان وحَظْر أكل لحم الخنزير يوجدان في كل من اليهودية والإسلام (بينما تغيب في المسيحية) . وأن الشهادة في الإسلام تؤكد أن الله واحد ، كما أن دعاء الشماع في اليهودية يؤكد أيضاً أن الله واحد ، بينما تظهر عقيدة التثليث في المسيحية . ويَخلُص الباحث من ذلك إلى أن الإسلام أقرب إلى اليهودية منه إلى المسيحية .

ولعل الغائب هنا هو أهم شيء وهو النموذج المعرفي الذي يستند إليه النموذج التحليلي والتفسيري والتصنيفي . فهذا النموذج هو الذي يحدد المعنى العميق والكامن (والحقيقي) للشعائر وللدوال سواء كانت كلمات أم صلوات . فالختان داخل إطار حلولي ليس علامة على طاعة الإله وإنما هو علامة على التميز ، وقل الشيء نفسه عن قوانين الطعام ، بل عن الشهادة والشماع (انظر : «الختان» ـ «الشماع») .

وقد قمنا في هذه الموسوعة بمحاولة لمقارنة الأديان من هذا المنظور في مداخل هذا القسم والقسم الذي يليه .

ونحن ، في دراستنا ، نرى أن ثمة نسقين دينيين أساسيين (بل رؤيتين أساسيتين للكون) ، إحداهما توحيدية ترى أن الله واحد متجاوز للطبيعة والتاريخ والإنسان (ومع هذا فهو يرعاها) ، والأخرى حلولية ترى أن الله يحل في الطبيعة والتاريخ والإنسان فيتوحد الجميع في واحدية مادية كونية يسودها قانون واحد . ونحن نرى أن جوهر النسق الديني الإسلامي هو التوحيدية المتجاوزة ، بينما نجد أن النسق الديني اليهودي هو تركيب جيولوجي تراكمي داخله طبقة توحيدية وأخرى حلولية وأن الطبقة الحلولية زادت قوة وترسخاً واكتسبت مركزية على مرّ الزمن .

ولذا ، فإن أسلمة اليهودية تعني تزايد درجات التوحيد داخل النسق الديني من خلال احتكاك اليهودية بالإسلام ، ويتبدَّى هذا في الفكر القرّائي وفكر موسى بن ميمون . ويصل هذا الاتجاه إلى ذروته في محاولة موسى بن ميمون ، في مصر ، أن يؤسلم بعض الشعائر الدينية اليهودية مثل الصلاة .

وتهويد الإسلام يقف على طرف النقيض من ذلك فهو يعني تسلُّل العناصر الحلولية إلى الإسلام ، ويتبدَّى هذا في الإسرائيليات وفي فكر عبد الله بن سبأ وكعب الأحبار . وبإمكان القارئ أن يعود أيضاً إلى المدخلين التاليين : «المواحدانية» و«البروتستانتية والإصلاح الديني» ، ليرى تطبيقاً للنموذج نفسه على العقيدة المسيحية ، حيث نجد أن فكرة الإله الواحد ، داخل الإطار الحلولي ، يمكن أن تكتسب مضموناً جديداً يبعدها تماماً عن التوحيد ويقربها من الواحدية الكونية .

القرّاءون : تاريخ

Karaites :History

«قرّاءون» مصطلح يقابله في العبرية «قرّائيم» أو «بني مقرا» ، أو «بعلي هامقرا» أي «أهل الكتاب» . وقد سُمِّي القرّاءون بهذا الاسم لأنهم لا يؤمنون بالشريعة الشفوية (السماعية) وإنما يؤمنون بالتوراة (المقرا) فقط (ولذا يمكن القول بأنهم أتباع اليهودية التوراتية ، مقابل اليهودية التلمودية أو الحاخامية) . والقرّاءون فرقة يهودية أسسها عنان بن داود في العراق في القرن الثامن الميلادي وانتشرت أفكارها في كل أنحاء العالم . ولم تُستخدَم كلمة «قرّائين» للإشارة إليهم إلا في القرن التاسع إذ ظل العرب يشيرون إليهم بالعنانية نسبة إلى مؤسس الفرقة .

ويبدو أن ظهور هذه الفرقة يعود إلى عدة أسباب وعوامل داخل التشكيل الديني اليهودي وخارجه ، من أهمها انتشار الإسلام في الشرق الأدنى وطرحه مفاهيم دينية وأطراً فكرية جديدة كانت تشكل تحدياً حقيقياً للفكر الديني اليهودي وبخاصة بعد أن غلبت عليه النزعة الحلولية الموجودة داخله . ويبدو أيضاً أنه كانت هناك ، منذ هدم الهيكل عام ٧٠م، عناصر دينية رافضة لليهودية الحاخامية من بين بقايا الصدوقيين والعيسويين أتباع أبي عيسى الأصفهاني (٦٩٠) ، وأتباع يودغان . وقد أخذ القرّاءون عن الصدوقيين فكرة منع إشعال النار يوم السبت ، وأخذوا عن العيسويين إيمانهم بأن عيسى (عليه السلام) ومحمداً (صلى الله عليه وسلم) رسولان من عند الله ، كما أخذوا الترهب عن أتباع يودغان . وهناك نظرية تذهب إلى أن يهود الجزيرة العربية الذين وُطّنوا في عهد عمر في البصرة وغيرها من بقاع العالم الإسلامي ، ولم يكونوا يعرفون التلمود ، كانوا من أهم العناصر التي ساعدت على انتشار المذهب القرّائي .

ومن المعروف أن اليهودية ، حتى ذلك الوقت ، لم تكن قد صاغت عقائدها الدينية بشكل محدد وواضح ، فقد كانت اليهودية لا تزال مجموعة من الممارسات الدينية تشرف الحلقات التلمودية على تنفيذها وعلى إصدار الفتاوى بشأنها حسبما تقتضيه الظروف ، وهو ما يعني أن البناء العقائدي كان لا يزال غير متماسك ويسمح بتفسيرات كثيرة . ويضاف إلى كل هذا ، الوضع الاقتصادي المتردي لأعضاء الجماعات اليهودية ، وخصوصاً بين أولئك الذين استوطنوا المناطق الحدودية بعيداً عن سلطة هذه الحلقات . أما القرّاءون أنفسهم فيُرجعون تاريخهم إلى أيام يُربعام الأول ، حينما انقسمت المملكة العبرانية المتحدة إلى مملكتين : المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية (٩٢٨ ق . م) . أما المؤسسة الحاخامية فكانت تشيع أن عنان بن داود أسَّس الفرقة لأسباب شخصية .

وبعد انشقاقهم عن اليهودية الحاخامية ، ظل القرّاءون (حتى بداية القرن العاشر) في حالة جمود يختلفون فيما بينهم وينقسمون . ويُقال إن يهود الخزر اعتنقوا يهودية قرّائية ، وأنهم انتشروا في شرق أوربا بعد سقوط مملكة الخزر ، ولذا نجد أن كثيراً من القرّائين في روسيا وبولندا يذكرون أن لغتهم هي التركية . ومع هذا ، دافع القرقساني (أحد مفكريهم) عن هذا الانقسام بقوله : إن القرّائين يصلون إلى آرائهم الدينية عن طريق العقل ، ولذا فإن الاختلاف بينهم أمر طبيعي . أما الحاخاميون ، فإنهم يدّعون أن آراءهم ، أي الشريعة الشفوية ، مصدرها الوحي الإلهي . فإن كان هذا هو الأمر حقاً ، فلا مجال للاختلاف في الرأي بينهم . ومن ثم ، فإن وجود مثل هذه الاختلافات يدحض ادعاءاتهم التي تنسب الشريعة الشفوية لأصل إلهي .

ويُلاحظ أثر التفكير الديني الإسلامي على فكر القرّائين ، وخصوصاً في عصرهم الذهبي في منتصف القرن التاسع . ويُعَدّ بنيامين النهاوندي ، وهو أول من استخدم مصطلح «قرّائي» ، أهم مفكري القرّائين ، كما يُعتبَر ثاني مؤسسي الفرقة حيث عاش في بلاد فارس في أواخر القرن التاسع ، ثم تبعه مفكرون آخرون من أهمهم أبو يوسف يعقوب القرقساني الذي عاش في القرن العاشر .

وفي الفترة الممتدة بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر ، انتشر المذهب القرّائي بين مختلف أعضاء الجماعات اليهودية ، خصوصاً في مصر وفلسطين وإسبانيا الإسلامية حيث عمل اليهود الحاخاميون على طَرْدهم منها ، وفي الإمبراطورية البيزنطية قبل الفتح العثماني . ومع حلول القرن السابع عشر ، انتقل مركز النشاط القرّائي إلى ليتوانيا وشبه جزيرة القرم التي يعود استيطان القرّائين إياها إلى القرن الثاني عشر .

وابتداءً من القرن التاسع عشر ، يبدأ فصل جديد في تاريخ القرّائين بعد ضم كل من ليتوانيا (عام ١٧٩٣) وشبه جزيرة القرم (عام ١٧٨٣) إلى روسيا . فحتى ذلك الوقت ، كانت المجتمعات التقليدية التي وُجد فيها اليهود تُصنِّف كلاً من اليهود الحاخاميين واليهود القرّائين باعتبارهم يهوداً وحسب دون تمييز أو تفرقة . ولكن الدولة الروسية اتبعت سياسة مختلفة إذ بدأت تعامل القرّائين كفرقة تختلف تماماً عن الحاخاميين ، فأعفت أعضاء الجماعة القرّائية من كثير من القوانين التي تطبَّق على اليهود ، مثل : تحديد الأماكن التي يمكنهم السكنى فيها (منطقة الاستيطان) ، وتحديد عدد المسموح لهم بالزواج والخدمة العسكرية الإجبارية ، وعدم امتلاك الأراضي الزراعية في مناطق معيَّنة . وقد حاول القرّاءون قدر استطاعتهم أن يقيموا حاجزاً بينهم وبين الحاخاميين ، فقدموا مذكرات للحكومة القيصرية يبينون فيها أنهم ليسوا كسالى أو طفيليين مثل اليهود الحاخاميين ، وهي اتهامات كانت شائعة ضد اليهود في ذلك الوقت . كما أن القرّائين كانوا يؤكدون أنهم لا يؤمنون بالتلمود الذي كانت الحكومة الروسية ترى أنه العقبة الكأداء في سبيل تحديث يهود روسيا . وقد قام المؤرخ والعالم القرّائي أبراهام فيركوفيتش بإعداد مذكرة موثقة للحكومة القيصرية تبرهن على أن اليهود هاجروا من فلسطين قبل التهجير البابلي ، وبالتالي فإن تطورهم الديني والتاريخي مختلف تماماً عن اليهود الحاخاميين . وقد أُعيد تصنيف اليهود القرّائين بحيث اعتُبِروا قرّائين روسيين من أتباع عقيدة العهد

القديم . وقد أثَّر هذا في الهيكل الوظيفي للقرّائين ، فبينما كان معظم اليهود الحاخاميين (في القرم) من الباعة الجائلين والحرفيين وأعضاء في جماعات وظيفية وسيطة ، كان القرّاءون يحصلون على امتيازات استغلال مناجم الفحم ، وكانوا من كبار الملاك الزراعيين الذين تخصصوا في زراعة التبغ (وقد احتكروا تجارته في أوديسا) ، كما كانت تربطهم علاقة جيدة مع السلطات القيصرية .

وبلغ عدد اليهود القرّائين في القرم حين ضمها الروس نحو ٢٤٠٠ ، ووصل العدد إلى ١٢,٩٠٧ عام ١٩١٠ ، وإلى عشرة آلاف عام ١٩٣٢ . ويصل عددهم الآن حوالي ٤٥٧١ . وحينما ضمت القوات الألمانية القرم وأجزاء أخرى من أوربا إبان الحرب العالمية الثانية ، قرَّر النازيون أن القرّائين يتمتعون بسيكولوجية عرْقية غير يهودية . ولذا ، فلم تُطبق عليهم القوانين التي طُبِّقت على الحاخاميين . وقد جاء في بعض المصادر أن موقف القرّائين من أحداث الحرب العالمية الثانية كان يتراوح بين عدم الاكتراث والتعاون مع النازيين . ويوجد تجمُّع قرّائي آخر في ولاية كاليفورنيا يضم حوالي ١٢٠٠ يهودي معظمهم من أصل مصري .

وعند إنشاء الدولة الصهيونية ، كان القرّاءون معادين لها بطبيعة الحال ، ولكن الدعاية الصهيونية والسياسية التي انتهجتها بعض الحكومات العربية والمبنية على عدم إدراك الاختلافات بين الحاخاميين والقرّائين جعلت معظمهم يهاجر من البلاد العربية إلى إسرائيل وغيرها من الدول . ويبلغ عدد القرّائين في إسرائيل نحو عشرين ألفاً ، توجد أعداد كبيرة منهم في الرملة ، وزعيمهم وحاخامهم الأكبر هو حاييم هاليفي ، ويعيش بعضهم في أشدود . وهناك اثنا عشر معبداً قرّائياً ومحكمة شرعية . ويمكن القول بأن معظم القرّائين في إسرائيل من أصل مصري (حيث هاجروا إليها عام ١٩٥٠) . والواقع أن انتماءهم الديني القرّائي لا يزال قوياً ، ولذا فإن ثمة خلافات دائمة بينهم وبين اليهود الحاخاميين ، الأمر الذي ينعكس على العلاقات فيما بينهم داخل المستوطنات المشتركة .

القرّاءون : فكر ديني

Karaites: Religious Thought

تأثر القرّاءون بعلم الكلام عند المسلمين ، وبالعقلانية الإسلامية بشكل عام . وتأثر مؤسس الفرقة ، عنان بن داود ، بأصول الفقه على مذهب أبي حنيفة . ويُقال إن اليهود القرّائين يمثلون احتجاج الفرد وضميره الحر ضد عبء السلطة المركزية والتقاليد الجامدة . ومن هنا ، فقد وُصفوا بأنهم «بروتستانت اليهودية» . ومن الصعب قياس مدى دقة الوصف ، وخصوصاً حين يُستخدَم الإطار المرجعي لدين ما لوصف دين آخر . ولكن ، وبغض النظر عن مدى دقة الوصف ، فإن من المتفق عليه أن الفرقة القرّائية تمثل أكبر احتجاج على اليهودية الحاخامية حتى العصر الحديث (حين ظهرت الفرق اليهودية الحديثة ، وخصوصاً اليهودية الإصلاحية) . وهي تمثل احتجاجاً بلغ من الضخامة حد أن اليهودية الحاخامية اضطرت إلى تحديد عقائدها وأفكارها على يد سعيد بن يوسف الفيومي (سعديا جاءون) . وإذا كان الفيومي قد تأثر بالفكر الديني والفلسفي الإسلامي ، فإن الاحتجاج القرّائي كان أكثر استيعاباً لهذا الفكر وأشد تأثراً به . ويتضح هذا التأثر في واقع أن القرّائين قد جعلوا النص المقدَّس المكتوب ، أي العهد القديم ، المرجع الأول والأخير في الأمور الدينية كافة ، والمنبع لكل عقيدة أو قانون . وقد هاجم القرّاءون التلمود ، وهدموه ، وفندوا تراثه الحاخامي باعتباره تفسيراً من وضع البشر (أي أنهم وضعوا التوراة التي يُقال لها «المقرا» مقابل المشناه بمعنى «التكرار الشفوي») . والواقع أن رفض الشريعة الشفوية هو في جوهره رفض النزعة الحلولية التي ترى أن الإله يحل بشكل دائم في الحاخامات ، ومن ثم يتساوى الاجتهاد الإنساني والوحي الإلهي ، والتمسك بالنص الإلهي المكتوب .

ومع هذا ، كان للقرّائين تراثهم التفسيري الذي يقابل التلمود ، ولكنه ظل مجرد اجتهادات خاضعة للنقاش لا تصطبغ بصبغة نهائية أو مقدَّسة . وقد حدد عنان بن داود الأمور بقوله : « ابحث في الكتاب المقدَّس بعناية تامة ولا تعتمد على رأيي » . بل إن بعض القرّائين كانوا يستعينون باجتهادات الشريعة الشفوية ، ولكنهم كانوا ينظرون إليها باعتبارها اجتهادات دينية ليست لها قداسة ، وبالتالي غير ملزمة دينياً . كما أنهم يرون أنه لا اجتهاد مع النص ، بمعنى أنه إذا كان النص واضحاً ، فينبغي عدم فرض أية تفسيرات عليه أو استعارة تفسيرات الآخرين ، على عكس تفسيرات التراث الحاخامي التي كانت تتعامل مع النص بشكل متعسف لفرض المعنى المطلوب . وقد وضع القرّاءون أصولاً للتفسير يظهر فيها تأثير الفكر الإسلامي ، فكان التفسير يستند إلى العناصر التالية بالترتيب :

١ ـ المعنى الحرفي .
٢ ـ الإجماع .
٣ ـ القياس .
٤ ـ العقل .

أما تصوُّرهم للإله ، فقد تم تطهيره تماماً من أية بقايا وثنية أو طبائع بشرية ، فالإله هو خالق السماوات والأرض من العدم ، وهو

الخالق الذي لم يخلقه أحد ، ولا شكل له ولا مثيل له ، إله واحد أرسل نبيه موسى وأوحى إليه التوراة التي تنقل الحق الكامل الذي لا يمكن تغييره أو تعديله ، وخصوصاً من خلال العقيدة الشفوية . وعلى المؤمن أن يعرف المعنى الحق للتوراة . وقد أرسل الإله الوحي إلى أنبياء آخرين ، ولكن درجة النبوة لديهم أقل منها عند موسى ، وسيبعث الإله الموتى ، ويحاسبهم يوم القيامة ، ويعاقب المذنب ويكافئ المثيب . وكل هذا يعني أن الإله عادل وسيحاسب كل فرد على أفعاله ، وأن الإنسان خير ، وأن الروح لا تفنى . ويؤمن القرّاءون بأن الإله لا يحتقر هؤلاء الذين يعيشون في المنفى ، بل هو على العكس يود أن يطهرهم من خلال عذابهم إلى أن يعود الماشيّح (لكن عقيدة الماشيّح قد اختفت في بعض صيغ الفكر القرّائي الأولى) . وغني عن القول إن معظم العقائد السابقة تبين أثر الفكر الإسلامي التوحيدي .

ولا يوجد في الفكر القرّائي هذا العدد الضخم من الأوامر والنواهي التي حددها الفكر الحاخامي . وتختلف صلاة القرّائين عن صلاة الحاخاميين في عدة أوجه ، أهمها أن القرّائين يكتفون بصلاتين : واحدة في الصباح ، وأخرى في المساء ، وتتضمن صلاتهم الشماع ، ولكنهم حذفوا الثماني عشرة بركة (شمونه عسريه) . كما أن شكل الصلاة عند القرّائين استقر وأخذ شكلاً نهائياً ، على عكس الصلاة عند الحاخاميين . ويرتدي القرّاءون شال الصلاة (طاليت) أثناء أدائها ، ولكنهم لا يرتدون تمائم الصلاة (تفيلّين) ، ولا يضعون تمائم الباب (مزوزوت) على منازلهم لأن الإشارات الواردة بشأن هذه التمائم ذات معنى مجازي على عكس ما يتصور الحاخاميون الذي فسروا الإشارات تفسيراً حرفياً . ولا يحتفل القرّاءون بعيد التدشين لأنه ظهر بعد تدوين التوراة ، ولهم تقويم خاص بهم . كما أن قوانين الطعام عند القرّائين تختلف عنها لدى الحاخاميين ، وخصوصاً في القواعد الخاصة باللحم واللبن . وتتسم قواعد الزواج عند القرّائين بالتزمت إذ زادوا عدد المحارم زيادة غير عادية . كما أن القرّائين يصومون سبعين يوماً (من ١٣ نيسان إلى ٢٣ سيفان) على طريقة المسلمين ، بل يُحرِّم بعضهم استخدام الأدوية حيث لا شافي إلا الإله .

وقد اشتد الصراع بين القرّائين والحاخاميين إلى حد أن كل طائفة قامت بتكفير الأخرى وإعلان نجاستها وحرمانها من رحمة الإله . وقد اعتبر الحاخاميون طائفة القرّائين من الأغيار في شئون الطعام والشراب والزواج . وفي العصر الحديث ، بذل القرّاءون جهوداً كبيرة للاحتفاظ بالمسافة بينهم وبين الحاخاميين .

ومع هذا ، لم تنتشر اليهودية القرّائية بين اليهود ، وهو الأمر الذي يحتاج إلى تفسير . ويُقال إن القرّائين كانوا يضمون في صفوفهم كثيراً من التقاة الذين تمسكوا بالتفسير الحرفي للتوراة ، وقد أدّى هذا إلى تجمُّد فكرهم ، وتحوُّلهم إلى حفرية دينية . ولقد وجد كثير من الجماعات القرّائية في تربة إسلامية . ولعلهم وجدوا أن من المنطقي ، بعد أن طهروا اليهودية من النزعة الحلولية ، وبعد فرْض الصيغة التوحيدية عليها ، أن يعتنقوا الإسلام ، وخصوصاً أن ثمة إشارات إلى أن عنان بن داود كان يؤمن ، مثله مثل أبي عيسى الأصفهاني ، بأن عيسى (عليه السلام) ومحمداً (صلى الله عليه وسلم) من الأنبياء .

عنان بن داود (القرن الثامن الميلادي)

Anan Ben David

مؤسس مذهب القرّائين ، ويُقال إنه كان ابن رأس الجالوت في العراق . وقد درس ابن داود الشريعة ، ولكن رؤساء الحلقات التلمودية رفضوا تعيينه مكان أبيه ، حسب المصادر اليهودية الحاخامية ، فرفض الإذعان لقرارهم ودخل في خلاف حاد معهم عام ٧٦٢ . وحينما أُلقي به في السجن بتهمة التمرد ، طالب بالإفراج عنه باعتبار أنه ينتمي إلى جماعة دينية مختلفة عن الجماعة اليهودية ، فأُجيب طلبه . وبعد الإفراج عنه ، أسس ابن داود الفرقة الجديدة في الفترة ٧٦٢ـ٧٦٧ والتي كانت تُسمَّى في بادئ الأمر بـ «العنانية» ، ونشر عام ٧٧٠ كتابه **سفر هامتسفوت** باللغة الآرامية (كتاب الأوامر والنواهي) ولم يبق من الكتاب سوى بضعة أجزاء ولكن لا يمكن تفسير ظهور هذه الفرقة على أساس هذا الحادث الشخصي ، فمن الواضح أن اليهودية كانت تواجه تحدياً فكرياً ضخماً بعد انتشار الإسلام ، وكان عليها أن تستجيب له . وكان عنان بن داود يمثل أولى هذه الاستجابات ، ثم تبعه سعيد بن يوسف الفيومي ، المتحدث باسم اليهودية الحاخامية ومحددها .

وحجر الزاوية في فكر عنان بن داود هو العودة إلى النص المقدَّس المكتوب نفسه ، أي العهد القديم ، مستخدماً طريقة القياس التي استقاها من الفقه الإسلامي ، وخصوصاً من فكر الإمام أبي حنيفة . كما أنه رفض الشريعة الشفوية التي تعبِّر عن الحلولية اليهودية . وقد بذل ابن داود جهداً كبيراً في تفسير التناقضات الموجودة في العهد القديم . وكان يفضل التشدد في كثير من الأمور ، مثل الزواج وشعائر السبت . ومع هذا ، يظل المفتاح الأساسي لفهم

فكره الديني هو عبارته : «فلتبحث بعناية فائقة في النص ، ولا تعتمد على رأيي» .

بنيامين بن موسى النهاوندي (منتصف القرن التاسع الميلادي)

Benjamin Ben Moses Nahawandi

عالم قرّائي عاش في فارس والعراق . ويُعَدُّ (مع عنان بن داود) مؤسس المذهب القرّائي . وهو صاحب مصطلح «قرّائي» . وكان النهاوندي يتسم بعلمه الواسع في العلوم الإسلامية الدينية والدنيوية كما أنه حدَّد عقائد القرّائين ، وبذل جهداً كبيراً في تطهير الفكر الديني من أية اتجاهات لخلع صفات بشرية على الإله . ولذا ، فقد أصر على قوله بأن الشريعة لم تُوحَ إلى موسى مباشرة وإنما أُوحيَت إليه من خلال ملاك . وأصر على أن الإله لم يَخلُق العالم مباشرة وإنما خلقه من خلال ملاك أيضاً (وقد رفض القرّاءون رأيه هذا) . ورغم تأكيده أهمية النص المقدَّس ، كما هو الحال مع القرّائين ، فإنه لم يمانع في الاستفادة من الشريعة الشفوية (أي تفاسير الحاخامات) دون أن يخلع عليها أية قداسة . وقد وضع النهاوندي معظم مؤلفاته بالآرامية ، ومن أهمها شروح العهد القديم، إلى جانب بعض الدراسات القانونية الأخرى .

ابو يوسف يعقوب القرقساني (النصف الأول من القرن العاشر الميلادي)

Abu Yusuf Yaqub Qirqisani

عالم قرّائي استوعب العلوم الإسلامية الدينية والدنيوية في عصره ، وكان على إلمام كبير بالتراث الحاخامي . وأهم كتبه كتاب **الأنوار والمراقب** (بالعربية) ، وهو مصنف في القوانين القرّائية ، أما الكتاب الثاني فهو كتاب **الرياض والحدائق** ، وهو تعليق على الأجزاء التي لا تتناول الشرائع في العهد القديم . وهو ، في جميع كتاباته ، يُحكِّم عقله ويستند إلى قواعد التفسير التي وضعها العلماء القرّاءون من قبله .

ابراهام فيركوفيتش (١٧٨٦-١٨٧٤)

Abraham Firkovich

عالم قرّائي روسي بولندي المولد ، بذل جهوداً كبيرة لفصل اليهود القرّائين عن اليهود الحاخاميين ، فهاجم اليهودية الحاخامية والحسيدية هجوماً لاذعاً . وقد قدَّم فيركوفيتش مذكرة عام ١٨٢٥ إلى الحكومة الروسية القيصرية بيَّن فيها أن القرّائين يتسمون بالنشاط والإنتاجية ، على عكس اليهود الحاخاميين الذين يتسمون في رأيه بالكسل والطفيلية . وقد اقترح في المذكرة أن تقوم الحكومة القيصرية بتهجير الحاخاميين من المناطق المتاخمة للحدود الغربية ، حتى تُوقفهم عن الاشتراك في عمليات التهريب ، وحتى يتم تشجيعهم على الاشتغال بالزراعة (وقد كان القرّاءون في شبه جزيرة القرم يشتغلون بكل المهن ، ومنها الزراعة ، كما كانوا يمتلكون مزارع تبغ) . وقد بيَّن فيركوفيتش في دراساته أن القرّائين هاجروا من فلسطين بعد انقسام مملكة سليمان ، وأنهم استوطنوا القرم منذ القدم، وأن قبيلة الخزر تهوَّدت على أيديهم . وقد قام بجمع العديد من المخطوطات العبرية في فلسطين (وربما مصر) ، كما استشهد بالاكتشافات الأثرية ، وخصوصاً شواهد القبور اليهودية ، ليثبت قوله . ونشر فيركوفيتش آراءه عام ١٨٧٢ ، وقد تقبَّلها كثير من المؤرخين اليهود في عصره . ولكن بعض العلماء يرون أن فيركوفيتش كان يزيف الشواهد التاريخية لتأييد وجهة نظره ، ولا تزال هذه القضية خلافية .

وتُعَدُّ مجموعتا فيركوفيتش بالمكتبة العامة في سانت بطرسبرج أكبر مجموعتي كتب ومخطوطات عبرية في العالم .

الإسرائيليات (تهويد الإسلام)

Israeliyat (Judazation of Islam)

«الإسرائيليات» هي مجموعة من القصص والتفسيرات لقصص وأحكام القرآن . ويتناول كثير من هذه الإسرائيليات قصصاً وأساطير أبطالها شخصيات من العهد القديم ورد ذكرهم في القرآن . وتفترض الإسرائيليات أن ثمة استمراراً بين قصص العهد القديم وقصص القرآن ، وأن إبراهيم ، الذي ذُكر في التوراة هو نفسه سيدنا إبراهيم (عليه السلام) الذي ذُكر في القرآن . ولما كان القرآن لم يذكر قصص الأنبياء كاملة فإن كتاب الإسرائيليات يلجأون ، في تفاسيرهم ، إلى ملء الثغرات بالعودة إلى كتب اليهود الدينية . وتتناول الإسرائيليات كذلك عقائد ، مثل : المسيح المخلِّص (المهدي المنتظر) ، وآخر الأيام ، وعذاب القبر ، واسم الإله الأعظم . ويتسم معظم الإسرائيليات بطابعه الحلولي المتطرف (الذي يتناقض بشكل حاد مع الفكر التوحيدي) ومن المعروف أن افتراض الاستمرار الكامل ، ومحاولة ملء كل الفراغات ، هي من سمات الأنساق الحلولية التي لا تقبل جود أية مساحات داخل نسق فضفاض .

ويروي ابن خلدون في مقدمته من أسباب تسرب الإسرائيليات إلى المسلمين وأسباب استكثارهم من روايتها أن العرب لم يكونوا أهل كتاب أو علم ، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية وإذا تشوقوا

إلى معرفة شيء ، مما تتشوق إليه النفوس البشرية وأسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود ، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدون منهم ، وهم أهل التوراة من اليهود ، وهم أنفسهم كانوا أهل بادية منهم ، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ، ومعظمهم من حمْيَر الذين أخذوا بدين اليهودية ، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم .

وتساهل المفسرون وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات ، وأصلها عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم (الحفني) . ومعنى كل هذا أن ثمة رغبة شعبوية بدائية في معرفة أصل الأشياء ، ملأها المفسرون من خلال احتكاكهم بيهود الجزيرة العربية الذين كانوا يؤمنون هم أنفسهم بيهودية شعبوية بعيدة عن التوحيد أو تميل إلى الحلولية ولذا تود ملء كل الثغرات .

ويضرب الحفني مثلاً على ذلك : أسماء أصحاب الكهف ، ولون كلبهم ، وعددهم ، وعصا موسى من أي الشجر كانت ، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم ، ونوع الشجرة التي كلَّم الله منها موسى ، وكلها تفاصيل روائية ، لا فائدة من معرفتها ، ولكن العقل الشعبي يود دائماً الإحاطة بالتفاصيل المادية إذ يجد صعوبة غير عادية في التجريد وتجاوز المادة . والموقف الإسلامي من هذا واضح فقد ورد في القرآن (كما يُبيِّن الدكتور الحفني) أن ثمة أموراً أبهمها الله ، ولا فائدة من تعيينها تعود على المكلفين في دينهم ولا دنياهم ، وبقي الاختلاف عنهم في ذلك جائزاً ("سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم ، رجماً بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربي أعلم بعدتهم ، ما يعلمهم إلا قليل ، فلا تُمار فيهم إلا مراءً ظاهراً ، ولا تستفت فيهم أحداً" [الكهف ٢٢]) .

دخل الكثير من الإسرائيليات إلى كتب التفسير الإسلامية عن طريق اليهود الذين اعتنقوا الإسلام في مرحلة مبكرة مثل كعب الأحبار . ولكن ، بعد فترة ، لم يَعُد اليهود الذين أسلموا وحدهم مصدر الإسرائيليات ، فكثير من المفسرين المسلمين كانوا يعودون بأنفسهم إلى الكتب الدينية اليهودية ، أو الفلكلور اليهودي ، لتفسير القصص القرآني . كما أن الوجدان الشعبي نسج وولَّد قصصاً وتفسيرات على منوال الإسرائيليات . ونحن نذهب إلى أن الخطاب الغنوصي ظل سائداً بين العامة ووجد طريقه إلى عمليات التفسير في كل الديانات التوحيدية . ويجب أن نتذكر أن كثيراً من الإسرائيليات هي ، في جوهرها ، فلكلور يهودي نجح في أن يصبح جزءاً من العقائد الدينية اليهودية الرسمية ، والتلمود كتاب فلكلور بقدر ما هو كتاب تفسير . ونحن نذهب إلى أن شخصيات العهد القديم تختلف في سماتها وسلوكها عن مثيلتها التي تحمل الأسماء نفسها في القرآن الكريم . ومن ثم ، فإن إبراهيم الذي ورد ذكره في التوراة يتميَّز عن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) الذي ترد قصته في القرآن الكريم (ولهذا ، فإن اسم الأول خلافاً للثاني يرد هنا مجرداً من لفظ «سيدنا») .

عبد الله بن سبأ (القرن السابع الميلادي)
Abdallah Ibn Saba

ويُسمَّى أيضاً ابن السوداء . وهو عربي يهودي من أهل صنعاء في اليمن . وقد ادَّعى ابن سبأ بعد موت الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو الماشيَّح الذي سيرجع مرة أخرى ، فكان يقول : "العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ، ويكذِّب برجوع محمد" . وقد أيَّد رأيه بآية من القرآن : "إن الذي فرض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد" (القصص ٨٥) ومن ثم فإن محمداً أحق بالرجوع من عيسى . وقال أيضاً إنَّ في التوراة أنَّ "لكل نبي وصياً ، وإن علياً (زوج ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم) هو وصيه ، ولذا فعليٌّ هو خاتم الأوصياء بعد محمد خاتم النبيين" . بل يُقال إنه لما بويع علي قام إليه ابن سبأ فقال له : "أنت خلقت الأرض وبسطت الرزق" .

وقد ذهب عبد الله بن سبأ إلى القول بالتناسخ . وبحسب قوله ، فإن روح الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم تمت مع محمد بل استمرت حية تتعاقب في ذريته ، فروح الله التي تبعث الحياة في الرسل تنتقل بعد وفاة أحدهم إلى آخر ، وأن روح النبوة بصفة خاصة انتقلت إلى عليّ واستمرت في عائلته ، ومن ثم فعليٌّ ليس مجرد خلف شرعي للخلفاء الذين سبقوه ، وهو ليس في مستوى واحد مع أبي بكر وعمر اللذين اندسا مغتصبين بينه وبين الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأخذا الخلافة بغير وجه حق ، إنما هي «الروح القدسية» تجسدت فيه وهو وريث الرسالة ، ومن ثم فهو بعد وفاة محمد الحاكم الوحيد الممكن للأمة ، تلك الأمة التي يجب أن يكون على إمامتها مثل حيٍّ لله . وقد استطاع ابن سبأ تكوين خلايا سرية في عديد من الأمصار الإسلامية التي مرَّ بها (الحجاز والبصرة والكوفة والشام ومصر) ، وجرت بينه وبين أعضاء هذه الخلايا مكاتبات ، وحاك ابن سبأ المؤامرات ووضع مخططات للثورة . وبعد مقتل عليّ رضي الله عنه عام ٦٦١ ، أنكر عبد الله أن علياً قد قُتل ، زاعماً أن من قُتل هو في واقع الأمر شيطان يشبه علياً وأن علياً نفسه فيه الجزء الإلهي وأنه هو الذي يجيء في السحاب ، وأن الرعد

صوته والبرق سوطه ، ولذا كان أتباعه يقولون عند سماع الرعد : "السلام عليك يا أمير المؤمنين" . وأنه لابد أن ينزل إلى الأرض فيملأها عدلاً كما مُلئت جوراً .

وقد أسَّس ابن سبأ الطائفة السبئية التي تقول بألوهية عليّ . ويُقال للسبئية «الطيارة» لزعمهم أنهم لا يموتون وإنما موتهم طيران نفوسهم في الغَلَس (قبيل انبلاج النهار) . ويُقال إن عبد الله بن سبأ جاء إلى الإمام عليّ (رضي الله عنه) مع جماعته وقالوا له « أنت الله» فأحرقهم بالنار ، فجعلوا يقولون : "الآن صحَّ عندنا أنه الله لأنه لا يعذِّب بالنار إلا رب النار" .

وقد انشغل المؤرخون المسلمون (في الماضي والحاضر) بقضية هل كان عبد الله بن سبأ شخصية حقيقية وُجدت فعلاً أم شخصية مُختَلَقَة ، وهي في الواقع قضية قد تكون على قدر من الأهمية ولكنها تترك المسألة الأساسية ، أي بنية أفكار ابن سبأ (وهي أفكار كان هناك من يحملها ويروجها بغض النظر عن وجود ابن سبأ نفسه) . ولنضرب مثلاً لنوضح ما نرمي إليه : ينتشر كثير من الأفكار الرومانتيكية وتتبناها جماعات من الناس في أنحاء العالم دون أن يطلعوا بالضرورة على كتابات الشعراء أو الفلاسفة الرومانتيكيين في الغرب ، وحتى دون أن يعرفوا بوجود شيء يُسمَّى «الحركة الرومانتيكية» . والواقع أن القضية هي بنية هذه الأفكار ومدى تأثيرها في سلوكهم ومدى تأثيرهم فيمن حولهم بعد حَمْلهم هذه الأفكار ، وهكذا . أما قضية الأصول والتأثير والتأثر ، وهل اطلع هؤلاء بالفعل على النصوص الأساسية للحركة الرومانتيكية الغربية أم لا ، فهي قضية ثانوية رغم أهميتها ، وخصوصاً أن كثيراً من الأفكار الإنسانية تتوالد من داخل العقل الإنساني ، دون حاجة لتأثير خارجي . والأفكار الحلولية (التي تشكل الإطار الذي تتحرك داخله المنظومة السبئية) أمر كامن في تجارب الإنسان الأولى .

ويمكن القول بأن النسق الفكري الذي يُنسَب إلى اسم بن سبأ نسق حلولي غنوصي كامل يستحق الدراسة من هذا المنظور :

١ ـ فهو نسق يفترض الحلول الدائم للإله في الطبيعة والتاريخ ، ولذا فالرعد هو صوت عليّ والبرق سوطه ، فالإله يتجسد في الطبيعة . كما أن ثمة إيماناً بأن روح الإله تنتقل من رسول إلى آخر ولابد أن يكون هناك إمام هو مثل حيّ (تجسُّد ـ حلول) للإله في التاريخ . ويُلاحَظ أنه في الأنساق الحلولية ، لابد أن يكون هناك تجسُّد دائم ومستمر للإله في الطبيعة وتناسخ دائم عبر التاريخ ، حتى يظل الإله دائماً متجسداً في الزمان والمكان كامناً فيهما لا متجاوزاً أو مفارقاً لهما . والإله ، في هذه المنظومة ، جزء لا يتجزأ من الطبيعة والتاريخ ويُردُّ إليهما لملء كل الفراغات والمجالات والثغرات بحيث يتصل الزمان بالمكان في وحدة وجود روحية لا تبقى للإله من الألوهية سوى الاسم .

٢ ـ ويتضمن النسق الديني الحلولي إلغاء فكرة محمد خاتم المرسلين، وهي الفكرة التي تتضمن أن التاريخ أصبح المجال الذي يتفاعل فيه الإنسان مع الإله وأن التاريخ هو الرقعة التي يختبر الإله فيها الإنسان، وبإمكان الإنسان أن يخطىء ويصيب فيها (فهو حر الإرادة) . بدلاً من ذلك يطرح النسق السبئي الحلولي فكرة نهاية التاريخ . كما يتضمن النسق الحلولي إلغاء فكرة الضمير الشخصي ووجود الإنسان الفرد .

٣ ـ يمكن أن يتحقق الحلول الإلهي في شخص بدرجة مركزة بحيث يصبح هذا الشخص إلهاً لا يموت ، وهذه هي صفات عليّ (رضي الله عنه) في النسق السبئيّ أو صفات محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي لابد أن يعود أو صفات من يتحقق فيه الحلول الإلهي عبر التاريخ .

٤ ـ يُلاحَظ أن الحلول الإلهي مسألة متوارثة في مجموعة من الناس، فكأن الإله بحلوله في عائلة ما يصبح جزءاً عضوياً يجري في عروقها، وكأن الربانية أصبحت صفة بيولوجية وليست صفة تعبر عن نفسها في أعمال أخلاقية تتبدَّى من خلالها التقوى . والنظم الحلولية نظم عضوية ، والإنسان الذي يتمتع بالحلول يتجاوز الخير والشر . وهذه صفات موجودة في النسق السبئي . ولم تذكر المصادر التي توافرت لنا شيئاً عن سلوك السبئين وما إذا كانوا قد انغمسوا في ممارسات جنسية داعرة تعبر عن الحلول الإلهي العضوي في أجسادهم أو تعبِّر عن سقوط القيم الأخلاقية .

٥ ـ المنظومة الحلولية تتسم بعدم النضج المعرفي ، فهي تنحو نحو اختزال الكون في عناصر سببية بسيطة ، فالإمام سيملأ الدنيا عدلاً بعد أن امتلأت جوراً ، أي أن كل الثغرات ستُسد ويظهر عالم واضح عضوي مصمت ، لا ثغرات فيه ، عالم متأيقن تماماً ، السبب مرتبط تماماً فيه بالنتيجة . أما من الناحية النفسية فالإنسان الحلولي يرفض الحدود ويفضل البقاء في حالة سيولة كونية رحمية (نسبة إلى الرَحم)، ومن ثم يرفض أن يكبح جماح غرائزه بل يرفض الموت ، الحد الأكبر المفروض على الإنسان والنتيجة الطبيعية لإيمان الإنسان بالإله الواحد . ويتبدَّى هذا أيضاً في المنظومة السبئية حيث تُرفَض فكرة الموت بالنسبة لعليّ (رضي الله عنه) ولمن يرث الروح الإلهية . فكأن النسق الحلولي يعد أتباعه بأنهم سيصيبون الأزلية في الدنيا ، أي سيصبحون آلهة . بل يمكن القول بأن تحديد المنظومة السبئية لعليّ

(رضي الله عنه) ، كنقطة للحلول الإلهي ، هو بحث عن نقطة فردوسية (غنوصية) طاهرة تماماً لا يوجد فيها أي تركيب أو تناقض ، نقطة الوحدة الحقّة للوجود .

٦ ـ تفترض المنظومة الحلولية تداخل كل الأشياء وترابطها من خلال الحلول الإلهي المستمر . وهذه الرؤية هي التي أدَّت إلى ظهور الإسرائيليات في الإسلام حيث افترض بعض المفسرين وجود استمرار بين التوراة التي بين أيدينا وبين القرآن . وكما أشرنا من قبل، تستند المنظومة السبئية إلى مقدمات وردت في التوراة تُستخلَص منها نتائج إسلامية ، فكأن ثمة استمراراً بين التوراة والقرآن وبين الإسلام واليهودية .

هذه بعض ملامح المنظومة السبئية الحلولية المتطرفة ، وهي منظومة كان لها تابعوها وتأثر بها العديدون . وقد ظهرت هذه المنظومة بأشكال أخرى بين جماعات أخرى لها أسماء أخرى ، ومن ثم يكون هذا الانشغال المتطرف بشخصية ابن سبأ انشغالاً شاذاً إلى حدٍّ ما .

ويمكننا الآن أن نسأل : ما مصدر هذه الحلولية ؟ وما جذورها التاريخية وربما البيئية ؟ وللإجابة عن هذا السؤال ، قد نحتاج إلى بحث مكثف . ويمكن أن نذهب هنا إلى أن المنظومة ذات أصول يمنية، ولعل المؤرخين الذين جعلوا عبد الله بن سبأ يمنياً كانوا يشيرون إلى هذا . وفي هذه الحالة ، لابد أن ندرس بتعمق أنماط اليهودية التي كانت منتشرة آنذاك في جنوب الجزيرة العربية ، ومدى اختلاطها بعناصر وثنية من العبادات العربية المجاورة ، وهو أمر متوقع تماماً لسببين : أولهما أن يهودية الجزيرة العربية كانت منعزلة إلى حدٍّ كبير عن المراكز والحلقات التلمودية سواء في فلسطين أو بابل. كما أن الطبيعة الجبلية لليمن تضمن استمرار كثير من العبادات والعادات ذات الطابع البدائي الجيولوجي المتحجر (وهذه طبيعة المناطق الجبلية كما هو الحال في الشام وبلاد شبه جزيرة القوقاز) . ويُلاحَظ أن الفرس قد احتلوا اليمن لبعض الوقت ، والفكر الحلولي سمة أساسية في العبادات الفارسية . ولعلنا لو اكتشفنا قوة الطبقة الحلولية داخل اليهودية الموجودة في اليمن لأمكننا إلقاء مزيد من الضوء على الإسرائيليات وعلى تطوِّر اليهودية نفسها .

والواقع أن التشابه بين المنظومة السبئية والمنظومة الغنوصية تشابه يثير التساؤل ويدعم نظريتنا القائلة بأن الغنوصية ليست مجرد حركة ظهرت في زمان ومكان معينين (الشرق الأدنى في القرن الأول الميلادي) وإنما هي رؤية كامنة في داخل الإنسان وتظهر في كثير من الحضارات وتعبِّر عن فشل الإنسان في تجاوز الوثنية والحواس ، كما تعبِّر عن الرغبة في الذوبان في السيولة الكونية الأولية للوصول إلى عالم الواحدية الكونية ، حيث لا حدود ولا هوية ، ولا أعباء أخلاقية أو نفسية ، ولا مسئولية من أي نوع . ولعل هذا الخطاب الغنوصي الكامن هو الذي يفسر التشابه بين حركة مثل السبئية نشأت في القرن السادس الميلادي في الجزيرة العربية وانتشرت في ربوع العالم الإسلامي وحركة مثل البهائية نشأت في إيران في القرن الثامن عشر وانتشرت منها في أنحاء العالم المختلفة .

كعب الأحبار (؟ -٦٤٧)

Kaab al-Ahbaar

«كعبُ الأحبار» هو أبو إسحق ، كعب بن مانع الحِمْيري ، وأصله من يهود اليمن (حيث كانت اليهودية تنتشر هناك في زمن معاصر للدعوة الإسلامية) ، وقد أدرك الجاهلية وأسلم في فترة الخلافة الراشدة . سُمِّي «كعب الأحبار» من باب التعظيم تقديراً لعلمه بكتب الأنبياء وأخبار الماضين .

ويحتل كعب الأحبار مكانة مهمة بين المفسرين الأوائل بصفته يهودياً . وقد كان يرجع (بعد إسلامه) إلى التوراة والتعاليم الإسرائيلية في دراسته للإسلام ، لذلك فإن كثيراً من المصادر الدارسة للتفسير والعلوم الإسلامية تشكك في مروياته ومقولاته التي جاءت مشَّبعة بالإسرائيليات .

ويُتهم كعب الأحبار بالإطلاع على مكيدة قتل عمر بن الخطاب، ثاني الخلفاء الراشدين ، وصياغته لها في صورة نبوءة إسرائيلية . وترجع بعض الإسرائيليات ، وخصوصاً في التفسير وفي مباحث النبوءات وذكر الأنبياء السابقين ، إلى محاولة المفكرين الجاهليين الذين أسلموا التوفيق بين الرؤية الدينية التي كانت عندهم والتي كانت تتنبأ ببعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبين العقائد الإسلامية الخاصة بهذا الموضوع .

صموئيل بن عباس (١١٢٥-١١٧٥)

Samuel Ibn Abbas

ويُعرف أيضاً باسم «ابن يحيي المغربي» . مؤلف عربي وعَالم رياضيات وطبيعة وُلد في بغداد وعاش في سوريا والعراق وإيران . حقق ذيوعاً كمؤلف يهودي وعالم طبيعة . وفي عام ١١٦٣ ، اعتنق الإسلام في أذربيجان وكتب كتيباً بعنوان **إفحام اليهود** . وفي عام ١١٦٧ ، أصدر نسخة موسعة من الكتيب وأضاف لها سيرة ذاتية حيث أعلن أن النبي صمويل والرسول محمد (عليه الصلاة والسلام) جاءاه في المنام وأمراه أن يعتنق الإسلام . ولكنه أضاف أن

الرؤية لم تكن السبب الوحيد في تحوُّله إلى الإسلام ، فالسبب الحقيقي هو مجموعة من المقدمات العقلانية والنتائج المنطقية توصَّل إليها عقل عالم رياضيات ، وأن الرؤية لم تكن سوى العنصر الحاسم الذي حدد زمن التحول إلى الإسلام . وقد حقق الكتيب والسيرة ذيوعاً كبيراً واستخدمه المفكرون الإسلاميون في النقاش الدائر بين المسلمين واليهود .

ويذهب ابن عباس في كتابه إلى أن نسخة العهد القديم التي وصلت إلينا هي تشويه للوحي الأصلي (الذي نزل على موسى عليه السلام) ، فهي من وضع عزرا الذي كان من الكهان الهارونيين (أتباع هارون) المعادين لبيت داود الملكي . ويبيِّن ابن عباس أن هناك قصصاً كثيرة في العهد القديم تشوه سيرة الأنبياء وتسيء إليهم ، وإلى أن ثمة نزعة تشبيهية تنسب إلى الإله صفات إنسانية لا تليق به ، كأن يُقال إن الإله يندم على أفعاله . كما بيَّن أن هناك من المقطوعات ما يدل على أن القانون الموسوي قد تم نسخه ، ومع ذلك يصر اليهود على التمسك به وتطبيقه . ويُهاجم ابن عباس التلمود والشريعة الشفوية ككل ويعطي تاريخاً مبسطاً لظهور التلمود والصلوات في المعبد اليهودي وتفسيرات قانون الطعام المباح شرعاً . كما يُحدِّد ابن عباس عدة مقطوعات في العهد القديم يرى أنها تُبشر بمقدم الرسول محمد (عليه الصلاة والسلام) . وقد تُرجم كتيبه إلى اللاتينية وإلى عدد من اللغات الأوربية .



٣
اليهودية والمسيحية

تنصير اليهودية ـ ابن الإله ـ المسيح (عيسى بن مريم) ـ توليدوت يشو ـ تهويد المسيحية ـ التراث اليهودي المسيحي ـ الارتداد (خصوصاً التنصر) ـ التنصر ـ دونين ـ ابنر ـ بابلو ـ دراش ـ حنتز ـ ألكسندر ـ التبشير باليهودية والتهود والتهويد ـ التهود والتهويد ـ بودو ـ مبنيت ـ بوتوكي ـ جوردون

تنصـــير اليهوديـــة

Christianization of Judaism

«تنصير اليهودية» مصطلح نحتناه لنصف عملية حدثت للنسق اليهودي وحولته تحويلاً جذرياً ، وهي ظاهرة رصدها بشكل جزئي متفرق كثير من دارسي اليهودية من الغربيين ولكنهم لم يعطوها المركزية التفسيرية التي تستحقها . وابتداءً ، لابد أن نقرر أن «التنصير» المشار إليه عملية بنيوية مركبة تمت داخل اليهودية بشكل تلقائي طوعي غير واع على مستوى البنية الكامنة وليس من الخارج . ولذا ، فهي لا تأخذ شكل اقتراض فكرة هنا أو شعيرة هناك ، وإنما تأخذ شكلاً أكثر جذرية . كما أن تنصير اليهودية لا يعني أن اليهودية أصبحت نصرانية ، إذ أن اليهودية فقدت كثيراً من سماتها الخاصة واستوعبت بعض السمات البنيوية للمسيحية . ولكن الثمرة النهائية لهذه العملية هو تَشوُّه كلٍّ من اليهودية والسمات المسيحية التي استوعبتها .

وتعود ظاهرة تنصير اليهودية إلى عدة عناصر :

١ ـ تركيب اليهودية الجيولوجي يساعد كثيراً على تَقبُّله سمات وعناصر من الأنساق الدينية الأخرى .

٢ ـ أصول المسيحية يهودية ، فالسيدة مريم العذراء عاشت وماتت يهودية ، والسيد المسيح نفسه والحواريون كانوا في بداية الأمر يهوداً يدورون في إطار الثقافة الآرامية السائدة . وقد بدأت المسيحية باعتبارها دعوة موجهة إلى اليهود أساساً ، ثم إلى كل الناس بعد ذلك ، والمسيحية لم تَجُبّ اليهودية وإنما أكملتها (على حد قول السيد المسيح) .

٣ ـ تَبنَّت المسيحية التوراة (كتاب اليهود المقدَّس) كتاباً مقدَّساً ، حتى بعد أن سَمَّته العهد القديم ، وأصبح الشعب ضمن أتباع الكنيسة ، وأصبحت الكنيسة نفسها تُسمَّى «إسرائيل الحقيقية» (باللاتينية : «إسرائيل فيروس Israel verus») ، وأصبحت العودة إلى صهيون والقدس (بالمعنى الروحي) إحدى الركائز الأساسية للتفكير الأخروي المسيحي . وهناك بعض المفاهيم المشتركة بين اليهودية والمسيحية مثل ابن الإله والاختيار .

٤ ـ منذ القرن الرابع عشر ، عاشت غالبية يهود العالم في العالم الغربي في تربة مسيحية . ولكن يهود المارانو هم أهم العناصر التي ساعدت على تنصير اليهودية حيث أشاعوا القَبَّالاه ، وخصوصاً القَبَّالاه اللوريانية ، التي استوعبت كثيراً من الأفكار المسيحية لدرجة أن أتباع المفكر القَبَّالي أبو العافية تنصروا لاكتشافهم الشبه بين نسقه الفكري والمسيحية .

ويجب ألا ننسى أن كثيراً من المارانو كانوا مسيحيين صادقين في إيمانهم ، وفُرضت عليهم اليهودية فَرْضاً بسبب غباء محاكم التفتيش وعنصريتها . ولذا ، فإنهم كانوا يفكرون من خلال إطار مسيحي كاثوليكي . وحتى أولئك اليهود المتخفون الذين احتفظوا بيهوديتهم سراً ، أصبح إطارهم المفاهيمي كاثوليكياً . فهم ، على سبيل المثال ، كانوا يؤمنون بالقديسة «سانت إستير» ، بل إن بعض شعائرهم تأثرت بالشعائر المسيحية وتأثرت رؤيتهم للماشيَح برؤية المسيحيين للمسيح .

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل استمر التأثر بالمسيحية بين يهود اليديشية ، وقد كانت مراكز اليهودية الحاخامية في المدن الكبرى ، أما أغلبية اليهود فكانوا في الشتتلات يعيشون مع الفلاحين السلاف ، جنباً إلى جنب ، بعيداً عن قبضة المؤسسة الحاخامية ، فاصطبغ فكرهم الديني بصبغة فلكلورية سلافية أرثوذكسية .

ولفهم عملية تنصير اليهودية ، لابد أن نتناول قضية معالجة كلٍّ من المسيحية واليهودية لقضية الحلول الإلهي أو اللوجوس . فاللوجوس في المسيحية ، هو ابن الله الذي ينزل ويتجسد لفترة زمنية محددة ويُصلَب ويقوم ويترك التاريخ ، ومن ثم ، فإن الحلول شخصي مؤقت ومنته . أما اللوجوس في اليهودية ، فهو الشعب اليهودي ، مركز التاريخ والطبيعة ، ولذا فالحلول جماعي ودائم ومتواصل ، وتَجسُّد المطلق في التاريخ مسألة دائمة . وهذا الفارق

بين الحلين لمشكلة الحلولية (أو لنقطة تلاقي المطلق والنسبي) هو الذي يشكل مفتاحاً لفهم طبيعة تنصير اليهودية .

ويتبدَّى تداخل عناصر مسيحية والنسق الديني اليهودي في زعم الحاخامات أن المشناه تجسيد للوجوس ، تماماً كالمسيح عند المسيحيين . ولعل تفسير راشي للاختيار بأنه سر من الأسرار هو أيضاً تأثر بالمفاهيم المسيحية الخاصة بحادثة الصلب باعتبارها سراً من الأسرار الإلهية التي يؤمن بها الإنسان دون أن يتساءل عنها . لكن مثل هذه الأفكار يمكن أن تُولَد داخل أي نسق ديني إيماني دون تأثر بأنساق دينية أخرى ، فتعيين بعض الأفكار التي لا يمكن التساؤل عنها أو عن سببها مسألة أساسية في كل دين (بل في كل العقائد وضمن ذلك العقائد العلمانية) . ولكن يصعب أن نقول الشيء نفسه عن قول الحاخامات إن المشناه هي لوجوس خُلق قبل الخَلق (مع أنها تضم اجتهادات بعض الحاخامات اليهود) .

وإذا كان هناك إبهام ما في حالة اليهودية الحاخامية في بدايات العصور الوسطى ، فإن الأمر يختلف تماماً بعد هيمنة القبَّالاه . ويمكننا الآن أن نبيِّن بعض نقط التلاقي بين القبَّالاه وبعض العقائد المسيحية . إن أهم مفاهيم القبَّالاه (التجليات النورانية العشرة) هو صدى لفكرة التثليث المسيحية . وقد قال أحد الحاخامات إنه إذا كان المسيحيون يؤمنون بثلاثة آلهة فالقباليون يؤمنون بعشرة ، وإذا كانت المسيحية ترى أن الكنيسة جسد المسيح وأن المسيحي يشكل جزءاً من هذا الجسد فإن القبَّالاه جعلت التجلي العاشر للإله «جماعة يسرائيل» نفسها أو «كنيست يسرائيل» .

وفي هذه التجليات ، نجد أن التجلي الثالث هو الأب العلوي أو السماوي (والعلة الذكرية الأولى) . أما التجلي الثاني ، فهو الأم العلوية أو السماوية والعلة الأنثوية الأولى ، وهما يتزاوجان وينجبان التجلي السادس ، وهذا صدى لفكرة ابن الإله وابن الإنسان . والتجلي السادس هو الملك والعريس ، وتربطه علاقة بالتجلي العاشر (شخيناه) التعبير الأنثوي عن الإله والملكة والعروس .

وفي القبَّالاه اللوريانية ، نجد أن أبا وأما يكوِّنان النمط الأعلى للزواج المقدس . ثم نجد بعد ذلك «زعير أنبين» ، أي «ذا الوجه القصير» و«نقيفاه زعير» ، أي «أنثى زعير» (وهي مقابل التجلي العاشر) .

وفي حادث تهشُّم الأوعية (شفيرات هكليم) ونفي الشخيناه صدى لحادثة الصلب ، كما أن إصلاح الخلل الكوني (تيقون) فيه أيضاً صدى لبعث المسيح بعد الصلب . وهناك من يذهب إلى أن الشخيناه هي أم الشعب اليهودي التي تشفع له عند الإله ، وأنها الوسيط بين الإله والكون ، فهي إذن تشبه العذراء مريم في اللاهوت الكاثوليكي . كما أن الشخيناه هي أيضاً جماعة يسرائيل وجزء من جسد الإله ، وهذا يشبه المفهوم المسيحي (الكاثوليكي) للكنيسة .

وقد انتشرت القبَّالاه بأفكارها الغنوصية شبه المسيحية ، وجعلت التربة خصبة للحركات الشبتانية التي كانت في جوهرها حركات حلولية متطرفة كان قادتها يعلنون أن الإله حلَّ فيهم ، أو أنهم هم أنفسهم الإله ، كما فعل شبتاي تسفي أو جيكوب فرانك اللذان تألها ، وجعلا نفسيهما جزءاً من ثالوث إلهي خاص ابتدعاه .

ويرى بعض الدارسين أن ثمة تأثراً في الفكر الشبتاني بالتراث المسيحي يتبدَّى في مركزية فكرة الماشيَّح الفرد ، كما يتبدَّى في فكرة الخلاص الداخلي وفي الحرية الباطنية . ولكن التشابه الأصلي يتبدَّى أساساً في شخصية الماشيَّح . فالمسيح عيسى بن مريم ، حسب العقيدة المسيحية ، هو تجسد الإله في ابنه الذي يُصلَب ، وهي فكرة مبنية على فكرة التناقض (بارادوكسا) وتَقبُّلها ، فالإله يصبح بشراً وهذا البشري يُصلَب . والواقع أن ثمة تناقضاً أساسياً في فكرة الماشيَّح عند الشبتانيين ، وهو أن الماشيَّح هو ابن الإله البكر الذي ينزل إلى الظلمات والدنس فيرتد عن اليهودية ويعتنق المسيحية أو الإسلام أو يتظاهر بذلك ، وارتداده شكل من أشكال الصلب ، فكأن الماشيَّح المرتد المدنَّس هو المسيح المصلوب . ولكن ارتداده ، مثل الصلب ، مسألة غير حقيقية ، فالمؤمنون يرون أن هذا هو عالم الظاهر والحس ، كل ما فيه زائف ، ويظل الباطن (القيام والطهر) هو الحقيقة . والفارق بين الشبتانيين المعتدلين والشبتانيين المتطرفين يتمثل في موقفهم من هذه الفكرة ، فالمعتدلون منهم يرون أن عليهم الإيمان حتى يظهر الماشيَّح المرتد ، أما المتطرفون فيرون أن الإيمان لا يكفي وعليهم أن يتشبهوا به وأن يرتدوا هم أيضاً ، وبذلك ينزلون إلى عالم الدنس مثل الماشيَّح المرتد المدنَّس . بل يرى بعض الدارسين أن الشبتانية تؤمن بثالوث هو : الإله الخفي (النور غير العاقل) ، وإله جماعة يسرائيل (النور العاقل) والشخيناه (جماعة يسرائيل) أو أيَّ تنويع آخر ، كما يرون أن هذا التثليث صورة سوقية مشوهة للتثليث عند المسيحيين .

ويظهر الثالوث الشبتاني في ثالوث الفرانكية :

١ - الأب الطيب (ويقابل الإين سوف في العقيدة القبَّالية) .

٢ - الأخ الأعظم أو الأكبر (ويقابل التفئيريت أو الابن) .

٣ - «الأم علماه» أو «العذراء بتولاه» أو «هي» ، وهي خليط من الشخيناه والعذراء مريم .

والثالوث الفرانكي يضم كثيراً من عناصر الثالوث المسيحي بعد تشويهها تماماً . ويتجلى أثر المسيحية في اليهودية في الحركة الحسيدية التي يعتقد البعض أنها جوهر اليهودية ، أو اليهودية الخالصة ، بينما هي في واقع الأمر متأثرة تماماً بالمسيحية الأرثوذكسية السلافية ، وخصوصاً جماعات المنشقين مثل الدوخوبور (المتصارعين مع الروح) والخليستي (من يضربون أنفسهم بالسياط) . وتُعَدُّ الجماعة الأخيرة أقرب الفرق إلى الحسيدية ، فقد كان قادتها يعتقدون أن الروح القدس تحل في قائد الجماعة (تساديك) ، ولذا فهو مسيح قادر على الإتيان بالمعجزات . وكان التساديك يشبه القديس المسيحي في مقدرته على الإتيان بالمعجزات ، كما كان نحمان البرتسلافي يستمع إلى اعترافات تابعيه ، ويقوم بالإجراءات اللازمة ليحصلوا على المغفرة . وكان بعض التساديك يقبلون من أتباعهم فدية أو خلاص النفس (بالعبرية : فيديون نيفيش) مقابل الخلاص الذي يعطونه لأتباعهم . ولذا ، فإن بعض الدارسين يُشبِّهون الفيديون نيفيش بصكوك الغفران . وكل تساديك أصبح مسيحاً ، مركزاً للحلول الإلهي ، له أرضه المقدَّسة التي لا ينافسه فيها أحد . وقد أخذ هذا الاتحاد شكلاً متطرفاً في حالة نحمان البراتسلافي الذي أعلن أنه الماشيَّح الوحيد (ويبدو أن أتباعه كانوا يعبدونه ، ولذا لم يَخلُفه أحد) . بل إن مصطلحاً مثل «الحمل بلا دنس» وهو مصطلح يتضمن مفهوماً مسيحياً بعيداً كل البعد عن روح اليهودية الحاخامية ، وجد طريقه إلى الحسيدية من خلال الخليستي . فكان الخليستي يعيشون بعيداً عن زوجاتهم باعتبار أن الإله شاء أن تحمل العذراء فحملت ، وكذا الأمر معهم . وهذا ما فعله بعل شيم طوف ، فعندما ماتت زوجته وعُرض عليه أن يتزوج من امرأة أخرى احتج ورفض وقال إنه لم يعاشر زوجته قط وأن ابنه هرشل قد وُلد من خلال الكلمة (اللوجوس) . وتظهر الفكرة نفسها في عذراء لادومير ، وهي تساديك أنثى امتنعت عن الزواج وكان لها أتباعها ، لكنهم انفضوا عنها بعد زواجها .

وفي العصر الحديث تأثر مارتن بوبر بالفكر الصوفي المسيحي (البروتستانتي) ومسألة تجسُّد الإله بشكل شخصي للمؤمن . ويظهر تَنصُّر الخطاب الديني اليهودي تماماً في خطاب الفيلسوف الصهيوني البرجماتي هوراس كالن الذي يرى أن اليهود أمة روحية ، وأن ذكرياتهم وآمالهم ومخاوفهم وعقائدهم ومواثيقهم تضفي على نضالهم القومي وأعمالهم ووسائلهم قداسة خاصة . ويحوِّل هذا البُعد الصوفي المقدَّس «المادة الفظة» التي تتكون منها حياة اليهود اليومية تحويلاً كاملاً ، يوافق ما تفعله العقيدة المسيحية الخاصة بالوجود الحق حين تحوِّل العشاء الرباني في فم المؤمن الحقيقي إلى «جسد المسيح» .

ويمكن القول بأن هذا هو تنصير اليهودية في مرحلة حلولية شحوب الإله . أما في مرحلة وحدة الوجود وموت الإله (حلولية بدون إله) ، فإن التنصير يأخذ شكلاً مختلفاً . وقد ظهر مؤخراً ما يُسمَّى «لاهوت موت الإله» أو «ما بعد أوشفيتس» الذي يَصدُر عن القول بأن حادثة الإبادة النازية لليهود حدث مطلق يتجاوز الفهم الإنساني ، ولذا فعلى المرء تَقبُّله دون تساؤل باعتباره سراً من الأسرار (بارادوكسا) ، من الواضح أن هذا اللاهوت تعبير عن تزايد معدلات العلمنة والإلحاد داخل العقيدة اليهودية . ولكن يمكننا أن نلاحظ أيضاً أنه تعبير عن تنصير النسق الديني اليهودي . فحادثة الصلب في الرؤية المسيحية هي اللحظة التي ينزل فيها الإله إلى الأرض متجسداً في شكل ابنه فيُصلَب فداءً للبشر ، وهي حادثة تتجاوز الفهم الإنساني ، وعلى الإنسان تَقبُّلها بكل تناقضاتها دون تساؤل وهي التي تعطي مغزى للتاريخ . وسنجد أن ما حدَث داخل عقل المفكرين الدينيين اليهود أن الابن أصبح الشعب اليهودي المقدَّس الذي جاء إلى هذا العالم فاضطهده الأغيار إلى أن تمت حادثة الصلب على يد النازيين ، فنظروا إلى هذه الحادثة التاريخية باعتبارها الواقعة الأساسية في تاريخ اليهود الحديث ، بل في تاريخ اليهود بأسره . ويشكل هذا استمراراً للنمط التنصيري القديم نفسه ، وقد أخذ نقطة الحلول (نزول الابن وصلبه وقيامه) وقام بتحويلها إلى شيء مستمر عبر التاريخ . وفي هذه الحالة ، يكون ظهور الشعب اليهودي في التاريخ هو النزول ، وتكون الكوارث التي لحقت به (ابتداءً بالخروج من مصر وانتهاءً بالإبادة) هي الصلب ، أما القيام فهو عودة الشعب اليهودي إلى فلسطين وقيام الدولة الصهيونية .

وإن تحدثنا عن تنصير اليهودية فلابد أيضاً من الحديث عن يهودية الفلاشاه ، فهي تحوي عناصر مسيحية كثيرة تجعل من الصعب على بعض الدارسين تسميتها «يهودية» . فالفلاشاه لا يعرفون التلمود أو العبرية ويتعبدون بالجعيزية لغة الكنيسة الإثيوبية المقدَّسة وتضم كتبهم المقدَّسة مقتطفات من العهد الجديد ، ولا يوجد عندهم حاخامات وإنما قساوسة ورهبان ، وهكذا . ولذا ، لا عجب أن مندوب الوكالة اليهودية نصحهم (عام ١٩٧٣) بأن يتنصروا حلاً لمشكلتهم . ومع هذا قبلتهم إسرائيل يهوداً في الثمانينيات مع تزايد حاجتها للمادة البشرية ، كما قبلت الفلاشاه مورا من بعدهم . يقابل مصطلح «تنصير اليهودية» مصطلح «تهويد المسيحية» .

ابن الإله

Son of God

«ابن الإله» يقابلها «بن إلوهيم» في العبرية ، وهي عبارة تشير إلى ما يلي :

١ ـ كل البشر باعتبار أن الإله هو أب لكل الناس (تثنية ٣/ ٦ ، أشعياء ٦٤/ ٧) .

٢ ـ أعضاء جماعة يسرائيل الذين يُشار إليهم في سفر الخروج باعتبارهم «إسرائيل ابني البكر» (٤/ ٢٢) ، وفي سفر التثنية باعتبارهم «أولاد للرب إلهكم» (١٤/ ١) ، وفي سفر هوشع باعتبارهم «أبناء الرب الحي» (١/ ١٠) . وفي سفر أشعياء (٦٣/ ١٦) «فإنك أنت أبونا . . . أنت يا رب أبونا » .

٣ ـ ملك اليهود (الماشيَّح) الذي يُشار إليه بأنه ابن الإله : "قال لي أنت ابني . . . أنا اليوم ولدتك" (مزامير ٢/ ٧) وكذلك (أخبار أول ١٧/ ١٣) . ولذا ، كان أحد ألقاب شبتاي تسفي «ابن الإله البكر» .

٤ ـ الملائكة (تكوين ٦/ ٢ وأيوب ١/ ٦ ، ٢/ ١) .

٥ ـ الأتقياء والعادلين (في الترجمة السبعينية فقط) .

٦ ـ الماشيَّح ، في الترجوم ، وفي بعض كتب الأبوكريفا الخفية ، وفي التفسيرات .

٧ ـ يشير فيلون إلى اللوجوس باعتباره ابن الإله .

٨ ـ كان يُشار إلى التوراة باعتبارها ابن الإله .

٩ ـ كان يُشار إلى المشناه باعتبارها «اللوجوس» ، أي «الكلمة» التي هي «ابن الإله» في التراث المسيحي .

ومع هذا ، يجب التنبيه إلى أن هذه الفكرة رغم انتشارها هي مجرد طبقة جيولوجية واحدة تراكمت مع طبقات أخرى عديدة داخل النسق الديني اليهودي ، بل إن كثيراً من اليهود ، في العصور الوسطى ، فقدوا حياتهم بسبب إنكارهم أن المسيح ابن الإله . وقد جاء في كثير من الردود الحاخامية على المسيحيين ، رفض لفكرة ابن الرب . ولذا جاء في مدراش (تفسير) كتبه أحد الحاخامات يقول : «الرب يقول : أنا الأول (أشعياء ٤٤/ ٦) لأنني لا أب لي ، وأنا الأخير ، لا أخ لي ولا إله غيري ، لأنني لا ابن لي » . فالتوحيد واحد من أهم الطبقات الجيولوجية التي تراكمت داخل اليهودية والتي تكتسب مركزية في بعض المداخل وفي كتابات بعض المفكرين اليهود . ولكن العكس صحيح أيضاً ، فإذا كانت فكرة «ابن الإله» تعبيراً عن شكل من أشكال الحلول المؤقت الشخصي غير المتكرر في التاريخ (ذلك أن الإله يحل ويشكل مؤقت في الزمان وفي إنسان بعينه فيُصلب ويقوم مرة أخرى) فإن الفكر القبَّالي يصل إلى درجة أكثر تطرفاً في الحلول بحيث يصبح الشعب هو الإله ويصل هذا التيار ذروته حين تصبح الدولة الصهيونية ليست ابن الإله ، وإنما هي الإله نفسه ، العجل الذهبي الجديد .

وقد جاء في سورة التوبة : « وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل » (التوبة ـ ٣٠) ، والمعنى هنا أن بعض اليهود هم الذين يؤمنون بأن عزير ابن الله ، ونسب ذلك القول إلى اليهود جاء على عادة العرب في إيقاع اسم الجماعة على الواحد ، فيُقال فلان يركب الخيول وهو لا يركب إلا واحداً منها ، وفلان يجالس السلاطين وهو لا يجالس إلا واحداً . ويقول الشهرستاني صاحب **الملل والنحل** : إن الصدوقيين هم الذين قالوا ذلك من بين سائر اليهود . ولا ندري مدى صحة ذلك ، ولكننا نعرف أن الصدوقيين أنكروا القيامة والبعث وخلود الروح . ويقول المقريزي : إن يهود فلسطين زعموا أن عزير ابن الله ، وأنكر أكثر اليهود ذلك .

ومنذ ظهور اليهودية الحاخامية لم يَعُد هناك أثر للإيمان بعقيدة ابن الإله ، وإن كان يُشار إلى التوراة باعتبارها «ابنة الإله» ، كما أن المشناه كان يُشار إليها باعتبارها «اللوجوس» ، أي «الكلمة» التي هي «ابن الرب» في التراث المسيحي .

المسيح (عيسى بن مريم)

Jesus

يُشار إلى المسيح (عيسى بن مريم) بكلمة «يشو» العبرية ، ويُشار إليه في التلمود بوصفه «ابن العاهرة» ، كما يُشار إلى أنَّ أباه جنديٌّ رومانيٌّ حملت منه مريم العذراء سفاحاً (أما كلمة «ماشيَّح» ، فإنها تشير إلى المسيح المخلِّص اليهودي الذي سوف يأتي في آخر الأيام) . ويشير التلمود إلى أنَّ صلب المسيح تمَّ بناءً على حكم محكمة حاخامية (السنهدرين) بسبب دعوته اليهود إلى الوثنية ، وعدم احترامه لسلطة الحاخامات . وكلُّ المصادر الكلاسيكية اليهودية تتحمَّل المسئولية الكاملة عن ذلك ، ولا يُذكَر الرومان بتاتاً في تلك المصادر . وظهرت كتب مثل **توليدوت يشو** (ميلاد المسيح) وهي أكثر سوءاً من التلمود نفسه وتتهم المسيح بأنَّه ساحر .

واسم المسيح نفسه (يشو) اسم مقيت . ولكن يُفسَّر على أنَّه كلمة مركَّبة من الحروف الأولى لكلمات أخرى (على نظام النوطيرقون) لعبارة معناها «ليفن اسمه ولتفن ذكراه» . وقد أصبحت الكلمة عبارة قدح في العبرية الحديثة ، فيُقال «ناصر يشو» ، وهي تساوي «ليفن اسم ناصر ، ولتفن ذكراه» وهكذا . ولا تساوي

اليهودية الحاخامية المسيحية بالإسلام ، فهي تعتبر أن المسيحية شرك وثنية ، ولكنها لا ترى أن الإسلام كذلك .

توليدوت يشو

Toledot Yeshu

«توليدوت يشُو» عبارة عبرية تعني «حياة المسيح» وهي عنوان كتاب كان متداولاً بين أعضاء الجماعات اليهودية في العصور الوسطى في الغرب . ويُقدِّم هذا الكتاب التصور اليهودي لمولد وحياة المسيح . وقد تداخلت عدة عناصر لتكوِّن هذه الصورة من بينها بعض أقسام التلمود (سوطه أو المرأة المشبوهة ـ السنهدرين) وبعض الفتاوى في عصر الفقهاء (جاؤون) ، وبعض العناصر الفلكلورية المنتشرة بين أعضاء الجماعات اليهودية . ويُقدِّم الكتاب أحياناً صورة إيجابية إلى حدٍّ ما للعذراء مريم أم المسيح ، فهي من عائلة طيبة وتعود جذورها لبيت داود ، أما أبو المسيح فهو رجل شرير قام باغتصابها ثم هرب .

وتُبيِّن القصة أن المسيح شخص يتمتع بذكاء عال ولكنه لا يحترم شيوخ البلد وحكماءها . وهو يتمتع بمقدرات عجائبية لأنه سرق أحد الأسماء السرية للإله من الهيكل ، ومع هذا ينجح أحد فقهاء اليهود في إبطال سره ، وتوجد تفاصيل أخرى في الكتاب أكثر بشاعة وقبحاً .

ويهدف الكتاب إلى تفريغ قصة المسيح من أي معنى روحي ، كما أنها تحاول تفسير المعجزات التي تدور حول المسيح بطريقة تكشفها وتنزع عنها أيَّ سحر أو جلال أو هالات دينية . وهذا الكتاب يُسبِّب كثيراً من الحرج للجماعات اليهودية حينما تكتشف السلطات أمره . ولذا كان بعض الحاخامات يحرصون على تأكيد أن يسوع المشار إليه في الكتاب ليس المسيح وإنما هو شخص يحمل هذا الاسم عاش قرنين قبل الميلاد . وقد أُعيد طبع كتاب **توليدوت يشو** على نطاق واسع في إسرائيل .

تهويد المسيحية

Judaization of Christianty

«تهويد المسيحية» اصطلاح يشير إلى عمليات تحول بنيوية بدأت تدخل المسيحية منذ الإصلاح الديني وتبدَّت في المسيحية البروتستانتية . وجوهر التهود انتقال الحلول الإلهي من الكنيسة إلى الشعب .

وقد نتج عن ذلك زيادة الاهتمام بالعهد القديم وانتشار الحركات الصوفية الحلولية بين المسيحيين والقبَّالاه المسيحية . (انظر أيضاً : «البروتستانتية والإصلاح الديني») .

التراث اليهودي المسيحي

Judeo-Christian Tradition

«التراث اليهودي المسيحي» مصطلح ازداد شيوعاً في العالم الغربي في الآونة الأخيرة ، وهو يعني أن ثمة تراثاً مشتركاً بين اليهودية والمسيحية ، وأنهما يكوِّنان كلاً واحداً . وهو ادعاء له ما يسانده داخل النسق الديني المسيحي وإن كان لا يعبِّر عن الصورة الكلية إذ أن مصطلح «التراث اليهودي المسيحي» يتجاهل حقائق دينية أساسية :

١ ـ هناك الاختلافات الأساسية الواضحة مثل الإيمان بالتثليث في المسيحية والإيمان بوحدانية الإله في اليهودية . والشيء نفسه ينطبق على موقف كلتا العقيدتين من تجسيم الإله وتصويره وتشبيهه بالبشر ، إذ أن العقيدة المسيحية تقبله (وهنا لابد أن نشير إلى طبيعة اليهودية كتركيب جيولوجي تراكمي) . ولذا ، فبرغم تأكيد التوحيد وعدم التشبيه والتجسيم على مستوى من المستويات ، فإن ثمة سقوطاً في الحلولية المتطرفة التي تؤدي باليهودية إلى الشرك والتجسيم والتشبيه إلى درجات متطرفة لا تعرفها المسيحية نفسها . كما أن موقف اليهودية والمسيحية من الخطيئة مختلف بشكل جوهري ، فالمسيحية تؤمن بأن الإنسان ساقط بسبب الخطيئة الأولى . أما اليهودية ، فلا تؤمن بالخطيئة الأولى . ولذا ، فإن أداء الشعائر ، واتباع الأوامر والنواهي ، كافيان لخلاص الإنسان .

٢ ـ وثمة خلافات بين العقيدتين حول فكرة المسيح ، فبينما ترى اليهودية المسيح (أي الماشيَّح) باعتباره شخصية سياسية قومية سيقود شعبه إلى صهيون ويعيد بناء الهيكل ويؤسس المملكة اليهودية مرة أخرى ، فإن المسيح في المسيحية إله إنسان مهمته خلاص كل البشرية لا الشعب اليهودي وحسب .

٣ ـ تُعدُّ قضية صلب المسيح قضية أساسية ونقطة خلاف رئيسية . فمن المعروف أن كل أمة أو مجموعة عرْقية أو دينية تدَّعي أنها مدينة بوجودها لشكل من أشكال التضحية والفداء الرمزي ، أو الفعلي الذي يكتسب مكانة رمزية ويصبح بمنزلة الركيزة النهائية للنسق ولحظة التأسيس . وحادثة الصلب في المسيحية هي هذه اللحظة ، حين نزل ابن الإله إلى الأرض وارتضى لنفسه أن يُصلَب ، وكان فعله هذا الفداء الأكبر . ولحظة الصلب هذه ليست لحظة زمنية ، رغم حدوثها في الزمان ، ولا ترتبط بفترة تاريخية معينة رغم وقوعها

في التاريخ ، فهي كونية ، وفي احتفالات الجمعة الحزينة يحاول المسيحي المؤمن أن يستعيد ألم المسيح ، هذه الواقعة الكونية التي لا يمكن أن تنافس واقعة أخرى . واليهود عنصر أساسي في حادثة الصلب ، فحاخاماتهم هم الذين حاكموا المسيح وهم الذين أصروا على صلبه، فهم قتلة الرب ، الذين يقتلونه دائماً ، بإنكارهم إياه .

ورغم المحاولات العديدة ، المسيحية واليهودية ، لتغيير هذه البنية الرمزية للوجدان المسيحي ، فإن مثل هذه المحاولات لا تُكلَّل بالنجاح نظراً لأن المجال الرمزي مجال إستراتيجي يتسم بقدر من الثبات . ولذا فكثيراً ما تنشب الصراعات فجأة وبلا مقدمات حين يقوم بعض المسيحيين بتمثيل بعض المسرحيات الدينية التي تبرز الرموز المسيحية وتسقط على اليهودي دور قاتل الرب . وقد نشب صراع حول أوشفيتس كان في جوهره صراعاً حول الرموز ومعناها . فحادثة الإبادة ، أصبحت في الوجدان اليهودي لا تختلف عن حادثة الصلب في الوجدان المسيحي . ولذا حين أقامت بعض الراهبات الكرمليات ديراً في هذا المعتقل لإقامة الصلاة على الضحايا من أي عرْق أو دين أو جنسية اعترض ممثلو أعضاء الجماعات اليهودية ، لأن هذا يعني فرض لحظة الصلب المسيحية ، على لحظة الصلب اليهودية !

٤ ـ ثمة رأي داخل المسيحية يقول بأن العهد الجديد لم ينسخ العهد القديم ، ولكنه مع هذا حل محله وتجاوزه . ومع أن الكنيسة لم تستبعد العهد القديم (وقد كان مارسيون وبعض الغنوصيين يجاهرون بأن إله العهد القديم إله غيور ، على حين أن إله العهد الجديد إله رحيم) ، فإن الإيمان المسيحي يستند إلى أن الشريعة (أو القانون) قد تحققت من خلال المسيح وتم تجاوزها ، وأن الرحمة الإلهية والإيمان بالمسيح وسيلة للخلاص حلت محل الشريعة والأوامر والنواهي ، ومن ثم كان رفض الشعائر الخاصة بالطعام والختان التي تَمسَّك بها اليهود . وقد ذهب المسيحيون إلى أن اليهودية دين الظاهر والتفسير الحرفي دون إدراك المعنى الداخلي أو الباطن ، وأن الكنيسة هي يسرائيل فيروس ، أي يسرائيل الحقيقية ، وأنها يسرائيل الروحية (حسب الروح) ، أما اليهود فهم يسرائيل الزائفة الجسدية التي لا تدرك مغزى رسالتها . وبالتالي ، فَقَد اليهود دورهم ، وأصبحت اليهودية ديانة متدنية بالنسبة إلى المسيحيين ، ووصف اليهود بأنه شعب يحمل كتباً ذكية ولكنه لا يفقه معنى ما يحمل .

٥ ـ لكل هذا ، أعادت الكنيسة تفسير العهد القديم بحيث اكتسب مدلولاً جديداً مختلفاً تماماً عن مدلوله عند اليهود الذين استمروا في شرحه وتفسيره على طريقتهم ، وفهمه فهماً حرفياً وحلولياً وقومياً .

ومن ثم اختلف النسق الديني اليهودي عن النسق الديني المسيحي . ومن أهم أشكال الاختلاف أن المسيحية أصبحت ديناً عالمياً ، باب الهداية فيه مفتوح للجميع (وهذا أمر متوقع بعد أن خففت المسيحية من حدة وتطرف الحلولية اليهودية بحصرها الحلول الإلهي في المسيح واعتبار الكنيسة جسد المسيح) ، على عكس اليهودية التي ظلت ديناً حلولياً مغلقاً مقصوراً على شعب أو عرْق بعينه يظل وحده موضع الحلول الإلهي . ثم تَعمَّق الاختلاف بحيث أصبحت للمسيحيين رؤية مختلفة تماماً عن رؤية اليهودية .

٦ ـ وقد تبدَّى كل هذا في شكل صراع تاريخي حقيقي ، فقد رفض اليهود المسيح (عيسى بن مريم) ولا يزالون يرفضونه . ويلوم الآباء المسيحيون الأوائل اليهود باعتبارهم مسئولين عما حاق بالمسيحيين الأولين من اضطهاد ، وأنهم هم الذين كانوا يهيجون الرومان ضد المسيحيين ويلعنون المسيحيين في المعابد اليهودية ، وأنهم هم المسئولون في نهاية الأمر عن صلب المسيح . وهم يرون أن هدم الهيكل وتشتيتهم هو العقاب الإلهي الذي حاق بهم على ما اقترفوه من ذنوب (وتشكِّل معاداة اليهود ، باعتبارهم قتلة الرب ، جزءاً أساسياً وجوهرياً من التراث الفني الديني المسيحي من موسيقى ورسم ومسرحيات) .

وقد استمر الصراع إلى أن تغلبت المسيحية في نهاية الأمر على اليهودية ، وانتشرت بين جماهير الإمبراطورية الرومانية . واستمر من تَبقَّى من اليهود في الإيمان باليهودية ويعبِّرون عن رأيهم ، في كتب مثل التلمود والقبَّالاه ، يتحدثون عن المسيح والمسيحيين بنبرة سلبية وعنصرية للغاية .

وقد تَحدَّد موقف الكنيسة من اليهود في مفهوم الشعب الشاهد، وهو أن اليهود هم الشعب الذي أنكر المسيح الذي أرسل إليهم ، وهم لهذا قد تشتتوا عقاباً لهم على ما اقترفوه من ذنوب . ولكن رفض اليهود للمسيح سر من الأسرار . فاليهود في ضعفهم وذلتهم وتشرُّدهم يقفون شاهداً على عظمة الكنيسة ، أي أن اليهود بعنادهم تحولوا إلى أداة لنشر المسيحية .

ومن ثم ، يمكننا أن نقول إن العلاقة بين اليهودية والمسيحية علاقة عدائية متوترة إلى أقصى حد ، ولكن مصطلح «التراث اليهودي المسيحي» يزداد مع هذا شيوعاً ، وخصوصاً في الأوساط البروتستانتية واليهودية الإصلاحية وأحياناً المحافظة ، أما اليهود الأرثوذكس فيرفضونه . وقد يكون قبول المصطلح من هذه الفرق تعبيراً عن عودة الحلولية داخل هذه الأنساق الدينية . ويمكن العودة إلى مداخل «القبَّالاه» حيث نبيِّن أنه بهيمنة القبَّالاه على اليهودية

استولى عليها نسق حلولي كموني ، عبَّر عن نفسه في بداية الأمر في هيئة انفجارات مشيحانية (شبتاي تسفي) وفلسفات علمانية حلولية (إسبينوزا) ثم فلسفات حلولية ربوبية (موسى مندلسون) وأخيراً على هيئة «اليهودية الإصلاحية» و«اليهودية المحافظة» و«اليهودية التجديدية» (انظر أيضاً : «الحلولية والتوحيد والعلمنة : حالة اليهودية [أطروحة ماكس فيبر وبيتر برجر]») . وبإمكان القارئ أن يعود إلى مدخل «البروتستانتية (القرن السادس عشر والسابع عشر)» ومدخل «عصر النهضة (القرن السادس عشر والسابع عشر)» حيث نبيِّن تصاعد الحلولية داخل النسق الديني المسيحي . فبدلاً من المفهوم الكاثوليكي للحلول (حلول مؤقت في شخص واحد ومنته ترثه الكنيسة كمؤسسة) تظهر فكرة الحلول البروتستانتية حيث ينتقل الحلول من مؤسسة الكنيسة إلى الشعب أو الفرد أو الجميع وهو حلول دائم ، وهو في تصوُّرنا شكل من أشكال تهويد المسيحية .

وفي الواقع فإن تزايد قبول المصطلح يعبِّر أيضاً عن تزايد علمنة الدين في الغرب (وثمة ترابط بين تزايد معدلات الحلولية ومعدلات العلمنة) بحيث يمكن الوصول إلى صيغ توفيقية تُفقد العقائد كثيراً من أبعادها وخصوصيتها ، وهذا هو جوهر التسامح العلماني : أن يتخلى الجميع عن هويتهم ويلتقوا على مستوى علماني ويتوحدوا في هوية علمانية واحدة . وقد وصف أحد الباحثين التراث اليهودي المسيحي بأنه تعبير جديد عن الاتجاهات الربوبية في المجتمع الغربي التي تؤكد العناصر الأخلاقية المشتركة بين البشر وبعض افتراضاتهم الأخلاقية دون الإيمان بإله شخصي يرسل بالوحي (مع إسقاط أهمية الشعائر بسبب خصوصيتها) . ولعل عملية العلمنة هذه هي نفسها ما يُطلَق عليه «عملية التهويد» (وقد استخدم ماركس كلمة «تهويد» بهذا المعنى حين تَحدَّث عن انتشار الرأسمالية في المجتمع باعتباره عملية «تهويد» ، فجعل كلمة «اليهودية» مرادفة لكلمة «الرأسمالية») .

وفي الوقت الحاضر تختلف المواقف المسيحية من الصهيونية وإسرائيل وتتباين ، وإن كانت كلها تميل الآن نحو قبول الدولة الصهيونية والاعتراف بها . وتوجد نزعة صهيونية / معادية لليهود تسري في عقائد بعض الكنائس البروتستانتية المتطرفة (انظر : «شهود يهوه» - «المورمون» - «فرسان الهيكل») . وحتى عام ١٩٦٤ كانت الكنيسة الكاثوليكية تؤكد أن اليهود هم المسئولون عن دم عيسى . وكانت المؤسسة الصهيونية بدورها تتهم الفاتيكان بأنه وقف متفرجاً على مذابح اليهود وإبادتهم على أيدي هتلر . وبالتدريج اختلف موقف الفاتيكان حتى اعترفت بالدولة الصهيونية في ديسمبر ١٩٩٤ ، ومع هذا يؤكد المتحدثون باسم الفاتيكان بأن الاعتراف بالدولة الصهيونية لا علاقة له بالعقائد المسيحية .

الارتداد (خصوصاً التنصر)

Apostasy (especially Conversion to Christianity)

«الارتداد» بالعبرية «مينوت» من كلمة «مين» التي تعني «كُفْر» و«زندقة» مصطلح يطلقه أتباع أي دين على من يترك هذا الدين . ولا يتحدث العهد القديم قط عن أشخاص ارتدُّوا عن اليهودية (عبادة يسرائيل) ، وإنما يتحدث عن سقوط الشعب ، أو قطاعات كبيرة منه ، في الوثنية (حادثة العجل الذهبي والحوادث الأخرى المشابهة في تاريخ الملوك العبرانيين) . وقد كان معظم جهد الأنبياء موجهاً للحرب ضد هذا الابتعاد عن التوحيد ، أي السقوط في الشرك والوثنية والارتداد عن عبادة يهوه .

ويُلاحَظ أن «الارتداد» هنا كان يحمل أحياناً معنى الخيانة القومية باعتبار أن كل إله كان مقصوراً على شعب واحد بعينه ويحل فيه . ولم يُطبَّق مصطلح «الارتداد» في اليهودية إلا ابتداءً من العصر الهيليني ، فقبل ذلك الوقت لم تكن اليهودية قد تحددت معالمها تماماً ، ولم يكن الكتاب المقدَّس قد تم تدوينه بأكمله . ومع هذا ، يجب أن نشير إلى عدة سمات في اليهودية تجعل لفظ «مرتد» دالاً غير مستقر الدلالة عبر تاريخها الطويل يجعل استخدامه صعباً :

١ - اليهودية ، كنسق ديني ، له طابع جيولوجي تراكمي تتعايش داخله طبقات متباينة . وقد كان الصدوقيون ينكرون البعث حتى آخر العصر الهيليني ، وهم القيادة الكهنوتية . وقد ظلت الأفكار اليهودية الأخروية غير مستقرة بصورة غير محدَّدة .

٢ - لم تُحدِّد اليهودية العقائد الأساسية الملزمة لليهودي . ولم تضع أصولاً للدين . ولعل أول محاولة جادة هي محاولة موسى بن ميمون في القرن الحادي عشر ، وهي محاولة تقبَّلتها اليهودية وحولتها إلى طبقة جيولوجية أخرى تراكمت على ما قبلها من طبقات، دون أن تلغي ما قبلها ودون أن تمنع تكوُّن طبقات أخرى بعدها .

٣ - عرَّفت الشريعة اليهودية اليهودي بأنه « من وُلد لأم يهودية » ، وإن ارتد اليهودي عن دينه فإنه يظل يهودياً .

لذا ، ظل اصطلاح «مرتد» غير مستقر . ومع هذا ، يُلاحَظ أن المصطلح بدأ يتواتر ابتداءً من العصر الهيليني . ولكنه ظل ذا بُعد إثني ، بمعنى أن المرتد ليس من ترك دينه وإنما من ترك قومه . وهذا أمر مفهوم في الإطار الحلولي ، حيث يحل الإله في الشعب تماماً ،

ويصبح الشعب موضع القداسة ومصدر المطلقية . ولذا ، فإننا نجد إشارة إلى اليهود المتأغرقين في أيام أنطيوخوس الرابع (القرن الثاني قبل الميلاد) باعتبارهم «مرتدين» حرضوا على اضطهاد السلوقيين لليهود . وفي الواقع ، فإن العبارة تحمل معنى الارتداد عن الدين وتحمل في الوقت نفسه معنى الخيانة القومية (ولعل استخدام لفظ «يورديم» العبري بمعنى «المرتدين» للإشارة للإسرائيليين الذين يهاجرون من أرض الميعاد هو بعث لهذا المعنى) . ومن المعروف أن التمرد الحشموني بدأ حين قام الكاهن ماتياس بذبح «المرتد» . وثمة إشارة أخرى إلى مريم (من بيت بيلجا) التي ارتدت وتزوجت أحد موظفي القصر الملكي ، وحينما دخل السلوقيون الهيكل دخلت معهم وخربت المذبح بيدها « لأن الإله هجر شعبه» . ومن الواضح أن موقف مريم من الإله موقف عملي وثني . ومن أشهر المرتدين تايبريوس يوليوس ألكسندر أحد قادة جيش تيتوس حين قام بحصار القدس وهدم الهيكل الثاني . ومن أهم المرتدين العالم الديني أليشاه بن أبوياه ، الذي أصبح ، فيما بعد (في كتابات ليلينبلوم وغيره من دعاة التنوير) .

ومع ظهور كلٍّ من المسيحية والإسلام ، اختلف الوضع تماماً ، إذ لم تَعُد اليهودية ديانة توحيدية في محيط وثني بل أصبحت ديانة توحيدية في محيط توحيدي يرى الخالق باعتباره القوة الكامنة وراء الطبيعة والتاريخ المتجاوزة لهما .

وقد أسلم عدد من يهود الجزيرة العربية ، مثل : عبد الله بن سلام ، وعبد الله بن سبأ ، وكعب الأحبار . ويبدو أن أعداداً كبيرة من اليهود ، وخصوصاً في العراق ، اعتنقت الإسلام ، ويُقال إن كثيراً من الإسرائيليات دخلت الإسلام من خلالهم . وقد حكم علاقة الإسلام باليهود مفهوم أهل الذمة الذي لا يُحرِّم الدعوة إلى الإسلام بينهم ، وإن كان يحرم فرض الإسلام عليهم عنوة . وتجب ملاحظة أن انتقال اليهودي من اليهودية إلى الإسلام لم يكن يشكل صعوبة بالغة في الماضي ، لأن العنصر التوحيدي في اليهودية كان لا يزال قوياً . ولذلك فإن الرموز الإسلامية لم تكن غريبة عليه ، على عكس الرموز المسيحية (الصليب والتثليث) ، وخصوصاً أن لحم الخنزير ، رمز الدنس عند اليهود ، مُحرَّم في الإسلام . ولا يساوي الشرع اليهودي بين اليهودي الذي يعتنق الإسلام واليهودي الذي يعتنق المسيحية ، إذ يضع الأول في منزلة أعلى باعتبار أنه لم يشرك ، أما المسيحية فقد وصفها بأنها شكل من أشكال الشرك . ورغم عدم وجود إحصاءات أو دراسات في الموضوع ، فإننا نميل إلى القول بأن عدم تزايد عدد يهود العالم الإسلامي يعود إلى أن الكثيرين منهم اعتنقوا الإسلام . كما نعتقد أن الحركة القرّائية لعبت دوراً أساسياً في هذا الاتجاه ، إذ صبغت اليهودية ببعض السمات الإسلامية إلى حدٍّ ما ، وهو اتجاه تَعمَّق على المستوى الفكري في كتابات موسى بن ميمون حين طرح أصول اليهودية بشكل يجعلها لا تختلف ، في كثير من أساسياتها ، عن أصول الدين الإسلامي . وقد حاول ابنه من بعده (في القاهرة) أن يصبغ الشعائر اليهودية بالصبغة الإسلامية وأن يُقرِّبها من الشعائر الإسلامية . وفي تاريخ المسلمين ، هناك حالات فُرض فيها الإسلام على اليهود عنوة . ولكن تيار التحول إلى الإسلام تراجَع ولا شك مع تراجُع الدولة الإسلامية نفسها ومع انتقال مركز اليهودية إلى أوربا المسيحية .

أما علاقة اليهودية بالمسيحية ، فهي علاقة متوترة للغاية ، وثمة عناصر مشتركة كثيرة بين الديانتين أشرنا إليها في مدخل «تنصير اليهودية» . وقد ظهرت المسيحية في وقت كانت فيه أعداد كبيرة من اليهود قد تأغرقت وبعُدت عن المركز الديني في القدس بهيكلها ، كما أن اليهود المتأغرقين كانوا يعرفون الترجمة السبعينية التي تبنتها الكنيسة ككتاب مقدَّس . وقد أشارت الترجمة السبعينية إلى يهوه باعتباره رب العالمين ، أي أنها ترجمة ابتعدت عن الإطار الحلولي . وكان التفكير الديني اليهودي قد بدأ يتخلص من كثير من حدوده الضيقة على يد فيلون الذي كان قد طوَّر مفهوم اللوجوس (الذي تبنته المسيحية فيما بعد وأصبح جزءاً من ثالوثها) .

ويبدو أن الحُمَّى المشيحانية آنذاك كانت قد تصاعدت بين اليهود في فلسطين ، وهي الحُمَّى التي اندلعت على هيئة التمرد اليهودي الأول ضد روما وانتهى بتحطيم الهيكل عام ٧٠ ميلادية فكان بمثابة ضربة قاضية لليهودية . ولكل هذه الأسباب ، تنصَّر كثير من اليهود . لكن هذه الجماعات كانت جماعات مسيحية يهودية أو يهودية مسيحية ، بمعنى أنها كانت جماعات من اليهود تؤمن بالمسيح عيسى بن مريم ، مثل الأبيونيين ، كما كانت ترى أن المسيح نبي وليس الكريستوس أو الماشيِّح . وكان بعضهم يرى أنه الماشيِّح ، ولكنهم رفضوا الاعتراف بألوهيته وبنوته للرب كما أنكروا مفهوم التثليث وأن الشريعة اليهودية قد تم نسخها . وقد ظلت هذه الفرق قائمة إلى أن انفصلت تماماً عن اليهودية ، وخصوصاً بعد أن أدخل الحاخامات في الثمانية عشر دعاء (شمونة عسريه – وهي أهم أجزاء الصلاة اليهودية) الدعاء الثاني عشر الذي يشير إلى المينيم (الكفرة) ويلعنهم . وكان الهدف من إدخال هذا الدعاء منع المسيحيين اليهود من المشاركة في الصلاة . والواقع أنه لا يمكن تفسير نقصان عدد اليهود في العالم من سبعة ملايين في القرن الأول الميلادي إلى أقل

من مليون في بداية العصور الوسطى (في الغرب) إلا بتنصر أعداد هائلة منهم .

وقد بلورت الكنيسة موقفها في مفهوم الشعب الشاهد الذي يقرر أن التنصر لابد أن يتم بكامل حرية اليهودي . ولذا ، فحينما كانت تحدث مذابح تؤدي إلى تنصر بعض اليهود ، فإن السلطات كانت تسمح لهم بالعودة إلى دينهم . ومع هذا ، كانت هناك أعداد كبيرة من اليهود تتنصر مع بدايات العصور الوسطى لأسباب عدة : روحية (مثل الإعجاب بالمسيحية) ، ومادية (مثل الرغبة في الثروة أو الحراك الاجتماعي أو الخوف من السلطة) . ولا توجد إحصاءات عن عدد المتنصرين ، ولكن يبدو أن أعداد المتنصرين في إسبانيا المسيحية كانت عالية للغاية ، خصوصاً بين أعضاء النخبة . والواقع أن يهود إسبانيا تنصروا بكامل حريتهم ، نظراً لأنهم كانوا مندمجين أصلاً في المحيط الحضاري الإسباني الكاثوليكي ، ونظراً لتآكل اليهودية بين أعضاء النخبة . بل ذهب بعض الحاخامات إلى القول بأن طرد اليهود من إسبانيا هو عقاب لهم على تَرْكهم للدين وعلى ارتداد نخبتهم . وقد ظهرت العقيدة الاسترجاعية في عصر النهضة والإصلاح الديني . وهي عقيدة تذهب إلى أن الخلاص لن يتم إلا بجمع شمل اليهود في فلسطين بعودتهم إليها ، ثم تنصيرهم . وأصبحت العودة والتنصير من علامات الساعة . وهذا يفسر إبهام الموقف البروتستانتي من اليهود حيث ينحو منحى صهيونياً ويتخذ موقفاً معادياً لليهود في آن واحد . وقد قام يهود المارانو بدور حاسم في عملية تنصير اليهودية ، فقد أشاعوا القبَّالاه (وخصوصاً القبَّالاه اللوريانية) المتأثرة بالمسيحية لدرجة أن أتباع أبي العافية تنصروا لاكتشافهم الشبه بين نسقه الفكري والمسيحية ، كما أن كثيراً منهم كانوا مسيحيين صادقين في إيمانهم ، وفُرضت عليهم اليهودية فرضاً بسبب غباء محاكم التفتيش وعنصريتها . ولذا ، فإنهم كانوا يفكرون من خلال إطار مسيحي كاثوليكي . وحتى أولئك اليهود المتخفون الذين احتفظوا بيهوديتهم سراً ، أصبح إطارهم المفاهيمي كاثوليكياً . فهم ، على سبيل المثال ، كانوا يؤمنون بالقديسة «سانت إستير» ، بل إن بعض شعائرهم تأثرت بالشعائر المسيحية . وقد تأثر كثير من يهود اليديشية بالجو المسيحي السلافي الصوفي حولهم ، وبخاصة هؤلاء الذين كانوا يعيشون بعيداً عن مراكز الدراسات التلمودية في المدن الكبرى .

وكان كثير من المرتدين عن اليهودية يتحولون إلى أعداء شرسين لدينهم ولبني جلدتهم ، فكانوا يحرضون الكنيسة عليهم ويكشفون لهم مواطن التعصب في العقيدة اليهودية التي يحرص اليهود على إخفائها .

هكذا كان وضع اليهودية حتى ظهرت الحركات الشبتانية ، وأهمها من منظور هذا المدخل الحركة الفرانكية التي كان لها ثالوثها الواضح وإيمانها بالتجسد . وقد انتهى الأمر بأعضاء هذه الحركة إلى أن تنصروا بشكل جماعي ودخلوا الكنيسة الكاثوليكية .

ومع ظهور حركة الاستنارة والتنوير ، تغيَّر الموقف في أوربا ، فلم يَعُد هناك ضغط مباشر على اليهود ليتنصروا ، ولكن ظهر نوع آخر من الضغط هو التسامح نحوهم . وكانت اليهودية الحاخامية قد دخلت مرحلة أزمتها وتكلست ، فلم تَعُد تزود اليهودي بالإجابات عن الأسئلة الكونية التي تواجهه ، كما لم يكن بوسعها أن تشفي غليله الديني . كما أن تأكيدها على الشعائر ، جعل من الصعب على كثير من اليهود أن يقيموا هذه الشعائر ويحتفظوا بإنسانيتهم في آن واحد . ومن ناحية أخرى ، فإن ثراء الحضارة الغربية ، قياساً إلى الفقر الحضاري الشديد داخل الجيتو ، جعل منها نقطة جذب قوية . وقد بدأت ، داخل اليهودية في ألمانيا ، حركة إصلاح على نمط حركة الإصلاح الديني البروتستانتي ، فعُدِّلت بعض الشعائر ، وأُلغي بعضها الآخر . ولكن ، حينما أُنجزت هذه العملية ، لم يبق سوى هيكل جاف من العقائد العامة لا يختلف في كثير من أساسياته عن العقائد المسيحية الأساسية . ويمكن أن نضيف إلى كل هذا دافع الرغبة في الحراك الاجتماعي ، فالتنصر (على حد قول هايني) تذكرة الدخول إلى الحضارة الغربية . ولهذا ، فإن كثيراً من أعضاء النخبة والقيادات اليهودية كانوا قد اندمجوا في محيطهم الحضاري الغربي . ولكل هذا ، كان من المتوقع أن يتنصر اليهود بأعداد كبيرة . وهذا ما حدث بالفعل ، حيث يذكر جرايتز أن نصف يهود برلين قد تنصروا في أواخر القرن الثامن عشر . ونحن نعرف أن أعضاء أسرة موسى مندلسون تنصروا جميعاً ، وتنصر كثير من أعضاء أسرة فرايدلندر (الذي اقترح تنصيراً جماعياً لليهود) . وقد بدأ هرتزل أحلامه الصهيونية ، في تخليص أوربا من يهودها ، باقتراح تنصيرهم كما تنصر معظم أولاده . ومن أهم اليهود الذين تنصروا : هايني ، ووالد كارل ماركس ، ووالد بنجامين دزرائيلي . كما تنصَّر كثير من يهود روسيا ، وخصوصاً هؤلاء الذين تم تجنيدهم في سن مبكرة . وكان من المتوقع أن يزيد عدد المتنصرين ، لكن ظهور النظريات العرْقية أوقف هذه العملية لأن اليهودي الذي يتنصر يمكنه أن يهرب من هويته ويغيرها حسب التعريف الديني ، أما النظريات العرْقية فتجعل الانتماء مسألة ميراث عرْقي ، وبالتالي تصبح الهوية مسألة بيولوجية ولا يُجدي فيها التنصُّر فتيلاً .

وفيما يلي ، إحصاءٌ بعدد المتنصرين في القرن التاسع عشر والبالغ ٢٠٤,٥٤٢ :

آسيا وأفريقيا	٦٠٠	إيطاليا	٣٠٠
أستراليا	٢٠٠	أمريكا	١٣,٠٠٠
النمسا/ المجر	٤٤,٧٥٦	الشمالية	٥٠٠
فرنسا	٢,٤٠٠	السويد	١,٥٠٠
ألمانيا	٢٢,٥٢٠	والنرويج	٨٤,٥٣٦
بريطانيا	٢٨,٨٣٠	رومانيا	٣,٣٠٠
العظمى	١,٨٠٠	روسيا	
هولندا		تركيا	

ويميل كثير من الدارسين إلى القول بأن هذا العدد أقل من العدد الحقيقي بسبب صعوبة جمع الإحصاءات الدقيقة بالنسبة لموضوع مثل هذا . فالمتنصر يفضل ألا يجاهر بموقفه لاعتبارات اجتماعية عديدة . ولعل أصدق مثل على هذا ما حدث للوزير الإسرائيلي موشيه أرينز حينما مات أخوه في ولاية كونتيكت في الولايات المتحدة . فقد ذهب ليحضر جنازته ، فإذا به يكتشف أنه كان تنصر . فامتنع أرينز عن حضور جنازته (هذا هو الموقف اليهودي التقليدي . وفي أحيان أخرى ، كانت تُقام مراسم الدفن للمتهود فور تهوده) .

وابتداءً من القرن التاسع عشر ، كان كثير من اليهود المتنصرين يدخلون في الدين الجديد ولا يشغلون بالهم بالعقيدة القديمة . ولكن البعض الآخر كان يتخذ موقفاً متحيزاً ، إما مع دينهم القديم أو ضده . ولكن يبدو أن النمط الأول كان هو الأغلب .

ومن نمط المتحيزين ضد الدين القديم ، فلهلم مار الذي قام بسك مصطلح «معاداة السامية» الغربي ، أي «معاداة اليهود» . ويقال إن كثيراً من أعداء اليهود ، ومنهم أيخمان وهتلر ، تجري في عروقهم دماء يهودية . لكن العداء لا يتخذ بالضرورة مثل هذا الشكل الشرس . فالروائي الروسي بوريس باسترناك رفض اليهودية بسبب فكرة الشعب اليهودي ، ودعا اليهود إلى التنصر ليصبحوا أفراداً بدلاً من أن يظلوا شعباً . أما الأخ دانيال (أوزوالد روفايزين) اليهودي الذي تنصر وأصبح راهباً كاثوليكياً ، فقد أصر على انتمائه للشعب اليهودي وطلب الجنسية بناء على قانون العودة (لكن طلبه رُفض) . وبطبيعة الحال ، فإن المرتدين يثيرون قضية الهوية بكل حدة .

ومع هذا ، فإن اليهود المتنصرين والمرتدين قد ينقلون معهم ، وبشكل غير واع ، أفكارهم اليهودية الحلولية التي تشكل بصورة محددة إطاراً معرفياً كامناً ، وهذا ما حدث مع كل من إسبينوزا وكافكا وفرويد . بل حدث الشيء نفسه مع ماركس بنزعته المشيحانية (تماماً كما حدث في صدر الإسلام مع اليهود الذين أسلموا وأدخلوا الإسرائيليات) .

ومع تزايد معدلات العلمنة في المجتمع الغربي ، لم يعد من الضروري اعتناق دين ما ، وأصبح بوسع اليهودي أن يرفض يهوديته دون أن يعتنق ديناً آخر ، على طريقة إسبينوزا ، ومن هنا تأتي زيادة عدد اليهود الإثنيين واليهود الملحدين وتناقص عدد اليهود المتنصرين . وحالياً يتنصر اليهود ، في الغالب ، بسبب الزواج المختلط . كما أن بعض اليهود ، ممن يكابدون عطشاً دينياً ويشعرون بأزمة المعنى ، يجدون إجابة عن أسئلتهم في العقيدة المسيحية (كما حدث في حالة سكرتيرة هايدجر التي اعتنقت المسيحية وأصبحت راهبة وأحرقها النازيون بسبب إيمانها الديني) . وقد طرحت الكنائس المسيحية إطاراً جديداً يُسهِّل على اليهود عملية التنصر ، فأصبح بإمكان اليهودي أن يتنصر دون الإيمان بألوهية المسيح (فيمكنهم اعتباره الماشيَّح) . ولعل هذا سر نجاح جماعة الموحداينة (بالإنجليزية : يونيتريان Unitarian) ، وهي جماعة مسيحية ربوبية تؤمن بوجود الإله الواحد المتجاوز دون تثليث ، ولا تهتم بالشعائر ولا بالوحي . وهناك جماعة تُدعَى «اليهود من أجل المسيح» ، وهي من أنشط الجماعات التبشيرية المسيحية التي تحاول أن تنشر المسيحية بين اليهود بهذه الطريقة .

ويبدو أن هناك بُعْداً مسيحياً قوياً في يهودية الفلاشاه ، فهم يتعبدون باللغة الجعزية (لغة الكنيسة القبطية في إثيوبيا) ولديهم رهبان ، كما أن حاخاماتهم يسمَّون «قسيم» (صيغة جمع عبرية لكلمة «قسيس») ، وكذلك يضم كتابهم المقدَّس أجزاءً من العهد الجديد . ولذا ، فقد نصحهم مندوب الوكالة اليهودية عام ١٩٧٣ بأن يحلوا مسألتهم اليهودية عن طريق التنصر ! وقد تنصرت أعداد كبيرة منهم منذ القرن التاسع عشر ، ويُسمَّى المتنصرون «الفلاشاه موراه» .

وقد كان التنصر من أكثر أسباب موت الشعب اليهودي في الماضي ، وهو لا يزال عنصراً قوياً يساهم في عملية موت الشعب اليهودي في الوقت الحاضر ، لكن أهميته قد تناقصت بسبب تزايد معدلات العلمنة .

التنصـــــــر

Conversion to Christianty

انظر : «التبشير باليهودية والتهود والتهويد» ـ «الارتداد (خصوصاً التنصُّر)» .

نيكولاس دونين (القرن الثالث عشر)

Niclolas Donin

عالم وفقيه فرنسي يهودي درس في إحدى الأكاديميات في باريس ، ولكن أستاذه طرده بسبب هرطقته القرّائية ورفضه الشريعة الشفوية . تنصر وانضم للرهبان الفرنسيسكان ثم كتب قائمة تضم تسعة وثلاثين اتهاماً ضد التلمود كان من أهمها أن التلموديين يذهبون إلى أن الشريعة الشفوية أكثر أهمية من الشريعة المكتوبة ، وإلى أن التلمود يخلع الصفات البشرية على الإله وإلى أنه مليء بالهجوم القبيح على المسيح ومريم (وكلها « اتهامات » حقيقية) . وفي عام ١٢٤٠ ، عُقدت إحدى المناظرات الأساسية عن التلمود بإيعاز من دونين حضرها هو نفسه كما حضرها اثنان من أساتذته في الأكاديمية التي طُرد منها ، وكانت نتيجة المناظرة أن صدر أمر بحرق التلمود .

ويبدو أن دونين كان عقلانياً غير عنصري في هجومه على اليهودية . ولذا ، وانطلاقاً من رؤيته العقلانية هذه ، نشر عام ١٢٧٩ ، أي بعد تنصره ، كتيباً يوجه فيه النقد اللاذع للرهبان الفرنسيسكان .

أبنر من بورجوس (١٢٧٠-١٣٤٠)

Abner of Borgos

طبيب يهودي من مدينة بورجوس في إسبانيا . دبت الشكوك في نفسه بعد طول تأمل في عذاب اليهود ، وفي حالة المنفى التي يعيشون فيها . ولم يجد إجابة شافية على تساؤلاته لا في الكتب الدينية اليهودية ولا في كتب الفلاسفة المسلمين ، فانصرف إلى دراسة العهد الجديد وانتهى به الأمر إلى اعتناق المسيحية وهو في سن الخمسين . كتب عدة كتب يُفصح فيها عن آرائه الجديدة ، ويُبيِّن رفضه للتفسيرات العقلانية المختلفة للعهد القديم التي سادت في عصره . وقد طرح أبنر ، بدلاً من كل هذا ، عقيدة التجسد المسيحية والثالوث . وهاجم أبنر التلمود بشراسة واتهم اليهود بأنهم يأخذون موقفاً معادياً من الأغيار . وقد تُرجمت كتاباته إلى اللغة القشطالية .

بابلو دي سانتا ماريا (١٣٥٠-١٤٣٥)

Pablo de Santa Maria

أسقف وعالم لاهوت مسيحي . اسمه الأصلي سولومون . وُلد لأسرة هاليفي اليهودية المعروفة التي جاء منها بعض كبار الممولين وملتزمي الضرائب في مملكة قشطالة .

كان سولومون هاليفي واسع الإلمام بالفقه اليهودي وبالفلسفة الإسلامية وبأعمال الفلاسفة من أعضاء الجماعة اليهودية في شبه جزيرة أيبريا ، كما كان مطلعاً على كثير من الأعمال اللاهوتية المسيحية .

دبت الشكوك في نفسه نتيجة اطلاعه على فلسفة ابن رشد التي كانت قد هيمنت على عقول كثير من المثقفين من أعضاء الجماعة اليهودية في عصره ، فاعتنق المسيحية وغيَّر اسمه إلى بابلو دي سانتا ماريا . ولعل تنصره احتجاج على مادية الفلسفة الرشدية . وقد تنصر معه أبناؤه الأربعة وابنته وإخوته الثلاثة وزوجته . وقد كتب خطاباً يشرح فيه الأسباب التي أدَّت إلى تنصره بيَّن فيه أنه حينما يتعمق الإنسان في الشريعة الشفوية والعهد القديم سيجد علامات على أن عيسى هو الماشيَّح .

سافر بابلو إلى باريس عام ١٣٩٤ حيث رُسِّم قسيساً ونال حظوة البابا بنديكت الثامن . ثم بدأ بعد ذلك حملته ضد اليهود فحاول أن يقنع ملك أراجون بأن يصدر قوانين معادية لهم . وقد حقق صعوداً سريعاً في هرم النخبة الحاكمة حتى أصبح أسقف بوروجوس من عام ١٤١٥ حتى وفاته .

بول/لوي/برنار دراش (١٧٩١-١٨٥٦)

Paul-Louis-Bernard Drach

فقيه فرنسي يهودي وزوج ابنة حاخام فرنسا الأكبر . نشر عدة كتب دينية يهودية ، ولكنه تنصر عام ١٨٢٣ في احتفال مهيب ، الأمر الذي سبَّب الكثير من الحزن لأعضاء الجماعة اليهودية في فرنسا . عمل أستاذاً للعبرية واشترك في ترجمة العهد القديم وكتب عدة قصائد عبرية في مدح البابا والكرادلة . كتب عدة كتب يحاول فيها تفسير الأسباب التي أدَّت إلى اعتناقه المسيحية . وقد نشأ أطفاله مسيحيين بل أصبحوا من رجال الدين المسيحي .

إدوارد جانز (١٧٩٨-١٨٣٩)

Edward Gans

مؤرخ وعالم قانون ألماني يهودي . درس القانون في جامعتي برلين وهايدلبرج حيث تأثر بهيجل . عُيِّن محاضراً في جامعة برلين عام ١٨٢٠ حيث ذاع صيته كمحاضر . طالب بأن تتخلى اليهودية عن نزعتها الاعتزالية وتميُّزها وأن تندمج في الحضارة الأوربية المعاصرة . أسَّس عام ١٨١٩ بالاشتراك مع ليوبولد زونز جماعة الثقافة وعلم اليهودية التي كانت مهمتها نشر مُثُل حركة الاستنارة بين

الشباب اليهودي وإبعادهم عن التفكير التقليدي . وقد حُلّت الجمعية عام ١٨٢٤ وتنصر جانز في العام التالي (وهو ما ألقى بظلال الشك على مُثُل الاستنارة وعلى علم اليهودية) . عُيِّن أستاذاً في جامعة برلين عام ١٨٢٩ حيث طوَّر الرؤية الهيجلية الخاصة بالسيادة المطلقة للدولة وبمفهوم الحاكم كتجسيد لمفهوم الدولة .

ويذهب جانز إلى أن الحضارة الأوربية مزيج من أحسن العناصر الموجودة في حضارات يسرائيل واليونان وروما والمسيحية . ولجانز دراسات عديدة في القانون ، كما أنه حرَّر محاضرات هيجل عن القانون .

لكن تَنصُّر مفكر ديني يهودي وعضو في النخبة الفكرية اليهودية لم يكن حدثاً استثنائياً في القرن التاسع عشر . فكل أولاد مندلسون ـ على سبيل المثال ـ تنصروا . وهذا يعود ولا شك ، في بعض جوانبه ، إلى الإغراءات المادية المختلفة ، من تحقيق حراك اجتماعي إلى الحصول على وظائف مقصورة على المسيحيين . ولكن الإغراءات كانت هناك دائماً عبر التاريخ ، ولذا فهي لا تصلح وحدها لتفسير الزيادة المذهلة لعدد المتنصرين بين أعضاء النخبة اليهودية المثقفة . ولعل أزمة اليهودية الحاخامية قد لعبت دوراً أساسياً في ذلك ، كما أن هيمنة مُثُل حركة الاستنارة كانت العنصر الحاسم . فحركة الاستنارة تنظر إلى الإنسان باعتباره «الإنسان على وجه العموم» أو «الإنسان الأممي» أو «الإنسان الطبيعي» ، وهو ما يعني ضرورة تصفية كل الخصوصيات .

ومع هذا ، فقد صرح هايني بأن الطريق الحقيقي للتحرر والانعتاق والدخول إلى الحضارة الغربية هو التنصر . وقد كان هايني محقاً حين صرح بذلك . لكن ينبغي أن نشير إلى أن المسيحية التي كان على اليهودي المتنصر أن يؤمن بها في القرن التاسع عشر كانت مسيحية وجدانية تمت علمنتها من الداخل ، كما أن الإيمان بها كان لا يُلقي على المؤمن بها أية أعباء شعائرية . ولذا ، مع نهاية القرن التاسع عشر ، تزايدت نسبة المتنصرين الراغبين في دخول الحضارة الغربية . ومع بداية القرن العشرين ، أصبحت عملية التنصر غير ذات موضوع ، ذلك باعتبار أن الحضارة الغربية نفسها تراجعت فيها المسيحية حتى في صيغتها العلمانية . وأصبحت تأشيرة الدخول إليها هي التخلي عن أية هوية دينية أو إثنية ، فيكون اليهودي إنساناً على وجه العموم ، الثمرة الحقيقية لعصر الاستنارة ولسنوات عمليات العلمنة والترشيد في إطار الطبيعة/ المادة .

سولومون ألكسندر (١٧٩٩-١٨٤٥)

Solomon Alexander

أول أسقف أنجليكاني في القدس . وُلد لعائلة يهودية أرثوذكسية في ألمانيا ، وهاجر إلى إنجلترا حيث عمل بعض الوقت كذابح شرعي (شوحيط) ومرتل (حزان) . ولكنه بعد أن اتصل بالإرساليات المسيحية ، تنصر عام ١٨٢٥ ثم انخرط في سلك الكنيسة عام ١٨٢٧ . قامت جمعية نشر المسيحية بين اليهود بإرساله إلى ألمانيا ثم عُيِّن أستاذاً للغة العبرية من عام ١٨٣٢ حتى عام ١٨٤١ في جامعة لندن .

وبعد القضاء على مشروع محمد علي النهضوي ، تَقرَّر إقامة أسقفيتين في فلسطين : واحدة إنجليزية أنجليكانية والأخرى ألمانية لوثرية ، نظراً للأهمية الإستراتيجية لفلسطين . وقد عُيِّن ألكسندر أسقفاً للأسقفية الأنجليكانية في القدس حيث بدأ نشاطه التبشيري وتفرَّع منها إلى عدة بلاد من بينها سوريا ومصر (التي مات فيها أثناء إحدى زياراته لها) .

التبشير باليهودية والتهوُّد والتهويد

Proselytizing, Conversion to Judasim, and Judaizing

«التهود» هو اعتناق اليهودية بشكل طوعي دون قسر ، أما «التهويد» فهو اعتناق اليهودية قسراً نتيجة الضغوط الخارجية . و«التبشير» هو الدعوة إلى عقيدة ما دون اللجوء إلى ضغوط خارجية مثل الإغراءات المالية . ورغم أن اليهودية ديانة توحيدية في أحد جوانبها ، فإنها ليست ديانة تبشيرية تحاول أن تكتسب أتباعاً جدداً ، نظراً لانغلاق النسق الديني الحلولي اليهودي . ومع هذا ، هناك حالات كثيرة في العصور القديمة والحديثة تهودت فيها أعداد كبيرة من الناس نتيجة التبشير باليهودية ، أو تم تهويدهم عنوة . والتهويد والتهود هما أكبر دليل على زيف ادعاءات نقاء اليهود عرْقياً .

وقد شهدت فترة القرن الأول قبل الميلاد وبعده ، مرحلة تبشيرية ، نتيجة جهود الفريسيين الذين أعادوا صياغة اليهودية وحرروها من ارتباطها بالعبادة القربانية وبالهيكل . وقد تهودت أعداد كبيرة في حوض البحر الأبيض المتوسط ، كما تهود أعضاء الأسرة الحاكمة في ولاية حدياب الفرثية . وقد كان التهود أحد أهم الأسباب التي أدَّت إلى تزايد عدد أعضاء الجماعات اليهودية خارج فلسطين حتى أن عدد اليهود المقيمين خارج فلسطين أصبح يفوق عدد المقيمين منهم فيها .

وقد قام هيركانوس وأريسطوبولوس ، وهم من ملوك الأسرة

الحشمونية ، (في ١٣٠ ـ ١٠٣ ق . م) بفرض اليهودية على الأدوميين وعلى أعداد كبيرة من الإيطوريين . كما تهود بعض المثقفين في روما حينما دخلت الوثنية الرومانية مرحلة أزمتها الأخيرة التي انتهت بظهور المسيحية . وقد استمر التبشير باليهودية في العصور الوسطى المسيحية حتى بعد أن أصدر الإمبراطور قسطنطين قراراً بمنعه عام ٣١٥ م . وأكبر دليل على استمراره وجود حالات متفرقة لمسيحيين تهودوا ، من بينهم أحد كبار رجال الدين المسيحي في فرنسا وآخر في إنجلترا . كما أن تهود النخبة الحاكمة بين قبائل الخزر وأعداد كبيرة من أتباعهم يُعَدُّ دليلاً آخر .

وقد تهود بعض المارانو بعد خروجهم من إسبانيا ، لا لأنهم كانوا يهوداً متخفين وإنما لأن السلطة الحاكمة البروتستانتية كانت تبدي تسامحاً مع اليهود ولا تُبدي مثله تجاه الكاثوليك ، الأمر الذي حدا بكثير من المارانو إلى التهود ابتغاء الأمن والحراك الاجتماعي . وفي العصر الحديث ، يتهود بعض المسيحيين (أو العلمانيين) في الغرب حين يصر أحد أطراف الزواج المختلط أن يتهود الطرف الآخر (وإن كان الشائع أن يتنصر الطرف اليهودي في الزواج المُختلَط ، أي يتبنى دين أعضاء الأغلبية) .

وتبدأ مراسم التهود في العصر الحديث في الأوساط اليهودية الأرثوذكسية بسؤال طالب التهود عن سبب طلبه ، فإن أجاب بأن السبب هو الزواج ، يُرفَض طلبه لأن هذا لا يُعَدُّ سبباً كافياً . ثم يخبرون طالب التهود بأن الشعب اليهودي شعب بائس مطرود منفي يعاني دائماً ، فإن أجاب بأنه يعرف ذلك وأنه لا يزال مُصرّاً على التهود ، فإنه يُقبَل في الجماعة الدينية اليهودية ويُختن إذا كان ذكراً . وعلى المتهود أو المتهودة أخذ حمام طقوسي (مكفاه) أمام ثلاثة حاخامات ، وهو الأمر الذي يسبب الحرج للإناث المتهودات ، حيث يتعين عليهن خلع ملابسهن لهذا الغرض . ثم يعلن المتهود أنه يقبل نير المتسفوت (الأوامر والنواهي) ، أي أن يعيش حسب شرائع التوراة . ويَطلُب بعض الحاخامات المتشددين من طالب التهود أن يبصق على صليب أو كنيسة ، غير أن مثل هذه العادات ليست جزءاً من الشريعة وهي آخذة في الاختفاء . ولا يلتزم الحاخامات الإصلاحيون والمحافظون بهذه الخطوات إذ يكفي بالنسبة إليهم أن يستمع طالب التهود إلى محاضرة عما يقال له «التاريخ اليهودي» على سبيل المثال ، كما أن الختان ليس محتماً على الذكور بحسب رؤيتهم . ولا يتَّبع المحافظون المراسم التقليدية وإن كانوا يؤكدون ضرورة أن يقرأ المتهود بعض النصوص الدينية المهمة ويدرسها .

وفي محاولة تشجيع التهود يُطلَق على التهود الآن في الولايات المتحدة عبارة «يهودي باختياره» (جو باي تشويس jew by choice) ويوجد في الولايات المتحدة في الوقت الحاضر ١٨٥ ألف متهود .

ويحق للمتهود ـ حسب الشريعة اليهودية ـ أن يتزوج من أية يهودية ، ولكن لا يُباح لمتهودة أن تتزوج من كاهن مثلاً ، كما لا يمكن تعيين المتهود في مناصب عامة مهمة أو أن يعين قاضياً في محكمة جنائية بل في محاكم مدنية أحياناً . وبحسب إحدى الصياغات الدينية المتطرفة تُعدّ المرأة المتهودة «زونة» (أي عاهرة) حتى نهاية حياتها . وهي صيغ متشدّدة لا تتمسك بها اليهودية الإصلاحية أو اليهودية المحافظة .

ويُلاحَظ التزايد النسبي لطالبي التهود بسبب الزواج المختلط . ولكن هؤلاء يتهودون في الغالب على يد حاخامات إصلاحيين أو محافظين لا يعترف الأرثوذكس بواقع أنهم حاخامات . وبالتالي لا يعترفون بيهودية من يتهود على أيديهم . وتنفجر هذه القضية حينما يهاجر بعض هؤلاء المتهودين إلى إسرائيل ، إذ تثير المؤسسة الدينية الأرثوذكسية قضية انتمائهم اليهودي . وتطالب المؤسسة الأرثوذكسية بتعديل قانون العودة وبتعريف اليهودي بحيث يصبح اليهودي من وُلد لأم يهودية أو تهود حسب الشريعة ، أي على يد حاخام أرثوذكسي . ولكن تبنّي ذلك التعريف يسقط انتماء آلاف من يهود الولايات المتحدة إلى العقيدة اليهودية ، كما أنه يجعل اليهود الإصلاحيين والمحافظين (أي أكثر من نصف يهود أمريكا) ، يهوداً من الدرجة الثانية . ومن هنا ، فقد اقترحت وزارة الداخلية الإسرائيلية ، الواقعة تحت نفوذ الأحزاب الدينية ، أن يكتَب لفظ «متهودة» في بطاقة تحقيق الشخصية الخاصة بشوشانا ميللر وهي أمريكية متهودة على المذهب الإصلاحي . وقد رفضت المحكمة العليا الطلب ، فرضخت الوزارة في نهاية الأمر وقامت بتسجيلها يهودية . وطُلب من يهود الفلاشاه وبني إسرائيل وكوشين من الهند أن يتهودوا باعتبار أن يهوديتهم ناقصة . وحين احتجوا خُفِّفت مراسم التهود بالنسبة إليهم . وقد عُرض التهود على بقايا يهود المارانو في البرتغال كشرط لهجرتهم إلى إسرائيل . وقد لوحظ أن كثيراً من المهاجرين السوفييت من مدَّعي اليهودية يقبلون التهود ، ومن ذلك الختان ، من أجل الحراك الاجتماعي الذي سيحققونه في إسرائيل إن تم اعتبارهم يهوداً .

التهـــــود والتهويـــــد

Conversion to Judasim, and Judaizing

انظر : «التبشير باليهودية والتهود والتهويد» .

إليعـازر بـودو (القرن التاسع الميلادي)

Eleazar Bodo

متهود فرنسي . وكان من كبار رجال الدين المسيحي ومن أسرة أرستقراطية . كان يعمل في قصر لويس التقي ، ويُقال إنه كان القسيس الذي كان يعترف له الإمبراطور وأسقفاً في الكنيسة الكاثوليكية . وترك بودو القصر عام ٨٣٨ بزعم أنه ذاهب إلى روما للحج ، ولكنه بدلاً من ذلك فرّ إلى إسبانيا هو وابن أخيه وتهود وتختن وأُطلق عليه اسم إليعازر وتزوج فتاةً يهودية في سرقسطة . ثم ذهب بعد ذلك إلى قرطبة حيث حاول أن يقنع أميرها بأن يفرض على رعاياه إما الإسلام أو اليهودية . وقد تبادل بودو الرسائل مع باولو ألفارو ـ أحد كبار رجال الدين المسيحي في إسبانيا ـ وبيّن في خطابات له أن المسيحية تحتوي على عقائد وممارسات وشعائر كثيرة التضارب ، على عكس وحدة العقيدة والشعائر التي تتسم بها اليهودية ، كما أشار إلى جشع رجال الدين المسيحيين . وقد كتب مسيحيو إسبانيا إلى تشارلز الأصلع وإلى أساقفة الإمبراطورية الكارولنجية طالبين استدعاء هذا المرتد حتى يخففوا من حدة الضغط الذي يسببه وجوده بينهم .

يوهـان سـبايت (١٦٤٢ - ١٧٠١)

Joahann Spaeth

متهود ألماني وابن صانع أحذية كاثوليكي . وقع تحت تأثير الحركات البروتستانتية بعض الوقت ولكنه عاد مرة أخرى للكاثوليكية . وحيث إنه لم يجد الهدوء الروحي الذي ينشده ، بدأ يقرأ في مؤلفات الصوفي جيكوب بومه وكتابات بعض الجماعات المسيحية التي ترفض التثليث (مثل السوسينيانز)، وقد لاحظ التطابق المدهش بين تعاليم بومه والقبّالاه اللوريانية . وبعد فترة من التأمل والغوص في الذات ، قرَّر أن يتهود ويُسمِّي نفسه «موزيس جيرمانيكوس» ، أي «موسى الألماني» ، وتَختَّن في أمستردام عام ١٦٩٧ ثم تزوج من امرأة يهودية من فرانكفورت .

دافع سبايت عن تهوده في كتيب دبَّجه خصيصاً لهذا الغرض . وقد ذهب سبايت في كتاباته إلى أن البابوية أساس الفساد ، وإلى أن المؤسسة الكهنوتية ليست أصيلة في المسيحية بل تم اختلاقها في أيام قسطنطين الأكبر ، وإلى أن الشهداء المسيحيين الأوائل كانوا في واقع الأمر يهوداً يدافعون عن تعاليم المسيح الذي لم يكن سوى معلم من معلمي الشريعة (هالاخاه) . وقد أكد سبايت أن المسيحية ليست سوى شكل مشوه للمبادئ الإسكاتولوجية التي انتشرت في فترة الهيكل الثاني (في القرن الأول الميلادي) . وفي النهاية ، بيَّن سبايت أن يسرائيل وليس عيسى ، هي خادم الإله المصلوب (الذي يعاني) .

فالنتايـن بوتوكـي (؟ - ١٧٤٩)

Valentine Potocki

كونت بولندي من أسرة أرستقراطية عريقة اعتنق اليهودية . وقصة تهوده أقرب إلى الحكاية الشعبية منها إلى الحقيقة التاريخية . كان بوتوكي صديقاً لشاب أرستقراطي آخر يُسمَّى زاريمبا . وبينما كان الشابان في حانة في باريس ، لاحظا أن صاحبها اليهودي العجوز يقرأ في التلمود بخشوع شديد . فطلبا منه أن يعلمهما مبادئ اليهودية ، وأقسما أنه لو أقنعهما باليهودية لتركا المسيحية . وقد نسي زاريمبا القسم ، أما بوتوكي فقد قضى بعض الوقت في روما للدراسة ثم ذهب إلى أمستردام حيث تهود . وحينما سمع زاريمبا بالخبر ، تَذكَّر هو الآخر قسمه فأخذ أسرته وتهود ثم استقر في فلسطين . وذات مرة ، زجر بوتوكي طفلاً أزعج المصلين من اليهود . فتضايق أبو الطفل وأخبر السلطات أن بوتوكي مرتد ، وهو ما أدّى إلى القبض عليه ومحاكمته وحرقه في عيد الأسابيع عند قلعة فلنا ، وقد ظل يردد الشماع اليهودية وأن الإله واحد حتى لفظ آخر أنفاسه . وقام أحد اليهود بجمع رماده وقطعة من أصبعه ودفنها في المدافن اليهودية فنبتت منها شجرة باسقة أصبحت مزاراً يهودياً . ولا توجد أية قرائن تاريخية على صدق هذه الرواية .

ويحتفل يهود فلنا بذكرى موت بوتوكي بقراءة صلاة القاديش وزيارة قبره .

جـورج جـوردون (١٧٥١-١٧٩٣)

George Gordon

نبيل إنجليزي بروتستانتي . وُلد في لندن وكان والده دوقاً . خدم في الجيش والبحرية البريطانية . وفي عام ١٧٧٤ ، دخل البرلمان وكان رئيساً لجماعة «العصبة البروتستانتية الموحَّدة» التي قادت الحملة التي كانت تطالب بإلغاء القانون الذي منح الأهلية للكاثوليك ، كما كانت على رأس المظاهرات المناهضة للكاثوليك

التي اندلعت عام ١٧٨٠ والتي راح ضحيتها مئات من القتلى والجرحى . وقد قُدِّم جوردون للمحاكمة بتهمة الخيانة ، ولكن تمت تبرئته . واستمر جوردون بعد ذلك في مناصرته للقضايا البروتستانتية وفي مناهضة الكاثوليك ، ولكنه اختلف مع الكنيسة البروتستانتية في إنجلترا فحرمته من عضويتها عام ١٧٨٦ .

ورغم أن جوردون كان شديد التعصب للبروتستانتية ، إلا أنه بدأ يفكر عام ١٧٨٦ في اعتناق اليهودية ، وأقدم على ذلك بالفعل عام ١٧٨٧ فتم ختانه وأطال لحيته وارتدى ثياب اليهود الأرثوذكس واتخذ اسم إسرائيل بار أبراهام . والواقع أنه مثلما كان متعصباً في بروتستانتيته ، كان كذلك متعصباً في يهوديته حيث كان شديد الحرص على ممارسة الطقوس الدينية اليهودية ومراعاة القوانين الخاصة بالمأكل والملبس والمظهر . كما رفض مخالطة أي يهودي غير ملتزم بقوانين دينه . وفي عام ١٧٨٨ ، حُكم على جوردون بالسجن بتهمة القذف بعد أن هاجم كلاً من الحكومة البريطانية وملكة فرنسا التي انتقد سلوكها الأخلاقي والسياسي . وفي السجن ، استمر جوردون في التزامه الشديد بشرائع اليهودية ، وكان يشترك كل سبت (مع مجموعة من اليهود البولنديين) في إقامة الصلاة . وقد اكتسب جوردون شهرة واسعة ، وأقدم الكثيرون على زيارته في سجنه من بينهم بعض كبار القوم في عصره فكان يقيم لهم المآدب والحفلات داخل السجن . وقد تُوفي جوردون في السجن ورفضت الجماعة اليهودية في لندن دفنه في مقابرها ، فدُفن في مقابر عائلته البروتستانتية .



٤
الحسيدية

حسيد ـ الحسيدية : تاريخ ـ الحسيدية والحلولية ـ التساديك (الصديق) ـ بعل شيم طوف ـ دوف بير ـ إليمليك الليجانسكي ـ مناحم البراتسلافي ـ جيكوب جوزيف تسفي هاكوهين ـ ليفي إسحق بن مائير البيردشيفي ـ عذراء لادومير ـ أسر وجماعات وحركات حسيدية ـ جيداخوف (أسرة) ـ حبد (حركة) ـ زلمان شنياءور ـ لوبافيتش ـ مناحم مندل اللوبافيتشي ـ شنيرسون (أسرة) ـ شنيرسون ـ حركة الموسار ـ المعارضون (متنجديم) ـ أثر الحسيدية في الوجدان اليهودي المعاصر ـ الحسيدية والصهيونية

حسيد
Hasid

«حسيد» كلمة وردت في العهد القديم وتشير إلى «الرجل التقي الثابت على إخلاصه للإله وإيمانه به» . وقد استُخدمت هذه الكلمة بعد ذلك للإشارة إلى جماعات من مؤيدي التمرد الحشموني كانت تتسم بالحماس الديني والتقوى (القرن الثاني قبل الميلاد) ، ثم استُخدمت للإشارة إلى الحركة الصوفية التي نشأت في ألمانيا في القرن الثاني عشر ، ثم أصبحت الكلمة تشير إلى أتباع الحركة الحسيدية التي نشأت في بولندا في القرن الثامن عشر . وهذا هو الاستخدام الشائع في الوقت الحالي .

الحسيدية : تاريخ
Hassidism : History

«الحسيدية» بالعبرية «حسيدوت» وهو مصطلح مشتق من الكلمة العبرية «حسيد» ، أي «تقي» . ويُستخدَم المصطلح للإشارة إلى عدة فرق دينية في العصور القديمة والوسطى ، ولكنه يُستخدَم في العصر الحديث للدلالة على الحركة الدينية الصوفية الحلولية التي أسسها وتزعمها بعل شيم طوف . وبدأت الحركة في جنوب بولندا وفي أوكرانيا في القرن الثامن عشر ، وخصوصاً في مقاطعة بودوليا التي ظهرت فيها الحركة الفرانكية كما ظهرت فيها فرق مسيحية حلولية ذات طابع غنوصي متمردة على الكنيسة الأرثوذكسية الروسية (مثل الدوخوبور والخليستي والسكوبستي) . وقد كانت هذه المقطعة تابعةً لتركيا في نهاية القرن السابع عشر ، وانتشرت الحسيدية منها إلى وسط بولندا وليتوانيا وروسيا البيضاء ثم المناطق الشرقية من الإمبراطورية النمساوية المجرية : جاليشيا ، وبوكوفينا ، وترانسلفانيا ، وسلوفاكيا ، فالمجر ورومانيا . ولكن أقصى تركيز لها كان في الأراضي البولندية التي ضمتها روسيا إليها . وقد انتشرت الحسيدية في بادئ الأمر في القرى بين أصحاب الحانات والتجار والريفيين والوكلاء الزراعيين ، ثم انتشرت في المدن الكبيرة حتى أصبحت عقيدة أغلبية الجماهير اليهودية في شرق أوربا بحلول عام ١٨١٥ ، بل يُقال إنها صارت عقيدة نصف يهود العالم آنذاك ، إلى جانب أنها عقيدة أغلبية يهود اليديشية . ويُلاحَظ أن الحركة الحسيدية لم تضم في صفوفها كثيراً من العمال والحرفيين اليهود ، لأن الأساس الاقتصادي لوجودهم كان ثابتاً ، كما أن أولادهم كانوا لا يدرسون إلا التوراة ، بل كانوا يتركون المدارس بسبب فقرهم . ولهذا ، فإنهم لم يكونوا يخوضون في دراسة الشريعة الشفوية . وبالتالي ، وجدوا أفكار الحسيدية غريبة وغير مفهومة ، كما أن الأحزاب الاشتراكية والثورية نجحت في ضمهم إلى صفوفها .

ويرجع نجاح الحسيدية إلى أسباب اجتماعية وتاريخية عدة ، فالجماهير اليهودية كانت تعيش في بؤس نفسي وفقر اقتصادي شديد بسبب التدهور التدريجي للاقتصاد البولندي ، إذ طُرد كثير من يهود الأرندا ، وأصحاب الحانات من القرى الصغيرة ، الأمر الذي زاد من عدد المتسولين واللصوص والمتعطلين . ويُقال إن عُشْر أرباب العائلات كانوا بلا عمل . وكانت قيادة الحركة الحسيدية - أساساً - من يهود الأرندا السابقين ومستأجري الحانات وأصحاب المحال الصغيرة . وكانت هذه الجماهير في خوف دائم بعد هجمات شميلنكي ، وعصابات الهايدماك من الفلاحين القوزاق . كما كانت تشعر بالإحباط العميق ، بعد فشل دعوة شبتاي تسفي وتحوُّله إلى الإسلام . وهي مشاعر زادت من حدتها التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تخوضها مجتمعات شرق أوربا آنئذ ، هذه التحولات التي جعلت من القهال شكلاً إقطاعياً طفيلياً لا مضمون له ، يقوم باستغلال اليهود لحساب الحكومة البولندية والنبلاء

البولنديين ، ولحساب موظفي القهال من اليهود الذين كانوا يشترون المناصب . وقد صاحب هذا الوضع تدنّي الحياة الثقافية والدينية داخل الجيتو والشتتل إلى درجة كبيرة ، وصار اليهود يعيشون في شبه عزلة عن العالم ، بل في عزلة عن المراكز التلمودية في المدن الكبرى . وعلى أية حال ، كانت اليهودية الحاخامية قد تحولت إلى عقيدة شكلية ، تافهة وجافة ، خالية من المضمون الروحي والعاطفي ، تؤكد الأوامر والنواهي دون اهتمام بالمعنى الروحي لها .

ويُلاحَظ أن القبَّالاه كانت قد أحكمت هيمنتها على الفكر الديني اليهودي بين جماهير اليهود وحتى بين طلاب المدارس التلمودية العليا وأعضاء المؤسسة الحاخامية . والفكر القبَّالي الحلولي قادر على إشباع التطلعات العاطفية لدى الجماهير الساذجة اليائسة . ومن المفارقات أن أعضاء الجماعات اليهودية ، بعد أن عاشوا بين فلاحي أوكرانيا وشرق أوربا لمئات السنين ، بعيداً عن المؤسسات الحاخامية في المدن الكبرى والمدن الملكية ، تأثروا بفولكلور فلاحي شرق أوربا ، وبمعتقداتهم الشعبية الدينية ، وبوضعهم الحضاري المتدني بشكل عام . ويبدو أن الحسيديين تأثروا بالتراث الديني المسيحي ، وخصوصاً تراث جماعات المنشقين (بالروسية : راسكولنيكس Raskolniks من فعل «راسكول raskol» بمعنى «ينشق») في روسيا وأوكرانيا . فالقرنان السابع عشر والثامن عشر شهدا ظهور جماعات دينية مسيحية متطرفة ، مثل : الدوخوبور (المتصارعون مع الروح ، وكان بينهم مدام بلافاتسكي) والخليستي (من يضربون أنفسهم بالسياط) والسترانيكي (الهائمون على وجوههم) (كان راسبوتين عضواً في هاتين الجماعتين) والسكوبتسي (المخصيون) ، والمولوكاني (شاربو اللبن) ، وغيرهم . وكان عدد أعضاء هذه الجمعيات كبيراً إلى درجة غير عادية حيث كان يصل إلى خمس عدد السكان حسب التقديرات الرسمية وإلى نحو نصفهم حسب التقديرات الأخرى . وكان أتباع هذه الفرق يتبعون أشكالاً حلولية متطرفة ، فالسكوبتسي (على سبيل المثال) طالبوا بالإحجام عن الجماع الجنسي ، ولكنهم كانوا يقومون في الوقت نفسه بتنظيم اجتماعات ذات طابع جنسي جماعي داعر . وقيادات هذه الجماعات كانوا يتسمَّون بأسماء غريبة مثل : «المسيح» أو «النبي» أو «أم الإله» ، فقد كانوا يؤمنون بأن القيادة هي تجسيد للإله ، تماماً مثل المسيح .

وأقرب الجماعات المسيحية المنشقة إلى الحسيدية هي جماعات الخليستي . وقد ذهب قادة هذه الجماعة إلى أنه حينما صُلب المسيح ، ظل جسده في القبر . أما البعث ، فهو هبوط الروح القدس بحيث تحل في مسيح آخر هو قائد الجماعة . ولذا ، فإن قادتهم مسحاء قادرون على الاتيان بالمعجزات ، يحل فيهم الإله . والواقع أن مفهوم التساديك في الحسيدية قريب جداً من هذا ، فالتساديك هو القائد الذي يحل فيه الإله ، وعادةً ما يتم توارث الحلول . ولذا ، فإننا نجد أن قيادات الخليستي يكونون أسراً حاكمة يتبع كل واحدة منها مجموعة من الأتباع ، وهذا ما حدث بين الحسيديين أيضاً . بل إن التماثل في التفاصيل كان يصل إلى درجة مدهشة ، فكان الخليستي يعيشون بعيداً عن زوجاتهم باعتبار أن الإله إن شاء أن تحمل العذراء حملت . وهذا هو موقف بعل شيم طوف ، برغم أن فكرة «الحمل بلا دنس» أبعد ما تكون عن اليهودية . فعندما ماتت زوجته وعُرض عليه أن يتزوج من امرأة أخرى ، احتج ورفض وقال إنه لم يعاشر زوجته قط ، وإن ابنه هرشل قد وُلد من خلال الكلمة (اللوجوس) .

وكان دانيال الكوسترومي (١٦٠٠ ـ ١٧٠٠) من أهم زعماء الخليستي . وقد وُلد ابنه (الروحي) بعد أن بلغت أمه من العمر مائة عام . وكذلك بعل شيم طوف ، فقد وُلد ، حسب الأساطير التي نُسجت حوله ، بعد أن بلغت أمه من العمر مائة عام . وكان الخليستي يرتدون ثياباً بيضاء في أعيادهم ، وكذلك الحسيديون . وقد كان الخليستي يُعدون أنفسهم ، من خلال الغناء والرقص ، لحلول روح المسيح فيهم ، وهذا قريب من تمارين الحسيديين أيضاً . والمضمون الفكري الاجتماعي لكلٍّ من الخليستي والحسيديين مضمون شعبي يقف ضد التميزات الطبقية بشكل عام .

وفي هذا المناخ ، ظهر الدراويش الذين يحملون اسم «بعل شيم» ، أي «سيد الاسم» ، وهم أفراد كانت الجماهير اليائسة تتصور أنهم قادرون على معرفة الأسرار الباطنية ، وإرادة الإله ، وطرد الأرواح الشريرة من أجساد المرضى ، كما أنهم كانوا يتسمَّون بالتدفق العاطفي الذي افتقدته الجماهير في الحاخامات . وظهرت الحسيدية بحلوليتها المتطرفة وبريقها الخاص ورموزها الشعبية الثرية التي تروي عطش الجماهير اليهودية الفقيرة التي كان يخيم عليها التخلف .

وقد تبدَّت هذه الأفكار الحلولية المتطرفة في التصادم الحاد بين الحسديين والمؤسسة الحاخامية (متنجديم) ، وهو تصادم كان حتمياً ، باعتبار أن الحسيدية تمثل رؤية بعض قطاعات الجماعة اليهودية التي استُبعدت من جانب المؤسسة الحاخامية والقهال . وكانت الحسيدية تحاول أن تحقق لهم قسطاً ولو ضئيلاً من الحرية ومن المشاركة في السلطة . والحسيدية ، في جانب من أهم جوانبها ، محاولة لكسر احتكار المؤسسة التلمودية للسلطة الدينية ، ومحاولة لحل مشكلة

المعنى . وقد انعكس هذا التصادم ، على المستوى الفكري ، حين قام الحسيديون بالتقليل من شأن الدراسة التلمودية أو دراسة التوراة . فإذا كان الهدف من الحياة ليس الدراسة وإنما التأمل في الإله والالتصاق به والتوحد معه وعبادته بكل الطرق ، فإن هذه العملية لابد أن تستغرق وقتاً طويلاً ، وهو ما لا يترك للإنسان أي وقت لدراسة التوراة على الطريقة الحاخامية القديمة . كما أن التواصل المباشر مع الإله يطرح إمكانية أمام اليهود العاديين ، ممن لا يتلقون تعليماً تلمودياً ، لأن يحققوا الوصول والالتصاق (ديفيقوت) . بل إن الجهل ، في إطار التجربة الوجودية المباشرة ، يصبح ميزة كبرى .

وهدف التجربة الدينية هو الفرح والنشوة ، وهو إعادة تعريف للتجربة الدينية تؤكد العاطفة (الجوانية) كوسيلة للوصول إلى الإله ، بدلاً من الشعائر والدراسات التلمودية (البرانية) ، فالإله (حسب تصوُّر بعل شيم طوف) لا يسمع الدعاء ولا يقبل الصلاة إلا إذا نبعت من قلب فَرِح . ومن ثَم ، يصبح الإخلاص العاطفي أهم من التعليم العقلي . وقد قلَب الحسيديون الأمور رأساً على عقب ، إذ تبنوا الفكرة اللوريانية الخاصة بحاجة الإله إلى الشعب اليهودي ككل ، وخصوصاً القادة التساديك . وقد ذهب الحسيديون إلى أنه لا يوجد ملك دون شعب . وبالتالي ، فإن ملك اليهود في حاجة إليهم ، ومن خلال حاجته إليهم تتضاءل أهمية الأوامر والنواهي .

وقد نجحت الحسيدية في تحقيق قدر من الاستقلال عن المؤسسة الحاخامية ، فاتبعت بعض التقاليد السفاردية في الشعائر (ربما تحت تأثير القبَّالاه اللوريانية ذات الأصول السفاردية) ، كما أدخلوا بعض التعديلات على طريقة الذبح الشرعي (وهو ما يعني في واقع الأمر السيطرة على تجارة اللحم) . وأصبح للحسيديين معابدهم الخاصة وطريقة عبادتهم ، ولذلك تحولت الحركة من يهودية حسيدية إلى يهودية تساديكية (نسبة إلى التساديك الذي يقوم بالوساطة بين أتباعه والإله) . وقد أصبح هذا مفهوماً محورياً في الفكر الحسيدي . وكان الحسيديون يعمدون إلى إحلال التساديك محل الحاخام (لتقليص سلطان المؤسسة الحاخامية) كلما كان ذلك بوسعهم . والتساديك نوع من القيادة الكاريزمية يحل مشكلة المعنى والانتماء لأتباعه متجاوزاً المؤسسات التلمودية .

وقد تحولت الحسيدية (التساديكية) إلى بيروقراطية دينية لها مصالحها الخاصة ، واستولت على القهال في كثير من الأحيان ، ولكنها لم تدخل أية إصلاحات اجتماعية . بل كان القهال أحياناً يزيد الضرائب على اليهود بعد استيلاء الحسيديين عليه .

وقد ارتبطت كل جماعة حسيدية بالتساديك الخاص بها . ولذا ، فقد انقسمت الحركة إلى فرق متعددة . فبعض هذه الفرق اتجه اتجاهاً صوفياً عاطفياً محضاً ، في حين اتجه بعضها الآخر ، مثل حركة حبد ، اتجاهاً صوفياً ذهنياً يعتمد على دراسة كل من القبَّالاه والتلمود . كما أن وجود هؤلاء الحاخامات داخل دول مختلفة ، زاد من هذا الانقسام . وأثناء الحرب النابليونية ضد روسيا ، أيَّد بعض الحسيديين الروس روسيا ضد نابليون ، ولكن بعض الجماعات أيدته ضد روسيا ، بل تجسست لحسابه . وقد حاولت المؤسسة الحاخامية القضاء على الحسيدية ، فأصدر معارضو الحسيدية الذين كان يُقال لهم المتنجديم قراراً بطرد اليهود من حظيرة الدين ، وحرق كتاباتهم كلها ، وعدم التزاوج بهم . وكان من أهم الشخصيات الحاخامية التي قادت الحرب ضدهم الحاخام إلياهو (فقيه فلنا) . ومع هذا ، ورغم الانقسامات والخلافات بين الحسيدية واليهودية الحاخامية ، فقد وحدوا صفوفهم في النهاية بسبب انتشار العلمانية ومُثُل الاستنارة والتنوير والنزعات الثورية بين اليهود . ولما كان القهال قد تداعى كإطار تنظيمي ، فإن الحسيدية استطاعت أن تحل محله كإطار تنظيمي جديد . ولذا ، فإن الحسيدية لم تنتشر جغرافياً وحسب ، بل انتشرت عبر حدود الطبقات أيضاً .

ويتكون الأدب الحسيدي من الكتب التي تلخص تفاسير الزعماء التساديك للكتاب المقدَّس ، وتعاليمهم وأقوالهم ، وقصص الأفعال العجائبية التي أتوا بها . ومن أشهر القادة التساديك شيناءور زلمان وليفي إسحق ونحمان البراتسلافي (حفيد بعل شيم طوف) . وكان لكل مجموعة من الحسيديين أغانيها وطرقها في الصلاة ، وكذلك عقائدها وقصصها . وكانت لهم شبكة من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية خارج القهال .

وقد أتت النازية على المراكز الحسيدية الأساسية في شرق أوربا . وقد انتقلت الحركة الحسيدية إلى الولايات المتحدة ، مع انتقال يهود اليديشية إليها ، منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر ، لكن جماعات الحسيديين تفرقت وتبعثرت نظراً لابتعاد زعامتها المتمثلة في التساديك . وقد هاجر بعض القادة التساديك بعد الحرب العالمية الأولى ، لكن الحركة الحسيدية لم تبدأ نشاطها الحقيقي إلا بعد الحرب العالمية الثانية . وقد استقر الحسيديون في بروكلين في منطقة وليامزبرج . وأهم الجماعات الحسيدية هي : جماعة لوبافيتش (حبد) ، وجماعة الساتمار ، وبراتسلاف وتشرنوبيل ، ولا تزال توجد بينهم جيوب قوية معارضة للصهيونية . ويوجد مركزان أساسيان للحسيدية في الوقت الحاضر : أحدهما في الولايات المتحدة والآخر في إسرائيل .

الحسيدية والحلولية

Hassidism and Pantheism

الحسيدية تعبير متبلور عن الطبقة الحلولية داخل التركيب الجيولوجي اليهودي الذي يمزج بين الشعب والأرض والإله . وكثيراً ما كانت هذه الحلولية تتبدَّى في شكل حركات مشيحانية كان آخرها الحركة الشبتانية . ومع هذا ، فإن الحسيدية قد حددت هذه الأفكار وعمقتها بطريقتين : فقد أوصلت كثيراً منها إلى نتائجها المنطقية وأكسبتها أبعاداً جديدة من خلال القبَّالاه اللوريانية التي تشكل الإطار النظري الكامن للحسيدية . فالقبَّالاه اللوريانية لا تركز على حادثة تَهشُّم الأوعية (شفيرات هكليم) وحسب ، وإنما تركز أيضاً على تَبعثُر الشرارات الإلهية (نيتسوتسوت) ، أي وجود الإله في كل مكان . ويظهر هذا في تأكيد بعل شيم طوف وجود الإله ، أو الشرارات الإلهية ، فعلاً في النبات والحيوانات ، وفي أي فعل إنساني ، بل في الخير والشر نفسيهما . ويرى الحسيديون أن العالم بمنزلة ثوب الإله ، صَدَرَ عنه ولكنه جزء منه ، تماماً مثل محارة الحيوان البحري المعروف بالحلزون ، قشرته الخارجية جزء لا يتجزأ منه . والحسيديون يؤمنون بالتالي بأن الإله هو كل شيء وما عدا ذلك وهم وباطل ، أي أن الحسيدية تعبير عن الحلولية في مرحلة وحدة الوجود الروحية التي لا تختلف عن وحدة الوجود المادية إلا في تسمية المبدأ الواحد أو القوة الكامنة في المادة الدافعة لها ، إذ يسميها دعاة وحدة الوجود الروحية «الإله» ، أما دعاة وحدة الوجود المادية فيسمونها «قوانين المادة والحركة» .

وقد استفادت الحركة الحسيدية كذلك من القبَّالاه اللوريانية في نزعتها الكونية . ولكن إذا كانت القبَّالاه اللوريانية تَحصُر اهتمامها في الكون والاعتبارات الكونية ، فإن الحسيدية تربط بين الحقيقة النفسية والحقيقة الكونية ، كما أنها حولت التأملات الميتافيزيقية إلى تأملات نفسية ، وحولت القبَّالاه نفسها من نظرية عن أصل العالم وطرق إصلاحه (تيقون) إلى طريقة للوصول إلى السعادة الداخلية . ولذا ، فإن الحسيدية تطالب اليهودي بالغوص في أعماق ذاته . وفي هذه الأعماق ، يستطيع الإنسان أن يرتفع ويتسامى على حدود الكون والطبيعة حتى يصل إلى أن الإله هو الكل في الكل ولا يوجد سواه (الواحدية الكونية) . ولم تَعُد وسيلة الوصول إلى الإله هي التفكير العقلاني الجاف ، وإنما الفرح والرقص والنشوة وصفاء الروح والنية الصادقة .

وكان للإيمان بهذه الصيغة المتطرفة من الحلولية ، أو وحدة الوجود ، نتائج فكرية عديدة ، نجملها فيما يلي :

١ - يرى الحسيديون أن الهدف من حياة الإنسان ليس فهم أو تغيير الكون وإنما الالتصاق بالإله والتوحد معه وبإرادته المستقلة (ديفيقوت) . وبتأكيد أن الإله هو كل شيء ، لا يصبح هناك مجال لممارسة الإرادة الإنسانية ولا مجال للحزن أو المأساة . ولذا ، نجد أن الحسيديين يرفضون ثنائية الموقف الديني التقليدي (وهي مختلفة عن الثنوية) ويحلون محلها واحدية صوفية عمياء . والواقع أن رفضهم هذه الثنائية إنكار ضمني لوجود الإله ، هذا الوجود الذي يفترض وجود قطبين متعارضين : التاريخ والإله ، الإنسان والخالق ، الأرض والسماء ، وهكذا .

٢ - ويُلاحَظ أن الحسيدية حاولت أيضاً أن تخفف عن اليهودي إحساسه بوطأة وجوده في المنفى . والمفهوم الحاخامي التقليدي يؤكد أن وجود اليهود في بلاد غير فلسطين هو عقاب لهم على ما اقترفوه من ذنوب . وقد كان هذا الإحساس بالذنب ثقيلاً ، فجاءت الحسيدية وأنكرت حقيقة الشر ، فالشر إن هو إلا اختفاء الخير وتشويهه ، بل إن الشر ليس إلا جسراً للوصول إلى الخير ، ويمكن تعديل الشر ليصبح خيراً . وقد ولَّدت هذه الرؤية شكلاً من أشكال القبول لدى اليهود لوضعهم البائس والرضا عنه ، وخففت من حدة التطلعات المشيحانية التي تؤدي باليهود إلى الارتطام بالواقع والحكومات ، كما خففها أيضاً التركيز على التأمل الباطني بدلاً من التفكير في الكون .

٣ - نادى الحسيديون بأن عبادة الإله يجب أن تتم بكل الطرق ، كما يجب أن نخدمه بكل شكل : بالجسد والروح معاً مادام أنه إله غير مفارق ، لا يتجاوز الطبيعة والتاريخ ، كامن في كل شيء ، حتى في مذاق الطعام وتدخين التبغ وفي العلاقات الجنسية والتجارية . وقد قال أحد زعماء الحسيدية إن على المرء أن يشتهي كل الأشياء المادية ، ومنها المرأة ، حتى يصل إلى ذروة الروحانية . فالفرح الجسدي عند الحسيديين ، يؤدي إلى الفرح الروحي ، والحسيدية تؤمن بروحانية المادة لأن الروح ليست إلا شكلاً من أشكال المادة . بل إن العبادة والخلاص بالجسد يصلان إلى حد عبادة الإله من خلال العلاقات الجنسية . ومثل هذا الموقف كامن في أية رؤية حلولية متطرفة ، حيث تلتقي وحدة الوجود الروحية بوحدة الوجود المادية .

٤ - وتنعكس الحلولية في شكلين هما في الواقع شيء واحد : حب عارم لفلسطين أو إرتس يسرائيل ، يقابله كره عميق للأغيار . ولذلك ، لم يكن مفر من أن يخرج الحسيديون من بين الأغيار المدنَّسين ، وبلاد الأغيار المدنسة ، ليستقروا في الأرض الطاهرة المقدَّسة التي هي هدف القداسة ومصدرها في وقت واحد . ومما دعَّم

هذا الشوق إلى صهيون ، تفاقم وضع يهود اليديشية بسبب عمليات التحديث والعلمنة في مجتمعات شرق أوربا .

وتأثير الحركة الشبتانية على الحسيدية واضح ، فقد نشأت الحركتان في التربة نفسها وفي المنطقة نفسها . وتتبدّى نقط التشابه في صدورهما عن القبّالاه اللوريانية ، وفي الدعوة إلى المتعة الجسدية، وفي اعتبار هذه المتعة طريقاً إلى الخير (عفوداه بجشميوت، أي «الخلاص بالجسد») ، وفي تسامحهما في تنفيذ الشريعة ، وفي مفهومهما المتساهل إزاء الشر ، ورؤيتهما لإمكانية إعلاء الشر ، بل في وجود عناصر من الخير داخل الأفكار الشريرة ، ثم في إمكانية الوصول إلى الخير من خلال الشر . كما يأخذ الحسيديون بالرؤية اللوريانية للخلق والعالم . ولكنهم ، بدلاً من التركيز على حادثة تَهشُّم الأوعية وسجن الشرارات ، يؤكدون وجود الإله في كل الوجود .

ولكن الحسيدية تختلف عن الشبتانية في أنها ظلت ، في نهاية الأمر ، داخل إطار من الشريعة يَتقبَّل الأوامر والنواهي . فالحسيديون قللوا ـ على سبيل المثال ـ من أهمية دراسة التوراة ، ولكنهم لم ينكروا تعاليمها ، وقد انسحبوا من المعابد اليهودية القائمة ، لكنهم أسسوا معابدهم الخاصة التي كانوا يمارسون فيها صلواتهم . وهاجموا الحاخامات وطردوهم ، ولكنهم أحلوا التساديك محل الحاخام . ورفضوا كتاب الصلوات الأشكنازي ، ولكنهم تبنوا بدلاً منه كتاب الصلوات السفاردي . ورفضوا طريقة الذبح الشرعي السائدة ، ولكنهم أحلوا محلها طريقة أخرى للذبح . والأهم من كل هذا أنهم رفضوا تماماً الفكرة الشبتانية القائلة بأن الماشيَّح قد وصل بالفعل (ومن هنا كان رفض الحسيدية للهجرة الفعلية) . كما أن الممارسات الجنسية ظلت في أضيق الحدود ، وأخذت شكل طقوس ورقصات وشطحات ، أكثر من كونها ممارسات فعلية .

وقد تكون إحدى نقط الاختلاف الأساسية أن الشبتانية جعلت الفكرة المشيحانية تدور حول شخص الماشيَّح الواحد : شبتاي تسفي أو فرانك . أما الحسيدية ، فقد أصبحت مشيحانية بلا ماشيَّح واحد ، وأصبح هناك عدد من المشحاء الصغار ، يظهرون في شخصية التساديك ، وتتوزع عليهم القداسة أو الحلول الإلهي ، وهو ما قلل من تركُّزه وقلل بالتالي من تَفجُّر الحسيدية . كما أن النزعة المشيحانية عبرت عن نفسها في النفس الإنسانية لا في الواقع الخارجي . وجعلت النفس البشرية مجال المشيحانية لا مسرح التاريخ . ولذا ، كان على الحسيدي أن يغوص في فردوس الذات بدلاً من أن يحاول تحقيق الفردوس الأرضي . وإذا كانت الرؤية المشيحانية التقليدية رؤية أبوكاليبسية تَحدُث بغتة عن طريق تَدخُّل الإله في التاريخ ، فالمشيحانية الحسيدية تدرجية ، وقد حوَّلت المشيحانية إلى حركة بطيئة متصاعدة يشترك فيها كل جماعة يسرائيل ، بقيادة عدد كبير من التساديك ، ولا تتوقع أية تحولات فجائية (وقد تأثر الفكر الصهيوني بهذه الفكرة) .

التساديك (الصديق)

Tzaddik

«تساديك» كلمة عبرية معناها «الرجل الصالح» أو «الصديق» . وتُعتبر كلمة «ربي» ، اسماً آخر للتساديك ومعناها «السيد» ، كما كان يُدعى أحياناً «أدمور» ، وهي اختصار للكلمات «أدونينو» و«مورينو» و«رابينو» ، أي «سيدنا» و«أستاذنا» و«معلمنا» . ويُعتبر هذا التصور لقائد الجماعة من أهم أشكال التمرد الحسيدي على المؤسسة الدينية ، وعلى القيادة الحاخامية التي انعزلت عن الجماهير الفقيرة وارتبطت بالأقلية المالية التي كانت تسيطر على القهال . ومن المعروف أن منصب الحاخام ، مع منتصف القرن الثامن عشر ، كان يُباع ويُشترى ، وتتحكم فيه الأقلية الثرية . وقد تَحدَّت الحسيدية المؤسسة الحاخامية ، وخلخلت قبضتها على الجماهير في عدة مجالات من بينها وظيفة الحاخام الذي حل التساديك محله .

والتساديك ، حسب التصور الحسيدي المتأثر بتصورات القبَّالاه اللوريانية ، تعبير متطرف عن الرؤية الحلولية اليهودية . فهو أولاً شخص ذو قداسة خاصة يقف في منزلة لا تتلو إلا منزلة الإله ، وهو أحد التجليات النورانية العشرة (سفيروت) ، أي أنه جزء من الإله . بل هو أحد العُمُد التي تستند إليها الدنيا ، وهو أساس العالم (يسود) . وأكثر من ذلك ، فإن العالم خُلق من أجله . وكما هو الحال دائماً مع الحلولية ، ينتهي بها الأمر إلى تعادل بين الإله ومخلوقاته ، ثم إلى ترجيح كفة المخلوقات على حساب الإله ، فالتساديك شخصية تبلغ حداً من القداسة يجعلها تقترن بكلام الإله وتتوحد معه ، ولذا فقد كان الحسيديون يقولون دائماً : « لقد تحدَّث التساديك توراة » ، أي أن كلامه في قداسة التوراة وقداسة الإله ، ولذا فإن من يعارضه يجدف في الإله .

ولكن الحسيديين يدينون بالمفهوم اللورياني للشرارات الإلهية (نيتسوتسوت) وضرورة استعادتها بعد تَهشُّم الأوعية (شفيرات هكليم) . والواقع أن مهمة التساديك هي تحرير هذه الشرارات الإلهية المحبوسة ، أي تحرير الإله . ومن هنا كانت حاجته إلى

التساديك . بل إن الإله يحتاج إليه في أمر آخر ، وهو الوصول إلى الناس ، فالتساديك هو الوسيلة الوحيدة التي تربط الأرض بالسماء.

ومهمة التساديك هي أن يقوم بقيادة جماعته ، وأن يربط بينها وبين السماء ، فهو قادر على التأمل الصوفي الذي يقربه من الإله ويوحده معه ، وبذا فإنه يصبح حلقة الوصل بين الخالق ومخلوقاته ، وهو إن لم يقم بهذه المهمة فلا معنى لوجوده . ولكن إذا كان التساديك حلقة الوصل ، فإن الجماهير تحتاج إليه احتياج الإله إليه ، فهو الذي يأتي إليها بالشفاعة ، ويحضر لها الحياة من السماء ، كما أنه يوصل روح الإله إليها ، وهو قادر على الالتصاق بالإله (ديفيقوت) ، ومن خلال التصاقه هو بالإله تتمكن الجماهير هي الأخرى من تحقيق الالتصاق بالخالق . وقد تَعمَّق هذا المفهوم حتى أصبح الإيمان بالإله هو الإيمان بقدرات التساديك العجائبية . ويُعَدُّ هذا تطوراً جديداً كل الجدة في اليهودية التي ترفض الوساطة والكهانة ، على الأقل من الناحية النظرية . وإذا كانت اليهودية التقليدية تدعو إلى احترام الحاخامات ، فاليهودية الحسيدية تدعو إلى تقديس التساديك ، فهو يشبه القديسين المسيحيين . وهنا يظهر أثر المعتقدات الدينية الفلاحية السلافية على الحسيديين ، وخصوصاً فرقة الخليستي التي كان يرأسها مشحاء ، تحل فيهم الروح القدس ، فليست تعاليم التساديك هي التي تهم وإنما أفعاله ، فكل فعل من أفعاله ، مهما كان تافهاً ، معبأً بالمعنى .

لكل هذا ، يتمتع التساديك بقدرات خرافية خارقة . وقد جاء في الأدب الحسيدي أنه كان يمكنه شفاء المرضى ، وله سلطة على الحياة والموت تفوق قدرة الإله نفسه ، إذ يمكنه أن يتدخل لديه ويجعله يرجئ قراره بشأن موت فرد ما . وقد ورد في أحد الكتب الحسيدية أن مجموعة من الحسيديين كانوا في طريقهم بحراً إلى فلسطين ، حين هبت عاصفة هددت السفينة . وحينئذ جمع التساديك كل رعاياه ، وأمسك مخطوط التوراة ، وقال للإله "إذا كان قد تقرر في محكمة الأعالي أن نقضي نحبنا ، فإننا نعلم ، باعتبارنا محكمة الجماعة المقدَّسة ، أننا لا نوافق على هذا القرار" . وقال الجميع «آمين» . فتوقفت العاصفة . وكان بعض القادة التساديك يلومون الإله على أي أذى يحل بهم ، ويتناقشون معه بصوت عال . وتعود قدرات التساديك هذه - حسب التصور الحسيدي - إلى صفاء روحه وشفافيتها التي تمكِّنه من الوصول إلى تلك العوالم (سفيروت) التي لا توجد فيها أية قرارات أو حدود ، لأن الرحمة وحدها هي التي تسود فيها .

ولكن لمَ يتمتع التساديك بكل هذه القوى الخارقة وبكل هذه الإعجازية التي لم تُمنَح لعظماء اليهود في الماضي ؟ ولمَ يتمتع وحده بهذه الشفافية وهذه المقدرات ؟ يقول الحسيديون إن الشعب اليهودي يوجد الآن في المنفى . ولذلك ، يحل الإله في أي إنسان متواضع شأنه في هذا شأن الملك المسافر الذي يمكنه أن يحط رحاله في أي منزل مهما بلغ تواضعه . وعلى العكس من هذا ، فلو أن الملك كان في عاصمته ، فإنه لن ينزل إلا في قصره وحده . وفي الماضي ، كان الزعماء والأنبياء اليهود هم وحدهم القادرون على الوصول إلى الروح الإلهية ، ولكن الشخيناه الآن في المنفى ، ولذلك يحل الإله في أية روح خالية من الذنوب ، أي أن التساديك أصبح تجسيد الإله ، ومن ثم وسيلة اليهودي المنفي للوصول إلى الإله . إنها إذن الحلولية اليهودية في المنفى . وبدلاً من أن يحل الإله في أرض الميعاد ويتكون الثالوث الحلولي : الإله ، الأرض ، الشعب ، يحل الإله في التساديك ، ويظل الثالوث على حاله بعد تعديل طفيف (الإله - التساديك - الشعب في المنفى) . ويُلاحَظ هنا التشابه القوي بين المسيحية والحسيدية في أن الحلول الإلهي يتنقل من الشعب إلى شخص واحد هو : المسيح في المنظومة المسيحية والتساديك في المنظومة الحسيدية .

ومهما بلغ التساديك من سمو روحي ، فليس بإمكانه ، ما دام يقوم بأفعاله وحده ، تغيير نظام العالم أو الإسراع بالخلاص . فهو ، كما تَقدَّم ، لم يكن منفصلاً عن جماعته ، ولذا فإن سموه الروحي عديم الجدوى بل قد يأتي ذلك بأثر عكسي ، فهو حينما يتسامى ولا يلحق به أتباعه (لأنهم لا يمكنهم أن يصلوا إلى الأعالي التي وصلها) ، فإن السماء ستحكم عليهم بقسوة ودون رحمة ، ولذا سيلحق بهم الأذى نتيجة تقوى التساديك . ولهذا ، فلكي يحقق لشعبه إمكانية الالتصاق بالإله من خلاله دون أن يلحق بهم الأذى ، عليه أن ينزل من سموه الروحي حتى يرتفع بالناس ، ويقود أتباعه إلى النور المقدَّس ، فهو يختلط بالناس في السوق بتواضع ، ولكنه في الوقت نفسه ملتصق بالإله في أعاليه . ويمكن القول بأن المفهوم الحسيدي الخاص «يريداه لتسورخ هعالياه» ، أي «الهبوط من أجل الصعود» أو «التسامي عن طريق الغوص في الرذيلة» هو ترجمة حسيدية معتدلة للتصور الشبتاني للماشيَّح الفاسد ظاهراً الطاهر باطناً .

وقد كان يرأس كل جماعة حسيدية تساديك خاص بها ، له بلاطه الذي يُعَد مركز القداسة الخاص بها ، فهو مركز الحلول الإلهي أو اللوجوس الذي يوحد بينهم . وكان التساديك يعيش قريباً من الجماهير محبوباً منهم يتحدث لغتهم ، فكان يُدخل على قلبهم

الطمأنينة التي افتقدوها في عالم تَعثُّر التحديث والعلمانية والثورة ، على عكس الحاخام البعيد عنهم ، المنغلق على دراساته التلمودية ، وبهذا صار نوعاً من القيادة الكاريزمية التي تتجاوز المؤسسات . وكان المريدون يسافرون يوم السبت إلى بيت التساديك ليسمعوا مواعظه ، وليأتنسوا بمشورته ، وأحياناً لم يكونوا يزورنه إلا ثلاث مرات سنوياً . وكان التساديك يعيش على معوناتهم . فمن فرط حبهم له ، كانوا يساعدونه مالياً ، وهو من فرط حبه لهم كان يعتمد عليهم مالياً ، أي أن المساعدة المالية كانت وسيلة للارتباط الروحي والعاطفي . فكان يقف المحصل أو الجابي (بالعبرية : الجَبَّاي) على بابه فيكتب اسم المريد ويدوّن احتياجاته الروحية والمالية ، ويقوم التساديك بإسداء النصح له ، ويعطيه السيجيلوت أو الصيغة الصوفية التي تضمن له النجاح . وكان لدى التساديك أحجبة لا حصر لها لكل المناسبات والأمراض (وكما هو واضح ، فإن البحث عن الصيغة السحرية للتحكم في العالم سمة أساسية في النظم الحلولية) . وبعد الزيارة ، يقوم المريد بإعطاء المحصل بعض المال (بالعبرية : فيديون) ، من أجل الخلاص الروحي وهي اختصار «فيديون نيفيش» ، أي «فدية أو خلاص النفس» . ويرى أحد المؤرخين اليهود أن هذه العادة تشبه من بعض الوجوه صكوك الغفران المسيحية في العصر الوسيط . وكان التساديك يلبس الأبيض مثل قيادات الجماعات المسيحية كالدوخوبور والخليستي وغيرهما . وكان يبدأ في تفسير تعاليمه لمريديه بعد أن يتناول وجبة الطعام ، ويترك فضلات الطعام ليتخاطفها المريدون باعتبارها مصدر بركة .

وبعد انتهاء طقس تناول وجبة الطعام ، يقوم المريدون بالرقص والغناء ، وكان التساديك يشاركهم هذا الطقس أيضاً . وحينما يموت التساديك ، كان يُدفَن في ضريح فاخر يحج إليه المريدون . ويُقال إن بعض المريدين كانوا يقومون بالإدلاء باعترافاتهم أمامه على طريقة الكنائس المسيحية .

وكان بعض القادة التساديك يتصف بالتقوى والزهد والتضحية بالنفس ، وكانوا يؤكدون زعامتهم على أساس تفوقهم الأخلاقي والروحي . ولكن بعضهم الآخر أثرى ثراءً فاحشاً أدَّى إلى ظهور عوامل الانحلال بينهم في نهاية الأمر ، مثال ذلك حفيد بعل شيم طوف الذي كان يعيش مثل النبلاء البولنديين ويمتلك مهرجاً داخل بلاطه ، وكان يطارد أي تساديك حسيدي آخر يدخل منطقته . وكان بعض القادة التساديك يتجولون في عربات تجرها عدة أحصنة مثل النبلاء البولنديين (ومثل جيكوب فرانك من قبلهم) . وقد تحوَّل منصب التساديك إلى منصب يتوارثه أعضاء الأسرة . وقد أصبح هذا التوارث القاعدة فيما بعد ، الأمر الذي يعكس التأثر بالنظم الإقطاعية البولندية السائدة . وبهذا ، أصبحت القداسة ، مثل الكهنوت ، مسألة داخلية تُورَّث . ولكن الحسيديين يفسرون هذا الفساد باعتباره ضرورياً للوصول (كما هو الحال مرة أخرى مع الماشيَّح) ، ولكن توارث القداسة هو في واقع الأمر سمة أساسية في الأنساق الحلولية .

بعل شيم طوف (١٧٠٠-١٧٦٠)

Baal Shem Tov

«بعل شيم طوف» هو التساديك الحسيدي إسرائيل بن إليعازر . وكان يُدعَى أيضاً «بشط» ، وهي الأحرف الأولى من اسمه . و«بعل شيم» عبارة عبرية تعني «سيد الاسم» أو «الذي تملَّك ناصية الاسم» ، والاسم هنا هو اسم الإله (الغنوص) ، فمن امتلك ناصيته (أي نطق به واستخدمه بحيث يمكنه التأثير في الإرادة الإلهية) أصبح قادراً على التحكم في الكون من خلال التحكم في الذات الإلهية . والبعل شيم مجموعة من الدراويش اشتهروا بتملُّك ناصية الاسم ، وبالتالي بمقدرتهم على الإتيان بالمعجزات . وكان بعل شيم طوف (مؤسس الحركة الحسيدية) أحد هؤلاء ، ومعنى اسمه «ذو السمعة الطيبة» أو «صاحب السيرة العطرة» ، ولكن هذا الاسم كان يحمل أيضاً دلالة الإتيان بالمعجزات فهو يعني «الذي يعرف اسم الإله» .

ويكتنف الغموض حياة بعل شيم طوف ، إذ أحاطته الروايات والمأثورات الشعبية بهالة من القداسة ، ووُصفَت حياته بأنها سلسلة من الأحداث الخارقة والمعجزات . وكانت روحه تُعَدُّ شرارة الماشيَّح المخلِّص نفسه (الشرارات الإلهية) . وحسبما جاء فيما نشر عنه بعد وفاته ، فإنه وُلد لأبوين فقيرين في جنوب بولندا ، وقد تيتم في طفولته ، وقضى أول مراحل شبابه يعمل في المدارس الدينية . وفي العشرينيات من عمره ، ذهب إلى الغابات ، واشتغل بالأعمال اليدوية ، وبدأ دراسة القبَّالاه . ويُلاحَظ أنه لم يدرس التلمود دراسة كافية . وقد أمضى بعل شيم طوف شطراً من حياته متجولاً في بلدان كثيرة داخل بولندا وأوكرانيا يواسي المحتاجين ويشفي المرضى ، شأنه في هذا شأن فئة الدراويش من بعل شيم . ومع أنه لم يتلق التعليم الحاخامي اللازم ، فإنه كان يلقي المواعظ الدينية . وكان عدد الوعاظ الشعبيين (مُجِّيديم) قد زاد زيادة كبيرة بسبب ضعف اليهودية الحاخامية . وكان اليهود المعادون له يشيرون إلى كسله وغبائه وفشله في إنجاز أي شيء عهد به إليه ، ولذا فقد فُصل من كل الوظائف التي التحق بها . أما المريدون ، فكانوا يرددون أن بعل شيم طوف كان

يتعمد كثرة النوم لأنه كان ينتظر الوحي الإلهي! وكان سلوكه الجنسي مثار النقاش ، فأعداؤه يشيرون إلى كثرة النسوة اللائي كن يصحبنه . ولكن يبدو أن سلوكه الجنسي يشبه ، من بعض الوجوه ، سلوك شبتاي تسفي الذي كان يتأرجح بين الإباحية والشذوذ أحياناً والامتناع عن الجنس أحياناً أخرى . فقد جاء على سبيل المثال في كتاب **مدائح بعل شيم طوف** أنه امتنع عن معاشرة زوجته جنسياً مدة أربعة عشر عاماً ، وأنها حملت ابنهما هرشل من خلال الكلمة (لوجوس) . وقد تواترت قصة أخرى عنه مفادها أن فتاة حملت من بعل شيم طوف من خلال دعائه . وكل هذه القصص تبين أثر الفكر الديني المسيحي ، وخصوصاً جماعة السكوبتسي (المخصيين) التي نادت بالامتناع عن ممارسة الجنس ، وقالت إنه لو أراد الإله أن تحمل عذراء فإن ذلك سيتم من خلال الروح القدس .

ويبدو أنه تأثر ببيئته السلافية أكثر من تأثره بالمعتقدات الدينية اليهودية ، فكان محباً للطبيعة والخمر والخيل ، كما كان يدخن الغليون طول الوقت (وقد كان أعداؤه يتهمونه بأنه كان يدخن شيئاً غير الطباق) . كما كان يتسم بخشونة الطبع ، شأنه في هذا شأن الفلاحين السلاف ، وكان يحشو مخه بعدد كبير من الأساطير والقصص الخاصة بالعفاريت والأشباح . كما كان يرتدي ملابس تشبه أردية رجال الحركات الدينية المسيحية المقدَّسين في تلك المنطقة . وقد استقر بعل شيم طوف سنة ١٧٤٠ في بلدة مودزيبوز حيث أقام مدرسة اجتذبت إليها المريدين والتلاميذ ليحظوا بالراحة النفسية والجسدية . وقد كانت نظرياته مستقاة من مصادر يهودية ، وبخاصة القبَّالاه ، غير أنه أضاف إليها الكثير من الفلكلور الديني المسيحي بحيث خلق نوعاً جديداً من الفلسفة الصوفية الحلولية . وتتلخص تعاليمه في أن الإنسان يبحث عن وسيلة للالتحام والالتصاق بالإله (ديفيقوت) بل التوحد معه حتى يستطيع التوصل إلى القوة الروحية الموجودة والكامنة في كل شيء . أما وسيلة الإنسان إلى ذلك فهي حب الإله والثقة به والبُعد نهائياً عن الحزن والخوف اللذين يفسدان القلب ، وأن يصلي الإنسان بإخلاص وتفان ومرح ونشوة ، صلاةً حقيقية تحمي الروح من قيود الجسد وتسمو بها إلى السماء . ويُلاحَظ في كل هذا ابتعاده عن التعاليم الحاخامية الشكلية الجافة التي كانت تؤكد أهمية تنفيذ الأوامر والنواهي بدقة شديدة . وقد كان لتعاليم بعل شيم طوف هذه تأثير قوي ، وكانت أقواله تبعث الدفء والمرح في نفوس مريديه من اليهود .

ولم يترك بعل شيم طوف أية كتابات باسمه ما عدا بضعة خطابات . ولكن تعاليمه الشفوية ظهرت مطبوعة بعد عشرين عاماً من موته ، في ثمانينيات القرن الثامن عشر ، وظهرت القصص التي كانت تُتداول عنه عام ١٨١٤ . ومن أهم الكتب عن أقواله وأفعاله والقصص التي نسجت حوله كتاب **مدائح بعل شيم طوف** . والجدير بالذكر أن أقواله وتعاليمه قد ساهمت في فصل يهود اليديشية عن واقعهم التاريخي ، وهذا ما جعلهم أكثر تَقَبُّلاً للأفكار الصهيونية . كما تأثر بأفكاره كثير من المفكرين الصهاينة ، وخصوصاً الفيلسوف الوجودي الصهيوني مارتن بوبر .

دوف بير (واعظ ميجيريك) (١٧٠٤-١٧٧٢)

Dov Ber (The Maggid) of Mezhirech

ويُعرف أيضاً باسم «هامجيد» ، أي «الواعظ المتجول» ، وهو المؤسس الحقيقي للحركة الحسيدية وخليفة بعل شيم طوف ، تلقَّى تعليماً دينياً تقليدياً في إحدى المدارس التلمودية العليا . ثم بدأ يعمل واعظاً متجولاً إلى أن وصل إلى مدينة ميجيريك في مقاطعة فولونيا التي أصبحت واحداً من أهم مراكز الحركة الحسيدية . ويُقال إنه أصبح من الزهاد الأمر الذي أثر في صحته ، وذهب يبحث عن دواء لدائه عند بعل شيم طوف مؤسس الحركة الحسيدية الذي ذاع صيته كأحد المؤاسين . وقد قال دوف بير « إن بعل شيم طوف كشف له لغة الطير والأشجار ، وأسرار القديسين والتجسدات الربانية ، وأنه بيَّن له كتابات الملائكة وشرح له المغزى الكامن في حروف الأبجدية العبرية » . وعندما مات بعل شيم طوف عام ١٧٦٠ ، أصبح دوف بير زعيم الحركة عام ١٧٦٦ رغم معارضة جيكوب جوزيف له ، ورغم أنه كان مريضاً قعيداً في الفراش ، ورغم أنه لم يكن رجلاً شعبياً مثل بعل شيم طوف . ولعله نجح في أن يصبح زعيم الحركة لأن شخصيته كاريزمية إلى درجة أن أتباعه قاموا بتقديسه ، فكان بعضهم يزوره ليرى كيف يلبس حذاءه ويربط رباطه ، فكأن كل فعل يقوم به ، مهما ضؤلت قيمته ، له معناه . وقد نقل دوف بير مركز الحسيدية من بودوليا إلى فولونيا ، الأمر الذي سهَّل عملية انتشارها ، كما قام بحركة تبشيرية بين طبقات جديدة وفي مناطق جديدة في بولندا بأسرها ، ولذا يُعتبر نشاطه البداية الحقيقية للحسيدية كحركة وعقيدة . وتحت قيادته ، انتشرت الحسيدية في أوكرانيا وليتوانيا وبوزنان وتَجذَّرت في وسط بولندا ، ومن ثم تحولت إلى أهم حركة شعبية بين يهود اليديشية ، ويُقال إن سلوكه الشخصي هو الذي أدَّى إلى ظهور مؤسسة التساديك بشكل عملي ، رغم أنه لم يكن له إسهامات نظرية في هذا المجال . وقد أصبح أتباعه زعماء الحركة الحسيدية .

ولا شك في أن دراسته للتلمود ساعدته كثيراً على صياغة العقيدة الحسيدية بطريقة تشكل تحدياً للمؤسسة التلمودية . فقد جعل الحسيديين يتبنون الشعائر اللوريانية (السفاردية) ، وغيَّر بعض تفاصيل الذبح الشرعي ، وبذلك جعل جماهيره غير خاضعة للقيادات الحاخامية التلمودية التقليدية التي تحكمت في الجماهير من خلال الشعائر ، وخصوصاً الذبح الشرعي . وقد شجع دوف بير الشباب على إهمال دراسة التوراة ليعيشوا تجربتهم الدينية بشكل عاطفي ومباشر ، مبتعدين بذلك عن الطقوس الجامدة الخالية من الروح التي تفرضها المؤسسة التلمودية . والعبادة عند أتباعه كانت تأخذ شكل رقص وشطحات . وقد اتهمته المؤسسة الحاخامية بالكفر والحلولية ، فصدر قرار بطرده من حظيرة الدين في فلنا قلعة الأرثوذكسية .

ونسق دوف بير نسق حلولي غنوصي واحدي وصل إلى مرحلة وحدة الوجود ، فالعالم هو الإله «ولا يوجد مكان لا يشغله الإله» . فالتجليات الربانية التي تتبدَّى من خلال كل الكائنات والتي تملأ الفراغات والثغرات تجعل الوصول إلى جذور الوجود من خلال التأمل الداخلي أمراً ممكناً . والتساديك من ثم هو الإنسان الذي يتمتع بعلاقة خاصة مع الإله . والهدف من وجود الإنسان هو أن يلغي الوجود المتعين للواقع الذي يكتسب تعيُّنه من خلال الحدود المفروضة عليه ويعود إلى حالة الآيين (العدم) وهي حالة اللا تحدد التي تسبق الخلق («الإله خلق الوجود من العدم وهو يخلق العدم من الوجود») . فالعدم (وحالة السيولة الرحميّة الكونية ـ الحالة الروحانية التامة اللا إنسانية) هي نقطة البدء الأولى ونقطة العودة النهائية ، فوجود الإنسان في هذا الكون عملية عذاب وسقوط في الحدود (كما هو الحال دائماً في الأنساق الغنوصية) . بل إن الحالة الإنسانية نفسها هي حالة خلل ، إذ أنها حالة تُفرض فيها حدود على الإنسان . لكل هذا ، تُعتبَر مرحلة الوجود هذه مرحلة مؤقتة تسبق المرحلة النهائية ، ومرحلة العدم التي تنتفي فيها الحدود ، وهي الحالة التي يسعى إليها كل إنسان ، سقط في هذا الكون . وقد نزلت الروح من الأعالي حتى ترتفع بالوجود المادي المحدود من خلال تساميها الروحي الذي لا حدود له ، وهي بذلك تستعيد حالة الوحدة التامة (حالة وحدة الوجود) وانتفاء الحدود . عندئذ تصبح الصلاة ، بل كل الشعائر (رمز الحدود المفروضة على الإنسان ووسيلته لإظهار طاعته للإله) ، تصبح (داخل الإطار الحلولي) الطريقة التي يفقد بها الإنسان ذاتيته ويتجاوز حدوده فيلتصق بالإله ويصبح جزءاً منه . بل إن كلام مثل هذا الإنسان (الذي ينجح في تجاوز حدوده) يتحول من كونه كلاماً عادياً إلى كلام إلهي مقدَّس . بل إن عملية العبادة بأسرها تفقد حدودها وهويتها ، فأي فعل يأتي به الإنسان هو شكل من أشكال العبادة .

وكما هو الحال دائماً مع الأنساق الغنوصية ، ليس هناك وجود حقيقي للشر ، فالعالم كله سلسلة واحدة متصلة ، وما يبدو منها شراً إن هو إلا حلقة في السلسلة . ومن هنا ظهرت فكرة «عفوداه بجاشيموت» ، أي «الخلاص بالجسد» كوسيلة لجمع الشرارات الإلهية (نيتسوتسوت) ، وهي فكرة تعني أن أفعال الإنسان ، مهما تدنت وتدنست ، هي وسيلة للالتصاق بالإله (ديفيقوت) وعوناً له على استعادة وحدته . ولعل إحساس دوف بير بأن مثل هذه الأفكار قد تفتح الباب على مصراعيه مرة أخرى للعدمية الشبتانية جعله يتراجع قليلاً ويقول إن الالتصاق يجب أن يكون روحياً وحسب ، وأن على اليهودي أن يراعي الشعائر بدقة بالغة . وقد ذهب إلى أن القداسة من خلال الجسد (والدنس) أمر صعب على البشر العاديين ، ولذا جعله مقصوراً على الرجال المتميزين (فهم وحدهم الذين يمكنهم تجاوز مقولات الخير والشر كأبطال نيتشه) .

وقد أعاد دوف بير تفسير مفهوم الانكماش (تسيم تسوم) ، فتخلى عن المفهوم اللورياني الذي يذهب إلى أنه عملية انكماش في ذات الإله ، إذ يذهب بدلاً من ذلك إلى أن التسيم تسوم إنما هو في واقع الأمر زيادة في التجليات . ويختلف معنى التسيم تسوم حسب زاوية الرؤية والإدراك ، فزاوية المعطي غير زاوية المُتلقِّي ، فهي شكل من أشكال التجلي والمعرفة التي تفرض على الإله أن يتبدَّى حسب قوانين العقل . فانكماش الضوء يشبه تَبدِّي الفكر من خلال الصوت والكلام . وبذا ، ينجح دوف بير في أن يبتعد عن فكرة الكارثة الكونية الموجودة في مركز المنظومة اللوريانية ، فلا يصبح حادث تَهشُّم الأوعية (شفيرات هكليم) كارثة داخل الذات الإلهية وإنما واقعة تهدف إلى إشاعة النور ، تماماً مثل الترزي الذي يقطع ليحيك، ومن ثم يتم تقديم حادثة تَهشُّم الأوعية من خلال مصطلحات نفسية مثل «القلب الكليم» ، وهو أمر لا يحدث في الذات الإلهية وإنما في حياة الإنسان . وحيث إن الكارثة الكونية انتقلت من الإله والكون إلى الإنسان ، فإن النسق يتخلص بالتالي من أي نزوع نحو التفجر المشيحاني . فالحياة عملية خلاص روحية مستمرة ، ولم تعد حادثة تاريخية قومية واحدة . وعلى كل ، فإن مثل هذا الانتقال ليس أمراً صعباً داخل الأنساق الحلولية التي تلغي كل الثنائيات والتعددية ، وفي القبَّالاه نجد أن الميكروكوزم (الإنسان) هو الماكروكوزم (الكون)، ولذا فالانتقال من الخارج إلى الداخل (والعكس) أمر

متيسر للغاية وأصبح الصراع بين الخير والشر يتم في المجال الفردي وأصبح إصلاح الخلل الكوني عملية فردية ، وتيقون آدم قدمون (إصلاح آدم القديم أو الرمز الكامل للإنسان) مرتبط تماماً بالآدم تحتون (أي آدم السفلي أو التحتي) . ويُعَدُّ هذا من أهم إسهامات الحسيدية التي استوعبت النزعة المشيحانية داخل النفس اليهودية ومنعتها من التفجرات التي تؤدي إلى كوارث ، كما حدث في حالة شبتاي تسفي وغيره من المشحَّاء المخلصين الدجالين . ولكنها ، مع هذا ، ضمنت لها الاستمرار في حالة كمون ، إلى أن حانت اللحظة التاريخية ، فظهرت مرة أخرى في إطار الصهيونية .

ولم يترك دوف بير أي كتب ، ومع هذا فقد استُخلص نسقه الفكري والعقائدي من تفسيراته للعهد القديم والتلمود . وقد جُمعت بعض أقواله في كتاب بعنوان **ليقوطي أماريم** (مجموعة الأقوال) ، و **ماجيد دفاراف ليعقوف** (الذي يخبر يعقوب أقواله) .

إليميليك الليجانسكي (١٧١٧-١٧٨٧)

Elimelech of Lyzhansk

تساديك حسيدي ، من تلاميذ دوف بير ، وأحد مؤسسي الحركة الحسيدية في جاليشيا . تجوَّل هو وأخوه في جاليشيا وغيرها من الأماكن ، باعتبار أن تجوالهما هذا تعبير عن تجوال الشخيناه (التجلي الأنثوي للحضرة الإلهية) . وبعد موت دوف بير ، استقر إليميليك في ليجانسك في جاليشيا التي أصبحت من ثم مركزاً للحسيدية وأسس بلاطه فيها .

وقد أكد إليميليك أهمية التساديكية في النسق الحسيدي ، فهو أهم من الملائكة ، بل هو قادر على التأثير في الأعالي ، وعلى حد قوله : «التساديك يشاء ، والإله ينفذ» . فكل قول من أقوال التساديك يتحول إلى ملاك يؤثر في الأعالي . والتساديك يخوض حرباً تهدف إلى التصاقه هو والجماعة بالإله والصعود إلى المطلق . والتساديك يعيش في الأرض في الظاهر ولكنه في الواقع يعيش في السماء .

ويذهب إليميليك إلى أن ثمة نوعين من أنواع السقوط : السقوط من أجل إصلاح الخلل الكوني (تيقون) والسقوط من أجل الشيطان . والسقوط من أجل إصلاح الخلل الكوني عملية طوعية . فالتساديك يعرف أن عليه أن يصلح من حال جماعته ، ولذا فعليه أن يهبط إلى مستواها ليصعد بها . أما السقوط من أجل الشيطان ، فهو أمر تلقائي وتعبير عن قوى داخل التساديك وداخل جماعته . ومهما كان الأمر ، فعلى التساديك أن يتوحد مع جماعته وبالتالي يتحول المدنَّس إلى مقدَّس . وسقوط التساديك ومقدرته على ارتكاب الخطيئة أمر أساسي لقيادته إذ سيعوقه فشله في السقوط عن السمو بنفسه وبجماعته . وسموه بعد سقوطه سيصل إلى مرتبة أعلى من تلك التي كان يشغلها من قبل . ومن ثم فالشر هو الذي يدعم القداسة . والتغلب على الشر يكون بالاستسلام له ، كما أن هزيمة المادة تكون بتقبلها تماماً ؛ أي أن ثنائية الخير والشر يُقضَى عليها بأن يتحول الشر إلى خير ، وهو أمر سيعجل بمجيء الماشيَّح ، وهي اللحظة التي سيعود فيها الجميع إلى الوحدة الأصلية .

وفكر إليميليك فكر حلولي متطرف يظهر فيه التساديك باعتباره إلهاً في الأرض تتحول كلماته إلى ما يشبه التعويذة السحرية التي تؤثر في الإرادة الإلهية . كما أن أثر الشبتانية واضح للغاية في كتاباته وتأخذ شكل محاولة محو الثنائية الأخلاقية . ويُقال إن حياته الشخصية كانت مليئة بالسقطات الأخلاقية المتعددة . ولكن داخل الإطار الحلولي ، لا يمكن تسمية السقطات الأخلاقية «سقطات» ، فما هي إلا آلية من آليات الصعود وجزء لا يتجزأ من الخير النهائي . ومن أهم مؤلفاته **نُوعَم إليميليخ** (بهجة إليميليك) ، و **ليقوطي شوشانيم** (مقتطفات الزهور) .

مناحم البراتسلافي (١٧٧٢-١٨١١)

Menahem of Bratslav

تساديك حسيدي في بودوليا وأوكرانيا ومؤسس فرقة براتسلاف الحسيدية ، وهو حفيد بعل شيم طوف من ناحية الأم ، وحفيد أحد القادة الصوفيين (قبل ظهور الحسيدية) من ناحية الأب . وقد كانت أمه معروفة بأنها «ممن تملكتهم الروح المقدَّسة» . تزوج مناحم في سن مبكرة ونشأ في بيت حميه ، وكان من يهود الأرندا . ثم انتقل إلى مقاطعة كييف بعد أن تزوج حموه للمرة الثانية . زار فلسطين في بداية حياته وعاد عندما وصلت حملة نابليون على مصر إلى فلسطين . وقد اتُّهم منذ مطلع حياته بأن تعاليمه ذات طابع شبتاني فرانكي ، بل اتهمه بعض القادة الحسيديين بأن سلوكه إباحي داعر ، واتهمهم هو بأنهم من أتباع الشيطان .

كان مناحم البراتسلافي يدَّعي أنه استمرار لسلسلة طويلة من المفكرين اليهود المتصوفين تبدأ بشمعون بريوحاي وتنتهي ببعل شيم طوف مروراً بإسحق لوريا . وهو محقٌّ تماماً فيما يقول وإن كان قد قام ببلورة بعض الأفكار الحلولية في أنساقهم الفكرية ودفعها إلى نتيجتها المنطقية ، وهذا ما أثار ذعر كثير من القيادات الحسيدية . ونسق مناحم حلولي متطرف فالإله هو الإين سوف (اللامتناهي)

الذي خلق العالم وحلّ فيه كله ، من ضمنه عالم الشر والمحارة (قليبوت) . ولذا ، حينما يغوص الإنسان في حمأة الرذيلة ، فإنه حتماً سيجد الإله . وهو يفسر مفهوم الانكماش (تسيم تسوم) تفسيراً يوحِّد بين الشر والخير ، فالانكماش يؤدي إلى انسحاب الإله من ذاته بل إلى اختفائه (شحوب الإله وموته) ، ومن ثم يؤدي إلى خلق فراغ . ولكن الفراغ في الأعالي يعني ، في واقع الأمر ، الامتلاء الأرضي ، أي الحلول الإلهي في كل كائنات الكون .

والانكماش يؤدي إلى ظهور الفراغ ، والفراغ قد يطرح على الإنسان بعض الأسئلة النهائية ويولد الشك في نفسه . ولكن هناك سؤالاً آخر ينبع من تحطُّم الأوعية (شفيرات هكليم) . وحسب هذه النظرية ، فإن الانكماش أدَّى إلى ظهور المحارة ، وهذه المحارة هي الدراسات العلمانية ، مصدر الشك والهرطقة . فالأسئلة الكبرى تأتي من الفراغ ، ثم من خلال الصمت . ولذا ، فإن الإجابة عنها لا تكون إلا «بالصمت المقدَّس» (وهي من عبارات جيكوب فرانك الأثيرة) . والصمت المقدَّس هو الإيمان الأعمى ، الذي يتجاوز الشك تماماً ويصل إلى الجوهر الإلهي ، وهو أمر غير متاح للإنسان إلا بأن يعبد الإله بطريقة مباشرة ساذجة . ولذا ، عارض مناحم دراسة الفلسفة . فالإيمان يبتدئ حينما ينتهي العقل . وحالة المنفى مستمرة بسبب ضعف الإيمان . فالخلاص إن هو إلا حسم كل التناقضات والشكوك . ولكن السقوط في الشك ليس أمراً سيئاً تماماً، فالسقوط شرط من شروط الصعود .

وتشكل الأرض عنصراً أساسياً في نسق مناحم الذي يذهب إلى أن الإنسان الذي يعرف كيف يتكيف مع إيقاع الكون يمكنه أن يفقد ذاته من خلاله ، ومن ثم يكشف الإله له نفسه من خلال المراحل المختلفة في الطبيعة فيستطيع الإنسان الالتصاق به . وأرض إسرائيل تعطي الإنسان اليهودي الفرصة لهذا الالتصاق بالإله . وكان مناحم يدَّعي أنه أصبح أعظم القادة التساديك لأن جو أرض إسرائيل قد منحه الحكمة .

وحتى الآن ، لا يختلف نسق مناحم عن الأنساق الحلولية والقبَّالية المختلفة ، ولكن تطرفه الشبتاني يظهر في مفهوم التساديك عنده ، وهو مفهوم متأثر بالأجواء المسيحية من حوله . فقد أكد مناحم البرتسلافي دور التساديك باعتباره الماشيَّح ، وكان يذهب (على عكس الحسيديين) إلى أنه لا يوجد سوى تساديك واحد وأنه هو ، بل كان يذهب إلى أنه هو الماشيَّح ابن داود والماشيَّح ابن يوسف الذي يجسد كل ما يحدث في الأرض والعوالم السماوية ، القادر على أن يهدي أتباعه وأن يحول صلواتهم وأدعيتهم حتى تصبح أداة للخلاص ، ولذا لابد أن يسافر له أتباعه حتى يستمعوا إلى الكلمة من فمه . ومن المعروف أن أتباع أي تساديك حسيدي كانوا يزورونه بشكل دائم خلال العام (كل يوم سبت عادةً) ، أما أتباع مناحم فكانوا لا يزورونه سوى ثلاث مرات كل عام (رأس السنة ، وعيد التدشين ، وعيد الأسابيع) ، وكانت أهم المناسبات هي رأس السنة ، وهو في هذا يشبه الإله الحالّ (الذي يراه أتباعه) والإله المفارق (فهم لا يرونه إلا ثلاث مرات) . وبالفعل ، كان مناحم يعلِّم أتباعه أن التساديك الماشيَّح (مناحم نفسه) يقلد الإله في أفعاله ، باعتباره تجسد الكلمة . بل إنه يعلِّم الإله كيف يتعامل مع شعبه ، فالتساديك الماشيَّح ليس واسطة بين الشعب والإله بل هو أيضاً واسطة بين الإله والشعب ، فكأنه هو (وليس الإله أو الشعب) مركز الكون ، ولذا فالتواصل معه يساعد على الإسراع بعملية إصلاح الخلل الكوني (تيِّقون) التي يقوم بها اليهود .

وكان أتباع مناحم يقومون بالاعتراف بين يديه (على عادة المسيحيين) وبهذا كانوا يطرحون عليه ذنوبهم باعتباره التساديك (الماشيَّح) الذي كان يصف الطرق المناسبة للندم ، أي أنه كما تقدَّم قادر على غفران الذنوب ، ولكن الخير والشر هنا جزء من منظومة حلولية سحرية تتجاوز الخير والشر .

والتساديك يرى أتباعه كما لو كان إلهاً ، وهو يصوِّر لهم أنه سوف يعيش إلى الأبد ، سواء كان يعيش على الأرض أو في مقبرته . ولذا ، أوصى مناحم أتباعه ألا يختاروا خليفة له من بعده «لأنني أود أن أكون معكم دائماً وستأتون لزيارتي وأنا في قبري» . وهذه أقوال تشبه أقوال المسيح لحوارييه . ولعل هذا الجانب من فكره هو الذي أفزع المؤسسة الحسيدية ، إذ أن التساديك قد تحوَّل حرفياً إلى إله (بل تذهب بعض المراجع إلى أن أتباعه كانوا يعبدونه بالفعل) .

وقد كانت حياة مناحم مليئة بالمآسي إذ مات ابنه (الذي كان يتصور أنه سيخلفه في المشيحانية) ثم ماتت زوجته ، وأصيب هو بالسل ، بل إن مدينة براتسلاف نفسها احترقت وفيها منزله ، فاضطر إلى الانتقال إلى مدينة أخرى ومنزل آخر . وقد فسر فشله هذا بأن جيله غير ملائم لتحقيق رؤيته المشيحانية .

ويمكن القول بأن مناحم هو النقطة التي تظهر فيها العلاقة البنيوية الوثيقة بين الشبتانية من جهة والحسيدية من جهة أخرى ، وأنهما مجرد تجليين مختلفين لنفس الحلولية في مرحلة وحدة الوجود . وإن كان يمكن القول بأن فكر مناحم يبين أثر التربة المسيحية السلافية القوي إذ يتركز الحلول في شخص واحد ، ماشيَّح ينزل كإله للبشر ويأخذ خطاياهم ثم يقوم ، أي أنه حلول شخص مؤقت منه

على الطريقة المسيحية ، وليس حلولاً جماعياً مستمراً دائماً على الطريقة اليهودية .

وقد قام نيثان سترنهارتز ، تلميذ مناحم وسكرتيره وتلميذه ، بجَمْع تعاليم مناحم والأقاصيص التي تُروَى عنه . ومن بين هذه الكتب **حايي موران** (١٨٢٦) (حياة موران - معلمنا الراب مناحم) . كما توجد عدة كتب خفية كتبها نحمان من بينها **سيفر هانسراف** (الكتاب المحروق) حيث طلب مناحم نفسه أن يُحرَق ، و **سيفر هاجانوز** (الكتاب المخفي) وهو كتاب لن يفسره إلا الماشيَّح ، وهناك كذلك **مجيلات هايستراليم** الذي يلعب فيه مناحم دور المسيح بن يوسف والمسيح بن داود .

ولم يحقق اتجاه مناحم الحسيدي شيوعاً كبيراً إبان حياته ، فلم تكن حركته تضم سوى بعض الفقراء وصغار التجار . وبعد موته ، قام تلميذه نيثان بتنظيم الحركة ثم قام الحسيد مناحم (من تولكين) بقيادة الحركة بعد موت نيثان ، وبدأت الفرقة في الانتشار والشيوع واستمرت في الوجود إلى ما بعد اندلاع الثورة البلشفية . ويوجد الآن فرع للحركة في إسرائيل .

جيكوب جوزيف تسفي هاكوهين (؟ -١٨١٠)

Jacob Joseph Zevi Hakohen

أحد قادة الحركة الحسيدية وأحد مُنظِّريها الأوائل ، وقع تحت تأثير بعل شيم طوف عام ١٧٤١ ، ولكنه لم يخلفه بعد موته . يُعَد مؤلفه **سيفر لتوليدوت يعقوب يوسف** (كتاب تاريخ يعقوب يوسف) (١٧٨٠) الذي يحوي بعض مواعظ وأقوال بعل شيم طوف أول كتاب نظري عن الحسيدية : سواء في محاولته تعريف فلسفة الحسيدية أو في هجومه على المؤسسة الحاخامية وممثليها .

وتعاليم جيكوب جوزيف حلولية وصلت مرحلة وحدة الوجود ، فالإله موجود في كل شيء ، ولا يمكن تجاوز الشر إلا بالقول بأن الخير والشر ممتزجان تماماً ، وهدف الإنسان في الوجود الالتصاق بالإله وهو أمر لا يمكن أن يحققه إلا عن طريق الفرح . وصلاة المرء يجب أن تكون ممتزجة بالفرح ، ولكنها في حد ذاتها لا تجدي فتيلاً إذ أن التساديك هو وحده القادر على أن يغير الإرادة الإلهية .

والجماعة تشبه الكيان العضوي ، فهناك العامة من جهة وهناك العَالم أو التساديك من جهة أخرى . فالعامة هم القدم أما التساديك فهو الرأس والعيون ، والعامة هم الجسد أما التساديك فهو الحياة والروح . ولذا ، فإن عملية الالتصاق بالإله والتوحد معه لابد أن تتم بشكل عضوي جماعي . ولكن التساديك هو المسئول عن أن يبذل جهده للسيطرة على الجسد ، وعليه أن ينزل من عليائه ليؤثر في العامة ، ولكن لا يمكنه التأثير فيهم وتوحيدهم كجماعة عضوية إلا بأن يصبح مثلهم فيرتكب الرذائل من أجل تنفيذ مهمته . وحيث إن الإنسان اليهودي العادي لا يمكنه قراءة التوراة بسبب جهله ، وهو ليس مسئولاً عن هذا الأمر ، فإن الإله سيغفر له ذنوبه شريطة أن يتحد والإله من خلال التساديك . فالتساديك وسيلته الوحيدة للخلاص ، وهو الذي يعرف التوراة الظاهرة (توراة الخلق) والتوراة الباطنة (توراة الفيض والتجليات) . ولذا ، فإن على اليهودي أن يؤمن بالتساديك إيماناً أعمى ، دون تفكير أو شك في أسلوب التساديك في الحياة ، حتى لو كان فاسداً أو فاسقاً ، لأن كل أفعاله تتم من أجل السماء !

ورجل المادة (اليهودي العادي) عليه أن يعون التساديك مالياً حتى يتسنى له أن يكرس كل وقته لدراسة التوراة والصلاة . وقد هاجم جيكوب جوزيف الحاخامات الذين أكدوا أهمية دراسة التوراة وأهملوا الجوانب الأخرى من الحياة الدينية (مثل محاولة الالتصاق بالإله) ، فبيَّن أنهم مرتزقة متعجرفون قصيرو النظر غارقون في الجدل المجدب ، بل صفهم بأنهم « شياطين يهودية مساوية للشيطان، تنزع نحو الشر ، دراستهم للتوراة تهدف إلى تضخيم الذات وتعظيمها » .

ومن أعمال جيكوب جوزيف الأخرى **بن بورات يوسف** (يوسف كرمة مثمرة) (١٧٨١) وهو شرح قبَّالي لسفر التكوين . وله أيضاً تعليقات على سفر اللاويين والأعداد ، وقد نشر ابنه أعماله .

ليفي إسحق بن مائير البيرديشيفي (١٧٤٠-١٨١٠)

Levi Isaac Ben Meir of Berdichev

تساديك حسيدي من أهم شخصيات الجيل الثالث من القيادات الحسيدية ، تَعرَّف إلى بعل شيم طوف وتتلمذ على يد دوف بير وأصبح من أهم تلاميذه ، عمل حاخاماً بعض الوقت ثم أصبح بعد ذلك تساديك ، وقد أخذ موقفاً متشدداً للغاية من المتنجديم ، ولكنهم طاردوه من مكان لآخر فاضطر إلى أن يترك وظيفته كحاخام في زيلخوف ثم في منسك .

وفكر ليفي فكر حلولي متطرف يدور داخل نطاق الدائرة الحلولية المغلقة الثلاثية (الإله - الشعب - الأرض) في مرحلة وحدة الوجود . فالإله داخل هذا الإطار جزء لا يتجزأ من الشعب اليهودي، منفي معه ويتجول معه . والعالم بأسره (الأرض والسماء)

لم يخلقه الإله إلا من أجل هذا الشعب اليهودي. بل إن الإله يأخذ في الشعوب ويحل محله إرادة الإنسان (اليهودي)، وخصوصاً التساديك ، فهو القناة الموصلة بين الإله والشعب ومركز الكون .

وداخل هذا الإطار ، اشتهر ليفي إسحق بأنه من أكثر المدافعين عن الشعب اليهودي ضد الإله . فقد ورد عنه أنه قال : "اسمع يا إلهنا ، إن أصدرت يوماً ما قراراً قاسياً ضد اليهود ، فنحن القادة التساديك لن ننفذ أوامرك !" . وفي مرة أخرى ، قال موجهاً كلامه للإله : "إن الشعب يصلي لك ويخدمك وأنت تجرؤ على أن تشكو من جماعة يسرائيل" . ومن أشهر القصص عنه أنه استدعى الإله مرة في محكمة دينية ليفسر هذا العذاب الذي يُلحقه بشعبه المختار ولماذا يطلب من شعبه الكثير دائماً .

وليفي إسحق دفع الأطروحات الحلولية إلى نهايتها المنطقية (الكوميدية) وهي تحوُّل التساديك إلى ما يشبه الإله ، وهو ما يبين الجذور الشبتانية والفرانكية للحسيدية .

عـذراء لادومـير (١٨١٥-١٩٠٥)

Virgin of Ludomir

«عذراء لادومير» هي فتاة تُدعَى حنه بربر ماخر . كانت على إلمام كامل بالتراث التلمودي ، كثيرة الصلاة ، فانتشرت عنها الشائعات بأنها شخصية مقدَّسة ، وأنها تساديك . وكانت مخطوبة لرجل تحبه ، ولكنها بعد وفاة أمها ، ألم بها المرض وقيل إن روحها صعدت إلى السماء ، حيث تلقت روحاً جديدة أكثر سمواً . وبعد ذلك فسخت خطبتها ، وبدأت تعيش حياة الرجال وتقيم الشعائر التي لا يُسمَح إلا للذكور بإقامتها ، ومنها ارتداء شال الصلاة وتمائمها . وبنت بيتاً للعبادة ، وكانت تقدِّم المواعظ للناس من غرفة مجاورة . وذاعت شهرتها ، وبدأ يحج إليها الآلاف بسبب معجزاتها . وتجمَّع حولها مجموعة من الحسيديين ، كانوا يُعرَفون باسم «حسيديو عذراء لادومير» . وقد كانت عذراء لادومير ترفض الزواج ، ولكنها في نهاية الأمر تزوجت مرتين (اسمياً) ثم طُلقت ، ففقدت شعبيتها وهاجرت إلى فلسطين .

ومن الواضح أن حادثة عذراء لادومير تعبِّر عن تغلغل الرموز المسيحية في اليهودية . ففكرة العذراء التي تقوم بدور قيادي ليست فكرة يهودية كما يُلاحَظ أثر جماعة الخليستي المسيحية الصوفية التي كانت تؤمن بالحمل بلا دنس . ولكن الواقعة تعبِّر أيضاً عن تزايد معدلات العلمنة ، وأثر فكر الاستنارة وتحرير المرأة أو ربما التمركز حول الأنثى .

أسـر وجماعـات وحـركات حسـيدية

Hassidic Dynasties, Groups, and Movements

بعد أن مرت الحركة الحسيدية بمرحلتها الأولى الشعبوية (والتي كانت تتميَّز بوجود قيادات كاريزمية قوية) بدأت تتحول إلى مؤسسات روتينية . وبما أن القداسة في المنظومات الحلولية يتم توارثها ، فقد تم توارث القداسة المتركزة في التساديك باعتباره موضع الحلول والكمون من خلال أحد أبنائه ، وتكوَّنت الأسر الحاكمة الحسيدية . ومن أهم الأسر الحاكمة أسرة جيدا خوف وأسرة شنيرسون . كما ظهرت جماعات حسيدية مختلفة هي أقرب إلى الأسر في ترابطها منها إلى شيء آخر ، وينتمي أعضاء الجماعة إلى مدينة أو منطقة واحدة وبين هذه الجماعات جماعة جور وسبنكا وفيشنيتس وروزين . أما الحركات الحسيدية فمن أهمها حركة حبد وحركة الموسار .

جيدا خـوف (أسرة)

Zhidachov Dynasty

أسرة حسيدية مؤسسها تسفي هيرش أيختشتاين (١٧٨٥ - ١٨٣١) الذي درس القبَّالاه في شبابه وتأثر ببعض القادة التساديك الحسيديين ، كما حاول أن يعمق من التيار اللورياني في الحسيدية ذاهباً إلى أن الحسيدية لا يمكن فهمها دون دراسة القبَّالاه اللوريانية . وقد اتسم تلاميذه بولائهم الكامل والواضح للقبَّالاه اللوريانية . وكان بين أتباعه إيزاك أيزيك (١٨٠٤ - ١٨٧٢) الذي كتب بعض الأعمال الحسيدية التي تستند إلى أسس قبَّالية وتشكل حلقة وصل بين القبَّالاه والحسيدية .

حبد (حركة)

Habad

«حبد» اختصار للكلمات العبرية الثلاث : «حوخماه» و«بيناه» و«دعت» ، أي «الحكمة» و«الفهم» و«المعرفة» . وهي أعلى درجات التجليات النورانية العشرة (سفيروت) . وحبد حركة حسيدية أسسها شنياءور زلمان في روسيا البيضاء في قرية لوبافيتش (ولذا يشار إليها أحياناً على أنها «حركة لوبافيتش» ويُشار إلى قائد الحركة على أنه «اللوبافيتشر ربي» أي «حاخام لوبافيتش») . ويكمن الاختلاف بينها وبين الحركة الحسيدية الشعبية المعروفة في أنها أقل عاطفية وأكثر فكرية رغم صوفيتها وحلوليتها ، فالتجليات العاطفية جاءت بعد التجليات الفكرية . كما أنها تبتعد عن بعض المفاهيم

الحسيدية المتطرفة مثل "التسامي عن طريق الغوص في الرذيلة" . والنسق الفكري عند حبد نسق حلولي قبَّالي .

وقد طوَّر شنياءور زلمان فكرة الانكماش (تسيم تسوم) فذهب إلى أن الإله لا ينكمش داخل نفسه ، وإنما يتوارى وحسب ، حتى يبدو العالم وكأنه منفصل عنه ، ولكن الأمر ليس كذلك . ومن خلال التأمل لكل سلسلة المخلوقات ، كما وردت في القبَّالاه ، يستعيد الإنسان في عقله كل شيء حتى يصل إلى الإين سوف . ومن ثم ، فهو يقوم بعملية التوحيد من أسفل ، أي أنه ينجز الإصلاح الكوني من خلال عقله . فالذات الإلهية في تَوحُّدها ليس لها وجود خارج حالة الإنسان العقلية . ويُقال إن شنياءور زلمان قد قال وهو على فراش الموت إنه لم يَعُد يرى غرفة أو أثاثاً ، وإنما الطاقة الإلهية وحسب ، وهي الحقيقة الحقة . وقال أيضاً : "من الإله ؟ إنه ما ندركه . وما الدنيا ؟ هي المكان الذي يتم فيه الإدراك . وما الروح ؟ هي أداة الإدراك" . ويتردد في كتابات حبد عبارة حسيدية هي «بيطول هاييش» أي «نفي الوجود» ، وهي تعني أن العالم المادي ليس له وجود حقيقي ، وأن هذا العالم هو الإله ، وأن الحضور الإلهي يحل في مادته ، كما تعني أيضاً أن على الإنسان أن يفني ذاته في الذات الإلهية تماماً . ولكن حبد تذهب أيضاً إلى أن كل يهودي يوجد داخله جزء من الإين سوف . ووفقاً لنسق حبد ، فإن الإنسان له روحان : إحداهما الروح الإلهية (نيفيش إلوهيت) ، والثانية الروح الحيوانية أو البهيمية (نيفيش ها بيهيميت) . والإنسان هو ميكروكوزم ، أي نموذج مصغر للعالم ، وهو أيضاً حلبة صراع لقوى الخير والشر التي تتصارع في الكون (ولكن الشر هو السترا أحرا أو الجانب الآخر للإله ، حسبما جاء في القبَّالاه) . ويوجد طريق وسط يجمع بين الشيئين ، وهو المحارة التي التصقت بها الشرارات الإلهية حسب العقيدة القبَّالية . وتنقسم أرواح البشر ، وفقاً لدرجة تجلِّي القوى الإلهية (سفيروت) فيها ، فالأرواح العليا تجسِّد القيم الثلاث العليا ، أي : الحكمة والفهم والمعرفة ، كما أنها تتصف بشدة القوى العاطفية . أما الأرواح البهيمية ، فتنبع الشهوات . واليهودي العادي حلبة صراع بين العواطف والشهوات من جهة ، والقوى العقلية من جهة أخرى . وبمقدوره أن يسيطر على رغباته الشريرة من خلال الحكمة والفهم والمعرفة ، وبإمكان الإنسان أن يصل إلى خشية الإله من خلال التأمل في صفاته ، الأمر الذي يقوده إلى حبه والالتصاق به والتوحد معه (ديفيقوت) . وقد ركزت حركة حبد على التوراة والتأمل العقلي ، ولهذا فإن أول مدرسة تلمودية (يشيفا) حسيدية كانت تابعة لهذه الحركة . وقد أكدت حبد أهمية الأوامر والنواهي ، ولكنها عارضت التطرف في تطبيقها .

وإذا كان هذا هو الأمر بالنسبة إلى اليهودي العادي ، فإنه ليس كذلك بالنسبة إلى التساديك ، إذ أن الصراع داخل ذاته لا يتسم بهذه القوة ، ولهذا يكون بوسعه تجاوز الشهوات وبسرعة ، إلا أنه لا يتسم بصفات خارقة ، ولا يمنح البركة مثلما هو الحال في بقية المدارس الحسيدية ، فهو مُعلِّم في المقام الأول . وإذا كان مريدوه يريدون النجاح في الحياة الدنيا ، فعليهم (على عكس ما يحدث في المدارس الحسيدية الأخرى) أن يطلبوا العون من الإله لا من التساديك . ولهذا ، فقد أسقط أتباع مدرسة حبد استخدام كلمة «تساديك» وعادوا إلى استخدام كلمة «حاخام» .

ويذهب شنياءور زلمان في كتاب **هاتانيا** (دستور حركة حبد) إلى أن الأغيار مخلوقات بهيمية شيطانية تماماً وخالية من الخير وأن ثمة اختلافاً جوهرياً بين اليهودي وغير اليهودي . ولهذا يختلف الجنين اليهودي عن الجنين غير اليهودي . ووجود الأغيار في العالم أمر عارض ، فقد خُلقوا من أجل خدمة اليهود ، وهذا متسق تماماً مع القبَّالاه التي جعلت اليهودي ركيزة للكون .

وقد انتقلت قيادة حبد إلى الولايات المتحدة حيث يترأسها في الوقت الحالي الحاخام لوبافيتش في نيويورك (في كراون هايتس في بروكلين) . وحبد منظمة ثرية للغاية إذ تبلغ ميزانيتها نحو مائة مليون دولار (ويقدرها البعض بثمانمائة مليون دولار) ويبلغ أتباعها ١٣٠ ألف (٣٠ ألف في بروكلين و١٠٠ ألف في أنحاء العالم) . ويُقال إن عدد مؤيديها وأتباعها يصل إلى ما يزيد عن مليونين ، وهو رقم مُبالَغ فيه . وتتبع حركة حبد دار للنشر طبعت ملايين الكتب بعدة لغات ولها مكتبة وأرشيف يضم مجموعة فريدة من الكتب والمنشورات والوثائق اليهودية . كما تمتلك الحركة صحيفة خاصة بها . وقد بدأت الحركة تمارس نشاطها مؤخراً في روسيا وأوكرانيا . ويتبعها آلاف الذين يعملون في كثير من دول العالم التي توجد فيها جماعات يهودية .

ولحبد فرع في إسرائيل ، ويتبعها بعض المستوطنات الزراعية . ويُلاحَظ انتشار أفكارها العنصرية في الآونة الأخيرة . وقد قالت شالوميت ألوني عضو الكنيست إن الجماعة صعَّدت دعايتها العنصرية قبل غزو لبنان ، وطلبت إلى الأطباء والممرضات ألا يعالجوا جرحى الأغيار ، أي العرب .

ومن أهم أتباع حبد اثنان من رؤساء دولة إسرائيل السابقين هما زلمان شازار وأفرايم كاتزير . كما أن عدداً كبيراً من أعضاء جماعة

جوش إيمونيم من أتباع حبد . ويبدو أن حزب أجودات إسرائيل يمثل حبد ضد أعدائهم من المتنجديم الليتوانيين (الليتفاك) الذين يمثلهم حزب ديجيل هاتوراه . وقد سئل الحاخام إليعازر شاخ ، الأب الروحي لهذا الحزب ، عن أقرب عقيدة لليهودية ، فقال : «حبد» ، أي أنها لا تنتمي إلى اليهودية أساساً من وجهة نظره ، وقال إن أتباع حبد قوم لا يختلفون عن آكلي لحم الخنزير . ويرى شاخ أن زعيم حبد (شنيرسون) عنده تطلعات مشيحانية مهرطقة .

وموقف حبد من الصهيونية هو موقف دُعاة الصهيونية الإثنية الدينية (انظر الباب المعنون «الصهيونية الإثنية الدينية») . وهو موقف يتسم بالرفض المبدئي في البداية باعتبار أن الصهيونية هي تعجيل بالنهاية ، ورفض لمشيئة الإله . ثم تدريجياً بدأ يتغيَّر الموقف بحيث يتم تأييد الدولة من خلال ديباجات دينية خاصة . وقد أصبحت حركة حبد من أكثر الحركات تطرفاً في التوسعية والعنصرية الصهيونية (على عكس حركة ناطوري كارتا) .

زلمان شنياءور (١٧٤٧-١٨١٣)

Zalman Sheneur

مؤسس حركة حبد المتفرعة من الحسيدية وتلميذ دوف بير . انضم إلى الحركة الحسيدية ، وهو في سن العشرين ، وأصبح منظرها الأساسي ، واشترك في المناقشة المريرة مع المتنجديم . وقد قبضت عليه السلطات الروسية ، بعد أن اتهمه أعداؤه من اليهود الحاخاميين بأنه يتآمر ضد الدولة ، ولكن أُفرج عنه حينما ثبت أن التهم الموجهة ضده باطلة . وقد هرب زلمان شنياءور زلمان حينما قامت القوات الفرنسية تحت قيادة نابليون بغزو روسيا . ومن أهم كتبه كتاب **هاتانيا** ، وهو كتاب حركة حبد الأساسي ، ويضم تفسيرات للقبَّالاه . وقد صدر الكتاب في طبعته الأولى باسم **ليقُّوطي إماريم** (مقتطفات من الحكم) (١٧٩٦) ، ولكن وُضعت على الغلاف كلمة «تانيا» وهي الكلمة الأولى في النص ، وهي كلمة آرامية تعني «مُعلِّم» ، وعُرف الكتاب بهذا الاسم . وقد حاول شنياءور زلمان أن يخفف من حدة الحلولية اللوريانية بعض الشيء بإدخال عنصر عقلي . ولكن رؤيته تظل ، مع هذا ، حلولية انعزالية متعالية .

لوبافيتش

Lubavitch

قرية روسية بالقرب من موهيليف في روسيا ، وهي المركز السابق لحركة حبد . ولا يزال رئيس جماعة حبد ، الموجود الآن في نيويورك ، يُدعَى حاخام لوبافيتش (باليديشية : لوبافيتشر ربي) .

مناحم مندل اللوبافيتشي (١٧٨٩ - ١٨٦٦)

Menahem Mendel of Lubavitch (Schneersohn Dynasty)

حاخام حسيدي ، وقائد جماعة حبد قضى طفولته في منزل مؤسس الحركة شنياءور زلمان وبدأ في دراسة القبَّالاه في سن الثالثة عشرة . خلف ابن شنياءور زلمان في رئاسة الحركة وأعلن أنه تلقَّى تعاليم زلمان في أحد أحلامه بعد موته ودوَّنها هي وبعض أفكاره في كتاب يُسمَّى **ليقُّوطي توراة** . وقد أصبحت أسرة شنيرسون الأسرة الحاكمة لحركة حبد .

شنيرسون (أسرة)

Schneersohn Family

أسرة حسيدية شهيرة ، ترأس أعضاؤها جماعة حبد ، وهم من نسل الحاخام مناحم مندل لوبافيتش الذي تَزعَّم الحركة بعد وفاة زلمان شنياءور ، مؤسس الحركة .

مناحم مندل شنيرسون (١٩٠٢-١٩٩٤)

Menahem Mendel Schneersohn

حاخام حسيدي ، وزعيم حركة حبد لوبافيتش ، وشخصية أساسية في المؤسسة الحسيدية والدراسات القبَّالية ، وهو من نسل شنياءور زلمان مؤسس حركة حبد ، ومن أسرتها الحاكمة . درس الفرنسية والروسية والعلوم الطبيعية والفيزياء وتلقى تعليماً دينياً في مرحلة متأخرة من حياته ، ثم تزوج من ابنة يوسف إسحق شنيرسون (زعيم حركة حبد) ، وصار من المعروف أنه سيخلف حماه في رئاسة الحركة . وبالفعل قام حموه بتعليمه وإعداده للاضطلاع بدوره القيادي وأطلعه على المخطوطات التي كتبها قواد حبد السابقون والتي لم تُكشَف لأتباع الحركة (كما جاء في **الموسوعة اليهودية**) . وقد درس شنيرسون الفلسفة في السوربون ، كما درس الهندسة الكهربائية ، وعُيِّن مهندساً في البحرية الأمريكية بعد هجرته إلى الولايات المتحدة . وفي عام ١٩٥٠ ، خلف مناحم شنيرسون حماه في قيادة الحركة ، وهو من موقعه هذا يتحكم في مئات المعاهد التربوية في أنحاء العالم ، كما يأتي لمكتبه المئات يبحثون عن حل إما لمشاكلهم الشخصية أو للمشاكل العامة التي تواجه الجماعات اليهودية في العالم أو في دولة إسرائيل .

وموقف شنيرسون من إسرائيل يتسم بالجذرية ، فهو يؤيد حق إسرائيل في كل إرتس يسرائيل ويعارض أي تنازل عن الأرض ، ولكنه يتوجه بالنقد لإسرائيل بسبب تزايد معدلات العلمنة فيها ، وخصوصاً في القطاع التعليمي ، بل إنه ليصنف دولة إسرائيل باعتبارها جزءاً من المنفى . كما أنه يثير قضية الهوية اليهودية من آونة لأخرى ، ومن وجهة نظره أن اليهودي هو من تَهوَّد حسب الشريعة ، أي على يد حاخام أرثوذكسي . وتقوم حركة لوبافيتش تحت قيادته بحملة منظمة لنشر فكر حركة حبد التي يتبعها أسطول يُسمَّى «مدرعات المتسفاه» أو «مدرعات الأوامر والنواهي» . ويوجد دعاة للحركة في كل بقعة من الولايات المتحدة بين اليهود وحسب ، لأنهم لا يقومون بالتبشير بين الأغيار ، فهذا مناف للعقيدة اليهودية كما يرون . وتقوم الحركة بنشر عشرات الكتب والمؤلفات ، ولم يقم شنيرسون بزيارة أي مكان في العالم ، ومنه إسرائيل . وهو يرفض أي حوار مع الأديان الأخرى . وقد بدأ أتباعه يرون فيه أنه الماشيَّح . فقد أعطى إشارة البدء لبناء منزل له في كفر حباد (قرب تل أبيب) . وقد رأى الجميع في هذا أنه المخلِّص ، فهو قد صرح بأنه لن يذهب إلى إسرائيل إلا لحظة الخلاص . ولذا ، بدأ أتباعه يرددون : «نريد الماشيَّح الآن» ثم يضيفون كلمة «ممش» العبرية والتي تعني «واقعياً» ولكنها تضم أيضاً الحروف الأولى من اسم مناحم مندل شنيرسون . كما بدأ بعض أتباعه في إعداد حفل تتويج له باعتباره الماشيَّح . وقد صرح الحاخام إليعازر شاخ ، الزعيم الروحي لحزب ديجيل هاتوراه (المناوئ للحسيديين) بأن شنيرسون مجنون وغير طبيعي وأنه المسيح الدجال ، وهدد بطرده من حظيرة الدين (حيريم) . وقد مات شنيرسون دون أن يصل العصر المشيحاني .

لم يُخلِّف شنيرسون مؤلفات عديدة ، ومن أهم مؤلفاته تعليق على هجاداه (عيد الفصح) . ولكن كثيراً من خطبه باليديشية تُرجمت إلى العبرية وظهرت في حوالي ٣٠ مجلداً ، كما نُشر ١٣ مجلداً من خطاباته .

حركة الموسار

Musar Movement

«حركة الموسار» حركة دينية ظهرت بين يهود ليتوانيا الأرثوذكس لتشجيع اليهود على دراسة الأدب الأخلاقي التقليدي (موسار) ولتهذيب الذات . وقد أسسها إسرائيل سالانتر . وتُعَد الحركة جزءاً من البعث الرومانسي في الغرب ، فقد أكدت الجوانب العاطفية والروحية في الدراسة الدينية (مقابل الدراسة العقلية) .

ونادى مؤسس المدرسة بأن دراسة التلمود لا تعصم الإنسان من الشرور ، ولذا يجب إكمال الدراسة بالتأمل في أدب الموسار . وقد عُدِّلت مناهج المدارس التلمودية العليا (يشيفا) بحيث أصبحت تضم نصف ساعة مخصَّصاً لقراءة أدب الموسار . ويجب ألا يُفهم من هذا أن حركة الموسار كانت حركة تجديد وإصلاح بل هي بالأحرى حركة استمرار للتراث الحاخامي مع محاولة إدخال عناصر حيوية عليه . وكان إسرائيل سالانتر (مؤسس الحركة) من غلاة المحافظين .

المعارضون (متنجديم)

Mitnaggedim

«متنجديم» كلمة عبرية معناها «المعارضون» ، أطلقها الحسيديون على أعضاء المؤسسة الحاخامية الذين تصدوا لحركتهم . أما مؤسسة الحاخامات ، فقد عارضت الحسيدية لعدة أسباب أهمها :

١ ـ وجود اتجاهات حلولية متطرفة شديدة الوضوح داخل الحسيدية ، ولذلك فقد رأى المتنجديم أن المفهوم الحسيدي للإله ينفي عنه أي تسام أو تجاوز .

٢ ـ موقف الحسيدية من الشر ، وقد قال الحسيديون إن الشر غير موجود ، فالشر نفسه قد التصقت به الشرارات الإلهية ، وهي رؤية حلولية تتنافى تماماً مع التمييز بين الخير والشر .

٣ ـ ويرتبط بهذا اعتراض المتنجديم على دور التساديك في الشفاعة عند الإله وفي الوساطة بينه وبين المخلوقات ، وفي تمتعه بقوى خارقة . ومثل هذه الأفكار متسقة مع الفكر الحلولي .

٤ ـ وقد اعترض المتنجديم أيضاً على أن الحسيديين أهملوا دراسة التوراة (والتلمود) التي هي الهدف الأساسي من وجود اليهود ، وأنهم يكرسون وقتاً طويلاً في الاعداد العاطفي والنفسي للعبادة ، بل يهملون العبادة نفسها ، وأنهم يهملون مضمون الصلوات ويحولونها إلى تكأة أو وسيلة لتوليد حالة من الشطحة الصوفية . ويذهب المتنجديم إلى أن الأغاني التي يغنيها الحسيديون ، والرقصات التي يؤدونها ، أمر غير لائق تماماً .

٥ ـ اعترض المتنجديم أيضاً على التعديلات الشعائرية المختلفة التي كان الحسيديون يحاولون عن طريقها تحقيق قدر من الاستقلال عن المؤسسة الحاخامية . ومن هذه التعديلات تَبنِّي فصل القبَّالاء السفاردي الذي كان يؤكد تَرَقُّب الماشيَّح ، والتعديل الذي أُدخل على الذبح الشرعي . وبطبيعة الحال ، فقد وجد الحاخامات أن قيام الحسيديين بتأسيس معابد يهودية خاصة بهم يدعم شكوكهم . ولعل

الحركة الفرانكية هي ما كان في ذهن الحاخامات حينما تصدوا للحسيدية . وفي الواقع ، فإن ربطهم بين الفرانكية والحسيدية أمر منطقي للغاية ، فكلتاهما تنبعان من القبَّالاه اللوريانية ، وكلتاهما تدوران حول الموضوعات المشيحانية نفسها .

وقد تصاعد الصراع بين الفريقين بشدة عام ١٧٧٢ ، حينما أصدرت المحكمة الشرعية الحاخامية التابعة لقهال فلنا ، وبموافقة الحاخام إلياهو زلمان (فقيه فلنا) ، قراراً بطرد الحسيديين من حظيرة الدين (حيريم) . وأرسلت نسخة منه إلى الجماعات اليهودية في بولندا وجاليشيا الشرقية ، طالبةً من كل الحاخامات أن يتخذوا خطوات مماثلة . ورداً على هذا ، قام أعضاء القيادة الحسيدية بالهجوم الشديد على علْم الحاخامات الزائف ومعرفتهم الجافة ؛ ووصفوهم بأنهم حولوا التوراة إلى مجرد معول ، وأداة يحصلون عن طريقها على المكانة الاجتماعية والربح المادي ، وانعزلوا عن الجماهير وانشغلوا بالتفسيرات التي تتبع نمط البيلبول الذي لا فائدة تُرجى من ورائه . فنشر الحاخامات حظراً آخر يمنعون فيه أعضاء الجماعة اليهودية من التعامل مع الحسيديين ، أو الزواج من أبنائهم وبناتهم ، أو حتى دَفْن موتاهم . وكان فقيه فلنا قائد هذه الحملة . وحينما حاول زلمان شنياءور مقابلته ، قوبلت محاولته بالرفض . وحينما ظهر كتاب شنياءور زلمان **هاتانيا** (١٧٩٦) ، هاجمه الحاخام إلياهو باعتباره كتاباً يَصدُر عن رؤية حلولية . وحينما مات الحاخام إلياهو بعد ذلك بعام احتفل بعض الحسيديين سراً بالمناسبة ، فقررت قيادة الجماعة اليهودية الانتقام منهم . وفي اجتماع سري ، قرروا أن يدعوا الدولة الروسية ، التي كانت قد ضمت ليتوانيا لتوها ، للتدخل في معركتهم ، واتهموا شنياءور زلمان بالقيام بأعمال تخريبية وجمع الأموال لأهداف مشبوهة . فقُبض عليه ، وأُرسل مكبلاً بالأغلال إلى سانت بطرسبرج حيث سجن عدة أشهر ، ثم أُفرج عنه بعد أن ثبتت براءته ، ولكنه وُضع تحت المراقبة . وقد قام الحسيديون برد الصاع صاعين بعد عام واحد ، وأدت وشايتهم لدى الدولة إلى القبض على بعض القيادات الحاخامية . وقد جاء دور المتنجديم مرة أخرى عام ١٨٠٠ ، واتهموا الحسيديين بأنهم جماعة « لا تخاف إلا الإله ولا تخاف الإنسان » ، أي أنهم لا يخافون من السلطة الروسية ، فأُعيد القبض على شنياءور زلمان ، وأُحضر إلى العاصمة حيث سُجن مدة أخرى وأُفرج عنه . ولم يتوقف الصراع المرير إلا بعد تدخُّل الحكومة القيصرية التي أعطت الحسيديين الحق (عام ١٨٠٤) في أن يقوموا بنشاطهم دون تدخُّل من المؤسسة الحاخامية . وقد ساعد على فض الاشتباك تقسيم بولندا لأن المقاطعات الحسيدية ضُمَّت إلى النمسا في حين ضمت روسيا مقاطعات قيادتها أساساً من المتنجديم .

ومع هذا ، فلا يزال الصراع دائراً حتى الآن ، وله أصداؤه في الكيان الصهيوني . ويبدو أن حزب ديجيل هاتوراه يمثل المتنجديم والنخبة الليتوانية (الليتفاك) في مواجهة حبد والحسيديين الذين يمثلهم حزب أجودات إسرائيل . وقد سُئل الحاخام شاخ ، الزعيم الروحي لديجيل هاتوراه ، عن أقرب الديانات إلى اليهودية ، فقال: حبد . وهي إجابة ساخرة تعني أنه لا يعتبر الحسيديين يهوداً .

أثر الحسيدية في الوجدان اليهودي المعاصر

Impact of Hassidism on the Contemporary Jewish Imagination

أثَّرت الحسيدية (بحلوليتها المتطرفة) في الوجدان اليهودي المعاصر تأثيراً قوياً ، ففرويد العَالِم النفساني النمساوي اليهودي ، كان مهتماً بالحسيدية القبَّالية ، ومن هنا كانت نظرياته في الجنس ، وفي علاقة الذات بالكون . كما أن أدب كافكا متأثر بالحسيدية أيضاً . ويظهر تأثيرها واضحاً تماماً في أعمال مارتن بوبر وفلسفته التي تُوصَف بأنها «حسيدية جديدة» لأن الإله حسب هذه الفلسفة لا يحل في مخلوقاته ويؤثر فيها وحسب ، بل إن مخلوقاته تؤثر فيه بدورها ، ولذا يكتسب كلُّ فعل ، مهما تدنَّى ، دلالة كونية . كما أن بوبر كان يقدس الحسيديين بوصفهم جماعة عضوية مترابطة ، أو شعباً عضوياً (فولك) ، فهذا هو نموذجه للشعب اليهودي . والتساديك بالنسبة له هو القيادة الكاريزمية للشعب العضوي .

ومع هذا ، يمكننا الحديث عن جو نيتشوي عام في أوربا يتصاعد مع تصاعُد معدلات العلمنة وتآكل المنظومات الدينية المختلفة (مسيحية كانت أم يهودية) الأمر الذي يؤدي إلى تصاعُد معدلات الحلولية إلى أن نصل إلى نقطة وحدة الوجود الروحية والمادية والواحدية الكونية حيث تَمَّحي ثنائيات الخير والشر ويظهر التساديك الحسيدي أو سوبرمان نيتشه ؛ قيادات كاريزمية تجسِّد الإرادة الكونية ، وتقف وراء الخير والشر ، تعيش في بساطة وتلقائية ونشوة ، فكل ما تقوم به مقدَّس .

الحسيدية والصهيونية

Hassidism and Zionism

من المعروف أن معظم المفكرين والزعماء الصهاينة إما نشأوا في بيئة حسيدية ، أو تعرَّفوا إلى فكرها الحلولي بشكل واع أو غير واع .

بل إن الصهيونية ضرب من « الحسيدية اللادينية » أو الحسيدية داخل إطار حلولية بدون إله ووحدة الوجود المادية . والدارس المدقق يكتشف أن ثمة تشابهاً بين الحسيدية والصهيونية ، فالجماهير التي اتبعت كلاً من الصهيونية والحسيدية كانت في وضع طبقي متشابه ؛ أي جماهير توجد خارج التشكيلات الرأسمالية القومية بسبب الوظائف المالية والتجارية التي اضطلعت بها مثل نظام الأرندا . لذلك ، نجد أن جماهير الحسيدية ، شأنها شأن جماهير الصهيونية ، تتفق على حب صهيون ؛ الأرض التي ستشكل الميراث الذي سيمارسون فيه شيئاً من السلطة . كما قامت الحسيدية بإضعاف انتماء يهود اليديشية الحضاري والنفسي إلى بلادهم ، وهذه نتيجة طبيعية لأية تطلعات مشيحانية الأمر الذي جعل اليهود مرتعاً خصباً للعقيدة الصهيونية . كما أن الحسيدية والصهيونية تؤمنان بحلولية متطرفة تضفي قداسة على كل الأشياء اليهودية وتفصلها عن بقية العالم . وفي الحقيقة ، فقد كانت الهجرة الحسيدية التي تعبِّر عن النزعة القومية الدينية فاتحةً وتمهيداً للهجرة الصهيونية .

والصهيونية ، مثل الحسيدية ، حركة مشيحانية تهرب من حدود الواقع التاريخي المركب إلى حالة من النشوة الصوفية ، تأخذ شكل أوهام عقائدية عن أرض الميعاد التي تنتظر اليهود . ويعتقد المفكر النيتشوي الصهيوني بوبر أنه لا يمكن بعث اليهودية دون الحماس الحسيدي ، بل يرى أن الرواد الصهاينة قد بعثوا هذا الحماس .

ولكن الحسيدية تظل ، في نهاية الأمر ، حركة صوفية حلولية واعية بأنها حركة صوفية ، ولذا فإن غيبيتها منطقية داخل إطارها ، ولا تتجاوز أفعالها ، النابعة من المشيحانية الباطنية ، نطاق الفرد المؤمن بها وأفعاله الخاصة ، أما سلوكه العام فقد ظل خاضعاً إلى حدٍّ كبير لمقاييس المجتمع . ولذا ، ظل حب صهيون بالنسبة إلى هذه الجماهير حباً لمكان مقدَّس لا يتطلب الهجرة الفعلية . أما الصهيونية ، فهي حركة علمانية ، ذات طابع عملي حرفي . كما أن الفكرة الصهيونية لا تنصرف إلى السلوك الشخصي لليهودي وإنما إلى سلوكه السياسي . ولكي تتحقق الصهيونية ، لابد أن تتجاوز حدودها الذاتية لتبتلع فلسطين ، وتطرد الفلسطينيين بحيث يتحول حب صهيون إلى استعمار استيطاني . ومما لا شك فيه أن الحسيدية قد ساهمت في إعداد بعض قطاعات جماهير شرق أوربا لتتقبل الأفكار الصهيونية العلمانية الغيبية ، عن طريق عزلها عن الحضارات التي كانت تعيش فيها ، وإشاعة الأفكار الصوفية الحلولية شبه الوثنية التي لا تتطلب أيَّ قدر من إعمال العقل أو الفهم أو الممارسة . ولكن هذا لا يعني أن الحسيدية مسئولة عن ظهور الصهيونية ، فكل ما هناك أنها خلقت مناخاً فكرياً ودينياً مواتياً لظهورها .

ومما يجدر ذكره أن بعض الحسيديين عارضوا فكرة الدولة الصهيونية وأسسوا حزب أجودات إسرائيل . ولكن بعد إنشاء الدولة ، بل قبل ذلك ، أخذوا يساندون النشاط الصهيوني ، وهم الآن من غلاة المتشددين في المطالبة بالحفاظ على الحدود الآمنة و«الحدود المقدَّسة» و«الحدود التاريخية لإرتس يسرائيل» . ولكن هناك فرقاً حسيدية قليلة لا تزال تعارض الصهيونية ودولة إسرائيل بعداوة ، من بينها جماعة ساتمار (ناطوري كارتا) . (انظر الباب المعنون «الصهيونية الإثنية الدينية») .



٥
اليهودية الإصلاحية

اليهودية الإصلاحية : تاريخ ـ اليهودية الإصلاحية : الفكر الديني ـ اليهودية التقدمية ـ اليهودية الليبرالية ـ النيولوج ـ المؤتمرات الحاخامية ـ المؤتمر المركزي للحاخامات الأمريكيين ـ اتحاد الأبرشيات العبرية الأمريكية ـ كلية الاتحاد العبري/ المعهد اليهودي للدين ـ الاتحاد العالمي لليهودية التقدمية ـ فرايدلاندر ـ جيكوبسون ـ زونز ـ هولدهايم ـ فورمستشر ـ أينهورن ـ جايجر ـ وايز ـ هيرش ـ كولر ـ مونتفيوري ـ بورويتز ـ شندلر ـ اليهودية الإصلاحية والصهيونية

اليهودية الإصلاحية : تاريخ
Reform Judaism :History

«اليهودية الإصلاحية» فرقة دينية يهودية حديثة ظهرت في منتصف القرن التاسع عشر في ألمانيا ، وانتشرت منها إلى بقية أنحاء العالم ، وخصوصاً الولايات المتحدة . وهي تُسمَّى أيضاً «اليهودية الليبرالية» و«اليهودية التقدمية» . وهذه المصطلحات ليست مترادفة تماماً ، إذ يُستخدَم أحياناً مصطلح «اليهودية الليبرالية» للإشارة إلى اليهودية الإصلاحية التي حاولت أن تحتفظ بشيء من التراث . كما استُخدم المصطلح نفسه للإشارة إلى حركة دينية أسسها كلود مونتفيوري في إنجلترا عام ١٩٠١ ، وكانت متطرفة في محاولاتها الإصلاحية . أما مصطلح «اليهودية التقدمية» فهو مصطلح عام يشير إلى التيارات الإصلاحية كافة .

وظهور الحركات الإصلاحية في اليهودية يعود إلى أزمة اليهودية الحاخامية أو التلمودية التي ارتبطت بوضع اليهود في أوربا قبل الثورة الصناعية . فقد فشلت اليهودية كنسق ديني في التكيف مع الأوضاع الجديدة التي نشأت في المجتمع الغربي ابتداءً من الثورة التجارية واستمرت حتى الثورة الصناعية وبعدها ، ثم واجهت أزمة حادة مع تصاعد معدلات العلمنة . وقد أدَّى سقوط الجيتو ، ثم حركة الإعتاق السياسي إلى تصعيد حدة هذه الأزمة ، إذ عرضت الدولة القومية الحديثة الإعتاق السياسي على اليهود شريطة أن يكون انتماؤهم الكامل لها وحدها ، وأن يندمجوا في المجتمع سياسياً واقتصادياً وثقافياً ولغوياً ، وهو ما كان يتعارض وبشكل حاد مع اليهودية الحاخامية التي عرَّفت الهوية اليهودية تعريفاً دينياً إثنياً ، وأحياناً عرْقياً ، وجعلت الانتماء اليهودي ذا طابع قومي . وقد استجاب اليهود إلى نداء الدولة القومية الحديثة ، وظهرت بينهم حركة التنوير اليهودية ، والدعوة للاندماج ، واليهودية الإصلاحية جزء من هذه الاستجابة . وقد استفاد اليهود الإصلاحيون من فكر موسى مندلسون ، ولكنهم استفادوا بدرجة أكبر من الأفكار والممارسات الدينية المسيحية البروتستانتية في ألمانيا (مهد كل من الإصلاح الديني المسيحي والإصلاح الديني اليهودي) .

وقد بدأ الإصلاح حين لاحَظ كثير من قيادات اليهود انصراف الشباب تدريجياً عن المعبد وعن الشعائر اليهودية بسبب جمودها وأشكالها التي اعتبروها بدائية متخلفة ، فأخذوا في إدخال بعض التعديلات ذات الطابع الجمالي ، من بينها تحويل المعبد من مكان يلتقي فيه اليهود للحديث والشجار إلى مكان للتعبد يتطلب التقوى والورع . وبدأت المواعظ الدينية تُلقَى بلغة الوطن الأم ، وتغيَّر موضوعها ، فبدلاً من أن تدور حول تفسير دقائق الشريعة ، أصبحت تهدف إلى إنارة المصلين على المستوى الروحي . واختُزلت الصلاة نفسها عن طريق حذف قصائد البيوط وغير ذلك من الابتهالات والأدعية ، واستُخدم الأرغُن والجوقة . وقد قام إسرائيل جيكوبسون بأول محاولة للإصلاح في المعبد الملحق بمدرسته عام ١٨١٠ ، ثم في بيته عام ١٨١٥ ، ثم افتتح أول معبد إصلاحي في هامبورج عام ١٨١٨ .

وقد كانت كل هذه الإصلاحات ذات طابع شكلي وجمالي وقام بها أعضاء ليسوا جزءاً من المؤسسة الدينية . ولذا ، لم تثُر ردة فعل حادة عند التقليديين برغم اعتراضهم على كثير منها ، ولكن التغيرات بدأت تكتسب طابعاً عقائدياً واتجهت نحو إصلاح العقيدة نفسها ، ومن ثم تغيَّرت طبيعة رد الفعل ، وهو ما أدَّى في نهاية الأمر إلى انقسام اليهودية المعاصرة إلى فرق متعددة لا يعترف الأرثوذكس فيها بيهودية الآخرين . وقد اكتسبت حركة الإصلاح الديني دفعة قوية في ثلاثينيات القرن الماضي حين ظهر لفيف من الحاخامات الشباب الذين كانوا قد تلقوا تعليماً دينياً تقليدياً ،

وتعليماً دنيوياً في الوقت نفسه . وكانت هذه ظاهرة جديدة كل الجدة على اليهودية إذ كانت مقررات الدراسة في المدارس التلمودية العليا ، حتى ذلك الوقت ، تقتصر على الدراسات الدينية فحسب . ولكن ، مع نهاية القرن الثامن عشر ، فتحت حكومات فرنسا والنمسا وروسيا مدارس ذات مناهج مختلطة دينية ودنيوية . وقد التف هؤلاء الشبان حول المفكرين الدينيين الداعين إلى الإصلاح ، مثل : أبراهام جايجر ، وصمويل هولدهايم وكاوفمان كولر ، الذين يرجع إليهم الفضل في وضع أسس اليهودية الإصلاحية . وتحولت مسألة تحديث الدين اليهودي أو إصلاحه إلى قضية أساسية في الأوساط اليهودية ، ثم تبلورت الأمور كثيراً حين دعت أبرشية برسلاو المفكر اليهودي الإصلاحي جايجر ليكون حاخاماً لها (١٨٣٩) . وحينما نُشرت الطبعة الثانية من كتاب **صلوات اليهودية الإصلاحية** عام ١٨٤١ ، رأى الأرثوذكس أن الوضع أصبح لا يحتمل الانتظار ، وخصوصاً أن جايجر كان من كبار دعاة مدرسة نقد العهد القديم ومن مؤسسي علم اليهودية . ورغم أن حركة النقد هذه تهدم العقيدة من أساسها وتفترض أن التوراة نتاج تاريخي من صُنْع الإنسان ، فإن اليهودية الإصلاحية ارتبطت بها منذ البداية لتؤكد نسبية وتاريخانية الأفكار الدينية ظناً منها أن ذلك يسبغ شرعية على المشروع الإصلاحي .

وحتى يتمكن الإصلاحيون من طرح سائر القضايا وبلورة مواقف بشأنها ، عقدوا عدة مؤتمرات إصلاحية في ألمانيا (ثم بعد ذلك في الولايات المتحدة) توصلت إلى صياغات محددة (وقد خرج زكريا فرانكل محتجاً من أحد هذه المؤتمرات وأنشأ التيار المحافظ) . وقد توقفت اليهودية الإصلاحية عن التطور الفكري في ألمانيا نفسها ، ولكنها تحولّت إلى تيار قوي ورئيسي بين اليهود في الولايات المتحدة حين تَقبَّلها المهاجرون الألمان الذين اندمجوا في المجتمع الأمريكي ، وكانوا يبحثون عن صيغة دينية جديدة تلائم وضعهم الجديد . وقد وجد هؤلاء المهاجرون في اليهودية الإصلاحية ضالتهم . وتبعتهم أعداد متزايدة من اليهود الأمريكيين حتى صارت ، مع حلول عام ١٨٨٨ ، كل المعابد اليهودية في الولايات المتحدة (والبالغ عددها ٢٠٠) إصلاحية ، باستثناء ١٢ معبداً .

ومن أهم مفكري اليهودية الإصلاحية في الولايات المتحدة ديفيد أينهورن . ولكن أكبر المفكرين هو إسحق ماير وايز الذي أسس اتحاد الأبرشيات العبرية الأمريكية عام ١٨٧٣ ، وكلية الاتحاد العبري عام ١٨٧٥ ، والمؤتمر المركزي للحاخامات الأمريكيين عام ١٨٨٩ . ويُعَدُّ مؤتمر بتسبرج الإصلاحي ، الذي عُقد عام ١٨٨٥ ، أهم نقطة في تاريخ اليهودية الإصلاحية إذ أصدر قراراته الشهيرة التي عبَّرت عن الإجماع الإصلاحي ، وبلورت منطلقات الحركة . وقد انتقلت اليهودية الإصلاحية إلى المجر حيث يُطلَق عليها مصطلح «نيولوج» .

وتوجد معابد إصلاحية في حوالي ٢٩ دولة تابعة للاتحاد العالمي لليهودية التقدمية ، ويبلغ عدد أتباع الحركة حوالي ١,٢٥ مليون . لكن الولايات المتحدة لا تزال المركز الأساسي الذي يضم معظم أعضاء هذه الفرقة . وتوجد ٨٤٨ أبرشية يهود إصلاحية في الولايات المتحدة ، ويشكل الإصلاحيون ٣٠٪ من كل يهود أمريكا المنتمين إلى إحدى الفرق اليهودية (مقابل ٣٣٪ محافظين و٩٪ و٢٦٪ لا علاقة بهم أي فرقة دينية أرثوذكس) ومع هذا تذكر أحد المراجع أن عدد اليهود الإصلاحيين مليون و٣٠٠ ألف . ويُلاحَظ ارتفاع نسبة الزواج المُختلط بينهم أكثر من ارتفاعها بين أعضاء الفرق الأخرى ، وإن كانت النسبة بين اليهود غير المنتمين دينياً أعلى كثيراً . ويُعَدُّ اليهود الإصلاحيون أكثر قطاعات اليهود تأمركاً . ويُلاحَظ أنه في الآونة الأخيرة ، مع ازدياد تشدد اليهودية الإصلاحية وازدياد التساهل من جانب اليهودية المحافظة ، تناقصت المسافة بينهما وبدأت الأبرشيات المحافظة والإصلاحية في الاندماج ، وهذا الاندماج توافق عليه قيادات الفريقين ولا تُمانع فيه . ويقابل هذا تباعُد مستمر عن اليهودية الأرثوذكسية . وقد صرح الحاخام ملتون بولين رئيس المجلس الحاخامي في أمريكا بأن التباعد بين الأرثوذكس من جهة والمحافظين والإصلاحيين من جهة أخرى آخذ في التزايد حتى أنه هو نفسه تحدَّث عن وجود يهوديتين مستقلتين .

ومن التنظيمات اليهودية الإصلاحية : المؤتمر المركزي للحاخامات الأمريكيين الذي يضم كل الحاخامات الإصلاحيين ، واتحاد الأبرشيات العبرانية الأمريكية الذي يضم المعابد الإصلاحية وكلية الاتحاد العبري (المعهد اليهودي للدين) وهو معهد إصلاحي لتخريج الحاخامات ، كما أن هناك اتحاداً عالمياً لليهودية الإصلاحية هو الاتحاد العالمي لليهودية التقدمية .

وقد اعترفت روسيا باليهودية الإصلاحية باعتبارها مذهباً يهودياً . وبالفعل ، توجد جماعة يهودية إصلاحية الآن لها مقر في موسكو . ويمكن أن نتوقع انتشار اليهودية الإصلاحية لأنها صيغة مخففة سهلة من العقيدة اليهودية تناسب تماماً يهود روسيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء ممن يودون التمسك بيهوديتهم وإظهارها والإعلان عنها حتى يتسنى لهم الهجرة إلى إسرائيل . ولكنهم ، كباحثين عن اللذة ، لا يريدون في الوقت نفسه أن يدفعوا أي ثمن عن طريق إرجاء المتعة أو كبح ذواتهم أو إقامة الشعائر . واليهودية

الإصلاحية تحقق لهم كل هذا، فهي تتكيف بسرعة مع روح العصر، وكل عصر.

اليهودية الإصلاحية : الفكر الديني

Reform Judaism :Religious Thought

تشترك كل من الحركة اليهودية الإصلاحية واليهودية المحافظة في أنهما تحاولان حل إشكالية الحلول الإلهي في الشعب اليهودي وفي مؤسساته القومية . فمثل هذا الحلول يجعل منهم شعباً مقدَّساً ملتفاً حول نفسه ، يشير إلى ذاته دون الإشارة إلى شيء خارجه ، وهذا أمر مقبول داخل إطار المجتمع التقليدي ، المبني على الإرادة الذاتية للأقليات . وهو أمر مفهوم حينما كان اليهود يضطلعون بدور الجماعة الوظيفية التي تعزل نفسها عن المجتمع لتلعب دورها المحايد . ولكن ، مع ظهور الدولة القومية التي ترى نفسها مطلقاً فهي مرجعية ذاتها لا تقبل مرجعية متجاوزة لها أصبح من الصعب أن تتعايش نقطتان مطلقتان داخل المجتمع الواحد . ولذا ، كان على أعضاء الجماعات اليهودية أن يتعاملوا بشكل أو بآخر مع الحلولية اليهودية التقليدية ، وكان عليهم التوصل إلى صيغة حديثة لليهودية يمكنها التعايش مع الدولة القومية الحديثة المطلقة مع إصرارها على أن يعيد اليهودي صياغة ذاته ورؤيته حتى يدين لها وحدها بالولاء . وقد حاولت اليهودية الإصلاحية واليهودية المحافظة حل إشكالية الشعب المقدَّس عن طريق تَبنِّي الحل الغربي للمشكلة وهو أن يكون الحلول الإلهي في نقطة ما في الطبيعة أو في الإنسان أو في التاريخ ، بحيث يشكل المطلق ركيزة نهائية كامنة في هذه النقطة وغير متجاوزة لها . وقد ظهر العديد من هذه المطلقات الدنيوية أو الغيبيات العلمانية . ولكن الذي يهمنا هو المطلق الدنيوي الذي يسمى «الروح» (جايست) في أدبيات القرن التاسع عشر في أوربا («روح المكان» أو «روح العصر» أو «روح الشعب» أو «روح الأمة») الذي حل محل الإله . وبينما آمن الإصلاحيون بروح العصر (بالألمانية: تسايت جايست Zeitgeist) ، آمن المحافظون بروح الشعب العضوي (فولك) .

وهذه الصياغة من الحلولية تلغي الإله كنقطة متجاوزة ، فمصدر القداسة كامن في المادة . وبالنسبة لليهودية الإصلاحية ، فهي توسع نطاق نقطة الحلول بحيث يصبح المطلق (روح العصر) إطاراً يضم كلاً من اليهود والأغيار . وبذلك تكون اليهودية الإصلاحية قد وصلت إلى صيغة معاصرة لليهودية تلائم العصر ، وتتخلص من آثار الحلولية الحادة والجاملة التي كانت تدور في فلكها اليهودية الحاخامية والتي عزلت اليهود عن مجتمعاتهم وجعلت معتقداتهم الدينية عبئاً ينوءون بحمله ، وجعلت تعايشهم مع المطلق الجديد (الدولة العلمانية الحديثة) مستحيلاً . ويمكن القول بأن جوهر مشروع اليهودية الإصلاحية هو محاولة نزع القداسة عن كثير من المعتقدات الدينية اليهودية ووضعها في إطار تاريخي ، وذلك حتى يتسنى التمييز بين ما هو مطلق ومتحرر من الزمان والمكان وبين ما هو نسبي ومرتبط بهما . وهي عملية نجم عنها تضييق نطاق المطلق والمقدَّس وتوسيع نطاق النسبي حيث يتمكن أعضاء الجماعات اليهودية المشاركة في الإيمان بالمطلقات القومية والصناعية والمادية في مجتمعاتهم الحديثة . ولذا ، عدَّل الإصلاحيون فكرة التوراة ، - بالنسبة لهم - مجرد نصوص أوحى الإله بها للعبرانيين الأولين ، ولذا يجب احترامها كرؤى عميقة ، ولكنها يجب أن تتكيف مع العصور المختلفة . فثمة فرق بين الوحي والإلهام ، إذ أن الإلهام ليس خالصاً أو صافياً ، فالبشر يصبغونه بعاداتهم ولغتهم فيختلط بعناصر تاريخية دنيوية لكل هذا ، يجب على اليهودي أن يحاول فهم وتفسير هذا الوحي ، أو الإلهام من آونة إلى أخرى ، وأن يُنفِّذ منه ما هو ممكن في لحظته التاريخية . وبهذا ، يصبح للقانون الإلهي (الشريعة) السلطة والحق، طالما كانت أوضاع الحياة التي جاء لمعالجتها مستمرة . وعندما تتغيَّر الأوضاع ، يجب أن يُنسَخ القانون ، حتى وإن كان الإله صاحبه ومُشرِّعه ، أي أن الشريعة فقدت سلطتها الإلزامية المطلقة وأصبحت روح العصر النقطة المرجعية والركيزة النهائية . وللعهد القديم ، على سبيل المثال ، جانبان : أحدهما مقدَّس والآخر دنيوي . وقد سقطت فاعلية الجانب الثاني بهدم الهيكل ، وسقط مع هذه العملية كل ما له علاقة بالهيكل أو الدولة ، وبقي الجزء المقدَّس أو المطلق وحده . وبطبيعة الحال ، لا يعترف اليهود الإصلاحيون بالشريعة الشفوية (التعبير المستمر عن الحلول الإلهي) . وحاول الإصلاحيون كذلك تأكيد الجانب العقائدي والأخلاقي على حساب الجانب الشعائري أو القرباني ، فهم يرون أن اليهودية الحاخامية تدور في إطار الشعائر المرتبطة بالدولة اليهودية والهيكل ، والتي لم تَعُد لها أية فعالية أو شرعية . كما تم استبعاد العناصر القومية الموجودة في الدين اليهودي والتي تؤكد قداسة اليهود وانعزالهم عن الأمم الأخرى (ولا تزال هذه العقلانية النسبية أو التاريخانية ، التي تحاول تقييم التراث في ضوء المعطى التاريخي وترفض الانعزالية القومية والحلولية التقليدية ، السمة الأساسية للتيارات الليبرالية والثورية في الفكر الديني اليهودي) .

ومع هذا ، فإن اليهودية الإصلاحية ، في محاولتها تطوير

اليهودية ، انتهى بها الأمر إلى أن خلعت النسبية على كل العقائد ونزعت القداسة عن كل شيء ، أي أنها في محاولتها إدخال عنصر النسبية الإنسانية والتهرب من الحلولية ، سقطت في نسبية تاريخية كاملة بحيث أسقطت كل الشعائر وكل العقائد تقريباً ، أي أنها هربت من وحدة الوجود الروحية إلى وحدة الوجود المادية . وقد شبَّه بعض المؤرخين اليهودية الإصلاحية بحركة شبتاي تسفي ، ويرون أنها الوريث العلماني المعاصر له . وهو تشبيه مهم وعميق ولكنه يعاني من بعض نقط القصور لأنه يُفسِّر نقط التشابه ولا يُفسِّر نقط الاختلاف . ونحن نرى أن الحلولية ، حينما تصل إلى مرحلة وحدة الوجود الروحية ، تتحول عادةً إلى حلولية بدون إله أو وحدة وجود مادية . ولعل شيئاً من هذا القبيل قد حدث داخل اليهودية ، وحركة شبتاي تسفي هي مرحلة وحدة الوجود الروحية حيث يحل الإله في العالم (الإنسان والطبيعة) ويصبح لا وجود له خارجها ، ومع هذا يظل يحمل اسم الإله ، ويصبح كل ما في العالم تجلياً للإله . وتعقب هذه المرحلة مرحلة تغيير التسمية إذ يسقط اسم الإله ويُسمَّى بعد ذلك «قوانين الحركة» أو «روح العصر» وخلافه ، وهذه هي مرحلة موت الإله . ولعل اليهودية الإصلاحية تعبير عن مرحلة انتقالية بين الشبتانية ووحدة الوجود الروحية ولاهوت موت الإله في الستينيات ومرحلة وحدة الوجود المادية ، هذه المرحلة الانتقالية نسميها مرحلة شحوب الإله ، فهو موجود اسماً ولكنه يتبدَّى من خلال عدد كبير من المطلقات الدنيوية (مثل روح العصر) . ولذا ، نجد أن اليهودية الإصلاحية قد تحولت إلى ما يشبه دين العقل الطبيعي (الربوبية) ، فهي تؤمن بوجود قوة عظمى تعبر عن شيء باهت شاحب غير شخصي تطلق عليه كلمة «الرب» ، كما أنها تنكر سلطة التلمود ، بل والتوراة نفسها ، وتقرر الشعائر والعبادات بمجموعة من المؤتمرات والبيانات التي تتم الموافقة عليها بالتصويت والانتخابات بالطرق الديموقراطية .

وفي ضوء منطلقات الفكر اليهودي الإصلاحي ، يمكننا أن ننظر إلى التعديلات التي أدخلها زعماء الحركة الإصلاحية ، على العبادة اليهودية وبعض المفاهيم الدينية ، ومن أهمهم أبراهام جايجر (زعيم الجناح المعتدل) الذي يُشار إليه عادةً بلفظة «التقدمي» وديفيد فرايد لندر (زعيم الجناح الثوري) الذي يُشار إليه أحياناً بصفة «الليبرالي» . وقام الإصلاحيون بإلغاء الصلوات ذات الطابع القومي اليهودي ، وجعلوا لغة الصلاة الألمانية (ثم الإنجليزية والولايات المتحدة) لا العبرية (ليتمشوا مع روح العصر والمكان) ، وأبطلوا كل الفوارق بين الكهنة واللاويين وبقية اليهود ، وأدخلوا الموسيقى والأناشيد الجماعية ، كما سمحوا باختلاط الجنسين في الصلوات ، ومنعوا تغطية الرأس أثناء الصلاة أو استخدام تمائم الصلاة (تفيلين) ، ولقد تأثروا في ذلك بالصلوات البروتستانتية ، وقام بعض الإصلاحيين ببناء بيت للعبادة أطلقوا عليه اسم «الهيكل» ، وكانت تلك أول مرة يُستخدَم فيها هذا المصطلح لأنه لم يكن يُطلَق إلا على الهيكل الموجود في القدس . ومعنى ذلك أن الإصلاحيين بتسميتهم معبدهم هذه التسمية الجديدة ، كانوا يحاولون تعميق ولاء اليهودي إلى الوطن الذي يعيش فيه ويحاولون نقل الحلول الإلهي من مكان سيعودون إليه في آخر الأيام إلى مكان يرتادونه هذه الأيام . وعلى المستوى الفكري ، أعاد الإصلاحيون تفسير اليهودية على أساس عقلي ، وأعادوا دراسة العهد القديم على أُسس علمية (فالعقل أو العلم هو موضع الحلول الإلهي أو المطلق في المنظومات الربوبية) ، ونادوا بأن الدين اليهودي أو العقيدة الموسوية (وهي التسمية الأثيرة لديهم) تستند إلى قيم أخلاقية تشبه قيم الأديان الأخرى . كما ركَّز الإصلاحيون على الجوهر الأخلاقي للتوراة ، وكذلك الجوهر الأخلاقي لبعض جوانب التلمود ، مهملين التحريمات المختلفة التي ينص عليها القانون اليهودي ، وخصوصاً القوانين المتعلقة بالطعام والكهانة ، وقد سمحوا (مؤخراً) بترسيم حاخامات إناث . وأنكروا فكرة البعث والجنة والنار ، وأحلوا محلها فكرة خلود الروح . وقد أسقطوا معظم شعائر السبت ، وهم لا يحتفلون به في الوقت الحاضر في يوم السبت نفسه وإنما يختار أعضاء الأبرشية أي يوم في الأسبوع للاجتماع . وتأخذ الشعائر في هذه الحالة شكل صلاة قصيرة وقراءة بعض الفقرات من أي كتاب ، بل حل بعض الكلمات المتقاطعة . ولعل هذا هو الانتصار النهائي لروح العصر . ويقوم أحد المتحدثين بإلقاء محاضرة في أي موضوع وينشدون النشيد الوطني لإسرائيل (هاتيكفاه) . وقد ازداد التكيف مع روح العصر تطرفاً ، ولذا نجد أن اليهودية الإصلاحية قَبلت الشواذ جنسياً كيهود ثم رسَّمت بعض الشواذ جنسياً حاخامات ، وأسَّست للشواذ جنسياً معابد إصلاحية معترفاً بها من قِبَل المؤسسة الإصلاحية . ولعل هذا تعبير عن حلولية موت الإله أو حلولية بدون إله ، وحلولية ما بعد الحداثة حيث تتساوى كل الأمور وتصبح نسبية . ونحن هنا لا نتحدث عن يهود أو أغيار وإنما نتحدث عن مجتمع أخذ الإنسان فيه يختفي تدريجياً بعد شحوب الإله وموته .

وقد عَدَّل الإصلاحيون بعض الأفكار الأساسية في الديانة اليهودية ، فمثلاً نادى جايجر بحذف جميع الإشارات إلى خصوصية الشعب اليهودي من كل طقوس الدين وعقيدته وأخلاقه

وأدبه ، مطالباً بالتخلي عن الفكرة الحلولية الخاصة بالشعب المختار كلية . وقد حاولوا الإبقاء على هذه الفكرة ، مع إعطائها دلالة أخلاقية عالمية جديدة ، فجعلوا الشعب اليهودي شعباً يحمل رسالته الأخلاقية لينشرها في العالم حتى يستطيع من يشاء أن يؤمن بها . كما يؤكد الإصلاحيون أيضاً أن اليهود شُتتوا في أطراف الأرض ليحققوا رسالتهم بين البشر ، وأن النفي وسيلة لتقريبهم من الآخرين وليس لعزلهم عنهم .

وأضفى الإصلاحيون على فكرة العودة والماشيَّح طابعاً إنسانياً إذ رَفَض ممثلوهم ، في مؤتمر بتسبرج ، فكرة العودة الشخصية للماشيَّح المخلِّص ، وأحلوا محلها فكرة العصر المشيحاني ، وهي فكرة تربط بين العقيدة المشيحانية وروح العصر . فالعصر المشيحاني هو العصر الذي سيحل فيه السلام والكمال ويأتي الخلاص إلى كل الجنس البشري وينتشر العمران والإصلاح ويتم كل هذا من خلال التقدم العلمي والحضاري . فالفكرة المشيحانية هنا فُصلت تماماً عن الشعب اليهودي وعن شخص الماشيَّح وارتبطت بكل البشر وبالعلم الحديث .

اليهودية التقدمية

Progressive Judaism

«اليهودية التقدمية» مصطلح يُستخدَم للإشارة إلى كل الاتجاهات اليهودية الإصلاحية . وعادةً ما يُستخدَم مصطلح «تقدمي» بديلاً لمصطلح «إصلاحي» خارج الولايات المتحدة .

اليهودية الليبرالية

Liberal Judaism

بدأت الحركة اليهودية الليبرالية في إنجلترا في السنوات الأولى من القرن العشرين نتيجة الجهود المشتركة لليلي مونتاجو (١٨٧٣ ـ ١٩٦٣) وكلود مونتيفيوري (١٨٥١ ـ ١٩٣٨) حين أسسا الاتحاد الديني اليهودي (١٩٠٢) . وتنطلق اليهودية الليبرالية من أن اليهودية الإصلاحية لم تصل بالإصلاح إلى نتيجته المنطقية ولم تواجه القضايا الحقيقية ، وأن اليهودية لابد أن يدخل عليها المزيد من الإصلاحات حتى لا تظل عبئاً على اليهود .

ونقطة الانطلاق بالنسبة لليهودية الليبرالية هي الإنسان (واحتياجاته النفسية) لا العقيدة الدينية (فالعهد القديم في تصوُّرها اجتهاد بشري وليس وحياً إلهياً) ولذا طرحت الليبرالية مفهوم «الضمير الشخصي» و«الوعي المستنير» ، وجعلت من حق كل يهودي أن يدرس العقائد والممارسات اليهودية ، ثم يختار ما يحلو له منها ، إذ أن من حق كل يهودي أن يقرر شكل اليهودية التي يؤمن بها ، ويحدد مكوناتها (ولابد أن الإله سيسدد خطاه بطريقة ما) ، أي أنها عملية علمنة من الداخل . ولذا يذهب الفكر الديني الليبرالي إلى أن الأوامر والنواهي (متسفوت) مسألة اختيارية ، قد يحتاج لها بعض الناس ليحققوا تطورهم الأخلاقي ، ولكن الآخرين قد لا يحتاجون لها على الإطلاق . فالطعام المباح شرعاً يعتبر شكلاً من أشكال الانضباط الأخلاقي بالنسبة لمن يرون ذلك ، أما من يودون تحقيق هذا الانضباط بطريقة أخرى ، فهم في حلٍّ من أمرهم . وكلاهما له شرعيته من وجهة النظر الليبرالية .

ورغم هذا الانفتاح الكامل (الذي يقترب باليهودية الليبرالية من يهودية عصر ما بعد الحداثة) إلا أن ثمة طقوساً معينة فرضت نفسها على اتباع هذه الفرقة . فالصلاة في المعبد الليبرالي تشبه الصلوات في المعابد الإصلاحية فيجلس الرجال والنساء سوياً ، ويجلس الرجال دون غطاء للرأس إن أرادوا . كما أبقى الليبراليون بعض الطقوس مثل النفخ في البوق (شوفار) في رأس السنة والصيام في يوم الغفران (يوم كيبور) وأكل خبز الماتساه غير المخمر في عيد الفصح . ويُلاحَظ أن الشعائر التي اختارها اليهود الليبراليون ذات طابع احتفالي ، ولا تتطلب مشقة كبيرة ، كما يمكن تطويعها لتتفق مع إيقاع العصر . فبالنسبة لشعائر السبت لا يمتنع اليهودي الليبرالي عن العمل ولكنه قد يوقد الشموع . ولكن حتى هذه الشموع يمكنه أن يوقدها بعد غروب الشمس ، وليس قبله كما تنص الشريعة ، إن وجد أن الالتزام بالشريعة سيسبب له ضيقاً .

وقد أسقط الليبراليون صوم التاسع من آب وغيره من أيام الصوم وهم لا يعتبرون عيد الأسابيع (شفوعوت) عيداً حيث إنهم لا يؤمنون بأن التوراة قد نزلت على موسى في سيناء . وتذهب اليهودية الليبرالية إلى أن اليهودي من وُلد لأم يهودية أو لأب يهودي أو رُبِّي تربية يهودية .

النيولوج

Neologue

«نيولوج» هو الاسم العرفي (غير الرسمي) الذي كان يُطلَق على أعضاء الجماعة اليهودية في المجر والمنتمين إلى اليهودية الإصلاحية . وقد ظهرت الاتجاهات الإصلاحية بين الجماعات اليهودية في المجر في أوائل القرن التاسع عشر والتي واجهت مساعيها وأنشطتها التنظيمية معارضة المؤسسة الأرثوذكسية . وبعد

أن مُنح يهود المجر حقوقهم المدنية كاملة عام ١٨٦٧ ، قدّم زعماء طائفة النيولوج في مدينة بست ، التي كانت تُعدُّ مركز أقوى تجمُّع نيولوجي في المجر ، مذكرة إلى وزير التعليم والشئون الدينية المجري بشأن الهيكل التنظيمي للجماعة اليهودية المجرية مقترحين عقد مؤتمر لممثلي يهود المجر دون إشراك الحاخامات ، وذلك تفادياً لتفجُّر الجدل حول المسائل العقائدية ، وكذلك منعاً لتدخُّلهم في الشئون التي تتعدى وظائفهم ومهامهم . وقد أصبح هذه الاتجاه ، وهو اتجاه عارضه الأرثوذكس وكذلك بعض النيولوجيين ، إحدى الركائز الأساسية في تنظيم الطائفة النيولوجية وتجمعاتها . وقد سُمح للحاخامات فيما بعد بحضور المؤتمر . وفي الانتخابات التي جرت داخل الجماعة ، حقق النيولوجيون أغلبية في الأصوات إذ حصلوا على ٥٧,٥٪ مقابل ٤٢,٥٪ للأرثوذكس . وفي نهاية عام ١٨٦٨ ، تم افتتاح المؤتمر اليهودي العام الذي كانت قضيته الأساسية مناقشة الهيكل التنظيمي للجماعة . وقد سادت المؤتمر خلافات حادة وجدل عنيف ، وخصوصاً حول تحديد طبيعة أو ماهية الجماعة اليهودية في المجر ، إذ أن النيولوجيين قد اعتبروا الجماعة « جماعة تعمل على تلبية الاحتياجات الدينية » في حين أصر الأرثوذكس على اعتبارها "جماعة من أتباع العقيدة الموسوية الحاخامية والأوامر التي تم وضعها وتصنيفها في الشولحان عاروخ" . ومن القضايا الأخرى التي أثارت الخلاف ، المدرسة اللاهوتية للحاخامات التي كان من المزمع إقامتها بتمويل صندوق المدارس الذي أسسه الإمبراطور فرانسيس جوزيف الثاني من أموال الغرامة التي فُرضت على يهود المجر في أعقاب ثورة ١٨٤٨ . وفي النهاية ، انسحب ثمانية وأربعون مندوباً أرثوذكسياً من المؤتمر ، وتم التصديق على قرارات المؤتمر . وقد نجح الأرثوذكس فيما بعد في تنظيم إطار خاص بهم ، وذلك بعد حصولهم على تصريح بذلك من الإمبراطور .

وقد سعى النيولوجيون إلى توحيد الطائفتين النيولوجية والأرثوذكسية ولكن دون جدوى . ومع ذلك ، كان لسعيهم في هذا الاتجاه أثر في عدم تطبيقهم أية إصلاحات راديكالية في الطقوس الدينية وتَبنِّيهم توجهاً محافظاً . وإلى جانب ذلك ، ظل هناك خلاف داخل المعسكر النيولوجي نفسه ، فمنذ عام ١٨٤٨ سعى بعض أعضاء الطائفة إلى تأسيس معبد إصلاحي ، ولكن المخاوف داخل الطائفة من أن تتسبب هذه الخطوة في إحداث انشقاق نهائي بين الجماعة اليهودية ، أدَّت إلى حصولها على أمر من السلطات بتصفية هذه المنظمة الإصلاحية الصغيرة عام ١٨٥٢ . وفي عام ١٨٨٤ ، حاولت مجموعة أخرى تأسيس جماعة إصلاحية ولكن المكتب القومي للنيولوجيين تدخَّل مرة أخرى لمنعهم . أما بعد الحرب العالمية الأولى ، فقد شكلت الطائفة النيولوجية نقطة جذب ليهود المجر الذين تباعدوا تماماً عن العقيدة اليهودية ولكنهم لم يجدوا قبولاً بعد داخل المجتمع المجري المحيط . وخلال الفترة التي عاش فيها يهود المجر في عزلة اجتماعية واقتصادية (١٩٣٨ ـ ١٩٤٤) ، نشطت الطائفة النيولوجية ، وخصوصاً في المجالات التعليمية والخيرية ، كما انضمت إليهم بعض العناصر الصهيونية بعد الحرب العالمية الثانية . ولكن هذا التطور لم يستمر حيث تم منع النشاط الصهيوني عام ١٩٤٩ . وفي عام ١٩٥٠ ، تم توحيد الطائفتين النيولوجية والأرثوذكسية بقرار من النظام الشيوعي .

المؤتمـرات الحاخاميـة

Rabbinical Conferences

«المؤتمرات الحاخامية» هي مجموعة من المؤتمرات التي عُقدت في ألمانيا ، في منتصف القرن التاسع عشر ، لمحاولة التصدي للمشاكل الناجمة عن التحديث وإعتاق اليهود وتساقُط الجيتو وتصاعُد معدلات العلمنة ، وكنها أمور أدَّت إلى تفاقم أزمة اليهودية . وقد عقد أبراهام جايجر مؤتمراً عام ١٨٣٧ في وايسبادن لمناقشة آرائه في الإصلاح الديني ، ولكنه لم يتوصل إلى أية نتائج عملية . وعُقدت بعد ذلك المؤتمرات التي صاغت منطلقات اليهودية الإصلاحية :

١ ـ مؤتمر برونزويك (١٢ ـ ١٩ يونيه عام ١٨٤٤) . وقد حضره ٢٤ حاخاماً معظمهم من الإصلاحيين ، من بينهم جايجر وهولدهايم . وكان ضمن قراراته إلغاء صلاة كل النذور ، وتأكيد أن اليهود يعتبرون البلاد التي يعيشون فيها أوطانهم وبلاد آبائهم . ووافق المؤتمر على الزواج المختلط شريطة أن يكون النسل يهودياً .

٢ ـ مؤتمر فرانكفورت (١٦ ـ ٢٨ يوليه عام ١٨٤٥) . وقد حضره ٣٨ حاخاماً يمثلون أفكاراً إصلاحية ومحافظة . وقد بدأت الاختلافات بين التقليديين والإصلاحيين تظهر ثم تتضح ، فتم الاتفاق على ضرورة الاحتفاظ بالعبرية في الصلاة ، ولكن الفريقين اختلفا حول حجم الجزء العبري . وقد نجح الفريق الإصلاحي في فرض موقفه ، كما نجح في اتخاذ قرار بشأن إلغاء الأدعية الخاصة باستعادة العبادة القربانية ، الأمر الذي أدَّى إلى انسحاب زكريا فرانكل وأتباعه . وقد وافق المؤتمر على إدخال الأرغُن في المعبد اليهودي .

٣ ـ مؤتمر برسلاو (١٣ ـ ٢٤ يوليه عام ١٨٤٦) . وقد حضره ٢٢

حاخاماً ، كلهم إصلاحيون تقريباً . وقد عدَّل المؤتمر قوانين السبت وخفَّف من حدتها ، بالذات بالنسبة إلى الجنود والموظفين العموميين، وألغى اليوم الثاني في الأعياد . وحاول المؤتمر أن يُعدل طريقة الختان بحيث تتفق وقواعد الصحة الحديثة ، وأُبطلت بعض عادات عند اليهود ، مثل تمزيق الملابس ، والجلوس على الأرض إعلاناً للحداد ، وإطلاق اللحية . وقد زادت قرارات المؤتمر من حدة الخلاف ، إذ أن التقليديين اعتبروها قرارات متطرفة في حين اعتبرها الإصلاحيون الثوريون محافظة أكثر من اللازم . وقد توقفت المؤتمرات بعد ذلك في ألمانيا ، ولكنها استمرت في الولايات المتحدة التي أصبحت أهم مركز لليهودية الإصلاحية .

٤ ـ مؤتمر فيلادلفيا (٣ ـ ٦ نوفمبر عام ١٨٦٩) . وقد حضره ١٢ حاخاماً إصلاحياً ، واتُّخذت قرارات بضرورة إنهاء بقايا التفرقة بين الكهنة واليهود العاديين ، وتأكيد رسالة إسرائيل للعالم ، وقبول الشتات ، أي انتشار الجماعات اليهودية في العالم ، لا باعتباره عقاباً وإنما كوسيلة لإنجاز هذه الرسالة ، وإنكار فكرة البعث والإصرار على أن تكون الصلاة بلغة الوطن .

٥ ـ مؤتمر بتسبرج (١٦ ـ ١٨ نوفمبر عام ١٨٨٥) . وقد حضره ١٨ حاخاماً إصلاحياً . وهو المؤتمر الذي أصدر قرارات بتسبرج الشهيرة التي أصبحت تشكل إطار اليهودية الإصلاحية . وقد رفضت القرارات الشعائر الاحتفالية التي لم يَعُد لها معنى أخلاقي ، وكذلك فكرة عودة اليهود إلى فلسطين واستعادة العبادة القربانية ، وأكدت القرارات الإيمان بخلود الروح (مقابل فكرة البعث) والدعوة إلى حل القضايا الاجتماعية على أساس من العدل والتقوى . وقد أشارت القرارات إلى أنه لا يوجد أي شيء في روح اليهودية أو قوانينها يمنع من أن تتم احتفالات نهاية الأسبوع يوم الأحد بدلاً من السبت (إذا رأت الجماعة ذلك) .

وقد تم تأسيس أول تنظيم للحاخامات الإصلاحيين بعد مرور أربعة أعوام من مؤتمر بتسبرج ، وهو المؤتمر المركزي للحاخامات الأمريكيين ، والذي يعقد اجتماعاته سنوياً . كما تم تأسيس تنظيمات لحاخامات الفرق الأخرى ، وهي تعقد اجتماعات سنوية تناقش كل ما قد يظهر من أسئلة وقضايا دينية .

المؤتمر المركزي للحاخامات الأمريكيين

Central Conference of American Rabbis

منظمة تضم الحاخامات الإصلاحيين في الولايات المتحدة وكندا أسسها إسحق ماير وايز عام ١٨٨٩ . وقد ساهمت هذه المنظمة في إعداد كُتب صلوات للجماعات اليهودية التي تتبع اليهودية الإصلاحية ، وهي كتب تتَّسم باختفاء النزعة القومية والبُعد عن استخدام اللغة العبرية . وكان المؤتمر في بادئ الأمر محايداً بل معادياً للصهيونية . وفي الثلاثينيات ، بدأ المؤتمر يغيِّر اتجاهه ، ويتخذ موقفاً أكثر تفهماً وتعاطفاً مع الحركة الصهيونية ، حتى أعلن برنامج كولومبوس عام ١٩٤٧ الذي أكد أن من واجب كل يهودي أن يساهم في تعمير فلسطين ، لا كملجأ للمحتاجين وحسب بل كمركز لليهودية في العالم . وقد انعكس هذا الاتجاه الفكري الجديد على التعديلات القومية التي أُدخلت على كتب الصلوات التي أصدرها المؤتمر مؤخراً . ولا يزال المؤتمر يطالب بفصل الدين عن الدولة في الولايات المتحدة وإسرائيل . والمؤتمر يعقد اجتماعاً سنوياً .

اتحاد الأبرشيات العبرية الأمريكية

Union of American Hebrew Congregations

أسسه إسحق ماير وايز في مدينة سنسناتي بولاية أوهايو الأمريكية عام ١٨٧٣ ، وهو هيئة يهودية إصلاحية . وقد كان هذا الاتحاد يضم عند تأسيسه ٢٨ معبداً يهودياً . وفي عام ١٩٦٧ ، كان يضم ٦٥٠ فرعاً ، بعضوية تزيد على المليون عضو ، ووصل عددهم في ١٩٨٠ إلى نحو ٧٣٠ فرعاً . وقد انتقل المقر الرئيسي إلى نيويورك عام ١٩٥١ . وتم تأسيس كلية الاتحاد اليهودي عام ١٨٧٥ تحت إشراف الاتحاد .

والأقسام الأساسية للاتحاد ، والتي تم تنظيمها بالاشتراك مع المؤتمر المركزي للحاخامات الأمريكيين ، هي : قسم التربية ، وقسم الوسائل السمعية والبصرية ، وقسم إدارة المعابد اليهودية ، وقسم الأبرشيات الجديدة ، وقسم الإعلان ، وقسم خدمات المعابد ، وقسم العلاقات مع الأديان الأخرى . وقد قسم الاتحاد إلى ١٦ منطقة لكل منها مدير ومجلس إقليمي . ويدير الاتحاد المجلس التمثيلي الذي ينعقد على شكل مؤتمر كل سنتين ، وهناك مجلس قومي للأوصياء . والاتحاد جزء من الاتحاد العالمي لليهودية التقدمية ، ويُصدر الاتحاد منشورات من بينها مجلة **اليهودية الأمريكية** ومجلة **المعلم اليهودي** .

كلية الاتحاد العبري ـ المعهد اليهودي للدين

Hebrew Union College-Jewish Institute of Religion

معهد ديني يهودي أسسه إسحق ماير وايز عام ١٨٧٥ في سنسناتي بولاية أوهايو الأمريكية لدعم اليهودية الإصلاحية في

الولايات المتحدة ، ودفعها إلى الأمام . وقد أسس ستيفن وايز المعهد اليهودي للدين في نيويورك عام ١٩٢٢ لتحقيق الأهداف نفسها . واتحدت المدرستان عام ١٩٥٠ تحت اسم كلية الاتحاد العبري ـ المعهد اليهودي للدين . وكان من بين رؤسائها : ستيفن وايز ، وإسحق وايز ، وكولر كوفمان . ويتخرج في هذه المدرسة الموحدة نحو ٣٠ حاخاماً في السنة بعد خمس سنوات دراسية . وقد خرّجت مدرسة سنسناتي ما يربو على ستمائة حاخام . وقد خرجت مدرسة نيويورك أكثر من مائتين وخمسين حاخاماً . وتغطي مدرسة سنسناتي مساحة تساوي ١٨ هكتاراً تقريباً ، وتحتوي مكتبتها على ١٤٠,٠٠٠ كتاب، و٣,٠٠٠ مخطوط ، و٣,٠٠٠ مخطوط للموسيقى . وهي تنشر كتاباً سنوياً ودراسات في الببليوجرافيا وأخبار الكتب . وفي سنة ١٩٤٧ ، أسست المدرسة الأرشيف اليهودي الأمريكي ، الذي يهدف إلى تطوير دراسة تاريخ اليهود في الولايات المتحدة . ويتبع المعهد كذلك متحف لبعض المقتنيات المهمة من وجهة النظر اليهودية. وتشمل المدرسة التي مقرها نيويورك مدرسة الاتحاد اليهودي للتربية لإعداد مديري المدارس والمدرسين للعمل بالتعليم الديني اليهودي ، كما تضم مدرسة الاتحاد اليهودي للموسيقى الدينية التي تدرِّب المرتلين بعد أربع سنوات من الدراسة . وتضم مكتبتها ما يزيد على ٥٠,٠٠٠ كتاب . ولكلية الاتحاد اليهودي مركز فرعي في القدس .

الاتحاد العالمي لليهودية التقدمية

World Union for Progressive Judaism

منظمة أُسِّست في لندن عام ١٩٢٦ للتنسيق بين مجموعات اليهود الإصلاحيين ولتأسيس مراكز جديدة لليهودية الإصلاحية . ويعقد الاتحاد مؤتمراً عالمياً لمناقشة موضوع بعينه . وقد أسس الاتحاد في سنة ١٩٥٥ مركزاً عالمياً للدراسات الدينية والتدريب في باريس للحاخامات التقدميين الإصلاحيين . وتتبع الاتحاد مؤسسات في ١٨ بلداً ، كما يتبعه نحو مليوني عضو . ولقد تم الاعتراف بالاتحاد كمنظمة استشارية غير حكومية في الأمم المتحدة واليونسكو .

ديفيد فرايدلاندر (١٧٥٠-١٨٣٤)

David Freidlander

زعيم يهودي إصلاحي ، وُلد في ألمانيا حيث أسس مصنعاً للحرير . وهو أحد مؤسسي مدرسة برلين الحرة (عام ١٧٧٨) التي أصبحت نموذجاً للمدارس العلمانية اليهودية . حارب فرايدلاندر ليحصل أعضاء الجماعات اليهودية على حقوقهم المدنية في بروسيا . وبعد موت صديقه الحميم مندلسون ، تولى زعامة حركة التنوير اليهودية ، وكان أول يهودي يُنتخَب لمجلس مدينة برلين عام ١٨٠٩ . وقد كان فرايدلاندر يهدف إلى اندماج اليهود بشكل كامل في الأمم التي يعيشون بين ظهرانيها ، ولذلك فإنه كان يطالب اليهود بالتخلي عن التلمود وبعض الشعائر اليهودية التي تعوق هذا الاندماج ، كما طالبهم باتخاذ الألمانية ، لا العبرية ولا اليديشية ، لغة لهم . بل إنه كان أحد المفكرين اليهود القلائل الذين نادوا بالتخلي عن عقيدة الماشيَّح التي تسببت في عزل اليهود عن العالم غير اليهودي . وكان فرايدلاندر يرى أن المسألة اليهودية في شرق أوربا لا يمكن حلها إلا عن طريق الإصلاحات التي تؤدي إلى الاندماج . كما أعرب فرايدلاندر في خطاب له عن استعداد عدد كبير من يهود برلين لأن يتقبلوا المسيحية إذا لم يُطلَب منهم الإيمان بعقائد تتنافى مع العقل (مثل عقيدة الابن) .

إسرائيل جيكوبسون (١٧٦٨-١٨٢٨)

Israel Jacobson

رائد اليهودية الإصلاحية . كان جيكوبسون رئيس المجلس اليهودي في مملكة وستفاليا النابليونية ، كما كان من كبار المموِّنين . عمل من أجل إصلاح التعليم اليهودي وطقوس المعبد اليهودي . أسس في زيزن (في مقاطعة برونزويك) مدرسة جيكوبسون للطلبة اليهود والمسيحيين عام ١٨٠١ . وفي عام ١٨١٠ . هيأ بيته ليكون معبداً يهودياً إصلاحياً على غرار الكنائس البروتستانتية ، فزوده بالأرغن . وكانت تُلقى فيه العظات بالألمانية . وبنى أول معبد إصلاحي في هامبورج عام ١٨١٨ . كما نشر كتاباً جديداً للصلوات .

ليوبولد زونز (١٧٩٤-١٨٨٦)

Leopold Zunz

عالم ألماني . مؤسس علم اليهودية ، وأول من استخدم المناهج الأدبية والتاريخية الحديثة في دراسة الكتابات اليهودية . وكان زونز يؤمن بأن إصلاح اليهودية يجب أن يحتفظ بما يُسمَّى «الهوية اليهودية التاريخية الأساسية» ، وهي هوية لا تتخذ شكلاً جامداً ، وإنما هي قوة حيوية متطورة . وفي كتابه **أحاديث اليهود الدينية** ، حاول أن يبرهن على هذه النظرية ، فبيَّن أن اليهودية تواءمت دائماً مع متطلبات الزمان والمكان ، ولكن التغيير الذي كان يطرأ عليها لم يغيِّر جوهرها نفسه . والواقع أن موقفه لا يختلف في أساسياته عن موقف

اليهودية المحافظة . وبالفعل ، نجده يقف موقفاً وسطياً معتدلاً في المعركة الدائرة بين اليهودية الإصلاحية واليهودية الأرثوذكسية .

صمويل هولدهايم (١٨٠٦-١٨٦٠)

Samuel Holdheim

زعيم اليهودية الإصلاحية . تلقَّى تعليماً تقليدياً ، وترأس منذ عام ١٨٤٧ الجماعة الإصلاحية في برلين . ويُعَدُّ هولدهايم من أشد الإصلاحيين تطرفاً وثورية . فقد كان يؤمن إيماناً عميقاً بفكرة التقدم ، ولذا فقد طالب بأن تتكيف اليهودية مع الأوضاع الجديدة في المجتمعات الغربية الحديثة بإدخال تغييرات أساسية تنادي بالاحتفال بيوم السبت في يوم الأحد ، كما طالب بالسماح لبعض الفئات بالعمل فيه ، وإلغاء اليوم الثاني من الأعياد ، وعدم التمسك بالختان ، وذلك على اعتبار أن الجوانب الشعائرية انتهت بسقوط الهيكل والكومنولث اليهودي . ولذا ، ينبغي التخلي عن كل ما له علاقة بالهيكل أو بالدولة اليهودية القديمة .

سولومون فورمستشر (١٨٠٨-١٨٨٩)

Solomon Formstecher

حاخام ومفكر ديني ألماني يهودي ، وأحد قادة حركة اليهودية الإصلاحية . اشترك في المؤتمرات الحاخامية المختلفة التي تناولت قضية اليهودية في العصر الحديث ، وكتب عدة دراسات عن فلسفة الدين . ويُعَدُّ مؤلفه **ديانة الفكر** (١٨٤١) أهم مؤلفاته التي يصف فيها اليهودية بأنها ليست ديانة طبيعية (أي متمركزة حول الطبيعة) وإنما ديانة فكر عالمية ترى أن الإله يتجاوز الطبيعة ، وأنه الحقيقة المطلقة ومصدر القيم . ويقصد فورمستشر بالفكر التحقق التاريخي الواعي للمطلق . وإذا كانت الديانة عموماً هي طموح الإنسان لأن يكون له عالمه الخاص من القيم ، فإن ديانة الفكر هي طموحه لتجسيد المثال الأخلاقي المطلق . والأمة اليهودية هي التي تقوم بهذه العملية ، فهي تجسيد للمطلق في التاريخ . فهي التي بدأت بالتوحيد . بل إنه يرى أن المسيحية والإسلام إن هما إلا أداتان للأمة اليهودية تستخدمهما للقضاء على ديانات الطبيعة الوثنية التي تؤمن بالخالق لا كمبدأ مطلق متجاوز للطبيعة وإنما كمبدأ طبيعي .

ويذهب فورمستشر إلى أن التوحيد في الإسلام والمسيحية ليس كاملاً كما هو الحال مع اليهودية ، وإنما هو توحيد مختلط تمتزج فيه العناصر الوثنية بالعناصر التوحيدية ، وبذا تظل الأمة اليهودية التعبير الوحيد الصافي عن المطلق .

والمصطلح الذي يستخدمه فورمستشر هو الخطاب الألماني الرومانتيكي . وقد وظِّف للتعبير عن بعض الموضوعات الأساسية في التراث القبَّالي الحلولي الذي جعل الأمة اليهودية جزءاً من الإله يوجد في العالم ويتركز فيه الغرض الإلهي . ولذا ، فإن حديث فورمستشر عن التوحيد يتنافى تماماً ، لا مع التراث الديني اليهودي الذي تسري فيه الحلولية ، وإنما مع خطابه الحلولي المتطرف نفسه .

ديفيد آينهورن (١٨٠٩-١٨٧٩)

David Einhorn

حاخام يهودي إصلاحي من أصل ألماني . عُرف بآرائه الثورية ، فطالب بإدخال اللغة الألمانية في الصلاة ، وأنكر أية سلطة مقدَّسة للتلمود . هاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٨٥٥ ، وهو العام الذي عقد فيه إسحق وايز مؤتمر الحاخامات في كليفلاند ، والذي اتخذ قرارات إصلاحية معتدلة تهدف إلى خلق نوع من الوحدة بين الاتجاهات الإصلاحية المختلفة . وقد اعتبر أينهورن هذا خيانة للاتجاه الإصلاحي ، فهاجم قرارات المؤتمر ، وبذا بدأت العداوة المريرة بينه وبين وايز . وقد شرح أينهورن أفكاره في مجلته التي كانت تَصدُر بالألمانية (١٨٥٦ ـ ١٨٦٢) ، وفي كتاب **الصلوات** الذي ألفه (وكان يُعَدُّ كتاباً جديداً تماماً لا علاقة له بكتب الصلوات المعروفة) .

هاجم أينهورن مؤسسة العبودية في الولايات المتحدة ودعاة الحفاظ عليها ، فاضطر إلى الفرار عام ١٨٦١ من بلتيمور ، ومنها إلى نيويورك حيث أصبح حاخام معبد بيت إيل الشهير . وقد كان له تأثير واضح على مقررات مؤتمر فيلادلفيا الحاخامي عام ١٨٦٩ ، كما أن أفكاره تركت أثراً عميقاً في اليهودية الإصلاحية من خلال زوج ابنته كاوفمان كولر ، واضع مقررات مؤتمر بتسبرج . كما أن كتاب الصلوات الذي وضعه ترك أثراً واضحاً في كتاب الصلوات الذي تبنته الحركة الإصلاحية في الولايات المتحدة .

ابراهام جايجر (١٨١٠-١٨٧٤)

Abraham Geiger

عالم يهودي ألماني ، تَزعَّم الحركة اليهودية الإصلاحية في ألمانيا . حاول أن يدخل على اليهودية مفاهيم معاصرة أقل قَبَلية وأكثر عالمية من المفاهيم السائدة في عصره ، ودعا إلى عقد أول مؤتمر للحاخامات الإصلاحيين عام ١٨٣٧ ، وأسس في برلين مدرسة لدراسة علم اليهودية ، واستمر في التدريس فيها حتى وفاته .

وقد ذهب جايجر إلى أن اليهودية دين له رسالة عالمية شاملة

وليست مقصورة على شعب من الشعوب . ولذلك ، فقد ركز هجومه على فكرة الختان ، وقوانين الطعام ، وعلى عقيدة الشعب المختار ، وعلى تصوُّر أن اليهود يكوِّنون شعباً عالمياً ، وعلى استخدام العبرية في المعبد اليهودي . كما هاجم كل المفاهيم ذات النزعة الدينية الخصوصية . ومع هذا ، كان جايجر يحاول قدر استطاعته ، على عكس هولدهايم ، أن تكون التغييرات إصلاحية وليست ثورية ، وأن تكون لها سوابق تاريخية ، وأن تكون ذات جذور في التراث (ومن هنا كان اهتمامه بالدراسة التاريخية النقدية اليهودية) . وتظهر روحه الإصلاحية في كتاب الصلوات الذي نشره عام ١٨٥٤ حيث اختفت كل الإشارات إلى العودة لأرض الميعاد وفكرة الاختيار . ومن أهم أعماله ، بعض الدراسات التاريخية الخاصة بتطور اليهودية والعهد القديم وترجماته ، كما كتب دراسة في أعمال موسى بن ميمون ويهودا اللاوي .

إسحق ماير وايز (١٨١٩-١٩٠٠)

Isaac Mayer Wise

زعيم اليهودية الإصلاحية في الولايات المتحدة ، وأهم مؤسسيها . وُلد في بوهيميا بتشيكوسلوفاكيا ، وتأثر بأفكار حركة الاستنارة الفرنسية . هاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٨٤٦ ، وعند وصوله أصبح حاخاماً في مدينة أولباني في ولاية نيويورك حيث أدخل كثيراً من الإصلاحات على الصلاة اليهودية ، مثل السماح بالاختلاط بين الجنسين ، كما أدخل أغاني الجوقة . ثم قبل وايز منصب حاخام في سنسناتي في ولاية أوهايو الأمريكية عام ١٨٥٤ وبقي فيها بقية حياته . وبعد وصوله مباشرة ، بدأ في نشر مجلة **الإسرائيلي** التي عُرفت فيما بعد باسم **الإسرائيلي الأمريكي** ، وكانت تُصدر ملحقاً بالألمانية .

وفي عام ١٨٥٥ ، نجح في عقد مؤتمر لزعماء اليهودية الأمريكية ، ومن بينهم الأرثوذكس ، بهدف إقامة سلطة دينية ، أو مجلس ديني موحَّد . ولكن المحاولة فشلت لأن الأرثوذكس لم يثقوا في نواياه ، أما الإصلاحيون فهاجموه بسبب عدم وضوحه . وقد حاول وايز مرة أخرى أن يحتفظ بالوحدة في صفوف يهود أمريكا فنشر عام ١٨٥٦ كتاب صلاة بعنوان **منهاج أمريكي** ، ولكنه رُفض أيضاً من الطرفين . وأثناء الحرب الأهلية ، أخذ وايز موقفاً مماثلاً لدعاة الحفاظ على مؤسسة العبودية . وقد ساهم في إقامة مؤسسات اليهودية الإصلاحية ، وخصوصاً كلية الاتحاد العبري (١٨٧٥) التي عُيِّن رئيساً لها حتى وفاته .

ومع هذا ، يبدو أن جذور اليهودية الإصلاحية في أمريكا تعود إلى عدوه أينهورن ، فمقررات مؤتمر بتسبرج كانت من صُنع كاوفمان كولر زوج ابنة أينهورن ، كما أن كتاب الصلوات الإصلاحي يستند إلى كتاب الصلوات الذي وضعه أينهورن لا إلى كتاب وايز .

صموئيل هيرش (١٨١٥-١٨٨٩)

Samuel Hirsch

حاخام ومؤلف ألماني يهودي ، وأحد أعلام حركة اليهودية الإصلاحية . تلقَّى تعليمه في ألمانيا حيث عمل فيها حاخاماً عام ١٨٤١ ، ولكنه اضطر إلى الاستقالة بعد عامين بسبب أفكاره الإصلاحية المتطرفة . وقد عينه ملك هولندا حاخاماً أكبر لدوقية لوكسمبورج ، فاستمر في عمله لمدة عشرين عاماً (وقد انتهز هيرش هذه الفرصة وكتب عدة دراسات علمية واشترك في عديد من المؤتمرات الحاخامية حيث دافع عن الإصلاح الديني) . وفي عام ١٨٨٦ ، انتقل هيرش إلى الولايات المتحدة ليعمل حاخاماً لأبرشية اليهود الإصلاحيين في فلادلفيا وترأس المؤتمر الحاخامي الذي عُقد في هذه المدينة عام ١٨٦٩ ، والذي وضع مبادئ اليهودية الإصلاحية . كما أسس أول فرع لجماعة الأليانس في الولايات المتحدة . وكتابه **فلسفة دين اليهود** (حسبما جاء في **الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية**) يظهر فيه بشكل ظاهر منهج هيجل وغايته من التفلسف حيث يقول إن قوام فلسفة الدين تحويل الوعي الديني إلى حقيقة فلسفية . لكن هيرش يختلف مع هيجل في تقديمه للحقيقة الدينية حيث يجعلها صنواً للحقيقة الفلسفية .

ويرى هيرش أن الإنسان لا يعي نفسه كذات إلا عندما يعي حريته ، وتظل هذه الحرية تصوراً لا يتحقق إلا في حالة الإيمان بالإله من خلال ديانة منزلة . فإذا عَقَد لواء السيادة لطبيعته وحواسه على تفكيره وقلبه ، فإنه يفقد حريته ويجعلها لاحقة وخاضعة لطبيعته . وهذا ما حدث في الديانات الوثنية التي جعلت الطبيعة المطلقة مبدأ ، بعكس الديانات المنزلة التي أضفت كرامة على الإنسان وجعلته مسئولاً ومن ثم حراً ، وليس الإله فيها إلا واهب ومريد هذه الحرية ، فهو يريد للإنسان أن يكون حراً لأنه يريده أن يكون مسئولاً . وكلما نزَّهت الديانة الإله ، جعلت صورته أكثر كمالاً باعتباره واهب هذه الحرية وباعتباره مريداً لها . ولذلك ، كانت المسيحية ، حسب رأي هيرش ، ديانة متوسطة بين اليهودية والوثنية لأن المسيحية والوثنية لا تجعلان الإله مبدأ للحرية (وإن كانت المسيحية تقول ذلك بدرجة أقل من الوثنية) . وقد كانت المسيحية في بداية ظهور المسيح نسخة من

اليهودية ، أو كانت اليهودية نفسها . ولكن تعاليم بولس الرسول ، وما أدخله من أفكار غريبة على هذه الديانة ، هي التي باعدت بين الديانتين ، ومن ثم فلو استُبعد ما أقحمه بولس الرسول على المسيحية لعادت المسيحية ديانة توحيدية ورافداً من روافد اليهودية . وليس أدلُّ على صدق اليهودية من استمرار شعبها في الوجود حتى الآن ، فاستمرار هذا الشعب معجزة إلهية . وقد كان الإله يُظهر نفسه لشعبه من خلال أنبيائه ومعجزاته بهم ولهم ، وهو الآن يُظهر نفسه من خلال معجزة واحدة هي مشيئته التي تحققت بأن جعل الشعب اليهودي يستمر رغم كل شيء . ورغم أن هيرش أحد دعاة الإصلاح الديني والاندماج ، إلا أن مقولاته التحليلية الأساسية (تفوُّق النسق الديني اليهودي - استمرار الشعب اليهودي كمعجزة إلهية) مقولات صهيونية تماماً بل إنها مقولات حلولية أبعد ما تكون عن التوحيد . ولعل هذه المقولات الكامنة هي التي تفسر صهينة اليهودية الإصلاحية نفسها فيما بعد حتى أصبح لها ممثلون في الحركة الصهيونية وإسرائيل .

كوفمان كولر (١٨٤٣-١٩٢٦)

Kaufmann Kohler

أحد زعماء اليهودية الإصلاحية . وُلد وتلقَّى دراسته في ألمانيا، ثم استقر في الولايات المتحدة عام ١٨٦٩ . وعمل حاخاماً للجماعة الإصلاحية في شيكاغو ونيويورك إلى أن عُيِّن رئيساً لكلية الاتحاد العبري عام ١٩٠٣ ، وظل في هذا المنصب ثمانية عشر عاماً . وكان كولر الشخصية الأساسية في مؤتمر بتسبرج الإصلاحي حيث تم تبنِّي قراراته الإصلاحية الشهيرة . كان كولر كاتباً كثير الإنتاج في حقلي الفلسفة واللاهوت ، وكان معارضاً قوياً للصهيونية . وقد أسهم في تطور اليهودية الإصلاحية في الولايات المتحدة ، وكان يُعَد العالم الإصلاحي الأساسي . اشترك في تحرير الترجمة اليهودية الأمريكية للعهد القديم ، وفي **الموسوعة اليهودية** (القديمة التي صدرت في أوائل هذا القرن) . وله دراسة منهجية تاريخية للاهوت اليهودي تُعَدُّ من أهم أعماله .

كلود مونتفيوري (١٨٥٨-١٩٣٨)

Claude Montefiore

عالم دين يهودي وحفيد السير مونتفيوري وإسحق ليون جولد سميد . تلقى تعليمه في أكسفورد (حيث تأثر بتعاليم المفكر الليبرالي المسيحي بنيامين جوديت) ، ثم في مدرسة علم اليهودية في برلين ، حتى يصبح حاخاماً إصلاحياً . إلا أنه وجد نفسه غير متعاطف مع اليهودية الإصلاحية ، فلم يتقبل المنصب وتعرَّف إلى إسرائيل إبرامز وسولومون شختر وأسس مع الأول **جويش كوارترلي ريفيو** عام ١٨٨٨ . وقد ألقى مجموعة محاضرات عن عقيدة العبرانيين القدامى ، ونُشرت هذه المحاضرات في العام نفسه تحت عنوان **محاضرات عن أصل الدين وتطوره كما تتبدَّى في عقيدة إسرائيل القديمة** .

ويُعتبَر مونتفيوري مؤسس اليهودية الليبرالية (وهي الصياغة المتطرفة لليهودية الإصلاحية) ، وأسَّس مع ليلي مونتاجو الاتحاد الديني اليهودي (١٩٠٢) الذي تطوَّر ليصبح الاتحاد الليبرالي اليهودي . وكان مونتفيوري رئيس المعبد اليهودي الليبرالي في لندن (١٩١١) ، وانتُخب رئيساً للاتحاد الدولي لليهودية التقدمية (١٩٢٦) . وظل في هذا المنصب حتى وفاته . كما أسَّس مونتفيوري مع العَالم الكاثوليكي البارون فون هيوجل جماعة لندن لدراسة الدين ، وهي جماعة من العلماء كانوا يجتمعون بشكل دوري لمناقشة أبحاثهم في الدين . وقد توجَّه مونتفيوري للقضايا التي يثيرها نقد العهد القديم ، فذهب إلى أن الدراسات الحديثة أثبتت بما لا يقبل الشك أن أسفار موسى الخمسة لا تعود إلى أيام موسى أي أنها ليست موحى بها ، ولكن هذا لا يعني التخلي عن الشريعة وعن فكرة القانون لأن الإنسان يكتشف القانون داخله ، والوحي يكشف له ما بداخله ، أي أن الفرد يصبح المرجعية والمنطلق . وبالفعل نجد أن اليهودية الليبرالية تحاول تكييف العقيدة اليهودية وتطويعها لتناسب احتياجات اليهودي النفسية والأخلاقية . ولذا حاول مونتفيوري أن يطوِّر اليهودية حتى تظهر "يهودية جديدة تتخلص من عقائد الماضي ، ومع هذا تتمسك بالأخلاق النبيلة" . وكان مونتفيوري يرى أن اليهودية الليبرالية تهدف إلى الوصول إلى العالمية وإلى أن تقلل من أهمية العناصر العرْقية والقومية في اليهودية . ويَصدُر مونتفيوري عن إيمان بالإله الواحد ، ويرى أن المفهوم اليهودي للإله وعلاقته بالإنسان وعلاقة الدين بالأخلاق قريب للغاية من المفهوم المسيحي ، قريب ولكنه ليس مترادفاً معه . ويتحدد تميُّز اليهودية في أن الإله كامن في الطبيعة والتاريخ ومنزه عنهما في آن واحد . ومع هذا كان مونتفيوري يميل كثيراً إلى العقيدة المسيحية . وكانت دراساته في مجملها تهدف إلى تعميق فهم المسيحيين للتراث اليهودي وتعميق فهم اليهود لتعاليم المسيح . بل يبدو أنه كان يتطلع إلى اليوم الذي تظهر فيه عقيدة جديدة تضم الجوانب الإيجابية في كل من المسيحية واليهودية والديانات الأخرى . بل إن مونتفيوري كان يرى أن ثمة

جوانب إيجابية في الأخلاقيات المسيحية غير موجودة في الأخلاقيات اليهودية وأن ثمة عنصراً صوفياً يوجد في الأناجيل لا يوجد في العهد القديم . وقد كان المسيح معلماً عظيماً ولكنه لم يكن مقدَّساً . ولذا ، عارض مونتفيوري أية محاولة لوضع العهد الجديد على قدم المساواة مع العهد القديم أو قراءة أجزاء من العهد الجديد في الصلوات اليهودية . وقد هاجمه أحاد هعام بعنف بسبب أفكاره هذه، لأن الأخلاقيات اليهودية التي تَصدُر عن العدل (في رأي أحاد هعام) تتناقض تماماً مع الأخلاقيات المسيحية المبنية على المحبة ، ومن المستحيل أن يعتنق الشخص الواحد الرأيين ويؤمن بالنسقين .

أما فيما يتصل بموقفه من الصهيونية ، فإن كلود مونتفيوري يذهب إلى أن اليهودية هي أساساً انتماء ديني وليست انتماءً قومياً سياسياً . فالدين ، في تصوّره ، أمر في غاية الخطورة والأهمية ، حيث إنه يملأ حياة المشتغلين به فلا يترك لهم أي وقت للاشتغال بأي شيء آخر ، سياسياً كان أو قومياً ، وبذا أصبح اليهود "مملكة من الكهنة" . وهذا الاصطلاح الأخير له معنى روحي ديني وحسب ، فلو لم يكن الأمر كذلك لأصبح الاصطلاح متناقضاً لأقصى حد . وعلاوة على هذا ، يرى مونتفيوري أن رؤية اليهودية العالمية الشاملة جعلت من الصعب عليها أن تظل عقيدة قومية يحتكرها عنصرٌ أو جنسٌ لنفسه ، ولذا فقدت الأمة التي تؤمن بها هويتها كأمة (بالمعنى السياسي) وتحولت إلى جماعة دينية . وقد دعَّم هذا الاتجاه إيمان اليهود بأن الإله واحد وأنه رب للعالمين لا يتحيز لشعب على حساب الآخر . لكل هذا ، عارض مونتفيوري بشدة كلاً من الصهيونية ووعد بلفور . ولمونتفيوري مؤلفات عدة من أهمها **الخطوط الأساسية لليهودية الليبرالية** (١٩٢٠) ، و **العهد القديم وما بعده** (١٩٢٣) ، و **مختارات حاخامية** (١٩٣٨) .

إيوجين بوروويتز (١٩٢٤-)

Eugene Borowitz

حاخام ومفكر ديني إصلاحي . وُلد في نيويورك ، وكان ابناً لموظف في أحد مصانع الملابس . درس في جامعة أوهايو وكلية الاتحاد العبري ، وحصل على الدكتوراه في التربية من جامعة كولومبيا .

عمل بوروويتز حاخاماً في عدد من المدن الأمريكية من بينها نيويورك ، كما عمل حاخاماً في البحرية الأمريكية . من أهم مؤلفاته **لاهوت يهودي جديد يُولَد** (١٩٦٨) حيث يلخص المواقف اللاهوتية اليهودية الأساسية في العصر الحديث . أما كتابه **القناع الذي يلبسه اليهود** (١٩٧٣) ، فهو يتناول ما يتصور بوروويتز أنه الأقنعة التي يرتديها يهود أمريكا . ويتناول الكتاب قضايا ، مثل : الاندماج ، وكُره اليهودي لنفسه ، ومفهوم الشعب اليهودي ، وعلاقة يهود الولايات المتحدة بالتقاليد الدينية اليهودية . ويتكون كتابه **اليهودية الإصلاحية اليوم** (١٩٧٨) من ثلاثة أجزاء ، وهو يتناول الأفكار والممارسات الأساسية لليهودية الإصلاحية ، ويؤيد بوروويتز في هذا الكتاب الاتجاه المتصاعد في صفوف اليهودية الإصلاحية نحو تبنّي الصهيونية والعودة إلى ممارسة بعض الشعائر اليهودية باعتبارها سبيلاً لتقوية الهوية . ويقوم بوروويتز بتحرير مجلة **شماع** التي تعبِّر عن أفكار اليهودية الإصلاحية .

ويتزع بوروويتز نزوعاً حلولياً متطرفاً (داخل إطار الحلولية بدون إله) . فهو يرى أن ثمة توحداً ما بين الإله والمدونة الصهيونية . ومن هنا ، فقد صرح بأن حرب عام ١٩٦٧ كانت حرباً لا تتهدد الدولة الصهيونية وحسب وإنما كانت تتهدد الإله نفسه .

الكسندر شندلر (١٩٢٥-)

Alexander Schindler

زعيم اليهودية الإصلاحية في الولايات المتحدة . وُلد في ميونخ ، وهاجر من ألمانيا عام ١٩٣٢ إلى الولايات المتحدة . خدم مع القوات الأمريكية في أوربا أثناء الحرب العالمية الثانية ، واستمر في دراسته الجامعية بعدها ، ثم درس في كلية الاتحاد العبري ورُسِّم حاخاماً عام ١٩٥٣ . وقد عُيِّن حاخاماً لمعبد إيمانويل في نيويورك ، وشغل عدة مناصب قيادية في المؤسسات اليهودية والصهيونية . ويحاول شندلر أن يسترجع لليهودية الإصلاحية بعض الشعائر ، وشيئاً من الحس الديني الذي استبعده مؤسسو الحركة بتأثير الفلسفة العقلانية .

أُنتخب شندلر رئيساً لمؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الأمريكية الكبرى عام ١٩٧٦ . وهو بهذا ، يُعتبَر أول يهودي إصلاحي يشغل هذا المنصب . وقد بقي شندلر في هذا المنصب حتى عام ١٩٧٨ . وإبان فترة رئاسته ، تعاون مع بيجين وقدم له المشورة أثناء مباحثات كامب ديفيد . وموقف شندلر هو موقف الصهاينة الذين يؤيدون إسرائيل التوطينيين ، ويضغطون من أجلها ، ولا يهاجرون إليها قط . وهو موقف يتسم أيضاً بالتأييد الكامل للدولة الصهيونية ، ورفض النقد العلني لها . ومع هذا ، فإن الصهاينة التوطينيين يتوقعون من إسرائيل باستمرار أن تسلُك سلوكاً لا يسبب لهم حرجاً في أوطانهم . ولذا ، فحينما اتضح دور إسرائيل في مذابح صابرا

وشاتيلا ، حاول شندلر أن يعبِّر عن القلق المتزايد بين يهود أمريكا بسبب سلوكها . ولكن بيجين أخبره بأن اليهودي الحق يؤيد إسرائيل دون أي تردُّد أو تساؤل ، فيتخذ منها موقف المؤمن . ولعل هذا ما جعل شندلر يصرح بأن اليهود الأمريكيين « أصبحوا ، إلى حدٍّ كبير ، جماعة تسيطر عليها قضية واحدة هي إسرائيل ، والدولة أصبحت معبدهم ، ورئيس وزرائها حاخامهم ، وأصبحت القضايا الداخلية والدولية تقاس بمقياس مدى نفعها أو ضررها لإسرائيل » . وقد انضم شندلر إلى حلقة دراسية تضم الحاخام جرشون كوهين (زعيم اليهودية المحافظة) وترى أن يهود أمريكا ككل يمكنهم الاحتفاظ باهتمامهم بإسرائيل ، وأن يصوغوا في الوقت نفسه مصيرهم المستقل دون أن يتقبلوا بالضرورة مفهوم مركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا (الجماعات اليهودية خارج إسرائيل) . وبعد الانتفاضة ، تَشجَّع شندلر وعبَّر عن حرج يهود الولايات المتحدة الشديد إزاء سلوك إسرائيل ، وطالبها بالتفاهم مع الفلسطينيين .

اليهودية الإصلاحية والصهيونية

Reform Judaism and Zionism

كان من المنطقي أن تعادي اليهودية الإصلاحية (بنزعتها الاندماجية) الحركة الصهيونية (في نزعتها القومية المشيحانية ، وفي تمجيدها للجيتو والتلمود ، وفي حفاظها على النطاق الضيق للحلولية اليهودية التقليدية) . وقد عَقَد الإصلاحيون عدداً من المؤتمرات للتعبير عن رفضهم للصهيونية . كما أنهم رفضوا وعد بلفور وكل المحاولات السياسية التي تنطلق من فكرة الشعب اليهودي أو التي كانت تخاطب اليهود كما لو كانوا كتلة بشرية متجانسة لها مصالح مستقلة عن مصلحة الوطن الذي ينتمون إليه .

وقد ظلت هذه العداوة قائمة زمناً طويلاً في الولايات المتحدة . ولكن اليهود في الغرب جزء لا يتجزأ من المصالح الاقتصادية والسياسية لبلادهم ، ومن محيطها التاريخي والحضاري ، وهذه البلاد في مجموعها تشجع المشروع الصهيوني . ولذا ، لم يكن من الممكن أن تستمر الفكرة أو العقيدة الإصلاحية في مقاومة الواقع الإمبريالي الغربي المسانِد للصهيونية . وعلى كلٍّ ، فإن اليهودية الإصلاحية جعلت روح العصر النقطة المرجعية والركيزة النهائية ، والإمبريالية جزء أساسي من روح العصر في الغرب . ولكل هذا ، نجد أن اليهودية الإصلاحية تخلت بالتدريج عن رؤيتها الليبرالية ، وأخذت في تعديل رؤيتها بشكل يتواءم مع الرؤية الصهيونية . وبالفعل ، بدأ الإصلاحيون في العودة إلى فكرة القومية اليهودية الصهيونية ، وإلى فكرة الأرض المقدَّسة ، فجاء في قرار مؤتمر كولومبوس عام ١٩٣٧ أن فلسطين « أرض مقدَّسة بذكرياتنا وآمالنا » إلا أن مصدر قداستها ليس العهد بين الشعب والإله ، وإنما الشعب اليهودي نفسه (وفي هذا اقتراب كبير من اليهودية المحافظة) . وقد حاول الإصلاحيون تبرير هذا التحول بالعودة إلى التراث اليهودي فبيَّنوا أن الأنبياء كانوا يؤيدون الاتجاه القومي الديني دون أن يتخلوا عن الدفاع عن الأخلاقيات الإنسانية العالمية ، ودون أن يجدوا أيَّ تناقض بين الموقفين ، أي أن الإصلاحيين تقبَّلوا الموقفين : الانعزالي والعالمي دون تساؤل ، وهم في هذا يقتربون من الصهيونية الثقافية ، ومن صهيونية الجماعات اليهودية (أي الصهيونية التوطينية) في استخدامها مقياسين مختلفين : أحدهما يجعل اليهودية قومية بالنسبة للمستوطنين الصهاينة والإسرائيليين ، والآخر يجعلها ديناً وتراثاً روحياً بالنسبة للمنفيين الذين لا يريدون مغادرة المنفى بسبب سعادتهم البالغة به !

وقد تزايد النفوذ الصهيوني داخل معسكر اليهودية الإصلاحية إلى درجة أن الاتحاد العالمي لليهودية التقدمية (أي الإصلاحية) عقد مؤتمره السنوي الخامس عشر في مدينة القدس للمرة الأولى عام ١٩٦٨ ، وذلك عقب عدوان ١٩٦٧ وفي غمرة الحماس القومي الذي اكتسح يهود العالم نتيجة للانتصار الإسرائيلي . وقد تزايدت أيضاً العناصر القومية في الشعائر الإصلاحية (حيث تُتلى الآن بعض الصلوات بالعبرية) ، كما أن الإصلاحيين ينفخون في البوق (شوفار) في المعبد في عيد رأس السنة وأدخلوا بعض العناصر التراثية على الصلوات الأخرى . وبدأت اليهودية الإصلاحية ، ابتداءً من منتصف السبعينيات ، تساهم بشكل واضح في الحركة الصهيونية ، حيث أصبحت ممثلةً فيها من خلال جمعية أراز (جمعية الصهاينة الإصلاحيين في أمريكا) . وقد انضم الاتحاد العالمي لليهودية التقدمية إلى المنظمة الصهيونية العالمية عام ١٩٧٦ . وانضمت أرتسينو (الرابطة الدولية للصهاينة الإصلاحيين) باعتبارها حزباً صهيونياً إلى المنظمة . فأصبح لليهودية الإصلاحية كيبونات ومؤسسات تربوية في إسرائيل وتنظيمات لجمع الأموال لها . وفي عام ١٩٧٦ ، عُقد آخر المؤتمرات الإصلاحية التي أعادت صياغة العقيدة اليهودية في سان فرانسيسكو ، ويُلاحَظ في قراراته أنها تحث على استمرار الاتجاه نحو تعميق البُعد القومي . فالحقيقة الأساسية في حياة اليهود ، حسب قرارات المؤتمر ، هي الإبادة النازية ، الأمر الذي يدل على الاتجاه نحو تَقبُّل لاهوت موت الإله ولاهوت ما بعد أوشفيتس . وقد بدأت اليهودية الإصلاحية تتجه نحو محاولة

الالتزام ببعض الشعائر اليهودية بقدر الإمكان . ومع هذا أُعيد تعريف اليهودي بحيث يصبح "من وُلد لأب يهودي أو أم يهودية" ، وأُبيح الزواج المُختلَط شرط أن يكون الأبناء يهوداً . وقد أُدخلت كل هذه التعديلات بسبب الرغبة في البقاء (أي التزاماً بلاهوت البقاء) .

وقد صدر ، في عام ١٩٧٥ ، كتاب إصلاحي جديد للصلوات يُسمَّى **بوابات الصلاة** ، وهو كتاب تتبدَّى فيه الاتجاهات الصهيونية السابقة وقد صدر ليحل محل الكتاب الذي صدر في عام ١٩٤١ .

وفي عام ١٩٨٨ أصدرت أرتسينو بياناً يحدد موقفها من الصهيونية فأكدت أهمية إسرائيل بالنسبة ليهود العالم ولكنها أكدت أيضاً التعددية في حياة اليهود ، وهي تعددية لا تستبعد العلمانية ، ولذا فهي تؤيد كلاً من الدياسبورا والهجرة الاستيطانية ، وطالب البيان حكومة إسرائيل بأن تبتعد عن القمع الديني والعنف السياسي ، ودافع عن حقوق العرب ودعا إلى حل سلمي للصراع العربي الإسرائيلي ، مبني على الضمانات والتنازلات المتبادلة .

وقد أُسِّست أولى الأبرشيات الإصلاحية في فلسطين عام ١٩٣٦ في حيفا وتل أبيب والقدس . وفي عام ١٩٣٩ ، أُسِّست مدرسة ليو بابك في حيفا ، وهي أول مدرسة دينية غير أرثوذكسية في فلسطين (إسرائيل) . ويُعَدُّ معبد ها إيل الذي أُسِّس عام ١٩٥٨ أقدم المعابد الإصلاحية (التقدمية) في إسرائيل . وفي عام ١٩٦٣ أسست كلية الاتحاد العبري فرعاً لها في القدس . وقد تم توسيعها عام ١٩٨٧ ، ثم أصبحت المقر الرئيسي للاتحاد العالمي لليهودية التقدمية ، ويوجد قسم بالكلية لإعداد الإسرائيليين ليصبحوا حاخامات إصلاحيين ، وقد تم ترسيم أول حاخام إصلاحي متخرج في المدرسة عام ١٩٨٠ ، وبلغ عددهم ٢٠ عام ١٩٩٦ . وكل حاخامات إسرائيل الإصلاحيين (التقدميين) أعضاء في مجلس الحاخامات التقدميين . ولا يقبل حاخامات إسرائيل الإصلاحيون تعريف اليهودي الذي يقبله حاخامات الولايات المتحدة الإصلاحيون . ويوجد فرع لكلية الاتحاد العبرية في إسرائيل ، وقد انتقل المقر الرئيسي للاتحاد العالمي لليهودية التقدمية إلى القدس عام ١٩٧٢ وفي عام ١٩٨٠ ، تم تأسيس حركة الشباب الدولية الإصلاحية الصهيونية في القدس وتتبعها عشرة فروع . ويتبع الفرع الإسرائيلي حركة الكشافة الإسرائيلية . ولا يزيد عدد اليهود الإصلاحيين في إسرائيل عن عشرين ألف .

ولا تعترف المؤسسة الدينية الأرثوذكسية في إسرائيل باليهودية الإصلاحية ، ولا بحاخاماتها ، ولا بالزيجات التي يعقدونها ، ولا بمراسم التهود التي يقومون بها ، فهم يجعلونها سهلة يسيرة على عكس طقوس التهود الأرثوذكسية . وتثار هذه القضية من آونة إلى أخرى ، حينما يطرح قانون العودة للنقاش ، فهو القانون الذي يتضمن محاولة تعريف الهوية اليهودية إذ تحاول المؤسسة الأرثوذكسية أن تضيف تعديلاً يستبعد اليهود الذين تهودوا على يد الحاخامات الإصلاحيين . ويدعو زعماء اليهودية الإصلاحية إلى أن تكون المساعدات التي تُخصَّص للمؤسسات الإصلاحية في إسرائيل متناسبة مع حجم تبرعات اليهود الإصلاحيين ، إذ أن معظم التبرعات يدفعها يهود غير أرثوذكس ، ومع هذا يصب معظمها في المؤسسات الأرثوذكسية . وقد بدأ بعض زعماء اليهودية الإصلاحية ، مثل ألكسندر شندلر ، في محاولة الاحتفاظ بمسافة بينهم وبين الدولة الصهيونية ، وخصوصاً بعد حادثة بولارد وبعد الانتفاضة . وهم يؤكدون مركزية الدياسبورا (الجماعات اليهودية خارج فلسطين) مقابل مركزية إسرائيل ، كما يحاولون تغليب الجانب الديني على الجانب القومي .



٦
اليهودية الأرثوذكسية

اليهودية الأرثوذكسية : تاريخ - اليهودية الأرثوذكسية : الفكر الديني - الأرثوذكسية الجديدة - حريديم - اتحاد الحاخامات الأرثوذكس في أمريكا وكندا - المجلس الحاخامي في أمريكا - اتحاد الأبراشيات اليهودية الأرثوذكسية في أمريكا - هيرش - هيلدشايمر - ريفيل - سولوفايتشيك - اليهودية الأرثوذكسية والصهيونية

اليهودية الأرثوذكسية : تاريخ

Orthodox Judaism: History

«اليهودية الأرثوذكسية» ويشار إليها باعتبارها «الأصولية اليهودية» حينما تطبق داخل الدولة الصهيونية واليهودية الأرثوذكسية فرقة دينية يهودية حديثة ظهرت في أوائل القرن التاسع عشر، وجاءت كرد فعل للتيارات التنويرية والإصلاحية بين اليهود. وتُعتبر الأرثوذكسية الامتداد الحديث لليهودية الحاخامية التلمودية. ومصطلح «أرثوذكس» مصطلح مسيحي يعني «الاعتقاد الصحيح». وقد استُخدم لأول مرة في إحدى المجلات الألمانية عام ١٧٩٥، للإشارة إلى اليهود المتمسكين بالشريعة. وقد تزعَّم الحركة اليهودية الحاخام سمسون هيرش.

وثمة اختلاف بين الأرثوذكس في شرق أوربا، والأرثوذكس في ألمانيا وغرب أوربا، إذ يعارض الفريق الأول كل البدع والتجديدات، سواء في الزي أو في النظام التعليمي، في حين تَبنَّى الفريق الثاني سياسة الحفاظ على نمط الحياة التقليدية، ولكنه يقبل مع هذا الزي الحديث والتعليم العلماني العام، ولذا يُشار إليهم بـ «الأرثوذكس الجدد». ويُعَدُّ الحسيديون من اليهود الأرثوذكس المتطرفين، كما أن فكرهم يعبِّر عن الحلولية اليهودية بشكل متبلور.

وقد هاجرت اليهودية الأرثوذكسية مع المهاجرين من يهود اليديشية من شرق أوربا (من شتتلات روسيا وبولندا) الذين كانوا لا يتحدثون إلا اليديشية، والذين لم يكونوا قد تعرفوا إلى أفكار حركة التنوير والاستنارة.

وحينما حضر هؤلاء إلى أمريكا، وجدوا أن اليهودية السائدة فيها هي اليهودية الإصلاحية نتاج حركة الاستنارة، والتي يسيطر عليها العنصر الألماني المندمج الثري الذي كان يكن الاحتقار ليهود اليديشية. فأسس الأرثوذكس اتحاد الأبرشيات في أمريكا عام ١٨٩٨، وأهم مؤسساتها العلمية جامعة يشيفاه. وقد كانت تتبع الحركة الأرثوذكسية شبكة كبيرة من المدارس، إذ أن اليهودية الأرثوذكسية تولي اهتماماً خاصاً للتعليم يفوق اهتمام الفرق الأخرى.

وتوجد اختلافات داخل الحركة الأرثوذكسية، فهناك اتحاد للحاخامات المغالين في الحفاظ على التقاليد، وهو اتحاد الحاخامات الأرثوذكس في أمريكا وكندا (١٩٠٢). أما الحاخامات الذين درسوا في أمريكا، فقد أسسوا مجلس أمريكا الحاخامي عام ١٩٢٣. ويحتفظ الحسيديون بقسط كبير من الاستقلال بعد أن أصبحوا من أهم أجنحة الأرثوذكسية، بعد الحرب العالمية الثانية. وهناك أيضاً اتحاد الأبرشيات الأرثوذكسية في أمريكا، ويضم كل المعابد الأرثوذكسية.

ورغم التماسك العقائدي والعائلي للأرثوذكس، ورغم عزلة أعداد كبيرة منهم داخل جيتواتهم الاختيارية، فإنهم يواجهون كثيراً من المشاكل التي يواجهها أعضاء المجتمع الاستهلاكي من انصراف عن القيم الأخلاقية وانتشار ما يُسمَّى الجنس العرضي أو السريع، أي الذي لا يستند إلى حب، ولا ينبع من علاقة دائمة ولا يتبدَّى في شكل علاقة إنسانية تتسم بشيء من الاستمرار والثبات، فضلاً عن تعاطي المخدرات وزيادة نسبة الأطفال غير الشرعيين.

ويُلاحَظ أن عدد اليهود الأرثوذكس في الولايات المتحدة ضئيل للغاية، إذ لا يزيد على ٩٪ من يهود أمريكا (مقابل ٦٥٪ إصلاحيون ومحافظون وتجديديون، و٢٦٪ لا علاقة لهم بأية فرقة يهودية) حسب ما جاء في **الكتاب اليهودي الأمريكي السنوي** لعام ١٩٩٢. ومع هذا أوردت إحدى المراجع غير اليهودية أن عددهم هو مليون، وهو رقم مُبالَغ فيه. ويبلغ عدد الأبراشيات اليهودية الأرثوذكسية ١٢٠٠ أبراشية.

والأرثوذكس لا يؤمنون بالتبشير بين الأغيار. ولكن عددهم، مع هذا، لا يتناقص (على خلاف الإصلاحيين والمحافظين) بسبب خصوبتهم المرتفعة، وبسبب انخفاض معدلات الزواج المُختلَط بينهم وإقبالهم على الزواج في سن مبكرة.

اليهودية الأرثوذكسية : الفكر الديني
Orthodox Judaism :Religious Thought

ينطلق هيرش والأرثوذكس من نقطة ثبات ميتافيزيقية تقع خارج نطاق الطبيعة ، وهي أن الإله أوحى إلى موسى التوراة فوق جبل سيناء ، وتمثل هذه النقطة بالنسبة إليهم حقيقة لا يمكن مناقشتها أو الجدال فيها ، وهي مسألة ثابتة ذات معنى عميق وثابت يلغي أي معنى آخر يختلف عنها ، فهي ركيزة النسق الأساسية ومرجعيته المتجاوزة .

والتوراة ، حسب تصوُّر الأرثوذكس ، كلام الإله كتبها حرفاً حرفاً وأوحى بها إلى موسى ، وهذه حقيقة يؤمن بها المؤمن إيمانه بأن الله خلق العالم من العدم ، والمؤمن لا يعرف كيف خلق الله العالم ولا كيف كتب التوراة وأوحاها ، أما كيف تم الوحي فمسألة مبهمة . وهناك في صفوف الأرثوذكس من يعطي دوراً للعنصر الذاتي في التجربة الدينية ولكنهم جميعاً يؤمنون بعقيدة الوحي الإلهي وأن التوراة منزَّلة من الإله ، ولذا فهي وحدها مصدر الشريعة ، قيمها خالدة أزلية تنطبق على كل العصور . ولولا التوراة لما تحقَّق وجود جماعة يسرائيل ، وعلى الشعب اليهودي اتباع هذا الكتاب المقدَّس إلى أن يأتي وحي جديد . وقد نادى الأرثوذكس بعدم التغيير أو التبديل أو التطوير ، لأن عقل الإنسان ضعيف لا يمكنه أن يعلو على ما أرسله الإله ، ولأن التطور سيودي حتماً باليهودية .

ولكنهم مع هذا يختلفون حول تحديد أي أجزاء من التوراة هي التي أوحي بها الإله مباشرةً . وثمة إجماع على أن أسفار موسى الخمسة مرسلة من الإله ، وبعضهم يوسع نطاق القداسة لتشمل كتباً أخرى من العهد القديم وهناك من يوسع نطاق القداسة ليشمل كل كتب الشريعة الشفوية .

وهناك من الأرثوذكس من يميل نحو تفسير التوراة تفسيراً حرفياً ، ومن يؤمن بأن التاريخ الذي ورد فيها تاريخ حقيقي بالمفهوم المادي ، ولكن هناك من يرى أن ما ورد في التوراة ليس حقائق تاريخية ، وإنما فلسفة تاريخ (ولذا نجد أن هناك من الأرثوذكس من يصر على أن عمر الأرض هو كما ورد في العهد القديم الحاخام مناحم شنيرسون) . ولكن هناك من لا يجد أية صعوبة في قبول الحقائق العلمية (الحاخام مناحم منديل كاشير) .

أما فيما يتصل بالأجزاء القانونية (التشريعية) فهناك من الأرثوذكس من يرى أنها تشريعات أزلية ثابتة ، ولكن هناك فريق يشير إلى أن التوراة الشفوية نفسها دليل على أن بعض القوانين الدينية ليس أزلياً .

ولكن الأرثوذكس لا يؤمنون بالتوراة وحدها باعتبارها مستودع الكشف الإلهي ، وإنما يؤمنون أيضاً بالتوراة (أو الشريعة) الشفوية . وبكل كتب اليهودية الحاخامية ، مثل التلمود والشولحان عاروخ بل وكتب القبَّالاه ، أو على الأقل التفسيرات القبَّالية ، وهي التفسيرات التي همَّشت النص التوراتي باعتبار أن الشريعة الشفوية تجعل الاجتهاد البشري (الحاخامي) أكثر أهمية وإلزاماً من النص الإلهي .

ويعتقد الأرثوذكس اعتقاداً حرفياً بصحة العقائد اليهودية الحلولية ، مثل : الإيمان بالعودة الشخصية للماشيَّح ، وبالعودة إلى فلسطين ، وبأن اليهود هم الشعب المختار الذي يجب أن يعيش منعزلاً عن الناس لتحقيق رسالته . وبسبب قداسة هذا الشعب ، نجد أن الأرثوذكس يعارضون أية أنشطة تبشيرية . فالاختيار هو نتيجة للحلول الإلهي ، ومن ثم فهو أمر يُتوارث . ومن هنا ، تتمسك اليهودية الأرثوذكسية بالتعريف الحاخامي لليهودي باعتبار أنه من وُلد لأم يهودية أو تهوَّد حسب الشريعة أي على يد حاخام أرثوذكسي . وتعبِّر الحلولية عن نفسها دائماً من خلال تزايُد مفرط في الشعائر التي تفصل الشعب المقدَّس عن الأغيار . واليهودية الأرثوذكسية تؤمن بأن الأوامر والنواهي مُلزمة لليهودي الذي يجب أن يعيد صياغة حياته بحيث تُجسِّد هذه الأوامر والنواهي ، وهي في إيمانها هذا لا تقبل أيَّ تمييز بين الشرائع الخاصة بالعقائد وتلك الخاصة بالشعائر . ومن هنا التزامها الكامل في التمسك بالشعائر ، فبعض الأرثوذكس يطالبون بعدم تغيير الطريقة التي يرتدي بها اليهود ملابسهم أو يقصون شعرهم . ولا تزال النساء في بعض الفرق الأرثوذكسية يحلقن شعورهن تماماً عند الزواج ويلبسن شعراً مستعاراً بدلاً منه . وهناك من يستخدمون العبرية في صلواتهم ، ولا يسمحون باختلاط الجنسين في العبادات .

ويحاول الأرثوذكس (كمجموعة دينية) الانفصال عن بقية الفرق اليهودية الأخرى حتى يمكنهم الحفاظ على جوهر اليهودية الحقيقي دون أن تشوبه شوائب . ولكن هذا الموقف يتفاوت فهناك من يبغض غير الأرثوذكس ولكن هناك من يطالب بحبهم والدفاع عنهم . ولكن ثمة نقاط التقاء كثيرة بين اليهودية الأرثوذكسية واليهودية المحافظة . فكلتاهما تضفي هالة من القداسة على حياة اليهود وتاريخهم ، وإن كانوا يختلفون في مصدر هذه القداسة ، ويعود هذا إلى أن كلتيهما تَصدُران عن الطبقة الحلولية داخل التركيب الجيولوجي اليهودي، وهي طبقة تعادل بين الإله والشعب . ومع هذا ، يمكن التمييز بين اليهودية الإصلاحية واليهودية المحافظة من جهة واليهودية الأرثوذكسية من جهة أخرى ، باعتبارهما تعبِّران

الروحية (الإله ـ الأرض ـ الشعب) بحيث نجد أن الإله يكون في المركز أحياناً وفي الهامش أحياناً أخرى ، نجد أن اليهودية الإصلاحية واليهودية المحافظة تعبِّران عن مرحلة بداية شحوب الإله ثم موته . ففي إطار اليهودية المحافظة ، نجد أن الإله قد شحب أو تلاشى تماماً وأصبح لا وجود له خارج التاريخ اليهودي ، أما اليهودية الإصلاحية فترى أن الإله قد ذاب في التاريخ الإنساني وفي فكرة التقدم . ومن هنا نجد أن الموقف مختلف من التوراة والشريعة الشفوية والشعائر . ومع شحوب الإله واختفائه ، يصبح التمسك بالشعائر أمراً لا ضرورة له على الإطلاق أو تكون له قيمة رمزية شكلية محضة .

الأرثوذكسية الجديدة

Neo-Orthodoxy

«الأرثوذكسية الجديدة» مصطلح يُطلَق على الفرق اليهودية الأرثوذكسية المعتدلة ، والتي تقبل مقولات اليهودية الأرثوذكسية الدينية والأخلاقية ، ولكنها تأخذ موقفاً وسطاً في بعض المسائل التفصيلية مثل ارتداء الأزياء الحديثة وحلاقة الذقن وقص السوالف .

حريديم

Heredim

«حريديم» أصبحت من الكلمات المألوفة في الخطاب اليومي في إسرائيل وهي عادةً تعني ببساطة «يهودي أرثوذكسي» أو «يهودي متزمت دينياً» وكثيراً ما تُستخدَم الكلمة في الصحافة الإسرائيلية والغربية بهذا المعنى . ومع هذا تشير الكلمة (بمعناها المحدد) إلى اليهود المتدينين من شرق أوربا الذين يرتدون أزياء يهود شرق أوربا (المعطف الطويل الأسود والقبعة السوداء ويضيفون له الطاليت) ويرسلون ذقونهم إلى صدورهم وتتدلى على آذانهم خصلات من الشعر المقصوص . وهم لا يتحدثون العبرية على قدر استطاعتهم (باعتبارها لغة مقدسة) ويفضلون التحدث باليديشية . وتتميَّز عائلات الحريديم بزيادة عددها لأنهم لا يمارسون تحديد النسل ، ولذا فأعدادهم تتزايد بالنسبة للعلمانيين الذين يحجمون عن الزواج والإنجاب .

اتحاد الحاخامات الأرثوذكس في أمريكا وكندا

Union of Orthodox Rabbis of U.S.A. and Canada

منظمة تضم معظم الحاخامات الأرثوذكس ، وتدافع عن قيم اليهودية الأرثوذكسية . أُسست عام ١٩٠٢ ، ومقرها الأساسي نيويورك . وهي تضم أساساً الحاخامات المغالين في التقليدية ، على عكس تنظيم المجلس الحاخامي في أمريكا .

المجلس الحاخامي في أمريكا

Rabbinical Council of America

منظمة تأسست عام ١٩٢٣ ، تضم الحاخامات الأرثوذكس الذين تلقَّوا تعليمهم في الولايات المتحدة . وبالتالي ، فإن أعضاءها يتسمون بأنهم أكثر تحرراً من أعضاء اتحاد الحاخامات الأرثوذكس في الولايات المتحدة وكندا .

اتحاد الأبرشيات اليهودية الأرثوذكسية في أمريكا

Union of Orthodox Jewish Congregations of America

هيئة تضم كل المعابد اليهودية الأرثوذكسية ، تم تأسيسها عام ١٨٩٨ . وينشر الاتحاد عدة مجلات ونشرات ، ويتبعه قسم خاص لإصدار شهادات الكاشروت ، أي الطعام المباح شرعياً ، وهي شهادات للمطاعم ومحلات الطعام المختلفة التي تتبع الشريعة .

شمسون هيرش (١٨٠٨-١٨٨٨)

Samson Hirsch

حاخام ألماني ، وقائد الحركة اليهودية الأرثوذكسية . تَلقَّى تعليماً دينياً كاملاً ودرس التلمود مع والده ، وكان من أوائل الثائرين ضد اليهودية الإصلاحية . أصبح عام ١٨٥١ حاخام الجماعة الأرثوذكسية في فرانكفورت التي عزلت نفسها عن الجماعة الإصلاحية لأنه كان يرى أنها ستؤدي إلى انحلال اليهودية ، وإلى إفراغها من محتواها ، وطرح بدلاً من ذلك شعار «التوراة والمعرفة العلمانية» .

وقد كان هيرش يرى أن اليهود شعب ، ولكن قوميتهم مختلفة عن القوميات الأخرى ، فقوميتهم دينية ، وعليهم انتظار الماشيَّح الذي سيحوِّلهم إلى شعب كامل . وفي انتظار مقدم الماشيَّح ، عليهم إقامة كل الشعائر الدينية المنصوص عليها في التوراة ، وذلك حتى يعجلوا بخلاص أنفسهم وخلاص العالم وتَوحُّد الذات الإلهية ، حسبما جاء في كتب القبَّالاه . وقد طالب هيرش اليهود الأرثوذكس بأن ينظموا أنفسهم في جماعة مستقلة منفصلة ، وأن يرفضوا التحالف مع الجماعات اليهودية الأخرى ، أو الاختلاط بها ، إذا هي رفضت مُثلهم وعقائدهم . وقد ضَمَّن هيرش كتابه **تسعة عشر خطاباً عن اليهودية** معظم أفكاره . والكتاب دفاع عن اليهودية ضد الهجمات التي يوجهها ضدها دعاة الإصلاح والتحديث . وحسب

تصور هيرش ، فإن اليهود هم الشعب الوحيد الذي يدل أسلوب حياته نفسه على أنه خُلق ليخدم الإله ، وأنه لا يجد سعادته إلا في تحقيق ذلك الهدف . ومن هنا ، فإنه يرى أن مشكلة الإصلاح الديني اليهودي تتمثل في أن دعاته يقللون من واجبات اليهودية وأعبائها من أجل راحة اليهودي ، بدلاً من رفع اليهودي إلى مرتبة اليهودية . فالمطلوب إصلاح اليهود وليس اليهودية .

ويُلاحَظ أن مقولات هيرش تحمل تعريضاً بالصهيونية . فإذا كان على اليهودي أن ينتظر في صبر وأناة مقدم الماشيَّح ، وألا يسقط في خطيئة التعجيل بالنهاية ، فإن هذا يعني أنه لا يملك أن يقرر العودة إلى أرض الميعاد متى شاء ذلك ، كما أنه إذا كان الإطار المرجعي هو اليهودية ، بأعبائها الأخلاقية ، وليس راحة اليهود أو سعادتهم ، فعلى اليهودي أن يقبل المنفى باعتباره تكليفاً إلهياً ، وعليه ألا يحاول تطبيع نفسه وتطبيع اليهودية ليحقق السعادة لنفسه ولمن حوله . وبالفعل ، يُلاحَظ أن الفكر الأرثوذكسي كان في البداية معادياً للصهيونية وبكل شراسة ، ولكن هذا الموقف أخذ في التراجع حتى انتهى الأمر إلى صهينة اليهودية بكل مدارسها ، ولم يبق سوى قلة أرثوذكسية مثل الناطوري كارتا ، محتفظة بموقفها المعادي للصهيونية . وعلى كلٍّ ، فهذا أمر متوقع تماماً بسبب الإطار الحلولي الذي يخلع القداسة على الشعب اليهودي وعلى مؤسساته القومية . والدولة الصهيونية ـ حسب هذه الرؤية ـ هي أهم هذه المؤسسات .

إسرائيل هيلدشايمر (١٨٢٠-١٨٩٩)

Israel Hildesheimer

عالم يهودي ألماني . عمل حاخاماً من ١٨٥١ حتى وفاته ، وكان من أشد معارضي اليهودية الإصلاحية . ولهذا السبب ، أسس عام ١٨٧٣ الكلية اللاهوتية الحاخامية في برلين التي قام بإدارتها . وهو يُعَدُّ من مؤسسي اليهودية الأرثوذكسية في شكلها المعتدل الذي يُطلَق عليه «الأرثوذكسية الجديدة» .

برنارد ريفيل (١٨٨٥-١٩٤٠)

Bernard Revel

عالم يهودي وُلد في ليتوانيا ودرس فيها ، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٠٦ حيث استكمل دراسته وأسس أول مدرسة ثانوية تجمع بين الدراسات الدنيوية والدراسات التلمودية . وأسس كلية يشيفا التي كانت أيضاً أول كلية جامعية تجمع الدراستين، وكان أول رئيس لها . وقد اختير ريفيل رئيساً شرفياً لاتحاد الحاخامات الأرثوذكس في الولايات المتحدة وكندا . وتناولت دراساته الفرقة القرّائية ، ويوسيفوس ، وتطوُّر الشريعة . ويُعَدُّ ريفيل من أهم مؤسسي المذهب الأرثوذكسي في الولايات المتحدة .

جوزيف سولوفايتشيك (١٩٠٢-)

Joseph Soloveitchik

قائد اليهودية الأرثوذكسية في الولايات المتحدة ، وأهم مفكريها . وُلد في بولندا ، وقضى طفولته في روسيا البيضاء مع أبيه ، ودرس التلمود والشريعة ، ثم دخل جامعة برلين ، حيث حصل منها على درجة الدكتوراه عام ١٩٣١ ، وكتب رسالة عن نظريات هرمان كوهين في المعرفة والميتافيزيقا . هاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٣٢ ، وأصبح حاخاماً للأبرشية الأرثوذكسية في بوسطن ، ثم أصبح أستاذاً للدرسات التلمودية في جامعة يشيفاه ، ثم ترأس لجنة الشريعة التابعة للمجلس الحاخامي في أمريكا . وبسبب منصبه هذا ، أصبح سولوفايتشيك من أهم الشخصيات في المؤسسة الأرثوذكسية في الولايات المتحدة . ومن الناحية السياسية ، ينتمي سولوفايتشيك إلى حركة المزراحي ، وكان رئيساً فخرياً لها عام ١٩٤٦ . وفي عام ١٩٥٩ ، عرضت عليه الدولة الصهيونية أن يشغل منصب الحاخام الإشكنازي الأكبر ولكنه رفض العرض .

ويُعَدُّ سولوفايتشيك قائد الجناح المعتدل داخل اليهودية الأرثوذكسية بلا منازع . وقد ترك أثره العميق من خلال محاضراته . ويُقال إن المحاضرات السنوية التي كان يلقيها في جامعة يشيفاه كان يحضرها الآلاف ، وكانت تُعَدُّ أهم المناسبات الأكاديمية بالنسبة إلى اليهود الأرثوذكس .

وسولوفايتشيك مُقِلٌّ في النشر ، وأهم مؤلفاته هو **إيش هالاخاه** (أي رجال الهالاخاه) ، الذي حدد فيه موقفه اللاهوتي ، وعبر فيه عن آرائه الأرثوذكسية الحلولية التي تجعل الإنسان اليهودي موضع القداسة . فاليهودي حين يعيش حسب الشريعة ، يصبح سيد نفسه ، وسيد التيارات التي تسري في حياته ، وتصبح حياته مقدَّسة ، ويدخل الإله واليهودي في علاقة تعاقدية (ميثاقية) . هذه العلاقة تربط الإله بشكل وثيق (شخصي) يشبه علاقة شخص بشخص آخر .

ومع هذا يُلاحَظ أن سولوفايتشيك يحاول محاصرة الحلولية إلى حدٍّ ما والتقليل من حدتها وهو ينطلق من المقولة الأرثوذكسية القائلة بأن التوراة موحى بها كلها من الإله ولذا فكل ما فيها له معنى . وهو يقارن بين التوراة وعالم المُثُل والأفكار الأفلاطونية حيث أُرسلت التوراة (المثالية) للناس كي يطبقوها على حياتهم ، برغم أنها متجاوزة لهذه الحياة . ويُشبِّه سولوفايتشيك الشريعة بالصيغ

الرياضية، فكما أن العالم الرياضي يحاول أن يطوِّر نظرية متماسكة لها منطقها الداخلي المتماسك، يفسر من خلالها معطيات الواقع المادية المتناثرة ويربطها بعضها ببعض، فإن "رجل الشريعة" عنده هو التوراة التي تضفي القداسة على كل الحياة الإنسانية وتعطيها معنى واتجاهاً. وسولوفايتشيك لا يسقط تماماً في الحلولية التي تخلع القداسة على كل شيء. بل إنه يذهب إلى أن الشريعة لا ترى شيئاً مقدَّساً في حد ذاته، فإيمان اليهودي هو الذي يخلع على الأشياء القداسة. والواقع أن لفائف التوراة ليست مقدَّسة في حد ذاتها، وإنما هي كذلك حين يباركها الخطاط الكاتب، كما أن الهيكل بكل ملحقاته، يظل غير مقدَّس إلى أن يكرسه اليهود. ويضرب سولوفايتشيك مثلاً آخر، فيقول إن الإله نزل إلى موسى في سيناء، ومع هذا فلا يوجد فيها أثر للقداسة، في حين نجد أن ما يُسمَّى «جبل الهيكل» الذي كرسه إبراهيم بصعوده عليه للإله أصبح مقدَّساً واختير ليكون موقع الهيكل وظل مقدَّساً مدى الزمان.

ويذهب سولوفايتشيك إلى أن الشريعة تشير إلى المثل الأعلى ومع هذا فهي تؤثر في كل أوجه الحياة. واستجابة الإنسان لتحدي الشريعة الإلهية لا تتمثل في إيمانه الأعمى وتَقَبُّله للأوامر الإلهية وحسب وإنما في محاولته أن يُدخل مضموناً متجاوزاً في حياته ورؤاه، وهو مضمون يصله من خلال كلمة الإله الموحى بها. ونتيجة كل هذا ازدواجية لا يمكن أن تزول، فالتجربة الدينية الحقة تتمثل في تَقَبُّل مجموعة من المتناقضات لا يمكن التوفيق بينها: تأكيد الذات وإنكارها، والوعي المتزامن بالزمني والأزلي، والتصادم بين الجبر والحرية، وحب الإله وخشيته في آن واحد، والإيمان بتجاوزه وكمونه!

أما فيما يتصل بالأفكار الأخروية والنشورية فيذهب سولوفايتشيك إلى أن الإنسان لا يمكنه أن يسبر غور الغيب أو يتخيل الآخرة أو البعث، ولكن يمكن أن نؤسس إيماننا بهما انطلاقاً من إيماننا بأن الله عادل ورحيم، وأنه يثيب ويعاقب ويشمل برحمته هؤلاء الذين يحتاجون لرحمته من الموتى.

وقد كتب سولوفايتشيك دراسات أخرى تناول فيها بعض المشاكل الناجمة عن ظهور دولة إسرائيل بالنسبة إلى اليهود الأرثوذكس.

وقد عارض سولوفايتشيك الحوار الذي اقترحته الكنيسة الكاثوليكية للتقريب بين الأديان. وتقبَّلت اليهودية الأرثوذكسية موقفه، حتى أصبح موقفها الرسمي.

اليهودية الأرثوذكسية والصهيونية

Orthodox Judaism and Zionism

يمكن تفسير الفكر اليهودي الأرثوذكسي تفسيراً معادياً تماماً للصهيونية. فالإيمان بالعودة الشخصية للماشيَّح يعني الانتظار في صبر وأناة إلى أن يأذن الإله بالعودة. وعلى المؤمن الحق أن يقبل المنفى، إما عقاباً على ذنوب يسرائيل أو كجزء من التكليف الإلهي، وعليه ألا يحاول التعجيل بالنهاية (دحيكات هاكتس). وقد كانت الفرق الأرثوذكسية معادية للصهيونية في بادئ الأمر. ولكن هذه الأرثوذكسية تمت صهينتها على يد بعض الحاخامات الأرثوذكس، وخصوصاً الحاخام كوك (ومن قبله كاليشر والقالي). وكانت متتالية الخلاص في الماضي تأخذ الشكل التالي:

نفي ـ انتظار ـ عودة الشعب

أما الآن، فإن المتتالية الجديدة المقترحة هي: نفي ـ عودة أعداد من اليهود للتمهيد لوصول الماشيَّح ـ عودة الماشيَّح مع بقية الشعب.

ومن هنا، تمت صهينة الأرثوذكسية، ولم يبق سوى فريق الناطوري كارتا الذي يدافع عن الرؤية الأرثوذكسية التقليدية قبل صهينتها. وعملية الصهينة هذه ليست أمراً غريباً، فالرؤية الحلولية، في إحدى مراحلها، تخلع القداسة على الشعب وإرادته. ولذا تبهت الإرادة الإلهية وتتراجع ويصبح من حق اليهود أن يعجلوا بالنهاية. وعلى كلٍّ، فإن المنظومة القبَّالية التي يؤمن بها الأرثوذكس تجعل تَوَحُّد الذات الإلهية واكتمالها مرهوناً بأفعال اليهود ومدى إقامتهم الشعائر!

وتستمدُّ اليهودية الأرثوذكسية قوتها من قوة اليهودية الأرثوذكسية في إسرائيل ومؤسساتها، فهم الفريق الوحيد المُعترَف به في الدولة الصهيونية. ومعظم اليهود الأرثوذكس أعضاء في جمعية أجودات إسرائيل، أو في حركة مزراحي. والأولى لا تؤيد الصهيونية وغير مُمثَّلة في المنظمة الصهيونية العالمية، ومع هذا فلها أحزابها في إسرائيل، وممثلوها في الكنيست. أما حركة المزراحي، فقد ساهمت منذ البداية في النشاط الصهيوني. وقد كُشف النقاب مؤخراً عن أن هرتزل (اللاديني) كان وراء تأسيس حركة المزراحي، وأنه دفع نفقات مؤتمر المزراحي الأول من جيبه. ومن أهم الشخصيات اليهودية الأرثوذكسية، سولوفايتشيك رئيس شرف حركة مزراحي، وإليعازر بركوفيتس الذي يرى أن إنشاء دولة إسرائيل له دلالات أخروية عميقة.

وتسيطر اليهودية الأرثوذكسية على الحياة الدينية في إسرائيل، فهي تسيطر على دار الحاخامية الرئيسية، وعلى وزارة الشئون

الدينية، وعلى الأحزاب الدينية ، مثل : مزراحي ، وعمال مزراحي، وأجودات إسرائيل ، وعمال أجودات إسرائيل ، وساش. وهي أحزاب تمارس سلطة لا تتناسب بأية حال مع أحجامها الحقيقية ، وذلك لأن الحزب الحاكم يدخلها الائتلافات الوزارية التي تمكّنه من البقاء في الحكم . وهو يقدم لها ، نظير ذلك، كثيراً من التنازلات التي تطالب بها . ومن أهم هذه التنازلات ، عدم اعتراف الدولة حتى الآن بالزيجات المُختلطة ، أو الزيجات التي لم يشرف على عقدها حاخامات أرثوذكس .



٧
اليهودية المحافظة

اليهودية المحافظة : تاريخ ـ اليهودية المحافظة : الفكر الديني ـ اليهودية التاريخية ـ اتحاد اليهودية التقليدية ـ ماسورتي ـ معبد أمريكا الموحَّد ـ كلية اللاهوت اليهودية ـ الجمعية الأمريكية للحاخامات ـ رابوبورت ـ فرانكل ـ ليزر ـ موريه ـ كوهوت ـ شختر ـ أدلر ـ جنزبرج ـ فنكلشتاين ـ ليبرمان ـ هيشيل ـ أجوس ـ كوهين ـ اليهودية المحافظة والصهيونية ـ اليهودية التجديدية ـ كابلان ـ مجلس المعابد في أمريكا

اليهودية المحافظة : تاريخ

Conservative Judaism .History

«اليهودية المحافظة» فرقة دينية يهودية حديثة نشأت في الولايات المتحدة ، أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، كمحاولة من جانب اليهودية للاستجابة لوضع اليهود في العصر الحديث في العالم الجديد وهي أهم وأكبر حركة دينية يهودية في العالم ، وأهم مفكريها سولومون شختر . ولكن جذور الحركة تعود ، مع هذا ، إلى ما يُسمَّى «علم اليهودية» وأقطابها هم : نحمان كروكمال ، وزكريا فرانكل ، وهنريش جرايتس ، وسولومون رابوبورت ، وكلهم من المفكرين اليهود الأوربيين في القرن التاسع عشر . واليهودية المحافظة جزء من الفكر الرومانسي الغربي ، وخصوصاً الألماني . وهي ليست مدرسة فكرية ولا حتى فرقة دينية محددة المعالم بقدر ما هي اتجاه ديني عام وإطار تنظيمي يضم أبرشيات وحاخامات ، يسمون أنفسهم «محافظين» ، ويسميهم الآخرون كذلك . فالمفكرون المحافظون يختلفون فيما بينهم حول أمور مبدئية مثل الوحي وفكرة الإله ، كما يختلفون بشأن الأمور الشعائرية ، ولم ينجحوا في التوصل إلى برنامج محدَّد موحَّد . وهم يرفضون ذلك بحجة أنهم ورثة اليهودية الحاخامية ككل ، وبالتالي فلابد أن تُترك الأمور لتتطور بشكل عضوي طبيعي . وفكرة التطور العضوي من الداخل إحدى الأفكار الرومانسية الأساسية .

ومع هذا ، فإن ثمة أفكاراً أساسية تربط أعضاء هذه الفرقة التي تشكِّل ، على مستوى من المستويات ، رد فعل لليهودية الإصلاحية أكثر من كونها رد فعل لليهودية الأرثوذكسية . فقد اكتسحت اليهودية الإصلاحية يهود الولايات المتحدة ابتداءً من منتصف القرن التاسع حتى أنه ، مع حلول عام ١٨٨١ ، كانت كل المعابد اليهودية (البالغ عددها مائتي معبد) معابد إصلاحية باستثناء اثنى عشر معبداً .

وقد اتخذ مؤتمر بتسبرج عام ١٨٨٥ قراراته الإصلاحية الشاملة التي أعلن فيها أن كثيراً من الطقوس ، ومن ذلك الطقوس الخاصة بالطعام ، مسائل نسبية يمكن الاستغناء عنها .

وكان هناك شخصيات كثيرة معارضة للاتجاه الإصلاحي ، وخصوصاً في صيغته المتطرفة ، بينهم إسحق ليزر وألكسندر كوهوت . وقد أعلن الأخير معارضته لقرارات مؤتمر بتسبرج ، وهاجم المفكر الإصلاحي كاوفمان كولر ، وطالب بإنشاء مدرسة حاخامية لدراسة الممارسات التاريخية لليهودية . وقد قام ساباتو موريه بتأسيس كلية اللاهوت اليهودية (عام ١٨٨٧) التي أصبحت المنبر الأساسي للفكر المحافظ ، ويُعَدُّ هذا التاريخ تاريخ ميلاد اليهودية المحافظة ، خصوصاً وقد أعاد شختر تنظيمها عام ١٩٠٢ . ثم تم تأسيس جمعية الحاخامات الأمريكية التي ضمت خريجي المدرسة . وتشكِّل هذه الجمعية ، مع معبد أمريكا الموحَّد عام ١٩١٣ ، وكلية اللاهوت اليهودية ، أهم عناصر الهيكل التنظيمي لليهودية المحافظة . وقد أُضيف إلى كل ذلك كلية اليهودية في لوس أنجلوس . ومن أهم مؤسسات اليهودية المحافظة الأخرى لجنة الشريعة والمعايير التي يدل اسمها على وظيفتها ، فهي التي تحدِّد المعايير لأتباع اليهودية المحافظة وتفسِّر لهم الشريعة ، وهي عملية مستمرة لا تتوقف من منظور اليهودية المحافظة .

وترى اليهودية المحافظة أن هدفها الأساسي هو الحفاظ على استمرارية التراث اليهودي ، باعتباره الجوهر ، أما ما عدا ذلك من العبادات والعقائد فهو يظهر بشكل عضوي وتلقائي متجدد . ومن هنا ، فقد ظهرت اليهودية التجديدية من صلب اليهودية المحافظة ، فهي ترى أن اليهودية حضارة يُشكِّل الدين جزءاً منها وحسب . ويبدو أن حاييم كابلان ، مؤسس المدرسة التجديدية ، يمارس في الوقت الحاضر تأثيراً عميقاً في اليهودية المحافظة . ففي عام ١٩٤٨ ، أُعيد تنظيم لجنة القانون اليهودي ، كما أُعيد تحديد معايير المجلس

الحاخامي وبدأ تَبنّي معايير تختلف كثيراً عن معايير شختر مؤسِّس اليهودية المحافظة ، حتى أنه يمكن القول بأن توجُّه اليهودية المحافظة في الوقت الحالي يختلف عن التوجه الذي حدده لها مؤسسوها إذ بدأت اليهودية المحافظة تتخذ كثيراً من المواقف التي لا تختلف كثيراً عن مواقف اليهودية الإصلاحية التي تقترب في الوقت نفسه من اليهودية التجديدية . ولكن احتجاجاً على هذه الاتجاهات المتطرفة ظهرت فرقة جديدة تُسمَّى اتحاد اليهودية التقليدية (١٩٨٤) تحاول قَدْر استطاعتها أن تحتفظ ببعض الأشكال التقليدية وألا تنجذب نحو اليهودية التجديدية والإصلاحية وأصبح لها مدرستها اللاهوتية الخاصة لتخريج الحاخامات عام ١٩٩٠ . وقد صدر عام ١٩٨٨ كتاب بعنوان **إيميت فأموناه (الحقيقة والاعتقاد) : مبادئ اليهودية المحافظة** وهو كتاب من ٤٠ صفحة أصدره مؤتمر من مفكري اليهودية المحافظة حاولوا فيه تلخيص مبادئ اليهودية المحافظة ومن أهمها الاعتراف بالغيب (ما وراء الطبيعة) ورفض النسبية ، وهو مجرد قول ، لأن تطوُّر اليهودية المحافظة يبيِّن مدى محاولة تكيفها المستمر مع ما حولها وخضوعها المستمر له . كما أكدت الوثيقة أهمية إسرائيل في حياة الدياسبورا ولكنها أتبعت ذلك بتأكيد تعددية المراكز ، أي أهمية الدياسبورا في ذاتها .

وقد تزايد عدد اليهود المحافظين في أنحاء العالم ، وخصوصاً في أمريكا اللاتينية . ولكنها ، مع هذا ، تظل أساساً حركة أمريكية ، ويبلغ عددهم الآن ٣٣٪ من كل يهود الولايات المتحدة (مقابل ٣٠٪ إصلاحيون و٩٪ أرثوذكس و٢٦٪ لا علاقة لهم بأية فرقة دينية) ومع هذا تذهب إحدى المراجع إلى أن العدد هو ٢ مليون ويبلغ عدد الأبراشيات المحافظة ٨٠٠ أبراشية . ومعظم اليهود المحافظين يأتون من بين صفوف اليهود الأمريكيين الذين أتوا من خلفيات دينية أرثوذكسية ، ولذلك يجدون أن اليهودية الإصلاحية متطرفة . وبهذا المعنى ، فإن اليهودية المحافظة قد تكون محطة على طريق الانتقال من اليهودية الأرثوذكسية إلى اليهودية الإصلاحية أو العلمانية أو حتى الإلحادية . وهناك عدد كبير من المحافظين من أصل ألماني ، ولكن توجد في صفوفهم أعداد كبيرة أيضاً من شرق أوربا . ويمكن القول بأن اليهود المحافظين هم يهود ابتعدوا عن أصولهم الإثنية الأوربية وأصبحوا أمريكيين ، ولكنهم مع هذا يودون الاحتفاظ بهوية إثنية يهودية (وهذا اتجاه عام في المجتمع الأمريكي) على الأقل لبعض الوقت . وتقوم اليهودية المحافظة بسد هذه الحاجة . وحسب تعبير أحد الدارسين فإن المسافة الزمنية بين اليهودية المحافظة واليهودية الإصلاحية عشرة أعوام ، ثم تلحق الأولى بالثانية . وقد أخذ الإصلاحيون ، في الآونة الأخيرة ، في التشدد بشأن بعض الشعائر الدينية في حين أخذ المحافظون في التساهل في كثير منها ، فقد عينوا مؤخراً امرأة في وظيفة حاخام . ولذا ، فقد بدأت المسافة بين الفريقين في التناقص ، واندمج كثير من الأبرشيات المحافظة والإصلاحية . وقد لاحَظ الحاخام ملتون بولين (رئيس المجلس الحاخامي في أمريكا) أن ثمة فجوة ، بين الأرثوذكس من جهة والمحافظين والإصلاحيين من جهة أخرى ، وأنها آخذة في التزايد حتى أنهم أصبحوا يشكلون يهوديتين مختلفتين .

ومن أهم مفكري اليهودية المحافظة في الولايات المتحدة : لويس جنزبرج ، ولويس فنكلشتاين ، وشاؤول لايبرمان ، وجيكوب آجوس ، وجرسون كوهين .

اليهودية المحافظة : الفكر الديني
Conservative Judaism:Religious Thought

رغم أن اليهودية المحافظة رد فعل لليهودية الإصلاحية ، فإن ثمة عنصراً مشتركاً أساسياً بينهما ، فهما يهدفان إلى حل إشكالية الحلول الإلهي في الشعب اليهودي ومؤسساته القومية . والصيغة الحلولية التقليدية تجعل الشعب اليهودي مقدَّساً ومطلقاً يشير إلى ذاته ، وهو أمر لا يمكن أن تقبله الدولة القومية الحديثة التي تجعل نفسها موضع الإطلاق والقداسة ولا العصر الحديث الذي جعل العلم موضع الإطلاق . وتحاول كلٌّ من اليهودية الإصلاحية واليهودية المحافظة أن تصل إلى صياغة حديثة لليهودية عن طريق تَبنّي مُطلَق دنيوي يُسمَّى «الروح» (بالألمانية : جايست) فيضاف اسم لكلمة «روح» ، فيُقال في الفكر الأوربي الرومانسي مثلاً : «روح العصر» أو «روح المكان» أو «روح الشعب» أو «روح الأمة» والناتج شيء يعبِّر عن الإله أو يحل محله . وقد آمن الإصلاحيون بروح العصر (تسايت جايست) ، وآمن المحافظون بروح الشعب العضوي (فولك) ، وهي روح تجلت عبر التاريخ في أشكال مختلفة (وهذا الطرح لا يتعارض كثيراً مع العقد الاجتماعي الأمريكي الذي يسمح للأقليات المهاجرة بالاحتفاظ بشيء من هويتها ما دام هذا لا يتعارض مع المطلق الأكبر ، مصلحة الولايات المتحدة ومنفعتها) . ولكن الاختلاف الآنف الذكر ، بين اليهودية الإصلاحية واليهودية المحافظة ، يتبدَّى في الطريقة التي اتبعها كل منهما لتحديث اليهودية . فبينما قام الإصلاحيون باتباع النموذج الاندماجي ، قام المحافظون بتحديث اليهودية عن طريق تَبنّي النموذج الشعبي ، أي تقديس الفولك وتاريخه وتراثه وأرضه (وهذا هو النموذج النازي) .

للمحافظون إذن يودون إحداث تغيير دون الإخلال بروح الفولك اليهودي ، فهذا هو الجوهر اليهودي أو المطلق موضع الحلول الذي ينبغي الحفاظ عليه . وهذه الرغبة في التغيير مع الميل إلى المحافظة تسمان كل أفكارهم . فهم يؤمنون على اختلاف اتجاهاتهم بأن الشعب اليهودي قد تطوّر عبر تاريخه ، وبأن اليهودية لم تتجمد أبداً ، وأنها كانت قادرة على التكيف مع اللحظة التاريخية ومع روح العصر ، ولهذا فهي ليست مجموعة ثابتة من العقائد وإنما هي تراث آخذ في التطور التاريخي الدائم ، ومن هنا كان إطلاق اسم «اليهودية التاريخية» على هذه المدرسة وخصوصاً في أوربا . ويرى المحافظون أن دراسة اليهودية بشكل تاريخي ونقدي (علم اليهودية) هو تطوُّر إيجابي يساعد اليهود على فهم أنفسهم ، كما يساهم في جعل اليهودية نسقاً دينياً خلاقاً كما كان الحال في الماضي . ومع هذا ، فقد وقفت اليهودية المحافظة ضد التيار اليهودي الإصلاحي ، فنادى زكريا فرانكل ، شأنه في هذا شأن هيرش الأرثوذكسي وشأن الصهاينة ، بأن يكون أي تغيير أو تطوير لليهودية نابعاً لا من خارج الروح اليهودية وإنما من أعماقها ، أي من روح الشعب العضوي (المطلق الجديد) . ورغم أن فرانكل والمحافظين كانوا من المؤمنين بأن التوراة أو الشريعة الشفوية خرافة ابتدعها الحاخامات لكي يضفوا مسحة من الشرعية على ما أقره الإجماع الشعبي ، ورغم أنهم رأوا أيضاً أن التراث الديني اليهودي ليس مرسلاً من الإله ، فإنهم لم يتخذوا موقفاً نقدياً من التوراة أو التراث اليهودي كما فعل الإصلاحيون ، لأنهما كلاهما تعبير عن الشعب اليهودي وعبقريته . وقد اقترح المحافظون ، وبالذات الحاخام الصهيوني شختر عدم ترك الأمور في أيدي قلة من رجال الدين يقومون بتفسير الشريعة كيفما شاءوا ، ودعا إلى وجوب أن يقوم متكلمون يمثلون الشعب اليهودي وينطقون باسم الجماعة . وتحاول هذه الجماعة التي تمثل كل أو عموم إسرائيل (بالعبرية : كلال يسرائيل) أن تكتشف اليهودية بدراسة التراث والتقاليد والأدب اليهودي .

وتطبيقاً لهذا الموقف الوسط بين اليهودية الإصلاحية والأرثوذكسية ، يؤمن المحافظون بأن الأمل في العودة إلى صهيون فكرة أثيرة لدى اليهودي لابد من المحافظة عليها . ومع هذا ، لا يتنافى هذا الأمل ، بأية حال ، مع الولاء للوطن الذي يعيش فيه اليهودي . وهم لا يؤمنون بالعودة الفعلية والشخصية للماشيَح ، ويطرحون بدلاً منها فكر العصر المشيحاني الذي سيتحقق بالتدريج . ويصبح تأسيس الدولة اليهودية ، داخل هذا الإطار ، خطوةً أولى نحو تحقيق هذا العصر . ويرى المحافظون أن تكون الصلوات اليهودية بالعبرية ، وإن كانوا لا يمانعون في أن تُتلى باللغة المحلية إذا لزم الأمر . ويؤكد المحافظون أن الشريعة ملزمة لليهودي ، وبالتالي ضرورية للحفاظ على شعائر اليهودية ، فمُثُل اليهودية العليا يتم تفسيرها من خلال الشريعة . كما أن اليهودية تدور حول الأوامر والنواهي التي تغطي السلوك الإنساني وتحكم العلاقة بين اليهود من جهة ، وبينهم وبين الإله من جهة أخرى . ولكن ، مع هذا ، لابد أن تظل الشريعة مرنة مرونة كافية بحيث تترك مجالاً للتغيير والتعددية الفكرية التي تجعلها قادرة على مواكبة العصر الحديث ، وعلى سد حاجة الإنسان اليهودي الحديث . ولذا ، لابد أن تتسم عملية تفسير الشريعة بقدر عال من الإبداع . ويتضح هذا الموقف في أنهم لا يمانعون في إدخال بعض التعديلات على الشعائر الدينية (فيقيمون بعض طقوس السبت) ، ولكنهم يسمحون باختلاط الجنسين (وأصبحت النساء جزءاً من النصاب [منيان] المطلوب لإقامة صلاة الجماعة)، بل يسمحون بأن تكون هناك من الإناث حاخامات ومنشدات (حزان) . وقد أبقوا على الختان وقوانين الطعام ، وإن كانوا قد أدخلوا بعض التعديلات عليها . وهم يقيمون الصلوات بشال الصلاة (طاليت) وتمائم الصلاة (تفيلّين) .

ورغم تماثُل الجذور الفكرية لليهودية الإصلاحية والمحافظة ، فإن تشابه اليهودية المحافظة بنيوياً مع اليهودية الأرثوذكسية واضح وقوي . بل إن الفروق بينهما طفيفة وغير جوهرية ، فكلتاهما تدور في إطار الحلولية التقليدية دون أن توسع نطاقها لتضم غير اليهود (كما فعلت اليهودية الإصلاحية) . ولذا ، نجد أن كلاً من اليهودية المحافظة واليهودية الأرثوذكسية تؤمنان بالثالوث الحلولي : الإله (أو التوراة) ، والشعب ، والأرض . وعلى حين يؤكد الأرثوذكس أهمية الإله والوحي والتوراة ، نجد المحافظين يبرزون أهمية الشعب وتراثه وتاريخه ، أي أن الاختلاف ينصرف إلى تأكيد أحد عناصر الثالوث الحلولي على حساب عنصر آخر . ويُضفي كلا الفريقين هالة من القداسة على حياة اليهود وتاريخهم ، وهي قداسة يُرجعها الأرثوذكس إلى أصول إلهية ويرجعها المحافظون إلى أصول قومية أو إلى روح الشعب (وكلال يسرائيل هي في الواقع الفولك التي يتحدث عنها الفكر الرومانسي الألماني) ، ويصبح الدين اليهودي فلكلور الشعب اليهودي المعبِّر عن هويته الإثنية وسر بقائه ، كما أنه يكتسب أهميته بمقدار مساهمته في الحفاظ على هذا الشعب المقدَّس .

وقد عادت اليهودية المحافظة ، بتحويلها الشعب إلى مصدر للإطلاق وموضع للقداسة ، إلى واحدة من أهم الطبقات في التركيب الجيولوجي اليهودي ، وهي الطبقة الحلولية التي أدّت إلى

واقع أن الإله لم يتمتع قط بالمركزية التي يتمتع بها داخل الأنساق الدينية التوحيدية ، فهو يمتزج بالشعب والأرض ويتساوى معهما . و تميل الكفة داخل النسق الحلولي بالتدريج لصالح الشعب على حساب الإله حتى يصبح الشعب وتراثه (لا الإله) مصدر القداسة ، وبالتالي يصبح جوهر اليهودية بقاء اليهود ، ويظهر داخل اليهودية لاهوت البقاء أو لاهوت ما بعد أوشفيتس .

وقد عَرَّفت اليهودية المحافظة أهدافها بأنها الإصرار على وحدة إسرائيل «الكاثوليكية» العالمية ، والإصرار على الحفاظ على استمرار التراث اليهودي والاهتمام بالدراسات اليهودية . فهذا هو الجوهر ، أما ما عدا ذلك من عبادات وعقائد ، فإنه يظهر بشكل عضوي وتلقائي متجدد .

اليهودية التاريخية

Historical Judaism

«اليهودية التاريخية» مصطلح مرادف لمصطلح «اليهودية المحافظة» أدخله زكريا فرانكل حين دعا إلى ثوابت " اليهودية التاريخية " قاصداً بذلك العناصر الثابتة التي ينبغي على الإصلاح الديني أن يقبلها ولا يحاول تعديلها لأنها تعبير عن جوهر الروح اليهودية ، وهو جوهر أزلي لا لأن الإله خلقه بل لأنه تجاوز الزمان من خلال ممارسات اليهود عبر التاريخ .

اتحاد اليهودية التقليدية

Union of Traditional Judaism

فرقة يهودية جديدة خرجت على اليهودية المحافظة عام ١٩٨٤ بعد أن صُرِّح للنساء بالانضمام لكلية اللاهوت اليهودية ، ومن ثم أصبح من الممكن ترسيمهم حاخامات عند تَخرُّجهن . وقد احتفظت الفرقة بانتمائها لليهودية المحافظة بعض الوقت وسمَّت نفسها اتحاد اليهودية المحافظة التقليدية ثم شكلت لجنة البحث في الشريعة التي تُعَدُّ تحدياً مباشراً للجنة الشريعة والمعايير التابعة لليهودية المحافظة . وبعد قليل ، استقلت الفرقة عن اليهودية المحافظة وأسست كلية خاصة بها لتخريج الحاخامات وسمَّت نفسها باسمها الحالي . وقد جاء هذا في أعقاب قيام اليهودية التجديدية بتأسيس كلية لتخريج الحاخامات التجديديين . وهذا يعني أن هناك تساقطاً في صفوف اليهودية المحافظة لصالح كلٍّ من اليسار (التجديدي) واليمين (التقليدي) .

ماسورتي

Masorti

«ماسورتي» كلمة عبرية تعني «محافظ» أو «تقليدي» (من كلمة «موسار» أي «تقاليد») وتُستخدَم للإشارة إلى اليهود المحافظين ، وخصوصاً داخل إسرائيل . وتُترجم الكلمة إلى العربية بكلمة «محافظ» أو «تقليدي» . ولذا ، فحين ترد هذه الكلمة في أحد النصوص العربية ، يظن القارئ العربي أن هذا اليهودي الذي يقال له «تقليدي» يتمسك بالشعائر وبأهداف دينه ، ولكنه في الواقع يهودي إثني يتمسك ببعض الشعائر لأنها جزء من ميراث الأجداد ولأنها تعبِّر عن الذات القومية وروح الشعب (فولك) . وهو في هذا مختلف عن اليهود العلمانيين الذي يرفضون كل التقاليد ويرون أنها تعوقهم عن التقدم واللحاق بركاب الحضارة الحديثة . ولكنه رغم اختلافه عن اليهود العلمانيين إلا أن هذا لا يجعله محافظاً أو تقليدياً من المنظور الديني ، فالشعائر بالنسبة له ليست جزءاً من نسق ديني أخلاقي يتمسك به مهما كان الثمن ، وإنما هي فلكلور يمتع به نفسه . ولهذا ، فرغم أن المعنى المعجمي للفظ «ماسورتي» هو «محافظ» أو «تقليدي» ، فإن مجاله الدلالي مختلف تماماً عن كلمة «محافظ» أو «تقليدي» في أية لغة أخرى أو أي سياق حضاري أو ديني آخر .

معبد أمريكا الموحد

United Synagogue of America

تنظيم يضم الأبرشيات اليهودية المحافظة ، أسسه سولومون شختر عام ١٩١٣ ، ويتبعه نحو ٨٣٠ معبداً في كل من الولايات المتحدة وكندا . ويوجه التنظيم الأبرشيات التابعة له وفروعها . ولتحقيق هذا الغرض ، أقام المعهد قسماً للتربية اليهودية وقسماً لأنشطة الشباب ومعهداً قومياً للدراسات اليهودية للكبار ، كما أقام لجنة للعمل الاجتماعي وقسماً للموسيقى ولجنة للطعام الشرعي . ويرتبط هذا التنظيم بكلٍّ من جمعية الحاخامات وجمعية المرتلين وجمعية المربين والجمعية القومية لأمناء المعابد ، ومن ضمن ذلك الرابطة القومية النسائية التابعة لها ، وغيرها من الروابط .

كلية اللاهوت اليهودية

Jewish Theological Seminary

معهد ديني عال تم تأسيسه عام ١٨٨٦ في نيويورك لإعداد الحاخامات . وقد ترأسه عام ١٩٠٢ سولومون شختر الذي بلور اتجاهه العقائدي بحيث أصبح العصب الأساسي لليهودية المحافظة ،

وهو لا يزال كذلك حتى الوقت الحالي . وبعد وفاة شختر تبعه في رئاسة الكلية كلٌ من سيروس أدلر ولويس فنكلشتاين على التوالي . ويتبع الكلية معهد لتدريب المنشدين الدينيين ومركز طلابي في القدس . وتشرف الكلية على المتحف اليهودي في نيويورك ، ولها مكتبة تحوي ٢٠٠ ألف كتاب وعشرة آلاف مخطوط .

الجمعية الأمريكية للحاخامات

Rabbinical Assembly of America

تَجمُّع يضم ما يربو على ٦٠٠ حاخام محافظ في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا ٨٠٪ منهم من خريجي كلية اللاهوت اليهودية . وقد نُظِّمت الجمعية سنة ١٩٠٠ لتكون جمعية لخريجي هذه الكلية ، ولكن أُعيد تنظيمها عام ١٩٤٠ باسم «جمعية الحاخامات» . وفي سنة ١٩٤٦ ، نشرت الجمعية بالتعاون مع معبد أمريكا الموحَّد **كتاب صلوات السبت والأعياد** . وتنشر الجمعية مجلة ربع سنوية هي **اليهودية المحافظة** ، وكتاباً سنوياً يضم تفاصيل مؤتمرها . أما اللجنة التابعة للجمعية ، والخاصة بالشريعة اليهودية والمعايير الدينية ، فقد أصدرت عدداً من الفتاوى .

سولومون رابوبورت (١٧٩٠-١٨٦٧)

Solomon Rapoport

أحد رواد علم اليهودية واليهودية المحافظة . وُلد في جاليشيا ودرس العلوم الدينية والدنيوية في عصره . وقد استفاد رابوبورت بمعرفته التقليدية والدنيوية في دراساته التاريخية فتَخصَّص في فترة الفقهاء (جاءونيم) ، وكان صديقاً لنحمان كروكمال وحاييم لوتساتو وليوبولد زونز . عمل رابوبورت حاخاماً في جاليشيا وبراغ حيث هاجمه الحسيديون والأرثوذكس بسبب دراساته وموقفه النقدي من اليهودية .

وقد عارض رابوبورت اليهودية الإصلاحية لتجاهلها التراث اليهودي متمثلاً في التلمود . كما عارض قرارات المؤتمرات الحاخامية الإصلاحية ، وكتب يبين أنها ستؤدي إلى انقسام اليهودية، وأن أي إصلاح لابد أن يتم لا بيد الإنسان وإنما بمرور الزمن ، فهو وحده الذي اكتسح كثيراً من العادات البالية وسيفعل ذلك مرة أخرى . ووضَّح رابوبورت أن الحاخامات كانوا يُدخلون عبر التاريخ تعديلات على قوانين الزواج والطلاق والطعام ، وأنهم كانوا يقومون بذلك لعلمهم التام بأن الشعب اليهودي بأسره سيأخذ بهذه التعديلات ، كما كانوا يعلمون أن وحدة اليهود لا يتهددها الخطر من قريب أو بعيد بسبب هذه التعديلات . والواقع أن رابوبورت يشبه فرانكل في هذا المضمار ، فكلاهما يضع الإجماع الشعبي (كلال يسرائيل أو روح الشعب) مقياساً للإصلاح الديني ، ومقياساً لقبول أو رفض العقائد أو العادات الدينية . فالثوابت أو المطلقات ، أي العناصر التي خلع عليها الشعب القداسة ، لا يمكن تعديلها .

وقد بدأ رابوبورت في نشر موسوعة عن التلمود ولكنه لم يكملها ، وترجم بعض الأشعار عن اللغات الأوربية إلى العبرية .

زكريا فرانكل (١٨٠١-١٨٧٥)

Zacharias Frankel

عالم ديني يهودي . وقد كان أول حاخام من بوهيميا تَلَقَّى تعليماً علمانياً لأن التعليم اليهودي كان تعليماً دينياً صرفاً . أصبح حاخاماً أكبر في درسدن عام ١٨٣٦ ، ورئيس كلية لاهوتية في برسلاو عام ١٨٥٤ . حاول أن يمزج القيم اليهودية التقليدية بالمعرفة الغربية ، وأن يطوِّر اليهودية دون إخلال بما تصوَّر أنه جوهرها التقليدي وروحها الأساسية كما عبَّرت عن نفسها عبر التاريخ . وقد انسحب من حركة اليهودية الإصلاحية بعد خلافه مع جايجر ، وكان السبب المباشر لانسحابه هو عدم موافقته على حذف الإشارات إلى صهيون ، وتغيير لغة الصلاة من العبرية إلى لغة الوطن الذي يُعاش في كنفه (الألمانية في حالته) .

وقد انطلق فرانكل في قراره هذا مما أسماه «ثوابت اليهودية التاريخية» . ووصف العبرية بأنها التربة التي نشأت فيها اليهودية وترعرعت ، وهي التربة الوحيدة التي يمكن أن تستمر وتزدهر فيها في المستقبل . ويعترف فرانكل بأن العبرية ليست مكوِّناً أصلياً في اليهودية فهما قد ارتبطتا أثناء ممارسة اليهودية في التاريخ . ولكنه يرى أن هذا الارتباط ، برغم أنه تم في الزمان ، فإنه قد تجاوزه بحيث أصبح مطلقاً لا زمانياً . وهكذا ، فإن العبرية التي كانت مجرد أداة عبَّرت اليهودية عن نفسها من خلالها أصبحت جوهراً ، أي واحداً من الثوابت الراسخة في الوجدان اليهودي ينبغي التمسك به . والواقع أن الثوابت عند فرانكل هي المطلقات الدينية التي تستمد مطلقيتها وقداستها من ممارسة اليهود التاريخية ، ويصبح معيار تَقَبُّل أحد جوانب اليهودية أو رفضه ليس الشريعة الثابتة وإنما مدى الأهمية التي خلعها الوجدان اليهودي على هذا الجانب أو ذاك من العقيدة اليهودية . فالعبرية تكتسب قدسيتها وأهميتها وتتحول إلى أحد الثوابت من هذا المنظور . وهذه الرؤية تعبير عن الطبقة الحلولية في

التركيب الجيولوجي اليهودي وعن تحوُّل الشعب اليهودي إلى نقطة الحلول التي يكمُن فيها الإله والتي تحل محل الإله كمصدر للقداسة .

وتعود رؤية فرانكل الحلولية العضوية بجذورها إلى الحلولية اليهودية ، ولكنها تشبه أيضاً رؤية المفكرين الرومانتيكيين الألمان الذين خلعوا القداسة على الشعب العضوي (فولك) ، ونظروا إلى حضارة كل شعب على أنه كيان عضوي مقدَّس يعبِّر عن روح الشعب ، وهذه هي المفاهيم التي تبنتها الحركة النازية فيما بعد .

وقد تأثر أعلام الفكر اليهودي المحافظ ، مثل سولومون شختر ولويس جنزبرج ، بأفكار فرانكل . ومن أهم مؤلفاته **طريق المشناه** (١٨٥٩) ، وبعض الأبحاث القصيرة عن الترجوم ، والترجمة السبعينية ، والتلمود .

إسحق ليزر (١٨٠٦-١٨٦٨)
Isaac Leeser

حاخام محافظ من أصل ألماني ، تلقى تعليماً حاخامياً وتعليماً دنيوياً قبل أن يهاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٨٢٤ . عمل منشداً (حزان) من عام ١٨٢٩ في فيلادلفيا ، وقام بترجمة العهد القديم إلى الإنجليزية ، وأعد كتب الصلوات . وهو يُعَدُّ الأب الروحي لليهودية المحافظة . وقد أسس أول جريدة تهتم بالشئون اليهودية عام ١٨٤٣ ، كما أسس أول دار نشر للكتب اليهودية ، وكتب أول كتاب لتعليم العبرية للأطفال ، ألحق به نصوصاً ، كما أسس أول مدرسة ثانوية لتعليم العبرية عام ١٨٤٩ ، وأسس أيضاً أول منظمة دفاع يهودية تمثل اليهود (هيئة المندوبين الإسرائيليين الأمريكيين) ، وأول كلية لإعداد الحاخامات عام ١٨٦٧ (وقد تخرَّج فيها أول أربعة حاخامات أمريكيين تلقوا تعليمهم في الولايات المتحدة) .

ساباتو موريه (١٨٢٣-١٨٩٧)
Sabato Morais

حاخام أمريكي . وُلد في إيطاليا وتعلَّم فيها ، ثم هاجر إلى إنجلترا ومنها إلى الولايات المتحدة (١٨٥١) حيث عمل منشداً (حزان) في فيلادلفيا محل إسحق ليزر .

ولا يتسم موريه بأي عمق أو أصالة في التفكير ، ولكن أهميته تعود إلى حشده القوات المحافظة بين يهود أمريكا ضد الاتجاه الإصلاحي . وقد تعاون ساباتو مع الحاخام إسحق وايز ، ولكن قرارات مؤتمر بتسبرج عام ١٨٨٥ أقنعته بضرورة تأسيس تيار وسط بين الأرثوذكسية والإصلاحية وضرورة تأسيس معهد لتخريج الحاخامات المحافظين ، فأسس كلية اللاهوت اليهودية عام ١٨٨٧ ، وقد ظل رئيساً لهذه الكلية حتى موته . ويُعَدُّ هذا التاريخ تاريخ ميلاد اليهودية المحافظة .

ألكسندر كوهوت (١٨٤٢-١٨٩٤)
Alexander Kohut

حاخام محافظ . وُلد في المجر ، ودرس في جامعة ليبزج ، وأصبح حاخاماً في ألمانيا عام ١٨٦٧ . كان سكرتيراً لمؤتمر الوجهاء اليهود الذي عُقد في بودابست عام ١٨٦٨ ، وناقش القضايا الأساسية التي كانت تواجه يهود اليديشية في شرق أوربا آنذاك . وعُيِّن في البرلمان المجري ممثلاً لليهود في أوائل الثمانينيات ، ولكنه هاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٨٨٥ حيث أصبح حاخاماً في نيويورك . وقد أصبح كوهوت من أكبر مهاجمي لحركة اليهودية الإصلاحية ، وخصوصاً مقررات مؤتمر بتسبرج . ولعب كوهوت دوراً مهماً في تأسيس كلية اللاهوت اليهودية . وأهم مؤلفاته **أخلاق الآباء** (١٨٨٥) ، ومعجم من ثمانية أجزاء للمصطلحات التلمودية .

سولومون شختر (١٨٤٧-١٩١٥)
Solomon Schechter

حاخام صهيوني من مفكري اليهودية المحافظة . وُلد في رومانيا حيث تلقَّى العلوم اليهودية التقليدية ، وواصل دراسته في فيينا فتعمق في الدراسات اليهودية ، ثم انتقل إلى إنجلترا عام ١٨٩٠ ، حيث عُيِّن محاضراً للدراسات التلمودية في جامعة كامبردج . وسافر إلى القاهرة عام ١٨٩٦ ورجع منها بعد عام حاملاً عديداً من المخطوطات اليهودية التي عثر عليها في جنيزاه المعبد اليهودي القديم في الفسطاط ، ثم انتقل إلى أمريكا ليرأس الكلية اللاهوتية اليهودية .

وبرغم أن شختر كان يؤمن بأن اليهودية دين وقومية معاً ، فإنه لم ينضم إلى الحركة الصهيونية بسبب ما تصوَّره من علمانية قادة الحركة من أشباه اليهود ، على حد تعبيره . وكان تصوُّره للوطن القومي اليهودي أقرب إلى صيغة آحاد هعام منه إلى صيغة هرتزل ، وقد قابل آحاد هعام ، وأصبح صديقاً شخصياً له . ولكنه اضطر في النهاية (عام ١٩٠٥) إلى الانضمام إلى الحركة الصهيونية لأن الصهيونية على حد قوله تمثل سداً عميقاً ضد الانصهار والاندماج ، كما أنها تعبير صادق عن أعماق الوعي اليهودي إلى درجة لم يتنبه إليها الصهاينة اللادينيون أنفسهم . ويُعَدُّ شختر مسئولاً أكثر من أي

شخص آخر عن إدخال الأفكار الصهيونية على اليهودية المحافظة في الولايات المتحدة . وقد عارض شختر مشروع شرق أفريقيا ، وكان يرى أن أية دولة صهيونية خارج الأرض المقدَّسة لا معنى لها ، وقد ساهم في تأسيس معهد التخنيون في حيفا . وبعد الحرب العالمية الأولى عبَّر عن أمله في أن ينتصر الحلفاء على الأتراك ليستولوا على فلسطين ، لأنه كان يؤمن بأن إنجلترا "الوطن الإنجيلي المفعم بالإيمان والروح العملية" ستفهم أماني الشعب اليهودي .

ومن الملاحَظ أن ثمة تقارباً شديداً بين رؤية شختر لكلٍّ من التاريخ والوحي ورؤية مارتن بوبر لهما (وذلك رغم اختلاف مصطلحهما الديني والفلسفي) . ويعود هذا ، في الواقع ، إلى الإطار الحلولي المشترك . فشختر يرى أن الوحي الإلهي (أو ما يقابل الأنت الأزلية عند بوبر) قد عبَّر عن نفسه من خلال التراث ، وأن العهد القديم ليس كتاباً مقدَّساً فحسب بل هو كتاب تاريخ يهودي (أو هو سجل الحوار على حد قول بوبر) ، وهو ليس أكثر الأشياء أهمية في حياة اليهود وإنما هو واحد من تعبيرات الذات والعبقرية اليهودية عن نفسها ، ولهذا يتحول مركز السلطة أو الحلول الإلهي من العهد القديم (كلمة الإله) نفسه إلى كيان حي آخر (تاريخ الشعب اليهودي) أو حتى الشعب اليهودي نفسه ، ففي تاريخ هذا الشعب يمكننا أن نعثر على المادة الخام لأي لاهوت يهودي . وترجيح كفة المخلوق على كفة الخالق نمط كامن في الفلسفات الحلولية .

وهذه الفلسفة الحوارية التي تتخذ شكل ما يعرف باليهودية التاريخية ، تُرجع كل شيء إلى الشعب اليهودي نفسه مصدر القيم التي يحكم بها على نفسه . وفي هذا الإطار ، تنتفي فكرة الحكم على الذات ، ويحل محلها نوع من تقديس الذات أو عبادتها ، وهي عبادة بالمعنى الحرفي للكلمة ، لأن الروح المقدَّسة قد حلت في التاريخ بحيث أصبح التاريخ (امتداد الذات القومية في الماضي) مقدَّساً لا يقبل النقاش . وبذا ، يصبح حق اليهود في أرض الميعاد حقاً مطلقاً وتصبح الأحكام الصهيونية لا رجعة فيها .

وللحاخام شختر مؤلفات عدة ، من بينها كتاب **بعض نواحي اللاهوت الحاخامي** ، ومجموعة مقالات في ثلاثة مجلدات نُشرت بعنوان **دراسات في اليهودية** ، كما حقَّق شختر العديد من النصوص الدينية التي عثر عليها في الفسطاط وإليها ترجع شهرته وتُسمَّى المجموعة باسمه «مجموعة مخطوطات شختر» .

سيروس أدلر (١٨٦٣-١٩٤٠)

Cyrus Adler

مفكر يهودي أمريكي من أصل ألماني . نشأ في جو ديني ذي توجه تقليدي ، ثم تَخصَّص في الدراسات السامية وأصبح أستاذاً لهذه المادة في جامعة فيلادلفيا .

ساهم في تأسيس الجماعة اليهودية للنشر في أمريكا (١٨٨٨)، كما أسس الجمعية التاريخية اليهودية الأمريكية (١٨٩٢) ، وأصبح رئيساً لها مدة عشرين سنة . قام بتحرير **الكتاب السنوي ليهود أمريكا** (الأجزاء السبعة الأولى ـ من عام ١٨٩٩ حتى عام ١٩٠٥) ، وكان أحد محرري **الموسوعة اليهودية** (القديمة) (١٩٠١ ـ ١٩٠٦) . وقد لعب أدلر دوراً مهماً في تأسيس كلية اللاهوت اليهودية تحت رئاسة شختر ، وأصبح رئيساً لها بعد موت شختر منذ عام ١٩٢٤ . وكان أحد مؤسسي المعبد الأمريكي الموحَّد ، ورئيساً له . كما كان أحد مؤسسي اللجنة اليهودية الأمريكية ، ثم رئيساً لها منذ عام ١٩٢٩ . وبرغم معارضته للصهيونية ، فإنه اشترك في الوكالة اليهودية .

ويتضح توجُّهه اليهودي المحافظ في كل أنشطته التي ترى اليهودية تراثاً تاريخياً متطوراً ، وكذلك في علاقته بكلية اللاهوت اليهودية وفي معارضته الصهيونية وتعاونه معها في آن واحد .

لويس جنزبرج (١٨٧٣-١٩٥٣)

Louis Ginzburg

عالم تلمودي ، وأحد قادة اليهودية المحافظة . وُلد في ليتوانيا من أسرة فقيه فلنا الذي أثَّر في تفكيره ، وأكمل دراسته الجامعية في ألمانيا والنمسا عام ١٨٩٨ . هاجر إلى الولايات المتحدة ليقوم بالتدريس في كلية الاتحاد العبري ، ثم انضم إلى هيئة محرري **الموسوعة اليهودية** (القديمة) . وتُعَدُّ المقالات التي كتبها لهذه الموسوعة من أهم الدراسات في مجالها . انضم عام ١٩٠٣ إلى كلية اللاهوت اليهودية ، وظل في منصبه هذا حتى وفاته .

وتنطلق معظم دراسات جنزبرج من القول بأن التاريخ اليهودي والحضارة اليهودية لا يمكن فهمهما دون معرفة كاملة بالشريعة ، أي أنه يرى أن هناك تداخلاً بين الشريعة وروح الشعب اليهودي ، وهذا هو الموضوع الأساسي في اليهودية المحافظة . من أهم دراساته **أساطير اليهود** (في سبعة أجزاء) حيث جمع كثيراً من الأساطير والقصص (أجاداه) وصاغ منها تاريخاً متواصلاً يستند إلى حياة الآباء وأبطال اليهود وأنبيائهم ، كما كتب **دراسات عن مرحلة الفقهاء** (جاءونيم) وعن التلمود البابلي .

لويس فنكلشتاين (١٨٩٥-١٩٩١)

Louis Finkelstein

حاخام أمريكي ، وأحد قادة حركة اليهودية المحافظة . حصل على الدكتوراه من جامعة كولومبيا عام ١٩١٨ ، ورُسّم حاخاماً في كلية اللاهوت اليهودية عام ١٩١٩ ، ثم عُيّن حاخاماً في إحدى الأبرشيات في نيويورك ، وكان في الوقت نفسه يُدرّس التلمود . وفي عام ١٩٢٤ ، بدأ يدرس اللاهوت حتى أصبح أستاذاً لهذه المادة منذ عام ١٩٣١ . وعُيّن رئيساً لكلية اللاهوت منذ عام ١٩٤٠ .

ويُعَدُّ فنكلشتاين ممثلاً للتيار المحافظ داخل اليهودية المحافظة . ومن أهم كتبه **اليهود : تاريخهم وحضارتهم ودينهم** (١٩٤٩) وهو في ثلاثة أجزاء ، وكتابه **عن الفريسيين** (١٩٣٨) وهو من جزأين .

شاؤول ليبرمان (١٨٩٨-١٩٨٣)

Saul Lieberman

عَالم تلمودي ، وأحد أقطاب اليهودية المحافظة . وُلد في روسيا ، ودرس فيها قبل الثورة في معاهدها الدينية وفي جامعة كييف بعدها . استوطن فلسطين عام ١٩٤٨ ، ودرّس التلمود في الجامعة العبرية وفي معاهد تعليمية أخرى ، ثم انتقل إلى الولايات المتحدة ليُدرّس في معهد الدراسات اللاهوتية . وله دراسات عديدة بالعبرية في التلمود ، كما أن له مؤلفين بالإنجليزية عن الحضارة اليونانية في فلسطين في العصر الهيليني .

ابراهام هيشيل (١٩٠٧-١٩٧٢)

Abraham Heschel

فيلسوف ديني يهودي . وُلد في بولندا لأسرة حسيدية ، وتلقّى تعليماً تقليدياً في التلمود والقبّالاه ، ثم انتقل إلى ألمانيا والتحق بجامعة برلين حيث حصل على الدكتوراه ، وتعرّف أثناء هذه الفترة إلى مارتن بوبر . قام النازيون بترحيله في أكتوبر ١٩٣٨ ، مع غيره من يهود شرق أوربا الذين كانوا قد نزحوا إلى ألمانيا ، فقام بالتدريس بعض الوقت في بولندا ، ثم هاجر إلى إنجلترا ومنها إلى الولايات المتحدة حيث قام بالتدريس عام ١٩٤٠ في كلية اللاهوت اليهودية .

وقد تأثر هيشيل بفلسفة هوسرل الظاهراتية ، فحاول في مؤلفاته أن يُقدّم لاهوتاً يهودياً ينطلق من الاعتماد على المصادر التقليدية للإجابة عن الأسئلة الحديثة . ويرى هيشيل أن الليبرالية والفكر الديني الحق لا يتفقان ، فالليبرالية تُخضع كل شيء للنقد ، وترى أن الإنسان قادر من تلقاء نفسه على أن يصل إلى الخلاص (وهذه مقولات كابلان واليهودية الإصلاحية إلى حدٍّ ما) . أما هيشيل ، فيرى ضرورة أن يعتمد الإنسان على قوة خارجية . فالعقل الإنساني يعجز عن الإحاطة بالتجربة الدينية تماماً ، والمقدّس لا يمكن أن يُردّ بشكل كامل إلى مقولات فكرية أو تحليلية إنسانية . ولكن كيف يتأتى للإنسان أن يصل إلى هذه القداسة ويدركها ؟ يرى هيشيل أن ثمة عناصر في الواقع الإنساني كامنة فيه ويمكنها أن تقود الإنسان إلى الإله من بينها الإحساس بالدهشة والسمو ، ولكنه يصر على أن الإله ليس مجرد حالة شعورية وإنما هو سر يتجاوز الواقع (وهو في هذا يختلف بشكل جوهري عن الحلولية اليهودية التي تسري في الفكر الديني اليهودي بشكل عام) .

وانطلاقاً من تعاريفه هذه ، يرى هيشيل أن الشريعة ملزمة لليهودي ، وأن الأعمال الخيرة مشاركة في القداسة الإلهية . ويظهر إصرار هيشيل على أن التجربة الدينية ذاتية وموضوعية في تعريفه للأوامر والنواهي ، فهي بالنسبة إليه دعاء أو صلاة على شكل فعل . ويُصر هيشيل على فكرة الاختيار ، ولكنه يرى أن الاختيار مسئولية ملقاة على عاتق اليهود ، وليست علامة من علامات التفوق . والاختيار لا يشير إلى خاصية موجودة في الشعب وإنما إلى نوع العلاقة مع الإله ، فالاختيار علاقة مع الحقيقة النهائية ، وعلى اليهود أن يتساموا على أنفسهم دائماً كي يصبحوا جديرين بهذا الاختيار .

ومع هذا ، تبدت الطبقة الحلولية (داخل التركيب الجيولوجي اليهودي) في إصرار هيشيل على أن ثمة تميزاً خاصاً لليهودي ، فهو إنسان عليه أن يكون أكثر من إنسان ، وكي يصبح اليهود شعباً عليهم أن يصبحوا أكثر من شعب ، بل إنه يرى أن العهد بين الشعب والإله يتضمن استجابة متبادلة بينهما ومتوازية لأن الإله يحتاج إلى الإنسان كي يحقق أهدافه في هذا العالم . وهذه إحدى المقولات الأساسية للقبّالاه التي درسها هيشيل . وقد وُصفت فلسفته بأنها حسيدية جديدة . وقد كتب هيشيل عدة مؤلفات ، من أهمها **الأنبياء** (١٩٦٢) ، و **الإنسان من هو؟** (١٩٦٥) ، و **إسرائيل : صدى الأزلية** (١٩٦٩) .

وقد كان لهيشيل دور سياسي ملحوظ في حركة الحقوق المدنية في الستينيات ، أصبح خلاله بطلاً من أبطال اليسار اليهودي الأمريكي . وهو رغم ارتباطه باليهودية المحافظة ، لا تشغل الدولة الصهيونية حيزاً من تفكيره الديني أو السياسي ، ولعل هذا يفسر عدم اشتراكه في النشاط الصهيوني ، وهو أمر يتسق على كل حال مع معظم أطروحاته ، وخصوصاً إصراره على الجانب الذاتي للتجربة الدينية ومحاولته في الوقت نفسه ألا يسقط في الحلولية .

جيكوب أجوس (١٩١١-١٩٨٦)

Jacob Agus

حاخام يهودي محافظ . وُلد في بولندا وتعلَّم فيها ، كما تعلَّم في كلٍّ من إسرائيل والولايات المتحدة . وبعد أن عمل حاخاماً لبعض الوقت ، عُيِّن أيضاً أستاذاً في جامعة تمبل والكلية التجديدية للحاخامات . وهو يمثل التيار الليبرالي داخل اليهودية المحافظة . من أهم أعماله ، **معنى التاريخ اليهودي** (١٩٣٦) وهو من جزءين ، **والحوار والموروث** (١٩٦٩) .

جرسون كوهين (١٩٢٤-١٩٩١)

Gerson Cohen

أحد زعماء اليهودية المحافظة . وهو مؤرخ يهودي وُلد في نيويورك وتخرَّج في كلية اللاهوت اليهودية ، حيث تَخصَّص في التاريخ اليهودي . وعمل أميناً لمكتبة الكلية بعد تخرُّجه ، ودرس التاريخ والتلمود ، وأصبح أستاذاً لمادة التاريخ ، وترك المدرسة عام ١٩٦٧ ليخلف سالو بارون أستاذاً للتاريخ اليهودي في جامعة كولومبيا ، ثم عاد إلى كلية اللاهوت بعد عامين . وفي عام ١٩٧٢ ، عُيِّن مديراً للكلية . وقد صرح للنساء بالانضمام للكلية ، وهو ما أدَّى إلى حدوث انقسام في صفوف اليهودية المحافظة . ومن بين أهم أعماله تحقيقه لكتاب ابن داود **سيفر هقَّبالاه** (١٩٦٧) . وآخر أعماله هي **دراسات في تنوع الثقافات الحاخامية** (١٩٩٣) .

وقد بدأ جرسون ، في الآونة الأخيرة ، يشعر بأن الفكر الديني اليهودي يؤكد مركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا (الجماعات اليهودية في العالم) ويُقلل من أهمية هذه الجماعات . ولذا ، فقد شكل حلقة دراسية هو والحاخام ألكسندر شندلر (زعيم اليهودية الإصلاحية) تنطلق من الإيمان بأن يهود أمريكا ككل يمكنهم المحافظة على اهتمامهم بإسرائيل وصياغة مصيرهم المستقل في آن واحد دون أن يمنحوا إسرائيل مركزية في حياتهم .

اليهودية المحافظة والصهيونية

Conservative Judaism and Zionism

لابد أن نذكر ابتداءً أن المذهب المسيطر على الحياة الدينية في إسرائيل هو اليهودية الأرثوذكسية . ولكننا ، رغم ذلك ، نرى أن الفكر الصهيوني يشبه في كثير من الوجوه فكر اليهودية المحافظة ، فكلاهما يتبنى مقولات اليهودية الأرثوذكسية الحلولية بعد أن علمنها كلٌّ منهما على طريقته . فبينما يؤكد الأرثوذكس الأصول المقدَّسة الربانية للتراث اليهودي ، يرى المحافظون أنه تراث مقدَّس ، ولا يعنون كثيراً بمصدر القداسة . وعلى حين يلغي الأرثوذكس التاريخ الزمني كليةً ولا يدورون إلا داخل إطار التاريخ المقدَّس ، نجد أن المحافظين يتحدثون عن تاريخ يهودي لا يختلف كثيراً عن التاريخ المقدَّس . وبينما يصر الأرثوذكس على مقولة أن الدين اليهودي هو القومية اليهودية وعلى أن القومية هي الدين ، يحاول المحافظون تمويه هذه الحقيقة والتخفيف من حدتها بعض الشيء بالحديث عن الروح المقدَّسة للشعب ، وجعلها مصدر القداسة بدلاً من الإله ، وكذلك بالحديث عن اليهودية كخليط من العقيدة الدينية والهوية الإثنية ، وهو خليط أخذ يتطور منذ القدم حتى الوقت الحاضر . وهكذا ، فإننا نجد أن اليهودية المحافظة هي الحلولية اليهودية التقليدية ، بعد أن تم ترجيح كفة الجانب البشري على الجانب الإلهي ، وهذا هو جوهر الصهيونية أيضاً .

وقد ارتبطت اليهودية المحافظة بالصهيونية منذ البداية ، ويمكننا أن نعد الصهيونية الثقافية ، التي كان يدعو لها آحادهعام ، ضرباً من ضروب اليهودية المحافظة (وكذا تجديدية كابلان وحوارية بوبر) . وبالفعل ، تبنت اليهودية المحافظة رؤية آحاد هعام للجماعات اليهودية في العالم (الدياسبورا) ورفضت المفهوم الصهيوني الخاص بضرورة نفي الدياسبورا (أي محوها أو استغلالها) ، وطالبت باحترامها واحترام تراثها التاريخي . وكل ما يجمع هؤلاء المفكرين هو إيمانهم باختلاف التاريخ اليهودي عن تاريخ بقية الشعوب ، فهو تاريخ مقدَّس يتضمن عناصر دينية ، فهو موضع الحلول الإلهي ، كما أن الدين اليهودي دين تاريخي يتضمن عناصر دنيوية (والواقع أن تداخل المقدَّس والدنيوي هو أساس بنية الفكر الصهيوني) .

ولعل ذلك التقابل الواضح بين اليهودية المحافظة والصهيونية واضح تماماً في موقف زكريا فرانكل وبن جوريون مما يُسمَّى «التراث اليهودي» . ففرانكل يرى أن الدين اليهودي هو التعبير الديني عن روح الأمة اليهودية ، وهو بمنزلة إجماعها الشعبي العام . ولذا ، يجب ألا تثار مسألة ما إذا كان القانون من أصل سماوي أو أرضي ، فمادام القانون يعبِّر عن هذا الإجماع الشعبي العام فيجب أن يبقى ساري المفعول . ويشبه هذا الموقف ، في كثير من الوجوه ، موقف بن جوريون من أسطورة العهد الذي قطعه الإله على نفسه بمنح اليهود أرض كنعان ، فبالنسبة لبن جوريون لا يهم إن كانت هذه الواقعة حقيقةً إلهية أم لا ، فالمهم هو أن تظل هذه الأسطورة مغروسةً في الوجدان اليهودي ، ولذا يجب أن تبقى سارية المفعول حتى بعد أن ثبت أن الوعد المقطوع مجرد أسطورة شعبية ليس لها أي مصدر

إلهي . وقد بدأت اليهودية المحافظة تلعب دوراً تنظيمياً نشيطاً داخل الحركة الصهيونية ، وتأسست منظمة محافظة صهيونية هي منظمة مركاز (اختصار عبارة «موفمنت تو ري أفيرم كونسرفاتيف زايونيزم Movement to Reaffirm Conservative Zionism» ، أي «حركة إعادة تأكيد الصهيونية المحافظة») .

وقد أصدرت الجمعية الأمريكية للحاخامات قراراً للمعابد اليهودية المحافظة بالانضمام إلى المنظمة الصهيونية العالمية بشكل جماعي ، ويُلاحَظ أن اليهودية المحافظة بدأت تحقق نجاحاً ملحوظاً في إسرائيل في الوقت الحاضر . وقد أُسِّست أول أبرشية محافظة في فلسطين عام ١٩٣٦ . ولكن حتى أوائل السبعينيات ، لم يكن في إسرائيل سوى عدة معابد يهودية محافظة ، ومركز للطلبة اليهود الأمريكيين ، نيفيه شختر ، وهو يُعَد الفرع الصيفي لكلية اللاهوت اليهودية . ولكن ، بعد ذلك التاريخ ، بدأت محاولات جادة لتوسيع نطاق الحركة ليشمل التجمع الصهيوني كله . وباءت المحاولات بالفشل حتى أوائل الثمانينيات ، حين ظهرت حركة ماسورتي (أي التقليدية) التي أسِّست عام ١٩٨٤ معاهدها الأساسية ومنها المعهد العالي للدراسات اليهودية الذي يُعد الدارسين الإسرائيليين ليعملوا حاخامات محافظين ، وحركة نوام الشبابية ومعسكرات صيفية ومدارس وكيبوتس وموشاف وفرق نحال . ويتكون هيكل حركة ماسورتي التنظيمي من معبد إسرائيل المتحدة ويضم قيادات الأبرشيات ، ومجمع إسرائيل الحاخامي ويضم حوالي ١٠٠ حاخامي ماسورتي . ويبلغ عدد أعضاء الحركة حوالي عشرة آلاف . ويوجد الآن نحو أربعين أبرشية محافظة . كما نجحت الحركة في تأسيس مدارس تالي ، وهي مدارس تعكس أيديولوجيا الحركة . ولا تتلقى هذه المدارس أي عون من الحكومة الإسرائيلية بسبب عدم اعتراف المؤسسة الأرثوذكسية بها .

وقد أصدرت حركة ماسورتي بياناً رسمياً عام ١٩٨٦ يحدد موقفها . وبعد عامين ، أصدر المجلس الحاخامي بياناً أكثر شمولاً يعكس اهتمامات الحركة في الولايات المتحدة . وقد لوحظ وجود اختلافات مهمة بين ما جاء في هذا البيان وموقف حركة الماسورتي ، وخصوصاً فيما يتعلق بدور إسرائيل بين يهود العالم .

ولا تعترف المؤسسة الأرثوذكسية المهيمنة في إسرائيل بالحاخامات المحافظين ، كما لا تعترف بالزيجات التي يعقدونها أو مراسم الطلاق التي يقيمونها . وعلاوة على ذلك ، تحاول المؤسسة الأرثوذكسية أن تعدل قانون العودة فتضيف عبارة « من تهوَّد حسب الشريعة » ، أي على يد حاخام أرثوذكسي ، وهو ما يعني استبعاد الحاخامات المحافظين . وتوزع دار الحاخامية منشورات تحذر الناس من أن أداء الصلوات في المعابد التابعة لحركة ماسورتي محرم .

اليهودية التجديدية

Reconstructionism

«اليهودية التجديدية» مذهب ديني يهودي حديث يشبه في كثير من الوجوه اليهودية المحافظة ، أسسها الحاخام مردخاي كابلان عام ١٩٢٢ في الولايات المتحدة عند تأسيس جمعية تطوير اليهودية . وقد اكتسبت اليهودية التجديدية معالمها التنظيمية بشكل أكثر تحديداً عام ١٩٣٤ ، حين نشر كابلان مجلة **التجديدي** التي التفت حولها مجموعة من المفكرين اليهود ، منهم : ملتون ستاينبرج ، وإيوجين كون ، وزوج ابنته إيرا إيزنشتاين . ورغم أن اليهودية التجديدية حاولت أن تظل ، من ناحية الأساس ، اتجاهاً دينياً وحسب ، فإنها تحولت تدريجياً إلى فرقة دينية ، فنشر كابلان **الهاجاداه الجديدة** عام ١٩٤١ ، كما نشر دليلاً للشعائر اليهودية في العام نفسه . وقد أصبح إيرا إيزنشتاين قائداً للحركة عام ١٩٥٩ . كما أصبحت الحركة فرقة دينية بمعنى الكلمة عام ١٩٦٨ ، حينما تم تأسيس الكلية الحاخامية التجديدية في فيلادلفيا لتخريج حاخامات تابعين للحركة . ويوجد داخل الحركة التجديدية إطاران تنظيميان : المؤسسة التجديدية نفسها ، وتضم اليهود التجديديين ، ثم هناك اتحاد الأبرشيات التجديدية والجماعات الصغيرة (حفروت) ، وهي كلمة عبرية معناها الحرفي «ارتباط» ، وتضم اليهود التجديديين ومجموعات صغيرة من اليهود تقبل الإطار الفكري العام لليهودية التجديدية دون أن يصبحوا بالضرورة تجديديين . ويجتمع أعضاء هذه الجماعات مرة كل أسبوع ، أو مرة كل أسبوعين للتعبد ولتبادل الأفكار .

وتحاول اليهودية التجديدية الوصول إلى صيغة للدين اليهودي تلائم أوضاع الأمريكيين الذين يعيشون داخل حضارة علمانية برجماتية ، وقد تأثر مؤسسها بأفكار الفيلسوف الأمريكي جون ديوي . وتَصدُر اليهودية التجديدية عن الإيمان بأن إعتاق اليهود وضع فريد تماماً في تجربتهم التاريخية ، عليهم التكيف معه ، وعلى اليهودية أن تُعدِّل هويتها بشكل يتفق مع المعطيات الجديدة . ولم تكن مهمة كابلان عسيرة كما قد يبدو لأول وهلة ، ذلك لأن اليهودية باعتبارها تركيباً جيولوجياً تحوي داخلها من الطبقات المختلفة المتناقضة ، والمتعايشة جنباً إلى جنب ، ما يسبغ شرعية على أي اتجاه ديني مهما تكن صيغته ومهما كان تطرفه وتفرُّده . والواقع أن

كابلان، شأنه شأن كثير من المفكرين الدينيين اليهود، وخصوصاً مارتن بوبر وسولومون شختر، ينطلق من الطبقة الحلولية داخل التركيب الجيولوجي، لذا فهو يؤمن بإله لا يسمو لا على المادة ولا على التاريخ ولا على العلم الوضعي، وإنما هو كامن فيها كلها.

ويُلاحَظ أن الإله عادةً ما يلتحم بمخلوقاته في النسق الحلولي ويتوحد معها ويذوب فيها، فينسحب ثم يختفي تماماً إلا اسماً، ويظهر الإنسان متميِّزاً إلى أن يحل محل الإله تماماً، وهكذا تتحول الحلولية من مرحلة وحدة الوجود الروحية إلى مرحلة وحدة الوجود المادية أو حلولية بدون إله، وهي مرحلة العلمانية. وهذا هو ما يحدث في فلسفة كابلان، فهو يرى أن الدنيا مكتفية بذاتها، إذ أن الإنسان يتضمن من القدرات ما يؤهله للوصول إلى الخلاص بمفرده دون عون خارجي، كما أن الطبيعة المادية يوجد فيها من المصادر ما يجعل هذه العملية ممكنة. والإله داخل هذا الإطار المنغلق على نفسه ليس كائناً أسمى خلق العالم وتَحكَّم فيه، وإنما هو مجرد عملية كونية تقترن في الواقع بذلك الجانب الذي يزيد قيمة الفرد والوحدة الاجتماعية، وهو القوة التي تدفع نحو الخلاص، وهو التقدم العلمي. ولذا، فرغم أن كابلان يحتفظ بفكرة الإله في صيغة شاحبة باهتة، فإن ما بقي منه هو في واقع الأمر الاسم وحسب. ولذا، فليس من المستغرب أن ينكر تماماً فكرة الوحي الرباني وفكرة البعث والآخرة في صياغتهما اليهودية. والواقع أن فكرة الرب التي يطرحها كابلان لا تدع مجالاً لأية علاقة شخصية عاطفية بين الإله ومخلوقاته، فهو بهذا كيان مجرد يشبه النظريات الهندسية أو المعادلات الرياضية (ولا يختلف كثيراً لا عن إله إسبينوزا الذي يتوحد تماماً مع الطبيعة وقوانينها، ولا عن إله الربوبيين الذي يذوب تماماً في العقل المادي وقوانين التطور).

وبشحوب فكرة الإله ثم اختفائها، تظهر فكرة الشعب عنصراً أكثر أهمية من الإله في النسق الديني. وإذا كانت هذه الفكرة جنينية في فكر اليهودية المحافظة، فهي هنا تصبح واضحة صريحة. فأكثر الأشياء قداسة في نسق كابلان هو اليهود وتراثهم وليس دينهم. فالدين اختراع إنساني وتعبير حضاري عن روح الشعب العضوي (فولك)، يشبه في هذا المجال اللغة والفلكلور، ولا يوجد فارق كبير بين التوراة والكتب الأخرى للشعب، فكلها منتجات حضارية يلتحم فيها الدين بالموروث الحضاري. واليهودية نفسها عبادة شعبية أو قومية، أعيادها تشبه عيد الاستقلال عند الأمريكيين أو الأعياد الشعبية المختلفة. وهكذا يشحب الدين مثلما شحب الإله من قبل، وهكذا يختفي الدين مثلما اختفى الإله من قبل حتى يبرز عنصر واحد هو الشعب اليهودي وروحه المطلقة الأزلية.

ويرى كابلان أن وجود اليهود يسبق ماهيتهم. ولذا، فإن اليهود (هذا الوجود التاريخي المتطور) أهم من اليهودية (هذا النسق الديني الذي يتسم بشيء من الثبات). واليهودية إنما وجدت من أجل اليهود ولم يوجد اليهود من أجل اليهودية، وهذا على خلاف الرؤية الأرثوذكسية التي ترى أن اليهودي قد اختير ليضطلع بوظيفة مقدَّسة تجعل وجوده الدنيوي أمراً ثانوياً. والقاسم المشترك الأعظم بين اليهود ليس عقائدهم، ولا ممارساتهم الدينية، ولا حتى أهدافهم الخلقية، وإنما حضارتهم الشعبية الدينية، وهي حضارة يدفعها الإله بالتدريج نحو العُلا والسمو. ولكن العُلا والسمو هنا لا يكتسبان مفهوماً أخلاقياً ولا يرتبطان بعالم آخر أو قيم سامية إذ لا يشعر بهما اليهودي إلا الآن وهنا، وهما يعبِّران عن نفسيهما في رغبة اليهودي في البقاء، أي أن القيمة المطلقة في حضارة هذا الشعب ليست قيمة أخلاقية أو إنسانية وإنما قيمة البقاء، وهي قيمة طبيعية يشترك فيها الإنسان مع الحيوان (فكأن يهودية كابلان التجديدية كانت تحوي داخلها لاهوت موت الإله ولاهوت البقاء الذي ظهر في الستينيات). ويرى كابلان أن الصفة المشتركة بين اليهود ليست صفة أخلاقية وإنما هي صفة الاستمرار والبقاء، وهذه مصطلحات تتواتر في اليهودية المحافظة وفي الأدبيات الصهيونية سواء بسواء. من كل هذا، يمكن القول بأن محور الحياة اليهودية هو الشعب اليهودي، ويصبح معيار الإيمان باليهودية ليس الإيمان بهذه العقيدة أو تلك، أو ممارسة هذه الشعائر أو تلك، وإنما مدى التزام اليهودي ببقاء شعبه. ويصبح من غير المهم الإيمان أو عدم الإيمان بالدين، أي أن الإيمان لا يصبح ذا علاقة بفكرة الخير أو الالتزام المبدئي بمجموعة من القيم، وإنما هو إيمان ببقاء الشعب وتراثه القومي. وفي هذا الإطار، عَرَّف كابلان الشعائر والطقوس بأنها ليست قانوناً أو شريعة وإنما مجرد وسيلة لبقاء الجماعة وتطوُّر الفرد، فاليهودية في خدمة اليهود وكل فرد يقرر لنفسه ما سيمارسه من طقوس. ولكنه، نظراً لإيمانه الشديد بروح الشعب وأهمية الفلكلور، أوحى بضرورة الحفاظ على نوع من أنواع الاتزان.

وما يفعله كابلان هو أنه يستخدم الخطاب الديني ليعبِّر عن رؤية حلولية علمانية تنكر الحياة الآخرة وتمجِّد الذات الإثنية، وتخلع على الأشياء اليهودية قداسة يخلعها الفكر التوحيدي على الإله وحده وعلى كلمته، ويخلعها الفكر النازي (مثلاً) على الشعب الألماني وأرضه، ويخلعها الفكر الماركسي على الطبقة العاملة أو الحتمية التاريخية أو القوانين المادية.

وتجديدية كابلان تشبه من جوانب عدة اليهودية المحافظة أو التاريخية في تأكيدها أهمية التراث اليهودي الديني ، وفي تقديسها له دون أن تشغل نفسها بمصدر القداسة سواء كان روحياً ربانياً أو كان روح الشعب . وعلى أية حال ، فإن كابلان ، مثل بوبر ومثل كثير من المفكرين الدينيين اليهود ، يرى أن ثمة توازناً وتعادلاً وامتزاجاً وحواراً بين الإله والشعب ومن ثم لا يهم مصدر القداسة . ومع هذا ، فإن اليهودية التجديدية صياغة متطرفة لليهودية المحافظة ، فهي قد تخلصت من كل الترسبات الدينية العالقة بالنسق الديني المحافظ ، وغلّبت العنصر الدنيوي تماماً ، بحيث لم تعد فكرة التقدم معادلاً للإله ، بل أصبحت هي نفسها الإله !

وفكرة المطلق الدنيوي (الروح واسم مضاف لها) فكرة أساسية في اليهودية الإصلاحية التي تحاول أن تعكس «روح العصر» ، وفي اليهودية المحافظة التي تعكس «روح الشعب اليهودي» ، وهي كذلك في اليهودية التجديدية ، إلا أن روح الشعب هنا يُلاحَظ أنها تصبح روح الشعب اليهودي في الولايات المتحدة ، أي روح الشعب اليهودي الأمريكي . ويبدو أن إله كابلان يعبِّر عن مشيئته ويفقد نفسه في المجتمع الأمريكي بالذات أكثر من أي مجتمع آخر . وليس من قبيل المصادفة بالطبع أن هذا المجتمع يضم أكبر تجمُّع يهودي في العالم . ولأن المجتمع الديموقراطي هو المجتمع المثالي ، فإن اليهودي الأمريكي يمكنه أن يرتبط بمجتمعه الديموقراطي الجديد فخوراً بارتباطه لأنه يعيش في حضارتين منسجمتين .

ويمكن التعبير عن كل هذا بالقول بأن كابلان قد وسَّع نطاق المطلق ونقطة الحلول بحيث لم تَعُد مقصورة على الشعب اليهودي وتراثه وحسب وإنما اتسعت لتشمل الشعب الأمريكي وتراثه الديموقراطي أيضاً ، وبذا فإن قداسة الأمريكيين اليهود جزء من قداسة الشعب الأمريكي بعامة . ولذا ، نجد أن كابلان يعتبر وثائق التاريخ الأمريكي كتباً دينية مقدَّسة ، تماماً كما أن العهد القديم كتاب تاريخ يهودي مقدَّس . وانطلاقاً من هذا الإيمان بقداسة الولايات المتحدة ، يرفض كابلان فكرة الاختيار التقليدية التي تُميِّز بين الشعب اليهودي المقدَّس والشعوب الأخرى (كالشعب الأمريكي) التي يعيش بين ظهرانيها . ويمكن القول بأن اليهودية التجديدية هي النقطة التي نجد أن اليهودية تتحول فيها من عقيدة دينية شبه علمانية إلى عقيدة علمانية شبه دينية أو عقيدة ذات ديباجات دينية . واليهودية التجديدية تشبه في كثير من النواحي العقيدة الموحدانية (المسيحية) .

ويرى كابلان أن العهد الذي وَحَّد بين اليهود في الماضي يجب أن يُوحِّد في الوقت الحاضر بين إسرائيل ويهود العالم . كما يرى كابلان أن اليهودية هي حضارة الشعب ولا يمكنها أن تستمر دون أن تكون لها دولة فيها أغلبية يهودية تمثل المركز لكل الجماعات اليهودية في العالم ، ولذلك فقد نادى بتعمير أرض إسرائيل باعتبارها الوطن القومي للحضارة اليهودية . وهو يتفق في نهاية الأمر مع الصهاينة في إنكار أن الإله هو مصدر القداسة ، فمصدرها الحقيقي بالنسبة له هو التاريخ اليهودي والأمة اليهودية ، وهو ما يؤدي إلى تداخُل وتمازُج الدنيوي والمقدَّس ، والقومي والديني . وإذا كان كابلان صهيونياً ، فهو صهيوني خارجي توطيني يقبل الصهيونية إطاراً ورؤية ولكنه يرفض الاستيطان في فلسطين هدفاً نهائياً لكل اليهود ، وإن كان لا يُمانع في المساهمة في توطين الآخرين وفي التحدث عن إسرائيل في حياة اليهود . ويرى كابلان أهمية الجماعات (الدياسبورا) ومركزيتها وضرورة الحفاظ على استقلالها واستمرارها ، أي أنه يفترض نقطتين للحلول أي مطلقين : إسرائيل والشعب اليهودي خارجها . ولأن أي نسق فلسفي لا يمكنه أن يتعايش بسهولة مع مطلقين ومركزين ، فقد اقترح أن تُعبِّر الحياة اليهودية عن نفسها (خارج إسرائيل) من خلال حياة يهودية عضوية ، الوحدة الأساسية فيها مكوَّنة من المؤسسات التعليمية والمعبد اليهودي ، والمنظمة الصهيونية ، وتنتخب كل جماعة صغيرة القيادة التي ستدير شئونها والتي تقوم بعملية ربط الجماعات اليهودية في العالم بالدولة الصهيونية . ولن يصبح المعبد اليهودي ، من هذا المنظور ، معبداً للصلاة وحسب وإنما مركز اجتماعي يعبِّر عن كل جوانب حياة اليهود . كما طالب كابلان الأمم المتحدة بأن تعترف باليهود كشعب عالمي له وضع قانوني خاص .

ويضم كتاب كابلان **اليهودية كمدنية** (١٩٣٤) الأفكار الأساسية لليهودية التجديدية التي تضم نحو ٧٥ ألف عضو في ١٥٦ أبرشية . لكن مجلس معابد أمريكا الذي يضم ممثلين عن كل الفرق الدينية الأخرى رفض السماح لليهودية التجديدية بالانضمام إلى عضويته ، أي أنه لا يعترف بها كفرقة دينية . وهذا يعود إلى معارضة اليهود الأرثوذكس ممن لهم حق الاعتراض (الفيتو) داخل المجلس . وقد صرح الحاخام إيزيدور إينشتاين بأن اليهودية التجديدية يتبعها معابد يهودية لها حاخامات ، ولكنها ليست ديناً على الإطلاق (وهذا هو نفسه ما يقوله الأرثوذكس عن المحافظين والإصلاحيين) .

ومع هذا ، تجب الإشارة إلى أن أثر كابلان في الحياة اليهودية في الولايات المتحدة عميق إلى أبعد حد ، ويُعَدُّ فكره من أهم المؤثرات في اليهودية المحافظة التي تضم أغلبية يهود الولايات المتحدة الذين يعرِّفون انتماءهم تعريفاً دينياً . كما ترك كابلان أثراً عميقاً في

الفكر التربوي اليهودي . وقد تحققت رؤية كابلان إلى حدٍّ بعيد ، فاليهودية آخذة في الاختفاء باعتبارها ديناً ، وبدأت تحل محلها الإثنية اليهودية ، أي أن اليهود حلوا محل اليهودية . ويجأر حاخامات الولايات المتحدة بالشكوى من أن المعبد اليهودي قد تحوَّل إلى مركز اجتماعي ، وإلى فرع للمنظمة الصهيونية العالمية ، كما أنهم يرون أن اليهود يؤمنون بالدولة الصهيونية أولاً وقبل كل شيء ، أي أن اليهودية تحولت إلى ممارسة إثنية لا يربطها رابط بالعقائد الدينية .

وقد حدث تطوُّر كبير في اليهودية التجديدية بظهور كتاب رئيس كلية الحاخامات التجديديين الحاخام أرمز جرين **فلتبحث عن وجهي ، ولتتفوه باسمي** (١٩٩٢) ويُعدُّ الكتاب محاولة لتجاوز العقلانية المادية الباردة التي تسم كتابات كابلان واليهودية التجديدية بعامة ويذهب الحاخام جرين إلى أن الأحداث التي وردت في العهد القديم صور مجازية للتعبير عن الحقيقة ، تضرب بجذورها بعيداً عن السطح وطالب برؤية غير ازدواجية (واحدية) تمحو التمييز التقليدي بين المادي والإلهي . فالإله والعالم صيغتان مختلفتان تعبِّران عن كائن واحد . وأنكر أن الإله عنده أي مخطط أو هدف أو غاية للعالم أو أن الإله يعبِّر عن نفسه في التاريخ . فالإله شيء نشعر به نحن من خلال تجربة شخصية أو من خلال عنايتنا بالبيئة ، والوحي لا يأتي من عل ، وإنما هو يشبه الإلهام الفني الذي ينبع من الروح الإنسانية . ويؤكد جرين أنه لا يوجد إله يطلب من عابديه أن يتبعوا سلوكاً محدداً وأشكالاً محددة من العبادة . أما الماشيَّح فهو الذات الإنسانية المنفتحة على الواحد وهكذا اكتمل الحلول تماماً وأصبحت الذات الإنسانية هي الذات الإلهية وأصبح العالم هو الإله .

ويبلغ عدد اليهود التجديديين ٢٪ من يهود أمريكا .

مردخاي كابلان (١٨٨١-١٩٨٣)
Mordecai Kaplan

حاخام وفيلسوف ديني ، وقائد صهيوني أمريكي . وُلد في ليتوانيا ، وتلقَّى تعليماً أرثوذكسياً في الولايات المتحدة ، ولكنه انصرف عن الأرثوذكسية ، وانجذب نحو أفكار أكثر تحرراً . عيَّنه سولومون شختر عميداً لمعهد التربية التابع لكلية اللاهوت اليهودية ، فظل يُدرِّس فيها من عام ١٩٠٩ حتى عام ١٩٦٣ . وأسس كابلان عام ١٩٣٣ جماعة تطوير اليهودية التي كانت تعبِّر عن أفكاره الفلسفية ، وانصرف منذ الثلاثينيات إلى تطوير فلسفته اليهودية الخاصة التي تُعرَف باسم المدرسة التجديدية الدينية اليهودية ، أو اليهودية التجديدية ، منطلقاً في ذلك من خليط من البرجماتية وعلم النفس الاجتماعي والمثالية الفلسفية وضرب من ضروب الطبيعية الدينية (إن صح التعبير) والصهيونية الثقافية (على عكس أبراهام هيشيل الذي ينطلق من أطروحات صوفية حسيدية أو وجودية) . ويرى كابلان ضرورة الاستفادة من الدراسات التاريخية لليهودية التي كشفت لليهود عن أشكال التطور المختلفة وحركياتها وقوانينها الأمر الذي يجعل من الممكن استخدام هذه القوانين في عملية التغيير بشكل أكثر نشاطاً ووعياً حتى يتسنى تعديل الشريعة نفسها والممارسات بل حتى مقاييس العقيدة نفسها ، وذلك لتتلاءم مع قانون تطوُّر اليهودية .

ومن أهم أعمال كابلان ترجمته لبعض أعمال حاييم لوتساتو ، ودراسته في فكر هرمان كوهين ، وكتاب **اليهودية كمدنية** (١٩٣٤)، و **معنى الإله في الدين اليهودي الحديث** ، و **المستقبل اليهودي الأمريكي** . وقد ترك كابلان أثراً عميقاً في اليهودية المحافظة ، وفي الفكر التربوي اليهودي بشكل عام .

مجلس المعابد في أمريكا
Synagogue Council of America

مجلس المعابد في أمريكا هيئة أُسِّست عام ١٩٢٦ يُمثَّل فيها مختلف الفرق اليهودية في الولايات المتحدة (الأرثوذكس والمحافظين والإصلاحيين ـ ولكنها تستبعد التجديديين) . وهي هيئة تنظم التعاون بين الفرق الثلاث ، كما تحاول التصدي للأنشطة التبشيرية المسيحية بين اليهود والتحيز الديني ضدهم .



٨
تجديد اليهودية وعلمنتها

علمنة اليهودية ـ بايك ـ بوبر ـ روزنزفايج ـ لفيناس ـ تريجانو

علمنـــة اليهوديـــة

Secularization of Judaism

«علمنة اليهودية» مصطلح نستخدمه لنصف إعادة صياغة النسق الديني اليهودي من الداخل على يد بعض المفكرين اليهود العلمانيين وشبه العلمانيين ، حتى تتكيف اليهودية تماماً مع العلمانية (بعقلانيتها أو لا عقلانيتها المادية) ، وتصبح كل منطلقات اليهودية الدينية والفلسفية ذات طابع نسبي تاريخاني .

ولكي ندرس العلاقة بين العلمانية والصهيونية، لابد أن ندرس العلاقة بين الحلولية والعلمانية. والحلولية هي تداخل عناصر الثالوث الحلولي (الإله ـ الإنسان ـ الطبيعة)، إذ يحل الإله تدريجياً في الإنسان والطبيعة حتى يلتصق بهما ويتوحَّد معهما ولا يبقى منه سوى الاسم (مرحلة وحدة الوجود الروحية وشحوب الإله). ثم يسقط الاسم نفسه (مرحلة وحدة الوجود المادية والواحدية المادية الكونية وموت الإله). ومرحلة الواحدية الكونية هي المرحلة التي تختفي فيها تماماً المساحة بين الخالق والمخلوق وبين المطلق والنسبي وبين الإنساني والطبيعي وتَمَّحي كل الثنائيات والخصوصيات، وتصبح كل الأمور مقدَّسة متساوية ومن ثم نسبية، ويصبح كل شيء مرجعاً لذاته وتسقط المرجعية المتجاوزة .

وعلمنة العقيدة اليهودية هي عملية تحويرها (وإفسادها) ، عن وعي أو عن غير وعي ، على يد المفكرين الدينيين اليهود الذين أسقطوا كثيراً من المعتقدات الدينية اليهودية المحورية الأساسية التي تؤكد ثنائية الواقع ووجود المطلقات المتجاوزة لتحل محلها عقائد حلولية جديدة تنكر الثنائية والتجاوز وتؤكد الواحدية الكونية (الصلبة أو السائلة) بحيث لا تختلف اليهودية في بنيتها عن أية عقيدة علمانية . ولنا أن نلاحظ أن من المألوف أنْ يستخدم المفكرون الذين يقومون بعملية العلمنة المصطلحات والمفردات الدينية نفسها التي استخدمها المفكرون الدينيون التقليديون .

ويمكن القول بأن اليهودية ، كنسق ديني ، كانت مرشحة للعلمنة من الداخل لعدة أسباب من أهمها :

١ ـ طبيعة اليهودية كتركيب جيولوجي تراكمي يحوي داخله العديد من التناقضات .

٢ ـ الطبقة الحلولية القوية داخل هذا التركيب ، والتي كانت قد اكتسحت معظم يهود اليديشية في العالم .

٣ ـ اضطلاع اليهود بدور الجماعة الوظيفية ، وأعضاء هذه الجماعات عادةً من حملة الفكر العلماني .

٤ ـ أزمة اليهودية الحاخامية ابتداءً من القرن التاسع عشر وتَجمُّدها وتصلُّبها الأمر الذي جعلها غير قادرة على الاستجابة لتحديات الثورة العلمانية الشاملة .

وتاريخ الفكر الديني اليهودي منذ عصر النهضة في الغرب هو أيضاً تاريخ علمنة النسق الديني اليهودي . ويمكن العودة للباب المعنون «إشكالية علاقة اليهودية بالصهيونية» ولباب «إشكالية الحلولية اليهودية» . كما يمكن العودة للمداخل التالية :

١ ـ «إسبينوزا ، باروخ» ، وهو الفيلسوف الذي تتحول على يديه الحلولية الدينية إلى الطبيعية المادية دون إسقاط الديباجات الدينية (الإله هو الطبيعة) .

٢ ـ «اليهودية الإصلاحية» ، وهي الفرقة التي قامت بإعادة صياغة اليهودية لتتفق مع روح العصر (باعتبار أن العصر الحديث موضع الحلول) .

٣ ـ «اليهودية المحافظة» ، وهي الفرقة الدينية التي ترى أن اليهودية تعبير عن روح الشعب اليهودي وعن تاريخه .

وستتناول بقية مداخل هذا القسم بعض المفكرين الدينيين اليهود الذين ساهموا في عملية العلمنة وكلهم فلاسفة يؤكدون العلاقة الحوارية (الحلولية/ العضوية) بين الشعب اليهودي والخالق ، أي حلول الإله في الشعب والأرض . وفي آخر هذا القسم سنتناول اليهودية الليبرالية واليهودية التجديدية باعتبارهما حركتين تدَّعيان أنهما «دينيتان» ولكنهما في واقع الأمر علمانيتان بشكل واضح . فالديباجة الدينية شاحبة ، وفكرة الإله تتأرجح بين مرحلة شحوب الإله وموته الكلي بل اختفاء ظلاله الباقية في مرحلة ما بعد الحداثة) . فكلاهما مرجعيته النهائية هي الدنيا أو التاريخ أو الطبيعة ، ولذا فهما يحاولان تكييف العقيدة لتتفق مع الدنيا (والدنيا في حالة اليهودية التجديدية هي الولايات المتحدة) ، ولذا فهي تقوم

بإعادة صياغة اليهودية لتتفق مع عقيدة التقدم ، ومع وضع يهود أمريكا باعتبارهم جزءاً عضوياً من المجتمع الأمريكي .

وقد أدّى تصاعُد معدلات علمنة النسق الديني من الداخل إلى أن الجو أصبح مهيأ تماماً لاستيلاء العقيدة الصهيونية على العقيدة اليهودية إلى أن حلت محلها من خلال عملية الصهينة من الداخل ، حتى أصبحت الصهيونية مرادفة لليهودية وظهرت أشكال من اليهودية مثل «اليهودية العلمانية» و«اليهودية الإثنية» و«اليهودية الإلحادية» و«لاهوت موت الإله» (انظر المداخل الخاصة بكل موضوع) ، وما شابه ذلك من عقائد علمانية تماماً تستخدم مفردات واصطلاحات وديباجات دينية .

ليو بايك (١٨٧٣-١٩٥٦)

Leo Baeck

مؤرخ وحاخام ليبرالي ألماني الأصل . درس في ألمانيا ، ونُصِّب حاخاماً هناك ، وعمل حاخاماً في برلين منذ عام ١٩١٢ . واشتغل بالتدريس في المدارس الدينية ، كما عمل حاخاماً في الجيش الألماني أثناء الحرب العالمية الأولى . وانتُخب رئيساً للهيئة التي تمثل كل يهود ألمانيا مع وصول النازي إلى الحكم . ورفض أن يغادر ألمانيا، فأُودع أحد معسكرات الاعتقال .

يرى بايك في كتابه **جوهر اليهودية** (١٩٠٥) أن اليهودية أسمى تعبير عن الأخلاق ، فهي ديانة من النمط الكلاسيكي تتّسم بالواقعية والتفاؤل الخلقي والالتزام العميق بحرية الإنسان ، ولذا فهو يرى أنها ديانة العقل الكلاسيكية ، وذلك على خلاف المسيحية ، فهي ديانة العواطف الرومانتيكية التي تحوي داخلها ميلاً (بدءاً ببولس) نحو تأكيد عنصر الرحمة الإلهية ، والاتحاد الصوفي بالإله ، وكذلك تأكيد أهمية الإيمان على حساب الأفعال ، الأمر الذي أدّى إلى عدم الاكتراث للكفاح ضد الشر (أي أنه يصنف المسيحية باعتبارها عقيدة صوفية تدور في إطار حلولي) . ويذهب بايك ، أيضاً إلى أن اليهودية ديانة عالمية وشاملة في محتواها ودروسها الأخلاقية . ولم يقرن بايك اليهودية بالعنصر الأخلاقي وحسب ، وإنما ذهب إلى أن الواجب اللامتناهي لتحقيق الخير ينبع من السر الذي هو الإله . والإنسان ، بإدراكه السر الإلهي ، يدرك أنه خُلق لهدف وغرض ولم يوجد صدفة ، وكل هذا يدل على أن بايك يحاول أن يفسر اليهودية بأنها ديانة توحيدية تعادي الحلولية . ولكنه ، مع هذا ، يضيف أن اليهودية رغم عالميتها ديانة خاصة ومرتبطة بأمة بعينها في تعبيرها التاريخي عن نفسها ، أي أنه تراجَع عن العالمية الأخلاقية وسقط في الخصوصية العرقية أو العنصرية . ويظهر التراجع عن التوحيد في تصوُّر بايك في واقع أن إدراك الإنسان للوصية الإلهية يؤدي به إلى إدراك أن الإله يُتوقَّع منه أن يقوم هو نفسه بالخلق ، أي أن يصبح المخلوق خالقاً . كما أنه ، مع إدراك الوصية الإلهية ، يدرك أنه يُتوقَّع منه أن يقوم هو نفسه بالخلق .

وفي آخر كتبه **هذا الشعب إسرائيل : معنى الوجود اليهودي** ، ينتقل من تعريف جوهر اليهودية إلى محاولة تحديد المعنى الداخلي للدين اليهودي ، فيجد أنها عملية بعث مستمرة تقوم يسرائيل خلالها بإعادة صياغة وتطبيق أوامر الإله على حاضر دائم التغير .

ويظهر في كتابات بايك الكثير من الموضوعات الحلولية الصهيونية مثل : رسالة يسرائيل الخاصة ، ومركزية يسرائيل في عملية البعث التاريخي . ومع هذا ، فإن من غير المعروف عنه أنه اتخذ موقفاً صهيونياً صريحاً ، بل له مواقف تناقض العقيدة الصهيونية صراحةً . والبُعْد اليهودي في فكر بايك واضح تماماً ، فهو مفكر ديني كان يعمل حاخاماً . ومع هذا ، فثمة تَشابُه عميق بين فكره والفكر الألماني الرومانسي الذي يشكل الأرضية التي نبت فيها والإطار الذي يتحرك داخله .

مارتن بوبر (١٨٧٨-١٩٦٥)

Martin Buber

مفكر ألماني يهودي حلولي ، متطرف في حلوليته وجودي النزعة ، كان لا يؤمن باليهودية الحاخامية أو بضرورة تطبيق الشريعة، ولم يقرأ التلمود على الإطلاق . ومع هذا ، فإنه يُعَدُّ من أهم المفكرين الدينيين اليهود في القرن العشرين . وهو من دعاة التصوف اليهودي . ويُعتبر بوبر أحد كبار مفسري العهد القديم ، وأحد أهم مفكري الصهيونية ذات الديباجات الثقافية .

وُلد في فيينا ، وأمضى صباه في جاليشيا عند جده حيث اتصل بالحركة الحسيدية التي لعبت دوراً حاسماً في تطوره الديني (الصوفي) والفلسفي والسياسي . وانتقل إلى فيينا عام ١٨٩٦ لمتابعة دراسته في جامعتها ، وتزوج بولا ونكلر (وهي فتاة ألمانية غير يهودية من ميونيخ) . انضم بوبر إلى جماعة قديما الصهيونية في فيينا ، ثم انضم إلى المنظمة الصهيونية عند تأسيسها عام ١٨٩٨ وعمل رئيساً لتحرير جريدة **دي فيلت** الناطقة بلسان الحركة الصهيونية . وبعد فترة قصيرة من التعاون مع هرتزل ، اختلف الاثنان بسبب اختلاف منطلقاتهما الفلسفية . واشترك في تأسيس ما يُسمَّى «العصبة

الديموقراطية» مع وايزمان الذي عارض هرتزل خلال المؤتمر الصهيوني الخامس (١٩٠١) . ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى ، أسس بوبر اللجنة القومية اليهودية التي تعاونت مع قوات الاحتلال الألمانية في بولندا ، وقامت بالدعاية بين يهود اليديشية لضمهم للجانب الألماني ولتجنيدهم لحسابه . وفي عام ١٩١٦ ، أسس مجلة **اليهودي** التي كانت تُعَدُّ من أهم المجلات الفكرية اليهودية ، والتي شرح بوبر على صفحاتها فلسفة الحوار الحلولية الوجودية وموقفه الصهيوني . وقد اشترك بوبر مع الفيلسوف اليهودي فرانز روزنزفايج في ترجمة التوراة إلى الألمانية في العشرينيات (ولكنه لم يَفرُغ منها إلا عام ١٩٦٤) وهي ترجمة ذات طابع وجودي . وقد نشر خلال هذه الفترة بضعة كتب عن الحسيدية .

شغل بوبر منصب أستاذ فلسفة الدين اليهودي والأخلاق في جامعة فرانكفورت في الفترة ٢٤ ـ ١٩٣٣ ، وأسس معهد الدراسات اليهودية فيها . وقد صَدَر له عام ١٩٢٣ أهم كتبه **أنا وأنت** الذي يحوي جوهر فلسفته الحوارية . وفي عام ١٩٣٣ ، استولى النازيون على الحكم وصاغوا مفهوم الشعب العضوي (فولك) ، ذلك المفهوم الذي يشكل حجر الزاوية في الفكر النازي والصهيوني ، وهو ما كان يعني تأسيس نظام تعليمي لليهود مستقل عن النظام التعليمي الألماني. وقد عُيِّن بوبر مديراً للمكتب المركزي لتعليم الكبار . أما هجرته إلى فلسطين ، فقد كانت عام ١٩٣٨ حيث جرت محاولة لتعيينه أستاذاً للدراسات الدينية . ولكن المؤسسة الأرثوذكسية عارضت ذلك بشدة لأن بوبر ، حسب تعريفها ، لا يؤمن باليهودية ، ومن ثم تم تعيينه أستاذاً للدراسات الاجتماعية في الجامعة حيث شغل المنصب حتى عام ١٩٥١ . صدر أول كتب بوبر بالعبرية ، وهو **العقيدة النبوية** ، عام ١٩٤٢ ، وقد طرح بوبر في هذا الكتاب أن وجود الإرادة الإلهية حقيقي تماماً مثل وجود يسرائيل ، وهو ما يعني المساواة بين الخالق (الإله) والمخلوق (الشعب) . كما صدر له كتاب **موسى** عام ١٩٤١ . أما عام ١٩٤٩ ، فقد شهد نشر كتابه **طرق اليوتوبيا** ، وهو كتاب عن تطوُّر الاشتراكية الطوباوية . وتبع ذلك نشر كتابيه **نوعان من الإيمان** (١٩٥١) ، و **خسوف الإله** (١٩٥٣) ، ويقارن الكتاب الأول بين الإيمان اليهودي والإيمان المسيحي . أما الثاني ، وهو آخر أعمال بوبر المهمة ، فيذهب فيه إلى أن الإله لم يمت أو أنه احتجب وحسب !

أسَّس بوبر كلية لتعليم الكبار لإعداد المعلمين من بين المهاجرين، وهي جزء من محاولة المُستوطَن الصهيوني دمج المهاجرين الجدد ، وخصوصاً من البلاد الإسلامية ، في نسيج المستوطن الصهيوني . وكان بوبر أول رئيس لأكاديمية العلوم الطبيعية والإنسانية في إسرائيل .

وقد أسس بوبر مع يهودا ماجنيس جماعة إيحود التي كانت تطالب بإقامة دولة صهيونية مزدوجة القومية . لكنه تعرَّض لانتقاد شديد في بعض الأوساط اليهودية لقبوله تسلم جائزة جوته من مدينة هامبورج ولاستئناف علاقته بالحياة الفكرية والثقافية الألمانية (مع العلم أن هذا الموقف لا يتناقض البتة مع منطلقاته الفكرية) . وقد منحه مجلس ناشري الكتب في ألمانيا جائزة السلام عام ١٩٥٣ واستقبله رئيس جمهورية ألمانيا الاتحادية باعتباره واحداً من مفكري ألمانيا وفلاسفتها العائدين إلى وطنهم !

ومصادر الفكر الديني والفلسفي السياسي عند بوبر ألمانية (مسيحية علمانية) . فقد تأثر بالمتصوفين المسيحيين الألمان مايستر إيكهارت وجيكوب بيمه Jacob Boehme ، كما تأثر برؤية وحدة الوجود التي طرحاها وبإيمانهما الكامل بأن الإنسان يمكنه أن يعود إلى التوازن من خلال الحدس والاستماع لصوت التجربة الداخلية والتوحد بالخالق . وقد تأثر كذلك بالفكر الرومانسي الألماني ، وخصوصاً فكر فخته الذي أكد الحدس على حساب التأمل وميَّز بين الجماعة المترابطة بشكل عضوي (جماينشافت) والجماعة المترابطة بشكل آلي (جيسيلشافت) ، وأعلى من أهمية الشعب العضوي (فولك) . ويُعَدُّ نيتشه من أهم المفكرين الألمان الذين أثروا في بوبر ، شأنه في هذا شأن معظم المفكرين اليهود والصهاينة في ذلك الوقت ، فتعلَّم من نيتشه فكرة الإرادة المستقلة عن أي حدود وظروف ، والإيمان بأهمية الفعل الغريزي المباشر مقابل التأمل والتدبير ، والالتزام بالمتعيِّن والمحسوس على حساب المجرد ، وتأكيد الحياة والغريزة في مواجهة القيم التقليدية والمثاليات المجردة التي تخنق الحياة والغريزة .

وقد عمَّق جوستاف لانداور (١٨٦٩ ـ ١٩١٩) تأثير فخته وفكرة الشعب العضوي والجماعة العضوية وربطهما بالفكر الاشتراكي أو الجماعية بل بالاتجاهات الصوفية الحلولية ، وبهذا يكون لانداور قد ربط بين كل المكونات في النسق الفكري عند بوبر . وإلى جانب المصادر الألمانية ، تأثَّر بوبر ، شأنه شأن كثير من المفكرين الغربيين الوجوديين ، بدوستويفسكي ، وخصوصاً في إحساسه بغربة الإنسان في عالم خال من المعنى . كما تأثَّر بكيركجارد ، الأب الروحي للوجودية الحديثة ، الذي أكد أن العلاقة الحقة بين الإله والإنسان لابد أن تكون مباشرة ودون وسطاء ، وطالب الإنسان بأن يصبح شخصاً واحداً كلياً فريداً .

ويُلاحَظ أن المصادر الفكرية (الدينية والفلسفية) عند بوبر معظمها غير يهودية . لقد ظل بوبر ، طيلة حياته ، يجد الدراسات التلمودية جافة وعقيمة . وقد اكتشف الحسيدية باعتبارها تجربة صوفية وتعبيراً عن الصوت الداخلي من خلال مصادره الألمانية المسيحية الصوفية . وفكر بوبر الديني والسياسي فكر حلولي متطرف تتلاقى فيه وحدة الوجود الروحية بوحدة الوجود المادية ، فيصبح الإله والإنسان والطبيعة كلاً عضوياً واحداً . وتتجلى هذه الرؤية الحلولية في فلسفة الحوار التي تشكل أساس الفكرة الدينية في فكرة الشعب العضوي (فولك) التي تشمل أساس فكره السياسي والاجتماعي ، ففكره السياسي هو نفسه فكره الديني ، وفكره الديني هو نفسه فكره السياسي ، وهذا أمر متوقع داخل منظومة فكرية لا تفرق بين الإله والإنسان ، أو بين الإنسان والطبيعة ، أو بين هذا العالم والعالم الآخر ، أو بين التاريخ والوحي ، أو بين القومية والدين .

تَصدُر فلسفة الأنا والأنت الحوارية عن رؤية حلولية تتساوى فيها كل العناصر الإنسانية ثم الإلهية ، فالإله هنا ليس له وجود حقيقي مستقل متجاوز للطبيعة والتاريخ وإنما هو قوة كامنة في الأشياء ودافعة لها (ومن هنا أهمية الحوار الشفوي ، وتفضيله على النص المكتوب . فالحوار الشفوي ، مثل الشريعة الشفوية في اليهودية ، تفتح المجال على مصراعيه لعمليات التأويل الباطنية حيث يفرض المُفسِّر المعنى الذي يروق له . أما النص المكتوب فهو لا يعطي كلمة وحسب وإنما يعطي سياقاً وكلاً دلالياً يحدد المعنى) . والإنسان بدوره شريك للإله في عملية خلاص الكون . وحسب هذه الفلسفة ، تأخذ العلاقة السوية بين الإنسان وأخيه الإنسان شكل حوار ، وهو حوار حقيقي إن كانت أطراف الحوار متساوية بحيث يجد كل طرف نفسه في الآخر ، وهذا الحوار حوار حقيقي إن كان بين الأنا والأنت أو بين ذاتين لهما أهمية واحدة . ولكن الحوار يصبح زائفاً حينما يصبح أحد طرفيه أقوى من الآخر ، فيحوِّل محاوره إلى موضوع أو أداة أو مجرد شيء يستخدمه ويستغله ويحوسله لينفذ به أغراضه ، وفي هذه الحالة يتحول الحوار إلى علاقة بين الأنا والأنت والهو (أو بين الذات والموضوع) ، وهي علاقة قد تثمر معرفة علمية موضوعية قد تكون مفيدة في حد ذاتها ولكنها ليست كافية ولا تغنينا بأية حال عن علاقة أنا/ أنت الأساسية (ومع هذا يرى بوبر أن ثمة صلة جدلية بين العلاقتين أنا/ أنت وأنا/ هو) .

وتتسم علاقتنا بالإله بالحلولية الحوارية نفسها ، فالإله هو ما يسميه بوبر «الأنت الأزلي» ، وهو كيان لا يمكننا أن نصل إليه من خلال التأمل الميتافيزيقي المجرد (أنا/ هو) ، وإنما من خلال علاقة حية تشبه علاقة أنا/ أنت ، ولذا فيجب أن أتحاور مع الإله بكل كياني ويجب أن أصغي إلى الإله ، وأن أعرف ماذا يريد مني . وحيث إن كل حوار لابد أن يؤدي إلى فعل ، فالإله سيكشف لي أمره في لحظة الفعل ، وسيكشفه لي أنا وحدي . و«الأنت الأزلي» لا يوجد خارج الإنسان وإنما يوجد في كل «أنت إنساني» ، وهو مصدر تَعيُّنه . ولذا يكون لزاماً على الإنسان أن يدخل في حوار دائم مع الإله ليحتفظ بتَعيُّنه وهويته المتميزة عن طريق ما يوحى إليه به . والوحي عند بوبر ليس شيئاً حدث في الزمان الغابر والماضي السحيق ، وإنما هو شيء متكرر يحدث دائماً و« الآن » و« هنا » . فيحل الإله في التاريخ حلولاً دائماً ، وتصبح الأحداث التاريخية النسبية أحداثاً مقدَّسة .

يستخدم بوبر في هذا الجزء من فلسفته خطاباً حلولياً عاماً ينطبق على الوضع الإنساني بأسره . ولكنه ، حين يتجه إلى الموضوع اليهودي ، يُضيِّق نطاق الحلولية تماماً . فبرغم المساواة الحلولية المبدئية التي انطلق منها ، فإن القداسة لا تعبِّر عن نفسها في جميع الأحوال بدرجة واحدة . ولذا ، فقد يتم الحوار بين الإله والفرد في حالة البشر العاديين ، أما في حالة الشعب اليهودي فإن الحوار يتم بين الشعب ككل والإله من الجهة الأخرى . كما أن الحوار الخاص الدائر بين إسرائيل والإله يأخذ شكل العهد ، فالإله (الأنت الأزلي) يطلب من الأمة اليهودية (الأنا الأزلي) أن تصبح أمة مقدَّسة ؛ مملكة من الكهنة الإله هو ملكها الوحيد . والمجتمع الديني اليهودي ، حسب تصوُّر بوبر ، لا يمكنه العيش بدون قومية ، ولكن القومية اليهودية ليست قومية عادية (على عكس القوميات الأخرى) ، ولذا فإنها لا تستطيع العيش بدون دين ، فالدين والقومية في حالة اليهود متزاوجان ملتحمان (كما هو الحال دائماً في المنظومة الحلولية) . وإذا كان هناك (بالنسبة للأغيار) فارق بين التاريخ النسبي والوحي المطلق (بمعنى أن القداسة الإلهية تظل بمعزل عن تاريخ الأغيار) ، فإن الوضع مختلف تماماً في حالة التاريخ اليهودي إذ يحل الإله فيه ، ومن ثم يصبح التداخل بين المطلق والنسبي والمقدَّس والمدنَّس والأزلي والزمني كاملاً . ومن خلال هذه الصيغة تمت صهينة الدين اليهودي وعلمنته ، كما تمت صهينة وضع الجماعات اليهودية ليصبح بذلك شكلاً من أشكال التعبير عن القومية العضوية ، أي أن الدين يصبح فولكلور الشعب العضوي (فولك) ، ويصبح اليهود لا مجرد أعضاء أقليات ينتمون إلى الأوطان التي يوجدون فيها وإنما يصبحون شعباً عضوياً مقدَّساً منفصلاً . وهنا يجب أن نتذكر أن بوبر كان يؤيد رأي فخته في أن التجربة القومية في العصر الحديث تنجز ما كانت تنجزه التجربة

الدينية في الماضي ، فهي تجعل العنصر الإلهي يسري في الحياة اليومية .

وعند هذه النقطة التي يتحول فيها الدين إلى فلكلور ، والجماعات اليهودية إلى شعب مقدَّس ، يمكننا أن نتناول الفكر السياسي القومي عند بوبر ورؤيته الصهيونية . ويُلاحَظ أن المراجع الصهيونية الغربية عموماً تحرص على إخفاء هذا الجانب من منظومته المعرفية لأسباب مفهومة ، وإن أشارت لها فهي تعرض لها من خلال ديباجات صوفية لا تكشف عن التضمينات الوثنية والنازية والعنصرية الكامنة في فكره . وقد لاحظنا أن القداسة تحل في الشعب وتاريخه . ولكن ، كما هو الحال مع المنظومات الحلولية ، لابد أن تشمل القداسة الأرض أيضاً (أو الطبيعة) حتى يتحقق الثالوث ويحل الإله أو القداسة في الشعب اليهودي وفي أرضه اليهودية المقدَّسة بحيث يرتبط الإله بالشعب بالأرض ارتباطاً حلولياً عضوياً . ولكن فكرة الإله تَضمُر وتتراجع بحيث يتحول الإله إلى الرابطة العضوية المقدَّسة بين الشعب (الدم) والأرض (التربة) . عند هذه النقطة نكون قد وصلنا في واقع الأمر إلى وحدة الوجود المادية وعالم الحلولية بدون إله ؛ عالم النازية ومعسكرات الإبادة والدولة الحديثة التي تدَّعي المطلقية لنفسها فتضم الأراضي وتقضي على الملايين . إن مفهوم بوبر لوضع اليهود واليهودية لا ينبع من أي فكر ديني وإنما من مفهوم الشعب العضوي (الوثني) . وقد بيَّن بوبر في محاضراته عن اليهودية التي ألقاها في الفترة ١٩٠٩ ـ ١٩١٨ ، والتي تركت أعمق الأثر في الشباب اليهودي في وسط أوربا ، أن ثمة عنصرين ماديين هما أهم مكونات القومية اليهودية ، أولهما الدم (أي العرْق والخصائص البيولوجية المتوارثة) الذي صنفه باعتباره أعمق مستويات الوجود الإنساني ، وثانيهما البيئة أو الطبيعة أو التربة ، وهو أهم عنصر في تشكيل الذات القومية ، وهما معاً يشكلان الوعي القومي اليهودي (ومن ثم الحس الديني) أو الإحساس الغريزي المباشر لدى اليهود ، والذي يتجاوز العناصر الاجتماعية والسياسية كافة ، والذي لا علاقة له بأي إله متجاوز .

ويجب أن نتذكر أن هذا الخطاب العرْقي النيتشوي كان الخطاب السائد في أوربا قبل الحرب العالمية الثانية ، وخصوصاً في ألمانيا التي نشأ فيها بوبر وتَشَرَّب ثقافتها ، فهو ابن عصره وبلده . وقد كانت الدراسات الألمانية التي تَصدُر عن مفهوم الشعب العضوي تؤكد عدم تَجذُّر اليهود في وطن قومي ، وأنهم بدو رُحَّل في صحراء جرداء ، ومن ثم فهم شعب مجدب على عكس الألمان المتجذرين في أرضهم ومن ثم يتمتعون بالصحة النفسية والجسمانية وتعبِّر شخصياتهم المبدعة عن الغابات الألمانية المورقة الخضراء التي يلفها الغموض .

لم يرفض بوبر هذه المفاهيم الوثنية الحلولية الحيوية أو العضوية بل دافع عن الشعب العضوي اليهودي انطلاقاً منها . ولذا ، فإنه يؤكد أن اليهود لم يكونوا دائماً بدواً رحلاً لا أرض لهم بل كانوا في المراحل الأولى من تاريخهم شعباً زراعياً ملتصقين بالطبيعة ومرتبطين بأرضهم لا يختلفون عن الشعب العضوي الألماني ، ولذا فإن بوسعهم أن يصبحوا مرة أخرى في خصوبة وإبداع الشعب الألماني .

ويعترف بوبر بأن التماسك الداخلي للروح اليهودية (أي الغريزة الطبيعية) قد ضعف بسبب البعد عن الأرض ، وهم يعيشون تحت سماء ليست سماءهم وعلى أرض ليست أرضهم . بل إن بوبر يجعل مسألة الارتباط بالتربة النموذج التفسيري الأكبر في نسقه الفكري وفي قراءته لتاريخ اليهودية . وعلى هذا ، فإن اليهود بسبب بعدهم عن أرضهم أجدبوا دينياً ، وبدلاً من الوحدة الصوفية العضوية (أي الحلولية) ، وبدلاً من التجذر في الأرض ، ضربوا بجذورهم في الشريعة والشعائر والعقائد ، ومن ثم تجمدت عقيدتهم الدينية أي أن البُعد عن الأرض (لا الشريعة) هو السبب في أزمة اليهودي ، والتمسك بالشريعة هو تعبير عن هذه الأزمة . ولكن ، رغم هذا، ظلت شخصية اليهود كما هي شخصية شرقية آسيوية برانية تفضل الفعل والحركة على التوجه إلى داخل الذات والتأمل والانشغال بالإدراك . بل إن النزعة المشيحانية إن هي إلا تعبير عن هذه العبقرية الآسيوية وعن النزوع نحو الحركة . وشغف اليهود بالموسيقى إن هو إلا تعبير عن الخصائص البيولوجية نفسها ، فالعنصر الأساسي في الموسيقى هو الزمن ، والزمن يفترض الحركة (على عكس المكان الذي يفترض الثبات وعدم التحول) .

ولْنُلاحظ أن بوبر حوَّل اليهودية من نسق عقيدي ومجموعة من القيم إلى مجموعة من الخصائص البيولوجية ، فاليهود لا يؤمنون بعقيدة وإنما هم جماعة يرتبطون برباط الدم . والواقع أن هذا التعريف لا يختلف من قريب أو بعيد عن التعريفات العرْقية المعادية لليهود والتي تفترض ثبات شخصيتهم رغم تَغيُّر الزمان والمكان (كما أنه لا يختلف في بعض جوانبه عن تعريف الشريعة لليهودي بأنه من وُلد لأم يهودية) . وسنلاحظ كذلك أن فكر بوبر إن هو إلا تطبيق لفكره الغربي العرْقي على يهود اليديشية . فالشرق إن هو إلا شرق أوربا (وآسيا هي بولندا) ، ومن المعروف أن التعبير الفني الأساسي عند يهود اليديشية كان الغناء والرقص .

ماذا سيفعل هذا الشعب الآسيوي في أوربا؟ عند هذه النقطة

نجد أن ملامح الحل الصهيوني النازي العضوي الحلولي قد اكتملت ، إذ يكتشف بوبر أن ثمة علاقة وثيقة بين الشعبين العضويين الألماني واليهودي . فالألمان هم الشعب العضوي الذي سيقود العالم ويسد الفجوة بين الشرق والغرب لأنه أقرب الشعوب الغربية إلى الشرق (ولا يبيِّن بوبر قط الأسباب التي قادته إلى استخلاص هذه النتيجة) . إن الألمان عندهم مهارات الغرب ولكنهم لم ينسوا قط حكمة الشرق . كما أن الألمان أكثر الشعوب تأثيراً في اليهود (وبوبر نفسه شاهد على ذلك ، كما أن اللغة اليديشية لغة معظم يهود العالم آنذاك شاهد قوي آخر) . بل يذهب بوبر إلى أن الألمان أكثر الشعوب تأثراً باليهودية من خلال العهد القديم (الذي ترجمه لوثر ترجمة ممتازة وحوله إلى أهم عمل كلاسيكي في اللغة الألمانية) ومن خلال مجموعة من العبقريات اليهودية مثل إسبينوزا ولاسال وماركس .

وبعد تأكيد هذه العلاقة بين الألمان اليهود ، يتحول بوبر نحو اليهود ليكتشف الحسيدية باعتبارها أهم تجسيد للشخصية اليهودية الآسيوية أو الجماعة العضوية المترابطة (جماينشافت) التي تنظم حياتها ووجودها حول أسطورة مقدَّسة لا يشاركها فيها أحد . ومن ثم ، فإن الحسيدية ، حسب تصوُّر بوبر ، استمرار لتقاليد الثورة في اليهودية : تقاليد الأسينيين والأنبياء التي ترفض الالتزام بالقانون والشريعة وتُعلي من شأن الفعل المباشر والغريزي . والحسيدية حركة متصوفة لا تبتعد عن الدنيا ، وإنما تقترب منها ، ولذا فهي تصوُّف يترجم نفسه إلى فعل ، أي أنها ترجمة لتلاقي وحدة الوجود الروحية ووحدة الوجود المادية . وقد تَغنَّى بوبر بالقائد المحرر والقائد الفنان الذي سيعلم الفولك ، ووجد ضالته في التساديك الحسيدي فهو قيادة كاريزمية يدين له أتباعه بالولاء بدون نقاش ، تماماً مثلما كان النازيون يدينون للفوهرر ، قيادتهم الكاريزمية (ولنُلاحظ أن الأنا والأنت التي كانت تستند إلى علاقة حب ، أصبحت هنا تستند إلى علاقة القوة؛ العلاقة الوحيدة الممكنة في المنظومة النيتشوية) .

عند هذه الصورة يمكن القول بأن ملامح المجتمع الصهيوني قد اكتملت : جماعة عضوية تجسد القداسة تعيش بطريقة جماعية ، ولكن جماعيتها لا تنبع من الفكر الاشتراكي السياسي وإنما من التماسك العضوي الحلولي . ويذهب بوبر إلى ضرورة عودة اليهود إلى صهيون ليؤسسوا مجتمعاً مثالياً مقدَّساً تتداخل فيه القومية والدين ، والدين والقومية ، والأزلية والزمن ، والزمن والأزلية . وتمازُج الديني والقومي والمطلق والنسبي هو أساس نقده لكل من هرتزل والحسيدية ، فهرتزل كان ينوي تأسيس مجتمع صهيوني سياسي لحل المسألة اليهودية في وجهيها السياسي والاقتصادي دون أن يتوجه إلى العناصر الأزلية في القومية اليهودية . أما الحسيدية ، فرغم رؤيتها الحلولية التي تؤكد قداسة اليهود إلا أن العنصر القومي لم يكن واضحاً في الفكر الحسيدي ، بل كانت علاقة الحسيديين بفلسطين علاقة عارضة ، ولم تعبِّر عن نفسها في شكل رغبة في التحرر القومي ، كما لم تترجم نفسها إلى تَطلُّع إلى أن يقرر الشعب اليهودي إرادته ومصيره في أرضه داخل جماعة مقدَّسة وقومية . وقد كان الحسيديون من دعاة (الروحية) ، وكان هرتزل من دعاة (المادية) ، على حين أن الوحدة المثلى من منظور إسبينوزا هي وحدة وجود واحدة (روحية مادية) تتجسد في المجتمع الصهيوني العضوي .

ويرى بوبر أن هذا المجتمع لو تحقق ، فسيصبح اليهود مرة أخرى أمة مقدَّسة تلعب دوراً أساسياً في الحضارة العالمية بسبب تاريخهم الفريد وشخصيتهم الفذة ، إذ سيلتحم الوحي المقدَّس بالتاريخ مرة أخرى . والواقع أن أمة الكهنة والقديسين (العضوية الحلولية) التي تعمل على هدي الرؤى المشيحانية تزداد أهمية في القرن العشرين لأن الحضارة اليهودية حضارة غربية/ شرقية . ولهذا، فبإمكانها أن تكون بمنزلة الجسر بين الحضارات والشعوب كافة . وفي كل هذا ، يعود بوبر للرؤية اليهودية الحلولية القديمة الخاصة بمركزية اليهود في العالم والتاريخ (وهي مركزية عرْقية أضفتها الشعوب والديانات القديمة كافة على نفسها) .

ودعنا نُلاحظ هنا أن فكرة الشعب العضوي فكرة حوارية في جوهرها ، إذ أن الأنا اليهودي يتجاوز الأنت الإلهي ، أو يمتزجان معاً . وبدلاً من أن يطيع الإنسان الإله ويمتثل لإرادته ، يمتزج الإنسان بالإله بحيث يُطوِّع أحدهما الآخر وتصبح أفعال الشعب اليهودي تعبيراً عن وحي دائم ، ويصبح صوت الشعب الصوت الداخلي الذي هو صوت الإله .

لكن هذه الحوارية الدائرية العضوية الحلولية هي في جوهرها منطق استبعادي ، فهي تعطي حقوقاً مطلقة لمن يوجد داخل دائرة القداسة وتهدر حقوق من يقع خارجها . وهي تستبعد ، على سبيل المثال ، الجماعات اليهودية خارج فلسطين حيث وصفهم بوبر ، على طريقة بنسكر والنازيين ، بأنهم مجموعة من الأشباح المشئومة الذين لا وطن لهم ، ولذا فلا مكان لهم داخل المجتمع العضوي الجديد (وهذا يعني أنهم ، باعتبارهم أشباحاً ، محكوم عليهم بالموت ، الأمر الذي تكفلت به النازية فيما بعد) . أما المجموعة الثانية التي تستبعدها القومية العضوية فهي العرب .

وهنا نجد أن الموقف متناقض أكثر من كونه مركباً . وعلى سبيل

المثال ، فإن بوبر يرى ، كما أسلفنا ، أن التجربة الدينية الحقة تأخذ شكل حوار بين طرفين متعادلين ، وهو تعادُل ممكن بسبب حلول الخالق في المخلوق ، واختلاط الوحي بالتاريخ ، وهو ما يعني خلع القداسة على أفعال اليهود التاريخية ، وخصوصاً أن تجربتهم الدينية جماعية (بينما نجد أن المسئولية الأخلاقية هي ، في نهاية الأمر ، مسئولية فردية) . وإذا أضفنا إلى هذا تلك الأفكار النيتشوية الخاصة بإعلاء الإرادة ، والرابطة المطلقة بين الدم اليهودي والتربة الفلسطينية ، فإن مصير العرب قد أصبح واضحاً وهو الطرد أو الإبادة . وهذا هو منطق الرؤية الحلولية . ولكن ثمة تياراً آخر في فلسفة بوبر ، هو ما يمكن تسميته بالتيار الأخلاقي ، لا ينبع من المنظومة الفكرية نفسها وإنما يضاف إليها بشكل آلي براني . ويحاول بوبر أن يربط عضوياً بين هذا التيار الأخلاقي ومنظومته الفكرية فينتقد المحاولات الصهيونية الرامية إلى تحويل اليهود إلى أمة مثل الأمم كافة تهدف إلى البقاء وحسب وتتسم بالأنانية والاعتداد الأجوف بالذات ، مقابل ما يسميه «الإنسانية العبرية» : وهي التمسك بالقيم الأخلاقية اليهودية والإيمان بوحدة واحدة تفصل الصواب عن الخطأ والحقيقة عن الكذب فصلاً حاسماً ، أي بضرورة الحكم على الحياة والسلوك السياسي من منظور أخلاقي .

والواقع أن هذين التيارين المتناقضين (اللذين يسودان أيضاً في كتابات آحاد هعام) هما سر تَخبُّط بوبر في موقفه من العرب ، فهو يكتب إلى غاندي مدافعاً عن الاستيلاء الصهيوني على الأرض الفلسطينية مستخدماً أسلوبه الحلولي الصوفي ، إذ يبيِّن لغاندي أن حق العرب في الأرض ليس مطلقاً ، فالأرض هي للإله يعيرها للفاتح الذي أقام عليها ، ولكن الإله بانتظار ما سيفعل بها ، فإن لم يفلحها هذا الفاتح فإن هذا ولا شك سيفتح المجال أمام المستوطنين الصهاينة في القرن العشرين . ولكل هذا نادى بوبر بالدولة اليهودية . ولكنه بعد عام ١٩٤٨ ، بعد طَرْد العرب وتشريدهم ، صرح بأنه لا يوجد أي شيء مشترك بينه وبين هؤلاء اليهود الذين يدافعون عما سماه «القومية اليهودية الأنانية» ، كما لم يتوقف عن الدفاع عن حقوق العرب والمطالبة بإنشاء دولة مزدوجة القومية تسمح للعرب والإسرائيليين بتحقيق ذاتيهما القوميتين . ولعل التناقض العميق في موقف بوبر يتضح بكل جلاء في أنه كان يدافع طول حياته عن حقوق العرب ويعيش في الوقت نفسه في بيت عربي جميل في القدس رفض أن يعيده لأصحابه .

ولم تترك أفكار بوبر تأثيراً عميقاً في يهود شرق أوربا ، كما لم تساهم في تحديد السياسات الصهيونية في الخارج أو في فلسطين قبل أو بعد إعلان الدولة . وقد تركت كتاباته أثراً عميقاً في اللاهوت المسيحي البروتستانتي .

فرانز روزنزفايج (١٨٨٦-١٩٢٩)

Franz Rosenzweig

فيلسوف ألماني يهودي وُلد لأسرة يهودية مندمجة مُعلمنة ولم يتلق أي تعليم ديني . كان على وشك أن يتنصر عام ١٩١٣ ، ولكنه غيَّر رأيه في آخر لحظة ، ووجد أن بإمكانه التعبير عن تطلعاته الدينية من خلال اليهودية ، فبقي في برلين حيث نشأت علاقة حميمة بينه وبين هرمان كوهين .

قضى روزنزفايج معظم سنوات الحرب الأولى في الجيش الألماني حيث بدأ أهم أعماله التي تتناول الفكر الديني ، وهو كتاب **نجمة الخلاص** الذي نُشر عام ١٩٢١ . وقد ازداد اهتمام روزنزفايج بالتعليم اليهودي ، فأسس مدرسة في فرانكفورت تهدف إلى تعليم اليهود المندمجين الهامشيين الباحثين عن جذورهم الدينية . وقد جذبت المدرسة مجموعة من الشبان الذين أصبحوا من كبار المفكرين اليهود فيما بعد ، مثل : جيرشوم شوليم ، وليو ستراوس ، وإريك فروم . وقد أصيب روزنزفايج بشلل في أواخر حياته ، ولكنه استمر مع هذا في التأليف ، فكتب مجموعة من المقالات المهمة وترجم قصائد يهودا اللاوي وعلّق عليها ، وبدأ مع مارتن بوبر في إعداد ترجمة جديدة للكتاب المقدَّس بالألمانية .

وإذا كان هرمان كوهين يشبه موسى بن ميمون ، فإن روزنزفايج يشبه يهودا اللاوي . فكتابه **نجمة الخلاص** ليس مجرد كتاب في الفلسفة ، وإنما هو رحلة روحية من الفلسفة إلى اللاهوت . ويتوجه روزنزفايج بالنقد إلى الفلسفة لمحاولتها رد العالم إلى جوهر واحد مثل الوعي على وجه العموم ، فهذا يتنافى مع التجربة المتعينة للإنسان ، وكل ما تستطيع الفلسفة أن تنجزه هو إدراك ثلاثة جواهر مستقلة منفصلة : العالم والإنسان والخالق ، لكلٍّ طبيعته الخاصة . وكل جوهر عقلاني بشكل جزءاً ومعطى لا يمكن رده إلى شيء خارجه . هذه الجواهر هي « ما قبل العالم » ، ولابد أن تنشأ علاقة فيما بينها استناداً إلى مفاهيم تُستجلَب من خارج عالم التأمل العقلاني . وهذا ما يقوم به اللاهوت الذي يكمل الفلسفة ، فهو الذي يُوجِد الصلة بين أجزاء العالم والإنسان والخالق المختلفة من خلال الوقائع المعجزة العجائبية الثلاث : الخلق ، والوحي ، والخلاص . ويرى روزنزفايج أن العلاقة بين الخالق والعالم (الخلق) ، وبين الخالق والإنسان (الوحي) ، وبين الإنسان والعالم

(الخلاص) هي إمكانات موجودة دائماً . وأهم أبعاد الوجود أو عناصره هو الوحي ، فمن خلاله يخاطب الخالق الإنسان في لحظات الحب ، فيهدم الحواجز التي تسبب عزلة الإنسان ووحدته . وكل ما يعطيه الخالق للإنسان هو الحضور ، ولكن تجربة الحب الإلهي تأخذ شكل أمر بأن يحبه الإنسان في المقابل . والعنصر الثاني (الخلق) يعني اعتماد كل الكائنات في هذا العالم على القوة الحية للخالق . أما العنصر الثالث (الخلاص) فيعني أن يتوجه من يشعر بالوحي نحو الآخر ، ومن خلال الخلاص تتبدد العزلة التي تفرق بين البشر ، فمن حب الخالق للإنسان يظهر حب الإنسان لأخيه الإنسان لأن الإنسان من خَلْق الإله . ومسار التاريخ تعبير عن أن الخلاص يتخلل العالم من خلال أفعال الحب حتى تشيع الروح في الدنيا ويتم توحيد العالم والإنسان والخالق .

ويُلاحَظ أن روزنزفايج يقترب هنا من القبَّالاه اللوريانية بحلوليتها التي من خلالها تصبح عملية الخلاص عملية كونية تشمل العالم والإنسان ، وهي هنا تأخذ شكل نجمة داود (نجمة الخلاص) .

وقد قيل عن رؤية روزنزفايج إنها رؤية وجودية ، لأنها تؤكد أهمية التجربة المتعينة التي لا يمكن أن تُرد إلى أي شيء خارجها وترى أن الفلسفة لابد أن تبدأ في تجربة بشرية فردية محدَّدة ؛ في الوجود لا الماهية . ويؤكد روزنزفايج أيضاً أن التجربة متجذِّرة في موقف المفكر الفردي المتعيِّن ، وأن ما يُهم الإنسان ليس الأفكار الفلسفية المجردة وإنما القناعات التي لا يمكن البرهنة عليها إلا من خلال الحياة الحقيقية . وقد انعكس هذا الموقف الوجودي على رؤيته للشعائر اليهودية ، فإذا كان أساس الوحي هو حب الإله للإنسان فإن مضمونه هو الوصايا ، ولابد أن يبادل الإنسان الإله المحبة بأن يعمل بوصاياه . والوصايا ليست قوانين ، لأن القوانين (الشريعة) أساسها القسر ، فهي ليست مجرد مبادئ فلسفية ، وقد عاشت الوصايا في ضمير الإنسان تجربة خاصة تَواصَل من خلالها الإنسان والخالق . ومن هنا ، فقد أصر روزنزفايج على ضرورة أن يشعر الإنسان بالقانون داخله بحيث يتحول القانون إلى وصية .

ووفقاً لروزنزفايج ، فإن اليهودية والمسيحية (كلتيهما) جماعتان دينيتان لكل أصالتها ، وهما تشكلان قناتين تصب من خلالهما الأزلية في مجرى الزمان . لكن اليهودية هي الحياة الأزلية والمسيحية هي الطريق الأزلي . وفي التقويم اليهودي الديني ، وكذلك صلوات اليهود ، يُحتفى بإيقاع الخلق - الوحي - الخلاص ، وهو ما يؤدي إلى وضع اليهود خارج التاريخ . فثمة قناة توصل بين اليهود والإله مباشرةً ، ولذا فإن الوجود اليهودي يُبشر بخلاص الجميع (وهنا نشعر مرة أخرى بأثر القبَّالاه اللوريانية) . كما أن الأرض اليهودية المقدَّسة ، واللغة اليهودية المقدَّسة ، والتوراة المقدَّسة ، منفصلة عن تتالي الزمان . وكذلك ، فإن اليهودي يدخل الميثاق مع الرب بالمولد ، ولذا فإن استمرار اليهودية لا يتوقف على تَهوُّد الأغيار ، فمهمة اليهود أن « يكونوا يهوداً » لا أن يبشروا باليهودية . فكأن اليهودية خاصية أنطولوجية لصيقة بالجوهر اليهودي ، وهذا أمر مستحيل إلا في إطار حلولي . أما المسيحية فتقف على طرف النقيض من ذلك ، فهي دائماً «في الطريق» المؤدي من مجيء المسيح في المرة الأولى إلى مجيئه مرة ثانية . وهي ذات طبيعة مختلفة ودور تاريخي مختلف . فكل مسيحي ينتقل من حالة الطبيعة والوثنية إلى المسيحية من خلال الإيمان الديني والتعميد (لا المولد) ، ومن ثم فإن التبشير مسألة أساسية بالنسبة للمسيحية (وهي مسألة مستحيلة داخل الإطار الحلولي اليهودي) . وكما يُلاحظ روزنزفايج أيضاً ، فإن المسيحي يحتاج إلى وسيط ليدخل في علاقة مع الإله أما اليهودي فلا يحتاج إلى مثل هذه الوساطة . وإذا أردنا تفسير هذه الفكرة باستخدام نموذج الحلولية ، فيمكننا أن نقول إن الشعب اليهودي جزء من الإله بسبب الحلول الإلهي فيه ، ولذا فهو شعب مقدَّس بطبيعته ، لا يحتاج إلى وسيط . أما المسيحي فهو من البشر العاديين ، خال من القداسة ويتطلع إليها ، ولذا فهو يحتاج إلى كهنوت تتركز فيه القداسة ليكون بمنزلة الطريق بين الخالق والمخلوق .

ومما يجدر ذكره ، أن روزنزفايج يختلف هنا عن كثير من المفكرين الدينيين اليهود مثل : هرمان كوهين ، وليوبايك اللذين كانا يعقدان المقارنة بين الديانتين ليبيِّنا مدى التقارب بينهما . أما روزنزفايج ، فيعنى بإبراز أوجه الخلافات العقائدية والوجودية بينهما . وتأكيد تفرُّد اليهودي في علاقته مع الخالق ، ووجود اليهود خارج التاريخ ، وهي أبعاد أساسية في بنية الفكر الحلولي والصهيوني . ومع هذا ، رفض روزنزفايج الصهيونية لأنها تقوض دعائم الطبيعة الروحية غير السياسية للشعب اليهودي ، أي أنها تقوض تفرُّده ، كما أنها تجعل الخلاص مسألة سياسية لا قضية أخروية . وعلى عكس الصهاينة ، يؤمن روزنزفايج بأن شتات اليهود أمر ضروري لتطور الشعب اليهودي في المستقبل . وقد وقف روزنزفايج موقف المعارض من كل من اليهودية الأرثوذكسية واليهودية الإصلاحية ، فالأولى حوَّلت العقيدة اليهودية إلى قشرة شعائرية خارجية خالية من المعنى ، أما الثانية فأسقطت كثيراً من الجوانب الأساسية في العقيدة اليهودية حتى تقربها من المسيحية البروتستانتية ، ومن ثم أفقدت اليهودية ما يميِّزها .

إيمانويل لفيناس (١٩٠٥-١٩٩٦)
Emanuelle Levinas

فيلسوف فرنسي يهودي . وُلد في ليتوانيا ودرس الروسية والعبرية في ليتوانيا ثم درس في جامعة ستراسبورج التي كان يُعلّم فيها كلٌّ من هوسرل ومارتن هايدجر . درَّس في دار المعلمين اليهودية الشرقية في باريس ثم في جامعات فرنسية أخرى . ومصادر فكر لفيناس عديدة ، فقد تأثر بأعمال أفلاطون وكانط وبرجسون .

وقد ترك الأدباء الروس مثل بوشكين وجوجول أثراً عميقاً فيه . ولكنه كان يرى أن أعمقهم أثراً فيه دوستويفسكي ، وخصوصاً رؤيته للمسئولية نحو الآخر . ولكن المصدر الأساسي لفكره أعمال هوسرل الفلسفية ، وقد كتب رسالته للدكتوراه عن نظريته في الحدس (صدرت في كتاب عام ١٩٣٠) ، وكان من أوائل المفكرين الذين عرَّفوا القُراء الفرنسيين بهايدجر . ولا شك في أن دراسته للتلمود ولأعمال بوبر وروزنزفايج ساهمت في صياغة وجدانه .

ينتمي لفيناس إلى هذا الجيل من الفلاسفة الذين يمكن أن يُطلَق عليهم اسم «الفلاسفة غير الفلسفيين» . وهم مجموعة من الفلاسفة الذين يرفضون الميتافيزيقا بمعناها التقليدي ويثيرون الأسئلة التي يتصورون أن الفلسفة الغربية التقليدية استبعدتها . ويقف هؤلاء الفلاسفة ضد المشروع الفلسفي الغربي برمته «من طاليس لهيجل» ، وهو مشروع يهدف (حسب تصورهم) إلى معرفة كل شيء وإدخال كل الظواهر في حلقة المعرفة والسببية . وهذا المشروع يودي بالذات الإنسانية الفردية من خلال هيمنة الموضوع المادي المجرد (الأشياء والحقائق المادية والموضوعية) أو هيمنة الموضوع الروحي المجرد (حتمية التاريخ وعالم الماهيات والجواهر والروح المطلقة) . ويصل هذا المشروع إلى ذروته في المنظومة الهيجلية بشموليتها الصارمة ، حيث يترادف الفكر مع الطبيعة مع التاريخ ، وحيث لا يفلت شيء من نطاقها . كما ترجم هذا المشروع نفسه إلى مدارس فلسفية مختلفة ، مثل الوضعية والبنيوية ، تبدو كما لو كانت متناقضة ولكنها في واقع الأمر تتسم جميعاً بالنزوع نحو الكلية والشمول والرغبة في إدخال كل الظواهر داخل نطاق السببية . وقد هاجم لفيناس هذه الهيجلية في سياق هجومه على البنيوية التي وصفها بأنها «انتصار العقل النظري» ، ولذا فهي تتسم بعدم الاكتراث والحياد والهجوم على الذات الإنسانية .

ويمكن القول بأن هذا هو الموضوع الأساسي في فلسفة لفيناس : كيف يمكن أن ندرك الجزء المتعيِّن (الموجود) وندرك الكل المجرد (الوجود) دون أن يُستوعَب الجزء في الكل ودون أن تذوب الموجودات المختلفة في الوجود . ويرى لفيناس أن هذه هي المشكلة الأساسية عند هايدجر ، فقد أعطى أولوية للوجود على الموجودات ، وهو ما يعني أن الوجود أكثر جوهرية من الموجودات ، بل يعني أيضاً أن الموجود لا تتحدد علاقته بالآخر إلا من خلال فكرة الوجود المجردة اللاشخصية . ونَقْد لفيناس لهايدجر لا يختلف كثيراً عن قول الوجوديين بأن الوجود يسبق الماهية ، فالوجود في الخطاب الوجودي هو الموجود المتعيِّن ، والماهية هي الوجود المجرد .

وحتى نفهم فلسفة لفيناس ، قد يكون من المفيد أن نعرض لتعريفه لمصطلحي «أنطولوجيا» و«ميتافيزيقا» . فالأنطولوجيا في تصوُّره هيجلية بطبيعتها ، تَردُّ الإنسان والموجودات المتعيِّنة والمتنوعة إلى الوجود المجرد أو إلى الكليات المتجاوزة للموجودات . ويضع لفيناس ، مقابل هذا ، الميتافيزيقا (حسب تعريفه) وهي ما لا يمكن التفكير فيه من خلال الأنطولوجيا . وهو تعريف سلبي غامض ، ولكن لفيناس يوضحه حين يقول إن الميتافيزيقا هي التطلع نحو اللانهائي الذي لا يمكن أن يُرد إلى ما هو غيره والذي لا يذوب في أية كلية تاريخية كانت أم إلهية . والرغبة الميتافيزيقية الحقة والأصيلة هي رغبة في هذا الذي يفيض ولا يمكن أن يحيط به العقل ، والذي يفلت من نطاق المنطق لأنه خارج نطاق الفكر . والفكر هنا يعني ما يلي : التوازن والتوازي بين الفكرة والشيء ، وبين العقل والوجود ـ ما يمكن تمثيله وإلقاء الضوء عليه ـ ما يمكن معرفته .

إن الميتافيزيقا في داخل هذا الإطار هي تَطلُّع نحو المطلق الحق ، «ما ليس بوجود» (يسميه لفيناس «أذر ذان بيينج other than being» أو «أذروايز ذان بيينج otherwise than being») . وهو لهذا السبب لا يمكن استيعابه فيما هو غيره ، أي أنه وحدة نهائية لا يمكن أن تُردُّ إلى وحدة أخرى سواء أكانت أعلى أم أدنى مرتبة منها . ويبيِّن لفيناس أن الميتافيزيقا (بالمعنى التقليدي) قد تقيم تمييزاً واضحاً بين الإنسان الفرد المتعيِّن (الموجود) والآخر (الفريد ـ المتعيِّن ـ الموجود أيضاً) ، ولكن التمييز مرحلي ومؤقت لأن الأنا والآخر في الإطار التقليدي ينحلان في نهاية الأمر في كيان واحد ، ومن ثم فإن التحدد أو التعين الخارجي (بالإنجليزية : إكستيريوريتي exteriority) الذي يسم الآخرية الحقيقية يضيع ويختفي ويتم استيعاب الآخر في الكل المجرد . ولذا نجد ، في الإطار التقليدي ، أن الأنطولوجيا تسبق الميتافيزيقا ، تماماً كما يسبق الكل المجرد الجزء المتعيِّن ، وكما يسبق الوجود الموجودات .

إن الميتافيزيقي الحقيقي (اللانهائي ـ ما ليس بوجود) يتحقق لا في الذات ولا في الموضوع . وهنا نود أن نشير إلى أن كثيراً من

الفلسفات الغربية بعد نيتشه (الذي نسف تماماً ثنائية الذات والموضوع وتأكيد الذات على حساب الموضوع) تحاول أن تجد الحل لا في الذاتي ولا في الموضوعي ، وإنما في نقطة تقع بينهما . هذه النقطة يمكن تسميتها بفلسفات «تيار الحياة» وهو مصطلح مشتق من ديموقريطوس («إرادة القوة» عند نيتشه ـ «وثبة الحياة» عند برجسون ـ «عالم الحياة» [ليبنزفلت] عند هوسرل وهابرماس) . والعبارات كلها تعني العالم المعاش والواقع الموضوعي كما تجربه الذات . وهو عادةً يشير إلى تلك النقطة التي تلتقي فيها الذات بالموضوع أو تذوب فيها الذات في الموضوع ، ومن ثم فلا يوجد فيها لا ذات ولا موضوع ، فهي نقطة صيرورة كمونية كاملة تفلت من قبضة الكل الشامل .

تنتمي محاولة لفيناس لهذا التيار ، وإن كان يحاول قدر استطاعته ألا يسقط في لحظة الذوبان هذه ويحتفظ بقدر معقول من التماسك والصلابة . ويتصور لفيناس أنه وجد ضالته في مفهوم الآخر والعلاقة معه . فالإنسان كموجود متعين يمكنه أن يتجاوز الوجود الكلي المجرد من خلال علاقة فريدة تجعله يخرج من ذاتيته الضيقة دون أن يفقدها ويدرك ذاتية الآخر باعتبارها ذاتية وموجوداً متعيِّناً لا يمكن أن يُرد إلى الوجود المجرد ، فهي ذاتية موجودة فيما وراء الكل ، ولذا ليس بإمكان الفكر (بالمعنى الذي حددناه من قبل) الإحاطة بها .

وآخرية الآخر تتبدَّى بشكل خاص في وجهه ، فالوجه هو التعبير عن التفرد وعن جوهر الآخر الإنساني الفردي ، الكامن المتبدي . ومن ثم يضع لفيناس الوجه [الأصيل] ضد الواجهة [الزائفة] ، كما يضع الوجه الخاص مقابل نور الاستنارة العام . إن الإنسان حينما يدخل في علاقة ميتافيزيقية حقيقية مع الآخر فإنه سيكتشف أن هذا الوجه هو اللامتناهي وأنه سر ، بل تجلٍّ إلهي ، لا يستطيع الكل ابتلاعه . والآخر بهذا المعنى ، يشبه الإله في كثير من صفاته . ويمكن القول بأن لفيناس ، بمعنى من المعاني ، ينتمي إلى ما يُسمَّى «لاهوت موت الإله» الذي يتلخص في البحث عن منظومات معرفية وأخلاقية في عالم لا إله فيه ، وإن كان لفيناس يؤكد أن غياب الإله لا يعني بالضرورة أنه غير موجود .

ولأن الآخر هو اللامتناهي وهو الزمان اللامتعاقب الذي يقع خارج نطاق الوجود ، فإن العلاقة مع الآخر تصبح هي الإسكاتولوجي (آخر الأيام) الذي يشكل انقطاعاً كاملاً وتحطيماً لأية كليات مجردة متجاوزة . ولكنه إسكاتولوجي لا علاقة له بالأديان السماوية ، فلاهوت هذه الديانات خاضع للأنطولوجيا ، وهو إن لم يؤد إلى الشمولية الكلية التاريخية (على الطريقة الهيجلية) فإنه يؤدي إلى الكلية الإلهية .

والعلاقة مع الآخر ، والوصول إلى آخريته الحقة ، ليست التحاماً عاطفياً وإنما علاقة عادلة تؤدي إلى الإحساس بالالتزام والمسئولية ، أي أن لفيناس قد ولَّد من مفهوم الآخر باعتباره اللامتناهي منظومة أخلاقية كاملة . والرغبة الميتافيزيقية الحقة نحو الآخر هي رغبة لا تتشوق للعودة ، هذا يعني من منظور لفيناس أن هذه الرغبة الحقة تفترض أن على الإنسان أن يستبعد أن يكون معاصراً لإنجازاته ، فعليه أن يعمل دون أن يدخل بالضرورة «أرض الميعاد» ، أي أن لفيناس ، بضربة واحدة ، يحل مشكلة الأخلاقيات في مجتمع علماني ، فبدلاً من الأنانية والدفاع عن المصلحة الشخصية والرؤية الهوبزية الداروينية حيث يصبح الإنسان ذئباً لأخيه الإنسان ، يطرح لفيناس المواجهة مع الآخر وإدراكه بشكل ميتافيزيقي (غير أنطولوجي) باعتباره الحل الحقيقي للمشكلة الأخلاقية . فمن خلال مثل هذه المواجهة يمارس الإنسان إحساساً عميقاً بالمسئولية تجاه الآخر ، أي من خلال إدراكه له ككيان متعيِّن متفرد له وجه فريد (ولا ندري كيف يمكن القفز بهذه البساطة من المنظومة المعرفية إلى المنظومة الأخلاقية ومن الإدراك إلى القيم) .

ولتوضيح وجهة نظره ، يقارن لفيناس بين إبراهيم ويوليسيس ، فإبراهيم يغادر وطنه ويتجه نحو أرض مجهولة ولا ينوي العودة ، أما يوليسيس فهو يتحرك دائماً نحو نقطة محددة . فإبراهيم مسافر دائم لا يهمه إن كان معاصراً لإنجازاته أم لا ، أما يوليسيس فهو عائد دائم يصر على إنجاز السعادة في حياته ! (ولكن هل يمكن تَصوُّر إبراهيم ـ المسافر الدائم هذا ـ بدون إله ؟ إن لم يكن هناك إله وأمر إلهي فالسفر الدائم حماقة دائمة وحركة بلا معنى في المكان) . ويبدو أن الميتافيزيقا الحقة (حسب تعريف لفيناس) لا تولِّد أخلاقاً وحسب ، وإنما هي نفسها الأخلاق . فلفيناس يُعرِّف الأخلاق بأنها سابقة على الأنطولوجيا (شأنها في هذا شأن الميتافيزيقا) وبأنها ليست مجرد قواعد وإنما هي العلاقة مع الأصل ، بل هي نفسها الأصل الذي يسبق كل الأصول وهي القَبْلي والأولي a priori ، هي «الميتا» في الميتافيزيقا ، فهي الماوراء الحقيقي .

وتُصنِّف **الموسوعة اليهودية (الجودايكا)** لفيناس باعتباره يهودياً بالمعنى الديني ، بل تذهب إلى أنه يهودي أرثوذكسي . وهو أمر يصعب تفسيره إلا داخل إطار حلولي كموني ، فالميتافيزيقا عند لفيناس تنبع من تأمل وجه الآخر اللانهائي الذي يتحدى الكل ، أي أن البشري يقوم مقام الإلهي في هذه المنظومة . وكما هو الحال دائماً مع المنظومات الحلولية ، تتساقط كل التمييزات وتضيق البانوراما لتتحول إلى وثنية شوفينية ، الأمر الذي يتضح في خطاب لفيناس

اليهودي ، وهو خطاب يعطي لكل المصطلحات بُعداً يهودياً تماماً (شأنه في هذا شأن بوبر الذي يتكلم عن الأنا والأنت في الفلسفة الحوارية ، ثم نكتشف أن اليهودي والشعب اليهودي [الأنا الأزلية !] يوجد في المركز ويدخل الإله في علاقة خاصة مع اليهود الذين يتحول تاريخهم إلى وحي ، ويصبح الوحي بالنسبة لهم عقيدة) .

يحاول لفيناس في فلسفته الدينية أن يميِّز بين العنصر الهيليني (يوليسيس) والعنصر اليهودي (العبري) (إبراهيم) . وهو يرى أن الخطاب الهيليني يميل دائماً نحو التجسد ، والإيمان داخل الإطار الهيليني يأخذ شكل محاولة التواصل مع المتجسد (وهي محاولة جنونية في تَصوُّره) . أما الخطاب اليهودي (العبري) ، فهو شكل من أشكال الإيمان الناضج الذي يأخذ شكل علاقة بين أرواح من خلال وساطة الكتاب المقدَّس الذي يؤكد لنا وجود الإله بيننا دون تجسُّد . فالروحي الحقيقي نشعر به لا من خلال تجسده وإنما من خلال غيابه . ويقتبس لفيناس عبارة وردت في التلمود وهي «أن يحب اليهودي التوراة (الشريعة ـ القانون) أكثر من الإله» ، وهي عبارة تصدم الآذان التي تدور في إطار توحيدي ولكنها مفهومة تماماً داخل إطار حلولي . ورغم رفض لفيناس للتجسد ، إلا أن الكتاب نفسه يكتسب أبعاداً تجسدية (تماماً كما أن العلاقة مع الآخر تكتسب كل أبعاد الإله) . وكما أن الآخر يحل محل الإله ، في سياق فلسفة لفيناس العامة ، فإن التوراة تحل محله في سياق فلسفته الدينية اليهودية .

ويذهب لفيناس إلى أن الكتاب المقدَّس هدية وليس رسالة ؛ هو دعوة للحوار وليس مجرد أطروحات . والهدية تتطلب من الآخر استجابة ، أما الرسالة فهي غير شخصية (تشبه فكرة الكل المجرد) . والتوراة ليست هدية وحسب وإنما نص مفتوح يمكن تفسيره . وكما هو الحال في المنظومات الحلولية ، يتراجع النص ليظهر المفسر الذي يفرض المعنى عليه . ولفيناس ، بهذا ، متسق تماماً مع تقاليد الشريعة الشفوية ، أي التفسير الذي يُفترض أنه أُعطي لموسى عند سيناء مع الشريعة المكتوبة (التوراة) والذي توارثه الحاخامات المفسرون عبر التاريخ حتى أصبح تفسيرهم (التلمود) أكثر أهمية من التوراة وأكثر أهمية من الإله . وهكذا ترجح كفة الحاخامات على كفة الإله من خلال فكرة النص المفتوح .

وماذا عن الشعب اليهودي ؟ يشير لفيناس إلى قصة وردت في التلمود عن شخص طلب المغفرة من آخر ولكن هذا الأخير رفض طلبه لمدة ثلاثة عشر عاماً . يقول لفيناس في مجال شرح هذه الأمثولة : بإمكان اليهود أن يعفوا عن بعض الألمان ولكن هناك ألماناً من الصعب العفو عنهم (أي أن خطيئتهم مطلقة) . فمثلاً يصعب العفو عن هايدجر لأنه قبل أن يعمل في وظيفة في الجامعات الألمانية أثناء حكم النازي ولم يُقر بذنبه ، أي أن هناك آخرين : آخر يُقبَل وآخر يُرفض . وقد بيَّن لفيناس أن الإحساس بالآخر لابد أن يترجم نفسه إلى إحساس عميق بالمسئولية تجاهه . ولكنه ، مع هذا ، يتحفظ على هذا بقوله إن الإنسان لابد أن يفضل الآخر القريب (الزوجة والابن) على الآخر الغريب ، أي أن يفضل الآخر اليهودي على الآخر غير اليهودي (يتلاعب لفيناس بالكلمات العبرية : «أح» أي «أخ» و«أحر» أي «آخر» و«أحريوت» أي «المسئولية» - فكأن الآخر هو الأخ الذي يشعر الإنسان نحوه بالآخرية أي بالمسئولية) . وهذه طريقة مصقولة للغاية وحداثية (حيث إنها تتضمن لَعِباً بالألفاظ وبعلاقة الدال بالمدلول) للتعبير عن ثنائية اليهود أو الشعب المختار مقابل الآخر الآخر ، أي الأغيار . وبالفعل ، نجد أن الشعب اليهودي له مكانة خاصة في الكون ، فهو شعب مختار . واختياره قد يعني مزيداً من المسئولية . ولكنه يحمل أيضاً معنى الانفصال والتميز (وهذا لا يختلف كثيراً عن الرؤية اليهودية الحلولية القديمة) . والواقع أن رؤية لفيناس حلولية ، رغم كل حديثه عن الآخر . فالمواجهة بين الإله والإنسان (حسب قوله) مسألة مسيحية ، أما بالنسبة لليهود فالمسألة لعب بين ثلاثة : أنا وأنت وطرف ثالث ، هذا الطرف الثالث هو الإله المساوي للإنسان (اليهودي !) .

داخل هذا الإطار ، يبدأ لفيناس في اكتشاف خصوصية اليهودية وتميُّزها ، فالإنسان الغربي يبحث عن الحرية حتى أصبح العصر الحديث عالماً لا قانون له ، معادياً للإنسان ، خالياً تماماً من المسئولية (أحريوت) . أما اليهودية ، فهي على النقيض من ذلك ، فالحرية فيها هي حرية صعبة المنال ، فاليهودي يكتسب حريته بأن يعيش تحت نير الشريعة الذي يتطلب منه الإحساس بالمسئولية الأخلاقية والاجتماعية . واليهودية ـ حسب تصوره ـ تستند إلى استحالة رد الإنسان إلى ما هو دونه ونصر على تَفوُّق الإنسان على الكون (فاليهودية بهذا المعنى ديانة لا أنطولوجية ، ديانة ميتافيزيقية أخلاقية حسب معجم لفيناس) . والإنسان اليهودي يكتشف الإنسان قبل الطبيعة ، ويصل إلى فكرة الوجود حينما يرى وجه الإنسان العاري . ومن ثم ، فإن اليهودية هي الإنسانية ، والحرية التي تنادي بها هي حرية تستند إلى الإحساس بالمسئولية .

ومرة أخرى ، قد نتصور لوهلة أن الحديث هنا عن إنسانية رحبة ، ولكن لفيناس يقول : إن اليهودية ، هذه الأيديولوجيا المترادفة مع الإنسانية ، لا تعني إنسانية روحية عامة وإنما هي إنسانية

محددة تأخذ شكل أمة ، واليهودية ليست أيديولوجيا مثالية تعيش بدون خطر وإنما هي مثالية تأخذ شكل دولة تجسِّد القيم الأخلاقية للأنبياء ، فهي قدر ومسئولية الشعب اليهودي المختار ، الذي يتبدَّى في الدولة الصهيونية التي تستند إلى الرغبة العارمة في البقاء وفي البدء من جديد بعد أن يسقط كل شيء . هذه الدولة تقف شاهداً على إرادة اليهود وعلى رغبتهم في أن يُعرِّضوا أنفسهم للخطر وأن يضحوا بأنفسهم ليضطلعوا بمسئوليتهم ، أي أن الدولة الصهيونية تجسيد للحرية التي تستند إلى المسئولية . والحلم الصهيوني يَصدُر عن تَطلُّع مؤمن متجذر ثابت غير مُحتمَل يعود إلى مصادر الوحي نفسها، وهو صدى لأعلى التوقعات . وهكذا نعود للوثنية الحلولية القديمة ، حيث تصبح الدولة (التي تقتل الأطفال ولا تكترث بالآخر الآخر) موضع الحلول الإلهي ، بل تعود جذورها إلى الوحي الإلهي !

وقد عرَّف لفيناس مهمته الفلسفية بأنها تعريف العصر الحديث بالتلمود ، وأن هذا أيضاً هو جوهر الصهيونية ، فهي الدولة التي تضطلع بهذه المهمة بشكل متعيِّن .

ومن أهم مؤلفات لفيناس **من الوجود إلى الموجود** (١٩٤٧) ، **والزمان والآخر** (١٩٤٨) ، و **في اكتشاف الوجود مع هوسرل وهايدجر** (١٩٤٩) ، و **الكلي واللامتناهي** (١٩٦١) ، و **حرية صعبة** (١٩٦٣) ، و **أربع محاضرات تلمودية** (١٩٦٨) ، و **الإنسانية والإنسان الآخر** (١٩٧٢) ، و **ما وراء الآية** (١٩٨٢) .

شمويل تريجانو (١٩٤٨ -)

Shmouel Trigano

عالم اجتماع ومفكر فرنسي يهودي ، وُلد في الجزائر . وهو يحاضر في علم الاجتماع في جامعة مونبيه ورئيس مركز الدراسات اليهودية التابعة للأليانس ، ويقوم بتحرير مجلة **بارديس** . ويُعَدُّ من أهم المفكرين الدينيين اليهود الجدد في فرنسا ، وهو يرى أن ثمة إمكانية للعثور على حلول لمشاكل الصهيونية والجماعات اليهودية بالعودة لروح اليهودية السفاردية ، وله دراسات عديدة من أهمها **المسألة اليهودية الجديدة** (١٩٧٩) و **الجمهورية واليهود** (١٩٨٢) .





٩
اليهودية وأعضاء الجماعات اليهودية وما بعد الحداثة

اليهودية وأعضاء الجماعات اليهودية وما بعد الحداثة

Judaism, Members of Jewish Communities, and Post-Modernism

لوحظ أن كثيراً من دعاة ما بعد الحداثة إما يهود أو من أصل يهودي (جاك دريدا ـ إدمون جابيس ـ هارولد بلوم . . . إلخ) . وقد أثرت ما بعد الحداثة في العقيدة اليهودية ، وفي كثير من المفكرين من أعضاء الجماعات اليهودية .

وسنتناول في مداخل هذا الباب جذور ما بعد الحداثة في العقيدة اليهودية ، وفي وضع اليهود في الحضارة الغربية ، وفكر بعض دعاة ما بعد الحداثة من اليهود . أما أثر ما بعد الحداثة في العقيدة اليهودية فسندرسه في القسم المعنون «لاهوت موت الإله» .

ونحن نذهب إلى أن العلمانية الشاملة تؤدي في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير إلى فصل كل مجالات النشاط الإنساني عن الإنسان ليشير كل مجال إلى نفسه ويستمد معياريته من ذاته وهذا ما يُسمَّى «التحييد» الذي يتصاعد إلى أن يصبح العالم بأسره مجالات محايدة لا يربطها رابط فيتفكك وتختفي أية معيارية إنسانية عامة . وتتآكل القيم والمفاهيم الكلية وتسود النسبية التي تنكر على الإنسان المقدرة على تجاوز صيرورة عالم الطبيعة المادة والحركة فيسقط في قبضتها تماماً وتسقط فكرة الحقيقة والحق والخير والجمال والكل ، ثم تسقط فكرة الطبيعة نفسها (البشرية والمادية) في قبضة الصيرورة ، أي تسقط كل المنظومات المعرفية والأخلاقية والجمالية ، فهي عملية تفكيك كاملة . وهذا الانتقال من عالم متماسك فيه مرجعية ومعيارية (حتى لو كانت مادية) إلى عالم متفكك بلا مرجعية أو معيارية ، هو الانتقال من عصر التحديث والحداثة (الصلب) إلى عصر ما بعد الحداثة (السائل) .

والعلمانية الشاملة شكل من أشكال الحلولية الكمونية . ونذهب إلى القول بأن المتتالية النماذجية العلمانية تبدأ بحلول مركز الكون في الكون نفسه . ورغم حلوله في الكون إلا أنه يظل مصدر تماسك الكون ويمكن أن يتم التجاوز باسمه ، وفي هذا الإطار يحاول الإنسان أن يستمد معياريته من الطبيعة ، وهذه هي مرحلة التحديث البطولية والثنائية الصلبة . ولكن درجات الحلول تزداد تدريجياً ويتوزع المركز الكامن في أكثر من عنصر واحد حتى تصبح كل عناصر الواقع موضع الحلول والكمون فتصبح كل الأشياء مقدَّسة ، ويتساوى المقدَّس والمدنَّس ، والمطلق والنسبي ، ويختفي المركز وتصبح كل الأمور نسبية ، وهذه مرحلة وحدة الوجود المادية الكاملة وما بعد الحداثة .

ويمكننا أن نصف ما بعد الحداثة بأنها حالة من التعددية المفرطة التي تؤدي إلى اختفاء المركز وتساوي كل الأشياء وسقوطها في قبضة الصيرورة بحيث لا يبقى شيء متجاوز لقانون الحركة (المادية أو التاريخية) ، فتصبح كل الأمور نسبية وتغيب المرجعية والمعيارية ، بل ويختفي مفهوم الإنسانية المشتركة (باعتباره معيارية أخيرة ونهائية) . فَتَفْسُد اللغة كأداة للتواصل بين البشر وينفصل الدال عن المدلول وتطفو الدوال وتتراقص دون منطق واضح فيما يُطلَق عليه «رقص الدوال» ، وتختفي فكرة الكل تماماً . وما بعد الحداثة تعبير عن انتقال الفكر الغربي من مرحلة الثنائية الصلبة إلى مرحلة الحلولية الكمونية الكاملة والسيولة حيث يختفي المركز تماماً .

التبادل الاختياري بين اليهودية وأعضاء الجماعات اليهودية وما بعد الحداثة

Elective Affinity between Judaism and Members of Jewish Communities and Post-Modernism

يرى بعض دعاة ما بعد الحداثة (من أعضاء الجماعات اليهودية ومن غير اليهود) أن ثمة عناصر في اليهودية وفي وضع أعضاء الجماعات اليهودية تجعلهم يتجهون نحو ما بعد الحداثة فيتأثرون بها ويساهمون في فكرها بشكل ملحوظ . وفي بقية هذا المدخل سنورد بعض آرائهم ونعبِّر عنها بمصطلحاتهم ، ولكننا نستخدم أحياناً مصطلحنا لفك شفرة مصطلحاتهم ولتوضيح أبعادها الفلسفية الكامنة .

ولنبدأ بالعناصر الموجودة داخل التراث اليهودي :

١ ـ نحن نذهب إلى أن العقيدة اليهودية تضم عدداً من العقائد غير المتجانسة والمتناقضة بشكل عميق (ومن هنا إمكانية الحديث عن «يهودي ملحد» داخل إطار العقيدة اليهودية) . ولذا فنحن نستخدم عبارة «اليهودية كتركيب جيولوجي تراكمي» لنصف هذا الوضع . فالتركيب الجيولوجي يتسم بأنه يتكون من طبقات جامدة مستقلة ، تراكمت الواحدة فوق الأخرى ، ولم تلغ أية طبقة جديدة ما قبلها ، ولذا تتجاور الطبقات وتتزامن وتتواجد مع بعضها البعض ، ولكنها لا تتمازج ولا تتفاعل ولا تلغي الواحدة الأخرى . وقد أشار الفيلسوف إسبينوزا ، حين طُرد من حظيرة الدين اليهودي ، إلى أن مجلس السنهدرين ، أعلى سلطة دينية يهودية في عصر المسيح وهو الذي قام بمحاكمته ، كان يسيطر عليه فريقان دينيان : الصدوقيون والفريسيون . وبينما كان الفريق الأول لا يؤمن بالبعث أو اليوم الآخر كان الفريق الثاني يؤمن بهما . ومع هذا تعايشا وتقاسما السلطة الدينية . فكأن اليهودية تفتقر إلى معيارية حقيقية واحدة محددة ، ولذا فمن الممكن أن يشير الدال الواحد إلى مدلولين متناقضين .

٢ ـ تذهب العقيدة اليهودية (في شكلها الحاخامي) إلى أن التوراة هي الشريعة المكتوبة ، ولكنها ليست الشريعة الوحيدة ، إذ يؤمن اليهود بأن هناك ما يُسمَّى «الشريعة الشفوية» وأن الإله أعطى كلا من الشريعتين ، المكتوبة والشفهية ، لموسى في جبل سيناء . وقد توارث كل اليهود الأولى ، أما الثانية فقد توارثها الحاخامات ، والتفسيرات الحاخامية التي دُوِّنت في التلمود هي هذه الشريعة الشفوية . وتذهب العقيدة اليهودية (في شكلها الحاخامي) إلى أن الشريعتين متساويتان في الأهمية ، بل إن الشريعة الشفوية أكثر أهمية من الشريعة المكتوبة وتَجُبّها . كل هذا يعني أن الثابت هو المتغير وأن اللامعيارية هي المعيارية ، كما تعني أن الدال الإلهي الوارد في العهد القديم لا يتحدد مدلوله إلا من خلال تفسيرات الحاخامات ، وهي تفسيرات متغيرة .

٣ ـ سيطرة النسق القبَّالي الحلولي على الفكر الديني اليهودي حتى وصل إلى مرحلة وحدة الوجود المادية ، وهو ما يعني أن كل الكلمات تصبح إما مقدَّسة ومتأيقنة تماماً أو عاجزة تماماً عن الإفصاح بسبب امتلاء القداسة وهيمنة النسبية ، فالتجربة الحلولية الكاملة تعبِّر عن نفسها بالصمت كما أن الحلول الكامل هو أيضاً مرحلة سقوط المعيارية .

٤ ـ انتشار الأسلوب الماراني في التفكير بين بعض قطاعات الجماعات اليهودية في الغرب ابتداءً من القرن الثامن عشر . والمارانو هم يهود شبه جزيرة أيبريا الذين أبطنوا اليهودية وادعو الكاثوليكية وأظهروها . وجوهر المارانية أن يقول الإنسان شيئاً وهو يعني عكسه تماماً . ومما له دلالته أن إسبينوزا ودريدا وجابيس كلهم ينتمون للتراث السفاردي الذي دخل فيه مكون ماراني قوي .

٥ ـ توجد مدارس يهودية في التفسير تفترض أن المعنى الباطني غير المنظور للعهد القديم أكثر دلالة من المعنى الظاهري . وحيث إن المعنى الباطني في بطن المفسر ، فإن هذا يفتح الباب على مصراعيه لنسبية لا نهاية لها ولا معيارية كاملة .

٦ ـ توجد مدارس للتفسير ترى أن فَهْم التوراة يشبه الجماع مع أنثى عارية ، ولعل هذا يشبه من بعض الوجوه الحديث عن لذة النص وعن أن اللغة الحقيقية هي الصيحات الجنسية أو صيحات الألم ذات المقطع الواحد ، إذ أن الدال يلتصق بالمدلول ويصبح الدال مدلولاً .

٧ ـ ثمة مفاهيم دينية يهودية عديدة في تراث القبَّالاه الصوفي الحلولي قريبة في بنيتها من مفاهيم ما بعد الحداثة مثل مفهوم شفيرات هكليم والتسيم تسوم والتيقون ، وهي مفاهيم ترى أن الإله لم يكمل عملية الخلق بعد . بل إن الذات الإلهية لم تكتمل بعد ، وهو ما يعني أن العالم في حالة صيرورة دائمة .

٨ ـ زادت الخاصية الجيولوجية في اليهودية ، وزادت من ثم اللامعيارية في العصر الحديث بظهور بعض المذاهب الدينية مثل اليهودية الإصلاحية والمحافظة ، وهي مذاهب علاقتها باليهودية الحاخامية واهية للغاية وتُسمِّي نفسها (مع هذا) يهودية . بل إن أتباع هذه المذاهب يشكلون الأغلبية الساحقة بين يهود العالم ، الأمر الذي يعني استحالة التمييز بين الإيمان والهرطقة .

أما بالنسبة لوضع اليهود (أو الجماعات اليهودية) في العالم

(أي في الحضارة الغربية) ، وهو الوضع الذي أدّى إلى زيادة وجود استعداد اختياري عندهم لتبنّي فكر ما بعد الحداثة وإلى إسهامهم فيه. فقد أورد بعض مؤرخي ما بعد الحداثة بشأنه العناصر التالية :

١ ـ النفي هو التجربة التاريخية الأساسية لليهود ، والنفي هو تجربة اقتلاع ثم إحلال (بالإنجليزية : ديسبليسمنت displacement) . فقد أُقتلع اليهود من وطنهم الأصلي وتم إحلال شعب آخر محلهم ، كما تم توطينهم في بلاد غريبة عنهم . واليهودي يعيش في بلاد الأغيار وكأنه مواطن فيها مندمج في أهلها مع أنه في واقع الأمر ليس كذلك . فهو فيها وليس منها . فهو الغريب المقيم أو المقيم الغريب ، الحاضر الغائب . وهو كذلك المتجول الدائم يحلم دائماً بأرض الميعاد ، وعلى وشك العودة دائماً ، ولكنه لا يعود ، فهو يعيش في المنفى الدائم ولكن المنفى ليس بمنفى لأنه من اختيار الإنسان ، فهو في حالة صيرورة ولا معيارية ، الدال المنفصل عن المدلول أو الدال الذي له مدلولات متعددة بشكل مفرط .

٢ ـ اليهود في العالم المسيحي هم قتلة المسيح ، ولذا فهم شعب منبوذ ، ولكن اليهود في الوقت نفسه شعب شاهد على عظمة الكنيسة ولذا لابد من حمايته . وهو يعيش في المجتمع المسيحي الذي يحميه ولكنه يرفض التجسد فهو لا يزال في انتظار الماشيَّح رغم أن المسيح من وجهة نظر المسيحيين قد جاء وصُلب ثم قام . وهو شعب مختار كما يقول كتابه المقدَّس ولكنه في واقع الأمر شعب منبوذ . وهو شعب ينسب له الأغيار والمعادون لليهود قوى عجائبية (الشر ـ السحر) ولكنه في واقع الأمر لا سلطة له . وكل هذا يجعل من الصعب على أعضاء هذا الشعب تبنّي مرجعية ثابتة أو معيارية واحدة . واليهود بهذا يصبحون دالاً بدون مدلول .

٣ ـ يُشار إلى اليهودي باعتباره صاحب هوية واضحة ، ولكنه في واقع الأمر مفتقد تماماً للهوية ، فهو يزداد اندماجاً في الحضارة الغربية رغم كل محاولات الإفلات من قبضتها . ومن المفارقات أن إسرائيل قامت للدفاع عن الهوية اليهودية ولكنها أصبحت الآلية الكبرى لطمس معالم هذه الهوية . ومن ثم ، فإن العودة التي كان المفترض فيها أن تكون نقطة التحقق والحضور الكامل ، أصبحت لحظة الغياب الكامل ، وهو ما يعني اختلاط المدلولات وتعددها .

٤ ـ ومما زاد من زعزعة ما يُسمَّى «الهوية اليهودية» تزايد تعريفات اليهودي ، فهو يمكن أن يكون إصلاحياً أو محافظاً أو تجديدياً وهناك اليهودي الملحد واليهودي غير اليهودي واليهودي المتهود واليهودي بالاختيار . وقد عُرِّف اليهودي بأنه «من يصفه الناس بأنه كذلك» . وهو في تعريف آخر «من يشعر في قرارة نفسه أنه كذلك» . ولعل سؤال «من اليهودي ؟» المطروح بحدة في الدولة اليهودية ، هو تعبير عن هذا الفصل الحاد بين الدال والمدلول واستحالة التعريف بسبب سقوط الدال في قبضة الصيرورة .

الهرمنيوطيقا المهرطقة أو التفكيكية اليهودية

Heretical Hermeneutics or Jewish Deconstruction

«الهرمنيوطيقا المهرطقة» يمكن أن نسميها «التفكيكية اليهودية» أو «التقويضية اليهودية» . و«الهرمنيوطيقا» فرع من فروع اللاهوت يختص بتفسير النصوص الدينية تفسيراً رمزياً متعمقاً يركز على الجانب الروحي . وقد استُعير المصطلح للعلوم الإنسانية وأصبح يعني علم تفسير النصوص والظواهر الإنسانية الذي يركز على تميز الإنسان عن الظواهر الطبيعية . و«الهرمنيوطيقا المهرطقة» عبارة تتواتر في عدة أعمال حداثية ، وخصوصاً كتابات سوزان هاندلمان (الكاتبة الأمريكية اليهودية المتخصصة في فكر أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب) . وتستخدم العبارة للإشارة لمحاولة بعض المهرطقين (من المثقفين اليهود) تحطيم النص المقدَّس وتفكيكه (لا تفسيره) . ورغم أنها محاولة تقويضية إلا أنها تتلبس لباس الهرمنيوطيقا التقليدية وتستخدم آلياتها .

ولنفهم العبارة ، لابد أن نعرف علاقة النص المقدَّس بالتفسير (الحاخامي) داخل إطار العقيدة اليهودية . وهي علاقة تختلف في كثير من جوانبها عن علاقة النص المقدَّس بالتفسير في الديانات التوحيدية الأخرى . ونلخص سوزان هاندلمان آراء بعض دارسي ظاهرة الهرمنيوطيقا المهرطقة فنبيّن أنهم يذهبون إلى أن الحضارة اليونانية حضارة مكانية ولذا فهي حضارة رؤية : الصورة أساسية فيها . ولذا ، فهي حضارة تحترم الأيقونات بكل ما تتسم به من تحدد وثبات ووضوح . وهي حضارة أفلاطونية في جوهرها تحترم الثبات وتسعى له وتنظر للعالم في إطار ثنائية أساسية : عالم المُثُل (المجردة الثابتة المتجاوزة لعالم الحركة) مقابل عالم المادة (المتغير المحسوس) وهذه هي ثنائية المعقول والمحسوس .

والمسيحية الغربية استمرار للتقاليد اليونانية في الإدراك ورؤية الكون والثنائية . فهي حضارة متمركزة حول اللوجوس / الكلمة التي تتجاوز عالم المادة المحسوس والتي تشكل نقطة ثبات مطلقة في التاريخ النسبي المتغير . واللوجوس هو المدلول المتجاوز الذي يزوِّد العالم بالمركز وينقذه من السقوط في قبضة العبثية واللامعنى . فهو يعطي الصيرورة حدوداً واتجاهاً فيصبح للتاريخ معنى ، وتكتسب

اللغة فعاليتها كأداة تفاهم وتواصل بين البشر . واللوجوس ، رغم أنه متجاوز للتاريخ ، إلا أنه يتجسد فيه للحظات فيصبح الدال مدلولاً ، وهذه هي لحظة الحضور الكامل بلا غياب . وحياة المسيحي بأسرها ، من هذا المنظور ، هي بحث عن هذه اللحظة ومحاولة للوصول إليها للاتحاد بالخالق المطلق . ولذا ، تصبح الكلمات (التاريخية ـ النسبية ـ الزمانية) شكلاً من أشكال النفي من الحضور الإلهي واغتراباً عن الجوهر الإلهي وعن الحضور المطلق ، وتصبح التعددية اللغوية إحدى علامات السقوط . ولذا ، فإن الكتاب المقدَّس يشغل مكانة ثانوية بالنسبة للوجوس في المسيحية الكاثوليكية ، بل إن المجاز نفسه (الذي يعني انفصال الدال عن المدلول نسبياً) يصبح شكلاً من أشكال النفي ، وتصبح كل النصوص البشرية حديثاً عن هذا الغياب الذي يشير إلى الحضور بلا غياب !

لكل هذا ، تحاول التفسيرات المسيحية الوصول إلى معنى ثابت ، فهناك التفسير الكاثوليكي وهو تفسير رمزي يتم من خلال وسائط رمزية ولكنه يحاول أن يصل إلى معنى محدد ثابت (يستند إلى لحظة التجسد) وراء الدوال . وقد يبدو أن نظرية التفسير البروتستانتية مختلفة ، فهي ترفض التفسير الرمزي وتطالب بالعودة إلى النص : إلى كلمة الإله التي تتجاوز التفسير : إلى الكلمة المطلقة بقدر الإمكان ، وذلك بهدف الوصول إلى المعنى المحدد الثابت الأصلي الذي يستند إلى لحظة التجسد ! فالتفسيران يختلفان في الآلية ولكنهما يتفقان في النهاية . فكل الكلمات يتحدد معناها من خلال اللوجوس ، أي الدال/ المدلول المتجاوز الذي يوقف لعب الدوال ويعطي معنى واحداً نهائياً للنص . وثمة عودة ، في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير ، إلى المعنى الثابت . وهكذا ، رغم أهمية التفسير ، يظل النص المقدَّس (الوحي الإلهي) أكثر أهمية من تفسيره (الإنساني) كما هو الحال في كل العقائد التوحيدية .

تقف اليهودية (من منظور آراء المفكرين اليهود وغير اليهود من دعاة ما بعد الحداثة) على النقيض من كل هذا . فالحضارة العبرية ليست حضارة مكانية وإنما حضارة زمانية ، فالارتباط بالمكان (الأرض) مستحيل بالنسبة لليهودي ، فالمكان ليس مكانه حيث يعيش في الزمان متجولاً . والزمان نفسه يتم إلغاؤه تقريباً ، فالزمان ليس زمانه لأن اليهودي يعيش في بداية الزمان وفي نهايته دون أن يعرف أصله بوضوح ودون أن يصل إلى النهاية . ومع هذا ، يظل الزمن العنصر الأساسي والحاسم بالنسبة لليهودية . ولا تشغل الصورة حيزاً أساسياً في الوجدان اليهودي ولا تحظى الأيقونة بكثير من الاحترام ، بل إن اليهودية بأسرها تعبير عن رفض للحظة التجسد والثبات هذه (أفلاطونية كانت أم مسيحية) . ولذا ، فإن اليهودي يعيش في عالم الإشارات الزمانية التاريخانية المختلطة ، لا يحاول تجاوزها ويصبح هو حامل لوائها . ولأن النفي بالنسبة لليهودي ليس حالة مؤقتة يتغلب عليها المرء وإنما حالة دائمة بل نهائية ، ولأن اليهودي يرحل من مكان لآخر دون حلم بالعودة ، أي دون حنين للمعنى والحقيقة والبنية الميتافيزيقية الثابتة التي تمنح الاطمئنان ، لكل هذا يصبح الانقطاع المستمر جوهر حياته والاقتلاع سمتها . ولذا ، فهو يقبل النفي والانقطاع ولا يحاول الاتحاد بنقطة الأصل الثابتة لتجاوز اغترابه ، كما أنه لا يحاول تَجاوُز عالم الصيرورة ، أي أنه يصل إلى حالة الكمون الكاملة حيث تصبح الصيرورة هي البداية والنهاية ، وحيث لا يوجد فارق كبير بين الحضور والغياب ، وتصبح التعددية اللغوية أمراً مقبولاً تماماً فتفسد اللغة وينطلق لعب الدوال خارج أية حدود أو قيود أو سدود . وكما قالت سوزان هاندلمان ، فإن تَقَبُّل التعددية اللغوية هو محاولة لفرض الشرك (أي تعدُّد الآلهة) بدلاً من التوحيد .

آليـــات الهرمنيوطيـــقا المهرطقـــة

Mechanisms of Heretical Hermeneutics

يتحقق الإطار العام لظهور الهرمنيوطيقا المهرطقة أو التفكيكية اليهودية من خلال خطوتين أساسيتين :

١ ـ رؤية يهودية محددة للنص حيث يفقد النص المقدَّس حدوده ويتداخل والنصوص الأخرى ويصبح من الممكن تحميله بأي معنى يشاء المفسر ، ومن ثم فهو يصبح نصاً مفتوحاً .

٢ ـ عند هذه اللحظة يمكن تحميل النص المفتوح بالهرطقة باعتبارها المعنى الحقيقي .

١ ـ عملية فتح النص :

يمكن وصف عملية فتح النص من خلال النقاط التالية :

أ) بالنسبة لليهودي ، لا يأخذ الحضور الإلهي في التاريخ شكل تجسد مباشر في لحظة ، فهو يوجد في نص مقدَّس موحى به من الإله . والنص ، اللوجوس ، وهو تَرَكُّز القوة الإلهية ، يحتوي على كل شيء . ولذا ، جاء في التراث الديني اليهودي أن خلق التوراة يسبق خلق العالم ، بل إن الإله استخدمها في خلق العالم .

ب) ولكن هذا لا يعني أن التوراة تصبح ، بذلك ، نقطة الثبات والحضور الكامل (المطلق) في التاريخ الذي ينقذ التاريخ من قبضة الصيرورة واللامعنى إذ أن الصيرورة تبتلع النص المقدَّس نفسه ، فهو

ليس كتاباً نهائياً ، كما يتضح من « مصادره » المتعددة . وهناك كذلك مشكلة الأصول ، فالتراث اليهودي لم يحسم قط مسألة هل التوراة بأسرها كلمات الإله الموحى بها أم أجزاء منها وحسب ؟ وهل أعطيت هذه الكلمات لموسى مباشرة ثم كتبها هو ، أم أن الإله خطها بنفسه ، أم أعطاها لموسى في حضور الشعب ؟ لكل هذا ، نجد أن الحضور الإلهي في النص اليهودي المقدَّس ليس حضوراً مطلقاً ثابتاً كاملاً وإنما مجرد أثر أو صدى .

جـ) والتوراة ، علاوة على هذا ، كتاب مُشفَّر لا يمكن فهمه بشكل مباشر . ولذا ، حينما أُعطيت التوراة لموسى ، أُعطيت له معها آليات التفسير التي استخدمها الحاخامات لتوليد تفسيراتهم المتعددة . والتفسير الحاخامي ليس مجرد مقدمة ضعيفة للمعنى الحقيقي للنص المقدَّس ، كما هو الحال في التفسيرات المسيحية ، وإنما هو جزء مكمل للوحي الإلهي الأصلي وبالتالي يتداخل النص المقدَّس والتفسير الإنساني وتظهر حالة من التناصّ والسيولة .

د) والعلاقة بين النص المقدَّس (الثابت) والتفسيرات (المتغيِّرة) علاقة كناية (بالإنجليزية : ميتونومي metonomy) وهي في اللغات الغربية صورة بلاغية تتلخص في استعمال اسم شيء بدلاً من شيء آخر متصل به اتصالاً معيَّناً ، كما تقول «جهزوا الأشرعة» أي «جهزوا السفن» فتحل كلمة «الشراع» محل كلمة «السفينة» وهذا ما يحدث في اليهودية إذ نجد أن التفسير متصل بالنص المقدَّس ويحل محله .

هـ) والتفسيرات الحاخامية هي نفسها متشابكة ، فكل تفسير يشير إلى التفسير الذي يسبقه والذي يليه إلى ما لا نهاية (حالة الاخترجلاف) . فإن كان ثمة تناص بين النص المقدَّس والتفسير فهو حالة تناص بين كل التفسيرات . وهكذا ، يظهر التلمود كتاباً للتفسير الذي يصبح كتاباً مقدَّساً يفوق في قداسته الكتاب المقدَّس ، ولكن هذا الكتاب الأكثر قداسة مكتوب بيد إنسانية ؛ فهو مطلق غير مطلق ، ثابت متغيِّر ، إنه الحضور بلا حضور والغياب بلا غياب .

و) وهكذا تدخل جرثومة الصيرورة كل شيء حتى في داخل اللوجوس نفسه . ولذا ، فإننا نجد جاك دريدا يسخر من المفسرين الذين يحاولون الوصول إلى معنى محدد ونهائي (أو إلى أي معنى على الإطلاق) ، فهم مسيحيون بالمعنى النماذجي وغير قادرين على أن يعيشوا التوتر الناجم عن الغياب داخل الحضور والحضور داخل الغياب . وقد شبَّه أحد دعاة ما بعد الحداثة من اليهود التفسير الحاخامي بأنه مثل الأنثى المعوجة اللينة التي تُغوي الحقيقة المستقيمة الصلبة الثابتة فتضيع الحقيقة (المجردة المعقولة) وتظهر الحقائق المتعددة المتغيرة المحسوسة .

ز) وتتعمق الصيرورة ، ففي داخل هذا الإطار يصبح المفسر (أي من يفك شفرة النص المقدَّس) أهم من النص نفسه ، ولذا فإن عبارة «لا يوجد شيء خارج النص» تعني في واقع الأمر لا يوجد شيء خارج المفسِّر/ الحاخام ، هذا القارئ السوبرمان ، وهو ما يعني موت الإله وموت النص ومولد الحاخام . ولكن الحاخام قد ينطق عن الهوى وقد يناقض نفسه ، كما أنه لا يوجد حاخام واحد وإنما عدة حاخامات ، وهكذا تهيمن التعددية المفرطة .

والقصة التالية التي وردت في التلمود توضح كل النقاط السابقة . جاء في التلمود أن الحاخام أليعازر كان يتجادل مع بعض الحاخامات بشأن قضية فقهية ويحاول أن يبيِّن لهم أن الشريعة المكتوبة تتفق مع رأيه ، بل أتى ببعض المعجزات ليبيِّن أنه مؤيَّد من الإله . فعلى سبيل المثال قال الحاخام أليعازر : «إن كانت الشريعة تتفق معي ، فليبرهن النهر على ذلك» . وبالفعل ، جرى النهر في عكس اتجاهه . وبعد مجموعة من المعجزات ، سئم الحاخام أليعازر من الجدل مع الحاخامات وقال «إن كانت الشريعة تتفق معي ، فليأت البرهان من السماء» . وهنا سمع الحاخامات صوتاً من السماء يقول : «لماذا تحاجون الحاخام أليعازر بعد أن برهن على أن الشريعة تتفق معه في كل الأمور ؟» . فرد أحد الحاخامات «إنها [أي المعنى أو التفسير] ليست في السماء» . وأكد الحاخام للإله أن التوراة قد أُعطيت لموسى في سيناء وانتهى الأمر ، ومن ثم فإن الحاخامات لا يعيرون الصوت الإلهي أي انتباه . ثم اقتبس الحاخام من التوراة ما يؤيد قوله ، وهنا ضحك الإله وقال : «لقد هزمني أبنائي ، لقد هزمني أبنائي» (بابا ميتسا ٥٩أ و٥٩ب) .

إن أساس الهرمنيوطيقا اليهودية (حسب تصوُّر دعاة ما بعد الحداثة من أعضاء الجماعات اليهودية وغيرهم) ليس شيئاً في النص وإنما في العقل الحاخامي وهو قلب كامل للأوضاع .

٢ ـ تحميل النص المقدَّس بالهرطقة :

ولكن ثمة خطوة أخرى أكثر عمقاً وراديكالية من الخطوة السابقة التي تحوِّل الهرمنيوطيقا اليهودية إلى هرمنيوطيقا مهرطقة وهي إعطاء النص المقدَّس مضموناً مهرطقاً بعد فتحه . وهي عملية تم أيضاً على عدة خطوات :

أ) لم يهاجم المفسر اليهودي النص المقدَّس بوضوح وبشكل مباشر كما يفعل المهرطقون عادةً ، وإنما لجأ إلى حيلة بارعة تأخذ شكل الالتفاف . فأعلن أن النص المقدَّس مصدر الشرعية ؛ بل أعلن إيمانه الكامل به وأنه يتحرك داخل إطار التقاليد الأرثوذكسية اليهودية .

ب) اكتسب المفسر بذلك شرعية وقداسة ، أي باعتباره مفسر النص صاحب الشرعية والقداسة .

جـ) بدأ المفسر يأتي بتفسيرات حاخامية يفرضها على النص فرضاً .

د) تحولت هذه التفسيرات تدريجياً إلى تفسيرات باطنية غنوصية قبَّالية مهرطقة .

هـ) كانت هذه التفسيرات هامشية ثم أخذت تتحرك تدريجياً نحو المركز .

و) استولى التفسير المهرطق على النص تماماً وأصبحت الهرطقة هي الجوهر ، أي أصبحت الهرطقة هي الشريعة ، والكفر هو الإيمان ، والغموض هو التوحيد ، واللامعنى هو المعنى .

وقد وردت هذه القصة في أحد أعمال كافكا موضحةً جوهر الهرمنيوطيقا المهرطقة ومنتاليتها . تدخل الفهود (المدنَّسة) المعبد وتشرب الماء المقدَّس من الكئوس المقدَّسة . يحدث هذا مرة بعد أخرى . ولذا ، وبعد مرور فترة من الوقت ، يتوقع الناس وصول الفهود إلى أن تصبح الفهود (المدنَّسة) جزءاً لا يتجزأ من الطقوس (المقدَّسة) .

ترى سوزان هاندلمان أن هذا وصف دقيق لما قام به المثقفون اليهود من دعاة الهرمنيوطيقا المهرطقة . فبعد تحطيم الهيكل ، حلت دراسة التوراة ودراسة شعائر الهيكل محل تقديم القرابين . ولكن اليهود ، بسبب غربتهم ونفيهم وشعائرهم ، يقومون بالهجوم على النص لفتحه فيقوم الفهود (الحاخامات) بدخول المعبد (النص) فيشربون الماء المقدَّس من الكئوس المقدَّسة (النص) ، وبالتدريج يصبح الفهود (الحاخامات وأصحاب التفسيرات المهرطقة الذين كانوا مختصين بالمعبد) جزءاً من شعائره ، أي أن التفسير المهرطق يصبح هو الشريعة ، وهكذا يتم الاستيلاء على الكتاب المقدَّس بدعوى تفسيره .

ويرى الأديب الفرنسي اليهودي ما بعد الحداثي إدموند جابيس أن أهم نقطة في اليهودية هي اللحظة التي تقع بين تحطيم موسى للوصايا العشر بسبب غضبه من عبادة الشعب للعجل الذهبي وبين تلقيه الوصايا العشر الجديدة . وهذه اللحظة هي لحظة حضور/ غياب ، شريعة غائبة/ موجودة . ويرى جابيس أن الشريعة الشفوية ، أي التفسيرات الحاخامية ، نشأت في الشقوق التي نجمت عن تحطيم الوصايا العشر كالأعشاب والطحالب التي تقتل النباتات المزروعة التي تأتي بالثمر . بذلك ، فقد تحولت يسرائيل بأسرها إلى تساؤل مستمر بلا نهاية ، وأصبح واجبها هو التفكيك ، أي الهرمنيوطيقا المهرطقة : وأصبح اليهودي ، المتجول المنبوذ ، ممثل الأعشاب التي ظهرت في الشقوق ، هو عنصر الظلام والشقوق التحتية المظلمة . (وهل يختلف هذا الوصف كثيراً عن وصف أعداء اليهود لدور اليهودي في المجتمعات المختلفة ؟) .

الهرمنيوطيقا المهرطقة والمثقفون اليهود

Heretical Hermeneutics and Jewish Intellectuals

الهرمنيوطيقا المهرطقة (حسب تصوُّر دعاة ما بعد الحداثة من أعضاء الجماعات اليهودية وغيرهم) تعبير عن رغبة اليهود في الانتقام لأنفسهم بسبب ما حاق بهم من كوارث تاريخية وبسبب حالة النفي والتبعثر التي يعيشونها وعملية الإحلال التي فُرضت عليهم . إنها محاولة اليهودي الانتقام من العالم اليوناني المسيحي الذي يزعم أن العالم يدور حول اللوجوس وحول نقطة ثبات نهائية ، ولكن هذا العالم الذي يبحث عن الثبات قام باقتلاع اليهود وفَرَض عليهم النفي والتحول والصيرورة . ولذا ، فهم رداً على ذلك ، يفرضون على النص المقدَّس «التفسير» و«سوء القراءة» المتعمد ، الذي هو في واقع الأمر تفكيك وتقويض له وفرض الصيرورة عليه . ولكن التفسير المهرطق ، رغم هرطقته ، يدَّعي أنه هو نفسه النص المقدَّس حتى يتسنى له أن يحل محله ، أي أنها مؤامرة تتم من الداخل باسم التفسير ، وهي في واقع الأمر تقويض : إنها فرض اللامعنى باعتباره المعنى ، وفرض الظلام باعتباره النور ، وفرض الهرطقة باعتبارها الشريعة : إنها عملية قلب كامل للمعنى تتم بهدوء ومن خلال الخديعة .

ولكن الهرمنيوطيقا المهرطقة لم تكن مقصورة على الكتاب المقدَّس المسيحي/ اليهودي إذ قام اليهود بتوجيه الهرمنيوطيقا المهرطقة إلى عالم الأغيار الدنيوي أيضاً واستخدموا الخديعة نفسها على الطريقة المارانية التي تجعل اليهودي يظهر غير ما يبطن . وهذا ما يفعله اليهود ، فهم في محاولة ضرب أعدائهم ادعوا أنهم يقومون بعملية تفسير للتراث الإنساني ، لا أكثر ولا أقل . ولكنهم في واقع الأمر يقومون بعملية تقويض جذرية ، الهدف منها البقاء الفكري لليهود وتحقيق شيء من الهيمنة .

والمثقفون اليهود المحدثون - حسب هذه الرؤية - ينتمون إلى تقاليد الهرمنيوطيقا المهرطقة ، فهم يقعون خارج التراث الغربي (المتمركز حول اللوجوس) يحاولون تحطيمه (ماركس والمجتمع - فرويد والذات البشرية - دريدا والفلسفة - بلوم والأدب) ، فهم أيضاً يغوصون في ظلمات النفس البشرية ويصلون إلى عناصر الهرطقة المكبوتة التي تتحدى المعيارية القائمة ، فيقومون باكتشافها وبلورتها ودفعها نحو المركز . وكما أن العالم قام بنفي اليهود

وإحلال شعب آخر محلهم ، فإنهم يقومون بإحلال النص المهرطق محل النص المقدَّس ، وهم بذلك يحوِّلون الخارجي إلى داخلي والعكس بالعكس . فيقوم فرويد بتعرية الرغبات المهرطقة في الذات الإنسانية ، ويقوم دريدا ، سيد التفويضيين ، بتحطيم ركائز الفلسفة الغربية ، ويقوم بلوم بتحطيم تقاليد الأدب الغربي الذي يرتكز على المسيحية ويبيِّن الحرب الأزلية الدائرة بين الشعراء . وما يفعله هؤلاء المهرطقون هو أنهم يقضون على النصوص الأصلية (المقدَّسة ـ الأبوية ـ السلطوية ـ الثابتة) ، ومن خلال تفسيرها ، يقومون بتفكيكها وتوضيح الظلمات داخلها وإطلاقها من إسارها . وهم يدينون بالولاء للتقاليد الخفية التي يجعلونها التقاليد الحقيقية ، ويصبح التفسير المظلم هو الوحي ويصبح اللاوعي هو الوعي الحقيقي .

وترى سوزان هاندلمان أن تقاليد الهرمنيوطيقا المهرطقة لم تَعُد مقصورة على المثقفين اليهود ، فهناك في كل أنحاء العالم «مثقفون يهود» بالمعنى المجازي جعلوا همهم فتْح النصوص المقدَّسة عن طريق إعلان أن النص المقدَّس صامت يمكن أن يحمل أيَّ معنى يشاء المفسر ، ثم قاموا بإعادة تفسيرها وتحميلها معنى مهرطقاً حتى يسود الظلام وتهيمن العدمية (ومما يجدر التنبيه إليه أن كلمات مثل «فوضى» و«ظلام» و«انقطاع» و«عدمية» لا تحمل أيَّ معنى سلبي أو قدحي في معجم سوزان هاندلمان) .

وهذه الرؤية للمثقفين اليهود تُشيِّئهم تماماً وتجعلهم قوة فريدة من قوى الظلام . ولعل المدافعين عن مثل هذه الرؤية لو دققوا قليلاً لوجدوا أن هؤلاء المثقفين لا ينتمون إلى تقاليد يهودية وإنما إلى تقاليد غربية علمانية . ونحن نذهب إلى أن الحضارة الغربية العلمانية الحديثة هي في جوهرها حضارة تفكيكية . فحين أعلنت هذه الحضارة إلغاء فكرة الإله أو تهميشها ، لم يكن هناك بُد من تفسير الإنسان في إطار طبيعي/ مادي ، فأصبح جزءاً لا يتجزأ من الطبيعة/ المادة يُردُّ في كليته إليها ، فيتحول من كائن إنساني متجاوز للطبيعة/ المادة إلى كائن مادي يمكن تفكيكه إلى عناصره المادية الأولية . وهذا هو ما فعله توماس هوبز غير اليهودي الذي أعلن أن الإنسان (الذي يعيش في عالم الطبيعة/ المادة وحسب) إن هو إلا ذئب لأخيه الإنسان . وجاليلو ، ومن بعده نيوتن ، كانا «مسيحيين» ، وأنكرا على الإنسان أية مركزية ، وجاء داروين غير اليهودي ، قَبْل فرويد «اليهودي» ، واكتشف الظلمات في الطبيعة وفي النفس البشرية . وجاء بعد فرويد عشرات المحللين النفسيين من غير اليهود ممن تبنوا الرؤية الفرويدية بحماس بالغ ، وقاموا لا بتطبيقها وحسب وإنما بتعميقها كذلك (هذا مقابل عشرات المثقفين من أعضاء الجماعات اليهودية ممن رفضوا هذه الرؤية التفكيكية العلمية مثل إريك فروم) . وهكذا فإن تقاليد التفكيك التقويضي المهرطق ، هي تقاليد راسخة في الحضارة العلمانية الغربية .

يُسقط دعاة ما بعد الحداثة من أعضاء الجماعات اليهودية كل هذه الاعتبارات ويجعلون الهرمنيوطيقا المهرطقة ظاهرة يهودية ، وهم في هذا لا يختلفون كثيراً عن رؤية **بروتوكولات حكماء صهيون** التي تجعل اليهود قوة من قوى الظلام والدمار . ومما يجدر ذكره أن مسألة الاختلاف الجذري بين العقل الهيليني والعقل العبراني هي أحد أسس التفكير العنصري الغربي . ولكن رغم عنصرية سوزان هاندلمان وغيرها من دارسي ظاهرة ما بعد الحداثة بين المفكرين ، فإنهم قد وضحوا إحدى السمات الأساسية للإنجازات الفكرية للمثقفين اليهود من دعاة ما بعد الحداثة .

بعض مصطلحات ما بعد الحداثة وعلاقتها باليهودية وبأعضاء الجماعات اليهودية

Some Post-Modernist Terms and Their Relation to Judaism and Members of Jewish Communities

تتسم المصطلحات التي يستخدمها دعاة ما بعد الحداثة بالصعوبة البالغة ، ولكنها صعوبة ناجمة عن التضخيم الذي لا مبرر له ، أي أنها حالة تورُّم لا تركيب . ويتضح مدى بساطة هذه المصطلحات حينما يدرك المرء أساسها الفلسفي . ومعرفة أصولها في العقيدة اليهودية تساهم في عملية التبسيط والتوضيح هذه . وسنتناول في بقية هذه المداخل بعض المصطلحات الأساسية التي يستخدمها دعاة ما بعد الحداثة . ومعظم هذه المصطلحات تدور حول فكرة النص والقراءة .

الدال المتجاوز والمدلول المتجاوز

Transcendental Signifier and Signified

«المدلول المتجاوز» هو الركيزة الأساسية لكل الدوال ويقف خارج لعب الدوال ، فهو «غير ملوث» بهذا اللعب ، وهو ليس جزءاً من اللغة التي تحاول أن تُوقف لعب الدوال وانزلاقيتها وانفصالها عن المدلولات .

ويُشار إلى «المدلول المتجاوز» أحياناً بأنه «الإله» و«روح العالم» و«المادة» و«الحضور المطلق» و«اللوجوس» . ووجود مدلول متجاوز (مفارق) هو الطريقة الوحيدة لكي نخرج من عالم الحس والكمون والصيرورة ونوقف لعب الدوال إلى ما لا نهاية ، ونحرز التجاوز

والثبات وتؤسس منظومات فلسفية : معرفية وأخلاقية . وكل النظم المتمركزة حول اللوجوس لابد أن تتضمن مدلولاً متجاوزاً لعالم الدلالات : هو الإله في المنظومات الدينية ، وهو الكل المادي الثابت المتجاوز في المنظومات المادية ، ونشير إليه أيضاً بأنه «المطلق العلماني» . وهو الذي يضمن علاقة الدال بالمدلول . وتتسم العقلانية المادية بوجود مركز فيها ، مركز مادي (الإنسان الطبيعي ـ الطبيعة/ المادة) ولكنه مركز (مبدأ واحد) يعطي النسق صلابة .

وقد بيَّن نيتشه الميتافيزيقا الكامنة في فكرة المركز والكل والمعنى المتجاوز للصيرورة ، وبيَّن أنه رغم موت الإله فإن ظلاله لا تزال جاثمة ، وتتبدَّى في مثل هذه الأفكار . ولذا طالب بمحو ظلال الإله من خلال ضَرْب هذه الأفكار وتقويضها عن طريق ضَرْب الدال المتجاوز (المركز ـ الكل) بحيث لا يبقى سوى لعب الدوال بلا مركز ولا كليات ولا معنى . وهذا ما ترمي ما بعد الحداثة إلى إنجازه ، فهي تحاول أن تضرب العلاقة بين الدال والمدلول حتى يتحرر الدال تماماً من المدلول . وكما يقول دريدا فإن الدال هو المحسوس والمدلول هو المعقول . وإن ظلت ثنائية الدال والمدلول قائمة فإن هذا يعني أن هناك عالم الدال المحسوس غائص في عالم الصيرورة ولكن يقف إلى جواره عالم آخر ، معقول وغير محسوس ، عالم المدلول الذي سيفلت بذلك من قبضة الصيرورة . وقد عبَّر دريدا عن هذه الثنائية بقوله إن المدلول المعقول يتجه بوجهه نحو الله ، أي إلى عالم الثبات والميتافيزيقا . وما بعد الحداثة تحاول أن توقف هذه السلسلة التي تبدأ بالثنائية وتنتهي عند الله .

وقد حاول الحاخامات إنجاز شيء من هذا القبيل في اليهودية ، فالحاخام المفسر جزء من صيرورة التاريخ والزمان ولكن تفسيراته التي لم تفلت من قبضة الصيرورة مساوية لكلمات الإله (المدلول المتجاوز) . ثم تتجاوز كلمات الحاخامات النسبية المبعثرة كلمة الإله الثابتة وتصبح بديلاً لها ، وبذلك يسقط كل شيء في قبضة الصيرورة ويصبح العالم بلا مدلول متجاوز ، وتتساوى كل الأمور وتصبح نسبية لا معنى لها .

الحضور
Presence

«الحضور» من الكلمة الفرنسية «بريزانس presence» ، وهو مصطلح استخدمه هايدجر وأشاعه دريدا . و«الحضور» هو ما لا يستند وجوده (حضوره) إلى شيء إلا نفسه . والحقيقة هي التمييز بين الحضور والغياب . ورغم جدة المصطلح ، فهو مرادف لكلمات أخرى في الفلسفة الغربية مثل «اللوجوس» (اللوجوس في القبَّالا، اسم الإله الأعظم - أكبر تركيز للحضور الإلهي) ، و«الأصل» و«الأساس النهائي» و«الركيزة النهائية» و«المبدأ الواحد ، الكلي والنهائي ، الروحي أو المادي» و«المركز» و«الأساس القَبْلي» و«الأوَّلي» و«الميتافيزيقا» و«المطلق» و«عالم المثل» و«الكليات الثابتة المتجاوزة» و«المدلول المتجاوز» . وقد ذكر دريدا نفسه بعض المرادفات الأخرى ، مثل : «الجوهر» و«الحقيقة» و«الوجود» و«الغرض» ، وعرَّفه بأنه الأساس الصلب الثابت لأي نسق فلسفي .

و«الحضور» مقولة أولية قَبْلية توجد في البدء قبل تفاعل الذات مع الموضوع ، وهو مكتف بذاته ومصدر للوحدة والتناسق والمعنى في الظواهر ، وهو يتجاوز الإنسان وواقعه المحسوس ، ويتجاوز التفاصيل الحسية ويهرب من قبضة الصيرورة ، أي أن الحضور يؤدي إلى ظهور ثنائية الحاضر/ الغائب أو ثنائية المتجاوز/ الكامن التي هي تعبير عن ثنائية أولية (ثنائية الخالق/ المخلوق) . وتنتج عن هذه الثنائية ثنائيات أخرى ، مثل : الذكر/ الأنثى ـ الإنسان/ الطبيعة ـ المقدَّس/ المدنَّس ـ الثابت/ المتحول . ومن خلال «الحضور» ، يمكن تنظيم أجزاء الواقع بشكل هرمي والحكم عليها وتقرير ما هو كلي وجزئي ، وما هو مركزي وهامشي .

ويرى دريدا أن النظام الدلالي مبني على الاختلاف والإرجاء (الاخترجلاف) الذي يؤدي إلى عدم تَحدُّد أي معنى وإلى لعب لا متناه للدوال والنصوص ، فالمعنى دائماً حاضر/ غائب (تحت الممحاة) ، وهو ما ينجم عنه انفصال الدال عن المدلول . ولا يمكن أن يتوقف لعب الدوال ويتم التواصل بين البشر إلا من خلال وجود المدلول المتجاوز (الحضور) ، وهو النقطة المرجعية النهائية التي توجد خارج الأنساق الدلالية وعالم الصيرورة . وهي نقطة يدركها الوعي مباشرةً ، ذلك لأنه مُعطى مباشر للذات بلا وسيط دلالي . ولأنه أساس مطلق ، خارج النظام اللغوي والدلالي ، فهو لا يشكل جزءاً منه ولا يستند إلى سلسلة الدوال ، بل إن النسق اللغوى هو الذي يستند إليه ، أي أن وجوده يسبق وجود اللغة . وبهذا المعنى ، فإن أية لغة إنسانية (من منظور دريدا) هي لغة أفلاطونية تفترض وجود عالم ثابت يسبق عالم الصيرورة (المدلول المتجاوز/ الإله) يضمن الثبات والمعنى . وهذا يعني أن النظام الدلالي ثانوي بالنسبة للمدلول (بسبب أسبقية المدلول المتجاوز على كل الظواهر) ويمكن الاستغناء عنه ، فهو يساعد على التذكر أو على التعبير الموجز عن الأفكار ، ولكنه في واقع الأمر يقف عائقاً بين الذات والموضوع .

والمشروع ما بعد الحداثي هو مشروع الحلولية والكمونية الكاملة ومحاولة تأسيس وعي إنساني كامل دون أساس إلهي أو حتى إنساني أو مادي ؛ عالم من الصيرورة الكاملة لا حضور فيه ولا مطلقات ولا أي مدلول متجاوز . وهذا يعني ضرورة موت الإله والمطلقات حتى يصبح اللعب الحر للدوال ممكناً وحتى تنتهي النزعة الدينية (مركزية الإنسان التي تستند إلى وجود الإله) والنزعة الإنسانية (مركزية الإنسان التي تستند إلى أسبقية الذات الإنسانية على الطبيعة) . وبذا، نصل إلى النهاية الحقيقية لكل أنواع الميتافيزيقا سواء أكانت ميتافيزيقا دينية أم ميتافيزيقا مادية ، ولأي نظام فلسفي يعتمد على أساس أو مبدأ أول أو أرضية يؤسس عليها التراتب الهرمي . ومن ثم ، لابد من فك المبدأ الأول والأساس الثابت للوجود الإنساني ، ولابد من محو الأصول تماماً ، للوصول إلى نقطة بلا أصل ، نقطة حلولية ، أصولها كامنة فيها تماماً بحيث لا يفلت أيُّ شيء من قبضة الصيرورة، وهي نهاية يرى دريدا أنها لن توصل إلى العدم ولا إلى الغياب (عكس الحضور) ، فوجود الغياب شكل من أشكال الوجود يستدعي الحضور ، ولذا لابد من الوصول إلى نقطة ليس فيها حضور أو غياب ، نقطة بينية مثل الاخترجلاف وهو ليس حضوراً ولا غياباً .

ونقطة اللاحضور واللاغياب (نقطة الصيرورة الكاملة) مفهوم أساسي في اليهودية . فالإله في اليهودية ليس بشراً ولكنه ذو سمات بشرية ، وهو مطلق يتجاوز الطبيعة والتاريخ ولكنه نسبي لأنه مقصور على اليهود ، دائم التدخل في الطبيعة والتاريخ ، بل يحل في الشعب اليهودي والتاريخ اليهودي . وفي القبَّالاه التراث الصوفي الحلولي اليهودي ، هو الأين سوف (الذي لا مثيل له) ولكنه هو أيضاً الآيين (اللاشيء) . والكلمتان ، كما يشير القبَّاليون، مكونتان من الحروف والأصوات نفسها تقريباً ، فكأن الإله لا هو هذا ولا ذاك ولا هو بالغياب ولا هو بالحضور .

وقصة الخلق في القبَّالاه قد ولَّدت منها كثير من مفاهيم ما بعد الحداثة وبخاصة مفهوم الحضور/ الغياب هذا . ويبدأ خلق العالم في القبَّالاه بالتسيم تسوم ، أي الانكماش ، وهي تعني أن الإله خَلَق العالم بأن انكمش في ذاته وانسحب من المادة الأصلية . وبعد ذلك بدأ يوزع الإله ذاته النورانية في أوعية ، ولكنها ناءت بحملها فتهشمت في حادثة يُطلَق عليها تَهشُّم الأوعية (شفيرات هكليم) . وقد نتج عن هذا تَبعثُر الشرارات الإلهية واختلاطها بالمادة الكونية الرديئة . وقد شُبِّهت هذه الحادثة بهَدْم هيكل القدس ونفي اليهود وتَبعثُرهم في بقاع الأرض وإحلال شعب آخر محلهم . وبعد تَهشُّم الأوعية تأتي عملية التيقون ، أي الإصلاح الكوني إذ يبدأ الإله في جمع شتات ذاته إلى أن تكتمل . ولكنه لن يصل الإله إلى مرحلة الوحدة والتكامل هذه إلا بمساعدة اليهود . فالإله هنا حاضر/ غائب، ومطلق/ نسبي ، وثابت/ متغير ، ومتجاوز/ حال، وكل غير متكامل .

والنمط نفسه يوجد في مفهوم الشريعة الشفوية ، أي التفسير الحاخامي ، ذلك أن قواعد التفسير يُفترض أنها أُعطيت لموسى على جبل سيناء مع الشريعة المكتوبة . فالثابت ، أي الشريعة المكتوبة ، لا يمكن أن يكتمل وجوده دون المتغير ، أي التفسير الحاخامي المستمر عبر التاريخ . ولذا ، فهي أيضاً حالة حضور وغياب . ويشير جابيس إلى حادثة تحطيم لوحي الوصايا العشر على يد موسى نتيجة غضبه من الشعب لعبادته العجل الذهبي . وما بين لحظة تحطيم الوصايا العشر وإعطاء موسى النسخة الثانية ، ثمة حالة من الحضور والغياب. فالشريعة غائبة/ حاضرة وحاضرة/ غائبة . والوصايا العشر عدة نسخ كلها مختلفة ، فهي من ثم حاضرة/ غائبة أيضاً .

بل إن اليهودي نفسه تجسيد لهذا الحضور/ الغياب ، فهو منفيٌّ أزلي ولكنه منفيٌّ أزليٌّ يرفض العودة إلى الدولة اليهودية ، وهو صاحب أصول راسخة ولكنه متجول لا حدود له ، وهو يبحث دائماً عن جذوره ويعلم مسبقاً أنه لن يجدها . ويُقال إنه صاحب هوية ولكنه في واقع الأمر صاحب هويات لا هوية واحدة ، فهو أيضاً المطلق/ النسبي ، الحاضر/ الغائب .

الثنائية

Dualism

يرى أنصار ما بعد الحداثة أن كل النظم المعرفية مبنية على أصل ثابت (الحضور) تنتج عنه ثنائيات متعارضة ، مثل : الفكر/ الواقع والمكتوب/ المنطوق والحقيقي/ الزائف والإنسان/ الطبيعة ، وتعطي أسبقية للعنصر الأول على الثاني . فالثنائيات المتعارضة هي الطريقة التي تقدم بها أية أيديولوجيا رؤيتها للواقع . فكل رؤية ترسم حدوداً واضحة بين ما هو مقبول وما هو مفروض ، وبين المركز والهامش ، وبين الذات والموضوع ، وبين الداخل والخارج ، وبين الصواب والخطأ ، وبين المعنى واللامعنى ، وبين العقل والجنون ، وبين السطح والعمق ، وبين الحلال والحرام ، وبين المقدَّس والمدنَّس ، وبين الأزلي والزمني وبين الدال والمدلول . ويمكن أن يستمر النظام في العمل ما دامت هذه الثنائية قائمة ، ولا يمكن أن تقوم للثنائية قائمة بدون الحضور (اللوجوس - الأصل - لحظة البدء - المدلول

المتجاوز)، فهو ليس جزءاً من أية ثنائية داخل النظام ويتجاوزها ويتجاوز النظام نفسه فنتوقف عنده سلسلة المعنى المتزلق ولعب الدوال، ويمكن فرض التراتب الهرمي على الواقع من خلاله (ونحن نرى أن النظم التوحيدية تؤدي إلى ظهور مثل هذه الثنائية ولكنها ثنائية فضفاضة تكاملية).

ومن أهم الثنائيات داخل أي نسق فلسفي ثنائية الإنسان/ الطبيعة التي تجعل الإنسان يدرك أنه مختلف عن الطبيعة متميِّز عنها وأنه ليس له ما يماثله في عالم الطبيعة، فهي ثنائية راديكالية. ومن ثم، فإن الإنسان يكتشف أن الحالة الإنسانية حالة متمردة على النظام الطبيعي/ المادي، فيشعر الإنسان بكينونته وهويته وحدوده ومقدرته على التجاوز. فيبدأ بالتفكير في أصوله الربانية. وهذا التفكير، إن لم يواكبه إيمان حقيقي بالإله، يؤدي إلى العدمية، إذ أن ذكرى الأصل الرباني تُعذب الإنسان. ومن هنا، يرى أنصار ما بعد الحداثة ضرورة إلغاء الثنائية، فإلغاؤها إلغاء للأصل، وإن أُلغي الأصل وأُلغيت الثنائيات تساقط النظام تماماً وسادت الواحدية السائلة وتداخلت الحدود والهويات والأشياء (أي تظهر الحالة الرحمية التي لا حدود لها). ولذا، يجعل النقد التفكيكي همه هَدْم الثنائيات وتوضيح انفصالها الكامل أو التحامها الكامل، وذلك بهدف هَدْم الأساس والمبدأ الأول والثابت لتسود حالة الواحدية السائلة والرحمية. وإن ظلت هناك ثنائيات فهي ثنائيات متداخلة يتساوى فيها القطبان ولا تمنع قط لعب الدوال ورقص القلم.

وما ذكرناه عن الحضور والغياب ينطبق أيضاً على الثنائية، فالتراث الديني اليهودي، بتأكيده حالة الحضور/ الغياب هذه، يمحو الثنائيات تماماً وكل أنواع الحلولية تمحو أية ثنائيات حينما تصل إلى مرحلة وحدة الوجود، حيث لا يبقى إلا جوهر واحد.

التمركز حول اللوجوس

Logocentrism

«التمركز حول اللوجوس» ترجمة لكلمة «لوجوسنتريك logocentric» المكونة من كلمتي «لوجوس logos» بمعنى «كلمة» أو «حضور» أو «عقل» أو «تجلِّي الإله» أو «المبدأ الثابت الواحد» وكلمة «سنتر centre» بمعنى «مركز».

ويرى دريدا أن الفكر الغربي فكر متمركز حول اللوجوس (ففي البدء كانت «الكلمة»)، فاللوجوس هي الأصل وكل شيء يستند إليها، ولا يستطيع أحد أن يخرج من نطاق اللوجوس.

واللغات الأوربية نفسها متمركزة حول اللوجوس، وبداية الإنسان الغربي متمركزة حول اللوجوس. والأنساق المتمركزة حول اللوجوس تدَّعي لنفسها العالمية والشمول وتدعي أن نقطة مرجعيتها موجودة خارجها، وأنها تستمد معقوليتها ومعياريتها من هذه النقطة. كما أن مفهوم الغائية والعلية يستند إلى هذا الأصل الثابت، والتراتب الهرمي والمنظومات الأخلاقية والثنائيات الأنطولوجية والمعرفية والأخلاقية (معقول/ غير معقول ـ خيِّر/ شرير) كلها تستند إليه. ولكن، بمعنى من المعاني، يرى أنصار ما بعد الحداثة أن الفكر الإنساني كله متمركز حول لوجوس ما (بمعنى العقل والمركز والمبدأ الأساسي الثابت)، فلا يوجد فكر إنساني بدون أساس ثابت خارج عنه، ولذلك فإن كل الفكر الإنساني (ربانياً كان أم إلحادياً) ميتافيزيقي (ملوث بالميتافيزيقا) لا يتعامل مع الصيرورة الحسية المباشرة.

ويهاجم أنصار ما بعد الحداثة التمركز حول اللوجوس، فيطرح دريدا مفهوم الاختلاف والتناص والكتابة الأصلية والأثر والهوة (أبوريا) ورقص الدوال والتمركز حول المنطوق والنص المفتوح، وكلها تحاول مهاجمة فكرة الأصل الثابت من خلال محو الثنائيات والحدود حيث يسقط كل شيء في الصيرورة وتسود الانزلاقية.

والتمركز حول اللوجوس، في التراث اليهودي، حالة مستحيلة توجد في الماضي السحيق حينما كان يهوه يحل في الشعب ويقوده في البادية ويدخل معه في علاقة حوارية مباشرة. كما يوجد التمركز حول اللوجوس في نهاية التاريخ في اللحظة المشيحانية حين يجمع الإله شعبه المبعثر ويحل فيه ويقوده مرة أخرى إلى أرض الميعاد ليسود العالم. أما ما بين اللحظتين، وهو التاريخ بأسره، فإن الإله غائب واللوجوس غير موجود لا يمكن التمركز حوله (على عكس ما يتصوره المسيحيون)، فهي حالة تبعثر وتشتت وصيرورة عبثية كاملة، وهذا هو المجال البحثي لأنصار ما بعد الحداثة. وقد تطوَّر اللاهوت اليهودي تدريجياً ليصبح لاهوتاً بلا مركز ولا لوجوس، وهو ما يُسمَّى «لاهوت موت الإله».

القصص الصغرى والقصة الكبرى

Small Narratives and Grand Narrative

«القصص الصغرى» و«القصة الكبرى» مصطلحان من فلسفة ما بعد الحداثة. وهي، كالمعتاد، لا تقول شيئاً جديداً وإنما تقول القضايا القديمة بطريقة متضخمة متورمة تخبئ أكثر مما تكشف، وما

بعد الحداثة ليست معادية للمنظومات الدينية وحسب وإنما معادية للمنظومات الإنسانية الإلحادية أيضاً . ويتضح هذا في استخدامهم كلمة «قصة» ، فكلمة «قصة» بديل لكلمة «رؤية» أو «نظرية» أو «نموذج» ، وعلاقة القصة الصغرى بالقصة الكبرى هي علاقة الخاص بالعام والحالة بالنظرية والفرد بالمجتمع . . . إلخ .

ودعاة ما بعد الحداثة يعادون القصص الكبرى (النظريات الكبرى والرؤى العامة والنماذج) ويرون أنه ، منذ عصر النهضة والاستنارة ، تحاول المنظومة المعرفية الغربية الحديثة التوصل إلى نظرية (قصة عظمى) تضم كل النظريات (القصص) الصغرى وتتجاوزها . ووصفهم هذا وصف للفلسفات المادية التي تطرح رؤية مادية للكون ترتكز إلى مطلق كامن في المادة (العقل - الروح المطلقة - البروليتاريا) وتفسر كل شيء بدون ثغرات وبدون أية مسافة بين الكل والجزء ، وهو وصف جيد لفلسفة التاريخ المادية بكل حتمياتها وإيمانها بأنها تفسر كل شيء وتُردُّ كل الأبنية الفوقية إلى بناء تحتي واحد يُردّ بدوره إلى عنصر مادي واحد ، فتسقط في الواحدية السببية .

ولكن الأمر لا يتوقف عند هذا ، فقد وُصفت ما بعد الحداثة بطريقة متورمة بأنها فلسفة ضد القصص ذات النزعة الكلية الترانسندنتالية (المتجاوزة) المتمركزة حول اللوجوس (بالإنجليزية : أجينست لوجوسنتريك توتاليزنج ترانسندتال ميتاناراتيفز against logocentric totalising transcendental metanarratives) ، أي أنها فلسفة معادية للقصص الكلية التي تستند إلى لوجوس (مركز) متجاوز للصيرورة المادية ، أي أنها ببساطة شديدة ضد أية نظرية كلية تشير إلى عالم متجاوز لعالم الجزئيات المحسوسة المباشرة .

ويستخدم دعاة ما بعد الحداثة كلمة «قصة» بدلاً من كلمة «رؤية» أو «نظرية» لأن الرؤية والنظرية إذا كانت مجرد قصة ، فهي إذن نسبية ولا تشير إلى ما هو خارجها (تماماً مثل النظام اللغوي) . ولا شك في أن محاولة تأسيس نظرية (عامة) على أساس القصة (الخاصة) هو من قبيل العبث ، إذ لا يمكن التعميم من الخاص . فكل النظريات قصص ، ومن ثم فالحقيقة الدينية بل الإنسانية غير ممكنة ، والمعرفة أمر غير وارد ، ولا يوجد أساس لكتابة تاريخ عام ، ولا توجد نظرية للكون ، ولا توجد حدود إنسانية شاملة ومشتركة ؛ ولكن توجد جزر من الحتمية والحرية ، والمعرفة كلها مرتبطة بمواقع محلية مختلفة داخل إطار لغوي وتفسيري خاص ، ولا يبقى أمامنا سوى القصص الصغرى التي لا تتجاوز شرعيتها ذاتها . فهي (كالنظام اللغوي) مغلقة على نفسها تماماً وتمنح صاحبها يقيناً خاصاً عالياً ولكنها لا تجيب عن أية أسئلة كبرى نهائية أو كلية . وهي قصة لا تتطلب أية شرعية من قصة كبرى فمطلقها (مركزها) كامن فيها ، مرتبط بالآن الخاص والهنا الخاصة ، مرتبط بالموقف المادي المباشر (الزماني المكاني) الذي لا علاقة له بالتاريخ الأكبر أو المطلقات العالمية أو الإنسانية المشتركة . وتفترض القصة العظمى وجود الكليات المتجاوزة للسياق الحسي المباشر مثل الإنسانية المشتركة ووحدة الحق ووحدة الحقيقة ولا تتغير بتغير السياق . أما القصة الصغرى ، فهي مرتبطة تمام الارتباط بسياقها ، فتفترض المطلق الخاص الذي يذكِّرنا بالحلوليات الكمونية الوثنية والوثنيات القديمة ، التي لم تكن تؤمن برؤية عالمية ولا أخلاقيات عالمية ولا إنسانية مشتركة ، والتي تذكِّرنا كذلك بالقوميات العضوية ، وبالحركة النازية والصهيونية وجوش إيمونيم ، فهي جميعاً تدور في إطار قصص صغرى يؤمن بها أصحابها ويستمدون قداستهم منها ، ويستبعدون الآخر بالضرورة إذ لا توجد قصة إنسانية عظمى تضم الجميع ويمكن الاحتكام لها . ومن ثم ، يمكن القول بأن القصة الصغرى قصة علمانية تماماً ، فهي تنكر أي تجاوز أو أي ثبات أو أية كليات توجد وراء التجربة الحسية المباشرة أو تقف خلف دوامة الصيرورة .

والقصة الصغرى قصة الشعب المختار الذي يؤمن بأن الإله غير مفارق له ، يسكن في وسطه ، ويتحد به ، وهم يعاملونه معاملة الند لنده ، فيدخلون معه في علاقة حوارية ، ويعصون أوامره ببساطة شديدة وفي نهاية الأمر يتحدث الحاخامات بدلاً منه . ولكنهم لا يأتون بقصة كبرى ، وإنما بقصص حاخامية متعددة مختلفة ، إلى أن نصل إلى اليهودية المحافظة التي تُعلي الذات اليهودية وتجعلها المركز الحقيقي للمنظومة اليهودية ، ثم تجعلها مصدر المعيارية . وفي نهاية الأمر ظهرت اليهودية الإنسانية فاليهودية الإلحادية فلاهوت موت الإله .

الاختـرجلاف

La Differance

«الاخترجلاف» كلمة قمنا بنحتها من كلمتي «اختلاف» و«إرجاء» ، على غرار كلمة «لا ديفيرانس la differance» التي نحتها دريدا من الكلمة الفرنسية «differer» بمعنى «أخَّر» أو «أرجأ» و«difference» بمعنى «اختلاف» .

ويُلاحَظ أن الفرق بين «ديفرانس la differance» (الكلمة التي نحتها دريدا) وكلمة «difference» بمعنى «الاختلاف» ليس في النطق وإنما في الكتابة ، ففارق النطق بين «ence» و«ance» ضعيف للغاية

ويكاد لا يبين للسمع . وتحتوي الكلمة على معنى الاختلاف (في المكان) ومعنى الإرجاء (في الزمان) .

ويرى التفكيكيون أن المعنى يتولَّد من خلال اختلاف دال عن آخر ، فكل دال متميِّز عن الدوال الأخرى . ومع هذا ، فثمة ترابط واتصال بين الدوال ، فكل دال يتحدد معناه داخل شبكة العلاقات مع الدوال الأخرى ، لكن معنى كل دال لا يوجد بشكل كامل في أية لحظة (فهو دائماً غائب رغم حضوره) إذ أن كل دال مرتبط بمعنى الدال الذي جاء قبله والذي جاء بعده ، ووجوده نفسه يستند إلى اختلافه . ويضرب دعاة ما بعد الحداثة مثلاً بالبحث عن معنى كلمة في القاموس فإن أردت أن تعرف معنى كلمة «قطة» فسيتحدد معناها من خلال اختلافها مع كلمتي «نطة» و«بطة» . كما أن القاموس سيخبرنا أن «القطة حيوان» فسنذهب لكلمة «حيوان» لنعرف معناها ، وهناك سنعرف أنه «كائن ذو أربعة أرجل» فسننظر لمعنى كلمتي «كائن» و«أرجل» إلى ما لا نهاية ، أي أن دائرة الهرمنيوطيقا هنا دائرة مفرغة لا تؤدي إلى نهاية أو معنى فكل تفسير يؤدي إلى تفسير آخر . وهذا يعني أن مدلول أي دال مُعلَّق ومؤجل إلى ما لا نهاية ، وهو ما يؤدي إلى لعب الدوال اللامتناهي (ولا يمكن أن يوقف هذه العملية سوى المدلول المتجاوز ، أي الإله الذي يقف خارج شبكة لعب الدوال) .

والاخترجلاف ليس هوية أو أساساً أو جوهراً أو أصلاً وإنما هو قوة كامنة وحالة في اللغة نفسها يحركها من داخلها فيفصل الدال عن المدلول ، ولذا يصبح عالم الدوال مستقلاً عن عالم المدلولات ويخلق الهوة (أبوريا) ، ومن ثم تصبح اللغة قوة لا يمكن التحكم فيها . ولأن الاخترجلاف كامن في اللغة ، فليس بإمكان أي شيء أن يهرب منه ، فهو ممثل الصيرورة داخل النسق اللغوي ، وسيلة الإنسان الوحيدة للتعامل مع الواقع والتواصل مع بقية البشر .

والاخترجلاف يحل محل مفهوم البنية عند البنيويين ، ولكنها البنية بعد أن وقعت في دوامة الصيرورة ، فالاخترجلاف لا يعرف الثنائية ولا التجاوز ولا الغائية ، فهو مجرد منها جميعاً . فالحضور الوحيد بالنسبة له هو عملية لا متناهية في الزمان والمكان ولا يعرف الزمان أو المكان . والاخترجلاف - كما أسلفنا - يتم على أساس الاختلاف في المكان والإرجاء في الزمان ، فهو لا يستقر فيهما أبداً ولا يمكن أن يصبح هو هو . والاخترجلاف ، على خلاف البنية ، لا يعرف أي مركز ، ومن ثم لا يوجد أي تراتب هرمي من أي نوع .

والاخترجلاف لا يشاكل العقل الإنساني بل يتجاوزه ويستوعبه . وهو على عكس البنية ليس مفهوماً ، فهو شيء لا يفكر فيه المرء وإنما يحدث له ، أو يحدث للنص (ولذا فإن النص يكشف لنا شيئاً عن طبيعة المعنى/ اللامعنى التي لا يمكن صياغتها على هيئة أطروحة) .

الاخترجلاف ، إذن ، عكس الحضور والغياب ، بل يسبقهما (ولذا سمي أنطولوجيا الحضور والغياب الذي لا يمكن معرفته) ، وهو لا وعي اللغة والأصل الذي لا يمكن معرفته أو إدراك كنهه ، وهو آلية تقويض المعنى والحقيقة والأصل الثابت المتجاوز للغة والإنسان ، وهو تأكيد أولوية اللغة على الإنسان .

الاخترجلاف ، إذن ، هو استيعاب المطلق في الصيرورة ، فهو المطلق/ النسبي . وهو المبدأ المادي الواحد الذي يسري في الكون ، وهو القوة الدافعة له الكامنة فيه والتي تتخلل ثناياه وتضبط وجوده وتوحده ، وهو النظام الضروري والكلي للأشياء ، نظام ليس فقط فوق الطبيعة ولكنه نظام فوق الإنسان أيضاً ، إنه مطلق علماني جديد في عصر المادية الجديدة أو اللاعقلانية المادية حيث تغوص كل الأشياء في دوامة الصيرورة .

ومفهوم الاخترجلاف فيه آثار كثيرة من المفاهيم القبَّالية مثل «إين سوف» ، أي «الذي لا نظير له» ، ومفهوم «شفيرات هكليم» ، أي «تَهشُّم الأوعية» ، وعملية «تيقون» ، أي «إصلاح» ، وكلها عمليات مستمرة بلا نهاية في عالمنا هذا ولا تتوقف إلا في نهاية التاريخ . وثمة صدى من مفهوم الشريعة الشفوية التي تفرض نفسها على الشريعة المكتوبة الموحى بها من الإله ، والشريعة الشفوية عملية اخترجلافية لا تنتهي ، ولذا يسخر دريدا من المفسرين الذين يودون الوصول إلى معنى نهائي (فهم مسيحيون بالمعنى النماذجي) غير قادرين على أن يعيشوا في التوتر الناجم عن الغياب داخل الحضور وعن الحضور داخل الغياب . ويرى أن اليهودية والقراءة هما شيء واحد ، هما الانتظار الإرجاء نفسه ؛ الاخترجلاف نفسه ؛ التوقع نفسه والأمل نفسه الذي لا يتحقق أبداً .

الأثـر

Trace

«الأثر» ترجمة لكلمة «تريس trace» الإنجليزية ، وهو من المفاهيم الأساسية في فكر دريدا والمرتبط تمام الارتباط بمفهوم الاخترجلاف . والاخترجلاف هو القوة الكامنة في اللغة الدافعة لها والمقوضة للدلالة . ويبيِّن دريدا أن معنى الكلمة (دلالتها) ليس كامناً فيها ، فهي لا جوهر لها ، وإنما يتحدد من خلال الاخترجلاف . أي أن مدلول كل كلمة يتحدد من خلال غياب المدلولات الأخرى ، فحضور الدال وارتباطه بمدلوله هو غياب

الدوال والمدلولات الأخرى . ولكن ، رغم غياب الدوال الأخرى ، فإن الدال الحاضر يستدعيها عن غير وعي . ولذا ، فإنني حينما أفكر في الدال الماثل أمامي وأركز عليه ، أفكر عن غير وعي في الدوال الأخرى . وكل دال يحتوي على أثر من الدوال التي يختلف عنها سواء وردت قبله أم وردت بعده . ومعنى الدال غائب عنه دائماً وليس له حضور كامل قط ، فهو جزء من شبكة العلاقات الدلالية (غائب/ حاضر) . ومن خلال عملية الاخترجلاف عبر السنين ، يحدث تراكُم للآثار . ويبدو هذا التراكم وكأنه المعنى الثابت والمستقر للكلمات ، ولكنه في واقع الأمر ليس كذلك ، فهو مجرد وهم ـ أثر . وتعني عبارة «سو راتير sous rature» الفرنسية (بالإنجليزية : أندر إريشر under erasure) «تحت الممحاة» أن الكلمة التي نظن أنها مُحيت وزالت تترك وراءها أثراً لا يزول ويمارس وظيفته أو آثاراً من وظيفته .

والنتيجة أن اللغة ليست طاهرة تماماً ، ذلك لأن كل كلمة تحتوي أثراً من الكلمات السابقة وتترك أثراً في الكلمات اللاحقة ، ولذا يفيض المعنى عن إرادة الكاتب وعن حدود النص ، وبذا يحل الأثر محل الحضور ويمّحي الأصل تماماً إذ لا يبقى من الأصل سوى الأثر ، فالأثر هو الأصل الذي لم يبدأ شيئاً ، فهو أصل بلا أصل ، ومن ثم فإن الإنسان يجد نفسه بلا أصل رباني أو إنساني ولا يبقى أمامه سوى الصيرورة الثابتة (التي تشبه النفي الأزلي لليهودي) . ولذا ، فإن القارئ لن يجد أساساً قوياً يستند إليه وينزلق لذلك في دوامة الصيرورة . وإذا كانت الحقيقة هي المقدرة على التمييز بين الحضور والغياب ، فإن الحقيقة (بذلك) تغيب ، والأثر يلقي بظلاله على كل شيء ، وهذا يعني استحالة الوصول إلى الحضور الكامل والمدلول المتجاوز الذي يقع خارج نطاق الحسية المباشرة والنص ، كما يعني استحالة الوصول إلى أي معنى ، فالمعنى متناقض غير محدد ولا يمكن التوصل إليه . وهذا لا يختلف كثيراً عن مفهوم الشريعة الشفوية حيث حل التفسير محل الأصل والنص المقدَّس ولم يبق منه سوى أثر . كما أن التفسيرات نفسها تتلاحق بحيث يجُبّ بعضها البعض ولا يبقى سوى صدى ، أثر لعملية التفسير نفسها والتي أُعطيت آلياتها لموسى مع الشريعة المكتوبة (التوراة) ، أي أن التوراة من البداية جاءت ومعها التفسير الذي لا يقل عنها قداسة . وبرغم كل هذا ، فنحن لا نملك سوى تكرار استخدام الكلمات . ولذا ، فإن التكرار هو الذي يعطيها هويتها (الآثار المتراكمة) وهو الذي يهدمها . والتكرار من ثم هو فقدان دائم للبراءة والطهر . ولكن ليس أمامنا سوى التكرار ، ولا يوجد أمامنا سوى أن نعني (نقول) شيئاً (بالفعل ـ دائماً ـ كذلك) مختلفاً عما نود أن نوصله (نعنيه ـ نقوله) ونفهم شيئاً ثالثاً ، وما نصل إليه من معنى هو نتاج لعب لامتناه للدوال . ولأن الكلمات ليست بريئة ، ولأن المعنى وقع في قبضة لعب الدوال ورقص القيم ، قرَّر دريدا (مقتفياً أثر هايدجر) أنه لابد أن يخلق لغته الخاصة ، زاعماً أنه كلما نحت كلمات جديدة فإن الميتافيزيقا تستوعبها ويصبح لها معنى ثابت

تناثـر المعنـى

Dissemination

عبارة «تناثر المعنى» هي ترجمتنا لكلمة «ديسمينيشن dissemination» التي يستخدمها دريدا في مقام كلمة «دلالة» . والكلمة من فعل «ديسمينيت disseminate» بمعنى «يبث» أو «ينثر الحبوب» . والمعروف أن أحد مقاطع الكلمة «سيمين semen» تعني «بذر» أو «سائل المني» . والمعنى المباشر للكلمة عند دريدا هو «نثر المعنى» ومع هذا ، فإن للكلمة عدة مستويات :

١ ـ معنى النص متشر ومبعثر فيه كبذور تُنثر في كل الاتجاهات ، ومن ثم لا يمكن الإمساك به ؛ تشتيت المعنى ؛ لعب حر لامتناه لأكبر عدد ممكن من المعاني .

٢ ـ تأخذ الكلمة معنى «وكأن لها دلالة دون أن تكون لها دلالة» ، أي أنها تُحدث أثر الدلالة وحسب .

٣ ـ نفي المعنى

وهذا المفهوم لا يختلف عن المفاهيم الأخرى مثل «الأثر» و«النسخة» و«الاخترجلاف» ، وكلها محاولات تهدف إلى أن يغوص كل شيء في دوامة الصيرورة ، حتى يفقد كل شيء هويته وحدوده . وتناثُر المعنى مفهوم يشبه تهشُّم الأوعية (شفيرات هكليم) في التراث القبَّالي . وهو مرتبط بمفهوم الشعب اليهودي المشتت في عالم بدون مركز ، فتناثُر المعنى هو تشتيته في كل النص بلا مركز ، فكأن المعنى المتناثر هو الشعب المنفي . واجتماع الشعب مرة أخرى من خلال عملية الإصلاح (تيقون) هو عملية الحضور (الإلهي) الكامل والعودة لحالة البليروما (حالة الامتلاء الأولى) .

الهوة (أبوريا)

Aporia

«أبوريا» كلمة يونانية تعني «الهوة التي لا قرار لها» . والهوة (أبوريا) عكس الحضور الكامل أو الأساس الذي نطمئن إليه ، أو على وجه الدقة هي ما يتجاوز ثنائية الحضور والغياب . وإذا كان

الحضور هو الحقيقة والثبات والتجاوز والعلاقة بين الدال والمدلول والتحامهما ، فالهوة هي الصيرورة الكاملة التي لا يفلت من قبضتها شيء ، فهي دليل على أن الواقع متغيِّر بشكل دائم . ولا هرب من التغير ، فحتى التغير نفسه (شكله ـ طريقته ـ نمطه) متغير . والهوة دليل على أن اللغة قوة لا يمكن التحكم فيها .

إن الهوة هي أحد أسماء المطلق/ النسبي ما بعد الحداثي . وقد وصفها دريدا بأنها المحدد غير المحدد ، والتناهي غير المتناهي ، والحضور/ كغياب وفي لغة أكثر صوفية وإشراقية وبلاهة ، وصفها في كتابه **علم الكتابة (الجراماتولوجي)** بأنها "طريقة التفكير في عالم المستقبل الذي لا مفر منه ، والذي يعلن عن نفسه في الوقت الحاضر متجاوزاً انغلاق المعرفة . . . إنها هي التي ستفصم الوعي تماماً عن المعيارية السائدة . . . ولا يمكن الإعلان عنها وتقديمها إلا باعتبارها شكلاً من أشكال الوحشية" . أما في **الكتابة والاختلاف** فإنه يشير إليها باعتبارها "الشيء الذي لا يمكن تسميته ، النوع الذي لا نوع له . . الشكل الذي لا شكل له . . رؤية الوحشية المخيفة" . وهذا خليط من أسماء الإله (شيم هامفوراش ـ إين سوف ـ آيين) والمفاهيم القبَّالية (شخيناه السوداء) .

والهوة (أبوريا) مرتبطة تماماً بالنزعة الرحمية وفقدان الحدود والمسئولية والهوية ، فهي تشير إلى عالم لا يوجد فيه أي ثبات ولا يوجد فيه أي توق لثبات . ولن تكون هناك عودة للميتافيزيقا والتمركز حول اللوجوس ولا حتى ما هو خلف الميتافيزيقا (ميتا ميتافيزيقا) . فهو دائماً بقاء في براءة الصيرورة ، في عالم من الإشارات بلا خطأ ، ولا يمكنها أن تخطئ لأنها لا تشير إلى أية حقيقة . فالإشارات بلا أصل (وهذا يعني في الخطاب ما بعد الحداثي ، أن أصلها مادي في عالم الصيرورة ، وأن الإنسان إنسان طبيعي/ مادي) ، فهو عالم "تصاحبه ضحكة ما" و"رقصة ما" . . . تأكيد فرح للعب العالم ونسيان نشيط للوجود (نيتشه في **أصل الأخلاق**) ، فهو لعب بلا أمن ، لعبة الصدفة المطلقة حيث يستسلم الإنسان إلى اللامحدود ، فالمستقبل غير مغلق وهو خطر كامل .

والهوة هي النقطة التي تنفصل فيها سلسلة الدلالات عن سلسلة المدلولات ، ويبدأ انزلاق الدوال وتبدأ عملية الاخترجلاف وتناثر المعنى . والدلالات هي التي تبيِّن الهوة ولكنها هي أيضاً التي تخبئها . وسبب الاخترجلاف هو الهوة (أبوريا) ، فوجودها يمنع أن يتطابق الدال وأي مدلول ويظل المعنى مختلفاً ومُرْجَناً دائماً . وكل النصوص تحوي داخلها هذه الهوة أو نقطة الفراغ أو تحوي عنصراً غير منطقي لا يستطيع النص أن يستوعبه ، فهو تناقض داخل النص غير متسق معه . ومهمة الناقد التفكيكي هي أن يبحث عن هذه الهوة ويمسك بها ، وقد شبهها أحد الدارسين بأنها مثل الخيط الذي إن أمسك به الناقد وجذبه انهدم البناء تماماً أو هي حجر الأساس داخل جدار ما (حجر مُفكِّك) إن جذبه الناقد تهدَّم البناء بأسره ويُلاحظ أن المسألة ليست «تفكيكاً» (ديكُنستراكشن deconstruction) كما يدَّعون وإنما هو «تقويض» (ديستراكشن destraction) . ومع هذا ، يقول التفكيكيون إنهم لم يهدموا البناء وإنما يبينون أنه مفكك وحسب ، وأن البنية المتماسكة التي تظهر لعيوننا ليست سوى وهم إذ أنها لا أساس لها . فالتفكيكيون لا يفككون لأن كل شيء مُفكَّك متفكك من تلقاء نفسه ، أو على الأقل عنده قابلية كامنة للتفكك !

الكتابة/ القراءة
Writing/ Reading

«الكتابة/ القراءة» هي إحدى الثنائيات المتعارضة التي روج لها البنيويون . وقد تطوَّر المفهوم على يد أنصار ما بعد الحداثة (أنصار ما بعد البنيوية) . والقراءة في هذا السياق هي النص المغلق الذي ينطوي على معنى ثابت ولا يدعو لمشاركة القارئ في عملية إنتاج المعنى ، فهو متمركز حول فكرة (صدى للوجوس ، أي الكلمة المطلقة ، فالقراءة صدى للتمركز حول اللوجوس) ، أي أن النص هنا قد أفلت من قبضة الصيرورة . هذا على عكس الكتابة ، فهي منظومة من القوائم التي تنطوي عليها تفاعلات نصية منفتحة دائماً على التفسير ، فهي حمَّالة لمعان لا تكف عن التولد ، وعلى نحو يؤكد إسهام القارئ في إنتاج الدلالة ، فالنص المكتوب نص يدخل عالم التناص والصيرورة .

وقد قال إدمون جابيس إن الشاعر هو رجل الكلمة والكتابة تماماً ، مثل اليهودي ، فكلاهما يحلم حلماً منفصلاً عن الواقع ، حلم العودة إلى صهيون وحلم كتابة أجمل قصيدة ، فالحلم المنفصل عن الواقع يشبه لعب الدوال حين لا تشير الدوال إلى شيء خارجها . وكل من الشاعر واليهودي لا يضرب بجذوره في أي موقف ثابت أو أرض محددة أو وطن دائم ، فهم دائماً ليسوا هنا وإنما هناك ، على وشك التحقق ولا يتحققون . ووطن الشاعر واليهودي ليس الأرض وإنما الكلمة (ديوان الشاعر وكتاب اليهودي المقدَّس) لكن النصوص التي ينتجها اليهودي والشاعر هي نصوص مفتوحة ، شكل من أشكال الكلام المنفيّ ، كلام ليس له معنى نهائي ، فالقصيدة تقع في قبضة الاخترجلاف الدائم والنص المقدَّس يقع في قبضة التفسيرات التي لا تنتهي . وكما أن الشاعر يخلق وطنه من

خلال الكتابة ، فإن اليهودي يفعل الشيء نفسه ، فهو يفرض على النص المقدَّس تفسيرات مستمرة هي وطنه . والكلمات هي التي تختار الشاعر ولكنه هو الذي يلدها ، والإله هو الذي اختار اليهود ولكنه لا يكتمل ولا يجمع شتات ذاته إلا من خلال اليهود . فصعوبة أن يكون الإنسان يهودياً هي نفسها صعوبة الكتابة (على حد قول دريدا) .

الكتابة الكبرى أو الأصلية

Archi-Ecriture; Proto-Writing

«الكتابة الكبرى» أو «الكتابة الأصلية» أو «الكتابة بشكل عام» ترجمة لمصطلح ابتكره دريدا ، وهو «آرشي إكرتيير archi-ecriture» ، وهي كلمة فرنسية مركبة تُرجمت إلى الإنجليزية بلفظة «بروتو رايتنج proto writing» بمعنى «الكتابة الأصلية أو الأولية» ، و«أوريجينال تكست original text» بمعنى «النص الأصلي» . كما أن كلمة «ecriture» الفرنسية تعني أحياناً «سكريبتشر scripture» أي «النص المقدَّس» . وكل هذا الإسهال اللفظي مرتبط بإحدى الثنائيات التي يود دريدا محوها ، وهي ثنائية المنطوق المكتوب وأسبقية الأول على الثاني ، أي أسبقية الفكر على اللغة ومن ثم إفلاته من قبضة الصيرورة والاخترجلاف . ولكن لابد من أن تُقلَب الأمور رأساً على عقب حتى يمكن « إثبات» أسبقية اللغة على الفكر ، وحتى يقع كل شيء في قبضة الاخترجلاف والصيرورة والحركة الدائمة . ولذا ، يقرِّر دريدا أن الكلام المنطوق إن هو إلا صدى لنص أصلي أو أولي يوجد في عقل الإنسان قبل تقسيم الكلمة إلى دال ومدلول ويتجاوز القسمة المبتذلة إلى كلام وكتابة . وبذا ، فإن الكلمة المنطوقة التي يتفوه بها الإنسان هي في واقع الأمر صدى لنص مكتوب أولي في عقله .

ولا يوجد أي دليل أو سند تاريخي لإثبات هذه النظرية ، ولكن هناك رغبة أيديولوجية عند دريدا لإثباتها . وهذا يعود إلى أنه يحاول أن يزيح المتكلم الذي ينطق بالكلام ، فهو عنصر إنساني واضح متعين له بنية وقصد ووعي ، وهو يشير إلى واقع موضوعي يتحدث عنه . فالمتحدث كيان يصعب تفكيكه ، فهو ذات تشير إلى موضوع ، توجد فكرة في عقله ومن ثم فإن وجوده تأكيد للحضور والتمركز حول اللوجوس . أما مفهوم الكتابة الأصلية الموجودة في عقل الجميع ، فهو يزيح المتحدث تماماً ومن ثم يُنهي وهم الحضور .

ولا شك في أن أسطورة الكتابة الكبرى أو الأصلية هي محاولة من قبل دريدا لأن يرفض الرؤية التوحيدية للخلق ، أي أن الله خلق آدم وعلَّمه الأسماء كلها (المعرفة ـ العقل ـ اللوجوس) ، وبث النور في صدره ، نوراً معقولاً وليس محسوساً ، وانطلاقاً من هذا نطق آدم وسمَّى الحيوانات والنباتات . فهي رؤية متمركزة حول اللوجوس . أما دريدا فيرى ضرورة أن يدفع بكل شيء في دوامة الصيرورة ، فكل نص يحيلك إلى نص آخر وكل النصوص صدى لهذا النص الأصلي الذي لم ولن يقرأه أحد (يذكِّرنا بتوراة الفيض الإشراقية الخفية في القبَّالاه اللوريانية المكتوبة بحبر أبيض لا يراه أحد سوى أصحاب الغنوص والعرفان) .

التمركز حول المنطوق

Phonocentric

«التمركز حول المنطوق» ترجمة لكلمة «فونوسنتريك phonocentric» من كلمة «فونو phono» بمعنى «صوت» وسنتر «centre» بمعنى «مركز» . وهي إحدى الإشكاليات الفلسفية التي يطرحها دريدا وهي مرتبطة تمام الارتباط بهجومه على الأفكار الكلية ، وبفكرة الحقيقة والحضور ، بمحاولة دفع كل شيء في قبضة الصيرورة .

ويرى دريدا أن الحضارة الغربية (بل الفكر الإنساني) متمركزة حول اللوجوس (مطلق ما متجاوز للتفاصيل الحسية المباشرة يقع خارج شبكة لعب الدوال) يمكن ترتيب الواقع في إطاره . يأخذ هذا الترتيب شكلاً هرمياً داخله ثنائيات متعارضة . وداخل الثنائية نفسها ثمة أسبقية أو أفضلية لأحد طرفيها . ويرى دريدا أن تراث الحضارة الغربية الفكري يقوم على ثنائية المنطوق/ المكتوب ، وأن المنطوق له أولوية وأسبقية على المكتوب ، أي أن اللغة المنطوقة في مرتبة أعلى من اللغة المكتوبة بحيث يمكن اعتبار اللغة المكتوبة تابعة للغة المنطوقة .

وقد تبدو هذه الإشكالية وكأنها إشكالية أكاديمية خاصة بعلماء اللغة يكنهم وحدهم النقاش بشأنها . ولكننا سنجد أن الأمر أبعد ما يكون عن ذلك ، فهو مرتبط تمام الارتباط برغبة دريدا في إنكار أية أصول متجاوزة وأي ثبات وأية كليات وذلك حتى تسود الصيرورة الكاملة والحسية والجزئية . فالكلام المنطوق يصدُر عن جسد حي وعقل مفكر بشكل مباشر وذات مستقلة حرة وشخص يمسك بدلالة الكلمات يتحدث إليك مباشرةً ، فإن لم تفهم ما يقوله فأنت تطلب منه إيضاحاً فيجيبك ، وبوسعه أن يُعدِّل ما يقول أو يتحفظ عليه ، فهناك معنى داخله لم يتم الإفصاح عنه . والكلام المنطوق يفترض أن فحوى الكلمات موجود بشكل مباشر في وعي الناطق ، وهو ما

يعني أن كلماته (دواله) تربطها علاقة مباشرة وذات مغزى بالمدلول . هذا يعني أن المعنى له أسبقية على الكلام ، وأنه منفصل عن النظام الدلالي ، وأنه قد هرب من الصيرورة المتمثلة في رقص الدوال ، واللغة إن هي إلا أداة (المعنى في بطن الشاعر قبل أن يتحول إلى قصيدة) . والشخص الحي الناطق بالكلمات هنا هو الوسيط بين المعنى الذي في عقله واللغة التي ينطقها .

إن الكلام المنطوق تنطق به ذات إنسانية متماسكة تتحدث عن أفكار مستقرة في الذهن ، فكأن هناك ذاتاً مستقرة وموضوعاً مستقراً . والمنطوق ، بذلك ، يشير إلى الأصل (الحضور واللوجوس) بشكل مباشر وبدون وساطة ، فهو أقرب إليه وهو أكثر قرباً من نقطة الحضور من المكتوب وأكثر شفافية .

هذا على عكس الكلام المكتوب ، فكاتبه غائب بعيد لا يتفاعل مع المتلقين بشكل مباشر ، والنص المكتوب يُفترض فيه أنه تعبير غير مباشر يصل إلى المتلقي من خلال القلم والمطبعة والأوراق . فإذا لم يفهم المتلقي ما جاء فيه ، فلا يمكنه الاستفسار عن معناه من الكاتب، فالنص المكتوب منفصل عن كاتبه ، كُتب على الورق وأصبح نصاً يمكن تداوله وإعادة طبعه وتفسيره ، ويمكن استخدامه بطرق لا يمكن أن تطرأ للإنسان الذي كتبه على بال . وبهذا ، فإن المكتوب لا يشير إلى الحضور وإنما يعبر عنه وحسب ، فهو منفصل عنه . الكتابة ، بهذا ، تسرق من الإنسان وجوده ، فهي طريقة ثانوية للاتصال أكثر بعداً عن اللوجوس ، ولذا فإن التراث الغربي (وأي نظام متمركز حول اللوجوس) يفضل المنطوق على المكتوب . وأي تفضيل للمنطوق على المكتوب هو تعبير عن التمركز حول اللوجوس وعن الميتافيزيقا المتعالية المرتبطة بذلك .

وليس هناك أدلة تاريخية تؤيد ادعاء دريدا عن تمركُز الحضارة الغربية حول المنطوق ، فهي شأنها شأن معظم الحضارات الأخرى تُعطي مكانة أعلى لما يُسمَّى في علم الأنثروبولوجيا «التراث السامي» أو «التراث الراقي» أو «التراث الأعلى» (بالإنجليزية : هاي تراديشان high tradition) وهو التراث المكتوب للأرستقراطية ، مقابل «التراث الأدنى» أو «التراث الشعبي» (بالإنجليزية : لوتراديشن low tradition) وهو التراث الشعبي الشفهي . كما أن معظم الحضارات الكبرى تدور حول نصوص مقدسة مكتوبة ، يحاول البشر توليد معان منها يمكنهم من خلالها ضبط ممارساتهم اليومية وتقييمها . والحضارة الغربية أصبحت تدور ، بعد سقوط الوثنية الرومانية على وجه خاص ، حول العهدين القديم والجديد (الكتاب المقدَّس) . فهم أهل كتاب (حسب التعبير الإسلامي) .

ولذا ، فيجب أن نرى هجوم دريدا على المنطوق وتأكيد أسبقية المكتوب باعتباره جزءاً من ترسانته الفكرية التي يطوِّرها للهجوم على اللوجوس باعتباره أساساً فلسفياً وباعتباره مركزاً ومصدراً للمعقولية والمعيارية والثبات ، هو هجوم على ما يسميه «المدلول المتجاوز» (الإله ـ الكل المتجاوز) الذي يمكن أن يوقف لعب الدوال والذي يدركه الإنسان مباشرةً من خلال تجربته الإنسانية المباشرة .

إن المنطوق هو صدى كلمة الإله المعقولة التي يدركها ويعقلها المرء مباشرةً من خلال تجربته الإنسانية المباشرة ، واستناداً لإنسانيته المشتركة مع الآخرين ، وهي ليست تجربة مادية محسوسة . والمنطوق من ثم هو صدى الحضور الإلهي أو الكلي في فؤاد الإنسان ، فهو يشير إلى أصول الإنسان الربانية . وما يحل محل المنطوق ليس المكتوب ، كما يدَّعي دريدا ، فنحن نعرف أن المكتوب والمدوَّن أكثر ثباتاً وتركيباً من المنطوق . والحضارات المركبة - كما أسلفنا - تعتمد دائماً على نص مقدَّس مكتوب يتجاوز ذاكرة الأفراد وصيرورة حياتهم الفردية المتغيرة . وما يحل محل المنطوق هو ما يسميه دريدا «النص» ، والنص هو نص مكتوب فَقَد علاقته بكاتبه . ولذا فإنه ، رغم ثباته ، مجرد كلمات مثبتة على ورق (حبر على ورق) ومؤلفه قد « مات » وانفصل عن النص وأصبح مجرد علامات محسوسة على الصفحة يمكن أن يفعل بها الناقد ما يريد لأنها دخلت شبكة الدوال والصيرورة ، فكل كلمة تشير إلى كلمة أخرى ، وكل نص يشير إلى نص آخر ، وهي عملية تستمر إلى ما لا نهاية إن لم يوقفها مدلول متجاوز . والهجوم هنا هو هجوم على عالم ما قبل اللغة ، عالم الإيمان الذي يحتوي على المفاهيم الكلية ، وهو هجوم على أي نص (مكتوباً كان أم منطوقاً) ما دام متمركزاً حول اللوجوس والأصل والمبدأ ، وعلى ما يقترن به من مفهوم الغائية والعلم . ويمكن هنا ، أن نتحدث عن موت النص أو تقسيمه أو فقدانه حدوده وهويته . وهنا يصبح الثابت متحولاً والكل جزئياً والمطلق نسبياً . وبدلاً من المؤلف يظهر صاحب الإرادة ، وبدلاً من النص الذي ينقل للقارئ معنى كامناً في عقل المؤلف يظهر المفسر الذي يستولي على النص ليولد منه ما يشاء من معان .

وهذا ، في واقع الأمر ، صدى لثنائية الشريعة المكتوبة والشريعة الشفهية في العقيدة اليهودية . فالشريعة المكتوبة هي التوراة التي أرسلها الإله ، كلامها واضح وبإمكان من يود أن يفهمها أن يفعل ، وأن يفسرها دون أن يخل بمعناها ، ويمكن الاحتكام لها . ومن هنا ، طوَّر الحاخامات فكرة الشريعة الشفوية ومفادها أنه حينما أعطى الإله الشريعة المكتوبة لموسى فوق سيناء ، أعطاه أيضاً الشريعة

الشفهية (المنطوقة) التي يتوارثها الحاخامات ، وتفسيرات الحاخامات هي هذه الشريعة الشفهية . وهي تفسيرات لا تنتهي عبر الأجيال ، فهي حالة صيرورة تستبعد الإله وتميت النص فيفرض الحاخام/ المفسر إرادته على النص ، حتى أن التفسير (التلمود) أصبح يَجُب الأصل (التوراة) وحلت إرادة المفسر (الحاخام) محل إرادة المؤلف (الإله) . وقد تدهور الأمر مع التراث القبَّالي (الذي تأثر به كثير من أنصار ما بعد الحداثة) إذ أصبح هناك التصور القائل بأن التوراة المكتوبة المتداولة غير التوراة الباطنية التي لا يراها إلا المفسر القبَّالي ، ومن هنا يكون الفرق بين توارة الخلق وتوراة الفيض . ورغم أن التفسيرات الحاخامية يُطلَق عليها تعبير «شريعة شفهية» ، إلا أنها تعادل في واقع الأمر ما يسميه دريدا «النص» (المكتوب) ، أي الكلام الذي دخل عالم الصيرورة ولعب الدوال وانفصل عن مؤلفه وتعدَّى حدوده وأصبح خاضعاً لإرادة الحاخام/ المفسِّر . أما التوراة المكتوبة فهي المنطوق المتمركز حول اللوجوس ، وهي ما يُشار إليه بكلمة «العمل» الذي له حدود واضحة .

القضية ، إذن ، ليست قضية المنطوق مقابل المكتوب ، بل هي قضية المرجعية واللامرجعية ، والمكتوب هنا تعني ما لا حدود ولا مرجعية له ! كما تعني تأكيد أن الإشارة تسبق المعنى وأن اللغة تسبق الواقع (وأن المادة تسبق الوعي وأن القوة تسبق الحقيقة وأن الحاخام والشعب اليهودي يسبقان الإله ، وأن المسألة مسألة إرادة القوة والمفسر/ الحاخام) وأن كل شيء في قبضة صيرورة عمياء .

العمل والنص

Work and Text

يطلق أنصار ما بعد الحداثة على النص الذي له حدود ومعنى ومركز كلمة «عمل» (بالإنجليزية : ويرك work) ، مقابل النص الذي لا حدود له ولا مركز . والعمل ، في تصورُهم ، يتسم بأنه متماسك ويشير إلى صانعه الأول وينطوي على معنى الغائية ، وهو بهذا قد أفلت من قبضة الصيرورة وحقَّق ثباتاً وتماسكاً ومن ثم تجاوزاً .

وقد تصاعدت النسبية المعرفية ، فازداد إحساس الفنان بتفرده وغربته وبعدم اكتراث المتلقين وبَذْل جهوداً غير عادية لكي يخلق مسافة بين العمل الفني والواقع المتشيئ ، ولذا يبدأ النص في الاستقلال عن الواقع ويزداد الكاتب إحساساً بذاتيته . ولذا ، نجد أن معاني النصوص تختلط بل يرسل كل نص أكثر من رسالة ، كما أن كل نص يحاول أن يرسل رسالة فريدة فيتخذ أشكالاً فريدة ويتزايد التجريب . ورغم كل هذا ، فإن ثمة محاولة مأساوية ملهاوية عبثية لإرسال رسالة ذات معنى .

والناقد ، هو الآخر ، يزداد انغلاقاً على نفسه فينظر إلى النص مباشرةً ويعزله عن الواقع وعن المؤلف ويلتهمه ، ولذا فإنه لا تهمه الخلفية التاريخية أو النفسية ولا يهمه قصد المؤلف أو وعيه . ومع هذا ، تستمر محاولة الناقد في التفسير والاجتهاد والوصول إلى الأبعاد الإنسانية الكامنة في العمل الفني التي قد تساعد الإنسان على تجاوز واقعه رغم استحالة التجاوز .

وفي عصر ما بعد الحداثة (وما بعد البنيوية) تتغيَّر الصورة تماماً إذ تَسقُط الكليات والثوابت ، وكل شيء ، وضمن ذلك النص ، في عالم الصيرورة الذي لا مركز له ، والنص نفسه يشبه دوامة الصيرورة . فالنص متعدد المعاني بشكل مطلق لأنه يستحيل الاتفاق على معنى أو معيار متجاوز . ولذا ، فإن هناك معاني بعدد القراء ، فهي مجرد مجال عشوائي للعب الدوال ورقصها والشفرات المتداخلة ، فهي معان لا يربطها مركز واحد وليست مستقرة ، إلى أن يتبدَّد المعنى ويصبح البحث عنه نوعاً من العبث النقدي . ويؤدي هذا إلى حالة من السيولة وإلى اختفاء الحقيقة وتعدُّد المعاني .

وتذهب سوزان هاندلمان إلى أن التعددية عند دريدا هي محاولة لنقل الشرك إلى عالم الكتابة ، وإنكار إمكانية التجاوز . بحيث يحل تعدد المعنى محل تعدد الآلهة ، وتصبح تعددية المعنى إنكاراً للمعنى وإنكاراً للتواصل بين البشر ، أي أن تعددية المعنى هي في واقع الأمر إنكار لمقدرة الإنسان على التجاوز وإنكار لظاهرة الإنسان نفسها .

وكلما ازدادت تعددية النص ، تعذَّر بل استحال الوصول إلى «أصل» ، سواء أكان صوت المؤلف أم مضموناً يحاكي الواقع أم حقيقة فلسفية . وإن كانت هناك حقيقة ما ، فهي في داخل النص وليست خارجه ، ولا يوجد شيء خارج النص . ولكن ، إذا كان لا يوجد خارج للنص فلا داخل له أيضاً ، فليس هناك مضمون محدد (وهذا تعبير عن محاولة أنصار ما بعد الحداثة لإلغاء الثنائية : ثنائية الداخل والخارج) . والنص ، في هذا ، مثل المجتمع الاستهلاكي ، فنحن ننتج لنستهلك ونستهلك لننتج ، ولا يوجد شيء خارج حلقة الإنتاج والاستهلاك ولا يوجد شيء داخلها أيضاً ، فهي لا تؤدي إلى تَحقُّق إمكانيات الإنسان وإنما تؤدي إلى مزيد من الاستهلاك .

لا يوجد شيء أكيد في النص سوى الحيز والفراغات بين الحروف المكتوبة بالحبر ، فالنص أسود على أبيض (بالإنجليزية : بلاك أون بلانك black on blank) ؛ مجرد حبر على ورق ؛ شيء

محسوس مادي ؛ علامات بين إشارات صماء بينها فراغات صماء لا تشير إلى شيء خارج نفسها ولكنها لا حدود لها . فلعب الدلالات لا نهاية له ولا يتوقف إلا بشكل عشوائي وعرضي ، عند هامش الصفحة وفي نهايتها مثلاً .

وعبارة «حبر على ورق» تحمل كل تضمينات السطحية كما هو في العبارة العربية ، مع فارق أن ما بعد الحداثي يقبل هذا كحقيقة إيجابية إذ يرى فيها حرية وأيما حرية .

والاخترجلاف هو العنصر الأساسي داخل النص ، أما التناص فهو العنصر الأساسي خارجه ، فالمعنى داخل النص يسقط في شبكة الصيرورة من خلال الاخترجلاف ، ويسقط النص ككل في الصيرورة من خلال التناص . فالتناص هو الاخترجلاف على مستوى النصوص . فكل نص يقف بين نصين ، واحد قبله وواحد بعده ، وهو يفتقد حدوده في ما قبله وفي ما بعده ، وفي كل النصوص الأخرى التي تركت آثارها على النصوص التي تسبقها وعلى النصوص التي تأتي بعدها ، فكل نص هو أثر أو صدى لكل النصوص الأخرى حتى يفقد النص هويته ويصبح مجرد وقع . والنص يفيض ويلتحم بالنصوص الأخرى (تماماً كما تفيض اللغة داخل النص بفائض في المعنى لا يُستوعب داخل حدود النص نفسه، تماماً مثل الذات التي تفقد تماسكها فتلتحم بالذوات الأخرى). كل هذا يعني أن النص يوجد في كل النصوص الأخرى من خلال آثاره التي يتركها ولكنه لا يوجد بشكل كامل في أي مكان. فهو حاضر غائب دائماً ، إن حالة التناص هذه حالة سيولة رحمية .

والتناص يعني تضاؤل قيمة النص المعرفية أو الأخلاقية . وإذا كان المجاز لا يشير إلى الحقيقة وإنما يخبئها ، وإذا كانت الصورة المجازية لا تتسم بالشفافية مثلما أن اللغة ليست وسيلة أو شكلاً وإنما غاية ومضمون ، فهذا يعني أن الصور المجازية تصبح مفاهيم والمفاهيم تصبح صوراً مجازية وتصبح النصوص مجموعة من الحيل البلاغية ، وبذا تتحول كل النصوص (فلسفية أو إخبارية) إلى نصوص أدبية . أي أن التناص لا يؤدي إلى تداخل كل النصوص الأدبية وحسب وإنما إلى تداخل كل النصوص من كل الأنواع .

ومع اختفاء حدود النص وتعدديته ، ومع تزايد انفتاحه ، زادت إمكانية التفسيرات . وقد عُرِّف النص ما بعد الحداثي بأنه «آلة لتوليد التفسيرات» أي «تكأة» أو «مناسبة» أو «حيز» يمارس فيه الناقد إرادته . والناقد هو القارئ القوي الذي يعيد إنتاج النص ويعمل على تخليقه حسب المواصفات التي يراها .

والقراءة هي أحد الجيوب الأخيرة التي لم تحتلها الحضارة الاستهلاكية بعد . ومن هنا الإصرار على الحرية الكاملة في القراءة وعلى لذة القراءة باعتبارها لذة جنسية ؛ ممارسة كاملة للصيرورة دون وسائط ودون قيود ، وإحساساً كاملاً بالإرادة (فالناقد هو سوبرمان نيتشه) . فهو الذي يفرض المعنى ، ولذا فهو حر تماماً ، حتى في أن ينحت لغة خاصة به . وما يسيطر هنا هو نموذج صراعي ، فاللغة تصارع ضد من يستخدمها وتهزمه ، وبدلاً من أن تكون أداة للتعبير تصبح عائقاً . والناقد يضطر إلى قتل الأديب والنص ليفرض معناه . والناقد هنا يشبه تماماً الحاخام المفسر في المنظومة القبّالية الذي يفرض أي معنى يشاء على التوراة ، وذلك من خلال الجماتريا وأشكال التفسير الأخرى . وإرادة الحاخام هي أثر يجري فرضه على التوراة ، والتفسير الذي يطرحه هو قراءة تَجبُّ النص الإلهي وتحل محله ، ومن ثم حلَّ التلمود (وهو كتاب تفسير التوراة) محل التوراة نفسها .

والنص ، كما أسلفنا ، مجرد فراغ تلعب داخله الدلالات ، ويمكن للناقد أن ينزلق فيه كما يشاء ، ويمارس أقصى حرية يمكن أن يتمتع بها الإنسان في عصر ما بعد الحداثة ، وهي لذة التفكيك التي يبيِّن من خلالها أن النص يقول ما لا يعني ، ويعني ما لا يقول ، حتى نصل إلى الهوة (أبوريا) : الطريق المسدود والتناقضات التي لا يمكن أن تُحسَم . والأبوريا هي الحقيقة الوحيدة التي يمكن الوصول إليها . ولكن إذا كانت الحقيقة الوحيدة هي الهاوية ، فإن مهمة الناقد هي أن يفتح النص المنغلق على الهوة ، وهو انغلاق وهمي على أية حال ، وهي هوة للمعاني المختلفة المرجأة التي تقودنا إلى نقطة تليها تحتوي على معان أخرى مختلفة مرجأة أيضاً ، وهكذا نظن أننا سنصل إليها ولكننا لا نصل إليها أبداً .

ولكن حتى الناقد نفسه أسير النص اللغوي وشبكة الدلالات ، ولذا فهو حينما يتحدث فإنه يتحدث لنفسه عن نفسه ، ذلك لأن الكلمات لا تقول ما يعنيه هو وإنما ما تعنيه هي ، فكلماته واقعة في شبكة الصيرورة ولعب الدلالات ، ولذا فكل قراءة هي إساءة قراءة (بالإنجليزية : ميس ريدنج misreading) . وهذه هي القراءة الوحيدة الممكنة . فاللغة لا توصِّل ، وكلنا واقعون في شبكة الصيرورة ، لا نملك التواصل ولا نستطيع إلا اللعب وإساءة القراءة وسوء التفسير .

وأفضل النصوص هي النصوص المكتوبة (لا المنطوقة) ، فالنص المكتوب ينفصل عن مبدعه ولذا لا يمكن إغلاقه ، ويستطيع الناقد أن يتلقاه ويفرض إرادته عليه ويقوم بربط بعض أجزائه التي لم يقم المؤلف نفسه بالربط بينها (أي أن القارئ يصبح هو الكاتب) . وهو يرى علامات غير مقصودة وأصداء وآثاراً للنصوص الأخرى .

فالقراءة تعكس ذات القارئ وتستبعد ذات الكاتب (مرة أخرى ، الصراع بين الإله/ الكاتب والحاخام/ القارئ المفسر) . ومن هنا تفضيلهم المكتوب على المنطوق ، والنصوص ذات الخصائص الكتابية (الحركية المنفتحة التي ترقص فيها الدوال والتي لا مركز لها ولا أساس) على النصوص ذات الخصائص القرائية (الساكنة الجامدة ذات الهيكل الثابت من القيم التي تخطاها الزمن ، أي التي أفلتت من قبضة الصيرورة والتي يرتبط فيها الدال بالمدلول) .

كل هذا يعني ، في واقع الأمر ، موت المؤلف ثم موت القارئ، وأخيراً موت النص ليقع جثة هامدة أو حيواناً أعجم أو امرأة لعوباً في يد الناقد . وكل هذا يعني أن هذه المرأة اللعوب ستقود الناقد (آخر ممثلي الوعي الإنساني واحتمال التفسير) في هوة الصيرورة !

ولقد أعطانا دريدا مثلاً للنص ما بعد الحداثي المثالي ، وهو عبارة كتبها نيتشه مكونّة من كلمتين «نسيت مظلتي» . هذا نص منفتح تماماً ، فليس له سياق تاريخي ، فقد فُقد مثل هذا السياق للأبد ولا نعرف قصد المؤلف ، ولا يمكن تحديد استجابة القارئ له . ولأن المؤلف نفسه قد مات ، فإنه لن يشرح لنا المناسبة ولا القصد ، ولذا فإن النص متحرِّر من القصد ومن الكلام الشفوي ، فهو نص مكتوب . ويرفض دريدا كذلك أن تُقرأ العبارة قراءة فرويدية (فالمظلة وهي مغلقة يمكن أن تكون القضيب وإن فتحت يمكن أن تكون عضو التأنيث ، والنسيان هو عملية الإخصاء ، وفتح المظلة هو عملية الاقتحام الجنسي . . . إلخ) . ولكن دريدا يرفض التفسير الفرويدي لا لأنه تَعسُّف وتأويل مُبتسَر ، بل لأن هذا يعني فرض معنى ما على النص ؛ فهذا النص بالنسبة له نص بريء تماماً لا حدود له ؛ إشارة بلا شيء يُشار إليه ؛ دال بلا مدلول ؛ كلمات بلا قصد ؛ جُمل بلا وعي ؛ ظاهر أو باطن بلا أصل (رباني) . هذا هو لعب الدلالات الحقيقي فهي دلالات تستعصي على كل تفسير ، ولذا ستظل بلا معنى تستفز المفسر وتثير أعصابه .

وقد يمكن أن نقول إن العبارة لا يزيد معناها ولا ينقص عن أية جملة أخرى ، ولكن العبارة لا يمكن أن تتركنا وشأننا ، فلعب الدوال سيغوينا لنقوم بعملية التفسير ، ونحن لا نملك أي تفسير ، أي أننا نحن أنفسنا نسقط في الهوة ، وهي المنطقة بين الذات والموضوع التي لا هي بالذات ولا بالموضوع ولا هي بالحقيقي ولا بالزائف ؛ عالم صيرورة حيث لا حدود ولا هوية وإنما سيولة نصوصية مريحة تشبه الرحم قبل الميلاد والنضج وتشبه آدم وهو بعد طين لم ينفخ الله فيه من روحه ولم يعلمه الأسماء كلها .

وثمة تبادل اختياري بين اليهودية الحاخامية ووضع اليهود من جهة وفكرة النص ما بعد الحداثي من جهة أخرى . فاليهودية الحاخامية تفرض تفسيراً على النص المقدَّس فيتناصّ النص المقدَّس مع النصوص التفسيرية ، ثم تتناصّ التفسيرات نفسها ولا تنتهي هذه العملية . واليهودي المتحول المغترب ليس له مضمون محدد ، فهناك اليهودي الأرثوذكسي واليهودي الملحد . وقد عُرِّف اليهودي بأنه «من يراه الآخرون كذلك» كما عُرِّف بأنه «من يشعر في قرارة نفسه بذلك» . فتعددية التعريفات تعني أنه لا يوجد يهودي ، فاليهودي مثل النص ما بعد الحداثي ، ولذا يُسأل في الدولة اليهودية : من اليهودي ؟ هو كل شيء ولا شيء ، بسبب التعددية المفرطة .

ويرى جابيس أن أهم نقطة في اليهودية هي النقطة التي حطم فيها موسى الوصايا العشر ولم يكن قد تلقى النسخة الجديدة بعد . هذه اللحظة أهم اللحظات ، فهي لحظة حضور/ غياب ، شريعة غائبة/ موجودة . ويرى جابيس أن النص اليهودي (التفسيرات الحاخامية) نشأ في الشقوق التي نتجت عن تحطيم الوصايا العشر ، فهو كالأعشاب والطحالب التي تقتل النباتات .

جيرشوم شوليم (١٨٩٧ - ١٩٨٢)

Jershom Scholem

مؤرخ يهودي صهيوني من أصل ألماني ، تخصَّص في دراسة القبَّالاه وفك رموزها حتى ارتبط اسمه بها تماماً . وُلد شوليم في ألمانيا لأسرة يهودية مندمجة وقد تمرَّد على هذه الثقافة الاندماجية واتجه نحو حركات الشباب الصهيونية تحت تأثير مارتن بوبر . ولكنه اختلف معه أثناء الحرب العالمية الأولى إذ يبدو أن بوبر أيَّد الحرب ، ولكن شوليم تبنَّى موقف جماعة داعية للسلام رافضة للحرب برئاسة جوستاف لانداور . ولكن موقف شوليم كان لا ينبع من أي حب للسلام أو أي عداء للحرب وإنما من موقف انعزالي يرى أن اليهود أمة عضوية لا علاقة لها بأوربا أو بحروبها وأن عليهم أن يهاجروا إلى فلسطين لتأسيس دولة صهيونية ، أي أن الخلاف بينه وبين بوبر لم يكن جوهرياً إذ أن بوبر كان هو الآخر من دعاة القومية اليهودية العضوية (أي الصهيونية) .

وقد درس شوليم الفلسفة والرياضيات في بادئ الأمر . ولكنه قرَّر أن يتخصص في القبَّالاه فتعلَّم قراءة النصوص العبرية وكتب رسالة عن كتاب الباهير نال عنها درجة الدكتوراه من جامعة ميونيخ عام ١٩٢٢ . وفي العام التالي ، هاجر شوليم إلى فلسطين حيث

عُيِّن في الجامعة العبرية محاضراً في التصوف اليهودي ثم أستاذاً وظل فيها إلى أن تقاعد عام ١٩٦٥ بعد أن جعل القبَّالاه موضوعاً أساسياً للدراسة ومكوناً أساسياً في تفكير كثير من المفكرين من أعضاء الجماعات اليهودية (مثل وولتر بنجامين وهارولد بلوم) .

كان كثير من المفكرين من أعضاء الجماعات اليهودية ، انطلاقاً من مُثُل عصر الاستنارة ، يذهبون إلى أن اليهودية عقيدة عقلانية تزود الإنسان بقوانين عامة لا علاقة لها بالعواطف المشبوبة أو الشطحات الصوفية . ولكن شوليم وقف على الطرف النقيض منهم (فهو من دعاة العداء للاستنارة) إذ ذهب إلى أن الغنوصية هي الجوهر الحقيقي لليهودية وأن الصوفية (القبَّالاه) هي القوة الحيوية الحقيقية في تاريخ اليهودية واليهود وأنه لولاها لتجمدت الفلسفة اليهودية وتيبست الشريعة .

ويذهب شوليم (متبعاً الإيقاع الثلاثي الهيجلي) إلى أن كل الأديان تمر بثلاث مراحل تاريخية : المرحلة الأسطورية حيث يكون الإنسان في علاقة مباشرة مع الإله (مرحلة الواحدية الكونية الوثنية في مصطلحنا) ، ثم المرحلة الفلسفية والقانونية حيث يتم إعطاء الوحي إطاراً مؤسسياً دينياً ويتم تفسير النص المقدَّس وأداء الشعائر من خلال المؤسسات الدينية . ثم تظهر أخيراً المرحلة التصوفية حيث يحاول الإنسان المؤمن أن يستعيد العلاقة المباشرة التي تسم علاقة الخالق بالمخلوق في المرحلة الأولى ، بعد أن تجمدت وتيبست نتيجة المرحلة الثانية .

ومن الواضح أن شوليم يرى أن جوهر التاريخ هو الأسطورة ، فهو يبدأ بالأسطورة ثم يعطيها إطاراً مؤسسياً ثم يحاول العودة إليها (أي أن تاريخ الدين هو تاريخ الحلولية الواحدية الكونية ومحاولة العودة إليها) .

ويذهب جيرشوم شوليم إلى أن القبَّالاه إن هي إلا نظام فكري غنوصي وتعبير عن القوى المظلمة الخفية ، وأن المتصوفة اليهود توصلوا إلى شكل من أشكال الغنوص متلبساً لباساً توحيدياً ، وأن هذه الطبقة الغنوصية ظلت قائمة في أطراف التراث وانتقلت من بابل إلى جنوب فرنسا (عبر إيطاليا وألمانيا) حيث ظهرت بشكل مبدئي في كتاب الباهير ثم بدأت الموضوعات الغنوصية في التبلور وعبَّرت عن نفسها في القبَّالاه والحركات الشبتانية ثم هيمنت تماماً على اليهودية .

ولكن كيف تمكنت القوى الغنوصية المظلمة الخفية من إنجاز ذلك ؟ يرى شوليم أن الشبتانية كانت هناك دائماً داخل المنظومة الحاخامية ، لكن المنظومة الحاخامية كانت تنطلق منذ البداية من الإيمان بالشريعة الشفوية التي تذهب إلى أنه لا يوجد نص ثابت وأن الوحي يضم النص وتفسيره وأن التفسير جزء من النص المقدَّس ويحل محله (ومن ثم بدأ يظهر نص مفتوح لا حدود له) ، فالتفسيرات متغيرة لا حدود لها وفتْح النص هو فتْح الباب على مصراعيه للنسبية والعدمية . وبدأت الهرطقات تدخل عالم التفسير ، كما بدأت المراكز تتعدد داخل المنظومة الحاخامية . وبالتدريج ، تزايدت الهرطقات وأخذت شكل القبَّالاه . ولكن القبَّالاه لم تكن غريبة تماماً عن التراث ، فالقبَّالاه تعني التقاليد (رغم أنها تقاليد مضادة) . وهكذا هيمنت القبَّالاه على اليهودية وأصبحت الهرطقة هي المعيار وأصبح الغنوص هو التوحيد !

ويذهب شوليم إلى أن هذه الحركات هي التي هزت اليهودية الحاخامية من جذورها وأنها بذلك هي الحدود الفارقة بين العصور الوسطى والعصر الحديث وأنها إرهاص لظهور العلمانية . ولم يكن فكر حركة الاستنارة والحسيدية سوى ردود أفعال للحركة الشبتانية ومن ثم فإن ظهور اليهودية الحديثة كان نتيجة حدوث كارثة داخل التقاليد اليهودية الدينية ولم يكن مجرد نتيجة لقوى خارجية .

ويرى شوليم أن الدوافع الأسطورية والصوفية في القبَّالاه هي القوى الخفية لليهودية في القرن العشرين وأن الصهيونية أخذت طاقتها من هذه القوى الخفية ولكنها قد تنتهي بكارثة مثل الحركات الشبتانية إن فشلت في تحييد القوى العدمية . وفي محاولته وضع موقفه موضع التنفيذ ، انضم شوليم لجماعة بريت شالوم كما هاجم شبتانية جماعة جوش إيمونيم ، فكأن شوليم يُظهر حماسه للشبتانية في الماضي كقوة بعْث وحياة ولكنه يرفض القوى نفسها في الواقع التاريخي المعاصر .

ويرى البعض أن حماس شوليم للحركة الصهيونية تعبير عن أزمة بعض المثقفين العلمانيين من أصل يهودي الذين نشأوا في بيئة اندماجية وفقدوا الإيمان الديني ولكنهم مع هذا يرفضون فكرة الاندماج وفقدان الهوية ومن ثم يحاولون الاستيلاء على اليهودية ورموزها ، فهي شخصيات علمانية فقدت انتماءها الديني اليهودي وتحن له في الوقت نفسه فتظهر اليهودية الإلحادية أو الإثنية التي ليس لها مضمون ديني توحيدي . وهذا ما فعله شوليم مع الغنوص اليهودي ، فقد بيَّن أن الغنوص (التاريخ المضاد المظلم) هو التاريخ العقلي وجوهر اليهودية وبذلك تتحول الهرطقة إلى الشريعة .

والصهيونية هي في جوهرها المحاولة نفسها . فالصهاينة يودون الانسلاخ من يهودية المنفى ولكنهم يودون الحفاظ على هوية قومية عضوية (على الطريقة الغربية الألمانية) فنظروا للتاريخ اليهودي

وقرروا عدم قبوله في كليته ، وبدلاً من ذلك عادوا للمرحلة العبرانية ، أي قبل ظهور الأنبياء وظهور اليهودية حيث كان اليهود لا يزالون عبرانيين وشعباً وثنياً لم تُضعف القيم الأخلاقية التوحيدية إرادته بعد . ونادى الصهاينة بأن هذا هو التاريخ اليهودي الحقيقي وأن وثنية مرحلة ما قبل الأنبياء هي اليهودية الحقيقية ، وأسست الحركة الصهيونية دولة تبعث هذا التاريخ المضاد . وهكذا تتحول الهرطقة إلى الشريعة في شكل دولة تزعم أنها ليست دولة بعض اليهود وحسب أو حتى كل اليهود وإنما دولة يهودية !

من أهم مؤلفات شوليم **الاتجاهات الأساسية في التصوف اليهودي** (١٩٦١) حيث بيَّن أن كتاب الزوهار لم يُكتَب في العصور القديمة (كما كان هو نفسه يظن) وإنما كُتب في القرن الثالث عشر . ومن مؤلفاته الأخرى **الفكرة المشيحانية في اليهودية ومقالات أخرى** (١٩٧١) . كما كتب شوليم سيرته الذاتية بعنوان **من برلين إلى القدس** (١٩٨١) .

جـــاك دريـــدا (١٩٣٠-)

Jacques Derrida

فيلسوف فرنسي ، يهودي من أصل سفاردي ، تُعَدُّ منظومته الفلسفية (إن صحت تسميتها كذلك) قمة (أو هوة) السيولة الشاملة والمادية الجديدة واللاعقلانية المادية . وهو أهم فلاسفة التفكيكية وما بعد الحداثة . وُلد باسم جاكي في بلدة البيار (قرب الجزائر العاصمة) ، وترك الجزائر عام ١٩٤٩ لأداء الخدمة العسكرية ولم يَعُد لها قط بعد ذلك (وهو يدَّعي في تصريحاته الصحفية أنه ترك الجزائر لأنه كان قد سئم الحياة في الجيب الاستيطاني) . كان دريدا قد عقد العزم أن يصبح لاعباً محترفاً في كرة القدم ، لكنه لم يكمل مشروعه هذا . وكتب شيئاً من الشعر في صباه . ومع أنه فشل في امتحان البكالوريا في صيف ١٩٤٧ ، إلا أنه أكمل دراسته الجامعية في السوربون وهارفارد . وقد اشترك في مظاهرات الطلبة عام ١٩٦٧ ضد ديجول . وصدر كتابه الأول **أصل الهندسة** (عام ١٩٦٢) وهو عن هوسرل ، ولكن أول كتبه المهمة هو **الكتابة والاختلاف** (١٩٦٧) . ويُقسِّم دريدا وقته بين باريس حيث يُدرِّس في معهد الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية (E. H. E. S. S.) والولايات المتحدة حيث يُدرِّس في جامعة ييل .

خرج دريدا من تحت عباءة نيتشه (الذي مات بمرض سري) ، وتأثر في الخمسينيات بوجودية سارتر وهايدجر (وتفكيكيته) ، وببنيوية ليفي شتراوس في الستينيات . كما تأثر بهيجلية جان هيبوليت ، وبفرويدية جاك لاكان ، وبالمفكر الديني اليهودي الفرنسي إيمانويل ليفيناس .

تعرَّف دريدا إلى مُستوطن فرنسي آخر في الجزائر هو لويس ألتوسير (في دار المعلمين العليا) الذي كان له أكبر الأثر في دريدا . وألتوسير هو الفيلسوف الذي حاول أن «يُطهِّر» المنظومة الماركسية من أية آثار إنسانية غير مادية لتصبح علماً كاملاً يُسقط الذات الإنسانية وكل بقايا الميتافيزيقا (وقد قتل ألتوسير زوجته عام ١٩٨٠ بأن خنقها ووُضع في مستشفى للأمراض العقلية للمجانين الخطرين) . كما تعرَّف دريدا كذلك إلى ميشيل فوكوه ، أهم استمرار لفلسفة القوة النيتشوية وأحد كبار فلاسفة التفكيك وما بعد الحداثة (وفوكوه شاذ جنسياً ، سادي مازوكي ، حاول الانتحار عدة مرات ومات بالأيدز عام ١٩٨١) .

قامت أخت دريدا (حسب روايته) بحبسه وهو صبي في صندوق خشبي كبير على سطح المنزل حيث مكث هناك (حسب قوله) «الدهر كله» . وأثناء ذلك ، تصوَّر أنه مات وذهب إلى عالم آخر . ثم أحس بأنه تم خصيه وأنه الإله أوزوريس الذي كان يُقتَل ويُمزَّق إرباً ثم يُعاد جَمْع أعضاء من جسمه (باستثناء قضيبه) (التبعثر والتشتت ومفردات الحلولية الواحدية اليهودية) .

ومن الواضح أن دريدا مهتم ، منذ أن بدأ ينشر أعماله ، بمشاكل الأصل والبنية والثنائيات وكيف تُختَم الأعمال وعلاقة كل هذه الأمور بالتاريخ والحقيقة والموضوعية العلمية والمعنى . وكان اهتمامه الأكبر هو نفي الميتافيزيقا باعتبارها شكلاً من أشكال الثبات لأن مثل هذا الثبات (من ثم) يشير إلى مفهوم الطبيعة البشرية ، وهذا بدوره يشير إلى أصل الإنسان غير المادي (أي أصله الإلهي) الأمر الذي يؤدي إلى التجاوز وظهور المعنى (تيلوس) وأخيراً المطلق (لوجوس) . وكان دريدا يرى أن الحل الوحيد لهذا الوضع هو أن يسقط كل شيء في قبضة الصيرورة ، بحيث لا يبقى أي أثر لأي ثبات أو تجاوز أو معنى ويهتز كل شيء ومن ضمن ذلك الإحساس بالعدم نفسه .

ألقى دريدا بحثاً في مؤتمر عُقد في جامعة جونز هوبكنز عام ١٩٦٦ لتوضيح الفلسفة البنيوية للجمهور الأمريكي . والمؤتمر هو نقطة ميلاد التفكيكية وما بعد الحداثة (وقد ظهر في العام نفسه كتاب سوزان سونتاج **ضد التفسير** ، أي أن التفكيك قد بدأ يتحول إلى ظاهرة عامة في الفكر الفلسفي الغربي) . وقد بيَّن دريدا أن البنيوية إن هي إلا حلقة في سلسلة طويلة من بنيويات مختلفة مستعدة لأن ترد ذاتها إلى نقطة حضور واحدة أو مركز أو أصل ثابت ، لكن هدف

هذا المركز ليس تحديد اتجاه البنية أو توازنها أو تنظيمها وإنما الهدف منه وضع حدود للعب البنية. فمركز البنية «يسمح بلعب عناصرها الأساسية، ولكن داخل الشكل الكلي الثابت الذي له مركز وله معنى، فهو لعب يصل إلى نقطة نهائية عند مدلول متجاوز». ويقول دريدا: «وحتى اليوم، يُلاحظ أن مفهوم بنية ليس لها أي مركز (أو أصل) هو أمر لا يمكن حتى التفكير فيه». ودريدا كعادته لا يقول الصدق، فما يفعله هو أنه يأخذ جزءاً من الحقيقة ثم يضخمه ويجعل من هذا الجزء الحقيقة كلها. والحقيقة أن عالم السفسطائيين (الذين سبقوا دريدا بأكثر من ألفي سنة) هو عالم بلا مركز، عالم من الصيرورة الكاملة وعدم التواصل. وكذلك عالم القبَّالاه اللوريانية. وكثير من الحركات المشيحانية الشبوعية الحلولية فهي الأخرى تدور جميعاً في إطار عالم سائل تماماً لا مركز له. كما أن الإنجاز الفلسفي الأساسي لنيتشه هو أنه نبّه الإنسان الغربي إلى أن اختفاء المركز حتمية فلسفية بعد موت الإله (أي في إطار الفلسفة المادية). ومع هذا، يمكن القول بأن دريدا أول من جعل برنامجه الفلسفي يدور حول هذه الفكرة بشكل منهجي صارم.

يرى دريدا أن ثمة بحثاً دائباً عند الإنسان عن أرض ثابتة يقف عليها خارج لعب الدوال الذي لا يمكن أن يتوقف إلا من خلال المدلول المتجاوز الرباني (الذي هو أيضاً «ميتافيزيقا الحضور» و«اللوجوس» و«الأصل»). وتاريخ الفلسفة الغربية هو البحث عن الأصل، سواء أكان دينياً أم مادياً، لتصل إلى قصة كبرى متمركزة حول اللوجوس وحول المنطوق، أي أن الفلسفة الغربية تتعامل دائماً مع الواقع من خلال نسق مغلق. بل إنه يرى أنه، في أكثر الفلسفات الغربية مادية ونسبية، يظل هناك إيمان ما بالكل المادي المتجاوز ذي المعنى (الحضور). واستناداً إلى هذا الحضور يتم تأسيس منظومات معرفية وأخلاقية وجمالية تتسم بشيء من الثبات وتفلت من قبضة الصيرورة. أي أن الخطاب الفلسفي الغربي ظل ملوثاً بالميتافيزيقا ما دام يصر على البحث عن المعنى وعن الثبات. وقد قرَّر دريدا أن «يفكر في الأمر الذي لا يمكن التفكير فيه» وهو أن ينطلق، كفيلسوف، من الإيمان بعدم وجود أصل من أي نوع، ومن ثم يسقط كل شيء بشكل كامل في هوة الصيرورة (أبوريا) وتتم التسوية بين كل الأشياء من خلال مفاهيم مثل الاخترجلاف (الاختلاف/الإرجاء).

وسيلاحظ القارئ أن دريدا (ودعاة ما بعد الحداثة) يستخدمون مصطلحات كثيرة تبدو جديدة. فهناك مصطلح مثل «القصة الكبرى» (أي النظرية العامة) و«القصص الصغرى» و«التمركز حول اللوجوس» و«التمركز حول المنطوق» و«الأبوريا» و«الاخترجلاف». وهي مصطلحات تدَّعي أنها جديدة وهي أبعد ما تكون عن الجدة، فهي تعبِّر عن أفكار ومفاهيم عدمية. فقد يكون المنطوق نفسه جديداً، ولكن المفهوم وراء المصطلح قديم قدم الفلسفة اليونانية القديمة والكتب العدمية مثل سفر الجامعة في العهد القديم (انظر المداخل الخاصة بكل مصطلح في هذا القسم).

ويمكن القول بأن مشروع دريدا الفلسفي هو محاولة هدم الأنطولوجيا الغربية اللاهوتية (بالإنجليزية: أونطوثيولوجي ontotheology) بأسرها والوصول إلى عالم من صيرورة كاملة عديم الأساس لا يوجد فيه لوجوس ولا مدلول متجاوز، ولذا فهو عالم بلا أصل رباني، بل بلا أصل على الإطلاق، ولذا لا توجد فيه ثنائيات من أي نوع؛ الدوال ملتحمة فيه تماماً بالمدلول، ولذا لا توجد لغة، وإن وجدت لغة فهي الجسد باعتبار أن الجسد يجسد المعنى فلا ينفصل الدال عن المدلول. والنصوص تتداخل بعضها مع بعض، ولا يمكن الحديث عن نص مقابل نص آخر ولا عن نص في مقابل الواقع، كذلك لا يمكن الحديث عن نص مقابل معنى النص، إذ لا يوجد شيء خارج النص ولا يوجد أصل للأشياء، فكل نص يحيل إلى آخر إلى ما لا نهاية، وبذا يكون قد تم إنهاء الميتافيزيقا. وتصبح هذه الرؤية العدمية الفلسفية هي التفكيكية حينما تصبح منهجاً لقراءة النصوص. ولإنجاز هدفه العدمي، يتجه دريدا نحو أحد المفاهيم الأساسية في الفكر البنيوي، أي علاقة الدال بالمدلول، ويبين أنه لا علاقة بين الواحد والآخر، أو أن العلاقة بينهما واهية للغاية. وحيث إنه لا يمكن الاحتفاظ بالعلاقة بين الدال والمدلول إلا من خلال ما يُسمَّى «المدلول المتجاوز» (بالمعنى الديني أو الفلسفي)، فإنه يتجه نحو إسقاط هذا المدلول المتجاوز وإثبات تناقضه وكذلك إثبات وجود الصيرورة داخله. وتفكيك النصوص في واقع الأمر إن هو إلا بحث عن المدلول المتجاوز وعن المركز في النصوص، وتوضيح أن ثمة تناقضاً أساسياً فيها لا يمكن حَسْمه. وأن تماسُك النص واتساقه أمر زائف فهو عادةً تعبير عن إرادة القوة لدى صاحب النص، وليس له أي أساس عقلاني عام. ومع هذا، يرى دريدا أن التناقض يظل قائماً فعالاً، ولذا فعادةً ما يؤدي بالمؤلف إلى إضافة عناصر هي عكس المعنى المقصود تماماً، وهو ما يجعل النص (أدبياً كان أم فلسفياً) يتجاوز حدود المعنى التي يضعها لنفسه والاتساق الذي يفترضه وتظهر فيه الثغرات والتشققات ويقع في التناقض الذي لا يمكن حسمه.

وبهذه الطريقة، يحلل دريدا كل كلاسيكيات الفلسفة الغربية

من أفلاطون إلى هيجل ، كما يحلل بعض النصوص الفلسفية المعاصرة من ليفي شتراوس إلى لاكان ويقوم بتفكيكها ، وهو بهذا يحاول تفكيك الحضارة الغربية نفسها .

والمشروع الفلسفي عند دريدا مُوجَّه ضد الإنسانية وضد علاقة الدال بالمدلول ، ولذا فهو يبحث عن لغة بلا أصل وبلا حدود نظامها الإشاري لا يشير إلى شيء ، لغة متأيقنة تماماً لا يوجد فيها أثر للإله أو المعنى أو أية مرجعية ، وقد وجد ضالته فيما أسماه أنطوان أرتو (١٨٩٥ ـ ١٩٤٦) «الشعر اللفظي» وهو شعر مبني على مجاورة أصوات لا دلالة لها إلا أن تركيباتها النبرية تصنع حالات شعرية أو هكذا كان الظن . وفيما يلي مَثَلٌ من هذا الشعر اللفظي الأيقوني : «أوبيدانا/ ناكوميف/ تاوديدانا/ تاوكوميف ـ ناسيدانو/ ناكوميف/ تاركوميف/ ناكومي» ، وتنتهي القصيدة بأصوات أخرى ! (ومن الأمور التي قد يكون لها بعض الدلالة أن أنطوان أرتو قد أُودع مصحة عقلية في مقتبل حياته) .

وأسلوب دريدا أمر جديد كل الجدة في الخطاب الفلسفي الغربي ، يتسم بكونه طنيناً وجعجعة بلا طحن ، وإن أخرج طنيناً فهو تقليد مألوف لا يختلف عما قاله السوفسطائيون من قديم الأزل ولا يخرج عن كونه تعبيراً طفولياً غير أنيق عن العدمية . وحتى نعطي القارئ فكرة عن هذا الطنين سنقتبس بعض ما قاله دريدا عن شعر أرتو اللفظي . ينوه دريدا بهذا «الشعر الرائع» لأنه «لا يمثل لغة محاكاتية ولا خلق أسماء . بل يقودنا إلى حواف اللحظة التي لم تُولَد فيها الكلمة بعد والتي لم يَعُد فيها التمفصل [الكلامي] هو الصرخة ، ولا يشكل الخطاب بعد ، اللحظة التي يكون فيها التكرار أو الترديد ، ومعه اللغة بعامة ، مستحيلاً تقريباً : انفصال المفهوم والصوت ، المدلول والدال ، النقش والكتاب ، حرية الترجمة والذات ، حركة التأويل ، اختلاف الروح والجسد ، السيد والعبد ، الإله والإنسان ، المؤلف والممثل . إنه العشية السابقة لأصل اللغات» . وكل هذا الصخب يعني أنها لغة آدم قبل أن يتعلم الأسماء كلها ، أي لغة آدم قبل أن ينفخ فيه الإله من روحه ، أي لغة آدم حين كان كائناً طبيعياً بلا أصل إلهي غير قادر على الحديث (فوعيه لم يظهر بعد) ولكنه قادر على الصراخ كالحيوان وإصدار أصوات أخرى مرتبطة بالاستجابات الحسية المختلفة .

ويمكن أن نشير مرة أخرى إلى أنطوان أرتو ولكن باعتباره مؤسس «مسرح القسوة» . وقد كتب دريدا دراسة عنه في **الكتابة والاختلاف** ، كما حرَّر بالاشتراك (مع آخر) كتاباً عن رسوم أرتو (١٩٨٦) وكتب مقدمته . ومسرح القسوة هو مسرح يحاول أن يقلد المسرح البدائي ، سواء في الرؤية التي ينبع منها أو في شكله الفني ، ويرى أرتو أن المسرح الحديث يتوجه إلى عقل الإنسان وإلى سمعه وبصره وحسب ، وأنه يوجد فصل حاد بين الفن والواقع وبين الممثلين والجمهور ويأخذ النص المسرحي شكل نص محدد له مؤلف محدد . بدلاً من ذلك ، يرى أرتو ضرورة قيام مسرح يمكن أن نسميه (تبعاً لمصطلحنا) «متأيقن» . وهو مسرح يتوجه إلى كيان الإنسان كله . ولذا ، لا توجد فيه فواصل بين الدال والمدلول والمسرح والواقع ، وبإمكان الجمهور أن يشارك في المسرحية التي تتكون من ملابس ورقص وموسيقى ولا تشغل الكلمات فيها إلا حيزاً محدوداً . ويضرب أرتو مثلاً على ذلك بمسرح جزيرة بالي .

يجد دريدا أن هذا سياق مناسب ليعبِّر عن إشكالية الأصول والمدلول المتجاوز فيقرر أن : «مسرح القسوة يطرد الإله من المسرح ، فالمشهد المسرحي يظل لاهوتياً ما دام أنه هيمن عليه الكلام أو إرادة الكلام وما دام أنه هيمن عليه مخطط (لوجوس) لا يقيم في الموضع المسرحي إلا أنه يوجهه ويحكمه من بعيد . يظل المسرح لاهوتياً ما بقيت بنيته تحمل ، بمقتضى التراث بأسره ، العناصر التالية : مؤلف ـ خالق ـ غائب ـ بعيد ـ مسلح بنص ـ يراقب ويوحِّد ويقود زمن العرض (أو معناه) تاركاً إياه يمثله عبر ما يُدعى محتوى أفكاره ومقاصده . يمثله عن طريق نواب ، مخرجين وممثلين مفردين مُستبعَدين يمثلون شخصيات هي نفسها لا تقوم سوى بتمثيل فكرة الخالق . . عبيد يؤدون (ينفذون بوفاء) مخططات «السيد» الإلهية . ولذا ، كي يتحرر المسرح ، عليه أن ينفصل عن النص وعن الكلام الخالص وعن الأدب . وبتحرُّره من النص ومن الإله/ المؤلف ، يُعاد الإخراج المسرحي إلى حريته الخلاقة والمؤسسة» .

وما يفعله دريدا هنا هو أنه يغمر القارئ بفيض من الكلمات ليخلق حالة من السيولة ، يمرر معها بعض الافتراضات التي لا يمكن قبولها إلا إذا كان القارئ في حالة غيبوبة نابعة من السيولة والتدفق . فدريدا يقول مثلاً : «إن المسرح يهيمن عليه الكلام» ، وهذا طبعاً غير دقيق ، فأي طالب يدرس فن المسرح يعرف أن النص المسرحي المكتوب غير الأداء الذي يتضمن عناصر أخرى غير النص المكتوب . كما أن المؤلف قد يكون مجازياً في علاقته بالنص مثل الإله في علاقته بالعالم ، ولكن الصورة المجازية لها حدود لأن الممثلين حينما يمثلون النص يعرفون أنه مجرد تمثيل ، فالواقع يوجد خارجهم ، وهم ليسوا عبيداً يؤدون مخططات «السيد» الإلهية . وإن تحرَّر المسرح من النص تماماً ، فلن تعود للإخراج المسرحي حركته . إذ أنه (كما يقول دريدا) لن تكون هناك حاجة إلى إخراج مسرحي ، أي أن مشروع

أرتو يؤدي إلى نفي المسرح (وبالفعل ، عبّر هو عن نفسه عدة مرات عن كراهيته للمسرح وللتمثيل) ، فكأن ما يسعى إليه هو إسقاط الحدود ، أي حدود ، وهو يعلم تماماً أن إسقاط الحدود ، هو ذوبان الهوية وهو السيولة الرحمية . وفي الواقع ، إذا كان هناك إله/ مؤلف في نص ما ، فهو نص مسرحية جزر بالي هذه . فالمسرح هناك جزء من الشعائر الدينية التي تُؤدَّى ، ولذا لا توجد مسرحيات وإنما مسرحية/ صلاة ، وهي إن كانت لا تحتاج إلى مخرج فلأن الجميع يعرف دوره في هذه المسرحية الدينية . إن كل ما يفعله دريدا هو أن يحوِّل أرتو إلى تكأة يُصدِّر من خلالها ماديته السائلة الجديدة . يقول دريدا : «الجسد بالنسبة لأرتو قد سُرق منه ، سرقه الآخر : النص الواحد العظيم المتسلل ، واسمه «الإله» ، مكانه هو فتحة صغيرة - فتحة الميلاد والتبرز - وهي الفتحة التي تشير إليها كل الفتحات الأخرى ، وكأنها تشير إلى أصلها» . وفي لغة غنوصية واضحة يقول : «إن تاريخ الإله الصانع هو تاريخ الجسد الذي طارد جسدي الذي وُلد وأسقطَ نفسه على جسدي ووُلد من خلال تمزيق جسدي واحتفظ بقطعة منه حتى يتظاهر أنه أنا . فالإله هو ، إذن ، عَلَم على ما يحرمنا من طبيعتنا ، من ميلادنا ، ولذا فهو (دائماً) يكون قد تحدَّث قبلنا بمكر» .

وعلى أية حال ، فإن الإله الصانع لا يخلق ، فهو ليس الحياة وإنما هو صانع الأعمال (بالفرنسية : أوفر oeuvres) والمناورات (بالفرنسية : مان أوفر manouvres) ، فهو اللص المحتال المزيف الزائف المغتصب بخلاف الفنان المبدع ، وهو الكائن الصانع ، وهو كيان الصانع الشيطان ، «أنا الإله والإله هو الشيطان» . . ويربط دريدا الكينونة بالبراز (كما فعل نيتشه من قبل) لأنه يجب أن يكون للإنسان عقل كي يتبرز ، فالجسد المحض لا يمكن أن يتبرز . وقد شبَّه نفسه بالبراز ، كما شبه كتابته بأنها براز على الصفحة .

ثمة شيء طفولي سخيف في كتابات وفكر دريدا لخصه هو نفسه في واحدة من أسخف عباراته وأكثرها طفولية «ما ليس بالتفكيكية ؟ كل شيء بطبيعة الحال . ما التفكيكية ؟ لا شيء بطبيعة الحال» "What deconstruction is not ? Everything of course ! What is deconstruction ? Nothing of course" . ومعنى هذه العبارات الفارغة ، هو أن التفكيكية أمر فارغ ، لا شيء ! وهي عبارة تشبه أحجيات الأطفال ، التي كنا نتفنن فيها في طفولتنا . ولكن اللعب الطفولي مقبول حينما نكون أطفالاً ، أما حينما نكون فلاسفة ، رجالاً ناضجين غادروا الرحم ، وابتعدوا عن ثدي الأم ودفء غرفة الحضانة ووقعت عليهم مسئولية التفكير بوعي ، فإن الأمر جدُّ مختلف . وسخافة دريدا تظهر بوضوح في تعليقه على اسمه إذ يقول إنه وُلد باسم جاكي وغيَّره إلى جاك ، أي أنه غيره دون أن يتخلص منه تماماً ، فاسمه الثاني الجديد يحمل « أثر» اسمه الأول ، فالأول هو الثاني ، تماماً كما أن الثاني هو الأول . وكيف كان ذلك ؟ يجيب دريدا على ذلك بقوله : «الاسم أشبه بعلامة الختان ، إشارة متأتية من الآخرين ننصاع لها بسلبية كاملة ، ولا يمكنها أن تفارق الجسد» . ولكن الاسم قد يكون مثل الختان في بعض الأوجه ، ولكنه ليس مثله في كل الأوجه ، ولذا فإن المجاز لا يمكن أن يُدفع إلى نهايته المنطقية المتوحشة . ولكن دريدا يفعل ذلك لإفساد اللغة .

ودريدا ، المولع بالسيولة ، مولع باللعب بالألفاظ بلا هوادة ودائماً . فبطبيعة الحال ، يوجد اصطلاح «الاخترجلاف» (بالفرنسية : لاديفرانس la differance) ، وهو من كلمتي «الاختلاف» و«الإرجاء» ، وهناك كلمة أخرى هي «سيركومفشن circumfession» وهي من كلمتي «سيركموسيشن circumcision» أي «الختان» و«كونفشن confession» أي «الاعتراف» ، ونترجمها بكلمة «الختانعراف» . وهو يتلاعب بكلمات مثل «ايمين hymen» بمعنى «بكارة/ جماع» و«هيمن hymne» بمعنى «نشيد» . وكلمة «مارج marge» بمعنى «هامش» تتداخل مع كلمة «مارك marque» أي «علامة» ، وتتداخل كلتاهما مع كلمة «مارش marche» أي «سير» . ومن هذا يستنتج أو يخبرنا أن الهامش علامة فهو يساهم في مسيرة النص . ويتلاعب باسم الفيلسوف هيجل ، فهو «إيجيل» بالفرنسية ، ولكن الكلمة «إيجل » تعني «نسر» ، وقد وجد اللاعب الأعظم ذلك فرصة فريدة للتهكم فيقول : «إن هيجل يستمد قوته الإمبراطورية والتاريخية من اسمه» . والمعرفة المطلقة (بالفرنسية : سافوار أبسولو savoir absolu) تصبح «سا sa» التي توحي بأنها الإيد id وهي كذلك الكلمة الألمانية «شتورم أبتايلونجن Sturmabteilungen» أي «قوات العاصفة النازية» . ولا شك في أن هذا جزء من لعب الدوال الذي يتحدث عنه دريدا ، ولكن إذا كان هيجل إمبراطورياً ، فهو على الأقل يقدم لنا أعماله فنقرؤها ، أما دريدا فهو ينصب شباكه حولنا لنتزلق ، أو هكذا يظن ، إذ أن هناك دائماً من يبحث عن المعنى ويرى أن النكتة قد تكون مقبولة بعض الوقت ولكنها لا يمكن أن تحل محل الحقيقة ، ولذا فهي ليست مقبولة طيلة الوقت ، ونحن نضحك على النكتة ما دامت في الهامش وليست أساساً للرؤية ، وخصوصاً إن كانت النكتة ثقيلة الظل مثل كلمات دريدا .

ويُصنِّف دريدا نفسه أحياناً كيهودي ، بل يوقِّع بعض مقالات

بكلمة «رب ريدا Reb Rida» أي «الحاخام رضا» ، أو «رب دريسا Reb Derissa» أي «الحاخام دريسا» . وهو يرى أن وظيفته كيهودي في الحضارة الغربية المسيحية أن يفكك الأنوطوثيولوجي (لاهوت الأنطولوجيا) أي الأنطولوجيا التي تستند إلى الأصل الإلهي ، فهو يرى أن ثنائية الإنسان والطبيعة (وأية ثنائيات أخرى) تفترض وجود عالم متراتب هرمياً يستند إلى لوجوس/ مركز يشير إلى إله متجاوز .

ويرى دريدا أنه ، بكونه يهودياً ، مرشح أكثر من غيره لأن يقوم بهذه المهمة العدمية التفكيكية فتجربة الشتات اليهودي والرحيل الدائم نحو مكان آخر دون حلم بالعودة (أي دون حنين للمعنى والحقيقة) هو رفض عميق للثبات والميتافيزيقا ولأي شكل من أشكال الطمأنينة . ولكي ينجز هدفه ، قرَّر دريدا أن يهاجم الكتابة المتمركزة حول اللوجوس التي ورثتها الحضارة الغربية المسيحية من الآباء المسيحيين ، وقد قرَّر أن يواجه هذا بمفهوم آخر للكتابة يتفق مع المفهوم اليهودي للكتابة الذي يتلخص في أن الكتاب المقدَّس ليس هو الحيز الذي تحل فيه الكلمة . وهو يشير إلى فيلسوف يهودي آخر ، معلمه إيمانويل ليفناس الذي أكد ضرورة البحث عن العناصر التي تسبب عدم الاتساق في الميتافيزيقا الغربية . ويذهب دريدا إلى أن الميتافيزيقا الغربية تعتمد على تهديد خارجي لتحتفظ بتماسكها ، وهذا التهديد هو اليهودي ، ولذا فإن القضاء على معاداة اليهود يتطلب القضاء على الميتافيزيقا الغربية . وفي كتابه **جرس الموت Glas** الذي كُتب على هيئة عمودين : العمود الأول في اليسار عن هيجل والعمود الثاني عن جان جينيه ويعارض الواحد منهما الآخر ؛ فبينما يؤكد هيجل أهمية الأسرة باعتبارها وحدة تستند إلى العلاقة الجنسية السوية بين ذكر وأنثى ، يؤكد جينيه الشذوذ الجنسي . أما المؤلف (أي دريدا نفسه) ، فهو اليهودي الذي يقف بين شكلين من أشكال معاداة اليهود (الألماني والفرنسي) . وهو ، في كتاباته الأخرى ، يتحدث عن الهولوكوست وعن كتاب إستير وعن العلاقة بين اللغة والدياسبورا ويعطي محاضرات عن إسبينوزا وهرمان كوهين .

وفي مقال له عن إدمون جابيس ، يتحدث دريدا عن صعوبة أن تكون يهودياً ، تلك الصعوبة التي تشبه صعوبة الكتابة "فاليهودية والكتابة هما الشيء نفسه ، الانتظار نفسه ، الأمل نفسه ، عملية إفراغ الشخصية نفسها (بالإنجليزية : ديبليشن depletion)" . ولكن اليهودية لم تكن إفراغاً للشخصية وليست تحديداً للهوية ؟ للإجابة عن هذا السؤال يحتاج الأمر إلى تفسير جاد لا إلى نكتة . إن دريدا عضو في جماعة وظيفية استيطانية هي جماعة المستوطنين الفرنسيين البيض الذين كانوا مرتبطين عضوياً (مادياً وحضارياً) بالوطن الأم فرنسا ، والجماعة اليهودية في الجزائر كانت جزءاً لا يتجزأ من الجماعة الاستيطانية الفرنسية ، وقد منح يهود الجزائر جميعاً الجنسية الفرنسية عام ١٨٣٠ ؛ وبهذا يكون اليهودي الجزائري الذي أصبح جزءاً من الجماعة الاستيطانية شخصاً يمارس الاقتلاع والهامشية مرتين ؛ مرة لكونه مستوطناً فرنسياً اغتصب الأرض من أصحابها ويعيش عليها في وسط عربي ، ومرة أخرى باعتباره يهودياً نشأ في بلد عربي . ولكنه ، ومع هذا ، حوَّل ولاءه إلى مغتصبي البلد الذي وُلد ونشأ فيه . ولا شك في أن سفارديته ساهمت في عملية تهميشه ، فاليهود السفارد كانوا يتمتعون بمركزية ثقافية بين أعضاء الجماعات اليهودية ، وكانوا أرستقراطيتها الثقافية ، ولكن عملية الطرد والنفي والتشتيت (بالإنجليزية : ديسبرشن dispersion) والتناثر والتبعثر التي تُذكِّرنا بتناثر المعنى وبعثرته في النص أثرت فيهم بشكل عميق ، وكانت لهذا آثاره في القبَّلاه اللوريانية (التي وضع أسسها يهودي سفاردي آخر هو إسحق لوريا) . كما يُلاحَظ أن التجربة الأساسية في تاريخ اليهود السفارد هي تجربة المارانو (من كلمة «مراني» ، وهم يهود شبه جزيرة أيبريا الذين أبطنوا اليهودية وأظهروا الكاثوليكية) الذين تآكلت يهوديتهم المستبطنة واختفت . ولذا كان اليهودي السفاردي إنساناً هامشياً تماماً في مختلف التقاليد الدينية والثقافية التي يتحرك فيها ، فهو لا يؤمن بالكاثوليكية ولا يعرف اليهودية (يهودي غير يهودي على حد قوله) ، وهو لا يعرف لا الختان ولا الاعتراف وإنما يعرف شيئاً «تناصياً» يُسمَّى «الختانعراف» ، فلا هو كاثوليكي ولا يهودي ولكنه يُفقد الكاثوليكية حدودها وهويتها ويُفقد اليهودية حدودها ومضمونها وهويتها . إن هامشية دريدا جعلته مرشحاً لأن يكون فيلسوف التفكيك الأول ، فهو نفسه إنسان مفكك تماماً : فهو فرنسي ولكنه من أصل جزائري ، وهو جزائري ولكنه عضو في جماعة استيطانية فرنسية ، وهو يهودي سفاردي لا ينتمي إلى التيار الأساسي لليهودية ، وهو لا يؤمن بهذه اليهودية ولا يكن لها الاحترام ولكنه مع هذا يشير إليها دائماً . وإن كان هناك دال بدون مدلول ، فإن جاك دريدا الفيلسوف الفرنسي الجزائري اليهودي السفاردي هو هذه الحالة ، فهو ليس فرنسياً ولا جزائرياً ولا يهودياً ولا سفاردياً ، كما أن مشروعه الفلسفي هو إنهاء الفلسفة .

وغني عن القول أن دريدا لا يقدم فلسفة يهودية ، ولا يمكن فهم فلسفته إلا في سياق تاريخ الفلسفة الغربية . ورغم وجود أفكار تفكيكية وما بعد حداثية في مدارس التفسير اليهودية (التي اطلع عليها دريدا وتأثر بها فهو تلميذ ليفناس) ، إلا أنه يظل مفكراً غربياً

بالدرجة الأولى . ولا تشكل يهوديته سوى عنصر مساعد في تصعيد تفكيكيته . ولدريدا العديد من المؤلفات والكتب ، أهمها : **الصوت والظواهر** (١٩٧٠) ، و **تناثر المعنى** (١٩٧٢) ، و **في علم الكتابة (جراماتولوجي)** (١٩٧٢) ، و **هوامش الفلسفة** (١٩٧٢) ، و **جرس الموت معاً** (١٩٧٤) ، و **عن النبرة والرؤية (الأبوكاليبسية) التي تم تبنيها في الفلسفة** (١٩٨٢) ، و **جرامافون أوليس** (١٩٨٧) . وقد صَدَر له مؤخراً كتاب **أطياف ماركس** (١٩٩٥) .

هارولد بلوم (١٩٣٠-)

Harold Bloom

ناقد أدبي أمريكي يهودي وُلد في نيويورك . يُدرِّس الأدب الإنجليزي في جامعة ييل منذ عام ١٩٥٥ . وهو حلولي ذو رؤية غنوصية قَبَّالية واعية تماماً بغنوصيتها وعدميتها . نشر في الستينيات ثلاث دراسات تدور حول الشعر الرومانتيكي الإنجليزي ، هي **شيللي وصياغة الأسطورة** (١٩٥٩) ، و **الجماعة الرؤياوية** (١٩٦١) ، و **رؤى (أبوكاليبس) بليك** (١٩٦٣) .

وقد استخدم بلوم في هذه الدراسات مقولات تحليلية مستقاة إما من القبَّالاه أو من فلسفة بوبر (الحلولية الحسيدية الجديدة) . ويذهب بلوم إلى أن الشعراء الرومانسيين الإنجليز كانوا يرمون إلى تحويل الطبيعة من موضوع إلى ذات من خلال رؤية أسطورية للواقع فيدخلون في علاقة حب مع الطبيعة ، وهي ليست علاقة آلية (الأنا مع الهو) وإنما علاقة متعيِّنة مباشرة (الأنا مع الأنت) حيث يصبح الآخر (أي الطبيعة) كياناً حياً مفعماً بالحياة ، تماماً مثل الإنسان ، فهي لذلك علاقة حوارية يتساوى فيها الإنسان مع الطبيعة ويظهر الإنسان الطبيعي (أو الإنسان/ الطبيعة) وتتضخم الأنا الإنسانية لتسم الطبيعة بِسِمها ، ولكنها في الوقت نفسه تذوب في الطبيعة حيث يصبح هناك كيان واحد تسري فيه الروح المقدَّسة ، ومعنى ذلك أن الثالوث الحلولي يكتمل تماماً في شعر كبار الشعراء الرومانتيكيين . وأهم الشعراء على الإطلاق هو شيللي ، فصوته - في تصوُّر بلوم - مثل صوت أنبياء العهد القديم بعد أن يتخلوا عن الرؤية التوحيدية التي تفترض انفصال الإنسان عن الطبيعة ، وتفترض وجود مساحة بين الخالق والمخلوق ، ليصبحوا أنبياء حلوليين لا يتلقون الكلمة الإلهية لإبلاغها وإنما يتوحدون بها ثم يصبحون تجسيداً لها : صوتهم هو صوت الإله (والطبيعة) . وقد قدَّم بلوم تحليلاً كاملاً لنسق بليك باعتباره نسقاً غنوصياً . وفي السبعينيات ، صدر لبلوم عدة دراسات ، هي **ييتس** (١٩٧٠) ، و **قلق التأثر** (١٩٧٣) ، و **خريطة إساءة القراءة** (١٩٧٥) ، و **القبَّالاه والنقد** (١٩٧٥) ، و **الشعر والكبت** (١٩٧٦) . كما نشر رواية بعنوان **هروب لوسيفر : فانتازيا غنوصية** (١٩٧٩) .

ولفهم نقد بلوم ، لابد أن نفهم منظومته الغنوصية الصراعية التي تضرب بجذورها في كل من الغنوص اليهودي القديم والغنوص العلماني الحديث . وتعود هذه الرؤية الصراعية إلى عالم الجسيلشافت التعاقدي حيث يتشيأ كل من الإنسان والطبيعة وحيث يصبح الإنسان ذئباً لأخيه الإنسان . ولكن هذه الرؤية تعبِّر عن نفسها في ديباجات غنوصية مثل أصحاب الغنوص الروحانيين (النيوما) الذين يعيشون مغتربين عن أصلهم النوراني . وحتى يتغلب الغنوصي على غربته ، فإنه يؤكد اتصاله بالجوهر الإلهي . بل إنه يبيِّن أحياناً أنه هو نفسه الإله ، فهو خالق وليس مخلوقاً . وهذا هو ما يفعله بلوم الذي يشير إلى قول نيتشه : «إن كان هناك إله ، فماذا أكون أنا إذن ؟» فالإنسان حين يكتشف أنه مخلوق وليس خالقاً ، أنه إنسان وليس إلهاً ، أنه لم يخلق نفسه بنفسه وأن له أصلاً ربانياً فإنه يشعر بالاغتراب ، وخصوصاً أنه قُذف به في عالم ليس من صنعه . ولذا ، لابد أن يثور الإنسان فينكر أصله الرباني ويمحوه تماماً ليصبح هو نفسه مرجعية ذاته وليكون العبد والمعبود والمعبد ، وليس أمامه سوى أن يعيد خلق العالم في صورته . وبذلك يصبح العالم المخلوق من خلقه هو ، ويصبح الإنسان خالقاً لنفسه ولعالمه . وإحدى الحيل الأساسية في هذا المضمار هي تأكيد أن العالم صيرورة كاملة ونسبية كاملة بحيث تتساوى كل الأمور ويختفي السبب والنتيجة والخالق والمخلوق وكل ثنائية تدل على وجود أصل يسبق النسخة ، فالصيرورة هنا هي الآلية الأساسية حيث لا توجد أية معيارية يمكن الإحالة بها ولذا لا يبقى إلا الصراع اللانهائي في إطار الصيرورة الأزلية .

هذه المنظومة الغنوصية تكتسب أبعاداً يهودية في كتابات بلوم ، فتجربة اليهود الأساسية هي كارثة المنفى حين ينفصل اليهود عن أصلهم النوراني فيتم نفيهم من صهيون ويُقذَف بهم في عالم الأغيار . وكارثة النفي هي كارثة «إحلال» (بالإنجليزية : ديسبليسمنت displacement ، من كلمة «ديسبليس displace» الإنجليزية التي تعني «يُشرِّد» و«يزيح» و«يحل محل») إذ تم تشريد اليهود وإزاحتهم من مكانهم وإحلال شعب آخر محلهم . ولم يبق أمام اليهود سوى البكاء أمام حائط المبكى . واليهود ، هؤلاء المنفيون الأزليون ، هم رمز التجوال الأزلي والصيرورة الأزلية (على عكس المسيحيين الذين أصبحوا إسرائيل الحقيقية الثابتة المستقرة المؤسسة

التي فسرت العهد القديم تفسيراً رمزياً مستقراً) . وفي مقابل الكنيسة بأيقوناتها المفعمة بالدلالة ، يوجد حائط المبكى (بقية الهيكل) ، أي أنه مجرد شظايا ؛ بقايا معنى ؛ دال دون مدلول ، أو دال ابتعد مدلوله حتى امّحي .

وقد تعمّق انفصال الدال عن المدلول عند الشعب اليهودي ؛ فهذا الشعب المختار أصبح الشعب المنبوذ ، وهذا الشعب صاحب الهوية أصبح بلا هوية ، وهذا الشعب الذي كان يحلم بسيادة العالم أصبح مسلوب الإرادة والسلطة . وبدلاً من أرض الميعاد النهائية ، توجد أرض المنفى والتجوال الأزلية ؛ وبدلاً من دال له مدلول واضح ، أصبحت هناك رموز شظايا ليس لها معنى (على عكس التجسد المسيحي حيث يلتصق الدال بالمدلول ويصبح الدال مدلولاً ويصبح تجسُّد المسيح ابن الإله هو ما يعطي معنى لفوضى التاريخ) .

ولهذا السبب ، أصبح اليهود قوى الظلام والإحلال والتقويض في العالم . وقد لجأوا لاستراتيجية الهرمنيوطيقا المهرطقة التي تتلخص ببساطة في أن الهرطقات الإلحادية دخلت التراث الديني من خلال التفسيرات الحاخامية الغنوصية التي اكتسبت مركزية في حالة القبَّالاه . ثم تدريجياً أصبحت التفسيرات الغنوصية هي نفسها التراث وحلت محل الكتاب المقدَّس وتداخل المقدَّس والمدنَّس تماماً . إن الهرمنيوطيقا المهرطقة تعبير عن الصراع الماكر بين اليهود والقوى التي نفتهم وشردتهم وأحلت شعباً محلهم ، وتعبير عن انتقامهم من عدوهم الهيليني المسيحي الذي يزعم أن العالم يدور حول اللوجوس ، ولذا فقد جعلوا همهم ضرب اللوجوس عن طريق تَبَنِّي اللامعنى والتغير وانفصال الدال عن المدلول .

وعلى هذا فإن الناقدة الأمريكية اليهودية سوزان هاندلمان شبَّهت هارولد بلوم بيهوذا الإسقريوطي حواريّ المسيح الذي باعه للرومان بحفنة فضة (ومع هذا لم تهدأ روحه فرفضه الرومان) . كما شبَّهته بيهودا الحشموني (المكابي) الذي دخل معبد النقد الأدبي ليطهره من المسيحية ومن رغبتها المحمومة في الاتحاد بالخالق وفي الثبات .

تقارن هاندلمان بين بلوم ونقاد (مسيحيين) مثل إليوت وفراي يؤمنون بالتجسد حيث يظهر المسيح في التاريخ فيُنهي التاريخ اليهودي . ولكن تجسد المسيح هو لا تاريخ ، هو ثبات وتَوَقُّف ، هو اللوجوس الذي أدَّى إلى ظهور الفكر الغربي الأونطوثيولوجي ، وهو الحضور في التاريخ ونقطة الثبات التي تفلت من قبضة الصيرورة . وانطلاقاً من أرضيتهما المسيحية ، يرى إليوت وفراي أن الهرب من الذات (النسبية ـ المتغيرة ـ الضيقة) يتم عن طريقه فهم التقاليد والانتماء إليها أو عن طريق ما سماه فراي « النمط الأوليّ » (وهو شكل من أشكال التجسد) . أما بالنسبة لليهودي بلوم ، فإن الهرب من الذات يتم عن طريق فتح النص .

كتب بلوم دراسة بعنوان **أجون** (الصراع) وهي محاولة من جانبه لمراجعة النظرية النقدية الغربية . ويذهب بلوم في هذه الدراسة إلى أن النص الأدبي حلبة صراع بين الشعراء فيما بينهم ، وبين الشعراء والنقاد ، وبين النص والمفسر ، حيث يحاول كل متصارع أن يؤكد إرادته ويلغيها على الآخر (يمحو الآخر) . والقراءة النقدية شكل من أشكال الصراع المستمر (تماماً مثل قوانين الحركة المادية ، فالعالم صيرورة مطلقة وكل شيء يسقط فيها) . أما النص نفسه فليس له معنى محدد ، فهو صامت (كما يقول الباطنيون) ومن ثم لا توجد قراءة دقيقة وقراءة غير دقيقة . فالقراءة أمر مستحيل لأن القراءة تفسير ، والتفسير يفترض وجود مركز ومعنى محدد ومعيارية لم تسقط في قبضة الصيرورة ونص ثابت مستقر وأصل ثابت للنص . ولكن ، في واقع الأمر ، لا يوجد نص في ذاته ولا توجد قصيدة في ذاتها ، ولا يوجد سوى نصوص متداخلة (بالإنجليزية : إنترتكست intertext) ، ولا يوجد ما هو داخل النص وما هو خارجه ، ولا يوجد سوى مفسر تفسيره هو رؤيته للنص ، ولذا فإن ما يوجد هو عبارة عن سوء قراءة ليس إلا . ومعنى القصيدة لا يوجد في بطن القصيدة ولا في بطن الشاعر وإنما في بطن الناقد أو في إرادته إن أردنا توخِّي الدقة ، والفعل النقدي فعل نيتشوي صراعي يتضمن فرض الإرادة . ومعنى القصيدة ، بهذا المعنى ، هو قصيدة أخرى ، فلا مفر من الذاتية الكاملة ولا مفر من إساءة القراءة . ولهذا ، ركَّز بلوم على الناقد صاحب الإرادة النيتشوية (الذي يشبه الحاخام ممثل الشريعة الشفوية التي تحل محل الشريعة المكتوبة) . وما يوجد هو ، إذن ، إساءة قراءة ، قد تكون قوية أو ضعيفة ، ولكنها قوية كانت أم ضعيفة إساءة قراءة ليس إلا .

وتمتد الرؤية الصراعية لتتجاوز الصراع بين الناقد والنص لتصبح صراعاً بين الشاعر والشاعر . فكل نص قديم يُشكل أصلاً يترك أثره فيما بعده ، فهو حاضر/ غائب ، ومهمة الشاعر المبدع أن يحاول أن التحرر من أي أصل ثابت ، وتتحدد درجة الإبداع بمدى الإفلات من أثر الأسلاف بل من أي أثر لأي أصول ، أي أن الإبداع هو إنكار الأصول الربانية أو الإنسانية ، هو عملية تأله ، فالإله وحده هو الذي لا أصل له . وثمة صور صراعية عديدة في كتابات بلوم فهو يشير إلى واقعة صراع يعقوب مع الإله (في صورة ملاك) فصرع يعقوب الإله/ الملاك ، ولذا فإنه سُمِّي «يسرائيل» (وهي كلمة معناها «يصارع الإله» أو «صرع الإله») .

كما يجد بلوم شيطان جون ملتون (في ملحمة الفردوس المفقود) لأن الشيطان في حالة غيرة من الإله (الأصول) بسبب مقدرة الإله على الخلق وعجزه هو . فالشيطان هو الغنوصي الحقيقي الذي يصر على أنه قديم وليس مخلوقاً ، تماماً مثل الإله نفسه وقادر على الخلق مثله . والشيطان يرفض تجسُّد المسيح (لحظة التجسد تشكل لحظة ثبات في الصيرورة التاريخية) . ولأن الشيطان يود تأكيد مقدرته على الخلق ، فإنه يتزوج من الرذيلة متحدياً الإله فتلد له الرذيلة ابناً يُسمَّى «الموت» ، هو القصيدة الوحيدة التي يسمح له الإله بنظمها . فالشيطان هو مثال الشاعر القوي الذي يصارع الإله ويأتي بوحي بديل لوحي الإله والذي يود أن يزيل أثر الإله تماماً .

وتُشبه هاندلان اليهودي بشيطان الشاعر جون ملتون في ملحمته الفردوس المفقود ، فهو أيضاً يرفض التجسد . وعلاقة القبَّالاه بالتوراة تشبه علاقة الشيطان بالإله ، فالقبَّالاه تمحو المعنى الإلهي وتأتي بالمعنى الغنوصي البديل . وكما يرفض الشيطان اللوجوس (رمز الثبات ومصدر اليقين) ، يرفض اليهودي المسيح (اللوجوس) ، فهو يعيش في المنفى الدائم في حالة الإرجاء والاختلاف (الاخترجلاف) وفي حالة تفسير مستمرة لا تنتهي للنص المقدَّس وبذلك يصبح اليهودي عدو التجسد وعدو أي يقين معرفي . والتفسير المستمر للنص هو إستراتيجية اليهودي للتغلب على غربته وهي إستراتيجيته التقويضية لينتقم من الأغيار فيأخذ نصوصهم المقدَّسة أو المركزية ويحل محل معناها الأصلي معنى غنوصياً مظلماً فكأنه انتقم مما حلَّ به من إحلال .

والصراع مع الأصل يأخذ شكل الصراع مع الأب ، فالأب هو الذي يمنحنا الحياة ، فإن قتلنا الأب محونا الأصل ووصلنا إلى عالم بلا أصل ولا ثبات ، بلا مركز ولا مطلقات .

وهنا يشير بلوم إلى أسطورة أوديب (في المصطلح الفرويدي) حيث يدخل الشاعر في صراع مع من سبقه من شعراء (آبائه) فإما أن يصرعهم وإما أن يصرعوه . ويؤكد بلوم دائماً (مثله مثل كثير من دعاة ما بعد الحداثة) أن الرغبة تسبق الفعل أو أن الرغبة هي المحرك ، فالرغبة تتجاوز الحدود وتتجاوز التاريخ والزمان والمكان ، هي المثالية الكاملة والنسبية والصيرورة . لكل هذا ، نجد أن الموضوعات الأساسية في كتابات بلوم هي التقويض والمراجعة والانقطاع والتفسيرات التفكيكية والإحلال . ويرى بلوم أن آليات الدفاع عن الذات هي أشكال بلاغية سماها في البداية بأسماء يونانية ، فهناك : كلينامن Clinamen ، أي الإنحراف ، وتيسيرا Tesera ، أي الاكتمال والتناقض ، وكينوسيس Kenosis ، أي السعي إلى الانقطاع عن الشاعر السابق ، والديمنة Daemonization (من «ديمون demon» ، أي «الشيطان») ، وهي الشيطنة ، ولكنه في دراسة لاحقة أسقط هذه المصطلحات وأحل محلها مصطلحات من القبَّالاه مثل تهشُّم الأوعية (شفيرات هكليم) والانكماش (تسيم تسوم) والإصلاح (تيقون) .

ويثير مفهوم التسيم تسوم على وجه الخصوص اهتمام بلوم . فالخلق ، حسب الأسطورة اللوريانية ، تم من خلال عملية انكماش أي غياب ، ولكن هذا الغياب الإلهي ضروري للحضور الإلهي ، فكأن الغياب والحضور يتداخلان . والحضور الإلهي ليس كاملاً فهو عملية مستمرة عبر التاريخ ، هو نقطة غياب وحضور . وبهذا ، يكون التسيم تسوم تعبيراً عن المفارقة (أيروني irony) . كما يربط بلوم بين حادثة تهشُّم الأوعية ونفي اليهود فتهشُّم الأوعية أدَّى إلى تناثُر الأشعة الإلهية واختلاطها بمادة الكون الرديئة . وهذا هو نفسه نفي اليهود وتناثرهم في بقاع الأرض واختلاطهم بالأغيار ، كما أن اليهود بعد نفيهم تم إحلال شعب آخر محلهم . ثم يربط بلوم بين هذا كله والكناية حيث يحل الكل محل الجزء .

وبجسارة غير عادية ، ورغم عدم معرفته اللغات القديمة ، كتب بلوم مقالاً عن المصدر اليهوي للعهد القديم بيَّن فيه أن يهوه الذي يُشار إليه في هذا المصدر ليس له أدنى علاقة بإله العهد القديم ككل ، وأن مؤلف هذا النص ليس رجلاً بل امرأة وأنها امرأة متقدمة في السن تنظر إلى يهوه باعتبارها أماً تنظر إلى ابنها الذي بدأ يشب عن الطوق ويزداد قوة ولكنه ابن سريع الغضب بشكل شاذ . ومن الواضح أن بلوم هنا يغازل حركة التمركز حول الأنثى التي تحاول أن ترد كل شيء إلى الأنثى وتبين أن أصول الإنسان ليست إلهية وإنما أنثوية ، فهو حلول أنثوي .

ولا يركز نقد بلوم الأدبي على النص وإنما يركز على أهم قارئ للنص وهو قارئ يتسم بالقوة : أي الناقد ، فكأن النص يموت وكاتب النص يموت وينتصر الناقد الذي يفرض إرادته النيتشوية على الكلمات التي أمامه ، ومن ثم يذوب النص المكتوب في صوت الناقد (الذي يصبح اللوجوس في العملية الأدبية) . ولذا ، يصبح النقد الأدبي مناسبة أو تكأة للناقد لأن يطلق صوته وكأنه كاهن حلولي يتصور أن الإله قد تلبَّسه وأن اللوجوس حل فيه فأصبح هو نفسه اللوجوس . ويُلاحَظ أن السيولة الحلولية هنا تؤدي إلى انثيال المصطلحات وتَغيُّرها من عمل إلى عمل ، فالمصطلحات البوبرية التي استُخدمت في المرحلة الأولى أُسقطت في المرحلة الثانية حيث حلت محلها مصطلحات من القبَّالاه اللوريانية ثم من الفكر الغنوصي وأخيراً من فكر التمركز حول الأنثى ، ولكن الثابت في كل

هذا هو الصيرورة . وعلى كلٍّ ، فإن هذه صفة أساسية في النقد الأدبي الحديث لعصر ما بعد الحداثة في الغرب حيث يتسم كل شيء بالسيولة بعد غياب اليقين المعرفي والأخلاقي . ومن ثم ، فلا يمكن الحديث عن بلوم باعتباره ناقداً يهودياً ، فهو ناقد علماني غربي من نقاد عصر ما بعد الحداثة وقد أصبحت القبّالاه نفسها جزءاً من التراث الفكري الغربي بحيث لا يوجد فارق كبير بين القبّالاه المسيحية والقبّالاه اليهودية .

وقد صَدَر لبلوم مؤخراً كتاب **العقيدة الأمريكية : ظهور الأمة ما بعد المسيحية** (١٩٩٢) يذهب فيه إلى أن الأمريكيين يؤمنون بعقيدة واحدة ذات بنية غنوصية تؤله الذات الأمريكية وترى أنها قديمة وليست مخلوقة . والحرية في هذا الإطار هي الخلاص الغنوصي ، أي الاتصال الأبدي بالخالق والعودة إلى حالة الامتلاء الأولى (بليروما) . ويرى بلوم أن المسيحية الأمريكية لم تَعُد مسيحية رغم استخدامها المصطلحات المسيحية . وأهم تجليات هذه العقيدة شبه المسيحية هي المورمونية وشهود يهوه . ويرى بلوم أن الطوائف المسيحية كلها وجميع الطوائف الدينية الأخرى تتبع هذا الإطار الغنوصي الأمريكي .

الصهيونيــة وما بعــد الحداثــة

Zionism and Post-Modernism

حاولنا في المداخل السابقة أن نكتشف الصلة بين ما بعد الحداثة من جهة ، واليهودية واليهود من جهة أخرى ، من خلال محاولة الوصول إلى البُعد المعرفي للظاهرة «المعرفي» («الكلي والنهائي») ومن ثم طوَّرنا مقولات مثل الحلول مقابل التجاوز ، والصيرورة مقابل الثبات ، والتبعثر مقابل الكلية والتكامل .

ويمكن أن نطبق المنهج نفسه على علاقة الصهيونية (باعتبارها وريثة بعض جوانب التراث اليهودي الحاخامي) وما بعد الحداثة .

والصهيونية ، في جوهرها ، حركة فكرية وسياسية غربية ، أي أنها إفراز من إفرازات النموذج الغربي العلماني الشامل ، ولذا فثمة علاقة بنيوية وثيقة بينها وبين ما بعد الحداثة ، شأنها في هذا شأن معظم الحركات الفكرية السياسية الغربية . بل إنه يمكننا القول بأن كثيراً من مقولات ما بعد الحداثة ، كحركة فلسفية متبلورة ، كانت قد تبدت في الفكر الصهيوني قبل ظهور ما بعد الحداثة . ويمكن أن نوجز هذه المقولات فيما يلي :

١ ـ تقوم الصهيونية بتفكيك كل من اليهودي والعربي ، فكلاهما لا يتمتع بأية مطلقية ، وكلاهما ليس له قيمة تذكر في حد ذاته : فاليهودي ، شأنه شأن العربي ، شخص لا جذور له ، ومن ثم يمكن نقله ببساطة من مكان لآخر ، ويمكن أن تُفرض عليه هوية جديدة ، فيصبح اليهودي المستوطن الصهيوني ويصبح العربي اللاجئ الفلسطيني ، وتصبح فلسطين إسرائيل بل ويصبح الوطن العربي السوق الشرق أوسطية ! فكأن علاقة الدال بالمدلول في الخطاب الصهيوني مسألة هشة عرضية ، قابلة للتغير ، أي أن المدلول هنا سقط تماماً في قبضة الصيرورة . وينطبق الشيء نفسه على المشروع الصهيوني ، فهو يدَّعي أنه مشروع يهودي ولكنه يهدف إلى محْو يهودية المنفى (أي اليهودية عبر تاريخها) وإلى محو اليهود عن طريق تطبيعهم ودمجهم في مجتمع الأغيار ، فهو دال دون مدلول أو دال مدلوله عكسه . ولا يختلف الأمر كثيراً على مستوى التطبيق . فالدولة التي أسستها الصهيونية هي دولة تزعم أنها يهودية ولكن ، مع هذا ، ليس لها مضمون يهودي ، وهي تُعدُّ من أكثر الدول علمنة في العالم وتتهدد الهويات اليهودية الدينية والإثنية .

٢ ـ الصهيونية ، مثل ما بعد الحداثة ، نسبية تماماً تؤمن بالصيرورة الكاملة . وانطلاقاً من هذه الصيرورة ، وإنكار الكليات والحق والحقيقة ، يُستخدَم العنف لتغيير الوضع القائم لصالح صاحب السلاح القوي .

٣ ـ يتبدَّى هذا الإيمان بالصيرورة في برجماتية الصهيونية (وما بعد الحداثة) . فالصهيونية تملك مقدرة هائلة على التحرك دون مطلقات . وقد أسست دولة وظيفية في العالم العربي تغيِّر دورها من مرحلة لأخرى حتى يتسنى لها خدمة المصالح الغربية بكفاءة عالية .

٤ ـ انطلاقاً من هذا الإيمان بالصيرورة ، تذهب ما بعد الحداثة إلى أنه لا توجد نظرية (قصة) كبرى تنبع من إنسانيتنا المشتركة ، ولذا لا يبقى سوى قصص صغرى ليس بإمكان البشر جميعاً أن يشاركوا فيها . كما أن الصهيونية هي أيديولوجية القصص الصغرى التي لا تؤمن بقصة إنسانية كبرى ، فالصهيوني يؤسس نظريته في الحقوق اليهودية في فلسطين انطلاقاً من «شعوره الأزلي بالنفي وحنينه إلى صهيون» ، أي أنه يدور في نطاق قصته الصغرى . وحيث إن ارتباط العرب بفلسطين ووجودهم فيها يقع خارج نطاق هذه القصة ، فلا شرعية لها بل لا وجود .

٥ ـ يُلاحَظ أن كلاً من الصهيونية وما بعد الحداثة يتسمان بالثنائيات المتعارضة المتطرفة التي تؤدي إلى العدمية . فما بعد الحداثة تطرح تصوراً للحقيقة باعتبارها حضوراً كاملاً مطلقاً . وحيث إن مثل هذا الحضور مستحيل ، فهي تعلن أنه لا توجد حقيقة على الإطلاق . وهذا لا يختلف كثيراً عن طرح الصهاينة لفكرة اليهودي الخالص

(المطلقة) كمعيار وحيد للهوية اليهودية . وحيث إن مثل هذا اليهودي غير موجود في عالم المنفى ، فإن عالم المنفى والأغيار يُرفَض بأسره حتى يتم تأسيس الدولة اليهودية الخالصة . ثم تزول الثنائية تماماً حين نكتشف أن الدولة اليهودية الخالصة ستُعيد صياغة اليهودي ليصبح مثل الأغيار وتسود الواحدية ، أي أنه تم الانتقال من التعارض الكامل إلى التماثل الكامل وإلى الواحدية التي تمحو الثنائية .



١٠
اليهودية بين لاهوت موت الإله ولاهوت التحرير

اليهودية في عصر ما بعد الحداثة ـ لاهوت موت الإله ـ لاهوت ما بعد أوشفيتس ـ لاهوت البقاء ـ هلسوم ـ جرينبرج ـ روبنشتاين ـ فاكنهايم ـ بركوفيتس ـ كوهين ـ لاهوت التحرير ـ واسكو ـ العندون (بعلي تشوفاه)

اليهودية في عصر ما بعد الحداثة

Judaism in the Age of Post- Modernism

بإمكان القارئ أن يعود للباب المعنون «الحلولية والعلمانية» ليجد تعريفنا للحداثة ، أي باعتبارها إنكاراً لأي يقين معرفي أو أخلاقي وتعبيراً عن تصاعد معدلات العلمنة بل عن اكتمال المنظومة العلمانية التحديثية التنويرية . و«لاهوت موت الإله» هو لاهوت يهودية عصر ما بعد الحداثة .

لاهوت موت الإله

Death of God Theology

كلمة «لاهوت» تشير إلى التأمل المنهجي في العقائد الدينية . وعلى هذا ، فإن الحديث عن «لاهوت موت الإله» ينطوي على تناقض أساسي . ومع هذا ، شاعت العبارة في الخطاب الديني الغربي ، وخصوصاً في عقد الستينيات . وعبارة «موت الإله» في حد ذاتها مأخوذة من فيلسوف العدمية والعلمانية الأكبر فردريك نيتشه . ويحاول لاهوت موت الإله تأسيس عقيدة تصدُر عن افتراض أن الإله لا وجود له وأن موته هو إدراك غيابه .

والحديث عن موت الإله أمر غير مفهوم في إطار إسلامي ، فالله واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . وفي المسيحية (ورغم حادثة الصلب) فإن الإله موجود من الأزل إلى الأبد . والشيء نفسه يُقال عن الطبقة التوحيدية داخل التركيب الجيولوجي اليهودي . ولكن ، في إطار حلولي ، يصبح الحديث عن موت الإله أمراً منطقياً ، فالحلول الإلهي يأخذ درجات منتهاها وحدة الوجود حيث يتجسد (يحل) الإله تماماً في الطبيعة وفي أحداث التاريخ ويتوحد مع الإنسان ومع مخلوقاته ويصبح كامناً فيهما . ولكن لحظة وحدة الوجود هي نفسها اللحظة التي يصبح الإله فيها غير متجاوز للمادة ، ويتوحد الجوهر الرباني مع الجوهر المادي ويصبح هناك جوهر واحد ، ومن ثم يفقد الإله سمته الأساسية (تجاوزه للطبيعة والتاريخ وتنزهه عنهما) وينسحب ثم يموت ، ويصبح لا وجود له خارج الجوهر المادي . ولاهوت موت الإله هو فكر ديني مسيحي ويهودي ظهر في عقد الستينيات في العالم الغربي ، وما يهمنا هنا في هذه الدراسة هو التيار اليهودي داخله .

ويمكن القول بأن لاهوت موت الإله هو حلولية كمونية مادية ، حلولية يموت فيها الإله تماماً (وحدة وجود مادية) وتحل مطلقات دنيوية أخرى كامنة في المادة والتاريخ محله . وينطلق لاهوت موت الإله عند اليهود من فكرة قداسة التاريخ اليهودي النابعة من قداسة الشعب اليهودي ومن مركزيته الكونية ، وهي قداسة تشمل ما يقوم به هذا الشعب من أفعال ، وما يقع له من أحداث . وأهم الأحداث التي وقعت له في الماضي هي العبودية في مصر والخروج منها ، والسبي البابلي والعودة منه ، ثم سقوط الهيكل والشتات . ولكن أهم ما وقع لليهود على الإطلاق هو الإبادة النازية ليهود أوربا . وهذه الإبادة ليست فعلاً ارتكبته الحضارة الغربية ضد ملايين البشر (من يهود وبولنديين وغجر ومعوقين وعجائز) ، وإنما هي جريمة ارتُكبت ضد اليهود وحسب . وهكذا يُنظر إلى الإبادة باعتبارها حادثة تاريخية تجسد الشر المطلق ، وهي رهيبة لدرجة أنها تنفي وجود الخير والعقل واليقين والأمل ، وهي أخيراً تنفي وجود الإله . وحتى إن كان الإله موجوداً فيجب ألا نثق فيه لأنه تخلّى عن الشعب اليهودي . بل إن هذه الحادثة تكاد تكون حدثاً يقف خارج التاريخ ، فهي عدم تام . وهي مدلول متجاوز لا يمكن أن يدل عليه دال ؛ فهو مرجعية ذاته ولا يمكن فهمه إلا بالعودة إليه خارج أي سياق . ويمكن القول بأن كلمة «هولوكوست» أصبحت دالاً ومدلولاً في آن واحد ، فهي تشبه الأيقونة . ولذا ، فالفهم غير ممكن ولا يمكن سوى التذكر .

وكما جاء خروج اليهود بعد العبودية في مصر ، والعودة بعد السبي في بابل ، جاءت وقفة الشعب اليهودي ومقاومته لما يتهدد بقاءه في أعقاب حادثة سقوط الهيكل والشتات ثم الإبادة . ولنا أن نلاحظ الثنائية الصلبة التي تسم لاهوت موت الإله : عبودية/ خروج ـ سبي/ عودة ـ شتات/ استقلال إسرائيل ـ إبادة/ بقاء الشعب ، وهي

ثنائية صلبة تأخذ شكل حركة دائرية متكررة (ويتسم التفكير الحلولي بالدائرية إذ يختفي التاريخ ويتداخل القومي والديني والإنسان والإله) . ولكن هذه الوثنية الحلولية الجديدة هي وثنية بدون إله ، إذ تحل الذات القومية محل الإله تماماً . أي أن الشعب اليهودي استوعب في ذاته كل المطلقية والقداسة الممكنة وأصبح مركز الكون والكلمة المقدَّسة (لوجوس) والغرض الإلهي (تيلوس) معاً وفي آن واحد . ولذا ، تُعَدُّ مقاومة الشعب اليهودي للإبادة بمنزلة تنفيذ الأوامر والنواهي (متسفوت) في التراث القبَّالي؛ فهذه المقاومة هي التي تقوم بعملية إصلاح الخلل الكوني (تيقون) . وهي عملية يقوم الإله من خلالها باستعادة وحدته التي فقدها أثناء عملية تهشُّم الأوعية (شفيرات هكيليم) . وكلما قاوم اليهودي ، زادت عملية الإصلاح تسارعاً واكتملت استعادة الإله لوحدته . ومن ثم ، فإن الشعب اليهودي يوجد خارج التاريخ ككيان لا يخضع لقوانينه العبثية . ويؤكد المعنى من خلال مقاومته ، أو هو بمنزلة الجسر الذي يصل بين الإله والتاريخ (على حد قول آرثر كوهين) . وكل هذا يتضمن فكرة حلولية كمونية متطرفة وهي أن الشعب هو الإله وأن هذا الإله لا يتجاوز تاريخ هذا الشعب وإنما يتجلى ويحل ويذوب فيه تماماً ويختفي !

وإذا كانت الجريمة الكبرى هي الفناء ، فالفضيلة الكبرى هي المقاومة والبقاء ، وكل هذا يجسده ظهور دولة إسرائيل كدولة ذات سيادة تعبِّر عن إرادة الشعب اليهودي ورغبته في البقاء ، وتثبت أن الشعب اليهودي يرفض أن يلعب دور الشعب الشاهد كما ترى المسيحية ، ولا أن يكون شعباً شهيداً كما تتصور اليهودية الحاخامية التي ترى أن اليهود تم اختيارهم ليكونوا شعباً من الشهداء والقديسين والأنبياء والكهنة لا سيادة له ، عاجز لا يشارك في السلطة (وهو الدور الذي يرى دعاة لاهوت موت الإله أنه أدَّى باليهود إلى الاستسلام للإرهاب النازي ، وعبَّر عن نفسه في اشتراك القيادات اليهودية في المجالس اليهودية التي أسسها النازيون والتي قامت بتسليم اليهود إلى قاتليهم) . لكن الدولة الصهيونية تقف على الطرف النقيض من هذا كله ، فهي تحل مشكلة العجز اليهودي الناجم عن انعدام السيادة وعدم المشاركة في السلطة ، فإسرائيل دولة ذات سيادة ولها سلطة وجيش قوي ومؤسسات عسكرية تدافع عن الإرادة اليهودية المستقلة ، وإسرائيل هي الشيء الإيجابي الذي ظهر من رماد أوشفيتس ، وهي (باعتبارها رمز بقاء الشعب) تشكل هزيمة للعدم ولهتلر (ولذا ، يُشار إلى لاهوت موت الإله بأنه «لاهوت البقاء» و«لاهوت ما بعد أوشفيتس») . بل إن إسرائيل هي حقاً الوسيلة الكبرى لعملية الإصلاح الكوني (تيقون) . فمن خلال هذه الدولة يعلن المطلق عن نفسه ويُستعاد الحضور الإلهي داخل التاريخ (على حد قول الحاخام إليعازر بركوفتس) . فبقاء الشعب والدولة هو بقاء الإله ، واستمرار الشعب والدولة هو استمرار الإله . ولذا ، فإن من يقف ضد الدولة ولا يقبلها فهو كمن ينكر وجود الإله ، ومن يقبلها بلا شرط فهو وحده المؤمن (على حد قول آرثر روبنشتاين) . وقد صرَّح الحاخام إيوجين بوروويتز أحد مفكري لاهوت موت الإله بأن الدولة الصهيونية إبان حرب ١٩٦٧ لم تكن وحدها المهددة بالخطر ، بل كان هذا الخطر محدقاً بالإله نفسه .

ويمكننا الآن أن ننتقل من عالم المعرفة والتاريخ إلى عالم الشعائر والأخلاق . فالقيمة الأخلاقية المطلقة هي بقاء الشعب اليهودي ، وهذا البقاء هو نهاية في ذاته ، والحفاظ على الدولة وبقائها وبأي ثمن هو أيضاً مطلق أخلاقي (أو ليس دفاع اليهود عن أنفسهم دفاعاً عن الإله ؟) ، ومن ثم نجد أن لاهوت موت الإله يؤدي إلى ظهور أخلاقيات داروينية ، أي أخلاقيات هي في جوهرها لا أخلاقيات ، إذ أنها لا تحاكم إسرائيل بأية مقاييس أخلاقية ، وإنما تبرر كل أفعالها وتقبلها تماماً . بل إن الشغل الشاغل للشعب اليهودي هو : تَذكُّر الإبادة وما حلَّ بهم ، ثم الالتزام ببقاء إسرائيل وحماية سيادتها وصون بقاء الشعب اليهودي ، بأية طريقة ودون الالتزام بأية قيم .

أما الشعائر ، فهي تكتسب أبعاداً جديدة تماماً . فإن كان تَذكُّر الذات (اليهودية) واجباً أخلاقياً ، فإن كتابات اليهود من أمثال إيلي فيزيل عن الإبادة تصبح هي الكتب المقدَّسة ، ويُعتبَر متحف مثل متحف بيت هاتيفوتسوت (متحف الدياسبورا في إسرائيل) مستودعاً للذاكرة وتصبح زيارته شعيرة دينية مقدَّسة ، والأوامر والنواهي تضاف إليها أوامر ونواه تضفي الطابع الديني على الدولة والمؤسسات الصهيونية والإسرائيلية مثل مؤسسة الجباية اليهودية والكنيست وجيش إسرائيل . وقد نجح اليهود ، في حوارهم مع المسيحيين ، في أن يجعلوا من الإيمان بالدولة الصهيونية أحد المطلقات التي لا يجوز في شأنها حوار ، كما لا يمكن مناقشة أفعالها .

وقد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى أن إدراك يهود أوربا للإبادة النازية على هذا النحو هو إدراك حلولي كموني متأثر بحادثة الصلب المسيحية (وتشويه له في الوقت نفسه) ، فالمسيح هو اللوجوس ابن الإله الذي ينزل فيُصلَب ثم يقوم ويعود إلى أبيه (وهذا هو الحلول المؤقت الشخصي المنتهي) . أما في اليهودية ، فالشعب هو اللوجوس الذي يعيش بين الأمم ويتعرض للشتات والعذاب

وأخيراً الصلب في حالة الإبادة النازية . وكما أن حادثة الصلب لابد أن تُقبل كما هي في الوجدان المسيحي ، فإن لاهوت موت الإله اليهودي يتطلب من اليهود والأغيار قبول حادثة الإبادة باعتبارها سراً من الأسرار . وكما أن المسيح يقوم بعد الصلب ، فإن الشعب يبقى بعد الإبادة ثم يقوم على هيئة الدولة الصهيونية ! أي أن الحلول المسيحي الشخصي المنتهي يتحول إلى حلول قومي دائم ومستمر .

ولا شك في أن هذا الخطاب لا علاقة له بأي دين ، سواء أكان الإسلام أم المسيحية أم حتى اليهودية الحاخامية . وهو بالفعل يصدم أسماع كثير من الحاخامات الذين قاموا بتكفير أصحابه . ولكن التركيب الجيولوجي للعقيدة اليهودية يجعل وجود سوابق لمثل هذه الأفكار أمراً ممكناً . ففكرة الإصلاح (تيقون) في القبَّالاه اللوريانية تمنح اليهود مركزية كونية وتجعل وجود الإله أو وحدته مرهوناً بوجودهم . والقبَّالاه لم تكن هرطقات ثانوية هامشية وإنما كانت العمود الفقري لليهودية الحاخامية أو لتيار مهم داخلها .

ويمكننا ببساطة القول بأن لاهوت موت الإله (وحدة الوجود المادية) هو اللحظة التي تتم فيها صهينة اللاهوت اليهودي تماماً ، إذ يختفي الإله تماماً ويموت وتموت معه شعائره وكتبه المقدَّسة ليحل محله إله جديد هو الدولة الصهيونية ، وتظهر شعائر جديدة هي الدفاع عن الدولة وتَذكُّر الشعب اليهودي ، أما الكتب المقدَّسة فهي سجلات هذه الذاكرة .

وكثير من الحركات الصوفية الحلولية تترجم نفسها إلى أساطير من هذا النوع ، ويخلع الأتباع القداسة على أنفسهم . ويُلاحَظ كذلك أن الحركات الفاشية تخلع القداسة على نفسها وعلى تاريخها وتعلن نهاية التاريخ . ومع هذا ، فإنها تتحرك داخل التاريخ لاغتيال الأطفال والاستيلاء على الأرض . هذا ما فعله النازيون ، وهذا ما يفعله الصهاينة . ولاهوت موت الإله ينجز ذلك أيضاً ، لكنه يحتوي داخله على تناقض أساسي ، فهو يصر على أن يخلع المطلقية على اليهود ومؤسساتهم وتاريخهم (فالإبادة لا يمكن النقاش في معناها ، والدولة الصهيونية لا يمكن نقدها أو الحوار بشأنها ، وهكذا) ، ولكنه في الوقت نفسه يرفض دور الشاهد على التاريخ ويصر على المشاركة في السلطة ، مع أن من يتصف بالمطلقية يقف خارج التاريخ ، أما من يشارك في السلطة ويستخدمها فهو يقف داخله . ولكن هذا التناقض العميق تتصف به كل النماذج الحلولية الكمونية حينما تتحول إلى نظام حكم .

ولاهوت موت الإله تعبير عن العلمنة الشاملة الكاملة للنسق الديني اليهودي ، فهو شكل حاد من حالات تَوثُّن الذات القومية التي تتحول إلى مطلق يعبِّر عن نفسه من خلال مطلق آخر : الدولة . وهي مطلقات مادية لها كل صفات الغيب والميتافيزيقا دون أن تُحمِّل من يؤمن بها أية أعباء أخلاقية ، بل تعطيه العديد من المزايا . والتزامه الوحيد هو البقاء . ولكن البقاء بأي شرط ليس عبثاً وإنما هو حالة تتسم بها كل المخلوقات البيولوجية ، لا فرق في ذلك بين الإنسان والحيوان الأعجم والنبات الذي لا يتحرك . فهذه هي أخلاقيات النظام المادي الواحدي الذي ينتظم كلاً من الإنسان والمادة ، وهذا هو ميراث عصر الاستنارة .

ولعل إدراكنا منطلقات لاهوت موت الإله بمطلقيته وتاريخيته ، وكذلك إدراكنا لنتائجه المعرفية والأخلاقية ، يفسر لنا شيئاً من الموقف الصهيوني والإسرائيلي تجاه العرب ، فإذا كانت الذات القومية مطلقة فلا مجال للحوار مع الآخر ولا حقوق له فهو يقع خارج الدائرة المقدَّسة . ويمكننا أن نقول إن لاهوت موت الإله هو النسق الكامن وراء الخطاب السياسي الإسرائيلي بكل علمانيته وبريقه وعنفه وقوته .

إن لاهوت موت الإله تعبير عن النسق المعرفي الجديد الذي يسيطر في الوقت الحالي على الحضارة الغربية ، أي نسق ما بعد الحداثة (التي يشار إليها أيضاً بالتفكيكية أو ما بعد البنيوية) وهو شكل من أشكال العدمية الكاملة التي لا تنكر وجود الإله وحسب ، وإنما تنكر أية مركزية للإنسان ، بل تنكر فكرة الطبيعة البشرية نفسها . وهي لا تنكر الحقيقة الدينية وحسب وإنما الحقيقة في أساسها ، ولا تتمرد على فكرة القيمة الدينية أو الأخلاقية ، وإنما على فكرة القيمة نفسها ، أي أنها تنكر قيمة القيمة .

ومن أهم مفكري لاهوت موت الإله إرفنج جرينبرج وريتشارد روبنشتاين وإميل لودفيج فاكنهايم .

لاهوت ما بعد أوشفيتس

Post-Auschwitz Theology

عبارة «لاهوت ما بعد أوشفيتس» تُستخدَم للإشارة إلى التفكير الديني اليهودي الذي ظهر منذ أوائل الستينيات ، والذي يتوقف عند حادثة الإبادة النازية ليهود أوربا ويضفي عليها المركزية . وعادةً ما يتم الربط بين ظهور دولة إسرائيل وحادثة الإبادة حيث تظهر الإبادة باعتبارها العنصر السلبي على حين أن إعلان استقلال إسرائيل هو العنصر الإيجابي في هذه الدراما الكونية . ولاهوت ما بعد أوشفيتس هو مسمى آخر للاهوت موت الإله . (انظر : «لاهوت موت الإله») .

لاهوت البقاء

Survival Theology

«لاهوت البقاء» عبارة تُطلق على لاهوت موت الإله والذي يُسمَّى أيضاً «لاهوت ما بعد أوشفيتس» .

إتي هلسوم (١٩١٤-١٩٤٣)

Etty Hillesum

مفكرة دينية هولندية يهودية . حصلت على الدكتوراه في القانون من جامعة أمستردام ، وبدأت في دراسة اللغات السلافية حتى غزا النازيون هولندا . وُلدت إتي لأسرة يهودية مندمجة مع أن أمها كانت من يهود اليديشية . نشطت لفترة في القضايا السياسية ، ولكنها تركتها وركزت على العمل الأدبي . وقد تأثرت هلسوم بأعمال دوستويفسكي وريلكه والكتاب المقدَّس (العهد القديم والعهد الجديد) . وقد عملت بعض الوقت في أحد المجالس اليهودية التي أسسها النازيون لإدارة شئون الجماعات اليهودية ولترحيل اليهود إلى معسكرات الاعتقال والإبادة . وقد نُقلت هلسوم إلى أحد المعسكرات حيث كان يتم فرز اليهود لتقرير من سيُرحَّل إلى معسكرات الاعتقال ، وقد رفضت أن تتخلى عن عملها حتى حينما سنحت لها الفرصة . وقد رُحِّلت إلى أوشفيتس حيث قُتلت عام ١٩٤٣ .

ينطلق فكر هلسوم من حادثة الإبادة النازية ليهود أوربا وغياب الإله أو موته وعجزه ، بل إنها تسأل : إذا كان الإله عاجزاً ولا يستطيع مساعدة شعبه اليهودي . هل يستطيع هذا الشعب مساعدته؟ وهذا هو بالضبط مفهوم الإصلاح الكوني (تيُّقون) القبَّالي . والواقع أن يومياتها مليئة بالإشارات إلى ضرورة أن يضحي الإنسان بنفسه دون انتظار أية عدالة ودون أن يكن أي كره لقاتله ، وقد وُصف فكرها الديني بأنه مسيحي متأثر لا بحادثة الخروج اليهودية وإنما بحادثة الصلب المسيحية . وبالفعل ، نجد أن كتاباتها مليئة بإشارات إلى العهد الجديد . بل يبدو أن رؤيتها لأوشفيتس هي رؤية مسيحية ، فالشعب اليهودي هو الذي يتم صلبه وكأنه حَمَل الإله الوديع ودمه النازف شهادة على وجود الإله أو دعوة للشعوب ألا تنغمس في العنف مرة أخرى . ولذا ، فإننا نجد أنها لا تهتم كثيراً بإشكالية عجز الشعب اليهودي بسبب عدم مشاركته في السلطة ، وهي الإشكالية التي يهتم بها دعاة لاهوت موت الإله وبقاء الشعب اليهودي . وبقاء الشعب ليس المطلق أو حجر الزاوية المقدَّسة بالنسبة إليها ، فالموضوع الأساسي في كتاباتها هو اليهود كشاهد وليس اليهود كشعب له سيادة . وقد ظهرت طبعة لأعمالها الكاملة بالهولندية عام ١٩٨٦ .

والواقع أن كتابات هلسوم ، شأنها شأن كتابات شيستوف وأعمال شاجال ، تثير قضية الهوية اليهودية ، فإذا كانت النقطة المرجعية لهلسوم هي المسيحية ، وإذا كان خطابها الديني مسيحياً ، فبأي معنى من المعاني يمكن الحديث عن يهوديتها .

إرفنج جرينبرج (١٩٣٣-)

Irving Greenberg

حاخام أمريكي يوصف بأنه أرثوذكسي وبأنه مفكر تربوي أمريكي يهودي . وُلد في بروكلين ، وعمل في جامعة برانديز كمدير لجماعة هليل الطلابية وكمحاضر ، ثم عمل أستاذاً للتاريخ في جامعة يشيفا .

وينطلق فكر جرينبرج من نقد جذري عميق لكل من الدين والحداثة من خلال واقعة الإبادة . فاليهودية والمسيحية في رأيه مسئولتان عن الإبادة لأنهما أدتا إلى عجز اليهود : المسيحية بقيامها بتجريد اليهود من السلطة وتحويلهم إلى شعب شاهد وبتوليدها كُرهاً عميقاً تجاه اليهود لدى المسيحيين ، واليهودية الحاخامية بتقبلها العجز بسبب عدم المشاركة في السلطة واعتباره حالة نهائية لن تنتهي إلا بمقدم الماشيح . فاليهود ، حسب تصوُّر اليهودية الحاخامية ، شعب مختار من الكهنة والأنبياء والشهداء .

ولكن الحل لا يكمن في الاتجاه إلى العلم ، فالحضارة الحديثة التي نقلت الولاء من إله التاريخ والوحي إلى إله العلم والإنسان لم تؤد إلى سعادة الإنسان وإنما إلى الإبادة ، والمجتمع الحديث بكل آلياته وإمكاناته هو الذي جعل الإبادة أمراً ممكناً . بل إن كلاً من المؤسسات الدينية والحديثة مرت على الإبادة مروراً عابراً وتقاعست عن واجب تحديها بالخروج عن الصمت ، أي أن جرينبرج يرفض أن ينسب أية مطلقية للعقيدة الدينية أو للمجتمع العلماني .

وحلاً لهذه المشكلة ، يقترح جرينبرج أمراً جديداً تماماً فبدلاً من الحديث عن الإيمان والإلحاد ، علينا أن نتحدث عن لحظات من الإيمان ولحظات من الإلحاد ، وعلينا أن نتقبل كلاً من لحظات الإيمان ولحظات الإلحاد ، وبذا نتخلص من الثنائية التقليدية التي تضع الإيمان مقابل الإلحاد ، وفي هذا تَقبُّل للتعددية الحقة حيث لا يوجد مركز دائم وإنما هناك مراكز متعددة متنقلة متغيرة تماماً كعلاقة الدال بالمدلول في الفكر التفكيكي وفكر ما بعد الحداثة (فهي علاقة مؤقتة غير نهائية) . وحياة الشعب اليهودي بأسره جدل مستمر بين لحظات الإيمان ولحظات الإلحاد ، وهو ما يسميه جرينبرج «جدلية القدس» أو

«جدلية أوشفيتس» . فالقدس ترمز إلى لحظة الإيمان بالإله والشعب وتبعث على الأمل ، أما أوشفيتس فترمز إلى الاغتراب عن الإله والناس وتبعث على القنوط . ورغم إصرار جرينبرج على عدم تفضيل الإيمان على الإلحاد ، ورغم سعيه إلى نفي فكرة المركز ، إلا أنه يرى أن المؤمن هو من يمارس عدداً من لحظات الإيمان والأمل يفوق عدد لحظات الإلحاد واليأس .

ويقدم جرينبرج تاريخاً لليهودية هو تطبيق لنظرية اختفاء المركز هذه ، فتاريخ اليهودية يعبِّر عن ظاهرة اختفاء الإله تدريجياً . ولإثبات نظريته هذه ، يُقسِّم تاريخ اليهودية إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى ، مرحلة العهد القديم : وهي المرحلة التي بدأت بالحديث المباشر بين الإله وموسى ثم حديث الإله للشعب من خلال الكهنة والأنبياء . والشعب في هذه المرحلة كل لا يتجزأ ، وتأخذ الشعائر شكل العبادة القربانية في الهيكل التي كان يشرف عليها الكهنة . والخطايا في هذه المرحلة جماعية ، كما أن التوبة والندم جماعيان .

المرحلة الثانية ، مرحلة التلمود واليهودية الحاخامية أو التلمودية : وهي المرحلة التي لا يتحدث فيها الإله مباشرة للشعب ، وإنما يتم الحوار من خلال الحاخامات الذين يدرسون كتاب الإله من خلال التفسيرات التي وضعها المفسرون الأوائل ، أي يدرسون التلمود . وتأخذ الشعائر هنا شكل التعبد في المعبد اليهودي تحت قيادة الحاخام ، وتصبح الخطيئة فردية ، وكذلك التوبة . ويُلاحَظ في هذه المرحلة بداية التراجع النسبي للإله (قياساً إلى المرحلة السابقة) .

المرحلة الثالثة ، مرحلة الإبادة وأوشفيتس ودولة إسرائيل : وهي المرحلة التي يختفي فيها الإله تماماً وتصبح الدولة الصهيونية هي المطلق ، إذ كان الإله في المعسكرات يقول للبشر أوقفوا المذبحة ولكنها لم تتوقف ، ولم يستجب أحد . ومع هذا جاءت الاستجابة في شكل دولة إسرائيل . فكأن الإله قد حلَّ تماماً في التاريخ و«صعد» مع الشعب إلى إسرائيل ، ومن ثم فإن هذه المرحلة تتسم بغياب الإله وحضور إسرائيل .

والتحول الذي حَدَث هو تحوُّل من العجز بسبب عدم المشاركة في السلطة إلى تأكيد السيادة والاستيلاء على السلطة ، وهو أمر لا يتم بالنسبة للمستوطنين في إسرائيل وحدهم ، وإنما يحدث لجميع يهود العالم الذين يشكلون أداة ضغط متمثلة في اللوبي الصهيوني والمؤسسات الصهيونية الأخرى ، فكأن حالة النفي تنتهي فعلياً ومادياً بالنسبة إلى المستوطنين وتنتهي نفسياً بالنسبة إلى يهود العالم . كما أن بقاء الشعب اليهودي متمثلاً في الدولة الصهيونية في فلسطين والجماعات اليهودية في العالم ، وتأكيد سيادة اليهود سواء في إسرائيل أو في خارجها ، أمر مطلق لا يجوز الحوار بشأنه . فمن يقف ضد تعبير إسرائيل عن سيادتها يكون مثل من ينكر واقعة الخروج من مصر ، ومن ثم فإنه يكون كمن ارتكب خطيئة دينية قاطعة تؤدي إلى الطرد من حظيرة الدين . ولا يمكن الحكم على إسرائيل بالمقاييس العادية ، فبقاؤها مطلق ، وهو ما يعطيها الحق في أن تستخدم أحياناً أساليب غير أخلاقية لضمان البقاء . وعلى سبيل المثال ، يمكن الحديث عن حق العرب في تقرير المصير شريطة ألا يؤدي هذا إلى تهديد وجود إسرائيل وبقائها . فكأن جرينبرج يدعو إلى تَمحوُر حلولي وثني حول الذات .

والشيء نفسه ينطبق على الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة التي يجب أن تتحول هي الأخرى إلى جماعة عضوية متماسكة (التمحور الوثني حول الذات مرة أخرى) ذات إرادة مستقلة ، تتطهر رؤيتها تماماً من كلٍّ من الليبرالية والعالمية ، بحيث يركز اليهود لا على الأصدقاء الدائمين وإنما على المصالح الدائمة ، ويصبحون ملمين تماماً بموازين القوى وكيفية توظيفها لصالح اليهود وحدهم ولصالح الدولة الصهيونية أيضاً . وبدلاً من أن يضغط اليهود على أمريكا لخفض أسلحتها أو للانسحاب من مناطق مثل فيتنام مثلاً ، انطلاقاً من قيم أخلاقية مطلقة ، لابد أن يدرك اليهود أن قوة إسرائيل تستند إلى قوة الولايات المتحدة ، كما أن إدراك العرب واليهود لهذا الوضع يشكل مفتاح السلام في الشرق الأوسط .

ولكن إذا كان العهد القديم كتاب المرحلة الأولى وإذا كان التلمود كتاب المرحلة الثانية . فما كتب هذه المرحلة المقدَّسة ؟ إنها النصوص التي تُذكِّر الشعب اليهودي بالإبادة وبضرورة البقاء (ومن هنا نجد أن جرينبرج يعتبر كتابات إيلي فيزيل ، على سبيل المثال ، كتابات مقدَّسة إذ يدور معظمها حول الإبادة) . وإذا كان الهيكل هو المؤسسة الأساسية في المرحلة الأولى ، والمعبد اليهودي مؤسسة المرحلة الثانية ، فما مؤسسات المرحلة الثالثة ؟ المؤسسات الجديدة ليست الهيكل أو المعبد ، وإنما هي المؤسسات الصهيونية : الكنيست ، وجيش الدفاع الإسرائيلي ، والكيبوتس ، والجماعات الإسرائيلية ، ومؤسسات الجباية اليهودية ، والنصب التذكاري الإسرائيلي (ياد فاشيم) ، بل إن بيت هاتيفوتسوت (متحف الدياسبورا) في إسرائيل ليس مجرد متحف وإنما هو تكرار طقوسي لقصة الدياسبورا وإعادة قصها في أسلوب علماني تعددي في الظاهر ، ديني خفي في الباطن ، فهو مخزون الذاكرة . كما أن إيباك (اللوبي الصهيوني) ، وجماعات الجباية ، تعبير عن تأكيد أن

الدياسبورا تقف إلى جانب الظاهرة المقدَّسة (إسرائيل) بدعمها سياسياً ومالياً .

وإذا كان الكاهن هو الذي يشرف على إقامة شعائر المرحلة الأولى ، والحاخام هو الذي يشرف في المرحلة الثانية ، فلابد أن تكون النخبة الصهيونية القائدة (السياسية والعسكرية) هي المشرف على إقامة شعائر المرحلة الثالثة . وبالفعل ، لاحَظ جرسون كوهين أن كثيراً من اليهود يعتقدون أن إسرائيل هي معبدهم اليهودي ، وأن رئيس وزرائها هو الحاخام الأكبر أو الكاهن الأعظم .

ويضيف جرينبرج أشياء كثيرة عن القيم الأخلاقية ، فيصرح بأن الإبادة ينبغي ألا تصبح مبرراً لليهود لأن ينسبوا للآخرين كل الشرور وأن يتجاهلوا عمليات الإبادة التي لحقت بالآخرين . ولكن ، رغم هذه الديباجات الأخلاقية ، فإن موقف جرينبرج يظل برجماتياً عملياً ، فهو لا يتحدث عن التزام الدولة الصهيونية بالقيم المطلقة وإنما يتحدث عن تحالفاتها العملية لتأكيد السيادة اليهودية . ويُلاحَظ أن فكر جرينبرج ينبع من نمط ما بعد الحداثة ، فثمة إنكار لأية مطلقات أو مركز ، وإيمان باستحالة تجاوز حدود التاريخ وتصوُّر لتطور التاريخ باعتباره تعبيراً عن الاختفاء التدريجي للإله المتجاوز حتى يصبح التاريخ مسطحاً تماماً ، دالاً بلا مدلول أو إجراءات بلا معنى ، أو معنى بلا إجراءات ، صيرورة كاملة يفرض جرينبرج داخلها مطلقاته المكتفية بذاتها كالسيادة اليهودية التي لا تقبل الحوار ، فهي دال بلا مدلول أو دال يتجاوز كل الدوال .

ريتشارد روبنشتاين (١٩٢٤-)

Richard Rubinstien

أحد مفكري لاهوت موت الإله . كان يدرس في كلية الاتحاد العبراني ليصبح حاخاماً إصلاحياً ، ولكنه حينما سمع عن الإبادة النازية ضد يهود أوربا وجد أن موقف اليهودية الإصلاحية المعادي للصهيونية موقف خاطئ تماماً ، فرُسِّم حاخاماً محافظاً عام ١٩٥٢ في كلية اللاهوت اليهودية . وحصل روبنشتاين على الدكتوراه عام ١٩٦٠ حيث كانت رسالته عن الوجدان الديني تحليلاً نفسياً للأجاداه يوضح فيها مخاوف حاخامات اليهود من إشكالية العجز اليهودي بسبب انعدام السلطة والسيادة بعد هدم الهيكل .

صاغ روبنشتاين مساهمته في لاهوت موت الإله في كتابه **أوشفيتس** (١٩٦٦) الذي يطرح فيه السؤال التالي : إذا كان إله التاريخ موجوداً ، فكيف يستطيع المرء إذن أن يفسر إبادة ستة ملايين من شعبه المختار ؟ ويرفض روبنشتاين الفكرة التي يذهب إليها بعض اليهود الأرثوذكس القائلة بأن الشعب هو أداة الإله ، ومن ثم فإن إبادته ذات مغزى إلهي ، كما أنها قد تكون عقاباً للشعب على انحرافه عن الشريعة والوصايا والنواهي .

ولتفسير واقعة الإبادة ، يستخدم روبنشتاين نموذجين تفسيريين : أحدهما يَغلب عليه الطابع الديني الحلولي ، والآخر علمي تاريخي بوجه عام . ولنبدأ بالنموذج الديني الحلولي . يرى روبنشتاين أن الإله أوهم الشعب اليهودي أنه شعب مختار ، وهو ما ساهم في استسلام اليهود للأحداث من حولهم ، وولَّد في نفوسهم اليقين بأن الإله سيحفظهم وسط الدمار . بل إن العذاب والشتات ، حسب هذا التصور ، هي علامات الاختيار ، الأمر الذي زاد سلبية اليهود فنسوا المقاومة . إذ كانت آخر مرة قاوم فيها اليهود هي فترة التمرد الحشموني . وقد هُزم اليهود وأصبح الفريسيون (الذين اختارهم الرومان) قادة اليهود رغم أنهم من دعاة الاستسلام ، وأصبح العجز وعدم المشاركة في السلطة سمة أساسية لليهودية الحاخامية . لقد بدأت حالة الدياسبورا (أي وجود اليهود في المنفى) بالهزيمة العسكرية واستمرت لأن اليهود طوروا ثقافة الاستسلام والخضوع واستوعبوها وعاشوا داخل نطاقها ، أي أن سر استمرارهم يكمن في خضوعهم وخنوعهم . وظهرت شخصية الوسيط (شتدلان) الذي يقوم بالتوسط لدى الحاكم باسم اليهود ويقدم له الالتماسات ويطلب منه استخدام الشفقة مع اليهود ويعطيه الرشاوى نيابة عن اليهود ويقوم بجمع الضرائب نيابة عنه . واستمرت هذه التقاليد حتى العصر الحديث في المجالس اليهودية في أوربا التي كانت تقوم بدور الوسيط بين الجماعات اليهودية والسلطات النازية إبان الحرب العالمية الثانية . وقد تعاونت هذه المجالس مع النازيين ونفذت أوامرهم وتولت قيادة الجماعات اليهودية بما يكفل تعاونها مع الجلادين ، ومن ذلك إخلاء اليهود وترحيلهم إلى معسكرات الاعتقال . وكان تنظيم اليهود عنصراً أساسياً في مَنْع المقاومة المسلحة ، وكل ما فعله النازيون هو استخدام القيادة الموجودة بالفعل . وكان خضوع اليهود رد فعل آلياً ، فيما عدا حوادث مقاومة متفرقة أهمها انتفاضة جيتو وارسو عام ١٩٤٣ ، ولكن هذه الحوادث تمثل الاستثناء ، إذ لم يقاوم معظم اليهود الذين اعتادوا الخضوع .

هذا هو التفسير الديني عند روبنشتاين . أما التفسير التاريخي الزمني ، فيذهب إلى أن الإله خلق آدم ليحكم الطبيعة ، ولكن التاريخ الإنساني الذي بدأ بآدم تزايد فيه الترشيد البيروقراطي ، وهو اتجاه يصل إلى ذروته مع انتصار التكنولوجيا النازية التي تنزع السحر عن الطبيعة ، ومع هيمنة البيروقراطية النازية التي تحيِّد العواطف

الإنسانية ، أي أن الطبيعة والإنسان يصبحان مادة محضة وهو ما يعني موت الإله الذي يحرك الطبيعة والتاريخ يمنحهما المعنى . ويتم هذا في وقت توجد فيه قطاعات كبيرة من السكان لا فائدة من وجودها . ومن ثم ، فإن النازية تُعدُّ مَعْلَماً أساسياً في الحضارة الغربية ، إذ يصبح بمقدور الدولة إبادة الملايين بشكل منظم . ومن هذا العرض لفكر روبنشتاين ، نجد أن ما سقط ليس الفكر الديني وحسب وإنما الفكر العلماني أيضاً ، ولذا لا يوجد سوى فراغ وعدم، وعالم لا دلالة له ولا معنى ولا مركز ، كله غياب بلا حضور، كله سطح بلا تجاوز أو مُثُل .

ويطرح روبنشتاين فكرة الإله باعتبار أنه العدم المقدَّس ؛ الأم آكلة لحم البشر التي تلد البشر لتلتهمهم . والتاريخ الإنساني دورات متكررة ، لا بَعْث فيه ولا آخرة ، فالحياة تقع بين قوسي النسيان ، وما الماشيَّح سوى الموت ، وذروة التاريخ الإنساني العبثي هي انتصار التكنولوجيا والبيروقراطية النازية .

وفي قمة عجزه وإحساسه بغياب الإله يعود روبنشتاين للعقيدة الإلهية ، لا باعتبارها عقيدة دينية وإنما باعتبارها الطريقة الخاصة التي يواجه بها اليهود الأسئلة النهائية للحياة بكل أزماتها . فاليهودية هنا ليست نسقاً دينياً ، وإنما هي تركيبة فكرية (أسطورية) ذات فاعلية نفسية تُمكِّن اليهود من عملية المواجهة هذه .

وتشكل اليهودية الجديدة عودة للطبيعة وللإيقاعات الكونية للوجود الطبيعي . ولذا يدعو روبنشتاين اليهودي أن يعود إلى أولويات الطبيعة . ومن ثم يصبح معنى المشيحانية الحقيقي هو «إعلان نهاية التاريخ والعودة للطبيعة ولدورات الطبيعة المتكررة» . والخلاص النهائي لا يكون بغزو الطبيعة من خلال التاريخ وإنما غزو التاريخ من خلال الطبيعة والعودة إلى الأصول الكونية ، وعلى الإنسان أن يُعيد اكتشاف قداسة حياته الجسدية ويرفض تماماً محاولة تجاوزها : فيجب عليه أن يستسلم لجسمانيته ويتمتع بها . والصهيونية والعودة للتربة هي بشائر عودة اليهودي الذي فصله اللاهوت اليهودي عن الأرض والطبيعة . والصهيونية بهذا المعنى تشير إلى تحرير اليهودي نهائياً من سلبية التاريخ وعودته إلى حيوية التجدد الذاتي من خلال الطبيعة .

ومن ثم ، فيجب التأكيد على ما يُسمَّى طقوس الانتقال (من مرحلة عمرية إلى مرحلة أخرى) ، ويجب الاحتفال بها مع الاحتفاظ بأصالتها الطبيعية والكونية وقدمها . ويجب أن تتناقل الأجيال التراث اليهودي دون تغيير أو تبديل ، بل يجب تأكيد الجوانب القربانية في اليهودية على حساب الجوانب العقيدية (يسميها روبنشتاين «البنيوية») لأن القرابين (حتى لو كانت شكلية أو اسمية أو لفظية) تُوجِّه عدوانية الشعب وتقلل من إحساسه بالذنب . وهذه عودة كاملة للحلولية الوثنية القديمة . ويُعَدُّ هذا أهم تعبير عن الحلولية بدون إله حيث يقوم الإنسان بكل الشعائر بهدف العلاج النفسي (ثيرابي therapy) ، وبهذا يتحول المعالج النفسي إلى كاهن عبادة جديدة يحل فيها محل الإله الذي توحَّد بالإنسان ومات . وإذا كان الأمر كذلك ، فليس من الغريب أن تكون الصهيونية أنقى تعبير عن العقيدة اليهودية ، داخل هذه المنظومة ، ومن ثم فإن تأييدها هو جوهر الحل الذي يقدمه روبنشتاين .

نجح روبنشتاين في أن يقرن الصهيونية بالعقيدة اليهودية ، بل وفي أن يعود باليهودية إلى العبادة القربانية المركزية الوثنية . كما جعل الشعائر الدينية وسيلة للتفريغ النفسي بدلاً من أن تكون حركات جسمانية يقوم بها المرء طاعةً للإله وأملاً في أن يُدخل على حياته قدراً من القداسة يساعده على كبح جماحها وتنظيم نفسه . ورغم تطرُّف أطروحة روبنشتاين ، فإنها تعبِّر عن شيء جوهري في النسق اليهودي ، خصوصاً اليهودية المحافظة التي ترى اليهودية تعبيراً عن الشعب العضوي اليهودي .

ونشر روبنشتاين كتاباً آخر عام ١٩٧٥ بعنوان **مكر التاريخ** بدأ ينظر فيه إلى الإبادة باعتبارها مجرد برامج تدار بطريقة بيروقراطية ترشيدية تهدف إلى التخلص من الفائض السكاني الناجم عن الانفجار السكاني في العالم ، ويرى روبنشتاين أن يهود العالم محكوم عليهم بالاختفاء شاءوا أم أبوا .

إميل فاكنهايم (١٩١٦-)

Emil Fackenheim

مفكر ديني يهودي من كندا ، وأحد دعاة لاهوت موت الإله . وُلد في ألمانيا ، وتم ترسيمه حاخاماً فيها عام ١٩٣٩ ، ثم هاجر إلى كندا حيث درس الفلسفة في جامعة تورنتو وحصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٤٥ ، وعمل أستاذاً فيها ، ثم هاجر إلى إسرائيل عام ١٩٨٣ حيث يعمل أستاذاً للفلسفة في الجامعة العبرية .

بدأ فاكنهايم حياته الفكرية الدينية بالتركيز على الوجود الإنساني باعتباره النقطة التي تؤدي إلى الإله ، حيث ينظر الإنسان في ذاته وينتظر الكشف الإلهي (وهذه صيغة حلولية مخففة ، فرغم أن الإله داخل الإنسان إلا أنه متجاوز له) . ويميِّز فاكنهايم بين الفلسفة العلمانية والعقيدة الدينية ، فالفلسفة العلمانية تتعامل مع ما هو واضح ومحدد وقابل للتفسير ، أما العقيدة الدينية فتتعامل مع

النهائي ، ومع ما لا يمكن الإفصاح عنه : الإله . وقد يتصور المرء ، انطلاقاً من هذه الأطروحات ، أن فلسفة فاكنهايم اكتسبت مركزاً متجاوزاً للحركة التاريخية والمادة الطبيعية ، ولكننا نجد أن النزعة الحلولية عميقة متجذرة ، ولهذا لا يتجاوز الإله الإنسان وإنما يحل فيه تماماً وتصبح العلاقة بين الخالق والمخلوق حوارية . وفي النهاية ، فإن علاقة الشعب اليهودي بالإله تشكل مركز علاقة الإله بالبشر .

والتاريخ اليهودي الذي يجسد الهوية اليهودية هو المجال الدنيوي الزمني الذي يفصح فيه الخالق عن نفسه . فالتاريخ اليهودي تجسيد لكل من الإرادة (الهوية) اليهودية والإرادة الإلهية ، وهذا الترادف كامن في الخطاب الحلولي .

ولهذا ، نجد أن الهوية اليهودية هي حجر الزاوية في الفكر الديني عند فاكنهايم ، فهو ينطلق من رفض ميراث عصر الاستنارة والإعتاق ، وكذلك من رفض فلسفة إسبينوزا ، فهذه الفلسفات طلبت من اليهودي أن يصبح إنساناً بشكل عام ، وأن يطرح عن كاهله يهوديته ويكتسب هوية جديدة تتفق مع معايير الحضارة الغربية الحديثة . ولكن هذه الحضارة وفلسفتها العلمانية أثبتت فشلها ، ففي أحضانها نشأت النازية وتمت الإبادة ، وقد وقف اليهود عاجزين تماماً بسبب عدم المشاركة في السلطة وانعدام السيادة ، ولهذا فقدت الحضارة الغربية العلمانية مشروعيتها ولم يَعُد بوسعها أن تطلب من اليهود شيئاً . ومن هنا يرفض فاكنهايم اليهودية الإصلاحية أيضاً التي تحاول أن تعيد صياغة اليهودية بما يتفق مع فكر الاستنارة .

وقد يتصور المرء أن فاكنهايم على استعداد لتَقبُّل الفكر الصوفي الحلولي اليهودي الذي يدافع عن تَفرُّد الهوية اليهودية باعتبارها شيئاً مقدساً . ولكننا سنكتشف أنه يرفض مفكراً مثل روزنزفايج الذي دعا اليهود إلى أن يصبحوا كياناً فريداً موجوداً خارج التاريخ لا علاقة له بحقائق السلطة والقوة السياسية . وهو يرفض هذا للسبب نفسه الذي من أجله رفض البديل الغربي ، ذلك أنه يؤدي إلى العجز بسبب عدم المشاركة في السلطة .

وانطلاقاً من هذه الأطروحات الحلولية الأساسية يقدم فاكنهايم فلسفته الدينية . فالإله يعبِّر عن نفسه في التاريخ اليهودي من خلال أحداث مهمة ودالة ، مثل : الخروج من مصر ونزول التوراة في سيناء ، وسقوط الهيكل . وهذه الأحداث هي ، في الواقع ، أحداث فريدة تبدأ عصوراً جديدة وتغيِّر مسار التاريخ الذي لا يُفهَم، منذ وقوع هذه الأحداث ، إلا من خلالها ، وهي تلقي على عاتق اليهود والبشر جميعاً واجبات جديدة . وهذه الحوادث هي التي تميِّز بين الفترات الأصيلة التي تعبِّر عن الجوهر اليهودي والهوية اليهودية وبين الفترات غير الأصيلة التي ينحرف فيها اليهودي عن جوهره .

ويرى فاكنهايم أن الإبادة النازية من أهم هذه الأحداث ، فهي تحطيم للاستمرار ولأية علاقة بالماضي ، وهي النقطة التي انقطعت فيها العلاقة بين الإله والبشر وثبت فيها عجز اليهود الكامل .

إن شكل استجابة اليهود للأحداث يجعل منهم إما يهوداً حقيقيين أو يهوداً زائفين . فاليهودي الأصيل الحقيقي هو الذي يدرك مغزى الحدث ، فإذا كانت الأيديولوجيا النازية هي حيز العدم حيث يُفرَض على الضحية أن ينظر في هوة فارغة تماماً من المعنى ومجردة من أي أمل ، وإذا كانت الإبادة هي فناء الشعب اليهودي ، فإن الاستجابة الحقة هي إدراك هذه الحقيقة ، وهي التي تلقي على عاتق المدرك الوعي بما يسميه فاكنهايم «الأمر الإلهي الجديد» : الأمر أو الوصية (متسفاه) رقم ٦١٤ ، وهي «عام يسرائيل حي» ، أي «شعب إسرائيل حي (باق)» . وبوسع اليهودي الحقيقي أن يتجاهل الأوامر والنواهي السابقة كافة ، ولكن لا يمكنه تجاهل هذه الوصية على وجه التحديد ، فبعد الإبادة تغيَّر كل شيء .

ولكن كيف يحقق اليهود البقاء ؟ يكتشف اليهود حيزاً داخلياً يمكنهم التقهقر إليه ، حيث يمكنهم أن يدركوا معنى النازية باعتبارها محاولة القضاء على الحياة والهوية اليهودية والعقل الإنساني (ولنُلاحظ هنا الترادف بين «اليهودي» و«الإنساني») . وهم ، هناك في هذا الحيز ، يشعرون بمقدرة على المقاومة ، وهي مقدرة من الإله : إله التاريخ اليهودي . ومقدرة اليهود على المقاومة تعني أن التاريخ اليهودي يستمر ، حتى أثناء الإبادة ، من خلال أفعال المقاومة التي تقوم مقام المتسفاه ، أي تنفيذ الأوامر والنواهي الكبرى التي كانت تُقرِّب المسافة بين اليهودي والإله حتى يتم التوحد الكامل بينهما وينصلح الخلل الكوني (تيقون) . وانطلاقاً من هذا ، يصبح واجب اليهود الديني الأساسي هو المقاومة والبقاء ، وإلا أصبح النصر من نصيب هتلر . وهذا ما يُطلَق عليه أيضاً «لاهوت البقاء» ، فالبقاء هو التيقون .

ولكن هل للبقاء مضمون أخلاقي وإنساني ؟ تتضح الإجابة على هذا السؤال في تعريف فاكنهايم لأهم آليات إصلاح الخلل الكوني أو الدولة الصهيونية التي هاجر إليها مائة ألف ممن بقوا بعد الإبادة . فإنشاء الدولة الصهيونية لا يقل أهمية عن حادثة الإبادة ، والإيمان بالدولة الصهيونية يصبح أيضاً معياراً للتفرقة بين اليهودي الحقيقي واليهودي الزائف ، فإسرائيل مطلق جديد ، وهي أيضاً المكان الوحيد الذي يستطيع اليهود فيه أن يعبِّروا عن هويتهم اليهودية . وهي تحل مشكلة العجز اليهودي الذي سبَّب هذا الانقطاع

بين الإله والجنس البشري ، وتسمح لليهود بالمشاركة مرة أخرى في العملية التاريخية وبأن يصبحوا أصحاب سلطة وسيادة . وحينما يهاجم المصريون تل أبيب بعد إعلان استقلال إسرائيل ، فإن سكان كيبوتس ياد موردخاي هم الذين يقومون بالدفاع عنها ، وهو كيبوتس يتصب فيه تمثال لأحد قادة ثوار جيتو وارسو . ويقول فاكنهايم إنه رأي صورة لأحد يهود أوربا يلبس شال الصلاة (طاليت) وهو ينحني أمام سنكي جندي نازي وبجوارها صورة لجندي إسرائيلي يرتدي الطاليت أمام حائط المبكى . وهذا هو الإصلاح (تيقون) بعينه ، الذي سيستمر ما دام أحد الباقين أحياء بعد أوشفيتس يستيقظ يومياً في الفجر ليصلي عند حائط المبكى ثم يعود للكيبوتس ليؤدي عمله . والصلوات التي تقيمها دار الحاخامية الكبرى في إسرائيل هي التي ستضع الدولة الصهيونية على بداية فجر الخلاص .

أما خارج إسرائيل ، فيتلخص التيقون فيما يلي :

١ ـ الإصرار على احتكار اليهود ، واليهود وحدهم ، للإبادة النازية ، فهم وحدهم الضحية .

٢ ـ تأييد دولة إسرائيل بلا شروط ، والصعود للدولة هو ضرب من ضروب الندم ، والإقامة فيها مشاركة في عملية إصلاح الخلل الكوني .

ولا يوجد جديد البتة في فكر فاكنهايم ، فهو مجرد تحديث لكل أفكار الحلولية اليهودية ، وخصوصاً القبَّالاه اللوريانية التي تصل إلى درجة من الحلولية تجعل الشعب اليهودي امتداداً للخالق في التاريخ ، وتجعل القيم الأخلاقية غير ذات موضوع . ومن ثم يصبح المطلق الديني الأوحد هو بقاء اليهود واستمرار دولة إسرائيل ، والفعل الأخلاقي السليم الوحيد هو تأييدها دون تساؤل ، حتى لو أتت بكل الأفعال الإرهابية الممكنة .

ومن أهم أعمال فاكنهايم : **البُعد الديني في فكر هيجل** (١٩٦٨) ، و **وجود الإله في التاريخ** (١٩٧٠) ، و **العودة اليهودية إلى التاريخ** (١٩٧٨) ، و **الكتاب المقدَّس اليهودي بعد الإبادة** (١٩٩١) .

إليعازر بركوفيتس (١٩٠٨-١٩٩٢)

Eliezer Berkovits

حاخام ومفكر ديني يهودي . وُلد في ترانسلفانيا ، وعمل حاخاماً في برلين ، ثم في ليدز (إنجلترا) . وبعد ذلك ، سافر إلى أستراليا ومنها إلى الولايات المتحدة حيث استقر فيها وقام بالتدريس في كلية لاهوتية يهودية في شيكاغو .

تناولت دراسته الأولى **نحو يهودية تاريخية** (١٩٤٣) التوتر بين الصهيونية والتقاليد اليهودية الدينية ، ثم كتب بعد ذلك عدة دراسات من بينها **الإله والإنسان والتاريخ** (١٩٥٩) ، و **نقد يهودي لفلسفة مارتن بوبر** (١٩٦٢) و**اليهودية : حفرية أم خميرة** (١٩٦٥) ، وهذا الكتاب الأخير رد على المؤرخ أرنولد توينبي .

وقد تناولت أعماله الأخيرة الدلالة الدينية للإبادة النازية ليهود الغرب ، ومن ثم فهو ينتمي إلى ما يُسمَّى «لاهوت الإبادة» . ويرى بركوفيتس أن استجابة اليهود للإبادة لابد أن تشبه استجابة أيوب لما لحق به من محن ، فيجب أن يؤمن اليهود بالإله لأن أيوب آمن به . فالإله كان مختبئاً في أوشفيتس ، ولكنه كان موجوداً رغم اختبائه ؛ وهو إله مختبئ يرسل الخلاص للناس ، وفي هوة العدم يظل مخلصاً لإسرائيل .

وتظهر أفكاره هذه في كتاباته الأخيرة : **الإيمان بعد الإبادة النازية** (١٩٧٣) ، و **الأزمة والإيمان** (١٩٧٦) ، و **مع الإله في جهنم** (١٩٧٩) .

آرثر كوهين (١٩٢٨-١٩٨٧)

Arthur Cohen

روائي أمريكي وناشر ومؤرخ للفنون وعالم لاهوت يهودي . وُلد في نيويورك ، وتَلَقَّى دراسته العليا في مدرسة اللاهوت العليا في نيويورك ، وقد أسس نونداي برس عام ١٩٥١ وميريديان بوكس عام ١٩٥٦ . كما أسس عام ١٩٦٠ دار نشر اكس ليبريس وعمل فيها محرراً حتى عام ١٩٧٤ . وكلها من دور النشر المهمة في الولايات المتحدة . وكتب كوهين العديد من المقالات عن موضوعات يهودية شتى ، كما كتب عدة روايات في موضوعات يهودية وغير يهودية . وأهم دراساته هي **اليهودي الطبيعي واليهودي غير الطبيعي الخرافي** (عام ١٩٦٢) ويذهب فيها إلى أن الفكر والوجدان اليهودي (منذ عصر التنوير) ينظران لليهودي باعتباره ظاهرة إنسانية طبيعية عادية مرتبطة تماماً باهتماماته الاجتماعية والسياسية المباشرة ، وقد أدَّى هذا الموقف إلى إهمال ما يسميه كوهين «اليهودي الخرافي» ، أي يهودي الميثاق الواعي بمسئوليته عن ضرورة تأكيد تجاوز الطبيعة والمادة . ومهمة اللاهوت اليهودي هي تأكيد اليهودي الخرافي ، أي اليهودي الذي يتجاوز الطبيعة والتاريخ ، وكأنه لا علاقة له بهذه الدنيا أو هذا الزمان . ويرى كوهين أن اليهودية مهددة بالفناء إن لم تتم هذه العملية . والأمر الذي زاد من الحاجة إلى ذلك الإبادة النازية لليهود حيث قوَّضت كثيراً من دعائم الإيمان لدى اليهود ، وهذا الموضوع

يجد صداه في روايات كوهين . ونجب ملاحظة أن العنصر المتجاوز للطبيعة والتاريخ ليس الإله بمفرده وإنما الإله واليهودي الخرافي ، أي أن نسق كوهين نسق حلولي متطرف يضع اليهود وحدهم داخل دائرة القداسة . بل إن كوهين يجعل اليهودي مركز الحلول الإلهي ، وهو ما يشي بأثر اللاهوت المسيحي ، مع الفارق ، فبينما حصر اللاهوت المسيحي الحلول في المسيح الذي يُصلَب ويقوم (ومن ثم فهو حلول مؤقت ومحدَّد) فإن كوهين يجعل اليهودي (ومن ثم كل اليهود) موضع الحلول .

ويُطالب كوهين بإعادة تأسيس اليهودية وهي مهمة صعبة بسبب الإبادة النازية ولكن عدم القيام بهذه المهمة يعني ترك اليهودية تسقط في قبضة الإيمان الأعمى والمشاعر البدائية . ويبيِّن كوهين في كتابه **الشيء الرهيب : تفسير لاهوتي للهولوكوست** أن الاحتماء بيهودية بدائية يجعل من المستحيل استعادة اليهودية كدين متجاوز للطبيعة .

وليس هناك جديد في آراء كوهين ، فهي إعادة إنتاج لكثير من أفكار القبَّالاه اللوريانية ، ولكن خطورتها تنبع من أنها ، بتأكيدها خرافية اليهود وعجائبيتهم ، تنكر إنسانيتهم ، إذ أن الاتجاه نحو تقديس اليهود يعني إنكار أنهم بشر ، وهذا ما يفعله المعادون لليهود . وهذا مَثَل آخر لتلاقي الفكر النازي والفكر الصهيوني ، فكلاهما فكر مشيحاني علماني .

وتوجد أصداء لهذه الموضوعات في روايات كوهين : **سنوات النجار** (١٩٦٧) ، و **في أيام سيمون ستيرن** (١٩٧٣) ، و **بطل في أيامه** (١٩٧٦) ، و **سرقات** (١٩٨٠) ، و **امرأة عظيمة** (١٩٨٣) . وحرَّر آرثر كوهين مع بول منديس فور كتاباً بعنوان **الفكر الديني اليهودي المعاصر** (١٩٨٧) .

لاهوت التحرير

Liberation Theology

«لاهوت التحرير» حركة دينية في العالم الغربي المسيحي ظهرت في صفوف المسيحيين الكاثوليك والبروتستانت ابتداءً من أوائل الستينيات ، لكن أطروحاتها تحدَّدت وتبلورت في منتصف السبعينيات . وتَصدُر الحركة عن الإيمان بأن العقيدة الدينية هي في جوهرها رؤية ثورية للواقع ترى أن الإيمان الديني لا يعبِّر عن نفسه من خلال إقامة الشعائر الدينية وحسب ، وإنما أيضاً من خلال الدفاع عن قيم العدل والمساواة الاجتماعية وحقوق الأقليات والمضطهدين ضد الاحتكارات العالمية وقوى الرجعية والطغيان العالمي ، أي أنه موقف ديني يؤدي إلى تَبنِّي ما يُسمَّى «قيم التحرير» (ومن هنا التسمية) . ودعاة لاهوت التحرير يتمردون أيضاً على المؤسسات الدينية القائمة باعتبارها مؤسسات تم استيعابها في المؤسسات الحاكمة، سواء المحلية الرجعية أو العالمية الإمبريالية ، ولهذا أصبحت هذه المؤسسات ، من منظور دعاة لاهوت التحرير ، امتداداً للسلطة توظِّف الدين والشعائر الدينية في خدمة مؤسسات الطغيان والظلم .

وكما هو الحال دائماً ، تأثر الفكر الديني اليهودي بلاهوت التحرير المسيحي . وكما أدَّت حركة الإصلاح الديني إلى ظهور اليهودية الإصلاحية ، وكما أدَّت الحركة المعادية للاستنارة بتأكيدها روح الشعب وروح الأرض إلى ظهور اليهودية المحافظة ، وكما أدَّى ظهور موت الإله في المسيحية إلى ظهور مدرسة دينية مماثلة في اليهودية ، فإن ظهور لاهوت التحرير في صفوف المسيحيين كان له صداه في صفوف أعضاء الجماعات اليهودية . ولكن ، كما هو الحال دائماً ، نجد أن هناك مرحلة زمنية تفصل بين الصوت والصدى ، وأن لاهوت التحرير ظهر بين اليهود في الثمانينيات .

ولكن لاهوت التحرير اليهودي ذو خصوصية يهودية نابعة من وضعه الخاص . فلاهوت التحرير اليهودي هو تَمرُّد على لاهوت موت الإله في صيغته اليهودية . ولاهوت موت الإله - كما أسلفنا - هو في جوهره حلولية وثنية بدون إله (وحدة وجود مادية) ، وعودة إلى المطلقات القومية وإلى تقديس الذات القومية متمثلة في التاريخ القومي . لكن التاريخ القومي اليهودي هو تاريخ اليهود وحسب ؛ تاريخ يستبعد الآخرين ، أي أنه عودة إلى الانغلاق الوثني اليسرائيلي . ويدور تاريخ اليهود المقدَّس حول الأحداث التي تقع لليهود في التاريخ الزمني وحول الأفعال التي يأتون بها . ويرى دعاة لاهوت موت الإله أن أهم حدث هو الإبادة النازية وأن أهم فعل هو ظهور دولة إسرائيل . والإبادة ـ حسب لاهوت موت الإله ـ حدث مطلق في التاريخ ينهض دليلاً على موت الإله وغيابه ، ولكن هذا الشعب يدور حول نفسه ويصبح هو نفسه المطلق الوحيد ويؤسس دولة إسرائيل التي تنهض دليلاً على مقدرة هذا الشعب على البقاء وعلى مقدرته على التخلص من عجزه . ومن ثم ، فإن إسرائيل تصبح ـ بالنسبة لدعاة لاهوت موت الإله ـ القيمة المطلقة التي يصبح بقاؤها بأي ثمن هدفاً مطلقاً للشعب اليهودي .

وينطلق لاهوت التحرير من رفض هذه الحلولية الكمونية الوثنية ومن رفض إضفاء المطلقية على اليهود وتاريخهم . فالإبادة النازية حَدَث تاريخي مهم ولا شك ، ولكنها ليست البداية والنهاية في حياة اليهود ، كما أنها ليست النمط المتكرر في حياة اليهود في

العالم ، فقد حدثت تحولات جوهرية لليهود ، ومن ثم فلابد من التمييز بين أوضاع اليهود قبل الإبادة وبعدها . فيهود الدياسبورا يعيش معظمهم الآن في سلام في الولايات المتحدة ، وهي بلد لا تعرف تقاليد معاداة اليهود ولا تمارس تمييزاً ضدهم ، وقد حقق اليهود فيها قدراً عالياً من الحراك الاجتماعي والاندماج ، والمنفى لم يعد منفى . غير أن لاهوت موت الإله (في تصور دعاة لاهوت التحرير) يتجاهل هذه الحقائق ويضع اليهود داخل قالب جامد : دور الضحية الأزلية الذي يحتكر الاضطهاد لنفسه ، ولذا فإن لاهوت التحرير لا يذكِّر اليهود بأوضاعهم المتميِّزة في الوقت الحالي والتي تجعل الإبادة حديثاً مملاً معاداً لا علاقة له بالواقع ، وإنما يذكِّرهم أيضاً بضحايا الإبادة الآخرين ، بل ويذكِّرهم بضحاياهم ، أي الفلسطينيين (فتاريخ الفلسطينيين أصبح جزءاً من تاريخ اليهود) .

والشيء نفسه ينطبق على دولة إسرائيل ، فهي جماعة يهودية مهمة ، ولكنها ليست الجماعة اليهودية الوحيدة (المطلقة) ، ولا هي مركز الوجود اليهودي ولا سمة الوجود اليهودي الوحيدة . وهي ليست مضطهدة مهددة بالإبادة ، وإنما هي دولة مسلحة تحرك جيوشها لتضرب جيرانها وبعض سكانها ، أي أن وضع الدولة ، مثله مثل وضع يهود العالم ، قد تغيَّر . ولكن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد ، بل يذهب لاهوت التحرير إلى أن اليهود واليهودية فقدا براءتهما مع احتلال إسرائيل للضفة الغربية ، ومع اندلاع الانتفاضة التي أصبحت نقطة حاسمة في التاريخ اليهودي وفي تاريخ اللاهوت اليهودي . فلم تَعُد الدولة تعبيراً عن رغبة اليهود في التخلص من عجزهم وفي تأكيد إرادتهم ، وإنما أصبحت تعبيراً عن إرادة البطش والعنف . بل إن استمرار بقاء الدولة أصبح متوقفاً على موت الأطفال الفلسطينيين ، أي إبادتهم ! وإذا كان لاهوت موت الإله يُصر على أن الإجابة عن أي سؤال غير ممكنة إلا في حضور الأطفال اليهود المذبوحين ، فإن الانتفاضة تواجه الدولة اليهودية واليهود بالسؤال نفسه : إذا كان اليهود يتذكرون عذاب الإبادة وقسوتها ، فماذا عن عذاب الفلسطينيين ؟ لكل هذا لا يمكن الحديث عن مستقبل اليهود أو عن الهوية اليهودية إلا في ضوء هذا التحول التاريخي . وقد عرَّفت الإبادة اليهود بأنهم «من ذبحهم هتلر» ، لكن الانتفاضة تطرح أسئلة جديدة : إذا كان اليهود يَعْرفون من كانوا بعد أن حُفرت الإبادة في وجدانهم ، فهل يَعْرفون ماذا أصبحوا بعد أن قامت الانتفاضة وكَسَّرت الدولة الصهيونية عظام الأطفال ؟ إن من الطبيعي أن يتذكر اليهود أوشفيتس وتربلينكا ، ولكن عليهم أيضاً أن يتذكروا صابرا وشاتيلا .

هذا على مستوى قراءة التاريخ ، وعلى مستوى تعريف الهوية ، أما على المستوى الأخلاقي ، فإن الدولة لم تَعُد مطلقاً بعد فك المطلقات الحلولية الوثنية . فإذا كانت الإبادة حدثاً مهماً وليست مطلقاً ، فما المطلق إذن ؟ يؤكد لاهوت التحرير أن المطلق الوحيد هو القيم الأخلاقية التي وردت في التراث الديني اليهودي (الذي يعرِّفونه تعريفاً إنسانياً عالمياً) . ولذا ، فإن بقاء الدولة ليس أمراً كافياً ، والتخلص من العجز لا يَجُبّ التساؤلات الأخلاقية ، فمن يحصل على السيادة يمكنه أن يستخدمها في الخير أو البطش . وبالمثل ، فإن السيادة ليست ميزة خالصة وإنما لها مخاطرها . ومن ينجز معجزة البقاء يمكن أن يكون خيِّراً أو شريراً ، ومن يُكلَّف بالرسالة (الاختيار) يمكنه أن يخونها . ولذا ، يقرر لاهوت التحرير أن إسرائيل ليست فوق يهود العالم أو فوق ضمائرهم . ولذا فعليهم الالتزام بالقيم الأخلاقية وحدها ، وإذا تحركوا فعليهم أن يتحركوا لا لتأكيد أهمية إسرائيل والدفاع عن بقائها ، وإنما لتأكيد القيم الأخلاقية المطلقة . ولن يتم إصلاح الخلل الكوني (تيقون) من خلال الدولة وإنما من خلال الأفعال الأخلاقية الخيرة . ويجب على اليهود أن يقفوا لا ضد ذبح الأطفال اليهود على وجه الخصوص وإنما ضد ذبح أي أطفال ، وضمنهم الأطفال الفلسطينيون . ويجب على اليهود أن يلجأوا لكل شيء ، وضمن ذلك العصيان المدني ، لوضع القيم الأخلاقية المطلقة موضع التنفيذ .

ويُلاحَظ أن الإيقاع العام للفكر الديني اليهودي لا يزال كما كان منذ بدايته ، فقد كان هناك دائماً دعاة الوثنية أو القومية أو الحلولية (الكهنة أو الملوك) الذين يَصدُرون عن الطبقة الحلولية داخل التركيب الجيولوجي التراكمي اليهودي ، وكان هناك دعاة الأخلاق العالمية والشاملة (الأنبياء وبعض الحاخامات) الذين يدورون في نطاق الإطار التوحيدي . كما أن التوتر بين لاهوت موت الإله ولاهوت التحرير هو نفسه التوتر القديم بعد أن تصاعدت حدته بسبب تصاعد معدلات العلمنة وبعد أن أصبح الخطاب الوثني أكثر صَقْلاً وأكثر إلماماً بالخطاب الديني وأكثر امتلاكاً لناصيته . ويبدو أن حسم مثل هذا الصراع أمر صعب للغاية بسبب التركيب الجيولوجي لليهودية الذي يوفر لكل المتحاورين إمكانية أن يجدوا سوابق وشواهد تدعم وجهة نظرهم وتعطيهم شرعية دينية .

وقد تصاعدت حدة لاهوت التحرير مع تصاعد حدة الانتفاضة ، فالانتفاضة هي التي أثبتت أمام الجميع أن الدولة الصهيونية ليست مطلقاً وأن التاريخ اليهودي ليس مقدَّساً وأن أرض فلسطين ليست أرض ميعاد تنتظر سكانها (فهي ليست سوى أرض

مأهولة بسكانها الذين يحيون ويموتون ويحبون ويجاهدون) . ويُلاحَظ في الحوار اليهودي المسيحي ، أن المحاورين اليهود كانوا يصرون على ضرورة قبول الدولة اليهودية باعتبارها مطلقاً دينياً ، ثم أخذوا يتنازلون عن هذا المطلب . ومن أهم مفكري لاهوت التحرير آرثر واسكو ومارك إليس .

آرثر واسكو (١٩٣٣-)

Arthur Waskow

مفكر ديني أمريكي يهودي . وُلد في بلتيمور ، وعمل بعض الوقت كمساعد لأحد أعضاء الكونجرس الأمريكي ، ثم انخرط في الستينيات في حركة الحقوق المدنية وحركة السلام المعادية لحرب فيتنام . مر بتجربة دينية عميقة جعلته يرفض الأساس العلماني لاتجاهه السياسي ويتبنى اليهودية كعقيدة ورؤية للكون ، ولذا فهو يُعَدُّ من أهم العائدين (بعلي تشوبفاه) إلى العقيدة اليهودية . ولكنه بدلاً من الانغلاق عليها ، والسقوط في الحلولية الوثنية ، نادى بأن اليهودية الحاخامية دعوة لاكتشاف الذات ، وإلى المساهمة في بناء العالم حتى يصبح العالم مكاناً صالحاً لا لليهود وحسب وإنما لغير اليهود كذلك . وهو يرى أن الإبادة النازية وإسرائيل ليست حقائق نهائية ، وإنما هي حقائق تاريخية في مسيرة العقيدة اليهودية ، ومن ثم فإنه لا يُضفي على أيٍّ منها قيمة مطلقة ولا يجعل أياً منها المرجعية النهائية والوحيدة لفكره . أي أنه يرفض لاهوت موت الإله . ولذا ، فإنه ، حتى بعد أن أصبح من العائدين لدينهم ، لم يتخل عن مواقفه السياسية الرافضة للاستغلال والتفرقة العنصرية والحرب ، بل استمر فيها . وحاول واسكو اكتشاف عناصر داخل العقيدة اليهودية تدعم موقفه ، فاقترح إعادة بعث شعائر سنة اليوبيل (وهي السنة التي يتم فيها إعتاق العبيد وتوزيع الأراضي الزراعية) بعد أن تُعطى هذه الشعائر مضموناً عصرياً ، فعلى سبيل المثال ، يمكن أن يُعطَى الفقراء قروضاً دون فوائد .

وواسكو عضو في كثير من الجمعيات اليهودية التي تأخذ موقفاً غير صهيوني من إسرائيل ، فلا ترى أن إسرائيل مركز اليهود واليهودية ، وتعارض مفهوم تصفية الجماعات اليهودية ، وتطالب الدولة الصهيونية بالالتزام بالقيم الأخلاقية اليهودية . ومن هذه الجمعيات جماعة بريرا ، وجماعة الأجندة اليهودية الجديدة . ويمكن اعتبار واسكو من أهم دعاة لاهوت التحرر داخل العقيدة اليهودية . وله عدة مؤلفات من أهمها **وهذه الشرارات الإلهية** (١٩٨٣) ، ويساهم واسكو في تحرير مجلات يهودية مثل مجلة **تيقون** .

العائدون (بعلي تشوباه)

Baalei Teshuva

«العائدون» هو الترجمة العربية للمصطلح العبري «بعلي تشوّباه» . و«العائدون» اصطلاح يُطلَق على اليهود العلمانيين الذين تركوا تراثهم الديني وقيمه الأخلاقية بعض الوقت ولكنهم يعودون في نهاية الأمر إلى حظيرة الدين ، ومعظمهم من يهود الولايات المتحدة من سكان الضواحي أعضاء الطبقة الوسطى الذين رفضوا القيم البورجوازية لمجتمعهم وانضموا إلى الحركات الداعية لوقف الحرب في فيتنام كما انضموا إلى حركة الحقوق المدنية . وهم من المؤمنين بأن الحضارة الحديثة حضارة خالية من المعنى ، وأن الرفاهية التي تأتي بها لا تؤدي بالضرورة إلى السعادة . والطريق بالنسبة إلى هؤلاء ليس هو العبادات الجديدة ، وإنما العودة إلى العقيدة اليهودية وإعادة اكتشافها . وكثيرون منهم يرفضون الصهيونية باعتبارها حركة علمانية ، وهم في هذا يحذون حذو نيثان بيرنباوم المفكر الديني الأرثوذكسي .

وينضم بعض هؤلاء إلى معاهد دينية ، ويُعيدون صياغة حياتهم حسبما تتطلب الشريعة اليهودية ، ويتبنون القيم الأخلاقية التي يحض عليها دينهم . والواقع أن هذه الظاهرة نفسها توجد في إسرائيل كذلك ، وهي ظاهرة تعبِّر عن أزمة العلمانية في العالم . والمفكر اليهودي الأمريكي آرثر واسكو ، شأنه شأن كثير من الشباب اليهودي الذي اشترك في حركات التمرد اليسارية في الستينيات ، انخرط في صفوف الجماعات الداعية للاهوت التحرر وأصبح من العائدين .



١١
العبادات الجديدة

العبادات الجديدة في العالم الغربي ـ الماسونية : تاريخ وعقائد ـ الماسونية واليهودية وأعضاء الجماعات اليهودية ـ هرشفيلد ـ البهائية ـ الموحدانية ـ جماعة الحضارة الأخلاقية ـ أدلر ـ اليهودية المتمركزة حول الأنثى ـ فريدان ـ شاليه ـ يونغ ـ الشذوذ الجنسي ـ يهودية الطعام ـ ألعاب التوراة (توراه إيروبكس)

العبادات الجديدة في العالم الغربي
New Cults in the Western World

«العبادات الجديدة» حركات شبه دينية ، لها شعائر مركبة وتنظيم مغلق ، يرتدي أعضاؤها أحياناً أزياء خاصة مقصورة عليهم . وتزود هذه الحركة أعضاءها بالأمن من خلال عقيدة ثابتة بسيطة تفسر الكون والظواهر كافة ، حيث يتطلب الانتماء إلى هذه العقيدة الولاء الكامل . ومن أكثر الظواهر التي تشهد اليهودية المعاصرة ، إقبال أعضاء الجماعات اليهودية على هذه العبادات الجديدة ، وخصوصاً بعد أن تخلّى أتباع هذه العبادات عن شعائرها الغربية الشاذة وأصبح أسلوب حياتهم لا يختلف عن أسلوب حياة الإنسان العادي في المجتمعات التي يعيشون في كنفها . ومع أن عدد أعضاء الجماعة اليهودية لا يزيد بأي حال على ٣٪ من سكان الولايات المتحدة ، فإن من الملاحظ أن حوالي ٢٠ - ٥٠٪ من أعضاء مثل هذه الحركات من اليهود ، كما أن كثيراً من قياداتها منهم . ولا يختلف الوضع في أوربا الغربية عنه في الولايات المتحدة . ومن أهم هذه الجماعات في الولايات المتحدة الجماعة البوذية من طراز الزن (٥٠٪ من مجموع أتباعها في سان فرانسيسكو من اليهود) وجماعة هاري كريشنا الهندوكية (١٥٪ من جملة أتباع الجماعة في الولايات المتحدة من اليهود) ، وهناك أيضاً كنيسة التوحيد (يونيفيكشان تشيرش Unification Church) وجماعات الإمكانية الإنسانية مثل إست EST وينبوع الحياة . ويمكن أن نعتبر الماسونية والبهائية من هذه العبادات الجديدة . وقد عادت جماعات عبادة الشيطان للظهور مرة أخرى وانتظم في صفوفها كثير من أعضاء الجماعة اليهودية . كما نشطت جماعات تبشيرية مسيحية ذات ديباجات يهودية (جماعات «المسيحيون العبرانيون») تمارس نشاطها بين أعضاء الجماعة . ومن أهم هذه الجماعات ، جماعة «يهود من أجل المسيح» التي ترى أن بوسع اليهود أن يصبحوا مسيحيين ويهوداً في آن واحد ، بل إن مسيحيتهم إن هي إلا مسوِّغ ليهوديتهم . وهؤلاء المبشرون يجيدون استخدام الرموز اليهودية ، مثل : الخبز غير المخمر ، واللغة العبرية ، ونجمة داود ، وشمعدان المينوراه . وهم يشيرون إلى المسيح ومريم بأسمائهم العبرية («يهوشاوا» ، و«مريام») ، ويسمون المسيح «الماشيَّح» . كما يحاولون أن يضعوا مضموناً مسيحياً للرموز اليهودية ، ففي عيد الفصح ، على سبيل المثال ، نجد أرغفة خبز الفطير الثلاثة (مَتْسُوت) هي الثالوث المسيحي ، أما نصف الرغيف (أفيكومان) وعظمة الحمل فيرمزان للمسيح المصلوب ، والنبيذ هو دمه . وقد أضافوا إلى كل ذلك تأييد دولة إسرائيل تأييداً أعمى ، ولكنهم يضعون هذا التأييد في سياق مسيحي . ويبدو أن ثمة إقبالاً شديداً من جانب الشباب اليهودي على هذه الجماعات ، بل يُقال إن عدد الذين تنصروا من خلال هذه الجمعية يصل إلى ثلاثين ألف يهودي .

وقد وصل نشاط هذه العبادات إلى إسرائيل ذاتها ، فعبارة «تي إم TM» (اختصار لعبارة «ترانسندنتال مديتيشان Transcendental Meditation» أي التأمل المتسامي) قد جذبت آلاف الإسرائيليين ، ولها مستوطنة تُسمَّى «ميجداليم» . كما أن جماعة هاري كرشنا تنوي تشييد كيبوتس .

ويبدو أن إقبال اليهود والإسرائيليين على العبادات الجديدة هو تعبير عن ضعف العقيدة اليهودية وعن تزايد الإحساس بالاغتراب نتيجة لتزايد معدلات الترشيد والعلمنة وتآكُل الأسرة كمؤسسة وسيطة . والعبادات الجديدة تحل محل العقيدة والأسرة في الوقت نفسه ، وتقوم بعملية الوساطة العقائدية والفعلية بين الفرد والمجتمع . كما يُقبل كثير من الشباب اليهودي على العبادات الجديدة ، لتأكيدها الزهد ، تعبيراً عن احتجاجهم على النجاح المادي الذي حققه أهاليهم باندماجهم في الحضارة البورجوازية الغربية ، فهو في تصورهم نجاح خال من المعنى والمضمون الخلقي ، ويؤدي إلى الاستغراق في الحياة الحسية والاستهلاك اللامتناهي .

ولعل تركيب اليهودية الجيولوجي التراكمي من أهم أسباب إقبال الشباب اليهودي على العبادات الجديدة ، فاليهودية تحوي طبقات مختلفة متناقضة متجاورة متعايشة لا تفاعُل بينها في حين تتسم العبادات الجديدة بأنها قاطعة محددة والانتماء إليها يعني اكتساب هوية واضحة . كما أن اليهودي الذي ينضم إلى عبادة جديدة يمكنه أن يجد سوابق لها في تراثه اليهودي (فعبادة الشيطان ليست أمراً بعيداً عن التضحية لعزازيل) . ومعظم هذه العبادات تعبِّر عن الحلولية إما من خلال وحدة الوجود المادية أو الحلولية بدون إله ، أي الحلولية التي يتوحد فيها الخالق تماماً مع الوجود المادي ، فيصبح المطلق كامناً في المادة أو في ذات الإنسان . واليهودية باعتبارها تركيباً جيولوجياً تحوي طبقة حلولية قوية تولِّد لدى أعضاء الجماعات اليهودية قابلية للانخراط في صفوف هذه العبادات الجديدة . ومن أهم الأمور الأخرى التي ساعدت على انضمام اليهود إلى هذه الجماعات ، بخاصة جماعات المسيحيين العبرانيين ، أنها لا تطلب من اليهودي أن يتخلى عن انتمائه أو هويته الدينية الإثنية ، الأمر الذي يجعل الأمر سهلاً على الكثير من اليهود . ومن الحقائق الإحصائية التي قد تكون لها علاقة بموضوع العبادات الجديدة أن نسبة أعضاء الجماعات اليهودية في الجمعيات السرية في العالم هو نحو ٣٠٪ .

ونحن نضع الماسونية والبهائية والموحدانية واليهودية المتمركزة حول الأنثى (بل واليهودية التجديدية وحركة الحضارة الأخلاقية) ضمن هذه العبادات الجديدة (رغم أن المراجع التي اطلّعنا عليها لا تُصنِّفها مثل هذا التصنيف) .

الماسونيـــة : تاريـــخ وعقائـــد

Freemasonery :History and Doctrines

كلمة «ماسونية» من الكلمة الإنجليزية «ميسون Mason» التي تُكتَب في العربية خطأً «ماسون» . لكن الخطأ شاع ، ولا مفر لنا من اعتماده ومسايرته . وهي تعني «البنَّاء» ، ثم تضاف كلمة «فري free» بمعنى «حر» وتعني «البنَّاء الحر» . وقد اختلف المفسرون في تعريف أصل كلمة «حر» ، فيُقال إنها نسبة إلى «فري ستون Free Stone» ، أي «الحجر السلس» . وقد ورد في مخطوطات العصور الوسطى اللاتينية عبارة «إسكالبتور لابيدوم ليبيروروم Sculptor Lapidum Liberorum» ، أي «ناحت الأحجار الحرة» ، ولكن بعض التفسيرات تذهب إلى أن كلمة «حر» تجيء لتمييز الـ «فري ميسون» ، أي «البناء الماهر» ، في مقابل الـ «راف أور رو ميسون rough or raw mason» ، أي «البنَّاء الخام غير المدرَّب» . وثمة رأي ثالث يذهب إلى أن الـ «فري ميسون» ، عضو في نقابة البنائين ، ولذا فهو «حر» أي أن من حقه ممارسة مهنته في البلدية التي يتبعها بعد أن يكون قد تَلقَّى التدريب اللازم . ويذهب رأي رابع إلى أن كلمة «فري» إنما تشير إلى أن البنائين لم يكونوا مُلزَمين بالاستقرار في إقطاعية أو بلدية بعينها والارتباط بها ، وإنما كانوا أحراراً في الانتقال من مكان إلى آخر داخل المجتمع الإقطاعي . وإن صَدَق هذا التفسير ، فهذا يعني أن البنائين كانوا مثل أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب الذين كانوا يُعَدون عنصراً حراً يمكنه الانتقال من بلد إلى آخر . وقد كان هذا حقاً مقصوراً على الفرسان ورجال الدين .

وتُعرَّف الماسونية بأنها مجموعة من التعاليم الأخلاقية والمنظمات الأخوية السرية التي تمارس هذه التعاليم ، والتي تضم البنائين الأحرار والبنَّائين المقبولين أو المنتسبين ، أي الأعضاء الذين لا يمارسون حرفة البناء .

وبعد أن أوردنا هذا التعريف الشائع ، فإننا سنكتشف في التوّ أنه تعريف غير كاف البتة ، إذ أن الماسونية ، مثل اليهودية ، تركيب تراكمي جيولوجي مر بمراحل عدة فأصبحت عناصره تشبه الطبقات الجيولوجية التي تتراكم الواحدة فوق الأخرى دون أي تفاعل أو تمازج . ورغم اختلاف الطبقات ، فإنها تظل متعايشة ومتجاورة ومتزامنة داخل الإطار نفسه . ومن ثم ، فرغم أنه توجد كلمة واحدة أو دال واحد هو «الماسونية» يشير إلى ظاهرة واحدة ، فإن الماسونية في واقع الأمر عدة أنساق فكرية وتنظيمية مختلفة تماماً لا تنتظمها وحدة . ومشكلة التعريف ، أي تعريف ، أنه يستخدم صيغة المفرد ، ومن ثم يفترض وحدة وتجانساً حيث لا وحدة ولا تجانس ، ويفترض وجود مدلول واحد للدال .

وقد قيل في محاولة التوصل إلى حد أدنى مشترك بين كل الماسونيات إنه توجد ثلاثة عناصر تميِّزها . أول هذه العناصر هو وجود مراتب ثلاث أساسية يُقال لها درجات ، وهي :

أ) التلميذ أو الصبي (الملتحق أو المتدرب) .

ب) زميل المهنة أو الصنعة (الرفيق) .

جـ) البنّاء الأعظم أو الأستاذ (بمعنى أستاذ في الصنعة) .

وقد أضيفت إلى هذه الدرجات الثلاث الأساسية درجة رابعة أخرى أساسية هي «القوس المقدَّس الأعظم» ، ثم هناك ما يقرب من ثلاث وثلاثين درجة أخرى في بعض المحافل (كما هو الحال في الطقس الاسكتلندي القديم) ، ويصل أحياناً عدد الدرجات إلى بضعة آلاف .

وما دمنا نتحدث عن أشكال التنظيم فيمكن أن نضيف هنا أن

من رموز الماسونية : المثلث ، والفرجار ، والمسطرة ، والمقص ، والرافعة ، والنجمة الخماسية ، والأرقام ٣ و٥ و٧ (وهي رموز وطقوس تساعد على اكتشاف النور) . والوحدة الأساسية في التنظيمات الماسونية هي المحفل أو الورشة . ويحق لكل سبعة ماسونيين أن يشكلوا محفلاً ، والمحفل يمكن أن يضم خمسين عضواً. وتعقد المحافل اجتماعاً دورياً كل خمسة عشر يوماً ، يحضره المتدربون والعرفاء والمعلمون . أما ذوو الرتب الأعلى فيجتمعون على حدة ، في ورشات «التجويد» . ويُفترض في المشاركين في الاجتماع أن يقبلوا لباساً معيَّناً : فهم يضعون في أيديهم قفازات بيضاء ، ويزينون صدورهم بشريط عريض ، ويربطون على خصورهم مآزر صغيرة ، وقد يرتدون ثوباً أسود طويلاً ، أو بزة قاتمة اللون ، أو «سموكينج» ، بحسب تقاليد محفلهم ، وهي تقاليد بالغة التعقيد والتنوع .

وتشكل المحافل اتحادات تدين بالولاء والطاعة لأحد المحافل الكبرى . ففي فرنسا ، على سبيل المثال ، خمسة محافل أساسية كبرى ، وهي : محفل الشرق الكبير ، ومحفل فرنسا الكبير ، والمحفل الوطني الفرنسي الكبير ، والاتحاد الفرنسي للحقوق الإنسانية ، ومحفل فرنسا الكبير للنساء . وتعقد المحافل الكبرى جمعيات عمومية يتخللها تقييم العمل الذي تم إنجازه ورسم خطط العمل للمستقبل . وبعد عَرْض هذه الأشكال التنظيمية والطقوس والرموز ، يمكننا القول بأن تنوعها يجعلها غير صالحة كأساس تصنيفي للماسونية .

أما العنصر الثاني الذي يُقال إنه يميِّز الماسونية عن غيرها من الحركات ، فهو الإيمان بالحرية والمساواة والإنسانية . ولكن كثيراً من المحافل اتخذت مواقف عنصرية ، فالمحافل الألمانية والإسكندنافية رفضت السماح لأعضاء الجماعات اليهودية بالانضمام إليها ، والمحافل الأمريكية رفضت انضمام الزنوج . كما لم تنجح المحافل الماسونية في تجاوز الحدود القومية الضيقة . فأثناء الحرب العالمية الأولى ، على سبيل المثال ، استبعدت المحافل البريطانية الأعضاء المنحدرين عن أصل ألماني أو غساوي أو مجري أو تركي .

أما العنصر الثالث ، وهو العنصر الربوبي ، أي الإيمان بالخالق بدون حاجة إلى وحي ، فإن محفل الشرق الأعظم في فرنسا رفض هذا الحد الأدنى تماماً عام ١٨٧٧ ، وترك لكل عضو أن يحدد بنفسه موقفه من هذه القضية ، وتم تأكيد «التقوى الطبيعية» بدلاً من «الإيمان الحق» ، أي أن الماسونية الفرنسية تبنت صيغة علمانية كاملة مؤسَّسة على الفكر الهيوماني أو الإنساني العلماني .

وحتى نصل إلى تعريف دقيق مركب ، فلابد أن نأخذ في الاعتبار هذه الخاصية التراكمية الجيولوجية . فندرس الطبقات الجيولوجية في تراكمها الواحدة فوق الأخرى ، والتي أدّت في نهاية الأمر إلى ظهور الماسونيات المختلفة وصفاتها المتنوعة . ويجب أن نؤكد ابتداءً أننا يجب أن نلزم الحذر في تحديد مستوى التعميم والتخصيص . فرغم أن الماسونية حركة بدأت في أوربا (في العالم الغربي) إلا أنها انتشرت في العالم بأسره . ورغم انتشارها هذا إلا أنها لم تصبح حركة عالمية ، إذ لا يوجد نمط واحد للتطور ، فالماسونية في الغرب مختلفة عنها في العالم الثالث ، وهي في إيطاليا مختلفة عنها في أمريكا اللاتينية . وكما سنبين أن الحركات الماسونية المختلفة خدمت دولها ولذا قامت الحركات الماسونية البريطانية بخدمة الاستعمار البريطاني وقامت الحركة الماسونية الفرنسية بخدمة الاستعمار الفرنسي (ولذا نشب صراع بين الحركتين)

تعود جذور الماسونية إلى جماعات أو نقابات الحرفيين في العصور الوسطى الإقطاعية في الغرب ، وهي جماعات كانت منظمة تنظيماً صارماً شبه ديني ، فكان لكل نقابة طقوسها الخاصة ورموزها الخفية وقسمها السري وأسرار المهنة التي تحاول كل جماعة الحفاظ عليها . وهذه كلها أدوات لها وظيفة اجتماعية شديدة الأهمية إذ أنه ، مع غياب المؤسسات التعليمية ، كان يتم توريث المعلومات والخبرات المختلفة الحيوية اللازمة لاستمرار المجتمع ، من خلال نقابات الحرفيين . وبدون هذه العملية ، لم يكن المجتمع ليحقق أي استمرار . وكانت جماعات البنّائين من أقوى الجماعات الحرفية ، ذلك أن العصور الوسطى كانت العصر الذهبي لبناء الكاتدرائيات والأديرة والمقابر . وكان البناءون يعيشون على أجرهم وحده ، على عكس الحرفيين الآخرين ، مثل النساجين والحدادين الذين كانوا يتقاضون من زبائنهم مقابلاً عينياً من خلال نظام المقايضة ، أي أن البنائين (مثل أعضاء الجماعات اليهودية) كانوا جزءاً من اقتصاد نقدي في مجتمع زراعي . كما أن البنائين كانوا أحراراً تماماً في حركتهم . فقد كان الحداد ، مثلاً ، يقوم بعمله في مكان ثابت ويقوم على خدمة جماعة بعينها ، أما البناء فكان عليه الانتقال من مكان إلى آخر بحثاً عن عمل . ولذا ، يمكن القول بأن البنائين كانوا من أكثر القطاعات حركية في المجتمع الوسيط في الغرب . وكان على البنائين أن يجدوا إطاراً تنظيمياً يتلاءم مع حركيتهم ، فالنقابات الحرفية بتنظيمها المألوف كانت ملائمة للحرفيين الثابتين . أما بالنسبة للبنّائين ، فكان لابد من ابتداع إطار حركي خاص بهم . ومن هنا كانت فكرة البنّاء الذي يُقال له بالإنجليزية : «لودج lodge» أي «المحفل» . والمحفل هو

عبارة عن كوخ يُبنى من الطين أو مادة بناء أخرى تَسهُل إزالتها بعد الانتهاء من عملية البناء . وكان المحفل هو المكان الذي يلتقي فيه البناءون حيث يتبادلون المعلومات ، ويعبِّرون عن شكواهم وضيقهم من أحوال العمل ، ويتبادلون الأخبار بل المشروبات . كما كان بوسعهم النوم في المحفل وقت الظهيرة . وكان العضو الجديد من جماعة البنائين يذهب إلى المحفل لمقابلة أبناء حرفته ، ومن هنا ظهرت فكرة السرية والرمزية ، إذ كان لابد أن يتوصل هؤلاء البناءون إلى لغة أو شفرة خاصة بهم لا يفهمها سواهم ولا يستطيع صاحب العمل أو غير المشتغلين بحرفة البناء فهمها . وقد أخذت الشفرة شكل عبارات خاصة وطرق معيَّنة في المصافحة وإشارات بالأيدي الهدف منها أن يتمكن البنّاء من التفرقة بين أبناء حرفته الحقيقيين الذين تلقوا التدريب اللازم وينتمون إلى نقابة الحرفيين وبين الدخلاء على الحرفة . وقد التزم البنّاءون بمجموعة من الواجبات ضمها ما يُسمَّى «كتب الواجبات» أو كتب التعليمات أو الدساتير ، ومن أهمها مخطوط ريجيوس الذي يعود إلى عام ١٣٩٠ . وتذكر كتب الواجبات أن البناء يتعيَّن عليه مساعدة زملائه وعدم ذمهم ، وعليه تعليم المبتدئين منهم ، كما أن عليه عدم إيواء الدخلاء . وتتحدث كتب الواجبات كذلك عن الأصول التاريخية أو الأسطورية لحرفة البناء التي يُرجعونها إلى مصر وإلى بناء هيكل سليمان . وثمة قصص أخرى وردت في هذه الكتب عن «الأربعة المتوَّجين» ، وهم أربعة بنائين مسيحيين قتلهم الرومان وأصبحوا شهداء ، ومن ثم فقد كان هؤلاء قديسي البنائين .

وقد ظلت نقابات البنائين مزدهرة حتى عصر النهضة في الغرب في القرن السادس عشر ، وهو أيضاً عصر الإصلاح الديني ، حين توقفت حركة بناء الكاتدرائيات وغيرها من المباني الدينية الكاثوليكية . ولكن ذلك تزامن مع ظهور الدولة القومية المطلقة التي قامت بتأسيس مشاريع عمرانية ضخمة تحت إشرافها كسلطة مركزية ، ومن ثم بدأت الدعائم التي تستند إليها نقابات البنائين في الاهتزاز ، شأنها في هذا شأن كثير من الجماعات الحرفية والمؤسسات الإقطاعية الأخرى ، وبدأت في التحول إلى جماعات خيرية أو جماعات تضامن تحاول أن توفِّر لأعضائها بعض الطمأنينة النفسية وشيئاً من الأمن الاقتصادي . ومع تَناقُص العضوية ، بدأت النقابات تقبل في صفوفها أعضاء شرفيين ليحافظوا على الأعداد اللازمة ، ومن هنا بدأ التمييز بين البنائين العاملين أو الأحرار ، أي الذين يعملون بالحرفة فعلاً ، والبنائين المقبولين أو الرمزيين . وظهرت الماسونية الرمزية أو التأملية أو النظرية أو الفلسفية التي حلت محل الماسونية الفعلية ، بحيث تحوَّل البناء وأدواته من وظيفة إلى رمز . ولكن البناء (وأدواته) لم يكن المصدر الوحيد للرموز الماسونية ، فكما أسلفنا كان هناك سليمان وهيكله ، وهو يعتبر البنّاء الأول ، وهيكله رمز الكمال الذي يطمح كل البنائين أو الماسون أن يصلوا إليه . ويبدو أن بعض رموز الملكية المقدَّسة في الدولة العبرانية وجدت طريقها إلى الشعائر والرموز الماسونية . وكانت هناك رموز مسيحية كثيرة مأخوذة من تقاليد جماعات الفرسان التي انتشرت في أوربا في العصور الوسطى ، والتي يعود أصل معظمها إلى حروب الفرنجة والاستعمار الاستيطاني للفرنجة في فلسطين ، مثل جماعة فرسان الهيكل (الداوية) وجماعة فرسان الإسعاف (الإسبتارية) وغيرهما . كما يحتل يوحنا المعمدان ويوحنا الرسول مكاناً خاصاً لديهم ، وقد أسلفنا الإشارة إلى الأربعة المتوجين .

وقد يكون من المفيد (أو لعله من الطريف) أن نتوقف قليلاً عند أحد الأصول المفترضة للحركة الماسونية وفكرها حسب بعض مؤرخيها ، ونعني بذلك نسبتها إلى بعض الجماعات الإسلامية (أو شبه الإسلامية) ، مثل : الدروز ، والطائفة الإسماعيلية ، وجماعة الحشاشين . ويرى هؤلاء المؤرخون أن الحركة الماسونية استمدت بعض أفكارها ورموزها وطريقة تنظيمها من هذه الجماعات . فشيخ الجبل ، رئيس جماعة الحشاشين ، الذي يمسك كل الخيوط بيديه لا يختلف كثيراً عن رئيس المحفل ، وطريقة العمل السرية وتجنيد الأعضاء الجدد وفكرة الدرجات التي تتبعها الحركة الماسونية لا تختلف كثيراً عن طريقة العمل والتجنيد في هذه الجماعات . بل تذهب بعض المراجع إلى أن جماعة فرسان الهيكل التي اتخذت الحركة الماسونية كثيراً من رموزها رموزاً لها هي في الواقع الأصل الحقيقي للحركة الماسونية ، وأن فرسان الهيكل هؤلاء بدأوا نشاطهم في فلسطين إبّان حروب الفرنجة ، ثم انتقل نشاطهم إلى أوربا واستمر بعد سقوط كل جيوب الفرنجة في فلسطين ، هؤلاء الفرسان هم في واقع الأمر مسلمون أو متأثرون بالفكر الديني الإسلامي ، كانوا يحاولون من خلال تنظيمهم السري/ العلني أن يسيطروا على العالم المسيحي . ومن المعروف أن جماعة فرسان الهيكل كانت تكوِّن شبكة ضخمة في معظم أرجاء أوربا وأنه كانت تتبعها مجموعة من المحاربين/ الرهبان (الذين تأثروا بفكرة الجهاد الإسلامية) ومجموعة من المؤسسات المالية الضخمة ذات النفوذ القوي . وقد تم ضرب فرسان الهيكل في فرنسا وفي كل أنحاء أوربا وقُدِّموا لمحاكم التفتيش . وكانت إحدى التهم الموجهة إليهم هي رفضهم القول بألوهية المسيح وتأثرهم العميق بالفكر الديني الإسلامي وتبشيرهم

به، وقد اعترف بعض الفرسان بالتهم الموجهة إليهم . ويبدو أن فرسان الهيكل تأثروا بالفكر الإسلامي أو المُثُل الإسلامية إبّان وجودهم في الشرق الأوسط الإسلامي ، كما أنهم تعاونوا بالفعل مع جماعة الحشاشين ودبروا معهم بعض المؤامرات . مهما كان الأمر فإن بعض المؤرخين يذهبون إلى أن بعض فرسان الهيكل قَدموا إلى اسكتلندا حيث أسسوا الحركة الماسونية للسيطرة على أوربا بعد أن تم ضربهم . وقد استطردنا في الحديث عند فرسان الهيكل والإسلام لنبين مدى تشابك أصول الماسونية وتركيبيتها .

وقد اختلطت فلسفة البنائين بالفلسفة الهرمسية السائدة في عصر النهضة في إنجلترا ، وهي فلسفة غنوصية ذات طابع أفلاطوني حديث ارتبطت بهرميس تريسميجيستوس ، وهو شخصية رمزية أساسية في الفكر الغنوصي حيث كان يُعَدُّ نبياً قبل المسيحية ، وكان يُعَدُّ رسول الآلهة للبشر ويحمل المعرفة الخفية الباطنية (الغنوص) . كما اختلطت فلسفة البنائين بالحركة الروزيكروشيانية (بالإنجليزية : روزيكروشيان Rosicrusian نسبة إلى روز rose بمعنى وردة وكروس cross أي صليب) التي ورد أول ذكر لها في القرن السابع عشر ، وهي جماعة غنوصية تدَّعي أنها تمتلك الحكمة الخفية عند القدماء . وقد أدّى تداخُل رموز البنائين وأسرارهم مع الفلسفة الهرمسية والروزيكرو شيانية ، إلى أن سقطت تماماً القيمة الوظيفية لحرفة البناء ، كما سقطت أدواتها (الفرجار والذراع والبوصلة والمثلث والمئزر والمزولة) واكتسبت قيمة رمزية ، فتحوَّل ميزان البنائين (على سبيل المثال) إلى رمز العدالة ، وتحوَّل الفادن (وهو خيط رفيع في طرفه قطعة من الرصاص تُمتَحن به استقامة الجدار) إلى رمز استقامة الحياة وأفعال الإنسان .

وهكذا تشكلت الطبيعة الجيولوجية المركبة لرموز الماسونية التي ضمت رموزاً من الديانات المصرية القديمة ، كما ضمت كلمات عبرية بتأثير من القبَّالاه التي دخل الماسونية كثير من أفكارها . والواقع أن اختلاط فكر البنائين بالفلسفة الهرمسية والروزيكروشيانية يَصلُح مؤشراً على اتجاه الماسونية . فهذه الفلسفات ، برغم شكلها الصوفي ، كانت جزءاً من الثورة العلمانية الشاملة الكبرى التي تفجرت في الغرب في القرن السادس عشر ، والتي كانت تهدف إلى إزاحة الخالق من الكون أو وضعه في مكان هامشي ووضع الإنسان في المركز بدلاً منه ، على أن يقوم الإنسان بالتحكم الكامل في الكون عن طريق اكتشاف قوانين الطبيعة الهندسية والآلية . وهي ، بهذا ، غنوصية جديدة تهدف إلى التحكم في الكون ، لا من خلال المعرفة الخفية وإنما من خلال الصيغ العلمية . وعلى كلٍّ ، كانت المعرفة الخفية تأخذ ، في كثير من الأحيان ، شكل صيغ رقمية أقرب إلى المعادلات الجبرية .

وفي العصور الوسطى ، كان الوجدان الشعبي يرى أن مثال الغنوصية هو الدكتور فاوستوس الذي باع روحه للشيطان في سبيل المعرفة الكاملة . وفاوستوس هو بطل التفكير العلمي ، إليه تُنسَب النزعة الفاوستية التي تسم الفكر العلمي والثوري . وربما تكون مركزية رموز آلات البناء تعبيراً عن النسق الهندسي والآلي الكامن في الماسونية ، وعن رغبة التحكم في كلٍّ من الذات الإنسانية والكون من خلال صيغ رياضية (ولعل المقارنة هنا مع فلسفة إسبينوزا وطموحه نحو لغة رياضية هندسية دقيقة مقارنة ذات دلالة عميقة) .

لا يمكن ، إذن ، فهم الماسونية إلا بوضعها في هذا السياق الفكري . وكما يعرف دارسو تاريخ أوربا ، فإنه بعد ظهور فكر عصر النهضة وُلد فكر عصر العقل والاستنارة والإيمان بالقانون الطبيعي . والعلمانية (الشاملة) هي نزع القداسة عن العالم (الإنسان والطبيعة) والإيمان بفعالية القانون الطبيعي في مجالات الحياة الطبيعية والإنسانية كافة وإنكار أي غيب ، وإلا لما أمكن التحكم في الكون (الإنسان والطبيعة) وتوظيفه واستخدامه وتحويله إلى مادة استعمالية . وقد انعكس هذا في فكرة الإنسان الطبيعي (العقلاني) أو الأممي ، وهو إنسان عام لا يتميَّز عن أي إنسان آخر . صفاته الأساسية عامة أما صفاته الخاصة فلا أهمية لها ، وهو إنسان عقلاني إن أعمل عقله بالقدر الكافي لتوصَّل إلى الحقائق نفسها التي يتوصَّل إليها الآخرون بغض النظر عن الزمان والمكان . ومن ثم ، فبإمكان هذا الإنسان أن يصل إلى فكرة الخالق بعقله بدون حاجة إلى وحي إلهي أو معجزات ، أي دون الحاجة إلى دين مُرسَل ، أي أن الإنسان الطبيعي العقلاني العالمي (الأممي) يمكنه أن يتوصل بعقله إلى الإيمان بدين طبيعي عقلاني عالمي .

ويمكن القول بأن الدين الطبيعي ، أو «الربوبية» كما كانت تُدعَى ، هو تعبير عن معدل منخفض من العلمنة أو تعبير عن علمانية جنينية ، فهي تستجيب لحاجة أولئك الذين فقدوا إيمانهم بالدين التقليدي ولكنهم لا يزالون غير قادرين على تَقبُّل عالم اختفى منه الخالق تماماً ، أي أنهم بشر جردوا العالم من الدين والقداسة واليقين المعرفي والأخلاقي ولكنهم احتفظوا بفكرة الخالق في صيغة باهتة لا شخصية ، حتى لا يصبح العالم فراغاً كاملاً .

والفكر الربوبي لا يطالب من يؤمن به بأن يتنكر لدينه ، إذ أن المطلوب هو أن يعيد تأسيس عقيدته ، لا على الوحي وإنما على قيم عقلية مجردة منفصلة تماماً عن أي غيب ، أي منفصلة عن الأنساق

الدينية المألوفة للتفكير . فالربوبية ، في واقع الأمر ، فلسفة علمانية تستخدم خطاباً دينياً ، أو ديباجات دينية ، للدفاع عن العقل المادي المحض ، وعن الرؤية التجريبية المادية . ومن ثم ، فهي وسيلة من وسائل علمنة العقل الإنساني .

في هذا الإطار الفكري والفلسفي والديني ، وُلدت الماسونية . وقد تم تأسيس أربعة محافل متفرقة في إنجلترا في القرن السابع عشر ، جمعها كلها محفل واحد مركزي تأسس عام ١٧١٧ مع بدايات عصر العقل وحركة الاستنارة . ويُعَد هذا التاريخ هو تاريخ بدء الحركة الماسونية . وقد سُمح لليهود بالالتحاق بها عام ١٧٣٢ . ودخلت الحركة الماسونية فرنسا عام ١٧٢٥ ، وإيطاليا وألمانيا عام ١٧٣٣ .

وإن أردنا تلخيص فكر أولى الماسونيات التي نقابلها ، ولنسمها «الماسونية العقلانية» أو «الماسونية الربوبية» ، لقلنا إنها تنادي بتوحيد كل البشر من خلال العقل ، كما تنادي بإسقاط الدين مع الاحتفاظ بالخالق خشية الفوضى الفلسفية الشاملة .

ولذا ، فقد جاء في تعريف الماسوني أنه «ذكر بالغ يلتزم بالنسق الديني الذي يوافق عليه جميع البشر» . وهذا هو الإيمان بالخالق أو الكائن الأسمى (مهندس الكون الأعظم) ، أو الإيمان بالجوهر العقلي للدين الذي يستطيع العقل أن يصل إليه . وبوسع العضو أن يحتفظ لنفسه بأية آراء دينية خاصة أخرى ، على أن يعلن تسامحه مع الأديان وإيمانه بأبوة الرب وأخوة البشر وخلود الروح . وقد جاء في الدستور الماسوني لعام ١٧٣٣ الصادر في إنجلترا أن الماسوني «لا يمكن أن يكون كافراً غبياً أو فاسقاً غير متدين» وعليه أن يحترم السلطات المدنية ولا يشترك في الحركات السياسية . ومن أهداف الماسونية الأساسية ما يُسمَّى «اليقظة الأخلاقية عن طريق العلم» وهي عبارة قد تبدو بريئة ولكنها تعبير عن منظومة عقلانية مادية لا تزال متلبسة ديباجات أخلاقية وروحية . وتدعو الماسونية إلى مجموعة من الصفات العامة التي لا تغيِّر كثيراً من هذه البنية الفكرية التحتية ، فهي تدعو إلى وحدة البشر على أساس الإخاء والمحبة والمساواة ، والعون المشترك وخدمة الغير وحُسْن معاملتهم ، وحب الجماعة وتبادُل المصالح والتحلي بالفضائل المدنية ، أي الفضائل التي يتسم بها المواطن الذي ينتمي إلى الدولة القومية (مقابل الفضائل الدينية لدى الإنسان المتدين الذي ينتمي إلى الكنيسة ويؤمن بعقيدة مُنزَّلة) . كما تُقدِّس الماسونية الملكية الخاصة . وليس للماسونية هدف نهائي محدد ، وإن كان ثمة هدف فهو عام غير محدد ، وهو أن يكون العالم في النهاية في اتحاد أخوي وإلهي (ولعلنا نُلاحظ هنا النموذج الحلولي الواحدي الكامن) .

ويمكننا أن نقول إن الماسونية الربوبية هي ماسونية الفكر المركنتالي والدولة المطلقة ، وماسونية الطبقات الأرستقراطية التي احتضنت الطبقات الوسطى الصاعدة باعتبارها قوة تستخدمها وتوظِّفها لصالح الدولة القومية المطلقة دون أن تسلمها صولجان الحكم والقيادة . وقد اكتشف الإنسان الغربي (منذ عصر نهضته ، بعد ظهور ماكيافيللي وهوبز وفكرة القانون الطبيعي وضعف الإطار المسيحي التقليدي وانكماش سلطة الكنيسة الدنيوية) أن المطلق الوحيد في الإطار العلماني الشامل هو الدولة وأن مصلحتها العليا هي المطلق الأخلاقي الأسمى . وهذه الفلسفة علمانية شاملة تضع الخالق والغيب في موضع هامشي ، وهذا ما تنجزه الماسونية الربوبية وتُعلمن الإنسان وتجعله يستبطن هذه القيمة المطلقة حتى يخضع لإرادة الدولة بدلاً من إرادة الخالق . داخل إطار عقلاني مادي يشجع على تطويع الإنسان وتطبيعه . والدولة المطلقة إطار يضم كل الطبقات تحت قيادة هذه الملكية المطلقة أو تلك ، أو أية ملكية أخرى في مواجهة الكنيسة التي كانت لا تزال تحاول الحفاظ على سلطانها الدنيوي . ومن ثم ، نجد أن أعضاء الأرستقراطية انضموا إلى الحركات الماسونية ، فقد انضم إليها ملكا بروسيا فريدريك الثاني وفريدريك الثالث ، وملوك شبه جزيرة إسكندنافيا ، وملك النمسا جوزيف الثاني ، ونابليون وأفراد عائلته ، وأعضاء الطبقة الوسطى الذين يطمحون إلى شيء من الحراك الاجتماعي . ويمكن تفسير انضمام أعضاء الأسرة المالكة الإنجليزية وأعضاء الأرستقراطية إلى الجماعات الماسونية من المنظور نفسه . وكان كثير ممن يُطلَق عليهم «مثقفو الطبقة الوسطى الصاعدة» من الماسونيين . كما يمكن أن نذكر من أعضائها فولتير ومونتسكيو والأنسيكلوبيديين (الموسوعيين) ، وفخته وجوته وهردر ولسنج وموتسارت ، وأعضاء الجمعية الملكية في إنجلترا ، وجورج واشنطن ، وماتزيني وغاريبالدي .

وعشية الثورة الفرنسية ، كان يوجد في فرنسا نحو خمسمائة محفل ماسوني . كما يُقال إن أكثر من نصف أعضاء الجمعية العمومية في فرنسا ، عشية الثورة ، كانوا من الماسونيين . ولكن يجب ملاحظة أن معظم الماسونيين في فرنسا في تلك المرحلة لم يكونوا من غلاة الثوريين (الجمهوريين) بل كانوا من دعاة الإصلاح بلا ثورة . ولذلك ، فقد هاجر كثير منهم من فرنسا بعد تصاعد حمى الثورة ، أو سقطت رؤوس بعضهم ضحايا المد الثوري (ويمكن أن نخص بالذكر مارا ودانتون ميرابو ولافاييت باعتبارهم من قادة الثورة الفرنسية من الماسونيين) .

ويمكن القول بأن الماسونيين كانوا من أعضاء طبقات أو فئات

هامشية تود أن تحقق شيئاً من الحراك والمركزية ، أو كانوا أعضاء هامشيين أو فئات هامشية في طبقات مركزية ويودون أن يحققوا قدراً من الحراك من خلال الانضمام إلى تَجمُّع أكبر ، أو كانوا من أعضاء الأرستقراطية الذين أرادوا أن يستخدموا القوة الماسونية وأن يوظفوها لصالحهم الشخصي أو لصالح الدولة المطلقة . وربما يعود شيوع الماسونية في القرن الثامن عشر إلى سببين أساسيين : أولهما ، شيوع الفلسفات العقلانية المعادية للكنيسة والطبقات الإقطاعية . ولكن هذه الفلسفات لم تكن بعد ثورية أو إلحادية ، فقد كانت تعبِّر عن مصالح الطبقة الوسطى الصاعدة وعن رؤيتها التجارية المادية العلمانية الشاملة للكون ، بدون أن تعلن صراحة عن ماديتها أو علمانيتها إذ كانت أضعف من أن تفعل ذلك . أما السبب الثاني ، فهو عدم تجانس رموز الحركة الماسونية ، الأمر الذي لعب دوراً حيوياً في زيادة مقدرتها التعبوية على مستوى كل الطبقات . وقد كانت الماسونية ديموقراطية تقوم بتجنيد أعضائها من الطبقات كافة ، ولكنها كانت في الوقت نفسه أرستقراطية يترأسها الملك وأعضاء النخبة ، وتأخذ شكلاً هرمياً جامداً . وكانت ليبرالية تدعو إلى الأخوة والمساواة ، ولكنها كانت في الوقت نفسه محافظة تدعو إلى عدم التعرض للسلطات الحكومية أو الخوض في الأمور السياسية . وكانت الماسونية في تلك المرحلة حركة إيمانية ربوبية ، ولكنها كانت تحوي داخلها كل معالم التفكير الإلحادي الذي يُسقط الإله تماماً . وكانت عقلانية ذات رموز صوفية ، وتضم أفكاراً عالمية ومحلية . وربما جعلتها هذه الصيغة الإسفنجية تحقق هذا النجاح الباهر وتجعلها واحدة من أهم مؤسسات العلمنة في العالم ، فهي تستخدم ديباجات دينية ضبابية لتحقيق أهداف علمانية .

ولكن الماسونية هي بنت محيطها الحضاري التاريخي والجغرافي (فلا يوجد كما أسلفنا نسق عالمي واحد ينطبق على الماسونيين في كل زمان ومكان) ، فقد كانت ألمانية في ألمانيا ، وإنجليزية في إنجلترا ، وفرنسية في فرنسا . ولذا ، فقد تغيَّرت هي نفسها مع تغيُّر أوربا . كما نجد أن تصاعد قوى الطبقة الوسطى ومعدلات العلمانية والإلحاد قد انعكس على الفكر الماسوني وتنظيماته ، فاكتسب كثير من المحافل الماسونية مضموناً ثورياً ، وخصوصاً في البلاد الكاثوليكية والأرثوذكسية ، وأصبحت الأداة الكبرى في الحرب ضد الكنيسة ، وفي المطالبة بفصل الدين عن الدولة . هذا على عكس المحافل الماسونية في البلاد البروتستانتية حيث ظلت معتدلة تدور داخل إطار ربوبي .

وفي هذا الإطار الجديد ، ظهرت الماسونية الثانية التي تتخذ موقفاً إلحادياً أكثر صراحة ، وبدلاً من العقلانية الربوبية شبه المادية التي تستخدم ديباجات أخلاقية وروحية ، تُسقط الماسونية تدريجياً كل هذه الديباجات وتدور تماماً في إطار العقلانية المادية الكاملة ، فقرَّر محفل الشرق الأعظم في فرنسا عام ١٨٧٧ استبعاد أية بقايا إيمانية من الفكر الماسوني . وظهرت محافل ذات طابع ثوري مثل النورانيين (إليوميناتي) في بافاريا ، وقبلها المارتينيست في فرنسا ، وكانت المحافل الماسونية في روسيا القيصرية (الأرثوذكسية) خلايا ثورية ، وكان معظم أعضاء ثورة الديسمبريين من الماسونيين .

ويُلاحظ أن الماسونية الثانية ، وهي ثورية إلحادية ، تنتشر في البلاد الكاثوليكية والأرثوذكسية ، أي البلاد التي توجد فيها كنيسة قوية تقف ضد الفلسفات العقلانية البورجوازية والثورية العمالية . كما يُلاحَظ أن المحافل الماسونية في هذه البلاد ، كما هو الحال في أمريكا اللاتينية ، تتسم بثوريتها وعدائها للكنيسة والكهنوت ، كما تتسم بارتباطها الواضح بالفلسفة الوضعية التي تجعل العلم الأساس الوحيد للقيمة والأخلاق . فالتقدم الأخلاقي يتم تحقيقه من خلال التقدم العلمي ، والمنفعة الإنسانية ككل هي نهضة علمية (ولهذا لوحظ أن عدداً كبيراً من دعاة الفكر الوضعي في فرنسا وروسيا والعالم الثالث أعضاء في المحافل الماسونية) . كما أن الكنيسة ، بدورها ، تناصب الحركة الماسونية العداء . وبمرور الزمن ، أصبحت المحافل الماسونية تضم ، من ناحية الأساس ، عناصر البورجوازية والطبقة الوسطى ، ولم يَعُد ينضم إليها أي مفكرين ، كما اختفى منها كذلك أعضاء الأرستقراطية . وبرغم كل هذا ، فإن عضوية المحافل الماسونية ظلت (من ناحية الأساس) مقصورة على العناصر البورجوازية المعتدلة التي ترفض الدخول في أية مغامرات سياسية ، والتي تود أن تعيش في عالم علماني عقلاني ولكنها لا تريد مواجهة النتائج الفلسفية الناجمة عن ذلك ، وربما يفسر هذا سر تَصدّي البلاشفة للجماعات الماسونية وحظرهم إياها ، وتَصدّي هتلر وموسوليني أيضاً لها وتجريمهما الجمعيات الماسونية . فالبلاشفة والفاشيون والنازيون راديكاليون ، وإذا كان البلاشفة راديكاليين عقلانيين ماديين فالفاشيون والنازيون راديكاليون لا عقلانيون ماديون ، ويطمحون إلى التحكم الكامل في الدولة وجماهيرها ، ولذا فالاعتدال أو التراخي الماسوني يُشكِّل تحدياً لسلطتهم . كما أن الجيب الماسوني كان يتمتع بقدر من الاستقلال بل السرية ، فهو يمثل جماعة مصالح لها شعائرها وطقوسها ، والدول العلمانية الشمولية المطلقة لا تتحمل وجود مثل هذه الجيوب داخلها .

وقد انتشرت الماسونية في البلاد البروتستانتية لأن البروتستانتية

شكل من أشكال علمنة المسيحية الكاثوليكية ، كما أن معدلات العلمانية مرتفعة فيها . فقد انتشرت بسرعة في الجزر البريطانية بسبب عدم وجود كنيسة مسيطرة على جوانب الحياة ، وبسبب انخراط الطبقة الحاكمة في صفوف الماسونية . وقد انتشرت الماسونية مع اتساع الإمبراطورية الإنجليزية ، فانتقلت إلى الولايات المتحدة وأستراليا وكندا ومصر وفلسطين والهند وغيرها من المستعمرات أو المحميات . وقد احتفظت الحركة الماسونية بطابع هادئ مهادن داخل التشكيل البروتستانتي .

ولكن الماسونية البريطانية لم تكن الماسونية الوحيدة التي انتشرت في المستعمرات ، إذ أن الصراع الإمبريالي على العالم انعكس من خلال صراع بين الحركات والمحافل الماسونية ، فكان كل محفل ماسوني يخدم مصلحة بلد ويمثله ، تماماً كما حدث صراع بين المبشرين البروتستانت والمبشرين الكاثوليك الذين كانوا يمثلون مصالح بلادهم . ويبدو أن بعض الشخصيات المهمة في العالم العربي أرادت أن تستفيد من هذا الصراع ، وخصوصاً أن أعضاء هذه المحافل كانوا من الأجانب ذوي الحقوق والامتيازات الخاصة المقصورة عليهم . فكان الدعاة المحليون ينخرطون في هذه المحافل بغية توظيفها في خدمة أهدافهم ، وحتى يتمتعوا بالمزايا الممنوحة لهم . وكان من بين هؤلاء الشيخ جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده والأمير عبد القادر الجزائري . ولعل هذه الشخصيات الدينية والوطنية حذت حذو ماتزيني وغاريبالدي وغيرهما ممن حاولوا الاستفادة من أية أطر تنظيمية قائمة . ولنا أن نلاحظ أن الأفغاني قد اكتشف حقيقة الماسونية في وقت مبكر ، وتَوصَّل إلى الأسس العلمانية التي يقوم عليها خطابها الديني ، ومن ثم ناهض هذه الأفكار في كتابه **الرد على الدهريين** . أما عبد القادر الجزائري فلا توجد تفاصيل حول علاقته بالماسونية ، وإن كان قد حاول إيجاد أطر تنظيمية وتأسيسية لحركته مع الاستفادة من أسلوب التنظيمات الماسونية . وقد انضم إلى الحركة الماسونية أحد أبناء محمد علي باشا وكانت له مطالب في عرش مصر ، وقد كان أستاذاً أعظم لمحفل الشرق الأعظم المصري ، وتبعه في ذلك عدد من أعضاء الأسرة المالكة . كما انضم إلى الحركة الماسونية شخصيات أخرى ، مثل سعد زغلول ويوسف وهبي . ولكن ارتباط أمثالهما بالحركة الماسونية كان واهياً للغاية ولا يعدو قبولهم ذكر أسمائهم ضمن قائمة الأعضاء أو حضور اجتماع يُعقَد على شرفهم دون أي إدراك من جانبهم للتضمينات الفلسفية وراء الفكر الماسوني . كما أن الحركة الماسونية ظلت في مصر وغيرها ضعيفة تضم في صفوفها الأجانب أساساً .

ويمكننا الآن طرح قضيتين مهمتين هما : نفوذ الماسونية السياسي والاقتصادي ، وسرية تنظيماتهما ، وهما عنصران مترابطان تمام الترابط . فالحركات الماسونية تتركز في بلاد غربية متقدمة تحكمها حكومات مركزية قوية ، وتخضع فيها الحركات السياسية والاجتماعية كافة للمراقبة ، وإلا لما أمكنها تسيير دفة الحكم . ولا يمكن في الحقيقة تصوُّر وجود حركات ضخمة لها قوة فعالة لا تخضع للإطار العام الذي تفرضه مثل هذه الدول المطلقة الرشيدة ، فعملية التنبؤ والتخطيط تتطلب مثل هذا التحكم ومثل هذه المعرفة . والمحافل الماسونية تخضع لهذا القانون العام ، ولم يكن من الممكن أن تُشكِّل استثناء منه . لكن هذا لا يمنع ، بطبيعة الحال ، من تَسلُّل بعض العناصر المغامرة إلى بعض المحافل لتوظيفها بشكل أو بآخر ، من خلال شبكة اتصالاتها ، في الاحتيال أو الأعمال الإجرامية . وهذا هو بالضبط ما تفعله ، على سبيل المثال ، عصابات المافيا (الجريمة المنظمة) مع الجهاز التنفيذي في الولايات المتحدة ، تستأجر كبار المحامين وتشتري القضاة وتجند ضباط الشرطة ، أي تقوم بتوظيف الجهاز الذي أُسِّس لمكافحتها والقضاء عليها لتنفيذ أهدافها الإجرامية . وكل هذا لا يعني وجود مؤامرة مافياوية للاستيلاء على العالم . وكذلك الجماعات الماسونية ، فهي إذا ما تحولت إلى قوة ضغط (لوبي) ، فإنها لا تختلف كثيراً عن مراكز الضغط الأخرى داخل النظام السياسي والاقتصادي . وإن أخذ نشاطها شكلاً تآمرياً أو إجرامياً في بلد ما ، فلا يصح تعميم مثل هذه الوقائع وافتراض وجود مثل هذا النشاط على مستوى العالم بأسره .

وقد وُصفت الولايات المتحدة بأنها ديموقراطية جماعات الضغط . ولابد أن المحافل الماسونية تشكل إحدى هذه الجماعات التي تعمل داخل النظام ، فهذا هو المُتوقَّع منها ، وهذا هو «قانون اللعبة» . ولا يمكن في هذا السياق أن نتحدث عن مؤامرة خفية أو علنية . ومن الناحية النظرية ، يمكن أن نقول إن المحافل الماسونية بوسعها أن تمارس ضغوطاً ضخمة في العالم الثالث نظراً لضعف جهاز الدولة المركزي . ولكن ، بحسب ما هو متوافر لدينا من معلومات ، لا توجد حكومة في العالم الثالث سقطت في يد اللوبي الماسوني . ولكن لوحظ أنه قد بدأ يظهر تحالف بين بعض المحافل الماسونية وعصابات المافيا في إيطاليا في العالم الأول ، وقد بدأوا في السيطرة على بعض المؤسسات المالية الشرعية ليمارسوا نشاطهم غير الشرعي وراء ستار . كما أن الماسونية تلعب دوراً تآمرياً ملحوظاً في بلد مثل تركيا ، حيث يمارس بقايا يهود الدونمه نشاطهم من خلال محافلها ، وهي جزء لا يتجزأ من المؤسسة العلمانية هناك ، بل

تشكِّل عمودها الفقري . ويُقال إن الماسونية لها أيضاً دور متميِّز في بلد مثل المملكة الأردنية الهاشمية .

ويُلاحظ أن رجال الشرطة في إنجلترا وكثير ممن يعملون في المؤسسات الأمنية والقضائية وبعض أهم أعضاء النخبة الحاكمة أعضاء في المحافل الماسونية . وقد طلبت الحكومة البريطانية من أعضاء جهاز الشرطة ممن ينتمون إلى محافل ماسونية أن يعلنوا ذلك، لأنه لوحظ أن أعضاء الشبكة الماسونية يُوظِّفون القوانين والإجراءات لصالحهم ولصالح زملائهم .

ولا توجد سلطة ماسونية مركزية على مستوى العالم ، بل يختلف تركيب الحركة من بلد إلى آخر ، فلا توجد على سبيل المثال سلطة ماسونية مركزية في أمريكا أو كندا إذ أن التنظيم الفيدرالي في هاتين الدولتين انعكس على شكل تركيب الحركة الماسونية ، على عكس الوضع في إنجلترا وفرنسا ، حيث توجد حكومة مركزية قوية ومن ثم محفل مركزي قوي .

أما بالنسبة إلى سرية المحافل ، فهذا أمر مركب أيضاً ، فالجمعيات الماسونية سرية بمعنى أن طقوسها وبعض الإشارات الأخرى فيها سرية ، ومن ينضم إلى الحركة يُقسم على ألا يكشفها (وهذا ميراث العصور الوسطى) . ولا تسمح الحركة الماسونية لأي شخص بالانضمام إليها ، وإنما يتم تجنيد الأعضاء عن طريق توصية أحد الأعضاء العاملين . والحركة الماسونية لا تختلف في هذا عن كثير من النوادي الخاصة وغيرها من المؤسسات . كما أن المحافل تخفي بعض الطقوس عن الأعضاء الجدد إلى حين التأكد من ولائهم . وما عدا ذلك ، فلا يوجد أي شيء سري ، إذ يتم تأسيس المحافل الماسونية بموافقة السلطات ، وكل اجتماعاتها معروفة سلفاً لدى هذه السلطات ، كما أن أعضاء المحافل معروفون في أغلب الأحيان لدى الحكومة . والمحافل الماسونية لا تخفي وجودها أو أهدافها أو عملها . وحينما صدر قانون حظر الجمعيات السرية في إنجلترا عام ١٧٩٨ ، استُثنيَت المحافل الماسونية من ذلك . وبإمكان أي باحث أن يطالع أرشيف محفل الشرق الأعظم في فرنسا . كما أن كثيراً من المحافل الماسونية تُقدِّم مضابط اجتماعاتها إلى السلطات الحكومية .

ولكن ، مع هذا ، تضطر بعض المحافل الماسونية إلى إخفاء أسماء أعضائها خوفاً من السلطات الحكومية في البلاد التي تلعب فيها هذه المحافل دوراً انقلابياً . ولابد أن نضيف هنا أن المحافل الماسونية تم إغلاقها في مصر لأنها رفضت أن تخضع لتفتيش وزارة الشئون الاجتماعية نظراً لأن هذا يتعارض مع ما تتطلبه الحركة من سرية وكتمان فيما يتصل بالطقوس . ورغم أن هذا هو رأينا ، إلا أننا نود أن ننبه إلى أن نموذجنا التفسيري يترك قدراً لا يُستهان به من الحوادث والوقائع دون تفسيره . فعلى سبيل المثال ، من المعروف أن عدداً كبيراً من رؤساء الجمهورية في الولايات المتحدة (ومنهم جورج واشنطن) كانوا من الماسونيين . كما لوحظ أن عدداً كبيراً من قادة الثورة الفرنسية - كما أسلفنا - كانوا أيضاً من الماسونيين . والواقع أن هناك شخصيات مهمة في كثير من الحكومات الغربية (في المعسكر الرأسمالي) أو الحكومات الشرقية (في المعسكر الاشتراكي) كانوا أعضاء في المحافل الماسونية ، ولكن عضويتهم تظل طي الكتمان . كما أن بعض الجرائم تشير إلى وجود شبكة ماسونية ، ولكن الوصول إلى الحقائق مازال في حاجة إلى مزيد من البحث الذكي والموضوعي (ويمكن أن تقول الشيء نفسه عن نوادي الروتاري والليونز ، التي يُثار حولها لغط شديد في مصر وغيرها من بلاد العالم الإسلامي ، دون أن تكون هناك شواهد متعيِّنة تشكل أساساً لمثل هذا اللغط) .

والآن يبلغ عدد الماسونيين في العالم نحو ٥٩ مليوناً ، منهم أربعة ملايين في الولايات المتحدة ومليون في إنجلترا . فإذا أضفنا عدد الماسونيين في كل من كندا وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا، فإننا نجد أن الماسونية منتشرة أساساً في البلاد البروتستانتية ، وخصوصاً الاستيطانية ، وهذا أمر متوقع إذ أنها نشأت أساساً في المحيط البروتستانتي ، شأنها شأن كثير من الحركات السياسية والفكرية المعاصرة ، كالصهيونية والعلمانية والنازية . وقد لوحظ مؤخراً تناقُص عدد الماسونيين في العالم بشكل ملحوظ (ولذا ، فقد تكون الأرقام التي أتينا بها غير دقيقة . وقد ورد في أحد المصادر أن العدد الآن لا يتجاوز ثلاثة ملايين) .

والماسونية جزء من التشكيل الحضاري الغربي بدأت مع بدايات الظاهرة العلمانية الكبرى وهي تُعد تعبيراً عنها . و«الماسونية الأولى» (ماسونية عصر الملكيات المطلقة) تعبير عن المراحل الأولى للعلمانية، تماماً كما أن الماسونية الثانية تعبير عن تصاعُد معدلات العلمنة . ويمكننا أن نقول كذلك بأن الماسونية فقدت دورها الثوري بوصفها إحدى مؤسسات العلمنة مع تحقيق أهداف الثورة العلمانية في معظم بلاد العالم الغربي وهيمنتها واكتسبت مضموناً آخر . وبالفعل ، بدأت المحافل الماسونية تتحول إلى ما يشبه النوادي التي تضم أعضاء لهم مصلحة مشتركة وتشكل إطاراً يتبادل داخله الأعضاء الخدمات ، شأنها في هذا شأن كثير من مؤسسات المجتمعات الغربية التي يقال لها متقدمة . ويمكن أن نطلق على هذا الضرب من الماسونية اسم «الماسونية الثالثة» .

أما في الولايات المتحدة ، فقد بدأت تظهر محافل ذات طابع

اجتماعي ترفيهي ، وهي محافل ليس لها وضع مُقنن داخل التنظيمات الماسونية ، وإن كان كثير من أعضائها من الماسونيين . ومن هذه المحافل «الطريقة العربية القديمة لنبلاء الحرم الصوفي» ، ويُقال لهم «الحرميون» ، و«الطريقة الصوفية لأنبياء المملكة المسحورة المثمين» . وبدأت بعض هذه المحافل تسمح للنساء بالانضمام إليها ، كما أُسست محافل للفتيان والفتيات . وتمنع المحافل الماسونية البريطانية أعضاءها من الالتحاق بأيٍّ من محافل الترفيه هذه ، إذ تُعدُّ نوعاً من الابتذال . وهذا النوع من الماسونية السوقية أو الماسونية المتأمركة أو ماسونية عصر الاستهلاك وما بعد الحداثة هي «الماسونية الرابعة» .

الماسونية واليهودية وأعضاء الجماعات اليهودية

Freemasonery and Judaism and Jewish Communities

قد يكون من المهم جداً ، حين نحاول تحديد علاقة الماسونية باليهود واليهودية ، أن نؤكد مرة أخرى الفرق بين أعضاء الجماعات اليهودية الخاضعين لحركيات الحضارات المختلفة التي ينتمون إليها واليهودية كنسق ديني أو حتى كتركيب جيولوجي . وقد يقول قائل إن الماسونية حركة لا علاقة لها بالدين بالمعنى الدقيق للكلمة باعتبارها حركة أخلاقية أخوية وحسب . فالدين علاقة بالخالق تأخذ شكل الإيمان به وعبادته ، أما الأخلاق فهي نسق من الأفكار ينظم علاقة الإنسان بالإنسان لا بالخالق ، ومن ثم فالماسونية تتعامل مع رقعة من الوجود الإنساني تختلف عن تلك التي يتعامل معها الدين . ولكن كلاً من التعريفين السابقين للأخلاق والدين قاصر ، فالدين هو إيمان الإنسان بالإله (المطلق ـ الغيب) كعقيدة تترجم نفسها إلى سلوك وإلى علاقة بين الإنسان والإنسان . ولكن الدين ليس فقط عبادات وإنما معاملات أيضاً . والأخلاق بدورها ليست مجرد مجموعة من القواعد الخارجية التي تحدد سلوك الإنسان تجاه أخيه الإنسان ، وإنما هي مجموعة من القواعد تستند إلى معنى داخلي يعتمد على رؤية للكون ، ومن هنا التداخل بين الدين والأخلاق ، وكذلك التداخل بين الماسونية والدين .

وقد بيَّنا أن الماسونية بدأت كدعوة ربوبية ، فهي نسق فكري ديني متكامل يستند إلى العقل (المادي) وحسب ، لا إلى العقل والغيب معاً ، يحدد علاقة الإنسان بالخالق وبالطبيعة وبطرق المعرفة . وهي تطرح أمام تابعيها طرق الخلاص وتتكفل بتعليم مريديها السلوك الأسمى ، وتزودهم بأساس فلسفي للأخلاق التي يؤمنون بها ، فضلاً عن أن اجتماعاتها تبدأ وتنتهي بصلاة . ولذا ، كان لابد أن تصطدم الماسونية بالأديان جميعاً : المسيحية الكاثوليكية ، والبروتستانتية ، والبهودية الأرثوذكسية وريثة اليهودية الحاخامية . وكانت المسيحية الكاثوليكية أكثر الديانات عداءً للماسونية ، فقد أعلن البابا كلمنت الثاني عشر عام ١٧٣٨ أن الماسونية كنيسة (أي ديانة) وثنية غير مقدَّسة (وهو في تصوُّرنا وصف دقيق لها) ، ولم يسمح للكاثوليك بالانضمام إليها . أما الكنائس البروتستانتية ، فبعضها فقط ناصبها العداء . أما اليهودية الأرثوذكسية ، فهي تحرِّم على اليهود الانضمام إلى المحافل الماسونية ، وتعتبر من ينضم إليها خارجاً على الدين ، هذا على خلاف الصيغ اليهودية المخففة مثل اليهودية الإصلاحية كما سنبين فيما بعد .

ويمكننا الآن أن نتناول علاقة الماسونية بأعضاء الجماعات اليهودية . وسوف تكون الصورة هنا أكثر تركيباً وتنوعاً واختلاطاً . وكما أشرنا ، تُشكِّل الماسونية دعوة ربوبية رخوة تعددية تستند إلى العقل ، وهي تطرح على المؤمن بها عقيدة متكاملة ، ولكنها لا تطلب منه أن يتخلى عن عقيدته الأصلية ، ولذا كان بإمكان كل أعضاء الديانات الانضمام إليها دون أن يضطروا إلى نبذ دينهم (وقد كان هناك محفل ديني في الصين يستخدم الإنجيل والقرآن وكتابات كونفوشيوس ككتب مقدَّسة) .

وقد ظهرت الماسونية في وقت كانت فيه اليهودية الحاخامية قد بدأت تدخل مرحلة أزمتها التي أودت بها في نهاية الأمر . فالفكر القبَّالي كان قد حل محل التلمود وقوض اليهودية من الداخل . كما أن شبتاي تسفي من جهة ، وإسبينوزا من جهة أخرى ، كانا قد شنَّا هجومهما الشرس في منتصف القرن السابع عشر على اليهودية من ناحيتي اليمين واليسار . وكان يهود البلاط والعنصر السفاردي قد حلاَّ محل القيادة الحاخامية التقليدية . كل هذا ، جعل الثورة العلمانية تترك أعمق الأثر في بعض أعضاء الجماعات اليهودية الذين كانوا قد بدأوا يضيقون ذرعاً باليهودية وأخذوا يبحثون عن مخرج لهم منها ، فظهرت بينهم حركة التنوير واليهودية الإصلاحية . وقد حل بعضهم أزمته بأن تَنصَّر . ولكن الانتقال إلى المعسكر المسيحي أمر صعب من الناحية المضمونية والتعبيرية ، فعقيدة مثل التثليث ، أو رمز مثل الصليب ، أمور من الصعب على كثير من اليهود تَقبُّلها .

وقد حلت الماسونية مشكلة هؤلاء اليهود الذين اغتربوا عن يهوديتهم ، والذين ازدادت معدلات العلمنة بينهم ، والذين كانوا يريدون الاندماج في مجتمع الأغيار ولكنهم لا يريدون التنصر . وكان ظهور الحركة الماسونية علامة على أن مجتمع الأغيار قد بدأ يفتح ذراعيه لهم ، وأصبحت المحافل الماسونية الأرضية الروحية والفعلية التي يمكن أن يلتقي أعضاء الجماعات اليهودية فيها مع قطاعات

مجتمع الأغلبية. وقد كانت هذه الأرضية تتسم بقسط معقول من الحياد، فرغم وجود رموز ذات أصل مسيحي، ومع أن الفكر الماسوني احتفظ ببعض الأفكار المسيحية، فقد كانت هناك رموز ذات مضمون علماني عام (رموز البناء) وهي رموز عامة ومحايدة. وماذا يمكن أن يكون أكثر حياداً من أدوات الهندسة التي يستخدمها البناء؟ بل كانت هناك رموز يهودية أيضاً: سليمان والهيكل وكلمات عبرية. كما كانت هناك رموز كونية عامة يمكن أن يشارك أعضاء الجماعات اليهودية فيها. ولكن الأهم من كل هذا أنه لم يكن مطلوباً منهم اعتناق دين جديد أو رفض دينهم القديم، فكل ما كان مطلوباً منهم هو إزاحته جانباً أو تهميشه وإعادة تأسيس عقيدتهم على العقل لا الغيب. ولذا، انخرط اليهود بأعداد متزايدة في صفوف الماسونية. ويُلاحَظ أن أول الماسونيين بين اليهود كانوا من السفارد، إذ أن معدلات العلمنة كانت مرتفعة بين العنصر السفاردي. ثم بدأت تنخرط في سلك المحافل الماسونية عناصر يهودية أخرى تزايدت بينها معدلات العلمنة، مثل: أتباع اليهودية الإصلاحية، وبقايا العناصر الشبتانية، واليهود الذي تأثروا بالقبَّالاه. ولذا، يجب أن نؤكد أن أعضاء الجماعات اليهودية الذين انضموا إلى المحافل بأعداد متزايدة فعلوا ذلك لا بسبب يهوديتهم أو عقيدتهم، وإنما بالرغم منها. بل إن انخراطهم في المحافل الماسونية يمثل بالنسبة لبعض اليهود صياغة دينية مخففة تساعدهم على التخلص من هويتهم الدينية بدون إحساس بالحرج من عدم وجود إيمان ديني على الإطلاق.

وقد برز اليهود في الحركة الماسونية، وخصوصاً في إنجلترا حيث التحقوا بالحركة عام ١٧٣٢، وأُسِّس أول محفل ماسوني يهودي عام ١٧٩٣. أما في فرنسا، فقد أصبح السياسي الفرنسي اليهودي أدولف كريمييه (١٨٦٩) البنَّاء الأعظم للمحفل الأكبر على الطريقة الاسكتلندية. وكان هناك كثير من مؤسسي المحافل الماسونية التي كان ينضم إليها أعضاء الطبقة الوسطى المعادون للكنيسة الكاثوليكية. ولكن الصورة لم تكن واحدة في كل البلاد، ففي شبه جزيرة إسكندنافيا، وكذلك في ألمانيا، ظلت مشاركة اليهود في الحركة الماسونية مسألة خلافية، وقد سُمح (حتى عام ١٨٧٠) لعدد صغير جداً من اليهود بالانخراط في سلك الحركة. وكان بعض المحافل يقبل اليهود ولكن داخل إطار ألماني مسيحي. فمحفل الإخوة الآسيويين، الذي أُسِّس في فيينا خلال عامي ١٧٨٠ و١٧٨١، كان ضمن طقوسه أكل لحم الخنزير باللبن. وكما هو معروف، فإن لحم الخنزير محرم على اليهود، وكذلك فإن خلط اللحم باللبن محرم عليهم أيضاً.

وقد تزايد إقبال اليهود على الانخراط في المحافل الماسونية في ألمانيا، وقامت دعوة بين الماسونيين الألمان تطالب بقبول اليهود كأعضاء في الحركة. لكن هذه الدعوة لم تنل تأييد زعامة الحركة، وقد تحوَّل بعض يهود ألمانيا إلى الماسونية أثناء رحلاتهم في إنجلترا وهولندا، وخصوصاً في فرنسا ما بعد الثورة. وقد تأسست في ألمانيا نفسها محافل فرنسية ومحافل بمبادرة فرنسية، وأسس يهود فرانكفورت عام ١٨٠٨ محفل «الفجر الوليد» بتصريح من منظمة الشرق الأعظم. ولا شك في أن مثل هذه المحافل الفرنسية اليهودية زادت من عداء الماسونيين الألمان لليهود. ومن ثم، ظهرت دساتير ماسونية تستبعد اليهود بشكل خاص. ولكن بعض المثقفين الماسونيين الألمان قاموا في ثلاثينيات القرن بالاحتجاج على استبعاد اليهود، وانضم إليهم في احتجاجهم هذا ماسونيو إنجلترا وهولندا والولايات المتحدة. وقد اكتسحت ثورة ١٨٤٨ بعض الفقرات التي تستبعد اليهود، واعترفت المحافل المسيحية في فرانكفورت بالمحافل اليهودية. وقد كانت محافل بروسيا هي الاستثناء الوحيد حيث استمرت في استبعاد اليهود، ولكنها بدأت مع السبعينيات تسمح بدخول اليهود زواراً ثم أعضاء.

ولكن الموجة العنصرية التي صاحبت الهجمة الإمبريالية على الشرق، اكتسحت أوربا بأسرها وأخذت أشكالاً عديدة من بينها معاداة اليهود. وتقوم بعض أدبيات معاداة اليهود بالربط بين اليهود والماسونيين وتذهب إلى أن ثمة تعاوناً سرياً بين الفريقين للسيطرة على العالم، ولتخريب المجتمعات. وقد ترددت هذه الفكرة إبان محاكمة دريفوس. كما أن هذا الموضوع نفسه يتردد أيضاً في **البروتوكولات**. وقد كان الربط بين اليهود والماسونيين أحد أحجار الزاوية في الدعاية النازية المضادة لليهود، حيث كان النازيون يشيرون دائماً إلى كريمييه باعتباره البنَّاء الأعظم ومؤسس جمعية الأليانس اليهودية.

وغني عن القول أن مثل هذه العلاقة التآمرية المباشرة لا وجود له. وحسب ما توافر لدينا من وثائق، ليست هناك هيئة مركزية عالمية تضم كل المحافل الماسونية. كما أن هناك يهوداً معادين للماسونية وماسونيين معادين لليهود واليهودية. ولكن ثمة علاقة بنيوية وفعلية بين الماسونيين وأعضاء الجماعات اليهودية تفسر انخراط اليهود بأعداد كبيرة في المحافل الماسونية يمكن إيجازها في النقاط الثلاث التالية:

١ - من المعروف أن الماسونيين معادون للكنيسة والكهنوت. وهذه نقطة لقاء بينهم وبين أعضاء الجماعات اليهودية الذين فقدوا إيمانهم الديني - وهم الآن أغلبية يهود العالم. ويتصور هؤلاء أن المجتمعات

العلمانية تضمن لهم أمنهم وحقوقهم ، ومن ثم ينخرطون بأعداد كبيرة في المحافل الماسونية . وهذه الظاهرة يمكن رصدها في أمريكا اللاتينية بينما يَصعُب رَصْدها في فرنسا وإنجلترا ، على سبيل المثال ، لأن الكاثوليكية في أمريكا اللاتينية لا تزال الإطار المرجعي للمجتمع ، ومن ثم تأخذ محاولات العلمنة شكلاً تنظيمياً محدداً مثل المحافل الماسونية . أما في إنجلترا وفرنسا ، فإن العلمانية أصبحت الدين الرسمي للدولة ، ومن ثم تفقد المحافل الماسونية قيمتها الوظيفية والرمزية .

٢ ـ تضم المحافل الماسونية أعداداً كبيرة من العناصر المالية والتجارية والمهنية . كما أن التركيب الوظيفي والمهني ليهود العالم يجعل أغلبيتهم الساحقة من هذه القطاعات ، إذ لا يوجد بينهم عمال أو فلاحون ، ومن ثم تزداد نسبتهم في المحافل الماسونية .

٣ ـ الحركة الماسونية حركة أممية تتجاوز الولاءات القومية (كما أن إنسان عصر الاستنارة هو إنسان أممي) . وقد كان أعضاء الجماعات اليهودية أعضاء في جماعات وظيفية وسيطة تقلل من الولاء للوطن وتجعل الولاء للجماعة الوظيفية أو المصالح المالية . كما أن فترة ظهور الماسونية هي أيضاً الفترة التي بدأ فيها يهود اليديشية في الهجرة بأعداد هائلة إلى كل أطراف العالم . والعناصر المهاجرة ليس لها ولاء قومي قوي . لكل هذا ، نجحت المحافل الماسونية في اجتذاب بعض أعضاء الجماعات اليهودية فتزايدت معدلات العلمنة وضعف الانتماء القومي . ولعل في تَرَكُّز اليهود في القطاعات المالية والتجارية ما يفسر وجودهم بأعداد كبيرة في المحافل الماسونية . وحينما يربط المعادون لليهود بينهم وبين الحركة الماسونية ، فإنهم محقون في ذلك تماماً إذ أن نسبة أعضاء الجماعات اليهودية في المحافل الماسونية عادةً ما تكون أعلى كثيراً من نسبتهم إلى عدد السكان . ولكن الخلل يبدأ حينما يطرحون تصوُّر وجود مؤامرة خفية ، والأمر كله لا يعدو أن يكون ظاهرة اجتماعية . فالخلل ليس في الوصف وإنما في التفسير .

وقد اشترك بعض أعضاء الجماعات اليهودية في تأسيس الحركة الماسونية في الولايات المتحدة ، وثمة دلائل تشير إلى أنه كان يوجد أربعة يهود بين مؤسسي أول محفل ماسوني عام ١٧٣٤ في الولايات المتحدة (سافانا في ولاية جورجيا) . ولقد اتُّبِعَت الطقوس الماسونية في وضع حجر أساس المعبد اليهودي في تشارلستون (ساوث كارولينا) عام ١٧٩٣ . واستمر وجود اليهود البارز في المحافل الماسونية في القرن التاسع عشر . وقد كتب محفل نيويورك إلى محفل برلين الأساسي يشكو من رفض المحافل الألمانية أن تقبل أعضاء المحافل الأمريكية في صفوفها لأنهم يهود . والواقع أن الماسونية الأمريكية ، مثل كل المؤسسات الأمريكية ، تتسم بأنها لم تعرف التمييز ضد اليهود أو غيرهم من الأقليات والطوائف البيضاء ، وقد تبنت جماعة البناي بريت اليهودية عند تأسيسها بعض الطقوس الماسونية السرية ، ولكنها أسقطتها بعد فترة .

أما في فلسطين ، فقد تأسست محافل ماسونية بين العرب (المسلمين والمسيحيين) والأجانب (المسيحيين واليهود) . وبعد إنشاء الدولة الصهيونية ، بلغ عدد المحافل الماسونية أربعة وستين محفلاً سنة ١٩٧٠ ، تضم ثلاثة آلاف وخمسمائة عضو من اليهود والمسيحيين والمسلمين .

وقد قامت بعض المحافل الماسونية العربية بنقد الصهيونية واشترك بعض القيادات الماسونية في المقاومة ضد الاستيطان الصهيوني . وعكس ذلك صحيح أيضا ، إذ رفضت بعض المحافل الماسونية التصدي للصهيونية باعتبار هذا نوعاً من العمل السياسي .

إفرايم هيرشفيلد (١٧٥٥-١٨٢٠)

Ephraim Hirshfeld

ألماني يهودي وماسوني وُلد باسم جوزيف هرشيل دار مستاد . درس الطب في ستراسبورج ، كما تلقى تعليماً تقليدياً . عمل من ١٧٧٩ حتى ١٧٨١ معلماً في منزل ديفيد فرايدلاندر ، وكان يتردد على منزل موسى مندلسون ويدور في أوساط المستثمرين الألمان . التقى عام ١٧٨٢ بمؤسس إحدى الحركات الماسونية ذات الاتجاه الثيوصوفي والتي كانت تضم في صفوفها رهباناً مسيحيين وبعض أعضاء الأرستقراطية . وكان دوبروشكا (أحد قيادات الحركة الفرانكية) من مؤسسي هذا المحفل ، وقد أدخل في الأدبيات الماسونية بعض المقتطفات من الأدب الشبتاني . وكان المموِّل الألماني اليهودي هانز إيكر فون إيكهوفن من ضمن مؤسسي هذا المحفل . وقد فتح أبوابه أمام المموِّلين اليهود الآخرين الذين كانوا يودون الاندماج في المجتمع المسيحي . ومما له دلالته أن هذه الخطوة كانت تُعَدُّ ثورية ، فقد كان كثير من الماسونيين حتى ذلك الوقت يعترضون على السماح لأعضاء الجماعات اليهودية بالانضمام إلى محافلهم . وقام بعضهم بشن الهجوم العنيف على هيرشفيلد . ولكنه نجح في نهاية الأمر في الانضمام بل أصبح سكرتيراً لإيكهوفن واتخذ اسم ماركوس بن بيناه . وبعد ذهاب دوبروشكا ، احتل هيرشفيلد دوراً قيادياً في المحفل ، ثم عاش في فيينا حتى عام ١٧٨٦ (حيث اتخذ اسم هيرشفيلد) ثم انتقل إلى شليسنج عام ١٧٩١ بعد أن أصبحت

مقر التنظيم الماسوني الذي كان ينتمي إليه . وقد طُرد هيرشفيلد من التنظيم بسبب معركة نشبت بينه وبين إيكهوفن وقُبض عليه لعدة شهور ولكنه أُفرج عنه . عكف هيرشفيلد على ترجمة الأعمال الصوفية لهذا التنظيم حتى بدا أنها من أصل عبري أو آرامي .

وبعد أن عاش فترة قصيرة في ستراسبورج مع صديقه دوبروشكا ، قضى بقية حياته متنقلاً بين فرانكفورت ودافينباخ ، واحتفظ بعلاقات وثيقة بأعضاء الحركة الفرانكية . وقد حاول هيرشفيلد أن يزاوج بين المسيحية واليهودية داخل إطار صوفي حلولي قبَّالي (وهو ما كانت تحاول الحركة الفرانكية إنجازه) . وقد نشر هو وأخوه تفسيراً ثيوصوفياً قبَّالياً للفقرات الأولى من سفر التكوين . وكان ينوي إصدار سلسلة متكاملة من التفسيرات الصوفية للعهد القديم .

وتشير حياة هيرشفيلد إلى مدى الترابط والتداخل بين حركات مثل الفرانكية والماسونية والاستنارة . ولا يمكن إدراك هذه الوحدة إلا من خلال نموذج الحلولية حين يحل الخالق في المخلوق فتسقط الحدود ويصبح عقل الإنسان (أو رغباته أو أحلامه أو رؤاه) المعيار الوحيد .

وتُبيِّن سيرته الفكرية أيضاً أن الحلولية الكمونية هي الإطار الذي تلتقي فيه المسيحية باليهودية ويتحللان ليصبحا نسقاً واحداً يُسمَّى الآن «التراث اليهودي المسيحي» وهو في واقع الأمر ليس يهودياً ولا مسيحياً .

البهائية

Bahaism

«البهائية» عقيدة جديدة دعا إليها ميرزا حسين علي نوري (١٨١٧ ـ ١٨٩٢) الذي كان يُلقَّب بـ «بهاء الله» . وتعود جذور هذه العقيدة إلى البابية التي أُسِّست عام ١٨٤٤ على يد ميرزا علي محمد الشيرازي الذي نشأ في وسط باطني متصوف وأعلن أنه الباب (الطريق إلى الله) . وذهبت البابية إلى أن ثمة نبياً أو رسولاً جديداً سيرسله الله . وكانت البهائية في بداية أمرها شكلاً متطرفاً من أشكال العقيدة في الفرقة الإسماعيلية ، ومن عقيدة الإمام الخفي الذي سيظهر ليجدد العقيدة ويقود المؤمنين .

وقد انتشرت البابية رغم تنفيذ حكم الإعدام في الباب عام ١٨٥٠ وقَتْل ما يزيد على عشرين ألفاً من أتباعه . وقد قام البابيون بمحاولة اغتيال الشاه ، فنُفي قائدهم آنذاك ميرزا حسين علي إلى بغداد عام ١٨٥٣ . وفي عام ١٨٦٣ ، أعلن ميرزا أنه رسول الله الذي تنبأ به الباب ، وأعلن عن رسالته بخطابات أرسلها إلى حكام كل من : إيران وتركيا وروسيا وبروسيا والنمسا وإنجلترا . واعترف به أغلبية البابيين الذي أصبحوا يُسمَّون «البهائيين» . ونُفي ميرزا حسين إلى عكا في فلسطين ، وتُوفي عام ١٨٩٢ حيث تحوَّل قبره في بهجي (أي الحديقة بالفارسية) إلى أقدس مزارات البهائيين . وقد خَلَفه في قيادة الجماعة البهائية أكبر أبنائه عباس أفندي الذي سُمِّي عبد البهاء (١٨٤٤ ـ ١٩٢١) والذي أصبح كذلك المفسِّر المعتمد لتعاليمه . وقد سافر عبد البهاء إلى عدة بلاد لينشر تعاليم الدين الجديد من عام ١٩١٠ إلى عام ١٩١٣ . وعيَّن أكبر أحفاده شوجي أفندي رباني (١٨٩٦ ـ ١٩٥٧) خليفةً له ومفسراً لتعاليمه . وقد انتشرت تعاليم البهائية في أنحاء العالم .

وكتب البهائية المقدَّسة هي كتابات بهاء الله التي كُتبت بالعربية والفارسية ، مضافاً إليها التفسيرات التي وضعها عبد البهاء وشوجي أفندي . وتتضمن هذه الكتابات التي تزيد على المائة منها **الكتاب الأقدس** الذي يحوي كل مفاهيم مذهبه وكل تشريعاته ، و **كتاب الإيقان** ، وهو دراسة عن طبيعة الخالق والدين ومجموعة الألواح المباركة ، و **كتاب الإشراقات والبشارات** ، و **كتاب الأساس الأعظم**، وله قصيدة أسماها **ورقائية** .

وجوهر البهائية هو الإيمان بالحلول الكامل أو بوحدة الوجود أي توحد الخالق مع مخلوقاته . فالخالق جوهر واحد ليس له أسماء ولا صفات يمكن أن تصفه ولا أفعال ، ولا يمكن الوصول إليه (ولا توجد أدلة على وجوده أو غيابه مثل الإله الخفي في الفكر القبَّالي أو الباطني الغنوصي) ، وهو إلى حدٍّ ما يشبه القوانين الطبيعية غير الشخصية التي لا علاقة لها بالأنساق الأخلاقية (كما هو الحال مع مفهوم الإله عند إسبينوزا) . والخالق واحد ليس له شريك في القوة والقدرة وهو الذي خلق الكون . ولكن هذا الكون ليس شيئاً آخر سوى تجلٍّ للخالق ، بل إنه هو ذاته الخالق (أي أن الخالق ومخلوقاته مادة واحدة لا تنفصل ولا تتجزأ) . وقد لُخِّصت هذه الحلولية في القول البهائي الذي يُنسَب إلى الخالق : «الحق يا مخلوقاتي أنكم أنا» . والبهائية ، في هذا ، لا تختلف كثيراً عن غلاة المتصوفة والباطنية ، ولا عن الفكر القبَّالي أو الغنوصي ، حيث لا توجد أية مسافة أو ثغرة بين الخالق والمخلوق ، بل ثمة اتحاد وحلول واحدية (على خلاف التصور الإسلامي للخالق الذي يرى أن الله قريب من عباده ولكنه ليس كمثله شيء ، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد ولكنه لا يجري في عروقنا ولا تدركه الأبصار) .

ولكن ، إذا كان الخالق هو مخلوقاته ، فالحقيقة الدينية تصبح حقيقة نسبية وليست مطلقة لأن كل الأشياء يحل فيها الخالق وتلفحها لفحة من القداسة . والحقيقة تعبر عن نفسها من خلال الزمان

وداخله، ولا يختلف تجلِّي الرب في أي شيء عن تجليه في أي شيء آخر. فتصبح كل الأمور مقدَّسة، ومن ثم تصبح كل الأمور متساوية. وفي نهاية الأمر، تصبح كل الأمور نسبية، أي أن المطلق المتجاوز يختفي في لحظة التحام الخالق بالمخلوق. وقد شاء الخالق (وإن كان يصعب في هذا السياق أن نتحدث عن «مشيئة الخالق» فهو لا يتجاوز مخلوقاته) أن يتجلى من خلال رسله، مثل: براهما، وبوذا، وزرادشت، وكونفوشيوس، وإبراهيم، وموسى وعيسى، ومحمد (عليه الصلاة والسلام)، وتضم القائمة الباب ثم بهاء الله الذي تظهر من خلاله صفات الخالق بشكل أوضح وأجلى مما كانت عليه. بل إنه داخل الإطار الحلولي يكون بهاء الله هو ذاته الخالق. ومن ثم وجَّه البهائيون سهام نقدهم إلى الفكرة الإسلامية الخاصة بأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) خاتم المرسلين، ففي رأيهم أن كل عصر يحتاج إلى تجلٍّ إلهي. وثمة تَشابُه عميق هنا بين بنية البهائية وبنية اليهودية الحاخامية، فكلتاهما تؤكد استمرار الوحي الإلهي في التاريخ الإنساني أو استمرار الحلول الإلهي (في الحاخامات حسب النسق اليهودي، وفي بهاء الله حسب النسق البهائي). وهو تَشابُه سنلاحظه في جوانب أخرى من النسقين الدينيين. كما يُلاحَظ أن هذا التشابه يزداد عمقاً بين البهائية والقبَّالاه. ومن المنظور البهائي، فإن جوهر كل الأديان واحد. ومع هذا، فإن كل دين له سماته الخاصة التي تجيب حاجة كل زمان ومكان وتتفق مع المستوى الحضاري السائد. وحيث إن الخالق يكشف عن نفسه بشكل تدريجي، فإن كل دين سيحل محله دين آخر، ومن ذلك العقيدة البهائية نفسها، ولكن ذلك لن يتم قبل ألف عام.

ولكن مهمة الأديان في هذا السياق هي خلق وحدة شاملة بين البشر تزداد تسعاً مع مرور الزمن. فإبراهيم قام بتوحيد قبيلة، وموسى قام بتوحيد شعب، ومحمد (عليه الصلاة والسلام) قام بتوحيد أمة، أما المسيح فكان هدفه تطهير الأرواح وتحقيق قداسة الفرد، وقد تحققت بالفعل مهمة كل تجلٍّ إلهي. ولكن هذا لا يكفي إذ أن الحضارة ـ في هذا التصور ـ وصلت إلى مرحلة أصبحت معها وحدة الإنسان (وبالتالي وحدة الأديان) مسألة ضرورية. وهذه مهمة بهاء الله الذي ستتحقق على يديه وحدة الأديان وقداسة البشرية بأجمعها. وخالق العالم قد خلق الإنسان من خلال حبه له، والإنسان أنبل المخلوقات جميعاً خلقه الإله ليعرفه ويعبده. وهذا أمر يصعب فهمه في إطار حلولي، فالخالق هو المخلوق. ومن ثم، إذا عبد المخلوق الخالق فإنه يعبد نفسه أو يعبد قوة خفية لا يمكن الوصول إليها تشبه قوانين الطبيعة. وثمة تذبذب حاد ومتطرف هنا، بين الذاتية المتطرفة والموضوعية المتطرفة، يسم كل الأنساق الحلولية. ففي اليهودية نجد أن الشعب يتوحد تماماً مع الخالق، ومن ثم تصبح إرادة الشعب من إرادة الخالق. بل إن الخالق يحتاج إلى الشعب لتكامله. ولكن هذا الشعب لا إرادة له لأنه أداة في يد الخالق.

ويميِّز البهائيون بين خمسة أنواع من الأرواح: الحيوانية، والنباتية، والبشرية، وكلها أرواح زائلة فانية (ولذا يذهب بعض دارسي البهائية إلى القول بأنها لا تؤمن بخلود الروح)، وروح الإيمان (وهي وحدها التي تمنح الروح البشرية الخلود)، ثم أخيراً الروح القدس (وهي منطقة الحلول الكامل ووحدة الوجود حيث يصبح الخالق مخلوقاً والمخلوق خالقاً)، والواقع أن هذه الهرمية لا تختلف كثيراً عن هرمية المنظومتين الغنوصية والقبَّالية. ويبدو أن الروح البشرية، كالخالق، ليست لها حدود واضحة، إذ أن هذه الروح بعد أن تنفصل عن الجسد قد تحل في شخص آخر وتأخذ شكلاً آخر من الوجود. وفكرة تناسخ الأرواح سمة أساسية في مختلف الأنساق الحلولية التي تنكر حدود الفرد وتنكر المسئولية الخلقية، تماماً كما هو الحال في القبَّالاه.

ولا يؤمن البهائيون بالجنة والنار، فهما مجرد رموز لعلاقة الروح بالخالق ليس إلا، فالقرب من الخالق هو الجنة والبُعد عنه هو النار التي تؤدي إلى الفناء الكامل للروح. لكن الإيمان في تصورهم هو الذي يضمن (كما أسلفنا) الخلود، والخلود يعني استمرار الرحلة نحو جوهر الخالق الخفي للاتحاد به. وفي داخل هذا النسق الحلولي، لا يمكن أن يكون هناك مجال للثواب أو العقاب أو البعث. ولا يوجد في البهائية كهنة أو قرابين، فهم يشكلون ما يمكن تسميته بالثيوقراطية الديموقراطية التي تتمثل في هيئتين حاكمتين: إحداهما إدارية والأخرى تعليمية. أما الهيئة الإدارية، فتتكون من المجالس الروحية القومية، وأما المجالس المحلية فتتكون من تسعة أشخاص (التي يمكن تأسيسها أينما وُجد تسعة بهائيين)، وبيت العدل العمومي (وهو الهيئة العليا ولها سلطة تغيير كل القوانين حينما تدعو إلى ذلك التغيرات الدنيوية، فيمكنها أن تلغي القوانين التي وردت في **الكتاب الأقدس** وأن تصوغ قوانين جديدة لم ترد فيه)، ثم هناك الهيئة التعليمية (وهي الأخرى مكوَّنة من بناء هرمي من المجالس والقادة). ويتم انتخاب أعضاء المجالس الإدارية عن طريق الأعضاء. ويُعتبر الانتخاب شكلاً من أشكال العبادة، وما الناخب سوى أداة الخالق، ومن ثم لا يكون العضو المنتخب مسئولاً أمام ناخبيه.

ويصلي البهائيون يومياً (قبلتهم القدس). وبرغم أنه يُفترض عدم وجود أماكن عامة للعبادة، فإن **الكتاب الأقدس** قد أوصى

بتشييد معابد تُسمَّى «مشرق الأذكار» ، وهو بناء من تسعة جوانب عليه قبة مكوَّنة من تسعة أقسام وهي مفتوحة لكل أعضاء الديانات الأخرى . ويصوم البهائيون شهراً بهائياً (١٩ يوماً) كصيام المسلمين (ينتهي بعيد النيروز) ولا يشربون المشروبات الروحية ويجتمعون في بداية كل شهر بهائي . ولهم قوانين خاصة بالميراث ، فالمعلِّم يرث جزءاً من ثروة البهائي ويتساوى الرجل بالمرأة في كل شيء . وقد جعلوا الحج إلى مقام بهاء الله في عكا . والتقويم البهائي يتكون من تسعة عشر شهراً ، والشهر يتكون من تسعة عشر يوماً ، ويبدأ العام البهائي في ٢١ مارس أول أيام الربيع . ومن ناحية أخرى ، فإن التقويم البهائي يشبه التقويم الفارسي .

ويحتل الرقم ١٩ مكانة خاصة في الفكر البهائي . والبهائية ، في هذا ، تشبه تراث القبَّالاه والجماتريا الذي ركَّز على القيمة العددية للحروف ، فتُحسَب القيمة الرقمية للكلمات وتُستخلَص منها النتائج التي يريد أن يصل إليها المفسر (وهذه سمة متكررة أيضاً في الأنساق الحلولية التي تدرك الكون من خلال نسق هندسي حتمي) . فيقول البهائيون إن عدد حروف البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) ١٩ ، وأن كلمة (واحد) قيمتها العددية ١٩ (و = ٦ ، الألف = ١ ، ح = ٨ ، د = ٤) . ويستخرج البهائيون من الرقم ١٩ براهين ودلائل على أشياء عديدة .

ويصعب حساب عدد البهائيين في العالم ، ويُقال إنه يتراوح بين مليون ونصف ومليونين ، وكان يوجد عام ١٩٨٥ نحو ١٤٣ مجلساً روحياً قومياً يتبعها ٢٧,٨٨٦ مجلساً محلياً في ٣٤٠ بلدة مختلفة . وترجمت تعاليم البهائية إلى أكثر من ٧٠٠ لغة . وفي هذه الأيام ، تحقق العقيدة البهائية انتشاراً سريعاً في أفريقيا والهند وفيتنام حيث يصل عدد البهائيين إلى مئات الألوف . ويتحول عدد كبير من الهنود وسكان أمريكا اللاتينية الأصليين إلى البهائية . ففي بيرو وبوليفيا ، على سبيل المثال ، توجد قرى بأكملها بهائية ، وقد اعتنق ملك سموا Samoa العقيدة البهائية . ويمكن تفسير انتشار البهائية باعتباره تعبيراً عن ضعف كثير من الأطر الدينية التقليدية ، وتعبيراً عن تزايد معدلات العلمانية ، إذ تؤدي هذه العملية إلى أن قطاعات كبيرة من المجتمع تفقد الإيمان بعقيدتها التقليدية ، ولكنها لا يمكنها التخلي عن الدين تماماً أو عن فكرة الخالق . والواقع أن رغبتهم العامة في الإيمان تُشبعها هذه العقيدة التي تستخدم الخطاب الديني دون إشارة إلى عقيدة محددة أو طقوس محددة ، وهو عادةً خطاب حلولي واحدي يمحو كل الثنائيات وأشكال التنوع إذ يتم اختزال الواقع إلى مستوى واحد ويتم رده إلى مبدأ واحد ، وهو الإله الحال الذي لا يختلف عن قوانين المادة الكامنة فيها ، ومن ثم فهو خطاب ديني اسماً ولكنه مادي فعلاً إذ أن الخالق يصبح مخلوقاته أو يصبح قوة عامة مجردة غير شخصية مثل قوانين الطبيعة وفكرة التقدم . والبهائية ، في هذا ، تشبه الربوبية والماسونية واليهودية التجديدية .

وعند نشوب الثورة الإسلامية في إيران ، كان يوجد ٣٠٠ ألف بهائي في إيران يشكلون جماعة وظيفية وسيطة تشتغل بالتجارة والمال والأمن . واستفاد نظام الشاه من وجودهم . وقد تعاون البهائيون مع الإسرائيليين ، وكانوا يديرون مؤسسة الأمن في إيران ، كما كانت لهم أنشطة أخرى . وقد حُرِّم نشاطهم بعد قيام الثورة الإسلامية في إيران .

وفيما يتعلق بعلاقة البهائية بالعقيدة والجماعات اليهودية ، فقد بيَّنا أن ثمة تماثلاً بنيوياً بين البهائية واليهودية في جانبها الحلولي . ولعل هذا هو السر في أن البهائية تجتذب كثيراً من اليهود الذين يعتنقون العقيدة البهائية . ففي إيران ، مهد العقيدة ، تبنَّى كثير من أعضاء الجماعة اليهودية البهائية ، وهو ما جعل الحاخامات يحاربون ضدها بشراسة . ولا يزال هذا موقف اليهودية الأرثوذكسية منها . ويُلاحَظ أن يهود الولايات المتحدة في الوقت الحالي يتجهون أيضاً إلى الماسونية والعبادات الجديدة والعقائد الغنوصية بأعداد كبيرة ، وإن كانت الإحصاءات الدقيقة غير متوافرة . ومع هذا ، فمن المعروف أن البهائية أصبح لها أتباع كثيرون في منطقة كاليفورنيا المعروفة بوجود كثافة يهودية عالية فيها .

والأمر ليس مؤامرة بهائية ضد اليهودية ، وإنما هو تشابك بين نسقين عقيديين يستجيبان للاحتياجات نفسها ويجيبان عن الأسئلة نفسها بالطريقة السهلة نفسها . ومما يُسهِّل عملية اعتناق اليهود للبهائية أن ثمة تعاطفاً يسري في العقيدة البهائية نحو اليهودية والدولة الصهيونية . فقد كان عباس أفندي يرى أن الخلاص مرتبط بعودة اليهود إلى أرض الميعاد ، ولكنه كان يرى أيضاً أن النجاح الذي بدأ اليهود في فلسطين يحققونه في عهده دليل على عظمة بهاء الله وعلى عظمة دورته الإلهية ، وفي كتاب **المفاوضات** ورد ما يلي : "أنت تلاحظ وترى أن طوائف اليهود يأتون إلى الأرض المقدَّسة من أطراف العالم ، ويمتلكون القرى والأراضي ويسكنون ويزدادون يوماً بعد يوم حتى تصبح جميع أراضي فلسطين سكناً لهؤلاء" . وهو بذلك قد أخذ العقيدة الألفية البروتستانتية وأعطاها بعداً بهائياً .

وفي ٣٠ يونيه ١٩٤٨ ، كتب أشوجي أفندي رباني ، زعيم الحركة البهائية آنئذ ، إلى بن جوريون يعبِّر له عن أطيب تمنياته من أجل رفاهية الدولة الجديدة مشيراً إلى أهمية تجمُّع اليهود في «مهد عقيدتهم» . ومن المعروف أن مركز البهائية هو «بيت العدل» الذي

أُعدت نهـايـة ضـخمـة في حيفـا على جبل الكرمل في أبريل ١٩٨٣ ، والذي يديره تسعة بهائيين يتم انتخابهم . وقامت الجماعة البهائية بإعداد قصر ضخم في حيفا حتى يكون مزاراً لكل بهائيي العالم .

ولكن هذا لا يعني بتاتاً أن كل البـهائيين يؤيدون الصـهيـونيـة وإسـرائيل . فالجماعـات البـهائيـة تدين بالعـقيـدة نفسـهـا ، ولكن اتجاهاتهـا السـيـاسيـة تختلف باخـتـلاف الظروف الاجـتـمـاعيـة والتاريخية . وما ينطبق على البهائية ينطبق على كل الأديان ، فيوجد مثلاً مسيحيون صهيونيون في أوربا يؤيدون إسرائيل ، وترى بعض الفرق المسيحية الصهيونية في أمريكا أن الخلاص مرتبط بعودة اليهود إلى صهيون . ويجدر بنا أن نذكر هنا أن البهائيين العرب يؤكدون أنهم يدينون بالولاء إلى وطنهم العربي وحسب ، وقد يكون في هذا بعض الصـدق ، أو لعله من باب التـقـيـة (أي الإيمان بشيء وإظهـار شيء آخر) . والباب مازال مفتوحاً لاجتهاد المجتهدين .

الموحدانيــــة

Unitarianism

«الموحدانية» عـقيـدة مسـيحيـة تنكر عقيدة التثليث ولاهوت المسيح (أي كونه إلهاً أو ابن الإله) ، وهي نتاج حـركـة الاستنارة والعقلانية . ويمكن القول بأنها شكل من أشكال الربوبية ، أي صيغة شبه علمانية للمسيحية ، ولذا فإن أتباع هذه العقيدة لا يعتبرونها عقيدة وإنما مجرد أسلوب في الحياة !

وعقيدة الموحدانية نتاج بعض التيارات داخل المسيحية نفسها . وأولى هذه العقـائد الإيمان بأن سقـوط الإنسـان لم يكن كـاملاً وأنه يحتوي داخله عناصر من الخير ، ومن ثم فهو قادر على العمل من أجل الخلاص والوصول إليه من خلال جهده وأعماله الخيرة . وقد حارب القديس أوغسطين ضـد بيلاجيوس ، الراهب البريطاني (المتوفي عام ٤٢٠م) الذي ركز اهتمامه على إمكانيات الخير الكامنة داخل النفس البشرية وفي إمكانية خلاص الفرد المسيحي . أما العنصر الثاني فهو رفض التثليث ، كما فعل الراهب الإسباني سيرفيتوس الذي لم يرفض عقائد التثليث وحسب بل رفض مقولة الحمل بلا دنس ، وأكد أن عقيدة التثليث لا أساس لها في الكتاب المقدس وأن الآباء الأوائل لا يعرفون هذه التميزات وأن مصدرها هو الـفلاسـفة اليونان . ومثل هذه الأفكار شجعتها حركة الاستنارة التي هاجم مفكروها فكرة التثليث وأكدوا أن الإنسـان (لأنه كـائن طبيعي) لا يحوي داخله شراً ، فهو خيِّر بطبيعته .

وقد كانت عقيدة الموحدانية في بدايتها حركة دينية عقلانية جافة ، ويمكن تلخيص مبادئها الأساسية فيما يلي :

١ ـ يؤكد الموحدانيـون أُبُوة الإله بدلاً من مقدرته ، فالإله أب لكل البشر . وهو يكاد يكون مبدأ عاماً مجرداً كامناً في الطبيعة والإنسان غير مفارق لهما ، أي أن الموحدانية تدور في إطار الواحدية الكونية .

٢ ـ ينكر الموحدانيون التثليث ولاهوت (ألوهية) المسيح (مقابل الناسوت) ، فالمسيح ليس ابن الإله وإنما هو بشر ، مجرد قائد عظيم ، وصَلْبه هو الثمن الذي يدفعه أي قائد عظيم دفاعاً عن مُثُله .

٣ ـ الكتاب المقدَّس كتاب كتبه بشر ومن ثم فهو ليس كتاباً معصوماً ولا يُقرأ باعتباره كتاباً مقدَّساً وإنما باعتباره كتاب موعظة .

٤ ـ خَلَق الإله الإنسان في صورته ، ولذا فإن الإنسان يشارك في الخير الإلهي . ولا توجد خطيئة عميقة ولا توجد خطيئة أولى ، بل إن الخطيئة هي خطأ أخلاقي ضد البشر وليست خطيئة ضد الإله . ولا يوجد شر مطلق أو خلاص مطلق وإنما يوجد بشر يتطورون يحققون الخلاص بالتدريج من خلال أعمالهم وشخصياتهم ، يبدأ تطورهم مع ميلادهم ولا يتوقف بعد موتهم . وفكرة التطور اللانهائي لكل البشر فكرة أساسية في عقيدة الموحدانيين . وقد آمن الموحدانيون بأخوة كل البشر ومساواتهم الكاملة .

٥ ـ القوة الأخلاقية العظمى في العالم هي المثل الذي يضربه عظماء الرجال : المسيح مثلاً . ولذا ، لا توجد حاجة إلى كنيسة تحتكر طرق الخلاص . فالكنيسة إن هي إلا مجموعة من المؤسسات الاجتماعية لا توجد وراءها كنيسة روحية ، كما يدَّعي اللاهوت المسيحي في إحدى صوره . كما لا توجد حاجة إلى الشعائر التي تربط هذا العالم بالعالم الآخر . ولذا ، فإن شعائر التعميد وعشاء الإله هي مجرد طقوس تُذكِّر الإنسان بما حدث في حياة المسيح دون تحولات أو أسرار . ولذا ، قامت بعض الكنائس المواحدانية بإلغاء كل هذه الشعائر لأنها تُذكِّر المرء بالمفاهيم اللاهوتية .

وقد صنَّف الكالفنيون عقيدة الموحدانيين باعتبارها ليست مسيحية ، وهم محقُّون تماماً في ذلك إذ أنها عقيدة أنكرت كثيراً من العقائد المسيحية الأساسية ، بل يمكن القول بأنها عقيدة شبه علمانية أو تكاد تقترب من العبادات الجديدة ، إذ لا توجد فيها فكرة الإله المفارق المتجاوز للإنسان والطبيعة . فالإله قد حل في مخلوقاته وتوحَّد معها وشحُب تماماً وتحوَّل إلى ما يشبه مبادئ الطبيعة والضرورة التي لا شخصية ولا وعي لها ، وأصبحت كل الأمور متساوية ونسبية (وقد لخص أحد المفكرين المسيحيين موقف الموحدانيين من الإله بقوله إنهم يؤمنون «بأنه يوجد إله واحد على

الأكثر» ، وأنهم «يصلون لمن يهمه الأمر») . ويمكن القول بأن فكرة الإله الواحد المتجاوز يمكن أن تختفي عن طريقين : أن يزداد الإله (المبدأ الواحد) في حلوله واقترابه حتى يتحول الحلول والكمون إلى وحدة وجود روحية ثم مادية ، حيث يتعرف المخلوق إلى الخالق في مخلوقاته وحسب ، وهذا هو النمط الأكثر شيوعاً . ولكن هناك نمطاً آخر وهو أن الإله (المبدأ الواحد) هذه القوة اللامتعينة الدافعة للمادة، الكامنة فيها التي تضبط جوهرها ، تزداد تجريداً ومفارقة للمخلوقات. وهنا يظهر في البداية إله كالفن الذي لا يُسبَر له غور ، والذي يُختار دون منطق واضح . وتزداد درجة التجريد والمفارقة إلى أن تصل حد التعطيل ويصبح الإله مفارقاً تماماً لا علاقة لنا به (إله الغنوصيين مثلاً) ، أي أن الكالفينية نفسها إن هي إلا حلقة أولى تؤدي إلى الموحدانية (هذا على عكس الفكر التوحيدي الحقيقي حيث يوجد الإله القريب البعيد : ليس كمثله شيء وهو أقرب إلينا من حبل الوريد) .

وقد اعتنق هذه العقيدة كثير من أعضاء الشرائح العليا للطبقات الوسطى ، وخصوصاً العناصر المحافظة والثرية ، وأصبحت معظم كنائس بوسطن تؤمن بالعقيدة الموحدانية هذه . فقد أعفتهم الكنيسة من القيام بأية شعائر وأنهت عملية البحث المضنية داخل الذات الآثمة والمحاولة الذاتية للتأكد من إشارات الخلاص وهما عملية ومحاولة اتسمت بهما العقيدة الكالفنية التي سادت بين المستوطنين البيض الذين سُمُّوا «البيوريتان» ، أي المتطهرين ، إذ أكدت الموحدانية للذات الإنسانية أن الخلاص متيسر وأن النعمة حلت . كما أن الإيمان بالتطور المستمر قد أعطى إحساساً إمبريالياً عميقاً لتجار بوسطن ، إذ كان هذا يعني أن بوسعهم التحرك بصورة دائمة وغزو العالم بشكل مستمر وأن بوسعهم أيضاً أن يراكموا الثروة أبداً ويقدموا الشكر لله على النعمة الإلهية والاختيار .

والكنيسة الموحدانية ، كما أسلفنا ، تعبير عن حلولية مرحلة وحدة الوجود ، ولكنها كانت ذات طابع عقلاني جاد وجاف (وكادت العبادة تكون مثل البحث العلمي والبحث الصارم عن البراهين) . ولذا ، قام وليام أليري تشانينج بإدخال عنصر من العاطفة فانتقل بالعبادة من النموذج الآلي العقلاني الجاف إلى النموذج العضوي العاطفي ، إذ قرَّر أن الإله محب للبشر يملك العالم بأسره ، كما قرَّر أن وجود (حلول) هذا الإله في كل البشر والطبيعة يجعلهم مقدَّسين وأن العبادة الحقيقية للإله تكمن في إظهار حسن النية للبشر ، أي أن الإله قد شحُب تماماً ثم اختفى .

وحركة الحضارة الأخلاقية تشبه الموحدانية اليهودية التجديدية في كثير من النواحي ، ويُلاحَظ أن كثيراً من اليهود ، وخصوصاً من أعضاء الشرائح العليا من الطبقة الوسطى الذين يودون تحقيق الانتماء الكامل للمجتمع الأمريكي ، ينضمون لهذه الكنيسة (تماماً مثلما تنضم أعداد أخرى من اليهود للحركة الماسونية والعبادات الجديدة) . وقد أصبح هذا أمراً ميسوراً بشكل أكبر بعد أن «تطورت» الكنائس الموحدانية وتحولت شعائرها إلى أي شيء يقرره أعضاء الكنيسة ، فيمكنهم لإقامة الشعائر الموحدانية أن يحضروا قصائد شعرية يقرأونها ، وبوسعهم أن يلعبوا أية لعبة تحلو لهم (ومن ذلك حل الكلمات المتقاطعة) تعبيراً عن إيمانهم الديني! وقد أوردت الصحف الأمريكية مؤخراً أن إحدى العاملات في مقهى ليلي أرادت أن تؤدي صلاتها الموحدانية بالطريقة التي تروق لها وتعبِّر عن ذاتها الحقيقية . فوجدت أن الطريقة المثلى هي خلْع ملابسها أمام المصلين كما تفعل في محل عملها بحكم وظيفتها . وقد قبل راعي الكنيسة ذلك وإن كان قد علَّق على هذا الحدث بأن صلاتها كانت غير تقليدية بعض الشيء ، ولكنه حضر الصلاة الراقصة من أولها إلى آخرها . ويبلغ عدد المواحدانيين حوالي ١٠٠,٠٠٠ ويبدو أن كثيراً من أعضاء النخبة الحاكمة في الولايات المتحدة من الموحدانيين .

جماعة الحضارة الأخلاقية

Society for Ethical Culure

جماعة أسسها فليكس أدلر عام ١٨٧٦ اجتذبت عدداً لا بأس به من المثقفين الأمريكيين (وخصوصاً اليهود) الذين كانوا قد بدأوا يرفضون كثيراً من الشعائر والعقائد الدينية اليهودية ولكن لم يكن بوسعهم بعد التخلي عن العقيدة الدينية تماماً ، ولذا كانت الجمعية بنزعتها الربوبية مناسبة تماماً لهم . وتنطلق الجمعية من الإيمان بوجود إنسانية عامة وبضرورة دراسة ما سمته «الخلق» وتطوره في كل مجالات السلوك . وقد اهتمت الجمعية بالجانب التربوي ، فأسست حضانة للأطفال استخدمت وسائل تقدمية في التربية . كما أن الجمعية ركزت نشاطها على الجهود الاجتماعية مثل الكفاح ضد الفساد في الحكومة ومحاولة إصلاح المساكن .

ورغم عدم أصالة فكر أدلر ، إلا أن أهميته تكمن في أنه يعطينا فرصة لرؤية كيفية علمنة العقيدة اليهودية من الداخل ، وكيف تتحول من عقيدة تؤمن بالإله المتجاوز إلى عقيدة يتوارى فيها الإله تدريجياً (اليهودية الإصلاحية التي كان يؤمن بها والده) إلى عقيدة ربوبية دون إله (الحضارة الأخلاقية) إلى عقيدة دون إله ودون مطلقات ودون

أخلاق (الصهيونية) إلى عقيدة عدمية مدمرة (لاهوت موت الإله). وبطبيعة الحال ، يمكن اعتبار أدلر يهودياً ويمكن تصنيف فكره وجماعة الحضارة الأخلاقية على أنه من العبادات الجديدة .

فليكس أدلر (١٨٥١-١٩٣٣)

Felix Adler

فيلسوف يهودي أمريكي وتربوي ومؤسس حركة الحضارة الأخلاقية . وُلد في ألمانيا وهاجر إلى نيويورك وهو بعد في السادسة حينما عُيِّن أبوه ، أحد رواد اليهودية الإصلاحية ، حاخاماً لمعبد إيمانو - ئيل الإصلاحي .

درس أدلر في جامعة كولومبيا وفي جامعات برلين وهايدلبرج وفي مدرسة علم اليهودية (في ألمانيا) حيث درس الأدب المكتوب بالعبرية والفلسفة الكانطية ونقد العهد القديم . وقد بدأت بعض الاتجاهات الإصلاحية تأخذ شكلاً متطرفاً في فكره ، فقد بدأ يؤكد الجانب العقلي في الدين وإمكانية معرفة الخالق عن طريق العقل وحسب . وبدأ يرفض الجوانب الجمالية والشعائرية في اليهودية ، وأية اتجاهات ذات طابع يهودي خاص ، أي أنه اتجه اتجاهاً عقلياً أخلاقياً ربوبياً . حتى أنه كان يلقي مواعظ في المعابد لا تَرد فيها كلمة «الإله» .

ويشبه أدلر في هذا الفيلسوف الأمريكي إمرسون الذي رفض العقيدة التوحيدية وأصبح ترانسندنتالياً ، أي يؤمن بقوة ما متجاوزة للطبيعة (كان يسميها إمرسون الروح الكلية «أوفرسول Over-Soul») ويمقدرة الإنسان على معرفة الخير والحق بنفسه دون حاجة لوحي إلهي أو ميتافيزيقا . وقد تأثر أدلر بإمرسون ولانجه وكانط والأخلاقيات (دون العقائد) المسيحية (أي أنه أصبح نسخة يهودية من إمرسون) .

وقد رفض أدلر فكرة الإله الشخصي الذي يرعى البشر وبدلاً منه طرح فكرة العنصر الأخلاقي المركب الذي يتكون من ذواتنا الداخلية في أعلى تحققٍ لها . فهو يؤمن بأن كل إنسان يحوي داخله «طبيعة نبيلة سامية» تود أن تتحقق ، ولكل إنسان فرديته ، ولكن العلاقة الإنسانية الحقة هي التي تساعد هذه الطبيعة النبيلة الكامنة فينا على التحقق في العالم الخارجي . وكان أدلر يؤمن بأن إدراك هذه الطبيعة النبيلة سيتزايد كلما ازدادت علاقة الناس بعضهم ببعض . وهذا الإدراك المتزايد سيتحقق في المجتمع الديموقراطي والعلمي الحديث ، ومن ثم فالإنسان لا يحتاج إلى تعويض في الآخرة ولا يحتاج إلى ميتافيزيقا ، ولا يحتاج إلى أية مؤسسات أو عقائد أو شعائر دينية .

وقد استفاد أدلر بما سماه «رسالة الأنبياء الأخلاقية» ولكنه رفض المنظومة العقائدية اليهودية ، فهو يُصر على العام والعقلي ، ويرفض الخصوصية .

ولا يوجد شيء جديد أو أصيل في فكر أدلر فهو تطبيق لفكر حركة الاستنارة في عالم الدين والأخلاق الذي يترجم نفسه إلى منظومة ربوبية يوجد داخلها إله شاحب أو مطلق أخلاقي غير متجاوز .

وقد كتب أدلر عدة مؤلفات أهمها **العقيدة والفعل** (١٨٧٧) ، وسيرة ذاتية بعنوان **فلسفة أخلاقية للحياة** (١٩١٨) ، و**إعادة تجديد المثل الأعلى الروحي** (١٩٣٤) .

اليهودية المتمركزة حول الأنثى

Feminist Judaism

كلمة «فيمنست feminist» الإنجليزية في تَصوُّرنا مختلفة تماماً عن عبارة «ويمنز ليبريشاون موفمنت Women's Liberation Movement» . فالعبارة الأخيرة ، يمكن التعبير عنها بعبارة «حركة تحرير المرأة» أما الأولى فنحن نؤثر التعبير عنها بعبارة «حركة التمركز حول الأنثى» (لأسباب سوف نوردها فيما بعد) . ومن هنا قولنا «اليهودية المتمركزة حول الأنثى» (الأنثى اليهودية بطبيعة الحال) . وقد ظهرت حركات سياسية واجتماعية وفكرية تدور حول موضوع المرأة في المجتمع . ويمكن أن نقسم هذه الحركات إلى اتجاهين : حركات تحرير المرأة ، وحركات التمركز حول الأنثى . والحركات الأولى حركات اجتماعية سياسية فكرية تهدف إلى تحقيق العدالة في المجتمع بحيث تنال المرأة ما يطمح إليه أي إنسان من تحقيق ذاته إلى الحصول على مكافأة عادلة (مادية أو معنوية) لما يقدم من عمل . وعادةً ما تطالب مثل هذه الحركات بحقوق المرأة سواء السياسية (حق المرأة في الانتخاب والمشاركة في السلطة) ، أو الاجتماعية (حق المرأة في الطلاق وفي حضانة الأطفال) ، أو الاقتصادية (مساواة المرأة بالرجل في الأجور) . وبرغم أن حركات تحرير المرأة تَصدُر عن مفهوم تعاقدي للمرأة (باعتبارها فرداً مستقلاً بذاتها لا باعتبارها أماً وعضواً في أسرة) ، فإن حركات تحرير المرأة تدور في إطار بعض القيم الاجتماعية المستقرَّة ، وتَقَبل المفهوم التقليدي لدور المرأة في المجتمع والمفهوم التقليدي للطبيعة البشرية .

أما حركات التمركز حول الأنثى فهي رؤية معرفية أنثروبولوجية اجتماعية تقف على طرف النقيض من كل هذا ، فهي تصدُر عن مفهوم أساسي هو أن تاريخ الحضارة البشرية إن هو إلا

تعبير عن هيمنة الذكر على الأنثى ، وهي هيمنة تمت إثر معركة أو مجموعة من المعارك حدثت في عصور موغلة في القدم حينما كانت المجتمعات كلها مجتمعات أمومية تسيطر عليها الأنثى أو الأمهات ، وكانت الآلهة إناثاً ، وكان التنظيم الاجتماعي نفسه يتصف بالأنوثة ، أي بالرقة والوئام والاستدارة (التي تشبه نهود الإناث وعضو التأنيث) . ثم سيطر الذكور وأسسوا مجتمعاً مبنياً على الصراع والسلاح (الذي يشبه عضو التذكير) وعلى الغزو (الذي يشبه اقتحام الذكر للأنثى) . وانطلاقاً من هذه الرؤية للتاريخ ، يطرح دعاة التمركز حول الأنثى برنامجاً إصلاحياً يدعو إلى إعادة صياغة كل شيء ؛ التاريخ واللغة والرموز ، بل الطبيعة البشرية نفسها . فالتاريخ في تصورهم سرد للأحداث من وجهة نظر ذكورية ، ولابد أن يعاد السرد من وجهة نظر أنثوية ، والرموز التي فرضها الذكور لابد أن تضاف إليها رموز أنثوية . واللغات ، التي عادةً ما تفضل صيغة التذكير على صيغة التأنيث ، لابد أن يعاد بناؤها بحيث تستخدم صيغاً محايدة أو صيغاً ذكورية أنثوية . وهذا البرنامج الإصلاحي يهدف في نهاية الأمر إلى إعادة صياغة الإدراك البشري نفسه للطبيعة البشرية كما تحققت عبر التاريخ وتجلت في مؤسسات تاريخية وأعمال فنية ، فهذا التحقق وهذا التجلي إن هما إلا انحراف عن مسار التاريخ الحقيقي بعد استيلاء الذكور عليه !

إن ما تُنادي به حركة التمركز حول الأنثى يختلف تماماً عما تنادي به حركة تحرير المرأة . فالرجل يمكنه أن ينضم إلى حركة تحرير المرأة ، ويمكنه أن يدخل في حوار بشأن ما يُطرَح من مطالب لضمان تحقيق العدالة للمرأة ولضمان ألا تتحول الاختلافات بين الجنسين إلى أساس بيولوجي للتفاوت الاجتماعي والاقتصادي بينهما (وكأن المرأة تعادل الرجل الأسود في المنظومة العنصرية الغربية البيضاء) . ويمكن أن يتبنى المجتمع الإنساني بذكوره وإناثه برنامجاً للإصلاح في هذا الاتجاه ، ومن الممكن أن يؤيد الرجال والنساء ذلك . أما حركة التمركز حول الأنثى فلا يمكن أن ينضم لها الرجال ، فالرجل باعتباره رجلاً لا يمكنه أن يشعر بمشاعر المرأة ، كما أنه مُذنب يحمل وزر هذا التاريخ الذكوري ، رغم أنه ليس من صنعه . ولا يوجد برنامج للإصلاح وإنما يوجد برنامج للتفكيك يهدف إلى تغيير الطبيعة البشرية ومسار التاريخ والرموز واللغات .

وفي تَصوُّرنا أن الرؤية الكامنة وراء حركة التمركز حول الأنثى رؤية حلولية تستند إلى رؤية واحدية كونية إذ تحاول اختزال الكون بأسره إلى مستوى واحد ، فتدمج الإله والطبيعة والإنسان والتاريخ في كيان واحد وتحاول أن تصل إلى عالم جديد تماماً تتساوى فيه الأطراف والمركز ، عالم لا يوجد فيه قمة وقاع ولا يمين ويسار (ولا ذكر وأنثى) ، وإنما يأخذ شكلاً مسطحاً تقف فيه جميع الكائنات الإنسانية والطبيعية على أرضية واحدة وتَمّحي فيها كل الثنائيات بل إن تحقُّق هذا النمط يتم عند نقطة الصفر حين تصبح كل الكائنات شيئاً واحداً . وبينما تعترف حركة تحرير المرأة بالاختلافات بين الرجل والمرأة ، وتحاول ألا يكون هناك تفاوت اقتصادي أو إنساني نتيجة هذا الاختلاف ، فإن حركة التمركز حول الأنثى لا ترفض التفاوت وحسب وإنما ترفض الاختلاف نفسه . وبينما تعترف حركة تحرير المرأة بأن هذا الاختلاف يؤدي إلى اختلاف في توزيع الأدوار وتأمل ألا ينجم عن هذا الاختلاف ظلم أو تفاوت اجتماعي ، فإن حركة التمركز حول الأنثى ترفض توزيع الأدوار وتطالب بأن يصبح الذكور آباء وأمهات ، وأن تصبح الإناث بدورهن آباء وأمهات . بل إن الأمر يمتد ليشمل الأحاسيس نفسها . فالمرأة يجب أن تشعر مثل الرجل ، والرجل يجب أن يشعر مثل المرأة . ويمتد الأمر لرؤية الإنسان للإله . فحركة التمركز حول الأنثى ترى أن كل التاريخ يدور حول مركز ، وهذا المركز هو الرجل ؛ عضو التذكير ، السلطة ، الإله الذكر . ويجب أن يحل محل هذا شيء محايد بحيث ينظر للإله باعتباره ذكراً وأنثى ، أو ذكراً ثم أنثى ، أو ذكراً في أنثى ، أو لا ذكر ولا أنثى (وهذه هي مرحلة ما بعد الحداثة حين تسقط كل الحدود ويضمُر المركز ثم يختفي) .

والمفارقة الكبرى تكمن في أن حالة السيولة الحلولية الكونية ينتج عنها حالة تفتُّت ذري وازدواجية صلبة . وتظهر الازدواجية الصلبة في تأكيد حركة التمركز حول الأنثى أن ما تحس به الأنثى لا يمكن أن يحس به الذكر ، ومن ثم فالتجربة التاريخية للأنثى مغايرة تماماً للتجربة التاريخية للذكر . أما التفتت الذري فيظهر في مطالبة مساواة الذكر بالأنثى بشكل مطلق . وحينما نصل إلى هذه المرحلة ، فإننا لا نتحدث عن برنامج للإصلاح وإنما عن برنامج تفكيكي تختفي فيه كل المقولات الثنائية التقليدية ، مثل : إنسان/ طبيعة ، إنسان/ حيوان ، ذكر/ أنثى ، ويختفي المركز تماماً ، ويصبح التمييز مستحيلاً . ولذا ، تلتحم حركة التمركز حول الأنثى بحركات حلولية مماثلة كالدفاع عن السحاق ، وعبادة الأرض ، فهي جميعاً حركات تفترض أن ما هو مطلق لا يتجاوز المادة وإنما يكمن ويحل فيها ، فهو الأرض بالنسبة لعبدة الطبيعة ، وهو الأنثى بالنسبة لحركات التمركز حول الأنثى ، وهو الطبقة العاملة بالنسبة للفكر الشيوعي ، والمنفعة واللذة الفردية بالنسبة لليبرالية . وهذا المطلق

الحال هو الذي يحرك التاريخ ويساوي بين كل الكائنات ويسويها الواحدة بالأخرى .

ويبدو أن المرأة اليهودية كانت مرشحة أكثر من غيرها لأن تنخرط في صفوف حركات تحرير المرأة ثم حركات التمركز حول الأنثى في الغرب لأسباب عديدة ، من بينها :

١ ـ ارتفاع معدلات العلمنة بين الإناث اليهوديات في الغرب بنسبة تفوق مثيلتها لا بين أعضاء المجتمع وحسب وإنما بين الذكور اليهود أنفسهم (ولعل هذا يعود إلى أن الأنثى اليهودية كانت لا تتلقى تعليماً دينياً، كما أنها كانت غير ملزمة بأداء كثير من الشعائر الدينية اليهودية) .

٢ ـ لابد أن الفكر الحلولي اليهودي ولّد لدى الإناث اليهوديات قابلية عالية للغاية لتَقَبُّل نزعة التمركز حول الأنثى والدعوة إليها . ويُلاحَظ أن مقولة يهود/ أغيار تقابل تماماً مقولة أنثى/ ذكر . كما أن التمركز حول الأنثى يشبه التمركز حول الهوية اليهودية . ورؤية تاريخ البشر كتاريخ ظلم وقمع واضطهاد (لليهود وللإناث) ، هو الآخر ، عنصر مشترك . ويشترك الفريقان في البرنامج التفكيكي العدمي .

ويعود تاريخ حركة تحرير المرأة بين أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب إلى عصر التنوير في ألمانيا ، حيث عبرَّت عن نفسها في ظاهرة صالونات النساء الألمانيات اليهوديات ، مثل راحيل فارنهاجن، وفي ظهور أديبات يهوديات مثل إما لازاروس ، ونساء يهوديات في الحياة العامة مثل روزا لوكسمبرج (في الحركة الشيوعية) وهنريتا سيزولد (في الحركة الصهيونية) . ويمكن القول بأن الحديث عن حركة مستقلة لتحرير المرأة اليهودية أمر صعب إن لم يكن مستحيلاً ، إذ أن حركة تحرير المرأة هي مسألة متعلقة بحقوق المرأة في المجتمع ، وهو أمر يقع داخل رقعة الحياة المدنية العامة (وكفاح المرأة اليهودية للحصول على حقوقها لا يختلف في الواقع عن كفاح النساء غير اليهوديات ، بل هو جزء عضوي منه) . وقد تركت حركة تحرير المرأة أثرها في المؤسسات الدينية اليهودية التي بدأت تفتح أبوابها للنساء . وبدأت اليهودية الإصلاحية والمحافظة تحث النساء اليهوديات على المشاركة في الصلوات التي تُقام في المعابد اليهودية التي لا يُفصَل فيها الجنسان . كما أصبح هناك احتفال ببلوغ البنات سن التكليف الديني (بَتْ متسفاه) على غرار احتفال البرمتسفاه ، أي بلوغ الصبيان هذا السن .

أما حركة التمركز حول الأنثى ، فهي أمر مختلف تماماً . فهذه الحركة ، كما أسلفنا ، ليست مسألة حقوق ، وإنما هي قراءة للتاريخ، وموقف من اللغة والرموز والجسد ، ومن ثم يمكن الحديث عن حركة يهودية للتمركز حول الأنثى تركت أثراً جذرياً في الجماعات اليهودية وفي العقيدة اليهودية ، ولّدت يهودية متمركزة حول الأنثى وُصفت بأنها حركة تحاول تركيب بنية دينية جديدة ، تتكون من عناصر يجمعها مفكرو وقيادة الحركة لإعادة بناء اليهودية بطريقة تُرضي الإناث وتفي بحاجاتهن الأنثوية الخاصة . وهذه العناصر مجموعة من الأساطير الشعبية والأفكار الوثنية التي تراكمت داخل التركيب الجيولوجي اليهودي (مثل أسطورة ليليت) ، وهو تركيب جعل دعاة اليهودية المتمركزة حول الأنثى قادرين على توليد نسقهم من داخل النسق الديني نفسه ، ذلك لأن هذا التركيب يحوي كل شيء تقريباً ، كما أنه يولّد قابلية عالية لليهودية للتغير حسب الأوضاع والملابسات التاريخية . وقد وصفت جوديت بلاسكو ، إحدى مفكرات حركة اليهودية المتمركزة حول الأنثى تلك الحركة بأنها تسعى إلى توسيع نطاق التوراة ، ومن ثم فهي تثير الشكوك بشأن نهائية النص التوراتي ومطلقيته ، فهي يهودية معادية للمطلق الديني المتجاوز للطبيعة والإنسان ، وتطرح بدلاً منه نسقاً يتغيَّر بتغيُّر الملابسات التاريخية والرغبات البشرية ، الجماعية والفردية . وهي في هذا لا تختلف كثيراً عن لاهوت موت الإله ، حين يموت الإله ويصبح المطلق الوحيد هو حادث الإبادة النازية ليهود أوربا وإنشاء الدولة الصهيونية . وقد صرحت إحدى مفكرات الحركة بأن إعادة النظر في وضع المرأة في سياق العقيدة اليهودية أمر جوهري يُشبه إعادة دراسة المسألة اليهودية في سياق التاريخ العام .

وكانت اليهودية الإصلاحية أول فرقة استجابت لحركة التمركز حول الأنثى اليهودية إذ رُسِّمت سالي برايساند حاخاماً في يونيه ١٩٧٢ . وفي عام ١٩٧٣ ، وافقت اليهودية المحافظة على أن تحسب النساء ضمن النصاب (منيان) اللازم لإقامة الصلاة في المعبد ، كما سُمح لهن بالقراءة من التوراة في المعبد ، وهذه أمور كانت مقصورة على الذكور البالغين . ثم وافقت اليهودية المحافظة على ترسيم الإناث كحاخامات محافظات في ١٩٨٥ ، وكمنشدات (حزان) عام ١٩٨٧ ، وقد اتسع النطاق بطبيعة الحال ليشمل كل الشعائر .

وقد أسَّست بعض النساء الأمريكيات اليهوديات من المدافعات عن التمركز حول الأنثى جماعة «نساء الحائط» التي تطالب بحق تلاوة التوراة أمام حائط المبكى ، وارتداء شال الصلاة (طاليت) وهو حق مقصور على الرجال . كما بدأ بعض المؤمنات باليهودية المتمركزة حول الأنثى بارتداء شيلان صلاة (طاليت) حريمية ذات لون وردي وطاقيات للصلاة موشاة بعناصر حريمية مثل الدانتلا ، وتمائم

صلاة (تيفلّين) مزينة بالشرائط (وإن كان بعضهن يرفضن الشيلان والطاقيات والتمائم لأنها ذكورية أكثر من اللازم وتُذكّرهن بآبائهن!) . ومنذ عام ١٩٨٣ ، بدأت بعض المعابد اليهودية غير الأرثوذكسية بتعديل الصلوات حتى تتم الإشارة إلى الآباء (باتريارك) وزوجاتهن الأمهات (ماتريارك) .

وتحاول بعض المعابد تغيير صيغة الإشارة إلى الإله باعتباره ذكراً ، فيُشار إليه باعتبار أنه ذكر وأنثى في آن واحد ، حتى تتحقق المساواة التامة بين الجنسين! فيُقال على سبيل المثال "إن الخالق هو الذي/ هي التي ، وضع/ وضعت . . . إلخ" ، بل يُشار إليه أحياناً بالمؤنث وحسب ، فهو «ملكة الدنيا» ، و«سيدة الكون» و«الشخيناه» . كما أن بعض دعاة حركة التمركز حول الأنثى يستخدمن كلمات لا جنس لها (بالإنجليزية : أن جندرد ungendered») مثل : «فريند friend» (صديق) و«كومبانيون companion» (رفيق) و«كو كريتور co-creator» (المشارك في الخلق) . وهذا الاسم الأخير يدل على الجذور الحلولية لليهودية المتمركزة حول الأنثى . فالتراث القبَّالي يرى أن الإنسان شريك للإله في عملية الخلق إذ أن عملية إصلاح الخلل الكوني (تيقون) التي يستعيد بها الإله وجوده ووحدته ، لا يمكن أن تتم إلا من خلال أداء اليهود للأوامر والنواهي .

كما تحاول الحركة اليهودية المتمركزة حول الأنثى تطهير الخطاب الديني تماماً من أية صور مجازية قد يُفهَم منها الانقسام إلى ذكر وأنثى مثل صورتي الزواج والزفاف المجازيتين المتواترتين في العهد القديم . ولعل من أهم التغييرات في عالم الرموز ظهور ليليت (نسبة إلى الليل والظلمة) بديلاً لحواء ، وهي حسب الأساطير التلمودية زوجة آدم الأولى قبل حواء ، وقد تمردت على وضعها كأنثى (فرفضت مسألة أنها تنام تحت الرجل لا فوقه!) كما تمرَّدت على الإله . وأصبحت تنتقم من الرجال والنساء المتزوجات بأن تقتل الأطفال المولودين . فليليت ليست عكس حواء وحسب ، بل هي عكس الأنوثة والأمومة والحالة البشرية نفسها ، فهي شخصية تفكيكية من الطراز الأول تنتمي إلى عالم ما بعد الحداثة الذي لا يوجد فيه مركز ولا معنى (وقد صدرت عام ١٩٧٦ مجلة ليليت لتعبِّر عن فكر حركة التمركز حول الأنثى أسستها سوزان وايدمان شنايدر إحدى أهم مفكرات الحركة) .

ومن التعديلات الأخرى التي أُدخلت على العبادة اليهودية ، الاحتفال بعيد «روش هحوديش» ، أي «عيد القمر الجديد» باعتباره عيداً أنثوياً . وتشير بعض مفكرات الحركة اليهودية للتمركز حول الأنثى إلى علاقة القمر بالعادة الشهرية ، وإلى أن في التلمود عبارة تقول إن القمر سيصبح يوماً ما مساوياً للشمس ، ويفسر كل هذا على أنه إشارات إلى المساواة المطلقة بين الذكر والأنثى واختفاء أي اختلاف بينهما . ويقيم دعاة حركة التمركز حول الأنثى احتفالات خاصة بالعادة الشهرية والإجهاض والولادة . وقد وصفت إحداهن الاحتفال بالمخاض وإنجاب الطفل وقالت إنها عثرت عليه في كتاب يُسمَّى سيفر هاتشي (وقد ذكره أحد الحاخامات يحذر أعضاء الجماعة اليهودية من الانغماس في الخرافات الشعبية الوثنية) . ويأخذ الطقس الشكل التالي :

تُرسم دائرة بالفحم الأسود على حوائط الغرفة التي تجلس فيها الأنثى التي ستنجب ، ثم تكتب على الحائط عبارة : آدم وحواء بدون ليليت ، ثم تكتب على الباب أسماء ثلاثة ملائكة هم : سانوي وسانسنوي وسامنجالوف (وأسماؤهم هي أيضاً سانثي وسانسافي وسامن جاليف) ، ثم تحضر صديقات الأنثى التي ستلد ويجلسن في دائرة حولها وهكذا .

وقد أعد دعاة حركة التمركز حول الأنثى هاجداه لعيد الفصح خاصة بالنساء (وكتبتها الأمريكية إستير برونر والإسرائيلية نعومي نيمرود) . ويبدأ الاحتفال بعيد الفصح بالنساء جالسات على الأرض وقد فرشن أمامهن مفرشاً وتوجِّه الأسئلة لأربع بنات ، بدلاً من أربعة أولاد ، أما كأس النبي إلياهو فيصبح كأس الكاهنة مريم . وقد كُتبت كتب صلوات خاصة متمركزة حول الأنثى . وقد أدخلت الحركة أيضاً تعديلات عديدة ذات طابع سطحي بعضها يكاد يكون كوميدياً . فمثلاً هناك احتفال يُسمَّى «بريت بنوت يسرائيل» بدلاً من «بريت ميلاه (الختان)» تُتلى فيه صلاة خاصة تؤكد أهمية الأمهات : أولاهن بطبيعة الحال ليليت ثم حواء وزوجة نوح وسارة ورفقه وليئة وراحيل . ويُقام احتفال التشليخ (بعد عيد رأس السنة) حيث تقوم النساء بإلقاء خطاياهن في الماء وتأكل النساء طعاماً مستديراً (فطائر) علامة الخصوبة والأنوثة . ويشعلن شموعاً يوم السبت على أن تُوضَع الشموع في طبق مليء بالماء حتى تشبه القمر . وتجمع النساء الصدقة فيما بينهن ولا ينفقنها إلا على حركة التمركز حول الأنثى . وكما أسلفنا ، رُسِّمت نساء حاخامات كما توجد الآن معابد يهودية إصلاحية ومحافظة للسحاقيات ، وقد رُسِّمت لها (حاخامات) من النساء السحاقيات أيضاً ، وتوجد الآن مدرسة تلمودية عليا (يشيفا) تسمح بالتحاق الشواذ جنسياً والسحاقيات .

وقد يكون من الأفضل تصنيف اليهودية المتمركزة حول الأنثى على أنها من بين العبادات الجديدة ، أكثر من أن تكون استمراراً لليهودية الحاخامية ، وهي من ثم محاولة أخيرة

للإنسان العلماني اليهودي في الغرب أن يحل مشكلة المعنى والأزمة الروحية الناجمة عن تصاعُد معدلات العلمنة في المجتمعات التي يُقال لها «متقدمة» .

وحركة التمركز حول الأنثى تشبه تماماً في بنيتها الحركة الصهيونية التي تذهب إلى أن الأغيار لا يمكنهم أن يشعروا بشعور اليهود ، وهم يحملون وزر تاريخ قام باضطهاد اليهود جيلاً بعد جيل ، والبرنامج الإصلاحي الصهيوني لا يهدف إلى تحسين أحوال اليهود باعتبارهم أقلية دينية في أوطانهم وإنما هو برنامج تفكيكي يطالب بسحب اليهود من مجتمعات الأغيار (مثلما تُسحَب المرأة في المنظومة المتمركزة حول الأنثى من مجتمع الرجال) .

ولنا أن نقول الشيء نفسه بالنسبة لما يحدث في الدين فما يحدث في حالة اليهودية المتمركزة حول الأنثى ليس إصلاحاً دينياً يهدف إلى تطوير بعض الشعائر حتى يتمكن اليهودي من أن يصبح إنساناً عصرياً ، وإنما هو عملية تفكيك للدين تُغيِّر هويته وملامحه وتوجُّهه حتى يصبح من العسير تسميته ديناً على الإطلاق ؟ فإذا كان النص المقدَّس نصاً زمنياً تاريخياً وإذا كانت العقائد مسائل اجتماعية اتفاقية ، وإذا كانت الشعائر تدور داخل نطاق كل هذا ، فما الفرق بين النص المقدَّس ومجلة **نيوزويك** مثلاً ؟

لقد دخل الإنسان الغربي عالم ما بعد الحداثة : وهو عالم حلولي وثني دائري عبثي (مثل «صمت الحملان») عالم يحكمه إله مجنون ويعيش فيه بشر لا يمكن الحكم عليهم من منظور أية منظومة قيمية ، فهم خليط من الذئاب والأفاعي والأميبا . ومن أهم مفكرات حركة التمركز حول الأنثى : بتي فريدان ، وإريكا يونج (وكلتاهما أمريكية يهودية) .

بتي فريدان (١٩٢١-)
Betty Friedan

كاتبة أمريكية ، وإحدى زعيمات حركة التمركز حول الأنثى في الولايات المتحدة . وُلدت عام ١٩٢١ في ولاية إلينوي باسم نعومي جولدشتاين ، ودرست علم النفس بكلية سميث بولاية ماساشوستس (وهي كلية للنساء فقط) . وتخرجت عام ١٩٤٢ لتستكمل بعدها دراستها العليا في جامعة بيركلي بكاليفورنيا ثم عملت لعدة سنوات محللة نفسية وباحثة .

تفرغت بعد زواجها عام ١٩٤٧ لتربية أبنائها الثلاثة . وفي عام ١٩٦٣ ، نشرت كتابها الشهير **السر الأنثوي** الذي يُعدُّ أبرز أدبيات حركة التمركز حول الأنثى في الولايات المتحدة في الستينيات التي تُعَد بتي فريدان أبرز رائداتها . والكتاب يركز على قضية المساواة ويهاجم إعلاء دور المرأة كأم وزوجة ويدعو إلى تحقيق المرأة لذاتها من خلال التعليم والعمل . وفي الواقع ، فإن هذا الكتاب كان بمنزلة المرجع للعديد من الأفكار بشأن حركة التمركز حول الأنثى لفترة طويلة ، إلا أن بتي فريدان نفسها عادت (عام ١٩٨١) فنشرت كتاب **الطور الثاني** الذي غيرت فيه كثيراً من آرائها وهاجمت فيه كثيراً من أفكار التمركز حول الأنثى وانتقدت مفهوم المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة ودعت إلى عدم حرمان المرأة من خصوصيتها كامرأة ، وأكدت أهمية دعم دور المرأة كأم وزوجة وتأكيد حقها في الحرية والاختيار في إطار الحفاظ على مؤسسة الأسرة ، كما دعت إلى حق الإجهاض كواحد من الحقوق الإنسانية للمرأة لا كدعوة للانحلال الأخلاقي . كما دعت بتي فريدان الحركة النسوية إلى زيادة الاهتمام بالحقوق الاجتماعية للمرأة وإلى تقليل التركيز على القضايا الجنسية وعلى حرية الشذوذ الجنسي ، وهو ما استثار ضدها التيارات الراديكالية في الحركة الأمريكية المتمركزة حول الأنثى التي اتهمتها بالمحافظة بل أحياناً بمعاداة التمركز حول الأنثى .

وعلى المستوى الحركي تُعَدُّ بتي فريدان من أنشط العناصر النسائية الأمريكية في عقدي الستينيات والسبعينيات ، حيث أسست المنظمة القومية للنساء (ناو NOW) عام ١٩٦٦ ورأستها حتى عام ١٩٧٠ ، وهو العام نفسه الذي قادت فيه مظاهرة تضم ٥٠ ألف امرأة للمطالبة بمساواة المرأة في الحقوق والواجبات مع الرجل ، كما شاركت في تأسيس المؤتمر السياسي النسائي القومي عام ١٩٧١ ، وفي تأسيس بنك النساء ١٩٧٣ ، والمجلس العالي للمرأة ١٩٧٣ . وكذلك ، فإنها تُعَدُّ من أبرز الشخصيات التي دافعت عن مشروع قانون المساواة الكاملة بين الجنسين الذي طُرح في عهد الرئيس ريجان والمعروف باسم إيرا ERA .

وتُعَدُّ بتي فريدان نموذجاً متكرراً بين قيادات حركة تحرير المرأة في الولايات المتحدة ، إذ يُلاحَظ أن عدداً كبيراً منهن إما يهوديات ، أو ذوي أصول يهودية . ويمكن القول بأن هذا يعود لمركب من الأسباب منها ما يلي :

١ - يُلاحَظ تصاعُد معدلات العلمنة بين يهود الولايات المتحدة لكونهم عناصر مهاجرة جديدة لا تحمل أعباءً تاريخية أو دينية ، وباعتبار أنهم أعضاء في أقلية وجدت أن بإمكانها أن تحقق الحراك الاجتماعي من خلال الاندماج في المجتمع الأمريكي العلماني ومن خلال تآكل القيم المسيحية الأخلاقية المطلقة .

٢ - لعل الخلفية الحلولية (القبَّالية) لكثير من هذه القيادات

قد ساهم في دفعهم نحو تَبنّي مواقف جذرية متطرفة ، فالحلولية بأحاديتها المتطرفة لا تعترف بأية حدود أو تقسيمات أو اختلافات أو ثنائيات .

٣ـ يُلاحَظ أن الأسرة اليهودية في الولايات المتحدة الأمريكية كانت تتميَّز بقدر عال من التماسك حتى أوائل الستينيات ، ولكنها أخذت في التآكل والتراجع باعتبارها إطاراً للتضامن ، وقد أدّى هذا إلى غربة عدد كبير من النساء اليهوديات وإلى إحساسهن بالاضطهاد داخل الأسرة . ولا شك في أن الدور المتميِّز الذي كانت تلعبه الأم اليهودية في الأسرة اليهودية في شرق أوربا ثم في الجيلين الأول والثاني من المهاجرين وتآكل هذا الدور وتحوُّله إلى عبء على الأم وعلى أبنائها ، بسبب ظهور المؤسسات الحكومية التي تضطلع بوظائف الأم التقليدية ، لاشك في أن هذا عمَّق هذه الغربة وبالتالي زاد من تطرف الثورة .

وقد شاركت بتي فريدان في بعض الأنشطة اليهودية ، فشاركت عضواً في المجلة الدولية للشئون اليهودية ، كما شاركت في الحملة الصهيونية المعادية للأمم المتحدة والتي تتهم المنظمة الدولية بأنها معادية لليهودية .

كاترين شالييه (١٩٤٠-)

Catherine Chalier

مؤلفة فرنسية ، وإحدى مفكرات حركة التمركز حول الأنثى . تلقت تعليماً كلاسيكياً وأجادت العبرية تماماً وحصلت على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة باريس . وقد تأثرت تأثراً عميقاً بفكر المفكر الفرنسي اليهودي عمانويل لفيناس ، وطبقت بعض أفكاره في تفسيرها للنصوص المقدَّسة اليهودية ، ورفضت التمييز التقليدي بين العقل والإيمان ، وحاولت أن تبيِّن أن الكتاب المقدَّس اليهودي يمكنه أن يحرك ويعيد تجديد البحث الفلسفي الغربي ، وهي بذلك تحطِّم الحواجز التي تفصل بين الفلسفة والدين .

وتذهب كاترين شالييه إلى أن الهدف من الخطاب الإنساني ليس مجرد التعبير عن الفكر العقلاني وإنما الإجابة على كلمة الإله حسب تعاليم التوراة . ولذا ، فإنها ترفض في كتابها **استمرار الشر** (١٩٨٧) الفصل بين الوجود وسبب الوجود ، كما ترفض في كتابها **الإيحاء مع الطبيعة** (١٩٨٩) فكرة أن ثمة انقساماً بين اليهودية والطبيعة . فرغم أن النظام الكوني لا يمكنه أن يشكل مصدراً للقواعد الأخلاقية للسلوك ومعايير الأخلاق ، إلا أن الطبيعة مع هذا لها دور تلعبه ، فالطبيعة مثل الإنسان تتحرك نحو الخلاص (وفي المنظومة الحلولية التي توحد بين الإله والإنسان والطبيعة ، يصبح الخلاص مسألة ليست بالضرورة تاريخية إنسانية ، وإنما مسألة كونية ، حيث لا فارق ـ في نهاية الأمر ـ بين الإنسان والطبيعة) .

وكما هو الحال في كثير من المنظومات الحلولية ، تصبح الأرض والأنثى هما المصدر والمركز ، وتبين شالييه الدور الأساسي الذي تلعبه الأمهات (ماتريارك) سارة ورفقه وراحيل وليئة . والدور الأساسي الذي لعبنه في تأسيس اليهودية . وهي في تفسيرها للكتب المقدَّسة تستخدم الأقوال القبَّالية والشعر الحديث والأساليب التلمودية لتبرهن على وجهة نظرها المتصلة بالأمهات .

وإلى جانب الكتابين السابقين ألَّفت شالييه الكتب التالية : **اليهودية والآخر** (١٩٨٢) ويتضح فيه أثر لفيناس ، و **هيبة الأنثى** (١٩٨٢) ، و **الأمهات : سارة ورفقه وراحيل وليئة** (١٩٨٥) .

إريكا يونج (١٩٤٢-)

Erica Jong

روائية وشاعرة أمريكية . وُلدت باسم إيريكا مان في نيويورك ودرست في كلية برنارد التابعة لجامعة كولومبيا ، وتخرجت عام ١٩٦٣ ثم التحقت بالجامعة نفسها للحصول على الماجستير ، ثم انتقلت مع زوجها الذي كان يعمل في الجيش الأمريكي إلى ألمانيا وأقامت بهايدلبرج في الفترة من ١٩٦٦ حتى ١٩٦٩ ، وقد انتهت هذه الزيجة وزيجتان أخريان بالفشل . وقد سجلت إيريكا يونج تجربتها هناك في سيرة ذاتية بعنوان **الخوف من الطيران** (١٩٧٣) ، وبدأت في كتابة الشعر الذي أخذ يحمل ملامح الوعي بالذات الأنثوية المنفصلة . وفي عام ١٩٧١ ، نشرت ديوانها الشعري الأول تحت عنوان **فواكه وخضراوات** الذي عكس موقف المرأة كفنانة . واستمرت في ديوانها الثاني **نصف حياة** (١٩٧٣) في تكريس النظرة المتمركزة حول الأنثى لقضايا عديدة .

وقد بدأت شهرتها كروائية بعد أن نشرت رواية **الخوف من الطيران** التي تصف فيها تجربتها في البحث عن الذات وتحلِّل المشكلات النفسية والجنسية لبطلة الرواية إيزادورا ونج التي تشبه في جوانب كثيرة منها الخلفية الفكرية والتربية اليهودية لإريكا يونج نفسها .

كذلك ضمَّنت الكتاب فصلاً عن حياتها في ألمانيا وأثر ذلك في وعيها اليهودي . وقد أدَّت الصراحة الجنسية للرواية إلى إثارة الكثير من الجدل . وفي عام ١٩٧٧ ، نشرت روايتها الثانية **كيف تنقذين**

حياتك ، وهي تُعد تكملة للرواية السابقة ، وتعرض لتجربة إيزادورا مع الشهرة والطلاق والعلاقات الجديدة .

ثم صدر لها عام ١٩٨٠ **فاني : التاريخ الحقيقي لمغامرات فاني هاكابوت جونز** وقد وُصفت بأنها رواية مغامرات من القرن الثامن عشر وتصف المغامرات الجنسية لامرأة في القرن الثامن عشر . وقد نشرت إريكا يونغ أيضاً ديواني شعر **جلود الحي** (١٩٧٥) ، و **على حافة الجسد** (١٩٧٩) . ونشرت رواية **مغامرات وقبل** (١٩٨٤) ، **وسيرتيسيما : رواية من البندقية** (١٩٨٧) ، وهما تتسمان بالانفتاحية الجنسية نفسها . ولا تتمتع يونغ بمكانة أدبية عالية ، فهي من كتّاب الدرجة الثانية ، أو الكتّاب الشعبيين ، وتعود شهرتها إلى أدبها المكشوف ، وإن كانت تحاول أن تمزج بين موضوع الهوية الأنثوية المنفصلة والهوية اليهودية المنفصلة حيث ترى أن اليهودي (الواعي بذاته) والأنثى (الواعية بذاتها) هما الشيء نفسه تقريباً ، ومن ثم فإن تجربتها كأنثى يهودية في ألمانيا تجربة ذات دلالة خاصة .

الشذوذ الجنسي

Homosexuality

يُحرِّم العهد القديم العلاقة الجنسمثلية أو الشذوذ الجنسي بين الذكور ، وتبلغ عقوبة هذه الجريمة حد الإعدام . أما التلمود ، فهو يُحرِّم العلاقة الجنسمثلية بين كل من الذكور والإناث . ولا يوجد وصف تفصيلي لحوادث جنسمثلية في العهد القديم إلا في حادثة لوط (تكوين ١٩/ ٥) ، وفي قصة بنو بليعال من بنيامين (قضاة ١٩/ ٢٠) .

ويبدو أن سلوك أعضاء الجماعات اليهودية عبر التاريخ البشري كان يتسم بالإحجام عن الشذوذ الجنسي . ولذا ، فإننا نجد أن التلمود لا يشغل باله كثيراً بالعلاقات الجنسية الشاذة ، بل إن الشولحان عاروخ ، وهو تلخيص للقوانين التلمودية ، يهمل ذكرها باعتبار أنها أمر مفروغ منه . ومما يجدر ذكره أن المواجهة بين اليهودية والهيلينية في القرون الأخيرة قبل الميلاد ، التي تزامنت مع تأغرق أعداد كبيرة من أعضاء النخبة اليهودية في مصر وفلسطين ، ورغم القبول الواضح في التراث الهيليني للشذوذ الجنسي ، فإن أعضاء الجماعات اليهودية لم ينغمسوا في مثل هذه الممارسة . ويبدو أن بعض الأدباء السفارد ، متأثرين بتقاليد الشعر العربي والتغزل بالغلمان ، كتبوا عن حب أفراد من الجنس نفسه . بل يبدو أن الممارسات الجنسية الشاذة كانت منتشرة بين السفارد قبل وبعد الطرد من إسبانيا حتى أن كلمتي «يهودي» و«شاذ جنسياً» كانتا مترادفتين في شبه جزيرة أيبريا . كما أن التراث القبّالي يرى أن كلاً من الإله والإنسان (قبل تَبعثُر الشرارات) مكوّنان من عناصر ذكورة وأنوثة مختلطة ، وفي هذا تعبير عن الواحدية الكونية الحلولية ورفض للثنائيات .

وقد تغيَّر الوضع تماماً في العصر الحديث مع تصاعد معدلات العلمنة بين أعضاء الجماعات اليهودية ، فرئيس أول جماعة عالمية للشواذ جنسياً من الذكور هو ماجنوس هيرشفيلد (١٨٦٨ ـ ١٩٣٥)، ومساعده كورت هيلر (١٨٨٥ ـ ١٩٧٢) ، وكلاهما كان ألمانياً يهودياً (بل كان هيلر يزعم أنه من نسل الحاخام هليل) . وكان هيلر هو أول من طالب باعتبار الشواذ جنسياً أقلية لابد من حماية حقوقها . ويُلاحَظ اهتمام علماء النفس اليهود بموضوع الشذوذ الجنسي . ومن المعروف أن فرويد ينسب لكل البشر ازدواجية جنسية أو جنسمثلية كامنة .

ولكن حتى لا تُفسَّر هذه المعلومات تفسيراً عنصرياً يبسط الأمور تبسيطاً مخلاً يجعل اليهود مسئولين عن الشذوذ الجنسي ، لابد أن نشير إلى أن قبول الشذوذ الجنسي بشكل متزايد وتطبيعه إحدى سمات المجتمعات العلمانية المتقدمة ، كما أنه نتيجة حتمية لغياب اليقين المعرفي والمطلقية الأخلاقية وغياب المركز وتعاظم أهمية الهامش وإنكار أي مفهوم للطبيعة البشرية ومن ثم أية معيارية . وإذا كان هناك وجود ملحوظ لليهود في الحركات الداعية لتطبيع الشذوذ الجنسي ، فهذا أمر نابع من أن أعضاء الأقليات (الذين يوجدون في الهامش) ، وخصوصاً أولئك الذين يتحولون إلى جماعات وظيفية لديهم استعداد أكبر من استعداد أعضاء الأغلبية لارتياد آفاق جديدة سواء في عالم الاستثمار أو في عالم الأفكار والسلوك . ومهما يكن الأمر ، فإن حركة الشذوذ الجنسي في العالم الغربي حقَّقت تقدماً ملحوظاً حتى أن قوانين معظم بلاد أوربا قد تغيَّرت ، فهي تسمح بالعلاقات الجنسية الشاذة الخاصة بين بالغين يدركون ما يفعلونه ويقبلونه ، وبدأت تَصدُر تشريعات تعترف بعلاقة الشواذ جنسياً كزواج شرعي يعطي لطرفيه حقوق المتزوجين كافة من معاش حكومي إلى علاوات إضافية بل وحق تبنِّي الأطفال ! كما أن كثيراً من الكنائس المسيحية أصبحت تقبل العلاقة الشاذة جنسياً بل وتُؤسَّس الآن كنائس للشواذ جنسياً ، ويُرسَّم الشواذ جنسياً قساوسة ووعاظاً . وقد بدأت المؤسسات الدينية اليهودية تلحق بالركب . فاليهودية الإصلاحية والمحافظة لا تُحرِّمان الآن الشذوذ الجنسي وقد أُسِّست أيضاً معابد يهودية للشواذ جنسياً ، ورُسِّم حاخامات شواذ جنسياً من الجنسين . وهذا دليل آخر على أن الجماعات

اليهودية هي ، في نهاية الأمر ، ثمرة التغيرات الحضارية والاجتماعية التي تقع للمجتمعات التي يعيشون في كنفها ، ومن السخف بمكان التحدث هنا عن «تاريخ يهودي مستقل» أو عن مسئولية اليهود عن الشر .

ونحن نتوقع أن تتطور الأمور بين الجماعات اليهودية بشكل أسرع منها بين المسيحيين ، وهذا يعود إلى تركيب اليهودية الجيولوجي التراكمي التي تحوي داخلها أشياء عديدة متناقضة . كما أن تطوُّر اليهودية وقبولها الهوية الإثنية كأساس للانتماء ، بدلاً من العقيدة الدينية ، يفتح الباب على مصراعيه لأي سلوك مهما تنافى مع القيم الأخلاقية أو الدينية ، فالهوية الإثنية لا تفرض على صاحبها أي أعباء أخلاقية . وكما جاء في إحدى الدراسات ، فإن المعابد اليهودية الخاصة بالشواذ جنسياً تكافح من أجل الحصول على الفهم والقبول من بيت إسرائيل (الشعب اليهودي) رغم أنف التحريمات الواردة في التوراة وتقاليد اليهودية الحاخامية التي استبعدتهم من الحياة الدينية للجماعة .

والقانون العثماني الذي طبقته حكومة الانتداب ، ومن بعدها الدولة الصهيونية ، يُحرِّم العلاقات الجنسية الشاذة . ومع هذا ، كانت السلطات التنفيذية الصهيونية تنظر للممارسات الشاذة بكثير من التسامح ، ولذا لم يُقدَّم أحد قط للمحاكمة بتهمة الممارسة الجنسية الشاذة . وفي عام ١٩٨٨ ، أصدر الكنيست قانوناً بإلغاء القانون الذي يُجرِّم العلاقات الجنسية الشاذة (رغم معارضة اليهود الأرثوذكس) . ولا يُعفَى الشواذ جنسياً من الخدمة العسكرية ، ويكتفَى بنقلهم إلى مواقع غير مهمة من الناحية الأمنية . وتوجد في إسرائيل جماعة تُسمَّى جماعة الدفاع عن الحقوق الشخصية أُسِّست عام ١٩٧٥ . وبعد عام ١٩٨٨ ، ظهرت مجلات للشواذ جنسياً في إسرائيل باللغتين العبرية والإنجليزية . وفي يونيه ١٩٩١ ، عُقد في تل أبيب المؤتمر الدولي الثالث للشواذ جنسياً من الذكور والإناث والمخنثين (أي الذين يحوون عناصر ذكورة وأنوثة) . وهناك اتجاه الآن في إسرائيل نحو منح المزيد من الحريات للشواذ جنسياً . وقد صرحت يائيل ديان ، ابنة موشيه ديان ، بأن العلاقة بين الملك داود ويوناثان هي علاقة شاذة جنسياً ، كما عُرضت مسرحية في إسرائيل تتناول سيرة داود الملك بالطريقة نفسها وهناك العديد من الأفلام والأعمال الفنية التي تتعامل مع هذا الموضوع .

يهودية الطعام

Culinary Judaism

«يهودية الطعام» عبارة نستخدمها في هذه الموسوعة لنشير إلى ما يُسمَّى بالإنجليزية «كيوليناري جودايزم culinary Judaism» وترجمتها الحرفية «اليهودية الطهوية» أو «يهودية الطبيخ» . والواقع أن «يهودية الطعام» هي شكل من أشكال اليهودية الإثنية أو الإثنية اليهودية ، إذ أن بعض أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة تنحصر يهوديتهم (كعقيدة وانتماء) في نوع الطعام الذي يأكلونه وفي طريقة طهوه . وما يُطلقون عليه اصطلاح «طعام يهودي» هو في العادة من أصل شرق أوربي يديشي (مثل البيجل والجيلت ، والسمك المملح) . كما قد يُراعى بعض قوانين الطعام الشرعي (لا كلها) في بعض المناسبات وحسب (وليس طوال العام) . واليهودي الأمريكي ، وهو عادةً من اليهود الجدد ، يحرص على تناول مثل هذا الطعام وعلى اتِّباع مثل هذه القواعد ويتصور أنه يؤكد انتماءه اليهودي بهذا الشكل ، وأنه قد تَوحَّد مع الشعب اليهودي والأسلاف والأجداد . وهذا شيء مضحك تماماً ، فتناول أنواع من الأطعمة لا يعدو أن يكون مجرد تناول لأنواع من الأطعمة ، وهو أمر لا علاقة له بأي نسق ديني أو أخلاقي ولا علاقة له بالهوية الإثنية إن تم تعريفها بشكل مركب وشامل .

ويهودية الطعام تعبير آخر عن علمنة النسق الديني اليهودي وعن تحوُّل اليهودية من عقيدة يلتزم بها اليهودي ويخضع لقواعدها إلى مجموعة من الممارسات التي تهدف إلى تحقيق الهوية وإشباع الذات وتحقيق المتعة !

ألعاب التوراة (توراه إيروبكس)

Tora Aerobics

«توراه إيروبيكس» عبارة إنجليزية تعني ممارسة التمرينات الرياضية المعروفة بالإيروبيكس بمصاحبة التوراة . ولذا أطلقنا عليها مصطلح «ألعاب التوراة» . وألعاب التوراة إحدى البدع الجديدة التي ظهرت في الولايات المتحدة ، وصاحبها حاخام إصلاحي في لونج أيلاند ، قرَّر أن يقوم بدراسة نصوص التوراة وتلاوتها وذلك بمصاحبة التمرينات الرياضية المعروفة بالإيروبيكس ضمن الاحتفالات التقليدية المصاحبة لعيد التصيب . وفي الواقع ، فإن عدم احتجاج أيٍّ من المؤسسات الدينية اليهودية الإصلاحية المسئولة على هذه البدعة الجديدة تبيِّن أن اليهودية نفسها بدأت تتحول من الداخل إلى إحدى العبادات الجديدة التي فقدت الصلة تماماً باليهودية الحاخامية ، وخصوصاً بعد السماح للشواذ جنسياً بالانضمام إلى

الأبرشيات الإصلاحية المختلفة ، بل وبعد السماح لهم بأن يُرسَّم منهم حاخامات أيضاً . وهذا أمر مُتوقَّع تماماً في مرحلة الحلولية بدون إله ، إذ يصبح الجسد (بالنسبة إلى يهود الولايات المتحدة المبتعدين عن الأرض المقدَّسة) الكيان المقدَّس الأساسي الذي يشكل العابد والمعبود والمعبد . وألعاب التوراة مثل جيد على علمنة النسق الديني من الداخل ، بحيث لا يبقى فيه من الخارج سوى القشرة والمحارة . فألعاب التوراة تعبير عن أخلاقيات اللذة والمتعة حيث يصبح الهدف من الحياة تحقيق الذات وإمتاعها والتعبير عن مبدأ اللذة خارج أية حدود أو قيود . وغني عن القول أن مثل هذه الأخلاقيات يقف على طرف النقيض من الموقف الديني الذي يَصدُر عن الاعتراف بأن الإنسان له حدود وبأن الهدف من وجود الإنسان في الأرض ليس إمتاع الذات وإنما تحقيق مثاليات أخلاقية تستند إلى أمر إلهي .

والله أعلم .



مطابع الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - ت ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت ص.ب. ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)